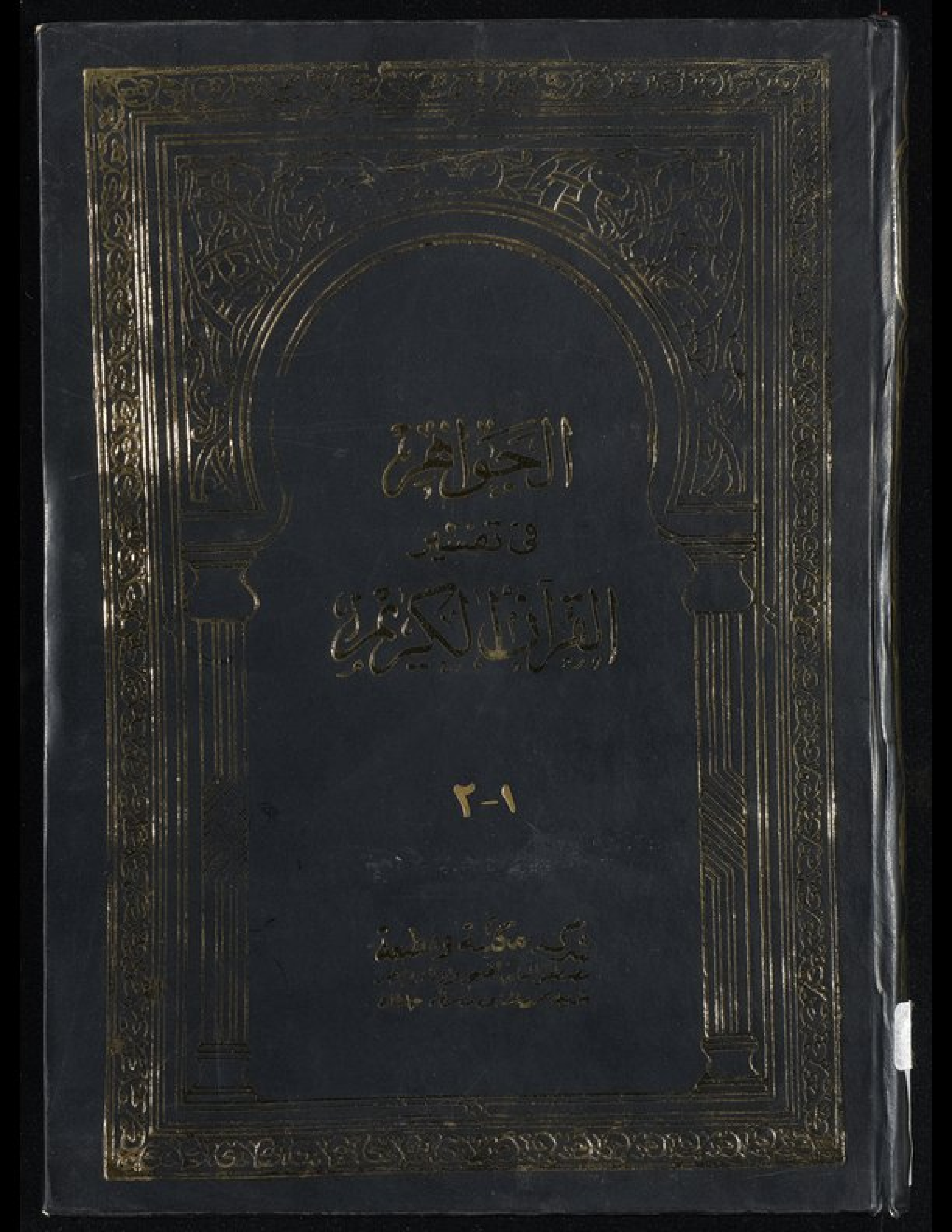
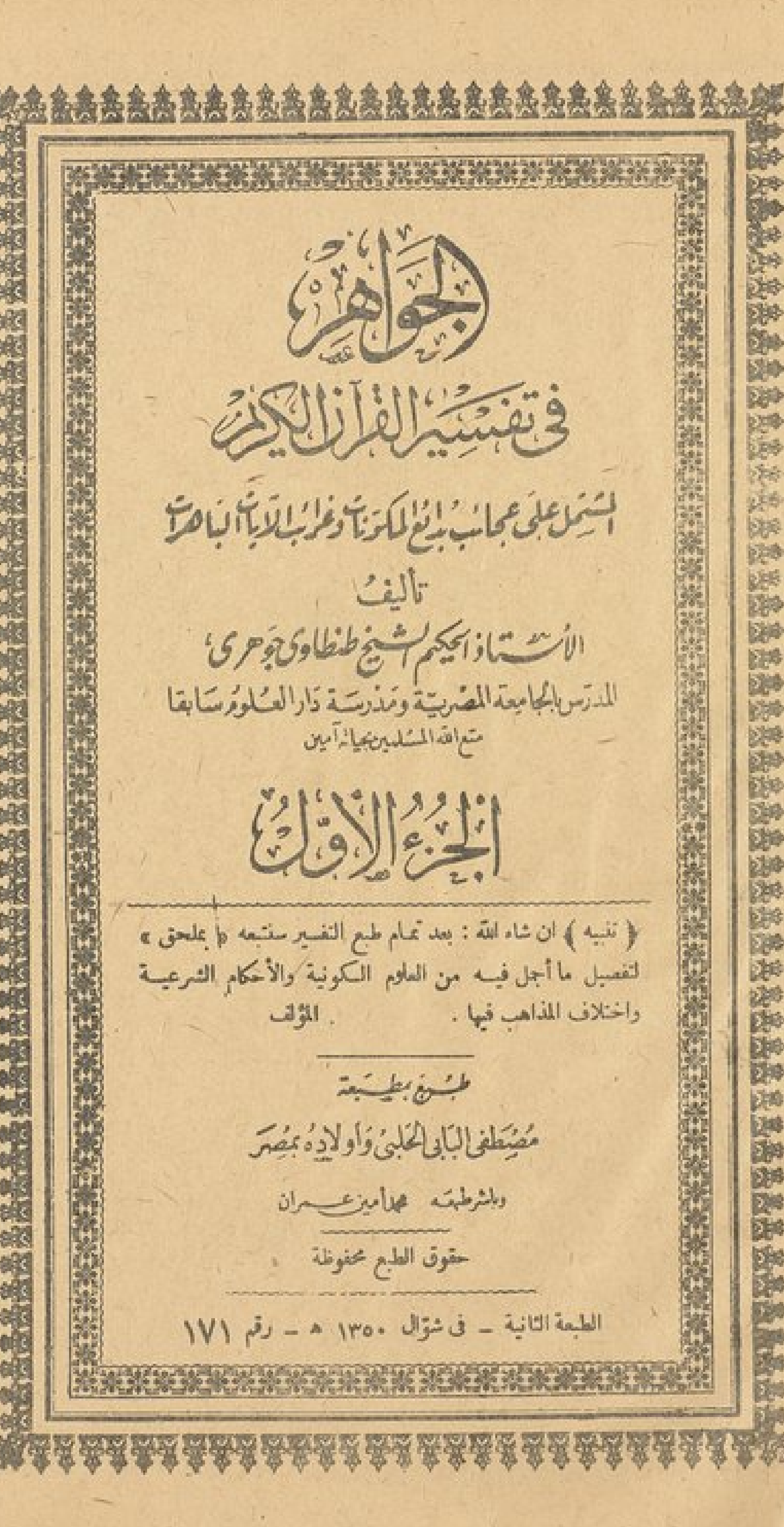

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
١-٢
شركة مكتبة ومطبعة



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الأول

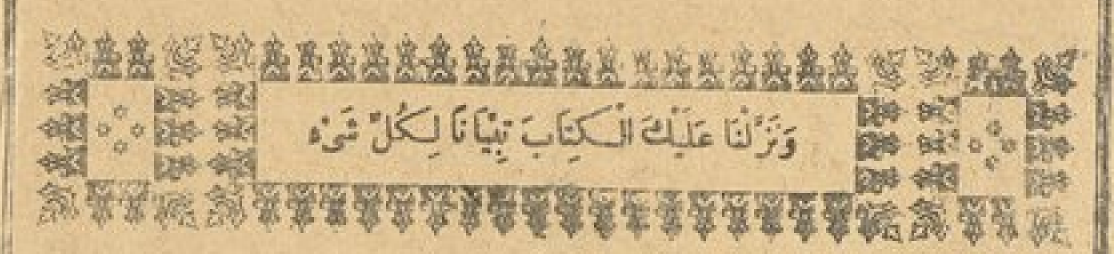
(تنبيه) ان شاء الله : بعد تمام طبع التفسير سنتبعه « بملحق » لتفصيل ما أجمل فيه من العلوم الكونية والأحكام الشرعية واختلاف المذاهب فيها . المؤلف

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وملتزم طبعه محمد أمين عمران

الطبعة الثانية – في شوال ١٣٥٠ هـ – رقم ١٧١





الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

(أما بعد) فانى خلقت مغرما بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقا إلى ما فى السماء من جمال ، وما فى الأرض من بهاء وكمال ، آيات بينات ، وغرائب باهرات ، شمس تدور ، وبدر يسير ، ونجم يضىء ، وسحاب يذهب ويجىء ، وبرق يأتلق ، وكهرباء تخترق ، ومعدن بهى ، ونبات سنى ، وطير يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسرى ، وحيوان يجرى ، ومرجان ودر ، وموج يمر ، وضياء فى مخارق الأجواء ، وليل داج ، وسراج وهاج ، وكتاب من العجائب مسطور ، فى لوح الطبيعة منشور ، وسقف مرفوع ؛ إن فى ذلك لبهجة لذوى البصائر ، ونورا وتبصرة لصادق السرائر .

ثم إنى لما تأملت الأمة الاسلامية ، وتعاليمها الدينية ، ألفيت أكثر العقلاء ، وبعض أجلة العلماء ، عن تلك المعانى معرضين ، وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم ، وما أودع فيها من الغرائب .

فأخذت أؤلف كتبا لذلك شتى ، كنظام العالم والأمم ، وجواهر العلوم ، والتاج المرصع ، وجمال العالم ، والنظام والاسلام ، ونهضة الأمة وحياتها ، وغير ذلك من الرسائل والكتب . ومزجت فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعلت آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وتقبلها أجلة العلماء قبولا حسنا ، وترجم منها الكثير الى اللغة الهندية المسماة بالأوردية ، والى لغة القازان بالبلاد الروسية ، والى لغة جاوه فى الأوقيانوسية ، ولكن كل ذلك لم يشف منى الغليل ، ولم يهد على غناته من دليل ، فتوجهت إلى ذى العزة والجلال ، أن يوفقنى أن أفسر القرآن ، وأجعل هذه العلوم فى خلاله ؛ وأتفيأ فى بساتين الوحى وظلاله ، ولكم طلبت منه جل جلاله بالدعوات فى الخلوات ، وابتهلت اليه وهو المجيب ، فاستجاب الدعاء .

وكان ابتداء التفسير : إذ كنت مدرسا بمدرسة دار العلوم ، فكنت ألقى بعض آيات على طلبتها ، وبعضها كان يكتب فى مجلة الملاجئ العباسية ، وها أنا ذا اليوم أولى التفسير مستعينا باللطيف الخبير ، مؤملا بما وقر فى النفس ، أن يشرح الله به قلوبا ، ويهدى به أمما ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين علماء المسلمين ، فيفهموا العلوم الكونية ، وإنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، وينسج على منواله هذا التفسير المسلمون ، وليقرأن فى مشارق الأرض ومغاربها مقرونا بالقبول ، وليولعن بالعجائب السماوية ، والبدائع الأرضية : الشبان الموحدون ، وليرفعن الله مدنيتهم الى العلا ، وليكونن هذا الكتاب داعيا حثيثا الى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة ، فى الزراعة ، والطب ، والمعادن والحساب ، والهندسة ، والفلك ، وغيرها من العلوم والصناعات ؟ كيف لا ، وفى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فأما علم الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية .

ولقد وضعت فى هذا التفسير ما يحتاجه المسلم : من الأحكام والأخلاق ، وعجائب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق : مما يشوق المسلمين والمسلمات ، الى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات : فى الحيوان والنبات والأرض والسموات « ولتعلمن » أيها الفطن : أن هذا التفسير نفحة ربانية ، وإشارة قدسية ، وبشارة رمزية ، أمرت به بطريق الالهام ، وأيقنت أن له شأنا سيعرفه الخلق ، وسيكون من أهم أسباب رقى المستضعفين فى الأرض « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » ، وهذا أوان أن أشرع فى المقصود ، فأقول وبالله التوفيق ،

سورة الفاتحة

وبيان آيات العلوم والأخلاق فيها

وهى مكية ، وآياتها سبع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ * آمين

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأبى ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها ؟ قلت بلى يارسول الله ، قال فاتحة الكتاب ، انها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته » نزلت هذه السورة لتعليم العباد : كيف يتبركون باسم الله عز وجل فى سائر أحوالهم ، وكيف يحمدونه ويستعينون به ؟ فيبتدئ القارئ قائلا : أقرأ متبركا باسم الله الرحمن المنعم بجلائل النعم : كالسموات والأرض والصحة والعقل الرحيم المنعم بدقائقها ، كسواد العين ، وتلاصق شعرات أهدابها المانعات من دخول الغبار المؤذى لها ، مع أن النور يلمع من خلالها ، وينقل صور المرئيات الى حدقتها

فشبكيتها ، فالسماغ ، فهذه الدقة فى الصنع والحكمة فى الوضع التى أتاحت لضوء الشمس والكواكب مثلا أن يلج ومنعت الغبار أن يدخل يعبر عنها بلفظ الرحيم تتمها للنعمة ، وتكميلا للهناء والسعادة .

ولما كان أكثر الناس لايلحظون العجائب الكامنة فيهم ، ولايعرف نفسه إلا قليل منهم ، وهم أكابر الحكماء والأولياء ، وجب أن أبين فى هذا المقام بعض رحمة الله عزّ وجلّ فى العالم المشاهد : فمنها ما أشار اليه (العلامة الأستاذ ميلن ادوارد : أن حيوانا يسمى أكسيلوكوب) يعيش منفردا فى فصل الربيع ، ومتى باض مات حالا ، فمن رحمة الله وجميل صنعه ، ورأفته بالخلق أن ألهم هذا الحيوان أن يبنى بيتا قبل أن يبيض على منوال ما كانت تفعله علا من اتخاذ البيوت بالحفر ، ولكن هـذا فى خشب ، وأولئك فى صخر ، فيعمد ذلك الحيوان القطعة من الخشب ، فيحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضة ، ثم يأتى بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ، ويجعل منها سقفا لذلك السرداب ، والحكمة فى ذلك : أن هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة ، وهى المدّة التى لا تستطيع تلك الدودة أن تحصل فيها قوتها ، ومتى أتم الحيوان ذلك صنع سردابا آخر فوقه على هذا المنوال ، وهكذا يصنع جملة أدوار ، فانظر كيف شملت الرحمة ما خلق ومالم يخلق ، فان ذلك الطعام المخزون فى السرداب رحمة ألهمها ذلك الحيوان من الحشرات لولده الذى سيخلق .

﴿ ومن هذه العجائب ﴾ ماشاهده العلماء الباحثون فى أمر النحل والنمل والعنكبوت ﴿ فأما النحل ﴾ فتعجب كيف جعل الرحمن الرحيم له سبلا مذللة ، فانه متى فتح زهرة أوّل النهار ليمتصّ رحيقها المختوم ويرجع به الى الخلية فيضعه فيها ، يلهم أن لا يفتح زهرة فى ذلك اليوم ، الا ما كان من جنس تلك الزهرة رحمة النحل ورحمة الناس ، أما رحمة النحل ، فانه لا يعوزه أن يحتال فى فتح زهرات أخرى من نوع آخر ، فيطول عناؤه ، وأما رحمة الناس : فان مايعلق برجلى النحلة من حبوب طلع الذكور من النبات ، اذا وصل الى زهرة أنثى علق بها من ذلك الطلع بعضه ، فأثمر ذلك النبات لحصول الالقاح بهذه الرحمة العجيبة .

﴿ وأما النمل ﴾ فمن عجائب الرحمة الخاصة به : أن الله خلق له حشرة تسمى (افس) باللسان الافرنجى ، يحاربها النمل ويغلبها ، ومتى غلبها أخذ يستولدها ويربيها ويسيمها فى ورق الورد ، ومتى أكلت وشبعت أقبل النمل عليها وامتصّ منها مادة حلوة . فكأنه بقر له يشرب لبنه .

﴿ وأما العنكبوت ﴾ فانها ألهمت النسج البديع بهندسة فاقت هندسة الانسان ، وعلل ذلك العلماء بقولهم : إنّ هندسته إلهية ، وهندسة الانسان بتعليم البشر ، فلذلك يغلط الانسان ، ولا يغلط العنكبوت فى الهندسة . ولما كان بيت العنكبوت أضعف بيت ألهمها الله أن تبحث عن صمغ وغراء من أماكنها وأشجارها وتلطخ بها خيوطها التى نسجتها فتكسبها لزوجة ، فلذلك لاتمزقها الرياح اذا فاجأتها ، ولا الأعاصير اذا ساورتها ، واذا مرّ بها الذباب التقطته بمادّتها اللزجة .

فانظر إلى آثار رحمة الله : كيف كانت المادّة الصمغية صائنة بيت العنكبوت الضعيف من التمزيق اذا هبت الزعازع ، واهتاجت الأعاصير مع أنها قد تقتلع الأشجار وتخرب المساكن ، ثم تكون شبكة صائد وحيلة محتال ، هذه هى الرحمة والحكمة .(١)

وهكذا ألهم الله الأنبياء وأوحى اليهم أن يعلموا العباد كيف يتبرّكون باسم الله فى أوّل أعمالهم كالقراءة والأكل ذاكرين ربهم ورحمته الواسعة التى عمت سائر العوالم ، فيمتلئ قلب العبد ايمانا بالرحمة ، واستبشارا بالنعمة ، وفرحا برحمة الرحمن الرحيم .

---

(١) سترى عجائب وصورا شتى فى سورة النحل والنمل والعنكبوت

فاذا

فاذا ابتدأ القارئ بالتسمية ، وامتلأ قلبه بتلك الرحمة ، فلا جرم ينطلق لسانه بالحمد ، بعد أن أفعم قلبه بالاجلال ، فيقول : الحمد لله ، يقول القارئ ها أنا ذا عرفت رحمة الله سارية فى سائر العوالم ، ولقد علمت أن كل من أنعم عليه بنعمة يشكر مسديها ، فالولد يشكر أبويه على التربية ، والضعيف الذليل يشكر القادر الشجاع الذى أنقذه من الذلة ، والمتعلم يشكر العالم الذى أسبغ عليه نعمة العلم .

إن الأمم كالأفراد ، فانا نرى كل أمة تمجد وتمدح وتحمد رجالها الذين أفادوها ورقوا صناعتها وتجارتها وثروتها فى التاريخ والمجامع ، وهكذا شجعانها الجحاجيح ، وأبطالها المقاديم ، وكذا أنبياؤها وحكماؤها الذين أضاءوها بنعمة العلم والدين .

فهذه نعم واصلة من المحسنين والشجعان والعلماء الى الأمم فاستحقوا بذلك الشكر ، ولاجرم أن الشكر يكون بالقلب ثم الجوارح ، وأهمها اللسان ، فينطق بالحمد : وهو الثناء بالجميل لأجل النعمة الواصلة بالاختيار من المنعمين .

يجيش فى نفس القارئ تلك الرحمات العامة ، فيشكر مسديها بقلبه وجوارحه ، وهى قسمان : رحمات واصلة على أيدى الناس : كالوالدين والشجعان والعلماء والأنبياء والمحسنين ، ورحمة واصلة من غيرهم ، كاشراق الشمس ، ونعمة السحاب ، وجريان الماء ، وعجائب النبات ، وجمال الطبيعة ، وبهاء النجوم ، وهذه النعم والرحمات بقسميها ، ليس لها مصدر إلا الله ، ولا جرم أن الحمد والثناء انما يكون للمحسن الحقيقى «فالحمد إذن إنما يكون له سبحانه» فاذا مدحنا الوالدين ، وحمدنا الشجعان ، وشكرنا العلماء والأنبياء ، فالحمد والمدح والشكر لله لأنه مولى هذه الرحمة ، واذا تمتعنا بنعمة السحاب ، والمطر ، وماء الأنهار ، ومعادن الجبال ، ونور الشمس ، فالحمد والشكر لمسديها : وهو الله ، فكأن القارئ يقول : ها أنا ذا عرفت أن الرحمة الواصلة للعباد مرجعها الله ، فليكن كل حمد صادر من الألسنة راجعا لله عز وجل ، لأنه هو المختص بالرحمة التى كانت سببا فى الثناء .

نسخ العادات العربية الجاهلية

من مدح المحسنين والملوك ، واختصاص الحمد والعبادة بالله إطلاقا للحرية والمساواة

لعلم أن العرب كان من عادتهم أن ينصتوا للشعراء ، ويسمعوا المدائح ، ويصغوا لمن هم فى كل واد يهيمون الذين يقولون مالايفعلون ، وما كان أكبر سلطان الشعر عليهم وما أقساه وأقواه ، وأملكه لقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ومشاعرهم ، ولقد كان الشاعر يقول البيت من الشعر مدحا فيرفع القبيلة الوضيعة المنزلة ، ويشيد بذكرها ، ويقول بيتا ذما ، فيضع القبيلة الرفيعة ويميت ذكرها ، فمن الأول ماقاله الشاعر فى بنى أنف الناقة ،

قَوْمٌ هُمُ الأَنْفُ وَالأَذْنَابُ غَيْرُهُمُ * وَمَنْ يُسَوِّى بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَا

ومن الثانى قول جرير :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ * فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ وَلاَ كِلاَبَا

ولقد كان ذكر بنى أنف الناقة مما يعير به ، فلما قيل هذا البيت رفعوا رؤوسهم وتخروا بلقبهم وشرفوا بنسبهم ، وكان الرجل منهم إذا سئل يقول : أنا من بنى أنف الناقة ويعلى صوته عجبا وتيها وافتخارا ، وكذلك بنو نمير كانوا قبل هذا البيت يتكبرون ويفخرون بنسبهم ، فلما أن شاع البيت طأطأوا رؤوسهم وغضوا من صوتهم ، وانخذلوا أمام عدوهم ، وصغروا فى المحافل ، ولقد كانت هذه حال العرب كما ترى فى شعر حسان مادح

ملوك الغسانيين ، وزهير بن أبى سلمى مادح هرم بن سنان ، والنابغة الذبيانى مادح النعمان وغيرهم ، فترى النابغة يقول فى النعمان :

كَأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ * إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

ويقول أيضا

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ

ويقول أيضا

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِى هُوَ مُدْرِكِى * وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

ويقول زهير فى هرم

قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ فِى هَرِمٍ * وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا

وقال فى قومه أيضا

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ * وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّىَّ إِلَّا وَشِيجُهُ * وَهَلْ تَنْبُتُ إِلَّا فِى مَغَارِسِهَا النَّخْلُ

يريد أن الفقراء منهم كرماء ، والأغنياء يعطون مايسألون ، ثم يقول وهل الرماح الخطية التى تجلب من الخط ، وهو موضع بيلاد البحرين كانت تردله الرماح تنبت إلا فى شجرها ، وهل النخل ينبت إلا فى منابته .

هذا قل من كثر ، ومثل من عادات العرب فى الجاهلية ، فكانت المحامد من الشعراء تلقى إلى الملوك ، وكانت أنظارهم قاصرة على رؤسائهم ، فلما جاء القرآن فاجأهم بقوله : لاتحمدوا الملوك والمحسنين ولكن احمدوا الله ، كما قال الأعشى فى قصيدته :

وَصَلِّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى * وَلَا تَحْمَدِ الْمُثْرِينَ وَاللهَ فَاحْمَدَا

أمر العرب أن يولوا وجوههم قبل الله وأن يعتوا عن المداع الملكية ولفوى الشرف إطلاقا لنفوسهم من الأسر ، ولعقولهم من الغفلة ، وتعويدا لهم على الحرية العقلية ، وأن ينسوا الاحسان القليل الصادر من المخلوق الضعيف ، وأن يطلبوا الخير والمعروف عند الله الذى هو المربى لجميع المعللين من الملوك والمثرين وغيرهم فاذا فعلوا ذلك أصبحوا سادة العالم ، لأنهم بنظرهم فى العوالم ، وبحثهم فى نظامها وعجائبها ، وما أودع فيها من حكمة وغنى وشرف ، ينالون الخير من المربى العظيم والخالق الحكيم بجدهم واجتهادهم ، لا بالاستجداء من الملوك ولا بالتوسل للمحسنين ، ولقد حقق الله بعض ماذكرناه ألاترى أنهم فتحوا الأمم شرقا وغربا باتحادهم ونالوا من الخيرات فوق مايبتغون ، وفى هذه السورة أمر الله المسلمين أن يخصوا الله بالحمد وبالعبادة كما جاء فى سورة البقرة اذ أمرهم أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو أشد ذكرا اذا قضوا مناسكهم : اذ قال «فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا» فرجع الأمر الى توجيه العبادة والحمد والذكر لله وتحريم عبادة المخلوق والخضوع فتتوفر الهمم على الأعمال العظيمة : ألاترى ماقاله النعمان بن مقرن الى يزدجرد ملك الفرس أيام حرب القادسية فى زمن عمر رضى الله عنه (ان نبينا صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نبتدئ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الانصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه الجزية فان أبيتم فالمناجزة الخ)

وتأمل قول زهرة لرستم قائد جيش الفرس إذذاك (انا لم نأتكم لطلب الدنيا إنما طلبنا وهمنا الآخرة) فقال له رستم : مادين الاسلام ؟ (قال أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) قال وأى شيء أيضا ؟ قال (إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله ، والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم) قال ما أحسن هذا ، ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك ، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلا آخر يكلمهم ، فأرسل ربعى ابن عامر ، فلما وصل إلى رستم داس بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحرير ، وامتنع أن ينزع سلاحه ، وأخذ يمزق الوسائد والبسط ، ثم ركز رمحه على البسط ، ومما قاله (قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الاسلام الخ) فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه . وقال لهم هل رأيتم كلاما أعز وأوضح من هذا ؟ فقالوا معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب . ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة ، فجلس مع رستم على سريره ، فأنزلوه ، فقال (ما أرى قوما أسفه أحلاما منكم ! امعشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضا . وانى رأيت أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم) اه

ألست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب مع ماذكرناه فى فاتحة الكتاب ، وأن العبادة والحمد مختصان بالله عز وجل ، وأنه هو الذى يطلب منه الاعانة والهداية إلى الصراط السوى ، أولا ترى أن الاسلام كان له فى الصدر الأول معنى غير الذى يفهم المسلمون الآن ، وأن الأمة الاسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا فى القرون الأولى ، والا فكيف تسمع منهم العدل والمساواة ، وأن لا يستعبد بعضهم بعضا . وأنهم خلفاء الله فى أرضه ليعطوا عباده الحرية : فالاسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل ، فأما الآن فانه مجرد ظواهر وأعمال لا تصل إلى أعماق القلوب ، فلذلك انحطت الأمة الاسلامية اليوم ، وقد آن أن ترجع الى عزها القديم ومجدها العظيم .

الشريعة الاسلامية والنظر فى الآفاق وفى الأنفس

قد تبين لك بما ذكرناه أن الحمد والعبادة مختصان بالله ، والقرآن طافح بهذه المعانى ، وقد ظهرت آثاره فى أقوال السلف الصالح كما رأيت : وهكذا كانت أفعالهم وبالشريعة من الحدود والأحكام والبيع والقرض والميراث وأحكام القضاء (التى تقوم مقام الجنايات والجنح والمخالفات بل هى أفضل منها) فى كتب الفقه ، حكموا الأمم وعدلوا ، فلكوا شرقا وغربا بهذا كله بالشريعة ، وهى الأحكام الشرعية المعروفة التى تدرس فى بلاد الاسلام وآياتها محدودات ، فأما آيات العلوم الكونية ، فانها تبلغ نحو ٧٥٠ آية كلها فى عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه ، والذى أراه أن المسلمين فى مستقبل الزمان سيقرءون هذه الآيات ويعرفون هذه العجائب ، وكما أن الذين قبلنا درسوا الشريعة وأحكموها وحكموا الأمم بها ، ثم دالت دولتهم ، فهكذا سيكون فى هذه الأمة من يرون الكون خلق الله وآياته وعجائبه وحكمه ، وقد ذكرها الله فى كتابه أكثر مما ذكر من الأحكام الشرعية ، والعناية الالهية توجهت اليها أكثر من توجهها إلى أحكام الفقه ، فيدرسون علوم الهيئة ، والفلك ، والحساب ، والهندسة ، وعلم المعدن ، والنبات ، والحيوان ، وسائر علوم هذه الدنيا ، ويرون أن ذلك من الدين ، فيكون علم الدين على قسمين حينئذ : العلم الأول علم الآفاق والأنفس : أى معرفة العوالم العلوية والسفلية المشروحة فى هذا التفسير ، وعلم النفس : والعلم الثانى علم الشريعة فترى العالم الدينى شارحا النبات ، والحيوان والآخر مدير المعمل الكهربائى ، وهذا من قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد» ومن قوله هنا (الحمد لله رب العالمين) والعالم علوى وسفلى ، ولله ربهما والمسلمون خلفاؤه فى الأرض بالقضاء والعدل بين الناس ، وبالبحث ومعرفة العوالم ، فكما برع آباؤنا فى القضاء ، والحكم بين الناس فلنتم نحن

بذلك وندرس علوم العوالم كلها باعتبار أن ديننا يأمرنا به ، والا فما الفرق بين «قل أنظروا ماذا فى السموات والأرض» وبين قوله «فاستقم كما أمرت» كلاهما أمر ، والأمر للوجوب فاذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقضينا بها فلنقرأ العجائب الكونية ، ولنعمل بها فنرقى الزراعة والصناعة والتجارة .

وانى أدعو جميع أمم الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول ، والا فكيف يقول الله تعالى «ليظهره على الدين كله» وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهى أن الديانات لاتتعرض لعلوم الكائنات ، والاسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لايشاركه فيها دين من الأديان . ليعلم كل عالم أوملك أمته جميع العلوم باعتبار أنها من الاسلام كما سيظهر ان شاء الله فى هذا التفسير ، فاذا أبى المسلمون ماذكرناه فانى أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، وقد بدت بوادرها من الطيارات القاذفات على القرى ، والشيوخ ، والصبيان ، فمن تكاسل من المسلمين عن هذه العلوم فلا يلومن إلا نفسه «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له» ألا وان أرباب المذاهب من شيعة وسنية ، ومالكية ، وحنابلة ، وحنفية ، وشافعية ، وزيدية ، كان اختلافهم فى مسائل من الشريعة المطهرة ، فاذا قرءوا علوم الآفاق التى أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف فيها ، لأنها مكشوفة ظاهرة ، والله هوالذى منحهم إياها ، فليقرأ المسلمون فى الشرق والغرب جميع العلوم التى برع فيها الافرنج ، وهى علوم الأنفس والآفاق واذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم فى الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا فيه .

إلى هذا أدعو جميع المسلمين ، والله يهدى إلى سواء الصراط ، ان علماءنا السابقين شرحوا هذا فى كتبهم ودوّنوه فى دفاترهم ، ولكنّ المسلمين كانوا فى غفلة ساهين ، ليقف العالم بين الناس شارحا لهم جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب ، والمعادن ليفهم غيره ، وليكثر من هذا : أولا يرى علماء الاسلام من سنيين ، وشيعيين ، وزيديين وغيرهم ، أن علوم الخلق من العوالم العلوية والسفلية غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهى الأحكام الفقهية التى صرفوا فيها أعمارهم دواء ، وكيف يعيش الانسان الا بالغذاء؟ وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فانما نكون عند انحراف الصحة .

فيأيها المسلمون : اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أى العلوم الكونية ، والعلوم الشرعية ، وجميعها يطلبها القرآن ، وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشدّ من عنايته بالدواء فمالى أراكم عما قدمه الله معرضين ، وعلى ما أخره الله عاكفين ؟ قدّم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهداية الصراط المستقيم ، كأنه يشوقكم إلى دراسة رحماته ، ويأمركم بمعرفة كلماته الكونية ، وآياته الرحمانية ، وعجائبه الحكمية ، وبدائعه الفطرية ، وما ذرأ من البهجات ، ومازوّق من المصنوعات ، ولقد ساءنى والله ماأرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أودّ أن أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوروبا بعلم الطبيعة مغرمين ، وإلى عجائب الخليقة مسارعين ، ولكنى رأيتهم منصرفين ، إلى الوظائف الوقتية ، والأعمال الادارية ، وما رأيت أحدا منهم بالعلوم الكونية مغرما ، فتشابه فى بلادنا العلماء الدينيون ، والشبان الذين هم للكون دارسون ، فالأولون على أحكام الفقه مقتصرون ، وهؤلاء بالوظائف قانعون «كلّ حزب بما لديهم فرحون» إلا قليلا من الفريقين نالوا حظا عظيما «وقليل ماهم . وقليل من عبادى الشكور» .

فاذا تأمّل المسلمون ماذكرناه كان حدهم حقيقيا اذا عملوا بمقتضاه ، ولما كان كلّ حد لابدّ له من سبب يستوجبه ، وقد ذكرنا السبب اجماليا ، وهو الرحمة ، وكان الاجمال لايغنى عن التفصيل ذكر الله أهمّ النعم ، وهى أنه مربى العالمين ، فقال (ربّ العالمين) أى مربى العوالم كلها ومرقيها من حال النقص الى حال الكمال وغايات التمام ، فهو الذى يتعهد النبات بالتغذية ، والانماء ، وهكذا الحيوان والانسان ، وكذا العوالم

العلوية

العلوية ، وهذه هى التربية التى كان مبدؤها الرحمة ، ولأذكرن لك مسائل من التربية .

المسألة الأولى : الذرة

ان المسلمين فى أنحاء المعمورة يأكلون الذرة ويشاهدون مزارعها ، وأكثرهم يجهلون ماذبر الله عز وجل فيها ، وكيف ربى الحبة الواحدة فى (المطر) وهو المسمى (الكوز) عند العامة فى بلادنا المصرية ، وهو مجمع الحب الذى يتكوّن حوله سطورا منظمة ، لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، وفهموا كيف يربى العوالم كلها ، ان لكل عود من أعواد الذرة ذكورا فى أعلاه وإناثا فى وسطه ، أما الذكور ، فهو مايسميه العامة (الكذاب) وهو أغصان ينماه فيها طلع يخفى عن الناس ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذى هو مجمع الحب ، وله خيوط طويلات حريرية حمر أو بيض تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقبا ، لايشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود الى تلك الخيوط التى يسميها العامة فى مصر (شرابه) فيدخل ذلك الطلع فى التجويف الذى فى تلك الخيوط ، ويسرى حتى يصل إلى محل الأنثى فى (المطر) أى محل الحب فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير ، فانظر وتعجب كم فى ذلك المطر من حبة ، وكيف كان لكل حبة رسم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل فى التجويف إلى الأم فتحمل بتلك الحبة ، ولقد ذكرت هذا فى كتابى (جواهر العلوم) وأوضحته أيما إيضاح .

المسألة الثانية : حبة القمح

لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، فأرونى حبة القمح مكبرة مجسمة بشكل الكفرّى : أى الغلاف الذى فى جوفه طلع ذكور النخل ، فرأيت أن لكل حبة من حبات السنبلة ثلاثة أغشية ملتفة حولها ، وفى أعلى تلك الأغشية (السفا) جمع سفاة ، كأنها أسنة تحمل أكياسا مملوءة طلعا كطلع النخل ، أو كطلع الذرة المتقدم ، وهذه الأكياس المحمولة على تلك الأسنة تنزل ذلك الطلع على محل الأنثى ، وهى موضع تلك الحبة من السنبلة ، ومتى وقع طلع الذكور عليها حملت بتلك الحبة .

ألا فليعجب المسلمون من تربية الله رب العالمين ، وكيف كانت عنايته تامة بالحبة الواحدة من الذرة ومن القمح ، وكيف جعل لها أنثى وذكرا وألف بينهما ، وجعل الحبة نتيجة لتلك الحكمة ، وكيف يقرأ المسلمون فى صلواتهم كل آن إن الله رب العالمين ، وأكثرهم يجهلون تربيته ، انى لأعجب غاية العجب من أمة يكون مبنى عبادتها ودينها على معرفة حكمة الله وتربيته ، ثم يجىء الفرنجة فيسبقونهم بتلك المعارف الشريفة العالية .

ياأمة الاسلام كيف نقرأ فى صلاتنا إن الله رب العالمين ، ونحن نجهل تلك التربية فى صغيرات الأمور وكبيراتها ، وإذا كانت عناية الله قد بهرت وظهرت فى حبة ذرة وحبة قمح ، فكم من حبات فيهما يزدردها الانسان ، وهو أشبه بالبهائم ألا لافرق بين الانسان والحيوان إلا بهذه العلوم ، لو كان المدار على الخبز ، والماء والملابس ، والزينة ، لقال لنا الله الحمد لله الذى أرواانا ، أو الذى أشبعنا ، أو الذى ألبسنا ، أو الذى جاء لنا بولد ، أو بمال ، بل قال لنا الذى شمل العالم بالتربية ، فكأنه يراد منا أن نكون مفكرين علماء ، لاأن نأكل كما تأكل الأنعام ، ونموت كما يموت الدود ، ولو كان المراد أن نعرف الله بأنه مثيب ومعاقب على الحسنات والسيئات فقط ، لقال لنا الحمد لله رب الحسنات والسيئات : إن الله واسع الرحمة عظيم الحبة ، واسع العطايا فاقتصار الوعاظ على ذكر الثواب والعقاب قصور معيب : اللهمّ إنى أفرغت جهدى فى إيقاظ الأمة وأديت مالىّ وإنى أسألك أن تعينى على اتمام هذا التفسير إنك أنت السميع المجيب .

المسألة الثالثة : تربية الثمرة فى النخلة

ذلك أن النخلة تجذب مارقّ وراق من خلاصة العناصر الأرضية لتغذى بها أجزاؤها فيرتفع ذلك الغذاء فيغذى جذع النخلة بما غلظ منه ، وأما خلاصته فتذهب صاعدة الى الجريد فيغتذى بها ، ويبقى ماهو ألطف من تلك الخلاصة فيرتفع إلى القنوان فيغتذى القنو بتلك اللطائف ، ثم مارق وراق من ذلك يرتفع الى شماريخ التمر فتتغذى به وترتفع الخلاصة الى الثمرة فتقابلها فى أولها تلك التى على فمها المسماة بالقمع ، وذلك القمع مصفا. تصفى الغذاء وتأخذ ألطفه وتوصله الى جرم الثمرة ، وهذه الخلاصة المصفاة يؤخذ ماغلظ منها ، فيصير نواة ، وما لطف يكون جرم الثمرة الحلو اللذيذ ، ثم جعل هناك منسوج حريرى رقيق صفيق فوق النواة فاصلا بينها وبين المادة الحلوة لئلا تصل المرارة من النواة إليها فتذهب بالحلاوة ، وجعل فى شق النواة ذلك الفتيل الطويل ووظيفته إيصال الغذاء إلى سائر أجزاء الثمرة .

فتأمل كيف صفى الغذاء سبع مرات حتى وصل الى مايأكله الانسان من التمر والرطب والبسر فتصفيه الجذور فى الأرض من خلاصة العناصر ، ثم جذع النخلة ، ثم الجريد ، ثم القنو ، ثم الشماريخ ، فالمصفاة ، فالنواة ، فتعجب من تربية الله للثمرة والرطبة ، وكيف راعاها حق رعايتها حتى صارت الى ماهى عليه الآن من اللذة والمنفعة .

المسألة الرابعة : تربية الله اللؤلؤ فى البحر ، ويسمى الدرّ والجمان

وهو حيوان يعوم على وجه الماء ، ثم يهبط فى الأعماق ، وهو داخل صدف من المواد الكلسية وقاية له من الأخطار والدر يتكوّن فى لحمه . ومن عجيب صنع الله عز وجلّ أن يجعل هذا الحيوان مخالفا لما نعرفه من سائر الحيوانات : ان الحيوان يشم بأنف ويأكل ويشرب بفم ، ويتنفس بهما ، ويمنع المضار عنه بيديه وقرونه وقواه وحصونه وجيوشه . أما حيوان اللؤلؤ ، فان له شبكة دقيقة كشبكة الصياد منسوجة عجيبة النسج تكون مصفاة له ، فيدخل الى جوفه الماء والهواء ومواد الغذاء ، ويمنع الرمال وغيرها من المضار من الدخول فى جوفه ، وتحت تلك الشبكات أفواه لكل فم أربع شفاه تقبل الملائم من تلك المواد وتدفع غيره ، واللؤلؤ ينشأ من تجمع رمل أوحيوانات ضارة تدخل قسرا الصدفة ، فيفرز حيوانها مادة لزجة يغطيها بها ، ثم تجمد وتتحجر ، ومن اللؤلؤ ماهو أصغر من العدسة ، ومنه ماهو أكبر من بيضة الحمام ، وينبت فى خليج فارس وخليج المكسيك وجزيرة سيلان ، فتعجب من تربية الله لحبة الذرة وحبة القمح والتمرة والدرّة فى البحر التى تتحلى بها الحسان وتيجان الملوك ، ألا وان حليتها فى صدور الحكماء ، وعلم تربيتها فى أفئدة العلماء أبقى أثرا وأشرف ذكرا وأرفع مقاما ،

المسألة الخامسة : تربية الجنين فى بطن أمّه

ان للأجنة علما خاصا يدرس فى مدارس العالم الراقى ، وهى من التربية الالهية الداخلة فى قوله (رب العالمين) ان الحيوان المنوىّ الجارى من الحيوانات التى تعدّ بالآلاف ومئات الآلاف فى الماء المهين يسارع فى مجراه عندمصبه حتى يلاقى حيوانا من التى سارعت بجرية من ماء الأنثى فيلتقيان ويكوّنان خلية واحدة ، ثم تكبر بالانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ ٦٤ ١٢٨ وهكذا بطريق المتوالية الهندسية المحتوية على بيوت الشطرنج ذات الأسرار العجيبة فى علم الارثماطيقى ، وهكذا التكاثر المنتظم السريع بهذه المتوالية يستمر الى تسعة أشهر . ومن عجب أن هذا الانقسام العددى فى الخلايا يتبعه نظام مدهش فى الأعضاء والشرايين والأوردة والعروق والرباطات واللحم والشحم والظفر والشعر والحواس المدهشة الدقيقة الصنع ، عجب وأىّ عجب . انقسام الخلية (المكوّنة من الحيوان المذكر ومن الحيوان المؤنث) الى المضاعفات بنظام تام آلافا

مؤلفة يتبعه نظام فى الأعضاء ، فكان ظفر ومخ وماء زجاجى فى العين : ان فى ذلك لعجبا عجابا ونظاما غريبا ، حرام على المسلمين أن يجهلوا تربية الله للأجنة فى بطون أمهاتها ،

حكاية

حكى فى أيامنا هذه أن رجلا أمريكيا أراد أن يستخرج الفراخ من بيض الدجاج بدون واسطة الدجاجات وحضنها للبيض ، فخطر له أن يجعل البيض فى حرارة تضارع الحرارة التى ينالها البيض من الدجاجة الحاضنة له ، فلما جمع البيض وابتدأ العمل قال له فلاح : يا أيها السيد لابد لك أن تقلب البيض كل أربع وعشرين ساعة مرة لأنى رأيت الدجاجة تقلبه هكذا ، فسخر منه ذلك العالم ، وقال له : أيها الفلاح ان الدجاجة تقلب البيض لتعطى الجزء الأسفل منه حرارة جسمها الذى حرمته : أما نحن فحرارتنا محيطة بالبيض من جميع جهاته فأنى يستوى عملنا وعمل الدجاجة ؟ ثم استمر فى عمله ، فلما جاء دور الفقس لم تفقس بيضة واحدة ولم ينل منها فرخا ، فقال لابد أن أفعل فى المرة الثانية ما أشار به الفلاح ، ثم صار يقلبه كما لقنه الفلاح ففقس جميع البيض وخرجت منه أفراخ كثيرة ، فطار الخبر فى أنحاء المعمورة وطلب من العلماء تفسير هذه الحادثة ، وآخر ما رأوه أن قالوا : ان الفرخ حينما يخلق فى البيض إذا بقى بدون تحريك انحدرت المواد إلى الجهة السفلى من جسمه فتتمزق أوعيته ، فاذا بقيت رأسه لم تحرك مثلا تمزقت من الأسفل لكثرة المواد فى الجهة السفلية ، وهكذا بقية الأعضاء ، فهذه وأمثالها مما لايتناهى يدلنا على أننا فى حومة الجهالة فى وسط بحر لجى من الحكمة لايعرف قراره ولايدرى منتهاه .

المسئلة السادسة : تربية الولد باللبن

خلق الله اللبن فى الثدى قبل أن يولد الطفل ، وكلما كبر الجنين ازداد اللبن فى الثدى حتى إذا ما تم حمله وكانت الولادة در له لبن مناسب لسنه ، فكلما كبر سنا اقترب اللبن من طبعه وتناسب مع قوته ، حتى ان علماء الطب حرموا أن يرضع حديث الولادة من امرأة قديمة العهد بها ، لأن الطفل لايتحمل لبنها ، وقالوا أيضا الأولى بكل طفل أمه فى الرضاعة ، فان لبنها أنسب له ، وذلك من التربية التى تضمنها لفظ : الحمد لله رب العالمين « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ومن عجب أن العجوز والصغيرة جدا لاتشتهيان ولا يقترب منهما الرجال لحكمة الله عز وجل ، لأنهما لاقبل لهما بالحمل ولا الولادة ولا الارضاع ، فهذه الحكمة ناطقة بلسان فصيح قائلة : ماجعل الذكر والأنثى فى الانسان والحيوان الا للانتاج ، فأما الشهوات واللذات فانما هى مقدمات وممهدات للنسل .

المسئلة السابعة : التربية الطبية

ولنذكر منها قليلا فنقول : قال الأطباء مراعاة الصحة أفضل من استعمال الدواء يعنى أنك اذا حافظت على جسمك وراعيت صحتك ونظمت أغذيتك لم تحتج الى الدواء . وقالوا : ان جميع الاستفراغات والمسهلات للبدن مثل الصابون للثوب اذا أكثر استعماله أبلاه سريعا وأكثر المسهلات سمية قاتلة اذا لم يعرف القدر المستعمل منها ، وربما حرك المسهل أخلاطا رديئة كامنة فى الجوف فيثورمنها علل عظيمة وداء لادواء له ، فترك المسهل والاستفراغات جميعا أولى وأوفر ماوجد الانسان سبيلا الى السلامة الا عند الضرورة الملجئة ، فيستعمل منها القدر اليسير الأسلم . وقال الأطباء متى أمكنك أن تعالج المريض بالغذاء فلا تعطه شيئا من الأدوية ، ومتى قدرت أن تعالجه بدواء خفيف مفرد فلا تعالجه بدواء مركب ولاقوى ولاتستعمل الأدوية الغريبة المجهولة ما أمكنك الا أن يصح لك منها شىء بالتجربة ، واذامالت شهوة المريض الى غذاء لايوافقه فأعطه منه اليسير .

هذا ماأردت ذكره من تربية الله للناس بعلم الطب الذى لم تراع أصوله فى بلاد الاسلام ، والعالم كله لايزال فيه طفلا لايدرى مامنتهاه .

المسئلة الثامنة : التربية فى المدارس والتعليم

ان علم التربية فى المدارس يدرس للمدرسين ، ولأذكرن لك منه مسئلة واحدة ، لأنها من تربية الله للعالمين . اعلم أن الله تعالى خلق المخ وجعله مركز الفكر والخيال والتذكر والحس المشترك والحافظة ومادته سمراء من خارجها بيضاء من داخلها ، وقدر فى اقدح الناس بجعل أدناهم يبلغ مخه نحو ست عشرة أوقية ، وأعلاهم وهم النابغون يبلغ المخ فيهم أربعا وستين أوقية ، وقد تبين لك فيما تقدم أن أجسامنا مركبة من خلايا كثيرة تتكاثر بالانقسام ، والمخ منها مركب من آلاف الآلاف من الخلايا الدقيقة ، وهذه الخلايا أشكالها صغيرة مستديرة حولها نتوآت صغيرات . فمن عجائب صنع الله عز وجل أن جعل هذه الخلايا لوحا محفوظا فى الدماغ لما يرد على النفس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس . فهناك خلايا مختصة بقبول المحسوسات . فمنها ماهو للسمع ، ومنها ماهو للبصر ، ومنها ماهو للشم وهكذا ، ومنها ماهو للتفكر والتعقل ، ومنها ماهو للتذكر ، ومنها ماهو للقوة الناطقة ، ومنها ماهو للقوة الكاتبة والصانعة فى اليد ، فاذا اختل منها بعض الخلايا تعطلت القوة الكامنة فيها ، ولا ينفع فيها التعليم ألبتة ، فلو أن الخلايا المعدة لعلم الأعداد فقدت ، فانه لايمكنه أن يتعلمه . فكأنما هذه الخلايا المختلفة المتباينة رياض وغياض يخرج فيها مختلف الزرع والشجر والفاكهة والأب ، ولكل منطقة من مناطق الأرض مزارع خاصة بها كالقطن والنخل : فهكذا هنا فى خلايا المخ . ونتيجة هذه المعرفة فى التعليم أن المعلم اذا ألقى الدرس على التلميذ فنظره ببصره مكتوبا بخط جيل وسمع نطق المعلم ونطق به هو وكتبه بخط جيل فهناك تكون آثار أربعة : آثار البصر ، وآثار السمع ، وآثار النطق ، وآثار الكتابة كل ذلك فى المخ ، وهناك تتكيف الخلايا المختصة بها ويحصل بينها علاقات فتمتد خلايا النطق بخيوط رقيقة الى خلايا السمع ، وخلايا البصر ، وخلايا الكتابة : فتتعاون وتحفظ الكلمة فى ذهن التلميذ و يصير الدرس مفهوما جدا ، وان قصر فى بعض هذه كأن قبح خط الكاتب أولم يصغ التلميذ أولم يكتب بيده كان الأثر فى العقل ضعيفا والحفظ ضائعا .

وهذه الخلايا المتصلة المتعاونة محال لما يسمى (الحس المشترك) الذى يجمع ماتأتى به الحواس ثم تأخذه القوة المتخيلة فتحلل فيه وتركب ، ثم القوة المفكرة فتستنتج ، ثم القوة الحافظة فتحفظه وهكذا ، فهذه المسئلة من علم (البيداجوجيا) وهو فن يعرف به كيفية تربية الناشئين على أكمل وجه ، وهو يستمد من علم التشريح وعلم النفس كما رأيت ، وهذه التربية داخلة فى قوله تعالى (رب العالمين)

المسئلة التاسعة : تربية الله للعقول الكبيرة بعلم المنطق لادراك العلوم العالية

فنقول : اعلم أن كل حاسة من الحواس الخمس لايمكنها أن تحكم بما ارتسم فيها ولكن الذى يحكم هو العقل : مثلا اذا رأى الانسان سرابا وسط النهار فليست الباصرة مخطئة فى رؤيته وانما المخطىء الفكر فى استنتاجه : اذ ظنه ماء وانما سبيل المفكرة أن تتربص وتنتظر حكم القوة اللامسة والقوة الذائقة فاذا لمسه بأيد وذاقه باللسان فعرفه ماء ، فبها والا فلا : وهكذا اذا نظر الانسان بقوة الباصرة تفاحة مصنوعة من كافور مصبوغة كلون التفاح فورد خبرها الى المتخيلة فالمفكرة فليس للمفكرة أن تحكم أن طعمها ورائحتها وملمسها مثل التفاحة فلابد لها أن تستخبر قوة الذائقة والشامة واللامسة ، وحينئذ يمكن الحكم عليها بالاثبات أو النفى .

هذه من تربية الله للعالمين العقلاء : فاذا سقط الفراش فى النار ومات فالعيب على ضعف قوته المفكرة العقلية لأنها حكمت على ضوء النار أنه كضوء الشمس وقنعت بالقوة الباصرة ، وهنا كان يجب أن يحكم القوة اللامسة

ليعرف

ليعرف الحارّ من البارد : وهكذا ترى سائر البشر يذهبون فى الدنيا والدين ضحية جهلهم وحكمهم بأحكام مقدّماتها ناقصة ، وهذا من قوله تعالى : رب العالمين .

الحمد يكون على مقدار علم الحامد

ألا وان الحامد كلما كان أعرف بصفات المحمود كان أصدق حمدا ، وكلما كان قليل العلم بها كان أقرب الى الكذب فى حمده ، ولذلك نجد الناس اذا أرادوا تأبين ميت أو تكريم حىّ جمعوا من الكتب ما كان له من محمدة ، واذا أرادوا ذمّا تقبوا عن الأعمال السيئة فهكذا هنا ، لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرءوا نظام الطبيعة لأنها أفعاله وآثاره وعجائب صنعه ، وهى كتاب التاريخ الذى حفظ فى سجل الدهر ، فاذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق التكوين فلا يتركون علما الا درسوه ، ولافنا الاعرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حق حمده كما تحمد الأمم رجالها وتمدح شجعانها بذكر مآثرهم التى انتفعوا بها : فاذا قالوا : الحمد لله كان ذلك على الحقيقة والواقع لا بمجرّد اللفظ ، ولعلك تقول ها أنا ذا قد عرفت أنه لابدّ من معرفة نعم الله حتى أكون حامدا له حق حمده بحسب طاقتى البشرية ، فما مجامع تلك النعم ؟ أقول : كل العلوم مجامع الحمد وسأفصلها لك فى التفسير ، بل كل ماأشار له القرآن هو ماأثر تربية العالمين التى تستوجب الحمد ، ولأذكرنّ لك مجملها فأقول :

معنى العالمين

اعلم أن العالمين جمع عالم وهو ماسوى الله تعالى ، والعالم قسمان : عالم علوى وعالم سفلى ، والعلوى هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها ، ولايغنينى لك معرفتها الابضرب مثل : تصوّر امرأة جميلة الصورة طويلة القامة كثيرة الحلى والحلل مشرقة الوجه ، وهذه المرأة قد ولدت عشر فتيات وهنّ أقلّ منها قامة وحليا وحللا واشراق وجه ، وقد أحطن بها كالهالة بالقمر وأخذن يدرن حولها بنسب معلومة ومواقيت محدودة ، وكل واحدة من الفتيات العشر ولدت عشر فتيات أقلّ منها قامة وحليا وحللا واشراق وجه وهن يدرن حولها بنسب محفوظة وأوقات معلومة ، ثم كل واحدة من هؤلاء ولدت عشر فتيات أقلّ منها طولا وحللا واشراق وجه وحليا وحللا وهكذا ، فالجيل الأول عشر فتيات ، والثانى مائة ، والثالث ألف ، والرابع عشرة آلاف ، والعاشر عشرة آلاف ألف ألف (عشرة بلايين) وكل جيل أقلّ مما قبله جمالا وقامة وحللا واشراق وجه وأرق مما بعده : فالمرأة الأولى ذات الجمال هى المجرّة التى ترى فى الليالى المظلمة مستطيلة فى السماء كسحابة بيضاء لبنية ، وهذه أصل جميع الشموس ومنشؤها ومستقرّها ومستودعها ، وهى شموس لانعرف عددها ، بعدت عن الأبصار ، وتباعدت فى الأقطار حتى صغرت فى العيون وتضاءلت ، فصار كل ألف ألف منها يكاد يكون ذرّة من اللبن فى أعين الرائين ، فهذه المجرّة فيها هناك على أبعاد لايتصورها العقل أصل الشموس وأمّها التى عبرنا عنها بالمرأة الجميلة ، وحولها شموس كل شمس حولها شموس ، وهكذا الى أن ينقطع الفكر عن التصوّر ويقف العقل عن التعقل ، وآخر هذه الشموس مقابل للفتيات اللاتى فى الجيل العاشر ، وشمسنا كفتاة منهنّ لانعرف عدد أترابها من الشموس كما كثر عدد فتيات ذلك الجيل . واذا نسبت هذه الفتيات فى الحسن والقامة والحلىّ والحلل والاشراق الى الأم الأولى كانت كالقردة بالنسبة الى الانسان بل أقلّ ، فهكذا نقول فى الشمس المضيئة عندنا انها بالنسبة الى الشمس الأولى كالفجر بالنسبة للنهار وفى الحجم كالبطيخة بالنسبة للجبل ، وسيأتى فى هذا التفسير أن احدى شموس الجوزاء أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة وضوء الشمس بالنسبة لضوئها كضوء الحباحب بالنسبة لضوء شمسنا ، وأنت تعلم أن الشمس أكبر من الأرض ألف ألف مرة وثلثمائة ألف مرة ، وفيها من الجمال والبهاء مايبهر العقول انها

ترسل ضوءها على الأرض فينير السبل ، و يوضح المسالك ، و يفتح الأعين ، فترى الصور المرسومة على سطح الهواء وخلال الأثير جلية واضحة وترسل الحرارة فيجرى الماء و ينمو النبات والحيوان والانسان وتصبح الأرض مخضرّة باجتماع الماء مع الشمس والعناصر والهواء ، ثم ان سيرها وانتقالها من مكان الى مكان بحساب متقن يعرّف الناس السنين والحساب فلا يضلون فى أحوالهم الزراعية والصناعية والمدنية ، هذه بعض محاسن الشمس ، وهذه من عجائب جمالها الذى لانسبة بينه و بين جمال الشمس الأولى ، وقد قلنا ان لها نظائر تسير معها حول شمس أخرى ، وهذه الأخرى لها نظائر وهكذا فما مقدار السنة التى تسيرها حول شمس أخرى (فى الكواكب المسماة بالجاثى على ركبتيه) وربما كانت آلاف آلاف من السنين المعلومة فكيف يكون جمال الشمس الأولى ومقدار عظمتها و بعدها ، ان فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ، وهذه الشمس التى هذا وصفها حولها السيارات الثمانية ، وهى : نبتون ، وأورانوس ، وزحل ، والمشترى ، والمريخ ، والأرض والزهرة ، وعطارد : فأرضنا سيارة تسير حول الشمس ، فالشمس أمّ ، والسيارات فتيات حولها كما أنها فتاة لأمّ قبلها ، والأرض قد ولدت القمر ، يجرى حولها كما أن زحل والمشترى وغيرهما لها أقمار تجرى حولها والأقمار أقلّ جمالا وعجبا و بهجة من السيارات ، والسيارات أقلّ من الشموس ، والشموس ترتقى طبقا عن طبق الى الأم التى فى المجرّة ، وما يقال فى هذه المجرّة يقال فى مجرّات أخرى « وما يعلم جنود ربك الا هو » فتلك عرائس فى الجوّ سائرات وجنود مصطفات الى أن تقف العقول ، وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها الا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » ولعلك تقول : انك ما قرأت مسئلة الشمس وأنها تدور حول شمس أخرى ، وهكذا دائرة بعد دائرة الى أن ينقطع الفكر و يقف العقل انك لم تقرأ ذلك الا من تعاليم الفرنجة وهم الذين قالوا ان تلك الشموس أكبر من شمسنا فهل ورد فى ديننا ما يؤيد ذلك ؟ فقلت : ان ديننا لا يمنع ذلك ولا يثبته ، وفيه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا — ويخلق ما لا تعلمون — والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » الى هنا قد أجملنا الكلام على العالم العلوى (١)

العالم السفلى

العالم السفلى ما فى البحر من مخلوق حىّ ، وما على الأرض من معدن ونبات وحيوان وانسان ، فأما علم البحر فقد جعله العلماء فى هذه الأيام علما مستقلا ليطلع الناس على غرائبه ، ومما قرأناه عنهم أنهم استخرجوا من قاع البحار على بعد أميال حيوانا يعيش فى الظلمات فى تلك الأصقاع الغائرة ، وقد وجدوا له آلة للضوء اذا حركها أضاءت ما حولها ، وقد خلق لها على جسمها فى مقابلة تلك الآلة سطح قائم بزاوية مناسبة متى أشرق النور عكسه ذلك السطح فأبصر ذلك الحيوان المسالك البحرية ، فكأن ذلك الحيوان لما حرم ضوء الشمس خلقت له فى قاع البحار شمس خاصة به يفتحها متى شاء وأمامها سطح يعكس شعاعها فيرى المسالك والطرق « فتبارك الله أحسن الخالقين »

وفى البحر سمك شفاف سمين طوله نحو ثمانية قراريط وشحمه أبيض نقى يصيده سكان ألاسكا ويجففونه ثم يوقدونه من ذنبه فينير بلهب صاف شديد اللمعان ، ومن السمك نوع ببحر الصين اذا أكله الانسان أخذ يضحك حتى يموت ، وهذا السمك يختص به الوزراء والعظماء اذا حكم عليهم بالاعدام فيشترونه سرّا و به

(١) اقرأ الكلام على عجائب السموات فى سور كثيرة كآية : « ان فى خلق السموات والأرض » فى البقرة وآل عمران وغيرهما مما سنبينه ان شاء الله فى ملحق هذا التفسير الذى عزمنا على اصداره كما ذكرناه قبلا

يموتون

يموتون من الضحك ، وحكومة الصين تمنع بيعه ، ومن عجائب البحر الدرّ والمرجان ، ثم من العالم السفلى عالم المعادن كالذهب والفضة والنحاس والحديد والخارصين والبلاتين والكبريت والزئبق والمغنيسيا والملح والزنك والرصاص وغيرها ، ثم الآثار العلوية من حوادث الجو وتغير الهواء من النور والظلمة والحرّ والبرد وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، ثم الأنهار وما يكون من الغيوم والضباب والطلّ والندى والأمطار والرعود والبروق والثلوج والبرد والهالات .

عالم النبات

ومن العالم السفلى عالم النبات وله علم يعرف به اختلاف أنواعه وأشكاله وألوانه وطعومه وروائحه وأوراقه وأزهاره وثماره وحبوبه وبزوره وصموغه ولحائه وبنية تكوينه ونتاجه وتربيته لأولاده .

عالم الحيوان

وله علم يعرف به صنوفه وأنواعه وأجناسه وسكان البرّ منه والتراب والهواء والبحر كالأنعام والحشرات والطير والسمك ومعرفة تزواجها وتوالدها ومستقرها ومستودعها ويتبع ذلك معرفة تشريح الانسان .

علم التشريح

يعرف منه أن أعضاء الانسان ٢٤٨ عضوا ، وتعرف أوردته وشرايينه وأعصابه والدورة الدموية والدورة النفسية والدورة الغذائية والدائرة العقلية والحواس الخمس ونظامها والقوى الخاصة التي في الدماغ ، وتقدم الايماء اليها عند تفسير لفظ رب من (رب العالمين) وهي الحسّ المشترك والمخيلة والمفكرة والذاكرة والواهمة هذه هي بعض العلوم الطبيعية في العوالم السفلية . وأما العوالم الالهية فهي علوم خاصة بها تبحث في أمر الملائكة كما ستراه في سورة البقرة عند قوله تعالى « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل في الأرض خليفة » فسيظهر هناك ان شاء الله أن في معنى الخلافة ما يفهم المقام من معرفة الله والملائكة وبهذه العلوم أيضا تعرف الأمور العامة والمقولات وتقسيم العلوم ، انتهى الكلام على العالم السفلى وما بعده .

هذه هي العوالم العلوية والسفلية التي تضمنها لفظ العالمين ، والله هو المربى لها والمكمل لقواتها ، ألا فليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أنهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره الا اذا درسوا هذه العلوم كلها وعرفوا ما تفرّع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها ، واذن يحق لهم أن يقولوا : الحمد لله رب العالمين ، أما اذا بقوا على جهلهم ولم يعرفوا هذه العوالم ولا نظامها فليعلموا أن حمدهم لفظى وشكرهم ظاهرى . ولأضربنّ لك مثلا : اذا أنت مدحت امرأ في مجلس وكان فيه من هو أعرف به منك وسألك عن بعض صفاته فوجدك بها جاهلا فانه لاجرم يقول أنت به جاهل ثم يشرح صفاته فتقرّ له بالفضل عليك .

يحكى أنه في زماننا قدم مؤلف عظيم على رجل من رجال الجرائد وكان هو وزوجه لا يتركان مجلسا الا مدحا هذا المؤلف فيه ولا ناديا الا أثنيا عليه وهما في كل واد يمدحان ويحمدان صنيع ذلك المؤلف وأنه أحسن الى أمته وأنالها شرفا عاليا ونفرا تالدا ، فلما أن حلّ بساحتهما وهما لم يرياه قبل ذلك فرحا به واستبشرا وأكرماه غاية الاكرام . ولما قاما الى بعض شأنهما نظر فوجد كتابه لم يفض ختامه ولا يزال ورقه متصلا غير منفصل دلالة على أنهما لم يقرآ منه حرفا ولم يعرفا منه كلمة ، فلما ودعهما وانصرف أرسل لهما مقصا ليفهمهما أنه أدرك أن المدح والحمد كانا على جهالة عمياء ، وأن الثناء رياء ، وانقلب سروره غما وفرحه حزنا ، أفلا يكون نصيب المسلمين من ربهم نصيب ذلك الرجل وزوجته من المؤلف ، أفلا يقول الله للمسلمين : أنتم تحمدونني ولكنكم

لاتعرفون من صفاتى وأفعالى الا قليلا فلأعطينكم من نعمى على مقدار ماعرفتم وأخذ يقص أرضنا معاشر المسلمين و يعطيها للأمم الأخرى التى درست العوالم . الله لم يرسل مقصا للمسلمين كما أرسل المؤلف ولكنه أرسل رجالا وأمما قصوا من أرضنا وحرمونا منها جزاء وفاقا ، وقد آن أن يرجع مجدنا ويبزغ نجمنا ونعرف ربنا وأن الأرض يرثها عباده الصالحون. فأرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل والعمل يتقدمه العلم ، فكل أمة أعرف بهذا العالم فهى أحق به وأولى بالفضل وأعرف بالحمد .

أسباب الحمد : زيادة ايضاح لما سبق من قبل فيها

اعلم أن لكل حمد سببا كما أشرنا اليه آنفا ، فالجائع يقول : الحمد لله الذى غذانى ، والظمآن يقول : الذى أروانى والفقير يقول : الذى أغنانى ، والجاهل يقول : الذى علمنى ، وفى القرآن على لسان ابراهيم «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسمعيل واسحق» وفيه على لسان يوسف «وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن» وهذه الجملة حمد على نعمة الخروج من السجن ولمّ شمل أسرة يوسف عليه السلام ، وقال الشاعر الجاهلى لما أسلم :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى • حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

فأما الحمد فى هذه السورة فسببه أن الله مربى جميع العوالم ، فاذا قال ابراهيم الخليل : أنا أحمد الله لأنه أعطانى ولدا أيام كبرى ، يقول المسلم فى صلاته : أنا أثنى على الله لأنه هو الذى ربى جميع العوالم من العلويات والسفليات ان ابراهيم يعرف نعمة الله فى ابنه ، والجائع يعرف نعمة الله فى أكله ، والمسلم يجب أن يعرف نعمة الله فى تربية العوالم ، وليس معنى هذا أن يكون جميع المسلمين حكماء فلاسفة ، وانما المراد أن يكون فيهم طائفة تقوم بجميع العلوم كالفرنجة أو أكثر ، ألا تراه يقول (اياك نعبد) ولم يقل أعبد للاشارة الى أن المقصود الجماعة .

واذا بقى المسلمون على ماهم عليه من الجهل بنظام الله فى العالم فلا حظ لهم من حمد الله وشكره الا حظ الجائع من النعيم ، ولماذا الحامدون الحقيقيون الشاكرون العاقلون قال الله «وقليل من عبادى الشكور»

سؤال وجوابه وضرب مثل لحال القرآن بما أبدع الله فى العالم

لعلك تقول : مالى أراك تحمل الفاتحة مالاتحتمل وتدخل فيها من العلوم مالايعقل ؟ مع أن الناس يقرءونها ولايلحظون ماتذكرون ويكررونها صباحا ومساء ولايتهيأ لهم ماتصفون ، وانما أنتم تقولون هذا استطرادا لا استنباطا ، وتطويلا لاتأويلا ، وتعليا لاتفسيرا ، واكثارا لااستخراجا

أقول : على رسلك واسمع لما ألقى عليك من مثل أضربه تذكرة لأولى الألباب : تأمل حال الرجل الزارع وقد استصحب دابته وولده الصغير ولما وصل الى الحقل رأى مهندسا للرى وعالما طبيعيا وحكيما إلهيا ، فهل ترى أن هؤلاء والحقل أمامهم يتفقون فى الرأى متحدون فى الفكر ، كلا ، فان الدابة لاترى فى الحقل الا حاجتها من البرسيم لتسد جوعتها والصبى يتعالى عن الدابة فينظر الى خضرة البرسيم والمزارع وترنحها يمينا وشمالا و يرى بهجة الزهر وجمال منظره وهبوب الرياح عليه ، والفلاح يتعالى عن ذلك ، فينظر فى أمر الزرع والحصاد والمكسب والخسارة ، ورىّ الأرض ، وحساب المزارعين وما شاكل ذلك ، والمهندس يتعالى بنظره إلى نظام الرىّ العام فى هذا الجدول وفى سواه من نظائره ، ويقارن المصارف والترع بعضها ، ويتسع نطاق عمله حتى يشمل آلافا من المزارع ليحفظها من العطب ، ويحرسها من الهلاك ، والعالم الطبيعى أو الزراعى يتأمل فى العناصر كيف تكوّن منها النبات ، ويحللها و يعرف وزنها بالنسبة لبعضها كما سيأتى فى سورة البقرة ، ثم يتولى عمل المناسبة بينها ويقول : ان السماد يكون على مقدار الحاجة ، فكل عنصر قلّ فى الأرض يعتاض عنه بآخر من السماد بوزن معلوم . ثم ان الحكيم الربانى يتعالى عن هذه الطبقات ، فيرى أن هذه النباتات كلها من عناصر أرضية اختلفت طعومها ، وروائحها ، وأثمارها ، وحلاوتها ، وأوراقها ، وأزهارها ، وأعمارها ،

وبلدانها ، وطقوسها ، ومناخها ، ومنافعها الطبية ، والعناصر واحدة لاتتجاوز الثمانين عداً مبثة فى الأرض والهواء والماء ، ثم ان تلك العناصر ترجع إلى مادة واحدة ، وهى الأثير الذى يكون ضوءا وكهرباء وحرارة ثم ان الجوهر الفرد الذى كان آخر آراء العلماء فيه أنه مكوّن من ذرّات كهربائية : منها الموجبة ، ومنها السالبة ولها نواة حولها ذرّات تدور كدوران السيارات حول الشمس ، ثم يقول ان هذه كلها مرجعها حكمة وراءها وقدرة وعلم وذات مدبرة وإله منظم ، وإلا فما بالنا نرى نظاما عاليا وحكمة باهرة « وأن إلى ربك المنتهى » هذه هى النظرات فى الحقل .

قس عليها نظرات الناس فى الفاتحة : إن الفاتحة كلام الله ، والحقل ومافيه من الزرع فعل الله أفلا ترى أن تختلف الأنظار فى الثانى كما اختلفت فى الأول . أو لست ترى أن حافظ القرآن الذى لايعنيه إلا أن يعيش به كالحمار يحمل أسفارا ، وكالجاموسة فى المثال المتقدّم لم يعنها الا البرسيم ، أو ليس العامة الذين يفرحون بنغمات القرآن فى مآتمهم وأعراسهم : أشبه بالصبى الذى راقه مناظر النبات وأزهاره ، أو ليس العابد الذى يخاطب ربه بالفاتحة ويثنى عليه ويتجه اليه بقلبه أشبه بصاحب الحقل المقبل على تنظيمه ، أو ليس المفسر للقرآن الناظر فى معانيه العامة ، وهو أرقى من العابد أشبه بالمهندس الناظر فى سائر الحقول ، أو لست ترى أن من يعرف هذه العوالم العلوية والسفلية ويدرك نظامها وجمالها ويعرف من كل فنّ طرفا أرقى من المفسر وأعلم منه ، وأنه أشبه بالرجل الطبيعى أو الزراعى الذى عرف نظام الزرع وتركيبه من العناصر ، أو ليس الذى يحمل الأمة على معرفة سائر العلوم ، فتكون راقية ذات مدنية ونظام وسعادة فى الدنيا تحفظ كيانها وتصون بلادها وتستغنى عن غيرها وتمدّ الأمم بعلمها وصناعاتها فضلا عن أنه عرف تلك العلوم ، أليس ذلك فى مثالنا كالحكيم الربانى فى المثال المتقدّم الذى وصل الى الله من طريق الحكمة والعلم .

وبهذا فلتفهم قوله صلى الله عليه وسلم « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا » فظاهره معلوم للناس والعامة ، وحقيقته ماذكرناه لك .

ألا إنما ذلك العالم العظيم والملك الكبير فى الاسلام الذى يحملهم على معرفة العلوم والصناعات ليحفظوا مدنيتهم ويقيموا الوزن بالقسط ويكونوا خلفاء الله فى الأرض فى المثال الثانى ، وذلك الحكيم العظيم الربانى فى المثال الأوّل الذى أدرك سر الخليقة بقدر طاقته ، هذان وأمثالهما هم أولياء الله وخلفاؤه فى الأرض وخلفاء أنبيائه . فلمثل هذا فليعمل العاملون . وفى ذلك فليتنافس المتنافسون هؤلاء هم الذين يكونون فى أعلى الجنة . وقد تركوا أدناها للجهلاء كما فى الحديث « وعليون لأولى الألباب » فالجنة مفتاحها المعارف وفاتحة الكتاب فاتحة المعارف « ومايعقلها الا العالمون » . هاأنا ذا قد أبنت العوالم التى تولى الله تربيتها وترقيتها ، وأنت تعلم أن التربية يحوزها أمران : الرحمة والشدّة ، فاذا لم تكن رحمة أوعدم الجزاء والمكافأة بالاحسان والاساءة كانت التربية ناقصة ، ولقد جعل الله الأم أقرب إلى الرحمة والأب أقرب الى الشدّة والمجازاة ، فاذا فقد أحدهما ساءت التربية ، فأشار الى الأوّل بقوله (الرحمن الرحيم) وإلى الثانى بقوله (مالك يوم الدين) أعنى مالك الأمر فى يوم الجزاء ، أما الرحمة فقد عرفتها فيما تقدم ، وأما الجزاء فانه تابع للأعمال كما قال تعالى « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » ألا ترى أن الرجل الكاسل يصيبه المرض والفقر ويزدريه الناس وهكذا من يكره الناس أو يؤذيهم ، وترى حكومات الأرض قاطبة نصبت القضاة ، وأقامت الجند ، وجعلت لها دورا للحبس ، وأخرى لاكرام الوافدين من الأقطار ، ووضعت القوانين والحدود ، وذلك سائر على نظام فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما كان القانون البشرى يلحقه الخطأ لخلل فيه أولضلال القضاة والحكام أوجهلهم جعل الله الجزاء الأوفى يوم القيامة « لتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون » فالله عزّوجلّ

مالك جميع الأمور محيط بالخلق فى الدنيا والآخرة يثيب الطائعين والعاملين ، ويقهر العاصين والكسالين ويذلّ الباغين ، إما فى الدنيا ، وإما فى الآخرة ، وإما فيهما معا ، وبهذا تمت التربية ونظم العالم : ان هذه الصفات التى حصرت الرحمة والملك فى ذات الله وأنه هو المربى للعوالم كلها المالك لها تحصر قلب القارئ والمصلى والذاكر فى الله تعالى وتجعل الحمد خاصا به ، فجميع المحامد التى يفوه بها الناس لمحسنين راجعة إليه ، لأنه المحسن الحقيق ، وفوق الحمد يختصّ بالعبادة التى هى غاية الخضوع ، ومنه طريق معبد : أى مذلل ، فكأن القارئ يقول : يامن اتصف بهذه الصفات التى يمتاز بها عما عداه (إياك نعبد) أى نخصك بالعبادة والخضوع فضلا عن الحمد ، فالنصف الأول من السورة أحضر فى قلب القارئ الصفات المميزة للربوبية ، فلما تمثلت فى ذهنه تلك العظمة صارت كأنها مشاهدة أمامه ، فالتفت عن الغيبة إلى الخطاب ، وكأنه يشاهده ويراه ، وفى الحديث « اعبد الله كأنك تراه » ولن يكون ذلك إلا باستحضار صفاته العالية فى قلبه ، وانى هنا وصل القارئ الى آخر درجات التقرّب ، وهو الخضوع والتذلل كما فى قوله تعالى « واسجد واقترب » فلم يبق بعدها الا السؤال والطلب من المتقرّب اليه ، فقال (وإياك نستعين) فى أمورنا الدنيوية والأخروية كالصحة والغنى والمال والولد ، وأهمّ الحاجات أداء العبادات والهداية الى الصراط المستقيم ، فكأنه يقول : نحن نعبدك ولن نقدر على أداء العبادة إلا اذا أعنتنا ، والمطلب الأهم للعبد الاستعانة بالله ، كأنه قيل له ماأهمّ مانستعين فيه ؟ فقال العبد (اهدنا الصراط المستقيم) والهداية دلالة بلطف ، وهى على أقسام . الأول هداية الغريزة التى اهتدى بها الحيوان فى غدوّه ورواحه ، والطفل لرضاع أمه ، والنحل لبناء المسدسات التى يجمع فيها العسل بنظام يحار فيه المهندسون . الثانى هداية العقلاء الأوّلية بأن يميزوا بين الحسن والقبيح والجمال وضدّه وتعرف الأوّليات ومبادئ العقول التى يرجع اليها فى العلوم ، مثل الكلّ أعظم من الجزء ، والضدّان لايجتمعان . الثالث معرفة العلوم وفهمها والتصرّف فى أصولها وفروعها . والرابع الملكة الراسخة بحيث تحضر العلوم والمسائل التى عرفت أنى شاء العارف ويتبع ذلك قوّة التصرّف والحذق فى الأمور والالهامات وسداد الرأى والوحى الخاص بالأنبياء ، والمراد بالهداية هنا هذا الأخير وماقبله . فإما أن يقال أدمنا على الهداية ، واما أن يقال زدنا فى مراتبها لترتقى الى أعلاها وننال الزلفى لديك والقربى . ويقرب من هذا قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم » والمراد بالفرقان نور يقذفه الله فى قلب العبد يفرق به بين الحق والباطل ، والصراط المستقيم هو الطريق المستوى ، وهو يشبه فى التذكير والتأنيث ، ثم أبان ذلك الصراط ، فقال (صراط الذين أنعمت عليهم) من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهم عظماء كلّ أمة وأشرافها ، أو الذين أنعمت عليهم من الأمم وهم المسلمون (غير المغضوب عليهم) وهم اليهود (ولا الضالين) وهم النصارى : وتبيانه أن يقال ان الصراط المستقيم يراد به هنا الطريق الوسط ، وهو فى علوم الأخلاق .

العفة ـ التى هى وسط بين الوقوع فى الشهوات والفسق والفجور ، وبين الجمود والبخل والامساك والشح والشجاعة ـ وهى وسط بين التهوّر ، والطيش ، والظلم ، وبين الجبن ، والخوف ، والحزن ، والجزع ، وأمثالها .

والحكمة ـ وهى الوسط بين الجهل ، والغباوة ، والبلادة ، وبين المكر ، والخداع ، والاحتيال ، والطيش فى الآراء .

والعدل ـ وهو المساواة بين هذه الأمور .

وقد فرع العلماء على هذه الأربع فروعا شتى تربو على المائة ، وكلها داخلة فى الصراط المستقيم ، وهو

الوسط

الوسط ، وماجاوز الوسط ، فاما الى زيادة فهو التهور والطيش والتبذير وما أشبهها ، واما إلى نقص كالجبن والبخل والخوف وما أشبهها ، والمسلمون وسط فى أمر سيدنا عيسى عليه السلام إذ يعتقدون نبوّته . أما اليهود فانهم قد غضب الله عليهم لأنهم جعلوه ابن زانية . وأما النصارى فانهم أفرطوا فى اعتقادهم وجاوزوا الحد فى دينهم وغلوا فى أمر المسيح ، فقالوا انه إله ، فهؤلاء هم الضالون فى أمر عيسى ، فاعتقاد المسلمين صراط مستقيم ، واعتقاد اليهود تفريط ، واعتقاد النصارى افراط : أى مجاوزة الحد . وقد قلنا ان الحكمة وسط فلا تغالى كما قالت النصارى ، ولاجود وانكار كما قالت اليهود ، ولقد ورد تفسير الصراط الخ بهذا المعنى مرفوعا الى النبى ﷺ ، وهذا الذى قلناه توجيهه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك ضرب مثل الصراط المستقيم والا فهذا الوسط فى الاعتقاد فى مسئلة المسيح يماثله مسائل كثيرة كالكرم والشجاعة والعفة والصدق كما تقدم فافهم . وقوله (غير المغضوب عليهم) بدل من الذين أنعمت عليهم ، ولا فى قوله (ولا الضالين) للتأكيد (آمين) اسم الفعل الذى هو استجب ، وليس من القرآن بالاتفاق ، ولكن يسن ختم السورة به .

واعلم أن النعم اما مال ، واما أصحاب وأهل وأعوان ، واما صحة بدن ، واما عقل وحكمة وصدق روية ، وكل نعمة مقدّمة لما بعدها ، فأعلاها العقل والحكمة ، وأدناها المال الذى لابد منه لحفظ الثلاثة بعده من الأصحاب والصحة والعقل ، والمراد بالنعمة هنا أعلاها التى تقوى وتبقى بما قبلها .

وقد يراد بالمنعم عليهم المطيعون ، وبالمغضوب عليهم العصاة ، وبالضالين الجهال .

واعلم أن المنعم عليهم هم الأنبياء وورثتهم والمخلصون من بنى آدم ، وهم الذين نصبوا أنفسهم لهداية الناس وارشادهم .

وكأنهم آباء والناس أبناؤهم ويتشبهون بالله فى أفعالهم وأقوالهم ويقودون الأمم إلى سبيل الرشاد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقال ان غاية الحكمة حب الله ، فيعرفون نظام العالم وحكمة الخالق ويتركون آثارا فى البرايا ويتحملون ماينالهم من الآلام فى سبيل اسعاد الأمم ، فينالون أجرهم مرتين فهم فى الآخرة مكرمون ، وفى الدنيا مذكورون بالثناء والاكرام ، تشتاق اليهم النفوس ، وتحن اليهم القلوب ، وتطمئن اليهم الأفئدة ، وتذكرهم الأجيال .

وأضرب لك مثلين : الأول ماجاء فى القرآن فى سورة والصافات ، فانظر كيف ابتدأها بذكر أهل الجنة والنار وتوبيخهم ، فقال « ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأوّلين » وأقام عليهم الحجة فقال « ولقد أرسلنا فيهم منذرين » وأخذ يذكرهم بالثناء واحدا واحدا فذكر نوحا بالثناء ، ولما انتهى من القصة قال « سلام على نوح فى العالمين » ثم ذكر ابراهيم وتاريخه ومالقى من المحن فى قومه وختمها بقوله « سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين » ثم ذكر موسى وهرون ونجاتهما من فرعون وقومه ، ثم ختمها بقوله « سلام على موسى وهرون انا كذلك نجزى المحسنين » ثم ذكر الياس وكيف كان يدعو قومه وختمها بقوله « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إل ياسين انا كذلك نجزى المحسنين » ثم ذكر لوطا ونجاته ويونس وختم السورة بقوله « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » فانظر كيف ذكر المرسلين بالثناء فمن كان منهم أقوى عزما وأطول بلاء . قال فيه « وتركنا عليه فى الآخرين سلام على » فلان ، فكأن الله عز وجل يجعل الثناء الباقى فى الأعقاب للمجاهدين الأبطال من المكافآت للفضلاء .

وهذا هو الذى ينبغى أن يكون فى أمة الاسلام . يعلمنا الله بهذا أن نعلن فضل الفضلاء ، وعلم العلماء وحكمة الحكماء ، وجهاد الأبطال ، وننشر فضائلهم ليقتدى من بعدهم وليؤخذ عنهم كما تفعل الأمم الغربية اليوم بكل مشهور الفضل ، ولو كان سفيه النفس سيء الخلق ضيق الفطنة ، ويذكرون عمله ليقتدى به

الناشئون . ولعلك تقول ما للفاتحة ولسورة الصافات ؟ . أقول : على رسلك ان الفاتحة تسمى أم الكتاب والمنعم عليهم والمغضوب عليهم ورد ذكرهم فى القرآن ، فهل هذه القصص واردة لنير غرض أم للهو واللعب أم لمجرد الحكاية ؟ كلا ، فالمنعم عليهم : مثنىّ عليهم ، والمغضوب عليهم : مذموون ، وليس للمسلمين أن يعيشوا خامدين جامدين أمام القرآن والأمم الغربية ، فعليهم أن يتبعوا القرآن ، فمن رأوه يبذل مهجته فى خدمة الأمة ، أو ينشر العلم ، أو يضحى ماله ، فليرفعوا قدره ، بهذا أمرهم الله ، والا فكيف يقول فى سورة أخرى «واذكر فى الكتاب ابراهيم . واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد» ويقول «واذكر فى الكتاب موسى انه كان مخلصا . واذكر فى الكتاب مريم» أليس هذا أمرا بذكر الفضلاء المخلصين ونشر محاسنهم ، فليقم بذلك المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها والا فليبقوا جامدين جاهلين . الى هنا انتهى المثل الأوّل للمنعم عليهم . المثل الثانى : ماقرأناه فى كتب المتقدمين عن اليونان أن (سولون) الحكيم المولود سنة ٦٤٠ ق م المائت سنة ٥٥٩ ق م لما خرج من أثينا مغاضبا لقومه اذ عصوا نصيحته أرسل اليه الملك (كرسيوس) خطابا ، فلما قدم عليه حقر مارآه من الزينة والزخرف ، فقال له الملك : من أسعد الناس فى نظرك ؟ فقال له الملك طيلوس كان محببا الى أهل أثينا مسبغا النعم عليهم ، فلما أن مات حزنوا عليه كلهم أجمعون ، فتعجب كرسيوس من سولون وقال فمن بعده ؟ قال أخوان شابان كانا شجاعين أكرما أمهما ، ولقد كانت تغدو كل يوم للصلاة فى المعبد ، فاتفق أن سائق العربة لم يوافها يوما فجرّ الاخوان عربتها بدل الثورين فدعت الله لهما فماتا قريرى العين وأحبهما الناس حبا جا ، ولما ماتا حزن عليهما أهل أثينا ، فقال الملك أفلا تعدّنى سعيدا ياسولون ، فقال أنت أسعد من كثير من الناس ، ولكن انتظر العاقبة فغضب الملك من سولون وأبعده ثم دارت رحى الحرب بين الملك وبين ملك العجم فوقع كرسيوس فى الأسر ، فأمر باحراقه وأوقدت النار ، فصاح كرسيوس سولون سولون ، فسأل قيروس ملك العجم مامعنى هذا ؟ فقصّ عليه القصص فرقّ قلب قيروس وأنعم عليه وواساه .

وانما ذكرت هذا المثل ليعلم المسلمون فى أقاصى الأرض أن الذين أنعم الله عليهم بحبّ الاخوان والصبر على أذاهم ، والزهد فى الدنيا ، ونشر الفضيلة والعلم ممدوحون على كل لسان أينما كانوا ، وأولئك المنعم عليهم شموس وأقمار ، فانظر كيف ذكر سولون أن السعيد هو الملك طيلوس ، لأن أهل أثينا حزنوا عليه لعموم نفعه لهم ، وأن الشابين اللذين أكرما أمهما أحبهما الناس ، ولما ماتا حزنوا عليهم ، لأن المحسنين محبوبون والنفوس الشريفة يشرق ضوؤها فى الأرض ، وتلك النفوس العالية إنما جاءت الى الأرض لتحرس أهلها وتخدمهم فاذا أدوا ماخلقوا له سارت بذكرهم الركبان ، فما أجل العلم وماأجل الحكمة .

الفاتحة أم القرآن

هذه السورة تسمى فاتحة الكتاب ، وتسمى سورة الحمد ، وتسمى أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى ، لأنها تثنى فى كل صلاة ، وتسمى الوافية والكافية . ولقد يعجب القارئ من تسميتها بأم القرآن وبأم الكتاب وبالكافية وبالوافية ، وكيف تقرأ فى كل صلاة ، فليعلم ذو اللب أن الذى يتلى على اللسان دائما ، ويتلوه الجاهل والعالم سرا وجهرا ، يصبح فى أنفس التالين من المألوفات التى لايسمى الى شىء وراءها وتصبح كالسمع والبصر والعقل والجسم الانسانى عند الجهلاء ، فالناس لما رأوا أجسامهم والأنهار والسماء والأرض لم يعقلوا فيها عجائب ولاغرائب لأنها مكشوفة أمامهم معروضة كل حين ، كالعالم فى بلده والنبى فى قريته ، فهكذا فاتحة الكتاب يقرؤها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها وأكثرهم جاهلون لايعقلون ، وانك

داستنا

داستنا الفرنجة فقتلت أبناءنا واستحيت نساءنا ونحن فى غفلة معرضون .

واعلم أن العلماء هم الذين يعرفون أسرار الأشياء ، فعالم النبات وعالم الطب يعقلان حكم النبات وعجائب الجسم ، فكذلك هنا المفكرون فى القرآن الدارسون للعلوم حديثها وقديمها هم الذين يعقلون الفاتحة وعلومها فاعلم أن الفاتحة تشتمل على الاشارات لجميع ماورد فى القرآن ، والذى ورد فى القرآن عشرة علوم علمة كما قاله الغزالى : وكل علم تحته علوم . الأول : معرفة ذات الله . الثانى : معرفة صفاته ، فاما الذات فبالتقديس والتنزيه فهو الذى ليس كمثله شىء ، وأما الصفات فانه قادر ومريد وعالم وحى وسميع الخ . الثالث : أنه خالق العالم ومبدعه ، وهو الذى رفع السموات وبسط الأرض . الرابع : ذكر المعاد من الجنة والنار والثواب والعقاب . الخامس والسادس : ذكر الصراط المستقيم بترك الأفعال المخزية والأخلاق المزرية ، وبالتحلى بفضائل الأعمال والأخلاق الشريفة ونشر الفضيلة . السابع : ذكر المنعم عليهم ومدحهم والثناء عليهم . الثامن : ذكر الظالمين والطاغين والكافرين . التاسع : ذكر محاجة الكفار . العاشر : ذكر حدود الأحكام هذه هى العلوم التى ورد ذكرها فى القرآن ، والفاتحة قد اشتملت على ثمانية منها على رأى الامام الغزالى .

الأول : ذات الله تعالى فى قوله (بسم الله) . الثانى : الصفات بذكر (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) فان الرحمة والملك يستلزمان القدرة والارادة والعلم ، وهى من الصفات الواردة فى أكثر سور القرآن كقوله : الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن الخ . الثالث : علم الأفعال وهو العلم الذى أشرت إليه فيما تقدم للتدرج فى قوله (رب العالمين) المنطوى تحته أكثر العلوم ، وقلت أن العالم قسمان علوى وسفلى ودخل فيهما أكثر العلوم لأنها كلها أفعال الله تعالى الداخلة فى آثار رحمته وتربيته للعالمين . وأقول الآن أيضا فوق ماتقدم أن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية اللتين دخلتا فى تربية العالمين يلحقهما صناعات كثيرة ، فمنها علم البنكامات (آلات قياس الزمن كالساعات المعروفة) وعلم جر الأثقال : كقطر السكك الحديدية ، وعلم انباط المياه ، وعلم الآلات الحربية كالمجانيق وغيرها ، والغازات الخانقة الموقظة للأمم النائمة ، فأيقظت أهل الشرق من سباتهم . وهذا من عجائب التربية ، وكالمدافع الفتاكة بالغافلين ، وعلم المرايا المحرقة ، وعلم عقود الأبنية لتشييد المساكن وشق الأنهار ، وعلم المناظر لمعرفة أشكالها وأوضاعها ، وعلم مراكز الأثقال ، وعلم المساحة ، وعلم الطب ، وعلم الزراعة . وهذان الأخيران يتبعان علوم الطبيعة ، وأما ماقبلهما فمن الرياضيات تتفرع وكلها داخلة فى تربية العالمين . واعلم أن جميع الصناعات ما كان منها وما يكون ترجع إلى هذه الموجودات ، فاذا رأيت النجار ، والحداد ، والخراط ، والزجاج ، والجوهرى ، والصيرفى . فاعلم أن الأول تابع لعلم النبات ، لأن عمله فى الخشب . والثانى لعلم المعادن لأنه فى الحديد . والثالث فى النبات كالأول . والرابع فى المعدن لأنه فى الزجاج والزجاج رمل مخلوط ببعض المعادن . والخامس والسادس فى المعادن ، لأن الخامس فى الجوهر المستخرج من الصدف . والسادس فى الذهب والفضة ، هذا ماأردت ذكره فى العلم الثالث ، وهو علم الأفعال ، وقد دخل تحته أكثر العلوم والصناعات . العلم الرابع : ذكر المعاد وفيه الجنة والنار والنعيم والجحيم والثواب والعقاب والقرآن طافح بذلك ، وهو هنا فى قوله (مالك يوم الدين) . العلم الخامس والسادس (الصراط المستقيم) وهو قسمان . الأول : ترك الضلال والفسوق والعصيان كالكذب والخيانة والزنا . والثانى : التحلى بالطاعات كالكرم والعلم والمساعدة ونشر العلم وما أشبه ذلك . العلم السابع : قصص الأنبياء والصالحين والمؤمنين والفضلاء وهو داخل فى قوله (الذين أنعمت عليهم) . العلم الثامن : قصص المغضوب عليهم والضالين ، وفى القرآن كثير من قصص الغاوين وتاريخ أعمالهم التى أورثتهم البوار والخسار ، هذه هى العلوم التى اشتمل عليها القرآن ، ودخلت فى ضمن الفاتحة ، فهل لذا سميت أم القرآن ، أو الكافية ، أو الوافية ، لاتكون بذلك

سرية ؟ بلى ، فالفاتحة أم القرآن بما بيناه ، كافية بما أبرزناه ، وافية كما قررناه ، فتعجب من المسلمين . واعلم أن القرآن أشبه بضوء الشمس الذى يجرى فى الجو ولا يظهر الا على سطح الأرض أو على جسم قابل ، فأما الهواء فانه لا يعكس ضوءها ولا يراه الطائر فى جو السماء : كذلك الأفئدة الخالية من العلم والحكمة يمر بها القرآن ولم القرآن ، ولا تشعر بمعانيها والضوء المشرق فيها ، وهم يقرءونها صباح مساء كذلك الطائر فى الجو السابح فى خارقه حتى اذا قرأ القرآن من يعرفه فهمه حق فهمه . واعلم أن هذا الزمان هو الصالح لظهور المقصود من القرآن فى بلاد الاسلام « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

ولم يبق من العلوم التى فى القرآن الا محاجة الكفار ويقوم مقامه علم التوحيد ، وعلم الأحكام الفقهية التى يقصد بها حفظ النظام الاجتماعى للأمة ، وانما احتيج لهذين العلمين لحفظ العقائد ولحفظ نظام المجموع ، ثم ان هذا التقسيم الأخير مستمدة أصوله من كلام الامام الغزالى مع زيادة وتصرف ، ومن هذا تعلم ان علم ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وهى العلوم المعروفة اليوم ، والصناعات مقدمات على علم الفقه وعلم التوحيد ، والأمم الاسلامية اليوم أحوج الى معرفة الكائنات لمعرفة الله ولبقائهم فى الدنيا ليزاحموا الأمم الغربية ، وهى أهم من معرفة علم الفقه وعلم التوحيد وجميع هذه العلوم فرض كفاية ، ولكن الفقه والتوحيد لم يظهرا ظهورا جليا فى الفاتحة : اللهم الا فى العبادات ، أما الفقه فيما عدا ذلك ، فلم تشتمل عليه ، والمسلمون يجب عليهم النبوغ فى علوم الكائنات لعناية القرآن بها والفاتحة خصوصا لدخولها ضمن تربية العالمين .

فاذا سمعت قول القائل : ان سر القرآن فى الفاتحة ، وقرأت الحديث المتقدم ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام لأبى « ألا أخبرك بسورة لم ينزل فى التوراة والانجيل والقرآن مثلها » ثم قال هى فاتحة الكتاب ، وهى السبع المثانى والقرآن العظيم ، ثم قرأت ما كتبناه بإمعان أدركت السر المصون وتجلت لك عظمة الفاتحة وعرفت معنى قوله صلى الله عليه وسلم فى الفاتحة « انها القرآن العظيم » وعسى أن يكون فتح لك باب قولهم : سر القرآن فى الفاتحة ، فمن هذا الطريق فلتسر ولتعلم أن ما كتبناه شذرة مما نعلمه ، ثم ما نعلمه ذرة من علم العلماء ، ثم علم العلماء ذرة من علم الله عز وجل ، فتعجب للنبوة وحكمتها وعلمها الواسع . ان هذا يفتح لك أبوابا تدخل منها لحصر عظمة الفاتحة ، وسرها أنها سبع آيات تؤدى معنى ست آلاف آية وهى جملة القرآن كله تقريبا ، ثم ان خروج الفقه والتوحيد من ضمن الفاتحة هو رأى الامام الغزالى ، ولكن عسى أن يكونا ضمن الصراط المستقيم أو التربية للعالمين ولو بطريق التبعية فتأمل فيما كتبناه عسى أنك فى غضونه تلقاه ، هذا ما فتح الله به وأردت إثباته فى تفسير الفاتحة « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

مقارنة فاتحة الكتاب بفواتح البلغاء وأصحاب المعلقات

لقد سبق الكلام على ما فى الفاتحة من الاشارة إلى العلوم وما تضمنت من الحكمة ، فلنذكر الآن نبذة مما تضمنت من البلاغة لتكون تذكرة وتبصرة لذى لب ، وإنما قدمنا الكلام فى العلوم لأنها أعم وأهم وأدعى إلى رقى الأمم الاسلامية وأدنى إلى حاجتها وأقرب إلى سعادتها . فنقول :

تأمل أيها العاقل الفطن ، وانظر بعقلك وإياك والتقليد ، بل ليكن نظرك عقليا وفهمك نفسيا ، واحذر أن تكون إمعة ، فها أنا ذا سأتلو عليك من أقوال الشعراء فواتح المعلقات وماشا كلها لتقارن بصفاء ذهنك ونور عقلك وصادق سريرتك بينها و بين فاتحة الكتاب لتعرف الفرق بين كلام الوحى وكلام الشعراء الذين كان لهم القدح المعلى فى سوق عكاظ وذى المجنة وذى المجاز ، وهم الخافضون الرافعون بذمهم ومدحهم كامرىء القيس

وطرفة

وطرفة بن العبد وزهير بن أبى سلمى ولبيد بن ربيعة ومن على شاكلتهم ممن طأطأت لهم الرؤوس ، وخلالهم الجو وخشعت لهم الأصوات ، وذلت لهم الرقاب ، وكانوا شموس الجماعات وسادات الشعراء :

ان للوحى لسمة ظاهرة وعلامة بينة ، ألا ترى أنه ينحو منحى الأمور العامة ، ويتعالى عن الجزئيات ومحقرات المقاصد ، فأما كلام الشعراء فى فواتحهم فهاك مقال امرىء القيس بن حجر بن حارث إذ ابتدأ قصيدته المعلقة ، وهى فاتحته فوصف أنه بكى واستبكى على حبيبته ومنزلها الذى بسقط اللوى بين الأماكن الأربعة ، وهى الدخول وحومل وتوضح والمقراة ، فقال :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ • بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا • لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

وطرفة بن العبد بن سفيان كانت فاتحة قصيدته أن قال ان خولة محبوبتى لم يبق لها الا آثار الديار الخفية التى صارت كآثار الوشم فى ظاهر اليد ، وهذه الآثار فى موضع ، وهو برقة ثهمد ، وهى مكان لبنى دارم اذقال :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ • تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ

وزهير بن أبى سلمى من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ • بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

أم أوفى كنية محبوبته والدمنة آثار الدار وما فيها من البعر والرماد وغيرها والحومانة ماغلظ من الأرض والدراج والمتثلم موضعان من العالية (يقول هل من منازل محبوبتى أم أوفى تلك الدمنة التى سألتها فلم تجبنى)

ولبيد بن ربيعة العامرى من الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية كانت فاتحة قصيدته أن قال : اندرست ديار محبوبتى وهى ما تحل فيه وتقيم ، وهى بالمكان الذى يسمى منى ، وقد توحش الموضعان اللذان فيها ، وهما الغول والرجام إذقال .

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا • بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا

وعمرو بن كلثوم كانت فاتحة قصيدته ، أن قال لجاريته : قومى من نومك ، واسقينى الخمر أول النهار بقدحك العظيم ولا تدخرى عنى شيئا من خمرة القرية المسماة الاندرين من قرى الشام كثيرة الخمر جيدته اذ قال :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا • وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

وعنترة بن شداد العبسىّ يقول : ماترك الشعراء شيئا يرقع الا رقعوه : أى ماتركوا فنا من فنون الشعر الا سلكوه ، ثم قال : أنا لم أعرف دار محبوبتى لطول عهدى بها إلا بعد عناء شديد اذ قال :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ • أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

والحارث بن حلزة اليشكرى قال : فى فاتحة معلقته فى حضرة الملك عمرو بن هند ، أعلمتنا أسماء بقرب ارتحالها فشق علينا ، ومن المقيمين من يملّ قربهم ، ولكن أسماء ماملناها اذ قال :

آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ • رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

والنابغة الذبيانى ، وهو زياد بن معاوية كانت فاتحة قصيدته أن قال :

يَادَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ • أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

العلياء المكان المرتفع ، والسند حيث يسند الى الجبل : أى برق ، وأقوت خلت ، والأمد الدهر ، يخاطب دار محبوبته مية متوجعا متأسفا على ارتحالها عنها وابتعادها عنه ، والأعشى ميمون بن قيس بن جندل كانت فاتحة قصيدته أن قال :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا * وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسَهَّدَا

أرمد : أى رجل أرمد ، والسليم اللديغ ، والمسهد الذى شرد عنه النوم ، يقول : انه أرق ليلة لم تغمض أجفانه ، كالأرمد الذى لايطيق انطباق أجفانه من حر مابها من الألم ، ولم ينم كأنه لديغ ، وعبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى أحد المعمرين ، يقال انه عاش عشرين ومائتى سنة كانت فاتحة قصيدته أن قال :

لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدَّفِينِ بِبَالِي * فَلِوَى ذِرْوَةٍ فَجَنْبَيْ ذِيَالِ

الدفين واد قريب من مكة ، واللوى منقطع الرمل ، وذروة وادلبنى فزارة ، وذيال رملة أخرى ، يقول ان الدفين ، والذروة ، وذيالا ، وهى منازل الاحبة لها آثار ظاهرة ورسوم شاخصة تذكر بماسبق لنا من لذيذ العيش .

فهأناذا أتيت لك بفواتح لعشرة من فحول شعراء الجاهلية ، وهل خرجت فواتحهم عن آثار الديار ، وفراق المحبوبة ، والتحسر ، والتوجع عليها ، وذكر سهر العين ، ورمدها وشرب الخمر بالقدح ؛ وهل رأيت الامدارا واحدا داروا جميعاً فيه ، أو ليست الفواتح يكاديتحد معناها ، وان اختلف مبناها ، وهل ترى هذه المعانى التى طرقوها فى فواتحهم رافعة رأس الانسانية ، أو بانية لها صرحا ، أو شائدة لها ذكرا ، أوناظمة لها عقدا ، أو مربية لها أمة ، أوسانة لها قوانين ؟ كلا ، وانما هى كلمات محدودات فى معان ضئيلات يذكرها الفتى أيام صبوته ، ولاتبقى له أيام كهولته لم تخرج عن مداعبات غراميه ، وأنات شوقيه ، قد يقولها الشاعر تمكنا لاغراما واتباعا لاابتداعا ، واحتذاء لاابتداء ، فلعمرى لقد بهر العرب ، وسحرهم أن سمعوا هذه الفاتحة ، فقيل لهم أيها الناس تبركوا باسم الحكم الرحمن الرحيم ، ولا تتنزلوا الى صغائر الأمور بمدح الملوك وارتبؤا بأنفسكم عن ذلك فاحمدوا من رفع السماء وبسط الارض ، واطلبوا منه الهداية .

أقول أيها الذكى اللبيب بمثل هذا فلتعرف البلاغة فى القرآن ، وبهذه الطريقة وأمثالها تزن كلام القرآن وكلام العرب ، وقد مهدت لك الطريق ، وبسطت لك السنن فى البلاغة ، فانظر فى أوائل السور ، وأوائل قصائد الجاهلية مثلا ، وكذلك نمط القرآن فى المعانى والمقال ، ونمط كلام شعرائهم ، وهذا هو النمط الذى جرى عليه العرب فى تعظيمهم القرآن ، ألا ترى كيف يقول بعض سادات قريش ، لما أنطلق إلى رسول الله ﷺ ليفتك به ، فسمعه يقرأ « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » وكان ذلك فى صلاة المغرب فلم يصبه بأذى ، ورجع إلى قومه ، وقال والله لو كان من كلام العرب لعرفناه ، وان أسفله لمغدق ، وان أعلاه لمثمر ، وانه يعلو ولا يعلى عليه الخ .

وتأمل فى قصة اسلام عمر رضى الله عنه أن رجلا من قريش لقيه فى بعض طرق مكة ، فقال أين تذهب ؟ إنك الصلب القوى فى دينك ، وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك (أى دين الاسلام) قال : وماذاك ؟ قال أختك قد صبأت (خرجت عن دينك) فرجع مغضبا فقرع الباب على أخته فدخل عليها ، وقال ياعدوة نفسها قد بلغنى عنك أنك صبأت ، ثم لطمها لطمة شج بها وجهها وأمسك بلحية زوجها سعيد بن زيد وضرب به الأرض ، ولما رأت أخته الدم بكت وغضبت ، وقالت أتضربنى ياعدو الله على أن أوحد الله لقد أسلمنا على رغم أنفك يابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل . قال عمر رضى الله عنه فاستحييت حين رأيت الدم فقمت وجلست على السرير وأنا مغضب ، فنظرت فاذا كتاب فى ناحية البيت ، فقلت أعطونى هذه الصحيفة فأبت

أخته

أخته أن تعطيه إياها ، وقالت إنك رجس فانطلق فاغتسل فانه كتاب لا يمسه إلا المطهرون ، فلما اغتسل ناولته الصحيفة ، فاذا فيها « بسم الله الرحمن الرحيم » . قال عمر ، فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى ، وجعلت أفكر من أى شىء اشتق ؟ قال : ثم رجعت إلى نفسى وأخذت الصحيفة فاذا فيها « سبح لله مافى السموات والارض ، وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ، وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها » الى قوله « إن كنتم مؤمنين » فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، واطلع على أخرى فوجد فيها « بسم الله الرحمن الرحيم : طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات وما فى الأرض ومابينهما وما تحت الثرى . وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » قال رضى الله عنه فعظمت فى صدرى ، وقلت من هذا فرت قريش .

قال مؤلف هذا الكتاب : وأنا أقول من هذا تعرف البلاغة ، وبهذا كان العرب يدركونها فانهم يعرفون الفرق بين قوله « ألا هبى بصحنك فاصبحينا » وبين قوله تعالى « له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » وكلاهما فى فاتحة الكلام ، ثم لما بلغ قوله تعالى « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » قال ماينبغى لمن يقول هذا أن يعبد غيره ، دلونى على محمد الخ .

ومن ذلك : أنه ﷺ ، ومعه أبو بكر لقى سادات بنى شيبان بن ثعلبة ، وهم مفروق بن عمرو وهانئ ابن قبيصة ، ومثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك ، وكان مفروق بن عمرو أجلهم وجها وأفصحهم لسانا ، ضرفهم أبو بكر بشأن رسول الله ﷺ ، فقال مفروق إلام يدعو ؟ فتقدم رسول الله ﷺ ، وقال « أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنى رسول الله وأن تؤوونى وتنصرونى فان قريشا قد تظاهرت : أى تعاونت على أمر الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق ـ والله هو الغنى الحميد » . قال مفروق وإلام تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ فقال رسول الله ﷺ « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » قال مفروق ماهذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان من كلامهم لعرفناه ، ثم قال وإلام تدعو أيضا ياأخا قريش ؟ فتلا رسول الله ﷺ « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » ، فقال مفروق : دعوت ، والله الى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفك قوم صرفوا عن الحق وكذبوك وظاهروا : أى عاونوا عليك .

آيات العلوم والاخلاق : فى سورة الفاتحة

سورة الفاتحة كلها آيات علوم ، ولنا أن نجعل القسم الثانى منها أخلاقا ، فان الهداية الى الصراط المستقيم وما بعدها تفيد تهذيب النفوس

تفسير سورة البقرة

مدنية ، وهى مائتان وستة وسبعون آية

(تقسيم سورة البقرة الى بابين عظيمين)

الباب الأول

من قوله تعالى (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) الى قوله تعالى (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر) .

وهذا القسم : غلب فيه التوحيد ومحاجة اليهود ، وفيه عشرة مقاصد ﴿ والباب الثانى ﴾ من قوله تعالى (ليس البرّ أن تولوا وجوهكم) الى آخر السورة ، وغلب فيه الأحكام الشرعية ، وفيه عشرة مقاصد

مقاصد الباب الأول

مدح القرآن . و بشارة المؤمنين . ذمّ المنافقين والكافرين . ضرب مثلين لحال الطائفتين المؤمنين والمنافقين . نداء عام للناس أن يؤسسوا الايمان على قاعدة النظر فى السموات والارض . كيف بدء الخلق . خلق آدم . وكيف تشير القصة الى قوّة الغضب والشهوة وقوّة العقل بابليس وحوّاء والعلم . ذكر بنى اسرائيل . وأنهم ضلوا واتبعوا الشهوات ، وذلك فى فصلين .

الفصل الأول و به عشرة يواقيت

تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون . فرق البحر لهم . إغراق فرعون . إعطاء التوراة لموسى . توبة الله عليهم بعد الذنب . تظليل الغمام . إنزال المنّ والسلوى . الأعين المنفجرة . تعنتهم وطلبهم الشرف . مسألة البقرة وكيف ظهر بها القاتل .

« تلك عشرة كاملة » وهذا آخر يواقيت الفصل الأوّل من المقصد السابع فى الباب الأوّل من سورة البقرة .

الفصل الثانى من المقصد السابع من الباب الأول من سورة البقرة و به خمسة مقاصد

المحرّفون لكتاب الله منهم وهم العلماء . المنافقون والاذكياء صرفوا ذكاءهم للمفسدة . الأمّيون ، وهم العامّة المقلدون . مجمل الآداب المنزلة على بنى اسرائيل وجماعة الأمم . تقريعهم على هنات ارتكبوها وارتطموا فى أوحالها ، وهذا المقصد يشتمل على ١٠ زبرجدات . قتلهم الأنبياء . إشرابهم العجل فى قلوبهم . دعواهم الاختصاص باليوم الآخر . عداوتهم لجبريل . نقضهم العهود . كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد اعترفوا به . اتباعهم علم السحر . إيذاؤهم للنبى بلفظ راعنا . تأييد النسخ بالحجة وتعنتهم على النبى كما تعنتوا على موسى بقولهم : أرنا الله جهرة . إرادتهم السوء بالمؤمنين ، ودعوى النصارى واليهود أنهم هم الناجون لا غير ثم ذكر المساجد وظلم أهلها الخ .

المقصد الثامن

قصة ابرهيم الخليل واسمعيل و بناء الكعبة بعد ذكر اسحق و بنيه وكأنه هدم اليهودية بنحو عشرين برهانا ، وأخذ يؤسس الاسلام على قواعد ابراهيم ويذكر بناء الكعبة ، ولم يكن دين اليهودية دين ابراهيم ولا يعقوب ، ثم دعوة الناس جميعا لدين واحد اتفق عليه الأسباط ونبذ النصرانية والتعميد .

المقصد التاسع

ذكر الله قصص آدم وقصص بنى اسرائيل وهدم اليهودية و بناء الاسلامية عليها بين النداء الأول العام وبين النداء العام الثانى ، وهو (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن فى خلق السموات والأرض) فقد قال أولا (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) ثم أعاد الكرة فأوضحه ، وقال (إن فى خلق السموات والأرض) ليبرهن بعلم الطبيعة .

المقصد العاشر

تقليد الرؤساء والآباء فى الدين والحلال والحرام جهلا ، وتقريع المقلدين الغافلين بعد تبيان الحقائق الناصعة فيما تقدم نفيا واثباتا * وهنا تم بيان مجمل المقاصد فى الجزء الأول ، فلنشرع فى تفصيله .

ابتداء التفسير

المقصد الأول

﴿ مدح القرآن و بشارة المؤمنين فى قوله عز وجل ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

التفسير اللفظى

(الم) ستقرأ الكلام عليها وعلى غيرها فى أول آل عمران وفى أول كل سورة مبدوءة بمثل هذه الحروف وستوف الكلام على أسرارها الخاصة بهذه السورة فى الملحق

(ذلك الكتاب) القرآن (لاريب) لاشك (فيه) أنه من عند الله (هدى للمتقين) يهديهم الى الحق ، وخص المتقين لأنهم المنتفعون به ، وان كانت دلالته عامة لكل ناظر (الذين يؤمنون بالغيب) يصدقون بما غاب عنهم كأمر البعث والحساب (ويقيمون الصلاة) يداومون عليها فى مواقيتها بحدودها

وإتمام أركانها ، وحفظها من أن يقع فيها خلل (ومما رزقناهم ينفقون) أى ومما أعطيناهم من الأموال يتصدقون و يؤدّون زكاة أموالهم (والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) كعبدالله بن سلام معطوف على الذين قبله (وبالآخرة هم يوقنون) الايقان : إتقان العلم بانتفاء الشك والشبهة (أولئك على هدى من ربهم) على رشاد ونور واستقامة (وأولئك هم المفلحون) الناجون الفائزون : نجوا من النار وفازوا بالجنة .

يقول عزّ وجلّ : إنى أرسلت رسولا حكيما ، فصيح اللسان كما ستررون فى هذه السورة من القصص ونتائجها ، والحجج وبدائعها ، والآيات وشرائعها ، وما فى هذه الآيات المنزلات الا جمل بليغات ، وهى حروف مركبات الم ، فما منعكم أن تنسجوا على منواله ، وتبنوا مجدا كما بنى ذلك الكتاب يهدى المتقين الذين جمعوا ثلاث صفات . الحكمة والعلم ، والبهما الرمز بالايمان بالغيب ، وتسخير البدن فى العبادة كالصلاة . وبذل المال مما رزقوا ، ثم خصص طائفة منهم بالذكر تشريفا لهم ، وهم الذين آمنوا بما سبق انزاله من الكتب وما نزل من الدين ، وما سيكون من اليوم الآخر : أى الماضى والحال والاستقبال تلميحا الى أن الانسان صاحب الدهر ، وعليه النظر فى حقيقة جميع الاشياء .

المقصد الثانى : وفيه غرضان

الغرض الأوّل : ذمّ الكافرين ، وتبيان أن فريقا منهم حرموا من الهداية ، وسجل عليهم الحرمان والطرد ، فان أنذروا أولم ينذروا فهم لا يؤمنون ، وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لاتمتاز عما للحيوان ولا تعلو بهم الى مصاف نوع الانسان فقد طبع على قلوبهم ، فهم لايفقهون الخير ، وعلى موضع سمعهم فلا ينتفعون بالحقّ ، وحيل بينهم و بين الانتفاع بما يبصرون : كأن على أعينهم أغطية . وهومعنى قوله تعالى .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظى

(إنّ الذين كفروا) جحدوا وأنكروا (سواء عليهم) أى متساو لديهم (أ أنذرتهم) أى خوّفتهم وحذرتهم (أم لم تنذرهم لايؤمنون) لايصدّقون (ختم الله على قلوبهم) طبع عليها (وعلى سمعهم) أى وختم على موضع سمعهم ، فلا يسمعون الحق ولاينتفعون به (وعلى أبصارهم غشاوة) غطاء فلايرون الحقّ (ولهم عذاب عظيم) شديد فى الآخرة .

الغرض الثانى : بيان حال المنافقين ، وأنهم ذوو باطن وظاهر متناقضين ووجهين مختلفين ، وأطال فى وصفهم وشرح سوء طباعهم وخبث نفوسهم ، وكيف يظهرون مالايخفون ، و يضمرون مالايظهرون ، وكيف تسوء عاقبتهم وتخبو نارهم لتعتبر بذلك فلا تقع فيما يحتالون ، فكم جلب الصديق الملق اللسان ضررا لايجلبه الأعداء ، وكم للعدوّ من فضل على الصديق المنافق ، وما أقلّ الصديق وما أكثر المنافقين فى كل زمان وهو .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ *

التفسير اللفظى

(ومن الناس من يقول آمنا بالله) وهم المنافقون : كعبد الله بن أبيّ ابن سلول وأضرابه (وباليوم الآخر) وبالبعث بعد الموت (وما هم بمؤمنين) فى السرّ ولا مصدّقين (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) الخداع الحيلة والمكر ، والمخادع يظهر خلاف مايبطن ، وهؤلاء يخادعون رسول الله والذين آمنوا : وضرر الخداع راجع اليهم . كما قال تعالى « ولايحيق المكر السيء إلا بأهله » ، والمتمادى فى الذنوب المعتاد لها ، لايشعر بنتائجها الكامنة فيه البادية فى سائر أحواله ، فهؤلاء أصبحوا وقد أكل الحسد قلوبهم وأحاط الجهل بها ، فصار ذلك مرضا لازما لها (فزادهم الله مرضا) باعلاء شأن النبي ﷺ وتضاعف النصر وتكرار الوحى (واذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض) بالكفر وتعويق الناس عن دين محمد ﷺ (قالوا انما نحن مصلحون) يعنى يقولونه كذبا (ألا) كلمة تنبيه (انهم هم المفسدون) فى الارض بالكفر (ولكن لايشعرون) لأنهم يظنون أن نفاقهم صلاح (واذا قيل لهم) أى المنافقين (آمنو كما آمن الناس) يعنى المهاجرين والانصار (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) الجهال (ألا انهم هم السفهاء) الجهال (ولكن لايعلمون) أنهم كذلك (واذا لقوا الذين آمنوا) كأبى بكر وأصحابه (قالوا آمنا) كايمانكم (واذاخلوا) أى رجعوا (إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) الشياطين كبار المنافقين ، والمستهزئ المستخف (الله يستهزئ بهم) يجازيهم (ويمدهم) يزيدهم ، والطغيان مجاوز الحدّ ، والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر (اشتروا الضلالة بالهدى) اختاروها عليه واستبدلوها به ، والربح فى الأصل الفضل على رأس المال .

(المقصد الثالث)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ

ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

التفسير اللفظى

(مثلهم) أى مثل المنافقين مع محمد ﷺ (كمثل الذى استوقد نارا) أوقد نارا (فلما أضاءت) أى النار (ماحوله) أى حول المستوقد (ذهب الله بنورهم) جواب لما والضمير للذى ، وجمعه للحمل على المعنى : كقوله « وخضتم كالذى خاضوا » (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) الهدى (صم) عن سماع الحق (بكم) خرس عن النطق به (عمى) لابصائر لهم (فهم لايرجعون) عن ضلالهم ونفاقهم (أو كصيب) أى كأصحاب صيب ، وهو المطر (من السماء) من السحاب (فيه) أى الصيب (ظلمات) جمع ظلمة (ورعد) هو الصوت الذى يسمع من السحاب . اقرأ إيضاحه فى سورة الرعد (وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم) الضمير لأصحاب الصيب (من الصواعق) جمع صاعقة ، وهى قصيفة رعد هائل معها نار ، وهذه المعانى كلها واضحة فى سورة الرعد مثل سابقتها فاقرأه هناك (حذر الموت) خوف الهلاك (والله محيط بالكافرين) عالم بهم وجامعهم فى النار (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يختلسها (كلما أضاء لهم) البرق (مشوا فيه) فى نوره (واذا أظلم عليهم قاموا) وقفوا فى الظلمة كذلك المنافقون (ولو شاء الله لذهب بسمعهم) بصوت الرعد (وأبصارهم) بوميض البرق (ان الله على كل شىء قدير) أى هو الفاعل لما يشاء اه التفسير اللفظى .

هاهنا أنشأ فصلا انتزعه من أصول هذه المشاهدات تخييلا لعقولنا وتدريبا على الأمثال وضربها وتشبيها المعقول بالمحسوس ، مثل حال المنافقين وقد تبوّءوا الاسلام ، وأظهروا الايمان فسعوا فى الحياة بنوره ، وحرموا بعد الموت من ثمره لما أضمرته النفوس من الجهل والعداوة بحال قوم باتوا فى ظلام ، فأوقدوا نارا أضاءت لهم الحالك وأرتهم المسالك وشرحت صدورهم وآنستهم بوجهها الجميل ، ثم خبت نارهم وأظلمت سبلهم وحلك ليلهم ذلك مثلهم .

المثل الثانى : يقول انظر السحاب المعصرات وهى تمطر والظلمات حالكة والرعد يزمجر والبرق يخطف .

تصوّر السحاب مظلمة مخيمة فى جوّ السماء وقد اكفهرّ وجهها وأرعدت وأبرقت وأمطرت : ان هذا وصف حال القرآن والكافرين ، فالعلوم فى الكتاب كودق السحاب وتوصيف الكفر والنفاق وذمّ الأصنام أشبه بالظلمات والحجج العقلية ، والبراهين الطبيعية على صدق الايمان أشبه بالبرق الخاطف للأبصار ، والوعيد والتخويف أشبه شىء بالرعد القاصف ، فكأنما هذا الكتاب مع أولئك المنافقين سحاب نشر ملاءته على الأنظار والظلام حالك والرعد يزمجر والبرق يومض وهم بين حزن وفرح وخوف وطمع وادبار واقبال وظلام ونور ، وهذا من أعجب الأمثال ، فان سمعوا البراهين العقلية أصغوا اليها وكادت تخطف أبصارهم وتميل عقولهم ، وان سمعوا ذمّ الأصنام نفروا معرضين كما يفعل أولئك السائرون فى الظلمات اذا برقت لهم بارقة تبعتها ظلمة حالكة .

(المقصد الرابع)

يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهٰذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِى بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *

التفسير اللفظى

(ياأيها الناس) خطاب لأهل مكة ، وياأيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة ، وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين (اعبدوا ربكم) وحدوه (الذى خلقكم) من نطفة (والذين من قبلكم) أى وخلق الذين من قبلكم (لعلكم تتقون) أى لكى تتقوا السخطة والعذاب (الذى جعل لكم الأرض فراشا) بساطا (والسماء بناء) سقفا مرفوعا (وأنزل من السماء) السحاب (ماء) مطرا (فأخرج به) بالماء (من الثمرات) من ألوان الثمرات (رزقا لكم) وعلفا لدوابكم (فلا تجعلوا لله أندادا) أمثالا (وأنتم تعلمون) بعقولكم أن هذه الأشياء والأمثال لايصح جعلها أندادا لله (وإن كنتم فى ريب) فى شك (مما نزلنا على عبدنا) محمد ﷺ (فأتوا بسورة من مثله) أى مثل القرآن ، أو من مثل محمد ﷺ ممن لم يحسن الكتابة ولم يجالس العلماء (وادعوا شهداءكم) استعينوا بآلهتكم (من دون الله) من غير الله (ان كنتم صادقين) فى مقالتكم (فان لم تفعلوا) فيما مضى (ولن تفعلوا) فيما بقى (فاتقوا النار) فاخشوا النار ان لم تؤمنوا (التى وقودها) حطبها (الناس) الكفار (والحجارة) حجارة الكبريت أو جميع الحجارة (أعدت للكافرين) هيئت لهم (وبشر الذين آمنوا) بمحمد ﷺ (وعملوا الصالحات) الطاعات (أن لهم جنات) بأن لهم بساتين (تجرى من تحتها الأنهار) أى من تحت شجرها ومساكنها (كلما رزقوا منها) أى كلما أطعموا من الجنة (من ثمرة رزقا) أى طعاما (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فى الدنيا

وقيل ان ثمار الجنة متشابهة فى الصورة مختلفة فى الطعم ، فاذا رزقوا ثمرة بعد أخرى ظنوا أنها الأولى (وأتوا به) بالرزق (متشابها) فى اللون مختلفا فى الطعم ، وهذه الجملة اعتراضية لتقرير ذلك (ولهم فيها) فى الجنة (أزواج) حور (مطهرة) من الحيض ونحوه ومن كل دنس (وهم فيها) فى الجنة (خالدون) دائمون لايموتون (ان الله لايستحي) لايمنعه الحياء (أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها) أى يبين للخلق مثلا فى بعوضة فكيف مافوقها ؟ يعنى الذباب والعنكبوت ، وذلك أن الكفار واليهود كانوا يقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ، وكيف يذكر الله هذه الاشياء الخسيسة ، فرد الله عليهم بانه لايستحي من ذلك ، وكيف يستحي من ذكر شيء لو اجتمع الخلائق كلهم على تخليقه ماقدروا عليه ، واعلم أيها الذكى أن هذا المقام مشروح موضح بالتصوير الشمسى فى آخر سورة الحج ، وهناك ترى أسرار هذه الآية ، وكيف كانت الذبابة وتشريحها موضوع درس فى المدارس العظيمة فى زماننا ، ومنه استخرج تقسيم أنواع الحيوان فاقرأها هناك واعجب من جمال الله و بدائعه هناك ، وفى سورة العنكبوت وصورها الشمسيه وعجائب الخلقة والحكم المودعة فيها ، فهناك هناك ترى عجائب كتابنا المقدس « فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (فأما الذين آمنوا) بمحمد ﷺ والقرآن (فيعلمون أنه) ضرب المثل (الحق) الصدق الثابت (من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى بهذا المثل (يضل به كثيرا) أى من الكفار لانهم يكذبونه فيزدادون به ضلالا (ويهدى به كثيرا) يعنى المؤمنين يصدقونه (ومايضل به) بالمثل (إلا الفاسقين) الكافرين والمنافقين واليهود ، ثم وصفهم فقال (الذين ينقضون عهد الله) أمر الله (من بعد ميثاقه) من بعد عقده وتوكيده (ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل) تقطع الأرحام والاعراض عن موالاة المؤمنين والتفرقة بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والكتب فى التصديق وترك الجماعات المفروضة وسائر مافيه رفض خير فذلك كله قطع الوصلة بين الله وبين العبد (أولئك هم الخاسرون) المغبونون حيث استبدلوا النقض بالوفاء ، والقطع بالوصل ، والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب ، انتهى التفسير اللفظى المجمل .

إيضاح وتفصيل

قيل المراد بالحجارة الأصنام التى كانوا يعبدونها ليروا نقيض ماكانوا يتوقعون ، وقوله ـ هذا الذى رزقنا من قبل ـ أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لأن النفوس تواقة الى ماكانت تألفه ، ولنعلم أن ذلك أقرب لقوله تعالى (ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم) ولذلك أمر الناس بالعبادة ، وضروب الحكمة ليرتقوا الى الدرجات التى تناسب مارضوا أنفسهم اليه فى الدنيا فتأمل ، وطهارة الازواج تكون من دنس الطبيعة وسوء الخلق ، وما يستقذر من أحوالهن كالحيض والنفاس كما تقدم .

عجب لهذا النظام ، وما أبدع هذا الترتيب ، انظر كيف ذكر المؤمنين والكافرين ، وأتبعهم بالمنافقين ، وجاء المثلان لتصوير حال المنافقين وشرح صورتهم الباطنة بالمشاهدات الطبيعية والعجائب الحكمية فى الآفاق وايضاح تلك المعانى التى خفيت فى النفوس بما يماثلها فى العالم المشاهد المحس من سحاب وماء وظلام وضياء فلا جرم أن ذلك دعاء حثيث الى تذكار العجائب الكونية وحب مافى العالم من البدائع الخلقية ، ذكر المثلين لتباين أخلاق المنافقين على نموذج البلغاء ، فتأمل كيف أتبعه بما هو المقصود الأتم ، والمنهج الأقوم من علم التوحيد وشرح عجائب الكائنات ، انظر وتعجب كأنه يقول : ها أنا ذا أبنت لكم سبل ذوى النفاق والكافرين وشرحت حالهم ، وليس ذكرها هو المعنى بذاته ، فلا تضع وقتك فى مناوشة الأعداء ، ومقاومة الخصماء وتعال عن تلك الطائفة العمياء ، واسلك سبل الحكماء ، وكأنما المثلان وسط متناسب بين المقامين ، مقام نبذ الضالين ، ومقام العلم والفضل المبين ، فقال (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) يقول : اعبدوا ربكم فانه خلقكم

وخلق

وخلق آباءكم ، وجعل فوقكم سماء تظلكم ، وتحتكم أرضا تقلكم . وقال لكم هاهوذا سحاب يمطر ، وهذه الأرض تنبت وتثمر « ومنها تأكلون » يقول آويتكم الى بيتى فسكنتموه فسماؤكم ممطرة ماء وأرضكم مثمرة هاأنتم أولاء تبنون وتسكنون ، فهل تستطيعون أن تنزلوا من سمائكم ماء عند حاجتكم وأن تنبتوا من حجركم فتأكلون خبزا وفواكه ، تأكلون من تحت أرجلكم وتشربون من فوق رؤوسكم ، تنظرون فترون الأرض يابسة ، فما أسرع أن تكسى جلابيب سندسية ، وتفرش أنماطا ملونة زبرجدية ، ثم تمدكم بما تأكلون ، وتعطيكم مابه تشفون ، الأرض مهاد لكم عليها تنامون وجمال لكم ولها تنظرون ، وغذاء منها تأكلون ، ودواء وجمال وحسن ونظام ، السماء قبة صافية ذات جلابيب زرقاء مرصعة بالدرارى الحسان ، والهواء بينهما يحمل الأضواء ، ويزجى السحاب ، ويقدر المطر ، وينزل الودق رحمة عظيمة وحكمة عميمة بهاء وجمال تخر لعظمتها العقول ، وتخضع لجلالها النفوس ، وتقر بأن هذه البدائع لامندوحة لها عن مبدع فطرها ، وحكيم نظمها وإله أتقنها (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أيها الناس أنتم أسرة واحدة أسكنتكم دارى وآويتكم الى فراشى ، وكسوت الارض لكم حللا بهجة للناظرين ، وصبغتها من كل صبغ وزينتها بكل لون وأوسعت لكم الأمد والمدد والبلد ، وجعلت سقفكم بهجا أزرق بهيا لطيفا نظيفا لم تبنوه بأيديكم ، أليس من عجب أنه قديم حديث وجديد عتيق لم يتغير منظره ، ولم تقدم جدته ولم تهرم الحسان من نجومه الباهرات وان شاب الزمان وهرم الهرمان ، ومن ذا يتصور سقفا يبنيه بلا بناء ، وينظمه بلا عناء ، ويبقيه بلا فناء ، ويبق حسنه بلا خفاء ، ألا ان نسبة المخلوق الضعيف للخالق العظيم ، كنسبة عمل الضئيل الى سقف السماء ذات الجمال والصفاء .

فصل آخر فى هذه الحكم الكونية

عجب أمر هذا الأسلوب من الكلام مثل للعلم والكفر ، والوعيد بذلك المثل مثل بديع رائع أراك السحاب والقطر والرعد والبرق جعلها مثلا لما عقلته النفوس وفقهته الفكر ، مثل الأرض بالآفاق وهلم على مانظمه الشعراء فى الجاهلية والاسلام ، ألم تر إلى امرئ القيس الجاهلى . وقد ضرب مثلا لقوة العقاب بقوله :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا ● لدى وكرها العناب والحشف البالى

وحسده بشار حتى قال بيته المشهور :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا ● وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

مثل الغبار . وقد علا تتخلله بيض السيوف بالليل الحالك تتساقط فيه الكواكب ، ولقد جاء من بعده ابن المعتز فى نحو القرن الثالث وأبدع فقال : ● وساق صبيح للصبوح دعوته ● إلى أن قال :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا ● على الجوّ دكنا والحواشى على الأرض

يطرزها قوس السحاب بأصفر ● على أخضر فى أحمر تحت مبيض

وصف السحاب بالسواد ، وأنها كست الجوّ وأسبلت حواشيها على الأرض . وقد زوّقت تلك الحواشى بقوس قزح ، وكأن منه جدد بيض وحمر وصفر وخضر وبنفسجى وبرتقالى وأزرق ، هذا أحسن ماتخيله قدماء العرب والمحدثون وتبينه المتقدمون والمتأخرون . فأما القرآن فقد امتطى غارب البلاغة وتعالى فى الفصاحة وسما إلى مقام لايصله منطيق ولا يدركه مصقع لبيب ، ألا ترى أن مقالهم فى وصف عقاب ، أو خمر ، أو شراب ، أو حرب ، أو ضراب ، ولم تحم يوما هذه المعانى الشريفة بعقولهم ، ولم تسم قط اليها نفوسهم رقة المعانى وجزل اللفظ فى القرآن وحسن العبارات ، فمثل الأخلاق النفيسة وأبرزها فى صورة محسة مشاهدة تهدى

إلى هدى وتدفع عن ردى وترفع أذى وتزيل غمة ، فبالله ما الذى يرفع من همة انسان من وصف طعام وشراب وسحاب حالك وقت شراب الراح وتعاطى الأقداح ، هاهنا تجلت البلاغة وسطعت شموسها ، ولما كان المثل المذكور مقتبسا من الكون منظوما من المشاهدات معروفا من المحسات ، أخذ فيما بعد ينقل النفس من الخيال الى الحقيقة والوجدان . وقال نحن وان ضربنا لكم الأمثال من الكون فانا واضعوه لكم لتفقهوه « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » الخ هذه هي العبارة الحكمية ، والآيات العلمية ، والعجائب الخلقية .

بدائع العلم

الأول : روى أن النبي ﷺ . قال لعمران بن حصين كم لك من إله ؟ قال عشرة ، قال فمن لغمك وكربك ودفع الأمر العظيم إذا نزل بك من جانبهم ؟ قال الله ، قال عليه الصلاة والسلام مالك من إله إلا الله

الثاني : جاء جماعة من الدهرية لأبي حنيفة رضى الله عنه ، فقال ماتقولون فى خشب قطع من الأشجار بلا نجار ، واجتمع ثم كون سفينة تجرى فى البحر ، وهى مشحونة بالاحمال مملوءة من الأثقال قد احتوشها فى لجة البحر أمواج متلاطمة ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ليس لها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا لا : هذا شىء لا يقبله العقل ، فقال أبوحنيفة ياسبحان الله اذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها ، وتغير أعمالها ، وسعة أطرافها ، وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ فبكوا جميعا ، وقالوا صدقت .

الثالث : سأل جماعة من الدهريين الشافعى رضى الله عنه ، ما الدليل على وجود الصانع ؟ فقال ورقة الفرصاد (التوت) طعمها ، ولونها ، وريحها ، وطبعها ، واحد عندكم ؟ قالوا نعم : قال فتأكلها دودة القز فيخرج منها الابريسم والنحل ، فيخرج منها العسل والشاة ، فيخرج منها البعر ويأكلها الظبى فينعقد فى نوافجها المسك ، فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد فاستحسنوا منه ذلك وأسلموا على يده ، وهم سبعة عشر . قال أبو نواس :

تأمل فى رياض الأرض وانظر ۞ الى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات ۞ وأزهار كما الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ۞ بأن الله ليس له شريك

الرابع : قال الفيلسوف هربرت سبنسر المتوفى فى بريطن مدينة من بلاد الانجليز سنة ١٩٠٣ فى كتابه فى التربية : العلم الطبيعى لايناقض الدين ، ونقل عن الأستاذ هكسلى ماياتى [العلم الطبيعى الصحيح والدين الصحيح توأمان اذا انفصل أحدهما من الآخر خواصر بعين وماتا حتف أنفهما] ثم قال سبنسر : متى اتفق العلم والدين نموا نموا صحيحا ، فالدين نمو بامتداد جذوره و تغذية أصوله فى رياض العلم الصحيح ، والعلم الصحيح يؤيده الدين ويشد ازره ، فيكون قويا متينا .

ألا وان الفلاسفة الذين أعمرت أذهانهم أجل الأعمار ، وأفادوا النوع الانسانى بجميل علومهم انما كان ذلك بباعث دينى بعثهم على التفكر والبحث ، وذلك أحرى من أن ننسبه لتلك الاذهان وحدها ۞ ثم قال : من ذا الذى يرى منافاة الدين للعلم ، ألا انما المنافى للدين هو ترك العلم والجهل بما أحاط بنا من المخلوقات ۞ ثم ضرب مثلا ، فقال لو أن الناس أخذت تمدح مؤلفا عظيم الشأن ، عالى الصيت ، رفيع المنزلة ، وهم لم يفتحوا له كتابا ، ولم يقرءوا له حرفا ، وانما كانوا ينظرون إلى ظواهر شكله ، وتزويق جلده فما قيمة تلك المدائح ، وما معنى ذلك الثناء انما هذا هراء ، إذا عرفت هذا فالناس جميعا هم هؤلاء المادحون ، والله منظم الكون

والكون تألفه ، فلعمري ماأجهلهم حين يثنون عليه . وهم عن عجائبه معرضون ، وما كفاهم أن صرف أذهانهم عن المعرفة حتى أخذوا يحقرون من أظهر اهتماما بشأنها وصرف وقته فى تحصيلها * ثم قال : لذلك أكرر القول : ان مخالفة الدين ليست بدراسة العلم الطبيعى ، بل هى فى تركه والانصراف عنه .

ألا وان التوجه للعلم الطبيعى عبادة صامتة وتسبيح عملى * ثم قال : ان العلم الطبيعى موافق للدين ومقوله ومؤيد له من جهات كثيرة ، أولا يرى الانسان عالما منظما بحركات ثابتة جارية بقانون لاتتخطاه ، وناموس لاتتعداه ، وهذا النظام يدل على قوة وراءه وحكمة أبدعته وسوته أحسن تسوية .

العلم الطبيعى يعرفنا سبب الكائنات معرفة صحيحة ، ويعرفنا أن النتائج تتبع المقدمات والمسببات الأسباب وأن العقاب والثواب مرتبطان بالأعمال ارتباط المسببات بالأسباب فيوقن الطالب ايقانا تاما بهما ، وان ذلك ارتقاء فى معارج الكمال والسعادة العليا .

والعلم الطبيعى يعرفنا أن لنا حدا محدودا لانتجاوزه فى العلم ، فلا نتخطى الى معرفة السبب الأول وحقيقته ، فالعلم لايستبد بنا فى تعريفنا صانع الكائنات ، ولكنه يهدينا الى الحدود التى لانتجاوزها ونقف دونها ، فلا نصل الى كنهه ومعرفة حقيقته .

ان هذا العلم يرفعنا عن الوقوف أمام التقاليد الموروثة الخرافية ، ولكننا عند مانصل الى حدود المحيط العلمى الذى وراءه ذلك السبب الأول ، وهو صانع الكون أقررنا بالتواضع ورجعنا خفى حنين .

ثم قال : وإياك أن تظن أن عالم الطبيعة من يعرف التحليل الكيماوى أو يقرأ الهندسة ، وانما نعنى به ذلك العالم الذى يتخذ أسافل الحقائق سلما لأعاليها حتى يبلغ الحقيقة العليا ، ومن ذا سواه يعرف الهوة السحيقة الفاصلة مابين ذلك الصانع الحكيم الذى جعل الطبيعة ، والحياة والعقل من مظاهر ذاته ، وبين العقل الآدمى والفكر الانسانى . ان الفرق لعظيم اهـ باختصار .

أقول : أيها الفطن اللبيب ، اعلم أنى عند كتابة هذا الموضوع فى هذه الأسطر كنت أشعر بألم فى النفس وأسف واعترتنى دهشة ما كنت أشعر بها واهتاجت أعصابى ، وقلت فى نفسى ياليت شعرى : أى الفريقين أحق بالشكوى والأسف ، أنحن أم فلاسفة الانجليز كالعلامة سبنسر الذى نحن بصدد الكلام فيه ، يقول ان أقواما يزدرون المبتهجين بالمعارف الطبيعية ولا يعبئون بها فهم يصدون عن سبيل الهدى وهم لايهتدون يقول هذا شاكيا بائسا ، ولئن شكا مرة لأشكون ألفا كيف لا ؟ وأمته عالمة ، وأمتى جاهلة ، وأمته حاكمة ، وأمتى محكومة ، وأمته قوية ، وأمتى ضعيفة ، وأمته راقية فى التجارة ، والصناعة ، والزراعة ، والامارة ، والسلاح ، والكراع ، وأمتى على نقيض ذلك ، فهو يشكو أمته طالبا المزيد ، وأنا أشكو لضنكها وضعفها أنا أحق بالجد والتشمير لذلك يشكو ، ودينه المسيحى لم يكن مؤسس القواعد على الطبيعة ، وأنا أشكو لأن دين الاسلام مبناه الفطرة وعماده دلائل المخلوقات الطبيعية ، خالفنا الدين والعلم فكنا أول فريسة للقانصين .

مالى أرى أمة الاسلام نائمة مالى أرى سفينتها تجرى بلا ملاح ، أيجوز فى دين المروءة ، ومنهج العقل أن يسبقنا الفرنجة بذلك ، والعلم علمنا ، والدين ديننا ، ومن أعجب العجائب بل من أبكى المبكيات أن كثيرا من الشبان يحقرون الديانات اتباعا لسبنسر ، ويقولون أنه ينكر الله أو ليس مما يذيب القلب ويوقع الأسى فى النفس أن بعض الشبان يجهلون العلوم التى عند الفرنجة ويدعون أنهم بها عالمون يدعون أنهم قرءوا مذهب سبنسر ، ومذهب داروين : وهم كاذبون فيما يدعون ، فوالله ماأغرانى بقراءة الكتب الانجليزية الا مارأيت من دعوى هؤلاء الجهال .

يقول سبنسر العلم الصحيح والدين توأمان ، أوليس هو دين الاسلام ، أوليس قوله تعالى فيما نحن بصدده

« يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » ، ثم شرح الارض والسماء وجمالهما (علم الطبيعة) أو ليس دين الاسلام هو هذا العلم

يا أمة الاسلام أطلقة الحق وصل جهلنا بديننا الى أرفع صوتى أمامكم أيها المسلمون ، وأقول : أبعد تجارب ألف وثلثمائة سنة تكون أجهل الأمم بالدين ونجتزئ بعلم التوحيد ، وتلك الكلمات الجدلية فيه ، وهى - لاتسمن ولا تغنى من جوع - ولقد وضعت لغرض خاص ، فكيف تكون للعموم .

أيها المسلمون : ان الخزى الذى حاق بنا ، والسوء الذى أحاط بنا انما منشؤه جهلنا فى القرون الاخيرة ، ويقول سبنسر : ان الدين هو السبب فى سوق النفوس الى علم الطبيعة ، فيا العجب انى قرأت التوراة والانجيل فلم أجد فيهما من علوم الطبيعة الا آثارا ضئيلة منحرفة ، والقرآن هو الذى يأمر بالطبيعة وفهمها ، فاذا كان الدين الذى لاعلم فيه يصبح غنيا بالفلاسفة والحكماء فما بالك بالقرآن الذى لوعلم حق علمه لكان أكثر أتباعه والجانيين منهم أكابر الحكماء ، أفلا ينبغى أن يكون أكثر العقول الكبيرة من أتباعه ، أو ليس قوله تعالى « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » الى قوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » يشير إلى المعنى الذى قاله سبنسر : وأن علم الطبيعة به تكون العقول الكبيرة الناظرة فى الماء ، والأشجار ، والثمار ، والجبال ، واختلاف الألوان فتخشى الله وأولئكم العلماء ، أفليس هذا هو دين الاسلام .

وأما المثل الذى ضرب به سبنسر بالمؤلف ومدح الناس له مع جهلهم بما فى الكتاب ، فلقد رأيت نظيره فى كتب أسلافنا ، كقول بعض القدماء فى إخوان الصفاء مامعناه : العلوم التى تقروها أربعة : كتاب الله ، وكتاب الطبيعة ، وكتب الحكماء ، وكتاب النفس الانسانية ، ومعرفة عجائبها .

وأما تعجبه من اعراض الناس عن العلم وعجائب الطبيعة فذلك كثير فى القرآن ، كقوله تعالى « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وأما قوله ان العلم الطبيعى عبادة صامتة ، فاعلم أن هذا هو الذى عليه مدار الاسلام ، كما فى هذه الحكمة « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » وجاء فى حديث أن النبى ﷺ قال « لقد أنزلت على الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتدبرها ويل له ويل له » ، ثم قرأ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء » الآية ، واعلم أن هذه الآية كانت السبب فى محبتى بحث الطبيعة ، وإنى وجهت وجهى تلقاءها فى أوائل أيام تعليمى ، ولولم أطلع عليها ماتوجهت هذا التوجه منذ أيام الشباب .

وأما قوله : العلم الطبيعى معقو الدين والدين معقوله ، فاعلم أن الامام الغزالى يقول الدين دواء والعلم غذاء ، وليس الدواء يغنى عن الغذاء ولا الغذاء يغنى عن الدواء .

وأما قوله ان علم الطبيعة يعرفنا بلا استبداد أن لنا حدا لانتجاوزه ، فلا نصل الى معرفة صانع العالم وحقيقته فهو الذى ورد فى الحديث « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فان التفكر فى ذات الله اشراك » وورد أيضا أنه ﷺ قال « إن الشيطان ليقول لأحدكم من خلقك ؟ فيقول الله ، فيقول ومن خلق الله ، فاذا قال ذلك فليقل أحدكم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لايعرف الله إلا الله » .

حكاية

سألنى تلميذ وأنا مدرس بالمدرسة الخديوية ، فقال وفى يده كتاب انجليزى ان سبنسر ينكر الله ، فقلت أسمعنى قوله ، فقال يقول : ان الله إما أن يكون خلق نفسه وإما أن لايخلقه أحد ، فان كان الأول فهو

مستحيل

مستحيل لأن الشيء يكون متقدّما على نفسه وهو باطل ، وأمّا الثانى فباطل أيضا لأنه لاموجود بلا موجد ، فقلت أو تظن أن هذا كفر ؟ قال نعم ، قلت كلا »

واعلم يابنيّ أن هذا شذرة من أقوال علمائنا ، بل قطرة من بحر وذرة من جبل ، فقد حققوا هذا المقام وأفرغوا فيه جهدهم ، فلقد برعوا فى المباحث العقلية كما برع الفرنجة فى الصناعات الحربية الآن ، ألا ترى ماقرّروه أن المعلومات التى تصل لنا لاتكون إلا من طرق أربع : طريق الحواس كالسمع والبصر ، وطريق ماندركه من أبداننا بالوجدان ، كالألم واللذة ، والجوع والعطش ، والفرح والحزن ، والغيظ والحقد والابتهاج ، وطريق العقل كالعلم ، بأنه إذا زيد على شيئين متساويين شيئان غير متساويين فالمجموعان يكونان غير متساويين ، وكذلك إذا نقص من المتساويين شيئان غير متساويين ، فالباقيان يكونان غير متساويين ، والطريق الرابع ماندركه مستنتجا بطريق المنطق من هذه الثلاثة ، فهذه الطرق الأربعة هى التى لاعلم البشر بالتحقيق إلا منها ، وهنا يقال كيف عرف الناس الله ، أذاته تعالى عرفوا ، أم وجوده ، أم سائر صفاته ؟ وبالتحقيق أنه لم يعرف الناس إلا أنه موجود أوّلا ، وأنه دائم الوجود ثانيا ، وأنه منزه عن المادة وجميع الحوادث ، وهى المسماة صفات الجلال ثالثا ، وأنه متصف بصفات الاكرام ، وهى صفات المعانى كالقدرة والارادة والعلم الخ هذه هى الصفات التى عرفها الانسان بالطرق المتقدّمة ، أما معرفتهم ذاته فذلك أمر غائب عن العقول لايتهيأ لها الوصول إليه ، وليس ذلك بداخل فى الطرق المتقدّمة الأربعة للمعرفة فلا هى بطريق حواسنا ولا وجداننا ولا البديهيات ولا مايستنتج منها ، وهذه هى الطرق التى بها سائر العلوم والكشف والاختراع ، فأما ذات الله فلا تعرف بواحد منها .

وقالوا أيضا ان المعرفة على قسمين : معرفة ذاتية ، ومعرفة عرضية ، فاذا رأينا تمثالا هندسيا منظما متقنا جميل المنظر حسن الشكل بهيّ الطلعة حصلت لنا هنا معرفتان : معرفة ذاتية ومعرفة عرضية ، أما المعرفة الذاتية فانا نقول هذا اللون ، وهذا المقدار ، وهذا الشكل الذى نظرناها بأنفسنا ، وهذه النعومة ، وهذه الخشونة ، وهذا الثقل ، وهذه الخفة التى لمسناها بأيدينا كلها حقائق ذاتية فانه لاحقيقة للون ولا للمقدار ، ولا للشكل ، ولا النعومة ، ولا الثقل ، ولا الخفة ، إلا هذا الذى أدركناه ، وأما المعرفة العرضية فانا نقول هذا الشكل الجميل لابدّ أن يكون له فاعل وعلمه وقدرته على مقدار مابرز لنا فى صفاته المشاهدة فهذه معرفة عرضية فانا لاندرى ذات ذلك الصانع ولاطوله ولاعرضه ولاأوصافه الظاهرية والباطنية ولاطباعه ، وإنما نعرف منه على مقدار ماوصل إلينا من ذلك التمثال فمعرفة الله لنا من القبيل العرضى ، وليس من الذاتى (هذه أقوال علمائنا رحمهم الله فى اثباتهم العجز عن ادراك ذات الله تعالى) وهكذا ورد عن رسول الله ﷺ قال وكيف ذلك ؟ قلت لأن النبى ﷺ « يقول اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك و بمعافاتك من عقوبتك وبك منك لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ومعنى هذا لايعرف قدرك إلا أنت ، فكيف يمكننى أن أعرف صفاتك ، بل أنت الذى تعرفها ، فيكون منك الثناء وإليك يعود : وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه « العجز عن الادراك إدراك » وأما قول سبنسر العالم الطبيعى ليس من يعرف التحليل والهندسة الخ ، وإنما هو من يرتقى فى الأسباب فقصده بذلك العلم الأعلى فى فنّ الفلسفة الذى حرمت منه الأمة الاسلامية فراغ الطلاب وتاهوا فى بيداء الجهالة لأنهم قرءوا قشورا من العلوم الجزئية وجهلوا العلم الكلىّ أو العلم الأعلى الذى يبحث فى سائر العلوم وهى تستمد منه . وقال القدماء من علمائنا ان قراءة العلوم الجزئية تورث الضلال ، فأما قراءة العلوم الكلية فانها تعرّف الانسان ربه ، وقالوا أيضا فى قوله تعالى « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلاهو العزيز الحكيم » ان مرتبة

الملائكة فى العلم بعد الله ، ويليهم أولو العلم الذين يعرفون نظام هذا العالم المتقن لمعرفتهم حقيقة هذه الصنعة وتركيبها وانها مسيرة بنظام متقن .

واعلم أن العلم المنتشر فى مدارسنا المصرية مبعثر منتثر لايهدى الطالب ولاينير المسالك بخلوه من العلم الأعلى ، فتأمل وتعجب من أمة الاسلام النائمة . وقد آن أن تقوم من نومها وتستيقظ من غفلتها ، وأما قول سبنسر : ان الثواب والعقاب نتائج للأعمال ونظام الطبيعة يعرفنا ذلك ، فقد شرحه أكابر علمائنا كالغزالى ، فما قال فى ذلك مامعناه : إياك أن تقول ان الله يغفر لى ، وانما الثواب والعقاب نتائج لابد من حصولها اه ، ولكن المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها نائمون ، اللهم اهد أمتنا وأيقظها من غفلتها انك أنت السميع العليم .

وإنما أطلت فى هذا المقام لعلمى أن أكثر الشبان المتعلمين فى ديار الاسلام لم يبقوا مع العامة مقلدين ولاهم من الحكماء المحققين ، وانما هم فى وسط الطريق ، فلا إلى العلو وصلوا ، ولا الى أسفل نزلوا فما أحراهم أن يعكفوا على العلوم حتى تطمئن نفوسهم وترتقى مدنهم ويتم نظامهم وتكون أممهم من الأمم العظيمة القوية المتينة بهذا أمرنا الله بقوله « ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم » إلى آخر الآية .

ولما فرغ سبحانه من وصف الأرض والثمار والعجائب التى ذكرها والحكم التى صورها أخذ بذم الأصنام وينهى عن عبادتها .

تفصيل الكلام على الأنداد وعبادة الأصنام

أريد فى هذا المقام أن أشرح بقول وجيز مسئلة الأصنام وعبادتها كما شرحت فى أواخر سورة الفاتحة البلاغة ومقارنة القرآن بكلام العرب وكما سترى فى تفسير قوله « وأتوا به متشابها » مسئلة الجنة والنار ومراتب السعداء ومسئلة ترتيب النجوم فى عصرنا عند قوله « سبع سموات » ومسئلة نفس الانسان وجسمه عند قوله « خليفة » والكلام على الملائكة ، وهل هم يثبتون بالعقل أم يكتفى فيهم بالنقل بمناسبة قوله « واذ قال ربك للملائكة » حتى اذا طال الأجل ووصلنا فى التفسير إلى آيات أخرى فى هذه المعانى أشرنا إلى الرجوع إلى ماذكرنا هنا ليقل التكرار وليقف القارئ على عجائب العلم وغرائب الحكمة فى غضون التفسير والله يهدى من يشاء الى الصراط السوى ، فلنشرع فى موضوع الأوثان فنقول : لأخص لك ماعثرت عليه فى هذا المقام قديما وحديثا حتى لايشذ عنك شىء منها وتطلع على آراء الأمم والأجيال الغابرة والحاضرة .

اعلم أن عبادة الأوثان قديمة العهد بعيدة المدى درجت عليها الأمم البائدة واتبعتها الحاضرة ، وأنت لو سرت فى بلاد الصين واليابان والهند لرأيت الأوثان ماثلة أمامك معبودة ، والناس حولها ملتفون عابدون خاشعون حامدون راكعون ساجدون ، وأنت ترى أن أهل الصين قوم فيهم العلماء والحكماء قديما وحديثا وهكذا الهند ، واذا أبيت إلا المدنية الحديثة والنبوغ فى فنون القتال والحرب وجندلة الأبطال وغلبة الأمم والتفوق فى الحرب ، فهاك أمة اليابان عابدة الأصنام كثيرة التماثيل ، تلك الأمة التى تعبد إلها له جوادان عليهما يركب ذلك الاله جاثمان دائما بإدارة المعبد بجوار تمثاله ، وهذان الجوادان من أسعده الحظ وقدم إليهما قبضة من شعير يوم خروجهما فى الأوقات المعلومة ، فقد نال حظا عظيما لأنه قبلت هديته لجواد الاله ؛ هذا مثل من أمثال عبادة الأوثان ببلاد اليابان اليوم . وهنا يقال هل يعقل أن أمرا تأباه الفطرة وينقضه العقل وهو بديهى البطلان يبقى مع طول الزمان وفناء الأجيال ويعمر فى الأرض ويبقى هكذا الى يوم العرض : هل يعقل أن يكون هذا الانسان قد بلغ من البلاهة حدا : بحيث لايعرف أن هذا الحجر الذى نحت أمامى من الجبل لم يخلق السموات والأرض وما بينهما ولم يخلق أنفسنا ونحن الذين أوجدناه وهندسناه وأبرزناه .

ان

ان العقل يأبى أن يصدّق أن هذه الأمم العظيمة الكبيرة الحكيم علماؤها تبق مخدوعة هكذا : آلافا وآلافا من السنين ، إذن لابدّ أن يكون هناك أصول رجعت اليها وعوامل عوّلت عليها وأحوال فقهتها حتى بقيت تلك الديانات فيها ، وهل يدوم مالا أصل له ؟ وهل الخداع له ثبات ؟ ، فلأذكر ماعثرت عليه للجواب على هذا ، فأقول : يقول الامام الرازى : انه لم يكن فى الأرض أمة تقول ان لله شريكا يساويه فى الوجود والقدرة والعلم والحكمة ، وهذا مما لم يوجد إلى الآن ، ولكن الثنوية يثبتون إلهين : أحدهما حليم يفعل الخير ، والآخر سفيه يفعل الشرّ ، وأما اتخاذ معبود سوى الله فنى الذاهبين إلى ذلك كثرة اه ، وها أنا ذا ألخصها لك ، فأقول :

أوّلا : من الأمم من مات عندها العظيم الجليل القدر الكبير المنزلة ، وقد اعتقدوا فيه أنه مجاب الدعوة فعبدوه ليشفع لهم عند الله وعكفوا على قبره ، ثم اتخذوا له تمثالا ، ثم مضت الأجيال تلو الأجيال ، فصار معبودا ، وطال عليهم الأمد فقست قلوبهم فهم دائبون على عبادته ، فانظر كيف كان أصله أنه آدمىّ مجاب الدعوة ، ثم انتهى الأمر بأن نسوا الأصل فهم ضالون .

ثانيا : ان الصابئين كانوا يرون أن الله عزّ وجلّ خلق ملائكة مجرّدة عن المادّة ، وهى المتصرّفة فى العالم ، وهذه الملائكة هى المدبرة للكواكب ، والكواكب مؤثرة فى الأرض وأهلها ، وقالوا ان الشمس والقمر والكواكب ترسل أشعتها إلى الأرض وأهلها ، وبها الحياة ، ولولا ضوء الشمس ماعاش حيوان ولا نبات على الأرض والكواكب الأخرى تساعدها فى ذلك ، وزعموا أن السعد والنحس للأشخاص تابعان لتلك الكواكب ، كما أن حياة الحيوان والنبات تابعة لضوء الشمس واشراقها على الأرض ، وهذه الأجرام المتلألئة المشرقة يحركها ويتصرّف فيها الملائكة فعبدوهم ليكونوا شفعاء عند الله ، ولما طال الأمد عبدوا نفس الكوكب الذى هو كجسم والملك روحه ، ثم لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم صوّروا للكوكب صورا على حسب ماتخيلوه لها من النعوت والأوصاف ، وهى الأصنام ، فعبدوها لتكون واسطة بسبب المناسبة بينها وبين الكواكب ، والكواكب واسطة للملك ، والملك واسطة لله ، ثم لما طال الأمد نسوا الكواكب وعبدوا نفس الصنم ولهم أبخرة خاصة واستحمامات ودعوات وملابس ، حتى أن حفلات (الزار) المعروفة فى مصر إنما هى صورة محورة من موردين : الصابئين ، وهذه الطائفة تقول ان البشر لن يكونوا واسطة بين الله وخلقه ، وينكرون الأنبياء ويقولون لاواسطة إلا الملائكة ، ويقولون انهم أفضل من البشر لتجرّدهم عن المادّة ، وهناك محاورة بين هؤلاء ، وأتباع الأنبياء مذكورة فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، وختم القول فيها بفضل الأنبياء على الملائكة ، لأنهم جمعوا بين القوّة الروحية والقوّة الجسمية ، ومن جمع بين فضيلتين أفضل ممن له واحدة ، ولقد كان لقدماء المصريين من الأوثان والأصنام مايضرب به المثل بين الأمم ، ولقد كانوا يقولون ان الله هو الواحد الحقّ ، ورتبوا العالم بعده مراتب ، فالمادّة لها عدد ٢ وزحل ٣ والمشترى ٤ والمريخ له عدد ٥ والشمس لها عدد ٦ والزهرة لها عدد ٧ وعطارد له ٨ والقمر له ٩ ، وقد كانوا يجعلون لها مربعات يكتبونها فى صفائح من ذهب فى أوقات خاصة لمنافع زعموا أنهم ينالونها ، وتلك المربعات ناشئة من ضرب العدد فى نفسه ، فلله واحد مربعه ١ ، والمادّة ٢ مربعها ٤ ، وزحل مربعه ٩ ، والمشترى ١٦ ، وهكذا الى القمر ٨١ ، وكل هذه لها حساب بديع مربعات يكون طول أضلاعها الأفقية والرأسية والقطرية متساوية ، وهذه لعمرك عبادة يتقرّبون بها إلى الكواكب ، وان أردت الاطلاع على ذلك الحساب البديع فعليك بكتاب خواص الأعداد للرحوم على مبارك باشا ، وهذا العلم نقله فيثاغورث وأدهشته عجائب خواص الأعداد ، فقال ان العدد أصل العالم .

ثالثا : دين التثليث . كان القدماء من الفلاسفة اليونانيين الذين نقل عنهم علماء الاسكندرية بعد المسيح واتصل بأسلافنا العرب يقولون : ان الله خلق العقل الأول ، لأنه لايليق بالمجرد عن المادة أن يخلق إلا ماهو أقرب اليه ، وبواسطة العقل الأول خلق الله النفس ، والنفس بها تحركت الكواكب ونظمت الطبيعة وكانت نفوسنا أشعة من تلك النفس ، ولذلك تراهم دائما يقولون : الله العقل النفس .

قال العلامة [دوان] كان القسيسون فى هيكل ممفيس يقولون للتلاميذ أن الله الأول خلق الثانى ، والثانى مع الأول خلقا الثالث ، وكانوا يسمون الثانى [الكلمة] المعبر عنها بالعقل عند الفلاسفة ، ولما سأل الملك توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكى أن يخبره هل كان قبله أحد أعظم منه ؟ أو يكون بعده أحد أعظم منه قال له الله ، ثم الكلمة ومعهما روح القدس ، وهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية ، فاذهب يافانى ياصاحب الحياة القصيرة ، والآلهة الثلاثة الهندية هم برهمه ، وفشنو وسيفا ، ويقولون لما أراد برهمه [خالق الوجود الذى لاشكل له ولاتؤثر فيه الصفات] أن يخلق الخلق اتخذ صفة الفعل وصار [برهمة الخالق] ، ثم زاد فى العمل فانقلب إلى الصفة الثانية ، فكان فشنو [الحافظ] ثم انقلب الى الصفة الثالثة فصار سيفا : أى المهلك ، ويسمونها [ترى مورتى) الأقانيم الثلاثة ويشبهونها بالنار ، وفشنو هو الابن ، وسيفا المهلك ، والمعيد وهو روح القدس ، وقد اطلعت فى بعض الكتب على صورة هذا التثليث منقولا من كتاب العلامة موريس فى آثار الهند القديمة ، وقال لقد وجدنا بأنقاض هيكل قديم دكه مرور القرون صنما له ثلاثة رءوس على جسد واحد ، والمقصود منه التعبير عن الثالوث ، وهكذا نجده عند البوذيين ثالوثا ، فانهم يقولون بوذا مثلث الأقانيم ، والصينيون يعبدون بوذا ويقولون مثلث الأقانيم ، ويرمزون للثلاثة بهذه الحروف الثلاثة [أوم] فالهمزة أولها والميم آخرها من أقصى الحلق الى الشفتين ، فهؤلاء هم الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهكذا تعبر الهنود بنفس هذه الحروف عن برهمة ، وسيفا ، وفشنو ، وقد جاء فى الكتب الصينية الدينية أن أصل كل شيء واحد ، وهذا الواحد الذى هو أصل الوجود اضطر الى إيجاد ثان ، والأول والثانى انبثق منهما ثالث ، ومن هذه الثلاثة صدر كل شيء ، وهذا القول بالتوليد والانبثاق أدهش العلامة موريس ، لأن قائله وثنى ، وقد تنزل الهنود بتثليثهم الى درجة مخجلة مخزية ، فقد رأيت لهم صورة هيكل مقدس كشف حديثا مثلث يمثل برهما وهو بحالة الذكورة والأنوثة معا وعلامة التأنيث وبعبارة أوضح عضو التأنيث مع التناسل يفيد قوة الايجاد ، وأنه خالق الأشياء فانظر كيف تنزلت الثلاثة عند بعضهم من رفيع مقام العقل والنفس الى ماتباشره الأنعام ، ويقولون ان هذا الثالوث المقدس حاضر فى كل مكان بالروح والقدرة .

وقد وجد التثليث أيضا عند الفرس القدماء . قال العلامة هيجن : كان الفرس يدعون متروسا [الكلمة] والوسيط والمخلص ، وكان القدماء من اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وهذا التعليم الثالوثى أصله من مصر وقال مؤلف كتاب [الخرافات ومخترعوها] كان الرومان يعتقدون التثليث قبل المسيح .

وقال العلامة [نيت] هكذا وجد سكان الجزائر فى الأوقيانوس والمكسيكيون الذين ظلمهم الاسبان خرقوا كتبهم كان لهم دين يثبت ثلاثة آلهة : الأب والابن والروح القدس والابن اسمه [با كاب] مولود من عذراء وصنمهم المعبود يمثل ذلك ، وأهالى التبال يعبدون إلها اسمه [اندرا] وهو كان مصلوبا كما صلب المسيح وسفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير كى يخلص البشر من ذنوبهم ، وصورة الصلب فى كتبهم [أقول] وقد رأيت صورتها فى بعض الكتب المنقولة ، ويقول المصريون أوسيريس مخلص الناس وبإخلاصه يقتل ، ويسمى الولد والفادى والولد الوحيد ، وكان قدماء اليونان يقولون ان الله مثلث الأقانيم ، وكان القسيسون

يرشون للذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، وكان الفرس يعبدون إلها مثلث الاقانيم مثل الهنود ، وهم أورموزد ، ومترات ، واهرمان . فأورموزد الخلاق ، ومترات ابن الله المخلص والوسيط ، واهرمان المهلك ، وسكان سيبيريا القدماء كانوا يعبدون ثلاثة آلهة ، فالأول خالق كل شىء والثانى إله الجنود ، والثالث روح المحبة السماوية .

وكل هذه الديانات قائمة بأوثان وأصنام وأنت ترى أن هذه الوثنية قسمان : قسم يرجع لعبادة الملائكة فالكواكب فالأصنام ، وقسم يرجع الى عبادة ثلاثة اتحدت فصارت واحدا ، ولها قوة الخلق والحفظ والاهلاك والاعادة ، وهذا هو القسم الذى تنوع حتى ملأ الكرة الأرضية فتراه فى الصين والهند وأوروبا بصور مختلفة وأحوال متباينة ، وكل يؤول إلى أعبد الخالق ، فتبين أن سائر الناس جعلوا الأوثان والأصنام من الوسائط لعبادة الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى على لسان الكفار « مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى » ، ولكن جاء فى القرآن مايفيد يا أيها الناس انكم تعبدون أنفسكم وتكونون عبيد الأصنام أرقاء الأوهام ، فكونوا أحرارا والأرض لله ، والله معكم أينما كنتم ، فلا تعبدوا بصنم ولا حجر ولا تمثال ولا وثن ولكن انظروا [الى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت ، اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم] فانظروا فى هذا الجمال وفيه من الصور والتماثيل وأنواع الجمال الدال على قدرتى وعلمى وحكمتى ولا تكونوا مقيدين بتلك التماثيل التى صنعها البشر فان جمالها ضئيل بجانب الجمال الذى أبدعته فى سمواتى وأرضى والجبال التى عليها والجمال الباهر فى محاسن الصور المنقوشة فى زينتها تبصرة لكم وتذكرة لأولى الألباب « فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم » .

الأصنام عند العرب الذين نزل بلغتهم القرآن

يقال ان عمرو بن لحى لما ساد قومه ورأسهم وولى أمر البيت الحرام اتفقت له سفرة الى البلقاء ، فرأى قوما يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا هذه أرباب نستنصر بها فتنصرنا ونستسقى بها فنسقى ، فالتمس اليهم أن يكرموه بواحد منها ، فأعطوه الصنم المعروف (بهبل) فسار به الى مكة ووضعه فى الكعبة ودعا الناس الى تعظيمه ، وذلك فى أول ملك سابور ذى الأكتاف ، ومن بيوت الأصنام المشهورة غمدان الذى بناه الضحاك على اسم الزهرة بمدينة صنعاء وخربه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومنها نوبهار بلخ الذى بناه منو شهر الملك على اسم القمر ، وكان لقبائل العرب أوثان معروفة : مثل ود بدومة الجندل لكلب ، وسواع لبنى هذيل ويغوث لبنى مذحج ، ويعوق لهمدان ، ونسر بأرض حمير لذى الكلاع ، واللات بالطائف لثقيف ، ومناة بيثرب للخزرج ، والعزى لكنانة بنواحى مكة ، وإساف ونائلة على الصفا والمروة ، وكان قصى جد رسول الله ﷺ ينهاهم عن عبادتها ويدعوهم الى عبادة الله تعالى ، وكذلك زيد بن عمرو بن نفيل ، وهو الذى يقول :

أربا واحدا أم ألف رب ٭ أدين اذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعا ٭ كذلك يفعل الرجل الخبير

والله فوق الجميع المحيط بالعالمين علما يخاطب الناس بقوله (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) .

ولما لم يكن عند المعاندين من العقل والمعرفة ما به يعرفون نظام هذا العالم ، ويدركون أن الأصنام لا تستحق العبادة أخذ يصف لهم ماجاء به على لسان الرسول من البلاغة ، ويتحدى بما يعجزهم ، كأنه يقول : اذا عجزتم عن إدراك ما أبدعته فى الأرض والسماء ، ولم تبلغ عقولكم كنهه ، وغلبت عليكم الجهالة

ولم تفهموا الا مادار فى أنديتكم : من أحاديث البلاغة ، وآيات الفصاحة ؟ فاسمعوا لهذا القرآن والا فأتوا بمثله ، فلما عجزوا أوعدهم بالنار ، ووعد المتقين بالجنة ، وأخذ يصف نعيمها ، وحورها ، وجمالها ، وبهاءها وثمارها من بعد ما قدم وصف العالم الدنيوى إيماء الى أن علم الحكمة يدعو الى النجاة ، ولا يرقى الى عليين إلا من نظر فى خلق العالمين :

فقال (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) فتحرق الأصنام معهم فى جهنم نكاية بهم ، وإذلالا لنفوسهم ، وتخييبا لآمالهم ، فقد كانوا يظنون أنها تشفع لهم ، فخاب فألهم وضل سعيهم ، وهذه هى الحسرات (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) أى ان الثمر الذى فى الجنة يشابه الذى كان فى الدنيا لأن النفوس تواقة الى ما كانت تألفه ، وذلك أقرب الى نظم القرآن ونسقه ، والى علم الحكمة ، وفى هذه الآية مفتاح لعلوم الآخرة ، وأنها نتائج الدنيا والنتائج تتبع المقدمات ، فاذا كانت الثمرات التى يتناولها أهل الجنة أشبه بما كانوا يتعاطونه فى الدنيا ليأنسوا به ، وليستلذوا بتناوله ، وليكون لهم نعيما وبهجة ، فذلك نموذج لما فى الآخرة والأولى من التناسب والتوافق والتشابه ، وبيانه أنا نرى أن درجات الانسان فى حياته متناسبة متشابهة فطور الصبا يتبعه الشباب ، فالفتوة ، فالكهولة . فأن يكون شيخا هرما ، وهو فى ذلك كله يحفظ صورته الأصلية وان اختلفت أحوالها : من مرض وصحة وهزال وامتلاء وشباب وشيب ، ونرى المتعلمين لايدرسون فى الثانوى : الا ما يناسب ما سمعوه فى الابتدائى ، والدراسة العليا تتبع الثانوية . ونرى علماء فن التربية يحرصون الحرص كله أن تضرب الأمثال للصبى فى أول حياته فى المدرسة بما يأنس به من هرة يداعبها ، وشاة يلعب بها ، وكرة يضربها وما أشبه ذلك . ويقول علماء الحكمة : ان أحوال النفس بعد الموت لا تعدو هذا المنهج ولا تعدل عنه بوجه . فالجهال ، والفسقة ، وأهل الضغائن ، والمنافقون ، والكسالى وأهل الشره والحرص تكون أرواحهم بعد فراق الجسد فى جو من نار تلك الأخلاق والأعمال والجهالات .

وأهل الاحسان والفضل وأولو الألباب والعلم وذو الاخلاص والصدق والاحسان للناس فى حال أشبه بما كانوا عليه فى الدنيا ، وجو من الصفاء والنضارة والجمال نتيجة لما كانوا يعملون ، ولم يكن الله ليعذب الكافر والفاسق تشفيا ، وانتقاما كما ينتقم أهل الأرض ، ويشفوا غيظهم الكامن فى نفوسهم من أعدائهم ؟ « تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا » وانما جاء ذلك فى القرآن ليفهم بألفاظ يعرفها الناس على قدر طاقتهم ، وانما ذلك العذاب جزاء من جنس العمل ، كما فى قوله تعالى « وجزاء سيئة سيئة مثلها » وقوله تعالى « إنما تجزون ما كنتم تعملون » وقوله « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، وكقوله فى أهل النعيم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وذلك بعد قوله « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون » فكأنهم لما أنسوا بربهم وأحسوا بروح ولذة بالعبادة ، وذلك أمر لا يطلع عليه الا صاحبه : كان جزاؤهم نتيجة ملازمة لعملهم ملازمة الظل للشبح والهواء لسكان الأرض ، فقال « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » ونرى فى الدنيا أن أهل العلم يأنس بعضهم ببعض ويفرحون بالملاقاة والمحادثة والمشاكلة ، ونرى قطاع الطرق والمجرمين يساقون الى السجون ، ويعاقبون على ذنوبهم فى الدنيا كما تكون حالهم فى الآخرة : إذ قال تعالى « فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين » .

ولذلك جاء فى علم الأخلاق أنه ينبغى للانسان أن لايجالس أربع فرق من الناس : الصبيان والنساء

والجهال

والجهال وذوى الأخلاق الفاسدة . اللهم إلا لتعليم أو تأديب أو حكم عليهم أو انعام أوما أشبه ذلك وورد فى الحديث « أنت مع من أحببت » وفيه « إنما هى أعمالكم تعرض عليكم » وجاء فى الآية « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » .

قال الامام الغزالى فى الاحياء ، وكما أنك فى الدنيا تجد من يؤثر لذة الرياسة على المطعوم والمنكوح ، وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض ، وسائر الأمور الالهية على الرياسة وعلى المنكوح والمطعوم والمشروب جميعا ، فكذلك يكون فى الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى المطعوم والمنكوح وهؤلاء بعينهم هم الذين حالهم فى الدنيا ماوصفنا من إيثار لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة المنكوح والمطعوم والمشروب ، وسائر الخلق مشغولون به ، ولذلك لماقيل لرابعة ماتقولين فى الجنة ؟ فقالت الجار ثم الدار ، فبينت أنه ليس فى قلبها التفات الى الجنة ، بل الى رب الجنة ، وكل من لم يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة فى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة ، إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة مالم يصحبه من الدنيا ، ولا يحصد أحد الا مازرع ، ولا يحشر المرء الا على مامات عليه ، ولا يموت الا على ماعاش عليه : فما صحبه من المعرفة هو الذى يتنعم به بعينه فقط الا أنه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة به كما تتضاعف لذة العاشق اذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته ، فان ذلك منتهى لذته ، وانما طيبة الجنة أن لكل واحد فيها ما يشتهى ، فمن لا يشتهى الا لقاء الله تعالى فلا لذة له فى غيره ، بل ربما يتأذى به ؟ فاذن نعيم الجنة بقدر حبّ الله تعالى ، وحبّ الله تعالى بقدر معرفته . فأصل السعادات : هى المعرفة التى عبر الشرع عنها بالايمان اه .

وبالجملة : فما من حركة نفسية أو عمل أو خلق أو رأى الا لها آثار فى نفوسنا ، ويقول الحكماء : العلم والأخلاق الفاضلة : تكون سعادة وروحا وريحانا ، والجهل وسوء الخلق رأس الشقاء فى الدنيا والآخرة ، ولهذا الرمز يقول تعالى هنا (وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة) من دنس الأخلاق ورداءة الطباع وما ابتلى به نساء الدنيا من الحيض والنفاس والمرض مشاكلة لما كانوا يستلذون به فى الدنيا ، وان كان الفرق شاسعا بين الدارين أبعد مما بين السراج والشمس والذرة والفيل .

ضرب الأمثال

واعلم أن فيا سبق من هذه السورة أمثالا منها ماهو ظاهر ، ومنها مايحتاج الى تأمل ، فأما ماهو ظاهر فقوله (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وقوله (أو كصيب من السماء) ، ومن هذا القبيل قوله تعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا » وقوله « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه » ، وهذه كلها أمثال مضروبة لأحوال الكفار ، وأما مايحتاج الى تأمل فأوصاف الآخرة وأحوالها ، فان قوله (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فيه المشابهة والمماثلة ، وأن عالم الآخرة يمثل له بعالم الدنيا ، ألا ترى الى قوله تعالى «مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » فهناك صرح بأنها أمثال ، وأن هذه التى فى الدنيا مضروبة مثلا لأحوال الآخرة ، وقد تعالى المعنى فى آية أخرى الى مافوق هذا فى قوله تعالى « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين » وجاء فى الحديث [ان فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر] وفى الحديث [أريت الجنة فاذا أكثر أهلها

الله ، وعليون لأولى الألباب] وفسره علماؤنا بأن المفكرين فى خلق السموات والأرض وذوى النفوس العالية هم الذين يزهدون فى الجنة الحسية ، ويرغبون فى جوار ربهم مع الأرواح الطاهرة الخالصة من المادة المبرأة من عيبها العارفة بنقصها ، فأما أولئك الذين لا يعبدون الله الا لأجل الشهوات بعد الموت ، فلن نفوسهم تحن هناك الى اللذات الحسية ، ومعلوم أن المرء يحشر على ما مات عليه من خلق ورأى وعقيدة ، وأن العبادة الطاهرة الخالية من معرفة جلال الله وعظمته ، والتفكر فى هذا العالم ، وأن المادة سجن للذين فيها لا ينال المرء بها الا الجنة المحسوسة التى يرغب فى أعلى منها الأنبياء والحكماء وأصحاب النفوس الشريفة ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « ولدينا مزيد » وبقوله « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وقوله « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » فالزيادة : هى النظر لوجه الله الكريم ، وقد مثلوا لهذا بالقصر المشيد للملك ، وقد حضر فيه أقوام فذوو النفوس العالية والمقامات الشريفة لا يفرحون الا بمجالسته ، فأما الصعاليك فلا يهتمون الا بما يسد جوعهم ويفرج كربتهم لاختلاف الناس فى معارفهم ، وفى الأمثال المضروبة : اعلم أن الناس مختلفو الأخلاق والمشارب والعادات والأحوال « ولكل وجهة هو موليها » ، ولولا اختلاف المشارب والاهواء ما انتظم هذا العالم فما يحبه زيد يكرهه عمرو وما يليق لأحدهما لا يناسب الآخر ، ولهذا الاختلاف كان النظام عجيبا ، ولولا زهد زيد فى التجارة والصناعة ونحوها ما كان فقيرا عالة على الناس ، الناس مختلفون فى أكثر الأشياء ، وعلى ذلك نرى أناسا نبغوا فى اختراع ، أو علم ، أو تجارة ، أو عمل عام ، وقد كانوا قبل ذلك يستهزئ بهم أقرانهم ويسخر منهم أصحابهم ، ولم يكن نبى ، ولا عالم ، ولا صالح الا كان فى مبدأ أمره محل سخرية واحتقار وازدراء ذلك أن الناس قلما يفقهون ما يفقهه هؤلاء فينالهم مقت واحتقار ، ومن هذا القبيل الأنبياء [ومنهم خاتمهم سيدنا محمد ﷺ] فكان عرضة للاستهزاء من الجاحدين والكافرين ، فلما سمعوا ضرب الأمثال بالنار وبالماء ، وبالذباب ، وبالعنكبوت عدوها فرصة للسخرية وقالوا هل يضرب الله الأمثال بهذه المحقرات ، وهو العظيم العلى الكبير هذا لا يعقل ، ولو أن الاستهزاء توالى على فاضل ولم يكن له عزيمة لانحلت عزيمته واختلت أعماله ، ولذلك نجد النابغين قليلا ، لأن الساقطين فى ميادين العمل المجندلين فى ساحات المناظرة والمباراة كثير وليس ينجو منهم الا القليل ومنهم الأنبياء فأخذ نبينا ﷺ يثابر على الرد عليهم ونبذهم وقهرهم بالوحى ، ومنه ما جاء هنا إذ قال (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما] أى أى مثل كان واذا كنتم تستصغرون التمثيل بالذباب والعنكبوت فالله لا يستحيي أن يضرب مثلا بالبعوضة التى هى أقل من الذبابة ، بل بما هو أقل منها مقدارا وأعلى فى تمثيل الحقارة عند إرادة تحقير الأشياء ، فالنبوة ورد فيها التمثيل بجناح البعوضة عند ذم الدنيا وأنتم أيها الناس قسمان : قسم يرى الأشياء بمنظار مظلم وعين عوراء ، وقد غشى على سمعه و بصره فيرى الخير شرا والشر خيرا ، ولما رأيتم الرسول يعلمكم وقد دخل الحسد فى قلوبكم وأكل الغل أفئدتكم أبيتم واستكبرتم وأخذتم تعيبون الكتاب وتسخرون من القول ، والقسم الآخر متواضع لا يتعالى عن الحق فيقبله ويبغى النجاة من الجهل ، والاثم ، والعار ، والهلاك فى الدنيا والآخرة ، واذا سمع الأمثال اتعظ بها فهو من المفلحين .

أقول : ولأضرب لك مثلا تتبين منه اختلاف مشارب الناس فى الفهم ، فاعلم أن ما يراه الانسان فى كل يوم من الأحوال الانسانية وغيرها فيه علم جم لمن تفكر وتدبر .

فتفكر فى حال امرأة جميلة فترى الناس فى شأنها طرقا شتى ولأذكر لك شيئا من هذه الطرائق فأمها تنظر اليها نظر الاشفاق والعطف والود والحنان والرأفة والحزن لحزنها والفرح لفرحها ، وأبوها ينظر اليها نظر المساعدة الأبوية ، والأخ أقل منه ، وابنها نظره اليها من قبيل الالتجاء والاستعانة ، وأنها حصنه ومأواه

ومرجعه

ومرجعه ، وزوجها ينظر اليها نظرة أخرى بامتزاج المصالح والمشاركة والمعاونة ، وخاطبها القديم ينظر اليها نظرة الحسرة والحرمان والغيرة والندامة وما أشبه ذلك ، فهذا مثل ضربته مما يراه الناس ، فهكذا كلّ حكمة وعلم ومحسّ ومعقول يدركها الناس على درجات شتى لاحصر لها ، وهذا سرّ الوجود ، فالأمثال التى جاء بها الأنبياء وورد بها القرآن يعتورها مايعترى الموجودات من اختلاف النظر ، فينظر الجاهل استهزاء ، وينظر العاقل اعتبارا ، ولقدورد من الأمثال نحوذلك من كلام العرب مثل : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشه ، وأعز من مخ البعوض ، واذا اختلفت الانظار فى كلام الله كغيره لاجرم يضلّ به قوم ويهتدى به آخرون ، كأن من النبات مايقتل ، ومنه مايشفى ، ومنه مايغذى ، وهو من فعل الله ، والقرآن من كلامه فكما يضرالله بالسم ، ويشفى بالسنا ، ويغذى بالحنطة يضلّ قوما بالقرآن اذانقص استعدادهم وخبثت نفوسهم كما يمرض الرجل بشرب الشهد اذا كان محموما ويزيد الضعيف المعدة مرضا بالامتلاء من اللحم والمآ كل الغليظة وشرب الماء المثلوج ، ومثال ذلك فى القرآن أن يقرأ أربعة علماء هذه الآية « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، ثم تطرح أمامهم ، مسئلة السلاح فى الحرب ، فيقول أحدهم ان لنا فى رسول الله أسوة حسنة فلانخالفه ورسول الله انما حارب بالسيف والرمح فحرام علينا أن نغير سلاحه ، كما أخبرت بذلك عن بعض علماء التركستان منذ سنين إذ استفتاهم أمير بخارى فأجابوا بذلك ، وأفتوا بقتل التاجر الذى حضر من الروس إذ ذاك ، وقال ان لهم مدافع فلنقلدهم فحكموا بقتله فقتله الأمير ، ثم دخل الروس بعد خمس سنين ، ويقول الآخر : كلا فلنتوكل على الله والنبىّ ﷺ خلقه القرآن ، وقد أمره الله بالتوكل فعلينا أن نرضى بقضاءالله وقدره ، ويقول الثالث : كلا فلنقرأ البخارى وسورة يس ، وقد حصل ذلك فى بعض الحروب منذ عشرات السنين ، وهذان رأيان لذوى الكسل والبلاهة ، ويقول الرابع : كلا فالنبىّ ﷺ كان يحارب بالسلاح الذى يحارب به أعداؤه ، ولوأنهم حاربوا بالمدافع والطيارات لحاربهم بها ، وهذا هو الفقيه النبيه ، فانظر كيف ضلّ ثلاثة واهتدى الرابع ، ولما كثر الضلال فى الأمة الاسلامية قلّ فيها النبوغ وساء مصيرها ، فليكن فيها المفكرون والمستبصرون والعقلاء المدبرون ، فبذلك وحده تنجومن الخطر الداهم ، ولقد زارنى منذ عشر سنين أمير ، يقال له «جمال الدين» من مدينة مدراس على ماأذكر ومعه تراجمه ، فقال جئت لأسألك عن علم الجغرافيا والتاريخ فانى فتحت هناك مدرسة ، وقد حرم علماء الاسلام هناك أن يدرس هذان العلمان فعجبت كل العجب وكتبت له أن جميع العلوم والصناعات فرض كفاية على المسلمين ، فتى ترك المسلمون علما أو صناعة فالاثم واقع على جميعهم فى الدنيا والآخرة ، أمّا فى الدنيا فبالذلة والاختلال والاحتلال ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » وقوله « ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون » وقوله « ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » وهذا انما جاء من نقص العلم فى بلاد الاسلام ، وهذا داخل فى قوله (يضلّ به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضلّ به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمرالله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) ولما كان أولئك الفاسقون منهم من يمكن اصلاحه أعقبه موبخا على عدم التفكر بقوله ق .

(المقصد الخامس)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

التفسير اللفظى

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون هو الذى خلق لكم ماق الأرض جيعا ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) ذكر الناس بما كان من علمهم ، ثم حياتهم ، ثم يموتون ، ثم يحيون ، ثم يحاسبون ، هذه قصة الانسان ومبدؤه ومنتهاه . وقص قصة العلم ، فذكر الأرض وما فوقها ، والسماء وزينتها ونظامها ، وكيف كانت هذه العوامل الكبيرة مسخرة للانسان ، ساعية لسعادته وهنائه ؟ فهل يجمل به أن يكفر بالله ؟ وهل يحسن بمن كان عدما فأصبح موجودا وهيئت له السموات والأرض ، وخدمته الأعوام والسنون وأفرغت النعم عليه ، ولم يكن له ملك ولاحياة ؟ هل يحسن به أن يكفر بالله ، ويقطع رحم الفضيلة ، وينسى المنعم ، ولا يشكر المتفضل ؟ وهل يليق أن يكون من الضالين والفاجرين .

وقوله (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جيعا) تسجيل على المسلمين فى أنحاء المعمورة ، فياليت شعرى : كيف يخاطبنا الله بقوله « خلق لكم ما فى الأرض جيعا » ونحن أجهل الأمم بالأرض والسماء ، وكيف تكون المعادن فى باطنها والجبال عليها والغابات والممالك ، وكيف تكون الكهرباء شاملة لأجزائها والاضواء والحرارة والخواص الطبيعية الكامنة فى هذه المخلوقات ، ونحن لا نعرف منها الا ما جادت به علينا يد الأمم الغربية ، فوالله ان العلوم التى كشفوها فى الأرض والسماء لتسجل علينا الخزى والعار أمام الله والناس .

أيها الناس كيف يقرّ لكم قرار أو يكون عندكم اصطبار وربكم يخاطبكم ، فيقول « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جيعا » وأنتم لا تملكون قطميرا . منها المرجان النابت فى البحر فى يد غيركم ، والدرّ بسطاده سواكم ، والغابات لغيركم ، فهل ظننتم أيها الناس أن الموجه له كاف الخطاب : هم أمم الفرنجة ، فيقول (هو الذى خلق لكم) يا أمم الفرنجة : أو لستم داخلين فى كاف الخطاب : أليس من العار عليكم أن تجهلوا نعمة ربكم ، ولعمرى ان هذا لكفر للنعمة وقلة عقل وغاية الجهل ، وكيف نقول : انا لله شاكرون ، والشكر انما يكون باستعمال العبد جيع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، والله قد صرح لنا بقوله : خلقت لكم ما فى الأرض جيعا ، واذا أنعم عليك الملك بنعمة حقرتها كان غضبه عليك شديدا ، وها هو ذا إلهنا لما رأى إعراضنا عن نعمه فازدريناها ونسيناها وتجاهلناها غضب غضبة ، فسلط علينا الأمم ، وهذا جزاء الكافرين بالنعم ، ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله ، وما نزل من الحق ، أفيقوا أيها المسلمون من غفلتكم واستيقظوا من رقدتكم ، واعلموا أن ما فات فات وانقضى ، وأن الزمان قد استدار وستكونون علماء بهذا الوجود ، وستنالون منه حظا عظيما بفهم القرآن « ليظهره على الدين كله ، فاستبقوا الخيرات » وانظروا فى الأرض وما حوت ، والسماء وما وعت ، وتأملوا ما أتلو عليكم فى مسئلة السموات : إذ قال تعالى (ثم استوى الى السماء فسوّاهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم) .

ايضاح هذا المقام

الكلام على السموات السبع

اعلم أننا على هذه الأرض محبوسون مغمورون فى حاجاتها تحيط بنا أنواع الآلام والشهوات ، فتحجبنا عن معرفة العوالم وادراك حقائقها والتفرج على عجائبها . ولما كان عالم السموات أعظم ما نشاهد ، وفيه أنواع

الجمال والضياء والبهجة والحسن : اتجهت إليه أنظار العقلاء ورجال الدين . وأقدم ماوصل الينا من العلم بذلك ماذكره اليونان وفقى على آثارهم علماء الأسكندرية أيام البطالسة واستقرت آراء هؤلاء على أن الأرض فى مركز العالم ، وأن القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل سيارات حولها ، وكل واحد منها فى فلك دائر حول الأرض من الشرق الى الغرب ، فأما السيارات فان لها سيرا خاصا بها ، تسير الى جهة الشرق عكس الحركة اليومية للأفلاك السبعة ، وتكون تلك الكواكب على أفلاكها أشبه بنملة دائرة على عجلة تسير فى طريق يخالف سيرها ، وبهذه الحركة الكوكبية يكون شهر القمر وسنة الشمس وسنون سائر الكواكب ، ويقولون ان هناك فلكين آخرين يحيطان بالأفلاك السبعة ، وهما فلك الثوابت فالأطلس وقالوا نحن علينا أن نفرض فلكا ثامنا لتكون فيه الكواكب الثابتة ، وفلكا تاسعا يكون مبدأ الحركة اليومية ، وأما ترتيب الأفلاك على هذا المنوال فله أدلة مطولة لكنها ضعيفة جدا ، حتى ان فلك الشمس لما جعلوه رابعا شبهوه بشمس القلادة فى جيد الحسناء لأنها تكون فى الوسط ، وأما بقية الأفلاك ، فقد يستدلون عليها بأن الكوكب الأسفل يكسف الأعلى ، والكاسف يكون تحت المكسوف هذا ملخص علم أولئك العلماء ، ولقد ظهر أثر هذا فى إنجيل (برنابا) وهو أقرب الأناجيل الى الحق .

قال المسيح : الحق أقول ان السموات تسع موضوعة بينها السيارات التى تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة رجل خمسمائة سنة ، وكذلك الأرض على مسيرة خمسمائة سنة من السماء الأولى ، ولكن قف عند قياس السماء الأولى التى تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية ، وهلم جرا حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما تليها ، والحق أقول لك ان الجنة أكبر من الارض برمتها والسموات برمتها كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل ، ثم قال فى الانجيل حينئذ جاء الملاك جبريل ليسوع وأراه مرآة براقة كالشمس رأى فيها هذه الكلمات : لعمرى أنا الأبدى كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها والأرض ، وكما ان الأرض برمتها أكبر من حبة رمل هكذا أنا أكبر من الجنة بل أكثر كثيرا من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء فى البحر وعشب الأرض ، وأوراق الأشجار ، وجلود الحيوانات . بل أكثر من ذلك كثيرا عدد حبوب الرمل التى تملأ السموات والجنة بل أكثر اه ? هذا ما فى كلام القدماء وما فى الانجيل ، ثم ان فلسفة اليونان نقلت الى العربية على يدى الفارابى والشيخ الرئيس ابن سينا ، وقررت أن الأفلاك تسعة ، فوثق بذلك علماء الاسلام الذين درسوها ، وقالوا هى سبع سموات والكرسى والعرش فالسموات السبع تقدم ذكرها ، والكرسى فلك الثوابت ، والعرش هو الفلك المحيط الذى به الحركة اليومية لسائر الأفلاك وبها الشروق والغروب .

مضت قرون فاستيقظ أجلة العلماء وكبار الحكماء من الأمة الاسلامية ورأوا أن هذا المذهب باطل لمخالفته الشرع والعقل . وقالوا ان القول بأن السموات سبع فى القرآن ليس حاصرا ، فالعدد ليس له مفهوم ، فاذا قال رجل : عندى فرسان لاينافى أن يكون عنده ألف ، وهذه الافلاك القديمة لايمكن فناؤها عندهم ، وكذلك الكواكب ، وهذا يخالف العقل والدين معا . وقالوا ان الأرض تدور حول نفسها ، وليس هناك فلك أطلس ولاغيره ، وإنما هذه الكواكب دائرات فى الفضاء .

وهذه الآراء كانت فى القرن السادس والسابع أيام انقراض الدولة العربية وظهور الدول التركية وغيرها .
ولقد كان ذلك توطئة للرأى الحديث الذى ملأ الآفاق وعرفه الخاص والعام ، وملخصه :

أن هذه العوالم كلها من شموس وأقمار وأرضين كانت فى قديم الزمان كالدخان المنتشر سريعة الحركات فبسرعة الحركة آلاف آلاف من السنين تكونت الشموس ودارت ملايين من السنين ، ثم انفصلت عنها

السيارات وشمسنا إحدى تلك الشموس ، فولدت عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، وأورانوس ، ونبتون ، فهذه ثمان سيارات ، ثم انهم وجدوا بين المريخ والمشترى نحو ٦٠٠ نجمة صغيرة جدا ولو اجتمعت كلها لم تصل لمقدار جرم القمر ، وأكبرها المسماة (سرس) لايزيد قطرها عن خمسمائة ميل وبعضها لايزيد قطره عن عشرة أميال ، وربما كان هناك نجمات أصغر منها لا يمكن رؤيتها .

ثم ان هذه السيارات تدور حول الشمس ، فعطارد يتمّ دورته فى ٢٨ يوما من أيامنا ، والزهرة فى ٢٢٦ ، والمريخ فى ٣٢١ ، والأرض فى سنة ، والمشترى فى ١١ سنة و ٣٩٣ يوما ، وزحل فى ٢٩ سنة و ١٦٧ يوما وأورانوس فى ٤٨ سنة و ٧ أيام ، ونبتون فى ١٦٨ سنة و ٢٤٨ يوما ، ويظن أن هناك سيارات أخرى حول الشمس لم تظهر .

ومن عجائب العلم وغرائبه : أن علماء العصر الحاضر بحثوا عن تلك النجيات الصغيرات التى بين المشترى والمريخ بحسب القاعدة التى وضعوها لبعد السيارات عن الشمس فانهم رأوا أنها هكذا :

	العدد	يضاف اليه	يكون المجموع	يضرب فى — ٩		مليون ميل
عطارد	٠	٤	٤	× ٩	= ٣٦	»
الزهرة	٣	٤	٧	× ٩	= ٦٣	»
الأرض	٦	٤	١٠	× ٩	= ٩٠	»
المريخ	١٢	٤	١٦	× ٩	= ١٤٤	»
٠٠٠٠	٢٤	٤	٢٨	× ٩	= ٢٥٢	»
المشترى	٤٨	٤	٥٢	× ٩	= ٤٦٨	»
زحل	٩٦	٤	١٠٠	× ٩	= ٩٠٠	»
أورانوس	١٩٢	٤	١٩٦	× ٩	= ١٧١٤	»
نبتون	٢٨٤	٤	٢٨٨	× ٩	= ٢٥٩٢	»

هذه هى أبعاد السيارات عن الشمس : أى انها منظمة تنظيما تقريبيا ، فاذا بعد عطارد عنها ٣٦ مليون ميل ، فقد فرضوا أن بعده ٤ بعد الصفر وهكذا الزهرة ٣ ، والأرض ٦ ، والمريخ ١٢ بطريق التضعيف ويضاف لكل ضعف ٤ ، وهذا العدد يضرب فى ٩ مليون ميل ، فلما وصلوا الى مابين المريخ والمشترى وجدوا هناك مكانا خاليا ، فكان يجب أن يكون فيه كوكب ، فلما وجدوا تلك النجمات المتقدمة ظنوها شظايا من تلك النجمة البائدة ، واعلم أن هذه الأرقام الدالة على الأميال تقريبية ، فان بعد الزهرة ٦٧ وبعد الأرض ٩٣ ، وبعد المريخ ١٤٣ ، وبعد المشترى ٤٨٤ ، وبعد زحل ٨٨٧ ، وبعد أورانوس ١٧٨٢ وبعد نبتون ٢٧٩٢ ، وهى تختلف عن الجدول السابق قليلا ، وهذه الأعداد ملايين الأميال .

واعلم أن الزهرة وعطارد هما السياران الأدنيان ، لأن فلكهما ضمن فلك الأرض ، أما بقية السيارات فتسمى السيارات العليا ، لأن فلكها خارج عن فلك الأرض : هذا ما أردت ذكره فى المجموعة الشمسية .

أما الكواكب الثابتة ، فانها لايحصر عددها إلا الله ، ولقد بحثها العلماء فوصلوا منها إلى معرفة مئات الملايين بالمنظار المعظم ، وبالآلة الراسمة المسماة فتوغرافيا .

واعلم أن نور الشمس يصل إلى الأرض فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية ، ولو أن أسرع قطار يجرى من الأرض إلى الشمس ليلا ونهارا لم يتمكن من وصوله اليها فى أقل من ثلثمائة وخمسين سنة ، وأنا ذكرت لك هذا لتعلم مقدار عظمة الله عز وجل ، وتفهم ماسأذكره لك فى أبعاد النجوم الثوابت .

واعلم أن نور الشمس يسير فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل وفى السنة ٦ بليون .

واعلم أن أقرب نجم يصل نوره إلينا فى ٤ سنين نورية ، فاذا كان ضوء الشمس يصل لنا فى ٨ دقائق و ١٨ ثانية و بعدها عظيم جدا ، فما بالك بأقرب كوكب ثابت وهو ٤ سنين ، وأين ٨ دقائق من ٤ سنين ومن الكواكب مالا يصل ضوؤه إلينا فى أقل من ألف سنة نورية ، والشعرى العبور يصل ضوؤها إلينا فى ٩ سنين نورية ، والنسر الطائر يصل ضوؤه الينا فى ١٤ سنة نورية ، والنسر الواقع فى ٣٠ سنة ، والعيوق فى ٣٢ سنة ، والسماك الرامح فى ٥٠ سنة ، واعلم أنهم قسموا الكواكب الثابتة باعتبار ضوئها ، فما كان منها أضوأ سموه القدر الأوّل ومايليه القدر الثانى ، والقدماء أوصلوها الى ستة أقدار ، والمحدثون أوصلوها الى ٢٠

فالقدر الأوّل ضوؤه كامل ، وعدد نجومه ٤ منها : الشعرى العبور ، والنسر الواقع ، والسماك الرامح .

والقدر الثانى عدده ٢٧ نجما ، ومنها سعد السعود .

والقدر الثالث عدده ٧٣ نجما منها الفرقدان .

والقدر الرابع عدده ١٨٩ ، والقدر الخامس ٦٥٠ ، والقدر السادس ٢٢٠٠ : وهكذا يتزايد العدد ويقل الضوء ، فيكون القدر العشرون ٧٦ مليونا وضوؤها ضعيف جدا ، ومجموع الذى علمه نوع الانسان الى الآن ٢٢٤ مليونا من النجوم . وسيأتى فى بقية أجزاء هذا التفسير فى الطبعة الأولى ان الكشف أظهر أضعاف أضعاف هذه النجوم بعد طبع هذه السورة اهـ

هذا هو الذى عرفه الانسان من السموات . فقايس رعاك الله بين ماذكره علماء الأسكندرية وماجاء فى انجيل برنابا ، و بين ماعرفه الانسان الآن . ان عظمة الله تجلت فى هذا الزمان ، ألاترى الى ماجاء فى الانجيل مما أشبه كلام القدماء أنّ بين كل سماء وأخرى خمسمائة عام . وذكر ان السموات تسع ، وهى عند المسلمين سبع يزيد عليها الكرسى والعرش ، فيكون مجموع المسافات ٤٥٠٠ سنة بسفر الانسان ، وهو قدر يسير جدًا بالنسبة لما عرف الآن . ألا ترى أن هذه المسافة يقطعها الضوء فى أقل من أربع دقائق ، فكأن ملك الله المعلوم للناس فيما مضى لايزيد عن نصف المسافة بيننا و بين الشمس البالغة ٨ دقائق وثوانى ، وأىّ شىء بعد الشمس ، ان بعدها يسير جدّا ، ان الشمس لقريبة ، وأين ثمان دقائق من ٤ سنين التى هى لأقرب كوكب ثابت ، بل أين بعدها من بعد الكوكب الذى يستغرق ألف سنة فى وصول ضوئه الينا [تاهت العقول ، وزاغت الأبصار ، وحارت الأفكار] فأين ماذكره الأقدمون من عظمة الله تعالى التى عرفت ، وانك لو أردت أن تعرف مقدار الزمن الذى يصل فيه ضوء الكواكب الينا ، ونحن نشاهدها كل ليلة لم تشك أن كثيرا منها سافر ضوؤها الينا قبل خلق الأرض حتى وصل الى أعيننا الآن ، ومنها كواكب قد بادت وهلكت قبل خلق الأرض واندرست معالمها ومع ذلك نحن الآن نشاهد ضوءها الذى أرسله قبل خفائها ، وهو مسافر الينا . إذن ماجاء فى الانجيل المذكور المبنى على علم علماء الاسكندرية أصبح لاقيمة له بالنسبة للكشف الحديث الذى يوافق القرآن ، إذن دين الاسلام صار الكشف الحديث موافقا له ، وهذه معجزة جديدة جاءت فى زماننا .

أسئلة وردت على المؤلف

ولما وصلت الى هذا المقام زارنى عالم فاضل ، فاطلع على ما كتبته فسرّ . وقال لله درك ، فقد أبنت جلال الله وجماله وعجائب صنعه ، ولكنك فى الحال قد خالفت القرآن ، فقلت وكيف ذلك ؟

قال انك ترى أن الكواكب تسير فى الفضاء ، لأن هذا هو الرأى الحديث . فقلت ان من يقول ان الكواكب تسير فى الفضاء ليس عالما بالرأى الحديث ولا القديم . أما القدماء فانهم أثبتوا أنه لافضاء موجود . وقالوا ان الخلاء مستحيل لأننا اذا تصوّرنا مكانا خاليا لايخلو : اما أن تصوّره مضيئا . أومظلما : والضوء والظلمة

إماعرضان . أوجوهران . أوأحدهما عرض والثانى جوهر ، فان كاناجوهرين فبها ، وان كانا عرضين فالعرض لايقوم الا بجوهر ، وان كان أحدهما عرضا والآخر جوهرا ، فالأمر واضح ، فثبت أنه لافراغ موجود فى الكون .

وأما المحدثون فقالوا ان الضوء يصل من الكواكب الى الأرض ولابد أن يكون محمولا على جرم [ومعى هذه النظرية اخترعوا التلغراف الذى لاسلك له] فثبت أنه لافراغ فى الكون عند القدماء ولا عند المحدثين فمن قال ان الكواكب تسير فى فضاء ، فانه جاهل بعلوم العالم أجمع ، وهم صغار الطلبة المغرورون ، فقال سلمت أن الكواكب تجرى فى أجرام موجودة ، ولكن كيف يقول الله إن السموات سبع ؟ فقلت له إذا أثبت وجود الجرم الأثيرى اللطيف الذى تجرى فيه الكواكب ، فما أسهل فهم القرآن . واعلم أن العدد ليس لمفهوم ، وبه قال أكابر المفسرين والحكماء ، فاذا قال الله سبع سموات ، فليس ذلك بمانع أن يكون العدد أكثر ، واذاعرفت أن هذا الجرم اللطيف العجيب الممتد الى أمد ينقطع الفكر دونه ، ومجال لايصل اليه الوهم فيه من العجائب والبدائع والكواكب والمخلوقات مالايحصى ، فسواء أكان سبعا أم ألفا ، فذلك كله من فعل الله دال على جماله وكماله ، وهو تجلياته وأنواره المشرقة المتلألئة الفائضة من مقام القدس الأعلى متنزلة فى العوالم ، وكل كوكب من الكواكب الجارية له مدار خاص به ، وكل شمس من الشموس التى ذكرناها لها مدار خاص وسياراتها كذلك ، والله هو الفاعل المختار مفيض الخيرات والجمال والحسن والاشراق . قال الامام الغزالى : فى كتاب [تهافت الفلاسفة] .

[اذا ثبت حدوث العالم ، فسواء أكان كرة أو مثمنا أو مسدسا وسواء أكانت السموات وما تحتها ثلاث عشرة طبقة كما قالوه أو أقل أو أكثر ، فنسبة النظر فيه الى البحث الالهى كنسبة النظر الى طبقات البصلة وعددها وعدد حب الرمان ، فالمقصود كونها من فعل الله فقط كيفما كانت] .

أقول : اياك أن يصدك أيها الفطن لفظ سبع عن البحث والتنقيب ، فالعدد ليس بقيد وانظر الى هذا الجمال ، ولا تكن من الحانقين الجبناء الذين يظنون أن هذا ينافى القرآن ، أو تكون من المساكين الذين يلحدون ويكفرون لسماع مثل هذا اللفظ ، وذلك لسخافة عقولهم ، وقلة علمهم ، وهذان الفريقان من الذين قال الله فيهم (يضل به كثيرا) فقال صاحبى إذن أنت تؤيد المذهب الحديث ، فقلت له حاشا لله أن أؤيد حديثا أوقديما ، وانما القرآن طبقناه على المذهب القديم ، ثم ظهر بطلان ذلك المذهب وجاء الحديث ، فوجدناه أقرب إليه ، والافهوأعلى منهما وأعظم ، ومايدرينا أن يكون هناك مذاهب ستحدث فى المستقبل ، فهل القرآن كرة طرحت بصولجة ، يتلقفها رجل رجل كلا إنما هذا التطبيق الذى ذكرته ليطمئن قلب المسلم ، وليعلم أن عمل الله وصنعه لاينافى كلامه ، فالتطبيق للاطمئنان .

فقال : ولم كان المذهب الحديث أقرب إلى القرآن ؟ قلت

أولا : جاء فى القرآن « ويخلق مالاتعلمون » والمذهب الحديث أرانا سعة مخلوقاته وانها لاتدرك .

ثانيا : كان القدماء يقولون : الكواكب والأفلاك لاتفنى ، والرأى الحديث يقول : ان الكواكب تتجدد وتفنى كالانسان والحيوان . وقالوا انهم رصدوا كواكب لاتزال فى طور التكون ، وذكروا منها نحو ستين ألفا وأن كواكب قد فنيت يقول الله « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات » ومنها ذلك الكوكب الذى بين المشترى والمريخ ، وصار كواكب صغيرة جدا ، فهذا أقرب الى القرآن لقوله تعالى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

فقال صاحبى : ماملخص مامضى ؟ فقلت

أولا : أن السماء يراها الناس واحدة .

ثانيا : ان الدين جعلها سبعة ، والفلاسفة جعلوها تسعة :

ثالثا : المسلمون القدماء جعلوا سبعة منها سموات ، والكرسي والعرش : هما الفلكان الباقيان اتباعا للفلسفة القديمة ، وانجيل برنابا تبعها ، فقال تسع سموات ، والمذهب القديم أبطل فبطل تبعا له ماجاء فى انجيل برنابا وما جاء عن العلماء الذين صدقوه من المسلمين .

رابعا : أن المذهب الحديث أبان أن عظمة الله فوق ما ذكره القدماء ، وأصبح ما كان عند القدماء بالنسبة للعلم الحديث أشبه بذرة بالنسبة للأرض والجبال والبحار ، بل أقل كثيرا جدا .

خامسا : العالم لا فراغ فيه ، فالسموات موجودة فعلا ببراهين القدماء والمحدثين .

سادسا : وهى سبع سموات وذلك حق لأنها طباق بعضها فوق بعض

سابعا : المذهب الحديث يثبت فناء العالم ، وفناء الكواكب ، وهو موافق للقرآن فهو معجزة له .

ثامنا : ان ماقلناه ليس القصد منه أن يخضع القرآن للمباحث ، فانه ربما يبطل المذهب الحديث كما بطل القديم ، فالقرآن فوق الجميع ، وإنما التطبيق ليأنس المؤمنون بالعلم ولا ينفروا منه لمخالفته لألفاظ القرآن فى نظرهم .

فقال صاحبي قد أفدت إفادة تامة ، ولم يبق عندي إلا سؤال واحد ، وهو لم عبر الله بسبع سموات ولم يعبر بسماء واحدة مع أن الناس لم يروا غيرها ؟

قلت : اعلم أن الله لو ذكر سماء واحدة لوقفت عقول المسلمين عليها ، ولم يبحثوا عن غيرها ، ولكنهم لما سمعوها أخذوا يقرءون فلسفة اليونان ، ثم قرأنا الفلسفة الحديثة ، فعرفنا نعمة الله وحكمته ، والتعبير بالسبع امتحان وابتلاء من الله لأنها تحير عقول الباحثين ، فمن كان مريض النفس ، صغير العقل ، ضئيل الفكر جبن وجزع وخاف . وقال : انى أخاف الله رب العالمين ، فلا يبحث فى العوالم ، ويظن أن الله يغضب على من بحث من المؤمنين فى جمال جلاله ، ومن قويت عزيمته ، وعلت همته ، وارتقت نفسه ، فانه يبحث ويعرف فعل الله عز وجل ، ويقول فى نفسه : ان هذا فعل الله ، وأنا أقرأ كلامه ، وكلاهما دال عليه . وقوله لايناقض فعله الا عند الجاهلين .

أما أنا فانى أبحث صنعته ، وبعد ذلك أطبقها على كلامه ، بهذا فليرتق المسلمون وليتعلموا ، فكم من ذكى مسلم قرأ العلوم الحديثة وكفر بالدين ظانا أنه نال من العلم ماجهله الأنبياء ، وكم من غبي مسلم اطلع على هذه المباحث فنفر منها لاعتقاده أنها تنافى الدين [والحق أقول] ان قليلا من الأذكياء المسلمين من يصدقون بالدين مع العلوم ، وأكثر المصدقين بالدين من الجهلاء وعلماء الدين . أما أكثر المتعلمين العصريين ، فانهم يقولون : الدين شيء والعلوم شيء .

ولقد أفضت فى هذا المقام لدقته على الأفهام ، ولأنه فى أعظم النعم الالهية التى أنعم الله بها على الانسان وقد كفر بها مع وضوحها وظهورها ، فلذلك أعقبها بالكلام على قصة آدم فى المقصد السادس .

(المقصد السادس)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (و) اذكر يا محمد (إذ قال ربك للملائكة) الأرضيين أو عموم الملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وهو آدم، وهكذا الأنبياء فهم خلفاء الله فى سياسة العباد وهدايتهم لبعد مراتبهم عن الفيض الأعلى فكان الأنبياء واسطة القبول من الحق والإيصال للخلق كما كان الغضروف موصلا للعظم الغذاء الذى يعجز اللحم أن يوصله إليه لتباعد ما بينهما من المناسبة (قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فتجعل أهل المعصية مكان أهل الطاعة (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) التسبيح: تبعيد الله عن النقصان، من سبح فى الماء والأرض، وكذلك التقديس من قدس فى الأرض: اذا ذهب فيها وأبعد (قال إنى أعلم ما لا تعلمون) أعلم أن فيهم من يعبدنى ويطيعنى (وعلم آدم الأسماء كلها) تعليمه الأسماء كلها بأن خلق من أجزاء مختلفة وقوى متباينة وهو مستعد لادراك أنواع المدركات من المعقولات، والمحسوسات، والمتخيلات، والموهومات، وألهمه المعرفة والاختراع، وسائر الصناعات، وهو متى عرف الألفاظ كلها عرف المعانى كلها (ثم عرضهم على الملائكة) أى عرض المسميات على الملائكة وقال لهم تبكيتا (أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) فمن لم يقدر على معرفة مراتب الأشياء لا يستحق أن يكون خليفة عليها (قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) وهو اعتراف بالعجز، وأمر آدم أن ينبئهم بأسماء الأشياء كلها، فلما أعلمهم (قال) الله لهم (ألم أقل لكم) الخ وقوله (وأعلم ما تبدون) أى من قولكم «أتجعل فيها من يفسد فيها» (وما كنتم تكتمون) من قولكم انكم أحق بالخلافة (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين) سجود الملائكة لآدم تسخيرهم وانقيادهم للسعى لمنافع

آدم و بنيه فيما يكفل معاشهم فسجدوا وامتنع إبليس لأنه لايلهم بالخير كالملائكة ولا يسعى فى المنافع المعاشية فأبى امتنع باختياره ، وكان كفره فى علم الله ، ثم أمر آدم أن يسكن فى الجنة هو وزوجته وأن يأكلا رغدا واسعا حيث يشاآن ، ونهيا عن الاقتراب من شجرة لابهم تعيينها الناس فحملهما الشيطان على الزلة بسببها (فأخرجهما مما كانا فيه) من الكرامة ، فأمر آدم وحوّاء ومن ذرّيتهما بأن يهبطوا إلى الأرض وهم متعادون ولهم فى الأرض موضع استقرار وتمتع إلى وقت الموت (فتلقى آدم من ربه كلمات).

منها أنه قال يارب : ان تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال نعم فتاب آدم فتاب الله عليه أى رجع عليه بالرحمة ، وقوله (فمن تبع هداى) الى آخره أى بانزال الرسل (فلاخوف عليهم) الى آخره ، و بقية الآيات واضحة انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

ماأعجب هذه الآيات وماأبدعها أنا الآن فى أوّل سورة قرآنية من حيث النظام والترتيب ابتدأ بآدم أبى البشر وجعله مبدأ لنظام الانسان وتعجب لم يتقدّم عليها غيرها ولم يصدر القرآن من السير الا بها ولعلك تقول انها قصة أبيهم والأب مقدّم طبعا فقدم وضعا . أقول هذه أدلة المصنفين المحدثين ، وأجوبة بعض الخلف الجاهلين . وليست هذه النكات الصغيرة المبتذلة الضئيلة تليق برب الأرباب العالم بالجزئيات والكليات ، فاسمع لما أقول وارعه حق رعايته واعلم أن هذه القصة نموذج علم الأخلاق والحكمة . ولنقدّم لك مقدّمة فنقول .

اعلم أن الحكمة تنقسم إلى علمية وعملية ، والعلمية الرياضيات والطبيعيات والالهيات ، والعملية سياسة الشخص والمنزل والمدينة ، والطبيعيات قدم وصفها فى خلق الأرض والسماء والالهيات تلازمها ملازمة العرض الجوهر والظلّ للشبح والنتيجة للمقدمة واللزوم للازم . فأما الحكمة العملية وهى تدبير الشخص والمنزل والمدينة فلها أصول ثلاثة فى الانسان : وهى القوّة الشهوية والقوّة الغضبية والقوّة العقلية ، فبالشهوة الطعام والشراب والتزوّج و بالغضبية الاقدام والحرب والكفاح والكبر والعجب والحسد وما أشبهها ، وبالقوّة العقلية الحكمة والعلم . ومن أعجب العجب أن تشتمل قصة آدم على هذا العلم بحذافيره ، ألم تر إلى حسد ابليس وطغيانه وتكبره واستعظامه واستطارة شرر النار من كبريائه وعظمته ، وكيف كان ذلك قبسا من القوّة الغضبية ، وشررا من نارها ولهبها ، وسعيرا من جهنمها ثم كيف حرم آدم وحواء من الجنة بثمرة أكلاها وطردا منها بنار جوعة أطفآها واستمرآ مرعاها فخرجا منها نادمين وكانا فى الجنة منعمين ، أليس أوّلهما اشارة لغضب الانسان ، وثانيهما لشهواته . وأما العلم فقد سطع نوره ونجم كوكبه و بزغت شمسه فى منازل قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) ثم سخرت له السموات والأرضون والبرّ والبحر والروض والقفر والجبل والسهل بعلم الأسماء والصفات وخواص المخلوقات ليعرفها وتنفعه . ولذلك يقول (وعلم آدم الأسماء) الخ وحرىّ بمن سخرت له الافلاك وقامت بنظامها الاملاك ومن سجدت له العوالم سجود تسخير وقامت له تعظيما بالتدبير أن يتحلى بالعرفان ليفهمها و ينطق باللغات وينظمها دعت حاجته الى العوالم فعرّفها له مبدعه فصوّرتها العقول وخزنتها القلوب ونطقت بها الألسن والشفاه فهنا ظهرت عجائب القرآن و بدائع الفرقان وكيف كان هذا القصص مبدأه انها لآية بديعة وحكمة عجيبة تدعو للنظر فى علم الأخلاق والبحث فى أغوارها والتنقيب عن أسرارها

الله والملائكة وآدم خليفته

اعلم أن فى هذه القصة عجبا عجيبا ، ذلك أنه ذكر الربّ والملائكة وآدم وأنه خليفة فى قوله (واذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) فنحتاج أن نبين آدم وخلافته والملائكة فنقول : ان معرفة

لله عزّ وجلّ وملائكته تجلّ عن العقول ، وتدق عن الأفهام ، وليس يتمّ ذلك للانسان إلا بمثال يعرفه ، وشاهد يعقله ، ويحس به من نفسه لأننا فى هذه الدنيا محجوبون عن الملأ الأعلى ، وأقرب الأشياء الينا أنفسنا فمن فكر فيها رأى شواهد تشير بطرف خفيّ إلى مافى هذا العالم المشاهد والمعقول ، لذلك كان الانسان خليفة لله ، ومتى أدركنا أنفسنا عرفنا خلافتها واقتربنا من فهم الملائكة وتدبير الله للخلق — ولقد اعتاد الفلاسفة أن يبينوا ذلك بشواهد كما قال سقراط لتلميذه وقد سأله ماالذى يعرّفنا أن فى هذه العوالم عقولا ؟ فأجاب أليس جسمك مركبا من موادّ ترابية ، وأخرى مائيـة ، وهواء وحرارة ؟ قال بلى : قال فاذا كانت تلك الأجزاء الضئيلة التى تركبت منها جسمها عقل وحاسها فكر فكيف يحرم من العقل والفكر تلك العوالم الكبيرة من الماء والتراب والهواء وعالم النور والنار . لاجرم أن من حكم بأن له عقلا وقد علم أنه من موادّ ضئيلة لايستكثر على الأصول التى تركب منها أن يحكم أنه يحيط بها عقل — أما فى القرآن هنا فقد ذكر خلافة الانسان لله والخلافة تحتاج إلى شرح طويل ، وعلم غزير ، وانى سألخص لك أيها الفطن هنا قليلا من كثير لنكتفى به خيفة السآمة والتطويل .

اعلم أن علماءنا السابقين شرحوا جسم الانسان ونفسه فجعلوه مشبها للعوالم المحيطة بنا والنفس متصرّفة فيه كما تصرّف الله عزّ وجلّ فى العوالم فقالوا : ان الجسم أربع طبقات . طبقة تشبه الأرض . وأخرى تشبه الماء المحيط بها . وأخرى تشبه الهواء . وأخرى أشبه بضوء الكواكب واشراقها ، فاذا كانت الأرض أسفل والماء محيط بها والهواء بجوبه والضوء مشرق فوق الجميع سائر من الشمس والكواكب الينا هكذا نرى الرجلين والفخذين يستقر عليهما مافوقهما مما فيه الماء المخلوط بغيره : وهى الأمعاء والمعدة وفوق ذلك الهواء الداخل فى الرئتين وفوق الجميع نور العينين وسمع الأذنين وشم المنخرين وذوق اللسان ولمس اليد ونور الفكر وهذه هى المشرقات اشراقا على الجسم للاحساس والادراك كاشراق أضواء الكواكب ، بل هى أرق وأشرف ، واذا كان فى هذه العوالم بخارات ورياح وسحاب وأمطار وحيوان ونبات ومعادن ، هكذا نرى أنه من هذا الجسد يخرج المخاط والدموع والبصاق وفيه الرياح والرطوبات فالجسد كالأرض وعظامه كالجبال والمخ كالمعدن والجوف كالبحر والأمعاء كالأنهار والعروق كالجداول واللحم كالتراب والشعر كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة ومالانبات فيه كالأرض السبخة وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق وضحكه كالضوء وبكاؤه كالمطر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل والنوم كالموت واليقظة كالحياة وأيام صباه كفصل الربيع وشبابه كالصيف وكهولته كالخريف وشيخوخته كأيام الشتاء ، هذه نبذة من الكلام على جسمه و بنية هيكله : أما نفسه فاعلم أن للنفوس قوى كثيرة لايحيط بها العدّ ولايعرفها إلا مبدعها وهى مختلفات .

فترى أن النفس أشبه بملك له خمس فرق موكلات بالأخبار كل فرقة تأتى بأخبار ناحيتها لاتشاركها الفرقة الأخرى ولا تعاونها ولا تعرف عنها شيئا ، فترى حاسة البصر تدرك الألوان والحركات والسكنات والظلمات والنور والكواكب البعيدة والاجرام المشرقة والأذن لاتعرف شيئا عنها ولاتدرك إلا حركات الهواء المسماة أصواتا من حيوان أو نبات أو انسان أو غيرهما ، وحاسة الشمّ التى فى المنخرين ليست تعرف صورا ولا أصواتا ، ولكنها تدرك الروائح المنبثة فى الهواء الجارية فى الأنف السارية فى الحاسة المتصلة بالمخ ، ثم حاسة الذوق التى تعرف الطعوم من الحلاوة والمرارة والحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة ، وهى لاتعلم شيئا من الصور والأنوار والأصوات والروائح ، ثم حاسة اللمس التى تدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة ، وليست تعرف شيئا مما تقدم ، وكلّ حاسة من هذه توصل أخبارها إلى أولئك الوزراء والكبراء والعظماء الذين هم متعاونون متشاركون متحابون ،

فأولها

فأولها القوّة المتخيلة التي تجتمع عندها هذه الصور من المرئيات والمسموعات والمشمومات والمذوقات وتسلمها الى القوّة المفكرة لتحكم بينها ، ثم تجعلها فى خزانة الى وقت الحاجة ، وهى القوّة الحافظة ، ثم يأتى الترجمان وهو اللسان فيعبر عنها جميعها بكلمات ، ثم تأتى قوّة أخرى أشبه بالوزير للملك ، وهى القوّة الصانعة فى اليد بالكتابة والصناعة ، فانظر أيها الذكىّ وتعجب أفلست ترى أن النفس الانسانية ذات ملك وسلطان على عالم جسمانى وآخر معنوى ، والجسمانى شابه العوالم المحيطة بنا وكأنه نموذج لها ، ولست أقول إنى أبنت لك كلّ شيء ، ولكنك تستدلّ به على الباقى بفكرك ودراستك ، واعلم أن الذين لم يمارسوا العلوم لايعقلون ماذكرت إلا تخيلا ولايدركونه إلا من وراء حجاب .

اجتماع خصائص الحيوان فى الانسان

ان لكلّ نوع من أنواع الحيوان خاصية طبع عليها ، وكلها توجد فى الانسان فتراه يطلب المنافع تارة بالبصبصة كالكلب والسنور ، وتارة بالحيلة كالعنكبوت ، وتارة بالغلبة كالأسد ، وتارة يفرّ من الهلاك كالأرانب والظباء والطير ، وقد يدفع بالسلاح كالقنفذ ، وقد يتحصن فى الأرض كالفأر والهوام ، وهو شجاع كالأسد ، وجبان كالأرنب ، وسخى كالديك ، وبخيل كالكلب ، وعفيف كالسمك ، وغفور كالغراب ، ووحشى كالنمر ، وأنسى كالحمام ، ومحتال كالثعلب ، وسليم كالغنم ، وسريع كالغزال ، و بطىء كالدبّ ، وعزيز كالفيل ، وذليل كالجمل ، ولص كالعقعق ، وتائه كالطاووس ، وهاد كالقطا ، وضال كالنعامة ، وماهر كالنحل ، وحليم كالجمل ، وحقود كالحمار ، وشموس كالبغل ، ومستحل كالذئب ، ومضرّ كالفأر ، وجهول كالخنزير وغير ذلك ، وهذه كلها راجعة الى أخلاقه التى اكتسبها بالبيئة والتعليم والميراث وغير ذلك ، ثم اعلم أن القوى المبثة فى الجسم السارية فى الأعضاء وأجزائها من اللحم والعروق والأعصاب والعظام والدم والشعر والظفر كثيرة لايحصيها الانسان ، وأنها جميعها متصلة بالمخ الذى هو عرش النفس وسرير ملكها ، ألا ترى أنه لو قطع عصب العين فلم يتصل بالمخ لم ير الانسان الأشباح مع سلامة عينه وصحة جسمه ، أولا ترى أن الذى به شلل لايحسّ بوخز الأبر فى العضو الاشل ذلك لقطع الصلة بين ذلك العضو و بين المخ . هذه هى صورة الانسان الحسية والمعنوية ، وهو الخليفة لله ، و بمعرفة هذا الخليفة تتصور بعض صفات المستخلف وتدبيره وملائكته ، النفس واحدة تشرف على الجسم كذلك الله واحد يشرف على العالم ، النفس لها طبقات يابسة وأخرى مائية ، وأخرى هوائية ، وأخرى مضيئة ، هكذا كان لله أرض وماء وهواء وشمس وكواكب : النفس لها حواسّ كل منها له عالم مخصوص من العوالم وليس يدرك أحدها العالم الآخر ، هكذا خلق الله عزّ وجلّ أمما ودولا وجعل ديانات ومذاهب ولغات مختلفات ، وأمما من الحيونات وكلّ يعمل على شاكلته ولا يدرى الآخر ماليه كما لايدرى عالم الماء ولا عالم الأرض عالم الكواكب الأخرى ولا عالم القردة مثلا عالم الفراش ، ونرى أهل الأرض لايعرفون سكان أى عالم آخر ، وكلها عاملة ناصبة راجعة الى ربها كما رجعت الحواس الى نفوسنا هذا ولا أطيل عليك فى تعداد تلك المشاكلات فعقلك يفكر ونفسك تستبصر ، واذا كان فى سائر أعضاء الجسد قوى لطيفة معنوية منبثة سارية فى جميع الجسم مرتبطة بالنفس المستوية على عرش الجسم فى المخ ، هكذا نقول لله ملائكة مأمورون مقابلة لتلك القوى فى أجسامنا ، و بيانه أنك ترى الطعام يصير فى المعدة كيموسا ، ثم ينقلب دما فلحما فعظما الخ ، وتصوّر هناك صور منتظمة بدقة كطبقات العين والمخ ودقائق تركيبهما ، وهذه تكون بقوى لطيفة ، هكذا جرى الكواكب والشمس والقمر ونحو النبات والحيوان كلّ ذلك بعالم خفى عن الأبصار يسمى ملائكة مرسلة من الله فى العوالم كما نبثت تلك القوى فى أجسامنا من

عند أنفسنا ، وكما أن النفس تحس بكل حركة فى الجسم وألم فى العظام وفكر فى النفس ، هكذا الله تعالى محيط بالعالم و يعلم سرّه وجهره : واعلم أن هذا مجرد تنظير والافالله ليس كمثله شيء ، هذا ولأكشف بهذا القدر فقد أبنت لك كيف كان الانسان خليفة بما أبنت من تشابه جسمه ونفسه للعالم المنظور والملائكة وعرفت أنه مثال لعلم الله كل شيء وتدبيره للعالم ووحدانيته ، وذلك بما تحسه من نفسك ، وانما ذكرت لك هذا لتكون تبصرة وذكرى عند ماتصل الى آيات أخرى فى القرآن كقوله تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، وقوله « بل الانسان على نفسه بصيرة » وكأن الانسان فى الأرض عالم صغير يضاهى هذا العالم الكبير ، ولذلك سمى خليفة ، فكانت الخلافة المذكورة هنا ليكون منها استنتاج التبصر فى عالم الملائكة ومعرفة الله وتمهيد المحاورة المذكورة عليها ، وهى (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء) الخ واعلم أن هذه الآية كما جمعت ملخص علم النفس والتشريح فى لفظ خليفة جمعت علم الاخلاق فى هذه المحاورة ، وهى (أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدّس لك قال انى أعلم مالا تعلمون) .

تفصيل الكلام على الملائكة

ها أناذا قد أبنت لك طرفا من علم التشريح وعلم النفس ، وذكرت لك أن القوى التى فى نفوسنا تمثيل للملائكة ، وهذا ليس دليلا وانما هو استئناس بضرب الأمثال والمشابهات ، ولأسمعك دليلا اقناعيا لايقينيا على وجود عالم الملائكة قبل ذكر آراء نوع الانسان من الأمم المختلفة والأجيال البائدة ، وهذا الدليل استنتجه العقلاء من المشاهدات ومن العوالم المحيطة بنا . انظر الى عالم المعادن والنبات والحيوان والانسان ، فانها كلما انحطت فى دركات الجهالة كانت منازلها فى الدركات السفلى ، وكلما ارتقت إلى عالم العقل كانت فى أوج الكمال ، نخذ الحديد مثلا انه أدنى مرتبة من الحشرات والديدان ، وهى أقل مرتبة من الآساد والنمور وهى أقل كمالا من القردة ، وهى أنقص من المتوحشين من بنى آدم وهؤلاء يعلمهم النابغون من نوع الانسان وهؤلاء يسوسهم العلماء والحكماء والانبياء ، وهؤلاء أرقاهم مقاما وأحلاهم كلاما ، ولاجرم أن ذوى الشهوات من الانسان يشاركون نظائرهم من الغزلان والخنازير فى مآربهم ، و يعلوهم رجال الجيش والجنود المقابلون لنظائرهم من الآساد والنمور . وهؤلاء يسوسهم الملوك والحكماء والأنبياء ، فانظر كيف ترقى العالم المشاهد من من حشرة إلى غزال إلى أسد إلى قرد إلى إنسان إلى حكيم عالم .

واذا كان العلم والحكمة أقصى ماوصل اليه نوع الانسان ، وقد وجدنا الطرف الأدنى من المواليد فى غاية الخسة أفلا يقال على سبيل القياس ان الطرف الاعلى فى غاية الكمال وهى الملائكة ، ولابد أن تكون قوة الكمال الادراكى تامة فيهم كما انتهى النقص إلى نوع الجماد ، أوالى الدود الذى هو من أخس أنواع الحيوان وبالاجمال نقول انا وجدنا ههنا شهوة بلا عقل فى البهائم ، ووجدنا شهوة وعقلا فى الانسان ، أفلا نقول ان فى الوجود عقلا كاملا بلا شهوة تزرى به .

آراء أهل الديانات والحكماء فى الملائكة

فمنهم من ظنها أجساما هوائية لطيفة قادرة على التشكل باشكال مختلفة مسكنها السموات .

ومنهم : من ظن أنها هى المرسلات النحوس والسعود من الكواكب ، والكواكب أحياء ناطقة كالانسان : ومدبراتها هى الملائكة كتدبير نفوسنا لأجسامنا .

ومنهم : من يرى الظلمة عنصر الشياطين ، والنور عنصر الملائكة .

ومنهم : من يرى أن الملائكة هى الأرواح البشرية الصافية ، وأن الشياطين هى الأرواح الانسانية الخبيثة

اذا طرقة أبدانهما .

ومنهم : من يرى أنها هي المدة لنفوسنا الناطقة ونسبتها اليها كنسبة الشمس إلى ضوئها وهناك ملائكة مستغرقة في معرفة الله . ونسبتها إلى الأولى المدة للأفلاك ولنفوسنا : كنسبة الأولى إلى نفوسنا . وهناك مدبرات لأحوال العالم السفلي ، فان كانت للخير ، فهي الملائكة ، وإن كانت للشر ، فهي الشياطين .

فالقول الأول لبعض علماء الاسلام . والثانى لطوائف من عبدة الأوثان . والثالث قول معظم المجوس والثنوية . والرابع النصارى . والخامس للفلاسفة ، هذا .

ومن الناس من قال لاسبيل إلى اثبات الملائكة بالعقل . ومنهم من قال انهم به ثابتون ، والفلاسفة على هذا وقد تذكر أدلة إقناعية . منها أن الصناعات البشرية لن تتقن إلا بصانع ذى عقل عالم بها والعالم المشاهد حولنا فيه ذلك الاتقان : كالنبات والحيوان ، فلا بد من نفوس تصورت تلك المصنوعات ، ونفوس أخرى علمت تلك الصناعة ، فالأولى تسمى نفوسا . والثانية تسمى عقولا . وذلك كما فى أحوال الناس ان كل ذى علم أو صناعة لابد أن يكون له معلم أعلى منه أخرج مافى القوة منه الى الفعل .

ويقول أصحاب المجاهدات انهم أثبتوها من جهة المكاشفة ، فهى فى حقهم يقين وفى حق غيرهم اقناع ، وقد يستدل بالرؤيا الصادقة .

ولقد رأيت دليلا فى كتاب يسمى « راجايوقا » بالانجليزية ، مترجما من الهندية . قال ان الناس يصدقون أصحاب العلوم وان لم يمارسوها لعلمهم أنهم ان سلكوا سبيل أربابها ، وصلوا الى ماوصلوا اليه ، ألاترى أن علماء الطب موثوق بهم فى عالم الحيوانات الصغيرة المسماة (بالمكروب) التى تفتك بالاجسام . وتأتى بأمراض الحصباء والجدرى والطاعون : كذلك يصدقون علماء الفلك فى أبعاد ومقادير الكواكب وتحليلها بطريق الضوء ؛ هكذا يقال : فى أمر الملائكة ، فقد أجمع المصفون نفوسهم ، والمجاهدون من سائر الملل والنحل : أنهم كشفوا ذلك العالم وعرفوه ، ومن ذوى الحاجات من اعتقد ذلك بما وصل اليهم من بلوغ مقاصدهم عند الاستغاثة بتلك النفوس الشريفة . هذا ملخص ماقرأته من كلام أهل النظر . أما الدلائل النقلية فلانزاع أن الأنبياء متفقون على إثبات الملائكة ، فلنبسط الكلام عليها الآن ليرجع إليه عند الوصول الى مكرراتها . وحاصله أنها مسوقة لعلم الأخلاق المرموز له بكبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل الآتى فى سورة المائدة .

بيان علم الأخلاق من قصة آدم وقابيل وهابيل

ان الأخلاق أربعة أنواع لاتزايل النفس بعد مفارقتها البدن ، وهذه الأربعة هى :

الأخلاق المكتسبة المعتادة . العلوم التعليمية . الآراء المعتقدة . الأعمال المكتسبة بالاختيار والارادة .

والاولى منها وهى : الاخلاق المكتسبة تنقسم الى قسمين : رديئة وجيدة ، والأخلاق الرديئة جميعها ترجع إلى ثلاثة أصول . كبر ابليس ، وحرص آدم ، وحسد قابيل ، وهذه الخصال الثلاث أمهات جميع الخبائث والمعاصى ، وبيانه :

أن الكبر من أشكاله ومشابهاته : عجب المرء برأى نفسه ، والأنفة عن قبول الحق ، وترك الاقرار به ، والتعدى والخروج عن الحد والظلم والجور عند القدرة فى الحكومة ، وترك الانصاف فى المعاملة ، والتهاون فى الواجبات ، والاعراض عن اللوازم من الحقوق والقحة والصلابة فى الوجه فى دفع الحق والفحش والسفاهة فى الخطاب والجدال واللجاج فى الخصومات والحزن والنزق فى العشرة والحدة ، والبطش فى التصرف ، والغش والمكر فى المعاملة ، والاستصغار والاستحقار لأبناء الجنس ، والاستطالة عليهم ، والافتخار فى الأمور بما خص

من المواهب ، والانكار لفضل من فضل عليه ، والبغى والعدوان وماشابه ذلك . هذا باب الكبر .

أما الحرص وهو الخصلة الثانية : فن أشكاله وأمثاله ومشابهاته : الطمع الكاذب ، وشدة الرغبة ، والطلب الحثيث ، والعجلة فى السعى ، ونصب البدن ، وعناء النفس ، وكد الروح فى الجمع ، والادخار ، والاستكثار ، والاحتكار من خوف الفقر ، والبخل ، والمنع ، والشح ، واللؤم ، والنكد ومايتبعهما من الشؤم والخذلان ، وقلة الانتفاع بالموجود ، والحرمان للمذخور ، والمضايقة فى المعاملة ، والمناقشة فى الحساب ، وسوء الظن بالأمين ، والتهمة للثقات المؤتمنين ، والخيانة فى الأمانة ، وطلب الحرام ، وهتك الحرم ، وارتكاب الفحشاء ، واضمار القلب على الاصرار ، واظهار الكذب ، والحيل فى أسباب الطلب من البيع والشراء ، والغش فى الأمتعة ، وقلة النصيحة فى الصنائع ، والحلف واليمين الكاذبة عند الاعتذار فى الحكومات ، وأقاويل الزور فى أسباب الخصومات والعداوة والتعدى فى الحدود وما شاكلها من الخصال المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، والأقاويل الباطلة ، والأفعال القبيحة ، والأعمال السيئة . هذا باب الحرص وأخواته .

أما الخصلة الثالثة ، وهى الحسد : فن أشكاله الحقد ، والغل ، والدغل ، وهذه تدعو الى المكاشفة بالعداوة ، والبغضاء ، والبغى ، والغضب ، والحرص ، والتعدى ، والعدوان ، وقساوة القلب ، وقلة الرحمة ، والفظاظة ، والغلظة ، والفحش ، واللغو ، والفحشاء ، وهى تكون سببا للخصومة ، والشر ، والحرب ، والقتال إن أمكن جهرا ، وإلا كان بالحيل ، والخداع ، والغدر ، والخيانة ، والسعاية ، والغيبة ، والنميمة ، والزور ، والبهتان ، والكذب ، والمداهنة ، والنفاق ، والرياء ، فيكون سبب تشتيت الشمل ، وقطيعة الرحم ، والبعد من الاخوان ، ومفارقة الالف ، وخراب الديار ، ووحشة الوحدة ، والحزن ، والغم ، وألم القلب ، وهموم النفس وعذاب الارواح ، وتنغيص العيش ، وسوء المنقلب ، وخسران الدنيا والآخرة : نعوذ بالله من هذه الخصال انتهى ملخصا من اخوان الصفا .

وأنا أقول تعجب : كيف فصل علماؤنا الاخلاق السيئة والاعمال القبيحة ، واستنتجوها من كبر ابليس وحرص آدم وحسد قابيل ، وانظر كيف كانت قصص القرآن لغايات سامية وعلوم عالية .

هذه قصة آدم كيف تكرر ذكرها فى القرآن وجاء فى سور مختلفة ليتلوها المسلمون صباحا ومساء ، وغاية القصد منها تطهير النفوس ، وصفاء القلوب ، وسعادة الحياة ، واتحاد الأمة بمحاسن الاخلاق ، فأما العامة وصغار العلماء والقراء والفقهاء ، فانهم لاحظ لهم منها الا أن يسمعوها بصوت حسن ويطربوا ، ويعرفوا صرفها واشتقاقها وما حوته من البلاغة والفصاحة ، وأن القرآن معجز للبشر [وانى لعلى ظن أن أمة الاسلام ستنتظر عما قريب فى مقصود القرآن] من هذه القصص وعجائبها ، ومافى باطنها من طهارة الأخلاق وجمال الشمائل فلعمرى لم أر فى بلادنا المصرية شركة تجارة رابحة ، ولا معاملة صادقة ، ولا أمانة فى بيع وشراء الا قليلا .

وأرى أمم الفرنجة هم أصحاب الحل والعقد فى البلاد سياسة وتجارة ، فتجارتهم رابحة ، وسياستهم قائمة ، وترى أماكنهم نظيفة ، وأسعارهم محددة ، ووجوههم باسمة ، ووعودهم صادقة ، فعلى العلماء الاسلاميين أن ينفضوا غبار الكسل عن أنفسهم ، ويدعوا الأمة الاسلامية للأمانة والصدق والاخلاص ، وعدم الحسد ، وطهارة القلوب ، هذا هو الطريق المستقيم لسعادتهم فى هذه الدنيا ثم الأخرى ، ولقد رأيت بعض المصريين المسلمين قد أخذوا يصدقون فى الموعد والمعاملة ، وسيقوم فى الأمة ان شاء الله رجال صادقون يرقون الأخلاق وسيظهر فضل الاسلام فى أقرب زمن والسلام [ولما كان بنو إسرائيل] من أقدم الأمم ، وهم بنو آدم أخذ يشرح حالهم ويذم صنعهم ، وهم ما اعتبروا بما أنزل على آدم من العبر ، وهم يقرءون ذلك فى التوراة وما حل جدهم بها الا تذكرة اليهود ، وليعلموا أن من عصى وتكبر زالت نعمته ، ودامت حسرته .

المقصد السابع ، وفيه فصلان

الفصل الأول

ما اقترفه قدماء بنى اسرائيل اليهود وما أوتوا من نعمة فلم يشكروها .
مما جاء فى التوراة فى سفر الخروج وانزال القرآن مصدقا ، وهى عشرة يواقيت

الياقوتة الأولى

نجاة بنى اسرائيل من عذاب المصريين فى قوله تعالى :

يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ، وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ * وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ *

التفسير اللفظى

(يابنى اسرائيل) أى أولاد يعقوب ، واسرائيل لقبه ، ومعناه بالعبرية صفوة الله ، ويقال عبد الله أيضا ، (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) من المال والولد والصحة والحواس ، وانى أنجيت آباءكم من فرعون وأغرقته وعفوت عنهم بعد اتخاذهم العجل ، ثم انى أرسلت لكم محمدا مصدقا للتوراة ، فتفكروا فى ذلك كله واشكروا النعمة بالقيام بما وجب فيها بالأعمال الصالحة والنصيحة ، والايمان بالنبى الذى أرسله (وأوفوا بعهدى) بالايمان والعمل الصالح بما نصبت من الدلائل الكونية ، والمعارف الالهية ، وما أنزلت من الكتب السماوية لاسيما آخرها ، وهو القرآن (أوف بعهدكم) فأدفع عنكم ما أثقلكم من الأغلال ، وأحسن لكم الاثابة والكرامة والنعيم المقيم (وإياى فارهبون) فى كل ماتتركون وما تفعلون ، فراقبونى فى حركاتكم وسكناتكم ، والرهبة خوف يصحبه احتراس (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) وهو القرآن ، وهذا تخصيص

بعد التعميم اهتماما بشأنه لأنه أهم ماعوهدوا عليه ، فهو أولى بالوفاء به بأن يكونوا به مؤمنين لأنه مصدّق للتوراة والإنجيل مطابق لأوصافه المذكورة فيهما ، وموافق لهما فى تحريم الحرام وإباحة ماتحل مع مراعاة الزمان فى السابق واللاحق ، وفى التوحيد ، ونصب الدلائل ، وطلب الاستقامة ، وهداية الناس (ولاتكونوا أوّل كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) ولما كنتم أهل نظر وكتاب ، وقد بشرتم برسولى وجب أن تكونوا أوّل فريق مؤمن به فلا تكفروا به ، فكيف تكونون أوّل من كفروا به من أهل الكتاب ، وكيف تشترون أى تستبدلون بالإيمان عرض الدنيا من الهدايا والتحف التى تنالونها من الناس بسبب مانلتم من الرياسة عليهم فى الدين وعرض الدنيا قليل ، والإيمان لايدانيه شىء عندى (وإياى فاتقون) بالإيمان (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولاتخلطوا الحق الذى أنزلته بالباطل الذى تخترعونه (وتكتموا الحق) الذى تعلمونه عن المطلعين به (وأنتم تعلمون) أنكم قد لبستم وكتمتم ، فإن سكتم فعن الحق حتى لايعرف ، وإن نطقتم أتيتم بالباطل لتدحضوا به الحق ، وأنتم تعلمون أنكم فى الحالين حائدون عن الصراط السوىّ (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) كما أمرتكم بالإيمان بالنبى وبالقرآن آمركم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، ولتكن الصلاة جماعة ، فإنها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة لاجتماع النفوس واتحادها ، فتكون أقرب الى الله (أتأمرون الناس بالبر) التوسع فى الخير (وتنسون أنفسكم) وتتركونها من البر (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) كان أحبار اليهود ينصحون سرّا باتباع محمد ﷺ ويأمرون الناس بالصدقات ، أما هم فكانوا لايتبعونه خوفا على الرياسة ولا يتصدّقون خيفة الفقر ، والتوراة بين أيديهم وفيها الوعيد الشديد على من ترك البر وخالف قوله فعله ، فهلا منعتهم عقولهم وصانتهم ألبابهم عما يعملون من مخالفة الأقوال للأفعال ، وليس المراد أن يمنع الفاسق من النهى عن المنكر ، كلا ، وإنما تجب مطابقة الأقوال للأفعال ، وإلا فنحن مأمورون أن نترك المعصية ، وأن ننهى عنها ، وليس ترك أحدهما بمانع من القيام بالآخر ، فالآية تحضنا على الجمع بين الأمرين لأنها تمنعنا عن أحدهما إذا تركنا الآخر ، وإذا كنتم أيها الأحبار شق عليكم ترك الرياسة ، وخشيتم الذلة والفقر باتباع القرآن والإيمان بمحمد ، فلتعلموا أن الصبر والصلاة بهما تنالون الفرج ، فالصابر المنتظر الفرج من الله الذى يدعوه سبحانه وتعالى مجاب لما طلب مادام مضطرا كما قال « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » ، وذلك قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) فتكون الصلاة بمعنى الدعاء ، والدعاء مستجاب لمن صدقت نيته وعزيمته ، وقد يراد بهما الصوم والصلاة الشرعيان (وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) أى وإن الاستعانة بالصبر وانتظار الفرج والدعاء مع توجيه الهمة لثقيلة إلا على المخبتين الخاضعين ، ويصح رجوع الضمير للصلاة (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) أى يتوقعون لقاء الله تعالى (يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وهذا ظاهر مما تقدم (وأنى فضلتكم على العالمين) أى على زمانهم : أى تفضيل آبائهم على عالم زمانهم أيام موسى (واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) أى لايقبل من النفس العاصية شفاعة الشافعين ، ولا يؤخذ منها فدية ، ولا ناصر ينصرهم . وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية لنفى الشفاعة عن مرتكب الكبيرة ، وخصها الجمهور بالكفار لما ورد من الآيات والأحاديث فى الشفاعة (وإذ نجيناكم من آل فرعون) من فرعون وقومه وأصل آل أهل ، ولذلك يصغر على أهيل ، ويخص استعماله بأولى الخطر كالملوك وأشباههم . وقوله (يسومونكم) حال من آل فرعون : أى يولونكم ، وقوله (سوء العذاب) مفعول ثان ليسومونكم ، ثم أبان سوء العذاب بقوله (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) يتركون بناتكم أحياء للخدمة (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم)

عظيم) محنة عظيمة ، أو نعمة كذلك : اذا أريد صنع فرعون فى الأولى ، أو أريد الانجاء فى الثانية ، والبلاء الاختبار والامتحان ، وهو شائع فيهما انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح المعانى

اعلم أن هذه الآيات فيها الكلام على العهد وعلى الشفاعة وعلى تفضيل بنى اسرائيل ، فلنبسط الكلام عليها . فنقول :

اعلم أن العهد الذى أمر اليهود أن يوفوا به ، إمّا أن يكون المقصود به فعل الطاعات واجتناب المعاصى ، وإمّا أن يكون المراد به ما أثبت فى الكتب السماوية فى نبوّة سيدنا محمد ﷺ . ولقد ذكر تلك العهود المفسرون ، كالامام الرازى اذا ثبت ماجاء فى الفصل التاسع من السفر الأوّل من التوراة وتبشير الملك هاجر أن يكون لها ولد فوق الجمع . وماجاء فى الفصل الحادى عشر من السفر الخامس . وماجاء فى السفر العشرين من هذا السفر وماجاء فى كتاب أشعياء فى الفصل الثانى والعشرين . ولما نظرت فى التوراة وجدتها قد حذفت منها تلك العبارات وطاحت تلك البشارات ولم يبق من الكتب السماوية كتاب لم تمتدّ اليه أيدى المغيرين الا انجيل برنابا الذى كان سرا مكتوما عند النصارى قديما [وقد ترجمه حديثا الدكتور خليل بك سعاده من الانجليزية] ونشره صديقنا العلامة السيد محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار .

قال فى الفصل الثانى والسبعين قال يسوع : لاتضطرب قلوبكم ولاتخافوا لأنى لست أنا الذى خلقتكم بل الله الذى خلقكم يحميكم ، أما من خصوصى فانى قد أتيت لأهيئ الطريق لرسول الله الذى سيأتى بخلاص العالم لكن احذروا أن تغشوا لأنه سيأتى أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامى وينجسون انجيلى ، حينئذ قال اندراوس : يامعلم اذكر لنا علامة لنعرفه ، أجاب يسوع انه لايأتى فى زمنكم بل يأتى بعدكم بعدة سنين حينما يبطل انجيلى ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمنا فى ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذى تستقرّ على رأسه غمامة بيضاء يعرفه أحد مختارى الله ، وهوسيظهره للعالم وسيأتى بقوّة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم ، وانى أسرّ بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدق وسينتقم من الذين سيقولون انى أكبر من انسان ، الحق أقول لكم ان القمر سيعطيه رقادا فى صباه ومتى كبر هو فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام ، فان موسى عبد الله قتل أكثر من ذلك كثيرا ولم يبق يسوع على المدن التى أحرقوها وقتلوا الأطفال ، لان القرحة المزمنة يستعمل لها الكىّ .

وسيجىء بحقّ أجلى من سائر الأنبياء ، وسيوبخ من لايحسن السلوك فى العالم ، وستحيى طربا أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضا ، فتى شوهد سقوط عبدة الأصنام إلى الأرض ، واعترف بأنى بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم ان نبىّ الله حينئذ يأتى .

وقال فى الفصل الثانى والثمانين : ثم التفت الى المرأة ، وقال أيتها المرأة انكم أنتم السامريين تسجدون لما لاتعرفون ، أما نحن العبرانيين فنسجد لمن نعرف ، الحق أقول لك ان الله روح وحق ، ويجب أن يسجد له بالروح والحق ، لأن عهد الله انما أخذ فى أورشليم فى هيكل سليمان لافى موضع آخر ، ولكن صدقينى أنه يأتى وقت يعطى الله فيه رحمته فى مدينة أخرى ، ويمكن السجود له فى كل مكان بالحقّ ويقبل الله الصلاة الحقيقية فى كل مكان برحمته ، أجابت المرأة : اننا ننتظر مسيا فمتى جاء يعلمنا ، أجاب يسوع أتعلمين أيتها المرأة ان مسيا لابدّ أن يأتى ، أجابت نعم ياسيد حينئذ تهلل يسوع ، وقال يلوح لى أيتها المرأة انك مؤمنة فاعلمى اذن أنه بالايمان بمسيا سيخلص كلّ مختارى الله اذن وجب أن نعرف مجىء مسيا ، قالت المرأة لعلك أنت مسيا أيها السيد ، أجاب يسوع انى حقا أرسلت إلى بيت إسرائيل نبىّ خلاص ، ولكن سيأتى بعدى مسيا المرسل

من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم ، وحينئذ يسجد لله في كل العالم ، وتنال الرحمة حتى ان سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مائة سنة سيجعلها مسيا كل سنة في كل مكان ، حينئذ تركت المرأة جرتها وأسرعت إلى المدينة لتخبر بكل ما سمعت من يسوع .

وقال في الفصل السادس والتسعين : ولما انتهت الصلاة . قال الكاهن بصوت عال : قف يا يسوع لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكينا لأمتنا ؟ أجاب يسوع : أنا يسوع ابن مريم من نسل داود بشر مائت ويخاف الله وأطلب أن لا يعطى الاكرام والمجد الا لله ، أجاب الكاهن انه مكتوب في كتاب موسى : ان إلهنا سيرسل لنا مسيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله ، وسيأتي للعالم برحمة الله ، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق ، هل أنت مسيا الله الذي ننتظره ، أجاب يسوع حقا ان الله وعد هكذا ، ولكني لست هو لأنه خلق قبلي ، وسيأتي بعدي ، إلى أن قال لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي اني لست مسيا الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلا بنسلك أبارك كل قبائل الأرض ، ولكن عند ما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمنا ، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الاصنام وعبدة الاصنام وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر ، وسيأتي برحمة الله لخلاص الذين يؤمنون به ، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركا إلى أن قال : ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب في وسيمتد دينه ، ويعم العالم بأسره لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم ، وان ما يعزيني هو أن لا نهاية لدينه ، لأن الله سيحفظه صحيحا وبعد أسطر قال حينئذ الكاهن : ماذا يسمى مسيا ، وما هي العلامة التي تعلن مجيئه ؟ أجاب يسوع ان اسم مسيا عجيب ، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوي . قال الله اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة ، والعالم وجما غفيرا من الخلائق التي أهبها لك ، حتى أن من يباركك يكون مباركا ، ومن يلعنك يكون ملعونا ، ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسولي للخلاص ، وتكون كلمتك صادقة حتى ان السماء والأرض تهنآن ، ولكن إيمانك لا يهن أبدا ، ان اسمك المبارك محمد ، حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : يا الله أرسل لنا رسولك ، يا محمد تعال سريعا لخلاص العالم .

وقال في الفصل السادس والثلاثين بعد المائة : وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون يا محمد أين وعدك لنا ان من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد ، فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة ، وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع ، فحينئذ يكلم الرسول الله ويقول : ربي وإلهي اذكر وعدك لي أنا عبدك بأن لا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد ، فيجيب الله : اطلب ما تريد يا خليلي لأني أهبك كل ما تطلب .

وقال في الفصل السابع والثلاثين بعد المائة ، فحينئذ يقول رسول الله : يارب يوجد في الجحيم من لبث سبعين ألف سنة أين رحمتك يارب ؟ اني أضرع إليك يارب أن تعتقهم من هذه العقوبات المرة ، فيأمر الله حينئذ الملائكة الأربعة المقربين لله أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من كان على دين رسوله ويقودوه إلى الجنة ، وهو ما سيفعلونه ، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله أن كل من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت عنها حتى لو لم يعمل عملا صالحا لأنه مات على دينه اه .

أقول : وهذا القول وأمثاله ان ثبت يكون مؤولا ، والا فالله عز وجل يعلم كل شيء ، ونحن انما نقلنا هذا لاثبات ما رأيناه في الانجيل .

وجاء

وجاء فى الفصل الثانى والاربعين بعد المائة قال : الكتبة والفريسيون لرئيس الكهنة ماذا نفعل لوصار هذا الرجل ملكا حقا ان ذلك يكون وبالاعلينا ، فانه يريد أن يصلح عبادة الله على حسب السنة القديمة ، لأنه لايقدر أن يبطل تقاليدنا ، فكيف يكون مصيرنا تحت سلطان رجل هكذا ؟ حقا اننا نهلك نحن وأولادنا لأننا اذا طردنا من وظيفتنا اضطررنا أن نستعطى خبزنا ، أما الآن فالحمدلله لنا ملك ووال أجنبيان عن شريعتنا ولا يباليان بشريعتنا كما لانبالى نحن بشريعتهم ، ولذلك نقدر أن نفعل كل ماتريد ، فن أخطأنا فان إلهنا رحيم يمكن استرضاؤه بالضحية والصوم ، ولكن إذا صار هذا الرجل ملكا علينا فلن يسترضى الا إذا رأى عبادة الله كما كتب موسى ، وأنكى من ذلك أنه يقول : ان مسيا لايأتى من نسل داود [كما قال لنا أحد تلاميذه الأخصاء] بل يقول : انه يأتى من نسل اسماعيل ، وان الموعد صنع باسماعيل لاباسحق ، فماذا يكون الثمر اذا تركنا هذا الانسان يعيش ، من المؤكد أن الاسماعيليين يصيرون ذوى وجاهة عند الرومانيين فيعطونهم بلادنا ملكا ، وهكذا يصير إسرائيل عرضة للعبودية كما كان قديما ، فلما سمع رئيس الكهنة هذا الرأى ، أجاب أنه يجب أن يتفق مع هيرودوس والوالى ، لأن الشعب كثير الميل اليه حتى أنه لا يمكننا اجراء شيء بدون الجند وان شاء الله نتمكن بواسطة الجند من القيام بهذا العمل .

وجاء فى الفصل الحادى والتسعين بعد المائة ، فقال من ثم الكاتب : لقد رأيت كتيبا قديما مكتوبا بيد موسى ويشوع [الذى أوقف الشمس] خادمى ونبيى الله ، وهو كتاب موسى الحقيق ففيه مكتوب : ان اسمعيل أب لمسيا واسحاق أب لرسول مسيا ، وهكذا يقول الكتاب ان موسى قال : أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم اظهر لعبدك فى سناء مجدك ، فأراه من ثم رسوله على ذراعى اسمعيل ، واسمعيل على ذراعى ابراهيم ، ووقف على مقربة من اسمعيل اسحق ، وكان على ذراعيه طفل يشير بأصبعه الى رسول الله قائلا هذا هو الذى لأجله خلق الله كل شيء ، فصرخ موسى من ثم بفرح : يااسمعيل ان فى ذراعيك العالم كله والجنة اذكرنى أنا عبد الله لأجد نعمة فى نظر الله بسبب ابنك الذى لأجله صنع الله كل شيء .

وجاء فى الفصل الثانى والتسعين بعد المائة : لايوجد فى ذلك الكتاب ان الله يأكل لحم المواشى أو الغنم ، ولا يوجد فى ذلك الكتاب ان الله قد حصر رحمته فى اسرائيل فقط ، بل ان الله يرحم كل انسان يطلب الله خالقه بالحق ، لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله ، لأن رئيس الكهنة الذى كنت فى مكتبته نهانى قائلا [ان اسماعيليا قد كتبه] فقال حينئذ يسوع : احذر أن لاتعود أبدا ، فتحجز الحق لأنه بالايمان بمسيا سيعطى الله الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه اه .

هذه هى البشارات الواردة فى انجيل برنابا ، وانما أثبت هنا هذه البشارات ، لأن هذا الكتاب قد ورد الأمر بعدم نشره و باحراقه فى بلادنا المصرية ، فانتهزت فرصة اطلاعى عليه ليبق تذكرة لمن بعدنا ، ولقد طبع سنة ١٣٢٥ هجرية سنة ١٩٠٧ ميلادية ، ولم يبق منه الا نسخ تمحى بعد قليل من الوجود وتنساه الأجيال المقبلة ، ولقد اضطربت آراء الباحثين فى هذا الانجيل ، وقد ثبت ثبوتا لاشك فيه أن المسلمين جميعا من عصر النبوّة الى العصور الأخيرة يجهلونه حق الجهل ، ولم يتعرّض له أحد من الباحثين الذين يردّون على المسيحيين بكتابهم ، وقد جاء ذكر النبيّ ﷺ فيه صريحا مرارا ، ويقول بعض المعترضين : ان هذا هو الذى يورث الشك ، لأن الصراحة الى هذا الحدّ غير معروفة عن الكتب السماوية فى أمثال هذه البشارات ويقول المؤيدون له : انه لم يكتبه مسلم بدليل أنه لم يكن له ذكر فى فهارس مكاتب المسلمين ، ويقولون : ان البابا جلاسيوس الأوّل الذى جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢ ميلادية أصدر أمرا يعدّد فيه أسماء الكتب المنهى عن مطالعتها ، وفى عدادها كتاب يسمى [انجيل برنابا] فيكون هذا الانجيل موجودا

قبل ظهور الاسلام بزمن طويل :

وأجمع الباحثون على أنه انجيل ملئ علما وحكمة وأخلاقا وعفة يضيء النفوس البشرية بأنواره ، وهو أفضل من الأناجيل ، ولقد قالوا أيضا : ان المسيح ليست عنده هذه الملكة العلمية والحكمة العالية الحقيقة وبالجملة فالكتاب نافع من حيث الاطلاع عليه والله أعلم ، ثم اعلم أن برنابا من حواريي عيسى ، وفي انجيله مخالفات للأناجيل ، مثل ان المسيح لم يصلب انما هو يهوذا الخائن الذى شبه به بغباء ،مطابقا للقرآن « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » ، ومثل قوله : إنى لست إلها ولست ابن الله ، وفي تصريحه بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

أما الشفاعة : فاعلم أن أهل السنة قالوا باسقاط العذاب عن المستحقين للعقاب . إما بأن يشفع لهم يوم القيامة فى العرصات حتى لايدخلوا النار ، وان دخلوا النار يشفع لهم حتى يخرجوا منها و يدخلوا الجنة . وقالت المعتزلة انها تكون للمستحقين للثواب بأن تحصل لهم زيادة المنافع على قدر مااستحقوه ، واتفقوا على أنها ليست للكفار ، وقد كتبت فى هذا الموضوع مقالا مقتبسة أصوله من كلام الأستاذ محيي الدين بن عربي والامام الغزالى ، فأحببت ذكره هنا تذكرة للعقلاء وتبصرة للمسلمين وتقوية للتربية الاسلامية فى مستقبل الزمان :

مبحث الشفاعة

اعلم أن الأمة الاسلامية ، قد أجمعت أنه ﷺ يشفع فى أمته ، وهذا أمر مجمع عليه لافرق بين السنية والمعتزلة والفلاسفة منهم ، ولكنهم اختلفوا فى المقصود منها ، وها أنا ذا أذكر لك الحقيقة واضحة جلية خالصة ظاهرة ، ثم أطبق عليها سائر الأقوال ، والآيات ، والأحاديث ، بحيث يتفق المشرب الدينى ، والمنهج القويم للتربية الاسلامية ، وهذا هو الذى انشرح له صدرى وصرت موقنا به تحقيقا .

فاعلم أرشدك الله أن النبى ﷺ كالشمس المشرقة ، كما قال تعالى « وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا » والشمس مشرقة على اليابسة ، والبحار ، والآكام ، والغياض ، والنبات ، والشجر ، والأرض السبخة والأرض الطيبة ، وكلٌّ من تلك المواضع يأخذ حظه من ضوئها على مقدار استعداده ، فأما البحر فانه يزجى السحب باشراق الشمس على أربائه ، فيكون بخار فسحاب فمطر يحيي الأرض ، وأما الجبال فان ماعلى بعضها من الثلوج المتراكمة تنزل ماء شيئا فشيئا الى باطنها ، ثم تخرج ينابيع فتحيي الأرض ، وأما الهواء فيتمدد وتكون منه الرياح ، والأعاصير ، والزعازع ، وأما الأرض الطيبة فتخرج زرعا مختلفا ألوانه ، وأما الأرض السبخة فلا تخرج شيئا ، وقد تخرجه نكدا ، هذا هو المثل الذى أردت ضربه لحال النبى ﷺ مع الناس ، فلنشبه القلوب النقية الذكية بالبحار ، اذا سمعت الدين أزجت السحب ، ونفعت الناس وأحيت قلوبهم ، ولنجعل القلوب الطيبة كالصالحين ، والأرض السبخة كالفجار الذين لايرجى نفعهم ، والملوك والأمراء ورجال الدولة والوعاظ كتلك الرياح التى يهتز لها جميع ماعلى الأرض ، وفي الجو فتعتدل وتجود وتستقيم وعجبا بالملوك والعلماء الشعب والجيوش محافظة عليهم ، فكما اختلف الزرع لونا ورائحة وطعما ، وهكذا الشجر ، والبر ، والبحر ، والشمس ، واحدة ، هكذا تختلف الأمة التى تتبع نبيا فى أطوارها وأحوالها الدينية على حسب أمزجتها وأخلاقها وعوائدها و بيئتها ، فالله نور السموات والأرض أشرق نوره على رسول الله ﷺ ، وهو مشرق على الناس ، فلا جرم يختلفون فى قبوله اختلاف أحوالهم ، وتكون أحوالهم فى الآخرة على مقتضى ذلك الاختلاف ، فالمرسلون واسطة للتعليم ، والناس المرسل اليهم ، هم الذين يختلفون فى الاتباع باختلاف أطوارهم واستعدادهم ، وهم مسئولون يوم القيامة عن أعمالهم على مقتضى مابلغهم الواسطة ، فاذا كانت الأرض

الطيبة ، والأرض اليابسة ، والبحر اختلفت فى القابلية ، والسبخة ، هكذا سيكون الناس فى أحوال الآخرة على مقتضى ما كسبوا من الواسطة الشفيع لهم عند الله تعالى « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » ويقرب من هذا ما ورد ، فعن أبى موسى عبدالله ابن قيس الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به] فهذا الحديث أفادنا أن اختلاف النتائج علما وعملا وجهلا لاختلاف الناس فى أطوارهم ، كما اختلفت الأرض لما ورد عليها الماء فى كيفية قبوله ، وكما قلنا باختلاف أحوال الارض وما عليها باختلاف قبولها لضوء الشمس ، فالفيض من الشمس ، ومن الغيث كامل غير منقوص ، والاختلاف انما جاء من الجهات القابلة للضوء والغيث .

واعلم ان للشفاعة بذورا ونباتا وثمرا ، فبذورها العلم ، ونباتها العمل ، وثمرها النجاة فى الآخرة ، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام علموا الناس فى الدنيا ، وفيها غرسوا البذور ، والناس إذا عملوا بما سمعوا منهم ، ولم تكن تلك الشرائع منسوخة فقد استعدوا للنتيجة ، ويوم القيامة ينالون تلك الثمرة ، وهى النجاة والارتقاء ، ولكن تلك الثمرات تختلف باختلاف أعمالهم وجدهم وحبهم للخير وأخلاقهم ، فبادىء الشفاعة العلم ، وأوسطها العمل ، ونهايتها الفوز والرقى فى الآخرة ، بل كثيرا ما تظهر بعض الثمرات فى الحياة الدنيا بالتوفيق ، والنصر والعز ، وفى الحديث يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فهذا يفيد أن الشفاعة تابعة للاقتداء ، فالأنبياء علموا العلماء ، والعلماء علموا الناس ، وأفضل الناس بعد الأنبياء العلماء ، فالشهداء : وهم بما قدموا أنفسهم فى سبيل الله أصبحوا قدوة للناس وأعطوهم درسا نافعا يتبعونهم فيه ، فكانوا بعد العلماء فى هداية الناس لأن العلم أوسع والشهادة أقل ، ولكنها أنجع ، فمن لم يعمل بما أنزل الله وتجافى عن الحق فقد عطل ما وهب له من بذر الشفاعة ولم يسقه ولم يربه ولم ينمه بالعمل ، فيحرم ثمرته مع أنه ساوى جميع المسلمين فى حصول البذر عنده وخالفهم فى قعوده عن استثماره ، ساواهم فى نوال بذر الشفاعة وخالفهم ونقص عنهم فيما بعد ذلك ، وعلى هذا يحمل قوله عليه الصلاة والسلام فى رواية أبى هريرة [لا ألفين أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول يارسول الله أغثنى ، فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد بلغتك] فانظر فى قوله صلى الله عليه وسلم قد بلغتك ، كأنه يقول له التبليغ بذر الشفاعة ، وعليك العمل يثمر النجاة .

وعن أبى هريرة أيضا قال : قال عليه الصلاة والسلام [ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ، ومن كنت خصمه خصمته رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يوفه أجرته] .

وروى عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبدالله أن النبى ﷺ قال [يا كعب بن عجرة يا كعب أعيذك بالله من إمارة السفهاء ، إنه سيكون أمراء من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فلست منه وليس منى ، ولن يرد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم ، فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض : يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان ، والصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار : يا كعب بن عجرة لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت] .

وروى العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة أنه عليه الصلاة والسلام [دخل المقبرة ، فقال :

السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، و إنا ان شاء الله بكم لاحقون ، وددت انى قد رأيت إخواننا ، قالوا يارسول الله ألسنا إخوانك ، قال بل أنتم أصحابى و إخواننا الذين لم يأتوا بعد ، قالوا يارسول الله كيف تعرف من يأتى بعدك من أمتك ، قال أرأيت ان كان لرجل خيل غرّ محجلة فى خيل دهم ، فهل لا يعرف خيله ، قالوا بلى يارسول الله ؟ قال فانهم يأتون يوم القيامة غرّاً محجلين من الوضوء وأنا فرطهم على الحوض ألا فليذادنّ رجال عن حوضى كما يذاد البعير الضالّ أناديهم ألا هلمّ ؟ فيقال انهم قد بدّلوا بعدك أقول : سحقا فسحقا] .

وهذه الأحاديث هى المناسبة لقوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره » ولقوله تعالى « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

فهؤلاء الذين أعانوا الأمراء على ظلمهم ، وأولئك الذين بدّلوا بعد نبيهم ، وأولئك الذين جاءوا يحملون شياها قد ظلموا فى حلها ، كلّ هؤلاء قد بذرت لهم بذور الشفاعة ، ولكنهم حرموا أنفسهم ثمرتها بتفريطهم فيها جزاء وفاقا ، فاذا قيل إنه يشفع فى أهل الكبائر ، أو فى زيادة الحسنات للمحسنين ، فقد دخل ذلك كله فى هذا الذى أوضحته لك ، و إذا سمعت عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال [قلت يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال لقد ظننت أن لا يسألنى عن هذا أوّل منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه] أخرجه البخارى ، فاذا سمعته فاعلم أن هذا قد نال من الشفاعة بذرها ، وهو العلم ، والعلم يتبعه العمل ، والثمرة نتيجة ، وهى النجاة فى الآخرة ولا جرم أن العمل لا يكون الا بعد العلم ، فاذا كان العمل مبنيا على جهل فلا يستحق شفاعة ، وأما صاحب العلم فان لديه أقوى ركنى الشفاعة ، وهو العلم ، ولم يبق الا استثماره ، فعلى هــذا فقس فيما يرد عليك من الأحاديث ، واعلم أن هذا المعنى : أخذت أصوله من الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى ، وكذلك يفيده كلام الامام الغزالى ، و بعض الأقوال التى أوردها الفخر الرازى .

قال الامام الغزالى فى الاحياء

فينبغى أن يقاس رجاء العبــد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا جيدا غير عفن ولا مسوّس ، ثم أمدّه بما يحتاج إليــه وهو سوق الماء إليه فى أوقاته ، ثم نقى الشوك عن الأرض والحشيش وكلّ ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظرا من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفســدة الى أن يتم الزرع و يبلغ غايته سمى انتظاره رجاء ، وان بثّ البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب اليها الماء ولم يشتغل بتعهد البــذر أصلا ثم انتظر الحصاد منــه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء ، وان بثّ البذر فى أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضا سمى انتظاره تمنيا لا رجاء ، فاذا اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ، فالعبد اذا بثّ بذر الايمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك الى الموت ، وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا فى نفسه باعثا له على المواظبــة والقيام بمقتضى أسباب الايمان فى اتمام أسباب المغفرة الى الموت ، وان قطع عن بذر الايمان تعهده بماء الطاعات ، أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق ، وانهمك فى طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور . قال صلى الله عليه وسلم : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وقال تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وقال تعالى أيضا :

« خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » وذمّ الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته و « قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا » فاذا العبد المجتهد فى الطاعات ، المجتنب للمعاصى ، حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وماتمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما العاصى فاذا تاب وتدارك جميع مافرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة اذا كان كارها للمعصية تسوؤه السيئة وتسرّه الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهى التوبة ويشتاق اليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ، لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجرى مجرى السبب الذى قد يفضى الى التوبة ، وانما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء ، لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء . فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولايذم نفسه عليه ، ولايعزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثّ البذر فى أرض سبخة وعزم على أن لايتعهده بسقى ولاتنقية اهـ

فهكذا ينبغى أن يقرر فى الأمة الاسلامية تعليم الأخلاق حتى يشب الشبان مجدّين ، وليعلموا أن الانسان تابع لعمله وأخلاقه ، وهذا هو الموافق للفطرة ولمقصود الاسلام ، ففى الحديث : « أنت مع من أحببت » والأنبياء يتبعهم العلماء حبا فى مناهجهم ، ويتبع العلماء العامّة ، فهؤلاء على مقدار اتصالهم فى الحياة الدنيا يتصلون يوم القيامة فلايرد الحوض على النبى صلى الله عليه وسلم إلا من كان به فى الدنيا متصلا ، أى عاملا بشريعته ، سائرا على منهجه ، والناس يحشرون على حسب الأخلاق التى ماتوا عليها ، لأن الثواب والعقاب كما قاله المحققون نتائج وثمرات ، وليس لله عزّوجل يريد أن يشفى غيظه ، وانما هو مربى العالمين ، وتعالى الله عن صفات المحدثين ، والحياة الآخرة تابعة للحب ، ولايحب المرء إلا من كان على شاكلته ، ومثل الآخرة كمثل الدنيا ، فكما أنك لاتعيش مع السمك فى البحر ، ولايقدر السمك أن يعيش فى البرّ ، ولايستطيع حيوان البحر وحيوان البرّ أن يطيرا فى جوّ السماء ، ولايستطيع الطير أن يعيش فى البحر ، هكذا بنوآدم فى الآخرة كل يوضع فى المكان الذى استحقه ، ولايقدر أن يتجاوزه ، على حسب الأخلاق التى اكتسبها ، وفى الحديث : « يحشر المرء على مامات عليه » وفى الآية : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » وهذا التفسير الذى اخترته للشفاعة كما جمع بين الأقوال كلها ، والأحاديث ، ونظام الله عزّوجل فى ملكه ، وآيات القرآن . وعدل الله سبحانه وتعالى ، هكذا يناسب مايجب أن تكون عليه الأمة الاسلامية فى مستقبل الزمان ، فان الأمم كلها قد ارتقت بالعلم والحكمة ، وبقى المسلمون فى مؤخرهم ، بسبب جهل الوعاظ وتسهيلهم على الناس ، ولعمرى ان هذا ليجدّد النشاط ، والجدّ والعمل فى الأمة ، ويرقى المسلمين علما وعملا واذن يفهمون قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره » ويعرفون انه عزّوجل عدل ، ولن يخرج من بذر القمح إلا القمح ، ولامن النواة إلا ما كان من جنسها ، فالصدق مشاهد فى العالم الذى أمامنا ، ولولاه لاختلّ نظام الحياة ، فاذا زرعنا البرسيم للدواب ، أو الحنطة والتفاح للانسان ، جنينا الثمر على مقتضى البذر فأكلت الدواب والانسان ، ولوكان الأمر فوضى فأخرج البرسيم بدل التفاح ، والتفاح بدل الحنطة ، لحار الناس فى أمورهم ، ولضلوا سواء السبيل ، ولم تكن لهم حياة رشيدة ، وتخبطوا فى ديجور الذلة وسوء الحال ، وكانت الفوضى ، والناس لايشعرون بهذا العدل وحسن النظام ، لأنهم فيه مغمورون لاينظرون فيه وانما كل منهم مهتمّ بما يشبع بطنه ويوافق شهوته ، مشغول بجمع ذلك ليلا ونهارا وهم عن العلم بما حولهم غافلون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » وهانحن لولاه

ترى طلوع الشمس وغروبها ، وكذلك القمر والكواكب الأخرى بنظام مرتب فى جداول يطلع عليها الناس وأكثرهم لايتعجبون من حكمته عز وجل فى اتقان الحساب وحسن النظام الذى لو اختل لحظة لهلك الحرث والنسل ، ولو أن الشمس تأخرت عن موعدها وقت الظهر دقيقة واحدة يوما ما فقط لضاع من نوع الانسان مئات الألوف ، ومن أموالهم مئات آلاف الآلاف ، فان هذا التأخير يحدث تصادما فى القطارات الجارية بالسكك الحديدية فيموت الراكبون ، وتختل مواعيد الأعمال فى التجارة ، صادرها وواردها ، فنحن هنا على الأرض مغمورون فى نظام تام لايعقله إلا العالمون ، واذا كان هذا فى الدنيا فان الآخرة أتقن نظاما ، والمنظم للدارين واحد ، أفلا تكون الأعمال لها نتائج كنتائج النبات والشجر ؟ أولا يكون الأنبياء والعلماء الذين اتبعوهم أشبه بضوء الشمس ؛ وقطرات الغيث على العقول فتكون الأعمال فالنتائج . هذا مافتح الله به واشرح له صدرى .

حكاية

قد قدمت الى مصر سيدة روسية كانت تغشى الجمعيات العلمية فى برلين وباريس وفينا وسائر عواصم أوروبا وكانت من أهل العلم ، تحسن لغات كثيرة ، وكان أكثر ميلها الى علم التصوف ، وقد أشار عليها أستاذها [ماركس الألمانى] أن تترجم كتابا فى علم التصوف الى اللغة الفرنسية ، واختار من بين الكتب رسالة القشيرى التى ألفها فى القرن الرابع فى هذا الفن لصوفية المسلمين ، ولما جاءت الى مصر طلب منى وزير المعارف إذ ذاك أن أساعدها فساعدتها فى فهم الكتاب عند الترجمة تسع سنين ، وكانت تعجب بعلوم المسلمين ، وذوقهم وآدابهم وفى أواخر المدة قبيل الحرب الكبرى ، قالت لى يوما : انى بعد أن سافرت هذه السنة الى أوروبا تبين لى أن الدين الاسلامى على خلاف ما كنت أظن ، نعم هو حق ولكنه أقل من الدين المسيحى ، وهذا الاعتقاد خلاف ما كنت أعتقده من قبل ، فقلت : ولم ذلك ؟ فقالت : قابلنى شاب من الذين يتعلمون من الرهبان فى طورسيناء ، وعنده شهادات عالية من ألمانيا ، ويجيد بعض اللغات الاوروبية ، فأخذ يحدثنى عن الاسلام وهو يعرف ميلى إليه ، فقال : إن محمدا صلى الله عليه وسلم كان وهو صغير تلوح عليه مخايل النبوة ، ولما رآه بحيرا الراهب ، وأدرك فيه هذا المعنى ، قال فى نفسه : اذا كان هذا نبيا فخير لنا أن يكون مسيحيا ، فعلمه الدين المسيحى ، وأخطأ بحيرا فى بعض تعاليمه ، فانه أفهمه أن عيسى لم يصلب لجهله باللغة ، لأن بحيرا صالح ، ولكنه ليس متعمقا فى اللغة ، فجاء دين الاسلام وليس فيه الصلب مع أن المسيح أول من مات فأحياه الله ، فيكون هذا برهانا على حياة الناس يوم القيامة ، فالمسيح الذى يفدى الناس قد صلب لهذه الحكمة ، قالت : فأنا على ذلك أصبحت أرى أن الاسلام حق ولكنه أقل من المسيحية التى آمنت بمن صلب ثم حيى . فلما أتمت قولها قلت لها : هل تحبين أن تسمعى رأيى ؟ فقالت نعم وانى ماذكرت لك هذا إلا لأسمع رأيك ، فقلت : أما قول صاحبك ان المسيح أول من مات ثم حيى ، فهذا لاحظ له من الحقيقة ، لأن فى التوراة أن قوما ماتوا ثم أحياهم الله لانهم كانوا قد فروا من الطاعون فليس المسيح على زعم من آمن بالصلب أول من حيى وفى التوراة من ذلك كثير .

وأما قوله : ان عيسى يفدى الناس فهذا كلام له معنى غير مايفهمه الجهلاء من المسيحيين ، فقالت وكيف ذلك ؟ فقلت أرأيت لو أن رجلين أحدهما يعلم أولاده الأدب ، والثانى يقول : كونوا أحرارا ياأبنائى واقتلوا واسرقوا وأنا أدافع عنكم : فأى الأبوين أفضل ؟ قالت الأول : قلت هكذا يطلب منا علم التربية الحديثة والقديمة ، قالت نعم : قلت فهل المسيح ؟ وهو نبى فى اعتقادنا نحن معاشر المسلمين يقل فى العلم والتعليم عن أفضل الأبوين المذكورين ، قالت كلا ؟ بل هو أفضل منهما ، وهو معلمهما ، والمعلم أفضل من المتعلم ، وأعلم

منه

سنه : قلت اذن لايجوز فى علم التربية أن يقول نبىّ عن ربه افعلوا ماتشاءون وأنا سأكون فداء لكم ، وبعبارة أخرى ينقض شريعته بنفسه فأخذ منهم بالشمال ماأعطاهم باليمين ، قالت والله ان كلامك لحق ومعقول ، فقل لى اذن مايقصد بكون المسيح يفدى الناس فى نظرك ؟ فقلت أما دينى فينكر الصلب ؟ اذن أنا ليس لى نظر فى مسألة يخالفها دينى ، وإنما أقول : الحق أن العامة يتكلون عليه فى تخليصهم من بد القضاء يوم القيامة ، ويكون الدين إذ ذاك هادما للانسانية ،ؤخرا للمدنية راجعا بالانسان القهقرى ، وهذا بعينه هو السبب فيما بلغنا لهذا العهد عن الاحصاء فى فرانسا لأحكام القضاة فانهم وجدوا أن الملحدين الكافرين بالله هناك أكثر صدقا وأقرب للعدل من المتدينين لانهم كانوا يسألونهم لم فعلتم ذلك ؟ فكانوا يقولون رجونا أن تشفع لنا العذراء أو القديس فلان ، وهكذا : ولذلك ترى أن الديانات التى طال عليها الأمد ، ولم تجد لها من يجدد أمرها تولاها الفتور ، وقعدت بتابعيها عن الرقى وساءوا مصيرا ، وانما كان الملحدون فى فرانسا أرقى أخلاقا من المتدينين ، لان الأولين أثاروا عواطفهم وعقولهم وفطرهم التى فطرهم الله عليها ، وفيها أصول الأخلاق . أما الآخرون فانهم تركوا فطرهم وسلموا أنفسهم للدين ، والدين دخله التحريف والتحريف ، فنزل بأخلاقهم فسفلت فكانوا من الخاسرين ، فرأيتها أشرقت سرورا ، وأبرقت أسرتها واستبشرت ضاحكة ، وقالت نعم : لقد أفدت وأحسنت ونطقت بعلم اه .

فتأمل أيها المسلم فى هذه الحكاية فانى ماقلتها لك اعتباطا ، وإنما ذكرتها لتنظر سيرة سيدنا محمد ﷺ وأخلاقه وآدابه ومعاشرته وسيره للحرب ومقارعته الابطال وغزواته ، ثم تتبعه فى أخلاقه ، وفى القرآن الذى أنزل عليه ، فأما إذا ظننت أن الشفاعة ترجع الى المعنى الذى يفهمه العامة ، فان ذلك يعود الأمة الى الانتكاس على أم الرأس ويبقى الدين من أسباب التأخر لا الرقى ، وقد آن أوان أن يعرف الناس مقام النبوة الشريف ، ويتبعوا النبىّ ﷺ فى أعماله وأخلاقه ، وسيرته الصالحة ، وآدابه العالية ، ومعارفه الواسعة ، ودينه السمح المرشد الى السعادة ، والأعمال الشريفة ، وهذا أوان ارتقائه وزمان إسعاده « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ايضاح للشفاعة

اعلم أن الناس اعتادوا أن يتقرّبوا للملوك والأمراء والأغنياء بمن لهم عندهم جاه ومنزلة ، فيكونون شفعاء لهم فى ايصال الخيرات من وظائف ومال . وأصل هذه الكلمة من الشفع الذى هو ضد الوتر ، كأن صاحب الحاجة كان فردا ، فصار الشفيع له شفعا : أى صارا زوجا ، وهذا فى الأمور المادّية التى يقدر عليها الناس . أما العلوم والمعارف ، فلو أن أعظم الملوك قدرا ، وأكثر الأغنياء مالا أحضر أساطين الحكماء ، وأكابر العلماء لولده الغبى وأغدق عليهم النعم ليصير عالما لم يقدروا على ذلك ، أما هو فيقدر أن يفيض المال على أىّ فقير فيصير غنيا فى الحال ، فشفاعة الأنبياء ليست من قبيل الهبات المالية ، ولا الوظائف الادارية ، وانما هى نفحات علمية ، وأخلاق حكمية ، وآداب نبوية ، فمن فقه ماقالوه ، واتبع مارسموه ، واستثمر من بذور الشفاعة مابذروه ، تمت له الشفاعة ، ودخل مع الجماعة ، أما أولئك الكسالى الجبناء المتواكلون ، فانهم يظنون أن مجرّد الاتباع اللفظى مع النوم والكسل الفعلى يجدبهم نفعا كبيرا ، ويحسن لهم صنعا جيلا ، كلا : انهم لمخدوعون ، وليس هذا القول بمخالف أهل السنة ولا المعتزلة ، فان خروج العاصى من النار بالشفاعة أوابعاده عنها قبل الدخول ، وكذلك زيادة الحسنات فى الأعمال للصالحين ، كل هذا جاء من شفاعته ﷺ ، واتباعه بل كل ثواب فانما هو بسبب ذلك ، وهكذا كل نجاة ، فانه صلى الله عليه وسلم لولم يأت لنا بالشريعة لكنا

أقرب الى الحيوان فصرنا بأتباعــه داخلين فى شفاعته ، لأننا به صرنا شفعا ، ولا يكون ذلك الا باتباعه ، ولا ننال الا ما استعددنا له .

ولأضرب لك مثلا بما عرفناه فى زماننا

أمة تألبت عليها الجيران ، ووثبت عليها أمم الفرنجة من كل جانب ، وهى قليلة العدد ضعيفة العدد قلَّ فيها المال والولد فاستسلموا للعدوّ خاشعين ، وانقادوا له صاغرين ، فقام منهم رجل من قوّاد جيوشهم فهبّ فيهم صارخا ، وقال قوموا من مراقدكم ، والله ناصركم ، وأجمعوا صفوفكم فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله فأجاب دعاءه الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والشيوخ ، والشبان وقاموا قومة واحدة فانهزم العدوّ المغير ، ورجع وهو حسير ، فرجعت الأمم المغيرة إلى الخلف ، وتمت للضعفاء النصر ، تلك الأمة هى الأمة التركية فى هذه الأيام . أفترى أيها الذكى أن ذلك النصر يكون بالاتكال على ذلك القائد المرشد النصيح ، فيقولون له أيدك الله قاوم العدوّ بهمتك ، وحاربه ببأسك وقوّتك ، انا مادحوك وداعون لك بخير وتابعوك . أم يقومون معه قومة رجل واحد ، ويتبعون سننه فى العمل فيهزمون العدوّ بتضافرهم وتآزرهم . لاجرم أنك تعلم أن النصر تابع لخير الأمرين ، وهو الوجه الأخير ، فهكذا يكون الأنبياء مع أممهم ، فالأنبياء قوّاد فوق كلّ قائد يقودون الناس إلى سعادتهم وشفاعتهم لهم على خير الوجهين السابقين . فاذا سمعت قوله تعالى « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » وقوله «ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع» وقوله « ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون » وقوله « من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون » .

فاعلم أنها تلك الشفاعة الأولى فى المثال المتقدم ، وهى أن يتكلوا على الأنبياء وينامو انومة الاغبياء ، ولو كان الله يريد منا أن نتكل نفوسنا إليهم لأطال آجالهم جميعا ، وأنت ترى أن فى أمتنا من طالت أعمارهم أكثر من نبينا ، فمن حكمة موته فى سنه المعروفة أن تستقل الأمة فى شؤونها ، وتقوم بأعبائها ، ولعلك تقول مالى أراك تخصّ الأنبياء بالاعظام والاجلال والاكبار ، وما أراك الامسايرا للجمهور . ولقد رأينا فى هذه الأعصر من أضاءت الكهرباء باختراعهم وابتدعوا فى الحروب ماشاءوا بدائعهم ومدّوا الاسلاك البرقية بعقولهم وفى الأرض فلاسفة وحكماء كسقراط وأفلاطون وروسو الفرنسى ، فكيف تخصون النور بالأنبياء والارشاد بالمرسلين ، وكيف تخصون نبينا بأنه سراج منير ، وأن العلماء يتبعون وأنه يشفع فى الناس بالمعنى الذى قرّرته مع أن كلّ الناس يعلمون و يتعلمون .

أقول : اعلم ان الله عزّ وجلّ مشرق نوره فى العالمين ، فكما أن الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والكهرباء ، والبخار الناجم من الفحم ، وكذلك الزيت والشمع تكون منها الأنوار الحسية التى أودعها الله فى المواد المحسوسة ، هكذا أودع نورا أتمّ وجمالا أبهى وأكمل وإشراقا أتمّ وأعظم فى نفوسنا الانسانية وعقولنا وحواسنا وادراكنا ، وفى سائر الحيوان فلكل حيوان هداية تمت بها سعادته ، والانسان من بين الحيوان هداه الله هداية أعلى ، وجعله فى مقام أتمّ وأكمل ، وألهم طوائف منه ، فكانوا أكمل من غيرهم فيرشدون اخوانهم إلى ماهو أكمل وأشرف .

فقولك : ان فى الناس من هدوهم الى الكهرباء والى مدّ أسلاك البرق وماشاكل ذلك ، فانى أقول لك ليست الهداية خاصة بهؤلاء فالهداية عامة فى الحيوان والانسان ، فأما ارشاد الناس الى الامور المعاشية بالأنوار وسرعة النقل وماشاكل ذلك فهى لم تخرج عن الهداية العامة ، فان الشمس مشرقة مبذولة ، فاذا زاد المخترع أنوارا للناس فهو خير من جنس مابذل لهم فى الطبيعة المعلومة الحسية . وأنت تعلم أن الهداية النفسية أرقى من الحسية فانه لولا ادراكنا وعقولنا لم نستفد من المادة شيئا ، والذين يهدون الناس بهذا المعنى أربع فرق : الحكام

من

من الأمراء ، والملوك ، والوعاظ ، والحكماء ، والأنبياء ، فالوعاظ للعامة ، والحكماء للخاصة ، والأمراء للحكم على أجسام الناس لاعقولهم ، أما الأنبياء فانك تراهم قد انبعهم الخاصة والعامة والوعاظ وكانوا أعم من الجميع . وأنا لاأقول لك إلا ماهو حاصل فى النوع الانسانى ، وماهو واقع فعلا ، فسقراط لايعقل حكمته ولايفهم رأيه إلا الخواص ، وأما العامة فهم فى واد سحيق ، والوعاظ لا يكلمون إلا الجهال ، ونحن نرى أن الأنبياء اتبعهم من سائر هذه الطوائف ، فاذا كان الناس يهتدون بحواسهم و بعقولهم وبحكمائهم و بمخترعيهم و بقوّاد جيوشهم ، فانا نرى أن سائر الأنبياء قد اتبعهم كل هؤلاء ، وها أناذا قلت لك ماتراه واقعا كما قدّمنا ، اذاعلمت هذا فهمت قوله تعالى للنبيّ صلى الله عليه وسلم « إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا » وقد جاء فى « سورة النبأ » : « وجعلنا سراجا وهاجا » مثلا لنا وهو الشمس « وأنزلنا من المعصرات » السحائب « ماء ثجاجا » منصبا بكثرة « لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا » ملتفة بعضها على بعض ، وانما ذكر السحب بعد الشمس لأنها ناجة من إثارة الحرارة للبخار من البحار فيكون مطرا فيحيي النبات كما قدمنا هذا فى العالم المشاهد المحسوس ، فهكذا جاء فى هذه السورة تشبيه القرآن بالمطر النازل من السماء ، وجاء فى سورة أخرى أن النبيّ سراج منير ، وجاء فى حديث البخارى المتقدّم : « ان مثل العلم الذى أنزل عليه عليه الصلاة والسلام كمثل الغيث » الخ فتشابه العالم الحسى والعالم المعقول ، فالعلم العام النبوى ينزل على صدور العلماء والعامة والخاصة فهو كالشمس ومن سواه لهم أعمال خاصة ، فالشفاعة العامة لهم مشرقة على الجميع ، ولكل امرئ ما اكتسب « ومايعزب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولافى السماء ولاأصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

تفضيل بنى إسرائيل

وأما الكلام على تفضيل بنى اسرائيل فان الله يقول : يابنى اسرائيل انى قذفت فى قلوب أبنائكم الحمية والشهامة والعزّ بما أوحيت الى موسى أنه يقول لهم أنتم شعبي وأفضل العالمين كما هى السنة المرغوبة فى تمدين الشعوب أن يبتدأ بادخال الأمل وطرد اليأس وافهام الأبناء أنكم ذووشرف وعزّ وفضل ، ولعمرى ان هذا هو السنن الوحيد والعلاج المفيد الناجع لاثارة الحركات العلمية والعملية فى الأمم التى أخلها الاهمال وأضاعها بد الزمان ، وأنامها الحدثان ، كما كان فى بنى اسرائيل إذ ذبحت أبناؤهم ، واستحييت نساؤهم ، ابتلاء من الله وامتحانا ، وهذا هو المذكور فى الاصحاح الأوّل فى سفر الخروج :

وكلم ملك مصر قابلتى العبرانيات اللتين اسم إحداهما سفرة واسم الأخرى فوعة ، وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهنّ على الكراسى اذا كان ابنا فاقتلاه ، وان كان بنتا فتحيياه ، وفى الاصحاح الثالث عشر انهم خرجوا من مصر فى شهر أبيب ، وأمرهم الله فى الاصحاح الثانى عشر والثالث عشر بعيد الفصح أن لا يأكلوا مختمرا سبعة أيام ، ويكون السابع عيد الفصح شكرا لله تعالى كل سنة على نعمة أغدقها عليهم إذ أخرجهم من دار الهوان الى دار الحرّية والكرامة ، أليس من عجب هذا التهييج والحث على الحرّية والتنائى عن مقام الذل ، وليربؤا بأنفسهم أن يردوا ماء الحياة اذا مازجه صاب المذلة وعلقم الهوان .

والموت خير من حياة دنيئة ٭ والموت خير من مقام على الذل

ثم تعجب كيف جاء فى التوراة مروءة هاتين القابلتين ولم تخونا ولم تقتلا وانما كيف خافتا ربهما وحفظتا أبناء بنى اسرائيل ، فتولى فرعون ذلك بنفسه وأمر المصريين فقتلوا ورموا كل مولود ذكر فى البحر ، ولما كان شأن الله أن يجعل من كل ضيق فرجا ، وأن بعد العسر يسرا ، نجاهم وأغرق فرعون وجيشه .

(الياقوتة الثانية ، والثالثة ، والرابعة ، والخامسة)

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر) فلقناه (فأنجيناكم) من فرعون وقومه (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) الى ذلك وتشاهدونه (واذ واعدنا موسى أربعين ليلة) وعد الله موسى أن يعطيه التوراة وضرب له ميقاتا ذا القعدة وعشر ذى الحجة (ثم اتخذتم العجل) إلها (من بعده) من بعد انطلاقه الى الجبل (وأنتم ظالمون) بوضعكم العبادة فى غير موضعها (ثم عفونا عنكم) محونا ذنوبكم عنكم (من بعد ذلك) من بعد اتخاذكم العجل (لعلكم تشكرون) لكى تشكروا النعمة فى العفو عنكم (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان) أى الجامع بين كونه كتابا منزلا ، وفرقانا يفرق بين الحق والباطل (لعلكم تهتدون) لكى تهتدوا بتدبر الكتاب (وإذ قال موسى لقومه ياقوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم) ارجعوا الى خالقكم بالتوبة ، قالوا كيف نتوب ؟ فقال (فاقتلوا أنفسكم) أى ليقتل البرىء منكم المجرم (ذلكم خير لكم عند بارئكم) من الاصرار على المعصية (فتاب عليكم انه هو التواب) المفضال بقبول التوبة وان كثرت (الرحيم) بعفو الحوبة وان كبرت (واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك) أى لن نصدقك (حتى نرى الله جهرة) معاينة ، وهؤلاء سبعون رجلا من خيارهم جاءوا الى الطور ليعتذروا عن عبادة العجل مع موسى لميقات ربه وسمعوه يكلم موسى فقالوا ذلك ، قال تعالى (فأخذتكم الصاعقة) .الآتى شرحها فى «سورة الرعد» (وأنتم تنظرون) ما أصابكم (ثم بعثناكم من بعد موتكم) بسبب الصاعقة (لعلكم تشكرون) نعمة البعث (وظللنا عليكم الغمام) فى التيه ليقيكم حر الشمس . انتهى التفسير اللفظى الاجمالى .

ايضاح

أبان الله فى هذه اليواقيت ماقصه فى سفر الخروج فى التوراة ، وكيف أغرق فرعون وجنوده ، ونجى موسى وقومه ، كما جاء فى الاصحاح الرابع عشر من السفر المذكور ، فدفع الرب المصريين فى وسط البحر فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذى دخل وراءهم فى البحر ، ولم يبق منهم ولا واحد ، وأما

بنواسرائيل فشوا على اليابسة فى وسط البحر والماء سورلهم عن يمينهم وشمالهم . انتهى بالحرف

وقال فى الاصحاح الثانى عشر : فارتحل بنو اسرائيل من رعمسيس ، وهى بلدة قريبة من السويس الى سكوت نحوستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد ، ثم قال : وأما اقامة بنى اسرائيل التى أقاموها فى مصر فكانت أربعمائة وثلاثين سنة ، ولقد حثهم على تذكار يوم الخروج ليستديموا الحرية تذكرة للعاقلين ، وتبصرة للمسلمين الغافلين ، وقد قال تعالى لنا : « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا » عدولا ، وقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »

فليبحث المسلمون عن أنفسهم ، ولينظروا أهم تلك الأمة التى عناها الله بالخطاب ؟ أم قوم غيرنا سلفوا ؟ أم سيخلفونا ؟ وليعتبروا كيف قرع الله بنى اسرائيل ووبخهم إذ آتاهم التوراة على لسان موسى وقد دخل فى وسط السحاب ، وصعد الى الجبل ، وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة ، فاتخذوا العجل وعبدوه كما وضح فى التوراة فى نفس هذا السفر . وما مثل اليهود فى نبذ التوراة والعمل بها إلا كمثل المسلمين اليوم وجهلهم بما تضمنه القرآن من الحكم العجيبة ، والآيات البديعة ، ولما أعرضوا عن الصراط السوىّ عذبوا وأذيقوا طعم الموت ، فقتل المؤمنون الصابرون تلك الفئة التى عبدت العجل .

وفى التوراة : أن القتلى ثلاثة آلاف لاسبعون ألفا كما يقول بعض المفسرين ، قال فى الاصحاح الثانى والثلاثين وقف موسى فى باب المحلة وقال : من للرب فلىّ ، فاجتمع اليه جميع بنى لاوى ، فقال لهم : هكذا قال الرب إله اسرائيل ، ضعوا كل واحد سيفه على فخذه ومروا وارجعوا من باب الى باب فى المحلة واقتلوا كل واحد أخاه وكل واحد صاحبه ، وكل واحد قريبه ، ففعل بنولاوى بحسب قول موسى ووقع من الشعب فى ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل .

(الياقوتة السادسة ، والسابعة)

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وأنزلنا عليكم) فى التيه (المنّ والسلوى) الترنجبين والسمانى ، والأوّل شىء يقع على الشجر طعمه كالشهد (كلوا من طيبات مارزقناكم) أى قلنا لهم ذلك فظلموا بأن كفروا هذه النعم (وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفران لأنه لايتخطاهم ضرره (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) أى بيت المقدس ، وقيل أريحاء أمروا به بعد التيه (فكلوا منها حيث شئتم رغدا) واسعا ، نصب على المصدر (وادخلوا الباب) أى باب القرية أوالقبة التى كانوا يصلون إليها (سجدا) حال ، وهو جمع ساجد (وقولوا حطة) أى مسألتنا أن تحط عنا خطايانا (نغفر لكم خطاياكم) بسجودكم ودعائكم (وسنزيد المحسنين) ثوابا (فبدّل) فغير (الذين ظلموا قولا غير الذى

قيل لهم) إذ بدلوا الحطة بالحنطة وقالوا ما معناه « حنطة حمراء » أونحوذلك استخفافا بأمر الله (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا) عذابا (من السماء) إذ أرسل الله عليهم طاعونا فهلك منهم كثير (بما كانوا يفسقون) أى يعصون ويخرجون عن أمر الله . انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

يقول تعالى : وأنزلنا عليكم فى التيه المنّ والسلوى وقلنا كلوا من هذه الطيبات ولاتدخروا فكفروا النعمة وادخروا فمنع عنهم ذلك الرزق وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، واذ قلنا لهم بعد خروجهم من التيه على لسان يوشع ادخلوا بيت المقدس الخ وقوله رغدا أى واسعا لاحجر فيه سجدا أي متواضعين خاشعين لله عزوجل والمنّ هو الترنجبين كان ينزل كالندى من الفجر الى طلوع الشمس ، والسلوى هو طير السمانى .

قال فى الاصحاح السادس عشر من سفر الخروج : فكلم الرب موسى قائلا سمعت تذمر بنى اسرائيل كلمهم قائلا : فى العشية تأكلون لحما ، وفى الصباح تشبعون خبزا ، وتعلمون أنى أنا الرب إلهكم ، فكان فى المساء أن السلوى صعدت وغطت المحلة ، وفى الصباح كان سقيط الندى حوالى المحلة ، ولما ارتفع سقيط الندى اذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور كالجليد على وجه الأرض ، ثم قال لهم موسى : هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا هذا هو الشيء الذى أمر به الرب لتعطوا منه كل واحد على حسب أكله اه

وهذا قادهم الى سوء ضلهم وأضلهم بجهلهم ، فبدلوا قول الله عند دخول باب القبة التى كانوا يصلون بها « قولوا حطة » أى فاستهزءوا وقالوا « حنطة فى شعرة » على رأى غير ماتقدم ، يريدون أنهم لايعنيهم شأن الذنوب والخطايا ولا التوبة وماأشبهها ، وانما همهم الطعام والغذاء ومستلذات الحياة ، فهذه المخازى الفاضحة ، والعيوب الواضحة سجلت عليهم فى التوراة والقرآن ، وحفظها لهم فى سجل الزمان ، عبرة للمذكرين ، وتبصرة للمسلمين .

(الياقوتة الثامنة ، والتاسعة)

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر) أى حجر كان ، فضرب (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا) على عدد الأسباط (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم) عينهم التى يشربون منها ، وقلنا لهم (كلوا) من المنّ والسلوى (واشربوا) من ماء العيون (من رزق الله) أى الجميع مما رزقكم الله (ولا تعثوا فى الأرض) لا تفسدوا فيها ، والعيث أشد الفساد (مفسدين) حال مؤكدة (وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد) وهو ما رزقوا فى التيه من المنّ والسلوى (فادع لنا ربك) سله وقل له (يخرج لنا) يظهر لنا ويوجد (مما تنبت الأرض من بقلها) وهو ما أنبته الأرض من الخضر ، والمراد به أطايب البقول كالنعناع والكرفس والكرات ونحوها (وقثائها) معروفة ، وقيل هو الخيار (وفومها) هو الحنطة أو الثوم (وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى) أدون قدرا (بالذى هو خير) يريد به المنّ والسلوى (اهبطوا مصرا) أى ان أبيتم إلا ذلك فأتوا مصرا من الأمصار (فإن لكم) من نبات الأرض (ما سألتم وضربت عليهم الذلة) أى جعلت الذلة محيطة بهم مشتملة عليهم (والمسكنة) الفقر والفاقة (وباءوا) رجعوا (بغضب من الله ذلك) أى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) بسبب كفرهم بالمعجزات (ذلك) القتل والكفر (بما عصوا وكانوا يعتدون) يتجاوزون أمرى (إن الذين آمنوا والذين هادوا) أى اليهود (والنصارى والصابئين) قوم كانوا يعبدون الكواكب التى يزعمون أنها تقرّبهم إلى الله (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدّقا بقلبه بالمبدأ والمعاد ، عاملا بمقتضى شرعه (فلهم أجرهم عند ربهم) الذى وعد لهم على إيمانهم (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) حين يخاف الكفار من العقاب (وإذ أخذنا ميثاقكم) عهدكم يامعشر اليهود (ورفعنا فوقكم الطور) يعنى الجبل العظيم لما عصيتم أن تقبلوا التوراة لما فيها من التكاليف الشاقة فصار كالظلة فوق رءوسكم وقلنا (خذوا ما آتيناكم) أى ما أعطيناكم (بقوة) بجدّ واجتهاد (واذكروا ما فيه) أى ادرسوا ما فيه وتفكروا فيه (لعلكم تتقون) لكى تتقوا المعاصى (ثم توليتم من بعد ذلك) أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) بتوفيقكم للتوبة (لكنتم من الخاسرين) المغبونين بالانهماك فى المعاصى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت) وهو مصدر سبتت اليهود إذا عظمت يوم السبت ، وقد اعتدوا فيه أى جاوزوا ما حدّ لهم فيه من التجرّد للعبادة وتعظيمه ، واشتغلوا فيه بالصيد ، وسيأتى ايضاحه فى « سورة الأعراف » عند قوله تعالى « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » الآية (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) جامعين بين القردية والخسوء ، وهو الصغار والطرد (فجعلناها) أى المسخة والعقوبة (نكالا) عبرة تنكل أى تمنع

المعتبر بها (لما بين يديها وما خلفها) أى لما قبلها و بعدها (وموعظة للمتقين) لكل متق سمعها . انتهى التفسير اللفظى .

الايضاح

لما أسلف الله ذكر إظلالهم بالغمام وإغداقه النعم عليهم بالغذاء ، وكيف أعرضوا كافرين ، وتولوا مشركين : أبان الله فى هذه الآيات كيف فجر لهم ينابيع الماء من الصخر ، وكيف تولوا بعد ذلك الانعام باظلال الغمام من الحر و إنزال المن والسلوى وتفجر الماء إذ ضرب موسى بعصاه ، ثم كيف سئموا النعمة و بطروا الفضل وجهلوه فلم يشكروه فطلبوا أن يستبدلوا الذل بالحرية ، وطعام المدن بما أكرموا به فى البدو ، وهم فى أمن ودعة وراحة ، وكيف كفروا بالرحمن وقتلوا المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين ، وكيف عصوا أن يقبلوا التوراة فأرغموا على قبولها ، ورفع الطور فوق الرءوس فقبلوا صاغرين ، وقبلوها مكرهين ، وكيف ضل منهم فريق أيام داود عليه السلام فى مدينة أيلة [العقبة] فصادوا السمك يوم السبت بحيلة دبروها وقشور شرعية من الجهل استخرجوها فمسخوا قردة فى أعمالهم وصاروا فى صورة انسانية ونفوس قردية . كما هو شأن المقلدين فى الباطل الغافلين الذين لا يفكرون .

ويقولون : قد أفتانا شيخنا فلان ، وما هو بمغن فتيلا ولا قطميرا «و إذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد » فليعتبر المسلمون اليوم وليعلموا أنه لن ينفعهم أضاليل الدجالين ولا أكاذيب المرجفين لهم المسهلين طرق الكسل حتى ناموا على وساد الراحة وخدوا خمود النار ضربها البرد بما أزجاه المثبطون للهمم ليقيموا الناس على مهد الرجاء فأصبحوا لا ترى الا جسومهم ، وهم غافلون عن الأعمال محرومون من الآمال .

ايضاح الكلام فى قوله تعالى « اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم » الآيات

اعلم أن هذه القصة وغيرها تعليم للمسلمين وتربية وتذكير لهم ، لأن بنى إسرائيل انقضى أمرهم ، وذهب ريحهم ، وفات دورهم . ذلك أنهم لما كانوا فى التيه ، وهواؤهم طلق : وهم فى البادية وشظف العيش تبرءوا من رجس المدنية وخبث المدن ، وفسق أهلها ومرضهم و بطنتهم وجشعهم ، وقلة أدبهم ، وسقوط أخلاقهم وكذبهم ، ونفاقهم ، وحقدهم ، وحرصهم ، وادخارهم ، وكدحهم ليلا ونهارا ، فالشهوات الحارة تلدغهم وتحرقهم فيصطلون بنارها ، و يقارفون الفجور و يأكلون أكلا لما ويحبون المال حبا جما و يتخبطون فى دياجير الذنوب والمعاصى والعيوب ، و يكون رؤساؤهم أخسهم مقاما ، وأردأهم أخلاقا ، وأشدهم نفاقا ، وأقربهم إلى الشرور وأبعدهم عن الخيرات ، وتقل بينهم الأمانات ، ولا يخافون رب العالمين ، بل سطوة الحاكمين ، وتكثر أمراضهم لكثرة الألوان فى طعامهم ، ويكونون جبناء هلعين فزعين ان فاجأهم عدو فروا خائفين ، وولوا هاربين . هذا شأن المدن ، وهذه سجية أهلها ، ولا تستثن منهم أحدا . إلا أن الممالك الكبيرة تكون لها جيوش مدربة على الحرب يحرسون بلادهم ويحاربون أعداءهم ، وهم فى أنفسهم خوارون ، قتلتهم شهواتهم فلا ينفعهم فى قتال عدوهم الامضاء أسلحتهم ، ووفرة مدافعهم ، وكثرة الطيارات فى جيوشهم . فأما أهل البادية الذين تنزهوا عن رجسهم ، وخلصوا من بطنتهم ، وتجافوا عن جبنهم ، وقربوا من الفضيلة ، وابتعدوا عن الرذيلة وقويت أبدانهم ، وعظمت نفوسهم ، وهم شجعان كرماء فأولئك إذا أعطوا سلاح أهل المدن قاتلوهم فغلبوهم واستأصلوهم ، ولذلك ترى أن الأمم التى فى المدن إذا طال عليها الأمد غلبتها على أمرها تلك الأمم البدوية ، وورثت أرضها وديارها ، وحلت مكانها ، ثم يتناسل هؤلاء فى المدن جيلا بعد جيل ، و يتبعون سنن من قبلهم

شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، ثم يأتى آخرون فيغلبونهم على أمرهم « وتلك الأيام نداولها بين الناس » على ذلك درج الأمم قديما وحديثا . فدولة الرومان : لما استفحل أمرها ، وعلت كلمتها ، وخضعت لها الرقاب ، وذلت لها الأعناق ، هجمت عليها الأمم الوحشية البدوية العاتية الجاهلة العارية من سابغ الرغد ونعيم الحياة ففتكت بهم ، وورثت أرضهم وديارهم وأموالهم ، وهاهم أولاء اليوم أصحاب الحول والطول فى أوروبا . وقد مضى على ملكهم نحو ألف سنة ، وكأنهم أيضا أصبحوا وقد ملك رقابهم الترف وانغمسوا فى اللذات وغرقوا فى بحر لجى من الظلم والمعاصى والفتك فأصبحت مدارسهم لتعليم الاجرام ، والفتك والاغارة على الأمم ، وقد آن أوان أن تبيدهم أمم أبعد عن الترف ، وأقرب الى حال البداوة ، وتحل محلهم كما فعل آباؤهم مع دولة الرومان .

وهكذا ترى أن الأمة العربية ، لما نزل عليها القرآن أنار بصائرها ، وأغلى مراجلها ، وبعث الحرارة الدينية فى نفوس أبنائها فأخذت تمتد الى سائر الجهات ، فملكت دولة الفرس التى قتلتها البطنة والنعيم وامتدت من جهة أخرى إلى بلاد الروم وأحاطت بها وحلت محل الأمتين . ثم طال على الأمة العربية الأمد وأسكرها النعيم فجاء إليها التتار من المشرق ، والفرنجة من المغرب فحلوا بساحتها وساء صباح المنذرين ، وصارعوها فصرعوها فنامت الى حين . ثم هى الآن تريد أن تأخذ مكانتها . وبالجملة ليس للأمم من سعادة الا بالتجافى عن اللذات والتباعد عن الشهوات ، والاقلاع عن البطنة ، والاقلال من دواعى الترف والنعيم ، فهؤلاء بنو إسرائيل لما كانوا فى مصر ذاقوا حلاوة المدنية ، ونعيم العيش فأنسوا باللذات واستخذوا للشهوات فذبح فرعون رجالهم واستحيا نساءهم ، فأمر موسى أن يخرج بهم فخرجوا وبعد ما أمروا بقتال الجبارين ضلوا فى التيه وتاهوا فى بيدائه وجالوا فى فسيح هوائه المطلق وعاشوا فى صحراء قحلة تعلموا فيها ضروب الشجاعة والعفة والاعتماد على النفس فتربوا هناك أربعين سنة . يقول العلماء حضانة الأخلاق أربعون ، وحضانة العلم عشرون ، فلما أنسوا من أنفسهم القوة وأحسوا بالمنعة ، وأنهم أقوى من آبائهم الذين ختم الترف ونعيم العيش فى مصر على قلوبهم راموا أن يتمتعوا بلذيذ العيش ونعيم المدن ، فقالوا (ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) يقول الله أتذرون ماهو خير ، وتأخذون ماهو أدنى ، وكيف ترضون أن تتركوا عيشة البادية الهادئة الحرة النقية الصافية التى تقل فيها الأطعمة فتصح الأبدان ، وتطول الأعمار ، وتقوى النفوس وتطوحون بأنفسكم الى المدن التى تسقم الأبدان ، وتذل النفوس بالمرض ، واذلال الحكام ، وموت الشجاعة والاتكال على الجماعة ، وتكون حراسة المدن بطائفة من الجند ، والأمة كلها عالة على حكامها عارية عن المنعة والقوة يسامون الخسف ويلبسون لباس الذل . إذا أبيتم إلا ذلك ف(اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) ثم ان جميع ماخاطب الله به بنى إسرائيل لم يقصد به الا نحن أبناء العرب ، ومن معنا من الأمم ، وان جميع قصص الأنبياء تنبيه وارشاد . قال تعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وقال « اتبعوا أحسن ماأنزل إليكم من ربكم » وقال « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، وروى أن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب كان يقول : قد مضى والله بنو اسرائيل وما يغنى ماتسمعون عن غيركم ، فليكن للمسلمين عبرة فى هذه القصة . وفى التاريخ : فان بنى إسرائيل لما دخلوا أرض كنعان واستفحل ملكهم مئات السنين أخذهم الترف وجاءهم بختنصر فأسرهم وأجلاهم وأخرب ديارهم ثم رجعوا بعد حين فأجلاهم الروم مرة أخرى بعد المسيح ، وهاهم أولاء فى الأرض متفرقون شذر مذر « فى كل واد يهيمون » .

الفوائد الطبية فى هذه الآية

لقد أظهر الطب الحديث فى هذا العصر مخزيات المدنية ، ومصائبها الطبية ، وأبان أن الاكثار من اللحم وشرب الخمر والتدخين بالتبغ ، وشرب القهوة ، والشاى ، والكاكاو ، وأضرابها من الممرضات والقاتلات .

وقال أساطين الأطباء : ان معيشة المدن اليوم أصبحت لا تطاق . فعلى الناس أن يقللوا من الأدوية التى فى الصيدليات المسماة [أجزاخانات] بل قال أكابرهم ان هذه ستمحى من الوجود لما فيها من الضرر بنوع الانسان ، وأثبتوا أن الماكل المركبة ، والتى هى كثيرة الغذاء ضررها كثير ، ومنعوا شرب الماء على الطعام وأكل الطعام وشرب الشراب الحارين لضررهما بالأسنان والحلق واللسان . وقالوا ان أهل البادية أقوى أجساما وأصح عقولا لاقتصارهم على الحنطة والتمر ، وطلبوا من الناس الاقتصار على الحبوب والفاكهة ، وأن يقللوا مااستطاعوا الى ذلك سبيلا .

ويقول هؤلاء الأطباء العصريون : ان العناية الالهية تكفلت باصلاحنا . ألا ترى أن الجرح يأخذ فى الاندمال شيئا فشيئا بلا عمل من الانسان ، وهل ذلك الا للعناية الالهية التامة فى الطبيعة ، فعلينا اذن أن يكون جل عنايتنا بالهواء النقى والرياضة والغذاء الصحى معرضين عن الأغذية المهيجة ، وعن اكثار اللحم ولنقصد العمل المعتدل ولنستحم بالماء البارد أو الفاتر ، حتى يقوى المريض على مكافحة المرض ، ولنترك الأدوية المعتادة ماوجدنا الى ذلك سبيلا . وقد منع التداوى بالعقاقير المتراكمة فى الصيدليات الدكتور [غرانبشتاين] وهو من عظماء الاساطين فى الطب بألمانيا . ومن العجيب أنه منع المداواة بها سواء أكانت جيدة أم رديئة ويقرب منه فى ذلك الدكتور كيسر الذى قال : يجب أن يعزل المريض عن الطبيب كما يجتنب السم القتال ، وإنما قال ذلك مبالغة ، ليحرض الناس على حفظ صحتهم . وقال الأستاذ ستيفنس الأستاذ بالكلية الطبية فى نيويورك كلما كثرت تجارب الأطباء ، قل اعتقادهم فى تأثير العقاقير ، وزاد اعتقادهم فى قوى الطبيعة ويقرب منه الدكتور سميث ، وقد قال مثل هذه الأقوال ماير بو على ثمانين علما من الأمم المختلفة فى زماننا .

واعلم أنى كنت فى زمن الشباب ، قد اعترانى مرض ولم أجد طبيبا يداوينى لأنى كنت فى بلاد الريف فوقع فى يدى كتاب يسمى الطب النبوى للشيخ الذهبى ، فكنت أستخلص منه فوائد أعمل بها . ومن عجب أن ماقلته لك عن أطباء أوروبا صورة مكبرة له ، ولست أقول انهم نقلوا عنه كلا ، وانما رأيت تشابه الأقوال فقد قرأت فى هذه الكتاب ان الادوية ضارة الا عند الاضطرار ، وأن المرض له نمو كنمو النبات ودور انحطاط وأوقات معلوم والطبيب لا عمل له الا تلطيف المرض ، وفيه : إياك أن تقرب المسهل الا عند الضرورة ، واذا قدرت أن تداوى بالغذاء فاحذر أن تتداوى بالعقاقير ، وحرم الشرب على الأكل ، وقد عملت به إذ ذاك وانتفعت به وصح جسمى ، ولقد كنت أيام تلك الحمية كثيرا ما أترك الشراب بعد الأكل ثلاث ساعات أو أربعا كما قرأته فى كتب الطب القديمة التى لم أكن أعرف سواها ، ففيها أن ترك الشرب بعد الأكل من ساعة إلى أربع على حسب اختلاف الأمزجة ، أما علماء العصر الحاضر فقد توسطوا وقدروها بساعتين اثنتين غالبا ، وقد انتفعت بتلك الحمية وقت الجد ، ولكن لما طال الزمن لم أجد من الأطباء من يؤيد هذا فى عصرنا الا قليلا حتى قرأت هذا عن أطباء أوروبا فأوضحوا مناهجهم ، أوليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن ، أوليس قوله « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » رمزا لذلك ، كأنه يقول العيشة البدوية على المن والسلوى : وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما مع الهواء النقى ، والحياة الحرة أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل واللحم والاكثار من ألوان الطعام مع الذلة ، وجور الحكام والجبن وطمع

الجيران من الممالك فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لاتشعرون ، بمثل هذا تفسر هذه الآيات ، وبمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله ، وبهذا فليعملوا وليوصوا الابناء بالاقلال من اللحم وتحريم شرب غير الماء الا فى أحوال خاصة وأن يستنشقوا الهواء النقىّ ، ويروضوا أجسامهم بالتعاليم العسكرية ، وليكن جميع الشبان متمرّنين عليها ، وذلك لايمنعهم من مزاولة أعمالهم فى الحقول والمدارس : ولتعلم جميع الأمة الأعمال العسكرية ، وليست فرق الكشافة فى المدارس بمغنية عن ذلك ، وليقلل من الاسراف والشهوات ، فالنعيم فى ترك النعيم والافليخافوا من قوله تعالى (اهبطوا مصرا فانّ لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله) وتعاليم القرآن والسنة تنحو هذا المنحى والا فلم يقول الله « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تفسقون » ؟ أفلست ترى أن الطيبات وان كانت حلالا لنا إذا أكثر الناس منها ، كما قال الاطباء فى هذا المقام يعمهم المرض فى الاجسام ، والذلّ فى المدن ، والعذاب فى الآخرة ، والقرآن عبر عن هذا كله بقوله « فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحقّ » أو ليس قوله « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمرناها تدميرا » ينحو هذا المنحى ، وهو أن نفوسهم تمرض وتجبن وأجسامهم ينهكها الضعف وعدوّهم يقتلهم ، وهذا سرّ تلك المحاورة المشهورة بين ابن زياد وسيدنا عمر رضى الله عنه اذ قال ابن زياد : مامعناه لو اتخذت لك ياأمير المؤمنين طعاما طيبا ولحا طريا لكان أوفق لك ؟ فقال يا ربيع لو شئت لاتخذت طعامى من الرقاق والصناب [وهو الزبيب المصنوع مع الخردل يقوى شهوة الطعام] ولكنى رأيت الله عير قوما ، فقال « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم » الآية .

وأقول : كرّة أخرى على المسلمين فى أقطار المسكونة أن يتعلموا الفنون الحربية تعلما اجباريا ، وأن يمنعوا من الكسل ويلزموا العمل ، وأن يربوا أبناءهم على الشهامة والمروءة والقناعة . ألم تر إلى أسلافنا العباسيين والأمويين إذ كانوا يرسلون أبناءهم فى صغرهم إلى البادية تقوية لأبدانهم واجادة لصحتهم ونموّا لعقولهم ، أو ليس أهل أمريكا اليوم يرسلون أبناءهم الى الحمر المتوحشين يعيشون معهم فى الجبال مكشوفين لضوء الشمس ونور القمر وجمال الكواكب ، هكذا فليفعل المصريون من أهل النعيم ، وليرسلوا أبناءهم إلى اخوانهم العرب المصريين ليتربوا هناك قبل دخولهم المدارس ليعيشوا فى جبال مصر وأوديتها لتقوى أبدانهم ويكون منهم شجعان أقوياء ، ولينح هذا المنهج جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولقد بلغنا أن اخواننا الفرس بلغوا فى ذلك مبلغا عظيما فى هذا الوقت الحاضر ، وأنهم يمرّنون أبناءهم من ابان صغرهم على الفروسية والاقدام ، وهذا من أعظم مقاصد الدين .

أما الاستخذاء للشهوات ، فانما هو الاستعباد بعينه والاسترقاق ، فان الترف داع إلى المعاصى والمحرمات وتجاوز الحدود والاعتداء ، وهذه تدعو الى ترك نصح الناصح والتمادى فى الضلال ، بل ربما فتك العصاة بمن نهاهم عن القبيح واسترسلوا فيه ، بل ربما قتلوا العلماء والحكماء ونفوهم عن الأوطان وشرّدوهم كلّ مشرد ، كما ترى فى زماننا أن الفسقة والفجار يخلعون العذار ويذمّون الأبرار ، واذا قدروا على سجنهم أو نفيهم أو قتلهم كان ذلك لامحالة ، وهذا قوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحقّ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) فهى مراتب ثلاث بعد المعيشة فى البادية : الأولى الاسراف فى الترف ، الثانية العصيان والتعدّى ، الثالثة قتل الأنبياء ، وللأولى الاشارة بقوله (اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) ، وللثانية الاشارة بقوله (ذلك بما عصوا) الخ ، وللثالثة الاشارة بقوله (ويقتلون النبيين بغير الحق) « والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل » انتهى .

ايضاح الكلام فى قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا . الآية

يقول « إن الذين آمنوا » بدين محمد بألسنتهم وفى قلوبهم الشك « والذين هادوا والنصارى » جمع نصران «والصابئين» وهم عبدة الملائكة فالكواكب فالأصنام ويقولون انها شافعة ، فالأصنام تقوم مقام الكواكب والكواكب كأنها أجسام ، أو محال التصرف للملائكة ، والملائكة شفعاء عند الله ، كل هؤلاء « من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا » أى استكمل قوتى العلم والعمل « فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . واعلم أن هذه الآية ترشدنا الى مكارم الأخلاق فى معاملة الناس ، فان الجاهل يحقد على من آذاه ، ولا يعفو ، وينتقم ولو بعد حين ، أما العاقل فانه اذا رجع المذنب عن ذنبه ، وانضم الى جانب من أذنب اليه قبله وانتفع به ، فالمنافقون وأهل الكتاب المعادون للأنبياء متى آمنوا وتابوا كان لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا . ومن عجب أن هذا نفسه تفعله الدول ، فأى دولة غيرت سياستها مع أخرى بعد أن ذبحت رجالها ، واستحيت نساءها ، وقالت لها . ان مصلحتى أن أكون معك ، تبدلت العداوة بالمحبة وتصافتا وتضامنتا ، وهذه هى السياسة التى يقوم بها السوّاس فى المدن التى يسير عليها مجموع كل دولة . وقد قال علماء الأخلاق : لتكن سياسة الانسان مقيسة على سياسة الأمة ، فالفرد كالأمة ، هذا كلام علماء الأخلاق ، فأما هنا فهى السياسة العليا ، والمثل الأعلى ، والمقام المحمود ، مقام النبوة المنبثق نوره من الجلال الأقدس ، والنور الأعلى ، والجمال الأجلى ، والكمال الذى ليس فوقه كمال ، فمتى تاب المرء ذهبت خطيئاته كائنة ما كانت ، فلنسر على ماسنه الله ولا نحمل الحقد على من قدم لنا توبة خالصة ، ولنعامله ، ذلك هو السنن والصراط المستقيم اه

(الياقوتة العاشرة من الفصل الأول)

قصة البقرة وما أودع فيها من الحكم :

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

مقدمة لتفسير الآية

روى المفسرون حكاية عن بنى اسرائيل كانوا يتوارثونها كابرا عن كابر تهذيبا للنفوس ، وحبا للوالدين ، وطاعة لله تعالى ، ونحن نذكرها مختصرة للفائدة النافعة :

حكى أنه كان رجل صالح فى بنى اسرائيل ، وكان له طفل ، وله عجلة ، فانطلق بها الى غيضة ، وقال : اللهم انى استودعتك هذه العجلة لابنى حتى يكبر ، فلما مات الرجل وكبر الولد كان بارّا بأمه ، يقسم ليله ثلاثة أقسام يصلى ثلثا ، وينام ثلثا ، ويجلس عند رأس أمه ثلثا . وفى النهار يحتطب فيتصدق بالثلث ، ويأكل الثلث ، ويعطى أمه الثلث ، فقالت له أمه يوما : يابنىّ انطلق الى غيضة كذا فيها العجلة التى تركها لك أبوك ، وأفهمته علاماتها ، فلما ذهب الى الغيضة عرفها وقادها ورجع الى أمه ، فقالت له : بع البقرة فى السوق بثلاثة دنانير على شرط أن تشاورنى ، فذهب الى السوق ، فأعطى أكثر من ثلاثة ، فلم يرض إلا باستشارة أمه ، وقال لطالبها : لوأعطيتنى ملء جلدها ذهبا لم أبعها إلا باذن أمى ، فلما رجع الى أمه ، قالت : لاتبع هذه البقرة ، فسيكون لها شأن ، واتفق أنه كان فى بنى اسرائيل شيخ موسر فقتل بنوأخيه ابنه طمعا فى ميراثه ، وطرحوه على باب المدينة ، ثم جاءوا يطالبون بدمه ، وسألوا سيدنا موسى . انتهت المقدمة :

التفسير اللفظى

فلنشرع فى التفسير المبنى عليها . قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه) لما سألوه أن يبين لهم ماأشكل عليهم من أمر القتيل (إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا) أى نحن نسألك أمر القتيل وأنت تستهزئ بنا وتأمرنا بذبح البقرة (قال) موسى (أعوذ بالله) أمتنع بالله (أن أكون من الجاهلين) بالجواب إذ يجعلونه غير موافق للسؤال (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) ماحالها وصفتها (قال انه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر) لامسنةولافتية (عوان) نصف : أى وسط بين الصغير والكبير (بين ذلك) أى بين ماذكر من الفارض والبكر (فافعلوا ماتؤمرون) ولاتسألوا (قالوا ادع لنا ربك) سله (يبين لنا مالونها قال انه يقول انها بقرة صفراء فاقع لونها) شديد الصفرة (تسرّ الناظرين) لحسنها (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أسائمة هى أم عاملة (إنّ البقر تشابه علينا) أى ان البقر الموصوف بالتعوين والصفرة كثير فاشتبه علينا (وانا ان شاء الله لمهتدون) الى المراد بذبحها (قال انه يقول انها بقرة لاذلول) لامذللة (تثير الأرض) تحرث الأرض (ولاتسقى الحرث) لايستقى عليها بالسواقى الحرث (مسلمة) من كل عيب (لاشية فيها) لالون فيها غيرلونها (قالوا الآن جئت بالحقّ) بالبيان التام (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أى وما قاربوا أن يفعلوا ما أمروا به قبل لغلاء ثمنها ، أولعزّة وجودها بهذه الأوصاف (وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها) اختصمتم فى شأنها (والله مخرج ما كنتم تكتمون) مظهره لامحالة ، ثم عطف على ادّارأتم قوله تعالى (فقلنا اضربوه) القتيل (ببعضها) أى بأىّ بعض كان ، فضربوه فحيى ، ثم خاطب الله من حضروا حياة القتيل ، أومن حضروا نزول الآية ، فقال (كذلك يحيى الله الموتى) للبعث (ويريكم آياته) دلائله على كمال قدرته (لعلكم تعقلون) تمنعون أنفسكم عن المعاصى (ثم قست قلوبكم) القساوة الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر (من بعد ذلك) أى بعد إحياء القتيل (فهى كالحجارة) فى قسوتها (أوأشد قسوة) منها (وان من الحجارة لما يتفجر) يخرج (منه الأنهار وان

منها لما يشقق) يتصدع (فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط) أى يتدحرج من أعلى الجبل الى أسفله (من خشية الله) وقلوبكم لاتتحرك من خوف الله (وما الله بغافل عما تعملون) أى ان الله بالمرصاد لهؤلاء القاسية قلوبهم حافظ لأعمالهم حتى يجازيهم فى الآخرة . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح هذه الآيات وعجائبها

خالط بنواسرائيل الأمة المصرية ، وأشربوا فى قلوبهم العادات الوثنية ، والأخلاق الفرعونية ، فعبدوا عجولهم ، وقدّسوا أصنامهم ، ولصقت بهم عاداتهم ، ورسخت فى طباعهم رذائلهم كما هوشأن المغلوب مع الغالب والضعيف مع القوىّ ، والولد مع الوالد ، والتلميذ مع الاستاذ ، والجاهل مع العالم ، والفقير الضعيف مع القوىّ الغنى ، وكما هوشأن الأمم التى استضعفها الأقوياء ، واستذلها الباطشون ، وشأن ضعاف الأمم الشرقية مع الأمم الغربية ، فانظركيف غلب على بنى اسرائيل ماعلق بأذهانهم ، ورسخ فى طباعهم من عبادة العجول حتى اتخذوا العجل وعبدوه كما كانوا يرون [ابيس] معبود المصريين ، وهذا شأن البشر يتخذون أوهام الغالبين الذين استوثق لهم الأمر ، وتمّ لهم النصر عليهم ، وماحال بنى اسرائيل فى التيه العابدين للعجل إلا كتلك من أذلهم المستعمرون الغاصبون ، فتعلقوا بأذيال ظالميهم ، وغرّهم سرابهم الخادع ، وهذا شأن البشر فى كل قبيل ، وكما يقول المتعلم الشرقى قال المسيو فلان والسير فلان ، وهم قد ضربوا بيد من حديد ، فلم يكن لنبى موسى عليه السلام بدّ من انتهاز فرصة القتيل الذى اشتجروا عليه وتخاصموا وكان من الأغنياء الموسرين فقال اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ، فضرب عصفورين ورمى الجهل بسهمين ، فأنساهم عبادة العجول ، وأراهم أن للأموات حياة وبعثا بعد أن أرهقهم بأمر الله بما وصف من البقرة النادرة العزيزة النظير بعد أن عبدوا العجل الذهبى وكيف وصف قلوبهم بأنها كالحجارة أوأشدّ قسوة وفضل الحجارة عليها بأن قال : « وان من الحجارة لما يتفجرمنه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء » .

لقد سبق أن ذكر الحجر المضروب بالعصا وهومعجزة نادرة الوقوع صارت على يدنبىّ ، ولقد ألمع فى هذه الى رحمة الله الواسعة ، وفضله العميم ، وخيره الجسيم ، إذ كانت الجبال كلها مخازن للماء الذى سلكه فى بطنها مما أمطره السحاب فأصابه البرد فصار ثلجا يكسر الحجر الصلد ، والصفا الملد ، وتتفجر الينابيع .

يقول الله : لئن ضرب موسى الحجر بعصاه فعصاى التى أضرب بها ذلك الناموس العجيب ، والابداع الغريب ، والنظام البديع ، إذ جعلت للماء اذا جد خاصة لايشركه فيها سواه ، وطريقة لايسلكها ماعداه ، ذلك أنه اذا جد فصار ثلجا أكبرت حجمه فكسر الصم الصلاب ، وفجر الأنهار ، تلك عصا ربك التى يكسر بها الأحجار ، وهوعامّ الجود ، دائم المعجزات ، ماتوالى الحدثان ، وتناجى الفرقدان ، فالمعجزات الالهية لانهاية لعددها ولا آخرلمددها ، دائمة لاتبيد ، وقائمة لاتفنى ، خفيت على الجهلاء ، وظهرت للعلماء والحكماء « لايعقلها إلا العالمون » (بكسر اللام) ولايدرك كنهها الغافلون ، ذلك داع حثيث الى النظر فى العلوم الطبيعية ، وعار على أمة الاسلام أن تجهل عصا الله الناموسية المفجرة للأنهار ، الكاسرة للأحجار ، كل ليل ونهار ، وكل صباح ومساء فى مشارق الأرض ومغاربها ، والا فكيف اختص الحجر بالضرب : أليس ذلك تنبيها للغافلين وتذكيرا للجاهلين من المسلمين والأمم أجمعين ، وعدم نسيانهم مجد آبائهم وعلومهم كما نسى بنو إسرائيل التوراة المنزلة على موسى ، وهو رجل منهم ان الانسان ظلوم جهول [يقول الله] ان الماء مخزون فى الاحجار ومنها تنفجر الأنهار ، فهلا ضرب شجرة ، أو بقرة ، أو خيمة ، وإنما هداه الله بالوحى إلى مايبعث فى النفوس حكمة . وفى العقول فهما ليجدّ الناس فى العلوم . هذا هو السرّ فى قوله تعالى — وما نرسل بالآيات — [خوارق

العادات]

العادات] – إلا تخويفا – ثم يقول « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

بمثل هذا تكون الذكرى وبمثل هذا يستيقظ المسلمون ويأخذون حظهم المفقود ويومهم الموعود .

تفجر الأنهار من الجبال والأحجار إنما كان بما اختصت به المياه من حكمة الانتفاخ إذا جمدت كما علمت ، وتعجب كيف ضربت الشمس الرياح وأرسلت عليها أشعتها فأجرتها فأخذت تعدو وتموج فى مخارق الجو وفسيح باحاته ، وهى تحمل قطرات الماء الخافيــة المسماة بالأبخرة الغاديات الرائحات حتى اذا اصطكت بالجبال الراسيات صدتها وأرجعتها ، فحبست وجمعت وكونت سحابا فسقت الحقول والرياض ، فأحقل النبات وأثنى وأثلث وتشعب الشجر وفرش وأورق وأزهر وأثمر وأينع ، وما أشبه الجبال بالحبوس : أى السدود لتحفظ الماء حتى يسقى الحقل .

الجبل حبس الماء فاذابه وهو بخار ثم ردّه فسلك فى باطن الارض أيلما حتى إذا أصابه برد تفجر ينابيع .

عجب للماء وأى عجب تجرّ به فى الجوّ الحرارة الشمسية ، وتزجيه الرياح ، وتحبسه الجبل ، ثم تخزنه فى كهوفه والمغاور المستكنة تحته ، والبرد يخرجه .

أليس من عجب أن الحرارة تجر به بخارا ، والبرد يجر به ماء .

هذه هى المعجزات ، وهذه هى الآيات ، فياحسرة على المسلمين : نسوا حظهم من الحكمة ، ونسوا حقهم فى الوجود : ياحسرة على بلاد الاسلام جهلوا العلم وناموا فى المهود وسكنوا اللحود ، قوموا من مراقدكم وانظروا ما أبدع القرآن وكيف يقول (وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون) .

فان كنت جاهلا فلا تتعدّ حجر موسى وعصاه ، وان كنت عالما فأحراك أن تتغلغل فى الحكمة وتنظر فى العالم وماحواه وتردّد الطرف ، وتعلم أن الجبال كلها حجارة الله ، والنواميس الطبيعية عصيه واقرإ الطبيعة فلقد نبهك القرآن من ذكر الحجارة وتفجر الأنهار منها أن تنظر نظرات ولاتكن من أولى الجهالات .

عجائب القرآن وغرائبه

ان هذه القصة المحكية عن بنى اسرائيل معجزة لنبيّ الله موسى عليه السلام ذكرت هنا فى القرآن كسائر قصص الانبياء ، وهنا يتساءل الانسان قائلا : أىّ فائدة نجنيها من هذه القصة : اللهم إلا أن تتلى فى المحافل والمجالس الدينية ، ولكن القرآن إنما جاء ذكرى وعلما وحكمة ، فأين العلم وأين الحكمة هنا ، فربما يجاب كما أجبنا أن فيها فائدتين : الأولى أن البقرة عبدها المصريون ، فقد أراد سيدنا موسى أن يظهر لهم ان مايذبح ليس بمستحق العبادة . الثانية ان الأرواح أحياء بعد الموت ، فيكون ذلك دليلا على بقاء النفوس حية كما قلناه هنا ، ولكن هاتان الفائدتان ليستا بمقنعتين ، لأن عبادة البقر ليست شائعة الآن فى الاسلام ، واحياء الميت بضربه ببعض البقرة أمر سماعى يأخذه المؤمنون بالتسليم ، فلا بدّ اذن أن يكون وراء هذا القصص أمر نافع .

أقول : اعلم أن معجزات الأنبياء لابدّ أن يكون لها عند الناس مبادئ بها تعقلها . ألا ترى أن الامام الغزالى يقول : لولا أن الناس يرون رؤيا صالحة بأنفسهم أو يسمعونها من غيرهم ، وانها وقعت كما رأوها ماصدقوا الأنبياء فى أخبارهم بالغيب . فاعلم أن هذا القرآن جاء للناس ، وهو يتلى صباحا ومساء وتمرّ عليه السنون والأعوام ، والناس يؤمنون به تقليدا وتصديقا واتباعا ، ولا يجسر أحد من المؤمنين أن يقول لم كان

كذا فيما لم يدركه فهمه حتى اذا جاء من يدرك المقصود منه عرفه فابرزه للناس . ان فى هـذه السورة أربع عجائب : عجيبة الربا ، وعجيبة الخمر ، وعجيبة احضار الأرواح ، وعجيبة التنويم المغناطيسى . أما عجيبة الربا فستأتى فى آخر السورة ، وقد ظهر هناك أن الحرب الكبرى بين الألمان ، ودول أوروبا والشرق كانت من أجل رءوس الأموال التى كانت [البنوك] المصارف والربا أهمّ مقوم لها ، وهكذا استعباد الدول القوية للأمم الضعيفة ، وظهر [البلشفيك] فى بلاد الروس وقلبوا حكومتهم من أجل رءوس الأموال وأبطلوا الربا ، فسيأتى هناك فى الآية المذكورة فى الربا ، وقد كنا فسرناها قبل الحرب بثلاث سنين ، وقلنا قوله « فان لم تفعلوا فائذنوا بحرب من الله ورسوله » يفيد أن الحرب ستكون بين الدول لأجل رءوس الأموال . وبالأجمال أقول ان الربا ظهر ضرره باوضح معنى فى هذا العصر ، وقامت الروس بتحريمه ومنعه بتاتا ، والمسلمون فى جميع العصور لم يقدروا أن يستأصلوه ، بل انى رأيت من أفاضل المصريين المعاصرين لى من كانوا يرون أن القرآن فى تحريمه للربا كان من أسباب تأخر المسلمين ، فلما سمعوا بانقلاب دولة الروس وتحريم الربا ألجمت أفواههم بالأحجار .

وأما الخمر فسيأتى تحريمه فى هذه السورة ، وأنت ترى أن المسلمين كانوا يختلفون فى بعض أنواعه ، وهو النبيذ : وترى الأطباء قد يبيحون تعاطيه لمرض ، والمسلمون فى أقطار الأرض يخالفون ، ومنهم من كانوا يتعجبون من القرآن ولم حرمه ، وأوروبا وهى أعلم منا تشربه ، حتى قامت أمريكا فى هذا العصر فنعت شربه بجميع أنواعه ، وأسكتت جميع الأمم واتبعتها حكومة الترك ببلاد الأناضول التى يرأسها الغازى مصطفى كمال باشا ، وقد استولوا على الاستانة وحرّموا فيها الخمر تحريما باتا فى هذا الشهر عند كتابة هذه الأسطر ، فانظر كيف كان الخمر محرّما ألف سنة وثلثمائة فأكثر ، والناس منهمكون فى شربها والشعراء المسلمون يترنمون بها ، ولا تمنعهم الحكومات الاسلامية ولم تظهر الثمرة المطلوبة الاعلى يد أمم أخرى عرفته بعقولها لا بأديانها .

أما مسئلة التنويم المغناطيسى الذى عمّ الكرة الأرضية وصار علما يدرس رسميا ويستعان به فى علم الطبّ ، فسيأتى عند الكلام على هاروت وماروت .

وأما علم تحضير الأرواح فانه من هذه الآية استخراجه ، ان هذه الآية تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولا ، ثم بسائر أوروبا ثانيا . فلأذكر نبذة منه لتعرف كيف كان مبدأ هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم ، وفائدة هـذا العلم أن من صحت عنده أحوال الأرواح وظهورها أيقن بالآخرة وبالحياة بعد الموت ايقانا تاما . وأما من لم تصح عنده فانه مقلد كسائر الناس ، ولتعلم أن هذا العلم متشعب اختلط فيه الحق بالباطل ، والصدق بالكذب ، وصار الناس فيه طائفتين ، طائفة مكذبة ، وطائفة مصدّقة ، ولكل حجج ليس هـذا محلها ، ولكن بالاجمال أقول ان فى العلم التباسا كثيرا وشكوكا بسبب الأحوال الطارئة على المشتغلين به ، وكان الأولى بأمّة الاسلام أن تكون السابقة فى مضماره المجدّة فى تعلمه المتقدّمة على سائر الأمم فى تحصيله لتهدى الناس إلى سواء الصراط . أفلا يرى المسلم ماجاء فى هـذه السورة فى قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ، ثم اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءا ، ثم ادعهنّ يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم » وفعل إبراهيم ذلك ، وقطع الطير ودعاها فأجابت فاطمأن ، وهل نحن أكثر إيمانا من إبراهيم كلا ! فاذا كان إبراهيم يطلب اليقين بالمعاينة فنحن أولى ، والأنبياء أعلم منا ، فكان يجب على المسلمين أن يكونوا هم البادئين بعلم احضار الأرواح لا أمريكا ، لأن الله ذكر لنا فى سورة البقرة هنا أنهم ضربوا القتيل فحيي وأخبر بمن قتله ، وهو الذى كان وارثا له فحرم الميراث ، واذا صح هذا فى نفس واحدة فجميع الأنفس يجب أن تكون كذلك ،

وانها

وانها حية بعد الموت وليس يمكن أن يكون هذا يقينا إلا اذا رأيناه بأنفسنا فى زماننا بلا شك ، وأنى لنا ذلك الا بالكدّ ، والنصب ، والتعب ، والسهر ليلا ونهارا فى العلم والعمل .

ولقد ألفت كتابا سميته [كتاب الأرواح] ضمنته : ماورد إلينا من أوروبا وأمريكا من كيفية احضارها ، وهكذا مايقابل ذلك ، مما ورد فى القرآن والحديث وكلام الصالحين ، فرأيت اتفاقا بين الأمتين ، فلأنقل لك الآن ماجاء فى التوراة من احضار الأرواح مثل مافى عصرنا تماما ، ثم أتبعه بنبذة مما فى كتاب الأرواح الذى ألفته فى تاريخ هذا العلم ولست أريد بذلك أن تقلد ماأقول ، ولكن أقول يجب أن يكون فى المسلمين جماعة صادقون مخلصون قاصدون وجه الله ، والدار الآخرة ، لاعرض الدنيا ينقطعون لهذا العلم ويحضرون الأرواح لأجل العلم والمعرفة ولايتكلون على أوروبا وأمريكا و يميزون الخبيث من الطيب . وطرق التحضير واضحة فى كتاب الأرواح المذكور ، فلأبتدئ لك الآن بما جاء فى التوراة فى سفر صموئيل الأول واليهود والنصارى معترفون بنبوته مصدقون به ويذكر فى هذا السفر أنه نصب لليهود ملكا ، يقال له طالوت وأمره الله بقتل العماليق ففعل الا أنه خالف من قبل مواشيهم وسقط عن مرتبة الملك ، ومات صموئيل وأقبل طالوت على قتل السحرة والعرّافين فقتل من قتل ، وهرب من هرب ، وأقبل أهل فلسطين لحاربته بجمع العرّافين لهم ، ودخل الرعب من كثرة الجيوش المنصبة عليه ، ولم يجد من يسكن الى قوله كعادته من نبىّ ، ولاساحر ، ولاعراف ، ولاحاكم فقلق لذلك . قال فى التوراة : ولما رأى جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جدا ، فسأل من الربّ فلم يجبه الربّ لابالأحلام ولا بالأنبياء ، فقال لعبيده فتشوا لى على امرأة صاحبة جانّ ، فأذهب إليها وأسألها ؟ فقال له عبيده هاهوذا امرأة صاحبة جانّ فى عين دور فتنكر طالوت ولبس ثيابا أخرى ، وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المرأة ليلا ، وقال اعرفى لى بالجانّ ، واصعدى لى من أقول لك ؟ فقالت له المرأة أنت تعلم مافعل طالوت كيف قطع أصحاب الجانّ ، والتوابع من الأرض فلماذا تضع شركا لنفسى لتميتها فحلف لها طالوت بالربّ قائلا حىّ هو الربّ لايلحقك اثم فى هذا الأمر ، فقالت المرأة من أصعد لك ، فقال اصعدى لى صموئيل ، فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم ، وكلمت المرأة طالوت قائلة لم خدعتنى ، وأنت طالوت ؟ فقال لها الملك لاتخافى فماذا رأيت ، فقالت المرأة لطالوت رأيت شيخا مهيبا مثل ملائكة الربّ مشتملا ببرنس قد صعد من الأرض ، فعلم طالوت أنه صموئيل أرسله الله ، فدخل إليه وسجد بين يديه ، فقال صموئيل ياطالوت لم أزعجتنى وأحييتنى ، قال لما ضاقت بى الأرض من أهل فلسطين ومحاربتهم إياى ، وزوال عناية الله عنى ومنعه الأحلام منى فدعوتك لأشاورك فى أمرى ، فقال صموئيل : ان الله تعالى قد نقل الملك عنك إلى صاحبك داود وغضب عليك ، وعلى بنى إسرائيل بما فعلتموه فى مواشى العماليق ، وهو ناصر فلسطين عليكم ومديلهم فتصير معى غدا فى الأموات فخرّ مغشيا عليه وعرفته الساحرة فأقبلت إليه ، ومن كان معه ولم يزالوا به حتى أفاق وألحت عليه المرأة والعبدان أن يأكل ، وهو يمتنع منتظرا الموت حزينا كئيبا فلم يزالوا به حتى رضى فذبحت عجلها المسمن فى البيت وصنعت فطيرا فأكل . ولما طلع النهار التحمت الحرب فوقعت الهزيمة على العبرانيين فأكثر القتل فيهم ، وقتل طالوت و بنوه الثلاثة ، وكان قتله هو أنه اتكأ على حربة فأخرجها من ظهره فاجتمع بنو إسرائيل على تمليك داود فدافع بهم من ناوأهم . هذا ماقرأته فى كتب أسلافنا عن التوراة . وقد وضعتها بين يدى عند كتابة هذه الحكاية ، فرأيت الموافقة تامة إلا فى بعض عبارات لاتضر بالمقصود جاءت من تحريف الناسخين ، هذا هو تحضير الأرواح فى التوراة .

أما ماجاء فى العصر الحاضر الذى يناسب مسألة القتيل الذى ضربوه ببعض البقرة ، ومسألة ابراهيم الخليل وقوله لله عزوجل « ولكن ليطمئن قلبى » ومسألة صموئيل النبى مع طالوت المعبر عنه بلفظ شاول فى التوراة

الذى ذكرنا قصته الآن فيما كه . قلت فى كتاب الأرواح :

قال شير محمد : هــل يذكر لى الاستاذ كيف كان بدء هــذه الحركة فى العالم الحديث ؟ قلت : ان هذه الحركة بدأت مع الانسان على ظهور الأرض وعاشت مع الأمم دهورا وأحقابا ، فلما كانت هذه القرون الحاضرة وأظلمت الدنيا : واسودّ وجه الحقيقة ، وأخذ الناس يجهرون بالالحاد أرسل ربك لهم عجائب ، وبثّ لهم من الأرض غرائب ، انبعث لهم من عوامل الغيب ، وسطعت الحقائق ، وأشرقت الأرض بنور ربها فى سنة ١٨٤٦ م ذلك أنه سمع فى تلك السنة طرقات متوالية فى بيت رجل يسمى [فيكمان] من قرية [هيدسفيل] فى نواحى ولاية نيويورك وتوالى ذلك ليالى ذوات عدد ، فذعرت تلك الأسرة ، وقذف فى أفئدتهم الرعب ، فهجروا المكان بعد أشهر ، فسكنت الدار أسرة [جون فوكس] المؤلفة من الرجل وامرأته وابنتيه ، فعادت الطرقات وتوالت الضربات ، وهرع الجيران لينقبوا عن تلك الأصوات المزعجة ، ثم اهتدوا الى سبيل الرشاد إذ علموا أن تلك أفعال ناجمة عن عقل ، فاصطلحوا مع مصدرها على لفظ نعم ولفظ لا بطرقتين وثلاث ، ففهموا أنها روح أصابها شرّ قد قتلها رجل فى هذا البيت والذى كشف ذلك [مدام فوكس] والقتيل الطارق يدعى [شارل ريان] قتل منذ أعوام عديدة فى ذلك البيت ، وكان فى حياته دوّارا قتله من كان يبيت عنده لسلب ماله ، وكان عمره إحدى وثلاثين سنة ، ثم شاع الخبر وذاع ، واستهزأ الناس بذلك وسخروا منها ، وقالوا : ان هذا لكذب مبين ، وانتقلت عائلة فوكس الى قرية [روستر] من الولايات المتحدة ، وشاع الخبر وذاع ، وثار علماء الدين والملحدون وسائر الشعب على المرأة وابنتيها ، وتعرّضن للموت مرارا ، فعين القوم لجنة من العلماء لكشف الحقيقة ، فأعلنت أنه لا أثر للشعوذة ولا للاحتيال . فهاج الشعب وعين لجنة أخرى ، فقررت كالأولى ، وعينوا ثالثة ، فأذعنت كسابقتيها ، فهمّ الطغام باهلاك الابنتين ، وسبوا وشتموا علماء اللجان المذكورة ، ولكن الابنتين لم يصبهما ضرر ، وقامت الجرائد والمجلات تنشر مقالات الهزؤ والسخرية بهذا العمل ، ومن العجب أنه لم يمض أربع سنين حتى فشا المذهب فى سائر الولايات المتحدة حتى لم يكن يخلو بيت من وسيط أووسيطة تخابر القوم على يده الأرواح ، وقد يجلسون حول منضدة ، ويتلون أحرف الهجاء ، وعند وصولهم الى الحرف المقصود تطرق المائدة برجلها ، ولم تمض سنة ١٨٥٤ أى بعد الحادث بثمان سنين حتى أصبح أمر هذا الحادث من أعمال دار الندوة ومجلس الأعيان الملتئم فى مدينة وشنطون ، فقد رفعت عريضة طويلة مذيلة بخمسة عشر ألف اسم ، هاك صورتها صفحة ١٦ من كتاب « المذهب الروحانى » :

« نحن الواضعين أسماءنا بذيله أبناء جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية نعرض لمجلسكم الموقر أن حوادث طبيعية وعقلية لايعرف لها مبدأ ظهرت منذ قليل فى هذه البلاد وفى أكثر أنحاء البلاد الاوروبية وتكاثرت هذه الحوادث السرّية فى شمالى الولايات المتحدة وغربيها ومتوسطها حتى أقلقت الرأى العام ، ولما كان الموضوع الذى نلتمس من جمهوركم الموقر الالتفات إليه لايمكن شرحه فى هذه العريضة على اختلاف أنواعه نلخصه لكم بوجيز من الكلام فنقول :

أوّلا : ان ألوفا من العقلاء المدركين شهدوا قوة خفية تحرّك أجراما ثقيلة وترفعها وتخفضها وتنقلها وتقلبها على أنواع مختلفة مناقضة فى الظاهر للنواميس الطبيعية ، ومتجاوزة حدود الادراك البشرى ، ولم يتوصل أحد حتى الآن الى ايجاد علة خصوصية أومقاربة لهذه الحوادث .

ثانيا : ان أنوارا مختلفة الشكل والألوان تظهر فى الحجر المظلمة من دون أن يجد القاعدون فيها مادة قابلة لتوليد عمل كيماوى ، أوتنو رفسفورى ، أوسيال كهربائى .

ثالثا : ان نوعا غريبا من هــذه الحوادث نلتمس من مجلسكم الموقر الانتباه له وهو اختلاف الأصوات فى

تكررها وأنواعها ، وأهمية معناها ، فبعضها طرقات سرية تدل على وجود عاقل غير منظور ، وبعضها تحاكي الأصوات التي تدوي في بعض المعامل الميكانيكية ، أو تتحول الى دوي أشبه بصرير الريح العاصفة تتخللها فرقعة صواري المراكب وملاطمة الأمواج لجدرانه حين هبوب العواصف ، وأحيانا تصير الأصوات شبيهة بقصيف الرعد والطلاق المدافع ، وترتج عندها الأشياء المجاورة ، بل البيت ذاته الذي تقوم فيه تلك الحوادث ، وفي بعض الأوقات تكون الأصوات شجية ، تماثل تارة الصوت البشري ، وتارة آلات الطرب كالمزمار والطبل والبوق والقيثارة والعود والارغن تصدر إما جملة وإما على حدة ، وتارة مع عدم وجود الآلات المذكورة ، وطورا مع وجودها ، ولكن تضرب من نفسها دون مس يد بشرية لها ، وتصدر هذه الأصوات وفقا للمبادئ العلمية المنوطة بقوة السمع أي حدوث تموجات هوائية تلتطم بأعصاب السمع ، وإنما لم يتوصل الباحثون رغما عما بذلوه من الجهد في استجلاء مصدر هذه التموجات الهوائية ، ونرى من المناسب أن نشير الى المبدأين الذين افترضا في حل هذا المشكل ، فالأول لعزاء الحوادث الى أرواح الأموات ، وفعلهم في العناصر الدقيقة الأولية المائلة والسارية في كل الأشكال الهيولية ، وهذا ماشرحه العامل السري ذاته حين طلب إليه ايضاح ذلك وقد وافق على هذا الزعم عدد عديد من أبناء وطننا الممتازين بآدابهم ، وقوة ذكائهم ، ومركزهم الرفيع في السياسة والهيئة الاجتماعية ، وأما أصحاب المبدأ الثاني ولأكثرهم أيضا رفيع المنزلة في القوم فهم ينكرون الزعم الأول ، ويذهبون إلى أن مباحث العلماء لابد من أن تنير بقوة المبادئ المعروفة من العلوم النظرية العقول بإيجاد سبب حقيقي مستوفي الشروط لكافة الحوادث المنوه عنها .

على أننا وإن كنا لانوافق على رأي هؤلاء وقد توصلنا بقوة البحث الى نتائج مخالفة لكل علة طبيعية الحوادث التي نحن بصددها تؤكد لجمهوركم الموقر أن الحوادث جارية حقا وصدقا ، وأن مصدرها السري وغرابة وقوعها ، وأهمية تأثيرها في صوالح الجنس البشري تستوجب بحثا علميا مدققا لايعتريه الكلل ، ألا يستطيع كل عاقل أن يفكر مامقدار الحوادث التي نحن بصددها من الاتيان للشعب الأمريكي بنتائج مهمة ثابتة تتعلق بأحواله المادية والعقلية والأدبية ، ثم ماذا يكون لها من التأثير في أصول الصحة والحياة ومبادئ الفكر والعمل حتى يمكنها أن تؤول الى تغيير أصول معيشتنا واصلاح مبادئ إيماننا وفلسفة عصرنا ، وتبديل هيئة إدارة العالم ، واذا كان من اللائق والمناسب لروح نظامنا أن تقصد دائما نواب الشعب في المسائل التي يصدر عنها اكتشاف مبادئ جديدة تأتي بنتائج مدهشة للهيئة الاجتماعية ، أتينا نحن أبناء الوطن نلتمس بالحاح من جمهوركم الموقر إنارة بصائرنا في هذه الظروف الغريبة ، وذلك بتعيين لجنة كاملة مهما يلزم لها من النفقات في سبيل استجلاء هذه الغوامض ، وإنا لمعتقدون أن صوالح الهيئة الاجتماعية سينالها الحظ الأكبر من نتائج أعمال اللجنة التي التمسنا إقامتها ، ولنا مزيد الثقة في استصواب طلبنا ، واجابة ملتمسنا ، من لدن مجلسكم الموقر » مذيل بخمسة عشر ألف اسم اه

ثم اعلم أن هذا العلم عم الولايات المتحدة حتى صار المذهب يتبعه سنة ١٨٩٥ نحو ٢٠ مليونا في الولايات المتحدة ، وعدد الشركات الروحانية سنة ١٨٧٠ عشرون شركة روحانية عمومية ومائة وخمس جمعيات خصوصية و٢٠٧ خطباء و٢٢ وسيطا عموميا ، ومن علمائهم الحاكم أدمون كان رئيس القضاة ، وانتخب مرارا في مجلس الأعيان ، والعلامة روبرت هير الأمريكي الطائر الصيت وألف كتاب [أبحاث عرفية في ظهور الأرواح] والعلامة روبرت دال أوين وألف كتابا سماه « عثار في حدود عالم الغيب » وكان في تلك البلاد في آخر القرن الماضي نحو ٢٢ جريدة ومجلة تنقل الى القراء أخبار أعمالها ، ولم يكن ليبحث أحد من العلماء هذا البحث إلا لينقذ الناس من الضلال بما آتاه الله من العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ولما ملأ هذا

لحادث أرجاء الولايات المتحدة بلغ صدى صوتهم آذان الانجليز ، فقام العلماء والفلاسفة فيها للبحث والتنقيب عسى أن يخرجوا العالم الانسانى من الظلمات الى النور بتفنيد هذا السحر ، وابعاد هذا الظلام ، وقشع السحاب الذى غشى على الانسان ، فحجب عنه نور العلم ، وأذاع فيه الخرافات والأكاذيب ، فقام العلامة الطائر الصيت ولیم کروکس من أعظم الكيماويين والطبيعيين المكذبين بهذه الأساطير ، والعلامة الفرد [روسل والاس] قرين داروين الشهير والمساعد له فى أعماله . فقال شبر محمد : قرين داروين ! فقلت نعم . فقال أف للقلدين كيف يصبح والاس قرين داروين مؤمنا بالبعث ، وهؤلاء الذين يدّعون أنهم قرءوا مذهب داروين ينسبون كفرهم إليه ، ألاتعس الجاهلون الذين لا يعقلون . ثم قلت : ومنهم العلامة [أوجست دى مرجان] رئيس جمعية الرياضيات فى لوندره ، وكاتم أسرار المجمع العلمى الفلكى ، ثم السير [فارلى] مخترع آلة المستودع الكهربائى ، والمجمع العلمى المنطقى الذى تأسس فى لوندره سنة ١٨٦٧ قرر فى جلسته المنعقدة فى ٦ كانون سنة ١٨٦٩ وجوب إقامة لجنة للنظر فى الحادث الروحانى ، والوقوف على صحة الأمر ودرسته ١٨ شهرا متوالية ، ولقد دهشت الأمة الانكليزية لما بلغها قرار اللجنة بصحة الحادث ، ولقد ألف والاس الآنف الذكر كتابه الذى سماه « عجائب الروحانية الحديثة » . ومن العلماء الذين كانوا من أشد المعاندين الدكتور جورج ساكستون الخطيب المصقع الذى بعد أن عاجها أخذ يدرسها ١٥ سنة وقال : لقد أيقنت بالروحانية ، وحادثت أقاربى وأصدقائى المتوفين ، وكذا الدكتور [شامبرس] والدكتور [هوغسون] والعلامة [ميرس] وهناك [جمعية المباحث النفسية] ولها مجلة تسمى [أشباح الأحياء] .

ولقد حصل فى فرنسا مثل ما كان فى أمريكا وانجلترا : فقد قام بالأمر منهم البارون [جيلد نستوبه] وألف كتابا سماه [حقيقة وجود الأرواح] ظهر فى سنة ١٨٥٧ أى بعد الحادث الأمريكى بنحو ١١ سنة وأجيست فاكيرى : ألف كتابا سماه [شتات التاريخ] على ذكر الامتحانات الروحانية ، وكذلك [فكتور هوجو] شاعر الفرنسويين اذ قال : ان من أعرض عن الحادث الروحى فقد أعرض عن الحقيقة وكذا المؤرخ [أوجين بوشير] والعلامة فلا ماريون الفلكى الطائر الصيت ، والعالم [موريس لاشاتر] مؤلف القاموس الذى باسمه ، والدكتور [جيبيه] الطبيب الشهير .

ثم فشت الروحانية فى ألمانيا وروسيا وايطاليا والبلجيك واسبانيا والبرتغال وهولانده وأسوج ونروج هذا ملخص ماجاء فى كتاب « المذهب الروحانى » الذى هو خير كتاب ألف بالعربية لعلم الأرواح فى هذا الزمان قد أبنت لك كيف كان انتشار هذا الحادث فى النصف الثانى من القرن الماضى .

هذا ما فى هذه العصور من العلوم الخاصة بالأرواح ، ونعجب من القرآن كيف ذكر مسائل الحياة بعد الموت فى قصة الخليل كما ذكرناه ، وانه أمر بتقطيع الطيور وخلط لحها بعظمها وريشها ، ثم يدعوها فتحيا فى أواخر هذه السورة : وأنت تعلم أننا عن هذا عاجزون ، وهذه معجزات لنبى ، وذلك النبىّ أراد أن يطمئن قلبه بالمعاينة بعد الايمان ، ولاجرم أن ايماننا أقل من ايمان الأنبياء : فنحن أولى بطلب المعاينة ، وطريق الخليل فيها مقفل بابها علينا . فمن فضله تعالى ذكر هنا أن القتيل قد حى بضربه ببعض البقرة ، وهذا فتح باب لاحضار الأرواح فكأنه يقول فى مسألة ابراهيم : اطلبوا الحقائق لتطمئنوا ، وهنا يقول : اسلكوا السبل التى بها تستحضرونها ، ولاتنالون شيئا من هذا إلا بجدكم وكدكم ، فالعلم لاينال إلا بالمشقة والنصب ، فاذا وجدتم أن طريق موسى فى إحياء الموتى يصعب عليكم فالتمسوا غيره « وأن ليس للانسان الا ماسعى » هذا مابدا لى فى هاتين الآيتين للخليل وموسى الذى سار على قدم جده فى النبوة ، فحيى الميت على يديه وفى السورة آيتان أخريان فى إحياء الموتى وهما (ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

فقال

فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم» والآية الأخرى نزلت فى العزير اذ قال فى بيت المقدس «أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام» ثم نظر الطعام الذى كان معه والشراب فرآهما على حالهما لم يتغيرا، وصار ينظر الى حماره وهو يحيا وتتصل العظام ببعضها وتكسى لحما فعلم «أن الله على كل شىء قدير».

فالمسلم اذا قرأ هذه الآيات التى حكيت عن بنى اسرائيل يقول فى نفسه : أنا آمنت، فان كان من العامة لم يطلب المزيد، وان كان من الخاصة قال : أنا أطلب المعاينة والمشاهدة، والمشاهدة باحدى طريقتين : الطريقة الأولى : ماسلكه المجاهدون الزاهدون، ولكنها محفوفة بالخطر، ومن شاهد منهم شيئا لا يمكن لغيره التصديق به. الطريقة الثانية : طريقة استحضار الأرواح، وهى عامة كما تقدم فى هذا المقام، ولكن استحضار الأرواح أيضا على مايقولون صعب المنال، ويقولون ان الأرواح النقية لاتخاطب إلا قلوبا نقية خالصة، فرجع الأمر عند الصوفية وعند علماء العصر الحاضر من أوروبا الى أن المدار على الاخلاص والصدق، وطلب الحقيقة والتوجه لله : فهذا هو الأصل عند الجميع. ولذلك ترى الذين يظنون أنهم استحضروا الأرواح متى غلب عليهم حب الدنيا تحضر اليهم أرواح كاذبة خاطئة على مقدار هممهم وتكلمهم بالأكاذيب والمواعيد العرقوبية كما أن المجاهد من الصوفية لاينال الزلفى الا باحتقار العالم الفانى، ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره، ومسئلة الطير وابراهيم الخليل، ومسئلة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون فماتوا ثم أحياهم، وعلم الله أننا نعجز عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة مايرمز الى استحضار الأرواح فى مسئلة البقرة كأنه يقول : اذا قرأتم ماجاء عن بنى اسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فانى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة و «اسألوا أهل الذكر ان كنتم لاتعلمون» ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزير وابراهيم وموسى : فهؤلاء لخلوص قلوبهم وعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ليطمئنوا، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت «فبهداهم اقتده» فاقتدوا بهم فى تعلم ماتطمئنون به وتوقنون، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء فى طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس فان هذه الأمور انما تعرف بالتجربة والعمل، لابالقياس العقلى ولا بالنظر والحدس الفكرى.

مراتب التصديق أربعة

الايمان : البحث العقلى بطرق الحكماء. طريق الصوفية. طريق استحضار الأرواح، وأعمها الايمان، وأهمها طرق الصوفية.

ولعل قائلا يقول : لقد اتبعت طرق الصوفية فلم أزد علما، ويقول آخر : لقد أخذت فى طرق استحضار الأرواح فلم أحصل على طائل. أقول : أنتما تلميذان سقطا فى الامتحان، وقد سمعت عن آلاف مؤلفة نالوا جوائز، وأخذوا شهاداتهم بأيديهم : فنحن الى الأخذ بأقوالهم أميل، وليس لكما الا أن تسلكا سبيل النظر والعقل بطرق الحكماء، فان قلتما أيضا : ليس لنا بها طاقة ! أقول : لم يبق الا الايمان والأذكياء وأنتما منهم، عليهم أن يبحثوا فليس لكما الا الالحاد والكفر اللذان انما أنتهما الكسل واللذات فأنتما أمانى وضلالات ويأسا من الحياة. ولعل قائلا آخر يقول : مالنا ولهذه المباحث التى لاطائل تحتها، ولا تجدى نفعا، ولاتنفع جارا، ولاتورى نارا أقول له : ليس لنا ماهيتم به الا دوام حياتنا، والناس ان لم يبحثوا فى هذا لم يفعلوا شيئا، وكانت علومهم وممالكهم ودولهم ودياناتهم وفلسفتهم هباء منثورا فى الهواء : ألم تر الى قوله

تعالى «عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون» . والنبأ العظيم هو البعث ، و بعبارة أخرى : حياتنا بعد موتنا أعظم الأنباء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل الثانى

الى هنا قد أتممنا القول فى الفصل الأوّل و يواقيته ، وقد آن أن نشرع فى الفصل الثانى وجواهره ، وهو شرح حال اليهود المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو خمس جواهر .

(الجوهرة الأُولى ، والثانية ، والثالثة . قوله تعالى :)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ * وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (أفتطمعون) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (أن يؤمنوا لكم) لأجل دعوتكم و يستجيبوا لكم (وقد كان فريق منهم) طائفة فيمن سلف منهم (يسمعون كلام الله) أى التوراة (ثم يحرّفونه) كما حرّفوا صفة الرسول صلى الله عليه وسلم (من بعد ماعقلوه) علموه وفهموه (وهم يعلمون) أنهم يفترونه ، ثم ذكر منافقى أهل الكتاب فقال (واذا لقوا الذين آمنوا) أى المخلصين من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام (قالوا آمنا) بأنكم على الحق وأن محمدا هو الرسول (واذا خلا بعضهم الى بعض) أى الذين لم ينافقوا الى الذين نافقوا منهم (قالوا) عاتبين عليهم (أتحدّثونهم) أتخبرون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم (بما فتح الله عليكم) بما بين الله لكم فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم (ليحاجوكم به عند ربكم) ليحتجوا عليكم بما أنزل ربكم فى كتابه (أفلاتعقلون) أن هذه حجة عليكم (أولا يعلمون) أى هؤلاء المنافقون (ان الله يعلم مايسرّون وما يعلنون) ومن ذلك اسرارهم الكفر واعلانهم الايمان (ومنهم أميون

لايعلمون الكتاب) جهلة لايعرفون الكتابة فيطالعوا التوراة ويتحققوا مافيها (إلا أمانى) استثناء منقطع والأمانى جمع أمنية أى أكاذيب أخذوها تقليدا من المحرّفين (وان هم إلا يظنون) لاعلم عندهم (فويل) شدّة عذاب (للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) من تلقاء أنفسهم من غير أن يكون منزلا (ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) أى المآكل والرشا (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ، وقالوا) أى اليهود (لن تمسنا) لن تصيبنا (النار إلا أياما معدودة) سبعة آلاف سنة على مقدار أيام الدنيا فى زعمهم ، أو أربعين يوما عدد التى عبدوا فيها العجل (قل) يامحمد لليهود (أتخذتم عندالله عهدا) موثقا بذلك (أم تقولون على الله مالاتعلمون ، بلى) اثبات لما بعد حرف النفى أى تمسكم النار (من كسب سيئة) أى أشرك (وأحاطت به خطيئته) أو بقيه شركه (فأولئك) أهل هذه الصفة (أصحاب النار) أهل النار (هم فيها خالدون) دائمون لايموتون (والذين آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن (وعملوا الصالحات) الطاعات فيما بينهم وبين ربهم (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) دائمون لايموتون . انتهى التفسير اللفظى

الايضاح

يقول : « أفتطمعون » أى لاتطمعوا أيها المؤمنون أن يؤمن اليهود لكم ، وقد كانت طائفة منهم : وهم الأحبار يسمعون التوراة ، ثم يحرّفون كلامه من بعد مافهموه : وهم يعلمون أنهم مفترون ، و إذا لقى منافقو اليهود الذين آمنوا قالوا آمنا أن محمدا نبىّ ، كما ورد فى التوراة واذا رجع بعضهم إلى بعض . قال الرؤساء للذين نافقوا أتحدّثون المؤمنين بما عرفتم فى التوراة من نعت محمد ليقيموا عليكم الحجة به عند ربكم يوم القيامة فى ترك اتباعه مع علمكم بصدقه أفلا تعقلون أنهم يحاجونكم ، ثم قال : أيلومونهم ولا يعلمون الخ ، ثم قال : ومن اليهود عوام لايعلمون التوراة إلا أكاذيب ، وماهم فى جحد نبوّة النبىّ وغيرها من المسائل الا يظنون ولا علم عندهم ، ثم قال : فويل ، أى شدّة عذاب لليهود الذين غيروا صفة النبىّ ﷺ من كونه ربعة جعد الشعر أكحل العينين الى كونه طويلا سبط الشعر أزرق العينين ، وقد كتبوه فى التوراة بأيديهم وينسبونه لله ليشتروا به ثمنا قليلا من المال ، فويل لهم من ذلك الاختلاق ، وويل لهم من المكسب وقالوا لن تصيبنا النار الاأياما قليلة أربعين يوما مدّة عبادة آبائنا العجل ، قل لهم يامحمد على سبيل الاستفهام « أتخذتم عند الله عهدا » والهمزة هنا للاستفهام ، وهمزة الوصل محذوفة ، والعهد الميثاق أم تقولون : أى بل أتقولون على الله مالاتعلمون وقوله « بلى » أى تمسكم النار وتكونون خالدين فيها من كسب شركا وأحاطت به خطيئته فاستولت عليه من كل جانب فمات مشركا الخ .

لاجرم أن لكل أمة ثلاث طوائف (١) كبراء سادة (٢) أميون (٣) ذوولسن ماكرون ، وبعبارة أصرح علماء ، وذوومكر ، وأميون ، هكذا اليهود فان طوائفهم الثلاث من الأحبار ، والأميين وذوى الدهاء قلبوا قومة رجل واحد لايذاء النبىّ ومعارضة دعوته كأنهم فى حربهم السلمية بنيان مرصوص ، فأضل العلماء بالتحريف فى معانى التوراة التى أيدت النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وكاد الماكرون ، ونافق الخادعون ، وقلد الأميون الذين تلقوا الأكاذيب فوعوها وسمعوا من الأفواه أراجيف فرعوها ، أتباع كل ناعق ، وأشياع كل غال ، ووقود كل حاطب .

ولما كان العلماء قدوة الحزبين شدّد النكير عليهم ، وأنزل الصواعق من سحاب الغضب بهم ورماهم بشرر من عذابه ، فقال « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم » الآية وكرّر الويل تكريرا وأعدّ لهم عذابا وسعيرا .

فكر أيها الأخ فى هذه الآيات وتدبرها وكررها ، وتأمل كيف يضل علماء الدين أممهم لتسهيل الذنوب وتهوين القبائح والعيوب فيستحذون للشهوات، ويرتطمون فى اللذات إذ يقولون لن تدخل النار الأربعين يوما إذ عبدنا العجل فيها أو سبعة آلاف سنة مدة عمر الدنيا ، فيغتر بها الجهلاء ، ولعمرى أين المناسبة بين عبادة كفر بها قدماؤهم ، وبين ذنوب اجترحوها وسيئات مكروها ، ولقد كذبوا فى الدعوتين كما كذبوا فى تحديد مدة الدنيا ، وهى أضعاف أضعاف ماقالوا ، وقد آن أوان أن نفسر آيات الأخلاق التى عليها نظام الأمة الاسرائيلية .

(الجوهرة الرابعة)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل) الميثاق العهد المؤكد (لاتعبدون إلا الله) اخبار فى معنى النهى (و) أحسنوا (بالوالدين احسانا) برا بهما ورحمة لهما (وذى القربى) القرابة (واليتامى) جمع يتيم وهو الذى فقد أباه قبل البلوغ (والمساكين) الذين أسكنتهم الحاجة (وقولوا للناس حسنا) قولا هو حسن فى نفسه لافراط حسنه (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم) عن الميثاق ورفضتموه (إلا قليلا منكم) وهم الذين أسلموا منهم (وأنتم معرضون) عادتكم الاعراض والتولية عن المواثيق (وإذ أخذنا ميثاقكم) فى الكتاب (لاتسفكون دماءكم) لايقتل بعضكم بعضا (ولاتخرجون أنفسكم) أى بعضكم بعضا (من دياركم) من منازلكم (ثم أقررتم) بهذا العهد أنه حق (وأنتم) يامعشر اليهود (تشهدون) على ذلك (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) يقتل بعضكم بعضا (وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) أى يخرج بعضكم بعضا من ديارهم (تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان) أى تتعاونون عليهم بالمعصية والظلم (وان يأتوكم أسارى تفادوهم) بالمال وهو استنقاذهم بالشراء (وهو محرم عليكم اخراجهم) الضمير مبهم يفسره مابعده (أفتؤمنون ببعض الكتاب) بفداء الأسرى (وتكفرون ببعض) بالقتال والاجلاء (فما جزاء من يفعل ذلك) أى الايمان ببعض والكفر

بعض (منكم إلا خزى) فضيحة (فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب) أى عذاب النار (وما الله بغافل عما تعملون) تأكيد للوعيد (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) آثروا الحياة الدنيا على الآخرة (فلا يخفف عنهم العذاب) فلا يهون عليهم (ولاهم ينصرون) بدفعه عنهم. انتهى التفسير اللفظى

الايضاح

لكل أمة ثلاث أحوال: أيام سعادة وهناء. وأيام اضطراب وعناء، وأيام زوال وفناء.

هذا قانون عام وناموس لايتبدل وهو سنة الله «ولن تجد لسنة الله تحويلا» وقد أوضحتها هذه الآية وأبانتها وكشفت عنها القناع.

الحالة الأولى: أيام السعادة والهناء وذلك ثمانية أصول: عبادة الله، وإكرام الوالدين، وصلة الرحم وإكرام اليتيم، وبرّ المسكين، وحسن العشرة بالقول الجميل مع سائر الناس واقامة الصلاة وهى داعية للائتلاف وكذلك الزكاة، وهما عماد الائتلاف والمحبة فضلا عن القرب من الله.

الحالة الثانية: أيام الاضطراب ثم أنتم هؤلاء تقتلون ويأسر فريق منكم فريقا ثم تفدون الأسرى فاضطربت أحوالكم وتناقضت آراؤكم، أفتأسرون وهو حرام وتفدون وهو مرغوب وههنا لامناص من خراب الديار وحلول الدمار: وهى الحالة الثالثة.

الحالة الثالثة: (فما جزاء من يفعل ذلك منكم) إلا تشتيت جمعهم وتخريب دورهم ونهب أموالهم وضياع بلادهم ذلك لاضلال العلماء وظلم الكبراء.

لطيفة

لما كنت تلميذا بمدرسة دار العلوم فى السنة الرابعة أمرنى أستاذى المرحوم الشيخ حسن الطويل أن أكتب فى تفسير هذه الآيات مقالا فامتثلت أمره، وكتبت نحو مايأتى فلما عرضته عليه أقرّه ونشرته بعد ذلك فى جريدة اللواء ثم فى المؤيد وصارت فى ضمن المقالات التى فى كتاب النظام والاسلام فأحببت نشرها هنا لأنها بهذا المقام أليق فأقول:

كيف تجتمع الأمة وكيف تتبدد

من تأمل فى آيات القرآن وباقى القصص وغضونها من الأسباب والنتائج وكيف تجتمع الأمة وكيف يتبدد شملها رآها صرحت أو لوحت بكل مايشاهد فى الغالبة والمغلوبة الآن، ولنذكر منها آية ذكر فيها أخذ العهد على بنى اسرائيل وأمرهم باثنى عشر أمرا فلم يعملوا بها الا قليلا ولنقدّم قبل ذكرها مقدّمة فنقول:

لكل أمة ثلاث درجات، الأولى أن تقوى بينها الوحدة وتلتئم بعواطف المودّة والمحبة بصلة الأرحام والوالدين والأقربين والعطف على ضعفاء الأمة من الفقراء والمساكين وحسن المعاشرة مع جميع الناس حتى يكون ذلك ملكة راسخة فى النفوس فيحب حكامها العدل محبة طبيعية وملكة راسخة، الدرجة الثانية أن تقطع الأرحام من الوالدين والأقربين وتذهب العواطف القومية كما فى آية «فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها» ويدب فى الأمة داء الفساد فى القلوب ولكن تبقى فيها بقية من العقل العملى فتحافظ على كيانها العمومى ونظامها الدستورى فلا يقتلون ولايتخذون الأعداء أولياء ولايفعلون مايخلّ بالنظام العمومى. الدرجة الثالثة أن تذهب منهم عاطفة القلوب ورابطة الأجسام معا فيسفك بعضهم دماء بعض ويوالون الأعداء ويخربون

بيوت اخوانهم بأيديهم ، وهذه الحالة تورث الخزى فى الدنيا بتفريق الجامعة ووقوعها فى سلطان من يسومهم الخسف « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » ولنتل عليك الآية الآن وهى (واذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لاتعبدون الا الله وبالوالدين احسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فهذه الصفات الثمانية اشارة الى الدرجة الأولى فى الأمة ورفعة مكانتها بالتوحيد والاعتقاد والمحبة بين الأفراد وتوجه القلوب إلى ربهم بالعبادات والعطف على أبناء قومهم والشفقة والرحمة بهم ، ثم أعقبه بقوله (ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون واذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايسفك بعضكم دماء بعض ولايخرج فريق الآخر (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) وهذه إشارة إلى الدرجة الثانية ثم أعقبها بذكر الحالة الثالثة وهى تفريق الجامعة بعد ذهاب العواطف القومية ودثور النظامات الدستورية والأحكام العادلة فقال (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) ألا وان اختلال الأعمال الناشىء من تفرّق القلوب موجب لوقوع الأمة فى سيطرة غيرها وهو بلا ريب موجب للخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة مع أنه من تمام نظام الحياة الدنيا إذ لايجوز أن تبقى الحكومة أمدا طويلا على الظلم والتخبط فى الأحكام ، إذ للناس رب أراد بقاءهم إلى أجل مسمى ، فمن لم يقوموا بما عهد إليهم من الملك وتركوا الناس يبغى بعضهم على بعض قيض الله لهم من يزيل الظالمين ويعدل بين الناس مهما كان دينهم « ان ربى على صراط مستقيم » فمثل الأمة الجاهلة بتدبير شؤونها كمثل الدواب التى لاعلم لها بنظام نفوسها ، فسخر الله لها الانسان العاقل فقام بأمرها ، ولما كانت تلك سنة الله فى خلقه ومقتضى نظامه وطبيعة عمرانه أردف ماتقدم بقوله (فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردّون الى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما تعملون ، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينصرون) ومحصل ذلك أنهم عملوا ببعض الكتاب وهو فك الأسرى من اخوانهم وتركوا البعض الآخر : وهو النهى عن القتل والمظاهرة والاخراج من الديار ، وهذه كانت حال طائفتين من اليهود ، وهم بنو قريظة والنضير وكانوا حلفاء الأنصار فى المدينة وهم الأوس والخزرج فكانت قريظة حليفة الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه فيقتلون معهم اخوانهم ويخرجونهم من ديارهم ويعينونهم عليهم ظلما وعدوانا ثم يفدون الأسرى بعد ذلك فتناقضت أفعالهم فقد آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فكان جزاؤهم ماقصه الله تعالى ، وليس ذلك خاصا بأمة اليهود ، بل هو مقتضى نظام الكون وليس أمرا من الخوارق .

صفة حكام الأمم الظالمة وعلمائها

وصف الله حكامها وعلماءها بأخذ الرشوة والاتكال على الله فى غفران الذنوب اتكال جهالنا اليوم على الله بأن يحسن حالهم ويأتى لهم برزقهم رغدا من كل مكان ، وتقوم جامعتهم ، وهم نائمون حيث قال « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه » الآية وصفهم بالاتكال على المغفرة بالتوبة ومخالفة عهد الكتاب .

وصف حربهم

قال الله تعالى « لايقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أومن وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا

وقلوبهم

وقلوبهم شتى » وصفهم بتفرق القلوب فلايعزون لعدوّ يقاتلونه حتى يدهمهم فى أماكنهم ، وهم لبعضهم مبغضون وذكر سببه ، فقال « ذلك بأنهم قوم لايعقلون » والمراد به العقل العملى لاالنظرى المراد عند ذكر خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

الصفة العامة بعد الانحلال

قال الله تعالى « وإذ تأذن ربك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » ومن العجيب أن أمة اليهود المرادة بهذه الآية لم يبق لها شوكة ، ولا ملك فى الأرض بعد ذكر هذه الآية فى القرآن ، وهذا الأمر ظاهر لمن عرف الأحوال الحاضرة والغابرة ، فهذه نبذة يسيرة ذكرناها تبصرة للقرّاء وذكرى لقوم يتطلعون فى شريعتهم ، ولتعلموا أيها المسلمون أن هذه القصص لم تذكر فى القرآن لنا إلا تذكرة واعتبارا لامجرّد حكاية كما يظنه الأغبياء ، وهذا الجمال تفصله العقول وتوضحه النقول « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

وازن ماسمعت فى الآيات بما ترى من أحوال المسلمين اليوم اذ غلبت على العقول ترهات وخرافات تلقفها الناس ، وكيف يسندون ظلمهم للقضاء و يتكلون على الغفران ، وهل ذلك الا كقيل اليهود أذاع ساداتهم فيما بينهم أن مدّة العذاب أربعون فظلوا للشرور يسارعون ، هكذا عبد المسلمون اليوم الأوهام فنسوا أنفسهم فحاق بهم العذاب الهون ، وقرءوا القرآن وهم لايعقلون ، ووقفوا من العلم على قشوره وعدموا الحكمة ونبذوا علم الكائنات فى الأرض والسموات فسبقهم الغربيون ، وهم متقاطعون فحلّ عذاب الخزى بهم فى الحياة وما أشدّ عذاب الممات ، ولما أبان هلاك بنى إسرائيل ، وقد حاق بهم الخزى فى الحياة الدنيا أخذ يبين أسباب حلول العذاب بهم تفصيلا ويحذر المسلمين من اتباع خطواتهم ، فقال :

(الجوهرة الخامسة ، وفيها عشر زبرجدات)

« الزبرجدة الأولى »

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ * بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (وقفينا) أتبعنا (من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البينات) المعجزات الواضحة (وأيدناه بروح القدس) أى الروح المقدسة ، قيل جبريل أو الانجيل (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى) بما لاتحب (أنفسكم استكبرتم) تعظمتم عن قبوله (ففريقا كذبتم) كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (وفريقا تقتلون) كزكريا ويحيى (وقالوا قلوبنا غلف) جمع أغلف ، مغطاة بأغطية (بل لعنهم الله بكفرهم) خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم لقبول الحق (فقليلا مايؤمنون) أى إيمانا قليلا يؤمنون ، وما زائدة للمبالغة ، ويجوز أن تكون القلة بمعنى العدم (ولما جاءهم) أى اليهود (كتاب من عند الله) القرآن (مصدق لما معهم) من كتابهم (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يستنصرون على المشركين اذا قاتلوهم ، وكانوا يقولون : « اللهم انصرنا بالنبيّ الذى يبعث فى آخر الزمان ، ونجد نعته فى التوراة » (فلما جاءهم ماعرفوا) من الحق (كفروا به) حسدا وخوفا على الرئاسة (فلعنة الله على الكافرين) أى عليهم (بئسما اشتروا به أنفسهم) أى بئس شيئا باعوا به أنفسهم ، فلفظ ما تمييز لفاعل بئس المستتر ، وجملة اشتروا صفة له ، وقوله (أن يكفروا بما أنزل الله) هو المخصوص بالذم (بغيا) طلبا لما ليس لهم وحسدا (أن ينزل الله) أى لأن ينزل أى حسدا على ذلك (من فضله) وهو الوحى (على من يشاء من عباده) على من اختاره للرسالة (فباءوا بغضب) لكفرهم بمحمد (على غضب) لكفرهم بعيسى (وللكافرين عذاب مهين) يهانون به (واذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله) أى بالقرآن (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) وهو التوراة (ويكفرون بما وراءه) أى بما سواه من الكتب (وهو الحق) أى القرآن (مصدقا) موافقا بالتوحيد (لما معهم) من الكتاب (قل) لهم يامحمد (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين) أى اذا كنتم آمنتم بالتوراة فكيف قتلتم الأنبياء من قبل ؟ وهل هذا مقتضى الايمان بها . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

أخذ الله عزّ وجل فى تعذيبهم وتخويفهم ، والتنديد عليهم ، والتشنيع بأفعالهم ، إذ قتلوا المصلحين من النبيين ، فان كانت نصيحة نبذوها ، أوفضيلة تركوها ، فكم من نبيّ كذبوه كعيسى ، وكم من نبيّ قتلوه كزكريا ويحيى عليهم السلام ، وهاهم أولاء أخذوا يكذبونه صلى الله عليه وسلم ، ولعمرك ان تسعد أمة إلا أن تأخذ بيد مصلحيها ، وتعظم مرشديها ، فياحسرة عليهم اذا أهملتهم وشؤونهم ، والويل كل الويل لها ان ناصبتهم العداوة ، وراشت سهام الحرب لنزالهم ، وضيقت سبل العمل عليهم ، فما بالك اذا جرعتهم كأس المنون كما فعل اليهود إلا أن الميزان الصالح ومعيار الأمة أن تنظر فى تقديرها للمرشدين ، فان رأيتهم لهم مكرمين ، وعلى اتباع ارشادهم مكبين ، فاعلم أنها سائرة للعلاء ، متقدمة الى الأمام ، ساعية الى الفلاح ، وان كان الآخر والعياذ بالله فهناك الدمار ، ولكنى أرى فى أمة الاسلام اليوم نزعة شريفة ، ونفوسا عالية ، وعقولا راقية ، وفى ظنى أنهم سيستردّون مجدهم ، ويرفعون ذكرهم ، وما شهدت إلا بما علمت ، لما أرى من اقبالهم على الحكمة واجلالهم للمصلحين ، وأخذهم بالتى هى أحسن ، ألا وانى أفخر بأمتى ، وأفرح بشعبى ، وأعلن على رءوس الأشهاد أن السعادة قادمة عليهم ، والفلاح ناشر رايته اليهم ، فلقد بدأ الاصلاح ، وسينتهى الى غايته ، ويصل الى كماله ونهايته ، رغما عما بدا من سحابة الغرور والشرور ، وستنقشع السحابة ، وترجع الأمة الى العناية والسعادة اهـ

« الزبرجدة الثانية »

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ولقد جاءكم موسى بالبينات) الآيات الواضحات : منها قلب العصا حية (ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون) أى عبدتموه بعد ذهاب موسى الى الطور ، فآباؤكم كانوا يكفرون بموسى وأنتم تكفرون بمحمد صلى الله عليه وسلم (وإذ أخذنا ميثاقكم) إقراركم (ورفعنا فوقكم الطور) هددهم بأن يقع عليهم الطور إذ رفعه فوق رءوسهم إن لم يقبلوا التوراة ، وقلنا (خذوا ما آتيناكم بقوة) أى خذوا ما أمرتم به فى التوراة بجد وعزيمة (واسمعوا) سماع طاعة (قالوا سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (وأشربوا فى قلوبهم العجل) أى تداخلهم حبه والحرص على عبادته كما يتداخل الصبغ الثوب والشراب أعماق البدن (بكفرهم) بسبب كفرهم (قل بئسما يأمركم به إيمانكم) بالتوراة ، وهل فى التوراة عبادة العجل ؟ (ان كنتم مؤمنين) تشكيك فى إيمانهم وقدح فى صحة دعواهم : انتهى التفسير اللفظى .

هذه الرذيلة سبق ذكرها وأعيد تقريعا وتوبيخا ، ليرشد أمة الاسلام ألا تفكر بعقول غيرها ، ولا تنظر بعيون أعدائها كما فكر اليهود فى العجل بعقول قدماء المصريين إلا أنهم ضلوا إذ أمرهم علماؤهم بتقديس العجول لبقاء نسلها تنمية للزرع ، وانتفاعا بالحرث ، فغلوا فى دينهم ، وطغوا فى غلوهم ، وعبدوا ما كانوا احترموا فقلدهم بنو اسرائيل فيما جهلوا وان كانوا لهم أعداء ، هكذا حال المصريين اليوم على الضد من القدماء ، إذ جهلوا أمر الحيوان النافع للزراعة ، فساءت الحال ، وجاء الوبال ، وعم الدمار ، فقتلوا الطير المسمى أباقردان آكل الدود والحشرات ، مبيد الأذى ، مغيث الزرع من الفاتكات ، فجهل المصريون اليوم بالتفريط والاهمال كما أهمل أسلافهم بالتغالى والاسترسال ، فضل الفريقان ، وأهين الأولون والآخرون ، فأولئك بالوهم الذى أضلهم فى واقعة قبيح ، وهؤلاء بعموم الدودة فى هذه الأيام . اللهم إنى أضرع اليك أن ترجع العلم لبلادى ، وتردهم الى الهدى ، وتبعد عنهم عاديات الدمار انك أنت الحليم الرحيم ، ولا تجعلهم كاليهود ، وعلمهم يارب أن الحيوان مكرم مصون ، وأن الطير فى الجو يحوزه الشجر فليغرسوه ، وليحفظوا الطير ولا يقتلوه .

واعلم أنى كتبت هذا التفسير كما قدمت فى أول الكتاب وأنا مدرس بدار العلوم فى نحو سنة ١٩١١ م ومن عجيب صنع الله عز وجل أنى فى تلك السنوات كتبت فى مجلة [الملاجئ العباسية] التى كانت تنشر هذا التفسير مقالا مطولا فى اجمال تفسير سورة يوسف ، قلت فيها ان الفراعنة كانوا أغزر علما من حكام مصر ، ومن علماء أوروبا الذين يحكم رجالهم بلادنا ، فشرحت من رؤيا الملك سبع بقرات سمان وسبع سنبلات اهتمامه بالزراعة ، وعطفت على مسألة الطيور ، ونبهت الحكومة والأمة ، فصدر الأمر عقبها سنة ١٩١٢ م بمنع صيد الطيور النافعة ، ومن أهمها [أبوقردان] المذكور ، وهاأناذا أكتب تمام التفسير الآن سنة ١٩٢٢ م للطبع ، وقد رأيت بعينى رأسى أن الحكومة قد ربت [أباقردان] وانتشر فى البلاد المصرية انتشارا كما كان سابقا ، فأحمد الله عز وجل على هذه النعمة وعلى حفظ الطيور ببركة الآيات القرآنية وآثارها فى النفوس ، وحرام على من

عنده نصيحة أن يمسكها جبنا عن الجمهور فانها لابدّ نافعة عاجلا أو آجلا ، وإن شاء الله إذا طال الأجل ووصلت إلى سورة يوسف أثبت تلك المقالات هناك اهـ

أقول : هاهوذا التفسير الآن يطبع وبعد طبعه سنة ١٩٣٢ وأذكر الآن نعمة الله عزّ وجل فأقول اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا فانك أنعمت علىّ بأن حييت حتى فسرت سورة يوسف وما بعدها ، وشرحت مسألة الطيور المذكورة ، ورسمت صورها هناك بوضوح وشرح وتفصيل ، وهذه علامة أن لهذا التفسير عناية إلهية ، والحمد لله رب العالمين .

« الزبرجدة الثالثة »

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *

التفسير اللفظى

يقول الله تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة) خاصة بكم كما قلتم « لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » (من دون الناس) سائرهم أو المسلمين (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين) لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاقها وأحبّ التخلص إليها (ولن يتمنوه أبدا بما قدّمت أيديهم) من موجبات النار كالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وتحريف التوراة (والله عليم بالظالمين) تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون فى دعوى ماليس لهم (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى والله لتجدنّ يامحمد اليهود أحرص الناس على بقائهم فى الدنيا (و) أحرص (من الذين أشركوا) وهؤلاء لايؤمنون باليوم الآخر فكيف كان اليهود أحرص منهم على حياة غير باقية ، ثم استأنف ليصف حال المشركين الذين زاد عليهم اليهود فى الحرص على الحياة الدنيا فقال (يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة) أى يودّ أحد المشركين تعمير ألف سنة لافرق فى ذلك بين مشركى العرب و بين المجوس ، وقد اعتاد هؤلاء أن يقولوا فى تحياتهم : عش ألف نيروز ، أو ألف مهرجان (وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر) أى وما أحدهم بالذى يزحزحه من النار تعميره (والله بصير بما يعملون) لايخفى عليه خافية من أحوالهم . انتهى التفسير اللفظى

يقول تعالى : من أيقن بالسعادة فى ميعاده فما أحراه أن يلوى له العنان ، ويجدّ فى السعى لحصول المراد ، ويفند الدنيا ، ويحرص على الأخرى ، وأنتم أيها اليهود أحرص الناس على الحياة ، بل أنتم أحرص من المشركين وهم العرب والمجوس ، وكيف يطلب الآخرة من يتمنى عمرا طويلا ، ألا وإن الحياة الآخرة أسها الحب وعمادها الشوق ، وسقفها الرحمة ، وأىّ محبوب بعد مفارقة المادة إلا الله والملائكة والصدّيقون ، وأنتم تكرهون النفوس المجرّدة وهى :

« الزبرجدة الرابعة »

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى : (قل من كان عدوّا لجبريل فانه) أى جبريل (نزّله) أى القرآن (على قلبك) يامحمد (بإذن الله) بأمره (مصدّقا لما بين يديه وهدى) من الضلالة (وبشرى للمؤمنين) بالجنة ، واذا كانت هذه حال جبريل ، إذن ليس هو الذى ينزل بالحرب والشدة كما تقول اليهود ، فن يعاديه يكون عدوّا لله ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى (من كان عدوّا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال) أى ولجبريل ولميكال (فان الله عدوّ للكافرين) أى لهم . انتهى التفسير اللفظى

الايضاح وبيان السبب

دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدارس اليهود يوما فسألهم عن جبريل ؟ فقالوا ذاك عدوّنا ، يطلع محمدا على أسرارنا ، وانه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلام ، فقال : وما منزلتهما من الله ؟ قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، وبينهما عداوة ، فقال : لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوّين ، ولأنتم أكفر من الحمير ، ومن كان عدوّ أحدهما فهو عدوّ الآخر والله ، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحى ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد وافقك ربك ياعمر ، هذا ولاجرم أن بين الملائكة والأنبياء صلة ووددا ، فلم يكن الكفر قاصرا على الملأ الأعلى ، واذا كفروا وتعدّوا الطور فى أولئك الذين اصطفاهم رسلا بينه وبين أنبيائه فما أحراهم بالكفر بمن هم بشر مثلهم ، وذلك فى الزبرجدات ٥ و ٦ و ٧ :

« الزبرجدات : الخامسة ، والسادسة ، والسابعة »

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ولقد أنزلنا إليك) يامحمد (آيات بينات) واضحات (وما يكفر بها) يجحدها (إلا الفاسقون) المتمرّدون من الكفرة (أ) كفروا بالآيات (وكلما عاهدوا عهدا نبذه) نقضه ورفضه (فريق منهم) لأن منهم من لم ينقض ، واليهود عهود كثيرة مأخوذة عليهم فى كتابهم ، ومنها الايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وقد كانوا يقولون : قد أظلّ زمان نبىّ مبعوث وانه فى كتابنا (بل أكثرهم لايؤمنون) أى كفر فريق منهم بنقض العهد ، وفريق منهم بالجحد للحق (ولما جاءهم رسول من عند الله) وهو محمد صلى الله عليه وسلم (مصدّق لما معهم) مصدّق بصحة التوراة (نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب) اليهود (كتاب الله) التوراة وهى مبشرة بمحمد صلى الله عليه وسلم (وراء ظهورهم) خلف ظهورهم لم يؤمنوا بما فيه من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ولم يبينوا (كأنهم) جهلاء (لايعلمون) أنه كتاب الله ، واكتفوا من الايمان بالتوراة بأنهم يقرءونها ولايعملون بما فيها ، ويحلونها بالذهب ، كما يكتفى كثير من جهلة المسلمين فى زماننا بالتعظيم الظاهر للقرآن ، والتلاوة بغير تدبر ، وقوله تعالى : « واتبعوا ماتتلوا الشياطين » أى نبذ اليهود كتاب الله واتبعوا كتب السحر والشعوذة التى كانت تقرؤها (على ملك سليمان) على عهد ملكه وفى زمانه ، وذلك أن الكهنة كانوا يدوّنون مايقذف فى قلوبهم من الأمانى التى تلقيها إليهم الشياطين ، وفشا ذلك فى زمن سليمان عليه السلام ، وقالوا : ان الجنّ تعلم الغيب ، بل قالوا فوق ذلك : ان سليمان ماتمّ ملكه إلا بعلم السحر ، وبه سخر الجنّ والانس والريح ، وهذه المقالة اليوم لاتزال شائعة فى بلاد الاسلام ، وقد نقلت كتب الأمم من الصابئين واليهود وغيرهم ، ومزجت بالآيات القرآنية ، وملأت أصقاع بلاد الاسلام كما فعله البونى وغيره من الأوفاق وغيرها فتقهقرت الأمة وهذا أوان نهوضها (وما كفر سليمان) تكذيب لمن زعم ذلك (ولكنّ الشياطين كفروا) باستعماله حال كونهم (يعلمون الناس السحر) قاصدين اغواءهم واضلالهم (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) عطف على ما كفر سليمان أى لم يكفر سليمان باعتقاد السحر والعمل به ولم ينزل على الملكين المذكورين اللذين حكاهما اليهود ، والملكان رجلان صالحان كانا يعلمان الناس السحر كما تدرس الأمم اليوم فى المدارس أنواع السم فى مدارس الطب ، والتنويم المغناطيسى ، وأنواع الغازات المهلكات اتقاء لشرّها ، وحفظا لكيان الأفراد والأمم (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة) يقولان نحن ابتلاء من الله ومحنة (فلا تكفر) أى لاتتعلم السحر لأجل أن تعمل به ، كما تفعل الآن علماء الدول والعلماء إذ يمنعون من يتعلمون عقاقير السم وغيرها من إيذاء النوع الانسانى كما سيأتى قريبا إيضاحه . يقول الله : إن السحر لم ينزل على هذين الرجلين الصالحين ، فهما كانا يعلمان الناس السحر ويحذرانهم من استعماله اتقاء لشرّه ، ولكن هؤلاء المتعلمون كانوا لايعملون بالنصائح (فيتعلمون منهما مايفرّقون به بين المرء وزوجه) فان من السحر ما يكون سبب تفريقهما ، وهو ماسيأتى شرحه قريبا (وماهم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله) وفى زماننا يحصل ذلك بالتنويم المغناطيسى كما ستراه فى الشرح (ويتعلمون

مايضرّهم) بالعمل به (ولاينفعهم) من حيث الاقتصار به على دفع الأذى عن الناس كما يفعل الطبيب الصالح من ابعاد العقاقير السمية عن الناس بسبب علمه بها (ولقد علموا) أى اليهود (لمن اشتراه) استبدل ماتتلو الشياطين بكتاب الله كما يفعل من يقرأ علم الأوفاق والطلاسم فى كتاب [شمس المعارف الكبرى] البونى وغيره (ماله فى الآخرة من خلاق) نصيب (ولو أنهم آمنوا) بالرسول والكتاب (واتقوا) بترك المعاصى (لمثوبة من عند الله خير) جواب لو أى لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرا مما شروا به أنفسهم ، لحذف الفعل وركب الباقى جملة (لوكانوايعلمون) يصدّقون بثواب الله ولكن لايعلمون ولايصدّقون . انتهى التفسيراللفظى

إيضاح

من اقتصرعلى التفسيراللفظى فبها ، ومن أراد المزيد فليقرأ هذا الايضاح فانه أوسع مجالا ، وهو : يقول تعالى كما كفروا بالملائكة كفروا بالأنبياء ، فلم يؤمنوا بمحمد ولا بعيسى ، وان عاهدوا نقضوا ، وان وعدوا غدروا وحوّلوا العقول عن فطرتها ، وأخذوا فى الخرافات ورجعوا للترّهات ، ونبذوا علم الحقائق وفهم الدقائق وصدقوا ما أذاعته الشياطين عن ملك سليمان ، وانه ماعظم إلا بالسحر ولا علم إلا بالعزائم والأباطيل ، وانما كفرت الشياطين كهاروت وماروت بجعلهما بدلا من الشياطين على رأى ، فهما اللذان علما الناس السحر ، وما أنزلناه على الملكين ان الملائكة منزهون عن الذنوب مبرءون من العيوب على أن هذين نصحا الأمة ، فقالا للمتعلمين إنمانحن فتنة فلاتكفروا ، وحاشا أن يكون سليمان مضلاللناس وهونبيّ كريم ، فاتبع اليهود ماتلت الشياطين من الانس والجنّ على عهد ملك سليمان من الافك والسحر ، وأضلوا ونسبوها له وهو مبرأ من العيوب والاضلال والذنوب ، وانما الشياطين هاروت وماروت وغيرهما هم الكافرون ، لأنهم يعلمون الناس السحر ، وليس من الملائكة مضلون ، فسليمان والملائكة مبرءون ، وهاروت وماروت مضلان إذ يضلان الناس ابتلاء وامتحانا من الله ، فأخذ اليهود يشيعون الأحاديث الملفقة ونبذوا الوحى والدين كما يفعل المسلمون اليوم ، فانهم لايزالون يقرءون العلوم السحرية ويخضعون للدجالين الغاوين الكذابين الذين يدعون أنهم يفتحون الكنوز و يستخرجون الذهب من العناصر ، وقد خلط السحرة القرآن بالعزائم فضل المتعلمون سواء السبيل فى هذه الأمة كما ضلّ اليهود من قبلهم كذلك تراهم يقولون خاتم سليمان عليه السلام و ينسبون له ولد انيال وأرمياء وعلىّ بن أبى طالب ماليس لهم به علم فاستخفت الأمة للأباطيل واستوثق النصر للعدوّ المبين عليها جزاء بما كانوا يجهلون ، فأما ماحكى اليهود من أن الملائكة حقروا بنى آدم وأمرهم الله أن يختاروا اثنين ليكونا كبنى آدم فى الصورة . فكان هاروت وماروت ونزلا من السماء وقضيا بين الناس وأضلتهما امرأة وعرفت منهما الاسم الأعظم ، وصارت نجمة الزهرة وعذبا فى مدينة بابل إلى يوم القيامة ، وهما يعلمان الناس السحر ، فهذا خرافة وكيف تحمل الآية عليها ؟ ومقصود القرآن الكريم أن الأمم حين تتدهور فى الهاوية ترجع عقولها القهقرى وتأخذ فى الدين إلى الوراء وتتبع ماتملى عليهم الشياطين من الانس والجنّ ، فيكون الأستاذ هو الوسواس ، والدجال هو الفقيه ويذرون العلم والعلماء والدين والأنبياء ، ألم تر الى حكم سليمان فلننقل لك منها لتعلم قول الله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) الخ .

قال فى التوراة فى سفر الأمثال فى الاصحاح الثالث : طوبى للانسان الذى يجد الحكمة وللرجل الذى ينال الفهم لأن تجارتها خير من تجارة الفضة وربحها خير من الذهب الخالص هى أثمن من اللآلئ وكل جواهرك لاتساويها ، ثم قال هى شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط .

الربّ بالحكمة أسس الأرض وأثبت السموات بالفهم بعلمه أنشقت اللجج وتقطر السحاب ندى .

ومنها لاتمنع الخير عن أهله حين يكون فى طاقة يدك أن تفعله ، ومنها اذهب إلى النملة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيما ، ومنها الى متى تنام أيها الكسلان .

الرجل اللئيم الرجل الأثيم : يسعى باعوجاج الفم يغمز بعينه يقول برجليه يشير بأصابعه فى قلبه أكاذيب يخترع الشر فى كل حين يزرع خصومات لأجل ذلك بغتة تفاجئه بليته يكسر ولاشفاء .

وقال ليمدحك الغريب لافمك الأجنبي لاشفتاك ، وقال لاتفتخر بالغد لأنك لاتعلم ماذا يلده يوم ، وقال أيضا فى الجامعة باطل الأباطيل الكل باطل ماالفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يجىء ، والأرض قائمة الى الأبد ، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق الخ ، وهذه كلها حكم دائرة على الزهد فى الدنيا واحتقارها واليأس منها . ومن هذه أخذ عمر الخيام رباعياته المشهورة فى أمريكا وأوروبا ، وترجمت حديثا الى اللغة العربية ، وهكذا أيضا أشعار أبى العلاء كلها تزهيد فى الدنيا كما فى الجامعة المذكورة لسيدنا سليمان عليه السلام ، فان شئت فاقرأها فى نفس التوراة نحو ١٢ صفحة اهـ .

فوازن رعاك الله هذه الحكم البديعة والأمثال العجيبة التى أبرزها النبى سليمان عليه السلام ، وهى تتلى فى التوراة الى يومنا هذا بما نسبه له اليهود من السحر ، وهو صفة العاجزين ، فهذه بعض أمثاله ، وهى طرق حكمه ، ومنها نعرف قوله تعالى (ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون . ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) فاقرأ وتعجب وقايس حال المسلمين اليوم بحال اليهود زمن النبوة ، وكيف أصبح المسلمون كثيرى العدد قليلى الحكمة يأمر القرآن بحوز وفهم الحكمة والنظر فى العوالم ونظام المدن واعلاء شأن الزراعة والتجارة والصناعة كما تشير اليه سورة سبأ ، وترى كثيرا من الذين يقرءون الدين يجهلون نظام العالم وحكمة الله ، كأنهم لايعلمون وسطا المحتالون من المغاربة والساحرين على عقول المترفين ، فأصبحوا لايرى إلا ما سنهم ، وهل أتاك حديث المغربى الذى ذهب إلى بلدة العصلوجى قرب بلدة الزقازيق ، وقال لرجل هناك إنى أجعل القطعة من الذهب أضعافها ، فجمع الرجل حلى النساء وأسلمه له ، فأعطاه عمودا مطليا بالذهب ، فلما حكه وجده نحاسا فسقط فى يده وضاعت ثروته ، وهى تساوى ألف جنيه أو تزيد ، وآخرون يدعون احضار الجان و يضحكون على الأذقان و يغرون النسوان بحيل دبروها ، ومكايد نصبوها ، وأشراك وضعوها ، ذلك والله عرفناه ورأيناه . فى كتبهم قرأناه : اللهم أزل الجهل عن هذه الأمة ، واكشف الغطاء عن أبصارها ، وأنر بالعلم بصائرها إنك أنت الرحيم الغفور .

اعلم أنى بعد ما كتبت ماتقدم فى تفسير الآية ظهر لى وجه وهو مختار عند أفاضل المفسرين فيقال : واتبع اليهود ماتلت الشياطين من الانس افتراء على ملك سليمان وعلى ماأنزل من السحر على الملكين ببابل هاروت وماروت .

أما سليمان فانهم نسبوا إليه أمورا سحرية هو منها براء ، وقالوا ما كان ملكه إلا بسببها ترويجا لدعواهم فبرأه الله مما قالوا ، فقال (وما كفر سليمان) بعمل السحر ، وإنما هم المفترون عليه بعمل السحر ، وهم الكافرون ، وذلك قوله « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر » ، وأما افتراؤهم على ماأنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت ، فذلك أنهما نزلا فى صورة رجلين ليعلما الناس السحر تفريقا بينه وبين المعجزة كما يتعلم رجال الجيش اليوم المواد الخانقة والمعمية وغيرها و يؤمرون بكتمها دفاعا عن حوزتهم وعظمة دولهم ولايطلع عليها عامة الشعب ، وهكذا المواد السمية يتعلمها الأطباء ، ولكن يحرم عليهم استعمالها أو اعطاؤها لأحد من الناس إلا فى أحوال خاصة . قال الشاعر :

عرف الشرّ لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشرّ * من الناس يقع فيه

فاذا أخذا يعلمان السحر الذى أنزل عليهما حتى إذا جاء ساحر وادّعى النبوّة عارضوه وكذبوه ، ولذلك كان هذان الملكان يقولان للمتعلمين إنما نحن فتنة واختبار لكم لننظر أفى الخير أم فى الشرّ تستعملون السحر ، وذلك مثل جميع النعم الواردة على البشر ، فانها صالحة للخير والشرّ ، كالقوّة والجمال والمال والولد والعلم والملك والحكم بين الناس ، كلّ هؤلاء مبتلون ومختبرون آلخير يصنعون أم الشرّ ؟ ولكن السحر المذكور أشدّ فتنة ، فأما اليهود فانهم أخذوا بشرّ الأمرين (فيتعلمون منهما مايفرّقون به بين المرء وزوجه) وذلك بنوع من التضليل والتلبيس ، وهو تعليق القلب ، فيدّعى الكاذب أنه عرف اسم الله الأعظم ، وأن الجنّ يطيعونه وينقادون إليه فى أكثر الأمور ، فاذا كان السامع ضعيف العقل قليل التمييز والقوى الحساسة ، تمكن ذلك الكذاب منه ، فأظلم بصيرته وأيقظ خياله وغفلته والتعلق بحبال الحيال والخبال ، فخدّر أعصابه وأحدث فى نفسه نوعا من الاستهواء ، وهو أشبه بالتنويم المغناطيسى :

ولقد ظهر هذا النوع بأجلى مظاهره فى ذلك التنويم فى عصرنا حتى أن الأمم الغربية حرّمت العمل به إلا فى الأعمال الجراحية ، فانهم رأوا أن الاستهواء وأخذ الألباب قد كثر فى ديارهم ، فاذا قال المنوم للنوم بالفتح بعد استيقاظك بثلاث ساعات مثلا أقتل فلانا ، فانه لابدّ فاعل ذلك ، وهكذا إذا قال لامرأة كونى مى بعد كذا وكذا ، فانها لاتعصى القائل أصلا ، وهى لاتدرى من أين جاء لها هذا الغرام ولاتعلم من الذى أوحى اليها بذلك ، ولما كان المؤثر والمتأثر خاضعين لله قال الله (وماهم بضارّين به من أحد إلا باذن الله ويتعلمون مايضرّهم ولاينفعهم) .

إيضاح الكلام على السحر

لقد ذكرت لك أن السحر المذكور كان من نوع تعليق القلب ، وانه من أنواع التنويم المغناطيسى ، وأقول الآن انى رأيت هذه الأعمال فى المراسح العامة إذ كان المنوّم يوحى إلى المنوّم بالفتح بما يشاء فلا يجد الاطاعة عمياء ، فاذا أعطاه السكر وقال هو علقم لفظه من فيه لشدّة تأثر حاسة الذوق من البشاعة ، واذا أعطاه الحنظل ، وقال هذا سكر استمرأه واستحلاه ، وهكذا تراه قد ملك عليه سمعه وبصره ، ونحن نشاهد ذلك عيانا ، وكان يقول للرجل أنت امرأة راقصة فيرقص رقصها ويقول له أنت ملك ، فيفعل فعل الملوك ، وذلك اليوم شائع ذائع فى أوروبا ، ووصل الينا فى الشرق بعضه ، وهذا الذى ذكرته بعض ماوصل ، وكان فى تلك المجالس أطباء يمتحنون المنوّمين بالفتح لينظروا أهم نائمون ؟ فكانوا يشهدون بنومهم على مقتضى حركات النبض ، وهكذا كان معنا العلماء وكبار الأمة وعظماؤها وأمراؤها ومهندسوها وأنا أشاهد ذلك بنفسى ثم ان فى هذا العلم غرائب فوق هذا حتى أن الطبيب قد ينيم المريض ويعمل فيه أكبر عملية جراحية ويستيقظ ذلك المريض وكأنه شخص آخر ويساعد الطبيب وهو لايعلم أنه هو نفسه : يساعد فى تقطيع لحمه وجرحه بالسكين ، وهناك غرائب تجاوزنا عن ذكرها ، وبحار من العلم واسعة لاسبيل الى ذكرها هنا ، وانما الذى يهمنا فى تفسير الآية أن نقول : يجب على الحكومات الاسلامية وجوبا شرعيا أن تأمر طائفة من الأطباء بتعلم هذا الفن من التنويم كما فعل هاروت وماروت اللذان قصدا التفرقة بين السحر والمعجزة ، والا لادّعى الكذابون النبوّة وأتوا بشرائع فاجرة خاطئة ، ولقد بلغنا أن علم الكلدانيين قد عثر عليه الأمريكيون فى تلك البنايات المطمورة فى بابل ونينوى وفى آثار الآشوريين والبابليين فانتشر هذا العلم كرة أخرى فى الشرق والغرب ، ولولا

أن الأمم اليوم مستيقظة لادّعت طائفة ممن يمارسون هذه العلوم النبوّة ، ولكنهم اقتصروا على مايدعونه من الاخبار بالحوادث ، وعلى أمور أخرى لانطيل بذكرها وفيها الضرّ والنفع ، فوجب أن تقوم طائفة لدرء المفاسد التي يلقيها هذا العلم على الناس ، وهذا هو السرّ في ذكر هذه الآية في القرآن قبيل ألفا وثلثمائة سنة لتكون تذكرة للناس وليحترسوا من الوقوع في شرك المضارّ الناجمة من تلك العلوم ، وتعليمها فرض كفاية كما في سائر الصناعات والعلوم ، ومنها الصناعات الحربية والعلوم جميعها ، ويحرم على من تعلم هذا العلم أن يستعمله الا فيما فيه الخير للأمة .

ولقد حصل في هذه الأيام أثناء تأليف هذا التفسير أن طبيبا في مصر استهوى فتاة يهودية فقيرة ونوّمها تنويما مغناطيسيا ، وصار يسأل هذه الجاهلة الأمّية الصغيرة الخادمة في حال ذلك النوم عن أمراض المرضى والعلاج الناجع ، فكانت تجيبه بأجوبة تامّة ، فكان هو يعمل بها ويداوي المرضى ، وأراحته من النصب والتعب في البحث والتنقيب في الكتب الطبية ، ثم ان نفسه الخبيثة سوّلت له أن يهتك سترها فطاوعها ، ثم افتضح أمره ، وانكشف سره ، وفشا خبره ، والبنت غافلة لاتعلم شيئا لأنه كان في حال النوم يوحي إليها أن الفاعل الظالم إنما هم الجنّ ، وليس هذا من فعل الآدميين ، ورفع الأمر أهلها إلى الحكومة المصرية ، فأمرت الحكومة الطبيب المصري ، فنوّم الفتاة وجاء القضاة والأمراء ، وكذلك المفتشون من الانجليز ، وأخذوا يمتحنون الفتاة وهي نائمة ، فيقول أحدهم ما الذي في يدي ؟ فتقول كذا وكذا ، ويقول الثاني من أنا ؟ فتقول أنت المفتش وفي كيسك كذا وفي يدك كذا ، وهكذا : فلما علموا صدق أخبارها وثقوا بما تقول ، فأخذت تقص قصص الطبيب معها ، وفسقه وفجوره وحيله ، وهي نائمة ، فحكموا عليه بالفسق ، وعاقبوه عقاب المجرمين .

وقد ألف الطبيب المذكور في هذه الحادثة كتابا منتشرا بين الناس اليوم في بلادنا . ومن عجب أن الفتاة اذا استيقظت لاتعرف شيئا مما جرى وماقالته ، وترجع كما هي ساذجة غافلة .

فتعليم هذا العلم واجب كما قلنا على كل حكومة سرت إليها علوم أمريكا وأوروبا ، ليحترس بعلماء الفن من الفاسقين الذين يفرّقون بين المرء وزوجه . وهذا سرذكر هذه الآية كما قلنا ، وإلا فبنواسرائيل كما قال عمر رضى الله عنه مضى أمرهم وانقضى خبرهم ولم يبق إلا الأحياء الآن ، فاليهم يساق الحديث . ولننقل المقدمة في التنويم المغناطيسي من كتاب الأرواح الذي ألفته . قلت :

قال شبر محمد : قدعرفنا إحضار الأرواح ونريد أن نعرف التنويم المغناطيسي . فقلت : اعلم ياشبر محمد ان ذلك علم آخر يسمى السبات المغناطيسي أو التنويم ، وهو أن ينام الانسان بدرجات مختلفات لأسباب طبيعية أوكيماوية ، أو حيوية . فالأسباب الطبيعية : كالنور والصوت بأن يسمع صوتا متساوي اللحن . والسائل الكهربائي الخفيف ، والقطع الزجاجية اللامعة التي تنوّم من حدق نظره إليها ، والمؤثرات الكيماوية . هي الأثير ، والكلوروفورم ، والأزوت ، وهي تلقى آخذها في النوم وتفقده الاحساس . والمؤثرات الحيوية أخصها الارادة بأن يأمر باللسان ، أو السيال العصبي ، أو يحدق ببصره إلى الشخص المنفعل ، أو بيادئه بالاشارات والحركات المغناطيسية . هذه هي أسباب التنويم اجمالا ، أما درجات النوم فهي ثلاث .

أوّلا : أن يفقد الاحساس ويلبث شاخص العين يتلقى أوامر المنوّم ، وتلوح عليه الأمارات الدالة على قبوله لكل مايريد المنوّم بالكسر ، وفي هذه الحالة لو أدخل رجل المنوّم بالفتح في ماء مغلي ، أوقرص جسمه لم يحس كما جربه العلامة دي بوكانه في باريس لتلاميذه [وكما شاهدته هذه الليلة ليلة السبت السابع من شهر فبراير سنة ١٩٢٠ وأنا أكتب هذه القطعة عند إعادة طبع الكتاب ، فان المنوّم قدأنام في دار التمثيل العربي

شابا

شبابا ، وصار يلعب بحواسهم ، فيطعمهم الموز ، و يقول لهم هو حنظل فيلفظونه ، و يطعمهم الطماطم باسم التفاح فيستلذون طعمها ، و يسمي أحدهم باسم غير اسمه فيصدق و يتسمى به ، وقد قال لشاب أنت اسمك ليبة فأرنا رقصك ففعل وأمره أيضا بقلب النوم الصناعي طبيعيا ، ففعل وأبرز صورة الجرائم من المنومين ، وكيفية اقرارهم وما أشبه ذلك ، وكان يبكيهم تارة ويفرحهم أخرى ، و يلفق لهم تهمة ، ثم يفهمهم أنهم آثمون ظالمون فيندمون و يبكون بصوت عال الخ ولا جرم أن هذا مبدأ التنويم ، وقد صدق ظني أن بلادنا ستنال حظها من علم الأرواح ، وهذا كتابنا فيه تجارب الأمم من حيث الثمرات ، وأنا لا أشك أن العقلاء سينظرون لثمرات التنويم واحضار الأرواح لارتقاء الانسان كما نقلناه فى هذا الكتاب .

ثانيا : أن يفقد الاحساس تماما و يغلق عينيه كالحال الاولى ، ولكن تمتاز هذه أنه يسمع و يبصر و يتكلم ويجيب بمعزل عن الحواس ، و يقرأ و يكتب كما يأمره المنوم .

ثالثا : أن يحصل انخطاف روحي بأقصى درجاته ، وإذن يعرف النائم نفسه معرفة تامة ، و يصف علل جسمه والعلاجات الملائمة ، و يشاهد أفعال الناس و يسمع كلامهم عن بعد سحيق ، وينبئ عن حوادث مستقبلة ، و يتكلم بلغات شتى ، و يرى أرواح الأموات ، و يصف هيئتها ، و ينقل الى الجالسين أقوالها وهذه الدرجات الثلاثة تسمى هكذا بالترتيب :

الكاتالبسيا . اللثارجيا . السونابيلزم .

وهاك بعض الحوادث لاثبات ما تقدم .

(١) قال العلامة شاردل فى تأليفه المدعو بالمغناطيسية الحيوانية : انه نوم ابنة صحيحة البنية ، و بينما هي تلقنه وصف العلاج الذي يداوى به سألته ألا تسمع كيف يأمرني بذلك ؟ فقال لها لا أسمع أحدا ، فقالت نعم لأنك نائم وأنا يقظانة حرة ، فقال لها واعجبا لك ! أين حريتك وأنت مسخرة لارادتي . قالت له أنت تعرف ظاهر الشيء الخشن الغليظ ، أما أنا فأرمق باطنه البهي . فان نفسي منحلة من القيود مؤقتا . فأرى مالا تراه أنت وأسمع مالا تسمع أذناك ، وأدرك مالا تقوى على إدراكه ، وأرى النور يشع من أطراف أصابعك وأنت تمغطسني ، وأسمع أصواتا من بعيد جدا ، وحديث من يتكلم فى بلد آخر ، فأنا أذهب الى الأشياء ، وليست هي التي يؤتى بها إلي . وحالى الآن يقظة تحاكي يقظة الانسان بعد الموت .

المثال الثاني : وصفت فتاة كان ينومها العلامة شاردل المذكور له الحال التي كانت عليها حين نومها ، فقالت : أحس أن جسمي يتمدد شيئا فشيئا حتى أفارقه وأراه بعيدا عني باردا كجسم ميت ، وأرى نفسي كبخار وأدرك مالا أقوى على ادراكه فى اليقظة ، والنوم المغناطيسي الذي هو أقل من هذا ، وهذه الحال لا تدوم أكثر من ربع ساعة ، ثم يرجع الجسم البخاري شيئا فشيئا إلى جسمي الغليظ ، ثم أفقد الشعور .

المثال الثالث : أعمال الأكاديميا الطبية الفرنسية إذ خصصت لجنة طبية للنظر فى الحوادث المغناطيسية ولنذكر حادثة واحدة من حوادثها لتطلع يا شبر محمد على عجائب هذا السر الحكمة ، ولتكون نموذجا من أعمال تلك اللجنة فى أشهر الممالك الأوروبية .

اجتمعت اللجنة فى ٦ تشرين الأول وقت الظهر ، والمريض هو المسيو [كازو] المصاب بداء الصرع والمنوم هو المسيو [فرواساك] وجلس فرواساك فى حجرة أخرى ولم يعلم كازو أنه حضر ، وأرسلوا لفرواساك أن ينوم كازو ، وعينوا له النقطة المحاذية له فى الحجرة ، فنام كازو بعد أربع دقائق ، فسألوه عن النوبات التي ستنوبه حين منها التنبؤ بدقائقهما وساعاتهما وأيامهما ، والنوبة الأولى بعد أربع أسابيع . والثانية بعد خمسة أسابيع ، فكتبوا التقرير وأعطوه لمن ينومه ، وهو المسيو فرواساك مدونين المواعيد قصدا ، فلما نومه بعد أيام ليشفيه

من ألم الرأس أخبره بمواعيد للنوبة غير التى أخبرت اللجنة بها . فرجع الى اللجنة وأخبرهم أن التقرير الذى قدموه له محرّف . فأصروا على قولهم ، ثم تمت النوبات فى الأوقات المعينة بالضبط على مقتضى ما أخبرهم كارو فى نومه . ثم أخبر بنوبتين أخريين فى موعدين معينين حصلت احداهما فى وقتها . أما الأخرى ، فقد سقط قبل وقوعها ، وهو يهدى حصانا ونهشمت رأسه على العجلة فمات انتهى .

وقد فصل القول العلامة [هبسون] من أعضاء اللجنة المذكورة فقال ان المريض أنبأ بحوادث النوبات قبل حدوثها فلم يخطئ ، والمغناطيسية الحيوانية أصلحت حاله وأزالت عنه أوجاع الرأس ، وكان يصف العلاجات وصفا دقيقا ، وكان يقول : إن هذه النوبات تصيبه مالم ينوّمه قبل وقت حلولها ومع ذلك لم يخطر بباله أن حادثة ستصيبه فتقطع عليه حياته ، وهذه أشبه بأمر الساعة فان الانسان يعرف مقادير قطع العقارب للميناء فيحددها بالتحقيق ولكنه لايدرى متى يفاجئها كسر أوتهشيم فتقف حالا .

ذكر ماقاله القدماء فى علم السحر

نذكر هذا ليطلع القارئ على مامضى وانقضى من أنواع السحر على سبيل الرواية التاريخية ، السحر يطلق شرعا على كل ماخفى سببه ، ويتخيل على غير حقيقته ، ويجرى مجرى التمويه والخداع ، وعند الاطلاق يفيد ذم صاحبه . قال تعالى : « سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » وهو أنواع :

أوّلا : سحر الكلدانيين فى قديم الزمان ، كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنها مصادر النحس والسعد وكانوا يتوسلون إليها ، ويتقربون بالبخور والاستحمام ، وألوان الملابس المناسبة فى زعمهم لتلك الكواكب والساعات المعينة كذلك .

ثانيا : سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية كالتى تحدث الاصابة بالعين فتؤثر فى الأشخاص ، وتحدث الضرر فى الأجسام كما ذكره كبار الفلاسفة ، ويقرّرون ذلك بأن تصوّر الانسان مؤثر فى نفسه ، ألاترى أنه يؤثر فى جسمه حزنه وفرحه ورجاؤه وخوفه وعشقه وغرامه ، فهذه آثارها الحاضرة عندها ، فيجوز أن النفس اذا قويت أثرت فيما بعد عنها اذا تركت المألوفات ، ونبذت الشهوات ، كما هى عادة أولئك الذين يزعمون أنهم سحرة ، فتخلو نفوسهم من شواغل الجسد ، ولمّ شعثها ، وترجع إلى عالمها الروحانى ، وتفعل الشرّ ، وتكون ممقوتة عند الله والناس ، وللوهم آثار كمن يرى يمشى على جذع فوق الأرض فانه يسهل عليه ، واذا وضع هذا الجذع بين حائطين أوعمودين مثلا لم يقدر على المشى عليه ، ويختصر بها اليدين والفم ، وماصرعه إلا وهمه . ونقل ابن سينا عن أرسطو أن الدجاجة اذا تشبهت بالديكة فى الصوت وفى القتال ، مها نبت على ساقها مثل الشىء النابت على ساق الديك ، وأيضا ان الدعاء مظنة الاجابة عند سائر الأمم .

ثالثا : الاستعانة بالأرواح الأرضية ، وهذا أقوى أنواع الخرافات .

رابعا : سحر التخيلات كما يفعله المشعوذ المسمى بالحاوى فى بلادنا المصرية .

خامسا : قد جعلوا مما يسمى بالسحر الآلات المتحركة بضروب هندسية وعجائب علم الكيميا كطفور نار القصفور الموضوع فى الماء ، وكالحرير الصخرى المعلوم الذى وضعته أنا وأنا مدرّس فى دار العلوم على النار فلم يحترق ، وهو كلما وضع عليها لزداد نظافة ، وكان ذلك فى الدرس أمام التلاميذ وهم يتعجبون ، وكالآلات البخارية الجارية الآن ، وأنت تعلم أن هذه كلها اليوم أصبحت فى عداد العلوم وخرجت من مسمى السحر لشيوعها ، وقد كان بعضها عند المتقدمين سرّا مكتوما .

سادسا : الاستعانة بخواص الأدوية كما حدث فى حرب الألمان المبتدأ سنة ١٩١٤ م انهم كانوا يلقون البخار على الأعداء ، فتارة يعمى أعينهم ، وتارة يخدّرهم ، وتارة يحدث فيهم جنونا ، وقد كان القدماء يقولون

« ان مخ الحمار اذا أكله انسان أورثه البلادة » وهذا منقول عن الكلدانيين ، وأنا أرى أن هذا القول خرافة والا فالناس تأكل مخ سائر الحيوان فما بالهم لم يصيروا كالغنم وكالدجاج !

سابعا : تعليق القلب الذى تقدم ذكره ، وقد أطلنا فيه ، وهو من فن التنويم المغناطيسى .

ثامنا : التميمة ، والوشاية ، وضروب الأكاذيب ، المحولة للقلوب ، المضلة للنفوس ، التى يستعملها الضالون من الناس ليفرقوا بين زيد وعمرو ، و بعض هذه الأنواع أصبحت لاتسمى سحرا اليوم وهى ٨ و٦ و٥ و بعضها أصبح خرافة ، و بعضها يجوز فى نفسه ، فأما وقوعه فى الخارج فيحتاج الى عيان ونحن لم نشاهده والله أعلم هذا وان اليهود كما آذوا سليمان بنسبته الى السحر تعدّوا الحدّ على النبىّ صلى الله عليه وسلم فنسبوه للرعونة استهزاء وسخرية اه .

« الزبرجدة الثامنة »

يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

التفسير اللفظى

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) هذه واضحة : انهم كانوا ينطقون بالكلمة محرّفين المعنى الشريف الى معنى زائف ، إذ يقول المؤمنون راعنا أى راقبنا وتأنّ بنا حتى نفهم مانلقيه علينا ، ويقولها اليهود لتكون من الرعونة ، يريدون سبه بالكلمة العبرانية التى كانوا يتسابون بها وهى راعينا ، فنهى المؤمنون عنها ، وأمروا بما يفيد تلك الفائدة من غير لبس وهو انظرنا أى انظر الينا ، وقوله « اسمعوا » أى أحسنوا الاستماع فلاتحتاجوا الى أن تعودوا الى ما نهيتم عنه (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب) يعنى اليهود (ولا المشركين) أى عبدة الأوثان (أن ينزل عليكم) أى ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم من الوحى والنبوّة كما لايحب ساسة الأمم المستعمرة فى زماننا أن تترقى الأمم المحكومة بالعلوم والصناعات حسدا و بغيا من الفريقين (من خير من ربكم والله يختصّ برحمته) يختار لدينه والنبوّة والاسلام والكتاب (من يشاء) من كان أهلا لذلك يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (والله ذو الفضل العظيم) ذو المنّ الكبير بالنبوّة والاسلام . انتهى التفسير اللفظى

« الزبرجدة التاسعة »

مَا نَنْسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ * أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْئَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ

الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *

سبب نزول هذه الآية

نزلت هذه الآية لما طعن الكفار فى النسخ ، وقالوا : ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر ثم ينهاهم عنه ، ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ، نسخ الآية إما بانتهاء التعبد بتلاوتها ، واما بانتهاء الحكم المستفاد منها ، واما بانتهائهما ، وقرأ ابن عامر « ماننسخ » من أنسخ أى نأمرك أوجبريل بنسخها ، وقوله (أوننسها) أى ننس أحدا إياها ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « ننسأها » أى نؤخرها من النساء (نأت بخير منها) وهوالأنفع للعباد فى سهولته ، أوكثرة الثواب عليه (أومثلها) من التكليف والأجر ، فاذا بدل الله حكما فى آية بحكم فى أخرى كآية الميراث بعد آية الوصية فان ذلك لحكمة تقتضيه ، وهكذا فعل الله فى السموات والأرض ، ألم تر الى أغذية الشتاء والصيف ، وأشجار الربيع والخريف ، والليل والنهار ، والصباح والمساء ، واذا نسخ آية الحب ففلقها ، والنوى فأنبتها ، والعامرات فخربت ، والخربات فعمرت ، هكذا ينسخ آية بآية وحكما بحكم ، فهذا فعله ، وهذا قوله ، وكيف يراعى المصالح فى أفعاله ، ويدعها فى أقواله ؟ ولذلك قال (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير)

الناسخ والمنسوخ

النسخ يطلق بمعنى الازالة ، ومنه قوله تعالى : « فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » وبمعنى التبديل ، ومنه : « واذا بدلنا آية مكان آية » وبمعنى التحويل كآية المواريث فيحوّل الميراث من واحد الى واحد ، وقد أكثر العلماء من الكلام فى الناسخ والمنسوخ ، والحق أن ذلك لايصح إلا فى قليل من الآيات ، ألاترى الى آيات الصفح والعفو والتجاوز فقد أكثر العلماء من قولهم انها منسوخة بآية القتال مع أن الصفح كان مؤقتا بزمن الضعف وقلة المسلمين فاذا كثروا وقووا جازلهم مالايجوز فى حال الضعف من القتال ، ألاترى الى قوله تعالى فى هذه السورة هنا (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) فقد جاء الأمر بالقتال فلم تنسخ الأولى ، بل جاءت أزمنها ، وجاءت آية القتال منسأة أى مؤخرة ، وليس ذلك من النسخ كما فى قوله هنا : « ماننسخ من آية أوننسأها » نؤخرها ، وقدرصاحب الاتقان هذه المسائل فجاءت عشرين موضعا فى بعضها خلاف :



المنسوخ	الناسخ
[آيات البقرة] (١) : كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت .	آية المواريث
(٢) : وعلى الذين يطيقونه فدية	فمن شهد منكم الشهر فليصمه
(٣) : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم (مقتضى ذلك أنه يحرم الوطء والأكل بعد النوم)	أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم
(٤) : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه	وقاتلوا المشركين كافة
(٥) والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم . الآية	يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا
(٦) : وان تبدوا ما فى أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله	لا يكلف الله نفسا إلا وسعها
آية [آل عمران] (٧) : اتقوا الله حقّ تقاته	اتقوا الله ما استطعتم
[النساء] (٨) : والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم	وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض
(٩) واذا حضر القسمة أولوا القربى	آية الميراث
(١٠) : واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم	آية النور
[المائدة] (١١) ولا الشهر الحرام	أبيح القتال فيه بقوله : وقاتلوا المشركين كافة .
(١٢) فان جاءوك فاحكم بينهم أوأعرض عنهم	وأن احكم بينهم بما أنزل الله . الآية
(١٣) وآخران من غيركم	وأشهدوا ذوى عدل منكم
[الأنفال] (١٤) ان يكن منكم عشرون صابرون	الآن خفف الله عنكم . الآية
[براءة] (١٥) انفروا خفافا وثقالا	ليس على الأعمى حرج . الآية وآيات أخرى
[النور] (١٦) الزانى لاينكح إلا زانية الآية	وأنكحوا الأيامى منكم
(١٧) ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم	نسخت ، وقيل تهاون الناس فى العمل بها
[الأحزاب] (١٨) لايحلّ لك النساء من بعد	انا أحللنا لك أزواجك
[المجادلة] (١٩) اذا ناجيتم الرسول	الآية بعدها
[الممتحنة] (٢٠) فآتوا الذين ذهبت أزواجهم	آية السيف
[المزمل] (٢١) قم الليل إلا قليلا	بآخر السورة ثم بالصلوات الخمس

فهذه إحدى وعشرون منها :

آية : « وعلى الذين يطيقونه » قيل انها محكمة ، أى وعلى الذين لايطيقونه بحذف لا فهى مقدرة .

وآية : « اتقوا الله حق تقاته » قيل انها محكمة .

وآية : « واذا حضر القسمة أولوا القربى » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .

وآية : « ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم » قيل محكمة وتهاون الناس فى العمل بها .

وآية : « فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » قيل انها من المحكم .

فالآيات التى فيها النسخ بغير خلاف تبلغ ١٦ وقد ضم الى المنسوخ عند ابن عباس قوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله » وقال هو انها منسوخة بقوله : « فول وجهك شطر المسجد الحرام » . وقد نظم هذه الشيخ السيوطى فى الاتقان فقال مختارا عشرين منها :

قد أكثر الناس فى المنسوخ من عدد • وأدخلوا فيه آيا ليس تنحصر
وهاك تحرير آى لامزيد لها • عشرين حررها الحذاق والكبر
آى التوجه حيث المرء كان وان • يوصى لأهليه عند الموت محتضر
وحرمة الأكل عند النوم مع رفث • وفدية لمطيق الصوم مشتهر
وحق تقواه فيما صح فى أثر • وفى الحرام قتال للألى كفروا
والاعتداد بحول مع وصيتها • وان يدان حديث النفس والفكر
والحلف والحبس للزانى وترك أولى • كفر واشهادهم والصبر والنفر
ومنع عقد لزان أولزانية • وماعلى المصطفى فى العقد محتظر
ودفع مهر لمن جاءت وآية نجـ • ـواه كذاك قيام الليل مستطر
وزيد آية الاستئذان ما ملكت • وآية القسمة الفضلى لمن حضروا

هذا مالخصته لتعلم أيها الفطن الناسخ والمنسوخ فلايشذ عنك شيء مما اتفق عليه القوم اهـ

لم كان الناسخ والمنسوخ ؟

وهنا يرد سؤال فيقال : مافوائد الناسخ والمنسوخ للأمم الاسلامية ؟ ولوأن الآيات وردت بلاناسخ ومنسوخ ماضر ذلك ، ولكفينا مؤونة الرد على اليهود ، وعلى المعترضين من الأمم على الاسلام وشريعته ، ولم يكن سبيل لوجوب الرد عليهم بقوله تعالى : « ماننسخ من آية » الآية ، ومالايحتاج الى جواب خير مما يحتاج إلى جواب ، وهذا كلام الله ، وهو سبحانه وتعالى أعلم من عباده ، واذا كان عباده بريدون مالاحيرة فيه فهو قادر على اقناعهم وتعليمهم بلاسؤال وجواب ، هذا الاعتراض يدور فى عقول الأذكياء وان كانوا لاينطقون به

الجواب

اعلم أن الناسخ والمنسوخ من أعظم الأسرار ، وأبهج الأنوار الالهية المشرقة على بنى آدم ، بل هما سر الترقى ، ومناط السعادة العصرية ، و بيانه أنه سبحانه وتعالى علم أن النوع البشرى ضعيف ، مغرم بالتقليد ، لايتزحزح عنه إلا بعوامل عظيمة ، فأراهم أولا أن الليل والنهار ينسخ كل منهما الآخر ، ثم بين لهم اختلاف الزرع باختلاف الفصول ، فان أكثر العشب والكلأ والحشيش ينبت فى أيام الربيع لاعتدال الزمان ، وطيب الهواء ، وكثرة الأمطار المتقدمة فى الشتاء ، فأما الفصول الثلاثة فيزرع الناس فيها زرعا موافقا للزمان ، فالحنطة والشعير والباقلا والعدس وغيرها تزرع فى الخريف وتحصد فى الربيع ، والقثاء والخيار والباذنجان تزرع فى الشتاء

وتدرك فى الربيع ، والجزر والشلجم والكرنب والقنبيط تزرع فى الخريف وتستحكم فى الشتاء ، والسمسم والذرة والأرز تزرع فى الصيف وتحصد فى الخريف ، والقطن والقنب وأشالها تزرع فى الربيع وتستحكم فى الخريف .

هذا كتاب الله المسطور ، فى رقه المنشور ، على سطح الأرض بحروف بارزة ، يراها جميع الناس والحيوان ولا يفهمها إلا الحكماء . بأن يحكموا عقولهم وآراءهم فى أمور الدنيا ، فيعملون كل زمن حكمه ، وكل مكان مايلائمه ، فاذا وجدوا أن الناس قد تقلدوا السلاح الأقوى بالطيارات والمدافع فليكونوا على استعداد لزمانهم ، وليقوموا بذلك ، واذا رأى المسلمون أن بلاد [الارجنتين] فى أمريقا الجنوبية مثلا قد اتخذوا آلات مدهشة للزراعة جارية بالسائل المسمى [بترول] تحصد القش وتصعده بنفسها الى أعلاها ، وتدرسه ، وتنزل القمح فى ناحية والتبن فى أخرى فى مخازن فى نفس الآلة ، وبينما هى تدرس ، وتميز التبن من القمح ، وتخزنها فى مخازنها تحرث الأرض وهى عاملة هذا كله ، ثم تذهب الى الضيعة فتضع أحمالها ، وتنزل أثقالها ، وترجع عاملة ناصبة حتى تتم الحقل كله فى يوم أو بعض يوم ، فتجد آخر النهار المزرعة التى كانت مزروعة أوله محروثة فى آخره ، ومعدّة الى زراعة أخرى .

واذا رأى المسلمون أيضا أن هؤلاء القوم لهم عناية بالماشية لم تعهد عند المسلمين حتى ان البقرة سلالات كريمة لايهملون أمرها ، حتى ان الثور منها قد يباع بأربعين ألف جنيه ، ويحرصون عليها حرص العرب على كرائم الخيل وسلالاتها ، وانهم اعتنوا بترقية جميع المواشى ، وبرعوا فى اراحتها ، حتى انهم قد استعملوا فى حلبها الكهرباء ، فتقف الاناث من البقر صفا واحدا ، ويوضع حبل طويل من الكاوتشوك المجوف ، وله شعب وضعت فى كل ثدى من هذا البقر ، وقد اتصل الطرف الآخر بخزان كبير ، وفى هذا الطرف [طلمبة] أمامية كابسة اتصل بها تيار كهربائى ، وهناك يبتدئ عمل الجهاز ، يقوم بعملية الحالب ، ويصل باللبن الى ذلك الخزان ، فيسمع له خرير كخرير الماء فى الغدران .

اذا رأى المسلمون ذلك ورأوا غيره فليفكروا وليعلموا [كما سيأتى ايضاحه عند قوله تعالى فى هذه السورة « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »] أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم هم الذين يقومون بسعادة النوع الانسانى عاجلا أو آجلا ، فقد مهد الله لهم الطريق ، وكأنه يقول : أى عبادى أنا جعلتكم خير أمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء عليهم كما أن رسولكم شهيد عليكم ، وقد كتبت بحروف كبيرة فى آفاق السماء وأقطار الأرض فى الليل والنهار . والمزارع والحقول ، أن كلا منها ينسخ الآخر ويحل محله ، ثم انى ألهمت أقواما فى العالم ، فأخذوا ينسخون الأعمال الانسانية العتيقة ، ويحلون محلها أعمالا أرقى ، فقد نسخوا القديم البالى بالحديث القويم القوى ، فهذه ثلاث درجات قرأتموها فى السماء والأرض وأعمال البشر ، ان النسخ فى أعمالكم من سنتى القويمة ، لأنى لا أنام ، وأزيد فى الخلق ما أشاء ، ولما علمت أن الاسلام سيهبط إلى أمم عقولها لاتهضم هذه المشاهدات ، ولاتقوى على فهمها ، ويقولون : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ، ويجمدون على البالى العتيق أسمعتهم فى كتابى بحروف لفظية تعيها آذانهم ، وأنزلت على رسولى آية فى زمن ما كالآيات التى تمنع القتال زمن الضعف ، فلما كانت القوة نسخت الأولى ، وأنزلت آية السيف ، وأمرتكم بقراءة الآيتين لتكون تلك الآيات حجة أمامكم ، ونبراسا لتعرفوا الحكمة ، وتقوموا بأعمالكم الدنيوية بما هو الأصلح ، ولاتتقيدوا بما فعله الآباء مع حفظ مجدهم وشرفهم ، والتمسك بفضائلهم ، كما أبقيت الآية المنسوخة تقرأ صباحا ومساء . واذا كنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنتم شهداء الله على الناس : فذلك سيدعوكم الى ماهو أعظم من ذلك ، فاذا قامت أوروبا وأمريكا بهذه الأعمال العظيمة فى الزراعة والتجارة والصناعة فلاجرم أنكم أنتم ستعلمون عليهم ثم تتفوقونهم على مدى الأيام ، ويتحقق إذ ذاك معنى كونكم شهداء على الناس وأنكم خير الأمم

فتبين من هذا أن حكمة الناسخ والمنسوخ فوق مايتصوره كثير من الناس لأن الحقول والكواكب وأعمال الأمم الحاضرة فى الرقّ كانت بقدرة الله والقرآن من الله ؛ فالله كما نسخ فى أعمال القدرة فى كل حين نسخ فى التعليم ونشره بين المسلمين ليرتقوا فى الأسباب ولايقفوا .

ولما جهل المسلمون ذلك ، وجدت قرائحهم ، وناموا نوم أهل الكهف سلط عليهم الفرنجة فلكوا بلادهم والتجارة فى أيديهم وهكذا السياسة فاذا لم يعرفوا ماتلوناه عليهم فى هذا المقام فلتبيدنهم الأمم المحيطة بهم كما أفنت أوروبا أهل أمريكا الأصليين لأنهم لايصلحون لهذا الزمان لقصور عقولهم واقتصارهم على تقاليد آبائهم الجاهلين ونبذ عقولهم كأنها لم تكن شيئا مذكورا ، فأبادهم الفرنجة إلا قليلا منهم لعل المسلمين يتعظون هكذا الأمم الاسلامية ان لم تساو الفرنجة فى جميع أنواع الحياة فلابدّ من انقراضهم جزاء جهلهم فان الله لم يترك لهم بابا إلا فتحه لهم فى الحقول والكواكب والأضواء وأعمال الأمم وانقراض أهل أمريكا ، وقد أسمعهم فى كتابه آيات النسخ ، ونسخ هو بنفسه لنقتدى به فأحجمنا عن ذلك ، ولم يكتف بذلك بل ألهم نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسمع ماقاله سلمان الفارسى فى مسئلة الخندق ، وفعل مافعله الفرس من الأخذ بالأحسن ونسخ خطة حربية بخطة حربية ، والمسلمون مع هذا كله نائمون غافلون كأن هذا الدين ليس دينهم ، وكأن النبىّ ليس نبيهم والعقول نائمة ، وهذا أوان استيقاظهم ، وقيام مجدهم ، ورقىّ بلادهم وسعادتهم ، « ولتعلمن نبأه بعد حين » وسيقرأ هذا خلفنا ، ويرون أن . أقوله عن المستقبل محقق لاشكّ فيه بطريق الالهام فى نفسى « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ولما كان اليهود لايفتؤن يعادون النبى صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه [كما قال العرب] من قبلهم ، وقد كانوا تعنتوا على سيدنا موسى كذلك فقالوا أرنا الله جهرة نزل قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم) أى بل أتريدون ، وسواء السبيل الطريق الحق ، وقوله . (ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا) الخ . سبب نزول هذه الآية أن حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر رضى الله عنهما بعد وقعة أحد قابلهما اليهود وقالوا : لوكنتم على الحق ماهزمتم فارجعا الى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم ، فقال عمار بن ياسر : كيف نقض العهد فيكم ؟ قالوا شديد ، قال انى عاهدت أن لا أكفر بمحمد ﷺ ماعشت ، قالت اليهود : أما هذا فقد صبأ ، وقال حذيفة : أما أنا فقد رضيت بالله ربا ، وبمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا ، وبالقرآن إماما ، وبالكعبة قبلة ، وبالمؤمنين اخوانا ، ثم انهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصبتما الخير وأفلحتما ، فأنزل الله : « ودّ كثير من أهل الكتاب » الآية وبقية الآيات واضحة .

« الزبرجدة العاشرة »

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ * وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (وقالوا) أى اليهود والنصارى ، عطف على ودّ (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا) جمع هائد (أو نصارى) ذلك أن كلا من الفريقين ادّعى أن دينه هو الحقّ وسواه باطل (تلك أمانيهم) شهواتهم الباطلة التى تمنوها (قل هاتوا برهانكم) على اختصاصكم بدخول الجنة (إن كنتم صادقين) فى دعواكم (بلى) إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة (من أسلم وجهه لله) أخلص نفسه له لايشرك به غيره (وهو محسن) فى عمله (فله أجره عند ربه) فى الجنة (ولاخوف عليهم) بخلود النار (ولاهم يحزنون) بذهاب الجنة ، ثم ذكر مقالة اليهود والنصارى فى خصومتهم فى الدين فقال (وقالت اليهود) يهود المدينة فى خصومتهم مع نصارى نجران (ليست النصارى على شىء) من دين الله (وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) من دين الله ولادين إلا النصرانية (وهم يتلون الكتاب) أى والحال أنهم من أهل العلم بأحد الكتابين ، ومن حق من آمن بأحدهما أن لا يكفر بالباقى لأن كل واحد من الكتابين مصدق للآخر (كذلك) أى مثل ذلك القول (قال الذين لايعلمون مثل قولهم) أى الجهلة الذين لاعلم عندهم ولا كتاب يقولون لكل أهل دين انهم

ليسوا على شيء (فالله يحكم) يقضى (بينهم) بين اليهود والنصارى (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) فيعاقب كل فريق بما يليق به ، ان النوع الانسانى درج على التقليد ، فالمتدين بدين يعتقد غيره دينا كذبا والذى لادين له يحقر كل من هو على دين ، بهذا طغى أكثر هذا النوع الانسانى لجهلهم ، فمنع مشركو مكة النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام فى عام الحديبية كما فعل الروم من قبلهم لما غزوا بيت المقدس ، وضربوه وقتلوا أهله ، وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) وأن يذكر مفعول ثان لمنع (وسعى فى خرابها) بالهدم والتعطيل (أولئك) أى المانعون (ما كان لهم أن يدخلوها) أى ما كان ينبغى لهم أن يدخلوا مساجد الله (إلا خائفين) أى على حال الرهب والخشوع ، أوما كان لهم فى حكم الله وقضائه ، فيكون وعدا بالنصر واستخلاص للمساجد منهم ، وقد أنجز الله وعده ، وقيل معناه النهى عن تمكينهم من الدخول فى المسجد ، واختلف الأئمة فى ذلك : فجوّز أبو حنيفة ، ومنع مالك ، وفرّق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره (لهم فى الدنيا خزى) قتل وسبي الحربى (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) أى النار :

ملخص ماتقدم

يقول الله : إن أرباب الديانات شغفون بالاضطراب ، مغرمون بالأخذ بالأذناب ، متعصبون لأهوائهم ، نابذون لنصائح أنبيائهم ، فتزعم اليهود كفر النصارى ، ويعكس النصارى عليهم القضية ، والتوراة والانجيل يدحضان الحجة ، ويزيلان الشبهة ، ومشركو العرب كفروا الطائفتين ، وكرهوا الحزبين كما فعل ذلك من قبل بختنصر اذ هدم بيت المقدس ، ومنع أن يذكر فيه اسم الله ، وهكذا أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يحجوا عام الحديبية ، وهل من الأدب طغيانهم أم من الحكمة ضلهم ، وكان الأجدر أن يدخلوها خاشعين ، فلتخيفوهم بالجهاد ، ولتمنعوهم من ذلك الظلم ، ولقد أرسل رسول الله ﷺ عليا بعد الفتح فنادى فى الناس : أن لايطوف بالبيت عريان ، وأن لايحج بعد هذا العام مشرك ، ولما فتح عمر الشام ومدينة بيت المقدس منع المشركين من دخول بيت المقدس ، فهؤلاء لهم فى الدنيا خزى بالقتل والسبى والجزية ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . انتهى ملخص ماتقدم .

ولما طعن اليهود فى نسخ القبلة وقالوا : ان محمدا يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غدا ، فقد صلوا لبيت المقدس ثم الى الكعبة نزل (ولله المشرق والمغرب) أى ومابينهما (فأينما تولوا فثم وجه الله) أى جهة رضاه وليس الله مختصا بمكان ، بل هو (واسع) الفضل (عليم) بتدبير خلقه ، قد جعل لنا الأرض كلها مسجدا وتربتها طهورا ، فكيف يجعل كالعباد يتخذ ولدا كما زعمت النصارى واليهود ومشركو العرب بزعمهم أن ولده المسيح أوعزير ، أوالملائكة بناته ، سبحانه تنزيها له ، وكيف يصح ذلك وله ملك السموات والأرض كل له مطيعون ! والولد لمن هو فى حاجة إليه ، على أنه مبدع السموات والأرض فضلا عن ملكه لهما يتصرف فيهما كما يشاء وهذا قوله تعالى (وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه) تنزيها له عن ذلك (بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون) منقادون لايمتنعون على مشيئته وتكوينه (بديع السموات والأرض) مخترعهما (وإذا قضى أمرا) أى حكم أوقدر (فانما يقول له كن فيكون) أى احدث فيحدث ، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال ، بل تمثيل حصول ماتعلقت به ارادته بلامهلة (وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله) أى هلا يكلمنا الله ، وهؤلاء هم كفار مكة يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم : متى نعلم أنك رسوله ؟ والأصحّ أن ذلك منسوب لليهود لأن السورة مدنية (أوتأتينا آية) مقترحها عليك برهانا على صدقك فأجاب الله عزّوجل تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ليثبت قلبه (كذلك قال الذين من قبلهم) من الأمم لأنبيائهم (مثل قولهم) فى التعنت (تشابهت قلوبهم) فى الكفر والعناد ثم قال (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) بك ولايتعنتون فلاتحزن ، ثم قال (إنا أرسلناك) يامحمد

(بالحق)

(بالحق) أى الهدى (بشيرا) من أجاب بالجنة (ونذيرا) من لم يجب بالنار (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) ان عليك إلا البلاغ (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل ان هدى الله) وهو الاسلام (هو الهدى) وماعداه ضلال (ولئن اتبعت أهواءهم) فرضا (بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى) يحفظك (ولا نصير) يمنعك ، وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أى بإقامة لفظه وتدبر معناه والعمل بمقتضاه ، مدحهم بأنهم المؤمنون إذ قال (أولئك يؤمنون به) يصدقون به ، وهذا عام لكل مؤمن هذه صفته ، ولا يختص بالسبب الذى ورد ، وهو أنها نزلت فى أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا أربعين رجلا ، اثنان وثلاثون رجلا من الحبشة ، وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) وختم هذه الزبرجده بأن ذكر بنى اسرائيل بالنعمة إذ قال (يابنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين) أى وتفضيلى إياكم على عالمى زمانكم ، ثم قال (واتقوا يوما) واخشوا عذاب يوم ، وهو يوم القيامة (لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولاهم ينصرون) لاتغنى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها فداء ، ولا تنفعها شفاعة ، ولاهم ينصرون ، أى يمنعون من عذاب الله ، وقد تقدم الكلام على الشفاعة فى أوائل السورة اه

تأمل المقصد السابع

وكيف كان بدؤه أن يذكروا أنهم ماتصل لهم ملك أيام مجدهم ماينوف ألف سنة إلا بما أودع فى قلوبهم من الجبة والشهامة ، وحب الأمة ، واعتقادهم العظمة فى نفوسهم ، والشرف فى قبيلهم ، وكيف أخذ ذلك فى قلوبهم على لسان موسى والأنبياء بعده ، وسلكها فى أفئدتهم ، لتكون تلك العقيدة لهم نبراسا يهتدون بها عند الظلمات إيذانا للأمة الاسلامية أنهم لن يقوموا من نومتهم ، ولن يستيقظوا من غفلتهم ، إلا أن يؤملوا فى الشرف أملا ، ويقدموا له عملا .

انظرفيما فى الفصلين من تقريع اليهود بتلك اليواقيت والزبرجدات والجواهر وهى تنوف عن ٣٥ سجلها عليهم القرآن ، وغيرهم بأنهم ماصرفوا للعمل عنايتهم ، وقد سجلت التوراة عليهم ظلمهم فحكم الله فى القرآن ، وسفه أحلام أسلافهم ، وأخذ أنفاس خلفهم ، وختم بتذكير النعمة ، وأرى أن هذه معجزة وأى معجزة ؟ فكيف عرف مافى التوراة ؟ وكيف أخذ بمقدمهم ومؤخرهم ، عالما منزلته وشرفه ، موقنا بصدق دعوته . ألاترى كيف جاء يحاسب أمة على ما اقترفت ، ويناديها على ما اجترحت ، هذه حقيقة صفة الرسالة والرسول مرسل ليحاسب الأمم على جهلها ، والأفراد على ظلمها ولن يكون هذا من تلقاء النفس ، كيف لا ونحن نرى المرء تمر عليه السنون والأيام وهو يتعلم ثم لايخرج لعلم خلاصة ولاينشىء أمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم »

خصصت هذه الآية بإفاضة الكلام فيها بعد ماختمت تفسير هذه الآيات لمافيها من الجمال والبهاء والعجائب ، وان كان الناس يمرون عليها مر الكرام ، فأقول ورد ذكر المشرق والمغرب هنا ، وفى آية « رب المشرقين ورب المغربين » مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ، وفى أخرى « رب المشارق والمغارب » باعتبار ان كل يوم له مشرق ومغرب خاص ، كما يعرفه من زاول علم الفلك بأدنى تأمل [والناس ثلاث درجات] جهال لايعرفون من الشروق والغروب الا اسمهما فلايفكرون فى تنوعهما وتصرفهما وانتقالهما . ومتوسطون فكروا بعض التفكير عرفوا بعض التغيرات واعتبروا بها . وفضلاء أدركوا أن لكل يوم مشرقا ومغربا خاصا بالتحقيق لا بالظن . وكلامنا الآن فى هذا المقام ، لماذا خص المشرق والمغرب ، ولم لهج القرآن بذكر الأنوار والظلمات ؟ فتراه يقول « الشمس والقمر بحسبان » ويقول « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره

منازل » ويقول « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها » ويقول « والضحى والليل إذا سجى » ويقول « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » ويقول « وجعل الظلمات والنور » وهكذا من تلك الجواهر المتلألئة الباهرة البهية المشرقة [فاقول] : جوابا على هذا .

العرائس النفائس

تأمل عروسا مشرقة جميلة بهية المنظر حسنة الشكل معتدلة القوام ، قد لبست سبع جلابيب ذات ألوان أحمر ، وبرتقاليا ، وأصفر ، وأخضر ، وزمرديا ، وبنفسجيا ، وأزرق ، وهذه الجلابيب من أرقديباج وألطفه حتى ان العقل ليدهش حينما يسمع أنها كلها أصبحت حلة واحدة ألطف من الهواء وأرق من النسيم ، ثم ان هذه العروس قد ازينت بأحسن زينة ، واتسمت بأبهج الحلى ، وبهرت ناظريها بجميل صنعها فانها فوق هذا الجمال والحسن والزينة والحلى ، قد أعطت من زينتها زينة لكل غادة حسناء ، وجميلة هيفاء ، حتى تتزين للناظرين ، وتقر بها أعين الرائين ، فهى الواهبة لهن الحسن والجمال والحلل النفائس والعطايا والمواهب ، بل ان كل جمال أشرق أمامها ، فانما هى له مبدية ، فهى مصدر الجمال والكمال والحسن والاحسان . ثم انها لاتهرم ، ولا تشيب ، ولا يستغنى عن جمالها الشبان والشيب ، لايذبل فى الظاهر بهاؤها وشبابها ، ولا يقل احسانها واعطاؤها . فانظر لوأن عروسا هذا وصفها لكانت من أجمل النعم ، وأبهر العطايا ، ولكان ذكرها يولد فى النفس حبا وغراما بمن جلاها لنا وأبرزها وأفرغ عليها الجمال والكمال ، ولكانت أجمل مظهر من مظاهر الاحسان ممن زفها الينا وساقها لنحظى بجمالها ، وكلما ذكرت تهللت القلوب فرحا واشتاقت أن تشكر من أبدعها ورزقنا بها .

فاعلم أن تلك العروس : هى الشمس وجلابيبها السبعة ، هى الألوان الأحمر والبرتقالى والأصفر الخ . وقد ثبت فى علم الطبيعة بالمشاهدة أن لون الشمس المشرق علينا الذى غشى وجه الأرض ، إنما هو مجموع تلك الألوان متعاشقة متداخلة . ألا ترى قطرات الماء ، ورشاشه فى ضوء الشمس يلمع بهذه الألوان هكذا البلور فان النور يحلل داخلا فيه الى هذه الألوان ، وتراها جلية فى قوس قزح الذى لا يكون إلا فى مقابلة الشمس ، فان كانت مشرقة كان مغربا ، وان كانت مغربة كان مشرقا دلالة على أن ضوءها حلله ماء المطر إلى الوانه السبعة كما كشفه علماء العصر الحاضر ، وكاد يعرفه القدماء لولا قلة الآلات العلمية ، فهذه الألوان السبعة صارت لونا واحدا ، فقد اتحدت فيه فأشرق على الأرض ، والماء ، والهواء ، والسهل ، والجبل . وقولنا ان العروس وهبت كل عروس الحسن والجمال وأعطتها زينة وحليا ، فذلك أن الكواكب السيارة التى تقدم ذكرها كسبت نورها من الشمس وأشرقت ، وبهرت الناس بنورها فى طلوعها وغروبها ، وهكذا يقول علماء العصر الحاضر : ان النبات ، والحيوان ، والانسان ، وكل ماعلى وجه الأرض لالون لها ، وانما ألوان الخضر ، والحمر ، والبيض والصفر من اشراق الشمس عليها ، وهى فى أنفسها لالون لها وبرهنوا على ذلك بتجارب لامحل لذكرها مثل أن يأتوا بضوء أصفر يضىء على لباس أحمر فوجدوا أن ذلك الأحمر مسود الصفحة عديم اللون ، لأن النور المشرق عليه خال من النور الأحمر ، وعلى ذلك تكون ألوان الناس والمرجان والدر والعقيق وسائر الجواهر الجميلة وخضرة النبات ، وكل مايعجبنا نقشه ورقشه وتزويقه ، فانما هو أثر من آثار ضوء الشمس ، وهكذا كل عروس وما عليها من الحلى والحلل لايظهر لها بريق ، ولا جمال منظور الا باشراق نور الشمس ، والانوار الأخرى تابعة لها ، وما الكهرباء الا أثر من آثار الشمس ، لان الأرض منها ، وكذا بخار الفحم الحجرى الجارى فى الأنابيب ، فانما ذلك كله من نور الشمس أشرق على الفحم الحجرى قديما فخزن فيه وظهر الآن . فهذا ايضاح ان الشمس مصدر مانراه من البهجة ، والجمال ، والهناء ، والسعادة ، فاذا أشرقت فهذا دأبها ، واذا غربت

ظهرت

ظهرت عرائس الليل ، فأبهجت الناظرين تلك النجوم الباهرات المشرقات فى دجى الليل المطلات على عالنا الارضى ، وهن قبلة الناظر ، وهدى السارين ، وكعبة الصادرين والواردين ، فهذه المشارق والمغارب للشمس والكواكب مظاهر الأنوار الساريات فى الكائنات بها نمو النبات ، و يعيش الحيوان ، و يجرى السحاب والبحار والرياح ، فهى اذن المظهر الالهى فى العالم العلوىّ والسفلى ، فالحرارة بها الحياة ، والأنوار بها الهدى والجمال فلا عجب إذا قال تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وإذا قال « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وإذا قال « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » وإذا قال « وأشرقت الأرض بنور ربها » وإذا قال « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » .

هاهنا اجتمع ارتقاء الفكر مع أفضل العبادة ، وههنا يتجلى النور العلمى الاسلامى وتشرق العقول ببدائع الحكم ، وروائع الفكر ، وغرائب العرفان ، هاهنا يكون منشأ الحكماء والكبراء فى أمة الاسلام .

تأمل النجوم والكواكب والشمس واشراقها يرفع العقول إلى أعلى مستواها ، فبينما هى فى معراجها صاعدة ، إذا هى فى محرابها الفكرى عابدة ، إذا هى فى مناهج المدنية وسلم الحضارة شاخصة ، وبهذا ترقت الأمم الفرنجية حولنا ونحن نائمون .

ولألق عليك ماذكره [اللورد افبرى] فى كتابه جمال الطبيعة لتنظر كيف كانت عناية الفرنجة بهذه البدائع العلمية ، ونحن ساهون لاهون .

قال لايعرف الناس جمال الطبيعة لأنهم فيها مغمورون ، ولو أن الشمس تطاول عهدها بالشروق فطال الأمد ، والناس مشتاقون إليها ، ثم بعدالمنيا والتى طلعت عليهم أفلا تراهم يفتنون فى محاسنها و يسحرون بجمالها و يغرمون بعجائبها . ألا وان تلك الأشعة الذهبية البراقة الوضاحة الجبين كنز ثمين من الذهب وثروة طائلة أغدقت على الناس فأصبحوا لايفطنون لها « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ثم قال ضاربا مثلا أشبه بما قاله أفلاطون فى كتابه المسمى [جمهورية أفلاطون] تصور قوما كانوا فى كهف تحت الأرض واسع الارجاء فيه القصور الفخمة والتماثيل ، وقد نقشت حيطانه وازينت بزينة ورياش وزخارف ، وقد انعكس عليها أضواء من خارجها أرسلتها أنوار مشرقة من نار ، وقد سمعوا بأنه خفى عن الأبصار وغاب عن العيان . ثم أتيح لهم أن خرجوا من ذلك المكان فجأة كأن زلزلت الأرض فاذاهم فى متسع الفضاء وهناك شمس مشرقة ، وسحاب ، ورعد ، و برق فيذهلون لجمال الشمس ونورها ، فاذا غابت عن الأبصار وتوارت بالحجاب ظهرت الكواكب اللامعة طالعة فيعتريهم الذهول لجمالها وتتولاهم الدهشة لتلألئها و يرون القمر ظاهرا مشرقا حسن الطلعة ، فكيف يكون تعجبهم لهذه المحاسن البديعة و يقرّون بأنه عظيم نظم هذه الدرارى فى آفاق المشرقين ، ورصعها فى عقود المغربين ، وسيرها فى الأبراج وفى المنازل انتهى .

هذه مقالة اللورد افبرى ، وهى وان كانت جميلة أجمل منها ماكتبه أفلاطون فى الجمهورية فانه فصلها تفصيلا أدقّ ، ولكن جوهر المعنى محفوظ .

ليس هذا المقال بدالك على مالفرنجة من قدم راسخة فى هذه العلوم ، ونظر ثاقب فى مواقع النجوم ، ولعلك تقول ماذا يهمنا من مقال رجل افرنجى . أقول إنما ذكرته لغرضين : الاول ان رقىّ العقل الانسانى موقوف على استيعاب هذه المباحث النفيسة وهؤلاء القوم قد برعوا فيها . الثانى أن كثيرا من الشبان الذين درسوا الفلك الافرنجية استكبروا استكبارا وأعرضوا وقالوا لانؤمن بأنه لأن الفرنجة لايؤمنون ، وقد تركوا

النباتات وعكفوا على درس السياسات ، وناموا عن العبادة ، وأنكروا الله ، ونحن لانعرف الاماتراه الأبصار وننكر ماوراء المادة لأن الفرنجة لذلك منكرون .

وأنا أقول قد اطلعت على كتب أعاظم الفرنجة وحكمائهم ، فوجدت هؤلاء الشبان المارقين فى دعواهم كاذبين ، فان هذا البعض منهم قد درس قشور العلوم ولم يتجاوز كراسة معلمه ، وخرج من درسه مغرورا يقول قد عرفت علوم المشرقين ، وطالعت حكمة المغربين فلم أجد أهدى سبيلا ، ولا أقوم قيلا من جحود الاله والكفر بما لا أراه فترهم يعيشون عيشة البهائم ويكتفون من العلم بدعواهم انهم ممتازون « صم بكم عمى فهم لايعقلون » ، ومن عجب أن هذا المثال الذى اتخذه اللورد افبرى من كتاب أفلاطون هو الذى يقوله علماء الصوفية فى تمثيلهم ، وهو المذكور فى سورة الأنعام « وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة انى أراك وقومك فى ضلال مبين » ، وملخصه أنه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبا فظنه ربه ، ثم رأى القمر بازغا فبهره جماله ، فقال هذا ربى ، ثم رأى الشمس بازغة فرآها أجمل ، فقال هذا ربى هذا أكبر ، ثم لما أفلت رجع الى الله ، وقال « وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين » .

أيها المسلمون هذا التمثيل الذى ذكره أفلاطون وقفى على آثاره اللورد افبرى وجد فى نص القرآن ، وهو الانتقال من جمال المشرقات الى مبدع السموات ، فكيف اذن يسود الفرنجة فى هذه العلوم ، ونحن عنها غافلون ؟ العلم علمنا والدين ديننا ، بل الشمس شمسنا أليس اشراقها فى بلاد الشرق أبهج ضوءا وأوضح نورا ، ومن ذا يقبس سناء الشمس فى انكلترا بسنائها على ضفتى النيل والاهرام وبلاد الشرق ، وكيف يزعم هؤلاء الذين يدعى صغار العقول من الشبان أنهم منكرون لله بهذه العجائب ، والتوراة والانجيل ، وهما الكتابان الدينيان لم ليس فيهما من محاسن الطبيعة الاماظهر من الفلك على جرم السمك آثر ضئيل ونور حائل .

ألا فليستيقظ أهل الشرق ، فقد آن أن تبزغ شمس المعارف فى آفاقه وأن يتهيأ الشبان لزمان العرفان وأيام الهناء والسعادة وكأنى بالنابغين منهم ، وقد برعوا فى الفنون وذاقوا من أفاويقها مابه يسعدون .

ولعمرك لم أطل فى هذا المقام اعتباطا ولم أذكر ذلك الا لتعلم كيف كان ارتباط قوله تعالى « فأينما تولوا فثمّ وجه الله » بقوله « ولله المشرق والمغرب » .

أولست ترى أن حكاية الخليل ، وقد رأى النجم والقمر والشمس ثم اهتدى الى مبدع العالمين ، وكيف كان علماء الأمم يذكرون مبدع الكائنات بعد النظر فى الكواكب ان الكواكب والشمس والقمر باشراقها على الأرض تغشيها بملاءة بيضاء فأينما نولى وجوهنا يشرق النور علينا ، واذا كان المخلوق هكذا حاضرنا فى كل مكان فأحرى بنا أن نوقن أن الله الذى هو نور السموات والأرض ، وهو الذى أبدع النور معنا أينما كنا

فبهذا فلنفهم كيف يقول تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » واياك أن تظن أن التسبيح مايكرره الجاهلون وهم لايعقلون ، و إنما ذلك المقرون بالفكر والعلم والنظر والحكمة كما قال تعالى « ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا » فانظر كيف كان القرآن يدعو حثيثا الى هذه العجائب . وصغار العقول نائمون ، وبعض العلماء غافلون ، والمغرورون من متعلمى اللغات الافرنجية مفتونون ، وقد أقمت الحجة على الجميع من الكتاب ، وكلام الفرنجة عسى أن يكونوا من المفكرين والى هنا آن الشروع فى قصص الخليل عليه السلام ، وهو .

(المقصد الثامن)

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *

التفسير اللفظى

قال تعالى (ابتلى) اختبر (كلمات) أوامر ونواه (فأتمهن) أداهن تامات (قال) أى الله (إماما) قدوة فى الدين (قال) ابراهيم (ومن ذريتى) أى أولادى اجعل أئمة (لاينال عهدى) أى بالامامة (الظالمين) الكافرين منهم (البيت) أى الكعبة (مثابة) مرجعا يرجعون اليه من كل جانب (وأمنا) مأمنا لهم من الظلم والاغارات ، كان الرجل يلقى قاتل أبيه فيه فلا يهيجه (مقام ابراهيم) هو الحجر الذى قام عليه عند بناء البيت (مصلى) مكان صلاة بان تصلوا خلفه ركعتى الطواف (وعهدنا الى ابراهيم) الخ أى أمرناهما (أن طهرا بيتى) أى من الاوثان (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) جمع راكع وساجد ، وقوله (اجعل هذا) أى المكان (بلدا آمنا) ذا أمن ، وقد استجيب الدعاء فجعل حرما لايسفك فيه دم انسان ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده (أضطره) ألجئه و (المصير) المرجع (والقواعد) الأسس أو الجدر ، يقولان (ربنا تقبل منا) و (مسلمين) منقادين (أمة) جماعة (وأرنا) علمنا (مناسكنا) شرائع عبادتنا أو حجنا (وابعث فيهم) ف

أبناء ابراهيم من اسمعيل (رسولا) وقد حقق الله الدعاء بنبينا (منهم آياتك) القرآن (والكتاب) معانى القرآن (والحكمة) ما تكمل به عقولهم من المعارف والأحكام (ويزكيهم) يطهرهم من الشرك (العزيز) الغالب (الحكيم) فى صنعه (ومن يرغب عن ملة ابراهيم) ولا يرغب عن ملة ابراهيم الامن استخف نفسه وامتهنها (ولقد اخترناه فى الدنيا) بالرسالة والخلة (وانه فى الآخرة) من الذين لهم الدرجات العلى، واذكر (إذ قال له ربه أسلم) انقد لله وأخلص له دينك الخ (ووصى) بالملة (ابراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم) الاسلام، وقوله (شهداء) أى حضورا: و (إلها واحدا) بدل من إلهك (مسلمون) مخلصون له بالتوحيد والعبادة انتهى تفسير الألفاظ.

شرح وإيضاح

لقد مضى ذكر آدم وحواء وابليس، وما كان من وضع أساس علم الأخلاق والنفس وتعقيب ذلك بمخازى اليهود السابقون واللاحقون وتقريعهم وتوبيخهم، ان ذلك لأشبه بالتخلية، ولم يبق الا التحلية بذكر العلم والحكمة والأخلاق والفضيلة التى تحلى بها ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ذلك الأب الأكبر الذى ولد القبيلتين العرب واليهود، وفرع الشعبين الاسرائيلين والاسماعيليين. ابراهيم أبو اسحق واسماعيل واسحق قد ولد يعقوب، وهو اسرائيل: أى عبدالله وأبناؤه الاسباط واسماعيل قد ولد العرب، ومنهم النبى صلى الله عليه وسلم، وقد كان العرب يدينون بدين ابراهيم فجاء النبى ﷺ بدينه فطفق الله يذكر الأمة بدين أبيها ابراهيم بعد أن هدم بناء أسس على الجهل والتحريف، فقال وإذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن. ان أقصى ماذكره المفسرون. وقصارى مادونوه فى الكلمات يرجع الى العبادات والأخلاق الظاهرة والباطنة التى ترفع الرجل إلى رتبة الامامة وتزين الانسان، وتسمه بالحكمة ولن يكون الانفصال شريعة ولاقدوة الا بآداب عالية يعلو بحسنها ويشرف بقدرها.

وإبراهيم أمر بآداب ظاهرة كالخمسة التى فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك وفرق الرأس، وخمس فى الجسد من تقليم الأظافر، ونتف الأبط، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء، وهكذا ثلاثون خصلة خلقية، وهى المفهومة من آية «التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين» وآية «إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما» وآية «قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون» وهكذا مناسك الحج وابتلاء بالنظر فى الكوكب والشمس والقمر، فأحسن النظر فيها، وبذبح ولده فصبر، وبالهجرة وبفراق الوطن فاحتسب، وبالنظر فى العوالم السفلية كمسألة الطير، وكيف يحيى الله الموتى فاحسنها وبلغ النهاية فيها، فرجع أمره الى صدق النظر فى العوالم العلوية والسفلية من كوكب وقمر وشمس، كما فى آية الأنعام وابادة الأصنام وتكسيرها وابانة الحجة على صحة الحياة الأخرى بالنظر فى العلوم الطبيعية، ثم الأخلاق الظاهرة من المضمضة وما عطف عليها، والباطنة من الايمان والصدق وماعطف عليهما، وكذا الصبر على فراق الولد والوطن والالقاء

ى النار [صفات عالية ، ونفوس شريفة ، وأب كريم ، وشنشنة فاضلة] ذلك تضمنه معنى الكلمات التى ابتلاه الله بها فليست الكلمات حروفاً يتحرك بها اللسان وتضطرب بها الشفتان . وهذه احدى نكبات المسلمين اليوم فقد يغرّهم الجاهلون ويضحك على أذقانهم المغرورون ، فيقولون لهم من قرأ سورة كذا غفرالله له ، وأعطاه كذا فظنّ الناس أن المسئلة كلمات تكرر وحروف تصور . كلا : والله فقد أجمع المفسرون على أن ذلك عمل ، وأىّ عمل . ان أكثر المسلمين أبناء إبراهيم . ومن المحزن أنهم جهلوا سبيله وضلوا طرقه وما قدروه قدره . وكيف يموتون ؟ وهم لاحظ لهم من نظره ، ويهلكون ، ولا نصيب لهم من عمله . أين مدارس الحكمة أين علم الفلك ، أين الصدق والوفاء ، أين الفضيلة ؟ هذا دين أبيكم إبراهيم دعا كم له عربى مثلكم ، وهو النبىّ ﷺ ، ولو رجع الخليل للدنيا لأنكر ذريته ، و « قال لاينال عهدى الظالمين » فليس الظلم قاصرا عن التعدى على العباد ، كلا بل أقبح منه الجهل بنظام السموات والأرض والفضائل النفسية . وما أجهل المسلمين اليوم فاذا لم يكن لوله إبراهيم اليوم عهد الأمامة والرياسة فلا يلومون الا أنفسهم فقد أصبحوا عن عمله معرضين ، وقد كان النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قبل أن ينزل الوحى عليه يتعبد فى غار حراء بالنظر ، والفكر والتأمل فى بدائع السموات ومحاسن العالم ، وهو دين الخليل عليه الصلاة والسلام فمن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه وجهل قدرها .

ويرجع مافى هذه الآيات إلى عشر زمردات : الزمردة الأولى طلب الأمامة لبنيه ، والخلافة لذريته بقوله « قال ومن ذريتى » فأجيب بأنه لايدركها من جهلوا وظلموا .

(الزمردة الثانية)

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

أنت تعلم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام تحلى بالحكمة والعلم ، وازدان بالآداب والأخلاق ، فأمرنا باتخاذ الأماكن التى أتمها مصلى لنا وقبلة كالحرم والكعبة وأماكن المناسك كلها لنسير فى سبيله ، ونأخذ العهد بعده والمراد بالصلاة مايشمل الدعاء فى تلك الأماكن فليس الحج حركات عضلية كما أن الصلاة ليست كلمات وأفعالا بلا فكر ولا روية ، فهذا من عجائب القرآن ، وبدائع الفرقان ، وصلاة ركعتى الطواف من تلك الصلوات فلا تحجبك الأقوال .

(الزمردة الثالثة)

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

وهى ظاهرة (والعاكفين) المقيمون فيه (والركع السجود) مفهومان .

(الزمردة الرابعة والخامسة)

دعاؤه لابنائه ، وهو قوله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

هذا الدعاء ظاهر واضح ، دعا إبراهيم أن تكون مكة بلدا آمنا لايراق فيها دم ، ولا يصاد صيدها وأن يرزق

أهلها المؤمنون الثمرات احتراسا من أن يقع فيما وقع فيه نوح من الدعاء للابن الكافر ، فأراه الله أن الكافر لايحرم من النعمة والصحة والحياة وله عذاب مهين يوم القيامة . أليس من العجب أن يحرم الصيد بمكة ويحرم على رب الدم أن يقتل واتره ، ذلك أساس وضعه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فى مكة بأمر الله عسى أن تهتدى الأمم يوما ما الى السلامة ، وحفظ الأنفس من الهلاك ، والأجسام من سفك الدماء ، ان فى الاسلام لبذورا ستنمو وتفرخ وتتشعب وتفرش إذا جاء أجلها وحان حينها .

ثم بنى إبراهيم وابنه اسماعيل البيت ودعوا ربهما أن يتقبل البناء ويسمع الدعاء ، وأن يجعلهما مخلصين ، وأن يكون منهما ذرية تتبع آثارهما وتهتدى بهداهما ، وهذه القصة واردة فى الحديث البخارى ، وفيه وجاء بها : أى سارة وبابنها اسماعيل ، وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم اسماعيل ، وكان ما كان من تفويض أمرهما لله ، ووقوفه مستقبلا القبلة عند الثنية ، وقوله « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وهكذا عطشت وظمىء ولدها ، وسعت بين الصفا والمروة طلبا للماء ، فشرع السعى ، وسمعت صوتا اذا هو جبريل يبحث بجناحه فظهر الماء وشربت فرت. رفقة من جرهم من طريق كداء ، وحطوا رحالهم حول زمزم وترعرع اسماعيل وصار أبوه يبيته ، وهو ذو أهل مرتين ، وفى المرة الثالثة قابله واعتنقا ، ثم بنيا البيت فجعل اسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، ووضع الحجر الأسود ، وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) أخلص ابراهيم لله ، فدعا أن يتقبل دعاءه ، ويجعله مخلصا لله ، ويتخذ من ذريته أئمة ، ويرسل لهم رسولا منهم يعلمهم ويطهرهم ، فهذا الدعاء شامل لخيرى الدنيا والآخرة .

ان أبناء اسمعيل هم العرب يقطنون اليوم أرض الحجاز ، واليمن وتهامة ، وأكثر جزيرة العرب ، والشام والعراق ، ومصر وشمال أفريقية : طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وهل اتخذوا لحظهم من علمه وقسطهم من حكمته ؟ هاهم أولاء أبناؤك ياأبانا إبراهيم اليوم فى شمال أفريقية ، وفى مصر ، وفى الشام ، وجزيرة العرب أجهل الأمم بعلمك وأبعدهم عن فكرك نظرت السموات وكواكبها ، والأرض ومناكبها ، والمناسك وفوائدها ، وحللت المركبات لتقف على أسرارها فى مسألة الطير وصبرت على النار وسعيرها ، والولد وفراقه ، والوطن وحبه ، وهاجرت لأرض الحرية بعد يأسك من إيمان الأمة التى أرسلت لها ، جاءهم الرسول الذى طلبت والكتاب الذى به دعوت فوحق شيبتك ووقارك ماعرفوهما الا معرفة الجاهلية ، وإنما قدسوهما غافلين ولاحظ لهم من القرآن الاحظ الجائع من النسيم ، والحمار من البرسيم فداستهم الأمم ، وأصبحوا طحين الطامعين ، ولم ينالوا الخلافة ، ولم يحظوا بالامامة . فهم مأمومون لاأئمة ، وتابعون لامتبوعون . انهم ظالمون لابظلم المعاصى الظاهرية ، ولا الأمور الأخلاقية ، وإنما ظلموا بجهل العلم ، والصناعات ، وما أبدعه الله فى الأرض والسموات فلاتجزع يا أبانا ابراهيم ، فان أبناءك جهلوا قدرك وسفهوا أنفسهم ، ألاترى أنهم أعرضوا عن علومك وغفلوا عن نظرك . نظرت السموات وأغمضوا وفكرت فى الطبيعة وأعرضوا ، وصبرت على مايشرف قدرك وماصبروا ، وأحببت ذويك وكرهوا ، لاتأسف على أبنائك ياأبانا الخليل ، ولقد صدق قول الله فينا « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الامن سفه نفسه » فأبناؤك اليوم جهلوا أنفسهم ، فلاتبتئس بما كانوا يعملون ، وعسى الله أن يبدلهم بعد جهلهم علما ، وبعد خوفهم أمنا ألاوان هذا زمان الانقلاب ، وأيام الاضطراب ، ودوران الفلك بالعجائب والغرائب ، فقد انبعثت الافئدة وأشرقت الأرض بالنور وسينبو أبناؤك فى القريب العاجل مقاما رفيعا ، وينالون عزهم الشامخ ، وسيدركون معنى أبوتك وملتك . المسلمون جميعا أبناؤك من ترك وكرد

وصينيين

وصينيين وجاويين وهنود وغيرهم من الأمم والأجناس أبناؤك فى العلم والدين ، و بنوة العلم أشرف وأبقى من بنوة النسب ، هؤلاء الأبناء جاء فيهم على لسان أفضل أبنائك نبينا ﷺ فى القرآن « ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس » فلقد سمينا مسلمين فى الكتب السابقة وفى القرآن ، وأنا نكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيدا فتكون نسبتنا الى الناس كنسبة الرسول لنا ، نحن شهداء الله على خلقه نحن هداة الأمم ، هكذا يجب أن نكون كما رسمت لنا أيها الأب الوقور .

لقد وقف الرسول الذى أرسله سعد بن أبى وقاص فى مجمع من الفرس فى حضرة الشاه تارة ، وفى حضرة رستم القائد العام تارة أخرى وهو يقول « لقد بعثنا لنخرج الناس من جور الاديان إلى عدل الاسلام ولا يتخذ بعض الناس بعضا أربابا من دون الله » لعمرى لقد فهم أولئك السلف حقيقة الاسلام وان المسلم شهيد على الناس كما أن رسوله أرسل رحمة للعالمين « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » ولن نكون رحمة للعالمين الا اذا اتبعنا ملة أبينا ابراهيم فقرأنا سائر العلوم ، وأحطنا بالفنون كما شرحناه فى علومك السابقة . نظرت فى النجوم وصبرت وبحثت فى علم الحقائق واستبصرت فى كل شىء هكذا فليكن أبناؤك الذين هم أتباع دينك ، وكيف يكونون شهداء على الناس الا اذا درسوا العلوم وأطوار الأمم وأحوال الشعوب فالشاهد على قوم يكون عالما بما بين أيديهم وماخلفهم ، ولم يقتصر القرآن على اتصافهم بالشهادة على الأمم بل جعلهم ذوى اشراف على الجميع فى الارض اذ قال « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم » وقال فى آية أخرى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » الأمة الاسلامية جعلت ديارها بين ديار الأمم تتاخم الروم من جهة الغرب باوروبا وتتصل بالصين والهند واليابان ، وماوراءها من أمريكا من جهة الشرق فمكانها وسط بين الامكنة ورجالها وسط يعدلون فى قولهم وحكمهم ، فأهل الحل والعقد من هذه الأمة متى جاء وقت منعتها وعزها ومجدها سيكونون مرجع المظلومين ومأوى الخائفين ، وأمان المذعورين وهم يكونون الآمرين الناهين وكما أرسل رسولهم رحمة للعالمين يكونون هم رحمة الأمم تبعا لنبيهم ، وهذا معنى « ليظهره على الدين كله » فالمسلمون بمنطوق هذه الآيات خير أمة أخرجت للناس ، ولا جرم أن هذا خبر لابد من تحققه ويظهر لى أنه قد آن أوانه وبدا كوكبه وانفلق عمود صباحه وانشق فجره .

إن أول اصلاح اسلامى فى الأرض أن زلزلت الأمم القديمة كفارس والروم وماج الناس بعضهم فى بعض وداخل الغربيون الشرقيين والشرقيون الغربيين وامتد الفتح الاسلامى الدينى فتعارفت الأمم واستفحل الاسلام فقام الملوك ببعض العدل فى حكمهم الأمم على قدر طاقتهم وماسمحت به أيامهم ، ثم دالت الدول الاسلامية وذهبت عنهم عزة المدنية . فدلف اليهم من الشرق المغول والتتر وورثوا الأرض والتحقوا بالدين ، وهذا من ثمرات الاسلام ، وجاء الغربيون ليحاربوا للدين فحملوا على قومهم قناديل تضىء على ديارهم وقبسا من العلم يهديهم الى هدى ويردهم عن ردى فظهر لوثر المصلح الدينى الشهير وصرخ فى قومه قائلا أيها الناس ان رجال الدين قد عثوا فى الأرض فسادا وأدخلوا فى الدين مالم ينزل الله به سلطانا فلا تجعلوا لكم ربا الا الله وذلك انما كان صدى قول الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا » فلا اقرار لقسيس ، ولا طغيان فى معاملة ، ولا غفران لرئيس بل العبد يحاسب ضميره ويعلم أن الله مطلع عليه ، فأخذت العقول الغربية فى الهدى ، والعقول الشرقية فى الضلال والاضمحلال ، وبهذه الحرية الاسلامية ، تحررت عقول الغربيين من الجهل الذى كان مخيما عليها أجيالا ، وقرونا فأخذوا

ينظمون البريد والقطر المسافرين ، ويمدون الاسلاك فاتصل الغربي بالشرقي ، وعرف كل منهما بعض ماعند أخيه وانقلبت ممالك في الشرق والغرب وتقاربوا بعد التباعد وتعارفوا بعد الجهالة فاقتتلوا وأخذ القوي منهما يدوس الضعيف بسنابك خيله ورجله ويشاركه ويعده ، ومايعد الشيطان الاغرورا ، وقد أحكمت حلقات التجارة فكانت أقوى رابطة فدعا ذلك التصادم في المصالح أن يحتدم بينهم القتال ، ويتراشقوا بالنبال ويتباروا في النضال ، ثم يكون الصلح العام والمسلمون في هذا كله وسط بين الجميع فعليهم اليوم أن يأخذوا دورهم في ترقية أنفسهم والشعوب الأخرى ونستأنف دورنا ونكون كما أخبر ربنا « وللآخرة خير لك من الأولى » ولتكون نهضة الاسلام الآتية مبناها العلم وأسها البحث والتحقيق .

فليأخذ المسلمون مكانتهم في أنفسهم أولا ثم ليلموا شعثهم فليأتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى بالعلم والعرفان ، واذن يأمرون الأمم بالمعروف وينهونهم عن المنكر لأنهم خير أمة أخرجت للناس ، فأمة الاسلام شهداء الله على خلقه لأنهم عدول وفوق ذلك يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

أبونا ابراهيم حمد الله على أن وهب له على الكبر اسمعيل واسحق ولاجرم أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا فكيف ذلك وكيف يكون أبو الانبياء وقدوة سيدنا محمد ﷺ مغرما بزينة الحياة الدنيا فحمده اذن على الولد أدنى مرتبة بل مراتب من حمد المسلم الذي يحمد الله على تربيته العالمين كما قدمنا في سورة الفاتحة ، أقول انما حمد ابراهيم الله على ولدين ربانيين : فاسمعيل مرشد مربي العالمين ، واسحق أبو الانبياء المرشدين المربين للأمم ، وقد جاء من ذرية اسمعيل نبينا ، فالحمد لله من ابراهيم على تربية الأمم وسعادتها بأبنائه ، ومنهم أمة الاسلام ، ألاتراه يقول هنا « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوعليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » وأكدها بقوله « انك أنت العزيز الحكيم » حمد الله ابراهيم على أن رزق اسمعيل واسحق ، وقدم اسمعيل لأن الحمد عليه أوفر . فان من ذريته من اتبعته هذه الأمة المسلمة ، وهي خير أمة أخرجت للناس وهي وسط ورجالها يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر هذه حقيقة الأمة الاسلامية المستقلة .

أيها المسلمون ارفعوا الأيدي الضاغطة عليكم لتكونوا جميعا أمة واحدة ، ثم لتنظروا في أحوال الأمم . ان الغربيين اقادقادتهم الى العامة الذين ينوبون عنهم في مجالس أهل الحل والعقد فيهم فهدوهم الى استعباد الأمم الاسلامية واستحلوا دماءنا وأموالنا ، فاذا جاء يومكم الموعود فلتكونوا خيرا منهم ، لتكونوا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وارفعوا حيف الأمم القوية عن الضعيفة على أي دين كانوا ، وأي ملة ، وأي لون ، انما أنتم رحمة العالمين ، تؤدبون الظالمين بجيوشكم وسلاحكم ، ويجب أن يكونوا أقوى من أسلحة الأمم وجيوشها حتى يخشوا بأسكم ، ولا تظلموا أحدا ، وكونوا قادة وسادة ، وانظروا كيف كان نبينا شاهدا على الأمم فذم اليهود والنصارى بمخالفة كتابهم كما ترونه في هذه السورة من اتخاذ اليهود العجل معبودا مثلا ، ومن اتخاذ النصارى المسيح إلها ، فعيرهم بذلك وبغيره وأدبهم ، فكان من ذلك مانرى من هذه الدنية الناجة من الانقلاب الديني في الأرض ، هكذا فلتكونوا شهداء على الأمم تفعلون مافعل نبينا من الشهادة على الناس والأمر بالمعروف لهم والنهي عن المنكر بعد أن توطدوا أركان النهضة داخل بلادكم .

ذلك هوالذي انشرح له صدري في هذه الآيات ، وهذا الذي يطلبه القرآن ، والافلماذا نسمع قصة ابراهيم المجرد التاريخ ؟ أم لحكاية تقال وتلاوة تسمع ؟ كلا والله ان ذلك لحكمة قد أوضحناها ، ونعمة سطرناها فمن قرأ هذا فلينشره بين المسلمين : « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » . وهذا سر تكرار الصلاة والسلام على ابراهيم وآل ابراهيم ، لتذكر الحكمة والآداب الظاهرة والباطنة التي ذكرت عنه في القرآن اه

أيها

أيها المسلمون : انى أقول لكم لقد اقترب يوم نصركم ، وأوان عزكم ، وهل يكون أمركم للأمم بالمعروف ونهيكم عن المنكر وأنتم أذلة ! إن الله خلق الحيوانات فى الأرض على قسمين : قسم عزيز ، وقسم ذليل ، فالعزيز كالغزلان والآساد والذئاب والفيلة ، وهى الحيوانات التى تعيش فى القفر والفضاء الواسع ، قد جنت لأنفسها ، وسعت لمعاشها ، واتكلت على ربها ، ولم يكفلها غيرها ، إلا أنها تتمتع بالحرية والاستقلال التام .

والقسم الذليل تلك الحيوانات التى أغدقنا عليها نعمنا ، وكفيناها العمل ، وأطعمناها بقوتنا ، وأرحناها من السعى لأنفسها ، والبحث عن كل ماير يحها وينفعها من الغنم والبقر والابل والخيل وأمثالها ، فتلك تتمتع بالنعيم وتتقلب فى العذاب تحت رحمتنا وعذابنا ، إن الله أعطى القسم الأول كالآساد قوة المحافظة على أنفسها والحيلة لجلب ما تحتاج اليه ، وسلب القسم الثانى تلك المواهب ، فزادنا ماتقصها ، وأعطانا مامنعها ، فان كل موهبة استعملها الحى نمت ، وكل موهبة تركها ذهبت ولم تبق . هذه قاعدة عامة ألا يبقى إلا النافع ؟

فنقول : أيها المسلمون أتكون كالفريق الأول أم تكون كالفريق الثانى ؟ إن الفريق الثانى لايملك لنفسه نفعا ، انه ذليل ضعيف فاقد الحيلة ، أما الفريق الأول وهو الحر المستقل ، فهو أهل أن يحفظ نفسه وينفع غيره ، المسلمون ماداموا تحت رحمة الأمم فليسوا خير أمة أخرجت للناس ، ولا عدولا ، لأن الأمة التى تكون خير الأمم وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تكون حرة ، وهل للذليل أمر أونهى ، أم هل له من علم وهو فى طاعة ساداته المالكين لأمره ، الذين يسخرونه لمآربهم ؟ فماداموا تحت وصاية غيرهم فان الرجاء فيهم مفقود وانما هم أشبه بأدنى الحيوان الذى يقوده الانسان ويذبح أولاده ، ويشوى لحمه ، ويجز صوفه ، ويكون زينة له ومتاعا الى حين ، فهل مثل هؤلاء يكونون خير أمة أخرجت للناس ، أم مثلهم يسميهم الخليل مسلمين ؟ أم يكونون شهداء على الناس وهم لايعرفون الناس ولا أنفسهم ، فليخرج المسلمون من مأزقهم الذى وقعوا فيه وليرجعوا الى سنن السلف الصالح من الحرية والنجدة والنخوة والشمم والاباء ، وحينئذ يكونون خير أمة أخرجت للناس .

(الزمردة السادسة)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، إلى قوله : تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ابراهيم أبو العرب واليهود ، وأبو نبى النصارى ، لأنه ابن مريم ، وهى من بنى اسرائيل ، ابراهيم ولد اسحق وولد اسماعيل ، اسحق أبو اليهود ، واسماعيل أبو العرب ، ودعا ابراهيم لأبنائه العرب بالبركة والنماء والعز والعلم والكتاب والحكمة ، وهاهو ذا يذكر وصيته هو ويعقوب بعده ، كلاهما يقول لبنيه : ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون . ههنا وضح الحق ، واستبان السبيل ، وتجلى الأمر ، وسطع نور العلم ، وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب ، وهاهو ذا ابراهيم يدعو للعرب ، ويوصى اسحق ، ويوصى اسحق يعقوب أن يتبعوا ملة ابراهيم ، وهى ماعرفت من النظرفى العالمين والآداب الظاهرة والباطنة ، فهل يجمل بعد هذا البيان أن يتقهقر الناس الى الوراء ويدينون بالنصرانية واليهودية (تلك أمة قد خلت) أى ابراهيم والمذكورون معه أمة قد سلفت (لها ماكسبت) من العمل (ولكم) أيها اليهود (ماكسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) كما لايسألون عن عملكم فلاتفتخروا بهم .

الزمردة السابعة

وهما فرعان لأصل وغصنان لشجرة ، ولاأصل إلا دين ابراهيم ، وهى قوله تعالى

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

وقال اليهود (كونوا هودا) وهم يهود المدينة ، وقال نصارى نجران : كونوا (نصارى تهتدوا قل بل) نتبع (ملة ابراهيم) مائلا عن الأديان كلها الى الدين القيم ، وقوله (وما كان من المشركين) تعريض لليهود والنصارى بأنهم مشركون ، ألا ان الطريق المثلى ، والمثل الأعلى ، والحكمة المشرقة أن يرجع نوع الانسان الى الدين العام بلاقيد ولاشرط ، وهو :

الزمردة الثامنة

السلام العام بمشرق شمس الهداية ، ونور الحكمة من أفق الشرق ، وتبلج نور ابراهيم الخليل ، وحكمة ذلك الوقور الجليل ، وهى قوله تعالى :

قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *

التفسير اللفظى

هذا خطاب للمؤمنين يقول (قولوا آمنا بالله وماأنزل إلينا) وهو القرآن (وماأنزل الى ابراهيم) من الصحف العشرة (وما أوتى موسى) من التوراة (وعيسى) من الانجيل (لانفرق بين أحد منهم) كما فعل اليهود ، وقوله (فان آمنوا) أى اليهود (بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فانما هم فى شقاق) خلاف معكم (فسيكفيكهم الله) يامحمد شقاقهم (وهو السميع) لأقوالهم (العليم) بأفعالهم ، وقد كفاه إياهم فقتل قريظة ونفى النضير ، وضرب الجزية ، هذه حجة الاسلام الباهرة ، وسيفه القاطع ، ونوره الساطع ، فنحن نؤمن بالمرسلين والنبيين ، ولا نكذب ماورث عنهم من حكمة ، وما أوتوا من علم ، لانفرق بين رسول ورسول ، ولابين نبيّ ونبيّ ، نحن نأخذ الحكمة أين وجدناها ، ونعظم سائر النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، عقولنا ميزان تزن ما ورد بالقسط ، ونبين بالحق ، كما فى آية : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » اذا آن أن ينبلج صبح ذلك اليوم المنشود و يعلم المسلم مافى هذه الآية و يكونون أرقى الأمم ، والآن هم فى غطاء عن الذكر ، وقلوبهم فى أكنة إلا من رحم ربك ، فمثل هذه الآيات لاتلج القلوب ولاتدخل الآذان ، هذا وقد أكد هذه الحكمة بما يقويها ، وزكاها بما يدعمها و يبينها ، وهو قوله عزوجل :

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ * قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ *

الايضاح

أى صبغنا الله صبغته ، وهى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهدانا الله هدايته ، ولاصبغة أحسن من صبغته الظاهرة الأثر فينا ظهور الصبغ على المصبوغ (ونحن له عابدون) تعريض لهم بأنهم مشركون ، وروى أن أهل الكتاب قالوا : الأنبياء كلهم منا فلوكنت نبيا لكنت منا ، فنزل مامعناه : قل أتجادلوننا فى شأن الله فالنبوة إما اختصاص من الله فهو ربنا وربكم ، فكما يختص منكم من يشاء يختص منا من يشاء ، وان كان ذلك بالأعمال فلنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن مخلصون له فى الايمان والطاعة ، وصبغ النصارى بماء المعمودية الذى اتصل بما غمس فيه المسيح عليه السلام ، فذلك حجر للنفس عن السلام العام ، والدين الحق أن يرجع الناس للسلام العام بالدخول فى الاسلام ، و يصبغوا بصبغة الاسلام ، لايتقيدون بالقيود الموهومة « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » ليس أمام المسلم إلا ربه وعمله « وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم » والناجون المفلحون هم المخلصون « ونحن له مخلصون »

(الزمردة التاسعة)

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ ءأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ *

ايضاح

أى بل أتقولون ، وقوله (أأنتم أعلم أم الله) أى الله أعلم ، وقد برأ ابراهيم من اليهودية والنصرانية بقوله « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا » ولاأحد أظلم ممن أخفى شهادة عنده كائنة من الله وأولئك هم اليهود ، كتموا شهادة الله لابراهيم بالحنيفية ، وقوله (وماالله بغافل عما تعملون) تهديد لهم وتخويف ، وتكرار هذا ليعلم اليهود وجميع العالم الاسلامى أن الاحتجاج بالآباء أوالافتخار بهم ضرب من الجهالة وباب العماية ، فليس من حق اليهود الاحتجاج بالتاريخ الذى زوروه ولو كان حقا لم يفدهم فلكل امرىء ما كسب وعليه ما اكتسب وكل امرىء عن عمله مسئول ، وملخص ذلك أن يقال : ليس ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا وانما دينه مطلق من القيود خال من السيئات أبيض ناصع على أنه لاعبرة بالمجد القديم ، والفضل الموروث ألا إنما المجد كل المجد أن يعمل الانسان بنفسه (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون)

الزمردة العاشرة

القبلة ومناسك الحج كالصفا والمروة التى كانت مناسك ابراهيم لتتفق الناس أثره فى أعماله الظاهرة وآدابه الباطنة ونظره العام فى السموات والأرض وهو قوله تعالى

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ

وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا
إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * قَدْ
نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ
مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ
أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو
عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُهْتَدُونَ * إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *

التفسير اللفظى

لما كان الشعور بالمكروه قبل حصوله كالمرض يتقدم الموت يطمئن به القلب ، و يسهل المكروه قال الله تعالى (سيقول) الجهال من اليهود والمشركين : أى شىء صرف النبى ﷺ والمؤمنين (عن) استقبال (قبلتهم التى كانوا عليها) وهو بيت المقدس (قل) يا محمد (لله) الجهات كلها مشرقها ومغربها وما بينهما : فأى اعتراض عليه أن يأمر بالتوجه الى أى جهة شاء (يهدى من يشاء) هدايته (الى طريق مستقيم) أى دين الاسلام ، ومنه أنتم ، وانا كما هديناكم الى هذا الدين (جعلناكم) يا أمة محمد (أمة وسطا) خيارا عدولا (لتكونوا شهداء على الناس) فى الدنيا والآخرة وسيأتى توضيحه كما سبق بعض ذلك (ويكون الرسول عليكم شهيدا) أنه بلغكم ، وماصيرنا القبلة لك الآن الجهة (التى كنت عليها) من قبل وهى الكعبة اذ كنت تصلى اليها فلما كانت الهجرة أمرناك باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود (الالنعلم) علم ظهور (من يتبع الرسول) فيصدقه (ممن ينقلب على عقبيه) راجعا الى الكفر شكا فى الدين فيظن من فى قلبه مرض أن الرسول متحير فى أمره متردد فى فعله ، ولقد ارتد جماعة لذلك (وان كانت) أى التولية (لكبيرة) لشاقة على الناس (إلا على الذين هدى الله) منهم . ولما قال حيى بن أخطب من عظماء اليهود للمؤمنين ان استقبالكم لبيت المقدس لايخلو إما أن يكون هدى ، فقد انتقلتم الآن الى الضلال ، وأما أن يكون ضلالا فلم أقركم عليه ؟ ثم ان من مات قبل التحويل مات على الضلال وضاعت أعماله . شق ذلك على أقارب من ماتوا قبل التحويل فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى (وما كان الله ليضيع ايمانكم) وهو صلاتكم الى بيت المقدس (إن الله بالناس لرءوف رحيم) أما بالمؤمنين فنى أنه لم يضع صلاتهم الى بيت المقدس ، وأما بالرسول فانه أجاب دعاءه وأعطاه طلبته ، اذ كان وهو يصلى الى جهة بيت المقدس يشم من اليهود الكره وكانوا يقولون ان محمدا يفارق ديننا و يصلى لقبلتنا ، وكان ﷺ يحب أن يصلى للكعبة حتى نزل عليه جبريل يوما فقال ياجبريل أود أن الله يحولنى لقبلة أبى ابراهيم فسل ربك ذلك ، فقال أنت أكرم على الله منى ثم صعد الى السماء فصار رسول الله ﷺ ينظر لجهتها منتظر اللاذن فى ذلك فنزل عليه جبريل بعد ركعتين من صلاة الظهر فى رجب بالأمر بالتحويل للكعبة فتحول وتحول الناس معه ، وكان يوما مشهودا فافتتن اليهود وأهل النفاق ، ونزل قوله تعالى (قد نرى تقلب وجهك) الآية : أى قد نرى تصرف وجهك (فى) جهة (السماء) متطلعا الى الوحى ومتشوقا للاذن باستقبال الكعبة لأنها قبلة أبيك ابراهيم ولأن العرب يألفونها فيسلمون (فلنولينك قبلة) تحبها فاستقبل فى الصلاة نحو (المسجد الحرام) أنتم أيها المؤمنون (حيثما كنتم فولوا وجوهكم) فى الصلاة (شطره وان الذين أوتوا الكتاب) وهم اليهود (ليعلمون) أن التولى للكعبة (الحق) الثابت (من ربهم) فان ذلك جاء فى نعت النبى أنه يتحول اليها (وما الله بغافل عما يعملون) أى اليهود من انكار أمر القبلة (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية) على صدقك فى أمر القبلة مايتبعون قبلتك عنادا منهم لك (وما أنت بتابع قبلتهم) لطمعه فى اسلامهم ولطمعهم أن يكون هو صاحبهم الذى كانوا ينتظرونه مؤيدا لهم وما اليهود بتابعين قبلة النصارى ، وهى مطلع الشمس التى ابتدعها لهم بولس القسيس . أنه بعد رفع عيسى قال لقيت عيسى عليه السلام فقال لى ان الشمس كوكب أحبه يبلغ سلامى فى كل يوم فمر قومى ليتوجهوا اليها فى صلاتهم ففعلوا ذلك

وما النصارى بتابعين قبلة اليهود وهو بيت المقدس (ولئن اتبعت) يامحمد (أهواءهم) التى يدعونك إليها (من بعد ماجاءك) من الوحى الآية (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه) محمدا (كما يعرفون أبناءهم) كعبد الله بن سلام إذ قال لقد عرفته حين رأيته كما أعرف ابنى ، ومعرفتى بمحمد أشدّ : فان الابن مظنون النسب : أما محمد فعرفته عن الله فى الكتاب (وان فريقا منهم ليكتمون الحق) نعت محمد (وهم يعلمون) ومعنى الممترين الشاكين (ولكل) فريق من الناس قبلة (هو موليها) وجهه فى صلاته . فبادروا الى الطاعات (أينما تكونوا) يجمعكم الله يوم القيامة (ومن حيث خرجت) لسفر الآية ، وقوله (لئلا يكون للناس) أى اليهود أو المشركين مجادلة فى التولى الى غير الكعبة : أى ليتنفى قول اليهود يجحد ديننا ويتبع قبلتنا ، وقول العرب : أى المشركين منهم يدعى ملة ابراهيم ويخالف قبلته (الا الذين ظلموا منهم) لأنهم يقولون ماتحوّل اليها الا ميلا منه الى دين آبائه فلا تخافوا جدالهم (واخشونى) بامتثال أمرى ، وعطف على قوله لئلا يكون قوله (ولأتم نعمتى عليكم) بالهداية الى معالم دينكم (ولعلكم تهتدون) الى الحق إتماما كاتمامها بارسالنا (فيكم رسولا منكم) وهو محمد ، وقوله (يزكيكم) يطهركم (ويعلمكم الكتاب) القرآن (والحكمة) مافيه من الأحكام (فاذكرونى) بالطاعة كالصلاة والتسبيح (أذكركم) بالثواب ، وفى الحديث عن الله « من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه » ، وفى الحديث أيضا « ان الله إذا أحبّ عبدا نادى جبريل فقال له ياجبريل إنى أحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل : ثم ينادى فى السماء : ان الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء : ثم يوضع له القبول فى الأرض » ثم قال تعالى (واشكروا لى) نعمتى بالطاعة (ولا تكفرون) بالمعصية (ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر) عن المعاصى وحظوظ النفس (والصلاة) إما أن تكون الدعاء ، وإما أن تكون الصلاة المعروفة (ان الله مع الصابرين) بالنصر وإجابة الدعاء .

ثبت بالتجربة التى قرأتها فى بعض الكتب واختبرتها أنا ان المتوجه لله بالدعاء مع الثقة بالاجابة وإقناع القلب الدائم أن مطلوبه سيتم مع المواظبة فى ذلك لابد من الاجابة لدعائه (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله) هم (أموات بل) هم (أحياء ولكن لا تشعرون) وحياتهم ليست جسدية من جنس حياة الحيوان ، والآية نزلت فى شهداء بدر وكانوا أربعة عشر ، وهذا دليل على أن ماقاله الفلاسفة من أن الأرواح جواهر قائمة بأنفسها باقية بعد الموت حق وصدق ، وهنا اتفق الشرع والعقل ، وسيأتى فى هذا المقام تفصيل أوسع من هذا (ولنبلونكم) ولنصيبنكم إصابة المختبر لأحوالكم هل تصبرون على البلاء وتستسلمون للقضاء (بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات) والخوف إما من الأعداء بالاغارة والايذاء أو من الله ، والجوع بالقحط أو الصيام فى رمضان ، والنقص من الأموال إما بالجوائح والمهلكات وإما بالزكاة والصدقات ، ونقص الانفس بالأمراض والقتل والموت ، والثمرات بالآفات العارضة ، وإنما فعلنا ذلك لننظر أتصبرون (وبشر الصابرين) على البلاء بالجنة (الذين اذا أصابتهم مصيبة) وبلاء (قالوا انا لله) ملكا وخلقا وعبيدا يفعل بنا مايشاء (وانا اليه راجعون) فى الآخرة فيجازينا ، والاسترجاع باللسان وبالقلب بحيث يتصور ماخلق لأجله وانه راجع الى ربه ويتذكر نعم الله عليه فيهون على نفسه ويستسلم له وفى الحديث « من استرجع عند المصيبة آجره الله فيها وأخلف عليه خيرا » وفى الحديث أيضا « ان مصباح النبي ﷺ طفىء فاسترجع فقالت عائشة انما هو مصباح فقال كل ماساء المؤمن فهو مصيبة » (أولئك عليهم صلوات من ربهم) أى تزكية ومغفرة (ورحمة) أى لطف واحسان (وأولئك هم المهتدون) للحق انتهى التفسير اللفظى

ايضاح وكشف

هنا استقام الأمر، واستوثقت الحجة، وقام البرهان، ووضح الدليل ان الدين الحق هو الحنيف الخالص من الكهانة والمعمودية وغيرها، ولاسبيل لذلك إلا برجوع الناس لدين الخليل، ومن آدابه الظاهرة أن يؤموا فى الصلاة الكعبة التى بناها، والقبلة التى اصطفاها، والأمة التى تقع قبلته، وتؤم طريقته، وتسلك سبيل ملته، من النظر فى السموات، والتغلغل فى الطبيعيات والكيماويات، والتنائى عن الأوهام كالأصنام، والصبر على ما به تعلو الهمم، وتسمو الأمم. لاجرم تكون وسطاً وعدولا، ورجالها أخياراً، وهداتها مزكين بالعلم العالى والعمل الشريف، والفضل المنيف، إذ يعلمون أن الله ما خلق الخلق سدى: « وان من أمة إلا خلا فيها نذير. بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » فيشهدون على الأمم جميعاً من خلا قبلهم، ومن سيلحق بهم بعدهم، ومن هم لهم معاصرون. ذلك شأنهم فى الآخرة. ان أمة محمد يشهدون على الأمم أن أنبياءهم بلغوهم فيؤتى بالنبىّ صلى الله عليه وسلم فيشهد أن أمته عدل. ذلك حالهم فى الآخرة. لاجرم أن الآخرة ثمرة الدنيا. فعلى المسلمين اليوم أن يسموا الى مرتبتهم. ويقوموا بما وجب عليهم فلقد صدقوا كل رسول ونبىّ. المسلمون اليوم وسط بين المشارق. والمغارب وسط بين الغرب والشرق الأقصى وأمريكا. المسلمون أمة بين المسيح وبوذا، جعلهم الله بين الأمتين الغربية والشرقية، انهم يؤمنون بما أنزل الله على الأنبياء، ومنهم من قصّ على نبيه ومنهم من لم يقصّ. وكأنهم أولى الأمم وأجدر الناس بالتغلغل فى العلوم. والترقى فى المعارف. يدعوهم دينهم وملة أبيهم ابراهيم لعلم كل شىء. والنظر فى دين كل أمة « لانفرق بين أحد من رسله » فمركزهم إنما هو الاشراف على العالمين. والنظر نظرة عامة للناس فى الدارين. فالعدل خبير بأحوال من شهد عليه وعلى الشاهد أن يؤدى الشهادة عن عيان. ولئن قام بالأمر آباؤنا السابقون. وأسلافنا المؤمنون. فهل ورثنا مجدهم. وصرنا عدولا مثلهم؟ أنا أشك فى قضيتنا، وأساس العلم والحكمة لأمتنا، حتى تنال صفة العدالة وترث أن تكون شاهدة عن عيان ووجدان. فليكن من المسلمين اليوم سياح وعلماء. وليقرءوا علوم المغارب والمشارق. ويجدّوا فى الصناعات. وبناء السفن الماخرات. حتى يجوسوا خلال البلاد. هذا مقتضى وصفهم بالعدالة. ولئن أعرض المسلمون اليوم عما رسمناه. واتكلوا على ما سمعناه. ليصبحن كأمة اليهود بشروا بأنى فضلتكم على العالمين. فلما أن أعرضوا قيل لهم: « كونوا قردة خاسئين » فلا يظن المسلمون أن الأمر فوضى وأن المسلمين ينالون تلك العدالة والشرف بلا ثمن ولا عمل. كلا. فان لم يقوموا بالعلم مجدّين. والعمل شاكرين. قلب الدهر لهم ظهر المجنّ. وأبدل بجنتهم العرفانية ذلة الأبد. وفقد الولد. وضياع البلد. وقلة العدد. ولقد ذكرنا قبل هذا فى الآيات السابقة عند ذكر الخليل عليه السلام ما كان من اخبار الله تعالى قائلا: « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وأن المسلمين غفلوا وذكرت أنهم شهداء على الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

بشرى للمسلمين

ماكنت وأنا أكتب ما تقدم. وأنا مهتم بالأمم الاسلامية. لائم لأهل العصر الحاضر على التوانى والكسل أظن أن فيهم من نبذوا الانزواء. وظهروا فى الميدان. وعرفوا قيمة أنفسهم. أفلا أعجب من حكمة الله عز وجل أكتب هذا القول وأنا آسف على الأمة اذ الخبر السارّ الوارد فى الجرائد عن أهالى طرابلس وبرقة ينادون بالأمير محمد ادريس المهدى السنوسى أميراً على القطرين. وهذا نص ما كتبوه إلى سموّ مولانا الأمير الجليل السيد محمد ادريس حفظه الله ورعاه:

« تحية تليق بالمقام الرفيع ، والجناب الأسنى المنيع ، وبعد فانه غير خاف على سموكم أن الخلاف لم يزل قائما بيننا و بين الحكومة الايطالية ، ذلك لأنها وجهت عزمها الى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسلميها وادارتها ، وجعلت من قوتها مبررا التصرف فى مصيرنا وحقوقنا الطبيعية [ونحن خير أمة أخرجت للناس] لانتحمل ضيما ، ولانرضى أن تضمحل شريعتنا ، ولاأن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم الخ » انتهى المقصود منه

قرأت هذا اليوم وأنا أعجب سرورا وابتهاجا ، إذ أكتب هذا القول ومداده لم يجف ، وأرى أن هذه الأمة اليقظة الشريفة النبيلة المضيئة العريقة المجد الكريمة المحتد قد أخذت تضىء و يبهر سناها وتشرق على العالمين .

يأيها العقلاء : ان هناك نورا أشرق من السماء وتقبله كثير من العقول السليمة فى ديار الاسلام ، واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه ، تلك كهرباء سرت فى قلوب استعدت للحكمة فى مشارق الاسلام ومغاربه ، ان توافق الخواطر يبشر بالنجاح ، سيرجع المسلمون لمجدهم ويكونون رحمة للعالمين « ولتعلمن نبأه بعد حين »

انى لما ألفت « التاج المرصع » منذ نحو ١٨ سنة كنت أقول فى نفسى : « ستنبغ فى الاسلام دول قبل ثلاثين سنة » أما فى هذا الكتاب فانى أرى نور الله قد أشرق على القلوب ، وتواردت الخواطر « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وما كنت لأظن أن يقول أحد هذه الآية « كنتم خير أمة أخرجت للناس » مستشهدا بها على الاستقلال السياسى . هذه نزعة شريفة تبشر بالنجاح والفلاح . وهذا وحده منشأ عجبى وسرورى . انتهى

إيضاح الكلام فى أمر القبلة

ههنا بسط الله المقال فى أمر القبلة ، ولما تشوف النبى صلى الله عليه وسلم لقبلة ترضيه ، وكانت الأمم تمتاز بقبلتها ، واحتج العرب واليهود على استقبال بيت المقدس وعابوا المسلمين والنبى ﷺ فى استقباله كرر الأمر بالتولى ثلاث مرات لكل من الأسباب واحدة مقرونة بقوله « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » والثانية مقرونة بقوله «ولكل وجهة هو موليها» والثالثة بقوله « لئلا يكون للناس عليكم حجة » ثم أبان أن ذلك الرسول الموعود ، والنبى المنشود ، الذى دعا به ابراهيم انما هو محمد صلى الله عليه وسلم بقوله « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا » وههنا أخذ يعطى ملخص دين الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وأصوله الشريعة التى هى الملة البيضاء ، وهذه الاصول توافق دين ابراهيم الخليل وهو الدين العام فقال « فاذكرونى أذكركم » ، يقول : هاأنا ذا ذكرتكم بارسال محمد الذى وعدت على لسان ابراهيم ، فكما ذكرتكم بذلك فاذكرونى أذكركم ، وههنا أخذ يعدد تلك الاصول المرضية ، والحكم الشرعية ، فكان حاصلها يرجع الى علم وعمل وأخلاق نفسية ، فالعلم « والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار » الآية وهى تقابل ماجاء فى سورة الأنعام من نظرات ابراهيم الخليل للعلويات والزهرة والقمر والشمس واستخراج الحكمة البالغة منها وهو التوحيد ، والعمل أشار له بالأمر بالصلاة وبالسعى بين الصفا والمروة لأنهما من شعائر الله اتباعا لدين الخليل إذ كان يحج و يصلى ، وهذه الأماكن مصلاه ومناسكه ، وللأخلاق أشار بالصبر على البلوى من القتل والخوف والجوع ونقص الأموال كما تجرع ابراهيم مرارة فراق الوطن ، وقاسى الابتلاء والمحنة بالولد ، إذ أمر بذبحه ، وذاق الأمرين ، إذ ألقى فى النار وابتليت هاجر بنقص الثمرات والجوع فلم يكن للمسلم بد من التغلغل فى العلوم الشريفة من علويات وسفليات ومن امتطاء غارب الجد فى فهم الكيمياء التى أشار لها تقطيعه للطير وتحليله لأجزائها فيما مر عليك فى هذه السورة ، وليكن المسلم مخلصا لله فلا يرهب الموت فى سبيل الله ولا يتحاشى نكبة فراق الوطن العزيز اذا سيم خسفا وأرغم على الذلة ، فالصابرون لهم البشرى فى الدارين ، حياة المؤمن الحنيفى بين نعمة يشكرها ونقمة

يصبر

يصبر لها ، والشكر يشمل ترقية العقول بالعلوم والنظر ، والعلم والعمل ، والصبر فى الأخلاق ، كالملح فى الطعام فيه الشجاعة فى الجهاد ، والعفة للفقراء ، والقناعة للأغنياء ، وسكون النفس ، وثبات الجأش . الصبر إما عن مرغوب ، أوعلى مكروه ، أوفى عمل ونصب ، وللأول نقص الثمرات والأموال والجوع ، والثانى هلاك الأنفس ، والثالث الصلاة والنظر فى السموات والأرض والعلوم والحكمة .

الكلام على قوله تعالى : « ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لاتشعرون »
وما مناسبتها لما قبلها ومابعدها ، وإيضاح هذا الموضوع الذى ذكرت فيه هذه الآية

اعلم أن الانسان فى هذه الحياة خلق محبا لأن يعلو الى أقصى مقام من السعادة والشرف والراحة ، وأعظم السعادة أن يكون الحى منا شابا لايهرم ، وغنيا لايفتقر ، وصحيحا لا يمرض ، وحيا لايموت ، وجميلا لايقبح ، وهذه مركوزة فى جبلة كل حى من بنى آدم وان لم ينطقوا بها ، وقد خلقنا فى الأرض وليس فيها ذلك ، فنحن عرضة للمرض والفقر والموت ، ونقص المال والأنفس والثمرات ، وموت الأولاد ، وفقد الأحباب ، وكل ذلك محن ورزايا ، ونحن اذا احتملنا فكالحيوان يموت ولده فيهلك حزنا عليه حتى اذا طال الأمد نسى الولد الولد فذكرنا الله بهذه الآيات وقال : « وبشر الصابرين » الذين يذكرون فى أمر الدنيا ويعلمون ان الله هو المعطى وهو الآخذ . هذا هو ظاهر القول ولكن سره الذى عرفه حكماء الاسلام وان كان ملخفى عليهم أعظم

ان الانسان يتحمل هذه المصائب وبتواليها عليه تقوى نفسه وترتفع وان لم تشعر بذلك ، ومن لم تصبه المصائب يكون أشبه بالذهب الذى لم تهذبه النار ، ولم تصغه حليا ولادينارا ، بل هو تبر فى التراب مدفون ، وعن الأنظار مكنون ، أما الرجل الذى أدبه الدهر فانه تقوى عزيمته ، ويتخذ من الحوادث درعا تقيه العاديات ومجانا يقيه الكارثات ، ويرتقى الى ما استعد له من الدرجات ، وكلما كان الاحتمال أكثر كانت الروح أعلى وأشرف .

واعلم أن هذا التقرير الذى ذكرته لك ملخص كتب قرأتها عن اليونانيين والاوروبيين وأسلافنا ، ووالله انى لأعجب للقرآن كيف يأتى بتلك الثمرات الناضجة بحيث يتمنى العامة أن يفهموها ، والعلماء أن يبحثوها ، يقول الله « وبشر الصابرين » وهذا هو الذى بحث عليه علماء الحاذقين قبل نزول الانجيل فضلا عن القرآن وقال أكابر الحكماء : « السعادة منوطة بالمصائب وتحملها » . وقال أرسطاطاليس فى كتابه الذى أرسله إلى الاسكندر مامعناه : « ان الناس يتحملون المصائب ولكنهم لايحتملون النعم ، ان النعم ثقيلة على الناس تعجبهم » ثم أوضح ذلك فقال : « اذا رأيت أمة أغدقت عليها النعم ، وجانبها النصب والتعب ، وأبطرها الرخاء ، فلتعلم أن ساعتها قد اقتربت وأجلها قد أوشك أن ينتهى ، فأما تلك الأمة التى أصابها الجهد بسبب الحرب ومقارعة الأبطال فى الميدان ومحاربة عدوها الغادر الفاتك فانها تنشط من عقالها ، وتستعد لسعادتها ، وتبنى مجدها ، ومادامت عاملة ناصبة فان اتسع لها العيش واستراح بالها جرعتها الراحة كأس العذاب ، وذاقت من الذلة أنواعا ، ومن الهموم أوفى نصيب . وأنت ترى أن الذين ناصبهم دهرهم العداء فى أول حياتهم هم الذين قارعوا الأمم بأسهم ورفضوا أممهم ، والأمثال على ذلك كثيرة يعرفها كل ذى عقل وفكر منير » ثم تعجب كيف ذكر آية الذين قتلوا فى سبيل الله وأنهم ليسوا أمواتا بل أحياء فى غضون الكلام على الصبر على المكاره ، والابتلاء بالجوع والنقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . واذا قلنا ان أمر القبلة انما هو لتصحيح عبادة وهى الصلاة ، وأن الصلاة ومامعها من أركان الاسلام يقصد بها تهذيب النفس ، وأن الصبر والابتلاء بالجوع ومامعه مقويات للنفس فوق العبادات ، فأى مناسبة لذكر أن الأموات أحياء ؟ .

أقول : اعلم أن هذه الآية ذكرت هنا لأمرين : الأول أن يتعزى المؤمن ، وهو فى حال الشقاء ، والنصب

والبلاء ، والمصيبة ، ويقول أنا الآن وان كنت فى بؤس ، ونقص فى الأموال والنفس ، وفى المصائب ، فان يوم الموت يكون سعادتى ، ويكون حظى موفورا فلا أحتاج لمال ، ولا يفارقنى الولد ، ولا يفاجئنى العدو وأكون بعيدا عن المصائب والبلايا ، وهو يوم سعادتى ، والثانى : ان هذه المصائب أشبه بالأجنحة تطير بها الروح فى عالم السعادة فى الدنيا والآخرة كما سأذكره فى لغز قابس ، فما ذكر الروح حاطها بما يقويها من جانبيها كالطائر يطير بجناحيه ، فتأمل فى هذا الكلام كله تجده مخالفا لمألوف عند العامة ، فبينما العامة يقولون ان الرخاء سعادة ، يقول الحكماء والكتاب السماوى كلا فالبشرى للصابرين على المصائب ، وبينما الناس يقولون ان الموت مصيبة يقول الحكماء كلا فالموت خلاص من أسر الطبيعة وذل المادة ، ويقول القرآن : بل أحياء عند ربهم ، ويقول فى آية أخرى « فرحين بما آتاهم الله من فضله » الآية ، ولعلك تقول وهل فى هذه السورة من دليل أوشبه دليل يرجع إليه العقل عند ارادة التحقيق بالحكمة والبرهان العقلى ؟ أقول : اعلم أنه قد كنز الله لك فى هذه السورة كنزين عظيمين خبأهما عن الجهلاء ، وأراهما العلماء هذان الكنزان متى كشف غطاؤهما أبصرت البرهان فيهما ، هذان الكنزان يكتنفان هذه الآية من بعد كما خبأ الله الكهرباء ، وأسرار العناصر الأرضية ، والتنويم المغناطيسى ، حتى جاء أجلها فابرزها للناس هكذا هنا فى هذه السورة أودع كنزين لسر الروح ، وقد أراد فى هذا الزمان ابرازهما ، والكشف عن حقيقتهما ليرتقى المسلمون فى أنواع العلوم الشريفة .

ماهما الكنزان

أما أحد هذين الكنزين فهو فى أوائل السورة فى قصة البقرة ، وقوله هناك « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى » ، وقد قدمت هناك فى تفسير الآية ملخص علم استحضار الأرواح فلا أعيد ذكره ولذلك قال عقبها « ويريكم آياته » أى ان هذا العلم سيظهره الله للناس متى جاء وقته والا فلماذا يقول : ويريكم آياته عقب احياء الموتى ، ثم يقول لعلكم تعقلون : أى تدركون ان الأرواح حية بالمعاينة التى تعرف عقولكم بها حقيقة أن الأرواح حية ، وأما الكنز الثانى فهو ماسيأتى قبل آخر السورة ، وهى مسألة العزير وحماره ، وانه قال الله له وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس الخ ، ومسألة الخليل إذ « قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى » ثم أمره أن يبحث ويجد فى تشريح الطيور وتقطيعها وخلط لحمها بدمها ، وذلك أشبه بالتحليل والتركيب الكيماويين الدالين على نظام هذه المركبات وأنها مبدعة متقنة ، وفى ذلك من العجائب والبدائع ما يحير الناظر حتى يقتنع بأن الذى أبدع هذه الصور ، وهى منظمة لايخلق هذه الأرواح سدى فيخلقها ثم يفنيها الى الأبد ، فذلك وان لم يكن وسيلة فى عمل الخليل الى رجوع الأرواح الى أجسادها ، ثم حيث الطيور فان تلك الوسيلة التحليلية من الدلائل الاقناعية وان لم تكن يقينية .

ولعلك تقول هذان ليسا كنزين ، لأن الناس جميعا يقرءونهما ومعناهما ظاهر ، أقول على رسلك وهل يدور فى خلد أكثر الناس أن الآية الأولى ، وهى التى فى قصة القتيل والبقرة ذكرت كالدليل العقلى على أن الأرواح أحياء ، كلا ، إنما هى من الأمور السمعية المروية عن بنى إسرائيل ، وهذه لا يعرفها العقل ألبتة ، فلما انتشر خبر استحضار الأرواح فى العالم المحيط بنا قلنا هذه تشير إلى الدليل العقلى ، لأن الاستحضار فى العالم الانسانى منتشر بطرق غير ملجاء فى القرآن فلننظر فى ذلك ، وهكذا من ذا الذى يدور بخلده من المتوسطين ، أن مسألة الخليل وتقطيعه الطير كالدليل الاقناعى على علم بقاء الأرواح باعتبار أن هذه الصور المتقنة لايتصور العقل أن تخلق عبثا فلا بد من بقائها والآيتان متباعدتان عن آيتنا إحداهما قبلها والأخرى بعدها مع البعد

الشلمع حتى لا يخطن لهما الامن هداهم الله ، فثبت أنهما كنزان لمن يعقلون ، واعلم أن هذه الآيات المكونات من أسطر تعد على الأصابع لا يعرف قدرها الا قليل .

وأقول : ان القرآن لن يعرف قدره الا أحد رجلين رجل اطلع على كتب أكابر الحكماء ، ورجل صفت سريرته ، فأدرك الحقيقة ناصعة نقية ، والدليل على ذلك أن هذه الآية احتوت على ما أطال به قابس اليونانى فى لغزه مع أن الآية أسهل لفظا ، وأقرب متناولا ، يدركها الخاص والعام .

لغز قابس وهو فيلسوف يونانى عاش قبل الميلاد بخمسمائة سنة

[محصل اللغز] : أن هذا الفيلسوف صور صورا ترمز الى مايعانيه الآدميون من الآلام والآمال ، فمنها امرأة بكماء خرساء صماء رعناء جاهلة جالسة على حجر مربع ، وحولها قوم تأخذ من هذا ، وتعطى ذلك بلا عقل ولا روية فيفرح الآخذ ويحزن المعطى ، ومنها نساء جبلات حاليات بهيات ، قد حظى بهن أناس من أولئك الذين أخذوا من تلك الرعناء على سبيل المصادفة ، ومنها نساء باكيات حزينات لابسات ثيابا باليات ينتفن شعورهن ، ويلطمن خدودهن ، وقد نحلت الأبدان ، وتغيرت الألوان ، وحالت الأحوال ، ومنها نساء غير جبلات ، ولا عابسات يشرن إلى طريق فى الجبل ليهدين الناس إلى ارتقائه ، ومنها أناس قليلون طالعون هذا الجبل ، وقوم آخرون لم يقدروا على العروج إليه فرجعوا خائبين ، فأما المرأة البكماء ، فقال إنها الحظ فانه يكون الناس بلا قانون ، ولا قاعدة ، والحظوظ هى الأموال ، والولد ، والجاه ، والصحة ، والأصحاب ، والقدرة فكل ذلك يأتى و يذهب ، فمن حاز فرح ، ومن حرم من ذلك حزن ، وأما النساء الجبلات فانهن تماثيل اللذات والشهوات التى يتلبس بها من أعطته تلك الحمقاء حظا مما سلبته من غيره ، وأما النساء البائسات فانهن تمثيل لأولئك الذين أضاعوا المال والصحة فى نيل أوطارهم ، ثم أصابهم الفقر ، أو المرض ، أو الذل فانهم يندمون ويحزنون ، ثم يصيرون دجالين كذابين ، فهذه صورة ندمهم على أيام قدرتهم ، وأما النساء اللاتى يشرن إلى طريق فى الجبل فانه سماهن الأدب المزور : أى ان النساء تمثيل له ، والأدب المزور هو جميع العلوم التى يقرؤها الناس فى المدارس من فلك وطبيعة وأدب وشعر . قال : لأن أهل العلم لم يزيدوا عن أرباب المال شيئا ، وإنما العلم نوع من الثروة قال بدليل أنا نرى الشعراء ، وعلماء الفلك ، وعلماء الأدب واللغة وأمثالهم يكذبون ويغشون و يعثون فى الأرض فسادا فلذا سمه الأدب المزور ، فاذا عمل العلماء بما علموا وصبروا فى هذه الدنيا على ما أصيبوا أصبحوا أحرارا ، وهذا هو المقصود من السعادة ، وأما الاشارة إلى طريق الجبل فان قليلا من أهل العلم من يعمل بما علم ، والمراد مما ذكرنا أن الصبر والتحمل والاستهانة بالمصائب هى التى تسعد المرء فى الدنيا فمن كملت نفسه ارتقى الجبل ، ولبس تاج السعادة ، ومن سئم العمل والمشقة رجع من نصف الطريق التى سلكها باشارة أولئك اللاتى هدينه إليها فصار التحمل والصبر سبيل السعادة ، وقد يدركها الجاهل ويحرم منها العالم ، أما الصحة والمال والجاه وأمثالها ، فانها كالليل والنهار ، والشتاء ، والصيف تأتى على البر والفاجر ، والسعادة ماقررناه ، فانظر كيف أغنى الله المسلمين عن ذلك بهذه الآيات ، وجعل تلك السعادة قوله « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » فتعجب من العلم فى القرآن انتهى .

هذا تحقيق فى شأن الصفا والمروة

الصفا والمروة جبلان بمكة عليهما صنمان ، فعلى الصفا اساف ، وعلى المروة نائلة ، وكانا يعبدان فى الجاهلية فتحرج المسلمون أن يسعوا بينهما وتجاوزهما الأنصار من قبل ذلك ، فلقد كانوا يهلون لمناة التى تجاه قديد

وهو موضع فى منازل طريق مكة ، ومناة كانت للأنصار ، والصفا والمروة كانا لأهل مكة ، وكان الأنصار لايتطوّفون بالصفا والمروة كراهة ماعبده غيرهم ، فنزلت الآية للفريقين (ان الصفا والمروة من شعائر الله) الآية ، واجماع الأمة أن السعى مشروع فى الحج والعمرة . وقال أحمد انه سنة ، وبه قال أنس وابن عباس رضى الله عنهما لقوله (فلاجناح عليه) فانه يفهم منه التخيير ، وعن أبى حنيفة أنه واجب يجبر بالدم ، وعن مالك والشافعى أنه ركن لقوله ﷺ « اسعوا فان الله كتب عليكم السعى » .

(المقصد التاسع)

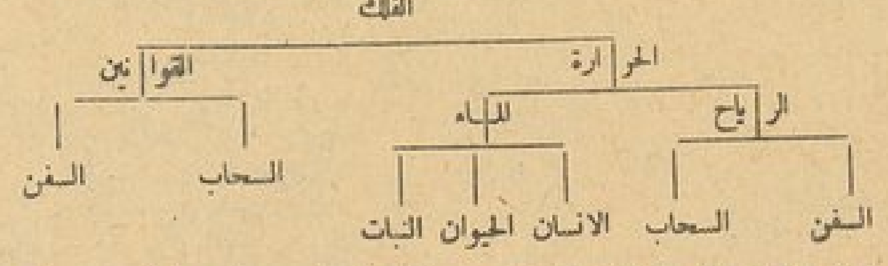
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا) كأحبار اليهود (من البينات) كالآيات الدالات على أمر محمد (والهدى) مايهدى إلى وجوب اتباعه (من بعد مابيناه للناس) لخصناه (فى الكتاب) التوراة (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) أى من يتأتى منهم اللعن من الملائكة والثقلين (إلا الذين تابوا) عن الكتمان وسائر الذنوب (وأصلحوا) ما أفسدوه بالتدارك (وبينوا) مابينه الله فى كتابهم (فأولئك أتوب عليهم) بالقبول والمغفرة (وأنا التواب الرحيم) المبالغ فى قبول التوبة (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) أى ومن لم يتب من الكاتمين حتى مات (أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) استقرّ عليهم اللعن من الله ومن يعتدّ بلعنه من خلقه (خالدين فيها) أى فى اللعنة أو النار (لايخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) يمهلون (وإلهكم إله واحد) خطاب عام : أى المستحق منكم العبادة واحد لاشريك له يصح أن يعبد ، ويسمى إلها (لا إله إلا هو) تقرير للوحدانية (الرحمن الرحيم) أى المولى لجميع النعم كلها أصولها وفروعها ، ولما نزلت هذه الآية تعجب المشركون ، وقالوا ان كنت صادقا فأت بآية نعرف بها صدقك فنزل (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) تعاقبهما كقوله تعالى « جعل الليل والنهار خلفة » واختلافهما بالطول والقصر والزيادة والنقصان بحيث يزيد النهار ماينقص من الليل ، وبالعكس كما ستراه ، ومن عجب أن النهار فى السنة كلها والليل يتساويان : أى أن ساعات أحدهما فى السنة تساوى ساعات

الآخر (والفلك) السفن ، ويطلق على الواحد والجمع (التي تجرى في البحر بما ينفع الناس) أي بالذي ينفعهم مما يحمل فيها * وقوله (وما أنزل الله من السماء من ماء) السماء هنا السحاب ، لأن كل ماعلاك فأظلك فهو سماء ، ومن الأولى للابتداء ، ومن الثانية للبيان * وقوله (فأحيا به الأرض بعد موتها) أي بالنبات * وقوله (وبث فيها من كل دابة) عطف على أنزل : كأنه استدل بنزول المطر وتكوّن النبات ، وبث الحيوان في الأرض * وقوله (وتصريف الرياح) أي في مهابها وأحوالها (والسحاب المسخر) المذلل * وقوله (بين السماء والأرض) أي في الهواء * وقوله (لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون فيها وينظرون إليها بعيون قلوبهم ، وعنه ﷺ « ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها » أي لم يتفكر فيها .

في هذه الآيات وجوب نشر الفضيلة والعلم . وذكر الوعيد على من كتم العلم ، فمن كتمه فهو ملعون محروم مطرود من رحمة الله عز وجل ، ثم أعقبه بأجل العلوم وأشرف الحكمة ، وهو ان في خلق السموات والأرض ، ولقد شرحنا هذه الآية في كتاب التاج المرصع ، وأبنا كيف أبانت نظام العالم العلوى والسفلى وارتباطهما وتعاشقهما ، وكيف بدأ بالفلك وثنى بعلم الطبيعة وجعلها منظمة كأنها انسان واحد وحيوان واحد ونبات واحد فترى كل كائن مستمدا من سواه ، فاختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها في البروج الشمالية والجنوبية يدعو الى اختلاف الحرارة والبرودة في الأقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فترى الأمطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لناموس الأفلاك وسير الشمس في البروج فتنشأ ممالك النبات والحيوان والانسان من ذلك الماء وتهب الرياح فتسير السفن كما تسير السحب ، ولكل قوانين في سيره ، فترى السفن لن تتجاوز مارسم الملاحون في رسومهم من الخطوط البحرية ، ولن تعدو السحب طريقها المرسوم لها بالنواميس الطبيعية رحمة للناس ، وهذا جميعه مرتبط بالعلويات ، وكيف تسير السفن إلا بالقوانين البحرية المستخرجة من علم الأفلاك ومراقبة الأطوال والعروض والنجوم ، وسير الشمس ، وملاحظة الأجرام العلوية وتحاشى الابرة المتجهة الى القطبين ، أم كيف يتحرك السحاب إلا بالرياح وهي المسخرة بالحرارة المنبعثة من الأجرام العلوية فرجع الأمر كله الى أصل نجم عنه فرعان كلاهما له فروع ، الأصل اختلاف الليل والنهار بالحركات الفلكية ، والفرعان القوانين المودعة في الأجرام العلوية والحرارة المنبعثة على الكرة الأرضية ، ومن الأول نشأ فرعان : سير السحب وسير السفن بالقوانين البحرية لأجل التجارة وتبادل المنافع بين الأمم فيأخذ الشرق ما نبت في الغرب ويأكل الغربي ما نبت في الشرق ، ومن الثاني فرعان : إثارة الهواء والماء فحرك الهواء السحاب والسفن وتبخر الماء بالحرارة فعلا في الجو فهبط ماء على اليابسة وكان الحيوان والنبات منه ، وهذه صورته :



فترى هذا العالم على هذا النسق كرة واحدة وشكلا واحدا يحتاج أدناه الى أعلاه والأعلى مفيد للأسفل والأسفل مستمد من الأعلى مستفيد منه كما ظهر في هذا الشكل ، واذا كان هذا شكل النظام الذى في عالمنا فمن الأقرب للمعقول أن نهج النظم الأخرى على هذا النمط ، وعليه أصبح هذا العالم لدى العلماء والمفكرين كجسم واحد له روح وقلب وأعضاء متحركة وحرارة ، وهل دورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس والأقمار إلا كما يدور الدم في أجسامنا ، فاذا أبصرنا بعقولنا أدركنا العالم كانسان واحد وحيوان واحد له رأس

وأعضاء رئيسة ومرءوسة « ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » ولا يعقل هذا إلا من درس من كل فنّ طرفا ثم مزج العلوم وربطها ثم وازنها فهناك يدرك هـذا القول ، ولاجرم أن الجسم الواحد مدبره واحد فارتباط العوالم واستمدادها يدل أن مدبرها واحد

وتأمل كيف يقول : « وإلهكم إله واحد » الخ ثم يعقبه بهذا الشكل المنتظم من الكائنات الصائرة منهاجا واحدا ، فهاهوذا يقول : إلهكم واحد ، ولن تستشعروا هذه الوحدة إلا اذا قرأتم العلوم وعشتم بها وصوّرت فى عقولكم شكلا منظما كما وضعناه فتدركون مزاجه وبجسده ومنه تعرفون أن المدبر واحـد ، ولقد رأيت علماء اليونانيين يطنطنون بأن العالم واحـد ، و يبرهنون ببراهين قاحلة يابسة خلت من العلوم والحكمة على عادتهم فى مثل ذلك وقسموه أعراضا وأفلاكا وجواهر ، ثم يقولون : لن يمكن فى العقل وجود سوى ما رأينا ، فاذا كثرت العوالم فهى من هذه الأجزاء ، ولم أرهم يحومون حول ارتباطه الطبيعى ، ههنا دعا الله الناس للدين بالعلوم الكونية كما دعاهم أوّلا بها فى قوله : « ياأيها الناس اعبـدوا ربكم » ومابينهما كان مناضلة اليهود بالحجة وتأسيس دين الاسلام على قواعد إبراهيم ، ومن هذا نحكم كيف أصبح المسلمون أبعد الأمم عن مطالب القرآن ومقصوده .

ايضاح الكلام على قوله تعالى : و إلهكم إله واحد الخ

أما الوحدانية فقد عرفناها فيما رأيت من النظام فى أحوال العالم فيما ذكرته فى هـذا المقام ، وأما الرحمن الرحيم ، فقد مرّ الكلام عليهما فى أوّل الفاتحة ، وأما الكلام على السموات ، فقد تقدّم فى الكلام على قوله تعالى « ثم استوى إلى السماء فسوّاهنّ سبع سموات » ، أما الكلام على الأرض .

فاعلم أن كرة الأرض طبقات ساف فوق ساف متلبدة مختلفة التراكيب والحلقة .

فنها صخور ، وجبال صلبة ، وأحجار وجلاميد صلدة ، وحصى ملس ، ورمال جريشة ، وطين رخو وتراب لين وسباخ وشروج كل منها مختلط بالآخر أو مجاوره ، قال تعالى « وفى الأرض قطع متجاورات » ، وهذه القطع مختلفات الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والمنافع ، ومن طينها وترابها ، وأحجارها ، وجبالها حمر و بيض وصفر ، وخضر ، وزرق اختلفت اختلاف الألوان المكوّنة للون الشمس المشرق عليها ، فقبل بعضها الحمرة و بعضها الصفرة ، وهكذا كما قبل قوس قزح تلك الألوان خلالها ، قال تعالى « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إنّ الله عزيز غفور » ، ومن طينها وترابها ماهو عـذب المذاق ومرّ الطعم ، أو مالح ، أو عفص ، أو حلو ، أوحامض ، ومنها ماهوطيب شمها ومنتن رائحتها ، ثم ان الأرض بجملتها كثيرة التخلخل ، والتجاريف والعروق ، والجداول ، والأنهار داخلها وخارجها كثيرة الأهوية والمغارات والكهوف ، وهذه مملوءة من المياه والبخارات ، وتكون طعوم تلك المياه ، وروائحها ، وغلظها ، ولطافتها ، وثقلها ، وخفتها بحسب تربة بقاعها وطين مكانها ، ووجود قرار مستنقعاتها ، وفيها من المعادن مايتكوّن فى الطين والتراب ويتمّ نضجها فى سنة أوأقلّ ، كالكبريت ، والملح ، والشب ، والزاجات ، وماشا كلها ، ومنها مايتكوّن فى قعر البحار ، ولايتمّ نضجها إلا فى سنة أو أكثر منها كالدر والمرجان ، ومنها مايتكوّن فى كهوف الجبال ، وجوف الأحجار ، وخلل الرمال ولا يتمّ نضجها إلا فى السنين الطوال كالذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، ومنها مالايتكوّن إلا فى آماد طويلة كالياقوت والزبرجد والعقيق وماشا كلها .

واعلم أن الناس على قسمين خاصة وعامّة ، فالعامّة لايعرفون من المطالب إلا مايحتاجون إليـه من طعام وشراب ، ولباس ، ومسكن ، ودواء ، فالجوع ، والعطش ، والعرى ، والمرض التى تحدث لهم تلجئهم إلى طلب تلك المطالب ، وذلك الالجاء بما جبلت عليه النفوس الحيوانية عامّة من الاحساس بالآلام لفقد مايحفظ الحياة

من

من غذاء ودواء وحرارة وما أشبه ذلك ، وهذه الآلام يظنها الجاهل نقمة ، وهى فى الحقيقة نعمة وموهبة لسائر الحيوان لتحفظ أجسامها ويبقى كيانها ، وهذه المطالب اشترك فيها الحيوان والانسان ، وكذلك النبات ، وهناك مطالب شريفة ومنازل عالية نام عنها الحيوان والجهال وأغرم بها وعشقها الحكماء وأكابر الرجال ، ألا وهى مطالب العقول من العجائب والبدائع والنظام الجميل والجمال الابداعى ، فهذه المطالب غابت عن أبصار الجهال ، واشتاقها العلماء ، ولأضرب لك مثلا بالأرض التى ذكرنا بعض عجائبها ، ان الجاهل لايعبأ بها ويراها أمرا لاقيمة له مزدراة لانه لايفرح إلا بالممنوع عنه ، أما المبذول له الحاضر بين يديه فانه مبتذل مكروه منبوذ ، وكلما كثرت النعم وحضرت كان الشكر عليها أقلّ والفرح بها معدوما ، وكلما تباعدت المطالب ، ووعرت طرقها كان الفرح بها والشكر عليها موفورين ، فالأرض والهواء وضوء الشمس وجمال النجوم والأنوار حاضرة عند الناس ، وهى النعم العظيمة والمواهب الكبيرة ، بل السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، والعقل والبصر كلها نعم مبذولة ، ولكن أكثر الناس لايعدّونها نعمة ، ولا يفرحون بها ، ولا يشكرون إلا بما نصر ، ثم نالوه من طعام وشراب ودينار ودرهم وامتياز الانسان عمن حوله بثوب ، أوملبس ، أوصاحب ، أوحبيب ، أوسلطة عليهم الى غير ذلك ، وعلى ذلك ترى الأرض لايلتفت اليها الجهال ولا يعدّونها نعمة ، وغاب عنهم هذا الجمال البديع الذى يخرج منها ويصدر عنها ، فتلك المروج ، والنباتات ، وألوانها ، وبدائعها ، وتلك المعادن واختلافها والمياه وأنواعها كلها من نعمة الله فى خلق الأرض ، ولا يزال العالم يبحث فى عجائب أحجارها ومعادنها ويستخرج منها مواد البناء ، ومواد الصباغة ، والمعادن ، والأحجار النفيسة حتى تشرف نفسه بالعلم ، وتتحلى بالعرفان ، فالأرض منها الغذاء ، ومن النظر إليها العلم والعرفان ، والشكر لمنعم الحكيم العليم ، ولا يزال يرتقى فى العلم ، حتى يعرف أنها كوكب من الكواكب جارية كما تجرى تلك الكواكب السيارة ، وإذ ذاك يعرف أن ضوء الشمس اذا أشرق عليها انعكست أشعتها على عوالم أخرى : بل ان ضوء الأرض المنعكس منها على القمر يزيد عن ضوء القمر المنعكس منه على الأرض ، نحو أربع عشرة مرة ، وتصنع الأرض مع القمر من استقبال وتربيع وتثليث ومحاق مايفعل القمر مع الأرض ، فانظر كيف ارتقى العالم من النظر فى أحجارها ورمالها وألوانها ، وأنهارها ، وبحارها ، ومعادنها ، واختلاف مزارعها الى أن أدرك أنها من السيارات ، وعرف أنها مضيئة مشرقة اشراق الكواكب ، ورأى أن غيرنا ينظر اليها ويحنّ ويشتاق أن يرى ذلك الضوء البديع المنعكس منها الذى عكسه الماء المحيط بها ، والحصى ، والرمال ، والجبال ، فان الأرض عبارة عن كرة أحاط بها الماء ، وما اليابسة الاثلاثة أعشارها ، وهذه اليابسة فيها رمال وأحجار وثلج متراكم فوق الجبال ، وفى مناطق القطبين ، وكل ذلك يعكس ضوءا لامعا الى الكواكب الأخرى . .

اتحاد المطالب الدينية والدنيوية فى هذا التفسير

اعلم أن هذا الذى أذكره فى تفسير القرآن قد اتحدت فيه مطالب الدين والدنيا والعقل والنقل كما اتحدت أضواء الشمس السبعة فصارت لونا واحدا فأشرقت الأرض بها ، ولقد أكثر الناس من قولهم هذا ينافى الدين ، وهذا ينافى العقل ، وذلك ناجم من قلة العلم ، ووفرة الجهل ، فمن جهل شيئا عاداه ، فالمتبحر فى العلوم ينفر من الدين لجهله به ظنا انه ينافى علمه ، والعالم بالدين الجاهل بما حوله الغافل عن خلق السموات والأرض وعجائبها يظن المسكين أن من عرف هذه العجائب كان عدوّ الله وان الله يغضب عليه ، ومادرى المسكين أن هذه السموات وهذه الأرض من خلق الله ، والله لايحب المعرض عن التفرج على صنعه ويحب المفكرين ويقول : ان فى خلق السموات والارض الخ . فانظر أيها الفطن كيف غفلت الأمم وعميت البصائر ، ووقع فى القلوب خلاف الحقائق ونام كثير من العقلاء أحقابا فى غفلاتهم تائهين فى سكراتهم كأنهم لايشعرون ، وذلك

النظر قد جمع المطالب الدينية ، والمطالب الدنيوية فأصبح ارتقاء الأمة فى دينها ودنياها وسعادتها بين الأمم ومغالبتها الفرنجة فى أوروبا ولأهل اليابان والأمم الشرقية ولأمريكا موقوفا على التبحر فى تلك المطالب ، وهى بعينها المخرجة للحكماء ، والعلماء العارفين ، والأولياء ، وهى هى دين الاسلام ، فياحسرة على المسلمين ، ووا أسفا على ماضاع من شباب وشيب فى هذه الأمة ، وعلى أمم داستها الفرنجة وأذلها الظالمون لجهالة وعاظهم وظلم ملوكهم وغفلة عقولهم ونومهم أجمعين أكتعين أبصعين .

الكلام على اختلاف الليل والنهار

أما اختلاف الليل والنهار فانه ظاهر خفى : ظاهر للعقلاء خفىّ عن أنظار الغافلين ، يختلف الليل والنهار باختلاف الطول والعرض ، وذلك أن الشمس فى شروقها وغروبها تأتى على الأماكن الشرقية قبل الغربية ، وهناك يكون الاختلاف العجيب ، فاذا أشرقت أو غربت على الأقطار المصرية أوّلا مثلا ، فانها تفعل ذلك بعدها ببلاد مراكش ، فبحر الظلمات فأمريكا ، فالأقطار الشرقية كالهند والصين وهكذا ، ولكل دائرة ٣٦٠ درجة تقسم باعتبارها وللأرض درجات طول ودرجات عرض ، فدرجات الطول هى المشرقة المغربة ، ودرجات العرض تعتبر من خط الاستواء الى القطبين ، ثم ان خط الاستواء الذى يقسم الكرة بقسمين متساويين جنوبى وشمالى تقطعه دائرة وسط فلك البروج وهى دائرة عظمى مائلة على خط الاستواء بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وهذه الدائرة تمتد الى دائرتين متوازيتين موضوع كل منهما على البعد بثلاث وعشرين درجة ونصف عن دائرة الاستواء وتسميان المدارين ، وهناك دائرتان قطبيتان تبعدان عن القطبين بثلاث وعشرين درجة ونصف ، وبهذه الدوائر تنقسم الأرض الى خمس مناطق : منطقة شديدة الحرارة ، ومنطقتان معتدلتان ومنطقتان شديدتا البرودة ، فالحارة هى التى بين المدارين : مدار السرطان ومدار الجدى ، وهؤلاء يسمون أرباب الظلين ، لأن الشمس تارة تكون شمالهم كأولئك الذين فى السودان المصرى ، فيكون ظلهم إذ ذاك جنوبيا وتارة تكون جنوبهم وراء خط الاستواء فيكون ظلهم شماليا ، والمنطقتان المعتدلتان هما مابين الدائرة القطبية الجنوبية ومدار الجدى جنوبا وما بين دائرة القطب الشمالى وما بين دائرة السرطان شمالا ، وهؤلاء لاتكون الشمس فوق رءوسهم ألبتة ، فيسمى هؤلاء أرباب اختلاف الظلّ لأن أرباب المنطقة المعتدلة الشمالية يرون الشمس فى الجنوب كأهل مصر وتونس ومراكش وأهل أوروبا وأرباب المنطقة المعتدلة الجنوبية كبلاد الرأس التابعة للانجليز وما والاها من البلدان يرون الشمس فى الشمال أبدا . فأما أرباب المنطقتين القطبيتين فيسميان أرباب الظلّ الدوّار ، وحركة الشمس عندهم كدوران الرحا ، والظلّ فى زمن صيفهم يدور حولهم .

والمهمّ فى هذا المقام أن نبحث فى اختلاف الليل والنهار . انك اذا نظرت الى حركة الشمس الظاهرية من المشرق الى المغرب ألفيت ما كان صبحا عند قوم هو نفسه ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء ونصف ليل عند أقوام آخرين . فالشمس فى كل لحظة فى غروب وشروق وزوال وضحى ونصف ليل ، فاليوم بأكمله موجود أبدا . وهذا يعرف بأدنى تأمل عند من درس قليلا من مبادىء علم الجغرافيا أوعلم الهيئة . واذا نظرنا الى حركة الشمس السنوية بحسب الظاهر وهى تنقلها فى البروج وأنها تبعد تارة وتقرب أخرى منا فانها تعطى أياما على طول السنة مختلفة باختلاف الأقطار ، فأقصر الأيام قد يكون ساعة أوأقلّ ، وأطول الأيام يكون نصف سنة ، وأعدل الأيام ١٢ ساعة ، فالاعتدال فى الأيام عند خط الاستواء وأطول الأيام فى المنطقتين القطبيتين فالليل عند هؤلاء ستة أشهر والنهار ستة أشهر ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ السنة يوم وليلة فهى ستة أشهر مظلمة

وستة

وستة أشهر مضيئة ، فأما الأيام فيما بين خط الاستواء وما بين الدائرتين القطبيتين فانها تختلف من ١٢ ساعة إلى ٢٤ ساعة فتكون ١٢ ساعة عند خط الاستواء و ٢٤ عند الدائرة القطبية ، ثم تأخذ الزيادة فى الدائرة القطبية من ٢٤ ساعة الى شهر فشهرين الى ستة أشهر عند القطبين أنفسهما .

أوليس من العجب العجاب أن الشمس لما جرت الأرض حولها تنظم حركاتها بنظام يتبعه هذه الحكم العجيبة ، فترى الصيف عند أهل الشمال كأهل مصر وأوروبا يكون شتاء عند أهل الجنوب كبلاد [الناتال] ، فترى السنة كلها فى وقت واحد حاضرة الصيف والشتاء والربيع والخريف كما كان فى ملاحظة الأيام فجر ومغرب وعشاء ، ثم يترتب على هذا الاختلاف فى الحرّ والبرد من النبات والحيوان والسحب والأمطار والرياح ومن المنافع والعجائب ماتخرّ له العقلاء سجدا ، وانظر : لو أن الشمس بقيت فى مكان واحد لاحترق ولم يعش فيه حىّ ، وتأمل ذلك وكيف يقول الله : « قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ولأذكرلك جدولا تعرف منه كل نهار وكل ليل من خط الاستواء الى القطبين مع ملاحظة أن أقصر وأقل مدة للنهار هى بعينها تكون الليل فى ذلك المكان وكذلك فى الأطول .

أقاليم يقع فيها التفاضل بنصف ساعة

أقاليم	ساعات	دقائق	عرض أرفع المتوازيات درج	دقائق
١	١٢	٣٠	٨	٣٤
٢	١٣	٠	١٦	٤٤
٣	١٣	٣٠	٢٤	١٢
٤	١٤	٠	٣٠	٤٨
٥	١٤	٣٠	٣٦	٣١
٦	١٥	٠	٤١	٢٣
٧	١٥	٣٠	٤٥	٣٢
٨	١٦	٠	٤٩	٢
٩	١٦	٣٠	٥٢	٠
١٠	١٧	٠	٥٤	٣٠
١١	١٧	٣٠	٥٦	٣٨
١٢	١٨	٠	٥٨	٢٧
١٣	١٨	٣٠	٦٠	٠
١٤	١٩	٠	٦١	١٩
١٥	١٩	٣٠	٦٢	٢٦
١٦	٢٠	٠	٦٣	٢٣

أقاليم	ساعات	دقائق	عرض أرفع المتوازيات درج	دقائق
١٧	٢٠	٣٠	٦٤	١٠
١٨	٢١	٠	٦٤	٥٠
١٩	٢١	٣٠	٦٥	٢٢
٢٠	٢٢	٠	٦٥	٤٨
٢١	٢٢	٣٠	٦٦	٧
٢٢	٢٣	٠	٦٦	٢١
٢٣	٢٣	٣٠	٦٦	٢٩
٢٤	٢٤	٠	٦٦	٣٢

أقاليم يقع فيها التفاضل بشهر

أ ليم	أشهر	درج	دقائق
١	١	٦٧	٢٣
٢	٢	٦٩	٥٠
٣	٣	٧٣	٣٩
٤	٤	٧٨	٣١
٥	٥	٨٤	٥
٦	٦	٩٠	٠

هذا الجدول تعرف منه اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان فى الربع الشمالى من المسكونة ، فاذا كان الليل يساوى النهار وكل منهما ١٢ ساعة عند خط الاستواء فى نحو الكنغو وسومطره وغينيا الجديدة فان كلا منهما يزيد وينقص ساعة واحدة تقريبا فى أطراف الهند والصين وساعتين فى القاهرة وبعض البلاد الفارسية وبلاد السند وثلاث ساعات فى البحر الاسود وقرب القسطنطينية والبلاد المحاذية لها ، و ٤ ساعات تقريبا فيما يقرب من باريس وبرلين ونحوذلك ، و ٥ ساعات فى بحر الشمال وماوالاه ، و ٦ ساعات فيماوراء ذلك و ٧ و ٨ و ٩ ساعات شمالى بحر البلطيق . وفيما بينه وبين رأس الشمال تصل زيادة كل منهما الى ١٠ و ١١ و ١٢ ساعة ثم يكون كل منهما شهرا فشهرين فى جنوب جزائر جروئلنده و ٣ و ٤ أشهر فى شمالها ثم فى القطب يكون كل منهما ٦ أشهر فيكون ليل القطب الجنوبى نهار القطب الشمالى ، ونهار القطب الجنوبى ليل القطب الشمالى وكل منهما ستة أشهر ، ثم اذا كان النهار فى مصر مثلا ١٤ ساعة فى زيادته كان فى نقصه ١٠ ساعات وهكذا الليل فهناك عدل تام فى الاضاءة والاظلام وعلى هذا فقس . ألاتعجب من هذا النظام الجميل وكيف ازدانت الأرض بهذه الأنوار المتلألئة المتألقة لبهجة المناظر أفلا ينظر الناس لهذا الجمال البارع والعدل والقسط والحكمة الباهرة ، اختلاف عظيم وعدل تام ، يكون الليل ١٣ ساعة عند زيادته فى البلاد التى حول البحر الاسود مثلا ، وشهرا فى أطراف جزيرة جروئلنده ، ثم يجىء النهار فى نوبته فيصل الى تلك الزيادة عينها أى ١٣ ساعة فى الأول وشهرا فى الثانى فيكون فى السنة ليلة هى شهر تام ، ونهار هو شهر تام ، وهذا هو العدل الحقيقى العملى « الشمس والقمر بحسبان » ، « والسماء رفعها ووضع الميزان » ، « إنا كل شىء خلقناه بقدر » ، « وان من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » ، « والله يقدر الليل والنهار » .

هذا الاختلاف باعتبار العرض ، فانظر الى الاختلاف باعتبار الطول فأوضحه لك فأقول بعد الاجمال السابق :

اذا طلعت الشمس على آفاق مصر مثلا كان لها بعد طلوعها بالخليج الفارسى وماحوله ساعة وفى بلاد فارس ساعتان ، وفى السند ثلاث ساعات ، وفى غرب بلاد الصين أربع ساعات ، وفى أواسط بلاد الصين ٥ ساعات . وفى شرق بلاد الصين والبحر الأصفر ٦ ساعات . وفى بلاد اليابان ٧ ساعات . وفى شرق استراليا ٨ ساعات . وفى كاليدونيا الجديدة بالمحيط الهادى ٩ ساعات ، وفى جزائر الملاحين بالمحيط الهادى ١٠ ساعات . وفى جزائر سندويش بالمحيط الأكبر ١١ ساعة . وفيما بين جزائر سندويش وكاليفورنيا من المحيط الأكبر ١٢ ساعة .

وعلى هذا اذا طلعت الشمس بمصر أول فصل الربيع الآتى ذكره قريبا أوالخريف كانت غاربة بين هاتين الجزيرتين بالمحيط الأكبر . ويكون قد مضى بعد غروبها ساعتان فى كاليفورنيا وغرب الولايات المتحدة و ٤ ساعات بالبلاد الواقعة حول خليج المكسيك وشرق الولايات المتحدة و ٥ ساعات عند نيويورك بالولايات المتحدة . وست ساعات بناحية الأرض الجديدة شرق أمريكا الشمالية و ٨ ساعات بالمحيط الاطلانطيق غربى أوروبا . وعشر ساعات بباريس وجبال أطلس بالغرب و ١١ ساعة فى طرابلس والصحراء الكبرى

هذه هى الصورة التى يراها المفكر فى اختلاف الليل والنهار ، فبينما المصرى ينظر الشمس مشرقة فى أفقه يكون السندى والصينى فى وقت الضحى . ومن فى كاليدونيا الجديدة وقت العصر . ومن فى كاليفورنيا ساهرا مع صحبه . ومن فى نيويورك قد نام نوما عميقا . ومن فى طرابلس قام لصلاة الصبح .

واعلم أن ماذكرته لك من هذه الساعات لا يكون تاما من كل وجه إلا فى ٢١ مارس وفى ٢٣ سبتمبر من كل سنة لأن الأول أول فصل الربيع والثانى أول فصل الخريف . وهما اليومان اللذان يعتدل فيهما الليل

والنهار

والنهار . ثم ان أول الصيف ٢٢ يونيه وأول الشتاء ٢٢ ديسمبر . والأول يكون أطول أيام السنة كما أن الثانى يكون أقصرها والليل على عكس النهار «يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار» .

عجائب العلم والسياسة فى القرآن

كما اختلف الليل والنهار اختلفت الدول والممالك ، فالأولان بالزيادة والنقصان ، والآخرون برفعة قوم وضعة آخرين . لقد سبق القول أن الشمس تشرق على أهل الشرق ، سائرة الى أهل الغرب ، جارية الى المحيط الاطلانطيق ، ساعية الى أمريكا فالبحر الأعظم هناك فبلاد الشرق ثانيا ، وانه اذا نام قوم بظلامها استيقظ آخرون بضيائها ، هكذا نرى العلم والحكمة والمدنية جرت مجرى الشمس ، ساعية باذلة جهدها مجدة مشرقة على أهل الشرق فكانت الحكمة فى الهند ومصر ومابين النهرين فى أمم الكلدان والآشوريين والبابليين ، ومن أهل الشرق كالمصريين انتقل الى اليونان ومنهم الى الرومان ، ثم لما خمدت حركة النوع الانسانى قرعتهم قارعة الدين الاسلامى ، فأحدثت رجة عظيمة أطارت النوم من جفن الانسان ، وقضت على سير الحوادث القديم ، وأبدعت طريقا آخر بعد أن ضربت باحدى يدى الدين دولة فارس وباليد الأخرى الروم ، ثم أحدثت هذه الحركة نارا حامية ولهبا ، فأما جمرها فبقى فى الشرق عند الأمم الاسلامية مدفونا فى عاداتهم وأخلاقهم الترابية ، وأما لهبها فاندلع الى أمم الغرب فأحرق الأفئدة ، وتأججت نيرانها ، وسمت الى نيل العلم والمدنية ، وشدت إليها الرحال ، وأخذت تلك النار تمتد حتى طارت منها شرارة فعلقت بأذيال أمريكا والجزائر فى البحار ثم تخطت المحيط وعلقت بأذيال أمة شرقية كرة أخرى وهى اليابان ، وهاهى ذه تعيد سيرتها الأولى ، فهى تتخطى الى أفغانستان والهند والصين وبلاد سيبريا وبلاد الفرس والترك ومصر وسوريا ، ومعلوم أن المدنية والعلم لا يكونان فى الشرق والغرب على حد سواء ، فاذا زادا فى أحدهما نقصا من الآخر ، والذى يظهر أن الشرق اذا ارتقى هذه المرة يأتى بالعجب العجاب ! لأن الغرب ليس منبع العلوم والحكم والمدنية .

وقد وصل لنا من العلم عن قدمائنا أن العلم قد اعتنى به من الأمم الهند والفرس والكلدانيون والسريانيون والعبرانيون والروم وأهل مصر والعرب ، وأما بقية الأمم من يأجوج ومأجوج وبرطاس والخزر وجيلان وكشك والصقالبة والبلغر والروس والبربر ، وأصناف السودان والحبشة والزنج فلم تكن لهم عناية بالعلوم . وكانوا يسمون ملك الهند : ملك الحكمة ، وملك الصين : ملك الناس ، وملك الترك : ملك السباع ، وملك الفرس : ملك الملوك ، وملك الروم : ملك الرجال .

ولقد عرفنا أن مدينة «رومة» بنيت قبل قيام أغسطس أول ملوك القياصرة بنحو ٧٧٥ سنة على ماقيل فتكون تلك المدينة حديثة العهد جدا كما أن اليونان قد تعلموا من المصريين ، فأما فى بلاد الشرق فقد ظهر الكشف الحديث ، وأبان أن مدينة الهند لايعرف لها أول ، فقد جاء فيه أن [سور يوشيداتو] الفلكى الهندى الذى نسب فلكيو عصرنا أرصاده فى وضع النجوم وسيرها الى زمان لايقل عن ثمان وخمسين ألف سنة قد تكلم عن أسفار [الفيدا] وانها كتاب قديم العهد جدا .

وقد جاء فى كتاب خطى كشف حديثا تاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة [فى عهد الدولة الرابعة] أن أبا الهول كان مطمورا تحت التراب ، ومنسيا منذ أجيال عديدة ، وقد كشف فى ذلك العصر على سبيل المصادفة ، ويقولون : ان التقاليد المصرية فى الكشف الحديث لم يوقف على مبدئها بل هى متوغلة فى القدم أكثر من ثلاثين ألف سنة كما أثبته العلامة [مانيتون] وقد ورثها المصريون من شعب منقرض هو الجنس الأحمر الذى منه هنود أمريكا ، وكان انقراضه بعد حروب هائلة ، وحصل إذ ذاك فى الأرض انقلاب عظيم

طيبى ، ومن آثار هؤلاء المنقرضين [أبوالهول] الذى كانوا بنوه على شاطئ البحر الأبيض المتصق إذ ذاك بالبرّ ، وهذه هى آراء العلامة [ليلونجون وسافيل] فى أمريكا الوسطى و[روازل وجو با تغيل] فى بلاد [الاتلانت] وهؤلاء عرفوه بطريق البحث والتنقيب فكشفوا ذلك وهو عجيب ، والذى يهمنا فى هذا المقام أن أهل الشرق هم أعرق الأمم فى المدنية ، ألاترى أنه ظهر منهم الديانات والحكمة والحكماء مثل [كونفوشيوس] و[بوذا] نوالتالمعا والأنبياء كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وأوروبا لانبىّ منها ولاسابقة علم معروفة قبل الرومانيين واليونانيين الذين هم تلاميذ المصريين ، فثبت من هذا أن العلم قد استدار كما استدار الزمان ، وقد بدا دورالشرق بعد الغرب ، ولعلك بهذا تدرك السرّ فى قوله تعالى فى سورة آل عمران « قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحىّ وترزق من تشاء بغير حساب » .

• وتعجب كيف ذكر ادخال الليل فى النهار وادخال النهار فى الليل عقب ذكر عزّ الدول وذلها واعطاء الملك ونزعه ، وهذه الآية سيأتى ذكرها عند آية الكرسى من بذور القرآن التى ألهم الصالحون أن يقرءوها فى الأوراد ليفطن لها الخلف ، فيرون أمثال هذه المعانى النبيلة الشريفة ، ولعلّ الذى حفظ السماء أن تتداعى أقطارها حفظ علومها أن يدركها الغافلون إذ قال : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » اه

الكلام على قوله تعالى : والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس

هذه نعم جليلة ، وآيات عظيمة تلك السفن الماخرات فى اليمّ الجاريات فى البحر ، والأنهار العجيبة الصنع الجارية من الشرق الى الغرب ،ومن الشمال الى الجنوب الموصلة منافع الناس ، وأقواتهم من بلد الى بلد ، ومن قطر الى قطر ، وبها التجارة ونقل الذخيرة ، والأخبار من أمة الى أمة ، حتى ان أهل الكرة الأرضية بهذه السفن أصبحوا كأنهم فى بلد واحد ، وأشبهوا هذا العالم كله فى أن كلا لكلّ مساعد ، والحق أن الوحدة شاملة لأهل الأرض كما هى شاملة للعالم كله ، والناس سائرون للاتحاد شاءوا أم أبوا ، وما الحروب والعداوات بينهم الا كما يقع المضم فى الطعام فى جسم الانسان ، ولقد أخذ الانسان يقترب بالأسلاك البرقية والعلوم والمعارف ، ومن عجائب السفن أنها تحمل المدافع والحديد وأنواع المعادن وصنوف البضائع ، وهى تجرى فوق الماء ولا تغرق الالعارض ، واعلم أن هناك ناموسا ثابتا علما به حفظ الله السفن من الغرق ، وأعطى السمك قوّة بها يطفو ويرسب ، وتلك القاعدة أن الجسم اذا كان أخف من الماء المساوى له فى الحجم فانه يطفو ، وان كان أثقل منه كالحديد فانه يرسب ، وان كان مساويا فانه يكون بسطح الماء عند العوم فكأنه ماء ، وهذه هى التى أعطيت للسمك من المواهب العجيبة فالسمكة منفاخ تجده داخلها اذا شرحتها ، وهذا المنفاخ مملوء هواء ، فاذا أرادت أن تطفو على سطح الماء نفخته فكبر حجمها فطفت ، وان أرادت أن تنزل الى أسفل ضغطت على ذلك المنفاخ فصغر حجمها ، فنزلت إلى أسفل لانها صارت أثقل من الماء المساوى لحجمها ، وهكذا تعلو وترسب على حسب حاجتها كما يضيق الانسان عينه ، ويوسعها على حسب النور قلة وكثرة ، وعلى هذه القاعدة جرت السفن فى البحار ، فاعلم أن السفينة الشراعية الجارية فى الأنهار اذا وزناها هى وما عليها كانت مساوية للماء الذى حلت مكانه فى البحر فان أثقلناها حتى زاد وزنها عن وزن الماء المساوى لحجمها غرقت ، والسفن الحاملات للمدافع والذخائر والبضائع على هذا النمط فى البحار العظيمة الاطلانطيق ، والهندى ، وبحر الصين ، والبحر الهادى ، والاساطيل الجاريات كلها على هذه القواعد جاريات ، وكل سفينتين جاريتين فان نسبة سعة مقعر إحداهما الى سعة مقعر الأخرى كنسبة ثقل إحداهما الى ثقل الأخرى ، ومعلوم أن حاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ، وهنا تكون النسبة الهندسية .

وأما قوله تعالى : وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة

فاعلم أن الله عزّ وجلّ جعل اتحاد الماء بالعناصر الأرضية سببا لخروج النبات المختلف الأشكال والألوان والأزهار والأثمار ، فكان منه الرياض والجنان والرياحين والبهجة والرونق والحسن والجمال ، ومن عجب أن يكون الماء والأرض والحرارة باتحادها تحدث هذه العجائب التي لايعرف آخرها ولا يدرى منتهاها .

والنبات منه الشجر والنجم والزرع والكلأ والحشيش ، وكلّ واحد متنوّع أنواعا كثيرة ، الشجر كلّ نبت يقوم على ساقه منتصبا أصله مرتفعا في الهواء ويدور عليه الحول لايجف .

وأما النجم فهو كلّ نبت لايقوم أصله على ساقه مرتفعا في الهواء ، بل يمتد على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر ويرتقى معه في الهواء كي يحمل عنه ثقل أثماره كشجر الكروم والقرع والقثاء والبطيخ ، واعلم : أن جميع النبات والشجر لايختلف الا لاختلاف المواد الداخلة في تركيبه ، فترى القطن والقمح والبرسيم من البوتاسا والصودا والجير والمغنيسيا ، وحمض الفوسفوريك ، وحمض الكبريتيك والسلكا والكلور ، وإنما صار هذا قطنا نلبسه ، وهذا قمحا نأكله لاختلاف المقادير الداخلة في تركيبها ، فقوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » ليس يستوعب علمها الاعلماء اختصوا بهذه المباحث ، وسيرد عليك في هذا الكتاب شذرات من هذه العجائب عند قوله تعالى « أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك » الآية فترى هناك عجائب الكيمياء العضوية ، وكيف اختلفت المظاهر لاختلاف التركيب ، والمقادير إنّ الله سريع الحساب .

ولكن لابدّ أن أوقفك على بعض العجائب العلمية هنا ليكون كالمقدّمة ، لما سأذكره هناك من مسائل الكيمياء العضوية ، وكيف كان اختلاف النبات لاختلاف التركيب فنقول : اعلم أن الله عزّ وجلّ خلق المادة ونوّعها أنواعا وأجناسا وفصائل ، فخلق منها النبات والحيوان ، وهما عالمان باهرة ، فمن نبات لايكاد يرى وحيوان دقيق لاتدركه الأبصار الا بالمنظار الى شجر النخل ، وشجر الغابات العظيم ، والى الفيل عظيم الجثة كبير الجسم هائل القوّة ، وبين ذلك من الغرائب مايحير العقول حتى أنك لتجد أعلم الناس وأقدرهم على علوم الحكمة يقف مبهوتا حائرا أمام البقة والفيل ، ترى الناس يتعجبون من خلقة الفيل اذا رأوه ، وهم قد حملوا أبناءهم على العربات الى الحدائق التي فيها الحيوان كحديقة الجيزة ببلاد مصر ، ويقولون تفرج يابنىّ على هذا الفيل ، والأب والأمّ والخادم يضحكون ويفرحون ويمرحون ، وهم غافلون ، ولا يعرفون الا أن الفيل كبير الجثة له أربعة أرجل وخرطوم ونابان خارجان ، وقد فاتهم أن البقة الحقيرة القذرة الدنيئة المنزلة التي ينفر الانسان من منظرها وتؤذيه في فراشه ، وهى من الدلائل على أن منزلة قذر مع صغر حجمها أعجب خلقة وأظرف صورة ، فلها ستة أرجل ، وخرطوم ، وأربعة أجنحة ، وذنب ، وفم ، وحلقوم ، وجوف ، ومصارين وأمعاء ، وأعضاء أخر لايدركها البصر ، وهى متسلطة على الفيل بالأذية ، ولايقدر عليها ، ولايمتنع بالتحرز منها ، وأيضا فان الصانع البشرى يقدر أن يصنع فيلا من الخشب والحديد والذهب وغيرها ، وهو عاجز كل العجز عن صنع بقة ، فثبت أن صنع البقة أدقّ وأظرف من صنع الفيل ، وفي الحيوان ، وفي النبات من العجائب مالا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهورا وأجيالا ، وتلك العجائب من نوعين على الأرض ، وكم عليها من معادن ، وأنهار ، وبحار ، وفوقها من هواء ، وسحب ، ويدور معها كواكب ، وشموس كلّ ذلك من المادة الأصلية في الكون ، فنقول : لايقدر الناس أن يتصوّروا كيف خلق الخلق من مادة واحدة الابمثال من أنفسهم وشاهد من عقولهم .

مثل المادة فى تنوعها كمثل الصوت وتنوعه فى الهواء

علم الله ضعف الانسان فألهمه أن يحرك الأسنان والشفتين والفم بالهواء الداخل والخارج لاصلاح الدم الفاسد فى الرئتين ليعطى له الأكسوجين ويأخذ بدله المادة الفحمية المسماة بالكربون فحين دخول النفس بالشهيق وخروجه بالزفير يحدث الانسان فيه حركات تسمى حروفا، وهى تختلف باختلاف الأمم، وهى فى العربية ٢٩ حرفا تتركب من تلك الحروف كلمات فتحدث الخطب والشعر والنثر والحكم والمواعظ والتفاهم والتجارات والسياسات والمنافرات، وكتب الديانات والعلوم والمعارف، هذه هى النتائج التى نظمت نوع الانسان وعلمته البيان، وهى ليست شيئا سوى تنوع فى الهواء الجوى الذى له أعمال كثيرة غير هذه فانه كما قلنا دخل فى الرئتين للاصلاح: أى ادخال المادة المصلحة للدم مع أنه ترسم فيه صور المرئيات، فيرى الانسان الاشباح والصور التى تأتى للأعين من المرئيات، وفى الهواء الحرارة والبرودة والرائحة الطيبة والخبيثة، وفيه بخار الماء الذى يكوّن السحب، وهكذا الرياح، وهو يحمل السحاب، ويسير السفن فى البحار فليست صنعة الكلام فى الانسان أوّل أعمال الهواء ولا آخرها، بل من تنوع الهواء تكون الموسيقى المطربة لقوم الشاقية لآخرين المملة لقوم يعقلون، إذا فهمت هذا فاعلم أن هذا مثل ضربه الله للناس لعلهم يعقلون كيف خلق العالم من مادة واحدة ليستدلوا على وحدته وقدرته، وليعلم الناس أنه حاضر رحيم فمن رحمته هذا المثال.

اعلم أن المادة كما هو رأى علماء العصر الحاضر واحدة، يقول علماؤنا الأقدمون ان جميع هذا العالم من الهيولى، والهيولى كلمة عربية، معناها القطن، وانما سموها بهذا الاسم، لان القطن يصلح للابس شتى كثيرة التنوع، وقالوا هذه المادة الأصلية لا يمكن رؤيتها، بل هى شىء أشبه بالأمور الروحية هذا كلامهم، وقالوا أيضا ان هذا العالم أصله مادة واحدة متماثلة أشبه بما نرى ان الطعام بعد تناوله يصير فى المعدة كيموسا متشابه الأجزاء أشبه بمادة اللبن، فهذه المادة المتشابهة فيها جميع مايصدر عنها من الأعضاء والحواس، ففيها مادة العين، والأنف، والمخ، والمصارين، والبطن، والجوف، وهى تجمع مع لطافتها وتشابهها مابين العظم الصلب، وما بين الرطوبة الزجاجية فى العين، ومادة المخ هذا كلام قدمائنا، فهكذا يقولون ان المادة التى خلق الله منها العالم كانت هكذا واحدة، ولكن قد تكمن فيها الشمس والقمر والأرض والمعدن والنبات والحيوان.

أما علماء العصر الحاضر فقالوا نحو هذا ودققوا أشد تدقيق فقالوا ان أصل العالم مادة سديمية دارت وتكوّرت على مدى السنين فكان منها تلك الشموس والارضون الخ ومنها العناصر، يعنى أن الموجود المسمى بالأثير مما لاتراه العيون ولاتدركه الأوهام هو الاصل لهذه الموجودات وهذا الأثير الذى هو أرق من النور وألطف من الجبال وأقرب الى أن يكون شيئا روحيا كما قال أسلافنا منه تكوّنت المادة والكهرباء والمغناطيس وفيه الحرارة والضوء، فهذه كلها صفات وتنوّعات فى المادة الاثيرية والمادة التى منها تكوّنت، وبعبارة أخرى هى حركات من حركاتها لايدرى كيفيتها، قد شكلت الى عناصر كالحديد والنحاس والذهب والفضة والراديوم والاوكسوجين والأدروجين والأوزوت والكربون. وبالجملة تلك العناصر تبلغ فوق السبعين نوعا كما تنوعت الاصوات الخارجة من الفم فى المثال المتقدم الى الحروف الهجائية بحسب اختلاف الأمم فبلغت بتركيبها الى نحو أربعة آلاف لغة ذات فروع شتى وكلها ترجع الى تنوعات الهواء فى الفم، وبعبارة أخرى لاشىء سوى الهواء المتحرك فهذه العناصر المادية تركبت منها هذه المخلوقات التى نشاهدها على الارض بنسب محفوظة وحساب متقن ونظام بديع حارت فيه العقول، وقصدنا الآن الى ماتقصده من عالم النبات، والحيوان فانها عبارة عن تفنن فى المادة كما كان من الاصوات عجائب وبدائع ولم تزد عن كونها حركات فى الهواء، فهكذا

هنا نرى أن جميع أنواع الحيوان والانسان تتركب من العناصر المتقدمة كما تركبت الكلمات من الحروف ، ومن طوائف النبات تكون المروج الواسعات والرياض الغناء تسر الناظرين وتحير المفكرين كما رأيت فى الكلام من الخطب والشعر والمقالات فالرياض الناضرات والمروج الواسعات شعر المادة كما كانت أقوال المتنبى وعمرو بن كلثوم وأشعار هوميروس وشكسبير شعر الهواء . ولعلك تقول كيف يكون النبات والحيوان من عناصر واحدة ؟

أقول : قد قدمت لك هذا القول وسأزيدك بيانا فأقول .

قد أثبت علماء الكيمياء أن النبات والحيوان يتركبان من المواد التى ليست حية وأخصها الاكسوجين والأودروجين والأزوت والكربون وبعض أملاح أخرى ، وهذه العناصر الاربعة بمقدار تنوع المقادير فيها تتنوع النباتات والحيوانات وأعضاؤها وأجزاؤها فيكون منها الدم والشحم والصفراء والاعصاب ومادة الدماغ والعود الاخضر والورق والثمر والحنظل والتمر والبرتقال والزيت والصمغ فلا حلاوة ولا حموضة ولا دسومة ولا مرارة الا كانت مشتقة من تلك المواد الجامدة ، وبعبارات أخرى هى كلمات من تلك الحروف لم تزد فى المادة شيئا فلا تزال المادة واحدة واختلاف المظاهر وقتى كاختلاف الكلمات والقصائد فى الهواء الجوى

ان عصير العنب لايحوى خمرا ولامادة الخمر وهو (الكحول) انما يحوى ماء وسكرا فاذا تخمر انحل جزء من السكر وانفصل عنه مافيه من الاكسوجين والأودروجين والكربون وتتركب هذه بمقادير جديدة بنسب معلومة محدودة كالنسب التى ستراها عند قوله تعالى «وانظر الى حمارك» فى مسألة العزير وعند مسألة الطير و يدنا ابراهيم الخليل ، واذن ينشأ عنه المادة الخمرية المسماة (الكحول) فيصبح عصير العنب خمرا بدون أن يزاد شىء أو ينقص كما صار الهواء خطبا وقصائد بكونه صوتا وحروفا ولم يزد فى الهواء شىء ولم ينقص ، والخبز والفواكه التى نأكلها لاشىء من الدم فيها ولا اللحم ولا العظم ولا العروق ثم هى عند الهضم تتحول الى ذلك ، وهكذا الحب والنوى ليس فيهما من الورق والزهر شىء ولكن الامتصاص من العصارات الارضية والتنفس بهما يحدث تفاعل فتكون النتائج الباهرة ، لعلك أيها الفطن بهذا تعرف السر فى قوله تعالى «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مددا» فمن هنا فلتفهم الكلمات بالعلم والحكمة « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر الا أولوا الألباب » اهـ

ولعلك الآن فهمت السر المصون والجوهر المكنون فى العناصر والحروف ، فالعناصر فى المادة والحروف فى الهواء ، فكما كانت لنا كلمات وخطب وقصائد فى حركات الهواء هكذا كان لله عزوجل عناصر تركبت معادن ونباتا وحيوانا وكما كانت اللغات كثيرة العدد وكلامها وقصائدها ليس لها عدد ولاحد هكذا مركبات الطبائع لاتنحصر وكما أن الهواء فيه أحوال وأعمال كثيرة كالروائح والحرارة الخ غير الاصوات هكذا الاثير الذى تكونت فيه المادة فيه عجائب ومخلوقات لانعرفها فوق مانشاهد من السموات والارض ومابينهما «ومايعلم جنود ربك الاهو ، ويخلق مالاتعلمون»

ولعلك أيضا تعرف أن هذا التشبيه الذى أطلت لك فيه وجعلت كل مافى المادة أشبه بمركبات الحروف من القصائد والكلمات مأخوذ من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين» فقوله : اختلاف ألسنتكم اشارة الى علوم اللغات ومافيها من المقالات ، وقوله : وألوانكم اشارة الى العناصر وماتركب منها ، أفلا تعجب أيها القارىء أن يكون مقالى كله من كلمتين من القرآن وقرنتاهما فى جملة واحدة ليكون ذلك داعيا الى أن أشبه أحد الطرفين بالآخر أليس ذلك من العجب ؟

على أنك سترى ماهو أعجب انه يقول «ان فى ذلك لآيات» أى دلالات «للعالمين» بكسر اللام جمع عالم ، ولم

أرآية فى القرآن على ما أذكر جاء فيها ذكر العالمين على هذا النحو الا قليلا ، فكأنه يقول : ان هذا المقام دقيق لايفقهه الا المحققون فى العلوم الدارسون للعلوم الطبيعية العاشقون للعلم المغرمون بالحكمة ، فتأمل فى عجائب القرآن وكن على يقين أن نبوّة الانبياء لاتعرف عند أولى الالباب الا بمثل هذه الدقائق العلمية وكيف خصّ العلماء بالفهم فى هذه المسألة التى لا تعرف الا فى هذا الزمان أشدّ معرفة ، لمثل هذا فليعمل العاملون ، وبمثل هذا فليعقل المفكرون .

عجائب التنوع والتشكل فى المادة الواحدة ايضاحا لما تقدم

وأنها دلائل التوحيد لاختلافها مع وحدة المادة

من المعلوم الشائع فى عصرنا الحاضر أن العناصر التى كشفها العلماء تبلغ فوق السبعين ، وهى مركبة من اجتماع الذرات الاصلية وهى الجواهر الفردة التى رجعت فى آخر أمرها الى حركات وتيارات يقف التعبير عندها لدقتها على العقول ، وهذه الذرات تجرى بنواميس كالتى نراها فى الكواكب والشموس أى انها عبارة عن دقائق جاريات بنسب مخصوصة على بعضها بنظام تام ، وبهذه النسب اختلفت أحوالها ، فالاختلاف فى العناصر راجع الى أنواع حركاتها لاغير ، فاذا رأيت الهواء والماء والحجر الصلد والذهب والحديد فذرّاتها جميعا عند البحث العلمى لافرق بينها من حيث انها متحركات فى أنفسها وان كانت ترى ساكنة فى الظاهر ، وليس المراد بتلك الحركات الهوائية والمائية بل هى حركات الذرات التى لايعرفها الا العلماء الأخصائيون بالبحث والتنقيب ، فتنوّع الحركات المذكورة جعل هذا سما وهذا غير سمّ وهذا أحمر وهذا أصفر وهذا ثقيلا وهذا خفيفا الى مالايتناهى ، ألاترى أن الفسفور أبيض سام سريع الالتهاب فاذا أحميته فى اناء محكم السد أو عرضته للنور فى أنبوب لاهواء فيه تغير لونه إلى الحمرة ويفقد خاصية السم ولايلتهب إلابالاحتكاك فاذاحللناه تحليلا كيماويا لايختلف فى تركيبه عن الفسفور الاعتيادى ، وهكذا نرى الكربون على أشكال مختلفة فى الالماس والجرافيت والانتراسيت والكوك ولكل منها خصائص متميزة عن الأخرى ، فبالله هل يستوى الالماس الجميل المنظر الحسن الشكل الغالى الثمن البديع البهج الذى يوضع فوق التيجان وتتحلى به الغانيات ، وبه وبأمثاله يمتاز أهل الثروة والغنى والملوك عن غيرهم ، والكوك الذى يوقدونه فى أفرانهم وقطاراتهم ويملكه الغنى والفقير ، كلا لايستويان ولكن العلم قد أوجب استواءهما وان كلا منهما مركب من الكربون وحده ، فالالماس كربون والكوك كربون لااختلاف بينهما ألبتة فى الحقيقة وهى أنهما لاتذوب واذا أحرقت أنشأت حامض الكربونيك ، فأما هذه الاشكال والخواص من اللمعان والبهجة والحسن فى الألماس وضد ذلك فى الكوك فلم تكن الامن تغير طارئ على تحرك الذرات فحسب ، وتأمل فى التباين العظيم فيما بين المركبات وخواصها العجيبة . تأمل كيف اختلفت خواصها مع التركيب وهى واحدة ، فانظر خلاصة التربنتين ، والليمون ، والبرتقال ، والعيثران ، والفلفل ، والريحان ، والبقدونس ، ان هذه الخلاصات مركبة تركيبا كيماويا واحدا ، وهوستة عشر جزءا من الاودروجين مع عشرين جزءا من الكربون ، فبالله أين خلاصة الفلفل من خلاصة البرتقال والليمون ، وكيف كان كل منهما مركبا من كربون وأودروجين ، فالكربون معروف فى الكوك والالماس كما تقدم والاودروجين هو الجزء المتمم لتكوين الماء ، فالأول نراه يحترق ، والثانى نراه يميت الحيوان إذا تنفس فيه كما يعرفه من درسوا علم الكيمياء ، وفوق ذلك نرى آن سائر الانسجة الحيوانية والنباتية التى كثرت أنواعها وأشكالها وأوصافها مركبة من أربعة عناصر ، وهى الاكسوجين ، والادروجين ، والكربون ، والأوزوت مع إضافة بعض الاملاح والجوامد .

فتعجب

فتعجب من المادة الواحدة التي رجع أصلها الى حركات كيف كانت بسائطها تتنوع تنوعا مدهشا لغير سبب معروف الا تنوع حركاتها ، وهكذا مركباتها تنحو هذا المنحى كخلاصة البقدونس والفلفل وتركبها من عنصرين وكالحيوان والنبات وأنواعهما المركبات من أربعة عناصر مع مايضاف اليها ، أليس هذا يريك بأجلى برهان فى عصرنا الحاضر أن الوحدة ظاهرة فى العالم المشاهد ، أوليس أنواع هذه المادة مع وحدتها تعرفنا حكمة الله ، وأن العناصر حروف والمركبات كلمات . والعالم المنظور قصائد وخطب نقرؤها مسطورة على لوح الطبيعة الجلية البهجة ، أوليست هذه كلمات الله ككلماتنا فى الهواء فتشابهتا فى أن تنوعهما بتنوع الحركات ، فهذه فى أثير ، وهذه فى هواء ، وأن هذا التنوع عند الله كتنوع الكلمات عندنا فى اليسر وعدم العسر ، ولذلك جاء فى القرآن «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» . وفيه «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مددا» ، وإذا كانت هذه العوالم ناجة عن مادة واحدة كان فاعلها واحدا فان ناظم القصيدة وقائل الخطبة يكون واحدا فاعلا باعضاء فه فى الهواء أفعالا مقصودة ينتج منها ذلك القول المسموع المنتظم ، فهذا العالم المنظم المكون من حركات صانعه واحد ، وهذا هو برهان التوحيد ، لأن الآية مسوقة للواحدانية «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» الخ فتعجب من العلم والدين كيف اتحدا وأتيا بالعجب العجاب ، وهذا هو بدء الخلق الذى أمرنا به فى قوله تعالى «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» هذا بدء الخلق وتكوين العناصر والمركبات ، وبهذه الآية يجب على المسلمين أن يعرفوا أصول جميع الأشياء من بسائط ومركبات ، كعلم الأجنة ، وعلم الحياة ، وعلم الكيمياء العضوية والكيمياء التحليلية ، والادام العذاب عليهم فى الدنيا أجيالا لعلهم يعقلون انتهى . انظر تفصيل تفسير «قل سيروا فى الأرض» الخ فى سورة العنكبوت .

لطائف فى علمى الحيوان والنبات

اللطيفة الأولى

شجر النارجيل ، وهو الجوز الهندى هيئة شجرته كهيئة النخل المعروف ويبلغ ارتفاعها تسعين قدما تنبت فى الأقاليم الحارة ولا سيما شواطىء بحورها ، وهى من أعجب ماخلق الله من النبات ففيها لأهل تلك الأقاليم غذاء وكساء ودواء ولبن وخمر وسكر وزيت وشمع وآنية ومساكن ودثر وفرش وحبال وأدوات وأسلحة وغير ذلك .

روى أحد الثقات أن مسافرا كان يجوب رمضاء تلك الأرض تحت أشعة شمسها المحرقة حيث يندر الظل فرأى بيتا تحيط به أشجار باسقة معتدلة الأجذاع على رءوسها أوراق جليلة تسر الناظرين ، فدنا من البيت فرأى فيه هنديا رحب به وأتاه بشراب شهى فيه طعم حوضة أروى ظمأه وأنعشه ، وبعد أن استراح دعاه الى الطعام فى صحون مختلفة فى جفنة [قصعة] سوداء مصقولة لامعة وسقاه خمرا لذيذا ولم يشرب مثل ذلك قط ، ثم أتاه بحلواء فاخرة ثم بغيرها ، فقال وقد دهش : من أين لك هذه كلها فى هذا القفر ؟ قال من شجرة النارجيل ، فالشراب الذى سقيتك إياه من جوزها قبل نضجه ، واللبن الذى استطبته من ذلك الجوز بعد النضج ، والطبيخ الذى لذ لك من أوراق تلك الشجرة ، وتلك الخمرة من عصارة زهرها ، ومن هذه العصارة كل ماعندى من السكر ، وكل هذه الصحون والجفان والآنية التى رأيتها على المائدة من قشر جوزها ، وهذا البيت الذى أسكنه منها ، بجدرانه من خشبها ، وسقفه من نسيج أوراقها ، ومظلتى من نسيج هذه الأوراق ، والثياب التى على من خيوط أليافها ، ومن هذه الألياف مناخلنا ، وحصرنا ، وقلوعنا ، وحبالنا . والزيت الذى نوقده فى مصابيحنا عصير لب جوزها ، ولنا فيها مآرب أخرى ، فدهش المسافر ، ولما هم بالانصراف سأله

الهندى أن يبلغ كتابه الى صاحب له فى المدينة التى يقصدها ، فقال : من أين لك الحبر والقرطاس ؟ قال من تلك الشجرة ، فالحبر من نشارة أغصانها ، والقرطاس من أوراقها ، فأخذ الكتاب وهو فى حيرة وعجب !

اللطيفة الثانية

نظر فى عمر بعض الأشجار فى اسكتلندا فكان أكثر من ثلثمائة سنة ، وأغرب من ذلك شجرة العندم [دم الاخوين] ويسمى [دم التنين] و[دم الثعبان] فى بلدة تسمى [أوروتاوا] فى جزيرة [تيناريف] احدى جزائر كناريا فى الاوقيانوس الاتلنتيك الذى كان يسمى عند أسلافنا بحر الظلمات من بعض جهاته لايحيط بساقها عشرة رجال يمدون أيديهم حولها يمس كل منهم أنامل مجاوره بأنامله ، وقد انقضى منذ كشف تلك الجزيرة الى الآن ٤٨٢ سنة والشجرة بحالها ، وقد حسب العلماء الزمان الذى خلقت فيه على حسب نمو جنسها فقال انها خلقت قبل خلق الله الانسان على الأرض .

اللطيفة الثالثة

من غرائب النبات النباتات الهوائية وهى أعشاب لاأصول لها فى التربة تتعلق على غيرها من النبات وتتناول غذاءها من الهواء ، وتنمو فى الأقاليم الحارّة ، ومن عجيب أمرها أن زهرها يشبه الفراش والنحل وغيره من أنواع الذباب ، وهو حسن زاه يسحر الألباب ، ويسحر العقل أن يرى الانسان أزهارها على أعالى سوق كالأسلاك يحركها النسيم فيظنها فراشا يحوم على الأشجار ، أونحلا يبغى جنى العسل من الأزهار ، ومن أزهارها مايشاكل الرتيلاء ، ومنها مايشاكل الانسان الى غير ذلك « وفى الأرض آيات للموقنين » .

اللطيفة الرابعة : النباتات المفترسة

ومنها بعض النباتين بالحامية ، فهذه تتشبث بغيرها من النبات ، وتغتذى بعصارته ، فتعيش على غيرها كما يعيش بعض الحيوانات على بعضها . انظر هذه النباتات وصورها البديعة فى [سورة الرعد] عند آية : يسقى بماء واحد الخ

اللطيفة الخامسة : الفجل والبصل والخس وما أشبهها
والنخل والعبل والسنط وما أشبهها

تأمل أيها الفطن الذكىّ شجرة الفجل وشجرة البصل من جهة ، وشجرة الخس أيضا ، وشجرة النخل والعبل والتين وما أشبهها من جهة أخرى ، وشجرة تسمى [ثوب السيدة] من جهة ثالثة . تأمل هذه الأنواع الثلاثة من الشجر ، وتعجب من أوراقها ، أوراقها مختلفة ، فترى ورق الفجل والبصل يتلقى المطر ويجمعه ويرسله الى جذر البصلة والفجلة ، وكذا ورق الخس وما أشبهه ، ينزل المطر فيجد الورق بوضع يصلح معه أن يجد سبيلا الى الاجتماع عند الجذر ، وكأن الورق مساق تصبّ ماءها عند الجذور ، ثم ترى ورق النخل وهو المسمى بالخوص ، وكذا ورق التين والرمان وما أشبهها لاتصلح لجمع المطر ليزل على جذع النخلة وأصل التين والرمان ، لم ذلك ؟ ولم هذا التباين ؟ ورق يجمع المطر ، وورق يفرّقه ، أما الجاهل فانه لايعنيه ، وأما العالم فان له فى كل نظرة حكمة ، وفى كل فكرة علما ، وفى كل نباتة جمالا ، وبهاء وسعادة ونورا .
اجتمع المطر فى الفجل والبصل والخس عند رأس البصلة والفجلة والخسة ، لأن الجذور غير متشعبة ولامتفرقة وانما هى متجهة الى أسفل باستقامة ، فلذلك ينزل المطر عليها ليسقيها مجتمعا لاجتماع الجذر . أما فى النخل والعبل فان العروق الضاربة فى الأرض متفرّقة منبثة فى الجهات كلها ، فلذلك وضع الورق على حال لاتصلح لانحباس المطر فيسقط على الجذع ، بل يتفرّق حوله لتفرّق العروق . أما الشجرة المسماة [ثوب السيدة] النابتة فى جبال الألب التى ذكرها اللورد لفبرى فى كتابه [جمال الطبيعة] صفحة ١١٣ فان المطر اذا نزل على أوراقها كان له عمل آخر ألا وهو أنه يكون خفيرا لها يحفظها من العطب كالعساكر والجيوش التى تحمى

الملوك

الملوك على العروش ، وذلك أن قطرات المطر أوالندى ترى متجمدة لشدة البرد تلمع كحبات اللؤلؤ على تلك الأوراق ، فاذا رأتها الحيوانات السائمة كالغنم والغزلان ولت عن الشجرة ولم تقربها لتلك العساكر الجليدية الثلجية المتلألئة المانعة كل مايقرب الشجرة ، فتأمل وتعجب كيف كان الورق جامعا للمطرتارة ومفرقا له تارة أخرى وحارسا أمينا حينا ، كل ذلك والمسلمون يأكلون الفجل والبصل والتمر والبرتقال والليمون ، وهم نائمون عن حكمة ربهم ، وعجائب صنعه ، والفرنجة فيهامفكرون ، ياعجبا كل العجب لعالم أضاع حياته فى أقوال جدلية وكلمات لغوية ، وقد أغمض أجفانه ، وهو غافل عن هذه العوالم المشاهدة ، فلتفهم اذن قوله تعالى « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » ، وقوله « وكل شىء عنده بمقدار » .

على نفسه فليبك من ضاع عمره * وليس له منها نصيب ولا سهم

ثم انظر ووازن بين عيون الحيوان فى محاولة الابصار ، وبين ورق الفجل والبصل وأمثالهما فى استقبال ماء المطر لسقى الرؤوس النازلة فى الأرض ، وكيف جعل النور المشرق من الكواكب والشمس والقمر كالقطرات النازلات من المطر كلاهما يخلق له فى الحيوان ، وفى النبات مايناسبه للانتفاع به ، فبينما نرى أعين الحيوان مدورة الشكل محدبة الأعلى حاوية مادة زجاجية ، وأخرى تشبه العدسة المحدبة الوجهين ، وهذه الأشكال فى علم الضوء معدة لقبول الضوء وجمعه مهيأة لحفظه فترسله إلى ماوراء الحدقة ، وهى الشبكية الموضوعة بنسبة مخصوصة لتقبل الصور التى حملها الضوء ، وتوصلها الى المخ الذى هو الناظر الحقيق ، ولو أنها وضعت أبعد من ذلك أو أقرب لم تظهر فيها الصور فاحتاجت إلى المناظير الزجاجية المعينة على إيضاح الصور واقرارها فوق تلك الاعصاب كما هو معروف عند أطباء العيون فى زماننا ، هكذا نرى ورق الفجل والخس والبصل ، قد وضع على هيئة حافظة للمطر بحيث يسقى الرأس ، ولم يجعل على هيئة مبعثرة له حتى لاتنتفع به أصولها « إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلاواحدة كلمح بالبصر » وما أحوج الشبان فى المدارس ، وفى المعاهد الدينية إلى ورود منا هل هذه الحكمة والارتواء منها « وفوق كل ذى علم عليم » .

اللطيفة السادسة : النبات المفترس للحيوان

قد ثبت للخاصة والعامة أن النبات طعام الحيوان مسخر له ، ولكن لم يدر فى خلد انسان أن الحيوان طعام النبات ، وأن النبات يفترسه بحيل مدبرة وكيد خاص ، فاعلم أن نباتا يسمى [الديونيا] من نباتات أمريكا الشمالية له ورق يشبه مصيدة الفأر ، وفى وسط الورقة مفصل ، وتلك الورقة نابت عليها وبر ومحيط بها شوك ومتى لامست الورقة حشرة أحس بها الوبر فانطبقت الورقة حالا عليها ، وخرج منها مادة لزجة ثمة مقام لعاب الانسان لتمتص تلك الفريسة ، فانظر كيف كان المفصل لتحرك الورقة ، وكيف قام الوبر بالاحساس كبصر الحيوان ، وكيف كان فيها ماهو كالريق وكالعصارة المعدية فى الحيوان انتهى . (والتفصيل الوافى فى سورة الرعد كما قدمنا)

اللطيفة السابعة : أعمار الحيوان

يقال فى المبدأ المشهور أن عمر كل حى ثمانية أضعاف مدة نموه ، فسريع النمو سريع الزوال ، وما يبلغ الكمال سريعا ينقص سريعا ، وعلى هذا المبدأ يكون فى استطاعة الانسان أن يعيش فوق المائة ، بل إلى المائتين إذا لم تصادفه تلك العقبات فى غذائه وأحواله ، فقدمات أحد الانجليز وعمره مائة وتسع وستون سنة ، وكذلك من آبائنا العرب ، عاش أحد بنى تميم نحو هذا القدر ، وهذا وإن كان لايعقل عادة يصلح فى قدرة الله تعالى أن يتم ، والامكان واسع ، ولكن العادة لاتبيح ذلك ، والحيوانات الجاء تعمر أكثر من القرناء ، والجريئة تحيا أكثر من الجبانة ، والمائية والبرية تعيش أكثر من الهوائية ، غير أن الرخة ، والنسر ، والببغاء ، والغراب تعيش قدر ما يمكن أن يعيش الانسان .

اللطيفة الثامنة : القرود وتقليدها

ان جماعة من أهل العلم كانوا مشتغلين فى أمريكا الجنوبية بما يتوصل به إلى معرفة شكل الأرض فكانوا حين يبعدون عن الأدوات تأتى القرود وتنظر فى المنظار وتنصب الأخشاب وتأخذ الأقلام وتغمسها فى المداد وتخط على الورق ماتيسر .

ومن محاكاة القرد للإنسان أنه تفشى الجدرى فى بعض السنين فى قرود بعض الآجام فى أمريكا الجنوبية فأتى [بنكرد] الطبيب بولدين ربط أيديهما وأرجلهما بالحبال ولقحهما بمادة الجدرى أمام قرد كبير حذاءه قرد صغير ، ثم ذهب بالولدين ، وترك مادة التلقيح والأدوات ، فطرح القرد الكبير القرد الصغير وربط يديه ورجليه ولقحه بالمادة كتلقيح الطبيب للولدين ، وحذا حذوه غيره من القرود .

اللطيفة التاسعة : عجائب الحرباء

هذا الحيوان بدنه كالاسطوانة ، وله رأس كبير ، وعنق فاحش القصر ، وذنب طويل كالحية ، وله براثن كمخالب البغاء ، وهو يتلوّن ألوانا كثيرة ، وتقول فيه العرب [أصور من عين الحرباء] أى أبرد لاعتقادهم أنه يدور مع الشمس و يستقبلها بعينيه ليستدفئ ، وقدرآه الباحثون وراقبوه فوجدوه تارة يجعل جسده أخضر إذا كان على شجرة ، وقد يكون فى حال أخرى أصفر ، وإذا تهيج حصل فى لونه خطوط متقاطعة على ظهره ، ثم تمتد إلى سائر جسمه تقريبا ، فإذادام التهيج صار الجسم كله أسود هذا فى لونه ، أما جسمه فأعجب فتارة جعل جسمه كأنه فأرة فى زاوية أخذ الرعب منها كل مأخذ ، وتارة ينشر ذنبه ويحنى ظهره ، فيكون كالأسد المزبئر ، وتارة يصير كورقة النبات ، ويرى خط أبيض ملء بطنه إلى طرف ذنبه كأنه ضلع الورقة ، ثم يرق كالسكين فينكر بذلك أعظم تنكر .

اللطيفة العاشرة : ذكاء الفيلة

مرضت فيلة مرضا شديدا فعالجها أحد العلماء فشفيت و بعد مضى خمس سنين رآته فى الطريق فذكرته فأسرعت إليه ، ووضعت خرطومها فى يده كأنها تحييه وتشكره على صنيعه ، ثم نظرته ثانية فدنت منه ومنطقته بالخرطوم كوالدة تضم ولدها بعد فراق طويل ، فانظر إلى عجائب الحيوان والنبات ، واعلم أن هذا وأمثاله مما أمر الله المسلمين أن يعلموه ، وأن يعملوا به فى الدنيا و يرقوا مدنهم فيكونوا شاكرين لله ، ومادام المسلمون لم ينظروا ، ولم يعلموا ، ولم يعملوا فى الحيوان والنبات باستخراج الثمرات والمنافع ، فإنهم كافرون لنعمته غير شاكرين لها ، فهذه من آثار قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيابه الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كلّ دابة » ، واعلم أن الدين الاسلامى كما قال أحد العلماء الهولنديين كان عند أمة ترقيه فى صدر الاسلام فارتقت به ، فلما دخل فى هذا الدين أمم جاهلة عقولها غير ناضجة فهمته فهما معوجا فانحطت ونزلت أسفل سافلين . وها نحن أولاء أبناء محمد ﷺ وتابعيه نفسر القرآن على الوجه الذى نزل لأجله على قدر الامكان ، ونبشر الأمة بأيام سعادتها ، وأن هذا القول وأمثاله من أقوال العلماء سيسرى فى الأمة سريان الضياء والكهرباء ، فالدين ديننا ، وهاهو ذا العلم أمامنا ، واللغة لغتنا فمادهى المسلمين وأذلهم الاجهل القائمين بأمرهم الجاهلين باللغة والقرآن الغافلين عن كلام أسلافنا الفضلاء مصابيح الدجى أولى الألباب .

اللطيفة الحادية عشرة

يروى أن واحدا قال لعمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه انى أتعجب من أمر الشطرنج فان رقعته ذراع فى ذراع ، ولولعب الانسان ألف ألف مرة لم يتفق مرتان على وجه واحد ، فقال عمر بن الخطاب ههنا ماهو أعجب من ذلك ، وهو أن مقدار الوجه شبر فى شبر ، ثم ان مواضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين

والأنف

والأنف والفم لايتغير ألبته ، ثم انك لاترى شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة .

اللطيفة الثانية عشرة : تعاون النبات والحيوان

السنط والنمل

هل سمعت أيها الذكى بملك فى قصره يحرسه آلاف الآلاف من الجنود ، وهم يجندلون كل يوم فى ساحات الوغى مئات الألوف من الأعداء يقتلونهم حفظا لشخصه وابقاء لحياته مدى الزمان ، وقد أحاط بقصره منازل خضر يأوى اليها الحراس ، وقد أعدّ لهم من الطعام كل مالذ ، وطاب من ألذ الطعام ، كلا انك لم تسمع به لافى الحقائق ولا فى الخرافات ، ولكن أسمعك الآن حقيقة واقعة مما نشاهده كل يوم ، والناس ساهون لاهون « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون » ذلك نوع من السنط المدجج بالسلاح من السهام البيضاء تكون له قرون مجوّفة فارغة ، وعلى ورقه نقط من العسل وحوله آلاف الآلاف من النمل تؤمه للقوت تراها صاعدة نازلة لتأكل الحشرات والديدان والسوس والهوام المحيطات بالشجرة الضارات لها المؤذيات لنموّها وحياتها ، فهذا النمل يجندل تلك الجحافل ، ويبيت تلك العساكر ، ويسكن تلك المساكن ، وهى القرون الخضر ، ويشرب ذلك العسل النقىّ ، وقد ذكر العلامة [فورل] أنه كان يرى نحو ٢٨ حشرة فى الدقيقة الواحدة يجلبها النمل لتكون غذاءه ، فانظر وتعجب كيف أصبح النمل فى هذا المقام حارسا السنط الذى هو أغنى النبات بالسلاح ، وكيف احتاج هذا المدجج القوى البأس إلى تلك الجيوش الجرارة من النمل لتحفظ حياته بقتل أعدائه من الهوام والدود والسوس ، وبهذه الخصلة كان خشب السنط متينا جدا « إنّ ربى لطيف لما يشاء » وهذه من جنود الله . قال تعالى « وما يعلم جنود ربك إلا هو » ثم أردفها بما يفيد أنها مذكرات لنا ، فقال « وماهى إلا ذكرى للبشر » وانظر كيف يقول الله تعالى « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » ثم أفاد أن هذا كله فى علمه المكنون ولوحه المحفوظ ، فقال « مافرّطنا فى الكتاب من شىء » وقال أيضا « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربى على صراط مستقيم » فلا يفتخر الانسان فالله تعالى مع كل نسمة ومع كل نبات « قال ربنا الذى أعطى كلّ شىء خلقه ثم هدى » .

اللطيفة الثالثة عشرة : تعاون النبات والحيوان أيضا

الزهر والحشرات

يطوف المرء فى الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والبساتين الغناء ، وجمالها وعجائب خلقها ، وأزهارها الجميلة الفاتنة من أحمر قان ، وأصفر فاقع ، وأزرق زاهر ، وأبيض ناصع ذوات رائحة ذكية عطرية ، وفيها مادة حلوة عسلية ، والحشرات طائفات من زهرة إلى زهرة ، ومن شجرة إلى شجرة ، وهنّ مغنيات فرحات راتعات فى بحبوحة العيش ونعيم الحياة ، فما كان قصارى خيال الشعراء الا أن يتذكروا أحبابهم ، والوجوه الجميلة والقدود ، وأوقات الصفاء والهناء ، هذا مايدور بخواطر الشعراء ، وقد غفلوا عن الحكمة فى تلك الحشرات وطوافها والأزهار وألوانها والعسل فى أسافلها ، وكيف كان بعض الزهر يتفتح ليلا ، وهو بالنهار مغمض الأجفان فاذا جنّ الليل وأرخى سدوله ظهر بلونه الزاهى الأصفر ، وفاحت رائحته ، وعم شذاء العطر ، فاذا ماطلع الفجر رأيته ذابلا لاجمال فيه ، ولا رائحة ، ولا رونق ، فهو كالخفاش ينام نهارا ويقوم ليلا ، وهو نبات اسمه [القطرب] ثم كيف كان بعض الزهر يغمض أجفانه ليلا ويستيقظ نهارا مخالفا للأوّل موافقا للناس وأكثر الحيوان ، فهو بالنهار أنس وجمال ، وبالليل مسدل الستار غافل نائم ، وذلك هو [الأقحوان] ثم كيف كان بعض الأزهار يتفتح عند طلوع الفجر ، فاذا توسطت الشمس خط نصف النهار وقت الظهيرة أقفلت أجفانها ونامت إلى طلوع الفجر من اليوم الثانى ، ويسمونها فى بلاد الانجليز [يأولد الذهب ونم عند الظهر] ومن

الأزهار ما تفتح صباحا فى الساعة السابعة ، وتنام عند الخامسة مساء ، وهو نوع من الهندباء ، يطوف الانسان فى الحقول ، ويرى هذه العجائب ، وهو عنها غافل ، ثم يرى بعض الشجر كالصنوبر والزان والبوداق والسنديان أزهارها صغيرة ولا لون لها ولا رائحة ولا جمال ، فياليت شعرى جمال فتان فى بعض الأزهار ، وعدمه فى بعضها الآخر ، ونوم بالنهار ، ويقظة بالليل ، وعكس ذلك ، ما فائدة ذلك كله ، وهل لهذا كله حكمة أم هو مما تموج به الطبيعة موجا بلا عقل يضبطها « ولا هدى ولا كتاب منير » .

أقول : اعلم أن هذا كله قد كشفه العلماء وبحثوا فيه فى عصرنا الحاضر فوجدوا أن النبات فيه الذكور والأناث وذلك كالقرع وقد أتى بالقمح الذى فى الزهرة التى فيها الطلع المذكر ووضعه فى الزهرة الأنثى وطينوا عثمان باشا مرتضى وأرانيها فى حديقة قرب المنصورة فوجدت أن الزهرة فى اليوم الثانى قد حملت حملا خفيفا وقال لى ان الناس اذا ألقحوها على هذا المنوال أتت من القرع أضعافا مضاعفة ، وتارة يكون الذكر والأنثى فى زهرة واحدة ، ثم ان الذى ينقل طلع الذكور إلى الاناث اما أن تكون الرياح واما أن تكون الحشرات كالنحل وقد جعل الجمال والألوان الزاهرة فيها لجلب تلك الحشرات وهكذا الرائحة العطرة تشوقها إلى ورود تلك المناهل ، وأما العسل فى داخل الزهرة فانما جعل ليكون غذاء الحشرة حاملا لها على دخولها فاذا دخلتها حلت على جسمها من ذلك الطلع الذى يرى على تلك الأعمدة التى كأنها مدقات فتطير إلى زهرة أخرى فيقع من جسمها عليها فاذا صادف ان كانت أنثى حلت بالثمرة المطلوبة وذلك الطلع كغبار الدقيق كما يرى فى طلع النخل ، وبهذا ثبت أن الذكورة والأنوثة عامة فى سائر النبات البالغة فصائله خمسمائة ألف .

ولقد بحث العلماء حبات اللقاح فى زهرة النبات المسمى عود الصليب فوجدوها من ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٣ إلى ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٤ أليس هذا مصداقا لقوله تعالى «وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج» ولقوله «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» ولما كانت هذه العجائب مدهشة للب مطيرة للفؤاد حتى يتعلق بمن نظم هذه العجائب أردفه بقوله «ففروا إلى الله» قد قلنا ان الحشرات هى الحاملة للقاح من الذكور إلى الاناث ولذلك تراها طائفة فى الحقول والبساتين مغنية تجرى فى جو من الجمال والآمال تطلب العسل من الزهر وتشرب رحيقه المختوم تخدم أنفسها بالجمال والروائح العطرية وشرب العسل وهى تؤدى عملا نافعا للشجر فانها سبب فى بقاء نوعه ودوام جنسه وكأنها تغنى طربا كما تغنى النساء وهن يزففن العروس إلى بعلها وكأن هؤلاء وهؤلاء فرحات بنعمة البقاء والدوام التى تزف على أيديهن لأنواع المخلوقات ، فأما نوم الزهرات فى أوقات مختلفات فذلك مطابق لعادات الحشرات فالزهرات الساهرات تسهر حشراتها نهارها ، والنائمة ظهرا أو عند الغروب تكون هذه العادة نفس عادات الحشرات فثبت اذن أن هنا عالما عجيبا ونظاما بديعا وبدائع وأعمالا متقنة ، وليس الالقاح خاصا بالحشرات فان الرياح تلقح كثيرا من الاشجار ، ولذلك ترى أن أزهارها لا جمال فيها ولا بهجة ولا رائحة ذكية ولا عسلا فان الريح لا تحتاج لشىء من ذلك ، وانما تؤدى عملها بلا شهوة ولا عقل فترى شجر السنديان والصنوبر والزان خاليا من جمال الزهر والحلية والزينة فان ذلك كله لا تحتاج إليه الريح ولا تعقله ولو أن الحشرات كانت موصلة للطلع فى تلك الاشجار لجمل الزهر وحسن شكله وظهر عسله وذكت رائحته فان الله تعالى لا يخلق الأشياء الا لحكمة ولا حكمة فى جمال لا ناظر له ، ولا فى طعام لا آكل له ، ولا فى رائحة لا شام لها وهو هنا الرياح ؛ أوليس هذا مصداقا لقوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » أولست ترى معى أن المسلمين قد قصروا وزادوا فى التقاعد والتقاعس والنوم والغفلة ، أوليس هذا من مقتضى دينهم ، وكيف يفوز الفرنجة بمعرفة الحقائق التى نطق بها كتابنا وهم لا يعلمون أنها فيه ونحن أجهل منهم بحقائقه ، أفلست ترى أن المسلمين أولى بهذه العلوم وأحق بها ، اللهم انى نصحت أمتى وعملت جهدى وما كتمت العلم ، اللهم نور

بصائر أولى الألباب فيها ، وأرهم رشدهم ، واجعلهم نورا وهدى للعالمين .
وسترى فى « سورة الحجر » عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح » عجائب الأزهار والقاحها مما يدهش الألباب . وفى « سورة الشعراء » عند قوله تعالى « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » فهناك ترى جنة عالية قطوفها دانية من المعارف الجميلة والمحاسن البهجة الشارحة للصدور ، المرقية للعقول .
ولنختم الكلام فى هذا المقام ونبتدئ الكلام على :

تصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض

اعلم أن كل هواء هب فانه يسمى ريحا ، ومن عجب أن السرعة فى الرياح على مقدار ثقلها فاذا كان ثقلها على القدم المربعة ٧٢ و ٠ من الدرهم كانت سرعتها ميلا فى الساعة وان كان ضغطها ٨٨ و ٢ من الدراهم كذلك كانت سرعتها ميلين واذا كانت ٤٨ و ٦ كانت سرعتها ثلاثة أميال ومعظم سرعة الريح المسماة زوبعة واعصارا والمسماة زعزعا وزعزاعا وزعزعانا ٨٤ ميلا فى الساعة الواحدة الاولى وواحد وتسعون ميلا للثانية وفى النادر أن تجرى فى الساعة مائة وعشرين ميلا أو أكثر .

الزوبعة أو الاعصار

ريح تصعد فى السماء بالمواد كأنها عمود تثير الغبار والسحاب وقد تخرب الديار وتقلع الاشجار وتحملها وتذرو أثمارها فى الآفاق فيظن الناس أن السماء أمطرت أثمارا وقد تحدث على وجه المياه وترفع بعض حيواناتها فتمطر ضفادع وأسماكا وهى نتيجة ريحين عظيمتين متقابلتين متضادتين وقد يحدث بسببها أن يثور من السحاب مخروط معكوس تدور به فينحدر من الجو وتثير من البحر مخروطا مستقيما ، فاذا تلاقى المخروطان حدث ما تسميه العامة بالتنين ، وقد يكون قطر المخروط مائتى قدم .

عجائب السحاب وحكمه

تعجب كيف كان السحاب ليس يرتفع عن وجه الأرض فى الجو أكثر من ستة عشر ألف ذراع وان أقرب ما كان مماسا لوجه الأرض وذلك نادر فى بعض البلدان إذ لو كان السحاب فى كل وقت وفى كل بلد مماسا لوجه الأرض لأضر ذلك بالحيوان والنبات وأمتعة الناس كما يرى ذلك يوم الضباب وفى البلدان القريبة من السواحل مثل البصرة وانطاكية وطبرستان لقربها من البحار فبينما الناس فى غفلاتهم إذ فاجأهم الطل والمطر والضباب حتى يضيق الصدر ويأخذ النفس وتبتل الثياب والامتعة ولو كان السحاب دائما قريبا من وجه الأرض لأضر الرعد والبرق أبصار الحيوان وأسماعها ولو كان بعيدا شديد الارتفاع فى الهواء حتى لا يرى نكات الامطار والثلوج تأتى مفاجأة والناس والحيوان عنها غافلون لا يتحرزون فيكون الضرر عاما كما قال تعالى « وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » فتعجب كيف كان السحاب يأتى غالبا عند الحاجة إليه وليس يكون بعيدا جدا لا تحترس منه ولا قريبا جدا حتى نستضر به فبعده وقربه بحساب وكثرته وقلته بحساب ولو دام متواصلا لقتل الخلائق « وكل شىء عنده بمقدار » وانظر كيف جعل الله بعض الاماكن يقل فيها المطر والأنهار فيها لتكون فصلا بين الممالك والقارات أولتكون ملتجأ ومأوى للفارين من الظلم وتكون ملطفة للهواء منقية لجفافها والاتعفن بتواصل العمران ولم يكن هناك خلاء نقى . ولما كانت هذه العجائب لا يفهمها إلا العقلاء قال تعالى : «ان فى خلق السموات إلى قوله لآيات لقوم يعقلون » .

السحاب والسفن يجريان بالبخار وبالكهرباء

ذكر الله الفلك في هذه الآية وذكر السحاب والرياح ولقد تشاركت السفن والسحب في أنها جميعا تجرى بالرياح وبالكهرباء ، لقد أمنأت لنا يا ألله السبل وأريتنا العجب وأسبغت علينا النعم فأريتنا السحاب تجرى بالرياح مسخرات في جو السماء والهواء يسوقها لسقى الأرض فيخرج النبات ويحيي الحيوان . ولقد جعلت بحكمتك الأرض والجبال وطبقة الزمهرير الباردة أشبه بالحمام فالشمس المشرقة المحرقة الساطعة على البحار أشبه بالنار في الحمام وماء البحر أشبه بالماء الذى يسخن فيه ، والبخار الصاعد من البحار في الجو أشبه بالبخار الصاعد في الحمام ، والجبال الشامخات المانعة للسحب أن تهيم على وجهها بل تحبسها فتسق المروج والبطائح وراء الجبل كحيطان الحمام الحافظة للبخار ، والزمهرير الذى يعلو إليه البخار فيبرد فيتجمع ماء فينزل مطرا أشبه بسقف الحمام يتراكم عنده البخار الصاعد فيتساقط ، سبحانك ربنا أريتنا أن الجبال أشبه بالسدود وبالجسور وهي التى يسميها العامة في مصر بالمزلقانات تصد الرياح الجاريات بالسحب حتى لا تجاوزها فتحبس المطر أمامها فيسق الزرع ويدر الضرع والجبل كما يحفظ الماء في السحاب أن يجاوز البطائح التى أمامه ، هكذا نراه قد خزن الماء في جوفه الذى ينزل من المطر أو من الثلج الذى سطعت عليه الشمس فذاب قليلا قليلا وخزن في باطنه ثم برد فكسر الصخر كما ذكرناه قبلا فكان منه العيون الجاريات وبها تكون الأنهار ، فالجبل حفظ الماء في الهواء وفي باطنه .

اطلع بعض المغرمين بالعجائب على السحب من فوق الجبال الشوامخ ، فرأوا أن السحابة قد تبلغ قاعدتها عشرين ميلا مربعا وسمكها ميل ، ورأوا السحب صاعدة من الحضيض جارية الى تحت أقدامهم ، ومن السحب ما لا يزيد سمكها عن عشرين قيراطا ، وأدنى السحب ما كثرت فيها الكهرباء ، وسير السحب الرياح غالبا ، وكثيرا ما شوهد زمن سكون الرياح سحائب صغيرة متقابلة تجاذبت وكانت إحدى المتقابلتين كهربائيتها موجبة والأخرى سالبة فتقابلتا بذلك التجاذب . فانظر كيف أمر الله الكهرباء أن تقوم بتسيير السحاب اذا ركدت الرياح فجرت تلك السحب ، ثم كيف كانت السفن في البحار تجرى بالرياح كالسحاب واستعملت الكهرباء أيضا في تسييرها وجريها في البحار ، أفليس حب الله الذى سأشرحه لك في المقال الآتى يوجب على المسلمين أن يأخذوا بأسبابه ، وأسبابه كما سترى هو العلم بما صنعه المبدع الحكيم ، والانتفاع به ، وقبول نعمه بالعمل ، ويكون ذلك هو الشكر ، أرسل الله سبحانه الكهرباء فسخرها ، تجرى السحاب ، فجاء الانسان ونظر صنعة ربه فقلده ونقلها الى السفينة . ان ذلك يا ألله قبول منا هديتك ، وشكر لنعمتك ، ألا وإنى أشهد أننا معاشر المسلمين مقصرون في حبك ، والاطلاع على عجائبك ، والولوع والغرام بمصنوعاتك .

جرت السفن في البحار تارة بالرياح وتارة بالبخار وآونة بالمجاديف التى يقاوم الانسان بها الماء فتسير الى الأمام ووقتا سلط الانسان الطاقة الكهربائية المتولدة من الطاقة [الميكانيكية] [الحيلية نسبة لعلم الحيل] لما يسمونه بخار التربية على محركات السفينة وهي المجاديف أو الرفاصات ، وقد أسفر ذلك عن نجاح باهر كما ذكرته المجلات الانجليزية ، فجرت السفن كما جرت السحب بالكهرباء وبالرياح والبخار المتولد من الماء والحرارة بالفحم أو غيره كالهواء في ضغطه فهو ملحق به معنى ، فسبحان الذى علم الانسان ما لم يعلم ، ولقد جعلت يا ألله حركات الماء كلها بركات فاذا جرى في الأنهار كانت قوة اندفاعه من أعلى كما في خزان [سد أو صرم] أسوان بمصر فيها قوة لو استعملت لولدت كهرباء أجرت جميع القطرات في البلدان ، ولأنارت جميع القرى والمدن ، ولأغنتهم ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، فالحركة تولد الكهرباء بحيل علمية كما تكون منها الحرارة ، ومن الحرارة

الضوء

للضوء وهكذا ، والماء بلطافته يندفع بخارا فيجرى السفن والقطرات ، فهو ماء مبارك ونعم عظيمة « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ولقد جعلت يا ألله هذه السفن الماخرات فى اليمّ فى حاجة الى النجوم السيارة يعرفها العاملون فيها بجداول حتى يلاحظوها فى أسفارهم ومعهم البوصلة وهى بيت الابرة المعروف تكون فيه تلك الابرة الممغطسة الناظرة فى اتجاهها الى الشمال والى الجنوب كأنها تقول : اذا غاب النجم الذى به تهتدون كما قال الله : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » فأنا أقوم مقامه ، وأهديكم فى ظلمات البحر ، لأن هداية الله تعمّ سائر الأقطار بالليل والنهار والظلمة والنور ، فعلم الكواكب وتقويمها من النعم ، والبخار من النعم ، والكهرباء من النعم ، وحركات الماء من النعم ، وعموم الكهرباء فى أجسام كثيرة من النعم . كل ذلك والمسلمون نائمون كأن هذا القرآن جاء لغيرنا ، وكأننا من سكان المريخ ، وكأن الذين يعقلون هذه الآيات غير المخاطبين ، فاليك يا ألله أضرع أن تقرّ عينى باستيقاظ المسلمين « ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوىّ عزيز » ، ان ذلك هو الحب ، فالحب والعشق والشوق كلها ترجع للعلوم . ولذلك ذكر آية الحب بعد هذا فقال :

(المقصد العاشر)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ

بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ *

التفسير اللفظى

قال الله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا) أى من الأصنام والرؤساء (يحبونهم) أى يطيعونهم ويعظمونهم تعظيم المحبوب (كحب الله) كتعظيم الله والخضوع له ، أى يحبون الأصنام كما يحبون الله ، يعنى يسوّون بينه وبينهم فى محبتهم ، لأنهم كانوا يقرّون بالله ويتقرّبون إليه ، وقيل : يحبونهم كحب المؤمنين لله (والذين آمنوا أشدّ حبا لله) من المشركين لآلهتهم لأنهم لايعدلون عنه إلى غيره بحال ، والمشركون يعدلون عن أندادهم الى الله عند الشدائد فيفزعون إليه ، وقوله (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب) أى لو يعلم هؤلاء الذين ظلموا باتخاذ الأنداد اذا عاينوا العذاب يوم القيامة (أن القوّة لله جميعا وأن الله شديد العذاب) لو يعلمون شدّة عقابه للظالمين لندموا أشدّ الندم ، وقوله (إذ تبرّأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) بدل من إذ يرون (ورأوا العذاب) أى رائين العذاب والواو للحال ، وقد مضمرة ، وقيل عطف على تبرأ (وتقطعت بهم الأسباب) وهى الوصل التى كانت بينهم من الاتفاق على دين واحد ومن الأنساب والمحابّ (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرّة) لو للتمنى وجوابه (فنتبرّأ منهم كما تبرّءوا منا كذلك) أى مثل ذلك الاراء الفظيع (يريهم الله أعمالهم) أى عبادتهم الأوثان (حسرات عليهم) ندامات وهو مفعول ثان ليريهم ، ومعناه أن أعمالهم تنقلب عليهم حسرات فلايرون إلاحسرات (وماهم بخارجين من النار) بل هم فيها دائمون ، وقوله (ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) نزلت فى قوم حرّموا على أنفسهم أحسن الأطعمة والملابس ، والحلال المباح الذى أباحه الشرع وانحلت عقدة الحظر عنه ، والطيب قيل المستلذ ، وهذا ليس بجيد ، لأن المدار فى الطعام على نفعه فى الجسم صحة واعتدالا (ولاتتبعوا خطوات الشيطان) لاتقتدوا به فى اتباع الهوى تحريما وتحليلا ، والشيطان هو الشهوة والغضب عند قوم ، أو هو مخلوق حىّ يوسوس للناس وهو ظاهر الأحاديث (إنه لكم عدوّ مبين) ظاهر العداوة (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء) بيان لعداوته ووجوب التحرّز من متابعته ، والفحشاء ما أنكره العقل ، وقوله (وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) فى موضع الجر بالعطف على بالسوء أى وبأن تقولوا كأن تقولوا هذا حلال وهذا حرام بغير علم ، ويدخل فيه كل مايضاف الى الله تعالى مما لايجوز (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله) الضمير للناس وهم المشركون أو اليهود لما دعاهم النبى صلى الله عليه وسلم الى الايمان واتباع القرآن (قالوا بل نتبع ماألفينا) وجدنا (عليه آباءنا) فانهم كانوا خيرا منا وأعلم فردّ الله عليهم بقوله (أ) يتبعونهم (ولوكان آباؤهم لايعقلون شيئا) من الدين (ولايهتدون) للصواب ، ثم ضرب لهم مثلا فقال (ومثل الذين كفروا كمثل) بهائم (الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء) النعيق التصويت ، يقال نعق المؤذن ونعق الراعى بالضأن ، والنداء مايسمع ، والدعاء قد يسمع وقد لايسمع ، والمعنى أن الكفرة لانهماكهم فى التقليد لايلقون أذهانهم الى مايتلى عليهم ، ولايتأملون فيما يقرّر معهم ، فهم فى ذلك كالبهائم التى ينعق عليها فتسمع الصوت ولاتعرف مغزاه ، وتحسّ بالنداء ولاتفهم معناه (صمّ بكم عمى) رفع على الذم (فهم لايعقلون) الموعظة ، ثم بين أن ماحرّمه المشركون حلال بقوله (ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) أى من جيده فى منفعتكم وفيما هو أصحّ لأبدانكم أو حلالاتكم (واشكروا لله) على مارزقكم وأحلّ لكم (ان كنتم إياه تعبدون) ان صحّ أنكم تخصونه بالعبادة ، ثم بين المحرّم فقال (إنما حرّم عليكم

الميتة)

الميتة) وهو كل مافارقه الروح من غير ذكاته مما يذبح ، أى ماحرم عليكم إلا الميتة (والدم) أى السائل لقوله فى آية أخرى : « أودما مسفوحا » (ولحم الخنزير) أى الخنزير بجميع أجزائه (وما أهل به لغير الله) أى ذبح للأصنام فذكر عليه غير اسم الله ، وأصل الاهلال رفع الصوت ، أى رفع به الصوت للصنم ، وكانوا فى الجاهلية يقولون : باسم اللات والعزى (فمن اضطر) أى ألجئ فأكل حال كونه (غير باغ) للذة أوشهوة أوللاستئثار على مضطر آخر (ولاعاد) متعد مقدار الحاجة وسد الرمق ، أوالجوعة ، أوغير باغ على الوالى ، ولاعاد بقطع الطريق ، فعلى هذا لايباح للعاصى بالسفر وهوظاهرمذهب الشافعى وقول أحد رحمهما الله (فلا إثم عليه) فى تناوله (إن الله غفور) لما فعل (رحيم) بالرخصة فيه فيأكل الميتة عند الضرورة شبعا ولا يتزود منها ، ومعلوم أن الهدايا والمآكل والرشا التى يقدمها المرءوسون للرؤساء الذين يضلون عن سبيل الله ليست حلالا كالتى يأخذها رؤساء اليهود ، فلذلك أعقبه بقوله (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا) عوضا حقيرا (أولئك ما يأكلون فى بطونهم) أى ملء بطونهم (إلا النار) لأنه اذا أكل مايتلبس بالنار لكونها عقوبة عليه فكأنه أكل النار (ولايكلمهم الله يوم القيامة) كلاما يسرهم ولكن استحقوا قوله : « اخسئوا فيها ولاتكلمون » (ولايزكيهم) ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم (ولهم عذاب أليم) مؤلم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة) بكتمان نعت محمد ﷺ للمطامع والأغراض الدنيوية (فما أصبرهم على النار) تعجب من حالهم فى الالتباس بموجب النار من غير مبالاة (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى ذلك العذاب بسبب أن الله نزل الكتاب بالحق فرفضوه بالتكذيب أوالكتمان (وان الذين اختلفوا فى الكتاب) أى فى جنس الكتاب فيقولون فى بعض كتب الله انها حق وفى بعضها باطل (لفى شقاق) خلاف (بعيد) عن الحق . انتهى التفسير اللفظى .

إيضاح

اذا قيل للمشركين اتبعوا القرآن جنحوا الى التقليد ، وهكذا اليهود ، وقوله « أولوكان آباؤهم » الهمزة للتعجب ، وهذه الآيات تدعو الى التنفير من الانقياد الأعمى للزعماء ذوى الأغراض الساقطة كملوك الاسلام السابقين فى الدول الاسلامية فان كل من أغرى قوما بما لاينبغى ثم وقعوا فى العذاب إما فى الدنيا بالأسروغيره واما فى الآخرة بجهنم تبرأ المتبوعون من التابعين وندم التابعون على انقيادهم الأعمى ، وهذا هوالداعى لتأليف مجالس الشورى فى الاسلام ، لأن القادة لاينفعون الناس فى الحساب الدنيوى ولا الأخروى ويقع القتل على الأمة ، فتارة يفتكون بالقادة كما حصل فى اليونان أيام تأليف هذا الكتاب قتلوا وزراءهم لما أوقعوهم فى حروب كانت عليهم وبالا . وتارة ينجوالرؤساء كما هوغالب فى العالم مثل [ولسن] فى أمريكا أضر بأمته فى الصلح وخانهم ولم يقتلوه ، وقوله « ومثل الذين كفروا الخ » أى مثل داعى الذين كفروا الى الايمان كمثل الراعى الذى ينعق بغنمه وهى لاتسمع إلا دعاء ونداء فهى لاتعقل ، وقوله « انما حرم عليكم الميتة » أى أكلها « والدم » وقد كانت العرب تجعل الدم فى المصارين ثم تشويه وتأكله فحرم ذلك .

هنا أبان أن دين الاسلام دين أساسه العلم ، وعماده النظر ، وسقفه الحكمة ، فمن قلدوا فى أعمالهم وآرائهم فأولئك هم الضالون ، إذ تبرأ المتبوعون من التابعين ، وقد أحاط بهم العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب وقال التابعون : لقد ظلمتمونا بأقوالكم ، وآذيتمونا بأفككم ، وياليت لنا كرة الى الدنيا ورجعة الى الحياة فنتبرأ منكم كما تبرأتم منا ، وهذا المقام سنوفيه حقه قريبا لشدة حاجة الأمة الاسلامية اليه فى هذا الزمان ، وأكثر الناس فى الحياة صم عن أن يسمعوا النداء ، عمى فلايستطيعون الاهتداء ، فهم لايسمعون ولايبصرون

وإذا قيل لهم انظروا بعقولكم واتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما كان عليه الآباء ، أيكون ذلك ولو كان الآباء لا يعقلون ؟ ومن ذا الذى يهتدى بالعميان ! قتل الانسان ما أشد جهله ، وأقل علمه ، ولعمرك ما حرمت الأنعام وإنما حرمت الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذكر اسم غير الله عليه ، ويحل ما حرم من ذلك للمضطر اذا لم يبغ على المرفقة الآكلين فيما يأكلون ولم يجاوز الحد فيملأ المعدة ولا يجتزئ بما يسد الرمق فهذان محرم عليهما الرخصة ، على أن الأمم اذا دنا أجلها وذهب مجدها أن تستبدل الترهات بالحكمة وأقوال الضالين بالعلم كأهل سبأ إذ ربطوا هررهم بجانب عرمهم لما أعرضوا عن حكمهم ، وجهلوا نظام العمران ، وهندسة البنيان ، وهكذا العرب الجاهلون لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم نسوا دين ابراهيم ، وماتت عقولهم ، وذلت نفوسهم ، وتخطفتهم الأمم المحيطة بهم من كل جانب لولاحية جاهلية وشنشنة عربية ، فكانوا يحللون ويحرمون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، والمسلمون اليوم حذوا حذوهم ، واتبعوا خطوات غيهم ، واعتزلوا عقولهم ، إلا من رحم ربك ولذلك أنزل الكتاب لهم . ولألخص الكلام فى مقامات ثلاث فى هذه الآيات . المقام الأول : الحب ، الثانى : الرؤساء والمرءوسون . الثالث : الحلال والحرام . وهاك بيانها :

المقام الأول : الحب ، والعشق ، والشوق ، ومامعنى حب الله

اعلم أن كل ما حولنا ونشعر به ونعلمه بالنسبة لنا ينقسم قسمين : موافق ومنافر ، فكل موافق أحببناه ، وكل منافر كرهناه ، فالحب والبغض تابعان للموافقة والمنافرة ، لافرق فى ذلك بين الطيور فى وكناتها ، والآساد فى آجامها ، والحيات فى أوكارها ، والنحل فى بيوتها ، والناس فى منازلها ، والملوك على عروشها ، والأنبياء والحكماء ، قاعدة عامة لا يشذ منها حى فى العالمين . الحرير والورد والعسل ، والصور الجميلة ، والنغمات الموزونة مع الأصوات الحسنة نحبها لموافقتها لحاسة اللمس والشم والذوق والبصر والسمع . والشوك والروائح الخبيثة والحنظل ، والصور القبيحة ، والأصوات المنكرة ، نكرهها لمنافرتها للحواس المتقدمة على الترتيب المذكور . فهذه عشر صور خمس للمكروهات ، وخمس للمحبوبات ، وهكذا سائر ما حولنا من الناس والدواب والمعادن والنبات ملحق بهذه العشرة منقسم الى هذين القسمين .

الخيال والتصور

ثم انه اذا غابت عنا تلك الصور الجميلة ، والنغمات اللذيذة ، والمطعومات الحلوة ، والمشمومات المرغوبة ، فانا نصورها بقوة الخيال ، ونستحضرها فى العقول ونتذكرها ، ولنا فيها ما رب شتى هناك فنستلذ بحضور صورها كأنها مشاهدة ، أو بالاستنتاج من أحوالها ، أو بتذكر ما كان منها ، وهذه لذة تحاكى لذة الاحساس ولكنها أضعف منها ، وهكذا الصور المكروهة تصورها فنتألم كأنها حاضرة ، ولكن الألم يكون أقل لأن هذا خيال وذاك حقيقة .

العلم

ثم أننا لا نقتصر فى الحب على المشاهد فانا نحب المحسنين فى أى ملة ودين ونحلة ، ونحب الشجعان الذين حكيت لنا قصصهم وتواريخهم ، ونحب الحكماء والعلماء وأرباب الجمال وان لم نشاهدهم ، فانا نرى أن العامة الذين يسمعون قصة عنترة يهيمون غراما بعبلة وبزوجها ، ولا يهنأ لهم طعام ولا شراب إلا بذكر تلك الأسماء ومدحها وإعظامها وإجلالها . ترى المتعلمين العصريين يحبون نابليون لشجاعته وهمته . ترى فريقا من الناس يحب عيسى ، وفريقا يحب بوذا ، وفريقا يحب موسى ، وفريقا برهمة ، وفريقا كونفشيوس . كل ذلك تابع للعلم بتاريخهم ، والاطلاع على عملهم ، فالشجعان والعلماء محبوبون ، والمحسنون والصابرون والصادقون ،

ان

ان ذلك راجع للجمال العقلى . وكل ذلك لموافقتــه لفطرنا ونفوسنا ، ونحن نكره الفخر بين الأمم وننفر منهم مثل نيرون وقراقوش الظالمين ، ونكره الجهال والجبناء والكسالى ، لأن ذلك لايوافقنا .

وبالاجمال المحبوب والمكروه يكونان فى المحسوس والمعقول بهذا البرهان ، وبهذا تبين أن المحبة والبغض تابعان للعلم ، والعلم إما بمحسوس أومعقول .

العشق

فاذا ماتمادى الانسان فى حب شىء ودام على ذلك ، وغفل عما عداه ، وصار هوهمه الشاغل له ، كان ذلك عشقا ، فالعاشق يكون مولعا بمعشوقه لايحب أن يفارقه ، والعشق الانسانى الذى هوالمظهرالمحسوس معروف متداول بين الناس ، والجمهور لايفهم من العشق إلا هذا المعنى مع أنهم يجدون التاجر الذى نسى كل شىء إلا تجارته ، والصانع ، والمزارع ، والقائد ، والعالم ، والمهندس الذى خلبت الهندسة عقله ، وسلبت لبه ، حتى لايرى أجمل الصورأمامه لشدة شغفه بالهندسة ، فنحن نسمى المهندس والطبيب والتاجر والقائد الذين سلبوا حب كل شىء إلاماهم فيه من هندسة وطب وتجارة وحرب نسميهم عشاقا ، إذ القاعدة فى الحب والعشق أن تنظر الى مافضل على ماسواه عند المحب العاشق ، وتقيس نفسه بمن جلس على مائدة وأمامه التفاح والموز فنظر الى أيهما تمتد يده فلاشك أنه يقدم عند الأكل أشهاهما لنفسه فنقول : هذا يحب الموز أكثر من التفاح مثلا ، هكذا اذا رأينا رجلا يحدث الجليسين ويقبل على أحدهما بوجهه أكثر علمنا أن حبه له أكثر من حبه للآخر ، ونرى الشاب القوى البنية له خطيبة جميلة مرغوبة قد يفضل السفر والغربة الى أوروبا ليحيى قلبه بالعلم ويتحمل مضض الفراق ، فنحكم بأن هذا الشاب فضل العشق العقلى وهوالرقى فى الحياة على العشق الحسى ، علمنامن هذا أن الحب يكون للعلم والقدرة التى هى الشجاعة وللاحسان وللجمال ، فالعالم محبوب ، والشجاع محبوب ، والمحسن محبوب ، والجميل محبوب .

حب الله

وعندالنظر فى هذه العوالم المشاهدة ، والتأمل فى جمالها وبهائها نجد هذا الجمال والبهجة والحسن فى الورد والزهر والشمس والقمر والكواكب والنجوم وجميع الصورالجميلة الخالبة للعقول الجاذبة للنفوس انما هى نقوش فى هذه المادة ، والمصور لها أجمل منها ، وهى مظاهر ذاته كما يقول الصوفية ، وكما رأيت فى كلام [سبنسر] وهكذا علم العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونبوة الأنبياء ، إنما هى من عنده ، فهذه العوالم المشاهدة تدلنا أن صانعها أقدر من نابليون وعنترة ، وأعلم من عيسى ومحمد والجمال لعزة وليلى من جماله ، فالجمال له ، والعلم له ، والحكمة له ، والقدرة له ، ونحن قد قررنا أن الحب يكون على مقدار الموافقة ، ولو أن المحبوب كان جميل الصورة ، حسن النغم ، حسن الخلق ، عطر الرائحة ، فصيحا ذكيا عالما ، لكان ذلك فوق كل جمال ، ومن عرف هذه الصفات فيه غاب عقله وفنى فيه وأصبح هائما ، بل ربما سلب لبه وعقله . هذا عند المدرك له ، لأن من ذاق عرف ، ومن عرف أحب ، ومن زاد حبه عشق ، ثم يكون الوله والفناء ، فأما من قل ادراكه فانه لايعرف إلا على مقدار ماوصله ، ألاترى أن الأعمى لايدرك الصورالجميلة ، والأصم لايعرف جمال النغمات فهذان لايمكن أن يعقلا أو يتصورا صورالجمال وبهجة النغمات ، فالمدار على المعرفة فى المحبة ، ومن جهل شيئا عاداه ، ولذلك نجد الأمم تنشرلغاتها وعاداتها بين الناس لتحب ، فأما المجهول فهومنبوذ ، فمن تحقق فى الله أنه هوالمتصف بالجمال والقوة والعلم والاحسان ذابت أمامه صورة عزة وليلى ، ورأى عنده من العلم والقدرة والاحسان مالايدانيه علم عالم ولانبى ولاحكيم ، ولااحسان محسن ، ولاقوة شجاع ، وحينئذ يصبح هائما فى جماله وعلمه وقوته واحسانه أكثر من كل جميل عالم مقتدر « وأن الى ربك المنتهى » .

الشوق

قد قدّمنا أن المحبوب اذا غاب عن عياننا حضر بصورته فى خيالنا ، ونقول الآن ان هذه الصورة تحثنا أن نستكمل مشاهدتها لأن حضور الصورة فى الخيال ناقص والنفس تحب أن تمتع بالرؤية التامة ، وهذا هو الشوق ، فالمشوق حاضر بعضه غائب باقيه ، والنفس لاتفتأ تجدّ حتى تستكمل التمتع بالجمال ، وعلى ذلك نشتاق الى المحبوب لنراه ونستكمل المشاهدة وهكذا اذا نظرنا وجه المحبوب تطلعت النفس إلى بقية جماله وماخفى وراء ذلك ، فالمطلوب للمشتاق إما غائب كان حاضرا واما حاضر ستر بعضه ، فهو يودّ استكمال باقيه بالمشاهدة ليكمل له ما أراد .

الشوق لله

ولا جرم أن هذا العالم المشاهد بهجة وجمال وحسن وكمال ، فالكواكب بحساب ، والنبات منظم عناصره الداخلة فيه ، وكلّ شىء بمقدار فى هذا العالم ، ومن ينظر ليلا للنجوم يجد من البهجة والحسن والنضارة مايذهل عقله ، وانما غاب هذا الجمال عن الجهال لأنهم أشبه بالعميان أمام الغادات الحسان ، و بالصمّ عند سماع الأوتار فى أيدى القيان ، ولم تفتق لهم الحاسة التى بها يدركون ، ومن الموانع لمعرفة هذا الجمال أنه مبذول لكل انسان ، ولقد قدّمنا فى هذا التفسير أن أكثر النوع الانسانى عبيد العصا فاذا قرعهم الله بعصاه وأدّبهم وأنزل عليهم البلاء ، ثم نفحهم رحمة من عنده حمدوه لأنهم لايعرفون النعمة الا بعد البلاء كالحيوانات العجم ، هكذا لايعرفون الجميل الا إذا اختبأ عنهم وترفع فحينئذ يعزّ عليهم و يعظم فى أعينهم ، فاما المبذول لهم فهو مبتذل والسماء وجمالها أجمل من الجواهر واليواقيت والصور البديعة المعلقة فى القصور ، ولكن الناس لجهلهم وقصورهم لايعقلون من الجمال الا ذلك الحقير الذى فى قصورهم أودورهم كالقمرة والمرجانة ، ولعمرك ليس فى الأحجار الثمينة من الجمال إلا أثره بالنسبة للكواكب [وقال الامام الغزالى] مامعناه .

ان الناس لايفرحون بالكواكب لأنها مبذولة لهم ، وهى لانسبة بين جمالها ، وجمال الحدائق الغناء فى الأرض ، وتراهم إذا رأوا حديقة قد منعوا من دخولها ازدحموا عليها لأنهم مغرمون بالممنوع معرضون عن المبذول .

أقول : ولذلك قلّ الأنبياء والحكماء فى نوع الانسان الذين أدركوا الجمال وتفرغوا لهداية الناس فهم المغرمون بالعجائب لأنهم عرفوا واشتاقوا فشوقهم لله يحثهم على البحث فى جمال العالم ولايزالون يجدّون ، وكلما وصلوا إلى جمال طمعوا فيماوراءه ، ولهذا تجد الحكماء يقرءون سائر العلوم ، وهى حقيقة الجمال ، ثم يطمعون فيما وراء ذلك من المباحث بأفكارهم و يجدون لذة لايعرفها سواهم كما لايعرف الأعمى جمال الصور ولا الأصم حسن النغمات ، فهؤلاء مدفوعون بحبّ الجمال هائمون ، وكذلك يريدون أن يستكملوا الجمال فانهم فى هذه الدنيا مغمورون فى المادة يقرءون العلوم ، و ينظرون جمال النجوم ، و يعلمون أن ذلك قشور ، وأنهم بالموت أو بالتجرّد من المادة يطلعون على حقيقة الجمال ولا يزالون يجدّون فى تصفية نفوسهم وتقوية ملكاتهم ، حتى إذا ماتوا وصلوا إلى الجمال الحقيق كما أن العاشق إذا قابل من أحبه تمتع بالجمال الأكمل ، فههنا طلب العاشق الأمرين : زيادة الاطلاع على الجمال ، وحضور ماغاب من المحبوب كما فى العشق المادى الذى شرحناه [ان الناس] مغمورون فى الجمال من شمس ، وقمر ، وكواكب ، وعلوم ، ورياض ناضرات ، وحقول بهجات ، وأكثرهم نائمون ، فتبين أن حب الله راجع إلى الغرام بالعلم ، والغرام بالعلم برق الأمم [ونتيجة القول] أن حب الله قليل بين المسلمين لأنهم عن العلم معرضون ، و بالجهل قانعون ، ولقد اكتفى الصوفية الصادقون منهم بمحبة الله الجزئية لا الكلية ، و بالفتوح فى الدوائر التى خلقوا فيها من تهذيب الأخلاق أو نحوها ، وهذا ولاة قصور وعيب

فالعلم بالتعلم ، وحرام على رجال الصوفية أن يقصروا فى حث تلاميذهم المستعدين على قراءة العلوم الغربية والشرقية ، والتفكر ، والتعقل ، ولكن ذلك على مقدار الاستعداد ، فحب الله يرقى المسلمين ، وبالأعراض عن حبه وجهلهم به أصبحوا عرضة للطامعين ، فأين حب الله أيها المسلمون ، وما الحب إلا نتيجة العلوم ، فأين العلوم ، وأين الحب « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

عجيبة

لعلك أيها الفطن تقول : وهل قوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » يفيد هذا الذى أطلت به .

أقول : على رسلك لماذا جاءت عقب قوله : إن فى خلق السموات والأرض الخ أعنى لماذا ذكرها الله بعد أن ذكر السماء ، والأرض ، والليل ، والنهار ، والسفن ، والنبات ، والحيوان ، والرياح ، والسحب ، هل هذا الترتيب لغير فائدة كلا ، وإنما يقول ان حبى تبع العلم ، فعلى مقدار العلم يكون الحب فتعجب من الترتيب العجيب ، وبهذا فلتعرف معجزة الأنبياء ، فلعمرك انها لمعجزات دائمة ، وقال ابن الفارض فيمن غرتهم العلوم اللفظية وأعرضوا عن الحقائق :

ولا تك ممن طيشته دروسه ٭ بحيث استخفت عقله واستقلت

وقال شكسبير الانجليزى شعرا ، وقد ترجمته من قبل إلى العربية :

إذا كان هذا الكون يكلؤه الذى ٭ براه فأولاه الجمال وتمما
فما ذا براه عاقل غير أنه ٭ قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وقال سنيكا الرومانى : « ما أعجب أمرك أيها الانسان وما أشد غفلتك ، لو أن امرأ وهب لك أيها الانسان قطعة من أرض محدودة لشكرت نعمته ولأوليته حمدا كثيرا ، أولم تعلم أن الله وهب لك الأرض بأقطارها وفجاجها المتسعة الأرجاء البعيدة المدى فهلا شكرته عليها وهلا عرفت نعمته ، ولو أن امرأ وهب لك نقودا من ذهب أو فضة لأكبرت فضله ولأجللته أعظم الاجلال ، أولم تعلم أن الله قد خزن لك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة فى الجبال ، أفلا شكرت نعمته وأعظمت آلاءه ، ولو أن امرأ أهدى لك بيتا جميلا فخما لحسبت أنه خير المحسنين ، ولكنت مولاه ورهين إحسانه مدى الحياة ، أفلا تعرف نعمة الله عليك فى هذا البيت العظيم الذى أعطاكه سقفه القبة الزرقاء المرصعة بأجمل الدرارى ، وأسفله هذه الأرض التى تسكنها ، ألم تر الشفق والبدر المنير ، قل لى بحقك من أين جاء النور لعينيك ، ومن ذا وهبك الدم فكنت به حيا ، أولم تحس بالجوع فأكلت فعرفت فضل الله عليك ، ألم يهب لك أنواعا من الأنعام ، وأصنافا من الحيوان غذاها بالكلأ وقوّاها بمرعاها ، أيها الانسان احمد الله الذى خلقك ، ولم تكن شيئا مذكورا ، وأخرجك من الظلمات وجعل لك نورا » هذا كلام [سنيكا الرومانى] وذلك كلام [شكسبير الانجليزى] .

أيها المسلمون أفلسنا نقول لهم نحن أحق بالله منكم نحن أرباب الديانات موسى ، وعيسى ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ، فكيف يكون منهم من بهيم بجعل الله تعالى ويقل فينا مثلهم اليوم ، نقلت لك كلام [سبنسر] وهو فيلسوف الانجليز واللورد [افبرى ، وسنيكا ، وشكسبير] فى مواضع مختلفة ، أفليس المسلمون أولى بالعلم منهم ، هؤلاء عرفوا العلم بعقولهم ، ونحن لنا عقول ، ولنا نبى منا ، وقد جاء فى القرآن «يحبهم ويحبونه» وجاء هنا « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله » ، وإنما كان الذين آمنوا أشد حبا لله لأنهم هم الذين يعرفون العلوم فيدركون جماله ، وأين المدركون الجمال إلا القليل وسيكثر فينا هؤلاء ان شاء الله ، نعم فينا محبون عاشقون لله من طائفة الصوفية ، ولكن يجب أن يكون طوائف

من المسلمين منهم ، أو من غيرهم تدرس هذا الوجود كما درسه غيرنا ، فان التقصير فى ذلك نقص فى حب الله وعيب فاضح فى الأمة « والله هو الولىّ الحميد » .

ومن الغرام بالجمال والعلم والحكمة والنظام الذى امتاز به الناس عن الحيوان وازداد به الحكماء عن العامة ماجرى أثناء تأليف هذا التفسير من ذلك الحادث الجلل العجيب المدهش الذى ارتجت له الأرض وتجاوبت بذكراه أصداء البرق وخرّت لعظمتـه الفحول من الحكماء سجدا وصار موضوع أعجاب العامة والخاصة ذلك هو كشف مقبرة بالوجـه القبلى من بلادنا المصرية لملك تولى عرش مصر العليا والسفلى سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد يسمى [توت عنخ أمون] فيكون قد مضى لها نحو (٣٢٠٠) سنة ووجدوا بها من التماثيل والأحجار الثمينة والصناعـة الدقيقة مالا نظير له فى عصرنا وفى هذا الكنز لحم وفاكهة تملأ خمسا وعشرين حقيبة لاتزال حافظة شكلها ، وفيه مركبات [عربات] مرصعة بأحجار ثمينة وعليها كتابة هيروغليفيه ومتكآت وثياب رقيقة وتيجان مرصـعة بأحجار ثمينة مختلفة وعلى كل تاج ثعبان عجيب وهناك من الأدوات والزينة ودقة الصنعة مالم يحصر عند كتابة هذه الأسطر . وقال العارفون : ان جمال الصنعة والاتقان فى هذا الكنز أظهرت أن اليونان والرومان كانوا أطفالا بالنسبة لما شوهد فى هـذه العجائب ، ان جميع العالم فى الشرق والغرب دهشون والكاشف له رجل انجليزى مغرم بالعلم والبحث فيكون هذا من أنواع الغرام بالجمال والحكمة والصناعة والرجل صرف مالا كثيرا للغرام بالعلم وقضى سنين وليس له من الكنز الاشرف العلم ، ولعلك تقول مالتفسير القرآن ولهذا الحادث ، أقول نحن الآن فى مقام حب الله تعالى وقد قررنا أن حب الله يدعو للبحث فى جمال صنعته واتقانها وكلما زدنا بحثا زدنا سعادة

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ٭ يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فاذا رأينا الناس يقدسون هـذا الملك المصرى لظهور آثار دولته واتقان صنعته فما ذلك الالتمنعها عن الناس واحتجابها قرونا طويلة فافتتن الناس بما منع عنهم كما قدمنا فى شأن الناس أنهم يهرعون إلى مابعد عنهم

أما جمال الله وصنعته فهما مكنونان فى جمال النجوم والقمر والشمس والنبات والحيوان ، وماالذهب الذى زين به عرش توت عنخ أمون الاقطع مما كنزه الله فى الجبال للناس ، فلما كان هذا شأن الناس فى كل جيل لايفرحون الابالممنوع المحبوس عنهم غفل أكثرهم عن جمال الصنعة الالهية ولم تفتح عين أحد منهم إلى مشاهدتها إلا الحكماء من كل أمة فأولئك لايزالون يفكرون و يبحثون و يعقلون وهم يزدادون عشقا ، وكلما فتحوا كنزا ازدادوا شوقا حتى يبهرهم الجمال و يفنوا بأرواحهم فى البهاء والنور والعرفان ، فلئن بهر الأمم اليوم مقبرة [توت عنخ أمون] فللحكماء كل يوم من ذلك كنز جديد وغرام وعشق وشوق يزداد جدة وما يعقلها إلا العالمون ، وقـد صوّر الله الوجوه الجميلة وأبدعها فى منظرها البهيج وزوّق عقول الحكماء بأنواع الجمال العلمى وألهم الصناع النقش والتصوير وذوى الاصوات الجميلة التفنن فى الألحان وضرب العيدان الشجية الاصوات وحكم على كل عالم وصانع أن يودع علمه وصناعته بطون الكتب والطوامير والدفاتر وأمر الملوك السابقين بالقضاء الحتم أن يتركوا آثارهم لمن يأتى بعدهم ان كل ذلك إلالتتزين بتلك الألوان من الجمال عقول الناظرين فى الجمال السامعين للنغمات القارئين للعلم والحكمة المطلعين على الآثار القديمة تمرينا على قبول الحكمة وتشويقا إلى الازدياد منها ، فلاتظنن أن الله ألهم القدماء أن يفعلواهذا إلالحكمة دبرها وعدة أبرزها فالجمال المنظور والمقروء والمسموع يحدث جمالا عند الناظر والقارىء والسامع وذلك كله تمهيد وتشويق للاطلاع على الجمال الأعلى الذى لايعقله إلا قليل فالجمال الأدنى داع إلى الجمال الأعلى فاذا كان الناس يسمعون النغمات ويرون الصور الجميلة ويهرعون إلى رؤية مقبرة الملك [توت عنخ أمون] فما ذلك إلامقدمة لفهم « ان فى

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر » الخ ، فنهم المقبرة والصور الجميلة والنغمات والصناعات يشترك فيها أكثر الناس ولكن هذا العالم لايعقله إلا العالمون [بكسر اللام]

الموضوع الثانى : الرؤساء والمرءوسون

اعلم أن الأمم والأفراد على قسمين قسم تفانى فى شهوات نفسه وتعامى عن المصالح العامة ولايعامل سواه من الأمم والأفراد إلا لحظ نفسه فترى الأمة تذكر الحرية والمساواة والعدل ثم تسوق تلك الأقوال إلى إحياء أنفسها بذبح الأمم الضعيفة وهذا هو الذى عاشت به بعض الأمم الغربية بل أكثرها وترى الأفراد الذين هم أصحاب رؤوس الأموال أبدا لايوفون العامل أجره ولاينصفونه فى المعاملة ، فيقف الوزير وفى يده اليمنى سيف مصلت وفى يده اليسرى ذهب مضروب ويقول لرؤساء الأمم الضعيفة ان أطعتمونى أعطيتكم هذا الذهب وأدخلتكم فى مصاف الأمم العظيمة مثلى ، وان عصيتمونى سلطت عليكم سيفى هذا فمن أطاع من الأمم الضعيفة الشرقية ودخل فى حوزتهم عاملوه معاملة الحيوان أوأنزلوه منزلة الجماد ، ومن عصاهم أرغموه بالسيف فان قاومهم أصبح محترما معظما وعاملوه بالاكرام معاملة الانسان للآساد ، ويقول أصحاب رؤوس الأموال وفى أيديهم اليمنى سيوف مصلتة لطرد العمال من أعمالهم وفى أيديهم اليسرى دريهمات يعطونها أجرة ، ويقولون أيها العمال ان أطعتمونا أعطيناكم هذه الدريهمات لتعيشوا بها وان عصيتمونا طردناكم فان اتحد العمال وقاوموا نالوا حظا وان أطاعوهم طحنتهم رحى الأغنياء وباءوا بالنكال

أما الأمم الضعيفة فأولئك إذا سلموا لرؤسائهم وقد ملك الجبن أفئدتهم وسلط عليهم الظالمون من الأمم القوية أنواع النعيم والحظ وغمسوهم فى الترف وزجوهم فى الهوى والفسوق فلاشك أنهم يكونون على الأمم المسكينة أشد بطشا وأعظم خطرا من كل مصيبة وحينئذ يصبحون صعيدا جرزا تذروه الرياح وتعاملهم الأمم القوية معاملة الانسان للدجاج وللحمام تذبح أبناؤها ويحقر شأنها فهؤلاء الرؤساء لايزالون للظالمين ناصرين وللمظلومين آكلين حتى يأتى أجل هذه الأمة وتندمج فى الأمة الغالبة فيقول رجالها للذين استكبروا « إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا » فيقولون : ان الله قدحكم علينا ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين ويقول كل منهم نفسى نفسى حين يرون العذاب المحيط بهم فيقول التابعون ليتنا تداركنا أمرنا وعصينا سادتنا وكبراءنا وقال تعالى « وإذيتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا إنا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد » وقال سبحانه وتعالى فى سورة أخرى «وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذتأمروننا الآية» وفى سورة أخرى « قالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا »وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، إياك أن تظن انى أجعل معنى هذه الآيات التى هنا فى أحوال الدنيا ان هذه الآيات واردة فى أحوال الآخرة حقا وان الرؤساء والمرءوسين يتجادلون ويعم العذاب على الجميع ، وكل مسئول لافرق بين رئيس ومرءوس ، هذالاشك فيه ولكن الآخرة صدى صوت الدنيا والناس قد نراهم فى الدنيا على هذه الطريقة سالكين فالرؤساء والمرءوسون قد مثلوا هذا كله لاسيما فى أمم الشرق ، وبعبارة أخرى هذه سياستهم وهذا هو الذى رأيناه ، وقد قال تعالى « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى » فهذا وحقك هو العمى فى الدنيا وسيكون العمى فى الآخرة ويبقى الاحتجاج متصلا والظالمون والمظلومون فى الدارين يتجادلون وكل يجعل الذنب على صاحبه ، أفليس هذا مما يوجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، أوليس ماجرّبه المسلمون من استيلاء الرؤساء على أمورهم كافيا فى الرجوع إلى القرآن وينظر فى سياستهم من هم أهل الحل

والعقد منهم ويجعلون بين أصحاب الأموال و بين العمال مودة ورحمة ، وقانونا يتفق مع المصلحة العامة حتى لا نقع فيما وقع فيه أهل الغرب فكانت البلشفية فليكن العدل قائما كأيام عمر ، أوليس ماتفعله الفرنجة ،مهم من أنهم يعرضون عليهم عذابا وجهنم فى أيمانهم ونعيما وجنة فى شمائلهم وان من أطاعهم عذب ومن عصاهم ينعم بالحرية أشبه بما ورد فى صفة المسيح الدجال ان من أطاعه ودخل جنته وجدها نارا ومن عصاه ودخل ناره وجدها جنة ، أليس هؤلاء قد لبسوا لباس المسيح الدجال ، ولست أقول انهم هم نفس المسيح الدجال ولكن أقول هم جنوده هم أتباعه هم تلاميذه ، الدول الظالمة القوية المنتشرة فى الشرق هى هى الممثلة لذلك المسيح الدجال ، هى هى التى نقول فى صلواتنا صباحا ومساء « اللهم انى أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » أو يظن المسلمون فى الشرق والغرب أن الصلوات التى تكرر صباحا ومساء وأدعيتها جاءت لغير معنى فتكون أقل من الحرف فى أقسام الكلمة [لأنه جاء لمعنى] فكيف يكون لنا نبى ولنا عقول وأسماع وأبصار ونكرر الألفاظ ولا نعقل لها معنى ، قدمت لكم أننا نذكر إبراهيم الخليل ونصلى عليه فى كل صلاة كما نصلى على نبينا لنتذكر تكسيره للأصنام ورجوعه للعقل ونبذه التقليد ثم النظر فى العالم العلوى والسفلى وهكذا مما ذكرته هناك عند قوله تعالى « ومن يرغب عن ملة إبراهيم » فارجع إليها ، فهكذا أقول هنا هل ذكر المسيح الدجال لغير معنى ، ياقوم ان الدجالين قد أحاطوا بالعالم الانسانى فالرؤساء الذين استعملوا الشعب لشهواتهم دجالون ، والأمم التى تغوى أولئك الرؤساء دجالون وأصحاب رؤوس الأموال الظالمون للعمال دجالون والمنافقون والمخادعون والمخلفو الوعد دجالون ولأكرر القول كرة أخرى انهم ليسوا هم المسيح الدجال بل أتباع وجيوش أوأشباه أوقل ماتشاء ، وانما هذا قصد الدين من الدعاء

طلب الله منا فى الصلوات أن ندعوه أن يخلع ربقة الكاذبين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل وهذا هو المقصود من ارسال سيدنا محمد رحمة للعالمين ، يريد الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس كما تقدم عند تفسير هذه الآية وأن نكون أمة عدلا وأن تكون الرحمة التى أرسل لأجلها نبينا ممثلة فينا ثم نبثها بين الأمم فنبتدئ بالرحمة فى عشائرنا ويسود الحب بقدر الامكان ويمتنع الفحش والخمر من بلاد الاسلام ونكلأ العاجزين الفقراء من مال الأوقاف والصدقات ، فلاسائل من المتسولين فى مصر والاستانة وعواصم الاسلام ونجعل كل قادر على العمل مشغولا به فلا بطالة ولا كسل هذا هو الذى سيكون فى مستقبل الزمان « وما أرسلناك إلارحمة للعالمين » وهذه الأمة التى تفعل ذلك هى القسم الثانى المقابل لقسم الظالمين فى أول هذا المقال .

القسم الثالث فى هذه الآيات الحلال والحرام

أجمعت الأمة على تحريم أكل الميتة وعلى نجاستها ، واستثنى الشرع السمك والجراد والسمك الميت الطافى على وجه الماء حلله الشافعى ، وكرهه أبوحنيفة وأصحابه والحسن بن صالح بن حى ، وحرمه سيدنا على وابن عباس وجابر بن عبد الله ، وأباحه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وقال أبوحنيفة فى الجراد يحل ماأخذته وماوجدته ميتا ، وحرم مالك ماوجد ميتا ولم يحل عنده ماأخذ حيا إلا اذا ذكى ذكاة مثله بأن يقطع رأسه ويشوى فان غفل حتى يموت فلا يحل ، واتفق العلماء على أن الدم حرام نجس لايؤكل ولا ينتفع به وحرم الشافعى جميع الدماء المسفوح منها وغير المسفوح ، وقال أبوحنيفة دم السمك ليس بحرام ، قال لأنه اذا يبس يصير أبيض واستثنى الشارع من الدم الكبد والطحال ، ففى الحديث أحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد والكبد والطحال

وأما الخنزير فقد أجمعت الأمة على تحريم جميع أجزائه ، وجمهور العلماء أنه نجس ، وقال مالك بطهارته

فلن كل حيّ عنده طاهر ، ومذهب الشافعى الجديد أنه كالكلب إذا ولغ فى الاناء ، وفى القديم يكفى فى ولوغه غسلة واحدة ، وقوله تعالى « وما أهلّ لغير الله به » من العلماء من قال المراد بذلك ذبائح عبدة الأوثان التى كانوا يذبحونها لأصنامهم ، وهؤلاء جوّزوا ذبيحة النصارى إذا ذكروا اسم المسيح عليها لأنه من طعام أهل الكتاب ، وطعامهم حلّ لنا ، وهو مذهب عطاء ومكحول والحسن والشعبى وسعيد بن المسيب ، وقال الشافعى وأبو حنيفة لا يحل ذلك لذكرهم اسم غير الله ، فأما سيدنا علىّ فقد قال اذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون لغير الله فلا تأكلوا ، واذا لم تسمعوهم فكلوا اه

الكلام على جلد الميتة وفيها سبعة اقوال

(١) يجوز استعمالها كلها قبل الدباغ و بعده ، وهو قول الزهرى .
(٢) تستعمل كلها بعد الدباغ ، وهو قول داود .
(٣) يطهر ظاهرها كلها بعد الدباغ لا باطنها ، وهو قول مالك .
(٤) تطهر كلها إلا جلد الخنزير ، وهو قول أبى حنيفة .
(٥) يطهر الكل إلا جلد الكلب والخنزير ، وهو قول الشافعى .
(٦) يطهر جلد ما يؤكل لحمه فقط ، وهو قول الأوزاعى وأبى ثور .
(٧) لا يطهر منها شىء بالدباغ ، وهو قول أحمد بن حنبل .

الكلام على صوف الميتة وشعرها

يحرم الانتفاع بصوف الميتة وشعرها وعظمها عند الشافعى ، ويحلّ ذلك عند مالك ماعدا الانتفاع بعظمها خاصة ، وأما شعر الخنزير فأكثر الفقهاء وجمهورهم متفقون على تحريمه ، ولقد أتممنا المقال فى الباب الأوّل من « سورة البقرة » فلنشرع الآن فى الباب الثانى وهو مقاصد .

الباب الثانى من سورة البقرة

وهو عشرون مقصدا

المقصد الأوّل : كمال الانسانية وهو من قوله « ليس البرّ » الى قوله « وأولئك هم المتقون »
المقصد الثانى : القصاص .
المقصد الثالث : الوصية
المقصد الرابع : الصوم والجهاد .
المقصد الخامس : الحج الخ .
المقصد السادس : الخمر والميسر .
المقصد السابع : اليتامى
المقصد الثامن : أحكام النكاح .
المقصد التاسع : المحيض .
المقصد العاشر : الحلف بالله .
الحادى عشر : الايلاء والطلاق .

الثانى عشر : الرضاعة وما بعدها .

الثالث عشر : عدّة المتعة وعدّة المتوفى عنها زوجها .

الرابع عشر : أسرار الجهاد ومافيه من قصص بنى اسرائيل وأعدائهم .

الخامس عشر : صفات الرسل وصفات ذات الله وفيها آية الكرسى .

السادس عشر : درجات ثلاث للعلم : الايمان بالفطرة ، ونور النبوّة كالعصر الأوّل للاسلام ، والايمان بالجدل كمسألة النمروذ وابراهيم الخليل والايمان بالمعاينة كمسألة الطير ومستقبل الأمة الاسلامية .

السابع عشر : ضرب الأمثال العجيبة الغريبة فى طلب الانفاق .

الثامن عشر : بيان المنفق عليهم وأحوال الانفاق .

التاسع عشر : بيان المعاملات فى الأموال من الربا والرهن ونحوهما .

العشرون : خاتمة السورة بالايمان بالله ورسوله ، والتكليف ، والدعاء ونهايته بالنصر .

(المقصد الاوّل)

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ليس البرّ) كل فعل مرضى ، وهواسم جامع لجميع الطاعات وأعمال الخير المقرّبة الى الله الموجبة للثواب ، والمراد بالكتاب جميع الكتب المنزلة ، وقوله (وآتى المال على حبه) أى على حب المال ، جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله أىّ الصدقة أعظم أجرا ؟ قال أن تصدّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، وقوله (ذوى القربى واليتامى) فأما ذوو القربى فايتاؤهم أفضل ، أعنى المحاويج منهم . قال صلى الله عليه وسلم : « صدقتك على المسكين صدقة وعلى ذوى رحمك اثنتان صدقة وصلة » وأما اليتامى فجمع يتيم وهوالذى لا أب له مع الصغر ، أى وآتى الفقراء من اليتامى (والمساكين) جمع مسكين وهوالذى أسكنته الحاجة لأنه دائم السكون الى الناس (وابن السبيل) هوالمسافر سمى بذلك لملازمته الطريق (والسائلين) هم الطالبون المستطعمون (وفى الرقاب) يعنى المكاتبين ، وكذلك أن يفك الانسان الرقاب بالعتق وفداء الأسرى ، وقوله (وآتى المال) أى الزكاة المفروضة ، وما تقدم كان فى النوافل من الصدقات (والموفون بعهدهم) عطف على من آمن (والصابرين فى البأساء) منصوب على المدح ، ولم يعطف لفضل الصبر على سائر الأعمال كما قدّمنا فى قوله تعالى « وبشر الصابرين » فراجعه هناك ، والبأساء الفقر (والضرّاء) المرض ونحوه ، و (البأس) مجاهدة العدوّ (أولئك الذين صدقوا) فى الدين واتباع الحق وطلب البر (وأولئك هم المتقون) انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

لما ذكر الله عزّ وجل أحوال الكافرين والمنافقين ، وخبائث اليهود ، ورجس العرب المشركين ، وما أحلوا من المحرّمات ، وحرّموا مما أحلّ الله ، طفق يذكر حقيقة البرّ ، وتمام الايمان ، وجماع خصال الخير ، فقال : « ليس البرّ » الخ . وورد في أسباب التنزيل أن اليهود كانوا يلهجون ببيت المقدس والنصارى بالمشرق ، وأن المسلمين أولعوا بالكلام في التوجه للقبلة ، وأذهلوا عما عداه ، فقال الله لهم : ليس البر أن تلهجوا بأمر وتتركوا ماعداه ، ان الانسانية كثيرة الوجوه ، متنوّعة المشارب ، فلا تقفوا في موقف الذين قصرت أنظارهم ، وللانسان قوّة فكرية ، وصورة جسمية ، وأخلاق نفسية ، وأموال مملوكة ، فمن قصر نظره على الصلاة وهي بالجسم والروح ، أوعلى الايمان ، أوالأخلاق الفاضلة ، أوالمعاشرة بالمعروف ، أوانفاق الأموال ، فذلك قاصر ، فالبرّ أن تجمل النفس البشرية بالمعارف ، وأهمها الايمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية ، وأن يسخر الجسم في الأعمال الظاهرة كالصلاة والحج ، وأن يكون حسن العشرة ، فيعطي المال لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وهو الضيف أوالمسافر ، وأن يكون كريم الخلق فلا يخلف اذا وعد ، وكأن يصبر عند الملمات كالفقر وشدّته ، والمرض وحدّته ، والقتال وصدمته ، لافرق بين الوفاء والصبر والكرم والصلاة ، الدين أمر بالوفاء وبالكرم وبالصبر ، وهذا هوالجمال والبهاء ، وهذه الآية جمعت محاسن الدين وأموره ولذلك ورد قوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان » هذا هوالايمان الكامل كأنه يقول : هذه الأمم من يهود وعرب يختصمون ويختلفون بلاجدوى ، فهلا نبذوا الشقاق ، ونهجوا نهج الوفاق ، وسارعوا الى البر بالعلم والعمل والصبر والاحسان ، يجب أن يذيع تعليم الصبر بجميع أنواعه : أي على العمل كالجهاد والعلم ، وعن الحرام ، وعلى البأساء والضراء ، وليكن ذلك في أبواب كأبواب الفقه المشهورة ، ويذكر فضائل ذلك ، ويذكر أن الصبر تقوية للعزيمة ، ومن لم يمرّن على الأعمال وعلى المشاق والمصائب كان في جميع حياته طفلا وجميع الأنبياء صبروا على أنواع كثيرة ، راجع ماكتبناه في قوله [وبشر الصابرين] الآية ، إذ بينا هناك أن السعادة محصورة في الصابرين في هذه الحياة الدنيا ، فما بالك اذا كان يوم القيامة ، فاعجب للقرآن كيف جعل الصابرين منصوبا على المدح للاشارة الى ماذكرناه ، ولما كان الكمال يقابل النقص وكان للانسان قوّة غضبية وقوّة شهوية ، وهما أبدا يتسارعان في هدم هذا البنيان كما جاء في قصة آدم وقرّر في قصص بني اسرائيل والعرب أعقبه بحديث القصاص وهو :

(المقصد الثاني)

يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن

عفى له من أخيه شيء) أى شيء من العفو، وإذن يكون بعض العفو كالعفو التام فى اسقاط القصاص، وقوله (فاتباع بالمعروف) أى فليكن اتباع بالمعروف أى فلا يعنف ولى الدم فى المطالبة، وقوله (وأداء إليه باحسان) أى وعلى القاتل أداء الدية الى ولى الدم باحسان من غير مماطلة (ذلك) الحكم المذكور (تخفيف من ربكم ورحمة) لما فيه من التسهيل كما سيأتى فى الايضاح (فمن اعتدى بعد ذلك) أى قتل بعد العفو وأخذ الدية (فله عذاب أليم) فى الآخرة، وقوله (ولكم فى القصاص حياة) أى بقاء لأن القاتل اذا علم أنه اذا قتل قتل ترك القتل فيكون بذلك بقاؤه وبقاء عشيرته وعشيرة الذى يريد قتله، لأنهم كانوا يقتتلون طول الحياة لو أقدم على القتل، وقوله (يأولى الألباب) أى ذوى العقول الكاملة، وقوله (لعلكم تتقون) أى تنتهون عن القتل خوف القصاص. انتهى التفسير اللفظى.

الايضاح

كان فى الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء، وكان لأحدهما طول على الآخر، فأقسموا لنقتلن الحر منكم بالعبد والذكر بالأنثى، فلما جاء الاسلام تحاكموا الى رسول الله ﷺ فأمرهم أن يتباوموا القصاص، من قص الأثر اذا تتبعه، فعلى ذلك يقتل القاتل بمثل ما قتل به من سيف أو عصا أو شدخ رأس، وهذا قول الشافعى ومالك وأحد قولين عن أحمد، ومذهب الحنفية السيف، وليس فى الآية من دليل على ما ذهب اليه مالك والشافعى رضى الله عنهما من امتناع قتل الحر بالعبد والمسلم بالكافر، وانما الدليل ما ورد فى السنة أن لا يقتل مسلم بذى عهد، ولا حر بعبد، وهكذا فعل الصحابة من غير نكير.

وهذه الآية أفادت التخفيف على هذه الأمة، فقد كان العفو عند النصارى والقصاص عند اليهود، وكان العرب تارة يوجبون القصاص وأخرى يوجبون الدية، ومنهم من يبطش فيقتلون فى الرجل رجالا وفى المرأة رجلا وفى العبد حرا، فجاءت هذه الآية بوضع القسطاس فى الأرض، فسوّى الله بين الناس وجعل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فلا يتجاوز عنه الى ما تفعله العرب الجاهلية وما كان فوق ذلك من المسلم والكافر والعبد والحر فانما هو محل الاجتهاد بين الأئمة رضوان الله عليهم، وهكذا أفادت أن العفو عن بعض الدم موجب لسقوط القصاص، وللولى المطالبة بالدية، وعلى القاتل دفعها، وعلى ولى الدم اتباع بالمعروف ومطالبة بلا عنف، وعلى القاتل وعاقلته أداء اليه باحسان، ولا جرم أن هذا تخفيف على الأمة ورحمة بها وفتح باب للمسامحة والمساهلة، فلو قتل ولى الدم القاتل بعد أن أخذ الدية فله عذاب أليم فى الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالنار، إن القصاص حياة وابقاء للأجسام والأرواح، ألا ترى أن الاضطراب ما ولج فى أمة إلا أنزلها من شاهق، وأحل بها العذاب الهون، ولما كان الانسان بالقتل أو الموت مفارق الديار، وعليه أن لا يذر ورثته يتخبطون خبط عشواء ذكر الله حكما عاما لكل من دنت وفاته، وحضرت منيته، وجاءت ساعته، فقال:

(المقصد الثالث)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظى

شرعت الوصية فى صدر الاسلام للوالدين والأقربين ، لما كانت عليه العرب من الايصاء للأجانب طلبا للمباهاة والمفاخرة واظهار الكرم ، ثم نزلت آية الميراث «يوصيكم الله فى أولادكم» وروى عن عمرو بن خارجة . قال كنت آخذا بزمام ناقة النبى ﷺ ، وهو يخطب فسمعته يقول [ان الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث] فنسخت الآية فى حق الوارثين ، وبقى وجوبها فى حق من لا يرث من الأقارب عند ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار ، والمذاهب المشهورة بين المسلمين على خلافه ، وعندى أن هذا وجيه لئلا تبقى الثروة فى يد وارث ويحرم من هم من أسرته ، وهذا هو الذى تسعى له الأمم الأوروبية ولقد سنّ الانكليز من نحو سنة أن يؤخذ من مال الغنى جزء للأمة لئلا يبقى المال فى يد وارث وتحرم الأمة من التمتع به ، وهذه الوصية مستحبة عند الفقهاء وعلماء الشرع الذين بيدهم زمام الأمة الآن ، ولا يسن الا اذا كان المال وفيرا والخير كثيرا .

ثم قوله فى الآية (إذا حضر أحدكم الموت) أى أسبابه وظهرت أماراته ، وقوله (إن ترك خيرا) أى مالا ، وقيل مالا كثيرا ، و (الوصية) هى التقدم إلى الغير بما يعمل به ، أو القول المبين لما يستأنف من العمل (للوالدين والأقربين) وكانت الوصية للوارث فى بدء الاسلام فنسخت بآية المواريث (بالمعروف) بالعدل فلا يفضل الغنى ولا يتجاوز الثلث (حقا على المتقين) مصدر مؤكد : أى حق ذلك حقا ، وقوله (فمن بدله) أى غيره من الأوصياء والشهود (بعد ماسمعه) أى وصل اليه وتحقق عنده (فانما إثمه) أى إثم الايصاء المغير (على الذين يبدلونه) أى على مبدله (إن الله سميع) أى لما أوصى به الموصى (عليم) بتبديل المبدل (فمن خاف من موص) أى توقع وعلم ، وقوله (جنفا) أى ميلا وجورا فى الوصية وعدولا عن الحق ، وقوله (أو إثما) أى ظلما (فلا إثم عليه) أى لا حرج عليه ، والمعنى إذا حضر رجل مريضا ، وهو يوصى فرآه يميل فى وصيته . فلا حرج عليه أن يأمره بالعدل وينهاه عن الجنف ، وقوله (إن الله غفور رحيم) ان أصلح وصيته بعد الجنف والميل .

روى أن رجلا قال لعائشة رضى الله عنها انى أريد أن أوصى ، فقالت كم مالك ؟ فقال ثلاثة آلاف درهم . قالت كم عيالك ؟ قال أربعة ، قالت انما قال الله «ان ترك خيرا» ، وهذا شىء يسير فاتركه لعيالك ، والوصية مؤكدة فى الدين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ماحق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه أن يبيت ليلتين الا ووصيته مكتوبة عنده » . وقال ابن عمر مامرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك الا ووصيتى مكتوبة عندى ، ولا يجوز تبديل الوصية ولا تحريفها ، ولا تزيد على الثلث ، فانه هو المعروف ، ويجوز التبديل لمن رأى بين المورث والورثة جفاء ، فاذا أصلح بينهم فتبديله جائز ، ان الوصية احسان وتجاوز عن المطامع وايثار ، فكانت مما يطلبه علم الأخلاق من التعالى عن الاستخذاء للشهوات فناسب أن يعقبها الصوم وأحكامه ، والفدية من العاجز كالشيخ الهرم والمريض مرضا لايرجى برؤه ، فالصوم تهذيب وتأديب للقوة الشهوية ، وكذلك الوصية ، والفدية كلاهما ترك للحرص على المال الذى هو من أكبر الآفات ، ورذائل الأخلاق ، فنظم الله عز وجل نبذ الحرص بعد الموت ، والحرص فى الدنيا فى سمط واحد وازدهما فى قرن ، وقبل أن نبدأ بالكلام على الصوم نذكر نبذة فيه حتى تستبين لك حقيقته اجمالا تبصرة وتذكيرا لما يأتى من الآيات .

واجبات الصوم ستة

(١) مراقبة أول شهر رمضان ، وذلك برؤية الهلال فان غم فاستكمال ثلاثين يوما من شعبان ، ومتى علم المسلم ذلك بقول عدل واحد كفى ، وهلال شوال لايثبت الا بعدلين ، والمراد بالعلم غلبة الظن وان لم يقض القاضي . [1]

(٢) النية ولا بد لكل ليلة من نية معينة جازمة مبيتة ، فلذا نوى الفرض مطلقا ، أو الصوم مطلقا ، أو شهر رمضان دفعة واحدة ، أو بالنهار فى الفرض ، أو فى ليلة الشك لم يصح الصوم .

(٣) الامساك عن ايصال شيء الى الجوف عمدا مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ، وليس يفسد بالفصد ، والحجامة ، والاكتحال ، وادخال الميل فى الأذن ، والاحليل الا أن يقطر فيه مايدخل المثانة ، ولا مايصل بغير قصد من غبار طريق ، أو ذبابة تصل إلى جوفه ، أو مايسبق إلى جوفه فى المضمضة الا إذا بالغ فيها فيفطر ولايفطر الناسى .

(٤) الامساك عن الجماع ، فان جامع ناسيا لم يفطر ، ومن احتلم أوجامع فأصبح جنبا لايفطر ، وان طلع الفجر ، وهو مخالط أهله فنزع فى الحال صح صومه ، فان صبر فسد ولزمته الكفارة .

(٥) الامساك عن الاستمناء ، وهو إخراج المنى قصدا بجماع ، أو بغيرجماع ، ولايفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها مالم ينزل لكن يكره ذلك الا أن يكون شيخا أو مالكا لاربه فلا بأس بالتقبيل ، وتركه أولى ، واذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المنى أفطر لتقصيره .

(٦) الامساك عن إخراج القيء ، فالاستقاء يفسد الصوم ، وان ذرعه القيء لم يفسد صومه ، و إذا ابتلع نخامة من حلقه أوصدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى .

لوازم الافطار أربعة

القضاء والكفارة والفدية وامساك بقية النهار تشبيها بالصائمين ، فأما القضاء فوجوبه عام ، فالحائض تقضى وكذا المرتد ، أما الكافر والصبى والمجنون فلا ، ولايجب التتابع فى القضاء ، وأما الكفارة فلاتجب الافى الجماع ، وأما الأكل والشرب وما عدا الجماع فلا تجب به كفارة ، والكفارة عتق رقبة ، وهذا لاوجود له الآن لمنع بيع الرقيق ، فان لم يقدر فصيام شهرين متتابعين ، فان عجز فاطعام ستين مسكينا مدا مدا ، وأما الفدية فتجب على الحامل ، والمرضع إذا أفطرتا خوفا على ولدهما لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع القضاء ، والشيخ الهرم اذا لم يصم تصدق عن كل يوم مدا ، وأما امساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الحائض اذا طهرت امساك بقية نهارها ، ولا على المسافر اذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين ويجب الامساك اذا شهد بالهلال عدل واحد يوم الشك ، والصوم فى السفر أفضل من الفطر الا اذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج اذا كان مقيما فى أوله ، ولا يوم يقدم اذا قدم صائما .

السنن فى الصوم ست

تأخير السحور ، وتعجيل الفطر بالتمر ، أو الماء قبل الصلاة ، وتركه السواك بعد الزوال ، والجود فى شهر رمضان ، ومدارسة القرآن ، والاعتكاف فى المسجد لاسيما فى العشر الأخير ، وهذه الأحكام على مذهب الامام الشافعى ، وفى بعضها خلاف عند الأئمة تركناها خيفة السآمه .

---

(١) ولقد ألفت رسالة سميتها الهلال جوابا على سؤال جاء من بلاد القازان قبل الحرب العامة وسنجعلها فى ضمن الملحق لهذا التفسير ان شاء الله تعالى (المؤلف)

أسرار الصوم

الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص ، أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن الشهوة كما تقدم تفصيله ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل ، وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر و بالفكر في الدنيا الا دنيا تراد للدين ، فان ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ، فهذا الصوم اقبال بالهمة على الله وانصراف عن غير الله ، وتلبس بمعنى قول الله « ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » انتهى الكلام في الصوم وأسراره .

ولعلك تقول : كيف جمعت بين المتناقضات في هذا التفسير ؟ ذلك أنك قلت في مواضع كثيرة ان طلب العلم وحوزه والصناعات واستعمالها واجبة ، وأن المسلمين مفرطون في ترك تلك العلوم الفرنجية حتى أخذوا ديارهم واستحلوا أموالهم ، ثم انك هنا تقول ترك ماسوى الله وعدم التفكر الا في الله فلن يتفق الأمران لمسلم ، وهذا منك عجيب تكلف نفسك والمسلمين الجمع بين الضدين ، ولعلك أصبحت مقلدا في الدين ومقلدا لعلماء العصر الحاضر فألفت بين متناقضين ، وهذا مستحيل .

أقول : لتتذكر أن ما كان من أمور الدنيا ضروري للدين حافظ له موجب لبقائه يصبح دينا لا دنيا ، فجميع الصناعات واجبة وجوبا كفائيا على المسلمين ، وهكذا العلوم فالصناعات من الابرة إلى المدفع والقطار والعلوم من النحو إلى علم الفلك والطبيعة كلها واجبة ، ولعلك تقول أيضا كيف تنظم هذه الدنيا نظاما تاما كأوروبا أو نسبقها كما تقول ، والدين يقول لاتفكروا الا في الله ، وصوموا ، وصلوا ، وقوموا الليل ، والموت يكتنفنا من كل جانب ، وكيف تنظم هذه الحياة ، ونحن لاشك تاركوها ، ان الفكر في الآخرة ، والاستعداد لها مثبط للعزائم موجب للاعتكاف في المساجد أو النوم والكسل حتى يأتي اليوم الموعود .

أقول : على رسلك ان الأمثال حاضرة مشاهدة « ولكنّ أكثر الناس لايعلمون » ألم تر الى الفتاة في منزل أبيها كيف تعلم أن سعادتها انما تكون في الحياة مع خطيبها ، وهي كل يوم تنظف وتحافظ على بيت والدها كأنها لن تفارقه أمد الحياة ، ونرى رجال الحكومات المرشحين لوظائف أرقى مما هم فيه لايزالون يغارون على المصلحة التي هم فيها غيرة صادقة كأنهم لايفارقونها وهم يعلمون أنهم لها تاركون ، وهذه الأسئلة انما ترد من الأمم الاسلامية المتأخرة لعدم فهم الدين الاسلامي والاقتصار على ظواهر العبارات والافكيف كانوا يفتحون البلاد شرقا وغربا ، وهم يصومون النهار ، ويقومون الليل و يتهجدون ، وكيف كان الفرس والروم في أبهة الملك وعظمته غارقين في المادة والنعيم ، وكان آباؤنا صائمين مصلين متهجدين ، ثم يكسرونهم في الحرب و يأخذون بلادهم و يسبون نساءهم ، ولقد كان في مصر من جيوش الروم مائة ألف مقاتل فضلا عن الأمة المصرية التي كانت أكثر عددا من المصريين اليوم وما فتحها إلا اثنا عشر ألفا من آبائنا العرب ، ويروى المؤرخون أن المقوقس سأل رسله الذين قابلوا عمرو بن العاص ومن معه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا رأينا قوما الموت أحب اليهم من الحياة ، والتواضع أحب اليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولانهمه ، وانما جلوسهم على الأرض ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، مايعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا المولى منهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ، و يتخشعون في صلاتهم فقال عند ذلك المقوقس : لو أنهم استقبلوا الجبال لأزالوها ولايقوى على قتال هؤلاء أحد اه

فانظر كيف جعل الزهد فى الدنيا ، والترفع عنها ، والخشوع فى الصلاة من أسباب الحصول عليها والسيادة فيها ، وكأن الناس كلما كانت نفوسهم أقرب إلى التجرد وأرفع عن الانغماس فى المادة كانت أملك لها ، ولعله هو القول الحميد .

(المقصد الرابع)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ * أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *

فإن

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

التفسير اللفظى

يقول تعالى (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام) هو مصدر صام ، والمراد صيام شهر رمضان كتابة (كما كتب) أى مثل ماكتب (على الذين من قبلكم) على الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام الى عهدكم (لعلكم تتقون) المعاصى بالصيام (أياما معدودات) موقتات بعدد معلوم ، أوقلائل فان القليل من المال يعدّ عدّا والكثير يهال هيلا ، أى صوموا أياما الى آخره (فمن كان منكم مريضا) مرضا يضرّه الصوم أو يعسر معه (أوعلى سفر) أو راكب سفر (فعدّة) أى فأفطر فعليه صيام عدد أيام فطره ، والعدّة بمعنى المعدود أى أمر أن يصوم أياما معدودة مكانها (من أيام أخر) سوى أيام مرضه وسفره (وعلى الذين يطيقونه) وعلى المطيقين للصيام ان أفطروا (فدية طعام مسكين) وسيأتى ايضاحه قريبا (فمن تطوّع خيرا) فزاد فى الفدية (فهو) أى التطوّع (خير له وأن تصوموا) أيها المطيقون (خير لكم) من الفدية وتطوّع الخير (ان كنتم تعلمون) مافى الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة اخترتموه (شهر رمضان) مبتدأ وخبره (الذى أنزل فيه القرآن) أى ابتدئ فيه انزاله ، وكان ذلك فى ليلة القدر (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) أى أنزل هاديا الى الحق وهو آيات مكشوفات مما يهدى الى الحق ويفرق بين الحق والباطل .

ايضاح هذه الآيات

نقول : ان الله عزوجل ماترك الأمم السالفة ، والأجيال البائدة بلاتهذيب وتأديب ، فأوجب عليهم أن يجتنبوا التغالى فى الشهوات والاكثار من الطعام ، فان النفوس الانسانية لها عروج الى الملإ الأعلى اذا ماعفت عن الطعام ، واقتصدت فى الشهوات ، فلم يدع الله أمة إلا أدّبها ، ولاترك جيلا إلاأنذره وحذره ، ولقد كتب على النصارى صياما ، وعلى اليهود صياما ، وقال لنا : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » المعاصى . ولما كانت الأمّة الاسلامية أمة وسطا عدولا لاتغالى فى الشهوات فتنزل الى حضيض الحيوانية ، وتحرم من المراتب الروحية ، ولاتغالى فى التبرّى من الأغذية فتضعف أجسامها وتذل نفوسها كما حصل للصين والهند إذ صاموا صوما دائما ، فنبذ البراهمة والبوذيون الشهوات نبذا مفرطا فغلبتهم الأمم ، وداستهم أمم الغرب ، وأذلهم الطامعون ، لذلك جعل الله عزّوجل صوم هذه الأمة أياما معدودات وهى شهر رمضان لتنال الحظين : قوّة الأجسام ، ورياضة النفوس ، وانشراح الصدور ، وأمة هذا شأنها جديرة أن تمسك بأعنة الشرق والغرب ، وتشهد على الأمم ، وتقود غيرها الى طريق الفلاح ، ومراقى النجاح ، وعلى المريض مرضا يعسر معه الصوم ، والمسافر سفر قصر اذا أفطرا أن يصوما أياما أخر ، وعلى الذين يطوّقونه أو يطيقونه فيطوقونه أى يصومونه بجهد ومشقة كما يطوّق المرء طوقا أى قلادة فى عنقه ، أو يكلفونه بمشقة ،

على هؤلاء فدية أى جزاء لما وقع من تقصير فى العبادة وهى نصف صاع من برّ أوصاع من غيره عند فقهاء العراق ، ومدّ عند فقهاء الحجاز ، أوفطور فقير وسحوره عند ابن عباس ، فمن تطوّع خيرا وبرّ الفقراء وزادفى العطاء فله ثوابه ، على أن الصوم أفضل ، لأن الصبر عليه أشد ، والتكلف فيه أشق ، فانه خير الشيخ الهرم والمريض والمسافر ، والمريض مرضا لايرجى برؤه ، وليست هذه الخيرية إلااذا قدروا ، والا فقد يحرم وقد يكره وذلك بلاريب تابع أحوال الناس ، مختلف باختلافهم ، ثم قال « شهر رمضان » على البدل من قوله : « كتب عليكم الصيام » أى صيام شهر رمضان الذى فيه ابتدئ نزول القرآن حال كونه هاديا للناس باعجازه وآيات واضحات بما يهدى به من الحق ويفرق بينه وبين الباطل لما فيه من الأحكام .

ولما كان الصيام لايجب الا اذا رؤى الهلال أعقبه عزّوجل بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) أى هلال الشهر فليصمه ، وخصصه بما بعده وهو قوله (ومن كان مريضا أوعلى سفرفعدّة من أيام أخر) ألاترى أن المريض والمسافر قد شهدا الشهر ورأيا الهلال ، فكلاهما شاهد وكلاهما مرخص له فى السفر (يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر) وما أراد الله عزّوجل الا اليسر ولم يرد العسر (ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون) أوجب الصيام على الشاهد لتكملوا العدّة والقضاء على المريض والمسافر لتكبروا الله وتعظموه لما هداكم لطاعته ونوعها ، وهذا الترخيص يوجب الشكر على العباد ، ولما كان الصوم سببا لعروج الأرواح الى عالم الجمال ، ولاجرم أن أوقات الصوم أقرب الأوقات لاجابة الدعاء ناسب أن يقول (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون) . روى عن كعب أنه قال : قال موسى عليه السلام : « يارب أقريب أنت فأناجيك ، أم بعيد فأناديك ؟ فقال : ياموسى أنا جليس من ذكرنى ، قال : يارب فانا نكون على حالة نجلك أن نذكرك عليها من جنابة وغائط ، قال : ياموسى اذكرنى على كل حال » . فلما كان الأمر على ماذكر رغب الله تعالى فى ذكره وفى الرجوع اليه فى جميع الأحوال فأنزل هذه الآية .

[روى] أن اعرابيا جاء الى النبىّ ﷺ فقال : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله هذه الآية ، والدعاء بمعنى العبادة ، أو بمعنى الطلب ، وقوله « فليستجيبوا لى » الاستجابة والاجابة بمعنى . قال كعب الغنوى :

وداع دعايامن يجيب الى الندا • فلم يستجبه عند ذاك مجيب

واجابة العبد لله طاعته ، واجابة الله للعبد اعطاؤه مايطلبه ، وقوله « لعلهم يرشدون » فى قراءة بفتح الشين والأخرى بكسرها ، ففيها ثلاث قراءات ، يقول : ان أجابونى بطاعتى والايمان بى أجبتهم وأعطيتهم رشدهم فى مصالح دنياهم وآخرتهم ، انظرالى هيكلك وجسمك ألست ترى أن يديك تلمسان بحاسة اللمس الموادّ الصلبة ، وفمك يذوق بحاسة الذوق ألطف مافى المادّة ، وأنفك يشم مايتناثرفى الهواء من ذرات المادّة وهى ألطف مما قبلها ، وأذنك تسمع أمواج الهواء الآتية من اصطكاك أعضاء الفم ، وعينيك تنظران النور الذى يتعالى عن المادة وهوألطف منها بل هوأصلها ، فانظرأليس عقلك وهوأعلى مكانا من هذه الحواس يتصل بما فوق المادة وهوالعالم الالهى الروحانى ، أرواحنامتصلة بالعالم الروحانى اتصالاعقليا لاحسيا ، معنويا لاجسميا وكما أن كل حاسة اتصلت بما أحست اتصالا يناسبها كاللمس والذوق والشم والبصر ، فكذا اتصلت النفوس بالعالم الأعلى الروحانى « وأن الى ربك المنتهى » فهذا معنى قوله تعالى « واذاسألك عبادى عنى فانى قريب » فهنا قرب معنوى لاحسى ، فليس الله مادّة ولاجسما ولا عرضا وانما هومقدّس عن المادة يتعالى عن النور ، وهذا هوالسرّ فى قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى » وقوله عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه

عرف ربه » فعقولنا من العالم الاعلى الروحى بمنزلة بمنزلة العين من النور ، والأذن من المسموعات ، وحاسة الشم من المشمومات ، ولكن أكثرها مغمور فى الطبيعة محاط بالمادة ، وكثيرا ماتنزل اليها المعلومات الحقيقية عن الله تعالى ، وقد تختلط معلوماتها بالأوهام بجعل العقل والمنطق ميزانا لها ، فالله عزّوجل قريب من العبد ، فاذا سأله وهو موقن بالاجابة طائع فان الله يرشده ويجيب دعاءه ، ولن تصح الاجابة الا اذا توجه القلب لله عزّوجل توجها جازما على شريطة أن يكون بين السائل ومطلوبه مناسبة ، ولا جرم أن فى العالم مايناسب هذا . ألا ترى أن المطر ينزل على الأرض ، والحديد يجذبه المغناطيس ، والبخار تجرى به الفلك فى البحر ، فمتى كان بين الطالب والمطلوب مناسبة وتوجه بقلبه توجها تاما ثم فكر بالعقل فيما يعمله وزاوله بعد ذلك فلا جرم يأتى له مطلوبه كما فى قوله تعالى « أمّن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » وهذا هو المعبر عنه عند كثير من علماء العصر الحاضر بقولهم [الاعتماد على النفس] وذلك أنها بتوجهها الى الله تقوى همها فتجدّ فى العمل ولا تخاف الزلل ولا تخشى الملل ، فهذا مقصود قوله تعالى : « أجيب دعوة الداع اذا دعان » ، تدعوننى فأجيب وأنا أدعوكم فأجيبونى بالطاعة والإيمان ، ادعوا الله أيها الناس فى خلواتكم ، ووجهوا اليه هممكم ، ولا تقعدوا عن العمل ، وإياكم أن تدعوا وأنتم كسالى ، الدعاء توجه الهمة الى الله ، والله قريب من العقول ، والأرواح لها قرب من العالم الروحى كقرب العين من الضياء ، فوجهوا هممكم اليه تزدادوا همة ، وقد قرّر العلماء أن الهمم تنقلب الى حركات فيفيض القول على اللسان والعمل على الاركان ، فنتيجة الدعاء تقوية الهمم بالاستمداد من الله ليكون العمل المترتب على الطلب أحكم وأثبت ، ولتعلموا أن الدعاء اذا لم يصحب بعمل وخالف فعل الرسول صلى الله عليه وسلم فلا ريب ينزل الانسان من درجته الى مرتبة تحت الجمادية فضلا عن الحيوانية ، ألا ترى أننا نرى الطيور فى جوّ السماء تغدو وتروح للعمل ، ولم نرها نامت فى أوكارها ، وطلبت أرزاقها ، وهذا الانتكاس فى المسلمين اليوم هو السرّ فى أن دعاء الخطباء على المنابر يأتى بعكس مايدعون ، وهكذا أولئك الذين يتلون الدعوات صباحا ومساء ولا عمل لهم فليس فيه تهذيب النفس ، ولا استنشاقها نسائم الرحمات فان كان القصد ذلك فنعما هو ، فان فى ذلك الابتهال سعادة لا يعرفها إلا ذائقوها ، وهناك تحس النفس بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب الجاهلين من البشر ، ومتى وجه المرء همته الى العمل ودعا الله وعمل لمطلوبه نال مرغوبه لامحالة ، الدعاء فتح لباب الحرّية ، والاعتماد على الله ، ومنع النفس عن الذلة لمخلوق ، ويشير لتلك الحرّية قوله تعالى « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون » فكأنه يقول انهم يضاهئون أى يشابهون فى ذلك من قبلهم من قدماء المصريين والرومان والعرب الذين يدعون غير الله . فأما أنتم أيها المؤمنون فلا تدعوا إلا الله لتكونوا أحرارا ناظرين بعقولكم لا مقلدين ومن يعتمد على غير الله هان عليه أن يخضع للجبارة والملوك الظالمين ، فادعونى أستجب لكم ، ولست غائبا حتى تنادونى فى البوادى والقفار وفوق رءوس الجبال ، أنا حاضر عند أنفسكم وقلوبكم عرشى ، وفى هذا ردّ على بعض جهلة السياسيين كالذى يقول : ان المسلمين يعتقدون أن الله بعيد عنهم ، ولذلك يجأرون بالليل والنهار ، ويصرخون فى الطرقات كأنهم يبحثون عنه فلا يجدونه ، ولم يعلم أن الاستحضار بالقلب يلزمه النطق باللسان لتمام الاستحضار حتى يستجاب الدعاء ويصح العمل ، ثم أخذ يبين مبدأ الصوم ونهايته ، ولقد كان المسلمون اذا أمسوا أحلّ لهم الأكل والشرب والجماع الى أن يصلوا العشاء ، ثم ان عمر رضى الله عنه باشر بعد صلاة العشاء فندم فنزلت (أحلّ لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم) والرفث الافصاح بما يجب أن يكنى عنه ، ويراد به هنا الجماع اطلاقا مجازيا ، والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة ، وهو هنا الجماع ، وقوله (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ) أى ان كلا منكما

يشتمل على صاحبه ، وأيضا هو ستر له يمنعه من الفجور (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) أى تظلمونها بالجماع (فتاب عليكم) حين تبتم مما ارتكبتم من المحظور (وعفا عنكم) ما فعلتم قبل الرخصة (فالآن باشروهن) لما نسخ عنكم التحريم ، وعلى المباشر أن يطلب بقاء النوع ، فالقصد من الشهوات إلا منافع وفضائل وماعداه فمقدمات زائلات وهوقوله (وابتغوا ماكتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) ،معناه حتى يتبين لكم ذلك البياض الممتد فى الأفق ومامعه من غبش الليل المشبهان خيطين أبيض وأسود ، فالفجر بيان للخيط الأبيض والليل الذى حذف بدلالة الفجر عليه بيان للخيط الأسود . عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال لما نزلت « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود » ولم ينزل « من الفجر » فكان رجال اذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود ولايزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله عزّ وجل بعده « من الفجر » فعلموا أنه انما يعنى الليل والنهار . وروى مثله عن عدى بن حاتم إذ عمد الى عقالين أسود وأبيض وجعلهما تحت وسادته الخ ثم بعد ذلك عرّفه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين آخر وقته فقال (ثم أتموا الصيام الى الليل) ولما كان من السنة أن يعتكف الانسان فى الصوم فانه آكد من غيره وأكثر ثوابا وأعظم أجرا وأقرب زلفى من الله عزّ وجل أعقبه جلّ وعلا بقوله (ولاتباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) ولقد كان الرجل يعتكف فيخرج الى امرأته فيباشرها ثم يرجع فنهوا عن ذلك ، فالجماع مبطل للاعتكاف ، فالنهى فى العبادات يوجب فسادها ، ولا يكون الاعتكاف إلا فى المساجد ، وقد كان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده ، والجماع حرام فى الاعتكاف ومادونه مكروه .

واعلم أن الاعتكاف سنة ، ولابدّ أن يكون فى المسجد الحرام عند سيدنا علىّ كما نقل عنه ، وفى المسجد الحرام ، ومسجد المدينة عند عطاء ، وفيهما وفى بيت المقدس عند حذيفة ، وفى كل مسجد جامع عند الزهرى وفى كل مسجد له امام ومؤذن عند أبى حنيفة ، وفى سائر المساجد عند الشافعى ومالك وأحمد ، وهو فى المسجد الجامع أفضل ، وهو فى الصوم أفضل ، وقال أبو حنيفة الصوم شرط ، وأقله لحظة عند الشافعى ، ولاحدّ لأكثره ، وأقله يوم عند أبى حنيفة ومالك بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر ، ويخرج منه بعد غروب الشمس ، والجماع كما تقدم حرام ومبطل له ، ومادون الجماع كقبلة مكروه ، و بعضهم يجعله مفسدا للصوم ، وأما الملامسة بغير شهوة فجائزة ، ثم قال تعالى (تلك) الأحكام التى ذكرت (حدود الله) أحكامه المحدودة (فلاتقربوها) بالمخالفة والتغيير (كذلك يبين الله آياته) شرائعه (للناس لعلهم يتقون) المحارم . ولما كان الصيام والفدية والوصية تصرّفا فى مال وقمعا للقوّة الشهوية ، وهكذا الاعتكاف فانه كفّ للنفس عما هو مباح بحيث يلزم المرء مسجده فلايبرحه إلا لحاجة من لحظة الى أيام ، فهو كف للنفس عن الشهوات ناسب أن يلحق به الادلاء أى الالقاء بحكومات الأموال الى الحكام فلذلك قال (ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) أنكم مبطلون فان حكم الحاكم لايحلل حراما ولايحرّم حلالا ، ولذلك روى أن عبد الله الحضرمى ادّعى على امرىء القيس الكندى قطعة أرض ولم يكن له بينة فحكم رسول الله ﷺ بأن يحلف امرؤ القيس ، فهمّ به ، فقرأ رسول الله ﷺ « ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولاينظر اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم » ، فارتدع عن اليمين وسلم الأرض الى عبد الله فنزلت هذه الآية ، ولما كان الصوم لايثبت إلا بالهلال ورؤيته وقد سأل معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم رضى الله عنهما النبى ﷺ فقالا مابال الهلال يبدو دقيقا كالخيط ثم يزيد حتى يستوى ثم لايزال ينقص حتى يعود كما بدأ ، وهكذا كانت الأنصار اذا

أحرموا

أحرموا لم يدخلوا دارا ولافسطاطا من بابه وانما يدخلون أو يخرجون من فرجة ويعدون ذلك برّا بين الله لهم الأمرين بقوله (يسألونك عن الأهلة) جمع هلال سمي به لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته (قل هي مواقيت للناس والحج) معالم يوقت بها الناس مزارعهم ومتاجرهم وصومهم وفطرهم وحجهم (وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها) وليست الطاعة والتقوى بأن تأتوا البيوت من ظهورها أي بأن تدخلوها من ظهورها أي من خلفها في الاحرام، فبين لهم أن هذا ليس ببرّ وانما البرّ من اتقى المحارم والشهوات فقال (ولكن البرّ) برّ (من اتقى) ما حرّم الله كالصيد ونحوه (وأتوا البيوت) ادخلوها (من أبوابها) التي كنتم تدخلونها وتخرجون منها قبل ذلك (واتقوا الله) واخشوا الله في الاحرام (لعلكم تفلحون) لكي تنجوا من السخط والعذاب. ويقال ان كنانة وخزاعة هم الذين كانوا يفعلون ماتقدم من الدخول من غير الباب فكانوا يدخلونها من الخلف ومن السطح (وقاتلوا في سبيل الله) في طاعة الله في الحلّ والحرم (الذين يقاتلونكم) يبدءونكم بالقتال (ولاتعتدوا) ولاتبتدئوا (إن الله لايحب المعتدين) المبتدئين بالقتال (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) من مكة، وهذا وعد من الله بفتح مكة لهم (والفتنة) الشرك بالله وعبادة الأوثان (أشدّ) أشرّ (من القتل) في الحرم، أومايفتتن به الانسان من المحن كالاخراج من الوطن أصعب من القتل (ولا تقاتلوهم) ابتداء (عند المسجد الحرام) في الحرم (حتى يقاتلوكم فيه) في الحرم بالابتداء (فان قاتلوكم) بالابتداء (فاقتلوهم كذلك) هكذا (جزاء الكافرين) بالقتل (فان انتهوا) عن الكفر والشرك وتابوا (فان الله غفور) لمن تاب (رحيم) لمن مات على التوبة (وقاتلوهم) أي المشركين (حتى لاتكون فتنة) شرك (ويكون الدين لله) أي خالصا لله لايعبد دونه شيء (فان انتهوا) عن قتالكم وعن الشرك والكفر (فلاعدوان) فلاسبيل لكم بالقتل (إلا على الظالمين) المبتدئين بالقتل (الشهر الحرام) الذي دخلت فيه لقضاء العمرة (بالشهر الحرام) الذي صدوك عنه لأنه ﷺ خرج معتمرا في ذي القعدة سنة خمس أوست من الهجرة فصده المشركون عن البيت عام الحديبية، فصالحهم على أن ينصرف عامه ويرجع من قابله فيقضي عمرته، وقد تمّ ذلك، أو يقال هذا في القتال، أي فان بدءوكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فانه قصاص (والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم) بالقتل في الحرم، أو بمطلق القتال (فاعتدوا عليه) فقاتلوه (بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) واخشوا الله بالابتداء (واعلموا أن الله مع المتقين) معين المتقين بالنصر. ولما كان القتال يعوزه المال قال تعالى (وأنفقوا في سبيل الله) تصدقوا في رضا الله، وهو عام في الجهاد وغيره (ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أي ولاتلقوا أنفسكم الى التهلكة، وهذه التهلكة إما بأن تمنعوا النفقة في سبيل الله فيقوى العدوّ عليكم فتهلكوا، واما بأن تسرفوا في الانفاق حتى تفتقروا، واما أن تنهكوا فتيأسوا من روح الله فتهلكوا (وأحسنوا) الظنّ بالله كما تحسنون أعمالكم وأخلاقكم، وكما تحسنون بالانفاق على من تلزمكم نفقته، وكما تحسنون بأداء الفرائض (إنّ الله يحبّ المحسنين) في جميع ماتقدم، وقد نزل قوله تعالى: « وقاتلوا في سبيل الله » الى ههنا في المحرمين مع النبيّ ﷺ لقضاء العمرة بعد عام الحديبية، ومن الاحسان بأداء الفرائض تأدية الحج فلذلك أعقبه بقوله تعالى: « وأتموا الحج والعمرة لله » وهو المقصد الخامس الآتي. انتهى التفسير اللفظي.

إيضاح

يقول الله تعالى « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج » في أعمالهم الدنيوية والعبادات لاسيما الحج « وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها » كلا « ولكنّ البرّ من اتقى » بفعل الطاعات وترك المعاصي، وفيه إيماء الى أن السؤال عن سبب تغير الهلال وتطوره كالدخول للبيت من غير بابه، فالبرّ

الا يحكس المرء فى سؤاله ، وأن يأتى الأمور من أبوابها فى الدين والدنيا ، ولما كان الصوم والاعتكاف كف النفس عن الشهوات ، والقتال وملاقاة الأعداء من أهم أنواع الصبر ناسب أن يلزا فى قرن وتنظم جوهرة الصيام ، وفلذة الجهاد فى سمط واحد ، فكلاهما صبر ، وكلاهما رفع للنفس عن حال البهيمية ، فالصوم تعالى النفس عن شهوة الطعام ، والذلة للحطام ، والجهاد رفع لها عن أن تستخذى للظالمين أو تذل للقاهرين ، فالصوم جهاد الآمنين ، والقتال جهاد الخائفين على الأعراض والأموال ، وعلى الناس أن يربؤا بأنفسهم عن الدنايا فلا يذلوا للشهوات كالجماوات ولا يسلموا قيادهم لمن يغلبونهم ، بل ليفكوا قيود الذلة عنهم ويرفعوا نير العبودية عن أعناقهم ويكسروا أصفاد الذلة وأغلال الظالمين وليقاتلوا فى سبيل الله ، الانسان فى جهاد مستمر وعمل دائم ، الانسان فى الحياة محوط بالأعداء من كل جانب ، فمنهم من هم فى داخل جسمه كالشهوات ، ومنهم من هم خارجه كالحيوان الكاسر ، والعدو المهاجم ، فليبدأ بقتال عدوه الداخلى ، فاذا فرغ منه فأحراه أن يقهر الأعداء المهاجين .

وترى الأمة الاسلامية ، لما كانت تعظم الأعمال الدينية وترعاها حق رعايتها غلبت أعداءها ، فلما تفرقت أهواؤها وخضدت شوكتها تخطفتها الأعداء من كل جانب ، فان الناس اذا استعبدوا لشهواتهم وذلوا لأهوائهم تفرقت كلمتهم ، وذهبت ريحهم ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلا يرى العدو أمامه الا أشباحا فارغة كأنها خشب مسندة ، ونفوسا مائتة ، وعقولا خامدة ، فيحصدهم حصدا ، ويتخذ سيدهم عبدا ، وهذا سر قوله ﷺ عند رجعته من احدى الغزوات « رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر جهاد النفس » وسره ما علمت من أن النفوس أيام أمنها واستيثاق الناس بأخلاقهم يدعو ذلك لائتلافهم ، وما غلبة العدو الا ثمرة الائتلاف ، ولا ائتلاف اذا تعددت المآرب وتفرقت القلوب وذهبت شذر مذر ، فلذلك قال « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » الآيات ، قد كان ﷺ ممنوعا من القتال ، فلما أمكنته البدان وصده المشركون عام الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة وصالحهم على أن ينصرف عامه ذلك ، ثم يعود من قابل فيقضى عمرته ، ثم رجع فى ذى القعدة سنة سبع فقضى عمرته ، ولما أن أزمع على عمرة القضاء وتجهز هو وأصحابه خافوا أن لا تفى قريش بما قالت وتصدهم عن المسجد الحرام ، وقد عاهدتهم أن تخلى مكة ثلاثة أيام فكره الصحابة أن يحاربوهم فى الشهر الحرام فى البلد الحرام فى حال الاحرام ، فنزل قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » واياكم أن تقتلوا الشيوخ ، والنساء ، والصبيان ، والرهبان « ولا تعتدوا » بالقتال مفاجأة ، ولا بقتال المعاهد ، ولا تمثلوا بالمقتول ، ولا تبدءوا بالقتال من غير دعوة « إن الله لا يحب المعتدين » ، ثم ازداد الأمر واحتدم ونزل « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » والثقف الحذق ، كأن من أدرك عدوه فهو حاذق ، وهذه الآية معممة للحكم بحيث يقتلون فى حل وفى حرم ، فهى أشبه الآيات بآية الخمر ، فلقد حرم شيئا فشيئا ، فهكذا هنا منع القتال ، ثم شرع للقاتلين ، ثم عمم ، وقوله « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » أى من مكة ، وقد فعل ذلك بمن لم يسلم يوم الفتح ، ولا ريب أن التعذيب بالاخراج من الوطن أشد من القتل فهو عذاب واصب لازم ، والموت راحة ، فالفتنة والابتلاء باخراجهم من مكة أشد من قتلهم ، ثم نهاهم عن ابتدائهم بالمقاتلة عند المسجد الحرام حتى يبدءوهم بالقتال ، وقوله « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » أى خالصا من الشيطان « فان انتهوا » عن الشرك فلا تعتدوا على المنتهين اذ لا يعتدى إلا على من اعتدى ، هذه الآية ترجع لقوله تعالى « واقتلوهم حيث ثقفتموهم » للدرجة الثالثة ، وهى تعميم القتال ، وقوله « الشهر الحرام بالشهر الحرام » الخ تأييد للدرجة الثانية ، وهى قتال المعتدى بمثل ما اعتدى « فان قاتلوكم » فى الشهر الحرام ، أو البلد الحرام أو فى حال الاحرام « فاقتلوهم » فان الحرمات ، وهى ما يجب أن يحافظ عليها وتحترم يجرى فيها القصاص ، ثم

غمص هذا كله بذلك ، فقال « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، وهو فى المرتبة الثانية ، ولما كان القتال لا يكون بلا مال أعقبه بقوله « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » بالكف عن القتال ، أو عن الانفاق فيه ، والباء زائدة : أى ولا تلقوا أيديكم : أى أنفسكم إلى التهلكة : أى الهلاك كما تقدم فى التفسير اللفظى .

ألا ترون أن الأمة الاسلامية لما نكصت على أعقابها ، ونامت على وساد الراحة الوثير ، وتقهقرت الى الوراء ، ونامت عن جمع المال ، وانفاقه فى الجهاد ، وسبقتها الأمم أخذت تبيد وتهلك ، فهذا هو الالقاء للتهلكة وذلك هو السر فى حشد الجنود ، ورفع البنود ، ومخر السفن فى البحار ، واعداد الآلات ، والتسابق فى الميدان والتنافس فى صنع المدمرات ، وسبر الطيارات الطائرات « وأحسنوا » أعمالكم وأخلاقكم كما تحسنون محاربة العدو فليس يغنى دفع العدو عن الفضائل الأخرى كما لا تغنى تلك الفضائل عن الجهاد ، وكما أنه ليس البر قاصرا على أمر القبلة والتولى اليها ، وليس البر أن تسألوا عن الأهلة ، هكذا ليس يغنى جهاد العدو عن جهاد النفس ، فليكن المسلم جامعا لصفات الكمال بعيدا عن خصال الشر وإياكم أن يغركم أنكم مجاهدون أو صائمون ، فلذلك أعقبه بمسائل الحج ، وبعض مسائل من القتال ، وقبل ذكر آيات الحج وتفسيرها نسرد أحوال الحج ليسهل عليك أيها الذكى معرفة الآيات الآتية ، ولتكون لديك صورة تعقلها بها .

شروط وجوب الحج خمسة

البلوغ والاسلام والعقل والحرية والاستطاعة ، ومن وجب عليه الحج ، وجبت عليه العمرة ، والاستطاعة أن يكون صحيحا ، وأن يأمن الطريق بأن تكون خصبة آمنة بلا بحر مخطر ولا عدو قاهر ، وأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ، وأن يملك نفقة من تلزمه نفقته فى هذه المدة ، وأن يملك مايقضى به ديونه ، وأن يقدر على مايحمله فى السفر ، ثم ان كان معضوبا ، وكان له مال فليستأجر من يحج عنه بماله بعد فراغ الأجير من حجة الاسلام لنفسه .

شروط صحة الحج

اثنان : الوقت والاسلام ، فيصح من الصبى ، فيحرم بنفسه ان كان مميزا ، ويحرم عنه وليه ان كان صغيرا ويفعل به مايفعل فى الحج من الطواف والسعى وغيرهما ، وأما الوقت ، فهو شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج فى غير هذا الوقت ، فهى عمرة ، وجميع السنة وقت العمرة .

شروط وقوعه عن حجة الاسلام

الاسلام ، والحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والوقت .

الأركان التى لا يصح الحج بدونها خمسة

الاحرام ، والطواف ، والسعى بعده ، والوقوف بعرفة ، والحلق بعده على قول ، وأركان العمرة كذلك الا الوقوف .

كيفية الحج

إذا وصل إلى الميقات المشهور الذى يحرم الناس منه يغتسل وينوى به غسل الاحرام ويكمل الطهارة ويخلع ثيابه المخيطة ويلبس ثوبى الاحرام فيرتدى ويتزر بثوبين أبيضين وعند ذلك ينوى الاحرام بالحج أو بالعمرة قرانا أو إفرادا ويكفى مجرد النية لانعقاد الاحرام ويسن أن يقرنه بالتلبية ، ثم يدخل مكة والأفضل

أن يكون من ثنية كداء بفتح الكاف كما فعل رسول الله ﷺ ثم إذا دخل المسجد الحرام فالأفضل أن يكون من باب بنى شيبة ثم يقصد الحجر الأسود و يمسه بيده اليمنى و يقبله ثم يطوف طواف القدوم ولا يعوقه عن الاسراع لذلك إلا الصلاة المكتوبة فليصلها ثم ليطف ، وليكن فى هذا الطواف وفى كل طواف مراعيا شروط الصلاة من الطهارة من الحدث والخبث فى الثوب والبدن والمكان وستر العورة فالطواف بالبيت صلاة أباح الله فيها الكلام ، فاذا أتم الطواف سبعا فليأت الملتزم وهو بين الحجر والباب وليتعلق بالاستار وليدع الله بما شاء ثم ليصل خلف المقام ركعتين ثم يخرج من باب الصفا ، وهو جبل فيرقى مقدار قامة الرجل فيه ثم يسعى سبع مرات بينه و بين المروة وهو يكبر ويدعو ويمشى حتى ينتهى إلى الميل الأخضر فاذا بقى بينه و بين الميل ستة أذرع أخذ فى السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى إلى الميلين الأخضرين ثم يعود إلى الهينة فاذا انتهى إلى المروة صعدها كالصفا ، وهذه مرة واحدة فاذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان وهكذا حتى يتم السعى ، وقد فرغ من طواف القدوم والسعى وهما سنتان والطهارة مستحبة للسعى وليست بواجبة واذا سعى فينبغى أن لايعيد السعى بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا فانه ليس من شرط السعى أن يتأخر عن الوقوف وانما ذلك شرط فى طواف الركن نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان ، إذا انتهى الحاج يوم عرفة إلى عرفات ينبغى أن لايتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف واذا وصل قبل ذلك بأيام فطاف طواف القدوم فليمكث محرما وليكن الخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها و بالغدو منها الى عرفة لاقامة فرض الوقوف بعد الزوال ، اذ وقت الوقوف من الزوال الى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر وليغتسل للوقوف فاذا زالت الشمس خطب الامام خطبة لطيفة وقعد وأخذ المؤذن فى الأذان والامام فى الخطبة الثانية ، ووصل الاقامة بالأذان وفرغ الامام مع تمام اقامة المؤذن ثم جمع بين الظهر والعصر ، فاذا أفاض من عرفة بعد غروب الشمس فليكن بسكينة ، ووقار حتى يبلغ المزدلفة فليغتسل ثم يجمع بين المغرب والعشاء فيها ، ثم اذا انتصف الليل يتزود الحصى منها فليأخذ سبعين حصاة فانها قدر الحاجة ، وليسر الى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة بعد أن يكون صلى الصبح فى الغلس بها ، ثم يدفع من المشعر الحرام قبل طلوع الشمس ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فينتهى الى منى ومواضع الجمرات وهى ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهى الى جمرة العقبة ويرمى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقيد رمح فيرمى سبع حصيات مكبرا مستقبلا القبلة أوالجمرة ، و يقول مع كل جمرة الله أكبر ، فاذا رمى قطع التلبية والتكبير الا التكبير عقب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر الى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق ثم ليذبح الهدى ان كان معه ثم ليحلق بعد ذلك ، والمرأة تقصر الشعر ، والأصلع يستحب له امرار الموسى على رأسه ومهما حلق بعد رمى الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات الا النساء والصيد .

والمحظورات فى الحج والعمرة ستة : **الأول** لبس القميص والسراويل والخف والعمامة ، وانما يلبس ازارا ورداء ونعلين ولا ينبغى أن يغطى رأسه ، وللمرأة أن تلبس كل مخيط بعد أن لاتستر وجهها بما يماسه فاحرام الرجل فى رأسه واحرامها فى وجهها ، الثانى الطيب فليجتنب كل مايعده العقلاء ، طيبا فان تطيب أولبس فعليه دم شاة ، الثالث الحلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر ، الرابع الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أوسبع شياه وان كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حجه ، الخامس مقدمات الجماع كالقبلة والملامسة التى تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة ، وكذا فى الاستمناء ويحرم النكاح والانكاح فيه ولا ينعقد ، السادس قتل صيد البر أعنى مايؤكل أوهو متولد من الحرام والحلال ، فان قتل صيدا فعليه مثله من النعم يراعى فيه

التقارب ، هـذه هي المحظورات ، وقد قلنا انه يرمى جمرة العقبة قد تحلل التحلل الأول ولم يبق عليـه من المحظورات الا النساء والصيد ثم يفيض إلى مكة و يطوف كما وصفناه أولا ، وهذا الطواف طواف ركن فى الحج و يسمى طواف الزيارة ، وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى أى وقت شاء ولكن يبقى مقيدا بعلقة الإحرام ، ولا يحل له النساء إلى أن يطوف ، فاذا طاف تم التحلل وحل الجماع وارتفع الاحرام بالكلية ولم يبق إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج ، ثم بعد هـذا الطواف السعى ان لم يكن سعى بعـد طواف القدوم والا اكتفى به ، وأسباب التحلل ثلاثة : الرمى والحلق والطواف الذى هو ركن ، ومهما أتى باثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، والأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ثم يخطب الامام خطبة وداع رسول الله ﷺ ، ومتى فرغ الحاج من طواف الركن المذكور عاد الى منى للمبيت والرمى وتسمى ليلة القر لأن الناس يقرون فيها غدا ولا ينفرون ، فاذا أصبح اليوم الثانى من العيـد وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصـد الجمرة الأولى التى تلى عرفة فيرمى اليها بسبع حصيات ثم يتقدم الى الجمرة الوسطى و يرمى كرمى الأولى ويقف فى هذه وفى الأولى بعد الرمى ويكبر ويهلل و يدعو بحضور قلب ثم يتقدم الى جمرة العقبة و يرمى سبعا ثم يرجع الى منزله و يبيت تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، و يصبح فاذا صلى الظهر فى اليوم الثانى من أيام التشريق ورمى فى هـذا اليوم احـدى وعشرين حصاة كاليوم الذى قبله فهو مخير بين المقام بمنى و بين العود الى مكة ، فان خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شىء عليـه وان صبر الى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى فى يوم النفر الثانى أحدا وعشرين حجرا كما سبق ، وفى ترك المبيت والرمى اراقة دم وليتصدق باللحم ، وله أن يزور البيت فى ليالى منى بشرط أن لا يبيت الا بمنى ، هذا هو الحج من أوله الى آخره مختصرا واضحا يسر أولى النهى .

العمرة

من أراد أن يعتمر قبل حجه أو بعده فليغتسل وليلبس ثياب الاحرام كما سبق فى الحج ، ويحرم بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية ، وينوى العمرة و يلبى و يصلى فى مسجد عائشة بعـد ذلك ركعتين و يدعو الله بما شاء ثم يعود الى مكة وهو يلبى ، ومتى دخل المسجد ترك التلبية ، وطاف سبعا وسعى سبعا كما تقدم ثم يحلق رأسه ، وقد تمت بهذا عمرته ، وهـذه الطريقة : أى الحج أولا ثم العمرة تسمى الافراد .

وهناك طريقة ثانية : وهى القران وهى أن يجمع بين الحج والعمرة ، فيقول عند الاحرام لبيك بحجة وعمرة معا فتندرج العمرة فى الحج كما يندرج الوضوء فى الغسل ويكون السعى الذى بعد طواف القدوم محسوبا منهما ولكن الطواف الأول ليس بمحسوب كما تقدم فيكون طواف الركن بعد الوقوف وليس على الحاج شىء فى هذا الا شاة الا أن يكون مكيا فليس عليه شىء .

وهناك طريقة ثالثة : تسمى التمتع وهى أن يجاوز الميقات محرما بعمرة ويتحلل بمكة ، ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج وتلزمه شاة مالم تكن عمرته فى غير أشهر الحج ومالم يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لاحرام الحج ، فاذا لم يجد الشاة فليصم ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة أيام اذا رجع الى الوطن ، والأفضل الافراد ثم التمتع ثم القران ، هذا ما أردت ذكره فى العمرة والحج وبهذا تتصور الأحكام والأماكن وتفسير آيات الحج ، وتفهم ما سيأتى من قوله تعالى «فمن تمتع بالعمرة الى

الحج» وقوله «فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام» وقوله «فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» وهذه الأحكام على مذهب الشافعى، وفى بعضها خلاف سيأتى فى تفسير الآيات

أسرار الحج وبقية أركان الاسلام

اعلم أن الانسان فى الدنيا كولد الموسر التاجر أوالملك الذى ورث الثروة عن والده ثم انه رباه فزاد هو فى تجارته وزاد نماء أمواله فالانسان خلق فى الدنيا تحيط به المحن والوصب ونكبات الدهر، فاذا تحملها وصبر عليها وقويت همته واستجمع عزيمته، كان ذلك قوة عظيمة لسعادته فى الدنيا لايحس بها الصبيان ولا الحيوان فكلاهما لاصبرله لأن الصبر بالعقل وهو خاص بأهله، ان النعيم والترف واللذات والتمتع بالطعام والشراب وتقارب الجنسين قد اشترك فيه الصبيان والحيوان مع العقلاء، وهى مضطر به غيرثابتة، ولاسعادة الاماناه الانسان لنفسه بنفسه، وذلك بأن يتخذله من الحوادث درعا فيتقى إذذاك وقع الحوادث فتكون عليه هينة، وتمر عليه أنواع الفرح والترح فلا تؤثر فى سعادته، وهذا هو المذكور فى آية «وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة» وقد تقدم الكلام عليها فراجعها هناك، وهذه أشبه بالميراث فى مثال الصبى الغنى لأنها عامة لسائر الناس، ثم ان الله أراد أن يزيد الانسان اسراعا فى الرقى ويعطيه أجنحة ويقوى سيره الى العلا، فأنزل عليه الكتب وألهمه دراسة العلوم، ومنها مانزل بالوحى على بعض الخاصة من خلقه فأراد أن يهذبهم، وذلك بالتخلية والتحلية فالتخلية بالجوع تارة مع ترك النساء فى الصوم وتارة بنزع ماتميل اليه النفس وماتعلق به القلب من المال بالزكاة والصدقات، ان العاقل كلما زاد عقلا زاد معرفة بالعشيرة وبالأمة التى هو منها فيجزع لما حل بقريبه وولده وأبويه وصحبه وأمته، فاذا صبر كان ذلك جمالا لنفسه وأجنحة يطير بها الى المعالى وههنا فى الزكاة يبذل المال للفقراء منهم فيكون مواسيا لهم فهو عند الحزن عليهم صابر وعند الغنى والثروة شاكر ويكون هو فى نفسه قد قلل العلائق التى تربطه بهذه الدنيا وباللذات فيكون زاهدا فيها فلا ينقطع فؤاده لذكر الموت، ولا يهلع ويجزع لموت دابة أوضياع مال، ويكون إذذاك كالحر الذى لم تستعبده هذه الدنيا ثم انه كما تخلى عن شهوة الطعام والشراب والنساء فى أيام رمضان وتخلى عما ربطه بأوثق رباط من المال هكذا يتخلى عن اللباس فى الحج، فلا يلبس المخيط، وانما يقتصر على ازار ورداء أبيضين كالكفن، وقدكشف رأسه وهو مع القوم عراة تحت حرارة الشمس، وقد خرجوا من الأهل والوطن وأنفقوا المال وتجردوا من الثياب وحرم عليهم النساء، هذا هو التخلية فى الزكاة والصيام والحج، أما التحلية فان الصلاة فيها مناجاة الله عزوجل، وقد توضأ الانسان ونظف ثوبه ومكانه وتوجه قلبه الى من فطره فأخذ يذكر بلسانه، وقد أحضر فى الفؤاد أنه رحمن رحيم عمت رحمانه سائر الخلائق بتعميرهم ورزقهم واغداق النعم عليهم، فيقول إياك نعبدوإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم الخ، وهو حاضر فى قلبه كأنه يراه ويشعر فى قلبه بهذه الرؤية، وهذه هى التحلية، فبالزكاة وبالصيام وبانفاق الأموال فى السفر للحج، وفى الهدى وترك المخيط من الثياب والنساء تخلية عن علائق هذه الحياة القصيرة، وأما التحلية فنى المناجاة والتوجه لله فى «إياك نعبد» وفى الاستعانة به تعالى وفى الحج، قائلا عند الاحرام [لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك لبيك وسعديك والخيركله بيديك والرغباء اليك لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد] فهذه هى التحلية، فنى الحج تخلية عن المال وعن النساء وعن الطيب وعن حظوظ النفس بالامتثال فى السعى بين الصفا والمروة وبالطواف وبرمى الجمرات التى يجهل العبد حكمتها، فبهذا كله تخلى المرء عن حظوظه وشهواته وامتثل أمر الله وهو

تخليه ، وفى التلبية والتوجه لله تخلية بالرجوع الى من خلقنا وفطرنا وصوّرنا ، ولاتظن ان أعمال الحج خالية من الحكمة المعقولة كلا فان كل ماتوجه به العبد من قول أوعمل أدّى المقصود منه فكما أن فى أقوال الصلاة توجها بالقلب ، هكذا الطواف والسعى ورمى الجمرات توجه بالقلب ، وكما أن هناك فرقا بين عمل اللاعبين والمصارعين فى وقوفهم وانحنائهم وأعمالهم وبين الصلاة فى الركوع والقيام ، وأن الأوّل يقصد به تقوية العضلات والمسابقات وآثارها فى النفس لاتخرج عما قصدت له ، والثانية يكون فيها الخشوع والخضوع والرجوع الى الله والآثار حقيقة تكون بحسب ماوجهت به وتظهر على الجوارح والأعضاء بالتجارب والمشاهدة فى سائر نوع الانسان ، هكذا يكون الفرق بين الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمرات الثلاث وبين الأفعال التى تماثلها من عوائد الانسان ، وتكون هذه الأفعال مستحضرا بها عظمة الله تعالى والطواف ببيته الذى جعله حرما آمنا محترما حرم صيده والقتال فيه اعظاما واجلالا لصاحبه ، وهكذا يسعى بين الصفا والمروة ، وهذا السعى يضاهى تردّد العبد بفناء دار الملك جائيا ذاهبا اظهارا للخلوص فى الخدمة ورمى الجمرات كالتبرؤ من الذنوب والخطايا ، ولاجرم أن هذه الأفعال يصحبها عند القصدماجعلت له ، ولذلك نجد عند الحجاج من المسرات والابتهال وذكر الله مالايوجد فيما يناظره من الأعمال الأخرى لنوع الانسان فكما أن الألفاظ لها أثر على حسب المدلولات ، هكذا الأفعال لها آثار على مقتضى ماجعلت له فى الشرع دينا وفى اصطلاح الناس عرفا ، ألاترى أن التحية عند بعض الامم بأن يتفل على وجه صاحبه ، وعند بعضهم بأن يضربه ، وعند بعضهم بأن ينام على الأرض منبطحا ، وعند بعضهم بأن يولى ظهره اليه وكل عمل من هذا يؤدّى المعنى الذى جعل له عرفا ، واذا لم يقم به الانسان وأخلّ به عوقب على مقتضى ذلك بالعداوة والبغضاء ، فاذا كان هذا فى عادات الناس وهم عليه يحاسبون بعضهم ، فهكذا جعل الله هذه الأعمال من الركوع والسجود والطواف والسعى والرمى قوالب وظواهر لذكر الله عزوجل وامتثالا لأمره واستحضارا لصفاته وجماله وتبريا من الذنوب ومن المادة ومن الدنيا . هذا ، ولتعلم أن الحج المبرور هو الذى فيه هذه المعانى الشريفة ، وعلامته أن يرجع صاحبه وقد عشق ربه وتبرأ من الدنيا وفرح بالموت قبل حلوله وأحبّ لقاء الله وأعطى كل ذى حق حقه ، وهذا سر الحديث « الحج المبرور ليس له جزاء الا الجنة » . أما الصلاة والحج اللذان خلوا من هذه المعانى فان صاحبهما لاينال منهما تلك السعادة العالية اهـ

(المقصد الخامس
فى الحج وبعض أحكام القتال وغيرذلك)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * الْحَجُّ أَشْهُرٌ

مَعلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من
خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب * ليس عليكم
جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر
الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث
أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم * فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا
الله كذكركم ءاباءكم أو أشد ذكرا فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا وما له في
الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا ءاتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة
وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب * واذكروا
الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن
اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون * ومن الناس من يعجبك قوله في
الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض
ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله
أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد * ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء
مرضات الله والله رءوف بالعباد * يا أيها الذين ءامنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا
خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات
فاعلموا أن الله عزيز حكيم * هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام
والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور * سل بني إسرائيل كم ءاتيناهم من
ءاية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب * زين للذين
كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين ءامنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله
يرزق من يشاء بغير حساب * كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين
ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف
فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين ءامنوا لما

اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين ءامنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب * يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم * كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * إن الذين ءامنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم *

التفسير اللفظى

ولما كان الحج، قد يمنعه العدو كما اتفق لرسول الله ﷺ عام الحديبية سنة ست وحصر هو وأصحابه وحبسوا عن المضى فيه ناسب أن يؤتى بالحج عقب الجهاد، فقال (وأتموا الحج والعمرة لله) أى ائتوا بهما تامين مستجمعى المناسك لوجه الله تعالى فهما واجبان (فإن أحصرتم) أى منعكم العدو، يقال: أحصره وحصره كما يقال صده وأصده، وليس عاما لكل مرض أو غيره كما عند الحنفية، لقول ابن عباس رضى الله عنهما لا حصر إلا حصر العدو، وعليه الشافعى ومالك، ولا يلحق به غيره من كسر أو عرج أو نحوهما إلا إذا شرط، لقوله عليه الصلاة والسلام لضباعة بنت الزبير حجى واشترطى وقولى: اللهم محلى حيث حبستنى (فما استيسر من الهدى) أى فعليكم ما استيسر من الهدى جمع هدية من بدنة، أو بقرة، أو شاة، فمن أحرم بالحج أو العمرة ومنع من إتمامه لعدو أو غيره على قول فليتحلل منه، وليذبح هديا، وليحلق رأسه، ولا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله: أى مكانه الذى يذبح فيه، وهو حيث أحصر من حل أو حرم (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) والحنفية على أن محله الحرم فلا يحلق رأسه، حتى يعلم أن من أرسله بلغ الحرم بالهدى إن كان معتمرا، ويوم النحر إن كان حاجا، والأول أوجه، لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين فحال كفار قريش دون البيت فنحر رسول الله ﷺ وحلق رأسه، ثم أخذ يشرح حالا أخرى لحلق الرأس غير حلق التحلل، فقال (فمن كان منكم مريضا)

مرضا يحوجه الى الحلق (أو به أذى من رأسه) كجراحة أو قمل (فـ)عليه (فدية) ان حلق (من صيام) ثلاثة أيام (أو صدقة) ثلاثة آصع على ستة مساكين (أو نسك) جمع نسيكة ، وهى الذبيحة ، لما روى أنه عليه الصلاة والسلام . قال لكعب بن عجرة « لعلك آذاك هوامك ؟ قال نعم : يارسول الله . قال احلق وصم ثلاثة أيام ، أو تصدق بفرق على ستة مساكين ، أو انسك شاة » والفرق ثلاثة آصع ، ثم أخذ يشرح حكما ثالثا ، وهو حكم ما اذا أحرم أولا بالعمرة من الميقات ، ثم تحلل منها وتمتع بالمحظورات فى الاحرام الى أن يحرم بالحج فعليه مثل ما على المحصر بدنة ، أو بقرة ، أو شاة ، وهو معنى قوله تعالى (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فعليه ذلك ، وهو دم جبران يذبحه اذا أحرم بالحج ولا يأكل منه ، وقال الحنفية دم نسك ، فهو كالأضحية (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج) أى فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الاشتغال به بعد الاحرام ، والأحب أن يصوم السابع والثامن والتاسع من ذى الحجة (وسبعة إذا رجعتم) أى فرغتم من أعمال الحج سواء كان فى طريقكم أو عند أهلكم ، وهو مذهب الحنفية ، وللشافعى قول إذا رجعتم إلى أهلكم (تلك عشرة كاملة) فليست السبعة للتكثير (ذلك) الحكم المذكور (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) بأن كانوا على مسافة قصر فأكثر من الحرم عند الشافعية ، وعند الحنفية أهل المواقيت من قرن ويلملم ، والجحفة ، وذى الحليفة ، وذات عرق ، فكل هؤلاء ومن دونهم الى مكة حاضرو المسجد الحرام ، ومن تمتع من هؤلاء وجب عليه دم ، وأما حاضرو المسجد الحرام فليس عليهم دم لأنهم ليسوا ممن يجب عليهم أن يحرموا من الميقات ، وعند الحنفية ليس لهم التمتع وان فعلوه فعليهم دم جناية (واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) وهو ظاهر ، ثم قال (الحج أشهر معلومات) معروفات ، وهى شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذى الحجة بليلة النحر عند الشافعية ، والعشر عند الحنفية ، وذو الحجة كله على مذهب مالك (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب على نفسه بالاحرام فيهن عند الشافعية ، أو بالتلبية ، أو سوق الهدى عند أبى حنيفة (فلا رفث) أى لا جماع أو لا فحش فى الكلام (ولا فسوق) لا خروج عن حدود الشرع بالسباب وارتكاب المحظورات (ولا جدال) لا مراء مع الخدم والرفقة (فى الحج) أيامه : أى لا يجوز ذلك (وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى) أى وتزودوا لمعادكم بالتقوى فانها خير زاد ، وقيل نزلت فى أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن متوكلون ، فيكونون كلا على الناس ، فأمروا أن يتزودوا ويتقوا الابرام والتثقيل فى السؤال (واتقون يا أولى الألباب) وفى هذه الآية السابقة دليل على وجوب العفة ، وترك أذى الناس وعدم التثقيل عليهم فناسب أن يؤتى بعدها بما يناسبها من التكسب ، وقد كان للعرب أيام جاهليتهم تجارات ومكاسب فى سوق عكاظ ، وذى المجاز ومجنة فتأثموا أن يتجروا فيها ، فنزل قوله تعالى (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) أى عطاء ورزقا وربحا فى التجارة (فاذا أفضتم) أى دفعتم أنفسكم كما يفيض الماء اذا صببته بكثرة (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وهو جبل يقف عليه الامام ، ويسمى قزح (واذكروه كما هداكم) أى اذكروه ذكرا حسنا كما هداكم هداية حسنة للمناسك وغيرها (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) أى قبل هدايته لكم (ثم أفيضوا) يا قريش (من حيث أفاض الناس) أى كسائر الناس ، لا من المزدلفة وأنتم مترفعون عنهم (واستغفروا الله) من جاهليتكم فى تغيير المناسك (إن الله غفور رحيم . فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا) كان العرب فى الجاهلية إذا قضوا مناسكهم ذكروا مناقب آبائهم ومفاخر أجدادهم نظما ونثرا كما هو معلوم فى سوق عكاظ وغيره ، فلما جاء الاسلام أمروا فيه أن يذكروا الله كذكرهم آباءهم أو كذكر ذاكر أشد ذكرا منهم لآبائهم ، وذلك ليعرفوا حقه عز وجل وليكونوا أمة وسطا متحدة ، فذكر الله يجمعهم ، وذكر الآباء يفرقهم ويشتتهم ، وذلك هو التضامن

والتحاب

والتحاب العام ، وتوجيه النفوس إلى الوحدة الدينية العامة ، والتنائى بها عن الوحدة الخاصة ، وأو بمعنى بل ، وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن هذه الآية ، قيل له قد يأتى على الرجل اليوم ولا يذكر فيه أباه ، فقال ليس كذلك ، ولكن أن تغضب لله عزّ وجلّ اذا عصى أشدّ من غضبك لوالديك إذا شما انتهى .

ولاجرم أن هذا هو النظام العام ، والناموس الشامل ، والقانون العام الكامل (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) كانوا فى الجاهلية يقولون : اللهمّ أعطنا ابلا ، وبقرا ، وغنما ، أو يقولون : اللهمّ ان أبى كان عظيم القبة كبير الجفنة كثير المال ، فأعطنى مثل ماأعطيته ، وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة [ثوب من خز أوصوف معلم] ان أعطى رضى وان لم يعط سخط تعس وانتكس ، وان شيك فلا انتقش » والانتقاش اخراج الشوكة ، وشيك دخلت الشوكة فى جسمه ، وحسنة الدنيا كالصحة والعفاف ، وتوفير الخير ، والحسنة فى الآخرة الثواب والرحمة ، فدخل فى الأوّل المرأة الحسنة ، وفى الثانى الحوراء ، وكذلك العلم والعمل فى الأوّل أيضا « وقنا عذاب النار » أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية إلى عذاب النار (أولئك) الذين ذكروا من الفريقين (لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) فيحاسب الناس فى لمحة ، والساعة قريب ، فليعملوا قبل أن تقوم فيحاسبهم (واذكروا الله فى أيام معدودات) أى أيام التشريق ، وهى أيام منى ، ورمى الجمار ، وسميت معدودات لقلتهن ، وهى ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، أوّلها اليوم الحادى عشر من ذى الحجة ، ويكون التكبير ادبار الصلوات وعند ذبح القرابين ، ورمى الجمار وغيرها (فمن تعجل) أى استعجل النفر (فى يومين) أى يوم القر ، والذى بعده : أى فمن نفر فى ثانى أيام التشريق بعد رمى الجمار عند الشافعية ، وقبل طلوع الفجر عند الحنفية (فلا إثم عليه) باستعجاله (ومن تأخر فلا إثم عليه) حتى رمى فى اليوم الثالث بعد الزوال عند الشافعى ، أو قبل الزوال جوازا عند الحنفية فلا إثم عليه فى التأخير ، ولقد كان الجاهلية يختلفون ، فمنهم من أثم المتعجل ، ومنهم من أثم المتأخر ، والذى ذكر من الأحكام (لمن اتقى) اذلا منتفع به سواه (واتقوا الله) أيها الناس فى جميع أحوالكم وأموركم (واعلموا أنكم إليه تحشرون) .

كان الجاهلية يذكرون آباءهم فأمروا بذكر الله جلّ جلاله ، وأمر الحاج بذكر الله أيام التشريق فناسب أن يذكر من هو كالأخنس بن شريق الثقفى اذ كان حسن المنظر حلو المنطق يوالى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدعى الاسلام ، ويقول انى أحبك ، ويحلف بالله على ذلك ، وقد خنس : أى اختفى يوم بدر بثلثمائة رجل من بنى زهرة عن قتال رسول الله ﷺ يوم بدر ، وقال : ان محمدا ابن أختكم ، فان يك كاذبا كفاكموه الناس ، وان يك صادقا كنتم أسعد الناس به ؟ قالوا : نعم مارأيت قال انى أخنس بكم فاتبعونى ، فذلك قوله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) أى فى شأنها من أسباب المعاش والتجارة وغيرها (ويشهد الله) على أن (مافى قلبه) موافق لكلامه (وهو ألدّ الخصام) شديد العداوة والمخاصمة (واذا تولى) أعرض أو صار واليا (سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل) كما فعل الأخنس بثقيف إذ بيتهم ، وأحرق زرعهم ، وأهلك مواشيهم ، أوكما يفعل ولاة السوء بالقتل والاتلاف والظلم (والله لايحبّ الفساد) لايرضاه (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم) الأنفة : أى حملته حمية الجاهلية الأولى على الاثم الذى يؤمر باتقائه لجاجا ، من قولك أخذته بكذا : أى حملته عليه (فحسبه جهنم) أى كفته جزاء وعقابا (ولبئس المهاد) والمهاد : الفراش ، ثم جاء بضده ، فقال (ومن الناس من يشرى نفسه) يبيعها (ابتغاء مرضات الله) أى يبذلها فى الجهاد طلبا لرضاه ، أو فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك

لأن صهيب بن سنان الرومى أخذه المشركون وعذبوه ليرتد ، فقال : انى شيخ كبير لاينفعكم كفرى ولا يضركم ايمانى ، فخذوا مالى ودعونى ، فقبلوه منه وأتى المدينة (والله رءوف بالعباد) لأنه أرشدهم إلى مثل هذا الشراء ، ولما كانت مناسك الحج وآداب الصيام والجهاد تراد لتهذيب النفوس ، وائتلاف القلوب ، واتحاد الشعوب ، وكان فريق من الناس لايثوبون إلى رشدهم ولايرجعون عن غيهم ، وفريق لمهتدى ، فالأول كالأخنس المنافق ابن شريق ، والثانى كصهيب دعا الله المسلمين كافة إلى السلم والطاعة ونبذ المشاحة والصالح والاعمان بسائر الأنبياء ليتحد المتشاكسون ويتفق المختلفون ، فقال (يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم) أى استسلموا لله وأطيعوه جملة ظاهرا وباطنا حال كونكم (كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان) بالتفرق والتفريق (انه لكم عدوّ مبين) ظاهر العداوة (فان زللتم) عن الدخول فى السلم (من بعد ماجاءتكم البينات) الآيات والحجج الشاهدة على أنه الحق (فاعلموا أن الله عزيز) لايعجزه الانتقام (حكيم) لاينتقم إلا بحق : ألا وان هذا النوع البشرى سعادته بالصفاء والسلم ، وشقاؤه بالخلاف والشقاق ، فاذا تفرقت الأهواء وزلت القدم واتبع كلّ امرئ هواه جاءهم العذاب من حيث يرجون النعيم ، وحلّ بهم الشرّ حيث يرجون الخير هذا هو الناموس العام والسبيل الالهى ، ألا ترى أن الناس يعذبون بنفس شهواتهم ويذلون بأطماعهم فمن لم يطع فقد انقلبت لذاته آلاما وصارت أفراحه أحزانا كما يرى فى الفاجرين الفاسقين حين يقلب الدهر لهم ظهر المجن ، وكذلك الأمم الكاسلة المتسكعة النائمة على وساد الراحة العاكفة على الشهوات يستخدمها أعداؤها بنفس هذه الصفات ، فمثل الأمم إذ ذاك كما قال الله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أى أمره أو بأسه (فى ظلل من الغمام) السحاب الأبيض حيث يرجون الخير (والملائكة) لأنهم المسخرون للعالم القائمون بتدبيره (وقضى الأمر) تمّ هلاكهم (والى الله ترجع الأمور) فجاءهم الشرّ حيث ينتظرون الخير ، والضرّ حيث ينتظرون النفع كما هى حال ذوى الشهوات والمغرورين والغافلين وأكثر أمم الشرق لاسيما المسلمين ، فاذا لم يستيقظ المسلمون وفرحوا بأموالهم وأبنائهم كان مافرحوا به عليهم شقاء وبلاء ، ثم ضرب مثلا ببنى إسرائيل إذ يقول (سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة) معجزة ظاهرة وتبيان فى التوراة على أيدى أنبيائهم شاهدات بالحق فأولوا وبدلوا وزاغوا وأتوا بأكاذيب كما يكذب جهلة الوعاظ اليوم على الأمة الاسلامية ، فوعدوهم على قليل العمل كبير الأجر ، فكان الهدى سبب الضلال والخير سبب الشرّ (ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب) فيعاقبه أشدّ العقوبة لارتكابه أشدّ الذنوب فيجعل هلاكه عما ظنّ أنه حياته كما جعل آيات الكتاب الهاديات سببا للضلال . وقد فعل ذلك باليهود كما فعله أيضا بالأمة الاسلامية اليوم ، فلكم افترى الأحبار والرهبان حفظا للرياسة ؟ فسلط الله عليهم المسلمين ، هكذا كذب كثير من أهل العلم فى الأقطار الاسلامية وفسروا الأحاديث والآيات على حسب أهوائهم وأزاغوهم عن حكم القرآن ، فسلط عليهم من سخرهم ، فكان المفروح به هو المحزن ، والمطلوب هو المرهوب كالظلل من الغمام ولما كان ذلك ناشئا من الغرور بالحياة أردفه بقوله (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) كبلال وعمار وصهيب (والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب) فى الدارين ولما كانت الآية السالفة دعوى للمسلمين أن يدخلوا فى السلم والحبّ العام والطاعة ولايتفرقوا : أتبعها بما يذكرهم ما كانت عليه الأمم قديما ، فلقد كانوا فى جنة السعادة ونعيم الحياة إذ (كان الناس أمة واحدة) وعاشوا قرونا كثيرة كما تشهد بذلك المكتشفات الحديثة ، وكما يرمى إليه الدين البرهمى فى الهند والبوذيون ، فهذه الأمم تروى عن أسلافها السلام العام ، وهكذا تشير أشعار هوميروس الشاعر اليونانى وغيره ، فحصل الطمع والجشع فاختلفوا (فبعث الله النبيين) وبدأ بنوح ، وكانت الأمم قبله فى هناء وسعادة (وأنزل معهم

الكتاب)

الكتاب) أى جنسه ملتبسا (بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) أى فى الحق الذى اختلفوا فيه فجاء الأمر معكوسا والوضع مقلوبا ، جعلوا ما كان سبب الهداية للضلال وما هو الخير شرا (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم) حسدا وظلما لحرصهم على الدنيا (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا) أى للحق الذى اختلف (فيه) المختلفون (من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فالله يدعو الناس الى الوئام والاتحاد ويرشدهم للمحبة والوداد ويذكرهم بما سلف للأمم قبل نوح ، فقد كانوا فى سعادة وراحة ، فلما ضلوا أرسل الرسل فغير العلماء واتخذوا الديانات شبكة صياد وحيلة محتال ، وينادى الله الأمم أن ترجع سعدها وترد مجدها القديم والنعيم ، ولما كان السلم العام لم يزل بعيدا وأشرب نوع الانسان العداوة والبغضاء ، واستنبط الظلم وراش سهم الغدر : أمر الله النبى والمؤمنين أن تكون حياتهم صبرا وجهادا ليقيموا الحق حسب الطاقة .

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا ● فما حيلة المضطر إلى ركوبها

فقال (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم) حالهم التى هى مثل فى الشدة (مستهم البأساء والضراء) بيان لتلك الحال مستأنف (وزلزلوا) أزعجوا ازعاجا شديدا (حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) لتناهى الشدة ، ويقول بمعنى قال ، فقيل لهم تبشيرا (ألا إن نصر الله قريب) فالانسان فى الحياة مجاهد لعدوه الخارجى الظالم ، ويعوزه الثبات ولعدوه الداخلى ويعوزه الصبر وعند اشتداد الخطب يكون الفرج بغلبة الحق على الباطل فى الأمم وبارتياض النفس وراحتها فى الأخلاق ودخول دار السلام بعد الموت ، ولما كان انفاق المال أشق على النفس وأشق منه هلا كها أخذ يحرض على الانفاق والجهاد .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عمرو بن الجموح الأنصارى رضى الله عنه كان شيخا هما ذا مال ، فقال يارسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها ؟ فأجيب ببيان المنفق عليه ، وذلك قوله تعالى (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وماتفعلوا من خير فان الله به عليم) الخير المال ، وقدم الوالدين لأنهما واجب حقهما أولا ، ويليهما الأقرب فالأقرب ثم اليتامى الخ ، وإنما كانت الاجابة ببيان المنفق عليهم ، لأن النفقة لايعتد بها إلا اذا وقعت موقعها . قال الشاعر :

ان الصنيعة لاتعد صنيعة ● حتى يصاب بها طريق المصنع

ثم أتبعه بذكر الجهاد بالنفس ، فقال (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) والنفوس البشرية إذا تعودت الخير ألفته ، فصار المنوذا فلا سعادة إلا فى لذة النفس ورضائها (والله يعلم) ماهو خير لكم (وأنتم لاتعلمون) ولو أن الناس تركوا أنفسهم وهواها فزينت لهم الحياة الدنيا لصار المحبوب لهم نقمة عليهم كما هو مقصود الآيات السابقة .

وهكذا النفوس تحب القعود عن الغزو ، وهو شر لما فيه من طمع العدو ، لأنه اذا علم ميلكم الى الراحة والدعة والسكون قصد بلادكم ، ونزل بساحتكم ، واذا علم أن فيكم شهامة كف عنكم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم الفتح « لاهجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » وقال الزهرى : كتب الله القتال على الناس جاهدوا أولم يجاهدوا ، فمن غزا فيها ونعمت ، ومن قعد فهو عدة ان استعين به أعان ، وان استنفر نفر ، وان استغنى عنه قعد . قال الله تعالى « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى » ولوكان القاعد تاركا فرضا لم يعده بالحسنى اهـ

ولعلم أن هذا القول أجمع ماقيل فى هذا المقام فلتكن الأمة كلها فى جهاد ، ان دخل العدوّ البلاد وجب الحرب والدفاع على كل رجل وكل امرأة ، وان لم يدخل وجب أن يجاهد كلٌّ فيما اختص به ، فالعالم والصانع والزارع كل يتقن مافى طاقته ، فلاقتال إلا بالعدّة والسلاح ، ونظام الطرق ، وترقيـة جميع مرافق الحياة . ثم أخذ يتمم مسائل الجهاد بما روى أنه عليه الصلاة والسلام بعث عبد الله بن جحش ابن عمته على سرية فى جمادى الآخرة قبل بدر بشهرين ليترصد عيرا لقريش فيهم عمرو بن عبـد الله الحضرمى وثلاثة معه فقتلوه وأسروا اثنين واستاقوا العير وفيها تجارة الطائف ، وكان ذلك غرّة رجب ، وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فاحتجّ قريش على النبىّ ﷺ وقالوا استحلّ محمد الشهر الحرام شهرا يأمن فيه الخائف ، ويبذعرفيه الناس الى معايشهم ، فأجيبوا بأن القتال فى الشهر الحرام إثم كبير ، ولكن صدّكم الناس عن الاسلام وكفركم به تعالى وصدكم الناس عن المسجد الحرام ، واخراجكم النبىّ ﷺ وأصحابه منه . هذه الأربعة أكبر عند الله مما خطئت السرية خطأ ، وتكون النتيجة أن ما فعلتموه من الفتنة بهذه الامور الأربعة أشدّ من ذلك القتل ، وهذا معنى قوله (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) بدل اشتمال (قل قتال فيه كبير) ذنب كبير (وصدّ عن سبيل الله) وصرف عن الاسلام ومنع عنـه ، أوعما يوصل العبد الى الله من الطاعات (وكفر به) أى بالله (و) صدّ (المسجد الحرام واخراج أهله منه) أى اخراج أهل المسجد الحرام منه وهوالنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون (أكبر عنـد الله) مما فعلته السرية خطأ (والفتنة أكبر من القتل) أى ماترتكبونه من الاخراج والشرك أفظع مما ارتكبوه مما تقدم من قتل الحضرمى .

[روى] أن عطاء كان يحلف بالله مايحلّ للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام ولاأن يقاتلوا فيه وما نسخت وجمهور العلماء على أنها منسوخة بقوله « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » و بقوله « وقاتلوا المشركين كافة » يعنى فى الأشهر الحرم وفى غيرها اه

ثم أخذ يحذرهم من الكفار لما تقرّر أن الناس مختلفون وقد فسد الزمان ، فقال (ولايزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهوكافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون) هذا اخبار من الله بعداوة الكفارلهم ، وأنهم لاينفكون عنها حتى يردّوهم عن دينهم ، وحتى للتعليـل ، وفى المرتدّ رأيان : فالشافعى يرى أنه لايبطل عمله إلا اذا مات على ردّته ، وأبوحنيفة يرى أنه يحبط عمله وان أسلم ، واعلم أن المرتد يجب قتله وتبين زوجته ، كما لايستحق الثواب على عمـله كما فصلناه ، وقوله (إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) ظاهر مما تقدم ، نزلت فى عبد الله بن جحش وأصحابه رضى الله عنهم ، وذلك أن أصحاب السرية قالوا يارسول الله هل نؤجر على وجهنا هذا ونطمع أن يكون لنا غزو فأنزل الله هذه الآية اه

ولما فرغ من الجهاد مع الأعداء أخذ يشرح النظام الداخلى ومايحفظ كيان الأمة بعد الذبّ عنها من العدوّ المهاجم و بدأ بالخمر والميسر وأحكامهما وهو :

المقصد السادس ، والسابع ، والثامن ، والتاسع

فى الكلام على الخمر والميسر ، وكيفية الانفاق ، واليتامى ، وأحكام النكاح ، والحيض

فى هذا المقام ستة أسئلة

الأول : سؤال عمرو بن الجموح المتقدم إذ أجيب ببيان المنفق عليهم .

الثانى : سؤال أهل مكة عن الشهر الحرام .

الثالث

الثالث : سؤال عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وجماعة من الأنصار فى الخمر والميسر .

الرابع : سؤال عمرو بن الجموح المتقدم أيضا ، سأل فى هذا عن كيفية الانفاق كما سأل أوّلا عن المنفق عليهم .

الخامس : سؤال المسلمين عن اليتامى .

السادس : سؤال أبى الدحداح فى نفر من الصحابة عن المحيض ، والأسئلة الثلاثة الأولى بلا عطف ، والثلاثة بعدها بالعطف لافتراق أزمنة الأولى واقتراب أزمان الثانية ، ولنفسر المقاصد الأربعة فى قوله تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظى

روى أنه نزل بمكة قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا » فأخذ المسلمون يشربونها ثم ان عمر ومعاذا فى نفر من الصحابة رضى الله عنهم ، قالوا : أفتنا يارسول الله فى الخمر فانها مذهبة للعقل ؟ فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الخمر والميسر) عن شرب الخمر وعن القمار (قل) يامحمد (فيهما إثم كبير) بعد التحريم (ومنافع للناس) قبل التحريم بالتجارة بها و بأخذ مال بغير كدّ (وإثمهما) بعد التحريم (أكبر من نفعهما) قبل التحريم ، أو وإثمهما من التخاصم والتشاتم ، وقول الفحش والزور الخ . فلما نزلت شربها قوم وتركها آخرون ، ثم دعا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ناسا منهم ، فشربوا ، فسكروا ، فأمّ أحدهم ، فقرأ [أعبد ماتعبدون] فنزلت « لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى » فقلّ من يشربها ، ثم دعا عتبان بن مالك بن سعد بن أبى وقاص فى نفر ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا ، فأنشد سعد شعرا فيه هجاء الأنصار ، فضربه أنصارى بلحى بعير فشجه ، فشكا الى رسول الله ﷺ فقال عمر رضى الله عنه : اللهم

بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » فقال عمر رضى الله عنه : انتهينا يارب . والخمر مصدر من خمره اذا ستره ، سمى به ما اتخذ من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب اذا اشتد وغلا وقذف بالزبد ، وسمى خمرا لأنه كأنه يستر العقل كما سمى سكرا لأنه يسكره أى يحجزه ، فاذا طبخ حتى ذهب ثلثاه حل شربه عند الحنفية ، وان أسكر حرم ، لما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كتب الى بعض عماله : ان أرزاق المسلمين من الطلاء ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه . وفى رواية : أما بعد فاطبخوا شرابكم حتى يذهب منه نصيب الشيطان فان له اثنين ولكم واحد ، والطلاء الشراب المطبوخ من عصير العنب . وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها ، والمسكر من كل شراب ، ومذهب الشافعى رضى الله عنه : ان الخمر عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذى قذف بالزبد ، وكذلك نقيع الزبيب والتمر ، والمتخذ من العسل والحنطة والشعير والارز والذرة ، وكل ماأسكر فهو خمر ، وأكثر علماء الأمة الاسلامية على سد باب الفتنة يحرمون القليل والكثير مطلقا ، ومال اليه متأخرو الحنفية والخمر وان أفادت الالتذاذ ، وتشجيع الجبان ، وتقوية الطبيعة أولا ، فكم فيها من رذائل ومضار مما شرحه علماء الغرب ، ولكم من رسالة فى ذمها قرأتها ، ورواية عن طبيب درستها ؟ حتى ألحقوا بها شرب الشاى والدخان والقهوة . ولقد رأيت فى كلام [هنرى الفرنسى] فى كتابه [خواطر وسوانح فى الاسلام] أن أحد سلاح يستأصل به الشرقيون ، وأمضى سيف يقتل به المسلمون هو الخمر وادخالها ، ولقد جردنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبت شريعتهم الاسلامية أن يتجرعوه ، فتضاعف نسلهم ، ولو أنهم استقبلوا كما استقبله قوم من منافقيهم بالتهليل والترحيب وشربوها لأصبحوا أذلاء لنا كتلك القبيلة التى تشرب خمرنا وتحملت إذلالنا ، وقال [بنتام] المشرع الانجليزى : « من محاسن الشريعة الاسلامية تحريم الخمر فان من شربها من أبناء أفريقيا آل أمره الى الجنون ، ومن استدامها من أهل أوروبا زاغ عقله ، فليحرم شربها على الافريقيين ، وليعاقب عقابا صارما الأوروبيون ، ليكون العقاب مقدرا بمقدار الضرر »

ولقد رأيت فى كتاب لطبيب أمريكى يسمى [كيلوج] منع التداوى بالخمر ، إذ بان له أن ضررها فى الجسم عند التداوى أكثر من نفعها بالشفاء المؤقت ، لما تفعل فى الامعاء وباقى الأحشاء من الضراء . ولما فشت الخمر فى بلادنا أغرم بها قوم حتى أخربت البيوت ، وأذهبت العقول ، ونحن نرقب من الله الخروج من مأزقنا ، وبعد ما كتبت هذا أخذت أقرأ ذلك الكتاب المسمى [كتاب اليد فى الطب] فرأيته كتب فى ضرر الخمر نحو (٣٠) صفحة ، وكتب فى الدخان والشاى والقهوة والكاكاو ، وشدد النكير على الناس جميعا ، فجمعت من ملخص ترجمته خطبة مع اضافة شذرات من كتب أخرى ، وهاك نص ماجاء فى الجرائد والمجلات ببلادنا التى نشرتها فى العام الماضى قبل الطبع (أى طبع الطبعة الأولى سنة ١٣٤٣ هجرية) .

ننشر اليوم خطابا ألقاه [فلان] فى المدرسة الخديوية ، وكذلك فى الكلية الأمريكية على ملأ من العلماء والأطباء وطلبة المدارس العالية المصرية لاسيما طلبة الطب فى موضوع [مطابقة الكشف الحديث لما ورد فى الحديث النبوى من أن التداوى بالخمر ضار] كما قاله أكابر الأطباء فى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، ولم نقصد بذلك إلا ايقاظ أطبائنا وعلمائنا كيما يقوموا بما هو مفروض عليهم نحو أبناء وطنهم ، كما قام غيرهم من الأمم الأخرى ، وهاهو ذا الخطاب بتمامه . قال حفظه الله :

« الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد فاليكم أيها السادة الأفاضل ، يانخبة مصر وأساطين العلم والطب ، ويازهرة الشبيبة المصرية ، أنتم قدوة الأمة وعيونها المبصرة ، وآذانها السامعة ، ورءوسها المفكرة ، أنتم قادتها وسادتها ، أنتم الرأى العام ، أوجه خطابى هذا راجيا أن تصغوا الى قليلا ، لأتلو عليكم

ماجاش بقلبي، وما أملاه عليّ وجداني ، ودلّ عليه اختباري مدة الحياة في هـذا الموضوع العظيم وهو [الخمر] كما أني أشكركم على ماتفضلتم به من تلبية الدعوة لسماع خطبتي :

أيها السادة : ان الأمم اليوم قد تنبهت من غفلتها ، وقامت من سباتها ، والعلم يعدو حثيثاً بالأمم الى العلاء ، والانسان اليوم غيره بالأمس ، هذه حركة فكرية عامة للتطور الاجتماعي الانساني العام ، ومصر التي شهد لها التاريخ بالتقدم على سائر الأمم أجدر أن تدلي دلوها في الدلاء ، وأن تبحث مع ذوي الآراء في الامور الهامة والمسائل العامة ، وتحذو حذو الأمم الراقية العلم حتى لا يسلقنا خلفنا بألسنة حداد ، ويقول أبناؤنا : لقد قصر آباؤنا الأولون ، ونام علماؤنا السابقون ، فوجب علينا أن ننقي مجتمعنا من بعض المضارّ والمصائب التي أهمها مسألة [الخمر] .

تحريم الدين للخمر

أيها السادة : حرّم القرآن الخمر تحريماً قاطعاً ، ولم يستثن حالا من الأحوال ، ولا أباحه ، ولا أجازه لهضم الطعام ، ولارضيه لتقوية الشهوة عليه ، ولا لاكثار الدم في الجسم ، بل عمم التحريم فقال : « يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »

التداوى به فى الدين

اختلف الفقهاء في التداوي به ، فأباحته طائفة اذا لم يقم غيره مقامه ، وقال آخرون : الخمر لايتداوى به ، واستدلوا بالحديث : « لم يجعل الله دواء أمتي فيما حرّم عليها » ويقول القرآن « فهل أنتم منتهون » .

المدنية الحديثة والدين

هجمت المدنيـة الحديثة في الشرق ، وأخـذت تسرع في أسباب الرقّ ، ففشت الخمر ، وعمت الأمصار والقرى ، وشاعت بين الخاصة والعامة ، وتبعها في ذلك أنواع الحشيش والكوكايين وغيرها ، ويقول القرآن : « رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

مطاردة المدنية الحديثة للأديان

كان أسلافنا يقيمون الحدود ، ويجلدون الشارب نحو أربعين جلدة ، فكان ذلك مخففاً من سطوة الخمر ومانعاً لطغيانها ، وكان الرجال الدين سطوة وبأس ، وكان الملوك والحكام أقوى معتضدين للفضيلة ومنع الخمر امتثالا لقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » .

جاءت المدنية الحديثة بخيلها ورجلها ، وشاركتنا في الأولاد والأموال ، وهجمت علينا ، ولم يبق للدين سطوته ، فانحسر عن المدن الى القرى ، ثم انحاز الى أطراف البلاد ، وهي تطارد الدين ، ولكن المدنية بلاعلم ضلال ، والعلم الناقص وبال ، والبلاهة كما قال الغزالي خير من الفطانة البتراء ، والجهلاء أفضل من الأذكياء المغرورين ، فلا الدين كله ، ولا العلم كله ، ونحن أخذنا من المدنيات أسماءها ، ومن العلوم قشورها ، فخسرنا المتقين ، وربحنا الرزيتين ، وسبقنا المتدينون ، وفاتنا من الفرنجة العلماء العاملون ، فويل ثم ويل لمن لادين له ولاعلم ، أولئك الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، فحقّ علينا أن نبحث في موضوع الخمر بحثاً علمياً حتى نكون أتينا البيت من بابه ، وأرجعنا الأمر الى نصابه ، فالعلم اليوم هو السلاح

الذى به تسول الفضيلة ، وبه تحارب النقيصة ، فبهذا السلاح أقاتل معكم وبهمتكم جيوش الجهل بين أبناء أمتى المصرية المحبوبة ، فلأقص عليكم أنباء ماعثرت عليه فى هذا الموضوع مرتبا على مقتضى الترتيب الزمانى وينحصر ذلك فى أربعة مباحث وهى :

(١) ماقاله علماء الاجتماع من أنه يفنى النسل ويستأصله .
(٢) ماقاله علماء التشريع من أنه يورث الجنون فى الأقطار الجنوبية .
(٣) أعمال الجمعيات المنتشرة لمنع الخمر ، وماجاء فى خطبة رئيسها فى مصر .
(٤) ماجاء فى كتب الطب الافرنجية ، وخصوصا الأمريكية ، وكيف منعوا التداوى به .

المبحث الأول

لقد قرأت فى كتاب [خواطر وسوانح فى الاسلام] تأليف [الكونت هنرى كاسترى الفرنسى] المطبوع فى سنة ١٨٩٨ فى ص ١٣٥ ما يأتى : « وعندى أن هجرة القبائل الى الصحراء الكبرى جنوبا من الجزائر وهم بجلل كالقول بامكان مضايقتهم فينزحون عن البلاد شيئا فشيئا ، أما انقراض الأهالى بالتدريج بعد دخول التمدين الاوروبى بلادهم ، فنحن لانصدقه إلا قليلا ، فان احتكاكهم بالمتمدينين ربما قلل وسائل العيش عندهم ، ولكن لايؤثر فى وجودهم ، بل لايزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ، ونضيف الى ذلك أن المسكرات التى استحلها بعض الفلاحين لاتؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا » اهـ ولقد دهشت عند قراءة هذه الجملة ، وقلت ما قاله نصر بن سيار :

أرى خلل الرماد وميض نار * ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكو * وان الحرب أولها كلام
فان كانت أمية فى سبات * فقل قوموا فقد حان القيام

وهنا غاية العجب ! كيف يقرأ قومى وهم غافلون : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون » وكيف يقول ذلك الفرنسى العظيم : ان الخمر آخر سلاح يقتل به الأمم المستعمرة ، وبه فناء نسلهم ، وأهل بلادى فى غفلة ساهون ، ولطالما عرضت هذه الآراء على أهل العلم والأذكياء وأقول : ألم تقرأ أمتنا هذا الكلام ! أوقرءوا وهم لاينتبهون ، فالمسألة موت أوحياة اهـ

المبحث الثانى

قال العلامة الانجليزى [بنتام] فى كتاب [أصول الشرائع] ترجمة المرحوم [أحمد فتحى زغلول باشا] تحت عنوان [الجرائم الشخصية] مانصه : « النبيذ فى الأقاليم الشمالية يجعل الانسان كالأبله ، وفى الأقاليم الجنوبية يصيره كالمجنون ، ففى الأول يكتفى بمعاقبة الأول على السكر كعمل وحشى ، وفى الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد لأنه شبيه [بالتشرد] وقد حرمت ديانة محمد صلى الله عليه وسلم جميع المشروبات ، وهذه من محاسنها » انتهى كلامه .

المبحث الثالث

منذ ثمان سنين جاء إلى مصر رجل من أعضاء دار الندوة [البرلمان] السويد والنرويج ذكر أنه رئيس جمعيات منع الخمر فى العالم ، وأنه زار جميع دول أوروبا والشرق كفرنسا ، وانجلترا ، والروسيا ، والصين واليابان [وكل الحكومات ساعدته] وأن أعضاء الجمعية العاملين يبلغ عددهم ستمائة ألف رجل ، وذكر أنه فى أمريكا حرم خمسة وأربعون مليونا من أهلها الخمرة على أنفسهم [وكان ذلك قبل الآن ، وقد حرمت فى هذه السنة تحريما عاما فى هذه البلاد] . وقال : ان ولى العهد لبلاد السويد ربى على أن لايشرب الخمر

ونحن

ونحن نفتخر بأنه أول ملك لايشرب الخمر فى أوروبا .

المبحث الرابع

كنت منذ بضع سنين عند طبيب نطاسى مصرى ، فأرانى كتابا انجليزيا مؤلفه أمريكى ، وقال ان مؤلفه يقول فيه انى لست أبحث فى منع الخمر المسكر ، فهذا فرغ منه العلماء ، وانى بحثى اليوم فى مضاره الطبية ، وأن التداوى به يجلب للانسان أمراضا لاقبل له بها ، فاذن التداوى به ممنوع طبيا ، وليس فيه أدنى فائده ، فقلت له لماذا لاترفع صوتك بهذا فى البلاد ، فقال انى إخوانى الاطباء يسلقوننى بألسنة حداد ، فقلت أليس فى أمريكا علماء محققون ، فقال بلى ، ولكن لايطاع لقصير أمر ، فلما دعيت للخطابة فى هذا الموضوع طلبت منه الكتاب ، وهو يسمى كتاب [اليد الطبى] تأليف الأستاذ [كيلوج] كتب تحت عنوان [الاستعمال الطبى للخمر] من صفحة ١٧٥ إلى صفحة ٥٠٤ فلأذكر لكم جملا منه ، وعليكم أيها الأطباء ترجمة الموضوع كله والرد عليه ان رأيتم خطأ علماء أمريكا وأوروبا والافاعملوا على منعه كما منعه أعظم الأمم علما ومقاما ، وهى أمريكا .

قال المؤلف : من كان عنده أقل ريب أوظل الشك أن الخمر سم فليعتبر بما يكون عند وصوله المعدة ، فان الغشاء الباطنى يصير محتقنا ويخرج مقدارا من المخاط ليحمى نفسه ، وترى غدد المعدة وقواها الدافعة تسرع فى اخراج ماوصل اليها بأسرع ما يكون ، أليس ذلك مزيلا لشك الشاكين ، وريب المرتابين ، فى أن الخمر من أنواع السموم . وقال الأستاذ [ليبج] انه إذا اعتدل الانسان فى شربه قوى جسمه وأكسبه نشاطا ، وقد نقض هذه القضية ثلاثة من علماء الكيمياء الفرنسيين ، وهم الأستاذ لالمان ، والأستاذ بيرن ، والأستاذ دروى ، ثم الأستاذ أدولردسميث الانجليزى ، وقد برهن الثلاثة الأولون على بطلان ماتقدم بقولهم : ان الخمر تخرج من الجسم ولا أثر لها ، وزاد الأخير بقوله انه حلل الدم ، فلم يجد فيه أدنى شىء من العناصر التى يتركب منها الخمر . وقال الدكتور [ملر] الاسكوتلاندى : الخمر لايشفى شيئا . وقال الدكتور [هيجنبوتوم] أمام الجمعية الطبية البريطانية : أنا لاأعلم مرضا قط شفى بالخمر . وقال الدكتور [جونسون] الانجليزى : ان الخمر ليس ضروريا ألبتة ليستعمل دواء . وقال فى ابطال قولهم ان الخمر غذاء ، وأنه يحفظ الجسم ، أو يقوى العضلات : ماهذه القوة ان هى الا اسم آخر من أسماء السموم ؟ فقولنا فلان نشوان طرب نحمل معناه مسموم ، وبرهن على ذلك بقوله : إذا أدخلنا الخمر ، أوأى سم آخر من العقاقير السامة التى تعد بالمئات فى الجسم ، فان جميع الاعضاء تستعد للمقاومة والمدافعة لاخراجه من الجسم ، ومن هنا كان النشاط . وقال فى نقض قولهم ان الخمرة تمنع المرض : ان الناس يتعاطون الخمر لأمراض مختلفة ، فاذا كان مايقولون حقا فاضرار الخمرة أشد من تلك الامراض فتكا بالجسم ، فكيف بها إذا كانت لاتشفى منها شيئا ، فان تجارب الأطباء السابقة تثبت أنها لاتترك أثرا فى النسيج والأثر المحقق انما يكون فى النسيج .

وقال الدكتور [سميث الانجليزى] ردا على الأستاذ [ليبج] ان الخمرة يخسر بسببها الجسم جزءا من الحرارة ، بل يزيد ذلك الفقد ، ومن العجيب أن سيدنا محمدا ﷺ أثبت ضرر الخمر فى الحديث الصحيح ، فقد جاء فى صحيح مسلم مع شرح الامام النووى صفحة ٣٦٤ ، أن طارق بن سويد سأل النبى ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها ، فقال انى أصنعها للدواء ، فقال الرسول ﷺ [انه ليس بدواء ولكنه داء] أليس هذا الحديث الشريف مقتضى العلم الحديث . يقول الدكتور [سميث] ان الخمرة تسبب للجسم خسارة جزء من الحرارة . وقد منعت الدولة الأمريكية الخمرة بتاتا بناء على أمر الأطباء ، وعلى الاكتشاف الحديث المنافى لآراء الدكتور [ليبج] ، وهذا الكشف الحديث معجزة اسلامية . وقد أثبت الدكتور [باركس]

ثم [السرجون جيل] مفتش عموم الجيش البريطانى ، والدكتور [هنرى مارتس] وآخرون غيرهم أن الخمر لايشفى المرض ولاينفع الجسم . وقال فى ابطال قولهم ان الحب والفاكهة فيها سم ، ان بعض الناس يقول اذا كان فى الخمر ضرر فذلك ليس خاصا به انه من الحب ، والحب فيه قليل من السم ، فلم أكثر الاطباء من ذم الخمر مع أن السم عام فيه ، وفيما أخذ منه ؟ فأجاب عن ذلك بقوله نعم : ان الخمر من الحب ، ومن ذا يقول ان الحب فيه سم ؟ ان الحب لم يكن سما الا بعد اتلافه ، والخشب لايكون دخانا الابعد اتلافه ، فليس الخشب دخانا وليس الحب خمرا .

ولاجرم أن السم حدث فى الفاكهة والحب بعد اتلافهما ، فالحب لاسم فيه ، وكذلك الفاكهة ، ولقد شاعت هذه النظرية بين الجمهور ، وهى كاذبة وهل تدس الطبيعة التى أعدت لنا الحياة السم فى الجسم . كلا وقال فى ابطال قولهم ان الشرب المعتدل لايضر ان كلمة مشتقة من كلمة لاتينية ، معناها السم ، فالشرب المعتدل يصير عادة لايتخلى الشارب عنها ، فهو يتجرع السم قل أوكثر فويل للشاربين ، وأبطل قولهم : لاضرر فى الخمر الصافى بقوله : ان الخمر الصافى هو سم صاف ، فاذا احتج الشارب بامثال هذا فقد ضل ضلالا مبينا ، لأنه أثبت أن الخمر سم سواءأ كان نقيا ، أومخلوطا فهو ضار للصحة مهلك للأبدان ، ثم ذم الأطباء الذين يتعاطون الخمر والمسكرات ، فقال انه من موجبات الأسف المحزن ذلك المنظر الذى تتقطع له القلوب أسى أن يخضع الانسان العالم أمام جنود الشهوات والرذائل المخزية ، ومما هو جدير بالذكر أن أولئك الأطباء الذين ينصحون بعدم شرب الخمر ويحضون عليه يصبحون هم أنفسهم مغرمين به عاكفين عليه فيكونون صرعى نصائحهم ورماة سهامهم وقتلى علمهم وهم لايشعرون ، أوليس من النتائج الواضحة بالدلائل الساطعة أن أحكامهم فى ذلك أرحت بها شهواتهم وقضت بها أوهامهم ، وهم عن العلم معرضون ألا ساء مايصنعون ، وأخذ يبطل قول الشاربين ان الخمر يمحو الهم والكسل ويجعل الفقير الذى لامنزل له ولا صاحب يشعر بأنه غنى ، أوملك ، وقد أطال فى ذلك . وقال فى الرد عليه ان الانسان اذا سكر حتى أصبح لايشعر عما هو عليه ، وفقد الاحساس ، ونسى ماهو فيه من شقاء الحياة ومتاعبها لعاجز عن الاعتبار بتلك التجارب العالية ، الرفيعة القدر الشريفة المنزلة ، والشعور الشريف الذى نكون فيه البهجة العالية بالحياة الحقيقية ، ان الفرار من الحق جبن ، وأبطل مايدعيه الشاربون من قولهم : ان الخمر لايضرنى ، ودحض حجة أولئك الذين يتعاطون المخدرات ، والمسكرات من الأفيون ، والخمر ونحوها . وقال انهم فريسة له ويأتيهم الموت من حيث لايعلمون ، وأخذ يدحض حجة أخرى للشاربين الذين يقولون ان الخمر عادة انسانية ، وطبيعة بشرية ، وكيف لاونحن لانرى أمة الاشربت الخمرة ، ولاجيلا الاعاقرها ، ولاقبيلا الا كرع منها ، وهاهم أولاء الصينيون ، واليابانيون ، والشرقيون ، والغربيون ، والمسلمون ، والنصارى ، واليهود ، والمجوس ، والبوذيون كل منهم يشربها ، ومن ذا يقاوم الطبيعة ، أومن ذا يقف فى طريقها ؟ فرد عليهم قائلا ، أليس فى هذه الأمم ضالون ، وفاسقون ، وكذابون ، ومنافقون ، ومخادعون ، ولصوص خائنون فكيف يحتج الشارب بفريق السكارى مدعيا أنه طبع فى البشر ، أفلا نأسف لشيوعه ، ونأنف من وقوعه وتكاثره فى بنى الانسان انه من موجبات الحزن والأسف ، لامما يحتج به للاعتذار ، ويسار اليه بالتقليد والاتباع ، هذه هى نبذة من آراء المؤلف كيلوج الأمريكى ، ولاريب أن الحكومات لاتقطع أمرا حتى ينبه العلماء ويطلبه الشعب ، ولولا أمثال مؤلف هذا الكتاب مامنعت أمريكا الخمر ، ومصر أولى بذلك لأنها فى أول نهضتها بين الدول الاسلامية ، ولأن الخمر أضرتها كثيرا ، ولى أمل فى رجال الطب ، وعلماء الأمة أن ينصحوا الشعب بالاقلاع عن هذه العادة ، والله موفقنا الى الاصلاح ، هذه هى الخطبة ذكرتها هنا تذكرة للمؤمنين .

متناقضات الأمم وعجائب الاسلام

تأمل أيها الذكى وتعجب كيف كانت أمريكا النصرانية أوّل من نادى بمنع الخمر وتحريمه ، ودينها لا يحتمه ولقد بلغنا لهذا العهد أن هذه الأمة كسبت من تحريم الخمر سعة فى الرزق و بسطة وأمنا فى البلاد وزادت مجالس العلم وكثر الداخلون فى المعاهد العلمية ، وقلّ القتل والسرقة وازدادت الأموال بنسبة مطردة ، هذا هو سر الأسلام وتحريمه للخمر ، ثم انظر كيف كان المسلمون الذين يحرم دينهم الخمر يعاقرونها صباحا ومساء فى مصر بلادى ، وفى الأقطار الأسلامية الأخرى ، ولم يحرم شربها فى تركيا الابعد أن استقلت البلاد فى هذا العام فتحوها وحرّموها وهى بلاد اسلامية ، ثم أقول : ان المسلمين تركوا العلوم الكونية ونسوها ولم تكن عنايتهم موجهة الا الى الأمور الفقهية ، ومنها تحريم الخمر ، فاذا كانت عنايتنا موجهة للحلال والحرام ، ونسينا العلوم التى فى جمال النجوم وبهجة الزرع والشجر فتأخرنا فى كل شىء وسبقنا الفرنجة ، واختصاصنا انما هو بعلم الفقه ثم ننظر فنرى أن الخمر أوّل من منعها الفرنجة والمسلمون يكثرون منها صباحا ومساء ، فياللّه ماذا جنينا وماذا عملنا ، فلا فى العلوم الكونية نجحنا ، ولا فى الحلال والحرام اتقينا ، والفرنجة سبقونا فى الأمرين ، فما فضل المسلمون اذن ، وعسى أن يكون الوقت أزف كما هو أملنا ، وأن يرجع الى هذه الأمة مجدها ، و يبزغ قمرها ، و يظهر فضلها ، وتأخذ دورها فى العالمين .

تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وذكر أنها نجسة

ثم اعلم أن الأمة أجمعت على تحريم بيع الخمر والانتفاع بها وتحريم ثمنها ، وقد كانوا فى الجاهلية يصيبون الربح من ثمنها ، وفيها أيضا الفرح والطرب ، وهذه من المنافع المذكورة فى الآية حرّمت ، والخمر نجسة العين قد حكم العلماء بنجاستها للزجر عنها .

حكم الميسر

أما الميسر : فهو القمار واشتقاقه من اليسر لأنه أخذ مال بسهولة من غير تعب ، وقد كان فى الجاهلية نوعان : أحدهما أن يخاطر الرجل على أهله وماله ، فأيهما قمر صاحبه ذهب بأهله وماله ، والثانى أنهم كانوا يذبحون جزورا ، ويجزئونها ثمانية وعشرين جزءا ثم يسهمون عليها بعشرة أقداح يقال لها الأزلام والأقلام سبعة منها ذات أنصباء : أولها الفذ بواحد وأعلاها المعلى بسبعة ومجموعها ٢٨ ، وثلاثة لاأنصباء لها وهى الوغد والمنيح والسفيح ، وأما السبعة فهى الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى ، وكانوا يجمعون القداح فى خريطة يسمونها الربابة و يضعونها على يد رجل عدل عندهم يسمونه المجيل فيجيلها فى الخريطة ويخرج منها قدحا باسم رجل منهم ، فأيهم خرج اسمه أخذ نصيبه على قدر مايخرج من القداح وان خرج له قدح من الثلاثة التى لاأنصباء لها لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور كله ، وقيل لايأخذ ولا يغرم ولعلهما كيفيتان وكل مافيه خطر فهو قمار حتى لعب الصبيان بالجوز والقمار وان كان فيه أخذ المال بسهولة فى وقتما فان فيه خطرا وليس مكسبا طبيعيا للنوع البشرى ، وانما المكسب الطبيعى ما كان من أعمال جرت العادة بنفعها واستثمارها ، ومن عجب أن هذا النوع من الخطر عاش مع الانسان من مبدأ الخليقة حتى رأوا آثاره فى الخرائب القديمة من العصور الذاهبة كأن هذا الانسان عشق المغالبة والمخاطرة فابرزها فى صورة القمار غلطا والافانه خلق ليركب كل صعب وذلول و يرقى الى العلا ، و يغالب الطبيعة ، و يذلل المسالك ويقتحم الأخطار و يقامر على روحه وقواه ، و يقول اما هلك واما ملك ، فالقمار من فقهه العالمون ، واغتر

به الجاهلون ، حرّم الله القمار وأوجب السعي للعلا ، والقمار على الأرواح والمخاطرة بالاشباح واقتحام الأخطار هذا هو القمار المرغوب والسبيل المطلوب

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل ● عفاف واقدام وحزم ونائل

وقد ابتليت الأمة المصرية اليوم بالخمر والقمار جلبهما الأوروبيون واستتروا في المحال المقوتة ، واستهووا العقول ، وضحكوا على الذقون ، وانتهبوا الأموال وأخلوا الديار ، وبات الشاربون على شر الأحوال ، وهم غافلون وأولئك ساهرون مستيقظون ، ومما يذكره العلماء عادة في هذا المقام النرد والشطرنج ، فأما النرد فيحرم اللعب به ، قال رسول الله ﷺ من لعب بنرد أونردشير فقد عصى الله ورسوله . أخرجه أبو داود ، وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : النرد والشطرنج من الميسر ، ومذهب أبي حنيفة في الشطرنج أنه حرام برهن وبغير رهن ، ومذهب الشافعي أنه مباح اذا خلا الشطرنج عن الرهان واللسان عن الطغيان والهذيان والصلاة عن النسيان اه .

أقول : ولقد أصبح اليوم عمل كثير من الطبقة المتعلمة في بلادنا ، ولو كان العلم محبوبا لهم لكانوا به فرحين وعليه عاكفين ، فليحبب العلماء العلم للشبان باظهار الجمال والمحاسن في هذه العجائب الكونية لتصدهم عن ضياع أوقاتهم ، وذهاب مجدهم وهم نائمون لاعبون اه .

ولما كان في القمار نوع من اطعام الفقراء لأن تلك الأسهم كانوا يعطونها للفقراء ويفتخرون بها ويعدون من لم يتقدم لذلك برما أي بخيلا شحيحا أعقبها الله بآية (ويسألونك ماذا ينفقون) الخ فأجيب بأن الذي ينفق هو العفو ، وهو ما فضل عن قدر الحاجة والتصدق عن ظهر غنى فالعفو نقيض الجهد .

روى أن رجلا أتى النبيّ ﷺ ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغانم ، فقال خذها مني صدقة فأعرض عليه الصلاة والسلام عنه حتى كرر عليه مرارا ، فقال هاتها مغضبا فخذفها خذفا لوأصابه لشجه ثم قال يأتي أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى ، فكأن الله عزوجل لما منع التصدق بطريق مجهول وغير منظم ، وهو القمار الذي فيه منفعة الفقراء ، ونفع الأغنياء كما يفعل اليوم عند فعل المبرات أمر أن يتصدق الناس بما فضل عن حاجاتهم بطريق منظم واضح معلوم السبيل ولذلك أعقبه بقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ، في الدنيا والآخرة) .

وأما مسألة اليتامى فذلك أنه لما نزل قوله تعالى «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما» الآية اعتزلوا اليتامى ومخالطتهم فأنزل الله هذه الآية (ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ، ولوشاء الله لأعنتكم ان الله عزيز حكيم) العنت المشقة ، وحاصل الأمر يرجع الى أن المخالطة مرغوب فيها مطلوبة على شريطة ارادة اصلاحهم ، واجتناب الطمع فيما عندهم ، والله أعلم بما في القلوب ، ولوشاء الله لكلفكم مايشق عليكم وعليهم ، فلم يجز المخالطة ان الله عزيز غالب يقدر على الاعنات حكيم يحكم بما تقتضيه الحكمة ، ثم أخذ يشرح نكاح المشركين فحرم نكاح كل كافر كتابي وغيره ، وكذلك حرم نكاح كل كتابية ومشركة وخصصت الثانية بآية ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، والمراد بالعبد والأمة الرجل والمرأة لأنهما عبدا الله ، فهذا ملخص قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة) اشتركت معكم في الرأي والدين وتشابه الأخلاق والعادات الدينية (خير من مشركة ولو أعجبتكم) لأن الجمال الظاهري لاثبات لمحبته الا اذا قوي بالباطني ، فالظاهر كالزهرات والباطن كالثمرات والزهرات ذابلات (أولئك يدعون الى النار) وأنتم تدعون الى الجنة ، واختلاف المشارب داع لاختلاف النفوس ، وهو سبب الأذى ونكد العيش (والله يدعوا إلى الجنة ، والمغفرة باذنه) ولما كان

هذا

هذا القانون نظاميا خلقيا أفاد شرفه ، فقال (ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون) .

ولما كانت مسألة الحيض مختصة بالقسم عقب ماذكر بها ، فقال جل جلاله (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين) كان الناس فى الحيض قسمين ، فاليهود كانوا يعتزلونهن فى كل شيء حتى فى الأكل ، وكان النصارى يجامعونهن ولا يبالون بالحيض ، وكانت العرب كاليهود ، فسأل أبو الدحداح وجمع من الصحابة النبي ﷺ فنزلت ، والمحيض الحيض ، يقول عز وجل : ان الحيض أذى تنفر منه النفس ويستقذره الطبع ويؤذى من يقربه فلا تجامعوا النساء فى المحيض حتى يطهرن : إما بالاغتسال كمذهب الشافعية ، ولما بانقطاع الدم فحسب كمذهب الحنفية ، وعند ذلك يحل الجماع فى مكان الحرث لاغيره ، وأجمع العلماء على جواز الاستمتاع بالحائض بما فوق السرة ودون الركبة ، ويحرم على الحائض الصلاة ، والصوم ، ودخول المسجد ، ومس المصحف وحمله ، وعليها قضاء الصوم دون الصلاة .

ولما كان الشرع موقظا للنفوس منبها للعقول لم يدع فرصة تمر الا ذكر ، ولا اجابة عن سؤال الا وعظ وحذر ، فانظر كيف تسامى عن المسائل الفقهية الى المعانى الحكمية وتعالى عن الأذى والحيض بعد الاجابة إلى الحكمة التى أودعها ، والخلقة التى أبدعها ، فقال أيها الناس ما الشهوات الا آلات التناسل وما نساؤكم الا مزارع وما أنتم الا زارعون فإياكم أن تكون مقاصدكم الشهوة فحسب ، وانما يراد تناسلكم ، فالشهوات مقصودة لغيرها ، وما أريد لسواه لايليق أن يزاد فيه عن الحاجة ، وليكن أشرف مقاصدكم وأهم أغراضكم الولد ، فما الشهوات الا مقدمات ، والمنافع نتائج ، وكما أن ثمرة الغذاء البقاء ، هكذا ثمرة الجماع بقاء النسل ، وكأنه نبه أن القصد من الطهارة والنجاسة ، وأحكام الشرع ماهو شريف من بقاء الأجسام وطهارة الأرواح .

ولما فرغ من أحوال الزواج ، وأحكام الحيض أخذ يبين أحوال الطلاق على الترتيب الطبيعى العجيب وابتدأ بذكر الحلف بالله وانه لاينبغى أن يجعل عرضة وهو :

(المقصد العاشر)

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

ايضاح

(العرضة) من قول الرجل قد جعلتنى عرضة للومك ، وقال الشاعر * ولاتجعلينى عرضة اللوائم *

وقوله (أن تبروا) تفعلوا البر فتكونوا بررة ، اعلم أن المؤمن الذى يعرف الله جل جلاله يعظم جلاله فى قلبه ويمتلئ هيبة لعظمته وتعظيما لقدرته فينزهه عن أن يمر اسمه بلسانه فى محقرات الأمور وصغائر الأشياء ، بل يتعود الصدق فى القول حتى يثق به الناس ويعتقدوا أنه من الصادقين ، وإذا كان من يحب أحدا من المخلوقين يغار عليه من أن يكون اسمه عرضة للقائلين ، فما بالك بالاله خالق السموات والأرض كيف يقرن اسمه بالأمور المحقرات فيحلف باسمه على متاع أو فعل أو ترك ، واعلم أن من اعتاد الحلف فى صغائر الأمور

وكبارها لايلبث أن تصيرله عادة محكمة وجبلة راسخة ، فيسبق لسانه للحلف صدقا وكذبا حقا وباطلا ، فيستحق مقت الله وغضبه ويحتقره الناس فلا يثقون بقوله ولا أيمانه إذا حلف فيخسر رضا ربه وثقة الناس به ، وإذا كان أولئك الذين يكثرون القول يزدريهم الناس ، فما بالك بمن يتجشم أو عرمسالكه ويقتحم هضابه من الحلف والأيمان الصادقة والكاذبة فأولئك شرمكانا ، وأوهى مكانة ، وأرذل مرتبة ، يقول الله « ولا تطع كل حلاف مهين » ويقول عليه الصلاة والسلام [اليمين الغموس] التي تغمس صاحبها في نار جهنم لكونها فاجرة [تترك البيوت بلاقع] أما أولئك الصادقون في أقوالهم الذين لايحلفون فهم بررة بتعظيم مقام الله عز وجل متقون ماتحل بتعظيم مقامه وجلاله مصلحون بين الناس لثقة الناس بهم فتقبل حججهم لصدق أقوالهم ، وقال تعالى « واحفظوا أيمانكم » وكان العرب يمدحون الانسان على الاقلال من الحلف ، قال الشاعر :

قليل الألايا حافظ ليمينه ❊ وان سبقت منه الألية برّت

أي لاتجعلوا الله عرضة لأيمانكم لأجل أن تكونوا بررة مصلحين بين الناس لوثوقهم بكم ، وللآية معنى آخر ، وهو أن العرضة الشيء المانع للناس من السلوك والمرور ، واعترض فلان كلام فلان جعل كلامه معارضا لكلامه : أي مانعا من تثبيته وعليه ، فالمعنى ولا تجعلوا الله عرضة ومانعا بسبب أيمانكم من (أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) وذلك أن الرجل كان يحلف على ترك الخيرات من صلة الرحم ، واصلاح ذات البين ، فاذا طلب منه ذلك يقول أخاف الله ان حنثت يميني فيترك البر ليكون بارًّا بيمينه ، فنزلت هذه الآية وأمر الانسان أن لا يجعل الله بسبب الحلف مانعا من تلك الخيرات والصلات والصلح بين الناس وحينئذ يحنث ويكفر عن يمينه ، وقوله (والله سميع عليم) أي يسمع أيمانكم ويعلم نياتكم من تعظيم الله والاعراض عنه ، وقوله (لايؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) قال أبو حنيفة : اللغو أن يحلف الرجل بناء على ظنه الكاذب ، والمعنى لايعاقبكم بما أخطأتم فيه من الأيمان ، ولكن يعاقبكم بما تعمدتم الكذب فيه (والله غفور) حيث لم يؤاخذكم باللغو (حليم) حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربصا للتوبة .

تفصيل الكلام على ثلاثة مواضيع من الآيات السابقة

الميسر ، والطهارة ، وصون اللسان عن الحلف

الأول الميسر قد عرفت طريقة الميسر عند أسلافنا العرب ، وكيف كانوا يذبحون جزورا ويقسمونه ٢٨ جزءا ، ويجعلون لكل قدح منها جزءا أو أجزاء ، والقداح عشرة سبعة منها لها أنصباء ، فالأول ١ والثاني ٢ وهكذا إلى السابع ، وهو القدح المعلى فله ٧ ومجموعها ٢٨ وهذه القداح والسهام متى أخذت أنصباؤها من الجزور تصدقوا به على الفقراء ، ولم يكن ذلك باب ربح بل كان من باب المفاخر ومع مافي هذا النوع من العطف على الفقراء ، حرمه الله تعالى ، فان المدار في تربية الأمم على تقوية الارادة والعزيمة ، فانظر إلى ماطرأ على الأمة الاسلامية بعد ألف وثلثمائة وأربعين سنة ، انظر كيف تنزلت أخلاق بعض الأمم الاسلامية التي نزل الفرنج بساحتها ، لقد ابتدعوا من الفنون الربح مايذيب المهج ، ويغضب الرب ، ويزرى بالشرف الرفيع والمجد المنيع ، والحنيفية القعساء ، وأهل الشريعة السمحاء .

ذكر بعض الميسر في بلادنا المصرية اليوم

سباق الخيل ، رمي الحمام ، البترو ، يانصيب [اللوتريه]

اعلم أني لما وصلت الى هذا المقام عند طبع التفسير أحببت أن أشاهد بنفسي بعض تلك الأماكن التي

ابتدعها الفرنجة فى مصر ليكون قولى عن مشاهدة فصاحبنى الباشاضلان مفتشان برقبان اللعب من وزارة الداخلية ، وهما من المغرمين بالعلم الباحثين عن الحقائق فتوجهنا الى محل صيد الحمام بشبرا ويسمونه [التيرو] كلمة طليانية يوم ١٨ مارس سنة ١٩٢٣ م فوجدنا مكانا متسعا فى الفضاء عليه سور فى صدره كراسى الجلوس وهناك أدوات الرمى ، وترى الرماة هناك مصطفين فى مدخل المكان ، وقد كانوا فى ذلك اليوم ١٥ راميا كل منهم يحمل بندقيتـه يرمى بها ، وهناك أوراق معلقة بالحائط ، وباسم كل واحـد من هؤلاء الرماة جلة فيأتى المقامر ويختار ورقة يدفع ثمنها وتكون من الورق الخاص بمن يراه غالبا من الرماة ، ومتى أخـذت الأوراق يبتدئ الرمى .

صفة الرمى : قد كانوا من قبل يرمون الحمام المحبوس فى أقفاصه فيطيره صاحب المحل ، وهو الافرنجى ويرمى الرماة واحد بعد واحد ، فانه يطير حمامة ، فيضرب زيد ويطير أخرى ، فيضرب جرجس ، فمن كان أكثر اصابة من هؤلاء الرماة كان هو الفائز وحينئذ يكون ما اجتمع من النقود كلها مصروفا لمن أخذوا باسم هذا الفائز يقسمونه بينهم ويحرم الباقون ، ثم يعاد اللعب ويعاد سحب الورق ، وهكذا .

ولما رأى رجال الحكومة أن ضرب الحمام فيه البلادة للنوع استبدلوا به أطباقا مصنوعة من الزفت والجير والأسمنت وهناك آلة شاهـدتها ترفع تلك الأطباق للجو فتطير كما يطير الحمام ويضرب بها أولئك الرماة كما يضربون الحمام ، وهناك محل آخر للصيد ، وهذان المكانان يكسبان فى السنة ما بين ٢٠ و ٢٤ ألف جنيه ، وبيان ذلك أن المقامرين كلما وضعوا نقودا كان لصاحب المكان منها اثنا عشر ونصف فى المائة من هـذا المبلغ والحكومة تأخذ من هذا ثلاثة ونصف فى المائة توزعها على الجمعيات الخيرية منها المصرية نحو الثلثين والفرنجية نحو الثلث ، ثم ان اللاعب كلما لعب دورا فقـد بعض ما معه حتى يرجع خاوى الوفاض صفر اليدين لا يملك شروى نقير ، وهؤلاء الرماة كل من فاز منهم يعطى جنيها واحدا من يد صاحب المحل وبعضهم شرقيون وبعض منهم غربيون .

(١) سباق الخيل عندنا بالبلاد المصرية

ويقرب من هذا سباق الخيل ببلادنا ذلك أن المقامرين يأخذون الورق كما تقدم فى الرمى ، والمال المجموع يأخذ منه صاحب المحل نحو العشر ، وليس للحكومة الا مائة جنيه فى كل سباق ، وصاحب المحل الافرنجى هو الذى يعطى الفرس السابق جائزة ، فأما النقود فانها تفى بتابع الرهن كما مرّ فى السابق ، والذى يركب هذه الخيل فى السباق سائسوها أوغيرهم ، وليس لأصحاب الخيل من نصيب فى فضيلة الركوب بل ذلك الربح .

(٢) السبق والرمى فى الاسلام ومقارنته بما عندنا اليوم

ان فى الكتب الفقهية بابا واسعا يسمى [كتاب السبق والرمى] كما يقولون كتاب الصلاة . وقد جاء فيه ان المسابقة سـنة نبوية باجماع المسلمين لقوله تعالى « وأعـدّوا لهم ما استطعتم من قوّة » والقوّة هى الرمى ، ولقوله ﷺ [لا سبق الا فى خف ، أو حافر ، أو نصل] فيسابق الناس على الخيـل والابل والفيلة ويترامى بالسهام والرماح والأحجار والمنجنيق ، وذلك هو الذى كان معروفا عند أسلافنا المسلمين . وقال ﷺ [ارموا بنى إسماعيل فان أباكم كان راميا] وقد كانوا يتعاقدون فيما بينهم على المسابقة برهان على شرط أن يكون ذلك مما يعين على الجهاد ، ومن فاز أخذ رهن صاحبه ، وقد كان ذلك للتشويق للمعالى والتعويد على اقتحام الأخطار ونيل المجد وحفظ البلاد ، فانظر كيف غفل المصرى عن ماضيه وحاضره . وهو جاهل عما كان فى تاريخ أجداده من العزّ والأنفة والشمم . فأصبح الرامى الآن أجيرا عند صاحب المكان المعدّ للصيد ، وهو الذى يأخذ مال

للظاهرين . ثم ان المقامرين يكسب بعضهم من بعض . وليس لهم فى الرمى أدنى نصيب .

فانظر كيف جهل الرامى فصار أجيرا . وجهل المقامرين (١) ليس له حظ فى الرمى ولا فى السبق (٢) وان صاحب المحل هو الذى يستنزف ثروتهم جميعا وهم غافلون . والذى أراه أن يجعل السباق والرمى فى كل قرية و بلدة بنظام تام برهن و بغير رهن على الطريقة الاسلامية الشريفة و يمرّن كل شاب مسلم على ذلك تقوية لجسمه وتشجيعا لحماية البلاد وحفظا للديار من اغارة الأعداء . أما هذا الذى رأيته فانه يورث البطالة والكسل ويخرّب البلاد ، مغنٍ للفرنجة الذين هم بذلك فائزون .

(٣) النوع الثالث يانصيب اواللوتريه

وكيفيته أن يبيعوا أوراقا كل ورقة بقرش مثلا ، وهذه الأوراق ربما بلغت مئات الآلاف ، و يسمونها [نمرا] وبعد جمعها يسحبونها كما كانت تفعل العرب قبل الاسلام ، ويجعلونها فى صندوق فتخرج منها مئات تكسب كل واحدة منها جنيها واحدا مثلا ، وعشرات تكسب الواحدة منها من (١) إلى عشرة ، وآحاد تكسب كل واحدة منها عشرات الجنيهات ، وواحدة فقط تكسب مئات الجنيهات ، وأما بقية النقود ففى جيوب الفرنجة ، وقد نشروها فى بلادنا ، وأعتها بعضهم للاحسان على فقرائهم كما عند أسلافنا حذو النعل بالنعل :

إن سباق الخيل والرمى قد مسخا مسخا فأصبحا عارا على الأمة الاسلامية ، أصبح الرمى وسباق الخيل مرتزقا للفرنجة ، فيأخذون عشرات الألوف من جيوب المصريين ، ويا ليت الأمر وقف عند ما ذكرته بل هناك محال فيها أنواع من القمار سرية يلعب فيها الأغنياء وأهل الوجاهة والعظماء ، وهم كالسابقين يضيع مالهم بمئات الألوف فى يد الاوروبيين ، وهم جميعا غافلون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، ولعمرك ما شبهتهم حين رأيتهم إلا بنعاج يجز صوفها ، ويؤكل لبنها وسمنها ، ويشترى البرسيم من ذلك الثمن ، يكسب زيد من المقامرين جنيها وهولم يأخذه إلا من جيوب أصحابه المصريين وصاحب المحل الافرنجى هو الفائز بثمن ما يدفعون فى كل مرة من مرات اللعب ، فيبنى القصور والدور فى البلاد ، ويخرب المصرى ، ويبيع ما ورث من آبائه المثرين ، واذا كان أجدادنا العرب قد كانوا يتقامرون للفضل على الفقير كما فى [يانصيب] وقد حرم عليهم بل أمروا بالانفاق اختيارا ، فكيف نقامر قمارا لا حظ للفقير فيه من مالنا ؟ وإنما الحظ للأجنبى يأخذ المال ونحن غافلون ، ولم يجز فى الاسلام الرهان إلا فى السباق ، وفى الرمى على الطريقة الشريفة ، أما هذه فهى مضيعة للمال ، مخجلة للأمة ، والمال فى يد الأجانب ، والأجانب هم الفائزون ، ليكن السبق والرمى فى سائر البلاد ، فى القرى ، وفى المدارس ، وفى الجامعات الدينية ، انها من الدين ، إن لها فى الفقه كتابا ككتاب الصلاة ، وليست لجماعة من الفرنجة يضحكون على أذقان المسلمين ، المسلمون فيها مقصرون ، ولقد أديت ما علىّ ، والله هو الولىّ الحميد « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون »

المسئلة الثانية : الطهارة

يقول الله عز وجل « ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » أى يحب التوابين من الذنوب ويحب المتنزهين عن الفواحش والأقذار كمخالطة الحائض مخالطة خاصة .

فانظر كيف قرن التوابين بالمتطهرين ، وجعل حب الله لهما معا ، ولم جعل التباعد عن قذر الحيض وملامسة الحوائض من موجبات حب الله تعالى ، وكيف كان للتوبة ذكرمعها ؟ فاعلم أن هذا هو السر الذى عرفه علماء

الشرق قديما والغرب حديثا ، أما أهل الشرق فقد شرحه الامام الغزالى منهم أوفى شرح ، وجعل العلاقة تامة مابين الطهارة الظاهرية والطهارة الباطنيـة ، وأن الظواهر تدعو حثيثا للبواطن ، وكما كان الانسان شديد العناية بطهارة جسمه ونظافة ظاهره جر ذلك الى العناية بالباطن ، وليس المقصود من هذا أن كل من كان أنظف جسما كان أنور عقلا . كلا . والا فالعروس إذن تكون أطهر العالمين قلبا ، وانما جرت العادة أن من عجز عن الصغائر فهو عن الكبائر أعجز ، فمن أعجزه ظاهر جسمه عن النظافة والعناية فانه عن العناية بقلبه وعمارة نفسه أعجز ، ولذلك ورد « أصلحوا ظواهركم فعسى أن تصلح بواطنكم » فظواهر الجسم أقرب لنا من بواطن النفس ، واذا كان الانسان يجهل ظواهر القرآن فهو عن بواطنه أعجز ، فهكذا من لم ينظف ظاهره عجز عن نظافة باطنه ، ونظافة الباطن ونزاهته شاقة صعبة المسالك ، وعرة الطرق ، وهى المقصودة بالذات من كل عبادة وطهارة وزكاة وصلاة وحج وصيام ، كل تلك الظواهر ليس لها نهاية ولاغاية إلا جال البواطن . وكيف تطير النفس الى العلا ، أو تنظر لها محاسن هذا العالم الجيل والقلب مشحون بالكبر والاعجاب بالنفس وبالحقد ، والحرص ، والطمع ، والتملق ، والرياء والغيظ ، والكد ، وضياع الوقت ، والكسل ، والاسراف فى الكلام ، وفى الخصام والجدال ، كل ذلك اسوار مانعة ، وحصون لايقدر العلم أن يهدمها فيصل للنفس ، وجسور ليس فيها منافذ لسقى أرواحنا ، وأمراض مانعات من الشهوة لتعاطى الغذاء الروحى اللذيذ ، والفاكهة التى ليست مقطوعة ولاممنوعة .

تلك الأمراض النفسية التى تغشى على القلوب منعت كثيرا من النفوس الانسانية أن تتمتع بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جنة العارفين هى جنة العلم ، جنة الحكمة ، ومن لم يدرك تلك البهجة فى الدنيا مات وليس له حظ ان كان صالحا إلا فى الجنة المحسوسة وهو غافل ساه على قدر ما نال فى الحياة .

هذا هو الذى يدور عليه كلام حكماء الاسلام وكبرائهم ، وكبار الصوفية فيهم ، وهم أهل الشرف ، وذلك أنسب بقوله تعالى : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

وأما ما قاله علماء الغرب فاليك منها ماقاله العلامة [بنتام] الانجليزى فى أصول الشرائع ، وقد ترجم هذا الكتاب الى كثير من اللغات الاوروبية وهو مترجم الى اللغة العربية عن الفرنسية ، ترجمه المرحوم [أحمد فتحى باشا زغلول] . قال فى صفحة ١١ من الجزء الثانى عند الكلام على المسجونين :

النظافة والصحة

ذهبوا الى أنه يجب تطهير المسجون قبل ادخاله السجن ، وأن يحاط ذلك بصلاة أو موسيقى خشنية ليكون مؤثرا على فكره ، ثم يلبس لباسا خشنا أبيض لينظر الى حفظه نظيفا ، ويحلق رأسه ، أو يقص قصا جيدا ، ثم ينبغى استحمامه فى أوقات معينة ، ويلزم منع التدخين وكل عادة لاتليق بمنزل نظيف ، ثم تغير الملابس فى أوقات مخصوصة . الى أن قال : على أنه يوجد بين النعيم الجسمى واعتدال الملكات النفسية ارتباط كثير لاحظه كثير من المؤلفين ، فان النظافة تبعد الكسل ، وتحمل المرء على التحرز فى أعماله ، والتمسك بالوقار فى أطواره . والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا ، حتى ان شرائع المسلمين حثت عليها كليا وجعلتها من الواجبات الأولية ، فمن لم يصدق بتلك الأديان لاينكر تأثيرها الجسمانى .

هذا ما كتبه العلامة [بنتام] المشترع الانجليزى فى كتابه [أصول القوانين] أى تلك القواعد الكلية التى من ضوئها تقتبس القوانين ، ثم يحفظها تلاميذ مدارس الحقوق ، ثم يطبقونها على الحوادث فى سائر الأمصار فهو إذن فوق واضع القانون وواضع القانون فوق القاضى . انظر أليس قوله : « ان بين نظافة الجسم واعتدال للملكات

النفسية ارتباطا ، وأن هذا لاحظه كثير من المؤلفين ، هو بعينه ما ذكره علماؤنا من أن نظافة الظواهر تدعو حتما الى نظافة البواطن التي هي المقصود الأعظم . أوليس ذلك بعينه هو قوله تعالى هنا : « إن الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهرين » فذكر لفظ يحب مع التوبة وهي راجعة الى طهارة الباطن وسلامة النفس وأعاد ذكر الحب ثانيا مع الطهارة وهي تشمل الحسية والمعنوية . وقدّم الطهارة الباطنة لأنها هي المقصودة . ثم أتبعها طهارة الجسم بحسب اللفظ لأنها وسيلة . أليس اقتران الظاهر بالباطن في الآية هو بعينه ما قاله حكماء الاسلام في الشرق وحكماء الشرائع والقوانين في الغرب . هذا هو سرّ قوله تعالى : « إن الله يحبّ التوّابين ويحب المتطهرين » .

المسألة الثالثة : تنزيه الله عن الحلف باللسان

لقد ذكرنا للآية وجهين : أحدهما وهو المقصود هنا أن العرضة من قول الرجل للرجل : جعلتني عرضة للومك . فاذا نطق لسانه بالكلام وأكثر من الحلف وجعل الله عرضة لأيمانه كذبه الناس وضاعت ثقتهم به ولم يصلح لأن يصلح بينهم ، فأما اذا ما احترس من الكلام ، وحفظ لسانه ، وصان مقامه ، وكان موقرا في نفسه ، صار قوله حجة . وصار تقيا ، لأنه اتقى شرّ لسانه ، والغوائل التي تنشأ منه ، وأصبح وقورا يمكنه الاصلاح بين الناس . هذا هو المعنى الذي ذكرته فيما تقدم .

أقوال علماء الشرق والغرب فيما يناسب هذه الآية

قد شرح علماء الاسلام قديما آداب النفس ، ومن أهمها آداب اللسان ، وليس كلامي الآن في الحلّ والحرمة ، ولكن كلامي في النتائج والفوائد الدنيوية المشاهدة على الوجوه ، وفي الأخلاق والعوائد . يقول علماؤنا كالامام الغزالي : « إن الصمت والوقار ، وغض البصر عن المحرّمات يعطي الوجه سمة الكمال ، ويكون عليه مهابة وبهاء » فان هذه الظواهر الجميلة من حسن السمت والوقار وصون اللسان تؤثر في القلب سكونا عن كل مالافائدة منه ، فللكلام أثر في القلب ووقع كوقع السهام خيرا أوشرّا ، ومعلوم أن جميع الأمم تربي الجند بالحركات الدالة على اطاعة الرؤساء ، وهذا مؤثر في العقول ، موجب للطاعة ، فان الباطن لوح الظاهر ، يكتب فيه مايملى عليه ، ألاترى أن تعوّد الانسان على تحسين خطه زمن التعلم يولد في النفس ملكة تدعوه الى كتابة ما خزنته النفس من تلك الرقوم على حسب ماتقبله من الجوارح ، وهكذا الآلة الحاكية [الفونوغراف] تقبل الصوت أوّلا فيرتسم على لوحتها رسما خفيا بحفر الابرة ، ثم تعيد الصوت حاكية كما يحكي الجبل صوت من رفع صوته في جواره . هذا بعض ماقصده علماء الاسلام أوضحته مختصرا مع التصرّف في بعض الأمثلة . وبعد أن شرح الآداب الواجب سلوكها مع الله في الحلف شرع عزّوجل يبين حكم الايلاء وهو نوع من الحلف :

(المقصد الحادي عشر)

أحكام الإيلاء والطلاق ، فللايلاء قوله تعالى :

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *

يقال آلى عليه اذا حلف ، وعدّى هنا بمن لتضمنه معنى البعد ، والايلاء أن يحلف الرجل أن لايطأ زوجته

مدة تزيد على أربعة أشهر فهو مول فيتربص به أربعة أشهر فان فاء : أى رجع ووطئ فان الله غفور له إثم حنثه ان كفر عن يمينه ، واثم ماحصل بايلائه من ضرار ، فان لم يفئ الى الوطء وذلك بعد مطالبة الزوجة وعزم الطلاق أى قصده أوتحققه بالايقاع (فان الله سميع) الطلاق (عليم) بالنيات والأغراض .

فان لم يفئ ولم يطلق طلق عليه الحاكم واحدة عندالشافعى وعمر وعثمان ومالك وأحمد ، وعند ابن عباس وابن مسعود وأبى حنيفة تقع طلقة بائنة متى مضت المدة ، وقال سعيد بن المسيب والزهرى تقع طلقة رجعية ، قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية اذا طلب الرجل من امرأته شيئا فأبت أن تعطيه حلف لايقربها السنة والسنتين والثلاث فيدعها وشأنها لا أيما ولاذات بعل ضرارا وتنكيلا ، وجرى عليه المسلمون فى ابتداء الاسلام فنزلت هذه الآية لترفع الظلم وليكون عدلا . ولما كان الايلاء جامعا لليمين والطلاق جاء بينهما فكان اليمين ، ثم الايلاء ، ثم الطلاق ، فقال :

(المقصد الثانى عشر)

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ *

التفسير اللفظي

قال الله تعالى (والمطلقات) واحدة أواثنتين (يتربصن بأنفسهن) ينتظرن بأنفسهن فى العدة فلا يتزوجن (ثلاثة قروء) جمع قرء ، وسيأتى تفصيله فى الايضاح (ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) من الولد والحيض استعجالا فى العدة وابطالا لحق الرجعة (ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر) هـذا وعيد شديد لتأكيد تحريم الكتمان وايجاب أداء الأمانة فى الاخبار عما فى الرحم من الحيض أوالولد (و بعولتهن) أى أزواج المطلقات (أحق بردهن) الى النكاح والرجعة إليهن ، ولكن اذا كان الطلاق رجعيا ، وقوله (فى ذلك) أى فى زمان التربص (ان أرادوا) بالرجعة (اصلاحا) لما بينهم و بينهن واحسانا اليهن ولم يريدوا مضارتهن (ولهن مثل الذى عليهن) ويجب لهن من الحق على الرجال من النفقة ، وحسن العشرة ، وترك المضارة مثل الذى يجب لهم عليهن من الأمر والنهى (بالمعروف) فى احسان الصحبة والمعاشرة (وللرجال عليهن درجة) فضيلة فى العقل والميراث والدية والشهادة بما عليهم من النفقة والخدمة (والله عزيز) بالنقمة لمن ترك مابين المرأة والزوج من الحق والحرمة (حكيم) فيما حكم بينهما (الطلاق مرتان) أى طلاق الرجعة مرتان (فامساك) قبل التطليقة الثالثة (بمعروف) بحسن الصحبة والمعاشرة (أوتسريح باحسان) أو يطلقها الثالثة باحسان يؤدى حقها (ولا يحل لكم) أيها الأزواج أوالحكام ، لأنكم الآمرون بالأخذ والايتاء عند الترافع إليكم (أن تأخذوا مما آتيتموهن) أعطيتموهن من المهر (شيئا إلا أن يخافا) يعلما الزوج والمرأة عند الخلع (ألا يقيما حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (فان خفتم) علمتم (ألا يقيما حدود الله) فيما بين المرأة والزوج (فلاجناح عليهما) أى فلاجناح على الرجل فيما أخذ ولاعليها فيما أعطت (فيما افتدت به) أن يأخذ ما اشترت المرأة نفسها به من الزوج بطيبة نفسها (تلك حدود الله) أى ماحدّ من النكاح واليمين والايلاء والطلاق والخلع وغير ذلك (فلا تعتدوها) فلاتجاوزوها بالمخالفة (ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) الضارون أنفسهم (فان طلقها فلاتحل له من بعد) من بعد التطليقة الثالثة (حتى تنكح) تتزوج (زوجا غيره) و يدخل بها الزوج الثانى (فان طلقها) الزوج الثانى (فلاجناح عليهما) على الزوج الأول والمرأة (أن يتراجعا) بمهر ونكاح جديد (إن ظنا) علما (أن يقيما حدود الله) أحكام الله فيما بين المرأة والزوج (وتلك حدود الله) هذه أحكام الله وفرائضه (يبينها لقوم يعلمون) يفهمون مابين لهم وقوله (واذا طلقتم النساء) الى آخر الآيات تفسيرها ظاهر فى الايضاح الآتى :

ايضاح

إن فى هـذه الآيات لعظات جمة ، وفوائد عجيبة ، مزج فيها الوعظ بالأحكام ، والأخلاق بالفقه ، وههنا من الابداع فى القول ، والترغيب فى المودة ، والترهيب من الاضرار مالانظير له ، ائتمن النساء على أرحامهن فأتى بالأمر بصورة الخبر كأنهن يتربصن ، أى ينتظرن و يرتقبن بلا وازع من خارج ، ولا آمر ، وذلك هو التربية العالية ، بحيث يكون المرء على نفسه رقيبا تسمو فيه ملكة قوة الارادة وثبات العزيمة حتى ان المرأة لايعوزها مرشد للتربص فى الاقراء ، والقروء جمع قرء ، وهوالحيض أوالطهر ، والبعولة مصدر كالعمومة والخؤولة أى أهل بعولتهن ، والعضل المنع والتضييق . قال أوس بن حجر :

وليس أخوك الدائم العهد بالذى ✿ يذمك ان ولى و يرضيك مقبلا
ولكنه النائى اذا كنت آمنا ✿ وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

أى ضاق ، يقول الله : على المطلقات أن ينتظرن ثلاثة قروء ، أى أطهار أوحيضات ، وعلى الأول جمع من

الصحابة كزيد بن ثابت وابن عمر وعائشة والزهرى ومالك والشافعى ، وعلى الثانى عمر وعلى وابن مسعود وابن عباس وأبو موسى وأبو الدرداء والضحاك والسدّى وأبو حنيفة رضى الله عنهم أجمعين ، وأصل القرء الوقت يقال : جاء فلان لقرئه : أى وقته ، ولاجرم أن أيام الحيض وقت وأيام الطهر وقت ، وليس الخلاف عظيما بين الأئمة رضى الله عنهم فكيف والأطهار تتبعها الحيضات ، ولكن ظهور الثمرة فى أحوال قليلة ، والمذهبان الكليان متشابهان فى حفظ الأنساب ، ألاترى أن الاطهار والحيضات دالات على براءة الرحم من الولد ، وهذا فى المدخول بها من ذوات الأقراء ، فأما الكبيرة التى أيست والصغيرة ، واللائى لم يحضن فعدّتهن ثلاثة أشهر والمتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشر ، وعدّة الحامل أن تضع ، فهذه الآية فى حال خاصة .

ثم أبان أن الطلاق الذى تصح الرجعة بعده مرتان ، فاما امساك بمعروف وحسن معاشرة ، أو تسريح باحسان ، وذلك بأحد أمرين : إما أن يترك رجعتها الى تمام عدّتها ، واما أن يطلقها الثالثة ، وهنا أتى بحكم الخلع ، فقال « ولايحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألايقيما حدود الله » الآية ، ذلك أن جميلة بنت عبدالله بن أبىّ ابن سلول كانت تبغض زوجها ثابت بن قيس ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : لا أنا ولاثابت ، لايجمع رأسى ورأسه شىء ، والله ما أعتبه فى دين ولاخلق ، ولكنى أكره الكفر فى الاسلام وما أطيقه بغضا ، انى رفعت جانب الخباء ، فرأيته أقبل فى عدّة من الرجال ، فاذا هو أشدهم سوادا ، وأقصرهم قامة ، وأقبحهم وجها . فنزلت آية الخلع : فقال ﷺ : لجميلة أتردّين عليه حديقته ؟ قالت أردّها وأزيد عليها . فقال صلى الله عليه وسلم : أما الزائد فلا ، اقبل الحديقة وطلقها تطليقة . وهذه الآية خطاب للحكام وللأزواج .

يقول الله : ولايحلّ لكم أيها الحكام والأزواج أن تأخذوا مما آتيتموهن من المهر شيئا إلا أن يخافا ألايقيما حدود الله . إن هذه الآية جاءت تالية الطلقتين إذ جاءت بعد المرّتين ويليها طلقة ثالثة وهى قوله : « فان طلقها فلا تحلّ له من بعد » فهى فسخ عند ابن عباس وطاوس وعكرمة وأحمد واسحق وأبى ثور . وعند الشافعى فى القديم ، وطلاق عند عثمان وعلىّ وابن مسعود والحسن والشعبى والنخعى وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزهرى ، والشافعى فى الجديد ، وأبى حنيفة ومالك وسفيان الثورى .

اعلم أن للزوج مع المرأة بعد الطلقة الثانية أحوالا ثلاثة : (١) اما أن يراجعها (٢) واما أن لايراجعها بل يتركها حتى تنقضى عدّتها فتصير بائنا (٣) واما أن يطلقها طلقة ثالثة .

وللأولى « فامساك بمعروف » وللثانية « أو تسريح باحسان » وللثالثة « فان طلقها فلاتحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » فيكون نظم الآية هكذا « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان فان طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » وعلى هذا يكون الخلع الذى فصل الثالثة عن الثانية أجنبيا عنهما . وانما دعا الى ذلك أن الرجعة والخلع يستويان فى أنهما لايصحان إلا قبل الطلقة الثالثة ، أما بعدها فلا يبقى شىء من ذلك ، فلهذا جاء حكم الرجعة ، وتبعه حكم الخلع ، و بعد الجميع حكم الطلقة الثالثة لأنها كالخاتمة للجميع ، ثم ان المطلقة بالثلاثة لاتحلّ لذلك الزوج إلا بخمس شرائط : أن تعتدّ منه وتعقد للثانى و يطأها ثم يطلقها ثم تعتدّ منه ، وتعلق بظاهر الآية فاقتصر على العقد ابن جبير كابن المسيب ، واتفق الجمهور على أنه لابدّ من الوطء ، فنهم من جعل هذا من نفس الآية ، فان العرب تقول : نكح فلان فلانة عقد عليها ونكح زوجته أو امرأته جامعها ، والآية هنا من الثانى ، ومنهم من قال : الآية دلت على العقد وثبت الوطء بالسنة ، لما روى أن امرأة رفاعة قالت لرسول الله ﷺ : ان رفاعة طلقنى فبتّ طلاق ، وان عبد الرحمن بن الزبير تزوّجنى . وان ما معه مثل هدبة الثوب ، فقال رسول الله ﷺ أتريدين أن ترجعى

الى رفاعة ؟ قالت نعم ، قال لا حتى تذوق عسيلته و يذوق عسيلتك ، فالآية مطلقة قيدتها السنة « فان طلقها » الزوج الثانى « فلاجناح عليهما أن يتراجعا » الآية .

ثم أبان حكم المطلقات بعد انقضاء عدتهن ، وأمر أن لايعضلن و يمنعن من أزواجهن ، إذ روى أن معقل بن يسار عضل أخته أن ترجع الى زوجها فنزل النهى عن ذلك بقوله تعالى « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » الآية هذا ملخص الأحكام فى هذه الآيات .

انى عجبت لهذه الآيات ! انها آيات أحكام وقوانين شرعية وأحكام فقهية ، ولكن الناظر فيها يدهشه نظمها ، ويبهره وضعها ، الآيات مفعمة بالموعظة ، ماذكر حكما إلا أتبعه بعظات ، ولاقال كلمة فقهية إلا أتبعها بالزاجرات ، ألم تر كيف أعقب القروء الثلاثة بقوله « ولايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن » من الحيض أوالولد ، وأعقبه بذكر الايمان بالله واليوم الآخر ، وتأمل كيف أباح الرجعة والرد فى العدة على شريطة إرادة الاصلاح ، ولم يكتف به بل سوى بين الرجال والنساء فى الحقوق فقال « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » ولم يكن للرجال إلافضل الاشراف عليهن والانفاق ، ثم ختم المقام بذكر انه عزيز غالب يقهر من عصى من الأزواج والزوجات بكتم مافى الأرحام ، أوبالرجعة بغير ارادة الاصلاح ، وانه حكيم فى عقابه وأمره مكين ، ثم انظر كيف أعقب ذكر الطلقتين بكلمتين جليلتين : المعروف أولا والاحسان ثانيا فلا يمسك الرجال النساء إلا بالمعروف . ولا يسرحوهن إلا باحسان ولم يدع مجالا للزوج أوالحكام أن يأخذوا من مال المرأة بالخلع إلا اذا حصل مثل ما اتفق لجميلة . وحذرهم أن يأخذوا أكثرمما أنفق الأزواج بل جعله أقل بمن التبعيضية ، فاستيفاء المهر والزيادة عليه عند الخلع مخالف لظواهر الآيات ، وان أفتى الفقهاء بخلافه مع كراهتهم له فلقد تفلوه وكرهوه ، ولم يبح فى الآية الخلع إلا بعد شقاق وخلاف ، وكذلك ورد فى الحديث : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » ، ولم يشأ أن يدع آيات الطلاق والأحكام بعد أن ذكرها بلاتذكير ووعظ فى خواتيمها كما وعظ فى أوائلها فقال « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن » أى قاربن الأجل على أحد اطلاقيه فهو للمدة كلها ولنهايتها والمراد الثانى . يقول محذرا : فاذا قاربن الأجل فامسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف ، وإياكم أن ترجعوهن مضارين لتظلموهن ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولاجرم أن أولئك الذين يرجعون زوجاتهم بظواهر الشرع و يضاروهن لأشبه بمن يتخذون آيات الله هزوا ، ذلك أنهم يطلبون الباطل بالحق ، والجهل بالعلم ، فكأنهم جعلوا الآيات هزوا . ثم ذكر الناس بالنعم فقال « واذكروا نعمة الله عليكم » بالحياة والصحة والدين المنزل ، فاذا أصبحتم الأيام فى التنغيص والأكدار كانت الحياة وبالا ، والعيش خبالا ، والعلم ضلالا .

ثم ختم المقال بقوله « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى » أى أنفع « لكم وأطهر » من دنس الآثام « والله يعلم » أن الحياة لاتسر ولاتنفع إلا اذا اتفق الزوجان وتبادلا الحب وعاشا قريرى العين ، فلاطلاق إلا باحسان ، ولا امساك إلا بمعروف ، ولامنع للزوجة عن زوجها اذا أحبت الرجعة اليه ، فتكون الحياة سعادة ، والموت بعدها شهادة ، والبنون قرة ، والأصهار مودة . فاذا خالفتم ما رسمنا وجهلتم ماعلمنا ، وقصرتم الأمر على القوانين الفقهية ، والأحكام الشرعية ، وظننتم أن هذا هو الاسلام فأنتم أيها الناس إلا أضل من الأنعام « وأنتم لاتعلمون » العواقب ، ولاتدركون ما يكون من المصائب ، فأنا ان حذرتكم المناصبة ، ومنعتكم المشاقة فما أردت إلا سعادة الحياة الدنيا وعقباها الآخرة ، فاذا أشقيتم الأزواج واستحللتم أموالهن بغير حق وأرهقتموهن فى أمر فلتعيشن فى شقاق ، ولتموتن على حال أشبه بالنفاق ، لأنكم اتخذتم الآيات هزوا ، فكأنكم كفرتم بالقلوب ، وآمنتم بالألسنة ، فلست أريد منكم وثائق وشرائط ودعاوى

والقلوب منبوذة . والعقول مطروحة . وانما أريد حياتكم السعيدة فى أحوال سديدة . هذا هودين الاسلام هذا هو العلم والحكمة .

فليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن هذا هو الدين وهو المقصد وماعداه قشور . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

هذه الآيات تدخل فى علم الأخلاق . وحسن المعاشرة . وطلب الفضيلة . والأخلاق العالية . أوليس من العجيب أن يحذو الجنس البشرى اليوم حذو هذه الأحكام . فقد علمنا فى الأمة الأمريكية اليوم محكمة تحكم بفراق الزوجين متى يستبين أنهما لايقيمان حدود المعاشرة . وقد أخذ الناس ينسلون اليها من كل حدب حتى ضاقت أرضهم بما رحبت . وضاقت عليهم أنفسهم من ازدحام طلاب الطلاق . وشرطوا أخيرا أن لاتقام دعوة إلا لمن أقام عندهم ستة أشهر . وقد بلغنا أنهم حكموا على زوج بطلاق زوجته لأنه قذر الثياب وسخ الملابس فقد أثبتت زوجته انه لم يكن ليغتسل . أفليس العالم أخذ يقترب من الاسلام شيئا فشيئا . ألاترى أن هذه كمسألة جميلة . هذه بقبح الصورة وتلك بقذارة الجسم . وهل أجمع لهذه المعانى وغيرها من قوله تعالى : «إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله» .

يارب ان الانسان الى الآن ماعرف حقك وجهل سياسة الأزواج . وسياسة المدن . وقد عصوك فى نظام المدن فظلموا . وعصوك فى نظام البيوت فشقوا . فأسألك اللهم رحمة بالأمم و بأهل المنازل انك أنت الرحمن الرحيم . اللهم اهد الانسان الى أحسن حال . ولما كانت نتيجة الزواج الولادة ولاحياة للولد بلارضاع . وقد يختلف الزوجان فى أمره أعقبه :

(المقصد الثالث عشر)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *

التفسير اللفظي

يقول تعالى (والوالدات) المطلقات (يرضعن أولادهن حولين كاملين) سنتين كاملتين (لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له) يعني الأب (رزقهن) نفقتهن على الرضاع (وكسوتهن بالمعروف) بغير إسراف (لا تكلف نفس إلا وسعها) إلا بقدر ما أعطاها الله من المال (لا تضار والدة بولدها) أي لا ينزع الولد من أمه بعد أن رضيت بإرضاعه كما لا تكره على إرضاعه إذا قبل الصبي لبن غيرها (ولا مولود له) وهو الأب (بولده) أي بأن يطرح الولد عليه بعد ما عرف أمه مضارة له كما لا يلزم أن يعطي أم الولد أكثر مما يجب عليه لها إذا لم يرضع الولد من غير أمه (وعلى الوارث) وارث الأب إذا مات (مثل ذلك) أي مثل ما كان يجب عليه من النفقة والكسوة . والوارث نفس الصبي إن كان له مال ، فإن لم يكن له مال فعلى الأم ، ولا يجبر على نفقة الصبي غير الأبوين ، وبه قال مالك والشافعي . وقيل : وعلى وارث الصبي أي الذي يرثه إذا مات مثل ما كان على الأب في حال حياته وهم إما عصبة كالجد والأخ والعم وابنه ، وإما كل وارث له من الرجال والنساء ، وبه قال أحمد فيجبرون على نفقة الصبي كل على قدر سهمه . وإما كل من كان ذا رحم محرم منه ، وبه قال أبو حنيفة (فإن أرادا) أي الزوج والمرأة (فصالا) أي فصال الصبي عن اللبن قبل الحولين يعني فطاما (عن تراض منهما) بتراضي الأب والأم (وتشاور) بينهما (فلا جناح عليهما) زادا على الحولين أو نقصا ، وهذه توسعة بعد التحديد ، والتشاور استخراج الرأي ، من شرت العسل إذا استخرجته (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم) غير الأم لسبب ما كأن تريد أمه الزواج مثلا (فلا جناح عليكم) فلا حرج على الأب والأم (إذا سلمتم ما آتيتم) إذا أنفقتم ما أعطيتم (بالمعروف) بالوجه المتعارف وبالموافقة من غير مخالفة (واتقوا الله) اخشوا الله في الضرار والمخالفة (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) لا تخفى عليه أعمالكم فهو يجازيكم عليها (والذين يتوفون منكم) يموتون من رجالكم (ويذرون) يتركون (أزواجا) بعد الموت (يتربصن) ينتظرن (بأنفسهن) في العدة (أربعة أشهر وعشرا) يعني عشرة أيام (فإذا بلغن أجلهن) فإذا انقضت عدتهن (فلا جناح عليكم) على أولياء الميت في تركهن (فيما فعلن في أنفسهن) من التعرض والزينة للخطاب (بالمعروف) الذي لا ينكره الشرع (والله بما تعملون خبير) عالم بالبواطن (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) كأن يقال لها أنت جميلة ، أو صالحة ، أو أريد أن أتزوج ، أو نحو ذلك ، لا أن يقال إني أريد أن أتزوجك تصريحا (أو أكننتم في أنفسكم) أو أضمرتم في قلوبكم فلم تذكروه تصريحا ولا تعريضا (علم الله أنكم ستذكرونهن) ستذكرون نكاحهن (ولكن لا تواعدوهن سرا) نكاحا أو جماعا ، عبر بالسر عن الوطء لأنه مما يسر ، ثم عن العقد لأنه سبب فيه (إلا أن تقولوا قولا معروفا) المستثنى منه محذوف ، أي لا تواعدوهن مواعدة إلا مواعدة بقول معروف كالتعريض المتقدم (ولا تعزموا) لا تحققوا (عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) حتى تبلغ العدة وقتها ، وسميت العدة كتابا لأنها فرضت به (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم) ما في قلوبكم من الوفاء والخلاف على ما قلتم (فاحذروه) فاحذروا مخالفته (واعلموا أن الله غفور) لمن تاب من مخالفته (حليم) إذ لم يعجله بالعقوبة .

انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

في هذا المقصد ثلاثة درر

الأولى تربية الولد وارضاعه ، الثانية مدة المتوفى عنها زوجها ، الثالثة الخطبة فى العدة

الدرة الأولى

يقول الله تعالى للرجال والنساء : ليكن رضاع الولد حولين كاملين عند التنازع ، فان ذلك أكثر احتياطا للولد ، وعلى الأم ارضاعه لأن لبنها له أشهى وثديها له أوفق من غيرها كما نص عليه الاطباء قديما وحديثا ، فالولد بضعة منها . وقد أعد الله عز وجل لبنها له ولم يخزنه فى الثدى الا والولد يتحرك في جوفها و يضطرب فى رحمها فعليهن ارضاعه لصحته فقوله يرضعن خبر معناه الأمر : أى ليرضعن ، وذلك على سبيل الاستحباب اذا قام غيرها مقامها ولم يضره لبن الاجنبية وقبله الصبى ، فأما اذا لم توجد الاجنبية أوكانت ولم يقبل لبنها أو قبله وأضر جسمه ، فعلى الأم ارضاعه وجوبا ، وعلى الأب لها كسوة ونفقة على الموسع قدره وعلى المقتر قدره هذه قسمة عادلة على الأب طعام وكسوة ونفقة للبائن ولايصح استئجار الزوجة والمعتدة عند الحنفية ، وهو وجيه ، وخالف الشافعية ، وعلى الأم الارضاع .

تعجب كيف أخذ عز وجل ينهى الوالدين عن إضرار ولدهما ، فقال « لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده » قرئت بالرفع والنصب والماضى ضار ، ويحتمل البناء للفاعل والمفعول فى الحالين ، والمعنى على البناء للفاعل عند النهى ، أوالخبر هكذا لاتضر والدة ولدها ، والباء زائدة ولايضر مولودله ولده ، بين الله لكل عمله هذه ارضاع ، وهذا انفاق ، ورحمهما ، فقال « لاتكلف نفس إلا وسعها » فلا المطلقة تؤمر بما لا تستطيع من الارضاع ولانفقة لها ، ولا الوالد يكلف مالا يستطيع من النفقة ، فلما أن عرفهما ماعليهما وأنه رفع المشقة عنهما أخذ يوصيهما بولدهما وفلذة كبدهما ، وقال لكل واحد على حدته أوصيك بولدك لاتضار والدة بولدها كأن تسيء غذاءه ولا تنظف ثيابه أو تجهل الأحوال الصحية أو تكثر المشاقة والمشاحنة مع الوالد فيكدر العيش و يتنغص فيسرى الحزن والمرض فى اللبن فيضر الولد ، وقال ولايضر المولودله ولده باساءة الزوجة أوترك الانفاق أونزعه منها وهو بها متعلق وليس يصح للزوجين أن يفطما الصبى دون الحولين إلا باستشارة وتراض بينهما .

ياعجبا لهذه الآيات أوجب الله علم الصحة ، وأوجب مبادىء التربية على النساء بقوله لاتضر والدة ولدها ، ولا جرم أن الجهل بتربية الصغار إضرار ، و إياكم أيها المسلمون فى أقطار المسكونة أن تظنوا إضرار الصبى قاصرا على ماترتكب من جناية ، كلا ، فالجهل بالصحة هو الذى يهدم بنيان جسمه و يقوض أركان صحته ويذيقه عذاب الآلام ويجرعه كأس الحمام .

مبادىء علم الصحة وتربية الولد واجبة وجوبا شرعيا على كل امرأة قبل زفافها ، وعلى ولاة الأمور والعلماء والأغنياء التضامن والتعاون على نشر التعليم امتثالا لما أمر الله به من احسانه الولد وترك إضراره ، علم الله حال الانسان قبل خلقه أنه جهول ضعيف ولاسبيل لصلاحه الا بالتعلم ، وقد علم الله الطيور فى أوكارها بالالهام مااضطرت إليه واحتاجته فى حياتها ، ألا ترى كيف يتنزه أفراخ الطير فى أعشاشها أن تذرق فيها محافظة على الصحة ، وكيف ألهم الله النحلات اذا ولدتهن النحلات أن لا تبغم حتى لايسمع الذئب بغامها فيأكلها ، ثم كيف أخرجت أفراخ الأوزة عاملات بالعوم يوم يولدن وصغار العناكب عاملات بالنسج بلا تعليم ولا تدريب وسلب الانسان هذه الموهبة ومنع هذه المكرمة ، ولكنه منح العلم والحكمة وجاءت الديانات ، فقال فى القرآن

« لا تضار والدة بولدها » ولقد أيقنا أن الولد قليل المواهب سريع العطب ، والأم الجهول لا تقوى على تقويم صحته الا بالعلم لما فى النوع البشرى من الجهل العام ، فالسبيل القويم تعليم الفتيات والفتيان بعض تقويم الصحة وفى ظنى أن عشرين درسا كافيات لكل من الصنفين والافكيف يتشاور الرجل والمرأة وهما يجهلان الصحة ومبادئ التربية ، وذلك للمرأة ألزم ، فعلى رجال الأمة أن يفكروا فى هذا فقد سبقنا به أسلافنا أهل الأندلس ، وكان النساء هن القائمات بالتمريض ، وهن المطعمات للجدرى ، وعنهم أخذ الافرنج هذه الدروس العلية فعلموا بناتهم وربوهن تربية صحيحة « والله يهدى من يشاء » ، ولقد رأيت لهؤلاء الافرنجة فى التربية كتبا ، فكان أهمها كتابا يسمى [تربية البنات] للمرحوم [صالح بك حمدى حماد] ترجمه عن فنلون الفيلسوف الفرنسى ، وقد طبع فى بلادنا بمصر ، وعجبت كيف كان الفرنجة مخالفين لتعاليم حكمائهم مثل هذا الحكيم ، فلقد منع التبرج كتبرج الجاهلية الأولى ، وكذلك التباهى بالعلم ، وأوجب أن تعلم المرأة العبادة مع التفكر ، وحضور القلب ، والاخلاص لله ، وحرم عليها قراءة الروايات التى فيها أبطال خياليون لم يخلقوا فى الأرض ، فتكون طلبتها رجالا فوق من تراهم ، وكثير من هذه التعاليم خالفها الفرنجة لكن على كل حال قد ارتقى رجالهم ونساؤهم فى التربية ، أما المسلمون فانهم قلدوهم فلم يحسنوا التقليد ولم يرجعوا إلى كتابهم المقدس ، ولقد قرأت أيام طبع هذا الكتاب من هذا الأسبوع فى الميثاق الوطنى الاقتصادى التركى ماشرح صدرى وحمدت الله إذ رأيت فى حياتى أمة اسلامية قد ظهرت ، وقد جاء فى هذا الميثاق أن التركية تعلم ابنها وتربيه تربية علمية صحيحة موافقة للعلم ، وهذه أول أمة أخذت تنهض بعد خمود الأمم الاسلامية أجيالا طويلة وسيجعلون التربية على أساس شرقى اسلامى بالاستقلال الفكرى العقلى ، لا كالتربية الافرنجية المزورة التى انتشرت فى مصر و بعض بلاد الاسلام ، وأنا واثق أن الأمم الاسلامية سيتبعون الأمة التركية فى نهوضها واستقلالها فى كل شىء .

ولما كان الميثاق المذكور قد أوجب على المرأة أن تكون تربية الولد على مقتضاه ذكرته هنا لفائدته ، فقد جاء فى الجرائد أنه قد قرره ١١٣٥ عضوا منتدبا من طبقات مختلفة من صانع ، وزارع ، وتاجر ، وعامل فى تركيا نائبين عن الأمة فى المؤتمر الاقتصادى المنعقد فى أزمير من يوم ١٧ فبراير سنة ١٩٢٣ إلى يوم ٤ مارس برئاسة المشير كاظم قره بكر باشا ، وكان تقرير هذا الميثاق بالاجماع .

المادة الأولى : ان تركيا عنصر من عناصر السلام ، والارتقاء فى العالم مستقلة داخل حدودها القومية استقلالا لاشائبة فيه .

المادة الثانية : ان الشعب التركى قد حصل على سلطانه القومى بما ضحاه من دمائه وأرواحه ، فهو لا يتنازل عن هذا السلطان القومى بأى ثمن ، وهو ظهير الى الأبد لمجلسه وحكومته القائمين على أساس السلطة القومية .

المادة الثالثة : ان الشعب التركى شعب معمر لايقع شىء من التخريب بيده ، وكل مساعيه مبذولة فى سبيل اعلاء شأن المملكة من الجهة الاقتصادية .

المادة الرابعة : ان الشعب التركى يعمل بجهد الطاقة لانتاج المواد التى يستهلكها ، وهو كثير السعى وينفر من الاسراف فى الوقت والثروة والواردات الأجنبية وشعاره العمل فى النهار ، وفى الليل [إذا اقتضت الحال] لانتاج المحصولات القومية .

المادة الخامسة : ان الشعب التركى عالم بأنه جالس على خزائن الذهب وبحب غابات بلاده كحبه لأولاده ويقيم الأشجار أعيادا ويغرس غابات جديدة ويستثمر مناجمه لاستعمالها فى حاجاته القومية ويسعى لأن يعرف ثروته أكثر من معرفة غيره لها .

المادة

المادة السادسة : أن عدوّنا الاعظم هو العقوق ، والكذب ، والرياء ، والكسل ، وقاعدتنا فى كل شىء أن نكون ذوى صلابة دينية فى كل شىء بشرط الابتعاد عن التعصب ونقتبس دائما كل جديد مفيد بسرور وابتهاج ، والشعب التركى ينفر من الدسائس التى يدسها الأعداء ضد مقدساتنا ، وأوطاننا ، وأشخاصنا وأموالنا ، ومن الواجب مقاومة ذلك مقاومة مستمرة .

المادة السابعة : الترك عشاق العلم ، والعرفان وهم يصرفون أيام حياتهم فى سبيل الاكتساب حيثما وجدوا غير أنهم أبناء وطنهم قبل كل شىء وهم يحتفون يوم المولد باعتبار أنه عيد كتاب أيضا .

المادة الثامنة : ان أعظم ما الزيادة نفوسنا التى نقصت أيام الحروب الكبيرة التى توالت علينا ، والفاقة التى منينا بها ، وأن يزداد شعبنا قوة وصحة ، والتركى يتقى الميكروبات والهواء الفاسد والأقذار ويحب الهواء الطلق النقىّ ، والشمس ، والنظافة ، ويسعى للاقتداء بأسلافه فى الفروسية ، والرماية ، والقنص ، والسباحة وغير ذلك من الرياضات البدنية وبمقدار اهتمامه بدوابه يهتم باصلاح جنسها ونسلها .

المادة التاسعة : التركى صديق للأمم التى ليست عدوّة لدينه وقوميته وأوضاعه ، وليس هو مبغضا لرؤوس الأموال الأجنبية غير أنه لايعامل المتاجر التى لاتخضع للغته وقانونه مع أنها موجودة فى وطنه ، وحيثما وجد التركى تجددا فى العلم والصناعة يبادر الى اقتباسه مباشرة ، ولايرغب فى كثرة الوسطاء بأى عمل من الأعمال التى يقوم بها .

المادة العاشرة : التركى يحب السعى والعمل ، وهو ناصع الجبين ، لايحب الاحتكارات الاقتصادية .

المادة الحادية عشرة : الترك يحب بعضهم بعضا مهما اختلفوا فى الصناعات والطبقات والأعمال ، وإذا اتحدت أعمالهم ومسالكهم ، فانهم يكونون يدا واحدة فيها ، ويقومون بالسياحات بقصد التعارف ، والوقوف على أحوال الوطن .

المادة الثانية عشرة : ان المرأة التركية ، والعالم التركى يعملان لتربية الأطفال ، وفقا لقواعد هذا الميثاق الاقتصادى أزمير ٤ مارس سنة ١٩٢٣ .

وإنما ذكرته هنا برمته لأنهم جعلوه مما تربى المرأة ولدها على مقتضاه ، وهو أقرب للآية هنا ، فان الرجل والمرأة أمرهما الله ألا يضرا ولدهما ، ومن الضرر بالولد أن يجهل أمته ، ومصالحها ، واقتصادها ، وعدم الاسراف ، فصار أمثال هذا من الواجبات الشرعية ، أليس من النافع المفيد لصحته الهواء النقى والشمس والأعمال الرياضية ، أليس من المفيد له حب بلاده ، واستخراج كنوزها ، وحب دينه ، والتمسك به ، كما فى هذا الميثاق ، فهذا قوله تعالى « لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده » على معنى لاتضر والدة ولدها ولا مولود له ولده ، كما ذكره المفسرون وقوله تعالى « وعلى الوارث مثل ذلك » أى وارث الأب أو وارث الصبى وهم الأقارب على تفصيل يختلف باختلاف المجتهدين ، فيكون فى مال الصبى عند الشافعى ، لأنه الوارث للأب أو كل وارث له محرم عند أحمد على حسب أسهمهم فى ميراث الصبى لومات إلى غير ذلك ، ثم قال « وإن أردتم أن تسترضعوا » المراضع « أولادكم فلا جناح عليكم » الآية ، وهو ظاهر .

الدرة الثانية

فى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا » الآية

يأمر الله عزّ وجلّ المتوفى عنهنّ أزواجهنّ أن يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشرا ، يقال ان الجنين لايتحرك الالثلاثة ، وقد يتأخر لأربعة فاعتبر أقصى الأجلين وزيدت العشر استظهارا ، ومن عجب أمر العدة ترى المطلقة بثلاثة الأشهر أو بالاقراء ، والمتوفى عنها زوجها بالأشهر ، والأيام ليرينا الله عزّ وجلّ اختلاف

الصوم واتحاد المعنى ، فالمعنى براءة الرحم فى الجميع وزيدت أيام معدودات فى المتوفى عنها زوجها مراعاة للآداب وبجاملة ، فليس من حسن العشرة الاسراع بالتزوّج بعد الموت ، والا كتفاء بثلاثة أقراء فربما تزوّجت بعد شهر وأيام فحدد الله ذلك الأجل تحقيقا لبراءة الرحم ، وحثا على حسن المجاملة ، ومراعاة لحقوق الزوجية ، ويظهر لى أن المرأة لوزادت عن هذا المقدار لكان أشرف لها وأجمل وأدلّ على حسن خلقها ان كانت عفيفة حسنة السيرة « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » خصّ عموم الآية بالحامل لآية « وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ » فلتترك المرأة الزينة والطيب ودهن الرأس بكل دهن والكحل المطيب ، ويباح لها كل مااضطرت إليه ، وإذا اكتحلت بالليل فلتمسحه بالنهار ، فاذا بلغن أجلهنّ وانقضت عدّتهنّ فلا جناح على أئمة المسلمين فيما فعلن فى أنفسهنّ من التعرض للخطاب وسائر ماحرم عليهنّ للعدّة بالوجه المعروف الذى يرضاه الشرع ولاينكره العرف ولا تأباه الأخلاق .

أفادت الآية أن المسلمين متضامنون ، فعليهم كف العاصى ، وردع الفاسق إذ خاطب الناس بقوله « فلا جناح عليكم » أى فان قصرن فعليكم الجناح ، وليس ذلك قاصرا على هذا المقام ، فالمسلمون جميعا متضامنون ، فعليهم نشر العلم والفضيلة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكلّ معاقب اذا قصرحمه على نفسه وجهل مصلحة العموم .

الدرة الثالثة

فى قوله تعالى : « ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء » الآية

ذكر الله عدّة المتوفى عنها زوجها ، وحرّم عليها الزينة حدادا على الزوج ، ثم أباح أن يتعرضن للخطاب ويتزين بالمعروف والأدب بعد انقضاء العدّة ، فناسب أن يأمر الرجال بترك الخطبة الصريحة لئلا يعدموهنّ الصبر فى العدّة . أمر الله النساء بالحداد ، وأمر الرجال بالأدب والامتناع فلا يهيجونهنّ ولايذكرونهنّ بأمر الرجال ، وأباح رحمة بالناس التعريض ، وهو من قسم الكناية فليس من الحقيق ولا المجازى .

ولقد روى أن سكينة بنت حنظلة تأيمت فدخل عليها [أبو جعفر محمد بن على الباقر] فى عدّتها ، فقال قد علمت قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقّ جدّى علىّ وقدمى فى الاسلام ، فقالت سكينة : غفر الله لك أتخطبنى فى العدّة وأنت يؤخذ عنك ، فقال : انما أخبرتك بقرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمّ سلمة فى عدّة زوجها أبى سلمة ، فذكر لها منزلته من الله عزّ وجلّ ، وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فى يده صلى الله عليه وسلم من شدّة تحامله عليها فما كانت تلك خطبة .

يقول « لاجناح عليكم » فيما كان تعريضا مثل هذا أو مكتوما فى النفس بلا تصريح ولاتعريض ، ولما كان من عادة الجهلاء إذ ذاك أن يدخل الرجل على المرأة فى عدّة الزوجية ويطلب منها السفاح أثناءها ، ثم يشهر النكاح بعد انقضاء العدّة نهوا عن ذلك الزنا ، فيكون السر الجماع ، وهو قول الشافعى ، وهكذا روى عن ابن عباس ، وقال امرؤ القيس :

ألا زعمت بسباسة اليوم أننى * كبرت وأن لايحسن السر أمثالى

بسباسة اسم امرأة فلم يبح الابالقول المعروف ، وهوالتعريض ، ثم قال « ولاتعزموا » أى لاتقطعوا عقدة النكاح حتى ينتهى ما كتب من العدّة .

(المقصد الرابع عشر)

المتعة وعدة المتوفى عنها زوجها

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

التفسير اللفظى

يقول تعالى (لاجناح عليكم) لاحرج عليكم (ان طلقتم النساء مالم تمسوهن) تجامعوهن (أوتفرضوا لهن فريضة) أى إلا أن تفرضوا أوحتى تفرضوا ، أى لاتبعة على المطلق من مطالبة المهر اذا كانت المطلقة غير ممسوسة ولم يسم لها مهرا ، فاذا كانت ممسوسة فعليه المسمى أومهر المثل ، واذا كانت غير ممسوسة ولكن سمى لها فلها نصف المسمى (ومتعوهن) متعة الطلاق (على الموسع قدره) مقداره الذى يطيقه (وعلى المقتر قدره) قدرامكانه وطاقته فمتعوهن (متاعا) تمتيعا (بالمعروف) أى من غير ظلم ولاحيف ، حق ذلك (حقا على المحسنين) الى المطلقات بالتمتيع (وان طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) تجامعوهن (وقد فرضتم لهن فريضة) وقد بينتم مهورهن (ف) عليكم (نصف مافرضتم) أى نصف ماسميتم من مهورهن (إلا أن يعفون) أى إلا أن تترك المرأة حقها على الزوج (أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح) أى أو يترك الزوج حقه على المرأة فيعطى مهرها كاملا (وأن تعفوا) أى وأن تتركوا حقكم أيها الأزواج والزوجات بأن يعطى الزوج المهر كاملا وأن تسقط المرأة كل مالها على الزوج (أقرب للتقوى ولاتنسوا الفضل) التفضل (بينكم) يقول للمرأة والزوج : لاتتركوا الفضل والاحسان بعضكم الى بعض (إن الله بما تعملون) من الفضل والاحسان (بصير) لايضيع تفضلكم واحسانكم (حافظوا على الصلوات) الخمس بوضوئها وركوعها وسجودها ومايجب فيها (والصلاة الوسطى) أى الفضلى من بين الصلوات ، وهى صلاة العصر ، وقيل الظهر ، وقيل الفجر ، وقيل المغرب ، وقيل

العشاء ، وقيل هي غير معينة كليلة القدر ، وسيأتي زيادة بيان في الايضاح (وقوموا لله) في الصلاة (قانتين) مطيعين خاشعين ، ذاكرين الله في قيامكم ، قائمين بالركوع والسجود (فان خفتم) فان كان بكم خوف من عدو أوغيره (ف) صلوا حال كونكم (رجالا) أى راجلين وهو جمع راجل كقيام وقائم (أوركبانا) على الدواب جمع راكب : أى فصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركبانا على دوابكم ، مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، وذلك في حال المسايفة والمقاتلة في وقت الحرب (فاذا أمنتم) أى فاذا زال خوفكم (فاذكروا الله) أى فصلوا صلاة الأمن (كما علمكم) أى ذكرا مثل ما علمكم (مالم تكونوا تعلمون) من صلاة الأمن (والذين يتوفون منكم) يامعاشر الأزواج (ويذرون أزواجا) زوجات فليوصوا (وصية لأزواجهم) في أموالهم متعوهن (متاعا) تمتيعا بالنفقة والسكنى وماتحتاج إليه ، ووصف المتاع بقوله كائنا (الى الحول غيراخراج) غيرمخرجات من بيوتهن ، والمعنى أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يحتضروا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولا كاملا : أى ينفق عليهن من تركته ، ولايخرجن من مساكنهن : وكان ذلك شروعا في أول الاسلام ثم نسخ بآية « والذين يتوفون منكم الخ » (فان خرجن) بعد الحول (فلاجناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن) من التزين والتعرض للخطاب (من معروف) بما ليس بمنكر شرعا (والله عزيز) بالنقمة لمن ترك ما أمر به (حكيم) فيما حكم (وللمطلقات متاع) أى نفقة العدة (بالمعروف) حق (حقا على المتقين) وليس بواجب لأنه فضل على المهر على وجه الاحسان (كذلك) أى مثل ماسبق من أحكام الطلاق والعدة (يبين الله لكم آياته) وهذا وعد من الله بأنه سيبين لعباده مايحتاجون إليه من الأحكام والدلائل الدالة على جماله وابداعه مثل ماظهر في زماننا وجاء في هذا التفسير وقرأه المسلمون في أقطار الأرض فهو مصداق للوعد هنا (لعلكم تعقلون) لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها . انتهى التفسير اللفظي للمقصد الرابع عشر

في هذا المقصد جوهرتان

الجوهرة الأولى المتعة ، والثانية اعتداد المرأة التي مات عنها زوجها إلى الحول

الجوهرة الأولى

« لاجناح عليكم » لاتبعة من مهر (ان طلقتم النساء مالم تمسوهن أوتفرضوا لهن فريضة) الآية : اذا تزوج الرجل امرأته ولم يفرض لها مهرا ثم طلقها قبل المسيس يجب لها عليه المتعة . لطوق الآية عند الشافعي وأبي حنيفة وأحمد ، ويستحب عند مالك ، فان سمى لها مهرا وقد طلقها قبل الدخول بها فلامتعة لها ، والمطلقة المدخول بها مفوضة ، أوسمي لها لامتعة لها لأنها تستحق المهر كاملا وهومذهب أبي حنيفة ، وفي القديم عند الشافعي ، وفي احدى الروايتين عن أحمد ، ولها المتعة في الجديد عند الشافعي ، وفي رواية أخرى عن أحمد مستدلين بقوله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين » . قال ابن عمر : لكل مطلقة متعة إلا التي فرض لها المهر ولم يدخل بها زوجها فحسبها نصف المهر . ومن لطيف هذا المقام أن الشافعي رضي الله عنه قدّم القياس أى قياس المدخول بها مفوضة ومسمى لها على المفهوم ، ألاترى أن مفهوم قوله : « مالم تمسوهن أوتفرضوا لهن فريضة » يقتضي أنه لايجب للممسوسة متعة فان قوله : « ومتعوهن » وارد على المرأة المقيدة بما ذكر ، المتعة مقدّرة بحال الزوج يسارا واعسارا لاقيد لها ولاحصر في أمر معلوم فالعرف والمروءة هما القاضيان في ذلك ، ألاترى إلى قوله : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا » أى تمتيعا « بالمعروف » أى بالوجه الذي يستحسنه الشرع والمروءة ، وقد حق ذلك « حقا على المحسنين »

فانظر كيف جعله حقا ، وكيف مدحهم بالاحسان ، ففيه ايجاب ومدح ، فالايجاب عند المشاحنة ، والمدح تهييج للاحسان والمروءة ، ولذلك متع عبد الرحمن بن عوف زوجته جارية سوداء ، ومتع الحسن بن علىّ رضى الله عنهما زوجته بعشرة آلاف درهم ، فقالت : متاع قليل من حبيب مفارق . فأما تقدير ابن عباس لأعلاها بخادم ، ولأوسطها بثلاثة أثواب : درع وخمار وإزار ، ولأقلها بشيء من الفضة أومقنعة ، أونحوذلك كمذهب الشافعى ، وتقدير أبى حنيفة لها بنصف مهرمثلها ، وتقدير أحمد لها بما تجزى فيه الصلاة ، فذلك كله لاختلاف الأحوال ولأمور خاصة والا فالمروءة فى المتعة لاحدّ لها ، وللقاضى أن ينظر مايقتضيه الحال ولايتقيد بقيد ، ألاترى كيف يقول : « متاعا بالمعروف » من المروءة والشرع ، وكيف يصفه بالمحسن ؟ وليس المعروف والمروءة خاصين بمن لها متعة ، بل المطلقة قبل الدخول التى سمى لها مهر ونصف مهرها نالت حظا من السعة فى المقدار الذى يعطيها الزوج ، ألاتراه يقول : « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى » . يقول : لهنّ نصف المهر إلا أن يتجاوزن فيتركنه للرجل فلايأخذن منه شيئا ، أو يعفو الرجل عن النصف الآخر وقد ساق اليها المهر كاملا وقد عفا عن حقه وهو التشطير ، ثم رغب الرجال وخاطبهم قائلا : وأن تعفوا أيها الرجال أقرب للتقوى لأنكم قوّامون عليهنّ والرجل أولى بالفضل وأحقّ بالاحسان . وعن جبير بن مطعم أنه تزوّج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأكمل لها الصداق وقال أنا أحقّ بالعفو ، ولما كان مثل هذا الفضل عظيما زاد فى الحضّ عليه فقال : « ولاتنسوا الفضل بينكم » بالمسامحة والمفاضلة واقامة القضايا ورفع الدعاوى وإجبار المحامين ونحوذلك « إن الله بما تعملون بصير » لايضيع فضلكم ولااحسانكم ، فإياكم أن تضيعوا أوقاتكم ومروءاتكم وشهاماتكم فى المشاجرات والمماحلات فتنسوا المعروف والمروءة والفضل ، فذلك لن ينبغى أن يكون ، ليحسن بعضكم الى بعض فلاتضيعوا المعروف بينكم بالعداوات ، ولاتتركوا الصلاة بل حافظوا عليها ، ولايشغلنكم أمر الطلاق والمتعة والمقاضاة وأحوالكم المؤلمة بالمشاحنات والمماطلات والعداوات عن أجلّ الامور وأعلاها وأرفعها وأوفاها ، وهما شيئان : المعروف بينكم ، ورجوع الأفئدة لله فى الصلوات « حافظوا على الصلوات » كلها « والصلاة الوسطى » الفضلى ، والأفضل يسمى الأوسط ، وهى صلاة العصر لقوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : [شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ، ملأ الله بيوتهم نارا] وقال عليه الصلاة والسلام : انها الصلاة التى شغل عنها سليمان حتى توارت بالحجاب ، وانما فضلت لأن الناس مشغولون بأعمالهم من تجارة وزراعة وصناعة ، وقد خارت القوى ، وسئمت النفوس .

الصلاة راحة للنفوس الانسانية من الهمّ ، ومدعاة للسرور ، ولعروج الروح عن هذا العالم الذى ملئ نصبا وتعبا ، لابدّ للناس من أوقات يروّحون فيها أنفسهم من مآزق الحياة ، وأثقال الهموم التى تنقض ظهورهم ، وتكدّر صفاءهم ، وتحملهم الأثقال ، وفيها تحيط بهم الآلام ، فليصلوا وليقوموا لله قانتين أى خاشعين ، وإياكم أن يشغلكم الخوف من حرب أو غيره ، فان خفتم فصلوا رجالا أوركبانا ، جمع راجل وراكب كقيام جمع قائم سواء أكنتم واقفين أم ماشين ، بحار بين أوخائفين ، من سبع أوغيره ، فأوفوا بالركوع والسجود ، وليكن السجود أخفض من الركوع ، وصلوا مشاة على أرجلكم ، أوركبانا على دوابكم ، مستقبلى القبلة وغيرمستقبليها ومنع أبوحنيفة صلاة المشاة ، وذهب الى التأخير كما أخر ﷺ صلاة الظهر والعصر ، وقضاهن بعد غروب الشمس يوم الخندق ، واحتجّ الشافعى بهذه الآيات ، وهذا حال الخوف « فاذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم » أى ذكرا مثل ماعلمكم « مالم تكونوا تعلمون » من صلاة الأمن ، ثم رجع الى مسائل الأزواج ليختمها بعدّة المتوفى عنها زوجها فقال : « والذين يتوفون منكم » الآية وهى :

الجوهرة الثانية

قد كان رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحرث هاجر الى المدينة ومعه أبواه وامرأته ، وله أولاد فمات فرفع ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية ، فحرم المرأة من الميراث ، وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا كاملا ، والآية تدل على مجموع الأمرين أن لها النفقة والسكنى ، وأن عدتها سنة كاملة ، وهي مخيرة بين السكنى فى منزل زوجها و بين الخروج ، وتسقط النفقة ، ونسخت الوصية بالنفقة والسكنى بآية الميراث ، ونسخت عدة الحول بأربعة أشهر وعشر ، ورأى الشافعى لها السكنى ولم يرها أبوحنيفة رضى الله عنهم أجمعين ، وقوله « وصية » أى فليوصوا وصية ، وقوله « متاعا » أى متعوهن متاعا ، و « الى الحول » صفة لمتاعا ، وقوله « غير اخراج » وصف مؤكد ، وقوله « فيما فعلن فى أنفسهن » أى من التزين والتعرض للخطاب ، ولما أن ذكر أحكام المتوفى عنها زوجها أردفها بما يناسبها من أحكام المطلقات فى عدتهن ، فقال « وللمطلقات متاع » نفقة العدة « بالمعروف حقا على المتقين كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » ومن فسر المتعة بغير نفقة العدة جعلها شاملة للمندوبة والواجبة ، ومنهم من أوجب المتعة لكل مطلقة ، وهذا المقام مكارم أخلاق ، فعلى المرء أن يجد فى الفضائل ومحاسن الأخلاق والآداب اهـ

تفصيل الكلام على قوله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين

أمر الله بالمحافظة على الصلاة فى هذا المقام ، ويجب ذلك فى جميع شرائطها كالطهارة من الحدث والنجس فى البدن والثوب والمكان ، وبالمحافظة على ستر العورة ، واستقبال القبلة ، والعلم بدخول الوقت ، وبالمحافظة على جميع أركانها كالنية ، وتكبيرة الاحرام ، والقيام عند القدرة ، وقراءة الفاتحة ، والركوع والرفع منه ، والسجود الأول والثانى ، والتشهد الثانى ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيه والسلام وهكذا مع اختلاف الأئمة فى ذلك بالزيادة والنقص ، وهكذا الاحتراس من جميع المبطلات للصلاة سواء أكان ذلك من أعمال القلوب أم من أعمال اللسان ، وأهم الامور فى الصلاة رعاية النية فانها هى المقصودة أصالة من الصلاة قال تعالى : [وأقم الصلاة لذكرى] .

وهنا يرد سؤال فيقال : المحافظة مفاعلة من الجانبين ، فاذا حفظ العبد صلاته فأين الطرف الآخر ؟ قالوا المعنى احفظ الصلاة ليحفظك الله ، أولتحفظك الصلاة من المعاصى ، ومن استذلال المحن والبلايا ، واستدلوا بقوله تعالى : [انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة] ومعناه كما يقول الرازى رحمه الله : انى معكم بالنصر والحفظ ان كنتم أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة ، وهذه الأدلة كثيرة فى القرآن والحديث

وهذه الأمور لا يعقلها الناس الا بالتجربة ، فاذا قام امرؤ بأمر الصلاة ، وكان حاضر القلب فى جميع الأركان ، وفى القراءة والركوع والسجود والتشهد ، وهو مع ذلك نظيف الظاهر حاضر القلب مخاطب ربه طالب منه الهداية كأنه أمامه ، وهو يناجيه ويكلمه ويحمده ، ويقول له ان كل حمد صدر من مخلوق ، فهو لك وأنت الرحمن الرحيم ، فالعبادة لك ، والاستعانة بك وحدك ، وعند الركوع يتذكر تلك العظمة ، وهكذا عند السجود ، ويقول فى التشهدان كل تحية وكل تعظيم فانما هو لك ، ومعلوم أن الغافل الذى يقول إياك نعبد وقلبه فى حقله أوفى دكانه كاذب فى دعواه كما قال الامام الغزالى غير مصل ولا عابد ، وقال أيضا ان فتوى الفقهاء تسمى هذا مصليا مادام يحضر قلبه عند النية ، والفقهاء لا علاقة لهم بأمور الآخرة ولا بتهذيب النفوس ، وانما الفتوى معلقة بالظواهر ، والظاهر هنا أنه صلى فنقول : له مالنا وعليه ماعلينا وليس له فى الآخرة من نصيب ، والصلاة بلا حضور قلب جسم بلا روح ولفظ بلا معنى ، هذا ملخص ماقاله الامام الغزالى والعلماء الصالحون والحكماء المحققون .

أقول إذا قام المصلى بالصلاة على هذا الوجه وهو الحضور بالقلب فهل تحفظه من المعاصى كما تقدم ، ومن بعض المحن والبلايا ، وهل صاحبها ينصره الله ؟ هذا السؤال له أحد جوابين : أما الأول فانا نقول لينظر ان عمل على هذا الوجه الأكل فى نتائج حاله واذن يجد المعونة من الله . وهذا لايطلع عليه الاهو نفسه ، واذن يكون ذلك خاصا به فلا يتعداه لغيره فلا يكون حجة عند الناس .

وأما الثانى فانا ننظر فى العلوم التى كشفها علماء أمريكا وأوروبا فى هـذا المقام التى أطلعنا عليها ، وان كان لها نظير فى كتب غير مشهورة عند أسلافنا الذين ورثوا علوم الأمم فنقول :

اعلم أن النفوس الانسانيـة المتصرّفة فى هذا الجسـد ذات قوى كثيرة ومآرب شتى وأعمال كثيرة ، والناس فريقان : فريق ترك تلك القوى فى غفلاتها تجرى تبع هواها ، فاللسان يقول مايخطر بالنفس والعين يطلق سراحها وجميع البدن حرّ فى تصرّفه لايردعه رادع من عقل ولا دين ولامروءة ، فهـذا يصبح ضعيف الأثر خامد النفس ، أما الآخر فهو الذى حفظ هـذه القوى وخزنها فى نفسـه ولم يفرط فيها ، فالكلام بمقدار والنظر والسمع والعقل كل ذلك موزون بميزان فهـذا قد حفظ [البطارية] الكهربائية السالبة والموجبة فى نفسه وللمغناطيسية الحيوانية التى كسبها فلم يفرط فيها . واذن ببقائها تكون عونا له مساعـدا وهو لايشعر . أما الأوّل فقـد تبعثرت قواه وطاحت وتفرّقت ، فهـذه القوى ببقائها فى النفس تجعل لصاحبها احتراما وجذبا للأفئدة وحبا .

ولقد اطلعت لهم على تجارب يعلمونها لتلاميذهم تعويدا لهم على حصر الفكر وقوّة الارادة كأن يأمروهم بالتفكير فى أمر واحـد زمنا ما أو يكرّروا كلمات بعض دقائق خاصة بالغرض الذى يطلبونه أو يحبسوا الهواء الداخـل فى الرئتين زمنا ما داخلا أوخارجا ويقولون لهم إياكم والتحدّث عن أنفسكم ، والفخر فى المجالس وذكر الوقائع لاظهار العواطف المختلفة وإياكم أن تعاقروا الخمر أوتجترحوا الآثام الشهوية ، فان كل كلمة ورغبة وخفة وطيش ولذة تحمل معها قوّة من المغناطيسية المودعة فى نفوسكم فاحفظوها وتعلموا كتمان الأسرار والسكوت والسكون ، ويقولون ان نتيجة هذا كله قوّة الارادة فقوّة الارادة عندهم هى كل شئ . هذا كلام علماء الجمعية النفسيه فى أمريكا ، وهذا هو الذى دوّنوه ومن مقالهم أنهم يأمرون التلميذ أن يجلس فى حجرة وحده ويقوم ذهابا وايابا مخاطبا شخصا خياليا بكلمات ذات معنى أوغير معنى حاضرا عند كل كلمة بنبرات حسنة حازمة كأنه خطيب ، ويكون ذلك مقـدار نصف ساعة ، وان كانت تلك الكلمات فى غرض خاص كانت أدعى لتحقيقه والقصد من ذلك عندهم قوّة العزيمة والارادة والهمة ، وهى كفيلة بتحقيق الأغراض ولهم فوق ذلك مالا وقت لذكره .

وأنا أقول أنا لست الآن فى مقام الاستهجان أو الاستقباح ، وانما الذى أسمعتكه من كلامهم جار نظيره فى ديننا ألم يقل الله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وتلك المسئولية يظن الناس أنها فى الآخرة وحدها ، والحق أنها فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى « سنعذبهم مرتين ثم يردّون إلى عذاب عظيم » والقرآن طافح بذكر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة معا ، وهؤلاء الذين لم يحفظوا قواهم ضاعت وتبددت فضاعت مصالحهم فى الدنيا فعذبوا فيها وفى الآخرة ، وقال تعالى « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون » وقال تعالى « إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فانظر كيف جعل الأمر راجعا إلى خسارة النفس و إلى تغيير مابالنفس ، فالنفس وقواها رأس مال الانسان ، فاذا بذر فيها بالضحك وكثرته ، والكلام وثرثرته ، والحزن والفرح ، واللذات ضاعت قواها فلم يجدله معينا « أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فهؤلاء الذين نسوا أنفسهم لايقدرون على كبح جماحها ولا يحصرون عزيمهم

يصبحون عالة على المجموع ، ولقد جاء فى الحديث مايقرب من هذا « من أصبح وهمومه همّ واحد وقاه الله الهموم كلها » أو ليس هذا كقوله تعالى « إن السمع والبصر والفؤاد كلّ أولئك كان عنه مسئولا » ولقد تجد فى القرآن ذكر الهمة وعلوّها وذكر أولى العزم ، قال تعالى « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل » فجعل المدار على العزيمة ، وترى الصلاة قد وجب فيها حفظ القوّة الفكرية وحصرها فى غرض واحد ، أوليس هذا هو كلّ بل أكثر مما قاله جمعية المباحث النفسية لتقوية الهمة والنصرة والسعادة . أفلا تتعجب كيف يقول الله « واستعينوا بالصبر والصلاة » وانظر كيف قرن الصبر بالصلاة التى يحضر القلب فيها ، لاصلاة أكثر المسلمين الناعين اليوم . أولست ترى أن تمرين الأمريكيين بالخطابة فى حجرة مع حضور القلب للكلمات التى تقال لأجل علو الهمة وقوّة العزيمة هو تقليد لصلاتنا سواء أعلموا أم لم يعلموا ، أفلست أيها الذكى النبيل وأنت تقرأ هذا تتعجب من غاية التعجب من المباحث النفسية التى جاءت مؤيدة لديننا ، بل هى لم تصل إلى جلاله وجماله ، وأن هؤلاء القوم لما حرموا من جلال الديانات التى تأخذ بمجامع عقولهم بحثوا بأنفسهم عن قواعد استنبطوها بالتجربة وأنهم لوكان عندهم ماسمعته من الآيات والأحاديث لجعلوا التعاليم على محورها ، أوليس هذا هو قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ » أفليس هذا الذى ذكرته مما أراه الله لنا فى الأنفس كما أرانا جماله فى الآفاق . أفلست ترى بعد الآن المحافظة على الصلاة بحضور القلب فى الأفعال والأقوال وخطاب الله ومناجاته مقوّية للعزيمة نافعة فى الدنيا والآخرة ، وان قوله « واستعينوا بالصبر والصلاة » له حقيقة عالية قد كشفها علماء النفس فى مجلدات وهم لايعلمون أنها فى الاسلام ، وأن العامة ربما ساعد بعضهم بهذه الصلوات وهم لايعلمون ، وأن أسلافنا الذين ملكوا البلاد شرقا وغربا وهم يزكون ويصلون كانوا على حق ، وأن للمتعلمين تعليما ناقصا فى مصر ، وسائر أقطار الاسلام يجب عليهم أن يفكروا فيما قلت بعقولهم فيحفظوا المغناطيسية والقوى الحيوانية فى نفوسهم ، وان هذا الذى قلته بلسان العصر الحاضر أقرب الى أفهامهم ، أنا موقن أن الاذكياء يجيبون لما دعوتهم إليه بعقولهم لابالتقليد ، أفليس هذا يوضح ماقاله علماؤنا ، يقول هؤلاء الأمريكيون ان الفرق بين تاجرين وعالمين تشابها فى التجارة والعلم واختلفا فى العمل والشهرة ان أحدهما قوىّ الارادة تام المغناطيسية اليه اتجهت الافئدة ، والآخر ضاعت مغناطيسيته الحيوانية فلامحب له ولاجاذبية عنده ، أليس هذا كلام أكابر العلماء عندنا الذين يوجبون حضور القلب فى الصلاة أوّلا ، ثم فى سائر الأقوال والأفعال .

ايضاح

فاذا قال الله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فذلك لأنها علمتنا حصر الفكر والاتجاه لله وخشيته فقويت العزيمة فكانت المغناطيسية عندنا تامة ، أوليس مايفعله علماء النفس بامريكا من حصر أفكار تلاميذهم فى نقطة واحدة مابين ٥ دقائق و ١٥ دقيقة بحيث لاتميل عينه يمنة ولايسرة ويقولون انه يحصر الفكر قوى عزيمته وبقوة العزيمة والتمرين مرارا يصير قادرا على حفظ قواه فلا يقع فى الأسراف فيها بالشهوات ، واذن يصير عضوا عاملا فى الأمة ، أفليست المحافظة على الصلاة مع حضور القلب فيها من التكبيرة إلى السلام ستنهاه عن الفحشاء والمنكر ، وتمتاز هذه عن آراء الأمريكيين من علماء النفس ، ان التفكر فى الله قد انضمّ هنا إلى حصر الفكر فبدل أن يحصر فكره فى نقطة يراها بعينه يتجه لله فينال الأمرين : حصر الفكر ، والاتجاه لله معا مع الاعتقاد الدينى ، فيكون الله فى عونه وقواه المغناطيسية كاملة تامة ، فهو مستعد للمساعدة عن هم حوله بتسخير الله ، وتكون قوته النفسية موفورة ، هذا هو الذى حضرنى عند

كتابة هذا الموضوع ، فاذا كنا نرى الشبان المتعلمين فى ديارنا يقرءون هذا و بعضهم يعمل به ابتغاء الفتى من طريق حصر الفكر ، أفليس هـذا بعينه فى ديننا . ولأذكر لك شـذرات من أخبار آبائنا المصلين الذين فتحوا فارس والروم وهم كانوا يصلون و يصومون ، ونحن لاصيام ولا صـلاة مع أننا علماء بلغات الفرنجة وآدابهم وخرهم ، ونحن غنيمة لهم باردة وبآدابهم معجبون ، وفى محال لهوهم وشرابهم جالسون ، ولمالنا فيها منفقون .

(١) قال صلى الله عليه وسلم ، ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولاعشرها ، وكان يقول : انما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها .

(٢) وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال على المنبر ان الرجل ليشيب عارضاه فى الأسلام ، وما أكمل الله له صلاة ، قيل وكيف ذلك ؟ قال لايتم خشوعها وتواضعها واقباله على الله عز وجل فيها .

(٣) وكان مسلم بن يسار من الخاشعين فى صلاتهم ، وقد نقل عنه أنه سقطت اسطوانة فى المسجد وهو يصلى فلم يشعر .

(٤) ومثله عامر بن عبد الله الليثى كان اذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف ، وتحدث النساء فى البيت ولم يكن يسمع ذلك ولايعقله ، أليس هذا هو الذى يلتمسه علماء الجمعيات النفسية ، فى أمريكا وأوروبا لما تضعضعت دياناتهم ، وذهبت بهجتها ، أوليس هؤلاء المسلمون هم الذين فتحوا البلاد شرقا وغربا ، وهم مصلون ، ان المسلمين اليوم فى سكراتهم يعمهون ، إنى لعمرك أيها الفطن الذكى لم أذكر أعمال الجمعيات النفسية ليكون برهانا على أن ديننا حق بل لأبين للمتعلم الذى عرف بعض علوم أوروبا وعاش غافلا عما كان عليه آباؤه الأولون .

حكاية مصرية

قد كانت أمتنا المصرية فى أواسط القرن التاسع عشر ، وهو القرن الماضى ذات نهضة شريفة عالية بتأسيس [المرحوم محمد على باشا] وكان يرسل الشبان فى الارساليات إلى فرانسا ، ومعهم شيوخ ليعلموهم الصلاة والمحافظة على الدين ، وكانوا يرسلون كل أسبوع ملخصات لدروسهم ، وترسل لهم خطابات بختم الأمير يظهر رضاه عنهم ، فى كل ماظهر نبوغهم فيه ، فاتفق ذات يوم أن مراسلا لأحدى الجرائد الكبرى [وأظنها الطان] كان يجوب فى المزارع وقت الفجر لغرض ما فلمح من بعيـد شبحا ، فذهب إليه إذا هو تلميذ مصرى بجانب ماء جد فصار ثلجا ، وكان ذلك زمن الشتاء والتلميذ يلتمس قطرات منـه ليتوضأ فتعجب وسأله لم هـذا ؟ فقال أتوضأ لصلاة الصبح فرجع وكتب مقالة عنوانها [مصر ستغتال أوروبا] وذكر الحادثة بتمامها ، وقال إذا كان هذا صادق العزيمة حتى يتوضأ بالثلج ، فهذه العزيمة لامثل لها فى أوروبا وهذه العزائم القوية تهد الجبال وتخرب المدن ، وسيكون المصريون والشرقيون ، بهذه التعاليم أقوى من أوروبا ، ويرجعون إلى مجد آبائهم الأولين ، ويهدمون مجدا بنيناه وسدا أقمناه ، وحصنا رفعناه اهـ .

هذا استنتاج كتابهم فى جرائدهم ، فتطلعت أنظار أوروبا إلى تعاليم المصريين ، فاحتال قوم منهم على بعض الحكام فاشاعوا الخلاعة والفسوق ، وأغروهم باحتقار آبائهم ومجدهم ودينهم ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتانا العذاب فى ديارنا ونحن صاغرون ، أليس هذا الكاتب الفرنسى قد لخص معنى [حافظوا على الصلوات] أوليس هذا العالم ، قد أدرك بفطنته أن مصر بأمثال هذا الشاب سترقى ، وقدتم ذلك بعد سنين فانها ملكت الحجاز والشام ، وكادت تطير إلى أوروبا لولا ماحل بها من الجهـل ، إذقامت تحارب خليفة المسلمين ، أوليس كلام هذا الفرنسى عرفنا سر ذكر هذه الآية وسطها الحرب إذ يقول [فان خفتم فرجالا

لوركبانا] أى فصلوا راجلين أوراكبين ، وهى صلاة الخوف التى شرحها العلماء ، أفليس ذكر الصلاة هنا مع الحرب يشعر بما ذكره ذلك الفرنسى ، وقد صح ماتنبأ به ثم خمدت جذوة نار البلاد بالجهل والفسق بعد حين ، أفلا يصح بعد هذا البيان أن نقول ان الصلاة من قاموا بها نصرهم الله على أعدائهم ، وذلك بقوة العزائم واجتماع القلوب ، لعمرى لقد وفيت لك المقام بغاية الاختصار .

وأما قوله تعالى [والصلوة الوسطى] فاعلم أن فيها قولين يرجعان إلى معنى واحد :

أولهما أن الصلاة الوسطى صلاة مجهولة لفائدة جهلها ، وهى أن المصلى يتقن كل صلاة عسى أن تكون هى الوسطى ، وذلك نظير مافى هذا العالم من الجهل الذى يثمر ثمرا لاينتجه العلم ألاترى أن من أعظم النعم أن نجهل وقت موتنا لنجد ونبنى ونغرس ليدوم العمران ، هكذا هنا ليجد المصلى فى كل صلاة .

وثانيهما أن مجموع الصلوات الخمس هى الوسطى من الطاعات ، فهى واسطة الطاعات ، فلا هى أعلاها ولا هى أدناها ، فان أعلى الطاعات مايمس القلب من الايمان والعلم والحكمة الدينية ، وهذا أفضل من سائر العبادات ، وأدناها مايكون من الأعمال الصغيرة كاماطة الأذى عن الطريق ، فقد جاء أن المؤمن حقا من كملت فيه شعب الايمان ، وهى بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، رواه الشيخان هكذا على الشك من حديث أبى هريرة ، فأعلاها الايمان بالله وماعطف عليه ، وأدناها كثير من الأعمال الصالحة والصلاة من الأمور التى هى وسط بين الطرفين ، وهذه الشعب ذكرها صاحب النقاية ، وعدها جميعها بطريق الاجتهاد ، وهذا ماأردت ذكره فى هذه الآية . ولنرجع إلى المقام الذى فيه بحثنا العام ، وهو :

(المقصد الخامس عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا

تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *

التفسير اللفظى

قال الله تعالى (ألم تر) ألم تخبر يا محمد فى القرآن (إلى الذين خرجوا من ديارهم) من منازلهم لقتال عدوّهم (وهم ألوف) قيل ثمانية آلاف جبنوا عن القتال (حذر الموت) مخافة القتل (فقال لهم الله موتوا) فأماتهم الله مكانهم (ثم أحياهم) بعد ثمانية أيام (إن الله لذو فضل) لذو منّ (على الناس) على هؤلاء لاحيائهم ، وعلى غيرهم إذ يبصرون مايعتبرون به (ولكنّ أكثر الناس لايشكرون) ذلك ولا يعتبرون ولا يستبصرون ، ولما بين أن الفرار من الموت غير مخلص منه أمر المسلمين بالقتال ليفوزوا بالنصر أو التوبة فقال (وقاتلوا فى سبيل الله) فى طاعة الله عدوّكم (واعلموا أن الله سميع) لما يقول المتعلل عن القتال (عليم) بنياتكم ومجزيكم ان لم تفعلوا ما أمرتم به ، ولما كان القتال لابدّ له من مال أعقبه بقوله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) اقراضا حسنا مقرونا بالاخلاص وطيب النفس (فيضاعفه له) أى يضاعف جزاءه (أضعافا كثيرة) لايعلم كنهها إلا الله (والله يقبض ويبسط) أى يقتر الرزق على عباده ويوسعه عليهم (واليه ترجعون) فيجازيكم على ماقدمتم (ألم تر الى الملأ) ألم تخبر عن الأشراف الذين يملؤن القلوب جلالة ، والعيون مهابة (من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبيّ لهم) وهو يوشع أو شمعون أو اشمويل (ابعث لنا ملكا) أنهض للقتال معنا أميرا نصدر فى تدبير الحرب عن رأيه (نقاتل) بأمره (فى سبيل الله) فى طاعة الله (قال هل عسيتم) أى لعلكم (ان كتب) فرض (عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله) أى وأىّ داع لنا الى ترك القتال ، وأىّ غرض لنا فيه (وقد أخرجنا من ديارنا) من منازلنا (وأبنائنا) وذلك بسبى ذرارينا (فلما كتب) أوجب (عليهم القتال تولوا) أعرضوا (إلا قليلا منهم) ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا بعدد أهل بدر (والله عليم بالظالمين) وعيد لهم على ظلمهم بترك الجهاد (وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت) حال كونه (ملكا) ملكه عليكم (قالوا أنى) كيف ، أومن أين (يكون له الملك علينا) وليس من سبط الملك وهم أولاد [يهوذا] (ونحن أحقّ بالملك منه) لأنا من سبط الملك (ولم يؤت سعة

من المال) ليس له سعة المال لينفق على الجيش (قال) اشمويل (إن الله اصطفاه) اختاره بالملك (عليكم وزاده بسطة) فضيلة (في العلم) أي في علم الحرب والسياسة (والجسم) الطول والقوة (والله يؤتي) يعطي (ملكه من يشاء) في الدنيا (والله واسع) بالعطية (عليم) بمن يصطفيه للملك ، هنالك طلبوا من نبيهم آية على اصطفاء الله إياه ، فأجابهم بأن التابوت يأتيهم ، وهذا قوله تعالى (وقال لهم نبيهم ان آية ملكه أن يأتيكم التابوت) أي صندوق التوراة الذي كان موسى عليه السلام اذا قاتل العدو قدمه فكانت تسكن نفوس بني اسرائيل ولايفرّون (فيه سكينة) سكون وطمأنينة (من ربكم وبقية) هي رضاض الألواح وعصاموسى وثيابه وشيء من التوراة ، وعمامة هرون عليهما السلام (مما ترك آل موسى وآل هرون) أي مما تركه موسى وهرون ، والآل مقحم لتفخيم شأنهما (تحمله) أي التابوت : أي تسوقه (الملائكة) اليكم وكان في أرض جالوت الى أن ملك الله طالوت ، فأصابهم بلاء ، فتشاءموا من التابوت ، فوضعوه على ثورين ، فساقتهما الملائكة الى طالوت (إن في ذلك) في ردّ التابوت (لآية) علامة (لكم) أن ملكه من الله (إن كنتم مؤمنين) مصدّقين ، فلما ردّ إليهم التابوت قبلوا (فلما فصل طالوت) خرج (بالجنود) من بلده إلى جهاد العدوّ (قال ان الله مبتليكم) مختبركم : أي يعاملكم معاملة المختبر (بنهر) وهونهرفلسطين (فمن شرب منه) من النهر (فليس مني) فليس معي على عدوّي ، أوفليس من أتباعي (ومن لم يطعمه) لم يشرب منه (فانه مني إلا من اغترف غرفة بيده) هومستثنى من قوله « فمن شرب منه فليس مني » (فشربوا منه) أي فكرعوا (إلاقليلا منهم) وهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا (فلما جاوزه) أي النهر (هو) أي طالوت (والذين آمنوا معه) أي القليل (قالوا لاطاقة لنا اليوم) أي قال الكثير لاقوّة لنا (بجالوت) هوجبارمن العمالقة (وجنوده) لكثرتهم وقوتهم (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله) يوقنون بالشهادة وهم القليل (كم) أي كثير (من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) بحكمه وتيسيره (والله مع الصابرين) بالنصر والاثابة (ولما برزوا لجالوت وجنوده) أي ظهروا لهم ودنوا منهم (قالوا ربنا أفرغ علينا) اصبب علينا (صبرا) على القتال (وثبت أقدامنا) بتقوية قلوبنا ، وإلقاء الرعب في صدور عدوّنا (وانصرنا على القوم الكافرين) أعنا عليهم (فهزموهم) أي هزم طالوت والمؤمنون جالوت وجنوده (بإذن الله) بقضائه (وقتل داود) النبي (جالوت) الكافر (وآتاه الله الملك) في مشارق الأرض المقدسة ومغاربها (والحكمة) والنبوّة (وعلمه مما يشاء) من صنعة الدروع ومنطق الطير (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) كما دفع بداود شرّ جالوت عن بني اسرائيل (لفسدت الأرض) بأهلها . يقول : دفع الله بالنبيين عن المؤمنين شرّ أعدائهم ، وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد شرّ أعدائهم ، ولولا ذلك لفسدت الأرض (ولكنّ الله ذوفضل على العالمين) بإزالة الفساد عنهم (تلك آيات الله) أي القصص التي اقتصها من حديث الألوف واماتتهم واحيائهم الى آخر ماتقدم من ذلك وغيره من أخبار الأمم الماضية حال كونها (نتلوها عليك بالحق) باليقين الذي لايشك فيه أهل الكتاب (وانك لمن المرسلين) حيث تخبرها من غيرأن تعرف بقراءة كتاب ، أوسماع من أهله . انتهى التفسير اللفظي .

ايضاح

هاهنا فرغ الله عزوجل من اصلاح الأمة في أحوالها الداخلة ، وللأمّة حالان : نظام في داخلها ، ودفاع عن بيضتها ، وقتال عن حوزتها ، ولقدمضى مايمنع الهرج في البلاد والحرج بين العباد من الأصول الفقهية ، والأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية ، وحفظ الأنساب ومنع العقول من سكرتها بخمرتها والأموال من ذهابها بضياعها ، فمنع القمار ، وحرّمه وحوّل مجرى الأموال إلى مايحفظ المروءة والشرف ويصون العرض

ويرضى الرب من بذله اللاتى كسرت قلوبهن ، وشبكت أكبادهن بالفراق والطلاق ، ولليتامى والأقربين والمساكين ، ووجه العقول المحفوظة من الغائلة المصونة من الترف لحسن العشرة مع الزوجات والمحافظة على الأنساب ابقاء للألفة بين الناس ، وتخليصا لهم من الأرجاس ، وبعثا لهممهم وتوجيها لجموعهم إلى ماهو نافع وجليل .

فلما أن فرغ من ذلك شرع يحث الأمة على أن تدرأ عن نفسها العاديات وتستنهض الهمم لرد الهجمات ومهاجمة الأعداء ، وقتال الظالمين .

تعدو الذئاب على من لا كلاب له * وتتقى صولة المستأسد الحامى

وكأنه عزوجل يقول أيها الناس لايصدنكم التزاحم الداخلى ولا التصادم والمعاملات عن التفكر فى جلال الله بالصلاة ولايلهينكم مسائل الفقه كالنفقة والعدة ، وأحوال المنازل عن ملاحظة الأعداء فأصلحوا أمركم بينكم ثم ائتوا صفا « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » واذا كنتم فى الخوف ، فصلوا راجلين وراكبين ، أيقظ الأمة فى ثنايا أحكام العدة والمتعة ، ونحو ذلك بذكر الله ، وأدمج فيها حال الخوف . يقول أيها المسلمون إياكم أن تثاقلوا إلى الأرض ، وترضوا بحياة المساكين الاذلاء ، ولتكن منكم طائفة أعدت لجهاد العدو ، وترصد أحواله ، وترقب أطواره ، ثم ذكر الوصية لمن مات عنها زوجها ، ثم المتعة ، وطفق يشرح حال الذين تخلفوا عن الجهاد من الألوف ، وكيف أماتهم الله ، فلم ينفعهم الفرار من الموت ، وكيف غلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة باذن الله .

وهنا نشرح لك القضيتين اللتين ذكرهما الله فى هذا المقام حضا على الجهاد على طريقة المحاورة والمسامرة ليكون أرسخ فى الذهن ، وأعون على الفهم ، وأقوم طريقا ، وأقوى قيلا ، سأل بعض الطلبة بمدرسة دار العلوم ولنرمز لهم بحروف [س وص وع] ، قال س : من أولئك الألوف ، وماديارهم وماقصصهم ، ومامناسبة هاته القصة للاحقتها ، وكيف أخرنا هنا ، وكيف كان قصص موسى عليه السلام ، ومنه وسلواه التى قدسيقت فى أول السورة ، وفى أى تاريخ ذلك ؟ .

اعلم أنه قيل ان قوما من بنى اسرائيل أمرهم ملكهم بقتال عدوهم فعسكروا ، ولكن لم يكونوا بالشجعان الجحاجيح ، ولاالصناديد القماقيم ، بل استحبوا الذلة مع الراحة ، واحتجوا بالوباء المخيم ، فى أصقاع العدو ، فحل بهم ما كانوا منه خائفين ، وأخذ الموت يرهقهم والهلاك يغشاهم حين فروا على وجوههم من الموت هاربين ، فدعا عليهم ملكهم ، فماتوا فى لحظة واحدة حتى أروحت أجسادهم فحظروا عليهم حظيرة دون السباع بعد ثمانية أيام ، فلذلك قال الله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم » أى ألم تعلم يامحمد باعلامى إياك ، وهو تعجيب ، كما تقول ألم تر إلى صنيع فلان : أى هل رأيت مثل هؤلاء « وهم ألوف » زيادة عن عشرة آلاف « حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » ذلك أن بنى اسرائيل مكثوا فى مصر عشرات من السنين وأربعمائة ، ثم خرجوا إلى الشام ، وقام الشيوخ بأمرهم نحو أربعمائة سنة ، وكان أول قائم بعد موسى يوشع ثم كالب ثم حزقيل ، ويقال له ابن العجوز ، ويقال له ذوالكفل ، كفل سبعين نبيا كما يقال ، فلم يقتلوا ، وحزقيل هذا هو الذى دعا الله أن يحيي هؤلاء الموتى فحيوا ، وكان مع كل كاهن سبعون شيخا من شيوخ بنى اسرائيل هو رئيسهم ، ويقال ان حزقيل النبي نفسه هو الذى ندب قومه إلى الجهاد فكرهوا وجبنوا فأرسل الله عليهم الموت ، فلما كثر فيهم خرجوا من ديارهم فرارا من الموت فلما رأى حزقيل ذلك دعا عليهم ، فقال : اللهم إله يعقوب وإله موسى ترى معصية عبادك فأرهم آية فى أنفسهم تدلهم على نفاذ قدرتك وأنهم لايخرجون عن قبضتك فأرسل الله عليهم الموت ، ثم انه عليه السلام ، ضاق

صدره بسبب موتهم فدعا مرة أخرى فأحياهم الله .

ولقد تضمنت القصة فرارا من الطاعون وفرارا من القتال ، وكلاهما محرّم فلا يدخلن البلد الموبوء داخل ولا يخرجن منها أحد ، وذلك كما فعل عمر وهو ذاهب إلى الشام محاربا وأيد بالحديث النبوى ، فلما سمع ذلك كبر وكبر المسلمون ، وقال : فررنا من قضاء الله إلى قضاء الله ، ومنع الجيش أن يدخل الشام وهى موبوءة ، ولا يجوز للناس أن يدعوا القتال لئلا يموتوا كما مات بنو اسرائيل الذين جعلهم الله عبرة لنا ، وهذا هو المهمّ من سرد القصة وليست تقصد لذاتها ، ولئن مات أولئك موت الأجسام ليموتنّ الجبناء فى الحروب موتا قهريا بيد أعدائهم ، أو أدبيا باستذلالهم وسقيهم كأس الذلة والهوان ، وما أمض الحياة مع الهوان وما أشق الأذلاء .

ولعمرى اذا مات قوم عقوبة لهم على فرارهم فكم مات من أمم خاضعة شراذم وجموع طغى الأعداء عليهم بالبغى والعدوان ، واستنزلوهم بعد عزّ من مراتبهم ، وأودعوا سجن الذلة والصغار ، ذلك شأن الأمم الاسلامية بعد أن خضدت شوكتهم ، وسيموا الخسف وأوردوا موارد الحتف ، ثم قال الله « ان الله لذوفضل على الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون » إذ يرفع أمة بعد خفضها ، و يعزها بعد ذلها ، و ينصرها بعد ضعفها ، و يرفع من أخلاقها بعد سقوطها ، ان فى ذكر احياء الأمة بعد موتها لعلامة ظاهرة ، و بشارة باهرة انه لايأس من روح الله ، فاذا ماتت أمة وحيت فما أحرى الأمم الأسلامية المائتة بالجهل أن تحيا بالعلم وهذا هو الفضل العظيم ، فليشكروا الله وليعملوا ، ولذلك أعقبه بقوله (وقاتلوا فى سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم) وليس القتال اجتماع الصفوف ، وجمع الجنود ، ورفع البنود ، وقيام الشاهد والمشهود فحسب ، كلا بل ان المال قوامه ، وعماده وأسه و بنيانه ، وكيف يصنع السلاح من مدفع وآلات جهنمية الا بالمال فلذلك قال « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » فلا تبخلوا بالمال لئلا تبدل الحال .

س : أرجو ان توضح هذا القصص الثانى ، ولم جاء مؤخرا عن الأوّل ؟

ج : اعلم أن قصص بنى اسرائيل ، إذ كانوا فى التيه ، وما حاولوا مع النبيّ موسى عليه السلام ، وما زاول هو معهم قد مضى فى أول السورة ، وقصة أولئك الذين ماتوا حين فروا فى غضون مدة الشيوخ السبعين فى أربعمائة السنة بعد خروجهم من التيه ، ولما مات حزقيل الآنف الذكر مرت سنون والأمة الاسرائيلية فى اضطراب والبلاد فى اختلال فعظمت الأحداث فبعث الله اليهم الياس المذكور فى سورة الصافات ، ومن بعده اليسع ، ثم اضطربت الأحوال فظهر عدوّ يقال له البلثاثا وهم قوم جالوت سكان سواحل بحر الروم بين مصر وفلسطين وهم العمالقة ، وضربوا عليهم الجزية ، ولم يبق اذ ذاك من بيت يتوسم فيه النبوّة الا امرأة عجوز فولدت ولدا سموه اشمويل ، وهو النبيّ ، فلما طغى جالوت والعمالقة ، قالوا لأشمويل « ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله إلى قوله والله واسع عليم » هنا ابتداء عصر جديد وحياة أخرى لبنى اسرائيل فانه بعد أن كانت حكامهم مجالس شورية تحكم أسباطهم القاطنين بالشام وغيرها ، وقد عجزت تلك الحكومة عن رد الظالمين والعمالقة الطاغين عليهم لجئوا إلى أن تكون الحكومة ملكية ليلتفوا حول راية ملكهم فابتدأ اذ ذاك عظمة ملكهم وضخامة مملكتهم ، وكان ما كان من أمر داود وسليمان و بناء بيت المقدس قرونا وقرونا حتى ظهر بختنصر عليهم فأجلاهم وضرب بيت المقدس وأسكنهم نواحى أصبهان ، وما والاهما من البلدان وهناك قصص أستير الفاضلة المشهورة وقصص العزير الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها وكيف حييت قريتهم بعد موتها وردهم الى أوطانهم ملك فارسى حتى أجلاهم الروم الجلوة الكبرى .

ألا تعجب كيف جاء قصصهم فى سورة البقرة مرتبا ترتيبا حقيقيا ، وكيف كان قصص موسى وقومه فى أولها أيام انقلاب حالهم من استعباد الى حرية ، ثم جاء قصص الفارين من الموت فى غضون حكومة الأشياخ السبعين ، ثم كان نبأ طالوت وجالوت وداود أيام الانقلاب ليبتدئوا دورا فيه ينعتون وبه ينصرون وهو دور الملك والعز ، أليس ذلك ذكرى للنبي والمسلمين وايقاظا لهم ، انكم أيها العرب ستنقلون من حال الى حال وطبقا عن طبق ، ذلك عجيب ثم كيف تراخى بعد ذلك مجىء قصص العزير بعد آيات ، أفليس من المدهش أن تحوى سورة البقرة تاريخ الاسرائيليين نحو ألف وثمانمائة سنة مرتبا مفرقا منظما متراخيا ، وأنت لو ضممتها لكانت تاريخا متلائما ذلك من أعجب ما قرأت وأبدع ما فهمت ، ولقد تبين لى فى هذا التفسير ما لم أكن لأعلمه من قبل .

أرشدت القصة الى اصطفاء الملوك وما صفاتهم . قال بنو اسرائيل : ان طالوت ليس من بيت لاوى بيت النبوة ومنه موسى وهارون ، ولا من بيت يهوذا بيت الملك ، ومنه داود وسليمان وهو من سبط بنيامين بن يعقوب فضلا عن كونه فقيرا ، ولا ملك إلا بالمال . فأجابهم بأن المال والنسب ليسا سببا فى الملك ، وانما الصفات الشخصية من العلم والقوة البدنية والشجاعة هى المحور الذى عليه يدور رحى الملك على أن الله يؤتى ملكه من يشاء ويرفع ويخفض ويعز ويذل ، وهو واسع الفضل ، يعطى الفقير ملكا ومالا ، عليم بمن يليق بالملك من النسيب وغيره ، هذه هى الداهية الدهماء ، والطامة العمياء التى أحاطت بالمسلمين ، فأوردتهم النكال ، وألزمتهم الخسار فانهم أصبحوا تحت رحمة البيوت المالكة فى أكثر المعمورة ، فأولئك ان أحسنوا حسنت أحوال الأمة ، وان أساءوا ساءت ، فقطعت هذه الآية معاذير الأمم الجاهلة ، وحتمت أن يكون الملك تابعا للعلم والقوة والشجاعة كما كانت حال طالوت . لقد عكف المسلمون على عبادة الأنساب فذلت الأعقاب ونعق فى ديارهم البوم والغراب ، لقد عرف هذه الحقيقة الأمريكيون حتى ولوا امرة عليهم خياطا ، والفرنسيون صانها لما رأوا من أخلاقهم وما عرفوا من آدابهم ، عرف الفرنسيون جهل المسلمين واستكانتهم وأنهم يستخذون لذوى البيوتات والشرف فعملوا بنصيحة كتابهم والسائحين منهم ، ان المسلمين تحت رحمة قوادهم من الأشراف ، وكبار الأولياء كالكتانى وماء العينين والتيجانى وشريف مراكش فأغدقوا على بعضهم النعم وغشوا على بعض العقول بالمال فال لهم الشريف المراكشى من بيت الملك والتيجانى كما يقال وساقوا هذه الأمم إلى ساحات العذاب وباحات النكال واستخذوا للفناء واستكانوا للوبال ، ذلك أنهم عن الحكمة معرضون وبالعلم جاهلون .

أقول : اللهم انى أحمدك على نعم لا أحصيها ، إن هذا الجزء يعاد طبعه الآن ، ولقد رأيت أهل هذه البلاد [مراكش] من أذكى أمم الاسلام عقولا ، وأشرفها نفوسا ، ولقد صادف هذا التفسير منهم أفئدة تهوى إليه وهذه الأمة سيكون لها مجد لا حد لمداه ، ولا عجب اذا كان الضغط يزيدها ارتقاء ونورا ، فان النضار لولا اصطلاءه بالنار لم يصر حليا . وهاهنا سأل [ع] لقد طال بنا المقال فأتم لنا قصص طالوت .

ج : قال اشمويل النبى ان علامة ملكه « أن يأتيكم التابوت » الصندوق « فيه » التوراة تسكنون اليها فهو « سكينة من ربكم » وفيه آثار موسى وهارون وآلهما من الأنبياء ، وذلك طمأنينة لكم لما فيه من آيات الله وآثار الانبياء كرضاض الألواح وعصا موسى ونحو ذلك .

كان ذلك التابوت عند العمالقة فتشاءموا به لما أصابهم من جهد البلاء فوضعوه على عجلة يجرها ثوران وضربوهما بالسوط فسعيا وهدتهما الملائكة بالالهام حتى حصلا فى ديار بنى إسرائيل واذ ذاك خرج طالوت بالجنود وهم ثمانون ألفا كما يقال ، وأخذ يبتليهم وينظر أهم ممن ينقاد للعادات أم هم أشداء صلحاء .

لاجرم أن الأمم المنغمسة فى الشهوات المترفة المنعمة أبعد عن النصر وأقرب للهلاك والقتل وأحرص على الدرهم والدينار ، وأقرب لطلى عذب النار ، وقتل السيف البتار ، والمدفع والبارود . وحصد الجنود ، واهلاك الدريتميت .

شأن الأمم المترفة الاستخذاء للذلة فيرأسونها ، ولن يكون فيهم ليوث خوادر ولا شجعان جحاجيح ولا صناديد قماقيم فيستذلون للأعداء و يموتون بالداء .

ضرب الله مثل ذلك بما كان من طالوت لقومه عند نهر فلسطين إذ قال لهم لاتكرعوا الماء من النهر ولا تشربوا الاغرفة باليد فمن استكثر وشرب أكثر من الغرفة اسودت شفته وغلب عليه عطشه فمن لم يذق الماء ، ومن شرب غرفة بيده بلغوا مئات مختلفا فى عددها ، فلما جاوز النهر هو والذين آمنوا معه ، وهم الذين لم يخالفوا قال المخالفون لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال أولئك الذين يظنون أنهم ملاقوا الله المخلص الذين لم يخالفوا « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » كما هو مشاهد فى سائر الأمم أن النصر تابع للعز والشجاعة والقناعة والاجتزاء بالقليل ، وسألوا الله أن يصبر قلوبهم و يثبت أقدامهم ، ثم ينصرهم على القوم الكافرين .

وأمر طالوت أن يسأل [ايشا] فى عسكره أن يأتى بولده داود فانه هو الذى يقتل جالوت فى علم الله فأحضره ، ووعده طالوت أن يزوّجه ابنته ، فلما قتله زوجه إياها بعد التياواتى ، ثم حسده على حب الناس له وأضمر قتله فلم يفلح وعرف خطيئته فى هذا ، وفى مخالفة أوامر الله فى الدواب التى غنمها من الفلسطينيين وهام على وجهه فى الحال ، ثم أفتاه اشمويل إذا حضرت روحه بعجوز ، فقال له اشمويل تقدّم أنت وولدك العشرة لجهاد العدوّ وموتوا فى سبيل الله ، فكان ذلك وملك داود ، وابتدأت اذذاك عظمة بنى اسرائيل ، قال تعالى « وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء » الآية ، واعلم أنه مامن أمة تسير على أثر داود فى الصبر والقناعة والآداب الانصر قليلها على الكثير ، ألم تر الى البوير وهم قليل نصرهم الله على أمة كبيرة ذلك أنهم صبروا وقنعوا وكانوا يقرءون مزامير داود على أسماع أبنائهم و بناتهم صباح مساء ، هكذا أهل طرابلس صبروا وقنعوا فنصرهم الله مع قلة عددهم وعددهم ذلك من أعجب الأمور وقانون لن يبور انتهى .

ألم تر كيف ضرب الله مثل ذلك بالابتلاء بالشرب من النهر هكذا شأن الكتاب الكريم يضرب الأمثال للناس والله بكل شىء عليم .

س : لم يزل فى المثل غموض ، وما الفائدة الواضحة ، والحكمة الصريحة فى ابتلائهم بالشرب من النهر ومافائدتنا من هذا القول ؟

ج : امتاز القرآن بضرب الأمثال للمعانى الغامضة ، والأمور الشريفة ، ولما كانت أخلاق الناس خافية وأحوالهم مستورة لم يمتز الصابر من الجزع والشجاع من الجبان الابالابتلاء ، وهل الصور الظاهرة ، والملابس المتقاربة دالة على بواطن الأمور وماغاب عن الجمهور ، فلاسبيل لادراك الخفايا الانسانية الابالابتلاء والاستجلاء ، ولما كان النصر حليف الصابرين الأشاوس ، والصناديد القماقيم مزايلا للترفين بعيدا عن المنغمسين فى الشهوات العاكفين على اللذات ابتلاهم بمسألة جزئية ليدرك طالوت طباعهم الباطنية كأنه يقول لاتعتمد الاعلى المخلص الكاملين « لايستوى الخبيث والطيب ولوأعجبك كثرة الخبيث » ولاجرم أن عشرين صابرين يغلبون مائتين ، والمائة يغلبون ألفا ، قد تبين فى الأعصر الحاضرة ان هذا واقع ومشاهد ، وهذا ايذان من الله ألا تصدّق امرأ الا بعد تجربته ولا تعتمد عليه الا بعد اختباره ، ألاترى الى ذلك الأعرابى الذى سبر اخوانه ليبتليهم أيهم أصدق مودة وأمتنهم صداقة فذبح شاة ودفنها بعد طبخها ، وتظاهر بأنه قتل فلانا ، وقال فهل لك أن تساعدنى يافلان فكل تولى عنه معرضا ولوى عنه كشحا . وقال مالى بهذا يدان حتى عثر على ضالته المنشودة وطلبته المحبوبة ، اذ قال أوسطهم فضلا وأقربهم زلفى : لاتخف فلا معقب لك وأنا النصير المبين ، ثم جرد سيفه وقتل غلام صاحبه ، لئلا يعلم الأمر غيرهما . فقال صاحبه لقد كنت أختبرك ، وقد عرفتك صديقا

وفيا

وفيا واستخرجا الذبيحة من مدفنها فأكلاها هنيئاً مريئاً ، هكذا مسألة الشرب من النهر ليمتاز الخبيث من الطيب فى الجهاد ، والله يهدى إلى سبيل الرشاد .

ص : هل لك أن تذكر لنا بعض حكم داود عليه السلام .

ج : قال فى المزامير لماذا تفتخر بالشر أيها الجبار ؟ رحمة الله هى كل يوم ، لسانك يخترع مفاسد كموسى مسنونة يعمل بالغش ، أحببت الشر أكثر من الخير ، الكذب أكثر من التكلم بالصدق [سلاه] أحببت كل كلام مهلك ، ولسان غش أيضاً يهدمك الله إلى الأبد يخطفك ويقلعك من مسكنك ويستأصلك من أرض الأحياء [سلاه] فيرى الصديقون ويخافون وعليه يضحكون ، هون الانسان الذى لم يجعل الله حصنه ، بل اتكل على كثرة غناه واغترّ بفساده ، أما أنا فمثل زيتونة خضراء فى بيت الله توكلت على رحمة الله إلى الدهر والأبد ، أحمدك إلى الدهر لأنك فعلت وأنتظر اسمك فانه صالح قدام أتقيائك .

وقال فى المزمور الثالث والخمسين : « قال الجاهل فى قلبه ليس إله ، فسدوا ورجسوا رجاسة ليس من يعمل صلاحاً ، الله من السماء أشرف على بنى البشر لينظر هل من فاهم طالب الله ، كلهم قد ارتدوا معاً فسدوا ليس من يعمل صلاحاً ليس ولا واحد » انتهى .

وفى المزمور الخامس والخمسين : « ألق على الرب همك فهو يعولك ، لايدع الصدّيق يتزعزع إلى الأبد » .

وقال فى الرابع والخمسين : « اللهم باسمك خلصنى وبقوتك احكم لى ، اسمع يا الله صلاتى اصغ إلى كلام فمى انتهى .

ص : نريد أن نرجع إلى الآيات .

(ج) قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين » [تقريره أن نقول] إن الله عزّوجل جعل الانسان محتاجاً لغيره فلا يقدر على القيام بجميع شؤونه فلابدّ من الجمعية العامّة ، وكلّ لكل خادم ، هذا زارع ، وهذا حائك ، وهذا بناء ، وهذه الأنواع الثلاثة هى أصول الصناعات ، وأكثر الصناعات مقدّمات لهذه ، أومتممات لها كالنجارة والحدادة ، وهذا خباز . وهذا خياط . وهذا زجاج . وهذا مسير القطار ومجرى الكهرباء كما سيأتى بيانه عند ذكر الصناعات والعلوم الواجبة على الأمة الاسلامية فى آخر هذه السورة عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وأن كل امرئ استعدّ لصناعة أوعلم يجب على أهل الحلّ والعقد أن يأمروا الحكومات أن يخصصوه بها وأن العناية والحكمة الالهية قد أوجدت لكل عمل قوماً بحسب استعدادهم ومايهيئه اليه فطرهم فكأن الناس جميعاً جسم واحد ولما كان الأفراد يختصمون ، والجماعات يقتتلون ، والأمم تتحارب نصب الله فى الأرض قضاة بين الأفراد والجماعات ، وجعل دولا وممالك ليحموا الجموع ، ويمنعوا الباغين عليهم والمعتدين ، فهذا قوله : [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين] بفصل الخصومات واتحاد الجماعات بسدّ الثغرات .

وأما قوله [تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق] فالحق هنا أن تعتبر يامحمد أنت وأمتك بتلك الآيات والقصص ، فكما ابتلى بنواسرائيل بالاعداء فقاتلوهم وجاء جالوت بجنوده ثم قام طالوت بجنوده بأمر نبيهم شمويل ثم داود فنصرهم الله ، وغلب الحق على الباطل ، ونصر المؤمنون بعد ماتحملوا الشدائد ، هكذا سيكون أمرك وأمر قومك لأن هؤلاء مرسلون [وانك] أيضاً [لمن المرسلين] فلابدّ من نصرك كما نصرناهم ، ولقد احتمل الأنبياء شدائد ، وقاسوا المصاعب الكثيرة كموسى وعيسى وابراهيم وداود ، فمنهم من كلم الله ، ومنهم من أيدته بروح القدس ، ومع ذلك لم يسلم أحد منهم من الشدائد والعقبات والعدوان ، فلتصبر يامحمد كما صبروا ، فلذلك أعقبه بقوله فى :

(المقصد السادس عشر)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *

(والمقصد السابع عشر)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *

ايضاح [1]

يقول الله تعالى (تلك الرسل) الذين ذكروا فى هذه السورة كداود وسليمان ، والذين لم يذكروا ليسوا فى درجة واحدة بل هم درجات بعضها فوق بعض (منهم من كلم الله) كموسى على جبل الطور ومحمد صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج (ورفع بعضهم) كأولى العزم (درجات) كابراهيم وعيسى ونوح ، ثم خص عيسى بمزية قصاء وعزة شماء ، وفضيلة بيضاء ، من إيتاء الآيات البينات ، وتأييده بروح القدس ، تبيانا لليهود وقد حقروه ، وللنصارى وقد عبدوه ، وانزالا له فى منزلة هو بها حقيق ، ومقام به يليق ذكر الأنبياء ومراتبهم ، والمقربين وفضائلهم ، ثم أخذ يشرح أحوال الأمم التابعين فقال : ولوشاء الله ما اختلف التابعون ، لقد اختلف الأنبياء واختلفت الأمم فى الطاعات ، كان الأنبياء مختلفين درجات فى الزلفى لديه ، واختلف الناس فى آرائهم ، فمنهم من كفر ، ومنهم من آمن بعد أن سمعوا الآيات البينات ، وشاهدوا المعجزات الواضحات ، بمشيئة الله اختلفوا ، وبعلمه آمنوا وكفروا ، ثم كررها مرتين ، وعلقها بمشيئته كرتين ، فليس فى العالم إلا مراده ، ولا معقب لما أراده ، فهو الذى رتب الرسل مراتب ، وهو الذى حكم على الأتباع أن يكونوا شراذم .

هذا معنى الآيات الى قوله (ولكن الله يفعل مايريد) . وهذا تسلية للنبى ﷺ ولسائر الناس على مايصيبهم من حوادث الدهر . هذا ولقد أجمعت الأمة على أنه ﷺ أفضل الأنبياء وخاتمهم ، ولاحاجة إلى نقل أقوالهم وحججهم مادام الاجماع حاصلا ، ولكن لنذكر حديثا واحدا ، ففى الصحيحين عن همام بن منبه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأحسنها وأجملها وأكملها الا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنيان فيقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك ؟ فقال محمد : كنت أنا تلك اللبنة »

وهذه الآيات جاءت للتوحيد والايمان بالأنبياء ، ولما كان التوحيد لاقيام له بلا عمل ، والأمور المعنوية لاقيام لها إلا بالمادة ، وإيمان بلا زكاة روح بلا جسم ومعنى بلا لفظ ، وقول بلا عمل أعقبه بقوله (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم) لاتقدرون فيه على تدارك مافرطتم فلا بيع ترفون به دينكم أوتفتدون به نفوسكم ، ولا أخلاء تفزعون اليهم ، ولاأصدقاء تستصرخونهم فيصرخونكم ، ولاشفعاء يشفعون لكم إلا من أذن الله لهم ، فأنفقوا الأموال فى هذه الحياة قبل الفوات لاسيما عند القتال ، فلقد يطغى الأعداء عليكم فيغتالون أموالكم ، وينهبون متاعكم ، ويستعبدون أبناءكم . فانا حكمنا على الناس بالقتال ، وحكمنا السيوف والنبال والديناميت ، وقلنا : لوأنا شئنا مااقتتلوا ، فالمشيئة سابقة ، والحروب لاحقة ، فاذا أبت الأمة أن تصرف أموالها فى المنافع العامة ، وترفع شؤون العامة ، فليوقنوا بضياع كيانهم ، وذهاب استقلالهم ، وتمزيق جامعتهم ، ودوسهم بالأقدام ، وطحنهم تحت رحى الاذلال ، ووطء رقابهم ، وانتزاع عقارهم ، كما كثر الممالك الاسلامية اليوم ، فلاشفعاء لهم يشفعون ، ولا أخلاء لهم يواسون ، ولامال لهم يبيعون .

---

(١) هذا الايضاح داخل فيه جميع التفسير اللفظى

ولقد قابلت شابا من بلاد الجزائر عند تفسير هذه الآية . فقال : ضاعت أملاكنا ، وأفل نجمنا ، وانتزعت منا أرضنا ، وأصبح خمسة الملايين عبيدا خاضعين ، وصعاليك شحاذين ، فلاصديق لهم حميم ، ولاشفيع لهم مقيم ، ولامال لنا به نفتدى من ذلك المعتدى ، فلخص هذه الآيات شيئان : توحيد وانفاق ، وهذا اجمال سيوضح فيما يلى من الآيات على لف ونشر بترتيب . أما التوحيد فقد أبرز له ثلاث مراتب عجيبة : ذلك أنه ابتدأه بآية الكرسى وما بعدها الى قوله « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وثنى بمحاجة ابراهيم والنمروذ ، وثلث بقصص العزير وحماره ، وابراهيم وطيره . فأما الأول فهو تقديس لله وتعظيم ، ووصف لعظمته وجلاله وحكمته ، وعجائب صنعه فى أرضه وسمائه ، وهو بعصر الصحابة أليق ، وبالصدر الأول أنسب . وقد ظهرت الدولة العربية ، وفتحت الأمم الغربية والشرقية ، إذ كان إيمانهم نقيا من الجدال ، بعيدا عن الخصام والشقاق . والثانى شبيه بما حدث فى الدولة من الجدال فى التوحيد وتفرق الكلمة فى علم الكلام كالمعتزلة وأهل السنة والشيعة . والثالث أنسب بمستقبل الأمة المجيد ، إذ ينظرون فى خلق العالم العجيب كما أمر العزير أن ينظر لحماره ، ويتدبر فى تصويرجه وعظامه وكبده وكلاه وحلقومه وسائر قواه ، وكما أمر الخليل عليه السلام أن يتبين الطير وقد فرقها ، ودقائق أجزائها وقد جمعها ، فاطمأن قلبه لما رآه من عجائب صنع الله . هذه أحوال الاسلام فى المستقبل القريب ، ووالله ليخرجن فيهم فلاسفة عظام وحكماء كبار . ذلك أنهم سيرثون العلم عن سائر الأمم ، إذ يعلمون أن التشريح أهم علوم التوحيد كما نظر العزير فى عظام حماره ولحمه الكاسى ويحللون العناصر الكيماوية كما حلل أمامه الطير فى التربة . فهذه العلوم أصل العلوم الدينية ، بل أشرف علوم التوحيد ، وأرقى وأدق علوم الدين .

لقد جهل أكثر المسلمين هذه الحقائق . وعما قريب سيعلمون . ولتعلمن نبأ ارتقائهم بعد حين . هذا ملخص ماسنذكره من مقاصد التوحيد الثلاث ومراتبه المنظمة المرتبة ترتيب أزمان الأمة الاسلامية من أزمان النبوة الى آخر الزمان ، ولايعلم إلا الله مداها ، ولكن هذا ما وصل اليه علمنا ، واستقر عليه فهمنا . إن تاريخ الماضى سيقف الآن وقفة ويبتدئ دور العلم من الآن . إنى بهذا موقن أيما إيقان كالمشاهد بالعيان

فأما الانفاق وإيضاحه فستريك ضرب أمثاله بالحبة والسنبلة والحجر والتراب والجنة والأعناب فافهم وتعجب من الترتيب ، وكيف ابتدأ بمراتب الرسل ، وجعل ذكرهم عنوان التوحيد ، ثم ثنى بالأمم واختلافهم ، وجعلهم مناط القتال ، وأصحاب الميدان والنضال ، وطلب انفاق المال ، لاصلاح داخل البلاد وخارجها ، ثم رجع إلى التوحيد فأبانه أيما تبيان ، والى الانفاق فأوضحه أيما ايضاح ، وفصله تفصيلا ، وأكثر من الأمثال ، وأخذ يفصل أنواع المعاملات فى الأموال . عجيب هذا النظام ، وبديع هذا الاتقان . ولنفصل ما أجملنا فنقول :

المرتبة الأولى

قوله تعالى : الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولا نوم له مافى السموات ومافى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولايؤده حفظهما وهوالعلى العظيم

ورد فى فضل هذه الآية أحاديث كثيرة كقوله ﷺ لأبى المنذر : أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا إله إلاهو الحى القيوم ، فضرب فى صدرى وقال : ليهنك العلم ياأبا المنذر . وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لكل شىء سنام وان سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى .

تأمل فى هذا القول ، وكيف فضلها على غيرها ، وميزها على أترابها ؟ فاعلم أن القرآن فيه قصص وأحكام وأمثال ووعظ ، ووعد ووعيد ، وانذار وتبشير . وهذه السورة خاصة فيها ذكر المنافقين والكافرين ، وهنات بنى اسرائيل ، وفظائع ما ارتكبوه ، وذمهم ، وانذارهم ، ووعيدهم ، وتبكيتهم ، وذكر أمر القبلة والحج والصلاة والصيام والخمر والحيض والطلاق والجهاد والايلاء والحلف وما أشبه ذلك ، وكل ذلك يرجع الى تهذيب النفوس تارة بالذم للمخالفين ، وطورا بأدب المعاشرة مع الأزواج ، والآداب فى معاملتهن ، وآونة بالتكاليف من الحج والصيام والصلاة والصبر ، وذلك كله يرجع لأمر نفوسنا وتهذيبها وتخليها عن الرذائل بالمواعظ والصبر والمشاق ، وتهذيب النفس مقدمة لتحقيق العلم ، والعلم هو الكمال ، والمقام الأوفى ، والذروة العليا ، والسنام والمجد والشرف الأعلى ، وأشرف العلوم ما كان لأشرف المعلومات ، وأشرف المعلومات (الله) جل جلاله وأنه واحد لاشريك له (لاإله إلاهو) وهو (الحى) لم يزل بالحياة موصوفا لم تحدث له الحياة بعد موت ولايعتريه الموت بعد حياة (القيوم) القائم بتدبير خلقه فى إيجادهم وأرزاقهم وجميع ماهم فى حاجة إليه (لاتأخذه سنة ولانوم) فالسنة أوّل النوم والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب ، والمعنى لاتأخذه سنة فضلا عن النوم ، لما اتصف سبحانه وتعالى بالوحدانية والحياة ، وأنه قائم بتدبير كل شىء على الارتقاء فى الوصف من توحده وانفراده وحياته وقيوميته على كل شىء بالتدبير كان لامحالة يرد على النفس وارد فيقول : كم من حىّ قائم بتدبير ما يملك يعتريه النوم فينام ، فقال : « لاتأخذه سنة ولانوم » واعلم أن هذه الصفة خارجة عما اعتاده البشر من اضطرارهم الراحة بعد العمل ، والنوم بعد اليقظة ، لتستكمل الأعضاء قوتها ، ولتأخذ الأعصاب حظها من السكون حتى تقوم بعملها على وجه يليق بها ، ولقد كان ذلك محتاجا الى التفسير عند الجهلاء وافهامهم عما يعلمونه من نفوسهم :

[روى] الطبرى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : « لاتأخذه سنة ولانوم » أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل الملائكة : هل ينام الله ؟ فأوحى الله تعالى الى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلايتركوه ينام ففعلوا ، ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما ، فجعل ينعس وينتبه وهما فى يديه فى كل يد واحدة حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما .

قال معمر : انما هو مثل ضربه الله تعالى له ، يقول : فكذلك السموات والأرض ، ولاتظن أن سيدنا موسى كان يجهل ذلك ، وانما ذلك من الله تعليم لقومه حتى يعرفوه بما يخالف ما اعتادوه من النوم ، وأنه لو نام أو نعس الانسان لانكسر ما فى يده من القوارير .

هذا المثل يعقله العامة والعلماء ، وهو حسن للجميع ، ولكن العلماء ينفردون بعلم ويختصون بحكمة ، ألاترى أنهم ينظرون الكواكب طالعة غاربة ، والشموس مشرقة آفلة ، والأقمار ظاهرة خافية ، جارية بالليل والنهار فوق الأفق وتحت الأفق ، والرياح تجرى بالليل والنهار ، وكذلك السحب والأنهار . وترى النبات والحيوان ينموان بالليل والنهار فلايقفان فى نموهما بنوم ، فانك اذا رأيت شجرة الورد وقد صارت طول ذراع فى أوّل شهر وبعد مضىّ أسبوع وجدتها أطول بمقدار ثمن قيراط فماذا تقول ؟ أتقول : ان نموها كان بالنهار أما بالليل فلا ، كلا . بل النمو فى سائر الأوقات لكل وقت قسط منه ، وأوقات النوم عندنا أوقات يقظة عند قوم آخرين كأهل [استراليا] ولايزال فى العالم نوم ويقظة فى سائر الأحوال وليل ونهار ، بل اذا كنت قارئا ما أسلفنا من علم الفلك ظهر لك أن كل ساعة تمرّ عليك فجر عند قوم وصبح عند قوم وضحى عند آخرين وظهر وعصر ومغرب وعشاء ونصف ليل وهكذا [ليس عند ربك صباح ومساء]

هذه تفصيل حال العالم المشاهد الذى نحن فيه ، فالقارورتان اللتان أوحى الله بهما الى موسى هما السموات

والأرض ، أو الأرض والشمس ، وهما دائرتان دائما أبدا ، فلو أن الله تأخذه سنة أو نوم لاصطكت السموات والأرض ببعضهما ، أو لاصطكت الشمس مع الأرض ، أو مع كوكب من الكواكب فاختل النظام ، وانما اختار القارورتين لأنهما أقرب تمثيل إلى الكواكب [ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده انه كان حليما غفورا]

اذا عرفت ماقررته لك فهمت كيف أعقب الله ذلك بقوله : (له مافى السموات ومافى الأرض) فتعجب كيف أعقب نفى السنة والنوم بأنه له مافى السموات ومافى الأرض كما بيناه لك فتأمل ، واستغنى عن الاستدلال فى القرآن بقارورتى موسى بالمقصود من الذى شرحناه ، وكأن هذه الأمة يراد أن تكون أعلم الأمم والافلماذا يقول الله لموسى أمسك بالقارورتين ، ويقول لأمة محمد : له مافى السموات ومافى الأرض ، وهذا لايعقله ولا يعرفه حق معرفته إلا أصحاب الفكر الثاقب ، ولما كان الناس الذين لهم سلطان فى الارض كالملوك أو من يجرى مجراهم قد يرضون بشفاعة من يشفعون عندهم ، وذلك كأنه تنزل عن الرئاسة والعظمة والسلطان ، وكان الكفار يقولون : ان الأصنام تشفع لهم عند الله أعقبه بقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه) أى لايشفع عنده أحد إلا بأمره كما ذكرنا فيما تقدم أول السورة من شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فارجع اليه ، وقد اشترطنا أن تكون الشفاعة على وجه لايخل بالمقصود من الدين وهو الجد والعمل ، ونبذ التواكل والغفلة والكسل ، ومن تعدى ذلك فقد أضاع أمته ودينه ، وأذهب المقصود من نبوة سيد العالمين (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) مابعدهم وماقبلهم (ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) علمه أى معلوماته ، واذا لم يحيطوا بمعلوماته فهو منفرد بالعلم كما انفرد بالألوهية (وسع كرسيه) ملكه وسلطانه وقدرته أو علمه (السموات والأرض ولا يؤده) يثقله ويشق عليه (حفظهما) أى حفظ السموات والأرض (وهو العلى) الرفيع فوق خلقه الذى ليس فوقه شىء فيما يجب أن يوصف به من معانى الجلال والكمال (العظيم) ذوالعظمة والكبرياء : أى لاشىء أعظم منه .

واعلم أن الكرسى فى لغة العرب اسم لما يقعد عليه ، مأخوذ فى معناه من تركب الشىء بعضه على بعض ومنه الكراسة لتركب بعض أوراقها على بعض ، وهذا الكرسى ركبت خشباته بعضها على بعض ، ويقول بعض العلماء : ان الكرسى هو نفس العرش ، وهو السرير الذى يجلس عليه ، وقال آخر : الكرسى غير العرش ، وهو أمامه ، وهو فوق السموات السبع ودون العرش .

واعلم كما قال القفال : أن المقصود من هذا الكلام تصوير عظمة الله تعالى وكبريائه ، فقد خاطب الله الخلق فى تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم ، من ذلك أنه جعل الكعبة بيتا له يطوف الناس به كما يطوفون ببيوت ملوكهم ، وأمر الناس بزيارته كما يزور الناس بيوت ملوكهم ، وذكر فى الحجر الأسود أنه يمين الله فى أرضه ، ثم جعله موضعا للتقبيل كما يقبل الناس أيدى ملوكهم ، وكذلك ماذكر فى محاسبة الناس يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيين والشهداء ، ووضع الموازين ، فعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشا . فقال « الرحمن على العرش استوى » ثم وصف عرشه . فقال « وكان عرشه على الماء » ثم قال « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم » وقال « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقال « الذين يحملون العرش » ، ثم أثبت لنفسه كرسيا ، فقال « وسع كرسيه السموات والأرض » اذا عرفت هذا فنقول ماجاء من الألفاظ الموهمة للتشبيه فى العرش والكرسى قد ورد مثلها بل أقوى منها فى الكعبة والطواف وتقبيل الحجر ، فاذا قلنا : ان المقصود معرفة عظمة الله وكبريائه مع القطع بأنه منزه عن أن يكون فى الكعبة ، فكذا الكلام فى العرش والكرسى ، هذا ملخص كلام القفال ، ثم ان هذه الآية دلت على أن الله موجود واحد حى واجب الوجود لذاته قائم بنفسه مقيم لغيره لايعتريه النقص والفتور مالك الملك فى

العالمين ذوالبطش الشديد والقهر والعظمة لايشفع عنده الا من صدر له اذن منه يعلم الجليل والقليل ، واسع الملك والقدرة وقوله (ولا يؤده) أى لايثقله متعال عما تدركه الأفهام وتتخيله الاوهام ، عظيم لاتحيط به العقول ، ولاتدركه الأبصار ، هذه آية الكرسى ، ألاتذكر ماقاله ﷺ لأبى المنذر وقدضرب فى صدره [ليهنك العلم] كأنه صلى الله عليه وسلم ، يقول : ياأبا المنذر لعناً بالعلم مشيعا بالضربة الى أن قلبه امتلأ نورا بالعلم ، وكيف يكون ذلك والقرآن كله علم فلم خص آية الكرسى ؟ فاعلم أن جواب هذا السؤال واضح مما قررته لك عناك من أن المقصود من القرآن هو العلم ، وأهم العلم ذات الله وصفاته وأفعاله ، فهذه الآية ذكرت صفاته سبحانه وتعالى ، فأما ماعداها من أكثر الآيات ، فلم تعد الانذار ، والتبشير ، والحج ، والصلاة ، والزكاة ، وتهذيب النفوس والأخلاق ، ولعمرك ان هذه العلوم كالفقه ، وعلم القصص ، والاخبار كل ذلك مقدمات لتحلية النفس بالعلم ليكون زينة للنفس ورقيا للمدنية وسعادة للأمة وفوزا مبينا .

بذور القرآن

ولعلك تقول : أين سعادة الأمم فى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ، ونحن نرى أنانعرف ذلك ، ونحن فى أخريات الأمم ؟ أقول : على رسلك لئن عرفنا ذات الله بالتقديس والتنزيه ، وعرفنا صفاته بالكمال والجلال وأفعاله بالنظام والميزان لنكونن أرقى الأمم ، ولأوضحن لك ذلك .

فأقول : لقد بذر الله فى قلوب العباد من المسلمين فى مساجدهم وصلواتهم أن يقرءوا آية الكرسى ، وآمن الرسول « والم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » الآيات ، وقوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة] الآيات ، وقوله [قل اللهم مالك الملك] الآيات ، وقوله [سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم] الآيات ، وقوله [هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة] الآيات ، أليست هذه الآيات يقرؤها المسلمون صباحا ومساء عقب صلواتهم ، لما جاء فى فضلها ، فقل لى : رعاك الله لم يقرءوا آيات غيرها ، ولم يقرءوا مثل [تبت يدا أبى لهب] ، أونحو قوله تعالى [وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله] ولماذا تكرر هذه الآيات ، واختارها الصالحون والصوفية لتلاميذهم وأوصوهم بها ؟ ان ذلك لعمر الله لسر قد آن انكشافه وان هذا وقت ظهوره ، ان أولئك الاساتذة كانت تنشرح صدورهم لذلك التلقين ، ويعلمون التلاميذ ذلك الا كسير ليفتح الله عليهم بالقبول والوصول من طريق التقوى وتصفية الباطن ، ولكن الأمر عظيم ، ان ذلك أشبه بما كان عند قدماء المصريين من العلوم المطمورة ، والآثار المخبوءة ، والرموز المكتومة ، حتى جاء علماء الآثار فحلوا معمياتها ، ووقفوا على بعض جزئياتها ، وهكذا ترى علماء الاسلام اليوم يبحثون فى أسرار القرآن فلأتل عليك قلامن كثر ، وقطرة من بحر الأسرار فى الدين .

فأقول : لقد استبان لك أن صفات الله ظهر بعضها فى آية الكرسى ، وترى الآيات الأخرى كذلك ، فقوله « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وصف لله ، ولكن أعقب هذه الصفات بذكر الأفعال . فقال « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء » بعد قوله « إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » أوليس ذلك يدعو الى علم التشريح ، وعلم الكيمياء ، وكيف لايدعو الى ذلك ، وهو يقول [يصوركم فى الأرحام كيف يشاء] أليس هذا يدعو الى علم الحياة المخترع حديثا الذى يبحث فى حياة الانسان ، والحيوان ، والنبات أوليس الجنين فى الرحم مكونا من الدم الناجم من خلاصة الغذاء ؟ وبالتفاعل الكيماوى كونت هذه الأعضاء أوليس هذا العلم يشمل الحيوان والنبات ؟ تنظر نظرة أخرى فى قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم] أوليس قوله [شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط] يدعو الى سائر العلوم ، فان القيام بالقسط هو نفس النظام : أى نظام الملك ،

ونظام الطبيعة .

وقد قال علماؤنا لايعرف معنى القيام بالقسط الامن درس سائر العلوم ، كما قالوا فى قوله تعالى [ووضع الميزان] فى سورة الرحمن ، ان هذا الميزان لايعقله الا الذى درس كل علم كالطبيعة والفلك والكيمياء ، فان الذرات فى التفاعل الكيمارى لها حساب دقيق لاخطأ فيه ولاخلل ، كما ترى فى تركيب الماء من الاكسوجين والأودروجين ، وان نسبة وزن الاوكسوجين الى الاودروجين معلومة لاتتغير ، وهكذا نسبة حجم الأول الى الثانى ثابتة ، وهذا أمر لايستثنى منه شىء فى العالم ، كما قال تعالى [ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين] ولعله لقد قرأنا بعض صفحات هذا الكتاب فى الطبيعة فأيقنا بنظام جميل بديع وتحققناه وألفينا حساب الله لم يذر ذرة الا حسبها ولا أصغر منها إلا كتبها وأودعها فى الطبيعة وألقاها الى الناس أجمعين . وقال للمسلمين هذه علومكم فادرسوها جعلتها فى القرآن لتحفظوها و يتعبد بها الصالحون و يدرس بها ماصنعت ومانظمت العلماء المفكرون والحكماء المحققون ، فان رضيتم بقشور القراآت ، ووقفتم عند حد التلاوات فانكم ياعبادى فى عداد الأموات ، وان فكرتم فى مصنوعاتى ، ودرستم مخلوقاتى ، وعرفتم موازينى ، وأيقنتم بقسطاسى ، فانكم بذلك تحيون وترفعون رءوسكم بين الأمم ، وهل يقر لكم قرار ، أويكون لكم اصطبار ، وأنا أنعشت الأمم حولكم فجاسوا خلال دياركم ، وأنتم عن الحكمة نائمون ، وعن التبصرة معرضون ، أولم تتفكروا فى آية [قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى] الآية .

أوليست هذه الآية المقروءة عقب الصلوات المختارة فيما اختاره الاساتذة الأخيار دالة على أن الملك ينقل من قوم إلى قوم ، وأنه لكل أمة يوم ، وأنا الذى أصطفى من عبادى للغلبة من أشاء كما زاد النهار تارة والليل أخرى بحساب ، وكما أخرج الحى من الميت ، وأخرج الميت من الحى ، أليس ذلك يدعو لدراسة الأفلاك والكواكب ، وعلم الحيوان ، أوليست هذه أفعالى ، أوليست صفاتى فى آية الكرسى لايظهر لكم آثارها الابأفعالى ؟ فهاهى ذه أفعالى ، و إذ أنزلت القرآن ، وقرأتموه وكررت تلك الآيات التى هى من أهم العلوم ، أفليس فيكم رجل رشيد ؟ ألم يقم منكم قائمون يذكرونكم أن تلك التلاوات التى سيقت للعبادات يتبعها العلم والتفكر ، أفلم يكن من رحمتى لكم أنى ألهمت أسلافكم حفظ آيات صفاتى وأفعالى لتكون ذخيرة لكم لعلكم تعقلون ، أولم تقرءوا ما كتبه العالم الهندى فى كتاب كليلة ودمنة من الحكايات الخرافية ، وأنه قيل فى أول ذلك الكتاب : ان الحكايات تكون تسلية للجهال وغراما للأطفال ، ولكنها حكمة للحكماء وعز للملوك وسياسات للقواد العظماء ، فهل ترون ذلك فى كتاب أحد عبيدى ولاترونه فى كتابى الحق ، كتابى يتعبد به العباد ويدرسه الحكماء .

أقول هذا هو السر فى اختيار هذه الآيات وهى بذور للحكماء والعلماء ومتى شاع هذا القول بين علماء الأمة ظهر سر قوله « ليظهره على الدين كله » وسر قوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

هذا هو أوان اليوم الموعود للأمة الاسلامية ، هذا هو السر المصون والجوهر المكنون ، والجمال والنور المختبئ فى القرآن الذى أبرزه تألب الأمم الغربية على المسلمين ، فليقرءوا كل علم وليعرفوا كل فن ، بهذا أمر الله فى الكتاب ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . هذا ولنرجع الى الكلام الى مابعد آية الكرسى

فنقول

فنقول :

قال تعالى (لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) أى تميز الايمان من الكفر بما ظهر من الآيات الواضحات أن الايمان سعادة ، وأن الكفر شقاء (فمن يكفر بالطاغوت) بالشيطان أو الأصنام أو كل ماعبد من دون الله (ويؤمن بالله) بالتوحيد وتصديق الرسل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) طلب الامساك بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق وهذا مستعار للتمسك بالحق من النظر الصحيح والرأى القويم (لا انفصام لها) لا انقطاع لها (والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا) محبهم أو متولى أمرهم (يخرجهم) بما منحهم من التوفيق والهداية (من الظلمات الى النور) أى الهدى والايمان (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) المضلات من الشيطان والهوى والأصحاب وغيرهم (يخرجونهم من النور الى الظلمات) من نور الفطرة (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

المرتبة الثانية فى التوحيد

وهى قوله تعالى : (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ، الى قوله : والله لا يهدى القوم الظالمين)

يقول : هل انتهى الى علمك يا محمد خبر الذى خاصم ابراهيم فى ربه وجادله ؟ وهو نمروذ ، فقال أنا أحيي بالعفو وأميت بالقتل . فقال له ابراهيم : فهل تقدر على تغيير الأفلاك وقلب نظام الشمس فى سيرها فصار الذى كفر مبهوتا وانتهى من المجادلة مقهورا . وهل يهتدى الظالمون الى الحجة البلجاء والعقيدة السهلة السمحاء .

ثم أتبعه بالمرتبة الثالثة : ونظمها فى سلكها ، ورتبها بعد تمامها ، فقال (أو كالذى مر على قرية) والكاف صلة كأنه يقول : ألم تر الى الذى حاج ، والى الذى مر على قرية ، وهو أرمياء أو عزير ، والقرية اما بيت المقدس أو إيلياء ، وقد كانت خاوية ساقطة حيطانها (على عروشها) سقوفها (قال) ذلك النبى استعظاما لأمر الله واعترافا بالقصور عن ادراك طريق الاحياء ، كيف يحيى هذه الله بعد موتها ، وقد كان من قبل ذلك سطا على بنى اسرائيل بختنصر فى جمع عظيم ، فأنزل بهم العذاب ، وأجلاهم الى بلاد العراق وفارس ، فلما أن هلك أمر بعض ملوك الفرس بارجاعهم الى بيت المقدس وتعميره وتعمير ايلياء ، فلما أن قال ذلك النبى ماقال ، وقد شاهدها خرابا بلقعا ووحوشا يبابا ، وقد كان معه عصير عنب فى ركوة وسلة تين . وهو على حماره فمات لساعته ضحوة وحيى بعد مائة سنة . وقد عمرت القرية على رأس السبعين . وتمت وزكت فى ثلاثين ، هذا معنى قوله (فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه قال) له الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك) التين (وشرابك) العصير (لم يتسنه) يتغير (وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها) نحييها أو نرفعها (ثم نكسوها لحما) .

تلك الحادثة كانت أيام سقوط الدولة اليهودية ، ذلك أنهم كانوا فى مصر نحو أربعمائة عام ومكثوا فى حكم الشيوخ السبعين والكاهن نحوا من ذلك حتى كان ما كان من أمر طالوت وشموئيل وداود وسليمان فظهرت دولتهم واستفحل ملكهم ، وضخمت شوكتهم حتى ملكوا الفرات وأطراف اليمن وبعض جهات الروم ، وجاوروا ملوك الفرس ، وذلك فى نحو ستمائة سنة ، وكانوا فى تاريخهم أشبه بالعرب فى سيرهم فانهم لما وصلوا فى الفتوحات لجبابرة التتر أزالوا دولتهم فى القرن السادس ، فهكذا هؤلاء لما ملكوا الأرض المقدسة حاربهم الفلسطينيون ، وهم العماليق ، وقلبوا جمهوريتهم الى ملكية ، ثم أخذ ملكهم يزداد وعظمتهم تمتد وطودهم يشمخ ، وأوتادهم تثبت ، حتى جاوزوا الفرات ، والجزيرة ، فانقض عليهم جيرانهم ، فأذاقوهم سوء

الغلب ، ذلك تاريخهم فبدأ سلطانهم فى أول السورة عند ذكر موسى .

وقلب الجمهورية الى ملكية فى قصص شموئيل وطالوت وداود ، وسقوط مجدهم ، وهبوط نجمهم ، وأفول سعدهم أيام العزير ، اذقرأ لهم التوراة عن ظهر قلب .

ثم كانت خاتمة أمرهم أن اجلاهم الروم ، ذلك أنهم أى الروم قد غلبوا اليونان الذين غلبوا الفرس ، فانه لما تولى اليونانيون على ملك فارس بقائدهم اسكندر ، ورثوا ملكهم ، ومنه بيت المقدس ، ثم لما غلبت الروم اليونان ضموا اليهود اليهم ، وأجلوهم الجلوة الكبرى ، ونقلوهم الى رومة ، وما والاها من البلدان وفى أيامهم أرسل المسيح عليه السلام .

فاعجب لترتيب هذه القصص على مقتضى الزمان ، وترتيبها كترتيب التاريخ ، وأهم منه ما أشرنا له من قبل عماد الأمر وقصاراه التأمل فى حكمة الله ، وانظر كيف يقول تعالى : وانظر الى حمارك وانظر الى العظام كيف ننشزها الخ فأمره بالنظر فى جسم الحمار مرتين . وقال ارجع البصر كرتين ، أوجب علم البيطرة لبيطرة الدواب والتشريح لمعرفة الأجسام للانسان والحيوان ، ثم ذكرهما جملة من العلم فى نحلها ونظمها فى سلكها فجاءتا درتين فى تاج الحكمة والعلم ، ومصراعين ليث الاسلام فقال (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) الى قوله (عزيز حكيم) لما حاج نمروذ ابراهيم ، وقال له أنا أحيى وأميت وعفا وقتل بعد قول ابراهيم الله يحيى برد الروح الى البدن انتقل ابراهيم الى ما تقدم ذكره ، ثم سأل الله المعاينة ، وذلك قوله تعالى (واذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى) الآية ، يقول ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى ليصير علمى عيانا (قال) الله له (أولم تؤمن) باحياء الموتى (قال) ابراهيم له (بلى) آمنت ولكن سألت ذلك لأزيد بصيرة وسكون قلب بضم العيان والمشاهدة الى الوحى والاستدلال (قال) الله له (فخذ أربعة من الطير) طاووسا وديكا وغرابا وحمامة (فصرهن اليك) أملهن اليك ، من صاره يصيره و يصوره ، وقرئ صرهن بالضم والكسر : أى اجمعهن (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا) أى جزئهن ، وفرق أجزاءهن على الجبال التى بحضرتك وهى أربعة (ثم ادعهن) قل لهن تعالين (يأتينك سعيا) ساعيات مسرعات طيرانا أومشيا (واعلم أن الله عزيز حكيم) فهو بالعزة غالب وبالحكمة منظم ومتقن .

اياك أن يلج فى صدرك أن مثل هذه الآية نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم بعد قصص العزير وحماره لتسمع قصصا تقص وتاريخا خلا من غير أن تعتبر وتذكر وتفكر .

يقول الله : انظر الى حمارك ، ثم يقول : انظر الى عظامه كيف ننشزها ، ثم نكسوها لحما ، ولاجرم أن ذلك يستوجب لمعرفتنا لعلم التشريح وبناؤه الطب ، ولن يقوم الطب أساس ولا التشريح قائمة إلا إذا درست العلوم الطبيعية من النبات والحيوان وفصائلها وأنواعها وأجناسها وأشكالها و بذورها وغير ذلك .

وتعجب كيف طلب الخليل من ربه أنه يريه احياء الموتى عيانا بعد التصديق بالاستدلال والوحى تعليما للأمة الاسلامية أن يبحثوا وتهييجا لهم أن يتذكروا ، بالله من ذا ينكر احياء الله الموتى من عجائز المسلمين والنصارى واليهود ، ومن ذا الذى يختلج فى قلبه أو يهجس فى نفسه منهم أن يقول ان الله لايحيى الموتى فضلا عن القراء والعلماء والأنبياء ، فكيف يكون حال ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

لاجرم أن الأمر فوق مايظنه أفراد الناس وأن الايمان والسعادة وارتقاء العقول البشرية التى تتبع ارتقاء الأمم الانسانية يعوزها دراسة الأشياء المحيطة وعجائب تركيب الأجسام ونظام الحيوان وكيف يكون التحليل وكيف يكون التركيب .

وأنت اذا وقفت على بدائع تركيب المخلوقات الحية وغير الحية اعتراك الدهش وأخذتك الحيرة وغشيتك غواشى

العجب والبهر وأذهلتك أيما اذهال ولأرك طرفا من علم الكيمياء لتدرك سرا من أسرارها وحكمة من علمها وقطرة من بحرها لتعجب من هـذا الوجود وتدرك ما كان يرتضيه الخليل و بما اذا أراد الله بهـذا القصص وما شأن الطيور وتمزيقها وتوزيعها على الجبال وسعيها طائرات ، وما شأن الحمار وعظامه ولماذا أمر العزير ، بالتأمل فى انشاز عظامه أى احيائها و بتحريك بعضها وضمه الى بعض وأنه يكسوه باللحم ؟ فأقول :

ان فى علم الكيمياء كلمتين هما المزج والاتحاد فلو أنك مزجت عشرة جرامات من الفحم بعشرة من مسحوق الكبريت كان الحاصل منهما حافظا لخواصه الأصليـة حتى اننا لو نظرنا الى هـذا الممزوج بمنظار لشاهدنا أجزاء سوداء لاقانون له ولاضابط ولاقاعدة ، وانما ذلك حسب الهوى كما تضع الملح فى اناء والتراب مع الملح فلا اتحاد ولا التئام ولا انتظام .

الاتحاد

أما الاتحاد فهو السر المصون والعلم المكنون والنظام البديع الغامض المتقاصى عن الجاهلين المترفع عن ادراك الغافلين وهذا هو سر الله فى أرضه ومرمى آراء الخليل والعزير والنبى ﷺ ، ومن أدركه فقد أدرك السر المكنون والكبريت الأحمر وكأنما ملك الدنيا بحذافيرها فان هذا هو سرها وعجبها و بدعها ، ومن يدركه إلا الموقة القماقم وصناديد العلم الأكابر ، فى الاتحاد تفقد الأجسام خواصها الأصليـة وطباعها وأوصافها وأحوالها وألوانها وتتحول إلى شىء آخر مغاير لكل منها ، خذلك مثلا :

القطن والقمح والبرسيم

هذه نباتات كونت فى الأرض من هذه العناصر وهى : البوتاسا ، والصودا ، والجير ، والمغنيسيا ، وحمض الفوسفوريك ، وحمض الكبريتيك ، والسلكا ، والكلور .

عناصر	قطن	قمح	برسيم
بوتاسا	٣٥ر٥	٣١ر٥٤	٣٤ر٦
صودا	٣ر٦٤	٣ر٦٦	١١ر٤
جير	١٤ر٩٣	٣ر١٤	٢١ر٦
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٢ر١٠	٤ر٥
حمض فوسفوريك	٨ر٣٤	٤٨ر٥٠	٥ر٣
حمض كبريتيك	٧ر٣٧	٠٠ر٠٨	٤ر٢
سلكا	٨ر٣٢	١ر٨٨	٣ر٨
كلور	٦ر٣٧	٠٠ر١٠	١٣ر٩

أنت تعرف الجير وقد دخل فى القطن بنسبة ١٥ فى المائة تقريبا وفى القمح بنسبة ٣ فى المائة وفى البرسيم ٢١ فى المائة ، وأنت تعرف الجير تراه بعينك لكنك لو حللت النبات لم تر جيرا وإنما هو نبات حول الجير اليـه وذهبت خواصه وصار طعاما جديدا .

هاأنت ذا حللت النبات ونظرته فألفيت البرسيم والقطن والقمح من مواد متحدة .

المواد والعناصر فى الثلاثة متحدة فأنت مالبست ولا اكلت ولا أكلت البهائم إلاتلك العناصر المتحدة التى فقدت خواصها ، ولعمرك ماتحولت إلى تلك الخواص والأجسام الحادثة الجديدة إلا بتلك النسب المحفوظة ، فهذا الوزن وهذا الحساب هو الذى مكن من اعطائها أشكالها النافعة فكانت غذاء الحيوان ورداء الانسان وزينة الرجال والنساء فنحن نلبس ونتزين بما يأكله الحيوان ، ولكن السر المصون هو النسب فاذا حولت النسب حولت الخواص وتغيرت الأسماء .

أليس ذلك من العجب ولو أن البوتاسا صارت فى القطن ٣٦ فى المائة بدل ٣٥ر٥ فى المائة ماتركب

قطنا بل كان ممزوجا لامتحدا ولم تكن فيه خواص القطن وعلى ذلك كانت قاعدة الاتحاد .

ان اتحاد الأجسام بعضها ببعض يكون بمقادير محدودة ثابتة فى كل مركب وهو المسمى بقانون المقادير المحدودة فترى الماء مثلا مركبا من (١) أكسوجين و (٢) أودروجين ونسبة الثانى إلى الأول وزنا كنسبة واحد إلى ثمانية و يفقد كل منهما صفاته الخاصة وتحدث صفات لم تكن لهما وهى صفات الماء من طعم وهيئة وغير ذلك ونسبة الأول إلى الثانى حجما كنسبة (١) إلى (٢) والأكسوجين عبارة عن جسم هوائى إذا أدخلت فيه شيئا قابلا للاحتراق احترق ، أما الأودروجين فهو جسم هوائى أيضا طيار كالأول إنما إذا أدخلت فيه حيوانا مات حالا فهو جسم مميت ، أما الأول فهو جسم محرق وهذان الجسمان باتحادهما مع بعضهما تكوّن الماء الذى به حياة كل شىء ، وتعجب مما أذكره لك : وهو أنه إذا تركب جزآن من الأكسوجين مع جزءين من الأودروجين فانه يحصل منهما جسم آخر ليس بماء ، و إنما هو جسم كاو محرق يسمى (دينوكسيد) وهو سائل محرق أكال لما يحل فيه ، فتعجب من هذه المركبات وكيف كان حساب الماء دقيقا ، ولما اختل الحساب جاء سائل آخر قاتل فتى كان جزآن من الأودروجين مع جزء واحد من الأكسوجين كان فيه حياة كل حى ، ولما صار الأكسوجين جزءين كالأودروجين صار قاتلا لكل حى ، وانظر الفرق بين الاحياء والاماتة تجده جزءا واحدا فقط وكيف اختار الله هذا التركيب وجعله محيطا بالأرض وهو الماء «ان الله سريع الحساب» .

ما أعجب ماترى فى هذا المقام وما أبدع ماعرفت أيها الذكى لم اختار الله هذا التركيب أليس لأنه به الحياة ولو أنه زاد الاكسوجين جزءا واحدا لم يصلح المركب للحياة أليس ذلك دلالة على أنه محيط بكل شىء « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم » و إلا فلماذا هذا النظام والحساب والعجب العجاب اه .

وهناك قانون آخر يسمونه قانون النسب المضاعفة (إذا اتحد جسمان وتكوّن منهما جملة مركبات فاذا بقيت كمية أحدهما ثابتة فكمية الآخر تتغير على حسب نسب مضاعفة بسيطة جدّا) .

فترى الأوزوت يتحد بالأكسوجين ويكون منهما خمس مركبات .

(الأوّل) يحتوى ١٤ من الأوزوت و١٦ من الأكسوجين

(الثانى) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٢ من الأكسوجين

(الثالث) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٣ من الأكسوجين

(الرابع) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٤ من الأكسوجين

(الخامس) على ١٤ من الأوزوت و١٦ فى ٥ من الأكسوجين

فترى من ذلك أن تركيب الأجسام جار على نظام ثابت بحساب معين ونمط بديع وهو السحر الحلال وعلى ذلك سائر المركبات من نبات وحيوان وانسان وهذا معنى كونه عزّ وجلّ « سريع الحساب » وقوله « وكل شىء عنده بمقدار » وقوله « وان من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « إنا كل شىء خلقناه بقدر » وقوله «وما كنا عن الخلق غافلين» وقوله « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » .

فاذا تصوّرت أن كل ١٨ جراما من الماء فيها ١٦ جراما من الأكسوجين وجرامان من الاودروجين وأنك لو زدت ذرة واحدة من أحدهما أو نقصتها لم يكن اتحاد و بقيت بخاصتها وهكذا بقية المركبات المتحدات أدركت كيف أمر الله عزّ وجلّ الخليل بالنظر فى العوالم العلوية والسفلية وكيف أمره بتحليل الطير ثم ركبه وهو ناظر إليه ليقف على سرّ التحليل والتركيب والنظام البديع وليكون ايمانه عن يقين لابرهان أو تقليد .

وهذا أهمّ المسائل وأعجبها ولو أنك راقبت النبات فى مدرستنا لرأيته يجتذب الذرات من الأرض فتتمثل بجسمه وتنقلب ورقا وزهرا وثمرا على نهج قانون الاتحاد وناموس النسب ، فاذا تفرّقت أجزاؤه وتحللت عناصره

أعيد

أعيدكرة أخرى فى نبات أو حيوان بنسب محفوظة على قوانين ثابتة ، فآية الطير واضحة أمامنا صباحا ومساء كل حين ونحن عنها غافلون ، انها لضرب مثل لماتشاهده كل وقت ، فعلى قادة المسلمين أن لا يغفلوا عن هذه الحقائق وأن لاينامو عن هذه الدقائق ، وهاك جدولا جامعا لكثير من النبات المشهور النافع للانسان والحيوان وهاهوذا .

عناصر	القطن			القمح		الشعير	
	شعر	بذرة	خشب	حب	تبن	حب	تبن
بوتاسا	٥ر٥٠	٣٢ر٣	٣٢ر٩	٣١ر٥٤	١٥ر٦٤	٢١ر٣٠	١٨ر٨٠
صودا	٣ر٦٤	٦ر٩	٥ر٤	٢ر٦٦	٩ر٥٤	٤ر٠٠	٦ر٨٠
جير	١٤ر٦٣	٥ر٦	٢٨ر٠	٣ر١٤	١٠ر٠٠	٢ر٤٠	٤ ٧٠
مغنيسيا	٨ر٧٨	١٦ر٥	٦ر٣	١٢ر١٠	٣ر٥٠	٩ر١٠	٢ر٥٠
حمض فوسفوريك	٨ر٣٤	٣١ر١	٨ر١	٤٨ر٥٠	٣ر١٠	٣٣ر٧١	١ر٦٠
حمض كبريتيك	٧ر٧٧	٢ر١	٥ر٤	٠٠ر٠٨	٤ر٧٠	٢ر١٠	٣ر٥٠
سلكا	٨ر٢٢	٠ر٣١	٥ر٩	١ر٨٨	٤١ر٩	٢٧ر٥٢	٤٣ر٠٠
كلور	٦ر٣٧	١ر٥٠	٧ر٥	٠٠ر١٠	٥ر٢٠	٠٠ر٣٠	١٧ر٣٠
اوكسيد الحديد	معدوم	معدوم	معدوم	آثار	٦ر٢٠	٠٠ر١٥	١ر٣٠

عناصر	الذرة		الفول		بطاطس	القصب		برسيم
	حب	سيقان وقوالح	حب	تبن	نوع من الكمء	ورقه وقاماته	مجرد من قاماته	
بوتاسا	٣٧ر٩	٣٢ر٠	٤٢ر٥	٢٧ر٨	٦١ر٦	٢١ر٥	٣٤ر٣٠	٣٤ر٦
صودا	٣ر٠	٣ر٠	٣ر٣	٨ر٦	١ر٩٠١	٢ر٤٠	١ر٩٠	١١ر٤
جير	٣ر٤	٩ر٧	٦ر٠	٢١ر٥	٢ر٤	٧ر٢٥	٤ر٨٠	٢١ر٦
مغنيسيا	٧ر٥	٥ر٥	٧ر٣	٥ر٦	٥ر٠٠	٣ر٨٠	٢ر٩٠	٤ر٥
حمض فوسفوريك	٤٤ر٨	٢ر١	٣٤ر٦	٥ر١	١٧ر٦	٣ر٣٥	٤ر٨٠	٥ر٣
حمض كبريتيك	١ر٥٠	١ر٤	٣ر٥	٥ر٩	٦ر٢	٦ر٣٠	٦ر٥٠	٤ر٢
سلكا	١ر٤٠	٣٢ر٨	٠٠ر٩	٨ر٧٠	١ر٠٠	٤٤ر٨٠	٢٦ر٩٠	٣ر٨
كلور	آثار	١٠ر١	١ر٤	١١ر٥	٢ر٢	٨ر٢٠	٨ر١٠	١٣ر٩
أوكسيد الحديد	٠٠ر٤	٣ر٠	٠٠ر٤	٤ر٩	٠ر٨	١ر٩٠	٩ر٨	

تأمل هذا الجدول تجدأن مطعوم البهائم ، والآدميين ، والملابس ، والفاكهة كلها عناصر واحدة اختلفت مقاديرها ، فياعجبا كيف كانت مادة الذرة هى مادة القمح بعينها بل مادة القطن و باختلاف المقادير صار هذا ملبسا ، وهذا مطعما [إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون] حارت الافكار فى هذه الحكمة الباهرة ، فان نظرنا الى ترتيب النبات مع المعادن والحيوان ، وترتيب كل طبقة فيها وجدنا أحكاما ، وان نظرنا الى أجزاء كل شجرة من أعضائها الظاهرة من عروق وسوق وفروع وأوراق وأزهار وثمار رأينا حكمة باهرة وانها موزونة بميزان عدل ، وان نظرنا الى عناصرها التى تركبت منها رأينا مقادير مختلفة وعناصر متحدة ،

وباختلاف المقادير اختلفت الطعوم ، والأشكال ، والألوان ، والروائح ، والمقادير ، وما أشبه هذه النظم فى ترتيبها بنظام السموات ، فكما رأيت هناك جداول لها نظام خاص ، فكذلك ترى هنا جداول محكمة ، ولقد صدق فيثاغورث فى قوله : ان العالم مبنى على الأعداد والموسيقى ، ومن هنا نفهم سورة الرحمن ولنذكر آيات منها لنفهم المقصود . قال الله تعالى « الرّحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » ثم خلق الله الانسان فيه كل نظام وترتيب ، ولما كانت الأشكال تحن الى أشكالها وضعت الروح ذات العلم والأدب وحب النظام والترتيب فى هذا الجسم المشاكل والمناسب لخلقها وأعربت وبينت عما استكن فى هذا العالم الذى هو طبعا يحكى الجسم ، فلذلك أعقبه بقوله [علمه البيان] فأبان مايقرأ على صفحات هذا الكون من العلوم واللطائف والعجائب اذ خلق العالم أولا مقدمة لخلق الانسان ، وليكون دفترا له وكتابا يقرؤه فله نفع فى عقله وفائدة فى جسمه ، فخلق الانسان أولا فاستفاد الماديات وعلمه البيان لاستفادة العلوم منه ، ولما كان هذا الكلام مجملا ، والمجمل لايغنى عن المفصل فى التعليم شرع الرّحمن يفصله تفصيلا مظهرا آثار رحمته على أجسامنا أولا وعقولنا ثانيا بالخلق أولا والعلم ثانيا . فقال [الشمس والقمر بحسبان] ولقد أعدنا هذا الكلام مرارا لواتضح لك نظام السموات على أبهج أوضاعه وترتيبه وبينا أيضا أن العالم السفلى نظامه تابع العلوى لوصول الأثر من الثانى ، فلذلك كان له نظام بحساب متقن كتبوعه الأول كما رأيت هنا ، فلذلك قال [والنجم] هومالاساق له [والشجر يسجدان] فذكر المزارع من نبات وشجر ، وقد رأيت حسابها فأفاد أنهما يسجدان ، ولقد رأيت آثار السجود فيها من اطرادها على قانون واحد لايتغير ولا يتبدل ، ولما كانت النباتات على سطح الكرة الأرضية ، وهى مستديرة والسماء محيطة بها من جميع الجوانب ومرسلة أشعتها عليها وأمطارها ورياح جوّها كانت الأرض ومزارعها ككرة طرحت بصوالجة فتلقفها هذه الحوادث الفلكية والجوّية وذكر السماء بعدها كما ذكر الشمس والقمر قبلها لتفيد الاحاطة المذكورة . فقال [والسماء رفعها] وهذه الرفعة حسية وعقلية ، أما الحسية فظاهرة ، وأما العقلية فقد علمتها من التأثيرات المختلفة بالحوادث المتناقضة فتارة تأتى برد ، وأخرى بحرّ ، ومرة بخصب ، وأخرى بجدب ، ولاريب أن هذا يورث خللا فى النظام ، وعدم ترتيب فى الأحكام فلا بدّ اذن من قانون تسير عليه هذه العوالم كسفينة [فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها] فلذلك أعقبه بقوله [ووضع الميزان] ولقد فهمت فى الجداول السابقة فى العالم العلوى والسفلى شيئا من الميزان فقس عليه كل أحوال هذا الكون فكله موزون بهذا بعينه ، ومن هنا نفهم قوله تعالى [والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون] فلقد شاهدت الميزان فى الجداول السابقة [وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين] .

ولذلك فهمت أيضا من هذه الجداول قوله تعالى [وهو الذى مدّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون] فلقد رأيت أنه فضل القمح على الذرة فى الجدول السابق بالعناصر المقوية للعظام كالسلكا الذى هو مواد رملية ، وحمض الفوسفوريك الذى يدخل فى تركيب عظامنا ، ومنه تصنع أعواد الكبريت ، فهاتان المادتان فى القمح أكثر منهما فى الذرة ، بخلاف الكبريت فهو فى الذرة أكثر منه فى القمح ، وهكذا بقية العناصر ، فباختلاف المقادير فضل هذا الطعام على ذلك الطعام .

قلنا ان الفسفور فى القمح أكثر ، وهو داخل فى تركيب العظام ، وهـذا مشاهد فى عظام الموتى فانك ترى أبخرة تتصاعد ، وكثيرا ماترى بالليـل نارا ساطعة ، وماهى الا تلك المادة الفسفورية التى ذكرناها فى الأغذية وكنت فى العظام ، قد تصاعدت فتلاقت بالمادة الحارة فى الهواء ، وهى الاكسوجين فاتقد نارا فظن العامة أنها كرامة لولى أونحو ذلك ، وقد فهمت الحقيقة ، وقس على هذين النباتين غيرهما .

ثم ان هذه المواد تدخل فى تركيب الأجسام النامية ، وتبقى الى أمد معلوم ، ثم تنحل وبذروها الهواء وترجع ثانيا ، وتدخل تركيبها كما قال تعالى ـ انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا ـ استدلال بالطبيعة على بقاء الأرواح واليه رمز ـ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى .

ولعلك تقول الآية ، واردة فى خلقنا بعد الموت ، قلنا نعم ، وانما نحن ذكرناها على سبيل الاشارة والرمز أونحو ذلك مما ذكره علماء البيان ، بل بقاء العناصر الأرضية بعد الانحلال دليل على بقاء أرواحنا بعد الموت وكيف تبقى هذه العناصر المعتمة المظلمة الميتة وتهلك تلك الأرواح الطاهرة المنيرة الحية العالية بل كان الأجدر بالقياس أن تهلك المادة وتبقى الأرواح ، فاذا بقى الأخس فالأشرف أولى بالبقاء لأن الروح اذا كانت بسيطة كما هو اجماع الحكماء ، فكيف تفنى ؟ والفناء انما هو تفريق كما تفرق الجسم عن البدن المركب من عنصرين : روح وجسم ، ففناء الأرواح ليس يقبله العقل بالكلية فافهم .

لطيفة

من أعظم أسرار القرآن التى ظهرت فى هذا الزمان سر [الم] فى أول سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله [أما بعد] فانى بينا أنا جالس بالمنزل يوم الثلاثاء ٥ شهر مارس سنة ١٩٣٢ م الموافق أواخر شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٠ هـ إذ حضر عندى عالم من ذوى الذكاء والفطنة ، فقال بعد أن قرأ هـذا الموضوع فى الطبعة الثانية : لقد أحسنت وأجدت فى ايضاح عجائب الخلقة ، ولكن أريد أن أطلع على نفس التكوين عيانا من نفس علم الطبيعة لأن الله عز وجل اذا قال : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير » علم أن فى الامكان ظهور نفس الخلق والتكوين ووضوحه فى العالم المشاهد كما قال « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » بحيث تراه العيون ، وتؤمن القلوب بعجائب التكوين ، وتنطق الألسنة ، فيقول المشاهد هذه الجملة « أعلم أن الله على كل شىء قدير » ومعنى هذا أن الانسان يكون مشاهدا بنفسه ومعاينا لتكوين الأجنة وتدرجها فى النمو شيئا فشيئا كما رأى العزير تكوين حماره سواء بسواء ، وهناك يكون الايقان بعلم الله وقدرته على كل شىء ، ويكون المطلع على هـذا ممن قال الله فيهم : « إلا من شهد بالحق » فهذه شهادة عن معاينة ، والشهادة عن معاينة شهادة بالحق . هذا ما أردت أن أسألك عنه الآن . (انتهى سؤال زائرى) .

فلما سمعت ذلك قلت : أيها الصديق : ان هذا السؤال خطر لى منذ عشرة أيام وصممت ان طالت الحياة أن أؤلف لهذا رسالة خاصة تكون فى ملحق هذا التفسير ، ولكنى أوجز القول هنا ايجازا فأقول :

ان ما سألت عنه اليوم هو سر [الم] فى أول هذه السورة وهى البقرة ، فقال واعجبا : وأى سر فى

[ال م] ؟ ان [ال م] فى أول هذه السور من الحروف التى لامعنى لها ، وسرّها عندالله لاعندنا . وهل مالبس له معنى يكون فيه سرّ عظيم عندنا بنى آدم ؟ فقلت : إى وربى انه لحق ، فقال : فأريد أن تكشف لى هذا السرّ ، فقلت : ان [ال م] فى أول سورة البقرة مفتاح العلوم فى مستقبل الزمان ومفتاح السياسة لأمم الاسلام ، فقال : هذا نبأ عظيم فما هذا القول ؟ فقلت : اعلم أيها الأخ الصديق أن أذكياء القراء اذا ابتدءوا فى قراءة القرآن صادفتهم الفاتحة ، والفاتحة مدخل ومقدّمة لبقية القرآن ، فاذا ابتدأ يقرأ مابعدها صادفه [ال م] فيقول فى نفسه هذه حروف لامعنى لها ، ثم هولايزال يقرأ فى سورة البقرة وهومتشوّق الى أن يعرف سرّ [ال م] فما يشعر إلا وقد فوجئ بنفس هذه الحروف فى قصة الذين خرجوا من ديارهم فارّين من الموت ، وفى قصة طالوت الذى حذر جنده من كثرة شرب الماء من النهر ، وكان امتثال ذلك التحذير سببا للفوز ، ومعنى هذا أن الأمم لاتقهر أعداءها إلا اذا هذب أفرادها نفوسهم ، لأن الأمم أفراد مكررة ، وذلك سرّ نصف الفلسفة وهى الفلسفة العملية تهذيب الشخص والأسرة والمدينة ، وذلك فى قوله تعالى : « ألم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ان الله لذوفضل على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون » وفى قوله : [ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبىّ لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين] .

ثم اذا أتمّ هذه الآية يستمرّ فى قراءته فتصادفه آية ابراهيم ونمروذ والمحاجة التى بينهما كمحاجة علماء المنطق ، و يتلو ذلك ما كان من أمر الله للعزير إذ يقول له : « وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما » ثم مسألة الطير وابراهيم ، إذ فرّق أجزاءهن ثم جمعت ، وقال الله له : اعلم أن الله عزيز حكيم ، فان فى هذا المقام [ال م] قد ذكرت مرّتين : « ألم تر الى الذى حاجّ ابراهيم فى ربه » و « أولم تؤمن » .

ولاريب أن علوم أهل المشرق والمغرب لاتعدو أحد أمرين : إماعلوم علمية وهى العلوم الرياضية والطبيعية والالهية ، واماعلوم عملية ، وهى تهذيب الفردوالاسرة وسياسة الأمة ، ولما كانت العلوم العملية ظهرسرّها فيما تقدم ظهر سرّ العلوم العلمية هنا ، وذلك بمشاهدة عظام الحمار وكسوتها لحما وتفرّق أجزاء الطير واجتماعها . ولاجرم أن علم الحيوان من العلوم الطبيعية ، وهذه العلوم لانظام لها إلا بمقاييس ونظم و إحكام لايدركه إلا الدارسون والاستنتاج من ذلك كله يكون بالعلم الالهى ، إذن هنا اشارات الى العلوم العلمية المتقدمة ، وعليه يكون سرّ [ال م] فى هذه السورة أنها مفتاح لعلوم الأمم شرقا وغربا مسلمة وغير مسلمة ، فبينما القارئ يتربص ليعرف ماهو السرّ فى النطق بحروف [ال م] اذا به قد ظفر بكنز علوم السياسات الانسانية ومعارفها ، و بعبارة أخرى ان [ال م] فى أول البقرة تشير لكل علم فى الأرض ، وهذه بلاغة لانظير لها فى بلاغات أهل الأرض ، وهذا من السرّ الذى نزل به القرآن وظهر فى هذا الزمان وحده ، إذن هذا القرآن بعد هذا البيان لم يكن لأمة دون أمة لأن هذه المعانى تصلح لأن يقرأها أهل جميع الأرض لأن نظام العلوم ونظام السياسة محتاج اليهما جميع الناس . فقال حسن حسن ، ولكنه يعوزه ايضاح أعظم من وجهين : الوجه الأول زيادة التفصيل لما تقدم ، الوجه الثانى ايضاح ماسألتك عنه أوّلا ولأجله سقت هذا الحديث وهو أنى أرى فى نفس الطبيعة بعينى مارآه العزير فى حماره ، فقلت : أما أوّل الأمرين فلن يتسع له هذا المقام ، وسأكتبه فى ملحق هذا التفسير بهيئة أعجب ، وأما الأمر الثانى فانى أعجله لك الآن ، وذلك أن هذه الآيات ذكر الله فيها من

الحيوانات

الحيوانات الفقرية الحار من ذوات الأربع والطير، و بقى من ذوات الفقرات الانسان والزواحف والسمك.

ولما كانت الضفادع متوسطة بين السمك والزواحف، وكان فى مشاهدة نمو أجنتها عجب عجاب لاينقص عن مشاهدة العزبرحاره وهو بكى لها أردت أن أذكرهاهنا إجابة لطلبك، واغاثة لمطالب شوقك، فسترى بيض نوع من الضفادع وهو فى قاع البركة ذات الماء القليط، وستشاهد درجات نمو الجنين فى البيض شيئا فشيئا، وتعجب من تلك المادة الهلامية التى تحمل ذلك البيض، وكلما نما الجنين فى داخلها أخذت هى تكبر قليلا قليلا لترفعه من ثقل الماء الى خفة الهواء، وقد أعدّ لذلك من الحكمة عجيبتان: عجيبة حيوانات ذرّية تتنفس بالاكسوجين وهى لاترى، ونباتات لاترى أيضا، وهاتان العجيبتان تؤثران فى تلك المادة انتفاخا فترتفع ارتفاعا متناسبا مع نمو جنين الضفدعة كما ستراه موضحا، ثم ترى بيض نوع آخر من الضفادع موضوعا بهيئة صفوف متوازية ملتصقة بالمادة الهلامية أيضا، فبهذه المشاهد ترى مصداق مسألة العزبر فى نفس الطبيعة وستعجب كل العجب من خياشيم صغار الضفادع المشبهات خياشيم السمك، وكيف تتنفس بها أولا، ثم تخلق لها الرئة كحيوانات البرّ، وتخلق الأعضاء بالتدريج عضوا عضوا، فقال صاحبى هذا أمر عجب فأرجو أن أراه الآن، فقلت:

الكلام على الحيوانات الضفدعية

الحيوانات الضفدعية هى حيوانات فقرية من ذوات الدم البارد، و يظهر فى هذه الحيوانات طور الانتقال من الحياة المائية الى الحياة الأرضية، وذلك باختفاء العوامات فى الحيوانات الضفدعية، وهى التى كانت تمتع بها الأسماك، وكذلك وجود الاصابع بأطرافها، وقد علمنا أن أطراف الأسماك خلوة منها، ولكننا نجد أن الحيوانات الضفدعية تمضى أطوارها الأولى فى الماء، وتتنفس بالخياشيم، وتعيش فى طورها الكامل على الارض بالقرب من المياه، وتتنفس الهواء الجوى بواسطة الرئة، وتتنفس الضفادع كذلك من جلدها، وبهذه الطريقة يمكنها البقاء ساكنة زمنا بدون تنفس رئوى.

القلب فى هذه الحيوانات مركب من ثلاث حجر: اذينين و بطين واحد، ولهذا يتغذى جسمها بمزيج من الدم النقى وغير النقى، الأجناس فى الضفادع مختلفة، وتضع الاناث عددا عظيما من بيض صغير فى الماء، ويحصل اخصاب البويضات فى الماء إذ تفرغ عليها الذكور مادتها المنوية، وعند مايفقس البيض يحصل بالأجنة تطور خاص الى أن يكمل نموها. ومن أمثلة الحيوانات الضفدعية:

(١) الضفادع وهى التى تكون أصابعها خالية من المخالب، وتضع بيضها بشكل كتلة هلامية.

(٢) ضفدع البرّ تنتهى بعض أصابع أرجلها بمخالب، وتضع بيضها بشكل أحبال تربطها بالنباتات المائية الموجودة على جوانب الترع والمساقى.

(٣) السمندر: هى حيوانات ضفدعية لها ذنب طويل، وتشبه الابراص والسحالى.

الضفدعة

تعيش الضفادع فى الأراضى الرطبة القريبة من الترع والمستنقعات، و يغطى جسمها بجلد رطب أملس تبعا لوجود غدد به تفرز مادة لزجة تحفظ الجلد رطبا، وهذه المادة سامة بدرجة قليلة، تثب الضفادع على الارض بقوة أرجلها الخلفية الطويلة، وعند ماتنزل فى المياه تعوم بواسطة الأرجل الخلفية أيضا تبعا لوجود غشاء رقيق بين أصابعها، إذ يجعل الرجل عريضة كالمجذاف.

يكثر وجود الضفادع فى الربيع والصيف، أما فى الشتاء فيندر وجودها تبعا لاختفائها حيث تدفن نفسها

فى الطين بشواطئ الترع وتحت الاحجار وغيرها مدة هذا الفصل ، ويقال انها فى بيات شتوى ، وفى هذا الوقت تكمن الضفدعة فلا تتحرك ولا تتغذى ولاتتنفس تنفسا رئويا ، وتنشط فى أوائل الربيع ، وتجتمع معا فى حفلاتها الليلية ، وتحدث نقيقا عاليا ، وفى هذا الفصل تضع الاناث بيضها بشكل كتل هلامية ، وتفرغ الذكور عليها المواد المنوية أثناء خروجها من الانثى ، أواذا عثرت بها فتخصب البويضات .

يفقس بيض الضفادع المخصب بعد أسبوعين تقريبا وتخرج منه كائنات صغيرة متطاولة كالأسماك تسمى [بأبى ذنيبة] تعرف عند العامة بالطلب ، وهذه الكائنات تعوم فى الماء بذنبها الطويل لانهاتكون عديمة الاطراف ، وتتنفس بالخياشيم ، وتتغذى بالنباتات وتنمو ، وتحصل بأبى ذنيبة تطورات تدريجية ، وذلك بأن تنمو له الاطراف الخلفية أولا ثم الاطراف الأمامية ، ثم يأخذ الذنب فى التلاشى تدريجيا ، وتبتدئ كذلك الرئتان فى النمو ، ثم تتلاشى الخياشيم و يصيرالتنفس إذ ذاك رئويا فتترك الضفدعة الماء وتعيش على الارض .

و يستغرق هذا التطور ثلاثة شهور تقريبا ، وعند ذلك يكون قد تم تطورها وتتغذى فى هذا الوقت بمواد حيوانية ، وتكبر فى الحجم . أما غذاؤها فهو عبارة عن القواقع [التى يكثر وجودها على شواطئ الترع] والديدان والحشرات المختلفة والذباب ، وتقتنص الضفدعة الذباب بلسانها الطويل اللزج إذ تلتصق به الذبابة بمجرد ملامسته لها اه

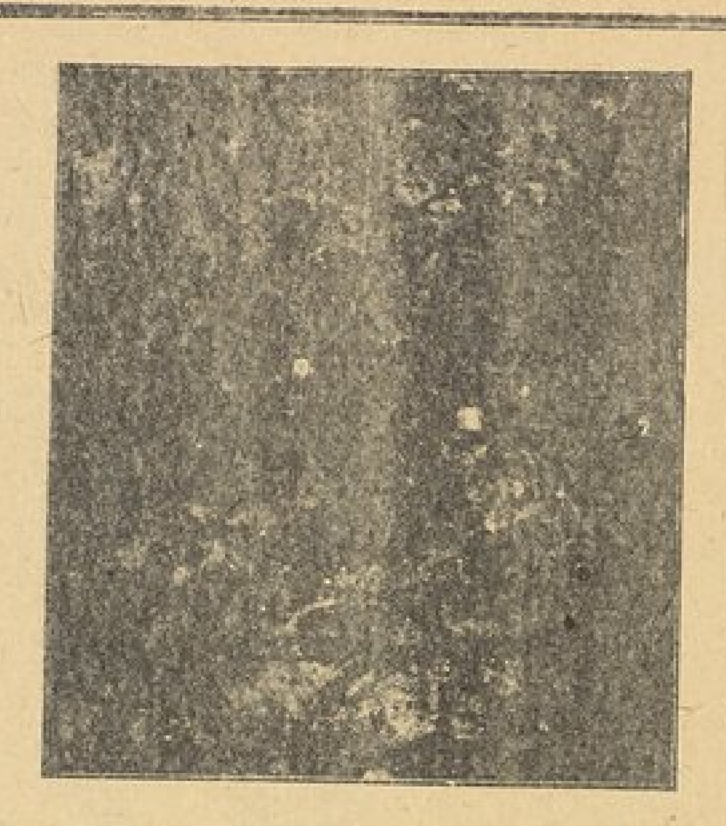
ايضاح ماتقدم بالتصوير الشمسي

وهذه صورها المختلفات الموضحات لماتقدم (انظرشكل ١)



(شكل ١ — بيض الضفادع الملقحة)

الضفادع تضع بيضا مابين ألف وألفين ، وقطر البيضة الواحدة عشر البوصة ، ويحيط بها مادة هلامية ، وهذه المادة تنتفخ شيئا فشيئا ، وتحمل ذلك البيض من قاع البرك إلى سطح الماء (انظرشكل ٢)



(شكل ٢ — أبو ذنيبه وهو ذرية الضفادع)



(شكل ٣)

هاهوذا يحمل الكرة الهلامية التى تربى فيها كما كانت هى تحمله كأنها رافعة ترفعه إلى أعلى حينما يشتدّ ثقل الماء ، ولقد كانت لها فائدة أعظم ، وهى أن طعمها كريه فلا تكون الصغار عرضة لأكل الحيوان ، ومن أعجب العجب أن هـذه الكرات الهلامية يتخللها نباتات ميكروسكوبية لاتراها العيون المجرّدة أى [ذرّية] يخرج منها اكسوجين ، وفيها حيوانات ميكروسكوبية لاتراها العيون ، وهـذان يكفلان تحليل هذه الكرات الهلامية (انظر شكل ٣ و ٤)

[إن أباذنيبة الذى خرج من البيضة حديثا لايزال ينمو ، ولذلك لايزال فمه مقفلا ، والعينان اللتان لاتزالان تنموان فى الرأس لم تصلا الى الجلد ، وهناك فيه غدة من الأسمنت بها يلتصق أبوذنيبة فى حشائش البحر متى أراد]



(شكل ٤ — أبو ذنيبة الكبير)

حينما يكون أبوذنيبة ابن شهرين تظهر أعضاؤه ، وهذه الصورة الشمسية تريك الدرجات المختلفات فى ظهور الاعضاء زوجا واحدا ، فترى هـذا تظهر له زوج واحـد من الاعضاء ، وذلك ظهر له زوجان ، والذيل ذو العضلات وظيفته أنه أشبه بسكان السفينة [الدفة] .

وفى هذه السن لايزال [أبوذنيبة] يتنفس بواسطة خياشيمه على طريقة السمك ، وهذه الخياشيم مختفية تحت الأغشية المغطية له ، ولكن تلك الصغار مع ذلك تعلمت كيف تستعمل رئتها وتجتذب النفس من الهواء فوق سطح الماء ، فهى إذن أشبه بسمك الطين الذى يتنفس بطريقتين معا ، فهو فى الماء يتنفس بخيشومه وفى الطين يتنفس برئته . انتهى وبهذا تم الكلام على النوع الأول من الضفادع .

النوع الثانى

الضفادع المسماة بالفرنجية [تود] وبالعربية [ضفدع البر]

(انظر شكل ٥ و٦ و٧ و٨)

(شكل ٥)



(شكل ٥)

[بيض ضفادع البرك ، وهو مكوّن من صفوف مزدوجات ، وقد لصق بكل صف خيوط هلامية تبلغ عشرة أقدام طولا]



(شكل ٦ — أبوذنيبة ارتفع الى وجه البركة)
وهذه قد خرجت من بيضها منذ ١٤ يوما



(شكل - ٧)
رسم الضفدعة التى نمت وكبر جسمها فى سن ثلاثة أشهر



(شكل ٨)
[ضفدعة تم نموها ، وقد ظهر جلدها الثخين ، وهكذا غدتها ذات السم الناقع ،
موضوعة تماما خلف عينها]

وبهذا تم الكلام على النوع الثانى من الضفادع والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي ذلك ، ونظر هذه الصور قال : هـذا أمر جليل وبديع وعجيب ، ولكني أسألك ثلاثة أسئلة : أولا لم لم تكتب هذه المعجزة في الطبعة الأولى ؟ ولم تأت بأسرار الحروف إلا في أول [آل عمران] ، ثانيا : كيف غاب هذا عن المسلمين ١٤ قرنا ولم يظهر إلا الآن ؟ ثالثا : بأي العلوم المعروفة يكون هذا الاعجاز ؟

فقلت : أما السؤال الأول فاني أقول انه لم يفتح عليّ بهذه المعجزة في الطبعة الأولى ، وأما جواب السؤال الثاني فاني أقول : ان هـذا هو الزمان اللائق لهـذه المعجزة لأمرين : الأمر الأول أن العلوم كثرت في هذا الزمان الأمر الثاني : أن المسلمين اليوم أحاطت بهم الأمم وقد ملئت الأرض بالعلوم وكشف كثير من عجائب الدنيا ، فهذه المعجزة ظهرت اليوم لانهاض الأمم الاسلامية ، لأن هذا أوانه . وأنا أقول : بعد ظهور هذا السر وقراءته في هـذا التفسير لن ينام أذكياء المسلمين ، ولن يهنأ لهم طعام ولا شراب ولا حياة إلا بالعلم وكشف حقائق هـذا الوجود ، وسيظهر في أمم الاسلام رجال لا نظير لهم في أسلافهم ، ولا في الأمم المحيطة بهم ، ومن بعثه بره .

ألم تر أن الله جعـل في ملوك الاسلام في القرون الماضـية من انتفعوا بحروف [الم] فحقنت دماء المسلمين بها ، وذلك في خبر السلطان محمود الغزنوي الشهير ، إذ بعث الى الخليفة يطلب أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد ، وينقش اسمه في سكة الذهب والفضة ، فامتنع الخليفة من ذلك ، فبعث إليه كتابا فيه تهديد ووعيد ، قال في جملته : « لو أردت نقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة الى غزنة لفعلت » ، فبعث اليه الخليفة كتابا مختوما ، فلما فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلا ألفا ممدودة وفي وسطه ل وفي آخره م والصلاة والحمدلة فحار السلطان وأهل مجلسه من ذلك حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ، ففكر في ذلك وقال عندي شرحه فقال : اذكر ولك ماتريد . فقال : « بعث اليهم السلطان يهددهم بالفيلة فبعثوا له هذا الكتاب وفيه (ا) و (ل) و (م) اشارة الى قوله تعالى : « ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل » الى آخر السورة ، فارتاع السلطان لذلك ، ووقع في قلبه الخوف والندم ، وعاد الى أحسن الأحوال من الرضا والأدب .

اذا علمت هذا أيها الأخ فلتعلم أن القرون الماضية كانت ممهدة لما كتبناه اليوم من هذا السر فلم تذهب تلك القرون سدى ، بل هم ممهدون لنا ، وعلينا نحن أن نعمل لمن بعدنا ، و بسبب أمثال هذه الاسرار استحق القرآن أن يقال فيه : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن لا يأتون بمثله » .

وأما أقول : من ذا يقدر من البلغاء أن يأتي بكلام فيه سرّ كسرّ (الم) في أول البقرة الذي مضت القرون والناس لا يعلمون ما كنز فيها من العلوم حتى وضحت في هذا التفسير الآن بمعاونة العلوم القديمة والحديثة

وأما الجواب على السؤال الثالث فذلك أن هذا من باب المعاني والاشارات الرمزية ، وهي من الكناية والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، وهي أنواع كثيرة ، وقرينة هـذه الكناية أننا في زمان انتشار العلوم ، والكناية من علم البيان كأنه يقال : تأملوا في الآيات التي في حيز [الم] أعني أن القارئ حينما يقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم الم » في البقرة يفكر حالا في كل جملة تقع بعد هذه الحروف فيجد عجبا عجيبا مدهشا ! يجد « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير » وهـذه في موضوع آية النسخ ، والنسخ أسراره تقدمت وهي مدهشة ، ويجد : « ألم تر الى الملأ » كما تقدم ، ويجد : « ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه » ويجد : « أولم تؤمن » فيجد إذن نفسه في جو من أجواء نظام الأسرة ونظام الأمة ونظام الطبيعة .

هذا جواب ماسألتني عنه ؛ فقال : لقد رأيت منه عجبا ! وشرحت صدري ، وفتح الله لي كنزا من العلوم لم أكن لأحلم به ، فاني الآن يخيل لي أن قراء القرآن في المستقبل سيكونون أعلم الأمم بنظام الأمم ، و بسر الكون ، فان [الم] في أول البقرة التي جاءت بعد مدخل القرآن وهي الفاتحة تشير الى هذه العلوم التي

محيطا بالمسلمين وهم لايشعرون ، ومن هذه يبحث القارئ فى كل معنى يجئ فى حيز [الم] ولو كان فى غير سورة البقرة مثل : « ألم تر الى ربك كيف مدّ الظل » الخ وهكذا ، فهذا أعجب العجب ، فقلت له : الحمد لله رب العالمين .

تفصيل الكلام على بقاء الروح من هذه الآية

اعلم أن بقاء الروح فى الدين سمعى لابرهان عليه ، وانما للرسل معجزات تقنع تابعيهم أنهم مبلغون عن الله ، ثم بعد ذلك مايقولونه عن الله يكون مقبولا ، فكل ماجاء عن الرسل يقبله أتباعهم بلا نكير ، ولكن من الأتباع من لا يكتفى بالتقليد والسماع ويريد أن يقف على الحقائق بنفسه ، ويقول لى عقل فلم خلق ؟ هل خلق للاتباع بلا بصيرة ولافكر ، فلذلك لم يترك الدين هنا الناس فى حيرة فجعل على العامة التقليد ، وأما الأذكياء فسبيلهم النظر ، واذا فرطوا فى نظرهم أثموا كما يأثم العامة لوحاولوا الاستقلال بالرأى فى الدين الذى لايطيقونه ، فما نصبه الله للخاصة والأذكياء فى القرآن أمثال هذه القصة فتجد أن ابراهيم الخليل مأمور بالتحليل فذبح الطيور وفرقها ، ثم دعاها فجاءت ، واعلم أن هذا فتح باب للبرهنة على بقاء الأرواح ، والقول وان كان فى ظاهره للعامة فهو فى باطنه للخاصة .

البرهان على بقاء الأرواح

إما بالنظر العقلى ، و إما بعلم الأرواح

أما النظر العقلى فى ذلك ، ففيه طرق ثلاث

الطريقة الأولى : ماذكره ابن مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق اذ استدل على بقاء الارواح بانها بسيطة قائلا : إن الروح ليست جسما ولاعرضا فى جسم ، ذلك أننا نرى أن الجسم لايقبل الاصورة واحدة ولا يكون قابلا لصور كثيرة فى آن واحد فلن يقبل التربيع وهو مثلث ولا التخميس وهو مربع بل لايقبل صورة ويلبسها حتى يخلع الاولى ولن يقبل التثليث الااذا بطل منه التربيع هذه طبيعة الأجسام ، أما النفوس فاناراها على خلاف ذلك نرى أننا نتصور الأحمر والأخضر والأصفر والأزرق والمثلث والمدوّر والمربع والطويل والقصير والأعلى والأسفل والجميل والقبيح وكل ذلك يجتمع عند العقل مخزون فيه وفوق ذلك نعرف ونتصور علوما كثيرة والجسم لاطاقة له إلا بشىء واحد ومتى خلعه لبس غيره ، وأيضا نرى العقل كلما انغمس فى الماديات ابتعد عن المعقولات وكلما زهد فيها وعفّ عنها اقترب من المعقولات ، وأيضا نرى الانسان كلما زاد فى طعامه وشرابه كرهه الناس واحتقروه ، أما الذى يزيد علما فهو محبوب ، وأيضا نرى أننا اذا نظرنا بأبصارنا وهى من الآلات الجسمية الى عين الشمس حصل لها الكلال وضعفت قوّة ابصارها ، فأما إذا نظرنا بعقولنا فى المسائل العويصة فانها تكون سبيلا لقوتنا على فهم ماهو أسهل منها وذلك كله دلائل أن النفس من طبيعة تخالف المادة فهذه تقبل المختلفات والأخرى لاتقبل ، وهذه تحب الزيادة منها وهذه تكره ، وهذه اذا شغلت بما هو أقوى زادت قوّة والأخرى تضعف ، فهذه وأمثالها دلائل أنهما مختلفان فتكون النفس ليست من عالم الأجسام بل من عالم آخر بسيط غير مركب ، لأن الأجسام مركبة ، والذى يعقل ويحس فينا مخالف لها ، وانه لوكانت الروح مركبة لأمكن أن يكون جزء منها عالما والآخر جاهلا باعتبار أن المسألة قد قامت ببعضها وتركت البعض الآخر لأنها مركبة وفى هذا اجتماع النقيضين علم وجهل وهو محال ، هذا ما أذكره من أدلته فى أول الكتاب ، ولست أذكر هذا على أنى قائل أن هذه البراهين كلها قطعية ، وإنما ذكرتها لتعلم أيها الذكى

طريقته

طريقته فى الاستدلال لمناسبة مسألة التحليل والطير وتقطيعه وأن ابن مسكويه قارن مابين الروح والجسم وحلل تحليلا علميا ، وسترى فيما بعد التحليل الجسمى لغيره . واعلم أن طريقة ابن مسكويه أشبه بطريقة (سقراط) الفيلسوف الشهير إذ قال : ان النفس جوهر غير مرئى ، فيلزم أنه على غير طبيعة الأجسام ، لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدركا باحدى الحواس ، و إذا كانت على غير طبيعة الجسم فهى اذن غير مركبة ، لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، ولذا كانت بسيطة فانها غير قابلة للانحلال ، لأن الانحلال ردّ المركب إلى المواد التى تركب منها ، فاذا كانت النفس بسيطة لم يتصور انحلالها ، وقال أيضا ان النفس هى الآمر والبدن هو المأمور ، فمن طبيعة الامور الالهية أن تكون آمرة ومتصرفة ، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة ، فالنفس إذن من الأمور الالهية وهى غير قابلة للزوال ، فهى إذا بقيت على صفائها وطهارتها من غير أن تشارك البدن فى أدناسه ، فانها تلتحق بعد الموت بموجود مثلها ، فتبقى معه سعيدة مبتهجة محرّرة من لوعاتها وأخواتها وكلّ ما كان يسخرها ، ويهوّش عليها إذ كانت فى قيد الحياة ، واذا تركت ملوثة مدنسة غير معتقدة من الوجود إلا مايؤكل ويشرب ويلبس ويدرك بالحس ، فلا يسعها إلا أن ترجع الى حياة مشابهة لطبيعتها انتهى باختصار ماذكره ابن مسكويه وما يشابهه من مقال سقراط .

الطريقة الثانية : ماذكره العلامة ابن سينا فى كتاب الاشارات مستدلا على ان النفس غير البدن بما ملخصه : ان الانسان يعلم بوجوده وان كان غافلا عن جميع أعضائه ، والمعلوم وهو ذاته مغاير لما ليس بمعلوم فتكون ذاته غير جسمه ، وهى التى يعبر عنها بلفظ أنا . ألا ترى أن الانسان لو قطعت يداه ورجلاه وسلخ جلده . فانه لايزال يقول أنا ، فماذا يشير ؟ أيشير إلى أعضائه الباطنة : كالقلب والكبد والطحال والرئتين كلا فان هذه لاتعرف الا بالتشريح ، وقد فرضناه غافلا عن كل هذا وعن التشريح وعن كل شىء إلا نفسه . ولقد أطال فى ذلك وتبعه شراحه فلا نطيل بما ورد من اعتراض وجواب ، وإنما أتينا بما يفيد الغرض . وعلى ذلك ثبت عنده بهذا أن المعبر عنه بأنا غير الأعضاء الظاهرة والباطنة ، بل هو شىء غير الجسم ، وهو المطلوب .

الطريقة الثالثة : طريقة ابن الطفيل فى كتابه الذى سماه [حىّ بن يقظان] فقد جعل موضوع الكتاب أن فتاة الجئت أن تودع ولدها الحديث الولادة فى جزيرة خضراء ، فعطف على ذلك الغلام غزالة وأرضعته سنتين ، وصار هو يراها أمه و يقلدها فى بغامها وغدوّها ورواحها ، ولما ترعرع أخذ يقلد الحيوانات ، و يستتر بالورق ، و يتحلى بفروع الشجر ليظهر بالأبهة أمام الحيوانات الكاسرة ، و يستعين بالقرون فى المناطحة والمقاتلة

ولما كبرت أمه الظبية أخذ يحضر لها الفواكه من الأشجار و يعطف عليها ، وهو فى ذلك كله يقلد طوائف الحيوانات فيما هو الأحسن والأنفع ، وهو فى أثناء ذلك ينظر فى أنواع الأشجار والزرع والثمر والملح ، وأنواع الحيوان ، و يقارن بين نفسه و بينها ولم يفكر فى أمر الروح الاعند مارجع مرة فرأى أمه الظبية جثة هامدة ، فأخذ يحركها فلم تتحرك ، وأخذ ينظر فى عينيها وفى أذنيها عسى أن يجد فيها تلك التى كانت تعطف عليه ، ثم أخذ يشرح جثتها قائلا فى نفسه إذا لم أجد حبيبتى العاطفة علىّ فى ظواهر جسمها فعسى أن أجدها فى باطن الاحشاء ، فأخذ يشرح القلب والكبد والطحال والحالبين والمعدة والأمعاء والعروق والشرايين والرباطات والاعصاب والمخ والمخيخ والفقرات الظهرية وأعصاب الحس وأعصاب الحركة المتفرعات منها الواصلة الى سائر الجسد الموصلات جميع ماتشعر به الحواس الى المخ ، ثم تكون هناك الاوامر الصادرة الى الاعضاء جارية فى أعصاب الحركة لتسخر الاعضاء فى الطلب تارة والهرب أخرى على مقتضى الأوامر الصادرة من المخ ، فلم يجد فى جميع هذا الجسم المختلف الاعضاء والاحوال لتلك الحبيبة أثرا ، ثم لمح بعض الحجم فى باطن القلب

فقال إن الحبيبة التي كانت هنا تعلقت بهذا الدم لما كان جاريا قويا ساريا في الجسم ، ولست أرى أن الدم هو الروح كلا ، فاني أرى أن الروح كانت حاكمة عليه ، وهو القائم بايصال الغذاء إلى سائر الجسد ، ثم أراد أن يجرب هذه النظرية ، فعمد إلى حيوان وانقض عليه وهو يجرى واصطاده إذ ضربه بالقرون التي جعلها عدته ، فلما خرّ صريعا شق صدره واستخرج قلبه ، فرأى الدم حارا وله بخار لطيف ، فقال في نفسه ان حبيبتي كانت سارية في هذا البخار اللطيف الدموى ، وهو يجرى الى الحواس والاعضاء مع الدم ، لأن هذا البخار لطيف ، وهو قريب من العالم الروحى اذهو ذومزاج لطيف ، ثم رفع طرفه الى النجوم والشمس وقال : ان هذه الأجرام بينها و بين حبيبتي علاقة ، وان حرارة القلب تصلح لتعلق الروح بها ، ولعل هذه السموات لها مدبر ، ولعل ذلك المدبر جعل الحرارة أثرا في الحياة ، وهكذا أخذ يفكر أفكارا فيها بعض الحقائق كما أن فيها كثيرا من الخيال الذي يبدو للناس في أول نظرهم ، وأخذ يبحث حتى قال : لعل حبيبتي لما رأت هذا الجسم لايصلح مستقرا لها توجهت الى هذا العالم العلوى المتلألئ الجميل ، ولابدّ أن تكون هذه الروح بسيطة : أعنى لاجزء لها ، والذي لاجزء له لايفنى ، لأن الفناء يكون بتحليل الأجزاء في المركب ، والروح لاجزء له فلا فناء له ، هناك أخذت روحه تفكر في العالم العلوى الذي ظن أمه وصلت اليه ، وقال عسى أن يكون الذي أجرى هذه الكواكب قد استودعت تلك الروح عنده ، وأنه هو نفسه خير منها ، بل هو الذي ينبغى أن أسعى للقائه ، ثم نظر فقال إن هؤلاء الحيوانات اخوانى ، وهذا النبات خلقه الله لنا ، فعلىّ أن أرعى هذه المخلوقات ، ويظهر أنى خليفة ذلك الخالق عليها ، وإذن أنصر المظلوم وأنفع كل محتاج ، وتكون لى شفقة ورحمة ، لأن ذلك الذي ذهبت إليه أمى رءوف رحيم ، إنى أراه قد أكثر الماء في الجزيرة والكلأ والفاكهة ، وجعل الحيوان آكلا النبات ، والنبات متغذيا بالعناصر ، وهو كثير الرحمة فلأقلده انه خلق أمى لأتعلم منها الحب والعطف ، وهو الرحيم فلأعطف على عباده ، ثم نظر الكواكب وعرف السموات على مقتضى ماعرفه القدماء ، ثم أخذ يخترع طريقا للعبادة ليقترب من ذلك الذي صنع السموات ، فدار على نفسه كما تدور الكواكب ظنا منه أن دورانها عبادة إلى آخر ماجاء في ذلك الكتاب . أقول :

وانما ذكرت لك ذلك أيها الذكى لتعلم أن العلماء السابقين لم يكونوا نائمين ، بل ألفوا كتبا لايقاظ الأمة ونظروا في العالم وضربوا الأمثال ، وكان هذا الكتاب أشبه بما جاء في هذه الآية ، فان تحليل الطير على يد الخليل في القرآن من النظر الى هذا العالم ، وأنا لا أقول : ان ابن الطفيل ألف الكتاب اقتباسا من الآية كلا هو ألفه بعقله وصفاء ذهنه ، وجودة قريحته ، ولكن أقول : ان مسألة الطير في القرآن فتح لباب النظر من هذه الوجهة .

واذا كان كتاب كليلة ودمنة جاءت فيه الأمثال على لسان الحيوانات ، وكثير من الحكايات التي يتداولها المتعلمون ، وقد جعلت للعقلاء تذكرة ، وللحكماء تبصرة ، وللسّواس في الممالك عبرة ، وفيها من الدقة والحكمة والأخلاق والآداب مالا ينال غايته الاأولوا الألباب ، فبالاولى الكتب السماوية التي تنشر بين العوام والخواص ويحفظها الصبيان ، فيقرءون مسألة الطير وهم فرحون ، فأما العالم فانه يرى فيها فتحا لباب النظر ومنفذا للحكمة ، ولقد جاء كتاب ابن الطفيل موافقا لما ذكرته لك ، ولقد نجل كتاب [رو بنسون كروزو] وهى الرواية المشهورة الانجليزية على منوال هذا الكتاب ، ولقد انتشرت في أوروبا ، وماسطرها مؤلفها إلا بعد ماقرأ كتاب [حىّ بن يقظان] كما قرأت ذلك في بعض الكتب ، ولقد كان الفيلسوف [روسو] الشهير يفخم الكتب وتعاليمها ويأمر الشبان أن يقرءوا هذه الرواية ويمدحها مدحا كثيرا ، وقال انها تعلم الحرية الفكرية .

ولا شك أن كتاب [حىّ بن يقظان] أجلّ منها وان كانت هى منسوجة على منواله ، لأن قصة

[رو بنسون كروزوا] تعلم الاستقلال فى العمل والجد والاعتماد على النفس والمخاطرة فحسب ، وليس فيها عظيم عناية باتقان العلم ، هذا ما أردت شرحه فى الطريقة الثالثة ، الى هنا انتهت الطرق الثلاث للنظر العقلى .

وأما تحضير الأرواح فانى أحيلك على ماتقدم فى هذه السورة عند قوله تعالى « فذبحوها وما كادوا يفعلون » الى آخر الآيات ، فقد ذكرت هناك تاريخ هذا العلم فى أوروبا وأمريكا وانتشاره ، وقد طبقته على القرآن فى كتاب الأرواح ، والآن أذكر ماقلته فى هذا المقام عند وفاة المرحومة والدتى سنة ١٩١٨ وكتب فى جريدة الأخبار تذكرة لأولى العقول الشريفة .

جاء فى عدد يوم الثلاثاء ٢٨ شوال سنة ١٣٣٦هـ ، ٦ أغسطس سنة ١٩١٨م ، ٣٠ أبيب سنة ١٦٣٤ تحت عنوان :

العلم والبدع وواجب العلماء

كتب الينا أحد الفضلاء بذكر مقال فلان فى وفاة المرحومة والدته من تجافى البدع ولزوم أوامر الدين وسنة السلف الصالح ، فرأينا أن ننشر كتاب هذا الفاضل مؤملين أن يعتبر بما فى الكتاب المذكور اخواننا المسلمون . قال حضرة الكاتب : منذ أيام توفيت والدة الشيخ طنطاوى جوهرى ببلدة كفر عوض الله حجازى بمركز الزقازيق فاجتمع أهل البلاد المجاورة لتشييع الجنازة ، وحضر الاستاذ الشيخ طنطاوى جوهرى وحضرة الاستاذ الشيخ عبد الحكيم القاضى بالمركز فوقف الشيخ طنطاوى مخاطبا من حضر من نساء قريته ، وقال لهن : معاشر السيدات أتطلبن منى أن أخاطب والدتى فى أذنها ايذانا باعلامها بحضورى فلتعلمن رعاكن الله أن أرواح الأموات لاتزال حية ، وأنها تسمع وتبصر وأن والدتى ترفرف روحها علىّ حيثما كنت اليوم إذ قدمت من القاهرة ولاتزال ترانى الآن .

ان علماء دينى أخبروا أن الميت عالما بذلك ، ونحن بذلك موقنون ، فلتطمئن كلّ منكن على والدتى ولتعلمن أن للأموات علما ببعض أحوال الأحياء ، ومن ذلك أنهم يحزنون ويجزعون لبكاء أقاربهم عليهم فان كل امرئ إذا علم أن حبيبه يحزن لأجله ويرقّ له يود لو يخفف من لوعته ويكفكف من دمعته ويقلل من حسرته ويكشف من غمرته ، وربما يشير إلى ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » ، ولقد علمنا من بعض أهل الاطلاع المغرمين بتلك العلوم أن هذه حقيقة ناصعة كشفها العلم الحديث ، واطمأنت لها النفوس تصديقا لكلام النبوّة وتحقيقا للمعجزة النبوية .

ولقد كان ﷺ يعاهد النساء أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهنّ ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولايعصينه فى معروف ، ولايبكين على ميت ، فقالت إحداهنّ يارسول الله لأعطيك عهدا حتى أذهب إلى فلانة فأسعدها بالبكاء كما بكت هى على قريب لى فأباح لها ذلك فقالت : أعاهدك يارسول الله ولم أبك بعدها على ميت ، ثم أتى الشيخ إلى احدى السيدات ، وقال لها : ألم ترى أن أهل مكة لايبكين على ميت ، فقالت انهنّ لايبكين بل يحنين أيديهنّ ، ويلبسن الأبيض فقال الشيخ : ان هؤلاء مسلمون ، ونحن متبعون فى ذلك عادات الجاهلية الأولى ، لماذا تبكى الواحدة منكن على أخ أو والد أو حبيب ؟ وهى فى الحقيقة تعذبه بالبكاء ، يانساء قريتى اتبعننى أهدكن سبيل الرشاد ، اتبعننى واتركن البكاء إلا ما كان من دمعة جرى بها القضاء فلا بأس ، فقالت إحداهنّ : يابن أختى نحن نعاهدك كما عاهد النساء النبىّ ﷺ ، فسكتن جميعا واستبشرن وفرحن وانشرحت صدورهنّ ، فقال الشيخ لهنّ : شرح الله صدوركن ، فلقد ملتن إلى الدين ، وسيكون لوالدتى ثواب بعض هذا ، فقال النساء بلسان واحد

فحدثاك على ذلك مالم يغلب البكاء، وكان الشيخ إذ ذاك يتصبب عرقا، فقالت إحداهن: كفى كفى فان سفرك في الحر ومفاجأتك بالفاجعة، ووقوفك بيننا كل ذلك أتعبك، فقرّ عينا واشرح صدرا، واسترح انتهى المقصود منها. هذا، ولما فرغ من الكلام على نظام التوحيد، وما تبعه أعقبه بالكلام في القسم الثاني، وهو الانفاق، وهذا هو:

(المقصد الثامن عشر)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ * وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تعملون

تعملون خبير * ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم * الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون *

ايضاح قد دخل فيه التفسير اللفظى

أى (مثل) نفقة (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة) يخرج منها ساق يتشعب منها سبع شعب لكل شعب منها سنبلة فيها مائة حبة .

واعلم أن التمثيل بالحبة ليس يلزم منه وقوع الممثل به ، وقد وجد نحو ذلك فى الذرة فى العصر الحاضر وربما يكون فى القمح وفى الدخن فى الأرض المغلة (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) من المنفقين على حسب الاخلاص وكماله (والله واسع) الفضل لا ضيق فيما يتفضل به (عليم) بنية المنفقين (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا) بعد النفقة (منا) بأن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه (ولا أذى) وهو أن يتطاول عليه بسبب ما أعطاه (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثواب انفاقهم (ولا خوف عليهم) من بخس الأجر (ولا هم يحزنون) من فوته ، ثم أفاد أن الرد الجميل والتجاوز عن سائل الحاجة (خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن انفاق بمن وأذى (حليم) عن معاجلة من يمن و يؤذى بالعقوبة ، ثم قال (يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا) أجر (صدقاتكم بالمن والأذى كـ)إبطال المنافق (الذى) يرائى بانفاقه فمثل المرائى فى انفاقه كمثل حجر أملس (عليه تراب فأصابه) مطر عظيم القطر (فتركه صلدا) أملس نقيا من التراب (لا يقدرون على شىء مما كسبوا) لا ينتفعون بما فعلوا رياء ولا يجدون لهم ثوابا فيه (والله لا يهدى القوم الكافرين) إلى الخير ، ثم قال (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وتثبيتا من أنفسهم) أى تحقيقا للجزاء صادرا من أصل أنفسهم ، والجنة البستان ، والربوة الموضع المرتفع وشجره يكون أحسن منظرا ، وأذكى ثمرا ، والوابل المطر العظيم القطر ، و (آتت أكلها ضعفين) أى آتت مثلى ما كانت تثمر بسبب الوابل ، فالضعف هنا المثل ، والطل المطر الصغير القطر . والمعنى أن نفقات هؤلاء زاكية عند الله ، وان كانت تتفاوت قلة وكثرة كأن الجنة تؤتى ثمرها ضعفين سواء أكان المطر وابلا أو طلا لجودة تربتها وحسن منبتها (والله بما تعملون بصير) هذا تحذير من الرياء ، وترغيب فى صفة الاخلاص ، وقوله (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت) الاعصار ريح عاصفة تنعكس من الأرض إلى السماء مستديرة كالعمود . شبه حال المرائين فى الانفاق بحال رجل له جنة فيها النخيل والأعناب وجميع الثمرات ، والأنهار تجرى من تحتها ، وقد أصابه الكبر ، وذريته ضعفاء صغار لا قدرة لهم على الكسب

فأصاب هـذه الجنة اعصار فيـه نار فاحترقت ، فهكذا المرائى قد ينفق الأموال الكثيرة العظيمة بلانية صادقة ، فاذا جاء يوم القيامة ، وهو فى أشد الحاجة إلى الثواب ، وليس له ولىّ ولا نصير ولا شفيع لم ينل الثواب وحرم منه فى حال هو أحوج فيها إليه (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) ، ثم قال (ياأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا) تيمموا تقصدوا (الخبيث) الردىء (ولستم بآخذيه) أى وحالكم أنكم لا تأخذونه فى حقوقكم لرداءته (الا أن تغمضوا فيه) أى تسامحوا

يقول الله للمؤمنين : أنفقوا من طيبات مكاسبكم ، ومن الذى أخرجنا لكم من الأرض فانه خلقنا أنبتناه لكم وسخرنا الهواء والشمس والكواكب والماء والأرض و بعض الحشرات والدواب فى تنمية المزارع فليس لكم فيها الا أقل الأعمال ، فكيف تبخلون بها على عبادى ؟ فانا المخرج من الأرض ، وأنا المنمى للزرع وأنا الآمر بالانفاق ، هـذا هو الذى يحوم به قوله « ومما أخرجنا لكم من الأرض » ثم قال ولا تقصدوا الردىء منه تنفقون كأن تعطوا الفقير الحشف وتصطفوا جيد التمر لكم ، وعن ابن عباس رضى الله عنـه ، كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره ، فنهوا عن ذلك فهلا عاملتم اخوانكم بما تعاملون به أنفسكم ولستم بآخذيه الاعلى طريق المسامحة (واعلموا أن الله غنىّ) عن انفاقكم ، وانما يأمركم به لتخرجوا من التعلق بحب المال الذى يهلككم ويحبسكم فى هـذه الدار فتجزعوا عند فراقها (حميد) بقبول ماتنفقون واثابتكم عليه ، ثم قال تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) فى الانفاق و يغريكم بالبخل ، والعرب تسمى البخيل فاحشا (والله يعدكم) فى الانفاق (مغفرة) ذنوبكم (والله واسع) الفضل لمن أنفق (عليم) بانفاقه (يؤتى الحكمة) تحقيق العلم واتقان العمل (من يشاء ومن يؤت الحكمة ، فقد أوتى خيرا كثيرا) فانه خير الدارين (وما يذكر) ومايتعظ بما قص من الآيات (الا أولوا الألباب) ذووالعقول الخالصة من شوائب الوهم والركون إلى متابعة الهوى (وما أنفقتم من نفقة) قليلة أوكثيرة سرّا أوعلانية فى حق أو باطل (أونذرتم من نذر فان الله يعلمه) فيجازيكم عليه (وماللظالمين) الذين ينفقون فى المعاصى و ينذرون فيها أو يمنعون الصدقات (من أنصار) ، ثم قال تعالى (ان تبدوا الصدقات فنعماهى) أى فنعم شيئا ابداؤها (وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير) ترغيب فى الاسرار ، والاسرار فى صدقة التطوّع أفضل من العلانية ، وكذلك صدقة الرجل الذى لم يعرف بالمال ، أما صدقة الفرض من غيره فاظهارها أفضل ، وعن ابن عباس صدقة السر فى التطوّع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا .

ولقد كان المسلمون يتصدّقون على فقراء أهل المدينة ، فلما كثر المسلمون نهى رسول الله ﷺ عن التصدّق على المشركين كى تحملهم الحاجة إلى الدخول فى الاسلام لحرصه ﷺ على اسلامهم ، فنزل (ليس عليك هداهم) أى ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لاجل أن يدخلوا فى الاسلام فحينئذ تصدّق عليهم فأعلمه الله تعالى أنه انما بعث بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه ، فأما كونهم مهتدين فليس ذلك عليه (ولكن الله يهدى من يشاء) أى يهدى من يشاء هداية توفيق ، وأما هداية البيان فعليك فلما نزلت هـذه الآية أعطوهم وتصدّقوا عليهم (وما تنفقوا من خير) مال (فلأنفسكم) فهو لأنفسكم (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أى لاتنفقوا إلا ابتغاء وجه الله (وما تنفقوا من خير يوف إليكم) أى ثوابه أضعافا مضاعفة (وأنتم لاتظلمون) لاتنقصون ثواب عملكم بالنفقة ، اعمدوا (للفقراء الذين أحصروا) أحصرهم الجهاد (فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض) أى لايستطيعون ذهابا فيها لكسب لاشتغالهم

بالجهاد

بالجهاد (يحسبهم الجاهل) بحالهم (أغنياء من التعفف) أى من أجل التعفف (تعرفهم بسيماهم) من الضعف ورثاثة الحال (لايسألون الناس إلحافا) إلحاحا . ونزل فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه حين تصدق بأربعين ألف دينار : عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة سرًّا وعشرة علانية ، وقيل فى أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه ، لم يملك الأربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلا وبدرهم نهارا وبدرهم سرًّا وبدرهم علانية (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) انتهى التفسير اللفظى .

مباحث هذه الآيات ثلاثة

(١) تلخيص هذه الآيات التى فيها أمثال المنفقين والانفاق (٢) علاقة هذه الآيات بالحال الحاضرة وكيف قامت الاشتراكية فى العالم الانسانى ، وارتجت الأرض بسبب الأحوال المالية ، وكيف كان القرآن يدعو إلى العطف والمحبة العامة ، وأن المسلمين أسرة واحدة والمال بينهم بمودة ومحبة ، وما الذى يجب فيه الصدقة من المال (٣) أفضل عبادة المسلم التفكر فى الرياض والحقول والسموات .

المبحث الاول تلخيص الأمثال المذكورة فى الانفاق والمنفقين

هاهنا أربعة أمثال : مثل الحبة والسنبلات ، ومثل الحجر والتراب ، ومثل الحديقة ، ومثل البستان الذى احترق لما أصابه نار ، هذه أمثال ضربت لحال المنافقين والمخلصين .

يقول فى أولها ، وهو مثل الحبة والسنبلة : يأيها الناس انما أموالكم كحبات ، فاذا أنفقتموها فى النفع العام ، وهو سبيل الله كتعليم أبناء الأمة أخذ المتعلمون يزدادون بنسبة المضاعفات المطردة ، ونما عددهم وكان ثوابكم يوم القيامة تبعا لهذه النسبة أبدا وأمدا ، هكذا فى الصناعات والزراعات والسياسات ، وكل عمل تعملونه يزداد ثوابه بازدياد نموه وارتقاء نتائجه ، فأما مثل الحجر والتراب فقد شبه المرائين ، وقد أنفقوا بمن وضعوا التراب على الحجر فعصفت به الرياح ، وذرته السافيات ، وطيرته الذاريات ، فلا نبات به يقوم ولا خير منه يرتجى ، فأما ثالث الأمثال فذلك مثل الجنة النابتة أشجارها بربوة فآتت أكلها ضعفين فان لم تغث بوابل فطلّ ، فهى أبدا مثمرة مزهرة ناضرة ، وذلك مثل المخلصين ، فأما رابع الأمثال فهو تهويل لحال القوم الذين يراءون ولايخلصون ، فهو أشد من الثانى اذشبه المرائى بصاحب جنة ذات أشجار ونخيل وقد أصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء وربما خيرها فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، فهو بانفاقه الجمّ من المال يرجو عزة قعساء ، وفضلا واسعا ، فلما أن حرم من الاخلاص هدم بنيانه .

ولقد يكون الانسان فاضلا سابحا فى بحار الحكمة فيتخبطه الشيطان فيغويه فيضل سواء السبيل بعد أن غرس الحكمة وطفق يجنى ثمارها فانقضت صاعقة الشهوات فأذهبت الثمرات .

مطالب هذا القسم

لقد أدركت ماسلكه الله فى أوّل القسمين ، وهو التوحيد ، وقد فصله ثلاثة أقسام وحشر فى آخرها علوم الطبيعيات والتحليل والتركيب والصناعات ، فأما هذا القسم فقد ازدان بسبع جواهر نضرات ويواقيت باهرات ، وهى التعالى عن الرياء والايذاء وخوف الفقر بوعيد الشيطان ، وانفاق الخبيث واتباع الحكمة والانفاق على مدى الأيام والأحوال سرًّا وجهرا ليلا ونهارا ، وبيان المنفق عليهم .

(١) فأما ترك الرياء فذلك واضح فى الأمثال المضروبة كما فهمت ، وأما الباقى فهو يقول :

(٢) أيها الناس إياكم أن تبطلوا الصدقات بالمن على المساكين وأذى الطالبين

(٣) وإياكم أن يخيفكم الشيطان بوعيده ويزعجكم بتهديده فيخيفكم من الفقر ويأمركم بكنز الأموال

(٤) والانفاق من الحكمة العملية

فالحكمة علم وعمل فمن أوتيها فقد نال الخيرات ورزق أعظم الثمرات ، وهل يذكر الا أولوا الألباب ألاوان الله يعلم صدقاتكم المعطاة ونذوركم المعقودة ، فأوفوا النذور .

(٥) ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون فانكم لاتأخذونه الا مغمضين ولاتقبلونه الا كارهين فعاملوا بما تحبون أن تعاملوا به .

(٦) فأعلنوا الصدقات وأخفوها ، فانها فى الحالين محمودة مطلوبة ، ولا يصدنكم الشيطان فتقولوا لاننفق خيفة الرياء ، فان ذلك ضلال مبين .

(٧) فأما سابعها فهم المنفق عليهم : كأهل الصفة ، وهم نحو أربعمائة من فقراء المهاجرين منعهم الجهاد فى سبيل الله ، وطلب العلم لايستطيعون ذهابا فى الأرض للمكسب لانكبابهم على طلب العلم والغزو (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس الحافا) أى الحاحا ، يقال ألحفنى فضل لحافه : أى أعطانى من فضل ماعنده .

المبحث الثانى

اعلم أن مسألة المال اليوم هى الشغل الشاغل للنوع الانسانى ، وترى الحرب الكبرى التى قلبت وجه الأرض لم يكن لها سبب الا المال ، فالنوع الانسانى بعد أن استعبده الملوك ، وقد خضدت شوكتهم وضعفت سلطتهم ، وأصبح الأمر شورى فى أغلب الممالك جاء له دور المال ، وصار هو الذى به تقوم الممالك وتهدد وله وحده قامت الحرب الحاضرة ، وانتهى ملك دولة القياصرة ببلاد الروس ، وقسمت الأرض على الفلاحين ، وأصبح البلشفية يأمرون الناس جميعا بالعمل وزلزلت رؤوس الأموال زلزالها .

فانظر فى آيات القرآن كيف أمر بالانفاق وحض عليه وعلى الاخلاص فيه . البلشفية لايهمهم الاخلاص وإنما أخذوا الأرض نهبا من أربابها ، والقرآن يقول : ليكن المسلم مخلصا فى انفاقه شاعرا أن المال مال الله وأن الأرض لله ، وهو الذى أخرج النبات وأنماه وأثمره ، فليعطه للفقيراخلاصا لله لاخوفا من السيف ، فماذا يطلب القرآن ؟ يطلب مطلبا فوق ماتقوله البلشفية ، ولأقص عليك ماذكره الأمام الغزالى فى الاحياء :

قال : ان شرط تمام الوفاء بافراد المعبود بالعبودية فى الشهادتين أن لايبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فان المحبة لاتقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لانها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت ، والامتحان بأمرين : بذل النفس فى سبيل الله ، وبذل المال ، ولقد انقسم الناس فى بذل الأموال ثلاث فرق :

الفريق الأول : نزلوا عن جميع أموالهم ولم يدخروا دينارا ولادرهما وأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم ، قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة فى مائتى درهم ؟ قال أما على العوام بحكم الشرع فخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع ، ولهذا تصدق أبو بكر رضى الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضى الله عنه بشطر ماله ، فقال صلى الله عليه وسلم : ما أبقيت لأهلك ؟ فقال مثله . وقال لأبى بكر رضى الله عنه ما أبقيت لاهلك ؟ قال الله ورسوله . فقال صلى الله عليه وسلم : بينكما مابين كلمتيكما .

الفريق الثاني : الممسكون أموالهم ، ولكن ينفقون الزكاة وغيرها ، وليس الانفاق خاصا بما جاء فى كتب الفقه مما سابينه قريبا كلا ، بل يجب اعانة المحتاج وذوى القربى وما أشبه ذلك غيرماق الزكاة . وهذا مذهب النخعى والشعبى وعطاء ومجاهد ، فهؤلاء يوجبون صرف المال فى وجوه البر ، وفى مواسم الخيرات . ويحرم عندهم التنعم ، وما فضل عن مقدار الحاجة يصرف ، ويستدلون بقوله تعالى «ومما رزقناهم ينفقون» وقوله « وأنفقوا مما رزقنا كم » قيل للشعبى هل فى المال حق سوى الزكاة ؟ قال نعم أماسمعت قوله عزّ وجلّ « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى » الخ .

الفريق الثالث : أن يقتصر على أداء الزكاة المفروضة ، وهذا أقلّ المراتب . و هذا ملخص ماقاله الغزالى

ماقاله العلماء فى الزكاة الواجبة

زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة ولا غيرها الا على مسلم حرّ . وزكاة النعم [الابل والبقر والغنم] تجب إذا كانت سائمة : أى ليست معلوفة ، بل ترعى فى المراعى المباحة ، فأما إذا ظهرت الكلفة فى مؤنتها بان علفت وقتا وسيمت وقتا ، أو علفت دائما فلا زكاة فيها ولابدّ أن يحول عليها الحول فى ملك المالك ، و يشترط أن يكون مطلق التصرف فى ماله ولابدّ أن يكون نصابا ، والنصاب فى الابل أقله خمس وفيهاجذعة من الضأن والجذعة هى التى تكون فى السنة الثانية ، أوثنية من المعز وهى التى بلغت السنة الثالثة ، وفى عشر شاتان ، وفى خمسة عشر ثلاث شياه ، وفى عشرين أربع شياه ، وفى خمس وعشرين بنت مخاض من الابل ، وهى التى فى السنة الثانية ، وهكذا :

وأما البقر فلاشئ فيه حتى يبلغ ثلاثين ففيها تبيع ، وهوالذى فى السنة الثانية ، ثم فى أربعين مسنة ، وهى التى فى السنة الثالثة ، ثم فى ستين تبيعان ، واستقر الحساب بعد ذلك ، فنى كل أربعين مسنة ، وفى كل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أوثنية من المعز ، ثم لاشئ فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ، ففيها شاتان إلى مائتى شاة وواحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربعمائة ففيها أربع شياه ، ثم استقر الحساب فى كل مائة شاة .

زكاة الركاز والمعادن

الركاز دفين الجاهلية ، وقدوجد فى أرض لم يجر عليها ملك لمسلم ، فعلى واجده فى الذهب والفضة الخمس ، أما المعدن ففيه ربع العشر ولا يكون إلا فى الذهب والفضة .

زكاة الذهب والفضة

وتكون الزكاة فى الذهب والفضة إذا ملكهما الانسان حولا كاملا ، وكان الذهب عشرين مثقالا ، وكانت الفضة مائتى درهم وفيها ربع العشر ، وهو نصف مثقال فى الذهب ، وخمسة دراهم فى الفضة .

زكاة التجارة

وزكاة التجارة كزكاة النقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذى به اشترى البضاعة ، وتقوّم عروض التجارة عند آخر الحول بما اشتريت به . وقال داود الظاهرى : لاتجب الزكاة بحكم التجارة

فى العروض إلا أن ينوى به التجارة فى حال تملكه .

الزكاة فى الزرع

أوجب أبوحنيفة الزكاة فى كل مايقصد من نبات الأرض كالفواكه والبقول والخضراوات كالبطيخ والقثاء والخيار ونحو ذلك .

وجمهور العلماء أوجبوا الزكاة فى النخيل والكروم ، وفى كل مايقتات به ويدخر من الحبوب ، ويجب اخراج العشر فيما سقى بالمطر والأنهار والعيون ، ونصف العشر فيما سقى بنضح أو سانية ، والسانية هى التى يسقى عليها سواء أكانت من إبل أو بقر أو غنم .

ولايجب العشر فى الثمار والزروع حتى تبلغ خمسة أوسق ، والوسق ستون صاعا . وقال أبوحنيفة : يجب العشر فى كل قليل وكثير من الثمار والزروع . وأجمع المسلمون على أن الزكاة لاتصرف إلا للمسلمين وهم المذكورون فى [سورة التوبة] . وجوّز أبوحنيفة صرف صدقة الفطر الى أهل الذمة ، وخالفه سائر العلماء ، وأما قوله تعالى : « وماتنفقون إلا ابتغاء وجه الله » التى وردت فى التصدّق على المشركين كما تقدم فانما هى فى التطوّع لافى الزكاة المفروضة ، فصدقة التطوّع تصرف لفقراء المسلمين وفقراء أهل الذمة .

صدقة الفطر

هى واجبة على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات ، ويخرجه من جنس قوته ، أومن أفضل منه ، ويجب على المسلم فطرة زوجته ومماليكه وأولاده ، وكل قريب تجب نفقته عليه من الآباء والأمهات والأولاد اهـ

هذه هى الزكاة ، وهذه آراء العلماء فى الانفاق ، فانظر كيف أوجب بعضهم صرف جميع المال ، وبعضهم أوجب صرف مافضل عن الحاجة ، وهذان المذهبان الاسلاميان أعلى مايتصوره العقل البشرى ، والانسانية اليوم يعوزها عقول ترقى المدارك البشرية حتى يرى العالم والطبيب والمهندس وعالم الدين أن الناس اخوته ، فليبذل نفسه لهم وجميع أعماله .

فعلى الناس أن يبذلوا مواهبهم فى سبيل المنفعة العامة ، ويستخرجوا جميعا خيرات الأرض ، وخيرات الصناعة والزراعة ، فاذا عجز أحدهم ، وهو مجدّ فى عمله عن قوته وجب اعانته ، وليكن ذلك بصدق واخلاص وليكن الآخذ مجتهدا لا كاسلا نائما ، والاحزم ، وهذه التعاليم ان أظهرت فى الاسلام نكون أرقى أمة فى الارض . أوليس من العجائب أن يقوم [تولستوى الروسى] الشهير فعرض أرضه على المزارعين وهى تعدّ بعشرات الآلاف من الفدادين . كيف يظهر فى أوروبا نابغون فى العلم وفى الاحسان ، والمسلمون نائمون . اللهم ارفع شأن علمائها وعقلائها حتى يرفعوا مستواها ، انك أنت السميع العليم .

المبحث الثالث

أفضل عبادة المسلم التفكير فى الرياض والحقول والبساتين

من لى بأن يسمع المسلمون صوتى فى أقاصى البلاد ، من لى بان ينظر أبناء العرب والترك وأهل الهند والصين والجاويون والسودانيون مقاصد القرآن ، ووجهته التى تربى العقول والنفوس ، وترفع مستوى الانسان الى مصاف الملائكة ، وأن يكون المسلمون خلفاء لله على عباده رحماء ، لاضعفاء جبناء ، لا تتخطفهم الأمم

من كل جانب . انظروا أيها الاخوان ماجاء فى القرآن من الأدلة وأنواع التشبيهات تروها نحو المشاهدات المحسة وعلوم الطبيعة :

(١) فان أمر بالعبادة قال فى سورة البقرة : « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ووصف انزال الماء ، واحياء الحقول والبساتين والثمر والحب والكلأ .

(٢) وان استدل على التوحيد قال فى سورة البقرة : « إنّ فى خلق السموات والأرض » الآية ، وأخذ بشرح اختلاف الليل والنهار ، وسير الفلك فى البحر ، والسحاب والمطر والنبات .

(٣) وان طلب منا الشكر قال : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فليكن الشكر على تسخير البحر والسمك والدر والمرجان والسفن الجاريات فيه .

(٤) وان ذكر الحكمة والحكماء والعلم والعلماء قال : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » فجعل الخشية والعلم يرجعان للنظر فى الألوان والأشكال فى الانسان والحيوان والجبال والدواب ، فانظر كيف نام المسلمون .

(٥) وان ذكر اليوم الآخر واستدل على البعث قال : « يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » يذكر خلق الانسان من تراب يصير نباتا وحيوانا بالزرع والتغذية منه فيكون دما فلحما أوورقا وثمرا لتغذية الحيوان بالزرع ، والزرع يغتذى من عناصر الأرض وهو التراب ، ثم يكون نطفة فعلقة فمضغة قطعة متجمدة بمقدار ما يمضغ الناس فى الفم من اللقمة وهكذا ، وذلك هو علم الأجنة ، ولقد ظهر هذا العلم فى المدارس العالية فى جميع العالم .

(٦) وان حرض على الانفاق فى المنافع العامة قال بصف زيادة الحسنات للمنفق بازدياد الحب فى السنابل : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل » .

(٧) وان ذم النفاق مثل بالليل وظلمته ، والنار وايقادها ، وسرعة ذهاب نورها .

(٨) وان مثل الكفر جعله كالظلمات ، أوالقرآن جعله كالمطر ، أوالوعيد جعله كالرعد ، أوالحجج جعلها كالبرق .

(٩) أوالعدل جعله كالنظام العام فى قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط »

(١٠) أوالرياء جعله كالحجر عليه تراب فأصابته ريح شديدة أطارته .

(١١) أوذكر الاخلاص جعله كالجنات سقاها الغيث .

(١٢) أوالتخويف من عواقب الرياء ذكر الحدائق فيها النخيل والأعناب أصابها الزعازع والرياح العاتية فيها نار فاحترقت وصاحب الحديقة أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء .

(١٣) وان ذكر انقلاب الدول والممالك مثل بالليل والنهار إذ قال : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار » الآية .

ففى هذه المشاهدات مظاهر العبادة ، وأدلة التوحيد ، ومطالب الشكر ، ومبادىء الحكمة ، وموجبات

الخشية ، ودلائل البعث والقيامة ، ومثال ازدياد الحسنات ، ومشابهات النفاق ، ومايناسب الكفر ، وما يوافق العدل ، ومايوضح الرياء ، وما يشرح الاخلاص ، وما يبين انقلاب الدول . ذلك هو الذى اتجهت إليه وجهة القرآن ».

عجبا لأمة نام عنها علماؤها ، وقتلها وعاظها ، أمة الاسلام هى الأمة التى أمرت أن تكون المزارع درسها والحدائق علمها ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار آياتها .

أيظن المسلمون أن تلك الأمثال والتشبيهات جادت عبثا ؟ ياقوم أليس الاعراض عن المشاهدات الطبيعية أشبه شىء بكفر النعمة ؟ أليس ذلك تحويلا لوجهة النظر العلمية .

أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها : إن ربكم واحد ودينكم النظر فى صنعه وعجائبه وجماله وحكمته وأنواره وشموسه وأقماره وأضوائه وبهائه ، أفلا تسمعون ؟ أفلا تبصرون ؟ جاء لكم حكماء وعلماء كابن سينا والفارابى والغزالى والرازى ، وأسمعوكم ما أقول اليوم ، فأبيتم وقلتم انكم كافرون .

جاء ابن رشد الأندلسى ، وقال أيها المسلمون : علم التوحيد مبناه هذه العجائب والبدائع ، فانظروا فى السهل والجبل والبر والبحر والشمس والقمر ، فانظروا فى حسابها وعجائبها ، فكذبتموه وكفرتموه ، وطرده أهل الأندلس ، وبصقوا فى وجهه ، فمات طريدا وحيدا ذليلا ، ثم حمل علمه اليهود والنصارى ، فارتقت أوروبا بعلمه فى ثلثمائة سنة بعد موته من أول القرن السابع الى أواخر القرن التاسع الهجرى ثم انقضوا على المسلمين فأفنوهم أجمعين ، وذلك جزاء القوم الجاهلين .

أيها المسلمون : أفكلما جاءكم عالم بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون . أيها المسلمون آن الأوان ، وبهذا الكتاب وأمثاله سيستيقظ المسلمون سريعا ، وسيجىء جيل لم تشهد الأرض مثله ، وينظرون فى هذه العوالم التى زوقها الله وزينها للناظرين ، وجعلها بهجة العارفين ، وحكمة العالمين .

أيها المسلمون : هذا هو علم التوحيد ، علم التوحيد فى الحقل والجبل والزرع والشجر والثمر والقمر لافى الكتب المصنفة المشهورة ، هى والله مبعدة عن حكمة الله ومعرفة آياته هى مجلبة للشك ، ان القرآن أمركم بالنظر فى جمال صنعة الله ، ودقائق حكمته ، وجمال بهجته ، ذلك هو القرآن ، اتبعوا ما أرشد إليه فوالله لينبغن فى هذه الأمة ناشئون يكونون بهجة الدنيا وزينة العالمين ، وليكونن أهدى الامم وأعلمهم بما فى الكون ، هم خلفاء الله فى أرضه هم المسلمون الصادقون ، ولن يكون ذلك بقراءة الكتب المشهورة ، لقد كنت أيام مجاورتى بالجامع الأزهر أردت قراءة [العقائد النسفية] مع المرحوم صديقى الشيخ محمد جابر بعد أن أتممنا سنى الدراسة ولم نجد من العلماء من يقرؤها كما هو المطلوب ، فكنا نقرأ آراء الخيالى وعبد الحكيم اللذين كتبا عليها ونحن مبتهجون بتلك العلوم . وبينا أنا نائم إذ رأيت كأنى على شاطئ بحر وكأن هناك سمكا فى الماء بقرب الساحل ونور النجوم لامع على جلد السمك فسمعت قائلا يقول : « لم يظهر من القرآن فى هذا الكتاب إلا كما ظهر من الفلك على جرم السمك » اه

حكاية

جاء إلى مصر منذ سنين المرحوم الأستاذ السيد حسين الخياط ، مع الأستاذ الصوفى الشيخ الجربى ، والأستاذ السيد حسين كان مدرسا بمكة ، فلما سلم على قال : إنى قرأت الشريعة والتصوف ، ولكن قراءة كتاب نظام العالم والأمم فتحت لى بابا كان موصدا ، وقد أرسله الى أحد تلاميذى من أسرة العطاس بناحية جاوه ، ولما قرأته تعجبت من هذه الدنيا وغرائبها ، ورأيتك تقول : ان الماء قد حلل أمامك الى عنصرين

الأوكسوجين والأودروجين ، وأن هناك نظاما بديعا وحسابا متقنا بحيث يكون الأوكسوجين ثمانية أضعاف الايدروجين ، وأن هذه النسبة لو أخطأت لبطل التركيب ولم يكن ماء ، ولطالما كنت أقول : هل رأى المؤلف هذه العجائب بعينه ؟ ومن لى بان أذهب الى مصر فأرى المؤلف وأسمع منه ذلك ، فأنت المؤلف فهل هو حق ؟ قلت نعم أنا رأيته بعينى وأنا تلميذ بدار العلوم ، ثم توجهت معه اليها والى غيرها من المدارس الثانوية وشاهد العملية بعينه ، فقال :

ماشاء الله يامصر قد خدمت الاسلام ! فقلت له : ان مصر لاتزال طفلة فى هذا الموضوع وعملها قليل جدا بالنسبة لأوروبا ، ومما قاله لى وهو سبب مساق الحكاية : أنا الآن صدقت كلام الشيخ الشعرانى إذ قال : ان الاسلام فى أوّل أمره يكون شريعة ، ثم فى آخر الزمان يكون حقيقة ، فقلت وما فهمت فى هذا ؟ فقال الشريعة هى الأحكام الشرعية المعروفة فى الاسلام ، والحقيقة هى الأنفس والآفاق : أى معرفة علوم النفس والنظر فى هذه العجائب التى تشرحهما من شمس وقمر ونبات ، وهذه الكتب وأمثالها ستجعل وجهة الاسلام من الآن هذه الحقائق فى الأنفس والآفاق

مقارنة الاسلام بالنصرانية وعلوم أوروبا

اللورد افبرى الذى كان معاصرا لنا من كتاب الانجليز وعظمائهم أخذ فى كتابه محاسن الطبيعة فى التمهيد الذى فى أوّل الكتاب يصف القمر والنجوم والشمس وبهجتها فى طلوعها وغروبها ، وينقل عن العالم كنسلى أنه كان يحب الوادى ، وهو مغرم بجمال الطبيعة ، ويقول انه كان يؤنسه الحصى والنحل والزهر ويتأمل فى الغياض والأجمات ، وهو يحاول فك الرموز والطلاسم فى سفر الكائنات ، وينقل عن العلامة كبل أنه كان يقول : ماأحوج الانسان الى أن يرسل طرفه ، ويتأمل فى العوالم العلوية والسفلية عوالم المجد والجمال ، وبعد ماسرد كثيرا من ذلك صرّح أن ذلك من قرائحهم لامن دينهم ، وأن دينهم كان عقبة أخرتهم الى الوراء إذ قال : ان الطوارئ التى حدثت فى الهدى ورثناه من الدين قد صرفت عقولنا وحواسنا وعواطفنا عن جمال الطبيعة ، ثم سرد فوق ذلك معتقدات اليونان وأجداده هو من الانجليز والأوروبيين من أن للغابات وللأنهر آلهة تحكمها ، وأن فى الماء جنا تخيفهم وتزعجهم ، وأن هناك أرواحا تغضب عليهم ويخافون من الجبال والغابات والبحار والبحيرات لتوهمهم أن الأرواح الخبيثة تسكنها العفاريت والغيلان والجن والشياطين والسحرة ، ثم قال : ولما بزغت شمس العلم تمزقت تلك الحجب فأصبح العلماء يبتهجون بتلك المحاسن ثم قال : ان الأرياف مواطن الجمال ، وهى السحر الحلال اهـ مختصرا

ها هى ذه أوروبا ، وهذه عقائدها الدينية والوراثية ، والقوم هم أنفسهم حلوا هذا الوثاق وخرجوا من سجن الخرافات واستنشقوا نسيم الحرّية فى الحقول ونظروا فى السموات والأرض ، أولست ترى أيها الذكى أن دين الاسلام الذى شرحت لك مقاصده فى هذا التفسير وفى هذه المقالة أيضا قد أطلق عقول المسلمين من يوم البعثة النبوية وكشف لهم الغطاء عن السماء والارض وأراهم الشجر والثمر والحب والزهر والفاكهة والأب ، وقال : أى عبادى هذه أرضى وسمواتى وجناتى وأعنابى ونخيلى وجبالى وفواكهى وحيتانى فى البحر ودرّى ومرجانى وجمالى باهر ظاهر تجليت عليكم بشمسى وقمرى وبنورى وبنجومى فماذا جرى أيها الذكى ؟ هب المسلمون فى القرون الأولى ، ثم ناموا نومة أهل الكهف ، ولما ظهر الأوروبيون وبهروا قالوا لنا انا كشفنا الغطاء عن الأرض والسماء ونظرنا كل يابسة وخضراء ، فنقول حقا كان ذلك ونحن نيام ، وهذا دليل على أن نبينا آخر الأنبياء ودينه هو الباقى إلى آخر الزمان ، لأنه لاعفريت يمنعنا عن هذا الجمال ، ولا شيطان يخيفنا فى البحار ، ولا غول يهز رأسه فى الظلمات ، بل ان علومكم هى مقتضى ديننا ، ونحن وان كنا نمنا قرونا كثيرة سنبحث

أعمالكم وقرأ علومكم ونعلو فيها عليكم ، لأنكم قرأتموها مفكرين ، ونحن نقرؤها للعقل والدين ، فيكون شوقنا أعظم وعلماؤنا أكبر ومدنيتنا أعظم ، أنتم بالنظر فى الكون خالفتم كتابكم ، ونحن بالنظر فيه وافقنا ديننا وطابقنا بذلك معتقدنا ، وقد قال الله « ليظهره على الدين كله » ، وظهوره سيكون بهذه النظرات وارتقاؤه بهذه الآيات « ان فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون » اهـ

تذييل

لقد كان أهل الشرق كالمصريين وأهل الهند قديما مغرمين بالنظر فى العجائب والبدائع والتفكر فى ابداع الخالق ، فلذلك عشقوا جمال هذه المشاهدات فأثرت فى قلوبهم وأحيت نفوسهم وأيقظت عقولهم ، فزينوا الدنيا بعلومهم ، وزوّقوها بصناعاتهم ، وهذا بتأثير أنبيائهم وحكمائهم الذين عشقوا هذا الجمال ودوّنوه فى الكتب وعلموه للشعوب ، فان الجمال فى المخلوقات يرتسم فى النفوس ، وهى تبرزه علما وصناعة ، وذلك كما ترى فيما وجد منقوشا باللغة المصرية القديمة بتل العمارنة ، وقد نقله الى اللغة الألمانية والفرنسية علماؤهم وترجم إلى العربية ، وتاريخ تدوينها فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهو نشيد دينى

(١) وصف الشمس الممثلة لعظمة الله : أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك فى آفاق السماء ، تشرق شمسك فى الارجاء فتملأ الأرض بجمالك ، أنت الجبل العظيم البهى الذى تسطع أنواره على وجه الأرض وتحيط أشعته بكل أقطارك التى خلقتها وملكتها بحبك مهما بعدت عنا فأشعتك مالئة الأرض كلها .

(٢) وصف الليل : حينما تغرب شمسك بظهر السماء وينتشر الظلام فى الأرض كلها وينام الناس فى بيوتهم ويندرجون تحت غطائهم ، وتسكن حواسهم عن الحركة فلا يسمعون ولا يبصرون ، أنت الذى تحفظ لهم أرواحهم وأموالهم وأمتعتهم وهم فى مضاجعهم غافلون ، ويرخى الليل ستوره فتخرج الأسود من عرنها والحيات من أوكارها وتسكن الا[illegible]عة كلها .

(٣) النهار والانسان : تظهر عظمة شمسك فى الأفق صباحا فتملأ أشعتها أرجاء الأرض كلها . يطلع النهار وينجلى الظلام فتفرح الناس بظهوره ويستيقظون ويتوضئون ويرتدون ملابسهم ويرفعون أيديهم إلى السماء متوسلين اليك ثم يذهبون الى أشغالهم .

(٤) النهار والحيوان : متى أشرقت شمسك فى الأفق تستقر المواشى فى مرعاها ، وتزدهى الأشجار والنباتات وترفرف الطيور تمجيدا لك وتنبعث الحيوانات على قوائمها .

(٥) الماء : اذا أشرقت شمسك فى الأفلاك سبحت فى بحارها الأفلاك ، وتمرح فى لججها الأسماك ، وتتلألأ أشعتك على صفحات الماء فما أبدعك وما أسماك .

(٦) أنت الذى خلقت نطفة الأنام وصورت منها الأجنة فى الأرحام وحفظتهم ووقيتهم الآلام ورفقت بهم فى الرضاع والفطام ووضعت لهم الحنان فى قلوب الأمهات والآباء ، فوفرت عليهم العويل والبكاء ووهبت الحياة لسائر المخلوقات ، وأطلقت ألسنتهم بالكلام على اختلاف اللغات ، ومنحتهم مايحتاجون من قوت ومعاش ومن غطاء وفراش ، أنت الذى تهب النسمة للفرخ داخل البيضة وتحييه ، فيصيح ويمشى عند خروجه منها تفضلا منك ، خلقت الأرض والسموات وأبدعت جميع المخلوقات ، وأعمالك لاتحصى ، واحسانك لايستقصى ،

أنت الذى خلقت البلاد الأجنبية وسوريا وايثيروبيا ووادى النيل ، وخلقت كلا منها فى مواقعها وسخرت لها حاجاتها ومنافعها ، وخصصت لكل انسان خاصياته ، وحددت له أيام حياته . أنت الذى خلقت الشعوب مختلفة الاجناس واللغات والألوان والصفات .

أنت الذى خلقت النيل لحياة أبنائه ، وأنعشتهم بعذوبة مائه . أنت الذى تسوق الأرزاق للبلدان القاصية وتنزل

الأمطار

الأمطار على جبالها هامية فتنحدرا لمياه الى الحقول والبلاد لخصبها وترويتها ، ما أجلك يارب الأزل ، وما أجل أوامرك العالية .

أنت الذى قسمت السنة فصولا لمصالح خلقك ونظام حياتهم ، قد ارتفعت فى علوّ سمائك لتبرز منها أشعة شمسك ، وترى منها ملكوتك ، أنت وحدك الذى تشرق شمسك الحية المضيئة البارزة أشعتها ، قد خلقت الارض لعبادك ، ومتى أشرقت علينا شمسك شخص الناس إلى جمالك [هذا] هو الذى كان يناجى به قدماء المصريين ربهم [والقرآن كله طافح بذكر الشمس والقمر والكواكب والنبات والحيوان والأمم ، واختلاف الألوان والألسن] فعلى المسلمين أن يفكروا ويبتهجوا بجماله .

هذا ، ولما انتهى الكلام على هذا المقصد شرعنا فى تفسير المقصد التاسع عشر فى بعض المعاملات فى الأموال ، وهى الربا والدين والرهن .

(المقصد التاسع عشر)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ

تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

ايضاح داخل فيه التفسير اللفظى

وصف الله المتعاملين بالربا بأنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كما يقوم الذى يضربه الشيطان ضربا على غير اتساق بسبب الجنون اتباعا لزعم العرب وأسلوبهم فى التعبير عن حال المصروع ، وإنما ذلك لأنهم سوّوا بين البيع والربا والله أحل البيع وحرّم الربا . قال تعالى : (فمن جاءه موعظة من ربه) فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهى عن الربا (فله ماسلف) فلا يؤاخذ بما مضى منه (وأمره الى الله) يحكم فى شأنه يوم القيامة (ومن عاد) الى الربا مستحلا (فأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون) لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين (يمحق الله الربا) يذهب ببركته ويهلك المال الذى يدخل فيه (ويربى الصدقات) ينمى ويزيد المال الذى أخرجت منه .

الربا قسمان : ربا فضل كما إذا باع ذهبا بذهب وفضة بفضة وحنطة بحنطة ، فذلك ممنوع فيه النسيئة والتفاضل ، فأما فضة بذهب فالتفاضل جائز على شريطة المقابضة والافهو ربا النسيئة ، والفضل والنسيئة ممنوعان ولقد فصله علماء الشريعة الغرّاء ، ومن عجب أن الربا الشائع فى الأمم اليوم قسم ألحق بما فصله علماؤنا . وهو اللاحق بالقرض ، وهو قرض جرّ منفعة .

ان المسألة التى هى عقدة العقد واحدى الكبر ، وهى الربا قد هزهزت الأمم هزهزة ، وستكون من نتائجها المزاهز والمحن على الأمم جمعاء ، ألم تركيف كان الاستعباد منوطا بثلاث ، ملك جائر ، ورئيس دينى ظالم ومثر شحيح طامع ، هؤلاء هم الفجرة الاشرار الظلمة ، فأما الملوك الظالمون فقد قال الله فيهم « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها » كما يشاهد فى بلاد الجزائر ومراكش وتونس وأمثالها من الأمم التى دوّخها الفاتحون ، وظلمها الملوك القاهرون ، وأما الرؤساء الضالون ، ففيهم قال الله تحذيرا لتابعيهم ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ أى مشرّعين مستبدين بالشرائع لايعطون أممهم الا ماتهواه أنفسهم كما روى أن عدىّ بن حاتم قال للنبى ﷺ لما نزل « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ما كنا نعبدهم يارسول الله قال « أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم . قال هو ذاك » .

فأما القسم الثالث وهم أولو الحرص من الأغنياء والمستبدين من ذوى الثروة والجاه ، فقد قال الله فيهم (فان لم تفعلوا فأذنوا) أى أعلموا (بحرب من الله ورسوله) أوفأعلموا غيركم بحرب من الله ورسوله فى الدنيا .

وذلك الحرب اما شرعى كما نص عليه المفسرون من محاربة ذى الشوكة المرابى إذا لم يتب أوحبسه وسجنه وتعزيره ان لم يكن ذا شوكة ، واما أن يعامل يوم القيامة معاملة المحارب ، فيعذب ويلقى فى النار كأنه كان

يحارب

يحارب الله ورسوله ، وإما بما يستأصل الأمم ويدهورها ويزيلها من الوجود كهذه الأمم الحاضرة ، فانك ترى الاشتراكيين يودون قلب النظام الحالى فى الحكومات إذ علموا أن الظلم واقع ماله من دافع على الفقراء والضعفاء من الأمم القوية وعلى كافة رجال الامم الضعيفة ، ذلك بتحكم أرباب الاموال فى نفوس الملوك والعظماء ، فيكون الحرب والقتال كبضاعة يبيعونها وسلعة يزجونها ، وبما يتحكم أرباب الأموال المرابون فى العملة الضعاف ، وبذلك أصبحت حياة الأمم وعرة خطرة مشتعلة الافئدة بنار الحروب ، وما موقدها فى أفئدة الفقراء إلا أصحاب المال بنيران الذهب الوهاج المتقدة فى حطب العمال ، فالفقراء بها يسجرون ، والاغنياء بنورها يفرحون ، وستكشف الحال ، ويصبح المنعم بهاشقيا ، والمسجور بهامنعما ، ستصير بردا وسلاما على الفقراء ، ونارا وسعيرا على الأغنياء ، إذا اصطدمت القوتان ، واقتتلت الطائفتان ، أخذ المظلومون حقهم من الظالمين فى هذه الحياة ، فبالك إذا وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، فهناك الجزاء الأوفى ، وأن الى ربك المنتهى .

كما أن الزنا عاقبت عليه الشرائع السماوية ، فلما أهمل الناس ذلك عوقبوا بذلك الداء القتال ، وهو المسمى [الافرنجى] فى بلادنا ويسمونه [الزهرى] وهو يشوه الجسم ويضعفه ، وهو يعذب المريض عذابا لا يطاق هكذا الربا لما أهمل الناس أمر الديانات فى تحريمه جرعت الأمم غصص الاضطرابات من الاشتراكيين والحروب وهذا الحكم يشمل سائر الأمم والاجناس والممالك ، فأما ذلك الذى أكل الربا من أبناء جنسه واستبد به وروقته على نفسه ، وقد أصبح الفقراء فيها جاهلين معذبين ، والاغنياء متعين منعمين ، فلن مايلحق الأمة من فقر وأذى وجهل فاضح فانه لاجرم بأولئك الأغنياء لاحق فلا سبيل لسعادة امرئ مالم يعم السعد بلاده . والا فكيف يتمتع بخادمه ويهنأ بصديقه وصاحبه ، ويأكل الثمرات ويعلم بنيه وبناته ، فانفاق الأموال من الأغنياء عناية بالجوع وسعادة للمجموع ، ولاعز لامرئ إلا إذا أحاط السعد بأمته ، فانما هى موسيقى ذات فروع ، وهو أحد فروعها ، ان الانسان مدنى بالطبع ، لهذا السر « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » أى يذهب الله بركته ويهلك المال الذى يدخل فيه ، ويضاعف ثواب الصدقات ويبارك فيما أخرجت منه ، وعنه عليه الصلاة والسلام « ان الله يقبل الصدقة فيربيها كما يربى أحدكم مهره » ، وعنه عليه الصلاة والسلام « مانقصت زكاة من مال قط » (والله لا يحب) لا يرضى (كل كفار) مصر على تحليل المحرمات (أثيم) منهمك فى ارتكاب الاثم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم) من مستقبل (ولا هم يحزنون) على فائت (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقى من الربا) اتركوا بقايا ماشرطتموه على الناس فى معاملات الربا (ان كنتم مؤمنين) بقلوبكم ، يروى أنه كان لثقيف مال على بعض قريش ، فطالبوهم عند حلول الأجل بالمال والربا ، فنزلت (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فاعلموا بها ، من أذن بالشئ إذا علم به ، فيقاتل المرابى بعد أن يستتاب حتى يفئ إلى أمر الله كالباغى . ولما نزلت هذه الآية قالت ثقيف لايدلنا بحرب الله ورسوله (وان تبتم) من أن تربوا (فلكم رؤس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون) فلا تأخذون الزيادة ولا يماطلكم المدين ولا ينقص مالكم (وان كان ذو عسرة) واذا وقع غريم معسر (فنظرة) فالحكم نظرة (إلى ميسرة) فلينتظر الدائن مدينه إلى أن يأتى اليسر من الله والفرج للمدين (وان تصدقوا) على المدين بالابراء من الدين (خير لكم ان كنتم تعلمون) مافيه من الأجر والذكر الجميل والقدرة الحسنة والسعادة النفسية (واتقوا يوما ترجعون فيه) الآية معناها ظاهر .

[تنبيه] ولقد كنت كتبت ماتقدم وأنا مدرس بدار العلوم قبل الحرب العامة الكبرى بنحو ثلاث سنين كما تقدم وبقى التفسير حتى هذه السنة ١٩٢٣ وابتدئ بطبعه ، وقد حصلت الحرب من سنة ١٩١٤

وكان القطع سنة ١٩١٨ ولايزال الناس فى هرج ومرج والأمم كلها فى اضطراب واختلاط فحقق الله عزوجل ماجاء فى كتابه ، وكانت الحرب وظهرت دولة [البلشفية] وهى التى قضت على دولة الروسيا وعلى الاستئثار بالسلطة والمال ، ولست أقول : انى أعرف كل شىء عنها أوأحوض عليها ، وانما أقول : ان وعد الله حق ، والحرب التى ذكرها الله فى القرآن من أجل المال قد قامت وذلك قوله : فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

موازنة آراء علماء الأسلام في الربا بآراء الاشتراكين

يقول علماؤنا رحمهم الله فى قوله تعالى (وأحلّ الله البيع وحرّم الربا) ان هذه الآية من المجمل الذى يرجع فى بيانه إلى الحديث الشريف فان قوله : وأحلّ الله البيع يفيد جوازجميع البيوع سواء أكانت فيماهو من جملة مافيه الربا أم من غيره ، وقوله : وحرّم الربا يقتضى تحريم جميع البيوع سواء أكان فيما فيه التفاضل فى النقد والنسيئة أم فى غيره لأن كل بيع يقصد به الزيادة ولامعنى للربا فى اللغة إلا الزيادة فيرجع فى هذا المجمل إلى الحديث الشريف ، وقد ورد فى الحديث بيان مافيه الربا ، وهو ستة أشياء الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح .

والربا قسمان ربا النسيئة ، وربا النقد ، ويقال له ربا الفضل : أعطى زيد عمرا عشرة دنانير إلى شهرين مثلا ليأخذ ١١ دينارا ، وهكذا البر والشعير ونحوهما ، فهذا هو ربا النسيئة .

وهكذا اذا أعطاه ١٠ دنانير فى الحال عما يوازنها من الذهب بأن كان حليا وزاد عليها زيادة ما ، وكان ذلك فى الحال فهذا ربا النقد ، ومثل ذلك مااذا أعطاه برّا أوشعيرا مثلا عشرة أرادب وأخذ منه أحد عشر بأن كان هذا رديئا ، وكان الأول جيدا مثلا ، وكان فى الحال فذلك يقال له ربا النقد .

فأما اذا اختلف الجنس بأن أعطى ذهبا بفضة أوقمحا بشعير ، فذلك جائز فيه التفاضل نقدا يدا بيد ، ولم تكن العرب تعرف من معنى الربا إلا ربا النسيئة ، وهو المتعارف اليوم ، وهو الذى قاله ابن عباس ولم ير غيره ، ذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدرا معينا ويكون رأس المال باقيا ، ثم اذا حلّ الدين طالبوا المدبون برأس المال فان تعذر عليه الأداء زادوا فى الحق والأجل ، فهذا هو الربا الذى كانوا يتعاملون به فى الجاهلية ، فحمله ابن عباس عليه ، ولكن الحديث أثبت غيره ، ويكون محصل الصور ثلاثة بيع مطعوم مثلا بدراهم أودنانير يجوز نقدا ونسيئة ، بيع دراهم بدنانير يجوز التفاضل فيه لكن يكون نقدا وكذلك الشعير مثلا بالبر ، فاذا أعطاه أردبا بأردبين جاز بشرط أن يكون حالا ، فأما الذهب بالذهب والفضة بالفضة والشعير بالشعير ، فلايجوز الامثلا بمثل نقدا ، هذا ملخص ماجاء فى الربا .

ولما كان هذا المقام يحتاج إلى بيان الحكمة التى حرّم لأجلها الربا وإلى بيان تحديده والأصناف التى حرّم فيها وجب أن نبين ذلك على ماقاله العلماء ، فان الله عزوجل لما قال العرب : انما البيع مثل الربا لأن كلا منهما يقصد به الفائدة فكيف يباح أحدهما ولا يباح الآخر ، وترجيح أحدهما على الآخر تحكم أجاب سبحانه بقوله : وأحلّ الله البيع وحرّم الربا ، وترك الأمر ولم يبين إلا الحكم وحده تاركا لعقولنا التفصيل مع الوقوف عند النص ، فلنبين الحكمة التى قالوها أولا ثم نتبع ذلك بما يكون فيه الربا ثم نذكر مذاهب الاشتراكية .

حكمة تحريم الربا ورأى الامام الغزالى

ولقد رأيت للامام الغزالى هنا قولا مفصلا أختصره لك مع الفائدة فأقول : قال : ان الذهب والفضة لايقصدان لذاتهما وانما هما وسيلتان إلى التبادل ، فاذا كان عند امرئ جمل وعند آخر زعفران وكلّ

منهما

منهما يريد أن يعرف ما المقدار الذى يستحقه الآخر فى مقابلة ماعنده وكان هذان النقدان حكمين فيقال : هذا الجمل يساوى ٧٠ دينارا ، وهذا الزعفران يساوى عشرين دينارا ، وشيئان يساويان شيئا واحدا يكونان متساويين ، وهذان الحاكمان من اتجر فيهما وحبسهما فقد ظلم وكأنه حبس القاضى الذى يقضى بين الناس فيعطل مصالحهم .

وهكذا المطعومات لايجوز أن تجعل سلعا تباع وتشترى قصدا وبالذات فان فعل ذلك أصبحت مقيدة فى أيدى الناس ، وكان الاحتكار والاضرار بالناس ، والناس فى حاجة إليه والحاجة إلى الطعام شديدة ، فينبغى أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولايعامل على الأطعمة إلا مستغن عنها إذ من معه طعام فلم لايأكله ان كان محتاجا ، ولم يجعله بضاعة تجارة وان جعله تجارة فليبعه ممن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجا إليه ثم بائع البر بالتمر معذور اذ أحدهما لايسد مسد الآخر ، هذا ملخص ماقاله الامام الغزالى .

وأنت ترى أن هذا القول وان كان حسنا لا يكفى لمعرفة الحكمة ، فلنذكر ما قاله غيره . قال بعضهم : « انما حرم الربا لأنه يمنع الناس عن الاشتغال بالمكاسب ، وذلك لأن صاحب الدراهم اذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدا كان أونسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة ، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة ، وذلك يفضى إلى انقطاع منافع الخلق ، ومن المعلوم أن مصالح العالم لاتنتظم الابالتجارات والحرف والصناعات والعمارات » .

وقال آخر : « ان الغالب أن المقرض يكون غنيا والمستقرض يكون فقيرا فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغنى من أن يأخذ من مال الفقير الضعيف مالا زائدا وذلك غير جائز » هذا أهم ماقاله علماؤنا فى حكمة التحريم .

ما الأصناف التي يحرم فيها الربا ؟

تقدم القول ان تلك الأصناف ستة ولكن هذه الستة لايعلم الناس لم خصصت ؟ وهنا أخذ العلماء يبحثون ، فأما الشافعى رضى الله عنه فقال : هذا يدل على أن المقصود بالربا هو الطعم والنقد لأن الحديث انما ورد فى النقدين والمطعومات فلنحمله على كل مطعوم قياسا على ماذكر فى الحديث ، وقال أبوحنيفة كلا فان المدار على التقدير وهذه الأشياء مقدرة ، أماق الدراهم والدنانير فالوزن ، وأما الأشياء الأربعة فالكيل مع اتحاد الجنس فى الجميع ، فكأن أبا حنيفة راعى تلك الأشياء من حيث انها مقدرة فقاس عليها كل مقدر بكيل أووزن كالقطن والنحاس والجص والنورة .

وقال آخرون كالامام مالك : ان المدار على القوت لأن هذه الأربعة من الاقوات فيقاس عليها غيرها ، ومذهب الشافعى المتقدم يدخل فيه الثمار والفواكه والبقول والأدوية مكيلة كانت أوموزونة .

وقال آخرون كابن الماجشون : ان كل ماينتفع به ففيه الربا ، وهذا أعم الاقوال عند علماء الاسلام ، واعلم أن هذا القول يناسب الحكمة التى قدمناها عن بعضهم ، وهي أن المرابى قد أخذ مالا بلا مقابل ولاجرم أن من أخذ الزيادة فى مكيل أوموزون أوغيرهما من حيوان أونبات أومعادن أوأرض فقد أخذ من الناس مالا بلا منفعة تعود على نوع الانسان فما الذى ناله الناس منه حتى أخذه ، ان الزارع والتاجر والصانع يبرزون للناس ماينفعهم فما الذى عمله المرابى الجالس على كرسيه ، وغيره يخرج من الأرض أويصنع أوينقل البضاعة من بلد إلى بلد ويأخذ فى مقابل ذلك ثمنا يزيد على الثمن الأصلى ، أماهذا فلم يفعل شيئا ، وهذه الحكمة لاتفرق بين مكيل وموزون ومعدود ، وهذا هو الأقرب للعقل والواقع .

ولما اضطربت أقوال علماء الاسلام فيما ورد عن صاحب شريعتنا ﷺ لعدم تحديده تحديدا تاما قال ابن عمر خرج رسول الله ﷺ من الدنيا وماسألناه عن الربا ، ومقصود ابن عمر أن هذه الآية من المجملات

ثم جاء الامام الغزالى فى مقام آخر وأبان أن كل هذه المعاملات والشروط والحدود والقوانين والعقود انما جعلت لأجل قصور الناس وعقولهم الضعيفة وحرصهم ، والا فالناس جميعا متضامنون ، ويجب أن ينال كل حظه من العمل ومن المال ولايدخر أحد شيئا بل يعين كل واحد أخاه بما زاد عن مقدار مايحتاج إليه ، وهذا القول أشبه من بعض الوجوه بأقوال الاشتراكية فى زماننا . قال :

« من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكنزه وأمسكه وفى عباد الله من يحتاج اليه فهو ظالم وهو من الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ، وانما سبيل الله طاعته ، وزاد الخلق فى طاعته أموال الدنيا إذ بها تندفع ضروراتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لايدخل هذا فى فتاوى الفقهاء لأن مقادير الحاجات خفية ، والنفوس فى استشعار الفقر فى الاستقبال مختلفة ، وأواخر الأعمار غير معلومة ، فتكليف العوام ذلك يجرى مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكون عن كل كلام غير مهم وهم بحكم نقصانهم لايطيقونه ، فتركنا الاعتراض عليهم فى اللعب واللهو ، وإباحتنا ذلك إياهم لاتدل على أن اللعب واللهو حق فكذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصار فى الانفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جبلوا عليه من البخل لاتدل على أنه غاية الحق ، وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم » بل الحق الذى لا كدورة فيه والعدل الذى لاظلم فيه أن لايأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الراكب ، فكل عباد الله ركاب لمطايا الأبدان الى حضرة الملك الديان ، فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التى بها عرف أن ماسوى زاد الراكب وبال عليه فى الدنيا والآخرة ، فمن فهم حكمة الله فى جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك يحتاج الى مجلدات اهـ

فهأنذا ذكرت لك مسألة الربا فى الاسلام ، فانظر كيف كان ابن عباس يقصره على الربا المعروف الآن فى سائر الأمم وعند الجاهلية ؟ وهو ربا النسيئة وانظر كيف جاء فى الحديث شموله لستة أشياء فى النقدين وفى المطعوم ، ثم كيف توسع العلماء فى القياس من مطعوم الى قوت الى كل ما يكال ويوزن الى كل ماينتفع به ؟ وكيف كانت الحكمة ؟ وهى تعطيل طائفة من الناس عن العمل مطابقة لأعم الأقوال وهو القول الاخير ، ثم انظر كيف أبان الامام الغزالى ماهو أوسع من ذلك ؟ وجعل الناس أطفالا جهالا ، وأن تلك الشروط والقوانين ماجعلت إلا تلبية لعقولهم الضعيفة ، ونفوسهم السخيفة ، والا فالناس كلهم اخوان ، فليعط كل منهم الآخر مايزيد عن حاجته ، ولعمرى ان الاشتراكية المسماة بالبلشفية فى البلاد الروسية عجزت عما وصل إليه الامام الغزالى إذ أرادت نزع الملكية العامة فعجزت ، وأمرت أن تعطى لكل امرئ مقدارا معلوما من الأرض كبلاد الصين فان الملك هناك محدد لايجوز لأحد الزيادة عن الحد المعلوم فيه ، هذا ماأردت ذكره فى مذاهب الاسلام ، فلأذكر آراء الاشتراكية :

آراء المذاهب الاشتراكية

وكيف كانت أبحاثهم قريبة مما ذكره علماء الاسلام

لك فيما مضى كيف ابتدأ دين الاسلام بتحريم الربا ، وكيف كان رأى ابن عباس أنه لاربا إلا فى النسيئة وهو المتعارف الآن ، ثم جاء الحديث بستة أشياء ، ثم أوسع ذلك علماء الاسلام الى أن جعلوه فى كل

ما كان مالا مادام من جنسه سواء أكانت الزيادة فى النقد أم فى النسيئة ، واذا اختلف الجنس فلتبع كما تشاء فبيع التمر بالشعير وزيد كما تشاء كالذهب والفضة ، والى هنا وقف جوادهم ، ومنتهى نظرهم ، ولكنهم من جهة أخرى جعلوا أن هذا كله انما هو لأجل الضرورة فى أخلاق الناس وحرصهم وجشعهم ، وهنا وصلوا الى غاية من الكرم والتسامح حتى جعلوا أن مايملكه زيد يجب أن يتصدق على الناس بما فضل عن حاجته منه والا كان عبدا بخيلا حريصا فلا يكنز الانسان ذهبا ولافضة ولاطعاما ، بل كل مافضل فهو للمستحق ، وأنت ترى كلام الامام الغزالى فيما تقدم ، ولكن الحق أن هذا القول لايجوز الأخذ به على علاته ، فان لكل انسان قوة وقدرة واستطاعة لابد من ابرازها إلى الوجود ، وهذه المكارم التى ذكروها يجب أن تبحث بحثا مدققا لئلا يعطى الناس المجدّون مالهم الى من تكاسلوا عن العمل ، هذا خطر عظيم ، واعلم أن هذا مذكور فى ثنايا الكتب وليس هذا محل تفصيلها .

ولما كان الاسلام قد أشرب هذه المكارم شاعت الأوقاف وجعلت لذوى الحاجة ، وترى أن الأوقاف فى بلادنا المصرية تبلغ عشر الأملاك العامة ، ولعمرى ان ذلك من آثار هذه المكارم الاسلامية العامة ، ومن آثارها الزكاة والصدقات العامة الواردة فى الشرع ، وأكبر مصيبة اسلامية أن يعطى شىء من ذلك الى من لم يقم بما يستطيع من العمل ، فأما أولئك الذين لايعملون ويأخذون من الصدقات والأوقاف وهم نائمون بلاعلم ولاعمل فأولئك عالة على الأمة ومصيبة على الاسلام ، وقد آن أن أفصل لك آراء الاشتراكية فأقول :

يقولون : ان مصادر الأرزاق أربعة :

(١) عمل العامل ؟

(٢) الأرض التى نعمل فيها .

(٣) رأس المال .

(٤) مدير العمل أوصاحب المشروع .

ويقولون : ان المال كل ما فضل عن حاجتك من طعام أومصنوع أوغيرهما ، فالثياب والحصير والمسكن والأرض التى لاتحتاج اليها تسمى عندهم مالا لأنك تقدر أن تبادل بها ، أما الدراهم والدنانير فقد قالوا فيهما ماقاله علماؤنا كالامام الغزالى ، وهى انها واسطة للتبادل وتسهيل المعاملات ، بل قالوا هم انها لاتسمى عندهم مالا لأنها لاتنفع فى طعام ولاشراب ولامسكن ، ويقولون : انما جاءت من مستلزمات الحضارة والنظام ، ومتى كانت الفوضى سقطت قيمة التعامل بهما وأضحى من عنده قدح شعير خيرا ممن عنده قنطار ذهب ، ولقد سلكوا فى التبادل الطريق التى سلكها علماء الاسلام ، فذكروا كيف يضطر الفقير أن يأخذ من الغنى أردبا قمحا بأردب ونصف بعد سنة ، وكيف يأخذ عشر جنيهات بأحد عشر جنيها بعد زمن ما ، وبرهنوا أن ذلك ضارّ بالمجموع الانسانى ، وأن ذلك المرابى يصبح سيدا لم يعمل عملا للمجموع ويصبح السادة الأغنياء مترفين منعمين والعبيد الأذلاء العمال فى فقر مدقع مع الأشغال الشاقة ، فانظر كيف اتفق فى التعليل وفى التحريم علماء الاسلام وعلماء الاشتراكيين ، ولكن الاشتراكيون تمادوا فى الأمر الى حدّ بعيد جدا ، فأخذوا ينظرون فى أمر العمل وأمر المال ، وصاروا يقولون : ان الغنى الذى عنده مايزيد عن قوته من الحنطة ومايزيد عما يلزمه من الأرض يتعالى على العامل فى المصانع وعلى الفلاح فى الأرض ويقول : لكل منهما أنا عنك غنىّ ويمكنى أن أستعمل غيرك ، فيعمل الطرفان عنده بأقلّ القيمة ، وكلما زاد العمال والمزارعون بوفرة العمران لزداد أولئك الأغنياء ثروة وأصبحوا ملوك المال والناس لهم عبيد ، وكلما زادوا ثروة زاد الفلاحون والعمال فقرا وذلا ، فأما أولئك فلاعمل لهم إلا الزخرف والزينة والاسراف والبذخ .

ومما زاد الطين بلة الآلات الحديثة المخترعة التى أغنت عن العمال ، فالآلة تعمل مايعمله آلاف من العمال فيصبحون عاطلين ، ويفيض المال فيضا على صاحب رأس المال ، فالاشتراكيون يريدون أن تكون الأعمال العامة فى المصانع وفى الأرض وفى التجارة فى يد الحكومات والناس يعملون فيها كأسرة واحدة كل على مقدار طاقته ، أما ديننا الاسلامى فقد وضع بذور العدل والنظام بمسألة الصدقات والأوقاف ، وحب الرحمة والشفقة والرأفة والبر ، وحرم على الناس السؤال وبذل الوجه ، ولكن الأمة فى العصور الأخيرة تغافلت عن وضع الأمور فى مواضعها ، فكثير من الأوقاف تصرف الى من لايستحق ، وهذا مخالف للدين ، ولآية الصدقات التى جعلتها للفقراء والمساكين والعاملين عليها الخ .

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام ، وسيأتى فى هذه الأمة من يفكرون لنظامها على مقتضى الشريعة الغراء ، وينظمون أوقافها وأعمالها نظاما ينطبق على روح الشريعة ، ولا نكون مجموعا غير منظم . وقد قال الله فينا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » .

الكلام على الدَّيْن والرهن

ولما حرم الله الربا أحلّ السلم وهو البيع لأجل ، وسنّ أن يكتب فقال : (ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه) ويتخير المتداينان كاتبا يكتب بالسوية لايزيد ولاينقص (ولايأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) فمن منّ الله عليه بنعمة فشكرها صرفها فيما خلقت له والكتابة نعمة وشكرها إجابة من التمسوها ، وذلك سنة وواجب عينا أوكفاية أقوال لكلّ من أربابها وجهة ، وأقرب الأقوال أن ذلك سنة ، ولن يصح الوجوب إلا اذا تعين خطركبير ولم يكن الامن دعى لها والله أعلم .

ولذن (فليكتب وليملل) (الذى عليه الحق وليتق) المملى (الله ربه) ولاينقص منه شيئا (فان كان الذى عليه الحق) ناقص العقل مبذرا (أوضعيفا) كصبى أوشيخ (أولا يستطيع أن يملّ هو) لخرس أوجهل باللغة (فليملل) قيمه ان كان صبيا أو مختلّ العقل ، أووكيله ، أو مترجمه ان كان غير مستطيع (واستشهدوا شهيدين) من الرجال المسلمين أورجلا وامرأتين فى الأموال خاصة عند الشافعى ، وفيما عدا الحدود والقصاص عند أبى حنيفة وليكن الشهود عدولا ، ولم يكتف بالواحدة فضمّ لها الأخرى لتذكر إحداهما الأخرى . وحرىّ بالشهداء أن يجيبوا اذا دعوا لتحملها ندبا أووجوبا عينيا أوكفائيا على ماتقدم (ولاتسأموا) أى تملوا كلا (أن تكتبوه صغيرا أوكبيرا إلى أجله) فان (ذلكم) أكثر قسطا عندالله وأثبت للشهادة ، وأقرب الى ألاتشكوا إلا اذا كانت تجارة حاضرة تديرونها بينكم من مبايعة بدين أوعين بأن تتعاطوها بينكم يدا بيد أى إلا أن تتبايعوا يدا بيد فلا بأس أن لاتكتبوا (وأشهدوا اذا تبايعتم) أىّ بيع ، ولا ينبغى للمتبايعين أن يضرا الكاتب والشاهد فلايكلفانهما الخروج عن مهمّ لهما ، أولا يمنعان جعل الكاتب ومئونة مجىء الشهيد كما لاينبغى للكاتب والشاهد ترك الاجابة والتحريف والتغيير ، فاذا كنتم مسافرين (ولم تجدوا كاتبا) فليكن الاستيثاق (برهان مقبوضة) فان كان الأمانة ووثق كل بأخيه (فليؤدّ الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه) فى الخيانة وانكار الحق (ولا تكتموا الشهادة) أيها الشهود أوالمدينون ، فالمرء مطالب بالشهادة على نفسه (ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) تهديد .

الكلام على قوله تعالى : واتقوا الله ويعلمكم الله

أى اتقوه فى مخالفة أوامره ونواهيه الدينية ، ويعلمكم أحكامه المتضمنة لمصالحكم . يقول الله : ليس تعليمى لكم خاصا بالصلاة والزكاة وما أشبهها ، إن الدين لايقوم إلا بمصالح الدنيا ، وأنا عليم بهما فلتقوموا

بالأمرين

بالأمرين ، وهذا باب واسع لفروض الكفايات التى سأشرحها فى آخر السورة ، وأن المسلمين يعذبون فى الدنيا والآخرة اذا لم يقوموا بقسطهم فى نظام الأرض وسعادة الأمم لأن الله بكل شىء عليم ، ومن علمه يعلمنا مصالح الدين والدنيا فاذا نقصنا أحدهما خسرنا الآخر معا ، فالمسلمون اليوم لما جهلوا أمر الدنيا نقص الدين وخسروا الدارين ، وقد آن أن يرجعوا الى رشدهم ويقوموا العلوم ويعرفوا الصناعة ، وأنت أيها الفطن خبير بما ورد فى العلم من الأحاديث والآيات فلا نطيل بذكره فاقرأه فى البخارى وفى الاحياء ، والله يهدى الى الرشاد .

(المقصد المتمم للعشرين)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظى

قال الله تعالى (لله ما فى السموات وما فى الأرض) فهو العالم بما فيهما ، ولاجرم أن أخلاق العباد وأعمالهم مكتوبة لديه ، معلومة عنده ، مخزونة فى الأفئدة (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فكفى بنفسك عليك أيها الانسان حسيبا (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير) وهذه الأحكام والشرائع فى القرآن (آمن الرسول) بها (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) يقولون (لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا) أجبنا قولك (وأطعنا) أمرك اغفر لنا (غفرانك ربنا واليك المصير) المرجع ، لم يحمل الله أحدا فوق طاقته و (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) فمن آتاه الله مالا ، أوحباه ثروة ، أوآتاه قوة ، أو أورثه علما ، أومنحه فطنة ، فليشكر الله على نعمته برفد اخوانه ، وليكن لهم شمسا تضىء (لها ما كسبت) من الخير (وعليها ما اكتسبت) من الشر (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا) تركنا أمرا من أوامرك سهوا (أو أخطأنا) من تفريط وقلة مبالاة ، وهذا دليل على جواز المؤاخذة فى النسيان والخطأ خلافا للمعتزلة ، ولولا جواز المؤاخذة عليهما لم يكن للسؤال معنى (ربنا ولا تحمل علينا إصرا) عبئا يأصر حامله أى يحبسه مكانه لثقله استعير للتكليف الشاق (كما حملته على الذين من قبلنا) كاليهود والنصارى (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) من العقوبات النازلة بمن قبلنا (واعف عنا) امح سيئاتنا (واغفر لنا) واستر ذنوبنا ، والأول للكبائر ، والثانى للصغائر (وارحمنا) بذلك (أنت مولانا) ناصرنا ومتولى أمورنا (فانصرنا على القوم الكافرين) فمن حق المولى أن ينصر من تولى أمره . انتهى التفسير اللفظى .

ايضاح

ههنا يحسن الكلام على قوله تعالى « وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » الآية بايضاح فنقول : قوله تعالى « وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » يفيد أننا معاشر الآدميين محاسبون بما يرسم فى صدورنا ، وما قام بأفئدتنا ، فتارة يغفر لنا وتارة نعذب على ذلك ، و بيانه أن أرواحنا أشبه بلوح محفوظ يرسم فيه ما يرد عليه من الحواس الخمس ، وما يقوم به من فكر ، فاذا مات الانسان ظهرت له صورته الحقيقية ، واطلع على جميع ما كان يتصوره فى الحياة من خير وشر وعزم وكسل وتنجلى له نفسه تجليا واضحا كأنها خريطة فيها رسوم مختلفة فينفر من الصور القبيحة فيها و يفرح بالصور الجميلة ، قال تعالى « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » وقال تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » جعل النفس هى المحاسبة لأنها هى المطلعة على عوراتها وقبائحها ، وتفكر أيها الفطن كيف نألم فى الدنيا اذا اطلع أحد على ما أضمرنا من عمل قبيح ، أونوينا من نية سيئة ، ونحن نكتم أعمالنا ومانوبناه ، فاذا نشرت هذه الأعمال دفعة واحدة واطلع عليها من كنا نحاذر فكيف تكون حالنا ؟ ذلك هو الخزى العظيم .

وتأمل فى قصة مريم كيف تقول لما اطلع قومها على أنها ولدت من غير زوج : « ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » وكيف يقول الله تعالى : « ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا » فالكافر يتمنى لو يكون ترابا ، ومريم تمنى لو تكون نسيا منسيا ، فأما مريم فللخزى الذى يلحقها من قومها ، وقد عرفت هى وأهل بيتها بالطهارة والشرف ، فالخزى والعار على مقدار المظهر : وهكذا الكافر رأى علمه جهلا ، وصالح العمل قبيحا ، فيريد أن يتوارى بالحجاب فلا يجد لذلك سبيلا ، قال تعالى : « لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » ، وقال : « ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى » .

واعلم أن نفس الانسان تسع جميع هذه الصور من أول الحياة الى آخرها كما يرتسم فى الهواء جميع صور الأشياء فتصل الى أعيننا ، ورسمها فيها أشبه برسم الصور فى المرآة فانها ترسم فيها بحالة لطيفة فى الطبقة الأثيرية ، والنفس تقبل من الصور على هذا النمط ما لا يتناهى ، ولذلك ترانا نتذكر حوادث وعلوما كثيرة مخزونة فى نفوسنا ، وهذه الصور لا تفنى عند النفس وانما نسيانها فى الحياة الدنيا لضعفنا هنا قال تعالى : « أحصاه الله ونسوه » ، واذا أحصى الله أعمالنا عنده فقد أودعها فى نفوسنا لنقرأها قراءة حقيقية ، والله تعالى يحاسبنا على تلك الصور ويكون الغفران والعذاب .

فكل حركة وكل فكر فى النفس يدون فيها ويظهر لنا بعد الموت ، فليحاذر المرء فالحياة قصيرة .

على نفسه فليبك من ضاع عمره ٭ وليس له منها نصيب ولا سهم

وأما قوله تعالى « آمن الرسول » الخ فاعلم أن هذا ختام السورة المشتمل على ملخص ما فيها ، و بيانه أن السورة جاء فيها أمران : وهما الايمان والعمل ، فالايمان فى أولها إذ قال « الذين يؤمنون بالغيب » الخ ثم ذكر المتقين والكافرين وأتى بأدلة الألوهية وذم اليهود وعدد قبائحهم ، لأن مقالاتهم كانت مناقضة لايمان المؤمنين ، وهذا فى الجزء الأول من السورة ، وأما الجزء الثانى فانه أبان فيه الصلاة والصيام والحج وأعمال البر من الصبر والاخلاص والصدق والتقوى ومعاملة النساء وصيانة اللسان عن الحلف ، ثم ذكر الجهاد والمحافظة على البلاد ، وفضيلة الانفاق ، وترك الربا ، وكيفية المعاملة ، فرجع الأمر إلى اثنين [ايمان وعمل] فالايمان فى قوله « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون » الخ ، والعمل فى قوله « وقالوا سمعنا

وأطعنا

وأطعنا غفرانك ربنا » فانظر كيف كانت الخاتمة على ترتيب السورة ، ثم تعجب أيضا فى ترتيب الايمان بالله والملائكة والكتب والرسل ، ذلك أن الله أشرق نوره على الملائكة ، وأشرق منهم على الأنبياء ، فالملائكة واسطة . قال تعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أومن وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء » الخ ، فالله كالشمس والملائكة كالقمر ، ونور الشمس المشرق على القمر أشبه بالوحى الصادر من الله للأنبياء بواسطة الملائكة ، وهنا سؤال ، وهو أن يقال : أيهم أفضل الملائكة أم الأنبياء ؟

وقد اختلف العلماء فى ذلك اختلافا كثيرا لافائدة فيه إذ لا أثر له فى العقول ولافرق للتطبيق . فمن الناس من يقول : الأنبياء أفضل من الملائكة ، ومنهم من يقول : الملائكة أفضل من الأنبياء ، وهؤلاء أفضل من الملائكة الأرضيين ، ويقولون : النبى أفضل من غيره من الناس ، ومن الصوفية من ينازع فى تفضيل سائر الأنبياء على سائر الناس ، بل يفضلون بعض التفضيل .

ثم اعلم أن الأحوال ثلاثة : ماضية وحالية ومستقبلة ، فقوله « آمن الرسول » الخ اشارة إلى المبدأ ، وقوله « سمعنا وأطعنا » اشارة الى الحال . وقوله « غفرانك ربنا وإليك المصير » اشارة إلى المستقبل ، وهذه الجمل أليق بأواخر الكلام كاهنا ، فتعجب .

وقوله تعالى « غفرانك » أى اغفر غفرانك ، روى فى الحديث الصحيح « ان لله مائة جزء من الرحمة قسم جزءا واحدا منها على الملائكة والجن والأنس وجميع الحيوانات ، فبها يتراحمون وادخر تسعة وتسعين جزءا ليوم القيامة » فهذا الحديث يفيد أن هذا العالم المادى لانسبة بينه وبين ذلك العالم الذى تجلى الله فيه على عباده وظهرت رحمته بأجلى مظهرها . وفى الحديث أن النبى ﷺ قال « انه ليغان على قلبى وانى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » ويقول العلماء : ان كل ماعلمه العبد مهما عظم فى جانب كبرياء الله عزوجل ضئيل قاصر ، فلذلك كان ﷺ يستغفر من كل مقام يصل اليه ، لأن كل مقام دون مقام الجلال الالهى .

قال الله تعالى « لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت » من خير « وعليها ما اكتسبت » من شر الى قوله «لا تؤاخذنا» أى لا تعاقبنا ، والاصر الثقل ، والطاقة اسم من الاطاقة ، والعفو أن يسقط عنه العقاب ، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخجيل والفضيحة ، والرحمة نعيم الجنة ، وقوله « أنت مولانا » يراد به أن يستغرق العبد فى جلال الله وجماله ، ويفرح بهذا الاستغراق وهو منتهى اللذات فهذه مراتب أربعة : مرتبة ترتيبا حقا ، سقوط عقاب جسمى بالعفو وستر الذنب بالمغفرة فلا يفتضح ، ونعيم الجنان والاستغراق فى الجمال الالهى .

واعلم أن كل امرىء مسئول عما يطيقه من الأعمال ، فأف لمن كان ذكى الفؤاد سليم العقل قوى البنية ثم ينام عن الأعمال النافعة لأمته ، وعنده قدرة تفوق غيره ، وكيف ينام القادر بعلم أو بمال أو بقوة بدنية كيف ينام عن مساعدة المجموع ، الله يقول : لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، وبهذا أدعو جميع الاذكياء والعلماء والأغنياء وأقول : فياحسرة على من عنده علم أن يصبر ويسكت ، بل لينشره ، وياحسرة على من هو قادر على عمل أو نصيحة أن يذر الناس يتخبطون ولا ينصحهم ، وياحسرة على من عنده مال أن يذر الأمة الجاهلة فلا يسعى لرقيها بالطرق الشريفة العالية ، وليس معنى قولى أنه يعطى المال القادرين على العمل ، وإنما يسعى لهم فى عمل الشركات وينمى رأس المال ليكون أداة صالحة للعاملين من أبناء الأمة فى الصناعة والتجارة مع الأجر المناسب والكسب اللائق ، فياويل من ضاعت حياته وهو غافل عما حوله . الطاقة متفاوتة ، فمن الناس من يطيق نفع نفسه فقط ، ومن الناس من يقدر على اسعاد أسرته ، ومنهم من يقدر على إرشاد أهل بلدته ، ومنهم من يقدر على إرشاد أمته ، ومنهم من يقدر على هداية جميع الأمم ، وكل من قدر على شىء من ذلك وغفل عنه أو أهمله اعتراه عند الموت من الآلام مالا يطاق وندم ، ولات ساعة مندم ، وربما عذب زيد على ترك عمل لا يعذب عليه خالد ،

لأن هذا عذاب دائم ، فبه كان يحق إلى العلا فى تلك الساحات العالية ، فإذا فاز غيره وهو خائب ، وقد أمكنه ذلك فحصر حسرة لا يسد خلتها وندم ندامة الكسعى « ولات حين مناص » .

واعلم أن هذه الندامة دائمة جو الطبيرة ملازمة ، والعذاب واقع ، فياحسرة على امرئ قدر على بذل المعروف وبخل به ، ويا حسرة على من قدر على نفع الناس ونام عنه ، لن المقام مقام ارتقاء فى الحياة الأخرى والارتقاء بالاعمال والأعمال بالامكان ، فمن أمكنه وفرط ندم على أنه لم يرق فى تلك الساحات العالية ، وليس يدرك ما قلناه اليوم إلا ذو بصيرة وعقل مشرق « والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم » .

اختلاف العقول وواجب الحكومات الاسلامية

اعلم أيدك الله أن عقول الناس مختلفة اختلاف ألوانهم وأشكالها ، فترى أن الجنس الأبيض من نوع الانسان اتفقوا بياضا واختلفوا فيه بحيث لا يتساوى بياض عمرو ببياض خالد ، وترى لكل عينين وأنفا وحاجبين وشفاه وقد اختلفوا اختلافا حقيقيا بحيث لا يتشابه وجهان على ظهر البسيطة ، هكذا عقولهم ، فهم وان اتحدوا فيها قد اختلفوا فى قابليتها وكل له استعداد يناسبه ، وفى العقول من الكنوز ما ان مفاتحه ليعوزها رجال ذوو علم يضعون كلا فى المقام الذى استحقه ، ولقد جعل الله الأرض مختلفة القاع ، ولا تقبل من النبات الاعلى مقدار استعدادها ، وكذلك النبات ، كل له مقام معلوم ، فمن النبات ما لا ينبت إلا تحت الماء كقصب السكر والأرز والنيلوفر وأنواع من الكرش ، ومنها ما ينبت على وجه الصخر كخضراء الدمن وهكذا ، ثم ان النباتات التى فيها أعضاء التناسل غير مجتمعة فى زهرة واحدة يكون سلطانها فى المناطق المحترقة بين المدارين ، ولطالما دهش السياح بتلك المظاهر الجميلة ، وتأملوا تلك المراعى البهيجة فيها قطائع الأنعام سارحة هائمة لا يقودها قائد ولا يسوقها سائق ، والنباتات التى فيها تلك الاعضاء مجتمعة فى زهرة واحدة يكون سلطانها فى المناطق المعتدلة والنباتات التى أعضاء التناسل فيها خفية يكون سلطانها فى المناطق الباردة .

ولقد خصص الله كل أرض بعدد من النبات فتجد فى بلاد فرانسا ٨٣٠ جنسا ، وفى النمسا ٦٠١ وفى [لابونيا] ٣٠٠ ، وفى مصر ٤٣٠ وفى غيانه ٦٠٠ ، وفى جزائر الخالدات ٢١٢ .

جدول لذكر الأجناس والأنواع فى بعض الأماكن

	أجناس	أنواع
فرانسا	٨٣٠	٦٠٠٠
نمسا	٦٠١	٤١٠٠
لابونيا	٣٠٠	١١٠٠
بلاد البربر : أى المغاربة	٥٠٠	١٦٠٠
مصر	٤٣٠	١١٠٠
غيانه	٦٠٠	١٢٠٠
إسلنده	٢١٠	٢٥٠
جتيك	٥٠٠	١٤٠٠
تريستان الكونا	٥٥	١١٣
كنرى (من جزائر الخالدات)	٢١٢	٣٣١
هيلانه	٣٥	١٦

وترى

وترى أن الحكمة خصصت لكل مايحتاج إليه ، فقل الهواء وكان الماء أقل منه والحبوب أقل من الماء والجواهر والمعادن أقل من الطعام ، ثم الجواهر النفيسة أقل من الجميع ، ثم ان الراديوم ذا القوة المدهشة الذى ظهر حديثا نادر جدًا فى الطبيعة ، هكذا نقول : ان الله جعل نوع الانسان منه من خصهم الله بحسب فطرهم إلى العمل الجسمى وهم الأكثرون ، وهذه الفئة طبقات بعضها فوق بعض ، وكل من كان أدق فكرا كان أقل وجودا كما نشاهد فى ذوى الصناعات الدقيقة ، ويليهم العلماء والحكماء ، ثم الأنبياء ، وهم أندر كالراديوم فى المعادن ، قضت الحكمة أن يكون لكل شىء قدر ، وأن تكون العقول مختلفة كما اختلفت المشاهدات .

فكما أناط الله بالهواء سائر الحيوان والنبات للتنفس فى جميع الأوقات ، وبالماء كل حى وقتا دون وقت وبالقوت فى أقل من ذلك ، وبالدواء أدنى من ذلك وجعل المعادن أقل من القوت طلبا ، ولم يجعل من الراديوم دراهم ولا من الذهب محاريث ولا من الحديد أقواتا ولا من الحنطة بحارا ولا من الماء جوّا يحيط بالكرة ولا من الهواء جوّا يصل إلى كرة الشمس بل جعله إلى حدّ فوقنا .

هكذا رتب عقول الناس على هذا النمط ، فلم يكثر من الأنبياء حتى يملؤا القرى ، ولا من ذوى الصوت الجميل والصور الفاتنة لئلا يفتتن بهم الناس ، ولا جعل فى كل قرية حكيما فيلسوفا ، ولا أكثر من الأذكياء المفرطين فى الذكاء ، ولم يقلل من ذوى الأجسام القوية لئلا تضيع الأعمال ، وانما كنز فى النفوس وفى العقول مواهب مقدرة بمقدار الحاجة ، ثم بعد أن رتب ذلك عملا قال على لسان رسوله « لايكلف الله نفسا إلا وسعها » ليطابق قوله فعله ، فذكر الوسع ، وذكر التكليف ، وجعله منوطا بالوسع ، وقال فى آية أخرى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » فرأينا لكل مخلوق عملا يخصه ، ورأينا الاختلاف فى الموجودات وفى الجدول السابق فى النبات ، فقلنا . لقد صدق قوله تعالى فعله « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » بل كل شىء عنده بمقدار .

هذه أشياء يراها الناس ولكنهم لايفكرون ، فيقسمون العلوم على مقدار العقول كتوزع النبات على مناطق الأرض .

الله قد سهل هنا للناس ليفقهوا فجعل الجبال الشاهقة التى بين المدارين العالية رءوسها عن السحاب جامعة لجميع خصائص الأرض كلها ، فلما كانت مخزنا للمياه جعلت مخزنا للعلوم والحكم المنقوشة على ظاهرها ، فترى أن جميع مناطق الأرض واضحة فى آن واحد على مهابط هيمالايا والجبال المسماة [كرد ليير] فان أعلى الجبل يمثل القطبين .

وأوسطه يمثل المناطق المعتدلة ، وأسفله يمثل المناطق الحارة ، وكل منطقة ينبت فيها ماخلقت له ، فانظر كيف أوضح الله للناس طرائق الاستعداد بتوزيع النبات على المناطق ، ثم أعطاهم درسا أسهل ، فرسم الجبل على مثال الأرض ، ولما جهلوا هذا كله ، قال لهم على لسان رسوله بألفاظ يفهمونها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » يقول الله : أنا قلت لكم فى هذه السورة « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » وأبنت لكم أن النظر فى الأرض ونحوها يفيدكم تعقلا ، فاذا عجزتم فهاهو ذا رسولى أقول على لسانه : « لاتكلف نفس إلا وسعها » فكما لاينبت فى المناطق الباردة بكثرة النباتات التى أعضاء التناسل فيها غير مجتمعة فى زهرة ، هكذا لاينبت العلم الرياضى أو الطبيعى فى عقول خامدة ونفوس كاسلة ، فكم خزنت لكم فى عقول الناشئين فى القرى والبلدان

من نفائس وذخائر كما خزنت فى الجبال الذهب والنحاس والحديد ، ودفنت فى الأرض الفحم والماس فغرائز العقول أى استعدادها يكفل لكم كل ماتطلبون ، وهل تظنون أنى أمنها لكم أكثر من ذلك .

ضربت لكم الأمثال فى المناطق ونباتها ، والجبال ورسومها ونقوشها ، ولما عجزتم أسمعتكم هذه المعانى بألفاظ كما أسمع الصبيان ، فماذا بعد ذلك إلا أن تنظروا ما أخفكم انى آليت بعظمتى وجلالى أن لا أنزل نعمة إلا بقدر « وان من شىء الا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » .

نظام الحيوان على منهج حواس الانسان ومنافعه

ألم تروا ياعبادى أنى جعلت الحيوان مخصصا على المنهج الذى سلكته فى خلقكم ، ألم أقل لكم فى كتابى « وآتاكم من كل ماسألتموه » ولقد أعطيتكم كل ماسألتم بقدر ونظام .

ألم تروا الى حواسكم الخمس ، وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، ان طلبتم لطالب خلقت الطيور المغردة الحسنة الصوت المفرح السار اللذيذ لتمتع أسماعكم بجميل النغمات ، وخلقت أمثال الطاووس وسائر الحيوانات والطيور الجميلة ، والصور البديعة ، والعجائب المفصلة فى أنواعها ، وأجناسها تمتيعا لأبصاركم وبهجة ، ومن ذلك الدر والمرجان جعلتهما لذة للناظرين ، وخلقت غزال المسك تأخذون من نوافجه ألذ ماشممتم من الروائح إجابة لسؤالكم ان أحببتم لذة فيا تشمون وخلقت لكم اللبن والسمن والجبن واللحم فى حيوان البر والبحر لتذوقوا لذتها ولتغتذوا بألبانها غذاء متاعا إلى حين ، ومن ألذها العسل الذى به تتداوون وتتفكهون « وما كنا عن الخلق غافلين » .

وخلقت لكم الحرير الناعم الملمس لتتمتع به حاسة اللمس التى بها طلبتم أن أسعدها بلذتها وجعلت ذلك فتنة لكم غالية الثمن ، أخرجه الدود فكان زينة لكم وبهجة للامسين ، وكسوتكم بما طلبتم للدفء من جلود الأنعام وأشعارها وأوبارها وجعلتها أثاثا لكم ومتاعا إلى حين ، وجعلت منها أحذيتكم وبيوتا تحملونها من بلد الى بلد آخر ، كل ذلك وقاية لأجسامكم أن يهلكها الحر والبرد عما تحسون بحواس اللمس فتهلكون .

أى عبادى : ألم تروا كيف قسمت الحيوان قسمة صادقة على حواسكم الخمس ومطالبكم التى تطلبها حواسكم وهل تظنون أنى أقرب الغافلين عن حق التائهين النائمين ؟ كلا وعزتى وجلالى لاينال عهدى الظالمين ، انظروا ماذا فى السموات والارض أعطكم على مقدار ماتعلمون « وان من شىء الا عندنا خزائنه وماننزله الا بقدر معلوم » فاذا أردتم ياعبادى أن تنالوا نعمتى فابحثوا فى العقول عن استعدادها كما بحثتم فى الجبال عن معادنها ، وفى النبات عن منابتها ، وفى الحيوان عن مناسباتها من حواسكم ؛ وليهتم أهل الحل والعقد بتعليم الشعب كله رجالا ونساء ، وليقووا أجسامهم بالرياضات الجسمية ، ثم ليصدقوا فى اختبارهم وامتحانهم ، ثم ليجعلوا كل طالب خاصا بما هو أميل إليه ، وإياكم أن تحيدوا عن هذا فانه ظلم مبين .

وهل رأيتمونى أنبت [النيلوفر] فى الصخر أوالأرز فى الجبل ؟ ألم أضع كل نبات فى مكانه اللائق له ، وكل حيوان فى منطقته ؟ وفى حال تناسب منافعكم موزعا عليها بحساب ، كل هذا لأريكم كيف تستخرجون كنوز العقول وهى أثمن ماخلقت لكم وأعز وأجل ، فشمروا عن ساعد الجد ، وجدوا حتى تظهر لكم أنوارى التى كمنت فى النفوس الانسانية فى رجالكم ونسائكم ، ألم تقرءوا قولى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فهذا بعض سره المصون .

هذا ولتعلم أيها الفطن أن علماءنا رحمهم الله قد نبهوا الناس لذلك فأوجبوا على ذوى الاستعداد للفقه مثلا أن يجدوا فيه لنفع الأمة ، فجعلوا الاستعداد سبب الوجوب ، فلنسر على منوالهم ، ولنكن لنا عقول وأسماع وأبصار ، ولنفصل الصناعات والعلوم الواجبة على المسلمين .

الكلام على العلوم الواجب أكثرها أو كلها على المسلمين فى هذا الزمان

العلوم الواجبة على قسمين : فرض عين ، وفرض كفاية ، ففرض العين هو ما يجب على كل مسلم ويعاقب عليه اذا تركه ، ويثاب عليه اذا أداه ، وفرض الكفاية ما يجب على مجموع الأمة بحيث يعاقبون عليه جميعا اذا تركوه ، فاذا قام فى الأمة رجال به سقط عنهم الطلب ، فالواجب العينى كمعرفة الامور العامة فى الصلاة والصوم وكذا الحج ، وكمعرفة ترك الغيبة والنميمة ، وكبر الوالدين وما أشبه ذلك ، وأما فرض الكفاية فمثل سائر العلوم الرياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك والعلوم الطبيعية من المعادن والنبات والحيوان والانسان وكالضوء والمغناطيسية والحرارة والكهرباء ، كذلك جميع العلوم الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس المسماة [علم الاصول] وكالفروع ، وهو علم الفقه الذى يقوم به العلماء لنظام الدنيا وهم الفقهاء ، وهذه الفروع دنيوية وكالفروع الأخروية من الأخلاق فى التصوف ، وكالمقدمات من اللغة والنحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والخط والاملاء والانشاء ، وكالمتممات من علوم القراءات ومخارج الحروف وتفسير القرآن وكمصطلح الحديث ، فاذن العلوم الدينية أصول وفروع ومقدمات ومتممات ، ألا وان المشتغل بالمقدمات من النحو والصرف وهو لم ينل بعد الفضائل الدينية ، والكمالات الاسلامية أشبه بمن له آلات الزراعة وهى كاملة كالمحراث والفأس ثم تركها ولم يشق بها الأرض ، ولم يستنبت بها نباتا فهذا مغرور ، فالآلات الزراعية من المحاريث والعجلات الدارسات السائرات بالبخار ، والمخرجات للماء لاتغنى عن اخراج الزرع ، وهكذا العلوم اللسانية من النحو والصرف والمعانى وغيرها ان هى إلا مقدمات لعلم الدين .

الصناعات الواجبة كلها أو جلها على المسلمين

هذه الصناعات إما أن تكون حاصلة :

(١) فى الماء كالملاحين والسقائين والروائين والشرابين والسباحين .

(٢) واما أن تكون حاصلة فى التراب كحفار الآبار والقنى والأنهار والقبور والمعادن وكل من ينقل التراب ويقلع الأحجار .

(٣) واما أن تكون حاصلة فى النار كصناعة النفاطين والوقادين والمشعلين .

(٤) واما حاصلة فى الهواء كالزمارين والبواقين والنفاخين .

(٥) واما حاصلة فى الماء والتراب معا كالفخارين والقدوريين وضرابى اللبن وكل من يبل التراب .

(٦) واما حاصلة فى أحد المعادن كالحدادين والرصاصين والزجاجين والصواغين .

(٧) واما حاصلة فى النبات نحو الكتانين ومن يعمل القنب والورق .

(٨) واما حاصلة فى ورق الأشجار وحب النبات والحشائش ، أوزهر النبات ونوره ، والعروق والقشور ، كصناعة الدقاقين والعصارين والبزارين والشيرجيين .

(٩) واما حاصلة فى الحيوان مثل صناعة الصيادين ورعاة الغنم والبقر وساسة الدواب والبياطرة وأصحاب الطيور ومن شاكلهم .

(١٠) واما حاصلة فى أحد الأجسام الحيوانية كاللحم والعظم والجلد والشعر والصوف والقرن كصناعة القصابين والشوائين والطباخين والدباغين والأساكفة والجزارين والسيوريين والحذائين .

(١١) واما حاصلة فى مقادير الأجسام مثل الوزانين والكيالين والذراعين .

(١٢) واما حاصلة فى قيمة الأشياء كالصيارفة والدلالين والمقومين .

(١٣) واما حاصلة فى أجساد الناس كالطب وصناعة المزينين .
(١٤) واما حاصلة فى نفوس الناس وهى قسمان : عملية ككل ماتقدم وعلمية مثل المنطق والعلوم الرياضية والطبيعية والالهية .

الصنائع كلها ترجع لأمور ثلاثة : الغذاء والكساء والبناء

وكلها ترجع الى واحدة وهى حياة الانسان

اعلم أن الله خلق النبات والحيوان والانسان وجعلها درجات بعضها فوق بعض ، فالذى يكون أرفع شأنا منها نجده أكثر احتياجا ، وكلما قلت الحاجة كان أرذل ، مثال ذلك النبات فما كان منه كالحشائش ينبت فى الظل والندى ، وفى سائر الأرض بلا تعهد ولافلاحة ، وترى أمثال القمح والقطن يعوزها العمال والحفظ والسقى وترى الناس يزيلون الحشائش التى مازرعوها ، وهكذا ترى مايزاول الناس زرعه كالقثاء والعنب ، فالأول له من العمل بمقدار ثمره ، والثانى أرفع ثمرا ، وأبقى أثرا ، وأشرف مقاما ، فكان أحوج الى العناية ، فهكذا الحيوان أرفع من النبات لأنه يسعى لرزقه والنبات لايسعى اليه ، وله حواس تهديه ، والنبات غنى عنها ، فأما الانسان فانه أكثر حاجة وأعظم شرفا ، فانظر كيف سعى لغذائه كالحيوان وزاد افتقارا عنه الى الكساء والى عناية أشدّ بالمساكن ، فعلى مقدار ارتقائه كان احتياجه ، وأهمّ حاجاته هذه الثلاث :

الغذاء والكساء والبناء

أما الغذاء فيكون من حب النبات وثمر الشجر وغيرها فكانت الحراثة والغرس واثارة الأرض وحفر الأنهار وصناعة الحدادين والنجارين لصنع الآلات ، ثم صناعة المعادن واستخراجها ، وهذه هى الصناعات التى تتقدم الحراثة ، ومنها صناعة البخار والكهرباء والبترول لتدور تلك الآلات الساقية والحارثة ، و يتقدم ذلك صناعات كثيرة ، وهناك صناعات متممة الحب كالطحن والدق والعصر والخبز

أما الكساء فان الانسان لما احتاج الى ماتستغنى عنه البهائم من اللباس إذ خلق عاريا وهنّ كاسيات اتخذ اللباس بصناعة الحياكة وهى لاتتمّ إلا بالغزل ، وهو بالندف ، والندف يتقدمه الحلج ، وهذه مقدمات على الحياكة ، والحياكة تتلوها الخياطة والرفو والطرز ، أما البناء فان الانسان يستكنّ فيه من الحرّ والبرد والسباع و يخزن فيه القوت ، فتتقدمه صناعات كالنجارة والحدادة وماشاكلها .

وهناك صناعات جعلت للزينة كصناعات الديباج والحرير والعطر ، فهذه خلاصة مايحتاجه الانسان فى هذه الحياة .

قواعد الشريعة الاسلامية فى هذه الصناعات

واعلم كاقاله العلامة السيوطى فى كتابه « اتمام الدراية لقراء النقاية » أن قواعد الشرع أن الوازع الطبيعى يغنى عن الوازع الشرعى [مثاله] شرب البول حرام ، وكذلك الخمر ، ورتب الحدّ على الثانى دون الأول لنفرة النفوس منه ، فوكلت الى طباعها ، والوالد والولد مشتركان فى الحق ، و بالغ الله فى كتابه العزيز فى الوصية بالوالدين فى مواضع دون الولد وكولا الى الطبع لأنه يقضى بالشفقة عليه ضرورة ، هذه القاعدة نطبقها الآن على مايحتاج له المسلمون فنقول :

قد استبان لك أن جميع العلوم والصناعات يقصد منها حياة الانسان وتهذيبه ورقيه ، والصناعات ترجع الى مقصودة بالذات وهى الثلاث المذكورة ، والى مقدمات لها ومتممات ، و بعدها تكون صناعات الزينة ،

فعلى

فعلى رجال الحل والعقد فى الأمة الاسلامية أن لايتركوا صناعة ولاعلما إلا خصصوا لها أناسا، ولكن ذلك بحسب الاستعداد الجسمى والعقلى، فيوضع كل امرئ فى مركزه الذى خلق له، وأن الله قسم العلوم والصناعات على العقول كما قسم الذكورة والأنوثة بالعدل بين الناس .

وههنا يرد سؤال فيقال : لقد ذكرت العلوم الشرعية والفلسفية والصناعات، وجعلتها فروض كفايات، وكيف ساغ لك ذلك ؟ وكيف تقرن علم الفقه والتفسير والحديث بالفلسفة وعلم الكيمياء والضوء ؟

أقول : ان هذه كلها فروض كفايات وان كانت متفاضلة فى الشرف فان شرف العلم قد يكون لمتانة الدليل وصدقه كالهندسة، وقد يكون للحاجة اليه وعمومها وان كان ظنى الدلالة كالطب، ولما لجلال موضوعه وعظمته كالعلم بالله وملائكته ورسله، وكذلك شرف الصناعات .

(١) إما لعموم الحاجة إليها كالحياكة والبناء والحراثة .

(٢) ولما من جهة الصنعة نفسها كمثل من يعملون آلات الرصد مثل الاسطرلاب، ومثل صناعات من يصنعون الساعات التى تعرف الزمن فان شرف هذه فى صنعتها، فاذا صنع الاسطرلاب من نحاس كانت قيمته عظيمة جدا تساوى عشرات الجنيهات أو مئات منها، ولكن النحاس الذى فيه الصنعة يباع بدراهم معدودة .

(٣) ولما من جهة عموم نفعها مع تساوى الناس فيها غنيهم وفقيرهم، صغيرهم وكبيرهم، كصناعة الزبالين والسمادين، فان هؤلاء لو تركوا المدينة أسبوعا واحدا لامتلأت المدينة من السرقين والسماد فينغص عيش أهلها .

الوازع الطبيعى والوازع الشرعى

اعلم أن الله عز وجل سلط على الناس الحر والبرد، والسباع، والأعداء، والسارقين، فاضطروا فى البادية أن يتخذوا البيوت، وينسجوا الشعر والوبر، وسلط سبحانه الجوع على الناس، فكان الجوع للغذاء والحر والبرد ونحوهما للكساء، والحيوان الكاسر والأعداء وحوادث الجو للبناء . ان الله عز وجل لما رفع قيمة الانسان عن الحيوان والنبات كلفه الاستقلال فى حياته، وألزمه أن يسعى لسعادته، وبدأ ذلك بتلك الغرائز التى سلطها من الجوع والعطش والاحساس بالحر والبرد والخوف من السباع، وكلما تقدم الانسان فى مدنيته ازدادت حاجاته، فلقد كان يكفيه فى الفطرة الفاكهة غذاء، وورق الشجر وجلود الحيوان كساء، والمغارات مساكن .

إن الغرائز الكامنة فيه بمساعدة العقل ألزمته أن يتخذ ذلك بلا حكومة نظامية، ولا مدارس ولا علوم، ولا يجب عليه فوق ذلك شىء بحسب المعاش الدنيوى .

فلما أن اجتمعت الناس فى المدن حدثت لهم أحوال واستجدت لهم شؤون وجاءت واجبات فكانت الصناعات المتقدمة وغيرها، وربما عدت بالمئات لاسيما فى هذا الزمان، ألاترى أن السفر الذى كان يكفى أن يقال انه على جمل أو حمار أو بغل أو سفينة أصبح الآن ذا شعب كثيرة من الطرق الحديدية والآلات البخارية والسفن العظيمة الجارية كأنها مدينة والغواصات والطيارات، وكل هذه تحتاج إلى الأسلاك البرقية [التلغرافية] والبرق الذى لاسلك له وإلى علم المغناطيس والكهرباء، ونحو ذلك .

وبعد أن كان يكفى الوازع الطبيعى فى تربية المرأة لولدها أن تغذيه باللبن كالحيوان حدث اليوم حادث المدنية الذى به فسد الهواء فى المدن وازدحم الناس، وضاعت الأخلاق فوجب التعليم والتهذيب، وقراءة العلوم ومعرفة الصناعات وصار الفرد مكلفا بشؤون خاصة على مقدار طاقته .

وليس يجوز لأولى الحل والعقد فى الاسلام أن يتركوا الأمة وشأنها ، بل عليهم أن يجعلوا طوائف فى العلوم والصناعات بمقدار فلا تزيد طائفة عن حاجة الأمة كما هو حاصل الآن ، فبلادنا المصرية مسكينة تجهل الصناعات المستحدثة فى أوروبا ولا تعرف الا القليل ، وهى عالة عليها فيها ، ولا ترى فيها كثيرا الا علوم القضاء والخطابة ، وعلم الفقه الاسلامى ، والأمة الآن كبقية الأمم الاسلامية متروكة سبهللا ، فالمتعلمون فى مدارس الحقوق والقضاء والمعاهد الدينية كثيرون جدا ، يزيدون عن حاجات الأمة المسكينة الفقيرة فى سائر العلوم ماعدا هذين العلمين ، ويجب أن يتعلم كل ذى علم شرعى أو عقلى بعض الصناعات كالتجارة والحدادة والكهرباء تقوية لبدنه وتكميلا لأمور حياته وحفظا لمروءته اذا لم يجد وظيفة ، ولكن تعليم السبق والرمى من أهم مقاصد جميع المتعلمين .

الفرض العيني الواجب على كل مسلم

ولعلك تقول : أليس علم الفقه واجبا على جميع المسلمين ؟ فلماذا تجعله فرض كفاية كعلم الكهرباء ، وعلم النحو وصناعة البخار وسير القطار .

أقول : تدع اختلاف العلماء فى الواجب العينى فانهم لم يتفقوا ، فعلماء التوحيد يقولون : الواجب العينى علمهم وعلماء الفقه يوجبون علمهم ، والمفسرون علمهم ، والمحدثون علمهم والصوفية علمهم ، وقال أبو طالب المكى : علم حديث بنى الاسلام على خمس الخ ، والحق أن الواجب على كل امرئ حفظ ذاته وحفظ عقله ودينه ، فحفظ الذات كفت فيه الغريزة ، فاذا ترك اللباس آذاه الحر والبرد ، واذا ترك المسكن تعرض للهلاك ، واذا رأينا من لم يحافظ على نفسه أرغمناه ، وأوجبنا عليه حفظها كمن يسكر أو يريد قتل نفسه ، والمكلف به المرء اعتقاد وفعل وترك ، فالاعتقاد هو الايمان بالله ورسوله و بقواعد الاسلام ، وأن يقوم بفعل الطاعات ويجتنب المحرمات ، فأما علم الفقه الذى هو الشغل الشاغل لعلماء الاسلام فقد قال الامام الغزالى فيه : ان أحكام الجراحات والحدود والغرامات ، وفصل الخصومات ، وما أشبه ذلك انما هى قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم ، فالفقيه معلم السلطان ومرشده إلى قانون سياسة الخلق ، وهذه فى الحقيقة حراسة للدنيا والدنيا بها يتم الدين ، فالفقه الذى عند الأمة الاسلامية انما هو القانون والقانون لحفظ البلاد والعباد ، و بحفظ هؤلاء يتم الدين .

وليس يمتاز عما تقدم فى الفقه أحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج والحلال والحرام ، فكل هذا نظر الفقيه فيه دنيوى لا أخروى لأنه يحكم بصحة الصلاة ظاهرا ، وكذا الزكاة والحج والاسلام ، وهذه كلها لانفع لها فى الآخرة الا بالاخلاص والتوجه لله ، فالصلاة لا نفع فيها ولا فائدة اذا كان قلب الانسان مشتغلا بما أهمه ، والفقيه يقول انها صحيحة والله يعلم انها باطلة « ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » .

بيان قصور التعليم بالمدارس المصرية فى زماننا

وان الشاب يخرج من المدارس مغمض العين ناعس الطرف فلا يرى نجما ولا شجرا ولا معدنا الا قليلا منهم

قد ذكرت لك فى الباب السابق أن علم الفقه لضبط السياسة فى البلاد ، وقلت : ان أكثر المتعلمين من مصر مجدون فى هذا العلم ، ألا ترى إلى الجامع الأزهر الذى تعلمت فيه ، وإلى فروعه فى دمياط ورشيد والزقازيق والاسكندرية وأسيوط ، وفيه الآلاف المؤلفة من الطلاب ، وإلى مدرسة القضاء الشرعى ، وإلى مدرسة الحقوق التى هى تبع للحكومة ، وإلى مدرسة الحقوق الأهلية التى أقامها أهل فرانسا فى بلادنا وغيرها ،

فهل لهذه المدارس كلها الامطلب واحد هو سياسة الجمهور ، و بعبارة أخرى إن علم الفقه الاسلامي وأصوله الذى يراد لأجل الافتاء والقضاء قد شاركه القانون الفرنسى وأصوله واصبحا علمين يقرآن ، وانكب عليهما الطلاب للغرض الذى كان يسعى له طلاب المال والجاه ، والأمة المصرية اليوم مسكينة فقيرة فى العلوم والصناعات ، أما فى الصناعات فظاهر لأننا عالة على أوروبا حتى ان نساءنا من كانت منهن غنية فالماشطة لها امرأة فرنجية والخائطة افرنجية والخادمة افرنجية والمرضع الافرنجية ، وهذه صناعات يحرم على الأمة أن تكون خالية منها فيعذب المسلمون قاطبة على تركها .

وأما العلوم فاننا فيها فقراء ، ألاترى أن علم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم المعادن ، وعلم الفلك مفقودات فى المدارس الثانوية ، وقد كانت هذه فى مدارسنا فى أواخر القرن الماضى فى النظام الذى سنه [محمد على باشا] ومن بعده أن المدارس الثانوية هى المدارس التى تعطى الشاب صورة العلوم العامة ، وهذه مفقودة فى البلاد الاقليلا ، ثم يقرءون الحساب والهندسة والجبر وبعض الطبيعة كأحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والغازية ، وخواصها العامة كالحيز وعدم التدخل إلى آخره ، وكالقوى المحركة والروافع والحرارة والمغناطيسية والكهربائية الساكنة والمتحركة ثم علم الحيل [الميكانيكا] ولكن هذه لاتغنى عن علم الحيوان والانسان والنبات والمعدن ، يعيش الشاب و يموت وهو يجهل النجوم وعجائب الفلك ويجهل نبات مصر وحيوانها ومعادنها ويجهل تاريخ المصريين والسودانيين وأهل العراق وأهل الحجاز والعرب ومأأصلهم ومآثر مجدهم ، ومن أين نزحوا كل ذلك مجهول فى الاسلام فى وقتنا الحاضر ، أما الاوروبيون فهم يعلمون أبناءهم مايحتاجون إليه مما يناسب أحوالهم .

فالمسلمون جميعا يجهلون صناعة الحرب التى ارتقت فيها أوروبا وصناعات البريد والحراثة وغيرها من فروع الحياة الاقليلا عرفه بعض مواطنينا من المصريين ، ولكن الجهل لايزال مخيما فى البلاد كما خيم فى سائر البلاد الاسلامية ، ثم المتعلمون عندنا يجدّون فى علم الحقوق وعلم الفقه كما قدمنا ، وهذا الانكباب من جهة ، وترك العلوم والصناعات الأخرى حرام على أولى الحل والعقد بل عليهم أن يعملوا بقوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الاوسعها » ويخصصوا كل طائفة بعلم أوصناعة ، أما ترك الأمة سبهللا همَلا فهو حرام نعاقب عليه فى الدنيا بالخزى ، ودوس الفرنج لنا بجهلنا وفى الآخرة بجهنم و بئس القرار .

أيها المسلمون : أيها المصريون : ان التلاميذ فى مدارسكم أعينهم فى غطاء ، انهم يقرءون ، ولكن ماذا يقرءون ؟ يقرءون شذرات من العلوم كالكيمياء والمغناطيس والضوء وأمثالها ، يقرءونها وهم متكلفون يقرءونها بالمجاز ، تلك مقدمات الصناعات والمقدمات غير النتائج ، تلك نتف من العلوم « لاتسمن ولاتغنى من جوع » لايعرفون الجمال ، لايدرسون محاسن الطبيعة ، لايقرءون نظام النبات ، ولاأنواع الحيوان ، ولابهاء الدنيا ، ولاجمال النجوم ، ولابهجة هذه المناظر ، لايقرءون العلم بلذة وفرح ، ولايدرسونه بانشراح ومسرة .

حكاية

منذ ١٣ سنة قال لى ثلاثة من تلاميذ المدرسة الخديوية كانوا قد سافروا إلى أروبا : اننا نحن الثلاثة كنا نظهر اهتماما بجمال الزهر ، وبهاء الزرع ، وجمال الشجر ، فقال أستاذنا [الذى كان ناظرا لمدرسة الحقوق فى مصر وتشاجر مع مستشار المعارف الانجليزى لحرمان التلاميذ من الفلسفة فى التجهيزى قبل دخول مدرسة الحقوق ثم غادر البلاد وصار ملجأ للتلاميذ المصريين فى مدارس الحقوق بفرانسا] .

مالى أراكم تعشقون الزهر وتحبون الجمال ، ولم أرهذا فى التلاميذ المصريين ؟ فقلنا له : اننا نحضرنا فى

سنة ١٩٠٧ م . على مدرّس كان يعطينا مواضيع الانشاء كلها فى جمال الطبيعة فضقناها ، فقال لنا : لماذا حضرتم الى أوروبا ؟ اذا ظهر فى أمة من يحبها فى الجمال ارتقت سريعا ، ومثل هؤلاء تمو كلياتهم ، وهؤلاء يفتحون عيون شعبهم ويوقظونه فى زمن قريب . انتهى

أيها المسلمون : أيها المصريون : دينكم يدعو للجمال وفهم الطبيعة ، دين قدماء المصريين كما قدمت فى هذا التفسير يعشق فى جمال السماء والأرض كما فى النشيد الدينى المتقدم ، أوروبا تقدس الجمال فى العوالم ، فالقرآن وجميع الديانات والأمم تدرس جمال هذا العالم ، ونحن نجتزئ بالقشور الى يوم النشور ، أغمض أبناؤنا أجفانهم ، غطوا أعينهم وناموا ، لم يدرسوا ماحولهم ، ثم درسوا فى كراسة العلم ، وهى وحدها التى أقفلت أجفانه ، وأنامته وكرهته فى العلم ، ليدرس النبات والحيوان والنجوم بصفة تشوّق الطالب الى الدرس ، وترفع نفسه الى مستوى الحكمة والعلم ، وبهجة الأنوار القدسية ، ذلك هو الصراط المستقيم .

ولعمرك ان من يدرس فى التجهيزى أحوال المادة الثلاثة : الصلبة والسائلة والبخارية ، وخواصها العامة كالقصور الذاتى والحيز ، وكونها لها مسام ، وخواصها الخاصة كالقابلية للطرق والسحب والاستعداد للتجزئة فى المعادن ، وكذلك القوى التى تحرك الأجسام والروافع والضغط الجوى والحرارة والمغناطيسية والكهربائية والميكانيكا والضوء وقوانينه ، ان الذين يدرسون هذه وهم بعد لم يستكملوا هذه العلوم فى صناعة من الصناعات وأيضا لم يفرموا علم الحيوان والنبات وغيرها ، ان هؤلاء يكونون أشبه بمن قرأ الصرف والنحو وهو لم يتضلع من النثر والنظم العربيين ، ويعيش حافظا نظريات لاتفيده فى الحياة كمثل الذى حفظ الميراث والدعاوى والبينات وسائر أبواب الفقه ، ولم يكن له فيه عمل ما ثم هو يجهل مافى القرآن من الاشارات للعلوم والاطلاع على الحكمة ، فهذا ومن قبله من الذين حبطت أعمالهم فلايقام لهم فى الدنيا وزن : « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » فالتلميذ الذى يحمل الشهادة الثانوية لايقدر على مهنة يشتغل بها وهو مغرور بشهادته ، والحق أنه قد خرج أعزل لاسلاح له إلا تلك الورقة الكاذبة فلا يمكنه الاكتساب بما علم ، بل هو تعلم التوكل على الناس ، فلابد من قلب التعليم فى مصر وفى المعاهد رأسا على عقب نظاما وشهادات وعلوما وتلقينا ، والله هو الولى الحميد .

قال الامام الغزالى فى الاحياء : « ولو سألت الفقيه عن اللعان والظهار والسبق والرمى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التى تنقضى الدهور ولا يحتاج الى شىء منها ، وان احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها ، ويكفيه مؤونة التعب فيها ، فلايزال يتعب فيها ليلا ونهارا فى حفظه ودرسه ، ويغفل عما هو مهم فى الدين ، واذا روجع فيه قال : اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض كفاية ، ويلبس على نفسه وعلى غيره فى تعلمه ، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر فى فرض الكفاية لقدّم عليه فرض العين ، بل قدّم عليه كثيرا من فروض الكفايات ، فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ، ولايجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه ، ثم لانرى أحدا يشتغل به ، ويتهاترون على علم الفقه ، لاسيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع ، فليت شعرى كيف يرخص فقهاء الدين فى الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة واهمال مالاقائم به ، هل لهذا سبب ؟ إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به الى الأوقاف والوصايا ، وحيازة مال الأيتام ، وتقلد القضاء والحكومة ، والتقدم به على الأقران ، والتسلط به على الأعداء ، هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء ، فالله تعالى المستعان واليه الملاذ فى أن يعيذنا من هذا الغرور الذى يسخط الرحمن ، و يضحك الشيطان » انتهى المقصود منه .

وأنا أقول : أيها الامام قد مضى نحو ٩٠٠ تسعمائة سنة بعد تأليفك هذا الكتاب والمسلمون نائمون

جاهلون

جاهلون ، ومصر التي ظهرت في طليعة البلاد الاسلامية لاتزال كالمهد الذي تركت الاسلام عليه ، فيها معاهد العلم الديني لايزالون في هذا التلبيس وتبعهم رجال المدارس الذين لايعلو لهم الامدارس الحقوق ومدرسة القضاء الشرعي ، كل هذا للظهور وتولي الحكم والمحاماة ، أما الصناعات والعلوم الأخرى فهي منبوذة الاقليلا فليس عندنا مبرزون فيها ، أما أوروبا فقد قهرتنا بآلاتها القاتلة والحارثة والطاحنة وسبقونا في الاقتصاد والسياسة ثم ان المدارس عندنا تعليمها لفظي لايعشق الشبان في العلم والبحث فهو تعليم خال من الروح ، ولذلك سقطت الأمة في هاوية الاحتلال الأجنبي .

الواجب على المجالس الشورية أو النائبة عن الأمة

الواجب عليها أن تقلب التعليم قلبا تاما في المعاهد الدينية والمعاهد الدنيوية وتدخل فيها التهذيب وكل مايرغب في حب العلم وحب البلاد ومعرفة أحوال الأمم الاقتصادية في السوق ، وهكذا علم الأخلاق وعلم الحيوان والنبات والمعدن وما أشبه ذلك ، وليس يجوز أن يكون التعليم بلا ضابط وانما يكون على مقتضى الاستعداد المذكور في قوله تعالى « لايكلف الله نفسا الا وسعها »

هل في الاسلام نابغون؟

ولعلك تقول كيف تذم التعليم في الاسلام وفي مصر وفيها نبوغ ظاهر الذي عينين :

أقول : على رسلك ان هؤلاء النابغين في الأزهر والمدارس انما جاء من استعدادهم ومن دراساتهم الخاصة وبيئاتهم ، أما مستوى التعليم فانه ناقص ، وأهم من هذا أنه غير منظم لم ينظر فيه إلى مايحتاج اليه الأمة ، الامام الغزالي يقول لنا : ان البلاد مشحونة بأهل الفقه وهي خالية من الاطباء ويندد على المسلمين ويقول قد ذهب الدين وضاع لماذا ضاع ؟ ضاع لأن البلاد ليس فيها من يقومون بجميع المطالب للأمة .

وأنا أقول ياضياع المسلمين اليوم . ياضيعة الاسلام ، أيها الامام المسلمون لايزالون كما تركتهم فأهل الفقه وحفاظ القرآن يملؤن البلاد وكذلك المحامون والقضاة ، أما علماء الكيمياء والطبيعة والضوء والكهرباء والسكك الحديدية والبرق وعلماء المعادن وعلماء الحشرات وعلماء السياسات فان هؤلاء في أوروبا وليسوا عندنا وأنت أيها الامام تقول : ان الدين ضاع ، وأنا أقول لك : ان كثيرا من أهل بلادي لايعلمون أن هذا من الدين ولايعترفون بأن ديننا يحرم علينا ترك الصناعات الحربية الحديثة وصناعة الطرق الحديدية وصناعات المعادن ولايتصورا كثر الناس أن ذلك فرض كفرض علم الفقه الذي به يكون القضاء ، وأقول فوق ذلك : قد أخبرني عالم صيني أن علماء الاسلام هناك ظنوا أن العلوم العصرية مخالفة للقرآن فتأخروا عن أهل الصين المتبعين للدين الوثني فأصبح الاسلام في زماننا مانعا من العلم في نظرهم ، والمسلمون هناك يبلغون سبعين مليونا ، ولقد جاءني مرة أمير يقال له جمال الدين من الهند ومعه فتوى يسأل فيها عن علم الجغرافيا والتاريخ ، فأجبته بأن العلوم كلها فرض كفاية ، وقال لي : ان علماء بلدي حرموا هذه العلوم وقابلني في هذا العام عالم تونسي فقال : ان بعض العلماء يقولون لايجب شيء غير علم الفقه ، أما النظر في العالم العلوي فيكفي أن ينظر الانسان بعينه وهكذا الاسلام اليوم أضعف منه في كل زمان .

وأنا أطالب كل من وقع هذا في يديه أن يبحث في هذا الموضوع ويفكر بعقله ويستخرج العلوم الواجبة على المسلمين ويرضها لولاة الأمور فانه ظهر بهذا القول أن علم الدين ليس خاصا بالفقه ، بل العلوم كلها والصناعات أصبحت فروعا لشجرة واحدة هي الحياة الانسانية ، وكل ماعندنا الآن خطأ نشأ من عادات قديمة

راسخة ، فليقلب التعليم فى المعاهد الدينية على حسب ماقلناه وكذلك فى المدارس العصرية وليكن للأمة حال جديدة ، فهذه الحال لايجوز بقاؤها وليدرس هذا الموضوع دراسة تامة ، فالاسلام وأمة الاسلام اليوم فى خطر ، ولامنجى من الخطر الابماذكرنا وباتباع قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الاوسعها »

الأوقاف الاسلامية والمعاهد الدينية

اذا تقرر أن فروض الكفاية تشمل العلوم والصناعات ، وأن المعاهد الدينية الاسلامية يدرس فيها علوم النحو والصرف والمعانى وأمثالها وعلوم أخرى من أصول الدين والفقه وكذا الحساب والهندسة والنظر فى الكون ، أفلا ينبغى أن ينظر فى أمر الشهادة النهائية ، ويقال ان هذه العلوم كلها فرض كفاية لافرق بين علوم الدنيا والدين ، فاذا نظر رجال الحل والعقد فى المجالس النيابية فى أمر ما تحتاج اليه الأمة من العلوم والصناعات ثم قرروا أن يكون فى تلك المعاهد شهادات عالية أيضا للهندسة وأخرى الطب ، والصناعات الشريفة باعتبار أنها فروض كفايات وان كثرة المتعلمين فى البلاد فى نوع واحد غير مفيدة كما قاله أسلافنا اذا حصل ذلك فانى أراه يوافق الدين ، بل أقول فوق ذلك : ان مخالفة هذا تنافى الدين لما قرره الامام الغزالى من النداء بالويل والثبور ومخالفة الدين بسبب كثرة الفقهاء وقلة الأطباء ، الله الله عباد الله اتقوا الله فى دينكم وأمتكم وليكن لطلاب المعاهد الدينية حياة أسعد من هذه وأرقى منها بتنوع شهاداتهم مع أنهم منسوبون للدين ، فمن أخذ الشهادة بالطب لا يكون أقل ممن أخذها بالفقه لأنهما معا درسا هذا الفن ولكن أحدهما اختص بالطب والآخر استمر بحسب استعداده فى الفقه وهكذا الهندسة ويكون تخصيصهم بحسب استعدادهم بالامتحان ، ثم ينظر أهل الحل والعقد فى الأوقاف وتنظم نظاما تاما فلا تبقى مبعثرة كما هى الآن ويحرم الانفاق على العاطلين ويعرض مافيها على أهل الحل والعقد وينظر العقلاء فيها بعقولهم فيما يطلبه حال الأمة ، ثم يستعرضون آراء المذاهب كلها من حنفية وشافعية وحنبلية ومالكية وزيدية وغيرها ويأخذون من أقوالهم بما هو الأصلح للبلاد من حيث نظام الأوقاف وانماؤها ومن حيث الانفاق على معاهد التعليم وأن يكون المتخرجون منها نافعين فى نظام الأمة تبع قانون معلوم ونظام مسنون ، لا بالهوى والعادة ويكون ذلك بمقتضى قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا الاوسعها » أما أنا فقد كتبت مافى وسعى وهذا أنا به مكلف وهذه بذرة سينميها العلماء ويسقى زرعها العقلاء ويعمل بها النواب النبلاء .

انتهى تفسير سورة البقرة مساء الجمعة ١٣ ابريل سنة ١٩٢٣ م ، ٢٦ شعبان سنة ١٣٤١ هـ بمنزلنا بشارع زين العابدين رضى الله عنه آمين

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الأول من كتاب « الجواهر » فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء الثانى : وأوله تفسير سورة آل عمران)

فهرس

الجزء الأول

من كتاب

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مع الراهب فى [دير طورسينا] ، وردّ المؤلف على كلامه واستحسانها ذلك كله ، وضرب مثل الأنبياء وأتباعهم بقائد جيش الترك إذ قام معه قومه ، وصدّوا عدوّهم ، ولم يتكلوا على القائد وحده ، فهكذا الأنبياء وأممهم ، وبمثل هذا تتمّ شفاعتهم لهم ، والعلماء يشفعون ، والشهداء على هذا القياس .

٧١ تفضيل بنى اسرائيل .

٧٢ « وإذ فرقنا بكم البحر » الخ ، والتفسير اللفظى لذلك . آيات التوراة فى سفر الخروج ، فى خروج بنى اسرائيل من مصر .

٧٢ سفر الخروج ووصف ما تمّ لكل بنى اسرائيل فى التيه .

٧٣ « وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى » الخ ، والتفسير اللفظى لذلك .

٧٤ « وإذ استسقى موسى لقومه » الآيات .

٧٥ التفسير اللفظى لهذا المقصد .

٧٦ إيضاح الكلام فى قوله تعالى : « اهبطوا مصرا فإنّ لكم ماسألتم » وأن أهل المدن يذلون وأهل البادية قانعون أعفاء ، فهم أقرب الى الفضائل ولذلك يقاتلون المتمدينين ، وذكر تاريخ العرب والرومان وبنى اسرائيل ، وانهم لما تنعموا داستهم الأمم البدوية والفرنجة ، اليوم قد استعدّوا لهذا الدور كمن قبلهم ، ثم ما الذى يفعله المسلمون لاتقاء هذا الخطر ، فليقلوا من الشهوات ، وليمرّنوا الأجسام ، وليحفظوا العقول ، وليأكلوا من الطعام مالا يكثر تركيبه ، وأن يكونوا أعفاء قانعين ، فاذا انغمسوا فى النعيم أذلتهم الأمم ، ذكر الفوائد الطبية فى هذا .

٨٠ « إن الذين آمنوا والذين هادوا » .

٨٠ قصة البقرة ، حكاية اليتيم البارّ بأمه صاحب البقرة .

٨٢ الأمم الضعيفة تقلد الغالبة فى أخلاقها وتقاليدها كما قلد بنواسرائيل المصريين فعبدوا عجلهم فأمروا بذبح البقرة ليعلموا أنها لاتعبد ، حكمة تخصيص الحجر بضربه بالعصا ، ليدل على أن الأحجار تنفجر منها المياه بسبب اختصاص الثلج بأنه يكبر اذا برد ، فالجاهل يكتفى بعصا موسى ، والعالم يعرف العلم الالهية ، ونبع العيون بعظم حجم الثلج ، وعجائب السحاب والماء ، وأن فى هذه السورة عجائب من علم تحضير الأرواح فى هذا المقام ، وتحريم الربا ، وتحريم الخمر ، والتنويم المغناطيسى ، وأن الحرب الماضية كانت لرءوس الأموال ، وهكذا قصة صموئيل ، والعجوز التى أحضرت روح صموئيل النبى ، وأخبرت طالوت بأنه سيقتل غدا ، وعلم تحضير الأرواح وتاريخه فى أمريكا وأوروبا ، وانتشاره السريع ، وانه مقتضى قوله تعالى : « كذلك يحى الله الموتى ويريكم آياته » فهذه هى آيات الله فى ذلك ، الروحانية فى فرنسا وألمانيا وايطاليا والبلجيك واسبانيا والبرتغال ، وخطاب خمسة عشر ألف أمريكى لمجلس النوّاب الأمريكى فى علم تحضير الأرواح ، الملايين الذين اتبعوا هذا المذهب من الفلاسفة والأطباء وغيرهم .

٨٩ مراتب التصديق أربعة : العقل ، التصوّف ، احضار الأرواح ، الايمان .

٩٠ « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » الآيات ، والتفسير اللفظى لذلك .

٩١ لكل أمة ثلاث طوائف : كبراء ، أميون ، ذوولسن ماكرون .

٩٢ « وإذ أخذنا ميثاق بنى اسرائيل » الآيات ، ترتيب حال الأمة الى ثلاث مراتب : سعادة ، واضطراب الهلاك والتعب ، وهذه الأحوال الثلاثة على ترتيب الآيات .

صفحة

صفحة

صفحة

(تمت)



الجواهر
في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثاني

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
بمباشرة محمد أمين عمران

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »
قرآن كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقسيم سورة آل عمران

وهى عشرة أقسام :

القسم الأول : معنى الم . القسم الثانى : الإيمان إما تقليدى بالكتب السماوية ، وإما يقينى بالعلوم الطبيعية من قوله (الله لا إله إلا هو الحىّ القيوم إلى قوله : إن الله لا يخلف الميعاد) . القسم الثالث : التخلية من الرذائل كالشهوات والتحلية بالفضائل من الأعمال الصالحة والعلوم وأن هذا هو الإسلام الحق فى كل العصور وهذا من قوله (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم إلى قوله : سريع الحساب) . القسم الرابع : كيف يعامل المعاندون والمجادلون ، وهذا من قوله (فإن حاجوك إلى قوله : فإن الله لا يحب الكافرين) . القسم الخامس : قصة مريم وزكريا ويحيى وعيسى والحواريين من قوله (إن الله اصطفى آدم إلى قوله والذكر الحكيم) . القسم السادس : المحاورة المرتبة على هذه القصة كمحاجة النصارى فى عيسى ، وإقامة الحجة على أهل الكتاب وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله (يا أهل الكتاب) من قوله (إن مثل عيسى إلى قوله وما الله بغافل عما تعملون) . القسم السابع : توجيه الخطاب للمؤمنين بقوله (يا أيها الذين آمنوا) وتكراره ثلاث مرات ليجتنبوا مايقترفه أهل الكتاب من الإثم من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب إلى قوله إن الله بما يعملون محيط) . القسم الثامن : مخاطبة الله النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم المؤمنون نعم الله عليهم فى غزوة أحد من قوله (وإذ غدوت من أهلك إلى قوله : وخافون إن كنتم مؤمنين) . القسم التاسع : ذكر المنافقين واليهود وكيدهم ، وأن ذلك ابتلاء من الله للنبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ليصبروا فتقوى النفوس ، وترفع إلى العلى من قوله (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إلى قوله : والله على كل شئ قدير) . القسم العاشر : التفكر فى خلق السموات والأرض والعروج إلى عالم القدس بعد الصبر فى القسم قبله كأنه تعالى يقول الصبر أوّلا ، والعروج إلى عالم الأرواح آخرا من قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض إلى آخر السورة) .

ملخص هذه السورة

كأن الله عزوجل يقول فى القسم الأول : هذه الحروف الهجائية ا ل م ونحوها قد كررتها فى أوّل السور وجعلتها من الأسرار التى توجب أن تفكروا فيها تدريبا لعقولكم ، وتوجيها لنفوسكم إلى المعانى المختلفة التى تحتملها ، فإن الكتب السماوية لهذا أنزلت . أنزلت لترمز تارة وتصرّح أخرى ، وتفتح للعقول مجال الفكر ، فعلينا الوحى بالإشارة والتصريح ، وعليكم الفهم والتفكر تارة والعمل والامتثال أخرى وسيأتى هنا بعض سر هذه الحروف

ويقول فى القسم الثانى : — لقد أنزلت الكتب السماوية لكم أيها الناس ، فمنها مانزل على نبيكم ، ومنها مانزل على من قبله من الأنبياء لأفتح لكم باب الفهم فتؤمنوا بى كما نصبت لكم دلائل التوحيد فى السموات والأرض ليظهر لكم جمالى ، وتبهركم حكمتى ، وتتأملوا فى أنفسكم ، وتعقلوا العجائب فى الأعضاء الجسمية التى صورتها فى الأجنة فى بطون أمهاتها ، ألا وإن هذه الكتب السماوية وهذه العجائب الطبيعية منها ماتفهمونه بسهولة كالآيات المحكمات وكالأعضاء المفصلة الواضحة فى أجسامكم ، ومنها مايشتبه عليكم علمه مثل ا ل م التى فى أول هذه السورة ومثل تكوين الجنين فى بطن أمه ، وكيف يمر على درجات مختلفة من الرقى الحيوانى ، فيشتبه هذان على كثير من الناس ، وليس يعلم ما اشتبه فيهما إلا الله وأكابر الحكماء والعلماء فتوجهوا إلىّ أهدكم وقولوا : ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا .

وكأنه تعالى يقول فى القسم الثالث : — لايغرنكم هؤلاء الكافرون ، ولاتعجبكم أموالهم ولا أولادهم ، فهذه كلها لاتغنى ، وحسبكم ماترون من خذلان الكافرين يوم بدر كما خذل آل فرعون . واعلموا أيها الناس أنكم محبوسون مسجونون فى هذه الدنيا فى سجون سبعة : النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والأنعام والزرع ، ولايخرجكم من هذه السجون المؤصدة عليكم إلى النعيم والحرية والسعادة إلا الصبر والاستغفار والعبادة والصدق والفكر فى هذه العوالم المحيطة بكم حتى تقفوا على العدل الذى نصبناه ، والحكمة التى أبرزناها فى الأنفس والآفاق فإن ذلك هو دين الإسلام العام الذى أنزلناه على الأنبياء ، وهو الذى يخرج الناس من سجن الشهوات والجهالات إلى نعيم الحكمة والعلم فيعلمون أن ملكنا ذو نظام جميل ، وأننا عادلون فى عملنا وأن هذا العالم جنة المفكرين كما أنه سجن المغفلين .

ويقول فى القسم الرابع : — أسلم وجهك يامحمد لله ، ومن معك من المؤمنين ، ولا يضركم من ضلّ من هؤلاء الكافرين من العرب واليهود ؛ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . واعلم يامحمد أنت ومن معك أنى سأملككم أرض الحيرة والفرس والصين والروم فلا تخافوا ولايتخذ بعضكم من الكافرين بطانة فإنى أعلم سركم ونجواكم واتبعوا نبيى محمدا أحبكم وأغفر لكم ذنوبكم .

ويقول فى القسم الخامس : — لقد مننت على حنة زوجة عمران بما طلبت من ربها فرزقتها بمريم ، ورزقت زكريا الذى كفلها استجابة لدعائه بيحى ، واصطفيت مريم ، وخلقت منها عيسى وأجريت المعجزات على يديه كخلق الطير على يديه وإبراء الأكمه والأبرص ، وإخباره بالغيب وجعلته مصدقا للتوراة ، ومصلحا دينيا ليحل بعض ماحرم فى التوراة ، ويخرج الناس من الظلمات التى أحاطت بهم من علماء السوء المقلدين الغافلين ، ويفتح لهم طريقا إلى العلم لترتقى الأمة ، ولتسعى إلى الفلاح والنجاح ، فكفرت طائفة من بنى إسرائيل كما كفر بعض العرب بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحواريون : نحن أنصار الله (وأما الكافرون بعيسى) فإن الله جازاهم ورفع عيسى إلى السماء، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا به هكذا سيكون أتباعك يامحمد فوق الذين كفروا بك وسيعلو دينك ويمحق الكفر ويحل محله الإسلام فى جزيرة العرب ، وماشاء الله من البلدان .

ويقول فى القسم السادس : — يا أهل الكتاب قد عرّفناكم حقيقة عيسى . وهذا هو القصص الحق فكيف تقولون إنه مصلوب مقتول دعوا الافتراء على الله فى عيسى وفى إبراهيم ، إن إبراهيم كان قبل اليهودية وقبل النصرانية فإن موسى وعيسى من ذريته ، وكيف يكون الأب على دين الابن الذى لم يخلق ؟ إن إبراهيم هو الذى بنى الكعبة التى يجب على الناس الحج إليها فليكن الاتباع له ، ولينته أهل الكتاب عن الكفر ، فالحق أحق أن يتبع .

وكأنه يقول فى القسم السابع : — إياكم أيها المسلمون أن تصغوا لأهل الكتاب فإنهم يريدون أن يردوكم عن دينكم ، وكيف يكون ذلك وفيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فاعتصموا بحبل الله وكونوا يداً واحدة ، وليكن منكم هداة يكونون بمنزلة العقل من الجسم وأنتم كجسم واحد ونفس واحدة ، واحذروا أن تكونوا كأهل الكتاب الذين تفرقوا بعد أنبيائهم فاحذروهم فأنتم سليمو القلوب وهم يكرهونكم ويفرحون لحزنكم ويحزنون لفرحكم .

وكأنه يقول فى القسم الثامن والتاسع : — إنك يا محمد قد غدوت إلى أحد لمحاربة الكافرين ، وهمت بنو سلمة وبنو حارثة أن تفشلا وكانا جناحى العسكر ، ولكنّ الله عصمهما من هذا الفشل فثبتهما ، ولما انهزم عدوّكم اختلف الرماة منكم فترك أغلبهم مواقفهم التى أمروا بالبقاء فيها وعمدوا إلى نهب الغنائم فأصابتكم الهزيمة ابتلاء من الله وامتحانا ، ولقد نصرتكم فى بدر على قلتكم فلئن خذلتم فى أحد لقد نصرتم فى بدر ، «وتلك الأيام نداولها بين الناس» وهذا الخذلان فيه تعليم للصبر على الشدائد ، ولقد علمتم لما سمعتم أن محمدا قتل ، وكيف يكون ذلك وهو رسول والرسل إن ماتوا أو قتلوا يقوم أتباعهم بما دعوا إليه ؟ ثم اعلموا أن النصر من عند الله فلا القلة تمنعه ، ولا الكثرة توجبه ، والمصائب مقدّرة فى الأزل فلا تحزنوا ، ومن قتلوا فى سبيل الله أحياء فلا تخافوا من الموت ولاتثبطكم الأراجيف عن مواصلة القتال والمؤمنون يصابون بالشدائد ليظهر الخبيث من الطيب ، وأصول الإيمان كلها راجعة إلى الصبر .

وكأنه يقول فى القسم العاشر : — أيها الناس إن هذه الغزوات والعداوات ومحاجة الكفار ليست مقصودة لذاتها وإنما المقصود الأهمّ أن تنظروا فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتذكروا ربكم على كل حال ولايغرنكم ظهور الجاهلين والكافرين فى هذه الحياة الدنيا فإن الإنسان يمتاز عن الحيوان بالعقل والعلم ، وهؤلاء إنما امتازوا بالتقلب فى الأعراض الدنيوية وهو متاع قليل ، فالإنسان خلق ليعلم الأشياء على ماهى عليه فاصبروا على الشدائد وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون اهـ ملخص السورة الإجمالى .

تفسير السورة

مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

(١) اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة البقرة ، ألا ترى أن لفظ البقرة يدل على بقرة بنى إسرائيل التى ذبحت لإظهار القتيل ، وأن القصة التى تخللت السورة هى قصة بنى إسرائيل ، وقد قدّمت لك فى البقرة أنها مرتبة ترتيبا تاريخيا على حسب العصور فترى أن أوّل البقرة اشتمل على قصة بنى إسرائيل لما كانوا فى مصر ، ثم الخروج منها ، ثم ذكر أزمان حكم الشيوخ السبعين ، ثم جاء فى أواخر السورة فذكر ملكهم بعد أن كانت حكومتهم شورية فملك الله عليهم طالوت ، ثم داود وسليمان واستفحل ملكهم كما أوضحته هناك ، وليس بعد هذا التاريخ إلا خروج عيسى ابن مريم لجاءت سورة آل عمران التى تلى قصة بنى إسرائيل السابقة . فانظر كيف كان لفظ البقرة دالا على تاريخ بنى إسرائيل كما أن آل عمران رمز إلى قصة مريم وزكريا وحنة ويحيى وعيسى ، ثم تبع ذلك محاجة أهل الكتاب ونصيحة المسلمين أن لايطيعوهم ، وأن تلك القصص تذكر للاستنتاج والعظة والاعتبار كما ستراه مفصلا فى الآيات .

(٢) أن أوّل البقرة وآخرها مشابهان لأوّل آل عمران وآخرها . فابتداء البقرة بالإيمان بالغيب وذكر الكتب السماوية ، وهكذا افتتاح آل عمران ، وختم البقرة بأن النبى ومن معه قد آمنوا بالله وجميع الكتب السماوية ، وختم آل عمران بمدح التفكر فى خلق السموات والأرض ، وأن هؤلاء المتفكرين يقولون «ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا» فهنا قالوا آمنا وفى البقرة قالوا آمنا ، انتهت المقدّمة .

فلنبتدىء

فلنبتدئ في تفصيل التفسير في هذه السورة فنقول :

القسم الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ

إن هذه الحروف التي ذكرت في أول السور قد أطال العلماء الكلام عليها ؛ فمن قائل لاعلم للبشر بها ، ومن قائل كلا بل لابد أن يكون لها معنى يعرفه الناس وهذا هو الحق .

فاعلم أن القرآن كتاب سماوي ، والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى ، والرمز والإشارة من المقاصد السامية والمعاني العالية والمغازي الشريفة ، وقديما كان ذلك في أهل الديانات ألم تر إلى اليهود الذين هم كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق أيام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على أعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية فيجعلون الألف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والدال بأربعة هكذا مارين على الحروف الأبجدية إلى الياء بعشرة والكاف بعشرين ، وهكذا إلى القاف بمائة والراء بمائتين ، وهكذا إلى الغين بألف كما ستراه في هذا المقام ، كذلك ترى أن النصارى في اسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا قد اتخذوا الحروف رموزا دينية معروفة فيما بينهم أيام نزول القرآن ، وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر وكانوا يرمزون بلفظ (أكسيس) لهذه الجملة يسوع المسيح ابن الله المخلص ، فالألف من أكسيس هي الحرف الأول من لفظ (أيسوس) يسوع والكاف منها هي الحرف الأول من (كرستوس) للمسيح والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في النطق في لفظ (ثيو) الله والياء منها تدل على (أيوث) ابن والسين الثانية منها تشير إلى (نوتير) المخلص ، ومجموع هذه الكلمات يسوع المسيح ابن الله المخلص ، ولفظ (أكسيس) اتفق أنه يدل على معنى سمكة فأصبحت السمكة عند هؤلاء رمزا لإلههم . فانظر كيف انتقلوا من الأسماء إلى الرمز بالحروف ، ومن الرمز بالحروف إلى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف . قال الحبر الانكليزي صموئيل مونتج إنه كان يوجد كثيرا في قبور رومة صور أسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم وكان كل مسيحي يحمل سمكة إشارة للتعارف فيما بينهم اهـ ، فإذا كان ذلك من طبائع الأمم التي أحاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم كان لابد أن يكون على منهج يلذ الأمم ، ويكون فيه ما يألفون وستجد أنه لانسبة بين الرموز التي في أوائل السور وبين الجمل عند اليهود ، ورموز النصارى إلا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي أو بين علم العلماء وعلم العامة . فبهذا تبين لك أن اليهود والنصارى كان لهم رموز ، وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل .

لطيفة

قال ابن عباس رضي الله عنهما مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو سورة البقرة الٓمٓ ذلك الكتاب لاريب فيه ، ثم أتى أخوه حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف فسألوه عن الٓمٓ وقالوا ننشدك الله الذي لا إله إلا هو أحق أنها أتتك من السماء ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم نعم كذلك نزلت فقال حيي : إن كنت صادقا إني لأعلم أجل هذه الأمة من السنين ، ثم قال كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على أن منتهى أجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال حيي : فهل غير هذا فقال نعم المٓصٓ فقال حيي : هذا أكثر من الأول هذا مائة وإحدى وستون سنة فهل غير هذا ؟ قال نعم الٓر فقال حيي : هذا أكثر من الأولى والثانية فنحن نشهد إن كنت صادقا ماملكت أمتك إلا مائتين وإحدى وثلاثين سنة فهل غير هذا ؟ فقال نعم الٓمٓر قال حيي : فنحن نشهد أنا من الذين لايؤمنون

ولا ندرى بأى أقوالك نأخذ ، فقال أبو ياسر : أما أنا فأشهد على أن أنبياءنا قد أخبرونا عن ملك هذه الأمة ولم يبينوا أنها كم تكون فإن كان محمد صادقا فيما يقول إنى لأراه سيجتمع له هذا كله فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا أمرك كله فلا ندرى أبا لقليل نأخذ أم بالكثير . فبهذا تعرف أيها الذكى أن الجمل كان متعارفا عند اليهود ، وهو نوع من الرموز الحرفية فكانت هذه الحروف لابد من نزولها فى القرآن ليأخذ الناس فى فهمها كل مذهب وتتصرف الفكر فيها .

ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز إليه هذه الحروف :

[الطريقة الأولى] أن تكون هذه الحروف مقتطعات من أسماء الله كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه ، وعنه أن (الر) و (حم) و (ن) مجموعها الرحمن ، وعنه أن (الم) معناه أنا الله أعلم ونحو ذلك فى سائر الفواتح ، وعنه أن الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد أى القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام .

أقول إن ابن عباس رضى الله عنهما إنما أراد بذلك أن تكون الحروف مذكرة بالله عز وجل فى أكثر الأحوال وذكر الله أجل شىء ، ويرجع الأمر إلى أنها أسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الأمم السالفة من النصارى فى إسكندرية وورمة ، ولكن لابد أن يكون هناك ماهو أعلى وأغلى .

[الطريقة الثانية] أن هذه الحروف من أعجب المعجزات والدلالات على صدق النبى صلى الله عليه وسلم وهذا مما ترضاه النفوس ألا ترى أن حروف الهجاء لاينطق بها إلا من تعلم القراءة ، وهذا النبى الأمى قد نطق بها والذى فى أول السور ١٤ حرفا منها وهى ٢٨ حرفا إن لم تعد الألف حرفا برأسه و ١٤ نصفها ، وقد جاءت فى ٢٩ سورة وهى عدد الحروف الهجائية إذا عدت فيها الألف ، وقد جاء من الحروف المهموسة العشرة وهى (فحثه شخص سكت) بنصفها وهى الحاء والهاء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم أن الحروف إما مهموسة وهى مايضعف الاعتماد عليها وهى ماتقدم وإما مجهورة والمجهورة ١٨ نصفها ٩ وهذه التسعة ذكرت فى فواتح السور ويجمعها (لن يقطع أمر) والحروف الشديدة ثمانية وهى (أجدت طبقك) وأربعة منها فى الفواتح وهى (أقطك) والحروف الرخوة عشرون وهى الباقية نصفها عشرة وهى فى هذه الفواتح يجمعها (حمس على نصره) والحروف المطبقة أربعة (الصاد والضاد والطاء والظاء) وفى الفواتح نصفها (ص ط) وبقية الحروف وهى ٢٤ حرفا تسمى منفتحة ونصفها وهو ١٢ فى الفواتح .

فانظر كيف أتى فى هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية إن لم تعد الألف وجعلها فى ٢٩ سورة عدد الحروف وفيها الألف وكيف أتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ، ولقد ذكرت لك قلا من كل مما ذكره العلماء فى هذا المقام ولا أطيل عليك خيفة السآمة والملل وكفاك ما أمليته عليك فى هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الأنصاف وكيف وضعت الحروف على هذا النظام وإنى موقن أن المتعلم لو طلب منه أن يأتى بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع لذلك سبيلا فإنه إن راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعى الحروف الشديدة وكيف يراعى نصف المجهورة فى نفس العدد إن ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم ، ففائدة هذا الوجه أتم من الوجه الأول ، فالأول فائدته تذكير الإنسان بأسماء الله تعالى . وأما الوجه الثانى ففيه إعجاز العقول وحيرة ، فيقال كيف تنصف الحروف الهجائية وتنصف أنواعها من مهموسة وشديدة الخ ، وهذه الأنواع لم يكن ليدرسها أحد فى العالم أيام النبوة ، ولما ظهرت وافقت تلك الحروف بأنصافها إن ذلك ليعطى العقول مثلا من الغرابة الدالة على أن هذا لايقدر عليه المتعلمون ، فإذن هو من الوحى ، وهذا الوجه على قوته يفضله مابعده .

[الطريقة

[الطريقة الثالثة] أن الله تعالى خلق العالم منظما محكما متناسقا متناسبا ، والكتاب السماوى إذا جاء مطابقا لنظامه موافقا لإبداعه سائرا على نهجه دل ذلك على أنه من عنده ، وإذا جاء الكتاب السماوى مخالفا لنهجه منافرا لفعله منحرفا عن سننه كان ذلك الكتاب مصطنعا مفتعلا متقوّلا مكذوبا « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

والعالم المشاهد فيه عدد (٢٨) فى (١) مفاصل اليدين فى كل يد ١٤ (٢) وفى خرزات عمود ظهر الإنسان منها ١٤ فى أسفل الصلب و١٤ فى أعلاه (٣) خرزات العمود التى فى أصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقر والجمل والحمر والسباع وسائر الحيوانات التى تلد وترضع أولادها منها ١٤ فى مؤخر الصلب و١٤ فى مقدّم البدن (٤) وهكذا عدد الريشات التى فى أجنحة الطير المتمدة عليها فى الطيران فإنها ١٤ ظاهرة فى كل جناح (٥) وعدد الخرزات التى فى أذناب الحيوانات الطويلة الأذناب كالبقر والسباع (٦) وعمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقة كالسمك والحيات وبعض الحشرات (٧) وعدد الحروف التى فى لغة العرب التى هى أتم اللغات (٢٨) حرفا منها ١٤ يدغم فيها لام التعريف وهى ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن ، و ١٤ لاتدغم فيها وهى ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م هـ و ى (٨) والحروف التى تخط بالقلم قسمان منها (١٤) معلم بالنقط ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن ، و١٤ غير معلمة وهى ا ح د ر س ص ط ع ك م و هـ ل لا ، وهذا الحرف هو الألف التى هى من حروف العلة أما الأولى فهى الهمزة فهذه ١٤ حرفا بقيت الياء وهى تنقط فى وسط الكلمة ، ولا تنقط فى آخرها فأصبحت الحروف المعلمة ١٤ وغير المعلمة ١٤ والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم لتكون القسمة عادلة ، والفضل فى هذا العدل للحكيم الذى وضع حروف الهجاء العربية فإنه كان حكيما ، والحكيم هو الذى يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية وهذا جعل ٢٨ حرفا مقسمة قسمين كل منها ١٤ كما فى مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات (٩) ومنازل القمر ٢٨ منزلة ، فى البروج الشمالية ١٤ وفى البروج الجنوبية ١٤ فهذا يفيد أن الموجودات التى عددها ٢٨ تكون قسمين كل منهما ١٤ فهكذا هنا فى القرآن جاءت الحروف العربية مقسمة قسمين قسم منها ١٤ منطوقا به فى أوائل السور ، وقسم منها غير منطوق به فى أوائلها ، وكأنه تعالى يقول أى عبادى إن منازل القمر ٢٨ وهى قسمان ومفاصل الكفين ٢٨ وهى قسمان وهكذا والحروف التى تدغم فى حرف التعريف وهكذا التى هى معلمة كل منها ١٤ وضدّها ١٤ فلتعلموا أن هذا القرآن هو تنزيل منى لأنى نظمت حروفه على النمط الذى اخترته فى صنع المنازل والأجسام الإنسانية والأجسام الحيوانية ونظام الحروف الهجائية ، فمن أين لبشر كمحمد أو غيره أن ينظم هذا النظام ويجعل هذه الأعداد موافقة للنظام الذى وضعته ، والسنن الذى رسمته ، والنهج الذى سلكته ؟ إن القرآن تنزيل منى ، وقد وضعت هذه الحروف فى أوائل السور لتستخرجوا منها ذلك ، فتعلموا أنى ماخلقت السموات والأرض وما بينهما باطلا ، بل جعلت النظام فى العالم وفى الوحى متناسبا ، وهذا الكتاب سيبقى إلى آخر الزمان ولغته ستبقى حية معه إلى آخر الأجيال إن اللغات متغيرة ، وليس فى العالم لغة تبقى غير متغيرة إلا التى حافظ عليها دين ، وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين ؟.

[حكاية] حدّثنى عالم فاضل أنه قرأ رواية باللغة الألمانية ملخصها أن للمؤلف الألمانى تخيل رجلا من هذه الأجيال نام فاستيقظ سنة ٨٥٣٢ ميلادية مثلا فطاف فى أنحاء المعمورة وصار يخاطب الناس ويسمع لهجات لم يألفها ولغات لم يسمعها ، ويرى وجوها لم ينظرها وأشكالا لم يعرفها ومناظر لم يعهدها ، وبحث عن انكلترا وفرنسا وألمانيا ودول أوربا ، فلم يجد أرضها وإنما وجدها كلها بحرا ملحا أجاجا فيه السمك العظيم ، فحار فى أمره وأخذ يفكر ويقول ياعجبا كل العجب ألم يكن لهؤلاء من آثار ألم يكن لهم عمل ألم يتركوا مايدل عليهم؟ وبينما هو سائر فى سهل من السهول ، وقد ألم من الحر وقت الظهيرة فلجأ إلى كهف ليستريح فيه بجبل مشرف

على هذا السهل ، فجلس وهو يفكر فى أمر نفسه وأمر الأمم الدارسة واللغات الذاهبة والعلوم الميتة والمدنية الحالية إذ لمح على صخرة بجانبه حروفاً فقال فى نفسه ياليت شعرى أى لغة هذه ، ومن أى اللغات هى؟ إن جميع اللغات متغيرة لايستقر لها قرار فأخذ يقابل هذه الحروف التى على الصخرة بالحروف التى استصحبها معه وتذكرها مما كان يدرسه وهو مستيقظ أو لا إذا هى تشبه اللغة العربية .

هناك أخذ يفكر ويقول عجب أتفنى اللغات وتبقى العربية وأى شئ العربية ولماذا بقيت ؟ ثم قال نعم نعم إن اللغة العربية قبل نزول القرآن كانت تتغير على طول الزمان وتمسخ فلا يعرف الأواخر ماقاله الأوائل إلا بشق الأنفس هكذا سائر لغات أوروبا ، فلما نزل القرآن وكان لابد من حفظ العربية التى نزل بها حفظ المسلمون أصولها فلم تغير ، فأما الأمم الأخرى فإن لغاتها تغيرت ولم يبق إلا اللغة العربية حافظة شكلها حتى انقرضت الأمم وأصبحت أرضها بحاراً وصارت البحار يابسة وجاءت أمم فلم أعرف كيف أخاطبها وقرأت كثيراً من الآثار فلم أعرف حرفاً واحداً من لغات الأمم الذاهبة الدارسة التى بقيت آثارها مطموسة فى الأرض ثم أتى بالنتيجة والمقصود من هذه الرواية :

فقال من أراد من علماء أوروبا أن يخلد علمه واختراعه ونتيجة عمله فليؤلفه باللسان العربى لأنه هو الباقى أما لغات أوروبا فلا بقاء لها ولا دوام اهـ . فانظر كيف اتفق رأى علمائنا السابقين مع آراء بعض علماء الألمان وكيف يقول علماؤنا إن ٢٨ فى العالم السماوى والأرضى مقسمة ١٤ و ١٤ والقرآن فصلها كذلك ليدل على أنه هو الباقى الظاهر فوق كل دين إلى يوم القيامة ، وأن النظم لذلك كله واحد ، وكيف يرى هذا الرأى عالم ألمانى ويقول إن لغة العرب باقية بعد سائر اللغات . فانظر كيف اتفق الرأيان : الأول علمى ، والثانى عملى وكلاهما يرمى لبقاء القرآن ولغة العرب إلى آخر الزمان .

تحقيق هذا المقام

اعلم أيها الذكى أن الطريقة الثالثة لخصتها من كتب أسلافنا لاسيما كتاب إخوان الصفاء . ولما كانت تلك الأعداد يعوزها التحقيق وتفتقر إلى التدقيق وإلا لم يرافقها الصدق ، ولم يؤيدها الحق أردت أن أبحث عنها بنفسى ، فأما مفاصل اليدين فهى كما ذكروه ، وأما خرزات العمود الفقرى فى الإنسان فهى كما سيأتى :

الرقبة ٧ الظهر ١٢ القطن ٥ الملتحمة ٥ العصعص ٣ أو ٤ فتكون فقرات الظهر فى الإنسان ٣٣ لا ٢٨ فكيف يقولون إنها ٢٨ فنقول إن الخمسة التى هى الملتحمة تكون منفصلة قبل ولادة الجنين ، فإذا ولد اتصلت فصارت واحدة ظاهراً ، وإذا اعتبرنا أن العصعص ٣ لا أربعة ، لأن الثلاثة هى الثابتة أما الرابعة فلا ثبات لها تكون فقرات الظهر ٢٨ ، كما قاله القدماء فهذا تحقيق مافى (١) وفى (٢) وأما السابع والثامن والتاسع فهى محققة كما تقدم وأما ٣ و ٤ و ٥ و ٦ فهى التى تحتاج إلى التحقيق .

ولقد نقلت لك الجدول الآتى من الكتب الإنجليزية فى الحيوانات الآتية من علم الزيولوجى :

	الحيوان	الرقبة	الظهر	القطن	الملتحمة	العصعص
١	الحصان	٧	١٣	٥ او ٦	٥	١٥ ـ ١٨
٢	الثور	٧	١٣	٦	٥	١٦ ـ ٢٠
٣	النعجة	٧	١٣	٦ ـ ٧	٤	١٦ ـ ٢٤
٤	الماعز	٧	١٣	٦	٤	١١ ـ ١٢
٥	الجمل	٧	١٢	٧	٤	١٥ ـ ١٨
٦	الخنزير	٧	١٤	٦ ـ ٧	٤	٢١ ـ ٢٣
٧	الكلب	٧	١٣	٧	٣	١٦ ـ ٢١
٨	القط	٧	١٣	٧	٣	٢١
٩	الأرنب	٧	١٢	٧	٤	١٦ ـ ١٨

وجاء

وجاء مايوافقه فى كلام العلامة جيرار الفرنسى إذ قال :

إن سلسلة الحيوان الذى حافره مشقوق ليس فيها إلا ستة وعشرون فقرة منها ٧ للعنق وثلاثة عشر للظهر وستة للقطن ؛ وقال إن سلسلة الكلب والهر مركبة من ٢٧ فقرة منها ٧ للرقبة و ١٣ للظهر و ٧ للقطن ، وقد يكون القطن مركبا من ٨ فقرات ، وقال إن للخنزير سلسلة مركبة من ٢٨ فقرة ٧ عنقية و ١٤ ظهرية و ٧ قطنية ، فتبين من هذا أن العالم الفرنسى موافق علماء انكلترا لأن العلوم مشاهد محسوس .

وتكون النتيجة أننا إذا حسبنا للمتحمة فقرة واحدة فى هذه الحيوانات كما اعتبرناها فى الإنسان كانت الأعداد هكذا : للإنسان ٢٨ وللثور ولكل ذى حافر مشقوق ٢٧ وللكلب والهر ٢٨ أو ٢٩ وللخنزير ٢٩ وللجمل ٢٧ وللأرنب ٢٧ فيكون كلام القدماء فى هذا المقام كلاما تقريبيا .

وعددت ريش الطائر فوجدت فى كل جناح ٢١ ريشة وهكذا قال علماء البيطرة ولكنّ قدماءنا رحمهم الله قالوا إن مايعتمد عليه الطائر ١٤ لا ٢١ ؛ وأما ذيل الحيوانات فإنك قد رأيته فى الجدول السابق ، وهو مختلف من ١٨ إلى ٢٤ فهذه المسائل الأربعة الخاصة بالحيوانات الفقرية بعضها يوافق كلام القدماء وبعضها يقاربه .

[إيقاظ] اعلم أن هذا التحقيق لايخالف أصل الموضوع ولاينافى حقيقة المسألة ، فحروف أوائل السور من العجائب فقد وافقت المنازل السماوية ومفاصل اليدين وخرزات ظهر الإنسان وظهر الكلب والهر والحيوانات الكاسرة والحروف الهجائية المعلة وغير المعلة والمدغمة فى لام التعريف والتى لم تدغم وهكذا .

فتعجب من العلم والحكمة وغرائب الإبداع وعجائب العلوم .

موازنة رموز المسيحيين برموز المسلمين

تأمل كيف كانت رموز المسيحيين قد دعت فى آخر أمرها إلى تقديس الرمز نفسه والإعجاب به واتخاذه مقدّسا فالسمكة التى وافقت حروفها الخمسة فى اللغة اليونانية أوائل حروف الجملة التى فى ذكر المسيح أصبحت مقدّسة ، أما الرموز فى القرآن فإن المسلمين الصادقين والحكماء المحققين أخذوا يبحثون بسببها فى علم الطبيعة وفى علم الفلك وفى علم التشريح ، وقالوا إن كتابنا رمز بهذه الحروف إلى نظام السموات والأرض ، وإنه موافق للطبيعة وإنه باق ببقاءها وإنه خير الأديان .

فانظر كيف كان قدماؤنا يدرسون وكيف أصبح المتأخرون يجهلون وبعضهم صم بكم عمى فهم لايعقلون .

كان قدماؤنا يجعلون الطبيعة والفلك من أوضح مايطبق على الرموز القرآنية فأما المتأخرون فإنهم فى التيه غافلون وفى الحضيض نائمون وبالجهل قانعون وللموت يحتضرون وبالشقاوة ينعمون وفى الضلال يعمهون وفى القيود يرسفون وفى الذلة يعيشون وفى السلاسل يسحبون وفى جهنم الاستعباد يحرقون ، وقد آن أوان السعادة وأقبلت أيام السيادة وسيبدّل الأمن بالخوف والعلم بالجهل والله يقدر الليل والنهار مالك الملك (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب)

كيف نام المسلمون فى القرون الأخيرة

انظر كيف كان قدماؤنا يجعلون هذه العلوم دراسة للقرآن ومعانى له ولكن ياحسرتا أن أولئك العلماء كانوا قليلا ؛ فأما العامة والملوك وصغار العلماء فإنهم كانوا معرضين عن هذه العلوم ويظنونها كفرا ، ولو كانت حكوماتهم جمهورية نظامية لانتشرت هذه الآراء ، ولظهرت أجيال منهم لم يعرفها الإنسان ولكن قد آن أوانه وجاء إبانه وسيظهر العلم عما قريب وسيدرس المسلمون هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات العلماء فى أقطار الإسلام وسيكون فى هذه الأمة جيل ونظام لم يألفه الإنسان ولم يعرفه أبناء الزمان (كل يوم هو فى شأن — وتلك الأيام نداولها بين الناس — ولتعلمنّ نبأه بعد حين — ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) .

جمال هذه الحروف وعجائبها

فانظر كيف حل الرمز بهذه الحروف فى أوائل السور العلماء على التفكير ؛ فمن رمز إلى أسماء الله الحسنى إلى أنها فيها نصف المجهورة والمهموسة والشديدة والمطبقة والمنفتحة الخ ، ثم كيفهم اعتلوا فوق ذلك إلى سماء الخيال وسافروا فى باحات الجمال فنظروا فقرات الحيوان ومنازل السماء وحروف الهجاء وبحثوا ودققوا وفكروا وحققوا ثم انظر كيف كان عدد ٢٨ الذى نصفه القرآن فى أوائل السور فى علم الارثماطيق من الأعداد العجيبة القليلة النظير النادرة المثال المبهجة للناظرين العجبة للقوم المفكرين .

وكيف يرون أن هذا العدد ليس له نظير فى العشرات كما أن عدد ٦ ليس له نظير فى الآحاد و (٤٩٦) ليس له نظير فى المئات و (٨١٢٨) ليس له نظير فى الألوف، فإن كل عدد إذا جمعت أجزاؤه كانت أكثر منه أو أقل ، أما هذه الأعداد الأربعة فإن أجزاءها إذا جمعت كانت مساوية لها ، وبيانه :

أن ٢٨ مثلا نصفها ١٤ وربعها ٧ ومخرج النصف ٢ ومخرج الربع ٤ ثم الجزء من ٢٨ فيكون الجميع ٢٨ وهذا معنى كونه تاما ؛ وأما بقية الأعداد فإنها إما ناقصة وإما زائدة ، فأما التامة فهى نادرة كما يندر المعدن المسمى (راديوم) الذى يظهر خفايا الأجسام - إن فى ذلك لذكرى لقوم يعقلون (وما يعقلها إلا العالمون) فانظر لولم تكن تلك الرموز لم نبحث تلك المباحث ولم نوازن مابين كلام قدمائنا وكلام العالم الألمانى وكيف ينصح العلماء أن لا يؤلفوا أعز آرائهم إلا بلغتنا لأنها باقية مابقى الحدثان (فبأى آلاء ربكما تكذبان) .

ملخص هذا المقال

انظر أيها اللبيب وتفكر فى العلم وجماله ، وفى هذه الحروف التى ينظر إليها الناس نظرهم إلى أجسامهم يعيشون ويموتون وهم لايفكرون وكل حزب بطعامه وشرابه وشهواته مفتون ، وهذه الحروف فى أوائل السور سكت عنها صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم ليطلق الحرية للعقول فى فهمها ، ويذر الناس يبحثون عليها ، فأخذوا يتلمسون معانيها ويصيدون بشباك العلم شواردها لابطريق البرهان ولا مقدمات اليقين بل بمجرد المناسبات والمشاكلات والمناظرات، فماذا فعلوا ولماذا وصلوا ؟ وصلوا إلى علم غزير ومقام رفيع شريف ،فرأوا هذه الحروف التى جاءت فى أول السور واحدة واحدة أو مثنى أو ثلاث أو رباع أو خماس مثل ق وحم والم والمر وحمعسق وأنها ترجع بعد حذف المكرر منها إلى أمر عجيب :

(١) هى نصف الحروف العربية (٢) وفيها نصف المطبقة (٣) وفيها نصف المنفتحة (٤) وفيها نصف الحروف الشديدة (٥) وفيها نصف الرخوة (٦) وفيها نصف المهموسة ، وفيها نصف المجهورة (٧) وأنها وضعت فى أول ٢٩ سورة عدد ٢٩ حرفا فى اللغة العربية بعد الألف اللينة من الحروف (٨) وكيف كانت تقسم الثمانية والعشرون كقسمة منازل القمر (٩) ومفاصل اليدين (١٠) وفقرات الظهر من الإنسان (١١) وفقرات الظهر فى بعض الحيوان على ماقدمناه (١٢) ثم كيف كانت الحروف الهجائية منها المدغم فى لام التعريف ومنها غير المدغم وهذان موافقان لهذا العدد من حيث القسمة (١٣) والمنقوط كذلك وغير المنقوط (١٤) وكيف كان عدد ٢٨ الذى قسم إلى قسمين صحيحين فى القرآن من الأعداد النادرة الوجود الشريفة التى تساويها أجزاؤها كما تقدم ، وأن جميع الأعداد إما زائدة وإما ناقصة .

ولما كان هذا العلم مفقودا فى الأمم الإسلامية اليوم إلا مسائل ضئيلة فى علم الحساب أردت ذكر مسألتين العدد الزائد والعدد الناقص لتكون على بصيرة فى الأمر .

العدد الزائد مثل ١٢ نصفها ٦ ثلثها ٤ ربعها ٣ سدسها ٢ ونصف سدسها ١ فجملة الأجزاء ١٦ وهى أكثر من ١٢

أما العدد الناقص فهو مثل ٨ نصفها ٤ ربعها ٢ ثمنها ١ وجملتها ٧ فهى أقل من ٨ .

فالأعداد جميعها إما زائدة وإما ناقصة وليس فيها تام إلا هذه الأربعة فى الآحاد والعشرات والمئات والألوف

فتعجب من القرآن لماذا لم يذكر فى أول السور ١٢ حرفا أو ١٥ بل ذكرها ١٤ ، وكان من نتائجها أن نظر العلماء فى الفلك وخواص الأعداد وعدد الفقرات والحروف الهجائية وأقسامها وأن هذا القرآن ثابت مابقى الفرقدان وما دام الملوان .

الأسرار الكيميائية فى الحروف الهجائية للأمم الإسلامية فى أوائل السور القرآنية

ها أنت أيها الذكى قد اطلعت على ماسطره القدماء وآباؤنا الحكماء من الأنوار الإلهية فى الحروف الهجائية وفهمت أنهم فى فهمهم درجات ليؤتوا كل عاقل مايوافق طبعه ويناسب عقله ويشابه درجته العلمية وتعاليمه العقلية .

فهل لك أن أبرز لك الجوهر المكنون والسر المصون وأفتح لك بتوفيق الله بعض خزائن العلم لتستخرج منها المعارف الحكمية والأنوار القدسية والمنح السنية والدرر البهية والسعادة الدنيوية والنعم الأبدية للأمم الإسلامية .

أقول : سترى إن شاء الله فى سورة العنكبوت وفى سورة يس وما بينهما من أسرار هذه الحروف ماشرح الصدر ويوضح الأمر ولكنى الآن لا أدع هذه الفرصة تمر بدون أن أذكر لك لمحة يزدان بها تفسير هذه السورة فأقول :

أنزل الله هذا القرآن ذكرى للناس وقال : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ، وقال : (إن هو إلا ذكر للعالمين) ، وقال : (أفلم يدبروا القول) وقال : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، فهذه الآيات وغيرها أعلمتنا أن القرآن إنما هو للذكر والتفكر ولا يحرم من الفكر إلا القلوب المقفلة .

تفكرنا فى هذه الحروف التى فى أوائل السور وتفكرنا فيما سطره قدماؤنا وعلمنا أنها جعلت مثارا للنظر وقدحا للفكر ، فالأولون والآخرون يفكرون ولا نكير عليهم ولا إراد لقولهم ؛ فكما صنف علماؤنا فى الفقه آلاف الكتب ولا نكير ولا منازع هكذا هذه الحروف ونحوها تنوعت فيها الآراء ولا منكر .

نقول أيضا : إن القرآن إذا كان مثار الفكر والعلم فهذه الحروف الهجائية المذكورة فى أول السور لم جيء بها ومعلوم أن الحروف على قسمين حروف لها معنى وحروف لا معنى لها فهذه من القسم الثانى والأنبياء جاءوا مشرعين ولم يرسلوا لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وإنما ذلك لطائفة تقوم به فى مبادىء التعليم فإذن هذه الحروف للذكر والتفكر فلننظر نظرة عامة تشمل جميع الأقوال السابقة وتضم الآراء المختلفة والمذاهب المتشعبة وهى الكبريت الأحمر والمسك الأذفر هى رقى الإسلام ومناط السلام وسعادة الأمم وبهجة المسلمين .

انظر رعاك الله تأمل يقول الله ا ل م - ا ل ر - طس - حم - وهكذا يقول لنا أيها الناس إن الحروف الهجائية إليها تحلل الكلمات اللغوية لما من لغة فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية شرقية وغربية فلا صرف ولا إملاء ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها ولا سبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون؛ ولا جرم أن العلوم قسمان : لغوية وغير لغوية فالعلوم اللغوية مقدمة فى التعليم لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لاتعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها فكيف إذن تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية فهى أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية ، لايعرف الحساب إلا بمعرفة بسائط الأعداد ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات إليها فرجع الأمر إلى تحقيق العلوم .

بهذا وحده ارتقت أوروبا وبهذا وحده يرتقى الإسلام انظر وتفكر فيما ألقيه عليك الآن ، تأمل فيما ستسمعه مما يقرؤه أكثر الناس فى مصر وغير مصر وأكثرهم ساهون لاهون لأذكر لك مسائل من علم الكيمياء .

المخاليط المعدنية

ما هى المخاليط المعدنية لأضرب لك منها أمثالا :

(أولا) هناك معدن يقال له (كدميوم) وهناك القصدير والرصاص وهما معروفان ورابع يسمى (بزموت) هذه المعادن إذا خلطت بنسب معلومة أمكن صهرها على درجة بين ٦٦ و ٧١ درجة مع أن كلا منها وحده يصهر على درجة أكثر من هذه الدرجة؛ فأعلاها على درجة (٣٦٠) وهو (كدميوم) وأدناها وهو القصدير على درجة (٢٢٩) فاجتماعها وتركبها بنسب خاصة بأن يكون بعضها (٨) أجزاء وبعضها (٢) وبعضها (٤) هكذا ٢ : ٤ : ٨ وهى النسبة الهندسية العجيبة هو الذى أكسبها هذه الخاصية وهى أنها تصهر على درجة غير درجات كل واحد من العناصر الداخلة فيها .

(ثانيا) النحاس الأحمر مثلا لين يصنع بسهولة ولكن ليس فيه صلابة كافية ، فإذا صهر جزآن منه مع جزء من الخارصين تكوّن مخلوط معدنى صلب هو النحاس الأصفر سهل الصنع لونه أصفر ، وإذا تغير مقدار الخارصين أمكن إكسابه لون الذهب .

ثم إن النحاس الأصفر لايمكن برده لأنه يلتصق بالمبرد كالجسم الدسم ، وإذا أضيف إلى مائة جزء منه جزء أو ثلاثة أجزاء من القصدير أو الرصاص زال منه هذا العيب .

(ثالثا) الرصاص يصهر بسهولة ويمكن عمل أحرف الطبع منه بصبه فى القوالب المعروفة بالأمهات لكن هذه الأحرف لاتتحمل ضغط الطبع فتهبط ويتغير شكلها بسبب رخاوة الرصاص ، وإذا عملت أحرف الطبع من الأنتيمون وحده ، فإن هذه الأحرف تتفتت بضغط الطبع لهشاشة الأنتيمون ، فإذا مزجت أربعة أجزاء من الرصاص بجزء من الأنتيمون تحصل مخلوط صالح لأن تصنع منه أحرف الطبع بصبه فى الأمهات ، وهذه الأحرف تتحمل ضغط الطبع فلا تهبط ولا تتفتت .

(رابعا) صنع المدافع يحتاج إلى معدن صلب غير هش يمكن إصهاره وخرطه ، والنحاس وحده فيه معظم هذه الأوصاف غير أنه رخو فإذا خلطت (٩٠) جزءا منه بعشرة أجزاء من القصدير تحصل مخلوط معدنى أكثر صلابة من النحاس وفيه المقاومة الكافية لأن تصنع منه المدافع وهذا المخلوط يسمى (بروز) وكلما زاد مقدار القصدير فى هذا المخلوط زاد صلابة ولكن يكون أكثر قابلية للكسر .

(خامسا) إذا أضيف (٧٨) جزءا من النحاس و (٢٢) جزءا من القصدير كان المخلوط صلبا له رنة تعمل منه الأجراس والنواقيس .

هذه الأمثلة الخمسة ذكرتها لك لتنظر فى أمرها كيف كان المركب فى المثال الأول إذا كان على هيئة مخصوصة بمقادير محدودة كان صهر المركب فيه أسهل من صهر كل واحد من العناصر وحده .

انظر كيف كان النحاس الأحمر فى المثال الثانى لايكتسب الصلابة الكافية ولا لون الذهب إلا إذا خلط بمقدار من الخارصين معين فيكون نحاسا أصفر ، ثم كيف كان النحاس الأصفر غير قابل لبرده بالمبرد إلا بإضافة القصدير أو الرصاص إليه لكل مائة جزء جزء أو ثلاثة ؛ فبالخارصين صار نحاسا أصفر ، وبالقصدير أو الرصاص صار قابلا لعمل المبرد .

وانظر إلى حروف الطبع فى المثال الثالث كيف كان الرصاص وحده رخوا لايتحمل الطبع والأنتيمون وحده يتفتت وكيف كان أربعة أجزاء من الأول وجزء من الثانى إذا خلطا تم الطبع ، فهذا التفسير لايمكن طبعه إلا بهذه النسبة التى لو زادت أو نقصت أو انفرد أحد المعدنين لم يمكن طبع هذا التفسير .

وانظر إلى صنع المدافع كيف كان النحاس الأحمر وحده لايجدى فيه ، فإذا أضيف إليه الخارصين لكل تسعة أجزاء جزء واحد بحيث لايزيد ولا ينقص أمكن صنع المدافع .

ها أنت ذا قد كشف لك أمر صنع المدافع وأحرف الطبع والأجراس والنحاس الأصفر — هذه الأمثلة منظار معظم أو مرآة تنظر بها صور العلوم كلها وهذه العلوم ترجع مركباتها إلى أصولها ، فكما رجعت الكلمات

واجمل

والجمل فى النثر والنظم إلى الحروف الهجائية هكذا رجعت جميع المركبات فى العلوم الطبيعية والرياضية إلى أصولها الأولية ، فجل الله وما أبدع العلم وأجمل الحكمة !. علم الله أن الأمم الإسلامية سيأتى لها زمان تصبح فيه نائمة لاثلثمائة سنين وازدادوا تسعا بل ستمائة سنين وازدادوا ثمان عشرة بل أكثر من ذلك .

فأنزل الله هذه الحروف وأمرنا بقراءتها ، ولم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيدنا بمعنى مخصوص فيها، بل إن اليهود لما حسبوها بالجمل تبسم ضاحكا ولم يتكلم، تلك حكمة وأية حكمة آية وأية آية ، كأن الله يقول أيها المسلمون هذه الحروف إذا تركت بلا تركيب تكون بلا معنى ا ل م فإذا ركبت على نسب مخصوصة كانت لها معان على مقتضى التركيب ، فزيادة حرف أو نقصه من الكلمة تغير المعنى ومن لم يعرف الحروف التى هى أصول الكلمات لم يتبين حقائق اللغة مع أن من الناس من يتكلم ولايعرف الحروف الهجائية هكذا العلوم والصنائع ترجع إلى أصولها ، فإذا لم يعرف الناس خصائص الرصاص والأنتيمون فكيف يصنعون حروف الطبع؟ وإذا جهلوا خواص النحاس والقصدير فمن أين يتأتى لهم عمل البرونز الذى يصنعون منه للدافع ؟ وإذا جهلوا خواص الخارصين إذا اجتمعت مع خواص النحاس الأحمر فمن أين يتأتى لهم النحاس الأصفر ، أو جهلوا خواص الرصاص مع ماتقدم فمن أين يصلحون العيب الطارئ عليه ؟.

هذه أمثلة تبين لك أيها الذكى أن الله تعالى جعل عالم الماديات كعالم اللغات وأن خصائص المركبات تفارق خصائص المفردات؛ فكما لايكون ألف ولا لام ولا ميم مفيدة للمعانى متفرقة هكذا لايصلح النحاس وحده لصنع المدافع ولا الرصاص وحده لصنع حروف الطبع ، وكما أن تركيب حروف الألف مع اللام المشددة بعدها مدة مع الهاء على هذا الترتيب تفيد معنى الذات الواجب الوجود ، وإذا غير التركيب أو العدد أو شكل الحروف تغير المعنى ، هكذا إذا زاد النحاس على تسعين جزءا فى صب المدافع أو نقص ، وهكذا القصدير إذا زاد عن عشرة أجزاء أو نقص لايصلح المخلوط لصنع المدافع .

ولقد علمت أن هذه العلوم والصناعات جميعها نبغ فيها الفرنجة والمسلمون لم يوقظهم أحد إلى درسها مع أن علماء المذاهب جميعا أجمعوا أنها فرض كفاية وأن آيات القرآن طافحة بذكر عجائب الصنعة الإلهية فأنزل هذه الحروف سبحانه حتى تكون رمزا يظهر به سره العجيب وإبداعه الغريب وإتقانه العالى .

عجبا لك ! الحمد يا ألله ركبت النبات ونظمته وجعلته من عناصر بموازين محدودة، وهكذا الحيوان وألهمت عبادك أن ينهجوا نهجك ويصنعوا بأجزاء محدودة وأنمت المسلمين آمادا وآمادا، ثم كنزت لهم فى كتابك كنزا أظهرت سره لهم الآن وقلت أى عبادى ادرسوا نظامى وتخلقوا بأخلاقى وحللوا العناصر وادرسوها واقرءوا العلوم وافهموها فقد وعظتكم بالمدافع القاتلة والطيارات الفاتكة والأمم الظالمة ، كل هؤلاء أرسلتهم رحمة لكم لاعذابا . إن مايفتح باب العلم ليس تعذيبا إنه تهذيب ، نعم يكون تعذيبا إذا لم تتعظوا ولم تتذكروا فيكون الهلاك حتما عليكم لأنكم لاتصلحون للحياة ولا تصلحون للوجود ، وكيف يصلح للوجود من ينظر ولا يعقل ؟ أليس هذا التفسير يطبع بحروف مركبة تركيبا منظما من معدنين فكيف تطبعونه وغيره إذا لم تدرسوا هذه العلوم والصناعات أفلا تبصرون أفلا تسمعون ؟.

مدافع أرسلتها وطيارات بعثتها وغازات خانقة أطلقتها وآيات بينات فصلتها وحروف هجائية أنزلتها أفلا تذكرون ؟ نظرتم بأنفسكم للمدافع وحروف الطبع ولكن أكثركم عن التفكر فيها معرضون ، فإذا لم تعقلوا المبصرات فها أنا ذا أسمعتكم الحروف الهجائية فى أول السور لأذكركم بذلك أفلا تذكرون ؟.

منطق حروف الطبع بلسان حالها

لو نطقت حروف الطبع لقالت بلسان فصيح قد ركبت صورتى من عناصر بحساب كما ركبت الحاصلات الزراعية والأعضاء الحيوانية والعقاقير الطبية وسائر المصنوعات الإنسانية فها أنا ذا اليوم أمثل ذلك التركيب

والتحليل بنظام فى الأحرف المعجائية اقرءوا إن شئتم (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) كل ذلك إشارات قدسية فى الحروف العربية بأوائل السور القرآنية .

[حكمة] لاتظنن أيها الذكى أن هذه المعانى التى ذكرناها تجول بخواطر علماء الكيمياء أو علماء النبات أو علماء الصناعات ، والذين يصبون للدافع صبا أو الذين يقرءون علم التشريح إن هؤلاء يقرءون علومهم ولايخطر ببالهم ماذكرناه لأنها علوم جزئية والعلم الكلى هو الذى يسميه القدماء علم ماوراء الطبيعة أو العلم الأعلى وهو الباحث عن النظام العام،فأهل هذا العلم وهم الحكماء أشبه بمنشىء القصيدة والخطب وأهل تلك العلوم أشبه بعلم النحو أو الصرف أو الخط فكل منهم لايهمه إلا العلم الجزئى من اللغة الذى هو بصدده وهذا هو السبب فى أن أكثر من قرءوا العلوم الطبيعية يجهلون العلوم الإلهية ؛ كما أن المختص بعلم النحو أو الصرف من المدرسين وقضى حياته فيه منكبا عليه لايتعداه لايحسن قرض الشعر ولا الخطب ولا النثر كما هو معروف مشهور .

وكما أن الشاعر والخطيب والناثر يكفيهم من النحو والصرف وأمثالهما مابه يصلح لفظهم هكذا الحكماء يجزئهم من العلوم الطبيعية والرياضية مابه يدرسون نظام الوجود فحسب ، ولا يعنيهم التبحر فى العلوم الجزئية والفريقان خلقوا فى كل أمة ودين رحمة للناس،وكما أن الشاعر وأخويه يحثون الجمهور على الأدب والأخلاق والنظام اللذى هكذا الحكماء الذين هم صفوة الله فى الأرض بعد الأنبياء يلقون فى القلوب الحكمة ويوحدون عقائد الخواص فى الأمم والأديان كما يوحد الوعاظ الحقائق عند العوام .

إن الناظر نظرة عامة فى العلوم الطبيعية والفلكية ومقدماتها هو الذى يفهم قوله تعالى فى هذه السورة (شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) ، وهو الذى يعرف قوله تعالى : (وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقوله : (إن الله سريع الحساب) ، وقوله : (وكل شىء عنده بمقدار) ، وقوله : (ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان) ها أنت أيها الذكى بما يذكر فى هذا المقام وفى غيره من هذا الكتاب رأيت الميزان والحساب واطلعت على رتبة أولى العلم الذين عطفوا على الملائكة حتى يلحقوا بهم :

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

ما الناس سوى قوم عرفوا ... وسواهم همج الهمج

انتهى الكلام على القسم الأول من سورة آل عمران وهو (الم) .

الكلام على القسم الثانى من سورة آل عمران

الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ * هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ، لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ

ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَارَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ .

قوله (الم) تفتح الميم فى المشهور بنقل حركة الهمزة فى اسم الجلالة إليها ، وقرئ بكسرها على توهم التقاء الساكنين وقرئ بسكونها والابتداء بما بعدها وهو الأصل (الحىّ القيوم) تقدّم فى آية الكرسى (نزل عليك الكتاب) القرآن على مقتضى الوقائع (بالحق) بالعدل والصدق فى أخباره والحجج المحققة أنه من عند الله (مصدقا لما بين يديه) من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء (وأنزل التوراة والإنجيل) على موسى وعيسى (من قبل) أى من قبل تنزيل القرآن (هدى للناس) عامة ونحن منهم إذا قلنا إنا متعبدون بشرائع من قبلنا أو قومهما فقط إن لم نقل ذلك فهما رأيان (وأنزل الفرقان) جنس الكتب الإلهية من هذه الثلاثة وغيرها (إن الذين كفروا بآيات الله) من كتبه المنزلة وغيرها (لهم عذاب شديد) بما كفروا (والله عزيز ذو انتقام) أى غالب ذو انتقام عظيم لانظير له (إن الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء) فليس يغيب عن علمه كلى ولا جزئى ولا ذرة ولا أصغر منها ولا أكبر (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) من الصور المختلفة فهو الذى يتقن خلق الجنين ويتم تصويره بحكمة وإبداع (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) كامل القدرة تام الحكمة (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) لم تكن مجملة العبارات ولا محتملة المعانى (هنّ أم الكتاب) أصله الذى يردّ إليه ماعداه (وأخر متشابهات) محتملات غير متضحات مجملة العبارات أو مخالفة للظواهر ولايدرك المراد منها إلا باستنباط العلماء والموازنة بينها وبين المحكمات،وقوله فى آية أخرى « أحكمت آياته » حفظت من فساد المعنى وركاكة اللفظ وقوله فى أخرى « كتابا متشابها » أى يشبه بعضه بعضا فى صحة المعنى وجزالة اللفظ (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) عدول عن الحق من أهل البدع (فيتبعون ماتشابه منه) ناظرين إلى ظواهره أو مؤوّلين تأويلا باطلا (ابتغاء الفتنة) طلب أن يفتنوا الناس فى الدين ويوقعوا الشك فى قلوبهم بالتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه أو طلب افتتانهم بالافتتان بحيث لا يصغون لنصح الناصحين (وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله) الذى يجب أن يحمل عليه (إلا الله والراسخون فى العلم) أى الذين ثبتوا وتمكنوا فيه (يقولون آمنا به) أى حال كونهم يقولون آمنابه (كل من عند ربنا) ويصح أن تكون الجملة مستأنفة لتوضيح حال الراسخين وهذا على أن الراسخون معطوف على لفظ الجلالة ويصح الوقف على لفظ الجلالة ويكون الراسخون مبتدأ خبره يقولون آمنا به ويكون المتشابه بمعنى مااستأثر الله بعلمه كمدة بقاء الدنيا ووقت قيام الساعة وخواص الأعداد الواردة كعدد الزبانية (ومايذكر إلا أولوا الألباب) وهم الراسخون فى العلم الذين جادت أذهانهم وحسن نظرهم فهم مستعدون للاهتداء إلى تأويله (ربنا لاتزغ قلوبنا) أى يقول الراسخون فى العلم ربنا لاتمل قلوبنا عن الحق والهدى إلى اتباع المتشابه بتأويل لاترضاه . قال عليه الصلاة والسلام « قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه على الحق وإن شاء أزاغه عنه » أو لاتبتلنا ببلايا تزيغ قلوبنا فيها (بعد إذ هديتنا) أى وفقتنا لدينك والإيمان بالمحكم والمتشابه فى كتابك (وهب لنا من لدنك رحمة) تزلفنا إليك ونفوز بها عندك بإعطائنا توفيقا وتثبيتا للذى نحن عليه من الإيمان والهدى وبغفران ذنوبنا (إنك أنت الوهاب) والوهاب من يعطى بلا عوض ولا غرض،والله يعطى كل أحد على قدر استحقاقه (ربنا إنك جامع الناس ليوم) لحساب

يوم أو لجزائه (لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد) وهذا من بقية دعاء الراسخين فى العلم، طلبوا من الله ألا يزيغ قلوبهم وأن يهديهم ويرحمهم وذلك من مصالح الدين والدنيا معا، ثم ذكروا نتيجة ذلك فى الآخرة وقالوا إنك جامع الناس للجزاء ووعدك حق؛ فمن أزغت قلبه فهو هالك ومن مننت عليه بالرحمة فهو سعيد .

انتهى التفسير الإجمالى للقسم الثانى من السورة .

تفصيل الكلام على هذه الآيات فى القسم الثانى

اعلم أن هذه الآيات اشتملت على نمطين : النمط الأول فى هداية العامة من سائر الأمم والأجيال وتلك الهداية تكون بالحجج التى اشتملت عليها تلك الكتب ثم الإنذار والتخويف بالوعيد والزجر والعقاب الشديد؛ فذكر الكتب السماوية من القرآن والتوراة والإنجيل وسائر الكتب، ثم أنذر بالعذاب الشديد وختم ذلك بأنه عزيز ذو انتقام . النمط الثانى هداية الخواص من تلك الأمم التى أنزلت عليها الكتب، وذلك راجع إلى علمهم بأمرين سعة علم الله تعالى وسعة حكمته وقدرته، فأشار إلى الأول بقوله : (إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) وهذا هو سعة علمه جل جلاله، وإلى الثانى بقوله : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) وبقوله تعالى: (هو الذى أنزل عليك الكتاب) الخ، فهو يقول إن الخواص من الناس وأرباب العقول يعرفون ربهم بسعة علمه وإحكام قدرته وانتظام أعماله انتظاما تاما كما يرى فى تصوير الأجنة فى الأرحام وإبداع العقول العظيمة فى تلك النفوس لتفقه الكتاب وتبين المتشابه وترجعه إلى المحكم فنظام الأجسام وجمال العقول من عجائب قدرته عز وجل وإحكامه لخلقه .

ولنفصل الكلام على الأمرين : الأول قوله تعالى (إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء). الثانى قوله تعالى (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

الكلام على الأمر الأول

لقد عرفت فيما مضى أن العامة غير مهتمين بالنظر ، فالكتب السماوية كافلة بإيمانهم ، أما الخاصة فهم المجدون بحثا وتنقيبا فى الأرض وفى السماء فيعرفون سعة علم الله تعالى من علم الطبيعة وعلم الفلك وعجائب هذه الدنيا التى خلقنا فيها وهؤلاء هم أكابر الحكماء، وعظماء الأمم القائمون بانتشالها وإسعادها وإعزازها وفى القرآن آيات كثيرة دالة على سعة علم الله داعية ومشوقة لذوى العقول الكبيرة أن يبحثوا ويجدوا بقرائحهم فى هذا العالم كقوله تعالى فى سورة لقمان : «يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير» وكقوله : «وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين» وكقوله تعالى «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور» وكقوله تعالى «وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين» .

فيرى العقلاء أنه ذكر أنه يعلم مافى السموات وما فى الأرض كالرطب واليابس والأجسام التى لايحصى عدها من الورق النابت فى الشجر الساقط من اليبس، بل ماهو أقل من ذلك كالحبة من الخردل بل ماهو أصغر منها وتجاوز ذلك إلى ماهو أبعد من المادة غورا ألا وهو مافى النفوس من الآراء والاعتقادات والمقاصد . فهذه الآيات يقرؤها العقلاء فيرون أنها تصف الله بعلم الأجرام الكبيرة والصغيرة وما تناهى منها فى الدقة وهكذا ماوراءها من المعانى والأفكار فينظرون فيرون ذلك إنما يعرف بعلم الطبيعة فى العصر الحاضر وبه وبعلم الفلك يعجبون من هذا النظام البديع المملوء من الغرائب والبدائع .

واعلم أن الله لما أنزل القرآن بالوحي على نبيه أنزل أيضا نورا على العقول فأبرزت مكنون العلم في هذه العوالم المشاهدة حتى يوازن ذوو العقول الكبيرة مابين الوحي النبوي في الكتاب السماوي وبين العلم العقلي المضيء بالعقول السليمة المستخرجة لكنوزه من جواهر الطبيعة، وهنا التقى البحران واتحد المنهجان منهج العقول السليمة والنفوس الشريفة ومنهج الوحي الإلهي ، وهنا نحن الكلام في مبحثين : المبحث الأول فيما هو أصغر من الذرة . المبحث الثاني فيما هو أكبر من الذرة .

المبحث الأول وفيه لطائف

[اللطيفة الأولى] اعلم أن المادة لها صفات عامة وصفات خاصة . إذا سحبنا مسمارا حتى صار شريطا ؛ فصفات الحديد الخاصة لاتتغير ، وأما إذا وضعناه في الماء فإن صفاته تتغير ويصير أحمر لينا قصفا خشنا بالصدإ ؛ فالأول يسمى تغيراً طبيعيا ، والثاني يسمى تغيراً كيماويا وعلى ذلك يكون هناك علمان الطبيعة والكيمياء .

فالطبيعة علم يبحث فيه عن تغير المادة تغيراً طبيعيا ، والكيمياء علم يبحث فيه عن تغير المادة تغيراً كيماويا وللأجسام صفات عامة كالامتداد وعدم التدخل والتجزئة وإن فيها مسام .

[اللطيفة الثانية] إن العلماء قد بحثوا في تجزئة المادة حتى وصلوا إلى مايدهش العقل ويحير الفكر فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا دقيقة عجيبة جدا محيرة للناظرين مدهشة للمفكرين فإنها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة خطوط أدق منه وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من ٤ في ١٠٠٠ تساوي ٤٠٠٠ .

ومن عجب أن بعض علماء الألمان قال إنه إذا ضم ٤,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ أربعة بلايين خيط إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعرات لحيته ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط فكل خيط إذن من هذه الخيوط يساوي غلظه $\frac{١}{١٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ واحد من ستة عشر تريليونا ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة في جسم العنكبوت وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط؟أليس ذلك من العجب ؟ أو ليس من أعجب الحكم أن العنكبوت في هذا تمثل نظام العالم الجميل يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائي أنه خرج بلا حكمة فإذا انضمت إلى بعضها وكوّنت خيطا والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر وباجتماع الخيوط أنشأت بيتا فكان مسكنا ومحل صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ، ثم أردفه بقوله (لو كانوا يعلمون) ألا تعجب كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت أفليس هذا الوهن قد ظهر في التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحدّ في الدقة وتناهت في التجزئة فالوهن هنا إشارة إلى قبول التجزئة قبولا مطرداً بحيث لايمتنع عنها ذلك هو السر في قوله (لو كانوا يعلمون) فليس يدرك الناس تلك التجزئة التي أشار لها الوهن بمجرد إشارة إلا بعلم الطبيعة الذي يأتي بالعجب العجاب .

[اللطيفة الثالثة] إن قمحة من (الستركنين ، وهو ضرب من السم مستعمل في الطب كثيرا) إذا وضعناها في ١٧٥٠٠٠٠ قمحة من الماء شعرنا بطعمها في كل قمحة وعلى ذلك يكون في كل قمحة من الماء $\frac{١}{١,٧٥٠,٠٠٠}$ من قمحة من (الستركنين) ومع ذلك يشعر به من يذوقه .

[اللطيفة الرابعة] إذا أذبنا قطعة من الفضة بقدر $\frac{١}{١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ من القيراط المكعب

فى الحامض النتريك ثم صببناه فى مائة قيراط مكعب من الماء، وأذبنا فيها قليلا من ملح الطعام فإن الذوب يتعكر ويصير أبيض لبنيا ويبقى هذا اللون ظاهرا للعين ولو فيما يساوى $\frac{١}{١٠٠}$ من القيراط المكعب وفى ذلك من الفضة $\frac{١}{١٠٬٠٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠}$ من القيراط المكعب .

[اللطيفة الخامسة] إننا نرى الهباء الذى يسطع فى البيوت من ضوء الشمس الداخل من النوافذ ونحن عادة لانفكر فيه مع أن فيه كثيرا من بزور النباتات فإذا وقع هذا البزر على أرض رطبة كانت منه عفونة وهذه العفونة إذا نظرناها بالمكرسكوب وجدنا غابات كثيرات الأشجار مشتبكة الأغصان وأعيننا لاتميز شيئا من ذلك.

[اللطيفة السادسة] إن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش فى نقطة ماء صغيرة تعلق برأس الإبرة مثلا وتنمو هناك وتتكاثر وتموت كما تعيش حيوانات البر فى القفار وحيوانات الماء فى البحار ويسطو بعضها على بعض ويقاتل ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح وهى كثيرة الوجود ، وقلما يخلو منها مستنقع أيام الصيف وهى تصعد فى البخار الذى يتصاعد عن الماء بحرارة الشمس وتطير فى الجو مع الهباء ثم تعيش وتكثر حيثما تركت ووافقتها الرطوبة والحرارة .

[اللطيفة السابعة] إن الحيوانات السابقة مع تناهى صغرها قد تحجرت منها طوائف لاتحصى حتى كانت منها طبقات كبيرة من الصخور الطباشيرية فى الأرض ولا يساوى هيكل الحيوان الواحد منها أكثر من $\frac{١}{١٨٧٬٠٠٠٬٠٠٠}$ من القمحة ، ومع هذا الصغر المتناهى لهذه الحيوانات كان لكل حيوان منها معدة أو أكثر لهضم طعامه وأعضاء باطنة وأخرى ظاهرة فإذا تناهى الحيوان فى الصغر فماذا تكون تلك الأعضاء ؟ وهذا داخل فى قوله تعالى (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وكيف يعزب عنه ذلك .

وقد ظهر أن تلك الحيوانات الطباشيرية مثلا عند خلقها وموتها لم تكن لها فائدة واضحة فلما أن كثرت وكان منها الطباشير وانتفع به الناس عرفنا أن خلق ذلك الحيوان كان مقصودا لحكمة كما كان خيط العنكبوت الذى هو واحد من ألف خيط خارج من جسمه لايشعر بمنفعته إلا بعد ماانضم إلى الخيوط الأخرى ثم كان النسيج فظهرت المنفعة حينئذ فإذا رأى الناس عالم الحيوان وعالم النبات وعميت عليهم طرق الصواب فى فهمها وقالوا لم خلق نبات كذا وما فائدة هذه الحيوانات الكثيرة ؟ قلنا لهم ماطوائف الحيوانات والنباتات التى لم تظهر حكمتها لنا إلا كطوائف الخيوط الدقيقة العنكبوتية قبل التئامها ، فإذا فهمنا العنكبوت وخيوطه والطباشير ومنفعته فهمنا فهما إقناعيا أن لهذه العوالم حالا عالية تظهر فيها فائدتها ، وهذا داخل فى قوله (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وإنما كان فى كتاب مبين لأنه سائر لغاية ، والغايات لاتكون إلا تابعات للعلم ، والعلم لابد له من عالم .

[اللطيفة الثامنة] إن المادة مع صغرها ليست متصلة ذرّاتها اتصالا تاما بل هناك فضاء متسع بين أجزاء الماء والهواء والحجر والحديد والذهب ، وقالوا لو أن حيوانا عاش على سطح ذرّة من ذرّات أىّ جسم من حديد أو حجر أو ذهب وأراد أن يرفع رأسه إلى الذرّة الأخرى لرآها بعيدة بعد مابيننا وبين الشمس أو النجوم ، وأنت ترى أن هذا القول الذى قالوه لاتصدّقه العقول ولاتدركه الأبصار ولكن العلم أثبته ، ويقرّبه لك ما أذكره فأقول :

(١) إذا وضعنا فى إناء ماء ثم وضعنا فى الماء ملحا ثم بعد ذوبانه وضعنا فيه سكرا فإن الماء لايزيد حجمه لأن دقائق الماء وسعت الملح ودقائق الملح وسعت السكر لأنه أدق من الملح فدلّ هذا على مسامّ الماء ومسام الملح .

(٢) أتى بعض العلماء بكرة من الذهب مجوفة فملأها ماء ، ثم ضغطها فسطحت قليلا وخرج الماء من مسامها وتجمع كنقط الندى .

(٣) والذين يجربون المدافع يضغطون الماء فيها حتى يرتشح ويصير زبدا على سطوحها ثم يتجمع ويقطر عنها.

(٤) والأعمدة الحجرية تقصر إذا كانت تحت بناء عظيم لزيادة ثقله .

[اللطيفة التاسعة] اعلم أن الذهب والفضة والبلاتين أقبل المعادن للسحب وأن ٣٦ درهما من الذهب يمكن أن يعمل منها خيط طوله مائة ميل والبلاتين وهو أثقل من الحديد نحو ثلاث مرات يمكن أن يستل منه شريط طوله مائة ميل من قمحة واحدة منه ، والنحاس ينسج من شريطه نسيج كالشبك بحيث يكون فيه سبعة وستون ألف خرب فى مساحة قيراط مربع .

[اللطيفة العاشرة] إن أشدّ المعادن قبولا لطرقه وترقيقه الذهب حتى إنهم صنعوا من اثنى عشر درهما منه ٣٦٠,٠٠٠ قطعة بحيث كان سمكها كلها .ما قيراطا واحدا .

[تذكرة] فتعجب من المادة وكيف تناهت فى صغرها إلى درجة بعيدة الغور فمن خيط العنكبوت المتناهى فى الدقة بحيث تكون خيوطه التى تكون منها أربعة آلاف خيط خارجات من جسمه على هيئة تحب إلى أن واحداً من مليون وسبعمائة وخمسين ألفا من قمحة من الستركنين تتجزأ فى قمحة من الماء بحيث يظهر فيها طعمها إلى ذلك الهباء الذى يظهر فى البيوت الحامل بزورا تخرج بعد سقوطها بساتين ذات أثمار وأزهار وأوراق وسوق والناس لايرونها بأعينهم إلا عفونة يأنفون من منظرها إلى حيوانات تعدّ بالملايين تعيش فى قطرة ماء على رأس إبرة ولقد شاهدت أنا بنفسى بعض ذلك (بالمجهر) وهو الآلة المعظمة وهذه الحيوانات من بعضها يكون الطباشير مثلا،فانظر وتعجب وافهم قوله تعالى(وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) وهذه المذكورات من الذى هو أصغر من الذرة ، ولا يدرى إلا الله إلى أىّ حد تنتهى المادة فى الصغر ، وأنت ترى أن مايساوى واحدا من مائة من قيراط مكعب من الماء يتلوّن بمقدار واحد من عشرة ترليون من القيراط المكعب من الفضة،وأنت خبير أن هذا المقدار لايتصوّره الوهم حتى إن العلماء قالوا لو أن آدم وحوّاء أخذا يعدّان هذا العدد واحدا واحدا كل ثانية من يوم أن خلقهما الله ولم يناما ليلا ولانهارا على الحال المذكورة ماذاقا النوم إلا بعد مضى عشرة آلاف سنة وهذا فى عدد ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فما بالك بهذا العدد الذى معنا وهو ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ إذا عرفت هذا فإن المادة لايعرف منتهى صغرها . ولقد فرض العلماء لها نهاية سموها بالجوهر الفرد والجوهر الفرد شىء تصوّروه بعقولهم ولم يقسموه بآلاتهم . وقالوا إنه منه تتألف الذرة التى رأيتها فى الفضة مثلا فيما تقدّم فهذه الذرات فى العدد المتقدم كل منها مركبة من جواهر فردة . والجوهر الفرد مركب على رأى الأستاذ (جون ملر) فى مؤلفه الحديث المسمى (وبذن ذى أتم) من نوعين من الكهرباء الإيجابى والسلبى والكهرباء مادة ذات تركيب حببى وحبيباتها دقيقة إلى درجة لايتصورها العقل وتسمى حبيبات الكهرباء الإيجابية(البروتونات) وحبيبات الكهرباء السالبة (الألكترونات) وأكثر الجواهر الفردة مكونة من عدد من البروتونات يكون معها أحيانا ألكترون واحد أو أكثر وحول هذه عدد آخر من (الألكترونات) تدور فى مناطق ثابتة منظمة لتحفظ التوازن بين البروتونات التى تتكون منها نواة الجوهر ، وبمقتضى هذه النظرية إذا وجد مجهر قوىّ إلى درجة فوق العادة بحيث يستطيع تكبير الجواهر الفردة إلى حجم كبير جدا فإن أى مادة تمتحن تظهر كأنها فارغة وفيها مقادير هائلة من أشياء سابحة كالكواكب السابحة فى الفضاء وعلى نظامها . ألا ترى أن نواة الجوهر أشبه بالشمس والألكترونات أشبه بالكواكب تدور حول النواة فى مدار واحد،ثم قال: إن الجوهر الفرد فى عنصر الصودا مؤلف من نواة فيها ٢٣ بروتونا و ١٢ ألكترونا ، ويدور حولها

فى مدار واحد عدد من ألكترونات ، وفى مدار ثان ٨ ألكترونات ، ثم فى مدار ثالث ألكترون واحد ؛ ويقال أيضا إن الكهرباء الإيجابية فى النواة قد تكون ١١ ويعادلها أحد عشر ألكترونا وهى الكهرباء السالبة دائرة حولها ، وقد ثبت أن الكهرباء السالبة فى الجواهر الفردة تدور بسرعة مدهشة حول النواة ، والمسافات بين الألكترونات والنواة كالمسافات بين الشمس والسيارات .

ويقال إن الجوهر الفرد لو تمكن العلماء من تحليله لخرجت منه قوة هائلة جدا لايتصورها الناس بل ربما كان فى إطلاق قوته إطلاق قوات جواهر أخرى فتتحول الأرض حالا إلى كوكب جديد، ويقول الدكتور (استون) إنه لوحدث ذلك وكان فى كوكب المريخ سكان لشاهدوا منظرا غريبا للأرض أثناء تحولها إلى الشكل الجديد (كل من عليها فان) .

فانظر كيف سمى الإنسان إلى أن عرف أن ماهو أصغر من الذرة الواردة فى الآية صار حبيبات من الكهرباء السالبة والموجبة وأصبح الحديد والنحاس والبلاتين والذهب مثلا فى نظر العلماء عبارة عن كهرباء سريعة الحركة جدا ولسرعة الحركة ظن الناس أنها جامدة و١٠ هى بجامدة . ووالله إن هذا بعينه قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء) فالجبال والمعادن مركبات من الجواهر الفردة والجواهر من حبيبات من الكهرباء وكلما كانت أسرع جريا كانت أصلب ملمسا.فذرات الحديد وبعبارة أخرى الكهرباء التى نراها أمامنا حديدا ماهى إلا أنها أسرعت إسراعا شديدا فصارت صلبة فقلنا هذا حديد ، فأما ذرات الماء فهى غير مسرعات كذرات الحديد فقيل هو سائل والهواء أقل إسراعا فقيل هو (غاز) وهذا الكشف الحديث منطبق تمام الانطباق على القرآن فالجبال من جهة جاريات مع الأرض حول الشمس ، ومن جهة أخرى جاريات جواهرها مسرعات حول النواة ، ومن تلك الجواهر الجارية تكون الذرات ومن الذرات تكون الصخور ومن الصخور تكون الجبال . وما تكون من جار فهو جار ، فالأرض جارية والشمس جارية والجبال جارية والحصى جارية (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) وهذا سر قوله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) .

وهذا وإن كان من أسرار القرآن ومنطبق عليه لم يزل من الأبحاث التى تحتاج إلى مباحث أدق ولذلك جاء فى القرآن (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فهو من جهة يقول إنه واسع العلم حيث قال (وما يعزب عن ربك — إلى قوله — ولا أصغر من ذلك) فعبر بلفظ أصغر وهذا الذى ذكرناه هو الأصغر ولكنه لما انتهى إلى ماوصلنا إليه قال إنكم أيها الناس لاطاقة لكم بما فوق عقولكم (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) وهذا بعينه كلام العلماء فى أوروبا فإنا قدمنا لك أن هذا الجوهر الفرد لم يروه وإنما استنتجوه ولم يشاهدوه . انتهى الكلام على المبحث الأول أى ماهو أصغر من الذرة فى قوله تعالى (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) .

المبحث الثانى فيما هو أكبر من الذرة فى الآية وفيه لطائف

[اللطيفة الأولى] اعلم أن الذرة منها تتركب هذه الأجسام ، وقد قلنا إنها هى مركبة من الجواهر الفردة ومن الأجسام تكون هذه الأجرام العظيمة من السموات والأرض ، أما الشموس والأقمار والأرضون فقد استوفيناها فى قوله تعالى فى سورة البقرة (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) إنما الذى يهمنا الآن أن نبحث فيما هو فوق ذلك مما كشف حديثا ولأذكر لك خلاصة ماقيل عن العوالم السديمية فى آخر تقرير رفع إلى أكاديمية العلوم بفرنسا فى هذا العام فأقول :

إذا أرسلت نظرك إلى السماء فى ليلة صافية الأديم أبصرت غيوما بيضاء كأنها لبن ، وهى عبارة عن سدم

أى

أى سحب سابحة فى الفضاء الذى لايتناهى كما كانت أرضنا وشمسنا فى الأحقاب والدهور قبل ملايين الملايين من السنين ؛ ثم إن للمسافات التى تفصل هذه العوالم عنا لاتقع تحت حصر فالكيلومتر لايصلح فيها مقياسا ولا قطر الأرض ولا قطر دائرتها حول الشمس وقد اصطلحوا على مسافة لهذا القياس تبلغ ثلاث سنين وسدس سنة نورية وسموها (برسك) والسنة النورية أمر يفوق الوصف فإن النور يسير فى الثانية بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر فما بالك إذا جرى سنة ثم ثلاث سنين وسدس سنة الذى جعلناه مقياسا .

فانظر الآن ماجاء فى ذلك التقرير الذى رفع فى شهر مارس سنة ١٩٢٣ أثناء تفسير القرآن فقد جاء فيه أن سديم (ماجلون) يبعد عن الأرض ٣٥ ألف برسك أى نحو ١١٠ ألف سنة نورية ، وأن السدم التى تمكن العلم من قياسها هى كما يأتى :

(١) ستة سدم تبعد عنا ٦٥ برسكا أى نحو ٢٠٧ سنة إذا نحن سرنا إليها بسرعة النور .
(٢) ثلاث نجوم سديمية معروفة باسم (نوفا) تبعد عنا ١٧٥ برسكا أى نحو ٤٣٥ سنة نورية .
(٣) خمسون سديما مظلما ونيرا تبعد عنا ٣٢٠ برسكا أى نحو ١٠١٤ سنة نورية .
(٤) سبعون سديما تبعد عنا ٩٠٠ برسكا .
(٥) تسعة وستون سديما تبعد عنا ٢٣ ألف برسك أى نحو ٧٢٨٤٧ سنة نورية .
(٦) سديمان حلزونيان على بعد ٢٠٠ برسك أى نحو ٦٣٥ سنة نورية .
(٧) ستة عوالم سديمية تبعد عنا ١٥٠ ألف برسك أى نحو ٤٧٥ ألف سنة نورية .

ويبعد السديم (اندروميد) عنا ٤٥٠ ألف برسك أى نحو مليون وأربعمائة وخمسة وثمانين ألف سنة نورية ويسير هذا السديم بسرعة ١٢٠٠ كيلو متر فى الثانية وكذلك السديم المعروف باسم ماجلون إنه يبعد عن النظام الشمسى بسرعة ٥٦٨ كيلو مترا فى الثانية.وتسير المجرة التى يعد النظام الشمسى والسيارات وفى جملتها الأرض من توابعها بسرعة ٥٦٠ كيلو مترا فى الثانية جاذبة وراءها الشمس والسيارات مع الأرض وكل نجوم السماء .

هذه هى الخلاصة التى رفعت إلى أكاديمية العلوم فانظر كيف اطلعنا على أصغر الكائنات وعلى أعظم الكائنات واتصل أصغرها بأكبرها فى النظام وسرعة الجرى وأصبح فى نظر العالم أنه لافرق بين السيارات فى مداراتها وحبيبات الكهرباء الجاريات حول النواة فى الجوهر الفرد فاتصل أولها بآخرها .أو ليس هذا بعينه هو قوله تعالى (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) أى تناقض (فارجع البصر هل ترى من فطور) شقوق (ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) .

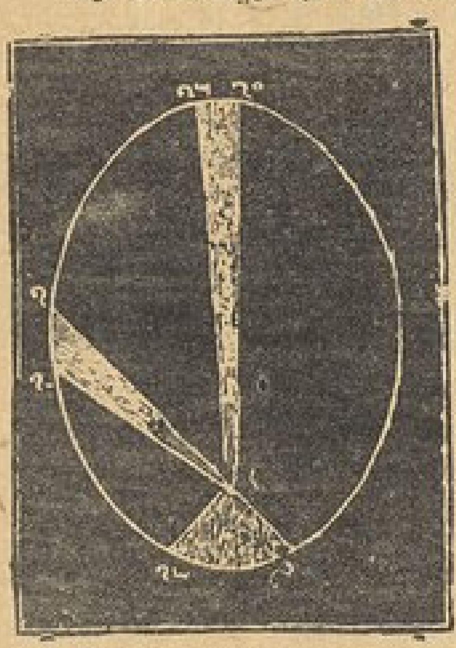
ألم تر كيف أشبه أعظم العوالم أصاغرها وصار العالم كله جاريا على قاعدة واحدة وهذه هى الوحدة العامة التى ظهر الكون بمظهرها ، أو ليس هذا هو البرهان على وحدة صانعها فإن النظام لم يتغير فالأول هو الآخر (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم) .

[اللطيفة الثانية] قوانين كبلير ونيوتن : قد تبين لك فيما سبق فى اللطيفة الأولى وما قبلها أن الأجرام العليا السماوية والأجرام الصغيرة الذرية ذات حركات سريعة منتظمة بهية المنهج ذات قوانين سارية جميلة ، والآن نبين بعض تلك القوانين التى تربط العوالم بعضها ببعض ، فالشمس جاذبة والأرض مجذوبة والقمر تابع الأرض والشمس وما حولها تجرى حول كوكب آخر والعالم كله جار بقانون عام يسمونه الجذب . ومن أهم تلك القوانين هذه الثلاثة التى تنسب للعلامة كبلير :

[القانون الأول] شكل مدارات السيارات : جميع السيارات ترسم حول الشمس فى جهة واحدة منحنيات مقفلة مستديرة تقريبا مستوياتها مائل بعضها على بعض قليلا .

وهذا القانون الأول يتعلق بشكل المدارات ، ونصه : أن مدار كل سيار قطع ناقص تشغل الشمس إحدى بؤرتيه ، ومعلوم أن ذلك هو مدار الأرض المعلوم بتغير بعدها عن الشمس أو بالتغيرات التي تحصل للقطر الظاهري للشمس . وتوضيحه : أن الأرض لايكون قربها من الشمس واحدا في جميع السنة بل هي كل يوم بل كل ثانية مختلفة البعد ؛ فهي في الصيف بعيدة وفي الشتاء قريبة وفي الخريف والربيع متوسطة ، وهذا هو عينه القطع الناقص وينتج من هذا القانون كما أوضحته لك أن بعد سيار عن الشمس يتغير دائما في مدة دورة وأن هذا البعد يأخذ جميع المقادير المحصورة بين مقدارين نهائيين مطابقين لوضعين يشغلهما السيار حينما يوجد في طرفي المحور الأكبر للمدار ويسمى الوضعان المذكوران الرأس والذنب ، وبعبارة أخرى أن الأرض مثلا حينما تكون بعيدة من الشمس يقال إنها في الرأس وحينما تكون قريبة يقال انها في الذنب ، والبعد المتوسط هو المساوي نصف المحور الأكبر للقطع الناقص .

[القانون الثاني] قانون المساحات : وهو المساحات المرسومة بأنصاف الأقطار البورية لسيار حول البورة الشمسية مناسبة للأزمنة المستعملة لقطعها . وبيان ذلك أن أقول :



إن هذا القطع الناقص بشكل ١ فترى ش هي الشمس ودار سيار كالأرض حولها ، وقد قلنا إن هذا السيار في كل لحظة يتغير بعده عن الشمس كما هو ظاهر لأن البعد يكون ثابتا في الدائرة أما ههنا فهو متغير فوجد كبلير والعلماء قاطبة أن القوس ق ٥ ق ٤ والقوس ق ق ١ والقوس ق ٢ ق ٣ (التي قطعها السيار في أزمنة مختلفة بأوقات متساوية فكان ق ٥ ق ٤ حينما كان السيار في الرأس وق ٢ ق ٣ حينما كان السيار في الذنب الذي هو قريب من الشمس وهكذا) تكون غير متساوية ؛ فأما المثلثات المرسومة وهي ق ٥ ش ق ٤ و ق ش ق ١ وق ٢ ش ق ٣ التي قواعدها مرسومة في أزمان متساوية فإنها تكون متكافئة ، فإذا صارت المدد الضعف أو ثلاثة الأمثال فإن مساحة المثلثات المتكونة بأنصاف الأقطار تكون متساوية فتأمل في هذا تجد أن السيار لما بعد عن الشمس كانت المساحة التي قطعها بنصف القطر كالمساحة التي قطعها وهو قريب منها ، وإن كان بطيئا في الأولى مسرعا في الثانية فلحسن النظام والدقة في السير صار المثلثان متساويين مساحة لتساوي الزمنين .

فعلى هذا تكون الأقواس المرسومة في أزمنة متساوية صغيرة كلما كان السيار بعيدا عن الشمس وكبيرة

كلما

كلما كان السيار قريبا منها ، وبعبارة أخرى أن سرعة السيار تزداد بنقص بعده عن البؤرة وتكون فى نهايتها الصغرى فى الذنب وفى نهايتها العظمى فى الرأس .

[القانون الثالث] مربعات مدد دورات السيارات حول الشمس مناسبة لمكعبات أبعادها المتوسطة عنها أو لمكعبات المحاور الكبرى لمداراتها .

البعد المتوسط هو المساوى نصف المحور الأكبر للقطع الناقص

وبواسطة هذا القانون العجيب يكفى معرفة مدد دورات السيارات لنستخرج منها أبعادها المتوسطة عن الشمس أو مقادير محاورها الكبرى منسوبة إلى أحدها المأخوذ وحده .

وقد ظهر نيوتن بعد كبلير وبين أن القوانين الثلاثة المتقدّمة ناتجة بالطبع من قاعدة الجذب . فالجذب العام هو قوة تنقاد لها جميع الأجسام السماوية وتتأثر بها والتثاقل فى سطح الأرض ليس إلا نوعا منها .

وقد استنتج نيوتن من قاعدة القصور الذاتى للمادة التى تستلزم كون حركة الجسم المطلق بالضرورة مستقيمة منتظمة أن السيارات التى ليست حركتها منتظمة ولا مستقيمة يجب أن تكون متأثرة بقوة خارجية .

وأثبت بالقانون الثانى أن القوّة الحافظة للسيارات فى أفلاكها لابد أن تتجه نحو الشمس ، واستنتج من القانون الأول أيضا أن القوة المذكورة تختلف شدتها فى نقط المدار الذى يجرى فيه السيار وأنها مناسبة لعكس مربعات أبعاد السيار عن بؤرة الجذب فكلما كان مربع البعد أكبر كانت القوة المذكورة أضعف ، وكلما كان المربع أقل كانت القوة أكبر ، وهذا ظاهر للمتعلمين صعب على من لم يمارس هذا الفن .

واستنتج نيوتن أيضا من القانون الثالث أن هذه القوى مناسبة لجميات الأجسام التى هى واقعة عليها . وقد لخص هذه القاعدة مما تقدّم فقال :

جميع أجزاء المادة ينجذب بعضها إلى بعض بقوّة مناسبة طردا لجمياتها وعكسا لمربعات أبعاد بعضها عن بعض وهكذا حركات التوابع حول السيارات وحركات ذوات الأذناب حول الشمس تجرى فيها هذه القوانين الثلاثة لكبلير وكذلك قانون الجذب العام .

إيضاح ماتقدم

يظهر لى أيها الذكى أن هذه القاعدة لم تظهر لك واضحة وأنا الآن أبينها لك فى الأمور المشاهدة فأقول :

خذ فلينة واقطعها قطعتين إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة وضعهما على الماء فإنك تراها تقتربان من بعضهما والكبيرة تجذب الصغيرة والصغيرة تجذب الكبيرة وكل منهما يجذب على مقدار جسمه لاغير ، هذا معنى قولنا إن الجذب مناسب للجميات ، وإذا بعدت إحداهما عن الأخرى بمقدار ذراعين ؛ فإن الجاذبية تكون أقل مما لو كان بينهما ذراع واحد بعكس المربع ، فمربع الواحد واحد ومربع الاثنين أربعة فتكون السرعة فى الجذب إذا كان بينهما ذراع بمقدارها إذا كان بينهما ذراعان أربع مرات ، ففى الاثنين تكون ربع ما إذا كانت بواحد وقس عليه ٢ و٣ يكون فى أولهما أكثر مما فى ثانيهما بنسبة ٩ إلى ٤ فالإسراع فى الأول ٩ وفى الثانى ٤ فكل منهما يعطى فى السرعة مربع الآخر فالاثنان لها مربع الثلاثة والثلاثة لها مربع الاثنين . فهذا معنى قولهم إنها تنجذب عكسا لمربعات أبعاد بعضها عن بعض ، فإذا عرفت هذا نقس عليه نظام الكواكب وجذب بعضها لبعض على هذا النمط وقد بينت لك هذا المقام بإيضاح ، فتعجب من هذه الجاذبية العامة أيها الفطن واعلم أن جميع الأجرام السماوية مرتبط بعضها ببعض بالجاذبية العامة .

[اللطيفة الثالثة] هناك جاذبية تسمى جاذبية الثقل وهى بعينها كالجاذبية العامة ، فإذا كان الجسم فى مركز الأرض فإنه لاثقل له لأنه مجذوب من سائر الجهات بالتساوى ، وإذا كان مرتفعا عن سطح الأرض نقص ثقله بابتعاده عن السطح المذكور كزيادة مربع بعده عن مركزها .

وبعد سطح الأرض عن المركز نحو ٤٠٠٠ ميل ، فإذا كان جسم يزن مائة رطل وهو على سطح الأرض ثم رفعناه فى طيارة عن وجه الأرض ألف ميل فإننا نقول نسبة ٥٠٠٠^{٢} كنسبة ١٠٠ رطل إلى ٦٤ ، وهو الجواب الآتى من قسمة ١٠٠ فى ٤٠٠٠^{٢} على ٥٠٠٠^{٢} وهو المطلوب فقد نقص الجسم بارتفاعه عن سطح الأرض ألف ميل وصار ٦٤ بعد أن كان مائة .

انظر أيها الفطن وتعجب لهذا النظام والاتفاق تعجب من الجاذبية اللاسلكية السائرة بنظام تام فيكون الجسم عند خط الاستواء أخف ، وعند القطبين أثقل لأن خط الاستواء بعيد عن المركز أكثر من القطبين لأن حركة الأرض هناك سريعة وبالعكس يكون القطبان ، فإن الأرض منبعجة عندهما ، فالجسم يكون أقرب إلى المركز والحركة هناك الطاردة ضعيفة عنها فى خط الاستواء وعليه تكون الأجسام فى مصر أثقل منها فى خط الاستواء وأخف منها فى القطبين لأن أرض مصر أبعد من القطبين عن المركز والحركة فيها أشد وعلى هذا قس .

[الطبقة الرابعة] إن سرعة الأجسام الساقطة إلى الأرض تكون بحساب ١٦ قدما مضروبة فى (١) للثانية الأولى وفى (٣) للثانية الثانية وفى (٥) للثالثة وفى (٧) للثالثة الرابعة ، وبعبارة أخرى ضرب ١٦ فى الأعداد الوترية ١ — ٣ — ٥ — ٧ — ٩ — ١١ — ١٣ — ١٥ وهكذا لكل ثانية على التوالى.

وإذا ضربنا عدد الثوانى مربعا فى ١٦ قدما كان ذلك هو البعد الذى سقطه الجسم، فالثانيتان يكون البعد فيهما ٤ فى ١٦ والثلاثة ٩ فى ١٦ والأربعة ١٦ فى ١٦ وبعبارة أخرى ١ و ٣ و ٥ و ٧ و ٩ و ١١ و ١٣ و ١٥ إذا ضرب كل منها فى ١٦ كان الحاصل هو الذى سقطه الحجر فى تلك الثانية ففى الأولى ١٦ فى ١ وفى الثانية ١٦ فى ٣ وفى الثالثة ١٦ فى ٥ وهكذا .

وإذا جمعنا الثلاثة كان هكذا: ٩ فى ١٦ وهو مساو (٥ + ١ + ٣) × ١٦ وهذا من أعجب العجب فى علم الطبيعة كيف يتصافح علم الارتماطيق وعلم الطبيعة كيف يجتمع العلمان وكيف تكون الأعداد الفردية المتلاحقة إذا جمعت كانت هى بعينها المربعات الزمنية وكيف يكون هذا قانونا عاما كيف يكون فى الثانية الرابعة سقوط الحجر يساوى ٧ × ١٦ وإذا ضم إلى ما قبله كان هكذا (٧ + ٥ + ٣ + ١) × ١٦ يساوى ٤ × ٤ × ١٦ فمربع ٤ هو عينه مساو لجمع المفردات الأربعة من ١ إلى سبعة . إن عجائب الحساب من الفرد والزوج ظهرت هنا فى سقوط الأحجار . عجائب الحساب وخواصه ظهرت فى قوانين نيوتن وكبلير وفى الأحجار الساقطة والجاذبية العامة أليس هذا بعينه هو قوله تعالى (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فما المناسبة بين الإتيان بمثقال حبة من خردل وبين كفاية الحساب فما دخل الحساب هنا ؟ أليس هذا هو السر فى مثقال حبة من خردل وأكبر منها وأصغر كل ذلك لا يأتى إلا بحساب هذا هو الحساب وهذا هو السر الذى حجب عن الجهال وكشفه الله للناس فى هذا الزمان ، ثم انظر كيف يقول الله (والشفع والوتر) أليس هذا هو سر الشفع والوتر هذا الشفع وهذا الوتر ظهر سرهما فى هذا العالم العجيب هنا ظهر سر الشفع والوتر فللوتر سلطان فى عدد الأقدام فى سقوط الثانية الواحدة وللشفع سلطان عند تربيع جميع الثوانى ، إن الطبيعة ممتزجة بالحساب امتزاجا تاما هذا هو من سر قوله تعالى (وكفى بنا حاسبين) وهذا هو سر قوله تعالى (إن الله سريع الحساب) وقوله (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا) أليس هذا هو سر القرآن كيف يقول الله تعالى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) وكيف يكون هذا العلم الذى ظهر بالعقول البشرية موافقا له ، فإن المادة كلها ليست إلا كهرباء ، والكهرباء تكاد تكون أمرا معنويا وكأنها حركات وتلك الحركات منها كانت الذرات بجواهرها والأجسام ، وبسرعتها ونظامها دامت موجودة ، فالله هو الممسك لها .

ههنا تبين لك أيها الذكى كيف كان هذا العالم نظاما واحدا أوّله يشبه آخره وكبيره يشبه صغيره والحيرة فى الحقير كالحيرة فى العظيم ، فانظر كيف كانت القمحة من الفضة فيما تقدم وأن جزءا صغيرا منها يقسم على ماء غزير فيلوّنه وأن هذا العدد من أجزائه يتعذر عدّه كما يتعذر عدّ نجوم السماء . فقد بهرنا العظيم وبهرنا الحقير ، كما أدهشنا نظام الكواكب فى قوانين نيوتن وكبلير ، أدهشنا سقوط الحجر بحساب بديع فهناك يقال إن المثلثات التى يرسمها الكوكب فى الأوقات المتساوية فى أزمان مختلفة تكون متكافئة المساحة ، وهنا يقال إن الحجر فى سقوطه يحسب تارة بالإفراد وتارة بمربع الأزواج .

إلى هنا انتهى الأمر الأول وهو تفسير قوله تعالى (إن الله لايخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء) وقد أتممنا الكلام على المبحثين مبحث ماهو أصغر من الذرة ومبحث ماهو أكبر من الذرة وفصلنا فى الأول عجائب الذرات وصغرها وخيوط العنكبوت ودقتها وفى الثانى عجائب الكواكب والسدم والأحجار الساقطة وقوانين السيارات فلنشرع فى الأمر الثانى .

الأمر الثانى

وهو تفسير قوله تعالى (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) قد قلنا إن الخاصة ينظرون فى علم الله عما يطالعون من عجائب الفلك والطبيعة والذرات البديعة وفى قدرته وهو ما أردنا فى هذه الآية . فالله هو الذى يصوّر الناس فى الأرحام ويحكم الخلق وذلك أنه غالب قاهر لهذه العوالم وقهره لها بحكمة لا بمجرد اللعب (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ولكنّ أكثرهم لايعلمون) وكيف يعرف الناس أن السموات والأرض وما بينهما مخلوقة بالحق والعدل والنظام إلا بهذه العلوم؟ وكيف يعقل الناس أن هذه العوالم سائرة بقصد إلا بالعلم؟ فانظر كيف يقول (ولكن أكثرهم لايعلمون) .

ومما يؤسف له ويحزننى أن يكون أكثر المسلمين هم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى (ولكنّ أكثرهم لايعلمون) فياليت شعرى من أين يعرف الناس قوله تعالى فى هذه السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ؟ كيف يعرفون أنه قائم بالقسط وأنه عزيز يغلب هذه الكائنات ويقهرها بعزه وجبروته؟ حكيم بدقة وإحكام ونظام ؟ كيف يعرفون ذلك إلا بمثل مابسطناه فى هذا المقام ؟ كيف ينام المسلمون عن هذه العلوم ؟ ياقوم إلى هذا دعا القرآن وبهذا أمر الله ، فيا أسفا على أمة هلكت وربوع خلت ومدن أقفرت ، فليرجع المسلمون إلى مجدهم فالله قد غضب على مجموعنا بسبب جهلنا والإفرنج هم المفكرون ولكنى أبشركم بأنه قد آن أوان ظهور ذلك المجد الباذخ (والله هو الولىّ الحميد) .

سلطان القدرة والمحبة العامة

هذه الآية قد أظهرت سلطان القدرة فى خلقة الجنين فى الرحم ومن هذا القبيل قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) هنا يقول الله إنه قال للسموات وقال للأرض لتأتيا طوعا أو كرها فأتتا طائعتين . ويقول فى آية أخرى (يابنىّ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) ، وقال فى آية أخرى (بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون) وفى أخرى (ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون) وقال فى أخرى (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) فهذه الآيات كلها داعية النظر فى هذا العالم ؛ فقد عبر مرة بالطاعة ومرة بالإمساك ومرة بالقنوت ومرة بالسجود ومرة بأنه يأتى بحبة الخردل من أى مكان .

فانظر أيها العالم وانظر أيها الحكيم وانظر أيها المسلم من أين تفهم أن حبة الخردل يأتى بها الله ومن أين نعرف أن من فى السموات والأرض يأتون الله طائعين لامكرهين ، وما السر فى هذا ولم عبر بالطاعة ولم يحمل

امثالها لله إكراها ؟. أقول لايفهم هذا المقام إلا بما سأوضحه لك فى هذه اللطائف : لطيفة الجاذبية ، ولطيفة الماء ، ولطيفة الثلج ، ولطيفة علم التشريح ، ولطيفة السمع ، ولطيفة البصر ، ولطائف الرحمة فى قلوب الوالدين ، ولطائف الحب فى أفئدة المعلمين والحكماء والعلماء والأنبياء ، ولطائف الشهوات الغريزية ؛ ومنها مافى آية (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين الخ) ولطائف خلق الآساد ونحوها . ولطائف الغرام بزرع الأشجار التى يكتسى بثمرها الإنسان وبذلك يخدم عوالم من الحيوان كما خدم النحل الإنسان (وكل له قانون) ثم لطائف الحب العام المرتب على ماتقدم ، وكيف السبيل إلى نشر العلوم والفضيلة بين الناس ، وإن ذلك لايكون إلا بالمحبة وعمومها فى أفئدة الناشئين تبعا للنظام العام ؟

اللطيفة الأولى : لطيفة الجاذبية العامة

لقد تبين لك فيما أسلفته لك الجاذبية العامة وكيف كانت لم تذر الكواكب فى أفلاكها ولا الأحجار فى مساقطها إلا سلطت عليها تلك الجاذبية فأنت ترى أن الكوكب السيار وهو يجرى حول الشمس منقادا لها متأثرا بها جار على نظام ؛ فإن بعد عنها فهو إليها ناظر يجرى على نهج معلوم ، وإن اقترب منها كان مسرعا أشد إسراع لطاعته لها فهذا هو قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) فالكواكب طائعات الشمس والشمس وما حولها طائعات كوكب آخر والحجر الساقط من أعلى إلى أسفل تراه يجرى طائعا ، فالجاذبية عبر عنها القرآن بالطاعة . هذا هو معنى القرآن وقوله (إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) ظاهر فيما مضى أن الذرات الصغيرة المسماة الكترونات تجرى بأدب وطاعة حول النواة التى تقدم ذكرها كما تجرى السيارات حول الشمس فهذه المخلوقات الصغيرة التى كانت فى الكهرباء التى هى أصل المادة يأتى بها الله والإتيان فيه معنى الحركة فتراها متحركة حول أصولها ؛ فالسموات طائعات والذرات طائعة يأتى بها الله على سبيل الطاعة ولولا أنها مطيعة ما كانت منتظمة لأن المطيع مؤدب ، والعاصى غير منتظم ، والأدب ظاهر فى قوانين كبلير ونيوتن فى جرى السيارات كما أوضحته لك وظاهر أيضا فى سقوط الأحجار وإلا فما هذا النظام

١٥	١٣	١١	٩	٧	٥	٣	١
٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢	٢
٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١

فالحجر الساقط كما أوضحته لك فيما مضى يجرى على هذين القانونين ؛ فالقانون الأول لجريه فى الثوانى ، فالثانية الأولى ١٦ قدما فى ١ والثانية ١٦ فى ٣ والثانية الثالثة ١٦ فى ٥ وهكذا الرابعة فى ٧ الخ .

وجميع ما قطعه الحجر يتضح فى الصف الثانى فيكون فى الثانية الأولى ١ فى ١٦ ، وفى الثانية الثانية $٢^٢$ فى ١٦ ، وفى الثانية الثالثة $٣^٢$ فى ١٦ ، وفى الرابعة $٤^٢$ فى ١٦ وهكذا .

أنا وإن كنت ذكرته لك سابقا أعدته هنا ليجرى الجدولان معا ويتضح معنى الطاعة فى قوله (أتينا طائعين) . أما الإتيان فبالحركة ، وأما الطاعة فبالنظام الذى تراه فى هذين الجدولين . بمثل هذا فليفهم القرآن وبمثل هذا فليرتق المسلمون .

هذه الطاعة أيضا ظاهرة فى الجسمين اللذين يلتقيان على سطح الماء من نوع واحد كالفلين ففيه عكس التربيع المتقدم ذكره ، ويظهر أيضا فى رقاصى الساعة اللذين قصر أحدهما وطال الآخر فإن بينهما نسبة كما هنا وكذلك ميزان القبان فالنظام تام فى هذه الكائنات من حيث طاعتها فهذه هى الطاعة ، فالجاذبية هى الطاعة (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) .

اللطيفة الثانية : لطيفة الماء

(١) إن الماء يعدل هواء البلاد فيقيها تعاقب الحر والبرد عليها تعاقبا فجائيا ، لأنه يمتص حرارة كثيرة

فى الصيف فيلطف حره ويلطف برد الشتاء ، وفى الربيع يذوب الثلج والجليد فيمتص ماؤهما حر الشمس فلا تخرج الأشجار براعمها سريعا ولا تتعرض لتقلبات البرد والحر .

إن الثلج والجليد لايذوبان إلا بحرارة شديدة ، وعلى ذلك لايذوبان إلا ببطء فى الربيع ، ولولا ذلك الناموس لكانت مياههما تطغى على الأرض فتجرف تربتها وتهلك المخلوقات الحية التى عليها ؛ إن الماء وضع بهيئة عجيبة حافظ لحالة الجو بنظام عجيب .

(٢) إن الماء فيه هواء ولذلك يعيش فيه السمك ولو خلا الماء من الهواء لكان يفرقع كثيرا كلما تجاوزت حرارته ٢١٢° ف أعنى درجة الغليان ، فكان الناس لايتجردون أن يغلوه فى وعاء إلا وهم مراقبون درجة حرارته بالترمومتر كما يراقبون الآن الآلات البخارية مخافة أن ينحصر بخاره فيشق القدر ويتلف ماحولها ، وإنما لوجود الهواء فيه كلما زادت حرارته عن ٢١٢° فارقه الزائد وتركه على درجة ٢١٢° ف .

ومن العجب أن الماء قد شذ عن بقية السوائل : إن السائل إذا برد جمد وهكذا الماء إذا وصل إلى درجة ٣٩° ف تقلص بالبرد ثم يأخذ فى التمدد بزيادة البرد حتى يصل إلى درجة ٣٢° ف فيجمد كجميع السوائل ومنها الماء تتمدد بالحرارة وتتقلص بالبرودة والماء وحده قد شذ عنها فى أنه إذا تقلص مثلها بالبرودة ثم ازدادت برودته تمدد ثانيا إلى حد محدود ، وانظر أيها الذكى لهذا الشذوذ العجيب شذوذ به حياة كل حى شذوذ عليه تتوقف حياتنا وحياة الحيوان والنبات ، أفليس ذلك داعيا للتفكر ؟ لم اختص الماء بأن الثلج الناجم من تقلصه يصير كبيرا مخالفا فى ذلك بقية السوائل؛ذلك أن الماء لو كان يجرى مجرى بقية الأجسام إذا برد لكان إذا برد سطحه تنزل دقائقه الباردة إلى قعره وتصعد دقائقه الأخرى من قعره إلى سطحه حتى تبرد كلها إلى درجة الجليد فتجمد معا ويصير الماء كله قطعة واحدة من الجليد فيقتل ما فيه من الحيوان والنبات ثم إذا جاء فصل الصيف وتعاظم حر الشمس يذوب وجه ذلك الجليد فقط فيصير ماء لكن ماتحته يبقى جليدا لأن الماء غير موصل للحرارة فيصد الشمس عما تحته ولا يمكنها من تذويبه ، وعلى ذلك يبقى الجليد فى البحار والبحيرات والأنهار وفى الأماكن الباردة طول الأيام .

فلهذا الشذوذ يتمدد بالبرد فيخف ويجمد ويعوم على الوجه ويبقى ماتحته من الجمود لأنه جليد وهو موصل ردىء للحرارة فتبقى حرارة الماء العميق تحته على درجة واحدة ، ولو اشتد البرد فلم يمت مافيه فلولا خفته وعومه لم تكن هذه المنافع .

(٣) إن الندى إذا تكون على النبات منعه من الإشعاع فلا تبرد أوراقه بردا شديدا ولاتصقع ، فالندى نافع لأنه يمنع الإشعاع ثم الماء يرتقى من البرد والبحر بخارا فيبرد الهواء ويرطبه صيفا ويعدل برده شتاء كأنه ميزان يزن الله به الحرارة ، والغيم المتكاثف منه يظلل الأرض من شعاع الشمس نهارا وينجيها من شر الإشعاع الزائد ليلا وينقى مطره الهواء ويحيى النبات أو ينزل ثلجا فيحتضن الأعشاب وبراعم الأشجار لتنجو من الموت وينبع عيونا تروى الغليل وينقى الأبدان ويحيى به الأرض بعد موتها (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

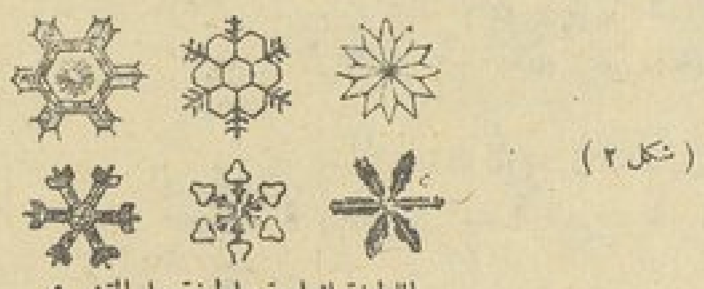
وبهذه الخاصية المخالفة لبقية السوائل إذا برد فصار ثلجا فى جرة كسرها وبهذه الطريقة يكسر الأحجار فى الجبال فتنبع العيون ، فانظر لهذه الخاصية كيف منعت ماء البحر من أن يكون ثلجا وشقت بها العيون فنبعت (فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا داخل فى قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) فالماء بخضوعه لتلك النواميس لطف الحرارة وشق العيون وجرى فى الأنهار وأحيا النبات والإنسان كل ذلك طاعة وتسخير ولله الأمر وهو كل شىء قدير .

اللطيفة الثالثة : الثلج وأشكاله

لقد رأيت فى كتب الطبيعة أشكال الثلج فحار لبى فيها وفكرت فى أمرها وعجبت من نظمها وأدهشنى

جمالها ونظامها ، لو أن خلقا كثيرا اجتمعوا فى قاعة صغيرة فى البلاد التى اشتد بردها وكان البرد شديدا وفتحت نافذة من نوافذ القاعة لجمد البخار فى هوائها ووقع ثلجا بأشكال تدهش الناظرين ولقد رأيت رسمها على ستة أشكال وكلها أشكال مسدسة ، فهما اختلفت الأشكال فالتسديس ثابت فتارة تكون بهيئة أشجار منظمة بديعة وتارة بهيئة أزهار فى غاية الجمال (فتبارك الله أحسن الخالقين) ؛ ولما رأيتها قلت فى نفسى لم كان هذا النظام لا يختلف فى الثلج وهل كان الأكسوجين والأدروجين عند امتزاجهما قد تحالفا أن يكون وقت الجمود على هيئة منظمة ولعل الماء لما كان فيه حياة كل شىء كان مستعدا للنظام التام كما نرى فى الحيوان والنبات أنهما مشتركات فى أمور مختلفات فى أخرى حافظات للأصول كالتغذية والتوالد مختلفات فى غيرها كالحواس والعقل وهكذا فكذلك هنا نرى الأشكال فى الثلج تحفظ الشكل السداسى مهما اختلفت أوضاعها وكأن هذا يرمز له قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شىء حى) والحياة لاتكون إلا مع النظام وهذا داخل فى قوله تعالى (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) فبهذا اللطف والخبرة نظم الثلج وأحكمه ، ولقد أتى الله بذرات الماء وحكم عليها فخضعت للنظام وأطاعت واجتمعت بشكل يسر الناظرين كما خضع الحجر الساقط للقوانين السابقة فى التربيع فى الأعداد الفردية ، وكما خضعت السيارات لقوانين كبلير ونيوتن ، وأى فرق بين خضوع ذرات الماء فى ذلك الشكل للنظم وبين خضوع (الألكترونات) المتقدم شرحها حول نواتها فى الجوهر الفرد والسيارات فى مداراتها والأحجار فى مساقطها كل يطيع على مقتضى القوانين السماوية وقوانين السقوط وقوانين الثلج وتجمده (ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ـ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم) .

انظر صور الثلج فى الشكل الثانى وهو هذا :



(شكل ٢)

اللطيفة الرابعة : لطيفة علم التشريح

التى وردت بها هذه الآية التى نحن بصدد الكلام عليها يقول الله تعالى (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

إن الله جعل جسم الإنسان كدينة ، فابتدع لها أربع طبائع منفردات ثم ألف بين كل اثنين منها فكانت أربع أركان مزدوجات ثم كان منها أربعة أخلاط سببت تسعة جواهر وبتركيبها بعضها فوق بعض كانت عشر طبقات أقيمت على مائتين وثمانية وأربعين عمودا ثم مد لها سبعمائة وخمسين حبلا وجعل فيها إحدى عشرة خزانة مملوءة من الجواهر وجعل لها ثلثمائة وستين مسلكا لسكانها وجعل أنهارها ثلثمائة وتسعين جدولا وفتح على سورها اثنى عشر روزنا مزدوجات مسالك لجريانها وجعل لها خمسة حراس وجعلها على عمودين فهذه ثلاثة عشر نوعا :

الطبائع . الأركان . الأخلاط . الجواهر . الطبقات . الأعمدة . الحبال . الخزائن . المسالك . الأنهار . الأبواب . الحراس . العمودان .

(١) الطبائع أربع : الحرارة . البرودة . الرطوبة . اليبوسة .

(٢) الأركان على رأى القدماء أربعة : النار . الهواء . الماء . الأرض . والعلم الآن جعل هذه الأربعة مركبات من عناصر تبلغ نحو ٧٥ ولكن نتيجة العلم واحدة لأن المتقدّمين والمتأخرين يرجعون الجميع إلى أصل واحد وهو الهيولى ، وبعبارة أخرى شئ لاوزن له ولا لون بل يكاد يكون فرضيا .

(٣) الأخلاط الأربعة المتعادية وهى : الصفراء . والدم . والبلغم . والسوداء . والمتأخرون زادوا غير ذلك ولكن نحن الآن فى مقام الإجمال لا التفصيل إنما ذلك يهم الأطباء ونحن فى مقام الإلمام بالأمور العامة .

(٤) الجواهر تسعة : عظم . مخ . عصب . عرق . دم . لحم . جلد . ظفر . شعر .

(٥) الطبقات عشر : رأس . رقبة . صدر . بطن . جوف . حقو . وركان . فخذان . ساقان . قدمان

(٦) الأعمدة : ٢٤٨ هى العظام .

(٧) الحبال : ٧٥٠ حبلا هى الرباطات الممتدة المشدودة على العظام وهى الأعصاب .

(٨) الخزائن الإحدى عشرة هى : الدماغ . والنخاع . والرئة . والقلب . والكبد . والطحال . والمرارة . والمعدة . والأمعاء . والكليتان . والأنثيان .

(٩) والمسالك والشوارع والطرقات هى العروق الضوارب ٣٦٠ .

(١٠) وأنهارها هى الأوردة ٣٩٠ .

(١١) والأبواب الاثنا عشر : العينان . الأذنان . المنخران . السبيلان . الثديان . الفم . السرة .

(١٢) الحراس هى الحواس الخمس : السمع . والبصر . والشم . والذوق . واللمس .

(١٣) العمودان هما الرجلان .

وليس فى تعداد هذه إلا إجمال القول فى الجسم أما التفصيل فبعيد الغور ، فلنقتصر على حاسة السمع وحاسة البصر للاستدلال بهما على الباقى .

اللطيفة الخامسة : لطيفة السمع وهى الأذن

كما أنك فيما مضى حار فكرك فى العنكبوت مع دقة جسمه وضموره وحار فى الكواكب السابحة فى الفضاء بحيث لاترى فرق فى الحيرة بين العظيم والصغير هكذا هنا رأيت الجسم الإنسانى مركبا من أعضاء وحواس وعروق الخ وترى حاسة السمع وحدها لاتقل عن جسم الإنسان بل عن العالم كله فى عجائب تركيبها وكثرة تفاصيلها وبدائع دقتها وأنظمتها الدقيقة البديعة ؛ فتأمل تجد أنك الآن أمام مدينتين وبحر , المدينة الأولى خالية من السكان متوسّطة البنيان دائرية السور ليس فيها إلا الهواء يغدو ويروح ثم ترد عليها الرسل أفواجا كل آن بأشكال مختلفة يريدون أن يتوصلوا إلى الملك المعظم الذى هو جالس خلف ذلك النهر على عرشه العظيم وتلى هذه المدينة المدينة الثانية وفيها ثلاث أماكن للبريد كل منها يوصل للآخر مايرد له من الرسائل ويلى هذه المدينة النهر وهو أهم من السابقتين فلو رأيته لأدهشك مافيه من العجب فإنك تراه نهرا عظيما متلاطم الأمواج ، وهذا النهر ليس كالأنهار يجرى على شبه استقامة بل هو ملتو ثلاث ليات كما تلتوى الحيات من ناحية ومن الناحية الأخرى ملتف كما تلتف القوقعة . وبالجملة إن هذا النهر كثير الانعطاف ليس فيه استقامة وتجد فى مائه كرات كثيرة من الحجارة وآلات برقية (تلغرافية) تبلغ ثلاثة آلاف منبثة فى الجهة التى تشبه القوقعة ، وعلى شواطئ البحر تجد أسلاكا أخرى برقية (تلغرافية) ووراء هذا البحر الملك وعنده أصحاب البريد ينبثون جهة الأسلاك البرقية التى على الشاطئ وجهة الأسلاك التى فى البحر وترى أولئك الرسل الذين يأتون المدينة الأولى يرسلون الأخبار الخارجية إلى المحطة الأولى فى المدينة الثانية ومنها إلى الثانية ومن الثانية إلى الثالثة ، ثم تنقل الأخبار إلى البحر خلفهما فتنتقل فى تلك الأسلاك التى هى ثلاثة آلاف بعد مرورها على تلك الكرات الحجرية النافعة لحفظها، وتتلقفها رسل الملك المنبثون فى تلك الجهات وبذلك يعرف أخبار الممالك الأخرى هذه هى أوصاف الأذن .

أما المدينة الأولى فهى التى يسمونها الأذن الظاهرة بالمؤلفة من الصوان الذى يجمع أمواج الصوت ومن الصماخ السمعى الظاهر وهو خرق الأذن الذى يؤدى تلك الأمواج إلى الأذن المتوسطة وطوله نحو قيراط؛ وأما الأمواج التى ترد عليها فهى الحروف الهجائية ومركباتها وأصوات الغناء والألحان وكل مايسمع وهذه لاحصر لعدها.

وأما المدينة الثانية فهى الأذن المتوسطة أو الطبلة وهى تجويف بين الأذن الظاهرة والباطنة وتنفصل عن الظاهرة بالغشاء الطبلى ، وأما الأماكن الثلاثة التى للبريد فهى ثلاث عظمات دقيقة يتصل بعضها ببعض تسمى إحداها المطرقة ، والثانية بالسندال ، والثالثة بالركاب للمشابهات بينها وبين هذه الثلاثة .

وأما البحر العظيم وراءها فهو المسمى بالأذن الداخلة أو التيه وهى عضو السمع الخاص وإنما سميت بالتيه لكثرة مافيها من التجاويف والعجائب ، وفيها سائل فيه خيوط دقيقة مرنة شعرية وكتل متبلورة وفيه ثلاثة آلاف جسم صغير تسمى عصى (كورتى) فهذه العصى هى آلات البرق المذكورة فيما تقدم ، فإذا قرع الأذن الظاهرة صوت اتجهت أمواجه إلى الأذن المتوسطة بسبب حفظ الصيوان للصوت فيقع على الغشاء الطبلى فتهتز العظمات الثلاث فى الأذن المتوسطة وينتقل إلى السائل ويصادف تلك الكرات الدقيقة التى سميناها حجارة فيما مضى وإذ ذاك يتلقف كل سلك من الأسلاك المسماة عصى (كورتى) التى تبلغ ثلاثة آلاف خبرا من الأخبار وصوتا من الأصوات بحيث يكون مناسبا له فإن المسموعات كثيرة جدا من حيوان وشجر وحجر توزع على تلك الثلاثة الآلاف بحيث يمر كل صوت فى السلك المناسب له وكأن هذه الثلاثة الآلاف مختلفات القوى كاختلاف الأصوات وكل صوت يتجه للسلك المناسب له ثم هذه تتصل بالشعرات التى فى تلك القنوات التى عبرنا عنها بأسلاك برقية أيضا ، وهناك يمتد العصب السمعى واصلا من المخ فيلتقط تلك الأخبار ويوصلها للمخ الذى عبرنا عنه بالملك فى عرشه .

هذه هى حال السمع قد أوضحتها لك بما فى الإمكان ، وهذا يكفيك إذا لم تجد متسعا للدراسة العلمية (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

فانظر كيف جعل لأجل وصول الصوت بالكلام وبالنغمات وغيرها عجائب تبلغ ١٤ عجبا من صيوان وصماخ وطبلة وثلاث عظمات ودهليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية وسائل ورملات حافظات للصوت وعصى كورتى وشعرات فى القوقعة وغيرها وأعصاب سمعية فهذه أربعة عشر كأنها ليالى الهلال ليصير فيها بدرا كاملا .

ينتقل الصوت فيها حتى يصل إلى المخ فتعجب من الجسم الذى تسكنه كيف كان الهواء يحتاج إلى آلات ماظهر لنا منها (١٤) مختلفات الصور والأشكال بحيل دقيقة ليصل الخبر إلى نفوسنا إذ لاسمع إلا حيث يصل الصوت إلى المخ ، وانظر كيف نستعمل مانجهل ولا أبالغ إذا قلت إن أكبر عالم بالطبيعة غافل عن هذه العجائب إلا من علت مداركه وارتقت نفسه وفكر واعتبر وقرأ هذه الآية مثلا وعرفها (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) فالتصوير قد عرفته فى الأذن ، وأما قوله (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فالعزة والقهر قد ظهر فى التصوير فانه نوع أعضاء الأذن (١٤) نوعا فقدقهرها وذللها لذلك، وقوله حكيم راجع للمشيئة؛ فالعزة للتصوير والحكمة للمشيئة ، فكأنه يقول سبحانه إن تصويرى لكم فى الرحم لم يكن عن هوى ولكنه عن حكمة وعناية أوجبت دقائق الصنع .

والحق أن هذا الإبداع غفل عنه أكثر المسلمين وهم نائمون وترى أبناءهم الذين قرءوا هذا يحفظونه لأجل نيل الشهادة أما قراءته لأجل الحكمة وارتقاء العقل فلا بل منهم من كفر إذ يظن المسكين أنه أعلم من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد اطلع على ماجهلوه وأدرك مالم يبلغوه والحق ماقاله الإمام الغزالى إننا أعلم بالطبيعة من أولئك الذين يدعون أنهم طبيعيون ، بل أقول أنا إن أهل زماننا كثير منهم أهل مكابرة وادعاء ، وقد آن أن يرجع المسلمون لأيام مجدهم (والله هو الولى الحميد) وهاك إيضاح الأذن .

أما الأذن الظاهرة فهي مشاهدة ، وأما الأذن المتوسطة أو الطبلة فقد وضحت فيا قدّمناه بالتمثيل ، فأما الأذن الداخلة وتسمى التيه فتحتاج إلى المشاهدة ، وهاك رسمها :



(شكل ٣)

ا ب ج القنوات الهلالية الثلاث . الدهليز هـ القوقعة ملفوفة لفتين ونصف لفة ، والكوّة المستديرة ز الكوّة البيضية .

اللطيفة السادسة : العين

تصوّر ثلاثة أطباق مستديرات أمامك على مائدة وهذه الأطباق كل منها أشبه بنصف كرة أقل أو أكثر ، ثم تصوّر أن كلا من هذه الثلاثة قد وضعت عليها أغطية مستديرة أيضا مجوّفة وهذه الأطباق الثلاثة موضوعة فى داخل بعضها فماذا ترى ألست ترى أن عندك كرة فى داخلها فراغ، وفوق الفراغ ثلاثة أغشية وتحته كذلك ، فإذا وضعت فوق هذه الأغطية الثلاثة منديلا أبيض مثلا صارت الطبقات سبعة ، فإذا وضعت فى جوف هذه الأطباق مادة رقيقة شفافة لا لون لها فكان أسفلها كالزجاج الذائب ووسطها جامد كالجليد وأعلاها كبياض البيض السائل إذا فعلت ذلك فى هذه الأطباق فقد صوّرت طبقات العين وعرفتها .

وليست عين الإنسان شيئا غير هذه الطبقات السبع والرطوبات الثلاث فمتى تصوّرت ماتلوته عليك من هذا المثل تصوّرت العين ، وإنما ضربت لك هذا المثل لتفهم ماسيرد عليك بسهولة فقد تقدم أن الدماغ منشأ الأعصاب التى للحس والتى للحركة ومنها مايكون من النخاع ؛ وهناك فى الدماغ للقوة الباصرة عصبتان متقابلتا الشكل هكذا :

(شكل ٤)

فإحداهما تتجه جهة اليمين والأخرى تتجه جهة اليسار وتصل كل منهما إلى العين التى فى جهتها ، وهذه العصبة مجوفة وعليها غشاءان غشاء أعلى غليظ وغشاء أسفل رقيق كما يكون للبيضة وللجوزة ولسلك الكهرباء وهذه قاعدة مطردة أن كل ما كان لطيفا يجعل له أغشية قليلة أو كثيرة ، فالغشاء الغليظ متى وصلت العصبة إلى العين فارقها وكسا عظم العين بلباس ويسمى إذ ذاك الطبقة الصلبة ولكنه لايكون تام التكوير كما قدّمنا وهكذا يفارق العصبة الغشاء الرقيق ويصير لباسا وغشاء دون الطبقة الصلبة وتسمى الطبقة المشيمية لأنها تشبه المشيمة ، وأما العصبة نفسها فإنها تصير غشاء فوق الغشاءين المذكورين ويسمى الغشاء الشبكى أفلا ترى أن هذه الثلاثة أى الصلبة والمشيمية والشبكية هى التى ضربت لها فيا تقدّم مثل الأطباق الثلاثة التى هى مدوّرة فإذا فكرت فى الأغطية الثلاثة فوق هذه الثلاثة فلتسمّ غطاء الصلبة وهى الأولى (القرنية) وهى جسم

كثيف صاف شبيه بصفيحة رقيقة من قرن أبيض ، ولتسم الجسم الذى تحت القرنية (بالعنبية) لأنه مثل قشر العنبة أسود أو أزرق أو نحو ذلك ، وإنما كانت ملونة لتحصن الأجسام المشفة من ورائها فلا ينتشر ماحصل فيها من الضوء والصور المنطبعة لأن سواد اللون يمنع انتشار الضوء . إن الضوء يدخل من ثقب فى العنبية فيتضايق ويتسع بحسب كثرة الضوء وقلته فكلما قل الضوء اتسع الثقب وكلما كثر الضوء ضاق الثقب . فهذه العنبية غطاء للشيمية ، ولتسمّ الغطاء الذى على الشبكية الذى هو تحت الغطاءين الآخرين بالعنكبوتى لأنه كخيوط نسج العنكبوت ولم يكن للإدراك بل لضبط السوائل التى تحته فهاهنا ست طبقات : القرنية . العنبية . العنكبوتية . الشبكية . المشيمية . الصلبة ، فرجعت الطبقات الست إلى الأطباق الثلاثة وأغطيتها ، والطبقة السابعة جسم أبيض اللون صلب يسمى الملتحمة وهو بياض العين وهو امتداد من الجلد الذى هو خارج القحف فهو قد امتدّ إلى العين من جميع الجهات التى من خارج إلى قرب الوسط ، ثم إنه لما لم يكن شفافا لم يمتد على بقية العين ، ولو امتدّ لمنع الإبصار فاستعمل منه مقدار مايكفى فى إحكام رباط العين ، وترك موضع الإبصار مكشوفا ليصل الضوء إلى آلات الإبصار من الطبقات والرطوبات . أما الرطوبات فهى ثلاثة :

(١) أولا جسم كالزجاج الذائب الذى هو وسط الشبكية ويسمونها (الجسم الزجاجى) .

(٢) ويسمون الجسم الشفاف الذى لا لون له الصلب القوام المستدير الشكل المائل للتفرطح كأنه قطعة من الجمد (بالرطوبة الجليدية) وتسمى أيضا (العدسية) وإنما سميت جليدية لأنها شبيهة بالجليد فى صفائه ؛ ثم إن الزجاجية تحيط بالجليدية بمقدار النصف ويعلو النصف الآخر العنكبوتية المتقدّمة .

(٣) ويسمون الجسم الثالث وهو السائل الأبيض الذى يشبه بياض البيض ، وهو أرقّ من الأول الذى يشبه الزجاج الذائب (بالرطوبة البيضية) وهى التى يعلوها العنبية المتقدّمة أى الغطاء الثانى فى مثال الأطباق فكان جوف الطبق الداخلى فيه لبن يعوم فيه زبد قد غرق إلى نصفه وفوقه بياض البيض .

فانظر كيف كان العصب الممتدّ إلى العين قد صار كأسلاك البرق (التلغراف) لينقل الأخبار الواردة إلى الجليدية فوقه فترسم فيها الصور وهو ينقلها مارة فيه إلى الدماغ ، وكيف كان ماتحت الشبكية من الصلبة والمشيمية يأتيان بالغذاء للعين من الأوعيـــة الشعرية الوريدية والشريانية ، فلذلك عبرنا بالأطباق التى يتعاطى منها بالطعام .

فالعين إذن تستمدّ من العروق الوريدية والشريانية تلك المادة الصافية الزجاجية الشفافة المناسبة للإبصار وضوء الشمس ، وقد وضعت تلك المادة على ثلاث درجات مقدّرة فى البعد والقرب بمقادير لو اختلت لاختل الإبصار ، وكانت القرنية محدّبة والرطوبة البيضية فيها تماسك ما والجليدية مفرطحة فيها صلابة والزجاجية وراءها مائلة للسكان لتوافق ارتسام الصور الواردة مع الضوء ؛ فالتحدب يجمع الصور والجسم الثخين يزيد الصور ثبوتا وبقاء ، وكما تستمدّ العين الغذاء من العروق تستمدّ الإحساس من الدماغ ، فلها من الغذاء المواد الزجاجية الخالصة من الدم الوارد من الطعام المهضوم ، ولها من الدماغ الإحساس الروحى الشريف ، فانظر ما أعجب العلم والحكمة ! وما أجهلنا كيف عرفنا فى العين من العلم ما لم يحلم به الغافلون ؟ وكيف نرى أن طعامنا الذى نتعاطاه قد كانت فيه المادة التى تشبه الزجاج الذى هو مركب من الرمل مع المغنيسيا والقلى . فهذان الأخيران متى أضيفا إلى الرمل صار شـــفافا فكيف (١) جعلت القوى التى فى أجسامنا لها آلات لانعرفها خلصت من الطعام المهضوم أى من الدم تلك المادة المشبهة للزجاج (٢) ثم اختير موضع العين فى الحجاج (٣) ثم كيف كانت العين التى دبرت هذا التدبير موضوعة أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء الشريفة التى غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره (٤) وأيضا عمل الأعضاء الخارجة كاليدين والرجلين من الأمام فتكون العين مشاهدة لأعمالها ، ولعمرى إن من لم تطربه هذه الكلمات ، ولم تشرح صدره تلك العبارات

ليلتحق بالعجماوات ، ومن لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج يحتاج إلى العلاج .

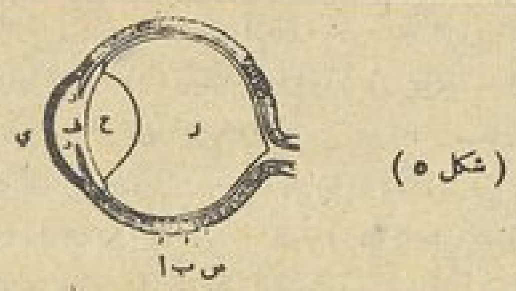
(٥) ثم كيف جمدت الجليدية لتزيد النور انحصارا (٦) وليكون الجمود أعون على حفظ الصور فتصل إلى الشبكية المتصلة بالدماغ (٧) وكيف كان الجسم البيضى أمامها والزجاجى وراءها ليكونا لها غذاء لأنها لاتتهيأ لها قبول الغذاء من الدم (٨) وكيف يكونان سببا لاستضاءتها (٩) ولتكون هى بهما دائمة الرطوبة (١٠) وليكونا ردءا لها فلا تتصل بمحجر العين ولاغيره من كل صلب (١١) وجعلت شعبة الدماغ المتقدّمة شبكية لتضبط الزجاجية حتى لاتكون سائلة (١٢) ولتتمكن المشيمية من تغذيتها أمامها (١٣) وجعلت البيضية أرق قواما لتكون أعون على تأدية المبصرات (١٤) والعنكبوتية جعلت لحفظ الرطوبة البيضية (١٥) وألوان العنبية لتحفظ الصورة المرسومة فلا تذهب وتضيع (١٦) والثقب يضيق ويتسع بالاختيار كما تقدّم (١٧) وجعلت القرنية جسما صلبا لتحفظ العين كلها وهى تتلوّن بلون العنبية (١٨) وجعلت مشفة لئلا تستر الثقب المؤدى للصور من الأضواء الخارجية (١٩) وللملتحمة رباط يمسك العين أن تزول إذ لاممسك لها سواها (٢٠) وهى غير شفافة فلذلك امتدّت حولها من جميع جهاتها إلا الثقب لأنها تمنع الصور عنه بخلاف القرنية (٢١) والجفن ممتد من الجلد وله عضلتان من جهة الموقين لينزلاه إلى أسفل (٢٢) وعضلة من جهة وسطه لرفعها (٢٣) وجعل الأسفل أصغر لئلا يستر شيئا من الحدقة وهو ساكن دائما (٢٤) ولئلا يجتمع الدمع وغيره من الفضلات داخله إذا كان كبيرا (٢٥) والجفن يمنع الأذى عن العين والغبار والدخان والضوء عند الإقفال (٢٦) والأهداب تمنع الغبار وتدخل الضوء عند الحاجة إليه كما فى أوقات هبوب الرياح فهذه ٢٦ حكمة من حكم العين وهى بعض ماظهر للناس من العلم فيها والله يعلم ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ، انظر رسم العين وطبقاتها فى شكل ٥ الآتى .

موازنة العين بالخزانة المظلمة التى يستعملها المصوّر بالصور الشمسية (الفوتوغرافية)

اعلم أن النور يأتى من الشمس والكواكب فيقع على الأجسام التى تنعكس على العين ، ولقد ترى أن الراسمين فى أيديهم الخزانة المظلمة وفى بابها ثقب وراءه عدسية ، وهناك لوح قابل للصورة على كيفية مخصوصة والعين هى كنفس تلك الخزانة وبؤبؤها أى ثقبها بمنزلة الثقب وبلوريتها بمنزلة العدسية ، وشبكيتها بمنزلة ذلك اللوح الذى تلقى الصور عليه باستعداده لذلك بمواد كيمائية ، ثم إن النور إذا مرّ من وسط ألطف إلى وسط أكثف فإنه يكون أقرب إلى اجتماع أشعته ، وإذا مرّ من وسط أكثف إلى وسط ألطف يكون أقرب إلى الافتراق والتباعد ، وإذا مرّ من عدسية محدّبة الوجهين كالحارة أو محدّبة وجه واحد كالأنف الأقنى أو هلالية أى صورتها كصورة الهلال فإن النور ينضم بدخوله فيها وإن دخل من مزدوجة التقعير التى ترى كالقوام الأهيف أو من مفردة التقعير بأن كانت مستوية من ناحية مقعرة من أخرى أو من مقعرة محدّبة فإن النور فى هذه الثلاثة يكون مفرقا متفرجا فهذه أربعة نواميس ناموسان للاجتماع ، وناموسان للافتراق فلننظر ماذا حصل فى العين فانا نرى أن القرنية أشبه بالهلال وهو مما يجمع النور والرطوبة المائية أكثف من الهواء والبلورية محدّبة الوجهين جامعة للنور والزجاجية جامعة أيضا ، فانظر كيف اختير فى خلق العين مايهيئها للإبصار ، فالقرنية والرطوبة المائية والبلورية والرطوبة الزجاجية انطبق عليها ناموس اجتماع النور ، اثنان من حيث الزجاجات وهى الهلالية والعدسية محدّبة الوجهين واثنان من حيث إنهما جسم أكثف .

فإذا دخل النور انكسر أولا فى القرنية ثم فى الرطوبة المائية ثم فى البلورية كثيرا ثم فى الزجاجية ويقع على الطبقة الشبكية فترسم الصورة عليها مقلوبة ولم يعرف إلى الآن لماذا نرى الأشياء معتدلة .

وهناك ناموس آخر وهو أن السواد جامع للضوء يمتصه فلوّنت المشيمية به فهى تمتص النور لئلا يشوّش الصورة بانعكاسه من جهة إلى جهة داخل العين .



(شكل ٥)

فما عبرنا عنه بالأطباق الثلاثة المستديرة فى المثال المتقدم هو الصلبة ا والمشيمية ب والشبكية س وما عبرنا عنه بالأغطية الثلاثة هو القرنية ى والقزحية د د ولونها إما أسود وإما أزرق وإما أشهل ، فأما العنكبوتية فلم توجد فى هذا الرسم واضحة فهى ملتصقة بالقزحية والفتحة د د هى البؤبؤ .

وأما الملتحمة فهى التى تكون فوق القرنية وليس لها فى الرسم وجود هنا ، وأما الرطوبة المائية وهى السائل الصافى فهو موضوع فى غرفة ف ، وأما البلورية أو العدسية وهى الجسم اللدن الأملس الشفاف المزدوج التحديب المؤلف من طبقات كالبصلة وهى أكثف فى الوسط منها فى الجوانب فهى ح ، وأما السائل الزجاجى فهو جسم شفاف لزج كبياض البيض النىء وهو يشغل ما بقى من الخلاء وراء البلورية داخل العين د .

من عجائب العين إحكامها

اعلم أن العدسية المزدوجة التى تشبه البلورية فى العين كلما قرب الشبح منها بعدت بؤرتها أى محل تجمع النور المنعكس وراءها فبعدت الصورة وكلما بعد عنها قربت صورته منها .

وعلى هذه القاعدة لايمكن أن يرسم الصور الأجسام فى خزانته المظلمة إلا على بعد مخصوص لو تركه لاختل ولكن فى العين رأينا عجبا رأينا أن الإنسان منا يرى الشبح وهو بعيد عنه كما يراه وهو قريب منه لماذا هذا ؟ لأن الإنسان أعطى كما أعطى الحيوان قدرة على تشكيل البلورية فيزيد تحدب العين فى النظر إلى البعيد ويقلله فى النظر إلى القريب بحيث تقع الصورة على الشبكية تماما .

ألا ترى أنك إذا أدمت النظر إلى شبح قريب ثم حولته بغتة إلى شبح بعيد رأيته أولا غير جلى ثم ينجلى بعد قليل فى مدة يمكن الرائى فيها أن يحكم عينه ويجعل بؤرتها مطابقة لذلك البعد وهذا لن يكون فى الخزانة المظلمة التى زجاجتها جامدة لاتحويل لها عن صورتها . فتعجب من الحكمة والنظام .

نواميس النور والسواد والقدرة على تنويع البلورية والبعد المخصوص الذى وضعت فيه الشبكية بحيث تقع الصورة عليها ، ولو اختل شرط من هذه لكان الناس والحيوان عميا (إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

لطيفة فى عجائب العين

مما يجمل ذكره فى هذا المقام ما جاء فى كتاب مسرات الحياة للورد افبرى الانجليزى الذى نقلنا عنه سابقا قال فى فصل كتبه فى الصحة :

إن فى الجسم الإنسانى أكثر من مائتى عظم ولكل منها شكل مخصوص بها ، ولولا حسن صنعها لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل يوم (يقول مؤلف هذا التفسير ، وسيرد عليك قريبا هندسة الأعضاء وقياسها العجيب منقولا عن آبائنا حكماء الإسلام) ثم قال : وفيه (٥٠٠) عضلة كل منها تتغذى بمئات الأوردة والعروق تدبرها أعصاب كثيرة والقلب وهو بين هذه العضلات ينبض فى السنة ثلاثين مليون مرة ، فإذا توقف عن الخفقان قضى الأمر وانقطعت الحياة ، ولو تأملنا فى أدوات الحس كالعين مثلا بما فيها من قرنية وعدسية وطبقات مائية وزجاجية تنتهى فى الشبكية لتولانا العجب ، فإن هذه الشبكية التى لا تزيد عن ثخن الورقة تتألف من تسع

طبقات مختلفة أبعدها يتألف من نحو ثلاث ملايين مخروط ونحو ثلاث مليون أسطوانة ، وأعجب من هذا كله الدماغ فقد حسب أحد الفسيولوجيين أن المادة السنجابية التي في تلافيف الدماغ نحو ستمائة مليون خلية تتألف كل منها من ألوف من الدقائق الظاهرة وكل دقيقة تتكون من ملايين الجواهر ، وقد قال بعد ذلك : لقد نحيا السنين الطوال ، ولا نكاد نشعر أن لنا جسما اه .

مسارح الفكر

فانظر أيها الذكي الفطن وتأمل كيف يقول الله تعالى في هذا المقام (هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) انظر كيف وضع البلورية والرطوبة المائية والزجاجية والقرنية والشبكية والمشيمية والقزحية وكيف جعلها ملائمة لنواميس النور الذي لم يشاهده الجنين ولا نزال في الظلمات . تأمل أيها الذكي وغض النظر عن كتب الديانات وعن آراء الفلاسفة وتأمل باستقلال في نفسك ولا تقلدني ولا تقلد أحدا بل حكم عقلك ، فهل المادة التي هي مكوّنة من ذرات جارية أجزاؤها بعضها على بعض بسرعة مختلفة القدر هي التي كانت تدبر هذه الحكمة ؟ وهل هي التي كانت قارئة نواميس النور وأحواله فوضعت في الجنين تلك الحدقة ملائمة للنور الذي لم يصل له الطفل بعد فتكون قد لاحظت ذلك كله وخافت أن لا تقع الصورة على الشبكية فوضعتها قريبة منها وحافظت على الصورة بالسواد وأخذت تنتق الأشكال الملائمة للأبصار . انظر بعقلك فالفكر هو المسيطر الأكبر في هذا العالم .

على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم

هذه هي الحياة ، وهذه هي السعادة ، وكأننا ونحن نقرأ هنا ننظر في أصول الحكم العالية والنواميس الشريفة الراقية .

فياليت شعري أمواج النور تجري من الكواكب سارية إلى الأرض كيف كانت هي أهم ماينتفع الناس به لولا أنوار الشمس وحرارتها ماعاش حيوان ولا نبات ، فالحرارة الشمسية تذيب الجليد وبها تجري الأنهار وبها الحياة ، ثم ضوؤها جعلت العيون مناسبة له مناسبة تامة فأبصر بها الحشرات وسائر الحيوان والإنسان (إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

واعلم أن النور ينفذ في كل شفاف ولو اختلفت مصادره ، وأما أشعة الحرارة فلا تنفذ في كل جسم شفاف إذا اختلفت مصادرها . إن حرارة الشمس تنفذ في كل الأجسام الشفافة كالنور ، وأما الحرارة المنعكسة عن جسم في الأرض فإنها لاتنفذ في بعض الأجسام الشفافة .

وترى أن حرارة الشمس تنفذ في الهواء والبخار المائي الذي فيه وزجاج النوافذ ، ثم تمصها الأرض وما عليها وتشعها أمواجا مظلمة طويلة بطيئة ، وعلى ذلك لاتستطيع أن تخترق بخار الماء في الهواء بل تحبس فيه لتدفأ بها المخلوقات الأرضية .

فكيف نفذت الحرارة من البخار ثم وقعت على الأرض وبقيت مخزونة بين البخار والأرض وأصبح البخار كالباب يفتح لحرارة الشمس ثم يقفل عليها لتنفع المخلوقات ؟. وياليت شعري لقد وجدنا فيما كتبناه هنا حكما عالية وتدبيرا متقنا ضوء ينفذ وحرارة تخزن وماء في الهواء صار بخارا وضوء يجري فتبصر به العين التي جمعت حكما لا تحصى فهل ذلك كله كان بتدبير تلك الذرات التي لاتملك إلا حركات فهل تلك الحركات كانت تدرس كل هذه النظم ، على العاقل أن يفكر ويتبصر (إن الله عليم حكيم) .

اللطيفة السابعة : الرحمة في قلوب الوالدين

قد ذكرنا فيما مضى أن ناموس الجاذبية عام في الكواكب وفي الأحجار وفي الذرات ، ويتبع ذلك

النواميس العامة فى العين والأذن والماء والثلج والحرارة . كل هذه جارية على نواميس طائعة منقادة خاضعة ومن هذا القبيل الرحمة التى تراها سارية فى قلوب كل والد من حيوان وإنسان ، فإذا انجذب الحجر إلى مسقطه والكوكب فى مداره والنور جرى فى العين بالصور المرئية والهواء فى الأذن بالأصوات هكذا نرى كل أنثى مغرمة بولدها تفديه بنفسها لم كان هذا الناموس عاما ؟. نعم إنه من قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) فهذا انقياد وخضوع على سبيل المحبة والغرام لا الإكراه ، والله تعالى يقول (لا إكراه فى الدين) ويقول (قالتا أتينا طائعين) فالعلوم تعرف بالميل إليها والحب لها والولد يربى بالحب له والعطف عليه .

حكاية خادمة

كنت أكتب فى هذا المقام إذ قصت علىّ الخادمة قصصا وقت الإفطار فى هـذا الشهر (شهر رمضان) قالت لقد رأيت عجبا رأيت الأرنبة ومعها أولادها فقدّمت لهنّ خبزا فأخذت تدفعه برأسها وتمنع أولادها من تعاطيه فأخذتها خارج الحجرة وأقفلت الباب على أولادها وأخذت أضربها لتمنعها أولادها من الأكل ومع شدة الضرب كانت تجرى نحو الباب فقلت فى نفسى لابد أن يكون هناك أمر ففتشت الخبز فرأيت فيه دودا فعلمت خطئى وبكيت وقبلتها ورميت الخبز وأبعدته عن أولادها وأخذت هى تلحسهنّ عطفا ومودّة انتهى كلام الخادمة ، فالعجب كيف عرفت الأرنبة الضار وجهله الإنسان وكيف كان العطف يعم كل حيوان ؟!.

اللطيفة الثامنة : الشهوات الغريزية فى الحيوان

إن الحيوان ومنه الإنسان ليس يأكل ولا يشرب ولا يقرب أنثاه إلا طوعا بإرادته وشهوته التى زينت له فيخلق فيه الجوع والعطش والشبق فيأكل ويشرب ويتزوج كل ذلك طاعة لاجبر فيها وحب لا كراهة فيه ، ولو أن الناس كلفوا أن يأكلوا ليعيشوا وليس لهم داعية شهوية ما عاش إنسان ولا حيوان ، وهذا من قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) أطاع الإنسان غريزته فأكل ، والأمّ وجدانها فربت الولد ، والحجر مسقطه والكوكب قانونه كل ذلك حب واحد وغرام منتظم (وما كنا عن الخلق غافلين) .

الله خلق الشهوات وزينها فى القلوب ليكون هذا النظام الإنسانى والحيوانى ولذلك تراه يقول فى هذه السورة إنه سبحانه زين للناس شهواتهم وعدد منها سبعة وهى : النساء والبنون والذهب والفضة والخيل والأنعام والزرع .

الله زين ذلك فى القلوب فعشق الرجال فى النساء ، وحبب إليهم البنين والنقدين الخ ، وذلك فى قوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث) ثم أخذ يزهد فيه فقال (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

نعم حبب الله ذلك للناس ولولا هذه الشهوات ما عاش حيوان ولا إنسان ولا كان دين ولا دنيا ، ولم يكن علماء ولا أنبياء ، وهذه الشهوات من الطاعة المذكورة فى قوله تعالى (قالتا أتينا طائعين) .

هذه منافع الشهوات التى سلطها الله على الأحياء ولكن لما كانت مقصودة لغيرها لا لذاتها والمقصود من العالم الإنسانى التعارف والتوادّ والغرض من المال بقاء الأجسام والغرض من شهوة الجنسين إنما هو وجود الأولاد . لذلك سلط على الناس الروادع والزواجر القاهرة حتى لايتمادوا فى تلك الأشياء فأنزل فى العادات غالبا استقباح الزنا وكشف العورة والتلفظ بالقبيح وأودع فى النفوس احتقار الشره والفسق والجشع ، وحبب إلى الناس كل عفيف قانع ، ثم أنزل الديانات فأمر الناس بالإنفاق وحرم عليهم الزنا وأمثاله كل ذلك ليريهم أن تلك الشهوات مقدّمات والمقدّمات لايجوز التغالى فيها كعلم النحو والصرف وأمثالها وهى مقدّمات للقرآن والعلوم . فلتكن الإطالة فى النتائج لا فى المقدّمات .

هكذا

هكذا الحيوانات التي تأكل الحشيش لما كانت في قديم الزمان قد كثرت وملأت السهل والجبل ، وقد وجدت آثارها في علم طبقات الأرض وأن تلك الحيوانات كانت تتراكم في غار واحد من كثرتها وتموت جوعا لأن حشائش الأرض ما كانت لتكفيها ، وبعد ذلك حدث خلق الآساد والنمور والضباع وما أشبه ذلك لتأكل لحمانها فلا يتعفن الجو فلا يكون الوباء .

هكذا هنا سلط على الناس الشهوات رحمة منه ثم أنزل الديانات وألهم العلماء الحكمة ليحفظوا الناس من غوائل التمادي فيها (إن الله حكيم عليم) .

اللطيفة التاسعة : القطن وزراعته إجابة لداعية حاسة اللمس والبصر

إنما خصصت الكلام على القطن وزرعه لما فيه من العجب العجاب ، وإن الإنسان وهو يزرعه مدفوع بحب الزينة والمناظر البهجة وتوقى الحر والبرد وهو مع ذلك أشبه بالنحل يجمع العسل من الزهر ، وللإنسان منه حظ عظيم هكذا هنا أصبح العالم الإنساني مغرما بالقطن لدخوله في الثياب وهي زينة محبوبة فدعا ذلك الناس لزرعه كسبا للمال عند الزارعين والحالجين والناسجين والصابغين والخائطين والبائعين وأصحاب العربات والقطرات والسفن للنقل وكان ذلك زينة لكل لابسة ولابس من الناس أجمعين . لذلك زرعه أهل بلادنا المصريون وأهل أميركا وأمم أخرى إجابة لداعية الاتقاء من الحر والبرد ولداعية حب الجمال والزينة ذلك كله جاء طوعا لا كرها ، ثم إنك تجد أن هذا القطن والناس يزرعونه قد جعل مرعى ومهدا وخصبا وبساتين وقصورا وأرائك وحريرا لعوالم لا تكاد تحصى ولا تستقصى .

يقول الإنسان إن القطن قد خلق لي وأنا زرعته لنعيمي وسعادتي ، وهو في الحقيقة مسخر وهو لا يشعر كما سخر النحل لجنى العسل والناس يأكلون أكثره ، هكذا القطن يظن الناس أنهم هم المتمتعون به وفاتهم أنهم يعملون لمنفعة الدودة وحشرة أبي دقيق تلك الأمم التي دخلت في جنات ونعيم في قصور الأشجار وحجرات الأوراق ومقاصير الأزهار ومخادع اللوز .

فترى رعاك الله الدودة قد تبوأت تلك الأرائك الحريرية الداخلة في تلك اللوزة وهي فرحة متمتعة ، وحشرة أبي دقيق تضع بيضا على الورق منظما ثم يفقس بعد أيام ويصير دودا ، وذلك الدود يسمن وهو يرعى من الورق كما يرعى دود اللوز في أحشاء شعر القطن وهو نائم فيه مستدفئ وتلك الأمم سعيدة في قصورها نوائم في خدورها والهواء عليل والجو جميل كل هذا والإنسان المسكين يسعى لسقى القطن ويحاول جنيه فلا ينال منه إلا القليل ، فدودة الورق ودودة اللوز في تبوئها وأكلها الورق واللوز أشبه بالإنسان إذ يأكل العسل ، والإنسان وهو يسعى لسقيه أشبه بالنحل وهو يجمع العسل من الزهر ، أفلست ترى أن الحيوان والإنسان كل مسخر على سبيل الطاعة والحب والغرام ؟ فالمرأة لحب ولدها ربته والنحلة لحب عسلها جمعته والإنسان لحب القطن زرعه طاعة لا قهرا ، ولو كان ذلك قهرا لم يجمع النحل العسل ولم يزرع الإنسان القطن حبا في سواد عيون الفراشة والدودة ولكن حبا في شهوته هو وبهجة نفسه وفي الوقت نفسه انتفع الحيوان (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) .

ولقد ذكرت المجلة السورية التي تصدر في نيويورك فصلا ضافيا في دودة القطن فبينت أن هناك حشرة لا يتجاوز حجمها الذبابة ظهرت في بلدة مونكلوفا ببلاد المكسيك نحو سنة ١٨٩٢ وانتشرت كجيش من الجراد حتى حرم أهل تلك الجهة زراعة القطن وهي ولاية (تكسس) .

وقد فتكت بالقطن فتكا ذريعا وانتشرت في الولايات المتحدة انتشارا سريعا فتثقب الأنثى بخمها لوزة القطن فتعيق نموها ، ثم تدخل وتعشش فيها وتبيض فيلطخ بياض خيوط القطن ، ثم تخرج صغار الحشرة وقد فتكن باللوزة ؛ ولقد عملوا لها تجارب كثيرة لقتلها ورشوا القطن بسائل فقتلها ولكن الله غالب على

أمره والحشرة لاتزال تخرب المزارع (ولله عاقبة الأمور) الإنسان هنا قد زرع لتلك الحشرة ، ولما كثرت أخذ يقتلها ظانا أنه يصون القطن وهو فى الحقيقة يفعل مافعله الله عز وجل إذ خلق الحيوانات الكاسرة لتفتك بالحيوانات المجترة رحمة بها وبالعالم ليكفيها العشب الذى ينبت فى الأرض هذه بعض الحكم (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) .

الإنسان مسخر لعيش هذا الحيوان على القطن وجميع مزارع الإنسان نافعة للحيوان وهو يزرع حبا لمنفعة نفسه ولكن الله سخره لغيره ، ومن نظائر هذا تلك الحيوانات العائشة فى أجسامنا الماصات دماءنا فنحن نأكل حبا فى الغذاء ودفعا للجوع وطلبا للشهوات ولكن تلك الحيوانات تشاركنا فى داخل أجسامنا ، فجميع الأمراض إنما تكون بحيوانات تعيش فى أجسامنا وأخص بالذكر الدود الذى يورث مرض البلهارسيا فإنه يعيش فى العروق الداخلة فى الكبد وفى فروعه الممتدة فى المجارى البولية والأمعاء الغلاظ وترى الحيوان مسلحا بشوكة مدبية فى جدر الأمعاء والمجارى البولية فتمزق الأوعية الدموية فيحصل النزف ، ومتى قضى المريض حاجته سقطت بويضات البلهارسيا مع البول أو البراز وخرج الجنين بعد الفقس فيدخل القواقع وبعد أيام تسبح تلك المخلوقات فى الماء فإذا صادفها إنسان خرقت جلده وباضت فى جدر الأمعاء والمجارى البولية وذلك دأبها إلى يوم الدين ، فتقتل الآلاف وآلاف الآلاف فى البلاد المصرية وغيرها من قديم الزمان .

الناس زرعوا القطن لمنفعتهم وأكلوا الخبز وهضموا الطعام لشهواتهم ، ولكن الحكمة المدبرة قد قضت أن يكون القطن مرتع الحشرات وأجسامنا مرابع للديدان الفاتكات (إن فى ذلك لآيات للعالمين) .

اللطيفة العاشرة : حب العلماء والحكماء والأنبياء للتلاميذ والأمم

ومن الطاعة المذكورة حب المعلمين للتلاميذ والعلماء والمؤلفين للأمم والحكماء والأنبياء الناس من سائر الأجناس ليعلموهم ولينقلوهم من حال النقص إلى حال الكمال كما فعلت الأم بولدها والزارع بقطنه والحجر فى سقوطه والسيار فى جريه والألكترونات فى الجوهر الفرد كل ذلك طاعة ، ولو نطق الحجر والكوكب لقال ماتقول الأم ، ويقول العالم وزارع القطن إنهم جميعا يعملون لشوق فى أنفسهم وغرام حلّ بقلوبهم والأنبياء خاصة بشوق علوى ووحى سماوى علوى لا كوحى النحل الذى هو من قبيل الغرائز ، أما هؤلاء فمن قوّة قدسية علوية . هذه اللطائف العشر تريك تلك الطاعة العامة فى المخلوقات .

اللطيفة الحادية عشرة

لقد رأيت أن هذا العالم كجسم واحد وحيوان واحد وإليه الإشارة بقوله تعالى (ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة) هاأنذا قد اصطفيت لك من العلوم أجملها ومن الحكمة أبهاها ومن الطبيعة أغلاها ومن الدر أثمنه ومن الياقوت أبهره . قد عرض الله عليك جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمفكرين . أسمعتك الخلاصة فاقرأها وفكر فيها ففى من الجمال الأبهى والحسن الأجلى والنظام الأسنى . كل ذلك لإشراق نفسك وإسعاد حياتك وصفاء ذاتك ، فالجاهلون كالفحم يحترقون والعلماء كالماس يشرقون ولا فرق بين الألماس والفحم فى أصل المادة ، ولكن الفرق فى ترتيب الذرات عند تركيبها هكذا الجاهل والعالم تشابها ذاتا واختلفا فى إشراق نفس بالعلم وإظلام أخرى بالجهل (هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون) .

إلى هنا انتهى الكلام على الأمر الثانى ، وهو قوله تعالى (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لاإله إلا هو العزيز الحكيم) وبه ختم الكلام فى تفسير قوله تعالى (إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

خاتمة هذا المقال

اعلم أن هذه المباحث هي التي يطلبها الإسلام بل هي صبغة الله، كما قال تعالى (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) ألا ترى أن هذه النظم والعجائب والحساب والهندسة والإبداع هي المعبر عنها بقوله تعالى في هذه السورة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ثم انظر كيف يقول بعدها (إن الدين عند الله الإسلام) وأنت تعلم أن علماءنا قالوا إن الإسلام هو كل دين نزل على نبي قبل النسخ، وانظر كيف ذكر الإسلام الذي هو الدين العام عقب ذكر هذه النظم العجيبة فكأن الإسلام العام يدعو حثيثاً إلى معرفة هذه العوالم وإتقانها، وانظر كيف يقول في آية أخرى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) بعد قوله (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها) الآية. كل ذلك تذكير للمسلمين ليعلموا أن أجلّ العلم هو علم الطبيعة والفلك والحيوان والنبات وأن العلماء بذلك هم أقرب إلى الله وهم الذين صبغوا صبغة الله التي هي أحسن صبغة، وقد قال العلماء: الحكمة هي التشبه بالله بقدر الطاقة البشرية والتشبه بالله يكون بالعلم مثل مابينته لك في هذا التفسير وبالعمل ونشر الفضيلة والاعتدال. هؤلاء هم الأولياء وهم هم الصالحون، وانظر كيف ابتدأ الله هذه السورة بوصف الله بأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وبأنه حكيم في صنعه، ثم ختمها أيضاً بقوله (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) الآيات، وانظر كيف كان نبينا صلى الله عليه وسلم يقوم آخر الليل ويمسح وجهه وهو ينظر للنجوم ويقرأ هذه الآيات؟ أفليس ذلك يعرفك تقصير هذه الأمة البائسة النائمة وأن المسلمين الحاليين لو عرفوا أنه صلى الله عليه وسلم كان نظره في الكواكب من آخر الليل يتقدّم على صلاة التهجد كما في البخاري لكانوا أعزّ الأمم علماً بالعلوم الكونية، ولم تدسهم الفرنجة، ولم يظلمهم الطامعون.

تبصرة في التعليم في ديار الإسلام

تبين لك أن الحب به قامت السموات والأرض، وبه انفلق الحب والنوى وجرى النجم وهوى وسقطت الأحجار وانجذبت الأجسام وأرضعت الأمهات أولادها وألف العلماء وعلم الأنبياء وبرهن الحكماء، فالحب هو أصل الكائنات وإبداع الموجودات، فليكن التعليم بطريق مشوّق جميل سارّ للتلاميذ مفرح لذيذ أما التعليم الذي لا تقبله النفس فلا ثمرة فيه، وعلى ذلك يخصص كل امرئ فيما يميل إليه ويهواه ويهيم به وراء كما قدّمناه في سورة البقرة في قوله تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).

ولعمري لا سعادة لنوع الإنسان في هذه الأرض إلا إذا كان العلم معشوقاً محبوباً مرغوباً فيه، وأجلّ مارغب فيه أن يكون بوازع ديني، فإذا اتفق في هذه الأرض أن ديناً يطلب العلوم ويعشق فيها وقرئت لهذه الغاية ارتقى الإنسان أربعة أضعاف ارتقائه الحالي لأن الناس يقرءون إذ ذاك العلوم كأنهم مجبولون عليها، وإذا كانت أمتنا الإسلامية لما أغرمت بالفقه نبغت فيه فما بالك بها إذا ظهر أن العلوم التي هي أرقى من الفقه وألذ منه وأقرب إلى رقيّ النوع الإنساني وأملك لهواه وأحق بعنايته من النجوم الباهرة والرياض الناضرة والبحار والسفن الماخرة والدر والمرجان وما فيه من كل فاكهة زوجان، إذا عرف المسلمون ذلك تظهر فيهم أمة لم ينجبها التاريخ، وتقود الأمم، وتعلو الثريا، وإذ ذاك يظهر سر قوله تعالى (ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

الكلام على أن كل ركعة في الصلاة تتضمن دراسة علم الفلك وعلم التشريح وعجائب النفس

ثم الغرائز والقوى في العوالم العلوية والسفلية والكلام في أن العقول موازين نصبها الله في الأرض

تبين لك فيما سبق أن حركات الذرات في الجواهر الفردة وسقوط الأحجار وجرى الكواكب وانتظامها

والنسب التي بينها راجعة إلى الجاذبية الطبيعية ، وبعد ذلك تكون الغرائز الثابتة كرحمة الوالدين لأولادهما من حيوان وإنسان وحب مابه الحياة من طعام وشراب وتزاوج ولباس ومسكن ودفع أعداء لما يطلب ذلك من غرائز الجوع والعطش والشبق والتأذي من الجو ومن العدو وما أشبه ذلك ويتلو ذلك العقول الإنسانية المنظمة للقوى السابقة الحافظة لكيان هذه العوالم وبعدها تأتي القوة القدسية والوحي الذي يختص به أناس لهداية الناس ، وتأمل كيف كان العقل وسطا فلا هو منحط لدرجة الغرائز كالنحل والنمل والوالدات من سائر الحيوانات ، ولا هو سام جدا لدرجة النبوة والقوة القدسية وهو المسلط على ماتحته من غرائز . فبحث في النبات والحيوان والمعادن ، واتخذ المساكن والملابس والدواء واجتنب الداء ، فانظر كيف قام هذا العقل مقام الراعي وكانت الغرائز الفطرية مقام الرعية وكذلك نظر بفطنته في القوة القدسية التي اختص بها الأنبياء وقال العقل إنما بعض هذه إشارات فلأفكر فيما نزل من الوحي ولأستخرج جواهره فأتحلى بها . مثلا شريعتنا الإسلامية جاءت على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم وسيكترفيها — كما قلنا — أهل العقول فيقولون نحن نصلي وندعو الله ونخاطبه فنقول عند الاعتدال من الركوع « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شيء بعد » لماذا يشير هذا الحمد ؟ يشير إلى أن الحمد على مقدار النعمة الواصلة للعبد وقد تبين في هذا التفسير أن الشمس والقمر والكواكب الثابتة والسيارة متضامنة في نفع العوالم وحركاتها مرتبطات بعضها ، وكأن الأرض ومن عليها مرتبطون بالشمس ومامعها بدليل الأنوار المقتبسة منها (وفي السماء رزقكم وما توعدون) فليس الرزق من الأرض وحدها بل الشمس والنجوم تغدق علينا النعم بالتسخير وذلك بأضوائها بإذن الله والنجوم الثوابت نرى احتياجنا لها بالاهتداء بها في ظلمات البر والبحر ، فكانت النتيجة لهذا أن السموات والأرض وما بينهما وما فوق ذلك كل ذلك متجاذب متحد في نفع الإنسان فليكن الحمد ملء هذه العوالم والحمد على المجهول رياء كاذب وعبث ، فكأن هذا الدعاء وضع في الشريعة ليتنبه إليه ذوو العقول من المسلمين ويقولون كيف يكون ملء السموات والأرض ونحن بذلك جاهلون ؟ لابد من العلم بها حتى نكون حامدين ؛ ثم إن العلم بها قد فتح لك بابه في هذا التفسير ويتكمله المتعلمون في الأجيال المقبلة . هذا ماسيعرفه أبناؤنا بعدنا ، ويقولون أيضا إنا عند الركوع نقول « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » ونقول في السجود (سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين) فيرونه في الركوع يذكر المصلي أنه خشع سمعه وبصره ومخه وعظمه وعصبه وجميع جسمه . أليس معنى هذا أنه يقرأ علم التشريح حتى يعرف تفصيل هذه الأعضاء ؟ أو ليس قوله في السجود : سجد وجهي للذي خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره هو عين ما قدّمناه من معرفة علم التشريح وخلق العين والسمع كما فصلناه .

وياليت شعري هل يدرك المسلمون هذه الحكم هل يعلمون لماذا كان ذكر السمع والبصر وما استقلت به القدم ، وبعبارة أخرى لماذا كان علم التشريح في حالتي الركوع والسجود ، ثم لماذا كان ذكر السموات والأرض ومابينهما من العالم العلوي في حال الرفع والاعتدال ؟. لو علموا ذلك لكانوا أمة عظيمة ولكنهم يصلون وأكثرهم نائمون ويعبدون وهم غافلون (صم بكم عمى فهم لايعقلون — إلا قليلا منهم — وقليل من عبادي الشكور) .

الجواب وإيضاح المقام وبعض أسرار الصلاة

لما كان المصلي رافعا رأسه في حال الاعتدال واقفا ناسب أن يذكر السموات العلى ، ولما كان في حال السجود والركوع ناسب أن يذكر مايخص جسمه من العجائب والتشريح وكأن الصلاة درس للمسلم تذكره أنه تارة يبحث في العلويات وتارة يبحث في السفليات ؛ فإن رفع رأسه فقي السموات يكون فكره

وإن ركع أو سجد فإلى النظر فى أمر جسمه ، وكأن الركعة الواحدة للمسلم هى الحكمة كلها والفلسفة أجمعها إذ لاعلم فيها بعد العلويات والسفليات ومايتصل بهما من العلوم . إن للمسلمين فى مستقبل الزمان غير من رأيتهم اليوم من النائمين ، وقد سلكت سبيلا سيسلكونها وقصدت قصدا سيؤمونه والله هو الولى الحميد . فيجب على المسلمين بعدنا أن ينشروا علم الطبيعة وعلم الفلك والتشريح الخ ، وليعط كل امرئ من العلم على مقدار طاقته حتى العامة يكون لهم إلمام على مقدار حالهم فهذا هو مقصود هذا المقال ، وهو أن العقول تفكر فيما هو أسفل منها من الغرائز فتحفظ الحرث والنسل والمدن والقرى ، وتفكر فيما هو أعلى منها وهو الوحى ، فتنظر فى رموزه ، وتسير فى طرائقه ، ولا تقف عند لفظه (ولله عاقبة الأمور) .

فكما نبغ آباؤنا فى الأحكام الفقهية من آيات قليلة فلينبغ فى المستقبل المسلمون فى آيات أكثر منها ولتستنر عقول المسلمين (إن الله لايضيع أجر المحسنين) .

فرجع الأمر فى الركعة الواحدة فى الصلاة إلى نظرتين : نظرة فى الأنفس ونظرة فى الآفاق ، أما نظرة الأنفس ففى الركوع والسجود ، وأما نظرة الآفاق ففى الرفع والاعتدال ، فإذا رفع المصلى رأسه فذلك لدرس العالم من سموات وأرضين ، وإذا ركع أو سجد نظر فى نفسه والسجود أتم ، وفى الآية (واسجد واقترب) ولامعنى للقرب إلا العلم ، وفى الحديث «أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد» فالقرب كما قال الغزالى بالعلم ، والعلم هنا علم النفس المرتبط بعلم التشريح المذكورين فى قول المصلى وشق سمعه وبصره بحوله وقوته « فتبارك الله أحسن الخالقين» وفى الحديث «من عرف نفسه عرف ربه» فالمصلى عند رفع رأسه ينظر نظرة نبينا صلى الله عليه وسلم كما قدمنا عن البخارى إذ كان يقف آخر الليل ويقرأ (إن فى خلق السموات والأرض) الآيات فى آخر هذه السورة ، وإذا ركع أو سجد فكأنما يفسر الآيات أول هذه السورة (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) اهـ .

الكلام فى تفسير قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) الآيات

إن الله عز وجل ذكر فى هذا المقام العلوم الكونية والكتب السماوية ، وبدأ بالثانية فذكر منها التوراة والإنجيل والقرآن وثنى بالعوالم العجيبة من الأرض والسماء وتصوير الأجنة فى الأرحام ؛ وأنت خبير أن العلوم إما من الوحى الصادق وإما من الحكمة العقلية والمشاهدات الطبيعية ، فالأولى للعموم والثانية للخصوص ، ثم إن القسمين قد يكون العلم فيهما مشوبا بالإبهام مورثا الشكوك محوجا العقول إلى الكشف فأبان سبحانه أن فى الوحى ماهو محكم وماهو متشابه يرجع فيه إلى المحكم المفهوم ، فللعقول فيه جولان وللنفوس فيه موازين بها يزنون الحق ويعرفون مواضع الخطأ من القول ولم يذكر سبحانه محكما ومتشابها فى العالم الطبيعى ، فانظر كيف ذكر علم العموم وعلم الخصوص وأبان المحكم والمتشابه من الأول ولم يبينه فى الثانى .

وأنا الآن أبين لك ماقصه الله من المحكم والمتشابه فى القرآن ، ثم أقفى على آثاره بالمحكم والمتشابه من العلوم الطبيعية : إن الله بين أن فى كلامه محكما ومتشابها ، وترك المحكم والمتشابه فى أمثاله فى السماء والأرض للعقول والأفهام ، فها أنا ذا أبين لك الأمرين لتقف على الجمال والبهاء والحسن والكمال والإبداع والغرائب والبدائع والعجائب وستطلع أيها الذكى فى هذا المقام على جمال الطبيعة وكيف انتظمت الكائنات الحيوانية والنباتية والمعدنية وكانت سلسلة واحدة منظمة متناسقة لاخلل فيها ولا عوج وكيف كان الجنين يمر فى أدواره على هذا النمط وهو نمط النسق المنتظم فى أشكال الحيوانات متنقلا من أدناها إلى أعلاها ؟ ثم أريك الجمال فى تناسق الأعضاء فى الأنواع المختلفة كيدى الإنسان والقرد وجناح الطائر وما أشبه ذلك من النسق البديع الجميل ، وكيف كانت تلك الخلقة كأنها محكمة متناسقة كالآيات المحكمات ؟ ثم كيف جاء العلماء وتوقفوا فى بعض المسائل

فأورثت عندهم شبهات فى كيفية الخلق كأمثال العلامة هيكل الألمانى وكيف خطأه العلماء فيما زوّر من الصور التى زادها فكان ذلك أشبه بالمتشابه فى القرآن ، ثم تعرف بعد ذلك أن النفس الإنسانية مثلا التى صوّر جسمها فى الرحم بهذا النسق الجميل وكانت أشبه بالسلسلة الحيوانية كيف يكون ذلك الجمال والبهاء والحسن فى أشكالها وتقاطيعها ضئيلا بالنسبة لما فى نفوسها من الغرائب وإنها واسعة لانهاية لحدها ولاينتهى لأمدها ، فهى تسع العالم المحسوس والعالم المعقول وإليها انتهت العوالم وكأنها مركز الوجود ومهبط الأسرار : كل ذلك سأشرحه لك إن شاء الله شرحا وجيزا كافيا وتطلع على آراء الأمم الحاضرة موجزة ملخصة مفهومة واضحة فتسكن نفسك للحقائق وتعلو على مصاف أولئك الذين يدّعون العلم العصرى وهم عن جماله معرضون وعن محاسنه ساهون لاهون ، ويقولون نحن علمنا مالم تعرفه الديانات ولم يصل إليه الأنبياء وأنت سترى أن ماسأقصه لك قد دخل فى مضمون المحكم والمتشابه المماثل للمحكم والمتشابه فى القرآن وأن النسق الجميل والحسن فى هذا النظام الحيوانى هو الذى يقول به القرآن (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ويقول : (الذى أحسن كل شىء خلقه) . والآن أبتدئ بالكلام على المحكم والمتشابه فى الوحى وأقفى على آثاره بهما فى الطبيعة فأقول :

المحكم والمتشابه فى الوحى

اعلم أن اللفظ الموضوع لمعنى إما أن يكون محتملا لغير ذلك المعنى وإما أن لايكون ، فإذا كان اللفظ موضوعا لمعنى ولا يكون محتملا لغيره فهو النص وإن كان محتملا لغيره ، فإن كان احتماله لأحدهما راجحا وللآخر مرجوحا فإن ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح يسمى ظاهرا ، وبالنسبة إلى المرجوح يسمى مؤوّلا ؛ وإذا كان احتماله لهما على السواء كان اللفظ بالنسبة لهما مشتركا وبالنسبة لكل واحد منهما على التعيين مجملا فإذن يكون اللفظ إما نصا وإما ظاهرا وإما مؤوّلا وإما مشتركا وإما مجملا ، فالنص والظاهر هما من قبيل المحكم والمؤوّل والمجمل يدخلان فى المتشابه ومعنى المتشابه الذى لايعلم لأن الذى يحصل فيه التشابه يصير غير معلوم فأطلق لفظ المتشابه على الذى لايعلم ، وإذا شابه أحد الشيئين الآخر عجز الذهن عن التمييز بينهما . وأما المحكم فهو من قولك بناء محكم أى وثيق يمنع من تعرض له وسميت الحكمة حكمة لأنها تمنع عما لاينبغى والحاكم يمنع الظالم عن الظلم .

مثال المتشابه

(١) (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فظاهر الآية أنهم يؤمرون بأنهم يفسقون والمحكم قوله تعالى (إن الله لايأمر بالفحشاء) ردا على الكفار إذ حكى عنهم (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) .

(٢) وكذلك آية (نسوا الله فنسيهم) فظاهر النسيان معلوم ومؤوّله الترك والآية المحكمة فيه قوله تعالى (وما كان ربك نسيا) وقوله تعالى (لايضل ربى ولا ينسى) فنؤوّل الآية على معنى الترك الذى هو خلاف الظاهر للآية المحكمة المذكورة .

(٣) قوله تعالى (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) يقول أهل السنة فى هذه الآية إنها محكمة وآية (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) يقولون إنها متشابهة . وبالإجمال نقول : إن حمل اللفظ على المعنى المرجوح متشابه ، وحمله على المعنى الراجح محكم وصرفه عن الراجح إلى المرجوح لابد فيه من دليل كما تقدم .

(٤) آيات الأنعام (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشدّه ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ،

وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) فهذه الآيات الثلاث عند ابن عباس محكمات ، وهكذا كل أمر بطاعة واحتراز من ظلم وجهل وكذب وقتل نفس بغير حق فهو محكم عند ابن عباس لأنه لايختلف باختلاف الشرائع . وأما مايختلف باختلاف الشرائع كأعداد الصلوات ومقادير الزكاة وشرائط البيع والنكاح وغير ذلك فهو المسمى بالمتشابه عنده وهو من نوع المجمل فيما تقدم أى ما يكون دلالة اللفظ بالنسبة إليه وإلى غيره على السوية ، ومن المتشابه عند ابن عباس أيضا أسماء حروف الهجاء المذكورة فى أوائل السور وذلك أن اليهود ظنوا أنها جاءت لأعداد الجمل فطلبوا أن يستخرجوا منها مدة بقاء هذه الأمة ، فاختلط الأمر عليهم واشتبه فكانوا إذا سمعوا الم يقولون إن أمة محمد ستبقى ٧١ سنة بعدد جمل هذه الحروف ا ل م وكلما سمعوا حروفا غيرها الر مثلا زادوا العدد حتى قالوا أخيرا أشكل علينا الأمر فهذه متشابهات تشابهت على اليهود . هذا من كلام ابن عباس موضحا وقوله تعالى (ما كان لله أن يتخذ من ولد) محكم ، وقوله فى عيسى (روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم) متشابه فيرد إلى المحكم .

(٥) الآيات الناسخات تسمى محكمات والآيات المنسوخات تسمى متشابهات وهذا لابن عباس أيضا .

(٦) العلم بوقت قيام الساعة والعلم بمقادير الثواب والعقاب فى حق المكلفين كل ذلك متشابه فإنه لاسبيل إلى معرفته ، وأما مايمكن تحصيل معرفته بدليل جلى أو خفى فهو محكم . هذا ملخص الأمثلة فى المحكم والمتشابه والأقوال المختلفة ؛ ثم إن الخامس والسادس طريقان من طرق المحكم والمتشابه يخالفان ماقبلهما فتأمل وتدبر فقد قربت لك المقام بأسهل أسلوب (والله هو الولى الحميد) .

اعلم أن فى وجود المتشابهات فى القرآن فوائد : منها الجد فى الطلب لترقى العقول وازدياد الثواب ، ومنها أنه لو كان محكما كله لكان لايصلح إلا لمذهب واحد ، ومنها أن المتشابه يدعو إلى الدليل العقلى المخرج من التقليد ،ومنها أن ذلك يدعو إلى علوم كثيرة لأجل تحقيق التأويل ، ومنها أن القرآن يدعو العامة والخاصة ، والعامة لابد لهم من كلام يوافق ظاهر عقولهم فلا بد من ألفاظ توهم الظواهر وألفاظ تبين الحقائق فيكون الأول متشابها والثانى محكما وقوله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) فالفتنة فى اللغة التعلق بالشىء والغلو فيه وفلان مفتون بطلب الدنيا أى متجاوز الحد فى طلبها .

فالمتمسك بذلك المتشابه فى الدين يصير مفتونا به عاكفا على باطله وضلاله ؛ وقد يفضى إلى التقاتل وذاك فتنة أيضا ، وقوله وابتغاء تأويله أى تفسيره ومرجعه ومصيره مثل طلبهم أن الساعة متى تقوم فهم يحملون المتشابه على غير الحق وبلا دليل ، وقد قدمنا الكلام فى الوقوف على إلا الله أو على قوله والراسخون فى العلم وما قلنا فى هذا المقام فى القرآن ينطبق على ما سأذكره فى المتشابه والمحكم فى الطبيعة ، وسترى أن من الفلاسفة من يطلبون المتشابه فيها لأجل ابتغاء الفتنة وذلك فى القسم الثانى وهو :

المحكم والمتشابه فى المظاهر الطبيعية ونظام الحيوان

(بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم)وهو الذى ربى الكواكب والأرض والمعدن والنبات والحيوان تربية مبدوءة بالرحمة مختومة بالنظام السائد فى الملك كله. فهو الذى أدار الشمس وخلق منها السيارات دائرات حولها ومنهن الأرض وهى ملتهبة : (١) ثم صارت تبرد شيئا فشيئا حتى أحاطت بها قشرة صلبة من المواد المعدنية والحجرية ، وهى فى أول أمرها خفيفة ضعيفة لاتقاوم حرارة النار الأرضية الملتهبة فى باطنها فلذلك تتمزق حينا وتتشقق وتبرد فى وقت آخر فتجمد ويكون هناك أمران إذابة للمعادن وتكليس للصخور فترتفع المعادن الذائبة فى الجو وتنزل على هيئة مطر فتقع فى الشقوق الصخرية وتبقى دهورا متطاولة

ولايزال الإصهار والإذابة من جهةوالتكليس واليبس من جهة أخرى دائبين حتى يحصل بعد الدهور الطويلة أن الأرض قد أحيطت من جميع جهاتها بأحجار صوّانية أحكمت السدّ على النار فلم تعد تندلع من جهة من جهاتها وزال الاضطراب إلا فى أوقات قلائل وهذا هو الذى ذكره الله فقال (وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم) فهذه الحجارة الصلبة منعت اندلاع النار حتى لاتميل القشرة بما عليها فيقع العالم المتكون فى النار الملتهبة الأرضية وهذا هو دور تكوّن الأرض .

ألا ترى إلى أن القطبين منبعجان وأن خط الاستواء منتفخ .

العصر الثانى : العصر النباتى

هناك سكنت الثائرة وقر القرار وثبت كل شىء فى مكانه واستقر الماء فى مواضع من الأرض ، فظهر عليها الطحلب وأخذ الماء يموج موجا ذاهبا إلى الشواطىء من كل ناحية ، ثم ظهر فوق اليابسة الأحراش والغابات الناتجة من طوفان الماء عليها حينا فحينا ، ثم أخذت الزروع تبدو على وجــه الأرض فكانت أشبه بشجر الجميز فى عظم قدرها وارتفاعها ؛ أما الأشجار من الموز والنخل فكانت تناطح السحاب وتتعلق بأسباب السماء فتلك المزارع التى نعجب بها الآن كانت كأشجار عظيمة والأشجار كالجبال وهنا ابتدأ :

العصر الحيوانى وهو العصر الثالث

قد علمت أن النار قدسدّت من جميع جهاتها بأحجار صلبة متينةولكن لما امتدّ الزمان ثارت النار وفارت فمزقت تلك الأحجار من بعض الجهات فظهرت سلاسل الجبال وامتدت النار فأتت على سائر المخلوقات فوق الأرض وهذا هو الطوفان (الجيولوجى العام) وهناك من بعدها أنواع من الطوفان ليست عامة فهذا الطوفان نارى من باطن الأرض والدليل على أن هناك أنواعا من الطوفان بعد هذا أنهم رأوا عظاما متحجرة فى أعلى قلل الجبال وفى أعماق البحار وذلك فى الدور الحيوانى الذى سأشرحه ، وبعد ماسكن هذا الطوفان العام واستقرّ كل شىء فىمكانه وأخذ الماء يموج فى كل جانب واستقرت البحار فى أماكنها الخاصة بها ظهرت الحيوانات ذوات الأصداف،وهناك على مرّ الدهور والعصور صارت ركاما فكان منها الرمل وبعض الصخور الكلسية ، ثم كانت الحيوانات مرتبة هكذا :

الحيوانات السافلة كالإسفنج والحيوانات الشعاعية الكثيرة الأرجل فالحيوانات الشائكة الجلد كقنافذ البحر فالحيوانات الهلامية فالحيوانات الفصلية فالحيوانات الفقرية ، هذا إذا رتبناها من أسفل إلى أعلى . ولنذكرها من أعلى إلى أسفل بإيضاح فنقول :

(١) الحيوانات اللابنة وهى الإنسان وذوات الأربع : الطيور . الزحافات . الضفادع . السمك . هذه الأنواع الخمسة هى التى لها فقار كفقار الإنسان ودم .

(٢) ويليها الحيوانات الفصليةمثل : الحشرات . الشبث . العناكب . ذوات القشور . ودود الأرض ، فهذه تسمى الفصلية وجسمها مركب من حلقات وتسمى أيضا حلقية .

(٣) ويليها الحيوانات الهلامية وهى كقوام العجين . منها ذوات الرءوس ومنها مالارءوس لها .

(٤) ويليها الشعاعية كقنافذ البحر شائكة الجلد وكنجوم البحر .

(٥) ويليها الكثيرة الأرجل مثل الأخطبوط وهى من الشعاعية .

(٦) ويليها السافلة مثل الإسفنجيات والنقاعيات .

وهذا آخر ماوصل إليه النوع الإنسانى من العلم ومحصله يرجع إلى أن الحيوانات قسمان : قسم له دم كالحيوانات اللابنة والدبابات والبائضة كالسلاحف والضباب والطيور والحيات والسمك .

وقسم

وقسم لادم له كالهلاميات وذوات القشور والحشرات .

وهذا هو التقسيم القديم الذى ذكره أرسطو وما قبله وآخر ماوصل إليه نوع الإنسان اليوم مثل هيكل الألمانى وكوفيه وغيرهما فتعجب وتأمل .

جمال نظام السلسلة الحيوانية

انظر أيها الذكى إلى هذه السلسلة وتأمل فى أمر الحياة فإنك تجد أنها لم تتوقف على حال من الحالات، فإن قلنا لابد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك ينقضه أننا وجدنا الحيات بلا فقار فما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات والشبت وأمثالها ، وإن قلنا إن الحيات لابد فيها من قشور فى ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية ، وإن قلنا إنه لابد من رءوس كذبتنا الحيوانات التى لارءوس لها .

وإن قلنا إنه لابد أن يكون الحيوان صلب الجسم وجدنا الفقاعيات والإسفنجيات فالناس جميعا يعرفون الإسفنج أنه عظام حيوان داخلها مادة لطيفة هى جسم الحيوان ، فإذا فرغت من الهيكل استعمله الناس بعد موت الحيوان . ألست ترى من هذا أن العالم الحيوانى عجيب ؟ ترى الأنعام تضع أولادها بعد حملهن فى بطنها والطيور تحضن بيضها وأخرى من الحشرات تذر بيضها فى العراء يتربى فى حضن الطبيعة بالرحمة الشاملة العامة (فتبارك الله أحسن الخالقين) فالعوالم مرتبة ترتيبا لطيفا بحيث إن كل درجة من درجات الرقى حلت فيها الحياة ، فالحياة عامة شاملة لاتتوقف على حال من الأحوال ، فلا البر ولا البحر ولا الهواء يصد عن الحياة ولا رخاوة الجسم ولا عدم الرأس ولا فقد الفقرات ولا قلة الحواس ، وهذا هو الجمال الإلهى الوارد فى قوله تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه) وفى قوله أيضا (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) أى ارجع البصر هل من شقوق فى السماء وهل من تفاوت أى هل هناك مايخل بالنظام فالنظر فى هذه السلسلة دل على تناسقها وجمالها وبهجتها .

تشابه الأطراف فى الحيوان

ومن أجمل ما أبدع فى الدهر وأبهج ماظهر فى كل عصر .

أن يد الإنسان وأعلى أنواع القردة من الكورلا والأورانغ تانغ والكلب وأطراف القم والدلفين وجناح الخفاش ويد الخلد التى تشبه المعول وأجنحة الطيور والأطراف الأمامية للحشرات والحيوانات التى هى نصف مائية كل هذه الأنواع العشرة وماشا كلها تجد أنها مركبة من خمسة أقسام : كيد الإنسان . فيد الإنسان ، ويد القرد ، وجناح الخفاش ، والطير وما أشبه ذلك كل هذه مكونة من خمسة أعضاء كأصابع اليدين ؛

أليس هذا هو قوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ؟ ألست ترى أن هذا التناسق بديع وأى عجب أعجب من تنوع اليد فتصير فى الإنسان كاتبة حاملة السيف جالبة الطعام دافعة الخصم عاملة أعمالا لاتتناهى وهى فى الطائر تحمله فى الهواء، تنوع بديع عجيب كتنوع العناصر فى النبات والحيوان ؟ أليس هذا دليلا على حسن النسق وأن القدرة التى ابتكرتها مبدعة منظمة محكمة ثابتة لاتناقض فيها ولا اختلال .

جمال الخمسة من علم خواص الأعداد

واختيار الخمسة من أبدع ماعلمه علماء الخواص العددية .

ألا ترى رعاك الله أن عدد الخمسة يسمى عددا دائرا فإنك إذا ضربته فى نفسه بالغا مابلغ فإن حاصل الضرب يحفظ الآحاد والعشرات دائما وهذه الخاصة لايشاركه فيها سواه مثل ٢٥ — ١٢٥ — ٦٢٥ وهكذا .

فعدد ٢٥ محفوظ دائما وعدد الخمسة هو الذى عليه نظام الحساب فى العالم الإنسانى لأن العشرة التى هى عدد أصابع اليدين مثلا تضاعف إلى المئات والألوف ، وهذه من نوع الجمال فى علم الموسيقى لأن نسبة المساواة

والنصف والثمن عندهم هى النسبة الشريفة وهذه نسبة المساواة ، فمساواة الأطراف فى العدد من نوع الجمال ونسبتها هندسية لأنك إذا أردت النسبة بين أطراف حيوان مثل الطائر أو القرد أو الإنسان مثلا قلت نسبة ٥ إلى ١٠ كنسبة عشرة إلى عشرين وحاصل ضرب الطرفين يساوى حاصل ضرب الوسطين ٥ فى ٢٠ = ١٠٢
وهذه هى النسبة الموسيقية وهذه النسبة تمشى مع أطراف الحيوانات المتقدمة بنسبة بعضها إلى بعض فتكون أشبه بالأبيات الشعرية أو ضروب الموسيق وهذا هو الجمال وهو الحساب والنسبة الهندسية قال الله تعالى (إن الله سريع الحساب — وكفى بنا حاسبين) .

نظام الأجنة فى الأرحام

إن الماء المهين فى الرحم يمر فى درجات مختلفات من النظام الحيوانى فيكون أولا :(١) كالجراثيم النقاعية وهى الطبقات الدنيا من الحيوان فيما تقدم (٢) ثم يكون علقة ملتفة شبه ثلاثة أرباع الدائرة (٣) ثم يصير مثل الضفدع (٤) ثم يظهر العمود الفقرى وله منقار طائر وجسم الحشرة وهو الممر مابين عالم الطير ومرتبة الحيوانات الثدية (٥) ثم يصير كذوات الأربع فيشبه القرد (٦) وتنمو الرأس ويرسم الذراعان وله ذنب وتتهيأ مواضع الأعضاء للنمو وترسم العينان والمنخران والفم ثم يقصر ذنبه ويظهر التأنيث فيه وهذا فى الشهر الرابع ويظهر تصور الجنين فيه ، وفى الشهر الخامس يفرق بين الذكر والأنثى ، وفى السادس يكون طوله من ١١ عقدة إلى ١٤ عقدة ، وفى السابع من ١٣ عقدة إلى ١٦ عقدة ، وفى الثامن تفتح العينان ويكسى جلد الرأس بالشعر ويكون طوله من ١٦ عقدة إلى ١٨ عقدة ، وفى الشهر التاسع من ١٨ إلى ٢٠ عقدة .

فترى أن الجنين فى أول أمره لايعرف من أى طبقة هو ولقد رسموا جنين الدجاج والإنسان والسلحفاة والكلب فلم يجدوا بينها فرقا فهذا تشابه الطائر وذوات الثدى والإنسان والسلاحف فى أول نشأتها ثم يأخذ كل منها فى التميز شيئا فشيئا . هذه هى الآراء المعروفة اليوم فى علم الأجنة .

نظام الجسم الإنسانى

ويا ليت شعرى أى هندسة وأى نظام وأى مقياس كان فى الرحم حتى صنع هـذه المقاييس يمر الجنين فى أطوار الحيوانات النقاعية والهلامية والفقرية من الطير وذوات الثدى وآخرها القرد ، ثم ترسم أعضاؤه وحواسه مرتبة منظمة :(١) بحيث تكون قامته ثمانية أشبار بشبره هو ويكون من رأس ركبتيه إلى أسفل قدميه شبران ومن ركبته إلى حقويه شبران ومن رأس فؤاده إلى مفرق رأسه شبران ومن حقويه إلى رأس فؤاده شبران بنسب متساوية كما تساوت نسب الأصابع فى اليدين وفى الرجلين فى الإنسان وفى الحيوانات الأخرى كما تقدم (٢) وإذا فتح يديه ومدهما يمنة ويسرة كما يفتح الطائر جناحيه وجد مابين أصابع يده اليمنى إلى رأس أصابع يده اليسرى ثمانية أشبار النصف من ذلك عند ترقوته والربع عند مرفقيه (٣) وإذا مدّ يديه إلى فوق رأسه ووضع رأس البركار على سرته وفتح إلى أصابع يديه ، ثم أدير إلى رأس أصابع رجليه كان البعد بينهما مساويا عشرة أشبار وذلك طول قامته وربعها (٤) وطول وجهه من رأس ذقنه إلى منبت الشعر فوق جبينه شبر وثمن شبر (٥) والبعد مابين أذنيه شبر وربع (٦) وطول شق عينيه كل واحدة ثمن شبره (٧) وطول أنفه ربع شبره (٨) وطول إبهامه وطول خنصره متساويان . هذا قل من كثر من المقاييس العجيبة التى فى جسم الإنسان وذلك كله إذا كان معتدلا ، وقد يزيد وينقص إذا قلّ اعتداله لعوارض يقلّ بها جماله وكماله وهذا الذى ذكرناه فى المعتدل الخلقة الجميل الطلعة .

النسبة الفاضلة

وهذه المقاييس ترجع إلى ماجاء فى علم الموسيق أن النسبة تكون فاضلة إذا كانت مثلا أو مثلا ونصفا أو مثلا

وثلثا أو مثلا وربعا أو مثلا وثمنا ، وعلى هذا نجد طول وجه الإنسان إذا كان معتدلا شبرا وثمنا وطول قدميه كل واحد شبر وربع ، وهو مساو للبعد مابين أذنيه فهنا مساواة من جهة ومثل وربع من جهة أخرى ، وطول شق فمه وشفتيه كل واحد مساو لطول أنفه متى كان معتدلا .

فنى هذه الأمثلة ظهر المثل والمثل والثمن والثلث والربع المذكورة التى قال علماء الموسيقى إنها هى الجمال .

ويقول علماء الموسيقى من علمائنا نقلا عن اليونانيين إن نسبة الثمن فى تتم الأوتار هى المستعملة دون الخمس والسدس والسبع وذلك أنها مشتقة من الثمانية التى هى أول عدد مكعب ، والعدد المكعب فيه التساوى فطوله وعرضه وعمقه كلها متساوية ، وفيه اثنا عشر ضلعا متوازية متساوية وله ثلاث زوايا مجسمة وله أربع وعشرون زاوية قائمة متساوية وهى من ضرب ثلاثة فى ثمانية وكل مصنوع كان التساوى فيه أكثر كان أفضل .

وعلى ذلك قالوا إن الإنسان كثر فيه التساوى ، وكثر فيه المثل والنصف والثمن الخ وليس للسدس ولا للخمس ولا للسبع من وجود فيه ، لأن هذه ليست من الأشكال المحبوبة التى فيها التساوى . انظر إلى ماذكرناه فى شكله تجد ثمانية أشبار فى طوله ، فهنا التساوى مابين أربعة أقسام من جسمه ، وهكذا التساوى بين شق فمه وشفتيه وأنفه وطول قدميه كالمسافة مابين أذنيه وهكذا فتأمل وتعجب من العلم .

تفصيل بعض ماتقدم للإيضاح

فالذى يساوى شبرا عند الاعتدال هو (١) طول كفيه من رأس الكرسوع إلى رأس الأصبع الوسطى (٢) وبعد مابين ثدييه (٣) ومابين سرته وعانته (٤) ومن رأس فؤاده إلى رأس ترقوته .

والذى يساوى شبرين أربعة الأقسام المتقدمة (١) من القدم (٢) ومن الرأس (٣) ومن الحقوين (٤) ومن الفؤاد (٥) ثم مابين المنكبين .

والذى هو ثمن شبر (١) زيادة رأس البنصر على الخنصر (٢) وزيادة الوسطى على البنصر (٣) وزيادة الوسطى على السبابة (٤) وطول شق عينيه .

والذى يساوى ربع الشبر (١) طول أنفه (٢) وشق فمه (٣) وطول شفتيه .

والذى يساوى شبرا وربعا (١) طول قدمه (٢) والبعد مابين أذنيه .

واعلم أنى جمعت لك فى هذا المقام خلاصة علم القدماء والمحدثين فى جمال الإنسان ونظامه ، فياليت شعرى أين القياس الذى كان فى الرحم حتى فصل ذلك التفصيل ، وقاس تلك المسافات وفصل تلك الأعضاء وهندس وزوّق وحسن الأشكال وتجنب النحس فى الأشكال كالخمس والسدس والسبع واصطفى أجمل الأشكال وأحسن الأوضاع كالمثل والمثل والثمن والمثل والنصف وراعى جمال النظام وابتدع واخترع وزين وزوّق وفضل الأجمل والأكمل وجعل الأجزاء مشتقة من الشكل المكعب الذى له ثمن ونصف وربع ، وفيه الأمثال الكثيرة الجميلة حتى استحق أن يقال فيه (الذى أحسن كل شئ خلقه) وقال (وخلق كل شئ فقدّره تقديرا) وقال (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) وقال (خلقك فسوّاك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك) فهذا هو الحسن الذى ذكره الله لأنه أوّلا انتقى أجمل الأشكال الجسمية فمرّ على أدنى المخلوقات من الاسفنجيات وانتهى به فى الشكل إلى ما ذكرناه وثانيا اصطفى أحسن الأوضاع ، وناسب مابين أصابع الأطراف فى أكثر الحيوانات على النسبة الأفضل ، وهى المثل لأن ذلك من الجمال الموسيقى الذى يعقله الحكماء عند النظر فى أشكال هذه المخلوقات فيقولون (ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) بالجهل والبعد عن العلم والكسل والغرور ، وبهذا تفهم قوله تعالى (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) وذلك لأن التفاوت يكون من الصانع الغافل أو من المصادفات ؛ أما التناسق وكثرة التماثل فهى من الصانع الحكم لعمله الذى يجعل فيه موسيقيا أشبه بما

فى المكعب من التساوى وكثرته والمثمنات السارة للناظرين المبهجة للسامعين ، وهذا من سر قوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فالعالم الذى أبرزه الله كثر فيه الاتفاق الموسيقى كعدد الأصابع فى أطراف الحيوان كما تقدم وتناسق السلسلة الحيوانية ونظام الأعضاء (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

الجنين فى الرحم كتاب يبين الله به آياته للناس كما بينها بالقرآن

لقد استبان لك أن خلقة الجنين فى الرحم تصوّر أنواعا من صور الحيوان مرتقية من أدناها إلى أعلاها وتبين لك أيضا أن أعضاءه المفصلة لها مقاييس تحار فيها العقول بالشبر وبالشبر والثمن وبالشبر والربع ، وأيضا تنوّع الأعضاء والأشكال والساعات العجيبة . فكان الجنين نسخة مختصرة وكتاب مبين لا يعيه إلا العالمون ، ولعلك تقول فى نفسك هذه عبارات شائعة على ألسنة الناس ، وما هو الجنين حتى يقال إنه يبين للناس ؟ نقول : اعلم أن الله قال فى القرآن (ثم إن علينا بيانه) وقال (تبيانا لكل شئ) وقال (لتبين للناس ما نزل إليهم) وقال (كذلك يبين الله لكم الآيات) . فانظر ماذا قال فى الجنين قال (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب) لأن أباكم آدم مخلوق منه وكذلك الأغذية التى يتكوّن منها الجنين (ثم من نطفة منى - ثم من علقة) قطعة من الدم جامدة (ثم من مضغة) قطعة من اللحم وهى فى الأصل قدر ما يمضغ (مخلقة وغير مخلقة) مسواة لا نقص فيها وغير مسواة أو مصوّرة وغير مصوّرة (لنبين لكم) بهذا التدريج قدرتنا وصنعتنا وأحكامنا فى الصنع (ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) وهو وقت الوضع (ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا) الآية ، فانظر أيها الذكى إلى قوله تعالى (مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم) كأنه يقول جعلت المضغة أولا غير مسواة بل ناقصة الخلقة تشبه الحيوانات الأخرى كالكلب والسلحفاة والطيور وغيرها وثانيا تامة الخلقة بالصورة الإنسانية لماذا هذا ؟ لنبين لكم . ماذا يبين لنا الله؟ يبين أننا خلقنا فى أحسن تقويم لأن صورتنا مرت على صور الحيوانات الأخرى ثم أكملها . يبين لنا أنه محكم الصنع عجيب الوضع . يبين لنا أنه وضع الأعضاء على هيئة موسيقية كما قدمناه . ليبين لنا أن الإنسان فيه قابلية لأخلاق سائر الحيوان من شبق الخنزير وضراوة الأسد وجبن الأرنب وزهوّ الطاووس ، وما أشبه ذلك مما قدمناه عند ذكر آدم فى أول البقرة ، ثم إنه لا نجاة لنا إلا بالارتقاء عن هذه الخصال الحيوانية إلى الصفات الملكية . يبين لنا أنكم أرقى من الحيوان فكيف عبدتموه . يبين لنا أن نتعلم علم (الأجنة) وهو المسمى باللسان الإفرنجى (علم البيولوجى) يبين لنا أن الإنسان لا ينال أعلى الدرجات إلا بعد أن يتخطى أدناها بنظام سواء أكان فى الأمور الدينية أم فى الأمور الدنيوية وأن خلاف ذلك خلل فى النظام والطفرة محال . يبين لنا أن سنة الكون الترقى من أسفل إلى أعلى . يبين لنا أن ندرس علم الحيوان ، ثم نعرف الإنسان . يبين لنا أن بيننا وبين الحيوان مناسبة وصلة فلنكن له راحمين وعليه عاطفين ولطبائعه دارسين وبقواه منتفعين وعليه مسيطرين .

فياليت شعرى كيف ساغ للمسلمين أن يجهلوا هذا العلم ولا يقوم به إلا الفرنجة كيف يكونون أجهل الأمم بعلم الأجنة وعلم الطبيعة . أيها المسلمون قد بينت لكم (ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) الله يقول لكم إنى أبين لكم خلقة الجنين ، ويقول فى القرآن الكريم (إنه تبيان لكل شئ) فلا القرآن عرفنا ولا الجنين درسنا وكلاهما للبيان ، ويقول الله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) .

ثم تأمل فى آية الحج فإنه ذكر من أطوار الإنسان عشرة : التراب . النطفة . العلقة . المضغة التامة الخلقة . المضغة الناقصة الخلقة . الطفل . بلوغ الأشد . الشيخوخة . الوفاة . الرد إلى أرذل العمر ، ولم يذكر

أنه

أنه يبين لنا إلا بعد قوله: مخلقة وغير مخلقة، أى غير مسواة كما شرحنا لأن هذه هى التى قامت لها قيامة العلماء فى أوروبا أى بين هيكل وخصومه من الألمان كما سيأتى بعد هذا من النضال الشحذ للأذهان المقوى للعقول (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

المحكم والمتشابه فى الطبيعة

لقد نظرت الإنسان وحسن نسقه وجمال شكله ، ولكن هذه السلسلة التى انتظمت فيها الحيوانات منتظمة متلاصقة والتى ظهر فيها الجنين بأدوار مختلفة أحدثت عند بعض العقلاء حيرة ، فقال قائلون منهم: لعل هذه العوالم قد ظهرت بعضها من بعض بالاشتقاق ، والدليل على ذلك مشابهة الإنسان لأدنى الحيوانات فى أول تكوّنه فى الرحم ، ثم يتمادى فى الرقّ حتى يصير كالقرد ثم يصير إنسانا ، وهذه السلسلة بعينها هى التى تراها فى الحيوانات الشاهدة فلعل كل طائفة مشتقة مما تحتها مباشرة حتى إن هيكل الألمانى الذى نشأ فى ألمانيا ، وقضى نحو نصف قرن أستاذ العلوم الطبيعية فى كلية (أيينا) قال إن الإنسان نشأ بالتدريج من الحيوانات السفلى ، فالتدرج فى الرحم من الأدنى إلى الأعلى كالتدرج فى السلسلة من الأدنى إلى الأعلى من الحيوانات النقاعية إلى الهلامية إلى الحلقية إلى القفارية .

ولما بحث الدكتور (براس) منهجه ونظر فى تلك الصور التى استند إليها وجد أنها لم تكن كلها صادقة بل بعضها مزوّر ، فإن الصور ٢٢ تبتدئ بالبسيط ، والصورة الرابعة عشرة التى سماها (السوزور) والصورة الواحدة والعشرين التى سماها (الإنسان القرد) لم يكن لها وجود البتة .

فكتب العلماء على صفحات الجرائد أنه مزوّر لهاتين الصورتين فهدم برفع الدعوى ، ثم رأى أنه لامناص من الإقرار فكتب مقالة مؤرخة (٢٤ ديسمبر سنة ١٩٠٨) قال (تزوير صور الأجنة) إنى أعترف رحيا حسما للجدال فى هذه المسألة أن عددا قليلا من صور الأجنة نحو ستة فى المائة أو ثمانية موضوع أو مزوّر إذا عدّ الدكتور (براس) ذلك تزويرا ، وذلك فيما إذا كانت المواد التى يراد فحصها أو رسمها غير كاملة حتى يضطر فاحصها أو راسمها ، وهو يضع حلقاتها بعضا بإزاء بعض فى سلسلة ارتقائها أن يملأ بينها بحلقات فرضية إلى أن قال. فبعد هذا الاعتراف يجب أن أحسب نفسى مقضيا علىّ وهالكا ، ولكنه يعزينى أن أرى بجانبي فى كرسى الاتهام مئات من شركائى فى الجريمة وبينهم عدد كبير من الفلاسفة المعول عليهم فى التجارب العلمية وغيرهم من علماء الأحياء (البيولوجيا) فإن كثيرا من الصور التى توضح علم أبنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة المنتشرة المعول عليها مزوّر مثل تزويرى تماما لايختلف عنه فى شىء اه .

ثم إنه قدم استقالته مكرها من الكلية بعد أن قضى ثلاثين سنة أستاذا فيها. وهذه القصة نقلتها من الجزء الأول من كتاب « نقد فلسفة داروين » أفلا ترى أن هذا الرأى الذى اتبعه قوم راجع إلى المتشابه فى المادة كالمتشابه فى القرآن ؟ فإذا قال الله تعالى (نسوا الله فنسيهم) وقال العلماء: إن هذا متشابه والمحكم قوله تعالى (وماكان ربك نسيا) هكذا فى الطبيعة هنا هذه السلسلة عند قوم متشابهة لأنها فى نظرهم الذى لايتجه إلا إلى وجهة واحدة تدل على أنه لاصانع لها لأنها مشتقة بعضها من بعض بتوالى الأزمان فأين محكمها إذن ؟.

المحكم فى الطبيعة الذى يشبه الآيات المحكمة فى الوحى وهو القرآن : حشرة أبى دقيق مثلا

(١) قال الدكتور جوستاف جوليه : يكفى أن نتأمل حشرة أبى دقيق فإنها تنادى على رءوس الأشهاد بإبطال نظريات داروين فى وجود الأنواع وترقيها . إن الحشرة ظهرت من أقدم العصور وأنواعها ثابتة فهى تناقض تلك المذاهب القائلة بالتحول المستمر فأين التحول المستمر هنا؟ أولايرون أنها تنتقل داخل الفيلجة (الشرنقة) من كونها دودة إلى أنها طائر، ثم قال: وياليت شعرى أين العلاقة بين الدودة والحشرة ، ولقد نقض مذهب

لامارك ومذهب داروين ، ومن العجب أن هذين المذهبين يعجزان عجزا تاما عن تفسير تلك الغرائز العجيبة المدهشة التي تظهر في الحيوانات . وأنا أقول :

أفلست ترى أن كلام العلامة جوستاف جوليه يدلنا أن هنا شيئين نرجع إليهما وهما حشرة أبي دقيق والغرائز البديعة العجيبة التي لاتتناهى في أنواع الحيوان ، إنها لعمرك تعدّ بآلاف الآلاف بل لاعدّ لها فما الذي وضعها في تلك الحيوانات فهذا نعدّه من المحكم ، أما تلك السلسلة ونظامها فهو من المتشابه ، والمتشابه يرجع إلى المحكم فهذا أشبه بما جاء في الآيات التي نحن بصدد الكلام فيها (منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

ووافقه على هذا الرأى العلامة ٢ (فون باير) الألماني مؤسس علم الأجنة (الأمبر بولوجيا) ومن علماء الفزيولوجيا والعلماء المفربين (٣) والأستاذ (ابلى دوسيون) في كتابه المطبوع سنة ١٩١٢ المعنون (الله والعلم) والعلامة (٤) (فيركو) الألماني من علماء (الأنتروبولوجيا) التاريخ الطبيعي للإنسان (٥) والعلامة الأنتروبولوجي الفرنسي دوكلترفاج وكذلك الفيلسوف (٦) سبنسر الانجليزى (٧) والعلامة (ويسمان) (٨) والأستاذ (جورج بوهن) مدير معمل البيولوجيا والبسكولوجيا الحيوانية (٩) والعلامة (أدمون بريه) في مجلة العالم الحي سنة ١٩١٢ قال: إن البط وسائر الطيور المائية لها أرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظنون أن نوع المعيشة قد أوجد هذه الأغشية ولكن الأمر على العكس في مذهب المسيو جينو يقول: إن البط يعوم لأنه وجد لنفسه أرجلا منشأة تصلح للعوم، إن هذه الحيوانات أعدّت قبل العوم ومثله العلامة (١٠) (بلوجر) الألماني والعلامة الفزيولوجي (١١) (دوبوار يمند) (١٢) ودائرة المعارف الكبرى الفرنسية ورأى الدكتور (١٣) ادوارد هارتمان (١٤) و (لويز بوردو) (١٥) و (كاميل فلاماريون) (١٦) و (لوجيل الفرنسى) والأستاذ (١٧) (ميلن ادورد) (١٨) ودائرة معارف القرن العشرين (١٩) وجوستاف لوبون والأستاذ (٢٠) هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمي الفرنسى .

أكثر الناس مقلدون

ولأختم القول في هذا المقام، وأقول لك أيها الذكي: انظر في هذه الدنيا وتعجب من العقول الإنسانية، وانظر كيف ترى أن الناس في بلادنا في مصر في الشام في العراق في الهند في الصين في سائر الأمم والأجناس إذا قرءوا مذاهب الفرنجة وسمعوا أن الإنسان والحيوانات مشتقات بعضها من بعض هامت نفوسهم وانخلعت قلوبهم وتركوا مواهبهم وظنوا أن هذا جاء من علم فوق طاقتهم ، وعقل فوق عقولهم ، وإذا رأوا عجائب الحيوان وغرائزه المدهشة والنظامات الفلكية وأضواء الكواكب وجمال النجوم وبدائع الحياة قالوا نحن لسنا أعلم من أولئك العلماء، إنهم بحثوا فلم يجدوا إلها ، فانظر كيف جاء علماء العصر الحاضر منهم وهو القرن العشرون ، فقالوا بما نعرفه في نظرنا ونظروا جمال الصور ونظام الأعضاء والحكم المدهشة التي لاتكاد تعدّ في أيّ حيوان وأى حشرة وقالوا: إن ذلك القول هراء وزور، وإن الحكمة ظاهرة باهرة في سائر العوالم، فيا أيها الذكي فإما العلم التام وإما التقليد للوحي . أما العلم الناقص فقد هدم ركن الشرق (والله من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) .

فيا أيها الذكي هأنذا قد أودعت لك في هذا المقام مالاتجده في كتاب آخر ، ومزجت لك العلم بالدين ولم أترك لك بابا للشك وأريتك أقوال علماء أوروبا قديمهم وحديثهم وجعلت لعقلك سبيلا للنظر بنفسه والغرام والهيام بهذا النظام والحسن والجمال (إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار) .

تفسير الآية منطبق على الطبيعة ، زيادة إيضاح لها

وهى قوله تعالى (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون: آمنا به كلّ من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب) .

ذكرت لك تفسير هذه الآية وفاقا لساداتنا العلماء السابقين وأبنت لك أن الوحى فيه آيات محكمات وأخر متشابهات ، وقلت لك إن الطبيعة فيها مافى الوحى لأن الوحى كلام الله والطبيعة فعل الله ، والكلام والفعل مصدرهما واحد فلا بد من تماثلهما إحكاما وتشابها فنقول :

كما أن فى القرآن آيات محكمات واضحات لاتشابه فيها كقوله تعالى (وماكان ربك نسيا) فيما تقدّم هكذا فى الطبيعة عجائب واضحات لاتناهى كنظام الإنسان وانتظامها وجمالها ، وأنها جرت على النظام الأكمل نظام الموسيق ذات القواعد الثابتة أجمل الأشكال، وأجمل الأشكال ماكثر فيه التساوى، والذى كثر فيه التساوى الكرة لتساوى أقطارها وأنصاف أقطارها والمكعب الذى فيه متوازيات متساويات كثيرة وفيه الثمن وفيه الثلث الناجمان من ضرب ثمان زوايا مجسمة فى ثلاث زوايا مسطحة ، فقد ظهر فى أعضاء الإنسان مثلا الأمثال الكثيرة والأثمان ومضاعفات الأثمان وهى الأرباع والأنصاف ، وكل هذه معتبرة فى الموسيق بحيث يستلذ السمع بها وتطرب النفس لها كما يحسن الشكل فى العين بمنظرها ، فنظر الإنسان مقبول ، ومنظر المكعب مقبول، وسماع النغمات الموزونات بذلك التقدير مقبول . فهذا هو المحكم فى الطبيعة الدالّ على مبدع مدبر حكيم ودود كثير الودّ لعباده لإنعامهم بالجميل وإدخال السرور عليهم .

وأما المتشابهات أى اللاتى لا تلم فى الطبيعة لبعض الناس لوقوف أذهانهم عندها وعكوفهم عليها فهى ماتقدّم شرحها من تلك السلسلة الحيوانية وسير الجنين فى الرحم على مقتضاها مما يوقع فى النفوس أنها مشتقة بعضها من بعض ولا خالق لها ولا رازق ، فذلك كالمتشابه فى القرآن كقوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) فظاهر النسيان كما تقدم من المتشابهات (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) عن الحق فى القرآن (فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة) والمفتون بالشئ المغرم به العاكف عليه لاينظر إلى سواء هائم فيه ، وفى الحديث «حبك الشئ يعمى ويصم » فأهل المذاهب المنحرفة وأهل الفرق الضالة فى الإسلام أغرموا وفتنوا بمسائل عدوها مذاهب وكفروا أو فسقوا غيرهم أو حكموا بكفرهم مع موافقتهم لبقية الفرق فى الدين كله ، ولكنهم عكفوا على مسألة واحدة وظنوها كل شئ . هكذا هؤلاء العلماء الذين نظروا فى سلسلة الحيوان ، ونظام الجنين على مقتضاء فتنوا به وأغفلوا ماعداه من جمال الأشكال وحسن النظام وتبادل المنافع بين طوائف الحيوان والإنسان والنبات ، وتوافق المزايا والتشارك المستمر بين أصناف المخلوقات ، وفتنوا بمسألة واحدة من آلاف الآلاف ، فقالوا: إن الطبيعة لاصانع لها ، فجاء المحققون منهم فى أوروبا فى القرن العشرين وأظهروا الحقائق ورجعوا إلى المحكم وردوا المتشابه إليه كما رددنا نحن آية (نسوا الله فنسيهم) إلى الآية المحكمة (وماكان ربك نسيا) .

فيقال إذن هؤلاء المفتونون بمسألة واحدة العاكفون على وجه واحد صرفت أذهانهم عن غيره وباتوا لايرون إلا مافتنوا به كما لايرى المغفلون فى هذه الحياة إلا ماأحبوا من جاه أو مال أو ولد أو صيت مع أن الحياة أكبر من أن تقتصر على وجه واحد ، بل هى عجائب وحكم وعلوم ونظام ودار انتقال، هكذا المفتونون بمسألة واحدة فى الدين كالإمامة والخلافة وكالمفتونين من علماء أوروبا بسلسلة الحيوان وغفلوا عن جميع الجمال والحكم .

نقول: هؤلاء كلهم يقال لهم إن فى قلوبهم زيغا وميلا فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة به والغرام وإغفال ماعداه وابتغاء تأويله ومعرفة حقيقته ، ومعلوم أن المفتون لايعرف إلا ماتشابه (ومايعلم تأويله إلا الله

والراسخون فى العلم) الذين ليسوا مفتونين بوجه واحد ، بل نظرهم عام فى الدين وفى الطبيعة حال كونهم (يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا) لأنهم نظروا نظرة عامة وقلبوا المسائل على جميع وجوهها المختلفة فظهرت الحقائق بالبرهان لابالهوى والغرام بالشىء والافتتان به (وما يذكر إلا أولوا الألباب) وما يعرف الحقائق إلا أولو العقول الراجحة وهم الراسخون فى العلم، لا المفتونون الذين يعمون عن الحقائق ولا يصغون للبرهان ، وهذا التفسير يجعل الراسخين فى العلم معطوفا على لفظ الجلالة .

ولا تظن أن تفسير الآية بعلم الطبيعة إلا بجعله نظيرا وشبيها بما جاء فى القرآن من باب المقايسة والمشاكلة وإلا فالآية مسانها لآيات القرآن وحدها .

ولقد جاء لها فى القرآن معنى آخر قد سبق، وهو الوقوف على قوله (إلا الله) والابتداء بقوله (والراسخون فى العلم يقولون آمنا به الخ) وأنهم يسلمون بأنهم لايعلمون ، وقد حمل العلماء هذا المعنى على المسائل التى لايمكن معرفتها فى الدين كوعد قيام الساعة وكمقادير الثواب والعقاب وهكذا .

ونظيره هنا معرفة عدم التناهى والإحاطة بالنفس الإنسانية فإن الإنسان يدهش أمامها صاغرا ، فلأشرحنّ لك علم النفس أى ظواهره التى وصل لها الناس لترى أن هذا الإنسان الذى أدهشك شكله ونظامه وهندسته وترويقه وإحكامه وعجائب جسمه له نفس أرقى وفيها من الحكم والغرائب مالايستقصى وستستصغر ماعلمته الآن من نظام جسمه وعجائب خلقه فى جانب عجائب نفسه وما لايتناهى من غرائبها فأقول :

النفس الإنسانية وعجائبها

اعلم أن أمر الإنسان فى باطنه أعجب مما مرّ عليك فى ظاهره. ذلك أن حياته تدعوه إلى مالاحصر له من العلم والعمل ، وبيانه أن تقول : إن الحياة تتوقف على غذاء وملبس ومسكن ودفاع عما ملكه ، وهذه تحتاج إلى قوى داخلة فى نفسه وهى الشهوة والغضب والعقل .

أما الشهوة فبها يطلب الغذاء والملابس والمسكن ، وأما الغضب فيه يحافظ عليها ، وأما العقل فإنه يدبر الأمور لنظامها وإدارتها .

فالشهوة للطعام أعانتها الحواس الخمس على جلبه واصطفائه ، فالذوق يعرف الحلو والحامض والمرّ والمالح ، ومأأشبه ذلك، والشم يدرك الروائح . والسمع والبصر يدركان العدوّ والصديق والقريب والبعيد وأنواع الطعام والشراب والملابس والأدوات التى تبنى بها المساكن .

هذه قوى عظيمة فانظر كيف كانت حياة الإنسان تسخر لها هذه العوالم وكيف منح الإنسان كالحيوان قوة الشهوة والرغبة فى طلب الطعام مثلا فأعانته قوة الذوق فى اللسان فعرف الحلو والحامض والمرّ فتجاوز التراب والحجر واصطفى المواد النباتية والحيوانية وميز بين الخبز والجبر والطين والحديد ولم يدخل من الطعام إلا مايصلح لتركيب جسمه ونظامه .

عجب يعيش الإنسان ويموت وهو غافل عما أعطى من المواهب والنعم يجوع فيأكل ويعطش فيشرب وهو لايدرى تلك النعم والعطايا، تلك المواهب الثمينة تلك الآيات البينات تلك الدرر الغوالى تلك السعادات والعجائب، ياليت شعرى كيف يعيش ابن آدم ويموت وهو لم يدرس إلا ماحوله من نبات وحيوان وماء وطعام وقد غفل عن تلك العوالم التى هى فى داخل جسمه من شهوة جاذبة لتلك الأطعمة وديدبان واقف على باب جوفه فى لسانه ينتقى مايوافق جسمه ويطلب مايصلح لأن يقوم مقام مافنى من أعضاء جسمه وما تحلل منها. يعيش المرء ويموت وهو لايعرف تلك النعمة الجزيلة والآية الكبرى والحكمة العالية . كيف يجد فى فمه ذلك الحارس الدافع لما لاينفع الجسم من التراب والحجر والطين والأطعمة المرة والحادة والحارة الشديدة الحرارة ولا يدخل إلا بعض مانبت فى الأرض أو كان من الحيوانات أو الماء على طريقة خاصة .

ثم هو يجد هناك قريبا من ذلك الديدبان الجالس على اللسان ضابطا واقفا قريبا منه جالسا فى المنخرين وهو الشم يشم الروائح فينبه الذوق الجالس على اللسان ، ويقول له لقد فتشت هذا الحامض فرأيته لايصلح للغذاء فلتحترس أيها الديدبان فلا تدخله، فترى الإنسان ينبذه نبذ النواة والبصر واقف من بعيد أشبه بأمير من أمراء الجند يتأمل الصور فيبعد عن الفم ما لا ينبغى أكله ، فترى الطعام يمر أولا على البصر ثم الشم ثم الذوق ، فإذا ما انتهى إليه وقبله دخل فى الجسم بلا توانٍ . بهذه الطريقة يدرس الإنسان كل ماحوله يدرسه ببصره وشمه وذوقه .

فالصور والروائح والطعوم وهى الصفات اللازمة لما حولنا من طعام وشراب تطبع فى حواسنا من البصر والشم والذوق فتعطينا علما بما يوافق ومالايوافق . هذه الدراسة تشارك فيها الحيوان والإنسان، اشتركا فيها ، ولكن الإنسان يزيد علما عن الحيوان لاتساع دائرة عقله وازدياد حاجاته فى المساكن والملابس وكثرة أمراضه التى أوجبت طلب الدواء مما حوله ، وذلك ليزداد تأملا وتعقلا .

ياعجبا هل حكم على الإنسان أن لايرتقى حتى يعرف ماحوله ؟ هل زادت حاجاته فى الملابس والمساكن والأدوية حتى يفكر ويعقل ماحوله؟ وإلا ظل فى العوالم السفلية وإلا فلماذا كل هذه التكاليف يكلف بما فوق طاقة الحيوان . يكلف الملابس من حرير وقطن وكتان وصوف ، والأدوية ليستخرجها من النبات والحيوان والزينة ليستخرج اللؤلؤ والمرجان من البحر ، لم كل هذا ؟ أليس ذلك ليتعرف ماحوله ليدرس هذا الوجود وإلا فما قيمة الطعام والشراب حتى يحتاج لهذه الدروس والمدارس ، ثم ابتلاه بالعداوات فصنع البارود والمدافع والطيارات والحصون . كل ذلك رقى لعقله وزيادة فى شأنه ، وذلك فى الظاهر محافظة على صورته الجسمية وحياته الإنسانية وهيكله المنصوب ووجوده المحبوب .

كيف يفعل الغذاء فى الجسم من العجائب

إذا دخل الطعام فى الفم ونزل إلى المعدة صار كيموسا ، وهذا الكيموس أشبه بقوام اللبن، فانظر كيف أعطى الإنسان قوة التحليل وقوة التركيب ، أما قوة التحليل فإنه لما مزق الطعام فى الفم بالأنياب والأسنان ومضغه وابتلعه وامتزجت به العصارات التى فى الفم والتى فى المعدة انقلب إلى مادة واحدة فى الظاهر أشبه بما هو ظاهر فى الطبيعة من أن الكواكب ترجع فى آخر أمرها إلى مادة سحابية (سديمية) ثم تتحول إلى كوكب جديد ، فإذا صارت تلك الأطعمة فى المعدة كيموسا جذب الكبد ذلك الكيموس فأحاله دما وامتد إلى القلب وإلى سائر العروق، كل ذلك بطريق القوة الجاذبة ، فالجاذبة تطلب الطعام إلى المعدة ثم الكبد ثم القلب ثم العروق الغلاظ ثم الدقاق ، وهكذا إلى أطراف الجسم ، فإذا وصل إلى هذه الأعضاء أمسكته ريثما يتم نضجه ، فترى المعدة تمسكه حتى يهضم وهكذا البقية، وهذه تسمى القوة الماسكة ، ونرى أن فى الجسم قوة تدفع مالايلائم، وهذه تسمى الدافعة فتدفع مالاينبغى إلى الخارج من السبيلين، وهذه تسمى الدافعة ، ونرى أن الدم كلما وصل إلى عضو تمثل بذلك العضو، وهذه القوة تسمى الغاذية، ومتى تغذى العضو نما بطريقة منظمة وهذه تسمى النامية ، ثم إن الجنين فى الرحم يصور طبق الأم والأب عادة ، وهذه تسمى المصورة فتكون القوى التى تتناول الغذاء سبعا .

وهى الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة، وهن متعاونات متفقات متجاورات أشبه بما نرى فى المدن والممالك من معاونة الحدادين للنجارين ، ومن معاونة النجارين للبنائين ، ومن معاونة الندافين للغزالين ، ومن معاونة الغزالين للنساجين ، ومن معاونة النساجين للخياطين؛ هكذا هناك نجد القوة الجاذبة مسوقة لجلب الطعام وهى خادمة للقوة الهاضمة ، والهاضمة خادمة للغاذية التى تعطى كل عضو ما يناسبه والنامية مخدومة بما تقدم كله .

تفصيل أفعال القوى الإنسانية فى الجسم، وأنها أشبه بما فى المدن من الصناع

فتأمل أيها الفطن فى المدن والقرى تجد : (١) الخبازين والطباخين (٢) العصارين الذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار والأدهان من حبوب النبات والزبد والسمن من لبن الحيوان (٣) الخلالين والدباسين والذين يعملون السكنجبين (٤) الذين يعملون الماورد ويصعدون الخل ويقطرون الرطوبات اللطيفة (٥) الذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج والنيلوفر والزيتون (٦) الكناسين والزبالين والسمادين (٧) الذين يحفرون الأنهار والقنى والآبار ليجروا المياه فى خلال المنازل (٨) العجانين وصانعى الحلاوة (٩) الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج (١٠) النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة (١١) صانعى المفاتيح والصناديق (١٢) صانعى السفن (١٣) الذين يعملون القماقم والأباريق (١٤) النحاتين (١٥) الغزالين والحبالين والفتالين (١٦) الحاكة والنساجين (١٧) الرفائين والخرازين والخياطين (١٨) الزارعين والغارسين (١٩) الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب (٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان (٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب (٢٢) أفعال الصباغين والمزوِّقين والدهانين (٢٣) صنع المصورين والنقاشين وأصحاب اللعب .

هذه الثلاثة والعشرون من الصناعات لها نظائر فى جسم الإنسان والناس نائمون لايعلمون أن كل تلك الصناعات فى الطعام الذى أدخلوه فى معداتهم وهى تدفع الطعام إلى الأمعاء ، ثم يكون مالا فائدة فيه مدفوعا إلى الأمعاء الغلاظ ثم يكون مستعدا للخروج .

فلنذكر كل صناعة فى المدينة ونظيرها فى الجسم على هيئة جدول لتكون أسهل تناولا، فهاكه :

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الإنسان
(١) صناعة الخبازين والطباخين	(١) إمساك المعدة الطعام وهضمه وإنضاجه بالحرارة الغريزية
(٢) صناعة العصارين الذين يستخرجون الزيت والأدهان والزبد	(٢) تصفية المعدة الكيموس وأخذ لطيفه ودفعه إلى الكبد ودفع عكره إلى الأمعاء
(٣) صنع الخلالين والدباسين وعمل السكنجبين	(٣) طبخ الكيموس فى الكبد مرة ثانية ونضجه فيصير دما ودفع عكره إلى الطحال واللطيف إلى المرارة والرقيق إلى المثانة والمعتدل إلى القلب
(٤) صنع الماورد وتصعيد الخل وتقطير الرطوبات اللطيفة	(٤) تصفية الدم مرة ثالثة فى الرئتين وجريه فى القلب والعروق
(٥) صنع الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر والزيتون	(٥) تلطيف الدم فى الدماغ حتى يصير رطوبة لطيفة روحانية فى الأذنين والمنخرين والعينين واللسان وما به انفعالات الحواس
(٦) صنع الكناسين والزبالين والسمادين	(٦) دفع ثفل الكيموس من المعدة إلى الأمعاء والمصارين وإخراجها من الجسد
(٧) صنع الذين يحفرون الآبار والقنى والأنهار	(٧) إجراء الدم فى الأوردة إلى سائر الأطراف
(٨) صنع الذين يعملون الحلواء والعجانين	(٨) تجفيف المادة الدموية حتى تصير لحما وشحما
(٩) صنع الذين يطبخون الآجر والخزف والزجاج	(٩) تصليب المادة حتى تصير عظاما

الصناعة فى المدينة	نظيرها فى جسم الإنسان
(١٠) صنع النجارين الذين ينجرون الأساطين وقوائم الأسرة	(١٠) تسوية عظام الفخذين والذراعين
(١١) صنع أسنان المفاتيح وهندسة الصناديق	(١١) تركيب مفاصل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع
(١٢) صنع السفن	(١٢) تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع
(١٣) صنع القماقم والأباريق	(١٣) تركيب عظام القحف وهندامها
(١٤) صنع النحاتين الذين يصنعون الأرحيــة والطواحين	(١٤) خلقة الأسنان وتركيبها وترصيعها
(١٥) صنع الغزالين والحبالين والفتالين	(١٥) خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها وضبها على الأعضاء
(١٦) صنع النساجين والحاكة	(١٦) خلق الجلود والغشاوات
(١٧) صنع الرفائين والخرازين والخياطين	(١٧) إلحام الجراحات والقروح
(١٨) صنع الزراعين والغراسين	(١٨) ظهور الشعر على الجلد
(١٩) صنــع الذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب	(١٩) خلقة الكروش
(٢٠) صنع الذين ينسجون ثياب القطن والكتان	(٢٠) خلقة الأمعاء
(٢١) صنع الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب	(٢١) خلقة الأغشية الرقيقة فى العين
(٢٢) أعمال الصباغين والمزوّقين والدهانين	(٢٢) تبييض العظام وتحمير اللحم وتصفير الشحم وتسويد الشعر ثم تبييضه للكبير
(٢٣) صنع المصوّرين والنقاشين وأصحاب اللعب	(٢٣) تصوير الجنين وخلقة الفراخ فى البيض

هذه شذرة من الصناعات التى فى أجسامنا تصرفت فى الطعام والشراب الذى أكلناه واستخلصناه من أنواع الحيوان والنبات والمعادن فكانت الصناعات التى ذكرناها ٢٣صناعة تراها فى المدن، ولها نظائر فى أجسامنا من الذين يصنعون مالطف ورق ، ومن الذين ينقون المدن من الأدران ومن الحفارين والعجانين وضرّابى اللبن وما أشبه ذلك .

بهذا فلتفهم قوله تعالى فيما نحن بصدده من الآيات (هو الذى يصوّركم فى الأرحام كيف يشاء) فها أناذا ذكرت لك كيفية التصوير فى الأرحام وأمطت لك اللثام عن عجائب كانت مخبوءة فى كتب آبائنا وكتب الفرنجة فأصبحت أمامك جميلة المحيا باهرة الطلعة حسنة القوام تبهج الناظرين وتسر المفكرين الذين يقرءون (وفى أنفسكم أفلا تبصرون . إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) فبهذا فليكن الإيقان ، وبهذا فليكن الإيمان، وبمثل هذا فليعلم دين الإسلام ، و (لمثل هذا فليعمل العاملون) وعلى هذا النمط وبهذه الطرق فليرتق المسلمون وعلى العلماء بعدنا أن ينيروا الأذهان ويعلموا الشبان ويوقظوا الوسنان ويحيوا أمة أماتها الجهل وأضناها الخمل وأحاط بها الأعداء وأمرضها الداء .

أيها العلماء حاربوا الجهالة وأحيوا العلم وأبرزوا جمال العالم المشاهد وجمال الأنفس وبينوا للشبان الجمال

والحسن والبهاء والزينة والتزويق والنظام والكمال فى جسم الإنسان ظاهره وباطنه وخافوا يوما يقال فيه (وقفوهم إنهم مسئولون. مالكم لاتناصرون. بل هم اليوم مستسلمون) .

ولست أقصد بالعلماء إلا الذين قال الله تعالى فيهم : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهم الذين اطلعوا على هذا الجمال وأدركوه ودرسوا هذا العالم وفهموه وقرءوا صنع الله فى الجسم والنفس فعقلوه (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وهم : هم الذين خاطبهم الله ، فقال (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلف ألوانه كذلك) هؤلاء هم العلماء الذين يخشون الله خشية ناجمة من إدراك جماله والصور البهجة التى زوّنها والصناعات البديعة التى أبدعها أولئك هم المسئولون .

فمن قرأ هذا التفسير وأدرك الحقائق فليعلم وليشوّق الناس فلا حياة للمسلمين إلا بهـذه النظرات ولا سعادة لهم إلا بهذه الآيات ، ولا نجاء لهم إلا بما قدّمناه ولا رقىّ إلا بما رسمناه ، ذلك هو الصراط المستقيم (وفوق كل ذى علم عليم) .

مناظر الأنفس أشبه بمناظر الآفاق

قـد استبان لك بما قررناه أن الحياة الإنسانية احتاجت إلى شهوة عاونتها الحواس من الذوق والشم والبصر وإلى غضب به يحافظ الحى على ماملك من نبات وحيوان وطعام ومتاع ، وعقل به يدبر هذه كلها وقد تبين لك أن الذى تتصرف فيه وتنتفع به من النبات مئات الألوف وكذا الحيوان والمعادن والماء فى الأنهار والأرض وما عليها والكواكب بأنوارها والهداية بها فى ظلمات البر والبحر ، وأنت تعلم أن هـذه عجائب لا تتناهى ، فانظر الآن فى نفسك وتأمل هل ترى فيها مناظر وعجائب مثل ما تراه بعينك فى هذا العالم ؟ أما أكثر الناس فإنهم يقولون: كلا ليس فى أنفسنا شىء مع أنك تراهم فى أكثر أوقاتهم يحسون فى أنفسهم بقبض وبسط وحقد وحسد وغيرة وفرح وترح وبخل وكرم وقناعة وحرص وفكر وتذكر وما أشبه ذلك ، وكل هذه المناظر المختلفة تشغلهم فى سائر أوقاتهم وتلهيهم عن التمتع بما حولهم ، وقد ترى المرء مطرقا مفكرا طول يومه لاينظر الصور الجميلة حوله من شجرونبات وإنسان. لماذا ؟ لأن عدوّه يتربص ليقتله أو أنه يفكر فى حبيب غائب أو فى دين عليه أو دين له . كل ذلك لمناظر وأنواع من الوجدان قد أحاطت بالنفس فألهتها عن كل شىء ، وتلك الأنواع النفسية لها وجود ولولا أنها موجودة ماشغلنا بها ولا أضاعت أوقاتنا ولا أورثتنا مرضا تارة وصحة تارة أخرى .

إذا فهمت ذلك فلتعلم أن المناظر التى تراها تنقسم إلى قسمين : قسم نكرهه ، وقسم نحبه ، فالذى نكرهه مثل : الذباب ، والحيات ، والعقارب ، والآساد ، والنمور ، والشوك ، والحنظل ، والأعداء .

والذى نحبه مثل : النجوم . والأزهار ، والأشجار ، والأنهار ، والمزارع الجميلة ، والطيور المغردة ، والحيوانات الأنسية ، هكذا مافى النفس من الوجدان فإنه منقسم إلى قسمين : محبوب كالكرم ، والعلم ، والحلم ، والإحسان . ومكروه مثل : البخل ، والحرص ، والجهل ، والحمق ، والجور ، والجبن وما أشبه ذلك ، فالذى سميناه محبوبا هى الفضائل ، والذى سميناه مكروها هى الرذائل ، فالرذائل فى الإنسان كالحيات والعقارب مكروهات، والفضائل فى الإنسان كالطيور المغردة والصور الجميلة ، فلأبين لك القسمين فى هذا المقام لتنظر كيف كانت القوة الشهوية والقوة الغضبية والقوة العاقلة قد أنتجت أنواعا وأصنافا من الوجدان كأنها حدائق من الجنات ومزارع نضرات، وتارة كأنها نار متأججة أو حيات وعقارب فكأن تلك القوى النفسية لما كانت أهمّ الأسباب فى رؤية المخلوقات المشاهدة فدرست علوم الآفاق كانت هى أنفسها فى النفس ذات مناظر مختلفات من جنات وأعناب ونار وجحيم وعقارب وحيات جهنمية (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

أنواع

أنواع المحبوبات من الوجدان الداخلي التي تفرعت من القوة الشهوية والغضبية والعقلية
وهي تبلغ نحو ٦٠ نوعا نذكر بعضها

(١) الرأى . الفكر . الظن . التصوّر . التخيل . الإحساس . الموافقة . النزاع .

فالأول غاية الفكر ونهايته ، والثانى البحث عن المعارف ، والثالث قياس الأشياء من ظواهرها ، والرابع إفراد صورة عن صاحبها ، والخامس بيان صور المحسوسات بعد مفارقتها ، والسادس قبول صور المحسوسات ، والسابع مصادفة الحىّ مطلوبة ، والثامن انبعاث النفس نحو الشئ الملائم :

(٢) الصدق . النطق . التمييز . الفهم . الحكمة . الذكاء . الحفظ . الذكر . العقل .

فالأول الإخبار بالشئ على ماهو عليه ، والثانى شرف الإنسان وبه فضل على الحيوان ، والثالث حصول الفرق بين الحق والباطل والخير والشر ، والرابع حصول المعانى الواردة على النفس ، والخامس إدراك أفضل المعلومات ، والسادس سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس ، والسابع ثبات صور المعانى فى النفس ، والثامن حصول ما سبق وجوده فى الذهن ، والتاسع الحكم على حقيقة المطلوب بما هى كذلك هذه ١٧ نوعا فضائل القوة الناطقة .

(٣) احتمال الكد . الشهامة . النجدة . كبر النفس . التواضع . التثبت . عظم الهمة . العفو . حسن الخلق . البشر . الرحمة . الحلم . الشجاعة .

فالأول استعمال البدن فى الأعمال الحسنة كطلب الرزق والعبادة ، والثانى الحرص على الأعمال العظام توقعا للأحدوثة الجميلة ، والثالث ثقة النفس عند المخاوف ، والرابع الاستهانة باليسار والاقتدار على حمل الكرامة ، والخامس إظهار الخمول واجتناب المباهاة وترك العجب ، والسادس القوة على احتمال الآلام ، والسابع استصغار ما دون النهاية من معالى الأمور بالأنفة بترفع النفس عن الأمور الدنيئة وبالحمية وهى الغضب عند الإحساس بالنقص وبالغيرة وهى إظهار الغضب فيما يخشى عاره ، والثامن أنفس الأخلاق وهو الفضل الحقيق ، والتاسع خلق شريف للأنبياء والأولياء ، والعاشر إظهار السرور بمن نلقاه والإقبال على محادثته ، والحادى عشر هو عبارة عن حزن مصحوب بمودّة لمن أصابه الألم ، والثانى عشر هو ترك الإساءة لمن أساء إلينا مع القدرة على المجازاة ، والثالث عشر هو الإقدام على الأخطار حيث يجب استصغار المصائب فى سبيل الشرف . فهذه فضائل القوة الغضبية .

(٤) الوقار . الصيانة . الانتظام . حسن السمت . الحرية . الدماثة . الدعة . الصبر . الورع . الحياء . السخاء . النزاهة . كتمان السر . القناعة . العفة .

فالأول حفظ النفس عن الحركات الزائدة والرزانة عند الأحوال الواردة ، الثانى تجنب مايقبح من القول والفعل المبتذلين كالسخرية والمزاح والأفعال الساقطة ، الثالث أن تكون للنفس حال بها تعرف كيف تقدّر الأمور على أحسن وجه ، الرابع أن تتشكل النفس بالزينة الحسنة وللظهر المقبول كالسمت والوقار ، الخامس أن يكون الكسب من جهة يشرف بها صاحبها كالكتابة والهندســة والطب ، السادس الدماثة أى سلامة النفس وطاعتها وسهولتها فى الأمور الشريفة العالية ، السابع أن تثبت النفس عند مغالبة الشهوات وتسكن إذا اهتاجت أعاصير اللذات ، الثامن أن تغلب النفس هواها إذا بدت بوادره ، التاسع أن يقصد الفعل الجميل إذا غالبته الشهوات القبيح فكأن الصبر تتلوه الدعة يتبعها الورع ، فالأول للمغالبة ، والثانى للثبات ، والثالث لمحو القبيح والتزين بالجميل ، العاشر انكسار النفس خيفة إتيان القبيح وترك التقصير فى حق ذى الحق . الحادى عشر أن يبذل المال من غير إفراط ولا تفريط بحيث يكون سجية للنفس ، الثانى عشر أن يتباعد الإنسان عن المواقف الشائنة .

أما كتمان السر والقناعة والعفة وهى (١٣ و ١٤ و ١٥) فهى ظاهرة ، ولننبه على أن القناعة الرضى بما سهل ، أما العفة فهى عن قبيح الشهوات .

فهذه ٤٦ نوعا من الفضائل للقوة العقلية والشهوية والغضبية التى غرست فينا لنحيا بها ، وهذه القوى مغروسة فى الحيوان، ولكن القوة العاقلة هى التى نمت فى الإنسان، والقوة الغضبية تبدّت فى الآساد والنمور، والقوة الشهوية ظهرت فى الخنزير وسائر الأنعام وما أشبهها .

وهذه كلها مما غرست فى الإنسان لحياته . الإنسان إذا اتسم بالوقار والصيانة والانتظام وحسن السمت والتخيل والذكاء والحكمة والعقل والإحساس والفكر والشهامة والنجدة والشجاعة وأمثالها فإنه يرى فى نفسه جنة عرضها الأخلاق الجميلة المذكورة وأمثالها وطولها راحة الضمير وسرور النفس، ولا معنى للسعادة إلا ما أحس به الإنسان ولا فضل للمناظر التى لاتقتنصها النفس فترتسم فيها صورتها وتبتهج بجمالها .

الجنات والأعناب والحور والولدان لا لذة فيها ولا ثمرة إذا كانت النفوس عنها منقبضة والحواس غائبة ؟ فالناس لايفرحون ولا يسرون إلا بما أحسته نفوسهم وشعرت به قواهم وخزن فى أنفسهم واطلعت عليه نفوسهم، فهذا هو الذى به يفرحون ؛ فالمحبوب هو الذى شعرت به النفس مما يلائمها والمكروه ما شعرت به مما لايلائمها ، والذى لايلائمها هى الرذائل التى أشبهت الذباب والحشرات الضارات والحيات والعقارب والآساد والنمور وسائر المؤذيات وهى المطلعات على الأفئدة الحائمات حول القلوب المؤلمات للنفوس المزريات بالشرف.

الأخلاق المذمومة

السفه . الرياء . النميمة . التبذل . الغدر . الخرق . الحمق . الكذب . الجهل . المكر . الخبث . البلادة، فهذه (١٢) خلقا مذموما من أخلاق القوة العاقلة ، والفرق بين الخرق والحمق أن الأول الحركة عن غير حاجة وعدم التدبر فى مزاولة الأعمال . والثانى معرفة الصواب وترك العمل به (١) والذعر ويكون من صورة غير مألوفة (٢) والحذر ويكون من شعور أمر مترقب واشتباهه (٣) والفرق الهيبة من شئ عظيم يضعف عن احتماله (٤) والحياء (٥) والخجل ، والأول جزع من صورة شئ قبيح قد فعله ، والثانى جزع من أن يعرف بشئ قبيح لم يفعله (٦) الكسل (٧) الغدر (٨) العناد (٩) اللاحاة (١٠) التعيير (١١) الحزق (١٢) الهزل (١٣) المزاح (١٤) الفخر (١٥) العجب (١٦) الزهو . فهذه (١٧) خلقا ناجمة عن القوة الغضبية من الصفات المذمومة والأفعال المرذولة والحرص والشماتة .

وبطلان الشهوة والمجون وإفشاء السر والخيانة والبخل والشره والفجور ، فهذه تسع صفات مرذولة من آثار القوة الشهوية فهذه ٣٧ خصلة مذمومة .

فالبليد والسفيه والمرائى والنمام والغادر والأحمق والمعجب بنفسه والخجل وأمثالهم كل هؤلاء يحسون بنقص فى أنفسهم وكراهة من الناس، فتكون هذه أشبه بما نشاهد فى العوالم من النقائص المؤذية ، إنما هذه أنكى وأسوأ وقعا وأشد فتكا بالإنسان من الأعداء الخارجين ، فإن هذه حيات وعقارب وآساد وزنابير تلدغ صاحبها فى يقظته وفى نومه وتؤذيه صباح مساء .

فأكثر الناس يعذبون فى الدنيا وهم لايعلمون أنهم معذبون ، ويهانون وهم لايعلمون أنهم مهانون، وتلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ولا يعلمون أنهم معذبون .

قد استبان لك فى هذا المقام أن فى النفوس مناظر سارة وأخرى مؤلمة ، كما أن فى الآفاق مناظر مفرحة وأخرى مؤذية .

ذكر آيات قرآنية مطابقة لما تقدم مع تلخيص مامضى بحيث يجمع ماذكرناه وبه يستغنى اللبيب فى علم الأخلاق

فتأمل أيها الذكى فيما أوضحته فى هذا المقام من هيكل الإنسان وعجائب صورته وحسن نقشه وكيف كان مركبا من : أعضاء ، وحواس ، وأظفار ، وشعر ، وعظام ، ولحم ، ودم ، وشحم ، ومخ ، وعصب ، وشرايين ، وأوردة ، وطحال ، وقلب ، وكبد ، ومرارة ، وحالبين ، ومعدة ، وأمعاء ؛ وله أبواب تبلغ ١٢ ورجلان ، ويدان ، وكيف كان هذا التركيب نهاية ما بلغه الكمال ، وكيف كان آخر سلسلة وصل إليها الارتقاء من أدنى الحيوان إلى أعلاه ، وكيف مرّ على هذه النظم الحيوانية وهو فى الرحم فمر على القدعيات والهلاميات والحيوانات القشرية والحيوانات الفقرية وانتهى إلى آخرها ، وكيف كان مفصل الأعضاء تفصيلا عجيبا ، وانسقت صورها اتساقا بهيجا فكانت مقيسة بشبره حتى كانت العينان معا طول الأنف ، وهكذا شق الفم والشفتان وكان مابين الأذنين طول القدم وهكذا من الجمال الموسيقى ، وكيف كانت المماثلة بين أطرافه وأطراف الحيوان من أنواع المماثلة التى هى من أنواع الجمال الظاهرة فى تماثل أوراق الشجرة فيما تراه ، وكيف تشابه ذلك على العلماء ، وكان هذا التشابه كالذى جاء فى الوحى من الآيات المتشابهات ، وكيف كان هيكل الألمانى وأحزابه يتبعون ماتشابه منه ، وكيف جاء علماء القرن العشرين فأزالوا الشبهة وحلوا العقدة وقد ذكرنا منهم عشرين عالما وأبنا أن الجمال الباهر فى هذه الطوائف يدعو إلى الإعجاب ، ثم كيف كانت الحياة الإنسانية مملوءة بالعجائب، فشهواتنا قدأعطيت آلات تستعين بها من الحواس وغيرها فميزنا الخبيث من الطيب فى النبات والحيوان وسائر المخلوقات ، ثم نظرنا فى أنفسنا فرأينا صناعات مختلفة فى أعضائنا وخواصها وقد ذكرنا منها ٢٣ نوعا تضارع الصناعات المشاهدات فى المدن ، ثم قفينا بذكر آثار القوى الثلاثة من الفضائل والرذائل كما كان فى المشاهدات الخارجية .

القبيح والجميل

بهذه الصور نفهم قوله تعالى (ونفس وماسوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فالفجور والتقوى قد بانا فى هذا المقام ، وبهذا نفهم (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله تعالى (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) فلقد بان لك حسن تقويمه وبان لك كيف رد إلى أسفل سافلين بالأخلاق الرديئة ، وقوله تعالى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) وقوله تعالى (ولا أقسم بالنفس اللوّامة أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوّى بنانه بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) وقوله تعالى (فلينظر الإنسان ممّ خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب) وقوله تعالى (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) وقوله تعالى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج (أخلاط) نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وقوله تعالى (ولقدخلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) .

نداء المفسر للمسلمين وبيان أن علم التوحيد هو نفس هذه العلوم من التشريح ووظائف الأعضاء

أيها المسلمون كيف جاز لكم أن تثاقلوا إلى الأرض وترضوا بالحياة الحيوانية وتبعدوا عن نظام ربكم وعن جمال خالقكم وعن معرفة صنعته؟ كيف يقول لكم مامعناه : خلقنا الإنسان من نطفة فعلقة فمضغة فعظام فلحم فإنسان سميع بصير؟ كيف يقول هذا لكم وأنتم عن آياته معرضون ؟.

أفليس هذا هو علم التوحيد حرام والله حرام أن تغفلوا عن هذه العلوم ؟ هذه العلوم واجبة على كل قادر

يقول الله (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) ويقول (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) .

فأين الشكر أيها المسلمون أين الشكر ولا شكر هنا إلا بالعلم فأين العلم ؟ العلماء هم الفرنجة . أما نحن فنصيبنا من الدنيا الجهل أبهذا جاء نبينا أبهذا نزل القرآن أبنزل القرآن على أمة ويقول الرسول يوم القيامة (يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا) أو ليس هذا هو الهجر .

يا أمة الإسلام ، ياعلماء الإسلام ، ياملوك الإسلام ، ياقواد الإسلام أمعنوا النظر فيما ذكرت وتفكروا فيما قررت ، فوالله لئن لم تقوموا بعلوم هذا الدين ليستخلفن الله فى الأرض قوما خيرا منا (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم) . وإلا فلماذا أنزل هذا الدين ءأنزله ليقرأه الجاهلون ويتعلمه الغافلون .

هذا ولقد آن أن يرجع مجد المسلمين وينصر الله به أمما كانت غافلة ورجالا كانت فى ملابس الجهالة رافلة (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) فاقرءوا علوم التشريح ووظائف الأعضاء وعلوم الطبيعة وخافوا من الله أن تجهلوا هذه العلوم كما كان بعض من قبلنا يخافون أن يعلموها . فهذا أوان الانقلاب وظهور الحقائق . لقد ظهرت الحقائق واستبان السبيل وبانت حجة الله على المسلمين فليقرءوا سائر العلوم لاسيما التشريح ووظائف الأعضاء .

هذا هو معنى قوله تعالى فى هذه السورة (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لاإله إلا هو العزيز الحكيم هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب) هذا تمام تفسير هذه الآيات .

ولما كان فى هذه الآيات إشارة إلى أن الشبهات قد تزيغ بها الأفئدة ناسب أن يدعو العبد ربه أن لا يوقعه فى الزيغ بعدها فقال تعالى (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لايخلف الميعاد) .

القسم الثالث من سورة آل عمران

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ * زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ * شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *

مجمل التفسير فى هذه الآيات

(إن الذين كفروا) من اليهود والنصارى ومشركى العرب (لن تغنى) لن تنفع، أو لن تدفع (عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا، أو يقال إنّ من بمعنى عند أى عند الله شيئا (وأولئك هم وقود النار) حطبها . ألا وإنّ عادة هؤلاء الكفار من المعاصرين لك يا محمد وفعلهم وحيفهم فى تكذيبك وجحود الحق (كدأب آل فرعون) أى عادتهم وفعلهم وصنيعهم، فإنهم كذبوا موسى وصدّقوا فرعون (و) دأب (الذين من قبلهم) وهم كفار الأمم الماضية مثل عاد وثمود حال كونهم (كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) زيادة تخويف للكفرة وتهويل وزجر . وقال ابن عباس وغيره: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال : يامعشر اليهود احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش يوم بدر وأسلموا قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبىّ مرسل تجدون ذلك فى كتابكم ، فقالوا يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة وإنا والله لو قاتلناك لعرفت أنا نحن الناس فأنزل الله عز وجل (قل) يا محمد (للذين كفروا) أى اليهود (ستغلبون) أى ستهزمون (وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) أى الفراش ، أى بئس ما مهدوه لأنفسهم أو بئس ما مهد لهم، وقد حقق الله ذلك فقتل المسلمون بنى قريظة وأجلى عمر بن الخطاب بنى النضير إلى الشام كما فتح النبى صلى الله عليه وسلم خيبر وضرب الجزية على طائفة من اليهود ، وهذه الآية مثل من دلائل النبوّة لأنه خبر قد تحقق فيما بعد (قد كان لكم آية) أيها اليهود (فى فئتين التقتا) يوم بدر (فئة تقاتل فى سبيل الله) أى طاعته وهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكانوا ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا سبعة وسبعين رجلا من المهاجرين وستة وثلاثين ومائتى رجل من الأنصار وكان صاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وكان فيهم سبعون بعيرا وفرسان وكان معهم من السلاح ستة أدرع وثمانية سيوف هذه فرقة مسلمة (وأخرى كافرة) أى وفرقة أخرى كافرة وهم مشركو مكة وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا من المقاتلة وكان رأسهم عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وكان فيهم مائة فرس وكانت وقعة بدر أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة (يرونهم مثليهم) أى يرى المشركون المؤمنين مثلى عدد المشركين فكأنهم كانوا يرونهم قريبا من ألفين ، وقد قلل الله عز وجل المسلمين فى أعين المشركين فلما التقى الجمعان خيل لهم أن المسلمين ضعف عدد المشركين (رأى العين) رؤية ظاهرة معاينة (والله يؤيد بنصره من يشاء) نصره كما أيد

أهل بدر (إن فى ذلك) التقليل أولا والتكثير ثانيا وغلبة القليل عديم العدة على الكثير شاكى السلاح (لعبرة لأولى الأبصار) أى لعظة لذوى البصائر . وأصل العبرة من العبور كأنه طريق يعبرونه فيوصلهم إلى مرادهم، وهؤلاء يعبرون من منزلة الجهل إلى منزلة العلم (زين للناس حب الشهوات) أى زين الله الناس حب المشتهيات. والشهوة توقان النفس إلى الشئ المشتهى، وإنما زينها الله لأنها من أسباب التعيش وبقاء النوع (من النساء والبنين) بدأ بالنساء لأن الحب لهن شديد أودعه الله فى قلوب الرجال وفى قلوبهن للحكمة البالغة وهى بقاء النوع ولولا تلك المحبة البالغة بينهما ما كان ذلك ؛ وخص البنين بالذكر لأن حب الولد الذكر أكثر من حب الأنثى لأن الأب يتكثر به وهو يعضده ويقوم مقامه (والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة) القنطار المال الكثير هذا هو أصل المعنى، فإذا قيل إنه مائة ألف دينار أو ملء جلد ثور أو ألف أوقية أو ألف ومائتا مثقال فذلك يرجع إلى اصطلاحات الناس التى نقلت عن السلف وكل قال ماسمعه مما وقع عليه اختيار قوم ، ويقال قنطرته إذا أحكمته ومنه القنطرة أى المحكمة الطاق والقنطرة المجموعة ، وصح أن تكون للتأكيد كقولهم بدرة مبدرة (والخيل المسومة) من السمة وهى العلامة فهى معلمة بالغرة والتحجيل أو بالكى ، ويقال أيضا سومت الدابة وأسمتها إذا أرسلتها المرعى ، والمقصود أنها إذا رعت زاد حسنها (والأنعام) جمع نعم وهى الإبل والبقر والغنم (والحرث) الزرع (ذلك) المذكور من هذه الأصناف (متاع الحياة الدنيا) أى الذى يستمتع به فيها وهى زائلة (والله عنده حسن المآب) المرجع ، وهذا تحريض على استبدال ما عند الله من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات الفانية (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أى أؤخبركم بخير مما ذكر من متاع الدنيا (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) هذا مستأنف لبيان ماهو خير (وأزواج مطهرة) مما يستقذر من النساء (ورضوان من الله) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ، فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون وأى شئ أفضل ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » ثم إن العبد إذا علم أن الله رضى عنه كان ذلك سرورا له لا يعادله سرور (والله بصير بالعباد) أى بأعمالهم فيثيب المحسن ويعاقب المسىء وسترى قريبا سر ترتيب هذه النعم وإن أدناها لذات الدنيا وأوسطها الجنة وأعلاها رضوان الله بالتنزه عن العالم المادى «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر» وكما قدمناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى « وأتوا به متشابها » فراجعه هناك ؛ ثم وصف المتقين فقال (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) والغفران ستر الذنوب والتجاوز عنها (الصابرين) على أداء الواجبات وعن المحرمات والنهيات وفى البأساء والضراء وحين البأس كما تقدم فى البقرة وعلى ما أصابهم فى دنياهم من البلاء (والصادقين) فى إيمانهم صدقت نياتهم واستقامت ألسنتهم وقلوبهم فى السر والعلانية فلا يكذبون فى أقوالهم ولا ينصرفون عن أعمالهم حتى يتموها ولا عن نياتهم وعزمهم على الفعل حتى يبلغوه (والقانتين) المطيعين لله المواظبين على فعل الطاعات (والمنفقين) أموالهم على أنفسهم وأهلهم وأقاربهم وأرحامهم وفى الزكاة وجميع القربات (والمستغفرين بالأسحار) الاستغفار طلب المغفرة ، والسحر هو ماقبيل الفجر من الليل وخص بالذكر لأن الدعاء فيه أقرب إلى الإجابة والعبادة أشق والنفس أصفى والروع أجمع والاجتهاد أنجع . روى مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينزل ربنا تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له» ومعنى هذا العطف والرأفة والقرب من الله فلا نزول ولا طلوع، وروى أن لقمان قال لابنه: يابنى لا تكن أعجز من الديك فإنه يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك، وقال نافع: كان ابن عمر يقول يانافع أسحرنا؟

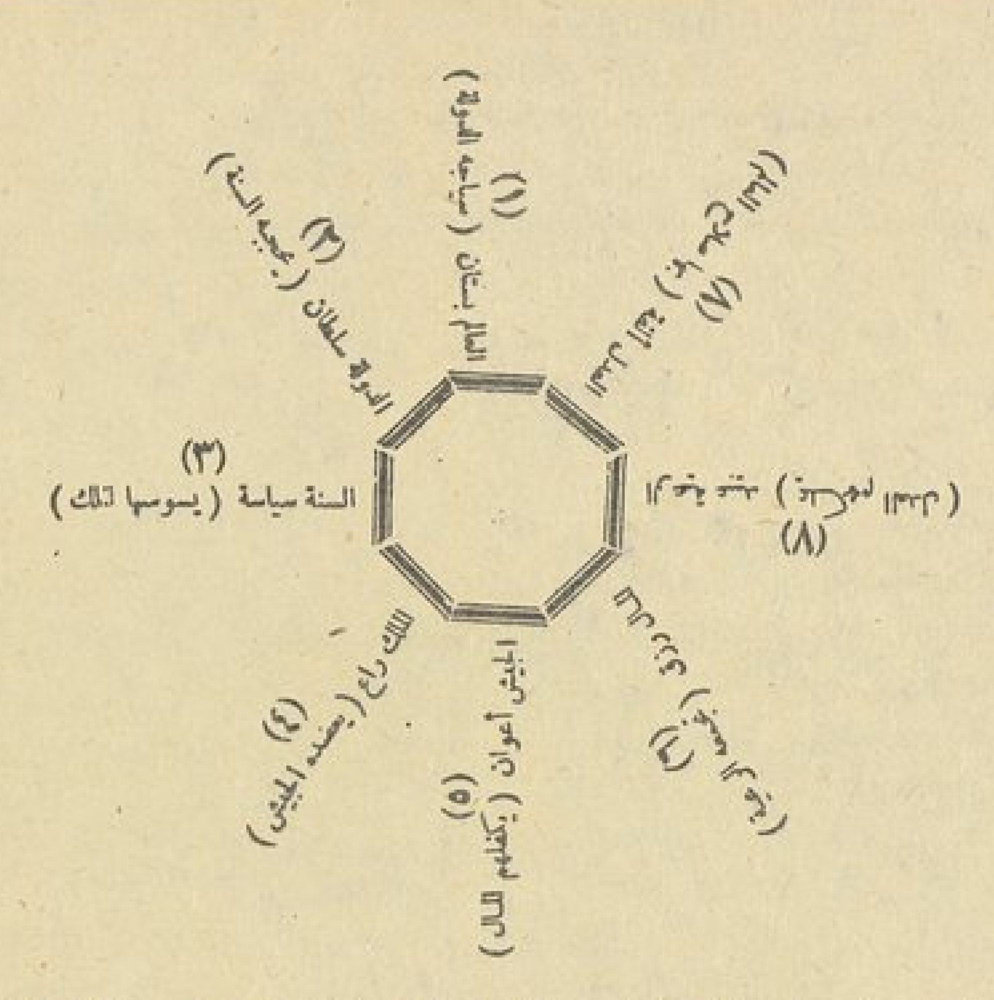
فأقول

فأقول لا فيعاود الصلاة فإذا قلت نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يصلى الصبح (شهد الله أنه لا إله إلا هو) بين وحدانيته بما نصب من الدلائل التى أبدعها فى السموات والأرض وقد شرحناها عند قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض » فى سورة البقرة (والملائكة) لأنهم أقرب إلى علم العجائب الكونية (وأولوا العلم) الناظرون فى ملكوت السموات والأرض من بنى آدم الذين فى هذه الأرض من الأنبياء والحكماء والعلماء وهؤلاء أقرب إلى الملائكة فيعلمون أن الله لا إله إلا هو حال كونه (قائما بالقسط) أى بالعدل والنظام الذى تقدم فى أول هذه السورة وفى سورة البقرة عند آية « إن فى خلق السموات والأرض » وغيرها فراجعها هناك تجد عجبا عجابا (لا إله إلا هو) كرره التأكيد (العزيز) الغالب الذى لايقهر (الحكيم) فى أفعاله، ثم أبدل من أنه لا إله إلا هو (إن الدين عند الله الإسلام) بفتح الهمزة على قراءة الكسائى فكأنه تعالى يقول شهد الله والملائكة وأولوا العلم أنه لا إله إلا هو حال كونه قائما بالقسط وشهدوا أيضا أن الدين عند الله الإسلام والدين هو فى الأصل الانقياد ، ثم جعل اسما لجميع ماتعبد الله به عباده ، وأمرهم بالإقامة عليه ، والإسلام هو الاستسلام والانقياد والدخول فى الطاعة أو هو الشرع المبعوث به الرسل المبنى على التوحيد الذى أتى به آدم والأنبياء بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين » فأصل الدين واحد ، والاختلاف فى الفروع وقرئ بكسر إن على الاستئناف جملة مؤكدة للأولى (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى فى أمر موسى وعيسى وأمر محمد صلى الله عليه وسلم فقالت اليهود عزير ابن الله وثلث النصارى وكذب قوم من الفريقين محمدا صلى الله عليه وسلم بعد مانزل القرآن، مافعلوا ذلك (إلا من بعد ماجاءهم العلم) أى بعد ماعلموا حقيقة الأمر (بغيا بينهم) حسدا بينهم وطلبا للرياسة (ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) وعيد وتهديد لمن أصر على الكفر من اليهود والنصارى اهـ التفسير العام للقسم الثالث من سورة آل عمران.

تفصيل الكلام على ماتقدم فى هذا القسم ببيان المراتب الثلاثة للإنسان ، وهى الشهوات والأعمال الفاضلة والعلوم وأنها درجات بعضها فوق بعض ، وتبيان القيام بالقسط وأن هذا هو دين الإسلام وأنه صبغة الله .

الحكمة فى خلق الشهوات وأنها وسيلة لغيرها

اعلم أن الله عز وجل أودع الشهوات فى الحيوان والإنسان رحمة منه وفضلا وعدلا ونظاما للبرية وإبداعا وحكمة، فمن شهوة الغذاء، إلى الملبس إلى التناسل إلى المساكن إلى عمارة المدن ونظام الأمم وقيام العمران، فلا أمم ولا دول ولا ممالك ولا حرث ولا نسل ولا أنبياء ولا حكماء إذا لم تكن شهوات . فالشهوات من أكبر نعم الله وأعمها وأعظمها بل هى أول نعم الله على عباده ، وهل كانت حكومات الأرض مقسمة إلى أقسام من زراعة وإدارة وهندسة وطب ومحاكم إلا لما تطلبه الشهوات والبقاء فى هذه الحياة . يقال إن أرسطاطاليس أوصى أن يدفن ويبنى عليه بيت مثمن يكتب فى جهاته ثمان كلمات جامعات لجميع الأمور التى بها مصلحة الناس وتلك الكلمات الثمان هى على هذا المثال .



فهذه الشهوات وما يجبى إليها من المال وسائل للكمال الجسمى والعقلى، فمن وقف عندها أذلته فأصبح عقله موقوفا وقلبه محبوسا ونفسه جازعة وحياته ضائعة .

لقد رأيت ماجاء فى القرآن وأن الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والزرع والخيل والأنعام قد زينها الله للناس ، ورأيت الشكل الثمن الذى رسمه أرسطاطاليس، فاعلم أن ذلك متاع الحياة الدنيا وأنه مقدمة والمقدمة غير مقصودة لذاتها فهذه وإن زينها الله وطلبها الملك ما كانت حاجتنا إليها إلا كحاجة الصياد للشبكة والحارث للمحراث والتلميذ للوح ، ولو أن الصائد جعل الشبكة مقصودة لذاتها فى الحياة والصبى جعل اللوح غاية للتى لسكان الصيد ضلالا والعيش وبالا. ذلك مركوز فى الفطر معلوم فى السير درج عليه البشر . اشترك فيه العالم والجاهل والملك والصعلوك ، فلا ترى عزيزا إلا وهو يقول أف من الحياة ولا ذليلا إلا وهو يقول أين الجاه ، ولا موسرا إلا وهو مفتون فى مناه يأتى فيها ابتغاه ، فالناس كلهم أجمعوا على التبرم والتضجر والاشمئزاز فى كثير من الساعات، على ذلك درجوا ، ولذلك خلقوا « وتمت كلمة ربك » على الإنسان والحيوان ، فهم فى العذاب الهون وإن كانوا لايشعرون أنهم معذبون . أليس من العجب أن تكون النعمة بالشهوات نقمة والاعطاء سلبا فأين المخرج إذن؟ قال أبو الطيب المتنبى :

كل من فى الكون يشكو دهره ليت شعرى هذه الدنيا لمن

الشهوات شبكات نصبها الله للناس ليحوبها ، ولكنهم إذا وقعوا فيها نبرموا من المصائب. ظهر ذلك فى كتبهم ونظمه شعراؤهم وأوحاه الله إلى أنبيائهم . ولقد أطنب فى احتقار الحياة ونعيمها ومنفعتها النبى سليمان عليه السلام فى التوراة

فى مقال هناك تحت عنوان (الجامعة) فقال : هكذا باطل الأباطيل وأخذ يشرح الحياة ويذمها ويقول: لاخير فى المال ولا الولد ولا اللذات ولا العلم ، ويقول : ماتحت الشمس من جديد ؟ ومن هذه الحكم : ماالفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس، دور يمضى ودور يجىء والأرض قائمة إلى الأبد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع إلى موضعها حيث تشرق ، وقال : ما كان فهو يكون والذى صنع فهو الذى يصنع فليس تحت الشمس من جديد إن وجد شىء يقال عنه انظر هذا جديد فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا ليس ذكرا للأولين، والآخرون أيضا الذين سيكونون لايكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم، ومنه: رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح، وقال: إن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علما يزيد حزنا(يقول مؤلف هذا الكتاب) لقد قلت فى هذا المعنى فى واقعة حال شعرا:

يقولون إن العلم للهم دافع ... فكيف رأيت العلم أجمع للهم
ألم تر أنى ضاع منى مؤلف ... لطيف فلم أصبر على ذلك الغرم
لأنى قد رصعت بين سطوره ... درارى حتى لايشذ عن الفهم
قضاء قضاه الله فى عالم الدنا ... فرارا من الآساد تغرق فى اليم

عمر الخيام بعد النبى سليمان عليه السلام

وقفى على آثاره عمر الخيام فى منظومته المسماة بالرباعيات التى لم تكن معلومة عند المسلمين وكانت بالفارسية ولم تظهر فى العالم ولم تترجم إلا فى هذه الأيام فقد ترجمت إلى الانجليزية ومنها إلى العربية وسار ذكر الرباعيات فى الأقطار فى أوروبا وفى أمريكا حتى إن هناك اثنى عشر مرسحا لتمثيل رباعيات الخيام وكلها أوجلها لاحتقار الحياة والتماس المخرج منها بالخمر أو ما شاكله .

ثم قفى على آثاره أبو العلاء المعرى الذى حقر المال والولد والحياة وكل شىء فى الوجود حتى زعم أن أباه جنى عليه وهو لايجنى على أحد .

هذه هى الصورة الإنسانية شهوات محبوبة حياة مملولة وكل يطلب منها مخرجا وله فى المخرج رأى على قدر عقله

مخرج الجهلاء وبعض النابغين من سجن الحياة

فأما أهل الدعارة والجهالة والفسوق وبعض المتنازين فى العلم ، فإنهم يقولون نحن نشرب بنت الحان ، ونسمع الألحان ونغازل الحسان وهكذا إلى آخر الزمان ، ويقولون إنما الحياة لعب ولهو فإذا أحسسنا بسجنها شربنا الرحيق المختوم فزالت عنا الهموم ، ومنهم من تعاطى الحشيش والأفيون ، ومنهم من يحقن الجلد بالمادة المسماة (كلوروفرم) وهى خلاصة الخمر، ومنهم من يشم مادة تسمى السكوكايين ، ذلك مخرج الجاهلين يخرجون من سجن الحياة إلى سجن الممات ، ويفرون من جهنم إلى الجحيم ، ومن العذاب إلى العذاب أولئك هم الضالون الجاهلون ، ولذلك عرفت الأمة الأمريكية نكبات تلك المخدّرات والمسكرات ثمنها كما جاء فى القرآن وأيقنت أن ظلها لاهو ظليل ولايغنى من اللهب .

مخرج العقلاء والعباد والعلماء

أما العقلاء فإنهم يقضون أوقاتهم إما فى عمل نافع وإما فى عبادة وإما فى علم فلا يحسون بألم الحياة ، فالعاملون تقرّ أعينهم بأعمالهم والعابدون والعلماء المجدون كل تتبدّد هموم الحياة عنه لأنه شغل نفسه بما يدفع الآلام ويزيل الظلام ويحيى النفوس وينفى البؤس ، فالنفس فى التخيل كالإناء إن لم تملأ ماء ملأه الهواء .

المخرج الذى قصه الله فى القرآن

أما القرآن فكأنّ الله يقول فيه أما الذى زينت لكم الشهوات فلا تتركوها ولا تأخذوها إلا بقدر لا كما

يقول أبو العلاء المعرى وعمر الخيام ولا كما جاء فى التوراة عن سليمان عليه السلام ، فأنا لاأزين عبثا ولا أعطى سبهللا قطانى بحكمة ومنعى بعلم فابنوا دنياكم وأقيموا أمر الحياة واجعلوها سلما لما هو أرقى (ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

وأما وإن زينتها لكم فتزيينى لها إلى حين ، وعندى ماهو أرقى مقاما ، وأرفع شأنا من حياة أعددتها وجنات هيأتها ، ألا ترون أنى أصيبكم فى الدنيا بمصائب وأمطر عليكم من همومها سحائب ، وأوقعكم فى المتاعب؟ فلا المال ينفعكم ولا الولد يرفعكم ولا الأزواج باقية ولا الثروة مغنية ، فإن نجا أحدكم من المرض والفقر أبلغته سن الشيخوخة فيحرم من المال وهو يملكه ويتمتع بنوه وهو لايدركه ، ويتمنى موته أقرب الناس إليه ، ويفرح لمصابه كل عزيز عليه فعينه فى جنة وقلبه فى نار فأين الفرار أين القرار ؟ .

لامفر إلا بالعبادات والعلوم

ذكر الله الجنة فقال (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) الآيات فذكر الجنات والأنهار ثم أتبعها بالرضوان ، وهاتان مرتبتان ذكرتهما فى سورة البقرة عند قوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) فارجع إليه هناك تجد مرتبة العباد ومرتبة العلماء والحكماء والأنبياء وإن رضوان الله هنا ، وقوله فى آية أخرى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وأمثال ذلك لأعلى المراتب ، وقد تبين هناك أنك تعرف فى هذه الدنيا نفسك أمن الطبقة العليا أنت أم من الأدنين كل ذلك هناك فلا نعيده كما شرطنا فى أول الكتاب وهذه الجنة ودرجاتها بعد الموت ولكن الصبر المذكور هنا والصدق والقنوت والانفاق والاستغفار بالسحر كل ذلك فى هذه الحياة فيه بعض المخرج من سجن الحياة وهو خير لاما يجنيه الغافلون على أنفسهم من الخمر وشربه والحشيش وتدخينه والكوكايين وشمه إنما ذلك كله انتحار والانتحار من أقطع العار وأخزى الشنار .

أما العلوم

فقد ذكرها بعد ذلك فى قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) فالجنة ذكر فيها الأزواج والأنهار .

وأما ماهو أرقى من الجنة فرضوان الله ، وذلك مقام يشهده الملائكة وهو مقام القرب من الله مقام الكشف والمشاهدة والإحاطة بالوجود والعلم بالكائنات ، فذلك مقام الأنبياء والملائكة والحكماء والعلماء ، فالله قد عطف على نفسه الملائكة ، وثنى على آثارهم بالعلماء ذلك مقام الصدق ومشهد الحق ورضوان من الله أكبر ، فالعباد فى مقام المتقين والعلماء والحكماء الناظرون فى هذا العالم فى مقام الواصلين المقربين .

لطيفتان : الأولى صلاتى عند النهر

كنت منذ عشرات السنين مدرسا للغة العربية بالجيزة ، فاعترانى يوما قبض وأنا خارج البلدة على نهر فتوضأت وأقمت الصلاة على شاطئه واستحضرت أركان الصلاة ، فانشرح صدرى انشراحا عظيما . فهذا أول ماعلمت أن فى الإنسان قوى خفية لاتستخرج إلا بالعمل كالكهرباء لايثيرها إلا معالجة تظهرها وحك يبرزها .

اللطيفة الثانية : ثغاء النعجة

كنت منذ ليال وأنا بصدد تأليف هذا التفسير فى النيل على شاطئ النيل غربى القاهرة والنسيم عليل والهواء طلق جميل ومحيا السماء باسم الثغور ناضر بالنجوم ، وبينما أنا ناظر إليها معول فى التفكر عليها إذ سمعت نعجة فى سفينة (ذهبية) لها ثغاء وأصحاب السفينة يغنون فخطر بنفسى أنها مسجونة وهم مطلقون باكية وهم فرحون ، ولكن سرعان ماذهب هذا الهاجس وحل محله ماهو أوسع نطاقا وأوضح إشراقا . ذلك أن كل حيوان وإنسان فى سجن الحياة والشهوات ، أليس أهل الأرض محبوسين فيها فلا يستطيعون عنها حولا إلى

للمريخ ولا مخرجا إلى الثريا؟ وما من امرئ إلا وحانت منه التفاتة يوما إلى السماء ، فقال ياليت شعرى أى نعيم هناك وأى سعادة إذ ذاك ؟.

ذلك محبسهم العمومى ومقامهم الكلى ، ولكل من أهل الأرض مقام فى سجنه فمنهم من سجن فى وطنه فلا يتعداه ولا يرى سواه ، ومنهم من سجن فى زوجه أو ولده أو دينه أو شهوة ملازمة أو عداوة دائمة أو عقيدة راسخة فمنعه العلم والحكمة ، ومنهم من أعجب بملابسه أو فرح بدابته أو افتخر بعلم من العلوم أو أعجب بعبادة خاصة أولازم مكانا لجماله وحسن بنيانه «والجنون فنون» فكل يعمل على شاكلته وكل موثق بسارية فهم فى السجن مشتركون وفى الوثاق معلقون وكل حزب بما لديهم فرحون، كل شاة برجلها معلقة وكل فتاة بأبيها معجبة (إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ قتل الإنسان ما أكفره ـ إنه كان ظلوما جهولا)

فإذا حبس القوم النعجة وهى صارخة ، فإنهم فى عاداتهم وأخلاقهم وأحوالهم محبوسون ، فإذا زين الله الشهوات للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث فكأنه يقول:

أى عبادى لقد حبستكم جميعا فى الأرض فلستم عنها تبرحون ، ووضعت كلا فى سجن يخصه فلا يجد عنه حولا، لقد حبستكم فى أوطانكم وخالفت بينكم فى الأخلاق والأحوال والعادات والديانات والمذاهب والآراء والألوان والعشائر والأوطان والبيئات وفصلت بينكم بالبحار والجبال وألقيت بينكم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، كل ذلك لحياتكم ورقيكم وإكمال أحوالكم فتحنو الوالدة على ولدها والوالد يربيه وينفق عليه بما زينت فى أفئدتهما من حبه ووضعته فى غرزتهما من رحمته ويطعم الرجل خيله وإبله وبقره وغنمه ويحرص الحرص كله على زرعه وذلك كله لما ركزت فى قلوبكم من حب التزين بها والحرص عليها رحمة بكم وبها ونعمة عليكم وعليها ؛ أى عبادى ألقيت بينكم العدواة لتستثمروها فى حياتكم فهى مهماز يدفعكم إلى الارتقاء وإحكام السلاح ورقىّ الصناعة وإقامة العدل فى ممالككم ، فبالعدل فيما بينكم تقوون على عدوكم وهو يقوى ، وبهذه تزدان الحياة بكما ، ومن قصرت خطاه وضل مسعاه دخل تحت نير عدوه كما أبحت للحيوان أن يأكل النبات ، وللإنسان أن يأكل الحيوان وأوجبت على الآساد والنمور والصقور والشواهين أن لاتتغذى إلا باللحمان ولا تزدرد ما تحتاجه إلا من الحيوان. هذا هو مبدأ الوجود وغايته وأوله وآخره .

ولما كان الإنسان أعلى الحيوان مقاما وأرقاه نظاما ألهمته أن يفكر بعقله وينظر فى مستقبله بما ألهمت أنبياءه وعلمت حكماءه من السير الشريفة ، والآراء اللطيفة ، والعقول البهية ؛ والنفوس المضيئة العلية فأنزلت عليهم قوانين وعلمتهم منها أفانين فأبرزت بها مكنون الإنسان وعلمته التوراة والإنجيل والقرآن وقلت فكروا فيما حولكم وانظروا فيما خولتكم وتنحوا عن المادة وقوموا من الليل قليلا واستغفروا طويلا وأثيروا مافى نفوسكم من الحكمة بالصبر والحلم وجمال الخلال فأنفقوا المال وقوموا بالأسحار وانظروا ياعبادى ألست عادلا فأمعنت مقسطا فيما نظرت . أى عبادى ، انظروا هذا النظام وفكروا فيه إنى باللين والشدة أريكم، أريكم بما تكرهون وما تحبون لتستيقظ النفوس وترقى العقول .

أما أنا فإنى أعلم حسن النظام والقيام بالقسط كذلك للملائكة لأنهم عن المادة مجردون ثم العلماء والحكماء منكم الذين هم مذكورون فى آية (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود (شديدة السواد) ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء) هؤلاء هم العلماء الذين ينظرون فى جمال هذا الملك وإحكامه ، وهؤلاء هم الذين صبغوا صبغة الله «ومن أحسن من الله صبغة» تلك الصبغة العدل والقيام بالقسط التى شهد بها الله والملائكة وتلك الصبغة هى دين الإسلام المذكور بدلا من أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط، فجعلت دين الإسلام هو للمتخلص من وحدة النظام والقيام بالقسط ذلك هو دين الإسلام ، دين الإسلام هو الدين العلم؛ ولايظن المسلم أن النطق بالشهادتين والأعمال الظاهرة كافية إنما يراد أن يكون هناك نظام عام وعلم بما أبدع الله

فى الأرض والسماء وتكون الأمة قد تغلغل فيها العلم بالقيام بالقسط والعدل فى هذا الوجود فتكون الأمة أرقى الأمم بأن تتغلغل فى العلوم وتزدان بها ويعم العدل ربوعها، فتكون علوم الطبيعة وعلوم الفلك والنظام العام معروفة عند الخاصة على أنها دين، ويقوم القضاة بالعدل والحكام بالقسط وجميع العائلات ليستتب فيها النظام اتباعا لربهم وقياما بالقسط كبدعهم، ذلك هو دين الإسلام .

واعلم أن هذا القول قد شرحناه مرارا فى البقرة وهكذا فى القسم الثانى فى هذه السورة وأطلنا فيه بما لامزيد عليه ولكن لأذكر هنا من حسن النظام مالم يرد فيا مضى تذكرة للقيام بالقسط والعدل فى العالم المشاهد.

نظام النبات بالمواد الداخلة فيه

فلتعلم أيها الذكى أن الماء مركب من مادتين إحداهما محرقة تسمى الأكسوجين والأخرى إذا وضع فيها حيوان يموت وتسمى الأودروجين هذا هو تركيب الماء كما قدمناه ، والهواء مركب من الأكسوجين المتقدم ومن مادة تسمى الأوزوت ، وفيه كربون أى مادة فحمية ، والأوزوت المذكور يسمى أيضا نيتروجين ، ثم الكبريت وهو معروف والفسفور وهو مادة نارية تلتهب فى الماء ، والبوتاسيوم والمغنيسيوم والكلسيوم والحديد فهذه عشرة كاملة لابد من دخولها فى النباتات ولايقوم نبات إلابها وإن نقص واحد منها لايعيش النبات.

واعلم أن العناصر المعروفة تربو على السبعين ، والنبات لايأخذ من الأرض والهواء ماعدا هذه فليس يعوزه الذهب والقصدير والنحاس والفضة والزئبق ، وربما دخل بعض هذه فى النبات بقلة كالنحاس والخارصين ، ولكن العشرة المتقدمة لايستغنى عنها أى نبات فى الأرض .

أفلا تعجب كيف أعطى النبات قوة أن يمتص من الهواء ومن الماء ومن التراب مايقوم به ويغتذى ، ثم يكون ذلك داخلا فى تركيب بنيتنا وبنية الحيوان ؟

أهمّ أجزاء النبات أربعة وهى التى يقوم عليها حياته وحياة الحيوان ، وهذه الأربعة هى : الأكسوجين والأودروجين والأوزوت والكربون . هذه الأربعة يكون بعضها فى الماء وبعضها فى الهواء ، وهذه الأربعة أهمّ مانقوم عليه أجسامنا .

وهاك جدولا يعرفك بعض النظام بأدنى تأمل :

أنواع النبات	ماء	مقدار المادة الجافة	الجزء القابل للاحتراق	رماد
القمح (حبوب)	١٤,٣	٨٥,٧	٧٦,٥	٩,٢
الشعير	١٤,٣	٨٥,٧	٧٢,٧	١٣,٠
الشوفان	١٤,٣	٨٥,٧	٧٥,٧	١٠,٠
الفول	١٥,٠	٨٥,٠	٧٩,٥	٥,٥
بزر اللفت	١١,٨	٨٨,٢	٨٤,٣	٣,٩
التفاح	٨٤,٨	١٥,٢	١٤,٨	٠,٤
جذر الجزر	٨٥,٠	١٥,٠	١٤,١	٠,٩
درنات البطاطس	٧٥,٠	٢٥,٠	٢٤,١	٠,٩
الحشائش وهى خضراء	٨٠,٠	٢٠,٠	١٨,٠	٢,٠
البرسيم	٨٦,١١	١٣,٨٩	١٢,٢٣	١,٦٧
ساق البطاطس وورقه	٨٥,٠	١٥,٠	١٣,٤	١,٦

(١) إذا قلعت نباتا من هذه المذكورات ووضعته فى فرن محمى إلى درجة فوق درجة غليان الماء قليلا كأن تكون الدرجة ١٠٥ إلى ١١٠ فإنك ترى النبات يفقد شيئا من وزنه بما خرج منه من الماء ، ومتى استمررت على ذلك بضع ساعات خرج الماء منه كله ولم يبق من النبات إلا مادته الجامدة ، وهذه المادة الباقية الجافة إذا أحرقت تركت وراءها مقدارا قليلا من رماد لايقبل الاحتراق لونه أبيض أو ضارب إلى الصفرة ، وهذا الرماد امتصه النبات بجذوره من الأرض وهو عبارة عن مواد معدنية ، فانظر الجدول وخذ القمح والتفاح مثلا ، فإن حبّ القمح لما وضع فى الفرن ظهر أن الماء الذى كان فيه ١٤٫٣ من مائة جزء منه والباقى وهو ٨٥٫٧ مادة جافة يابسة ، فإذا أحرقناه ذهب منه ٧٦٫٥ والباقى وهو ٩٫٢ رماد ، والتفاح لما وضع فى الفرن ذهب منه ٨٤٫٨ من المائة والباقى ١٥٫٢ من المائة يذهب منه للاحتراق ١٤٫٨ من المائة ، والباقى وهو الرماد ٠٫٤ ؛ فالتفاح وضعت فيه قوة الحياة التى امتصت من الهواء ومن الماء الكربون والأكسوجين والأودروجين والأوزوت فكانت هذه الأربعة التى يطير أكثرها نحو تسعة أعشاره والباقى من مواد عضوية فى الأرض أو من عناصر وكان هذا التركيب مكوّنا لصورة التفاح ، ولو أن التفاح عكس القضية فأخذ ماء أقل من ذلك كالقمح ومادة جامدة أكثر فكانت ٥٨٫٧ من المائة مثلا لم يكن تفاحا بل كان قمحا . فهذه النباتات وضعت فيها القوة العالية الشريفة ، فاختارت مايصلح لها واصطفت المقادير المناسبة لها فكانت هذه قمحا وهذه تفاحا ، ومتى اختلفت المقادير تغير النبات فهنا نظامان : (١) نظام جميع النباتات فقد حرم عليها أن تعيش بغير العشرة المتقدمة ومنعت من الحياة بالستين الباقية من العناصر وتبعها فى ذلك الحيوان فلا يعيش إلا بهذه العشرة غالبا كالنبات (٢) نظام كل نبات أنه يأخذ بقدر من تلك العشرة يخالف الآخر فيها ليقوم بقسطه فى خدمة الإنسان والحيوان ، فترى الفول تناول ١٥ من المائة فى تركيبه ماء وخمسة ونصفا مواد معدنية صارت رمادا قد امتصها جذوره من الأرض والباقى موادعضوية أخذها بعروقه وورقه من الأرض والهواء.

لو غير الفول هذا النظام بأن تعاطى ٨٦٫١١ من المائة فى تركيبه ماء والباقى أخذه من الهواء والأرض لم يكن فولا بل يصير برسيما على شريطة أن تكون النسبة على مقتضى مايناسب البرسيم كما رأيت عند آية الطير وإبراهيم فى البقرة ، فانظر للعدل فى التركيب أمر كل نبات أن يتعاطى مايعطيه قوة خاصة به بأن يكون حلوا أو نشويا أو دهنيا وهى أصناف وأنواع لاتحصر ، ولكن اختلاف العناصر هو الذى أحدث هذا الإبداع والجمال والرزق (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

طعامنا

إن طعامنا مكوّن مما تكوّن منه النبات والحيوان؛ فهو : (١) مواد دهنية كالسمن والزيت ودهن الحيوان (٢) ومواد نشوية كالخبز والأرز والبطاطس (٣) ومواد زلالية أو أزوتية مثل اللحم والبيض والسمك (٤) أملاح غير عضوية كملح الطعام وأملاح الجير والفوسفور ؛ فالنشا يخزن فى الكبد بهيئة أخرى والدهن يخزن تحت الجلد وحول القلب وحول الكليتين وحول الأمعاء فى البطن ، والمواد الزلالية يمتصها الجسم فتعوّض مافقده والباقى يفرزه الجسم بالكلى ونحوها .

فانظر كيف حوّل الهواء والماء مثلا فى النبات إلى مواد صارت فى أجسامنا لحما وشحما وعروقا ، فذلك من القيام بالقسط والنظام التام ، ذلك هو المثل الذى اصطفيناه لهذه الآيات .

جمال القيام بالقسط

قد أوردت لك فى هذا المقام مسائل علمية وفوائد نباتية وعناصر تحليلية فربما كانت أقرب إلى الدرس منها إلى الفكاهة والأنس فلأسمعك من القيام بالقسط قولا جميلا ولأرك نورا ساطعا ونجما طالعا وبدرا كاملا وأنسا شاملا .

أيها الذكى قد علمت أن كل دين نزل من السماء هو دين الإسلام ، فالشرائع الفرعية والطاعة العامة والإقرار بالتوحيد كل ذلك مقتضى تلك الشرائع ، والله يشهد بذلك التوحيد وإنه قائم بالقسط مدبر بالعدل والملائكة يشهدون بذلك التدبير والأنبياء والحكماء شهداء على ذلك .

ولما كنت أيها المطلع على هذا التفسير العاشق له المغرم به الفرح بما اشتمل عليه من العلماء وهم المعطوفون على الملائكة فلتبشر بالسعادة النفسية والراحة الملكية والعلوم الإشراقية لأنك اليوم تشهد حسن النظام والقيام بالتدبير خير قيام، بذلك ترقى نفسك وسعظم نفعك وتشرق عقلك ويسطع نورك لأنك بعد الملائكة فى المقام مقام الاطلاع على حسن النظام . لقد شهدت نظام النبات والحيوان والقيام فى هذا التفسير يقول علماؤنا : لا يعرف معنى القيام بالقسط ولا معنى الميزان المذكور فى سورة الرحمن (ووضع الميزان) إلا من درس العلوم كلها، ولقد اصطفيت لك فى هذا التفسير أجملها واخترت منها أكلها وبينت أبهاها نورا وأحسنها منظرا وأنضرها إشراقا وأحلاها مذاقا وسهلت بتوفيق الله لك سبلها وذللت طرقها وأبنت مسالكها وأعطيت لك مقاليدها لتفتح ممالكها ، فلأذكر لك الآن زهرة من حديقتها ودرة من صدفتها وأرك طرفة من طرائفها وغرة من جبينها ونورا من شمسها وكوكبا من فلكها ، وعجيبة من محاسنها ، لينشرح صدرك ، وينم أنسك ابتهج نفسك فأقول :

(١) قيامه تعالى بالقسط فى المادة من حيث حجمها

إن الإنسان إذا فكر فى أمر المادة لم يرها أقرب إلى حالة من غيرها بل كل الأحوال لها على حد سواء هكذا جاءت فى الواقع على مثال ما فى نفوسنا ؛ وبيانه أنها تكون صلبة قاسية كالحديد والحجر الأملس وأقل من ذلك كالخشب وأقل من ذلك كالورق والأغصان الخضر وأقل من ذلك كالعجين والطين وأقل من ذلك كالماء ثم الهواء ثم المادة الأثيرية .

فانظر كيف تقلبت المادة فى هذه الأشكال كما تخيلته عقولنا وأدركته نفوسنا ، وهذا من القيام بالقسط وهو الذى جعل من دلالة التوحيد .

(٢) قيامه تعالى بالقسط فى سلسلة الإنسان والحيوان والنبات والمعدن

انظر كيف جعل الله من المادة كل ما يصلح فكان النبات الصغير الذى لا يحرك وكذلك الحيوان ، فقد تقدم فى هذا التفسير فى القسم الثانى من هذه السورة أن علماء الطبيعة يقولون إن رأس الإبرة إذا كانت عليها قطرة لا نراها فإنها تجمع آلاف الآلاف من تلك الحيوانات الصغيرة وأنها تتقاتل وتفرح وتمرح ، وأنا أيضا رأيت هذا بنفسى تحت المنظار المعظم ، وهكذا منها ما هو فوق ذلك وفوقه إلى الشجرة العظيمة والفيل الكبير الجثة والعائشة التى تعيش فى البحر وحجمها أكبر من الفيل خمس مرات فأكثر . هذا من جهة الكبر والصغر وهناك سلسلة أخرى من حيث النشء والارتقاء ، فأنواع الحيوان والنبات كثيرة وهى :

أدنى المعدن — الجص والتراب والزاج وأنواع الشبوب .

أوسطه — بقية المعادن كالرصاص والنحاس .

أعلى المعادن — الياقوت الأحمر والذهب .

أدنى النبات — خضراء الدمن .

أوسطه — أكثر النبات .

أعلاه — النخل مما يلى رتبة الحيوان ، والكشوثى نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له فى الأرض .

أدنى الحيوان — دودة فى جوف أنبوبة تنبت تلك الأنبوبة على الصخر الذى فى سواحل البحار وشطوط الأنهار .

أوسط

أوسط الحيوان — أكثر الحيوانات .

أعلى الحيوان — القرد والفرس وهكذا ولعلنا نشرحها فى غير هذا المكان .

أعلى من الأعلى — الإنسان .

فهذه السلسلة الإجمالية من ابتداء للمعادن القريبة من الطين إلى الإنسان الذى هو الأعلى .

(٣) قيام الله بالقسط فى أنواع الحيوان

منه مايسكن الهواء وهو الطير .

ومنه ساكن البر وهى البهائم والأنعام والسباع .

ومنه مايسكن التراب وهى الهوام كالحيات والضب والقطا .

ومنها سكان الماء وهو كل حيوان يسبح فى الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف .

(٤) قيام الله بالقسط فى اتجاه رءوس الأحياء

لما كانت الجهات ستا كان رأس الأدنى وهو النبات فى الطين ورأس الحيوان وهو الأوسط فى الجهات الأربع ورأس الإنسان وهو الأعلى جهة السماء، فهو شجرة مقلوبة فروعها أسفل ورأسها أعلى إشارة إلى أنه أعلى الجميع مع أن كل جهة فيها رءوس تتجه إليها وأكثر الجهات اتجه إليها الأسفل وأقلها الأعلى ، والأعلى هم الأقلون إن الكرام قليل وهذا من القيام بالقسط .

(٥) قيام الله بالقسط فى خلق النبات فى الأماكن

منه ماينبت فى البرارى والقفار ، ومنه ماينبت على رءوس الجبال ، ومنه ماينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار ، ومنه ماينبت فى الآجام والفيافى ، ومنه مايزرعه الناس ويغرسونه فى القرى والبساتين .

(٦) قيام الله بالقسط بين البرّ والبحر وفيه العجائب وبدائع الغرائب

إن أكثر ماقرأت فى هذا المقام من علوم اليابسة أن اليابسة فيها نبات وحيوان وبساتين وأنهار جارية، وفيها قطرات تسير بالناس ليشاهدوا العجائب ويسعوا للرزق ، وفيها مهندسون يصطفون الأشكال الجميلة ، وهكذا مما يعلم الناس فهل البحر ليس فيه إلا الأمواج والسمك وقد خلا من ذلك الجمال والبدائع ؟

أقول : اعلم أن البحر أكثر نظاما وأغزر نباتا وأجمل بساتين وأبهى من البرّ .

ألوان ماء البحر وجمال حيوانه

إن ماء البحر يكون أخضر فى سواحل العرب ووردياً فى جهة (كاليفورنيا بأمريكا) وأحمر بالبحر الأحمر وذلك إما من ألوان النبات والأعشاب فى قاع تلك الجهات أو من ألوان حيوانات دقيقة ، ومنها مانجعل لون الماء أسود بجهة (مالديف) ومن تلك الحيوانات الدقيقة نوع له لمعان وباجتماعه وكثرته يظهر له على سطح الماء لمعان شديد يشبه ضوء النار وهذا النوع يكون فى جميع طباق البحر ، ولكل منها مساكن خاصة وطرق مسالكها تابعة تيارات مجهولة من القطب إلى دائرة الاستواء ومن قطب إلى قطب ؛ ثم إن الحائشة التى جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فأكثر تجرى خلفها فتأكل منها ، فذلك الحيوان الجميل يسير بالتيار من القطب إلى القطب أو من القطب إلى خط الاستواء ، وذلك أقوى من سير السفن البخارية والقطر الحديدية فإنها لاتصل القطبين ، وذلك من العدل الذى أجراه الله فى البرية فأعطى حيوان البحر مثل مامنح حيوان البرّ وجعل الماء سفينته والتيار قطاره (فتبارك الله أحسن الخالقين) .

(٧) نبات البحر وأشكاله الهندسية والمرجان وعجائبه وأنه يتكوّن جزائر

إن نبات البحر منه مايأخذ شكله صورا بديعة فيكوّن بساتين جميلة عظيمة أظرف من البساتين البرّية

وأجمل منها شكلا وأحسن نظاما وأبهج نورا وأشرق ضوءا وأشجارها تميل مع الأمواج ميل أغصان الأشجار البرّية مع الرياح ، ولقد تقلع الأمواج تلك البساتين وتجرى مع الأمواج أميالا وأميالا وهى مغطية مسافات عظيمة من البحر فتحجب الضوء والحرارة عن الماء وتوقف السفن عن السير ، ولقد ينبت النبات على الصخر فلا يقلع منه ولا يسير إلا معه ، ومنه مايكون قريب الساحل لايبعد عنه إلا أربعين باعا ، والبحار الجنوبية أعظم نباتا وأكثر شجرا وأغزر بساتين ، وتراها تمتدّ إلى نحو ألف وخمسمائة قدم وتمتدّ مسافات عظيمة على وجه الماء تبلغ ثلثمائة ميل .

ثم إن (كريستوف كولومب) قطع ثلاثة أسابيع كاملة فى مروره منها حين ذهب لكشف أمريكا .

حشائش البحر

حشائش البحر مادة هلامية لزجة مغطاة بقشرة كالجلد ، لها شعب كثيرة وكل شعب كذلك له شعب كثيرة وتنتهى جميعها بأوراق رقيقة الأطراف ، وكثير من الطيور تقتات بها وذلك فى بحر الهند؛ ومنه نوع سكرى يمتدّ إلى عشرة أميال ، فروعه رقيقة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة سكرية .

وعلى سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها ألف قدم وأوراقها حمر وردية يحملها الماء بشبه عوامات تحت عقد الفروع تمنعها من الانغماس .

تفاح البحر

وفى البحر شجر كالتفاح ذو فروع تحمل فواكه كثيرة ، وجذوره ثابتة فى الصخر وأوراقها مدلاة فى فروع كأنها فروع الصفصاف .

الأشكال الهندسية فى البحر

فى البحار أنواع مختلفة من الأشكال تجتمع مع بعضها فتحدث رسوما هندسية وأشكالا غريبة ورسوما عجيبة وبدائع شائقة ومشاهد فائقة مابين صغير وكبير من أشكال مخروطية وأخرى هرمية مربعات ومثلثات ولقد تسبح تلك الأشكال على سطح الماء فتمنع النور أن يضيئه والهواء أن يصيبه والحرارة أن تلقاه والسفن أن ترقاه ، وقد تكون تلك المزارع منفصلة الأماكن قريبة المساكن لها ألوان وأشكال مختلفات طولا وعرضا وكبرا وصغرا ولونا وجمالا وإتقانا وإبداعا وحسنا وجمالا وإشراقا وأوراقا وأشجارا وفروعا فيحدث من ذلك الاختلاف لعالم البحر ماهو كالمدن والمساكن يأوى إليها الأحياء ويتحصن بها بعضها ؛ ومن يبصر تلك الغابات ويتأملها يرى أمورا عجيبة مدهشة ، يرى على أغصانها ديدانا تسبح على الورق تتغذى به ، ويرى عجل البحر بين النبات وكلب البحر ذا العيون الرصاصية والنمر ذا الذكاء والترمسة وكل راصد غيره ، إما لتحصيل قوته وإما للفرار من عدوّه .

إن تحت الماء وفى الغابات وعلى فروعها وخلال أشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف البحرية والحيوانات المائية (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) لحيوان البحر كحيوان البرّ أجناسا وأنواعا وأقساما وعداوة وصغرا وكبرا ، فهو قائم بالقسط مدبر بالعدل؛ جعل العداوة فى البحر كما خلقها فى البرّ ليكون العالم على وتيرة واحدة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط) فى شئون خلقه؛ فالقانون المسنون واحد كما ترى فى العالم المشاهد . فهل شهدت أيها الذكى أن العالم قائم بالقسط وأن النظام راجع لسنن واحد متشابه وهل شهدت أنه جميل (قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى) فهل رأيت الهداية (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدّر فهدى؟) أفلست ترى تسوية الخلق والتقدير فى الشكل والهداية للحياة ؟ وانظر قوله (الذى أحسن كل شئ خلقه) أفلست ترى الحسن والهندسة والجمال فى البحر كما رأيتها فى البر ؟ وانظر كيف كان فى البر جمال وزينة ، لجعل مثلها وخيرا منها فى البحر كالمرجان .

المرجان

إن المرجان يظهر أولا فرعا فوق حجر فى قاع البحار ، وهذا الفرع أشبه بالنبات يسكن فيه حيوان ثم يخرج فرع غيره وهكذا، فيتكوّن على طول الزمن جيلا بعد جيل المرجان ، وقد جىء بفرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جدا شكله كزهر النبات فى شكله ولونه، وعاداته أن يخرج من مقره ثم يعود إليه ، وهذا النبات مع صغره يفعل أفعالا مدهشة تحير الناظرين فهو يصنع بيوتا ترتفع من قاع البحر إلى سطح الماء ويعقد البناء طبقات حسنة الشكل بهجة للنظر مضيئة الجوانب مشرقة الأركان زاهية البنيان، أشكال هندسية ونظم بهية وألوان قزحية جميلة ؛ وهذا الحيوان من سنة إلى أخرى ، ومن قرن إلى آخر يختط مساكن وممالك صخرية واسعات فى قاع البحار ، وكثيرا ماترى هذه المساكن فى البحر عند دائرتى الانقلاب فى صور وأشكال يحار اللب فى وصفها ، ومن عجيب صنع الله فيها أن تكون فى أواسطها بحائر راكدة آمنة مطمئنة ، لاتصل إليها الأمواج ولا تؤثر فيها الزعازع ولا العواصف، فتأوى إليها الحشرات وتؤمها الحيوانات وتربى بها صغارها مع الأمن والدعة والراحة وتنبت فوقها وفى داخلها الحشائش والمزارع والبساتين ، وهذه بعيدة عن كل مايؤذيها فرحة بنعمة باريها قريرة العين آمنة الجانب ، وبعد قرون ترتفع تلك الحشائش والغابات طبقة فوق طبقة حتى تتكوّن جزيرة يسكنها الإنسان والحيوان .

فانظر كيف بنى حيوان المرجان بنيانا فجعل فى البحر مدنا وممالك ومسالك فيها بحيرات آمنة وأوى إليها الحيوان المختلف الأجناس الحسن الألوان والنبات الجميل الأغصان البهيج الأزهار العجيب الخلقة ثم فى آخر الأمر سكنها الإنسان (فتبارك الله أحسن الخالقين — وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) والحلية هو المرجان والدر .

فياليت شعرى من ذا الذى يرى المرجان فيظن أنه عظيم القدر كثير المنفعة عالى البنيان جليل المقام سامى المكانة والمكان، فلئن تحلت به الحسان فما أحرى العلماء أن يتحلوا بمعناه ويقرءوا قوله تعالى (ووضع الميزان أن لاتطغوا فى الميزان) وقوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان — وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون) .

فلتكن ممن شهد بأن هذا الخلق محكم منظم قائم بميزان (فالنجم) وهو مالاساق له (والشجر) وهو ماله ساق (يسجدان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحبّ ذو العصف) أى التبن (والريحان فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) ، وهو الذى قام بالقسط والعدل فى العجائب بين البرّ والبحر (فتبارك الله أحسن الخالقين — وفى الأرض آيات للموقنين) انتهى القسم الثالث من سورة آل عمران .

القسم الرابع من سورة آل عمران

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ * قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *

التفسير اللفظى بهذا القسم

(فإن حاجوك) فى الدين وجادلوك يا محمد بعد ما أقمت الحجج (فقل أسلمت وجهى لله) انقدت له بقلبى وأخلصت له بجملتى وجميع جوارحى لا أشرك به غيره ، وهذا هو الدين القيم الذى به قامت الحجج ودعت إليه الآيات والرسل، وعبر بالوجه عن النفس لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة وموضع الحواس والقوى العاقلة (ومن اتبعن) عطف على الفاعل فى أسلمت (وقل للذين أوتوا الكتاب) من اليهود والنصارى (والأميين) وهم مشركو العرب (ءأسلمتم) كما أسلمت، أى أسلموا ، وذلك كما فى قوله تعالى «فهل أنتم منتهون» كأنه يعيرهم بالبلادة أو بالعناد (فإن أسلموا فقد اهتدوا) للفلاح والنجاة (وإن تولوا) أعرضوا (فإنما عليك البلاغ) تبليغ الرسالة وليس عليك هداهم (والله بصير بالعباد) فهو عالم بمن يؤمن فيثيبه وبمن لا يؤمن فيعاقبه (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) كان بنو إسرائيل يأتيهم الوحى على لسان الأنبياء وهم يذكرونهم أيام الله فيقتلونهم فيقوم المؤمنون بالأنبياء فيذكرونهم بعذاب الله فيقتلونهم فهؤلاء هم الذين يأمرون بالقسط أى بالعدل من الناس . عن أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال «قلت يا رسول الله أى الناس أشد عذابا يوم القيامة؟. قال رجل قتل نبيا أو رجلا

أمر

أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: وما لهم من ناصرين» (أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) حبطت بطلت وبطلانه أنه لايقبل فى الدنيا ولا يجازى عليه فى الآخرة (وما لهم من ناصرين) يمنعونهم من العذاب (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) التوراة وهم اليهود والنصارى (يدعون إلى كتاب الله) التوراة (ليحكم بينهم) روى «أنه دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من اليهود فدعاهم إلى الله عز وجل فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد على أىّ دين أنت يامحمد؟ قال على ملة إبراهيم قالوا إن إبراهيم كان يهوديا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم فأبيا عليه فأنزل الله هذه الآية» . وروى أيضا «أن رجلا وامرأة من أهل خيبر زنيا ، وكان فى كتابهم الرجم فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم فرفعوا أمرهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجوا أن تكون عنده رخصة فحكم عليهما بالرجم، فقال بعضهم: جرت عليهما يامحمد وليس عليهما الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينى وبينكم التوراة فقالوا : قد أنصفت فقال: من أعلمكم بالتوراة ؟ فقالوا رجل أعور يقال له عبد الله بن صوريا يسكن فدك فأرسلوا إليه فقدم المدينة ، وكان جبريل عليه السلام قد وصفه للنبى صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت ابن صوريا؟ قال نعم قال أنت أعلم اليهود بالتوراة؟ قال كذلك يزعمون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة فقرأ ابن صوريا ووضع يده على آية الرجم وقرأ مابعدها ، فقال عبد الله بن سلام يارسول الله قد جاوزها ثم قام ورفع كفه عنها وقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى اليهود وفيها رجم المحصن والمحصنة إذا زنيا متى قامت عليهما البينة وتؤخر الحامل حتى تضع الحمل » فإذن الداعى محمد صلى الله عليه وسلم والمدعو اليهود دعاهم إلى التوراة ليحكم بينهم به فى أن إبراهيم لم يكن يهوديا أوأن الزانى والزانية يرجمان (ثم يتولى فريق منهم) يعنى الرؤساء والعلماء (وهم معرضون) أى عادتهم الإعراض (ذلك) الإعراض والتولى (ب)سبب (أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) وهى سبعة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة ، وقال قوم منهم أربعين يوما (وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون) من أن النار لن تمسهم إلا أياما قلائل، أوأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم ، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه الصلاة والسلام أن لايعذب أولاده إلا تحلة القسم (فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) أى فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم فى يوم لاشك فيه (ووفيت كل نفس ما كسبت) أى جزاء ما كسبت (وهم لايظلمون) الضمير لكل نفس كأنه يقال كل إنسان لايظلم (قل اللهمّ) أى قل يامحمد يا ألله والميم عوض عن يا (مالك الملك) تتصرف فيما يمكن التصرف فيه تصرف الملاك فيما يملكون (تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) الملك المعطى كالنبوّة والدولة والعز والغنى والجاه والثروة ، فقد أعطيت النبوّة لمحمد وأعطيته هو وأصحابه الدولة وغلبوا فارس والروم، وتنزع النبوّة من بنى إسرائيل (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) تعز من تشاء كمحمد بالنبوة والرسالة والمهاجرين والأنصار وأهل القناعة والرضا والطاعة، وتذل من تشاء كاليهود ومشركى العرب وفارس والروم وأهل المعصية وأهل الحرص وعدم القناعة (بيدك الخير) ولا يأتى الشرّ إلا تبعا (إنك على كل شئ قدير) فتؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . روى « أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الخندق وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا وأخذوا يحفرون ظهر فيه صخرة عظيمة لم تعمل فيها المعاول ، فوجهوا سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فجاء عليه الصلاة والسلام فأخذ المعول منه فضربها ضربة صدعتها وبرق منها برق أضاء مابين لابتيها فكأنّ بها مصباحا فى جوف بيت مظلم فكبر وكبر معه المسلمون ، وقال: أضاءت لى منها قصور الحيرة كأنها أنياب الكلاب، ثم ضرب الثانية فقال: أضاءت لى منها القصور الحمر من أرض الروم، ثم ضرب الثالثة فقال: أضاءت لى منها قصور صنعاء وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة على كلها

فأبصروا ، فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق فنزلت » ، ولما كان عز قوم وذل آخرين من النظام العام وهو يوجب المساواة كالليل والنهار فالعزيز يذل والذليل يعز ، كما أن الليل والنهار كل منهما يجيء عقب الآخر (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحيّ من الميت وتخرج الميت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب) أى تدخل الليل فى النهار وتدخل النهار فى الليل فيزيد كل منهما مانقصه الآخر ، وتخرج الإنسان الحى من النطفة الميتة بحسب الظاهر ، وكذلك الفرخ من البيضة والنبات من الحب والنخلة من النواة والمؤمن من الكافر والذكى من البليد وبالعكس فى الجميع وتبسط الرزق لمن تشاء وتوسعه عليه من غير تقتير ولا تضييق (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء أى أنصارا وأعوانا من غير المؤمنين وكيف يجعل المؤمن ولايته لمن هو غير مؤمن ، ولقد كانوا يوالون بعض الكفار لصداقة فى الجاهلية أو قرابة ، ولقد كان لعبادة بن الصامت حلفاء من اليهود وهم خمسمائة فأراد أن يستظهر بهم على أعداء المسلمين يوم الأحزاب، هكذا حاطب بن أبى بلتعة وغيره كانوا يظهرون المودة لكفار مكة فنهوا جميعا عن ذلك (ومن يفعل ذلك) أى موالاة الكفار فينقل الأخبار إليهم أو يظهر عورات المسلمين إليهم (فليس من) دين (الله فى شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إلا أن تخافوا منهم مخافة فلا تجوز موالاتهم إلا أن يخافوا من جهتهم مايجب اتقاؤه ، وإنما عدى الفعل بمن لتضمنه معنى الحذر أو المخافة (ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير) تهديد عظيم وجعل التحذير من نفسه جل جلاله لزيادة التهويل (قل إن تخفوا مافى صدوركم أوتبدوه يعلمه الله ويعلم مافى السموات ومافى الأرض) أى يعلم مافى ضمائركم من موالاة الكفار وغيرها كما يعلم غيب السموات والأرض (والله على كل شئ قدير) ومنه عقابكم إذا لم تنتهوا (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا، وماعملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) أى تود كل نفس وتتمنى يوم تجد صحائف أعمالها حاضرة لو أن بينها وبين ذلك اليوم مسافة بعيدة لما تبدّى بها من صحائفها السود (والله رءوف بالعباد) فإذا حذركم فليس ذلك لغضبه كما يغضب العباد بل هو برشدهم ، فالغضب سوط يساق به العباد إلى الرحمة (قل إن كنتم تحبون الله الخ) المحبة ميل النفس إلى الشئ لكمال فيه، وقوله (فإن تولوا) أى تتولوا وتعرضوا (فإن الله لايحب الكافرين) لايرضى عنهم اهـ التفسير اللفظى .

فى هذا القسم فصول : [الفصل الأول] فى قوله تعالى (ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) [الفصل الثانى] (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) [الفصل الثالث] (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) [الفصل الرابع] قوله تعالى (بيدك الخير) [الفصل الخامس] (وترزق من تشاء بغير حساب) [الفصل السادس] (لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء الخ) [الفصل السابع] (فاتبعونى يحببكم الله)

أما الفصل الثانى فقد أفضت الكلام عليه فى سورة البقرة عند مسألة شفاعته صلى الله عليه وسلم وأن المسلمين صرفوها عن وجهها إلى الكسل كما فعل اليهود من تهوين العذاب عليهم بشفاعة آبائهم فارجع إليه هناك .

أما الفصل الثالث فقد أوضحته أيما إيضاح فى قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض) فى سورة البقرة

أما الفصل السادس فقد اتضح عند الكلام على الرؤساء والمرءوسين فى سورة البقرة فى قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا الخ) .

[وأما الفصل السابع] فهو موضح فى ذلك المقام عند قوله تعالى (يحبونهم كحب الله) فارجع إليه هناك .

أما الفصل الأول فانظر وتعجب كيف جاء فى الآية السابقة أن العالم قائم كله على النظام والعدل والقسط وأن الله شهد به والملائكة والعلماء، وكأنه يقول إن قام العلماء بالقسط والعدل الذى أنا قائم به وبالميزان الذى وزنت به سمواتى وأرضى وساروا على السير الذى سننته ووزنوا بالميزان الذى وزنت به والمناهج الذى اخترته

إذ قلت (ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان) ثم تقتلونهم فإنى أقول يا محمد بشرهم بعذاب أليم بخراب دولهم وضياع ملكهم لأن الملك لا يقوم إلا بالقسط كما لا يقوم ملكى إلا بالعدل ، فإذا قتلوا القائمين به ذهبت دولتهم كما أن العالم لو لم أكن أنا قائما بالعدل فيه تهدمت أركانه وتمزقت أوصاله وذهب سدى كأنه لم يكن .

ذلك هو السر فى ذكر القيام بالقسط فى قوله تعالى قائما بالقسط فى آية شهد الله ، ولقد خربت دولة اليهود وتفرقوا شذر مذر وباءوا بالعذاب وذهبت ريحهم وأجلاهم الروم بعد المسيح ، وهم يرجون اليوم أن يرجعوا مجدهم بفلسطين ولكن القرآن فيه آية أخرى حكم بزوال ملكهم إلى يوم القيامة لأنهم قتلوا القائمين بالقسط ، ذلك هو سر هذه الآية ولقد أوضحت هذا المقام فى قوله تعالى(قلنا اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم وضربت عليهم الذلة) إلى آخر الآية فى سورة البقرة .

أما الفصل الرابع وهو قوله تعالى (بيدك الخير) فاعلم أن هذه المسألة من أهم المسائل التى حارت فيها العقول وزاغت الأبصار وتاهت البصائر وزلت الأقدام ، فقالت طائفة ممن نظروا فى بعض العلوم الطبيعية كالطب أو الزراعة أو طبقات الأرض أو الكيميا أو المعدن أو النبات أو الحيوان وكذلك الناظرون فى الفلك وأجرام الكواكب وكذلك دارسو الهندسة والحساب وهكذا كثير ممن هم فى مصاف الطبقة الوسطى من الناس الذين ارتقوا عن طبقة العامة ولم يكونوا فى نفوسهم فكرة عامة عن العلوم العامة ، قال هؤلاء : إنا نرى هذه الأرض وهذه الكواكب جارية بلا نظام ولا منظم ولا إله لأن العناصر باجتماعها فى باحات الخلاء كونت الشمس من هباء لطيف وهو الأثير ثم دارت حول نفسها وصارت بعد آلاف الآلاف تامة التكوين وتبعها وانفصل عنها الأرض والسيارات ، وهذه الأرض قد تصادف أن اتحدت أجزاء على سطحها ، وتكونت وامتزجت وتضامت وحدثت أمزجة مختلفة فمنها نبات ومنها طيور ومنها سمك ومنها أنعام ، وكل ذلك بالاتفاق والمصادفة ، فإذا أصاب أحد هذه مرض أو جوع أو عطش مصادفة وطال عليها ذلك ماتت ، فالموت مصادفة والحياة مصادفة ، وهذا العالم كله هرج ومرج ، وقال قائلهم :

حياة ثم موت ثم بعث حديث خرافة يا أم عمرو

هذا هو الحديث الذى يدور على ألسنة الطبقة الوسطى فى العلوم والمعارف فى أنحاء الأرض من مسلمين ومسيحيين ويهود ومجوس وأتباع كونفيسوس وأتباع بوذا وكلهم على ذلك أجمعون .

وأما الذين اتبعوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم يقولون نحن لا نفكر فى هذا ، ونكل علمه إلى الله تعالى ونقول هو أعلم بالحكمة فى خلقه ويقولون ماقاله شاعرهم :

إذا مارأيت الله فى الكل فاعلا عقلت فصيرت القباح ملاحا
وإن لم تجد إلا مظاهر صنعه جهلت فصيرت الملاح قباحا

وقال شكسبير الشاعر الإنجليزى (وقد ترجمته إلى العربية) :

إذا كان هذا الكون بكلؤه الذى يراه فأولاه الجمال ونعما
فماذا يراه عاقل غير أنه قصور جنان الخلد رصعن أنجما

وأنت خبير أيها الذكى أن هذا القول لا يدفع عارا ولا يذكى نارا ولا ينفع جارا ولا يقيم حجة ولا ينير المحجة وإنما يجتزئ به المؤمنون الذين هم عن النظر عاجزون ولهؤلاء راحة وطمأنينة ، ولكن هذا التفسير قد أعددته للطبقة الوسطى وهم أكثر المتعلمين فى العالم الإنسانى فلأذكر لك الحقيقة جلية مضيئة بهية مشرقة سنية أزفها لك مميطة القناع لابسة الحلل حالية بالجواهر باسمة الثغر ناعسة الطرف حوراء تسحر الناظرين وتسبى العاشقين وتشرح الصدور وتشرق بالنور تفوق الحور ، إن تخلت قتلت ، وإن تجلت بهرت بجمال يأخذ بالألباب وشمات معطرات يقصر عنها الرباب ، وحجج لم يعدها الصواب فأقول :

اعلم أن هذه المسألة شرحها العلامة الرئيس بن سينا فى كتاب الإشارات وغيره من سائر الحكماء الإسلاميين قالوا: إن ما نشاهد من الموجودات وما نعرف من المخلوقات نعرضها على العقل ونبحثها بالفكر والعقل يقول : إنها لا تخرج عن أحوال خمسة : الحالة الأولى أن تكون شرا محضا . الحالة الثانية أن تكون خيرا محضا . الحالة الثالثة أن يغلب خيرها . الحالة الرابعة أن يغلب شرها . الحالة الخامسة أن يتساوى الأمران ، ثم قالوا: والعقول الإنسانية لا تتصوّر غير هذه الصور . أما الشر المحض والذى غلب شره على خيره والذى تساوى فيه الأمران لا أثر لوجوده ، وليس فى عالمنا ولا سواه فكيف يوجد الشر المحض وما معه ؟.

أما ما غلب خيره على شره أو هو الخير المحض فذلك هو الموجود ، وقد قالوا إن العالم الذى نحن فيه من القسم الذى غلب خيره على شره . هذا إجمال مقالهم ولنفصله كما فصلوه فنقول :

إن ضوء الشمس والقمر والكواكب وماء السحاب والنار والنبات والحيوان غلب خيرها على شرها فضوء الشمس به حياة الموجودات ولكن قد يستضرّ به المحموم ويموت امرؤ بضربة الشمس .

والماء الذى يحيا به النبات والحيوان قد يغرق فيه ناسك ويغطس فيه عالم وورع تقىّ ، والنار كثيرا ما تحرق ثوب الناسك والمرأة العجوز والطفل الذى لا ذنب له .

ولا ريب أنه يغتفر هذا الضرر القليل فى جانب النفع العظيم ولو قال قائل إنه يجب إطفاء الشمس وتغور ماء البحر ومنع المطر وإطفاء النار لمضارها وغفل القائل عن منافعها عدّ أبله عاجزا وجاهلا مغرورا ، فالحكمة تقضى أن ما أفاض الوجود الكثير والضرر القليل يجب حصوله وإبرازه ، والبخل به جهل وحمق ومخالفة الحكمة

وهناك تبدّت مسائل كثيرة فيقال لم خلقت الحيات والعقارب والذباب والزنابير والأسود والنمور والذئاب والدود وهى لم تخلق للمنفعة ولم تكن لها أدنى فائدة فهل هذه يخلقها الحكيم وأى حكمة فى خلقتها وأى فائدة فى ظهورها ؟.

فقال علماؤنا رحمهم الله: إن الحيات والتماسيح والسباع والتنين والهوام والحشرات والجراد كلها مخلوقة من المواد الفاسدات والعفونات الكائنة ليصفو الجوّ والهواء منها لئلا يعرض لها الفساد من البخارات المتصاعدة فيعفن الهواء ويكون أسبابا للوباء وهلاك الحيوان دفعة واحدة .

ذلك أن الديدان وطوائف الذباب والبق والخنافس لا تكون جائمة فى دكان البزاز ولا الحدّاد ولا النجار وإنما تكون فى دكان القصاب والسمان واللبان والدباس أو فى السماد والسرقين .

فأنت ترى أن العفونات لو بقيت لأهلكت الحرث والنسل فلما خلق منها الذباب والبق والدود والخنافس وما شاكلها أفادت فائدتين : أولاها أنها بخلقتها حوّلت العفونة إلى أجسامها فصارت صافية ، وطهر الجوّ والمكان وصلح للتنفس وذهب منه الحيوان المسمى (بالمكروبات) التى تفتك بالناس والحيوان ولو تركت تلك العفونات لفسد الهواء وأنتن وأهلك الناس دفعة مع الحيوان ، فهذا العمل يدل أن هناك تدبيرا ونظاما وأن هناك يدا خفية تحوّل الضار فتجعلها نافعة .

الفائدة الثانية أن هذه الحيوانات تصير أغذية للحيوانات التى هى أكبر منها ، وهذا العمل الذى يجرى فى الأرض والناس يجهلونه هم أنفسهم يعملونه سائرين على النمط الإلهى وهم لا يشعرون ، ألا ترى أنهم يرون القاذورات فى أفنيتهم ولو تركوها لأماتتهم فحوّلوها إلى الأرض ليصلح بها الزرع ، فاستفادوا فائدتين : نظافة الهواء ومصلحة الزرع لجلب الغذاء هكذا فعل الله حوّل العفونات إلى حشرات وذباب وخنافس ، وهذه تأكلها حيوانات أكبر منها؛ فكما أن الناس حوّلوا القاذورات إلى ما ينفعهم وينظف جوّهم ويصلح زرعهم بالإلهام والتجربة هكذا فعل الله فغذى الحيوان ونظف الهواء بل فعله أشرف وأعلى وأتم وأجلى ، إذ عمله

فى الحيوان وإصلاحه ، وعمل الناس فى الزرع وإنمائه ، والحيوان أرقى فقام به الله ، والنبات أدنى فقام ببعض إصلاحه الناس (إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

وهكذا خلق الله السباع والأسود والنمور ، فإنه قد تبين فى العلم الحديث ، وفى علم طبقات الأرض (الجيلوجية) أن الظباء والغنم والجاموس والبقر وسائر الحيوان الذى يأكل الحشيش فى الأعصر الغابرة كثرت فملأت السهل والجبل والقفر والعامر فلم يكفها النبات لكثرتها ، وقد وجدوها مطمورة فى كهوف ومغارات بعضها فوق بعض ففنيت وحينئذ خلق الله عز وجل هذه الحيوانات المفترسة وجعل أنيابها المحددة وأجسامها القوية معدة لأكل اللحم لاتعيش إلا به لتقلل مايتكاثر من نسل تلك الحيوانات ولتكون آكلة للحمها فلا ينتن فيملأ الهواء نتنا وعفونة وحيوانات (مكروبية) تقتل الحيوان والإنسان .

وهكذا حكم الجوارح من الطير ، فإن العصافير والقنابر والخطاف وغيرها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها ، ثم إن البواشق والشواهين وما شاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها ، ثم إن البزاة والصقور والعقبان تصطادها وتأكلها ، ثم إنها إذا ماتت أكلها صغارها من النمل والذباب والديدان ، ثم إن بنى آدم يأكلون لحوم البقر والغنم والطير والجلان ، وإذا ماتوا أكلتهم فى قبورهم الديدان والنمل والذباب .

فالمسألة كالدائرة تأكل صغار الحيوانات كبارها ، ويأكل كبارها صغارها ، والقاعدة أن فساد كل شىء صلاح آخر .

فائدة

قال بعض العلماء : إن الذئب يصيد الثعلب ، والثعلب يصيد القنفذ ، والقنفذ يصيد الأفعى ، والأفعى تصيد العصفور ، والعصفور يصيد الجراد ، والجراد يصيد الزنابير ، والزنبور يصيد النحل الخ تأمل .

وقال عنترة :

لى النفوس وللطير اللحوم وللـــوحوش العظام وللخيالة السلب

الحكمة فى سم الحيات

إن من الحيوان ما أعطى معدة أو كرشا أوقانصة فينضج الكيموس فيها بعد المضغ الشديد ، والحيات لم تعط معدة حارة ولا قانصة ولا كرشا ولا أضراسا فعوضت عن ذلك سما حاراً جداً ينضج اللحم ويذيب الشحم ، فلو لم تعط هذا السم لماتت جوعا وهلكت عن آخرها .

ومن الحكمة أن سم الحيات لايقتل إلا إذا صادفه فى الجسم جرح فيجرى فى العروق ، فإذا لم يصادفه جرح صار فى المعدة غذاء لاضرر فيه ، والفائدة فى خلقتها بين الهوام كالفائدة فى خلق السباع بين الأنعام والبهائم ، وكنفعة التنين فى البحر والكواسج والتماسيح ، وكنفعة النسور والعقبان والجوارح فى الطيور ، فالحية تأكل الهوام التى حولها ، ومن العجائب أن لحم كل حيوان ذى سم يكون ترياقا لسمه ، فلحم العقرب والحية إذا وضعا على الملسوع بهما شفى حالا .

حكمة الآلام فى الحيوان

لقد قرأت فى كلام اللورد افبرى الإنجليزى فى بعض كتبه أن الآلام التى فى أجسامنا إنذار وتعليم ، وبيان ذلك أن أعصاب الحس إنما يكون عملها فى سطح البدن وهو الجلد ولا إحساس بها إلا هناك لتنذرنا بالخطر المحدق بنا ولا يكون ذلك فى الداخل .

وعليه نقول إن الإنسان إذا أصابه الحرق والجرح ولم يحس بما أحاط به فالألم يدعوه لطلب النجاة وبقاء الحياة ولولاه لأهلكه العطب وأحاط به الموت وهو لايدفع شيئا ولا يستدعى طبيبا كما لايتعاطى الطعام لولاغريزة الجوع

حكمة الحكام الظالمين

إن الحكام الظالمين والقضاة المرتشين والأمم المستعمرة لمن لايصلحون للرقي ، كل هؤلاء نفعهم أكثر من ضررهم ، فإن الحاكم الجائر يمنع القوى عن الضعيف لحفظ الأنفس والأموال ، وإن كان هو في نفسه فاسقا ظالما مرتشيا فقد نفع غيره وأهلك نفسه وأصبح آلة للإصلاح وإن كان فاسدا كالشمعة تضيء وتفنى ، وسيأتي دوره في القضاء الذي لامناص منه في هذه الدنيا أو بعد الممات .

إذن ما الخير وما الشر ؟ إيضاح ماتقدم .

قد تبين في هذا الكتاب في غير ماموضع أن الشر قد ينتج الخير ، كما ترى في السماد والسرقين وكيف تعاف النفس منظرهما وكيف يملأ الجو من جراثيمهما ، ثم إن هذه الكراهة لحكمة شريفة وغاية منيفة ، فإن الناس بها ينظفون أفنيتهم ويحفظون صحتهم وأكثرهم يجعل هذا المكروه سمادا لأرضه وغذاء لزرعه ممثلة عناصره في فاكهته وحبه وشجره وقطنه الذي منه ثوبه وكذلك كتانه وسمسمه الذي منه زيته وهكذا زيتونه .

فياليت شعرى أين الشر إذن سرجين قذر قبيح المنظر صعب كريه يصبح فاكهة وأبا وثوبا وزيتا وعطرا . إذن ماهذه الكراهة ؟ هي سبب من أسباب داعية إلى نقله إلى الأرض ، فالأنفة من السماد والكراهة له من أسباب حياتنا ، أين الشر ، إذن هذا خير هكذا ماجاء في هذا الكتاب من الكلام على الحشرات الضارة إنها مطهرة لجونا مغذية لطيرنا يأكلها ، فهي إذن نعمة لانقمة وكراهتنا لها داعية لتطهير الأمكنة من القاذورات الحاملات للجراثيم .

وقل ماتشاء في نقص الصحة والمال والأهل وأمثال ذلك مما يبتلى به الناس كل ذلك مكروه وشر ولكن ترى أن من يبتلون بهذا يكونون قد نالوا قوة وهمة ولم تر في التاريخ من العظماء والأنبياء إلا من صبروا على المكاره وكثير منهم من سموا أولى العزم .

فبهذا أصبح الشر من أسباب الخير ، مثلا ترى المرض يعطى المريض عظة واعتبارا وتذكرة ويهذب خلقه ويكون ذلك داعية لارتقاء علم الطب العام فيبحث الأطباء ويرتقى نوع الإنسان .

وأعظم المصائب عند الناس الموت وفهم الموت فوق متناول أكثر الناس ، فإذا حكمنا أن المصائب كالسماد مرقية لمن أصيب بها ، وقلنا إن الذين أصيبوا بها أعظم قدرا من الذين لم يبتلوا ولم يجربوا ، فكيف يسوغ ذلك في الموت نقول الموت انفصال الروح عن الجسم ، وما الجسم إلا لوح النفس ؛ كما أن السماد والأرض هما اللوح الأكبر ، فالروح في الجسم تدرس هذه الدنيا ، فإذا مهرت في نظرها أدركت عجائب هذا الهيكل فهو لوحها الذي تقرؤه ومدرستها التي تربت فيها وحقلها الذي تزرعه ، فإذا ارتقت إلى عالم الأرواح استغنت عنه كما يستغنى الطفل عن اللوح ، وكما يخرج الجنين من الرحم ، وكما يخرج الطفل من الصبا إلى الفتوة فيترك جسمه الذي لايبالى به تتغذى منه الحشرات من الديدان والذباب والخنافس كما كان يتغذى هو بأنواع الحيوان فأما روحه فإنها تكون قد خرجت إلى عالم ألطف وفي حال أرقى ، وإذا كان الموت كما هو قول الأرواح التي خاطبها الناس في انكلترا وفرنسا وأمريكا وجميع الأمم على هذا النمط وهذا عينه أقوال الأنبياء والوحى ، فكيف يكون الموت شرا بل يكون خيرا ، فياليت شعرى ما الذي به نعرف الخير من الشر وقد رأينا في هذه الأمثلة أن المآل هو الخير وأما الشر فإنما هي نسب وأحوال خاصة وتئول للخير .

فصح ماتقرأ في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال » فالفتنة إذن الجهل بالموت والحياة .

واعلم أن هذا الإنسان معذب بالجهل ففتنة المحيا والممات هي الجهل بثمرتهما ونظامهما ، ولقد تبين لك

فى غضون هذا التفسير أن دين الإسلام كله يئول العلم ؛ فدعاء السجود والركوع للعلم بالتشريع وطبقات المين ودعاء الصبح فيه مسألة الرحمة وشمولها ، وهنا نرى مسألة الحياة والموت ، وهى أهم المسائل وهى عقدة العقد .

يقرأ المسلم فى صلاته الرحمن الرحيم ويكرر الرحمة فى ١٧ ركعة وهى الفرائض قريبا من مائة مرة تارة صريحا وأخرى تلويحا ، فإذا السنن كانت ٢٠٠ مرة فأكثر ، ثم إن أول كل سورة بسم الله الرحمن الرحيم الرحمة شائعة فى الدين ، فإذا كانت فى أول كل سورة كان معناه أن كل ما ابتليتكم به مآله الرحمة ، فيقول المسلم أين الرحمة فى المرض والفقر والذل والرق والاستعباد ، بل أين الرحمة فى الموت أين الرحمة فى ذلك كله وأعوص المسائل مسألة الموت والحياة ؟.

جمال المقال

وجمال هذا المقال وبهجته وخلاصته أن الآلام قسمان : قسم ماهو دون الموت من فقد الأصحاب والمال والصحة ، والقسم الثانى الموت فإذا ماتدبرت وقرأت الكتب ونظرت بنفسك فى كل يابسة وخضراء وأرض وسماء وناطقة وخرساء وقائم وحصيد وأجلت النظر ، ولم تحجبك العلوم التى قرأتها ولا الآراء التى عرفتها ولا الشهادات التى نلتها ولا المناصب التى وليتها ولا أكاذيب التعظيم التى أوليتها ولا الثروة التى ملكتها ، ثم درست هذا العالم درس المستبصرين وتنكبت طريق المتكبرين عرفت إذن أن الناس على الأرض يربون مع الحيوان وهم يساسون سياسة لين وشدة ويركبون طبقا عن طبق . واعلم أنك لن تنال ذلك إلا بعد الجهد الجهيد والنصب والكد والنظر والإخلاص .

أيها الذكى لايغنى أن تكون من المدرّسين ولا المحامين ولا القضاة ولا المهندسين ولا رجال الإدارة ولا رجال الزراعة أو الطب أو البيطرة أو الجيش . فكل أولئك قاموا بركن من أركان الحياة الاجتماعية ولن يخلص أحد منهم من التقليد والجهل العتيد إلا بتلك النظرات؛ فليكدح ليله ونهاره حتى يوقن بعقله خاصة أن الحياة والموت لم يكونا للتعذيب بل للتهذيب ، وأن المرض والفقر وأضرابهما نتائجها ارتقاء النفوس لابد أن تعرفها بنفسك ولا تقف عند السماع ولا أقوال العلماء ، هناك تخرج من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات، فذلك كله ناجم من جهلنا بنظام الحياة الإنسانية ودرجاتها ، ولما كان هذا أهم علم عند الحكماء قديما وحديثا كان الدعاء به فى آخر الصلاة ، ولقد قدّمت لك فائدة الدعاء بالاستعاذة من المسيخ الدجال عند قوله تعالى (إذ تبرّأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) وأبنت هناك أن هذا الدعاء راجع لأمور حاضرة من أزمان النبوة إلى الآن ، وها أنا ذا الآن ذكرت لك ماهو أهم وهو فتنة المحيا والممات . واعلم أن ماقلته الآن يسمعه أكثر الناس من وراء حجاب ، ولكن لايغنى قولى ولا ينفع ، وإنما الذى يفيد بحثك بنفسك (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) وإنك بعد أن تصل إلى هذا المقام تفهم تحقيقا معنى قوله تعالى هنا (بيدك الخير إنك على كل شئ قدير) .

بهذا فليفهم معنى القرآن وبهذا تكون دراسة الحكمة (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

أما الفصل الخامس ، وهو قوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب) فلأذكر لك من عجائب الحكمة مايدهش اللب ويسحر العقل ويضىء لأولى العقول الذكية والنفوس الشريفة . فأقول فى هذا المقام لطائف :

اللطيفة الأولى

لقد رأى العلماء الباحثون فى العصر الحاضر ، وكشفوا أن بعض الذباب يحفر لبيضه جحرا فى الأرض يضعه فيه ، ثم يذهب إلى عنكبوت أو دودة يمج فيها جزءا من السم فتسكن حركتها ، ثم يحملها إلى جحره ويلقيها عند البيض ويسدّ عليه ، فإذا خرجت الأولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها .

وسبب ذلك أن هـذه الحيوانات لاتأكل ميتا قط وأمها تعلم أنها لاترى أولادها قط فتحضر لها هذه الحيوانات التي خدّرتها بسمها حتى إذا خرجت من البيض أكلتها ؟ أليس ذلك من الرزق بغير حساب ؟ فأين تعلمت هذا تلك الذبابة ولم تر أمها ولم يكن هناك مدارس ولا معلمون ولا قضاة ولا محامون ، فرزق هذا الحيوان بلا حساب ، وهـذه هي الرحمة (كتب ربكم على نفسه الرحمة — ورحمتي وسعت كل شيء) بسم الله الرحمن الرحيم هذه هي الرحمة وهذا هو القرآن وهذا هو الدين وهذا هو الإسلام هيا أيها المسلمون لا تناموا، أيها المسلمون استيقظوا، أيها المسلمون انظروا، أيها المسلمون لهذا خلقتم، هذا هو دينكم، هذا هو الدين القيم ، هذا هو العلم ، هذا هو العقل والحكمة . القرآن يشير لكم بيده إلى هذه العجائب ، ويقول انطلقوا إلى هذه العجائب فادرسوها ، وإلى هذه الحكم فاعلموها ، وإلى هذه الآيات فاتلوها (قل انظروا ماذا في السموات والأرض — وفي الأرض آيات للموقنين) هذه هي الآيات، وهذه هي البينات، فاقرءوا أمثال هذا فهو غاية القرآن إن الطبيعة كتاب كتبه الله بيده ، والقرآن جاء ليدلكم على ماخطه بيده سبحانه وتعالى من هذه الرسوم والكلمات هذه هي الكلمات (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) .

هذه هي الكلمات التي كتبها بيده ، وقال في القرآن انظروا فيها ، فالنظر فيها أفضل من العبادات وأشرف وأعلى ، لأن العلم أرقى من العمل والعامل الأبله الغافل قليل الحظ في الآخرة كالأجير المسخر ، فاقرأ سطور الكائنات كما قرأت الكتاب المقدس وهو القرآن .

اللطيفة الثانية : الذباب الذي يعيش أولاده في جوف الحيوان الحي

من هذه الطائفة أي الذباب الذي لايعيش إلا على حيوان حي ماتعمد إلى دودة كبيرة فتخرق جلدها بخرطومها ثم تضع بيضها الكثير موضع الخرطوم تحت الجلد ، فإذا حصل الفقس وخرجت الأولاد أكلت من اللحم والدهن ، ولم تتعرّض للأعصاب التي عليها مدار الحياة ، ومتى قدرت على الخروج شرعت تأكل الأعصاب فيموت ذلك الحيوان لأنها ليست في حاجة إلى حياته ، ثم تخرج تلك الحيوانات ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطا محكما تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجثة فتغطيها بكثرتها ، فلايرى الراءون منها شيئا (إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

اللطيفة الثالثة : الأرانب وبعض الحشرات

الأرانب تنتف شعر بطنها فتجعله فراشا لأولادها ، وبعض الحشرات أعظم منها شفقة وأكثر رحمة فإنها تنتف شعرها كله ولا تكتفي بجزء منه ، ومتى باضت لفت بيضها في شعرها لجعله أثوابا تصنعها لوقايته من الحر والبرد والعوارض الجوية ثم تموت .

اللطيفة الرابعة : الحشرة التي تجعل جسمها وقاية لأولادها

وبعض الحشرات إذا باضت ضمت بيضها بعضه إلى بعض وغطته بنفسها وأحاطت به من كل جهة بجسمها ليكون له كالكيس والوقاية ثم تموت فإذا خرجت الأولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها مافعله بها أصلها

اللطيفة الخامسة

إن بعض الحشرات يعدو على غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به إلى ذرّيته .

اللطيفة السادسة : يعسوب النحل

إن يعسوب النحل التي يقال لها أم النحل إذا ماتت اختزن واحدة منهن وهيأن لها مكانا أوسع من غيره خمس مرات وأخذن يخدمنها ويطعمنها الشهد الذكي الرائحة فتكبر سريعا لحسن المواد الغذائية فتأمر وتنهى وتعمل على مقتضى القوانين ولايخترنها إلا إذا كانت فيها تلك الصفات التي يعرفنها بالإلهام .

اللطيفة السابعة : أسد النمل

رأى بعض العلماء هذا الحيوان الصغير يحفر فى الرمل جحرا منتظما والرمل ناعم جدا ، وأخذت تلك الدابة تحفر برأسها ، وترفع التراب دائبة مجدّة ، وترى التراب متلاحقا يمر مرّ السحاب كرّة وراء أخرى ، وهكذا حتى إذا تم لها جحر ناعم أملس سكنت فى أسفله بحيث لايظهر إلا رجلاها ، ثم لما مرّت نملة عليه انزلقت رجلها فسقطت على تلك الدابة فأكلتها حالا أى امتصت المادة التى فيها ، ثم لما جاءت نملة أخرى سقطت وأرادت التخلص منها هالت تلك الدابة عليها التراب فأسرتها ثم امتصتها ثم أخذت أجسام تلك الفرائس ورمت بها خارج جحرها وسوّته ورجعت إلى ما كانت عليه من الانتظار .

اللطيفة الثامنة : الحشرات الآكلة العنكبوت

إن من الحشرات ما تأكل العنكبوت، ذلك أنها تلبس ثوبا من نسج العنكبوت وتلتف فيه ثم تعفر جسدها بالتراب ، فإذا مرّ بها العنكبوت التقطته وهو غافل ، ثم تمزق ثوبها وترجع إلى حالتها ، ولقد فعلت مافعلته اليابان فى حرب الروس إذ صنعوا مراكب ملوّنة بلون البحر حتى لايراها الروس فوقعوا فى الهلاك المبين .

اللطيفة التاسعة : حيل النحل فى عدوه

إن النحل إذا دخل عليه عدو من الحشرات مزقه ، فإذا كان العدو صغيرا رموه ، وإن كان كبيرا اجتمعن عليه ولسعنه معا حتى يموت ولما لم يكن فى قدرتها إخراجه تعمد إلى صمغ تحضره من بعض النبات فتلفه به وتغلفه فبالسم خلصت من حياته وبالصمغ خلصت من ضرر موته لأنه محنط كما فعل قدماء المصريين .

هذه اللطائف التسع ذكرتها لتعلم كيف رزق الله هذه الحيوانات بغير حساب وعلمها بلا كتاب ، وأنعم عليها بنعم من عنــده وألهمها ورزقها، فلا مدارس ولا دروس ولا مدافع ولا أساطيل ولا جيوش جرّارة ولاسيوف بتارة ، وبعض الدول لاتعيش إلا بالسلاح والكراع والنصب والتعب والكدح والكد، ذلك رزق الله بغير حساب .

ولعلك بهذا تفهم قوله تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين — وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرّطنا فى الكتاب من شئ ثم إلى ربهم يحشرون) وقال تعالى (مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم) لاعوج فيه لأنه عدل فى القضية ، نظر للحيوان كما نظر للإنسان فهذا هو الصراط المستقيم والعدل الدائم، فإنه لم يذر الذرّ ولا النمل ولا النحل كما لم يذر الجمل والفيل والإنسان ، وهذا دلالة أنه مافرّط فى اللوح المحفوظ والعلم القديم بل إنها كلها أمم أمثالنا والله معها (وهو معكم أين ما كنتم) وإذا لم يكن معنا فكيف يتم هـذا النظام (كتب ربكم على نفسه الرحمة) هاهنا أريتك رحمة الله للحيوان ولبيضه ولأفراخه قد رأيتها ملموسة منظورة تلمسها يدك وتنظرها عينك وتسمع أصوات تلك الحيوانات أذنك وتشم روائحها بأنفك وتذوق لحمها بفمك .

أو ليست هذه هى آثار الرحمة قد كتبها الله بيده كتبها بحروف أوضح من حروف اللغات وكلماتها أبهج من فصيح الكلمات وجملها أبلغ من بليغ العبارات ، هذا هو السحر الحلال هذا هو الجمال والجلال ؟ فأين اللغات وعلومها وأين العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية والإنجليزية والألمانية وغيرها؟ هل تبلغ من نفوسنا مابلغته هذه الصور وهل تعطينا إيمانا كما رأينا بالبصر ؟ بهذا نفهم قوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة) وقوله تعالى (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعد وأصلح فأنه غفور رحيم . وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين) وهاتان الآيتان فى سورة الأنعام يقول سبحانه (كتب ربكم على نفسه الرحمة) وأعقبها

بأنه يجمعنا ليوم القيامة فذكر إحياءنا عقب ذكر الرحمة وذكر فى الثانية أن السلامة والأمان للذين يؤمنون وأنه يغفر لهم السيئات ، ثم قال (وكذلك نفصل الآيات) وإنما ذكرها بعد ذلك ليبين أن آيات الرحمة سيبين هو تفصيلها فى الحيوان ، وفى عجائب هذا العالم المشاهد كما استبان فى هذا التفسير ، وهذا هو الزمان الذى يبين الله فيه الآيات بيينها بكتابه الذى كتبه بيده مع أنه كتب على نفسه الرحمة، كتبها فى كل نفس وكل بيضة وكل جنين وكل حشرة وكل طير وكل هامة ، فعليه رزقها وعليه حفظها وعليه تدبيرها هذا هو مضمون الكتاب الذى كتبه بيده ، وهذا هو الكتاب المبين الذى يدعو للنظر فيه التوراة والإنجيل والقرآن، فمن لم يعقل كتابه الذى كتب على نفسه الرحمة فيه ، فليقرأ مانزل من الكتب السماوية لترشده إلى ذلك الجمال والكمال (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

اللطيفة العاشرة : القنفذ

(١) إن القنفذ يصعد إلى الكرم فيرمى بالعنقود ثم ينزل فيأكل منه ما يكفيه ، وإن كان له فراخ تمرغ على الباقى فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده (٢) إن بين التراب والذئب ألفة فإنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره (٣) إن الفأرة تأتى إلى إناء الزيت فتشرب منه، فإذا نقص صارت تشرب بذنبها فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت بماء فى فيها وتصبه فيه حتى يعلولها الزيت فتشربه .

اللطيفة الحادية عشرة : الجراد والعنز والزرع والفلاحون فى مصر

إن الجراد قد يفتك بالزرع فى بلادنا المصرية ، فتراه فى جوّ السماء كأنه سحاب مركوم ، فإذا نزل بزراعة التهمها وأكل ورقها وحبها وصارت جرزا ، ولقد خلق الله فى جبالنا المصرية طائرا يسمى العنز أكبر من البط وأصغر من النعام يفتك بالجراد فتكا ويعدمه من الوجود .

صفة ذلك

فإذا جاء الجراد وفتك بقوت العباد فتك به العنز وأنزل به الهلاك والبوار. نزل الجراد يوما بمزرعة تبلغ نحو ٦٠ فدانا ، وقد غطى وجه الزرع وأخذ يلتقمه التقاما، والفلاحون يبكون ويندبون حظهم ويستصرخون ويمن يستصرخون ويستغيثون إذا كان عدوهم سماويا وأمرهم ليس يقدر عليه إلا الحكيم الخبير، فبينماهم على تلك الحال إذ أقبل لهم النصر وبسم لهم الدهر وكشف عنهم الضرر وأقبل الطائر المسمى بالعنز المذكور فأحاط بالمزرعة إحاطة الهالة بالقمر والسوار بالمعصم وضرب عليها سورا من جنوده أحاطها بعسكره الجرار بنظام يعجز ضباط الجنود وقوّاد الجيوش الذين لاينتظم جمعهم ولا يحفظ كيانهم إلا بتدريب للدرّبين وتعليم للدرّسين والدأب والسهر فى النهار وفى السحر ، فلما أن انتظم جمعهم وقام صفهم كأنه بنيان مرصوص أرسل قائدهم جماعة منهم وسط الزرعة ليفرّقوا الجراد وليزعجوه عن المزرعة، فيلجأ للخروج فتلتقمه تلك الجنود ، وكلما امتلأ بطن واحد منهم الذى هو كالخلاة رجع إلى الجبل فأفرغه ليكون ذخيرة ثم يرجع وهكذا حتى لم يتركوا فى المزرعة جرادة اه والفلاحون واقفون ينظرون يحمدون ربهم ويسبحون ، فياعجبا !! أليس هذا العنز قد رزق بغير حساب ، وهل هو الذى ربى هذا الجراد أم هو الذى بذر الزرع، أوليس الجراد رزق بغير حساب وليس له فى الزرع عمل؟ أو ليس الإنسان قد رزق بغير حساب فهل هو الذى ربى العنز الذى أكل الجراد ؟. يا ليت شعرى انيام أهل الأرض أم مستيقظون وكأين من فلاح نظر هذه المسألة ولا ينظر فيها ؟وكم من عالم سمع بها ولا يلق إليها بالا، إن الإنسان لجهول وظلوم وكفار . أهل الأرض مساكين ثلاثة أنواع من المخلوقات : الجراد والإنسان والعنز تألفت منهم رواية أدبية يخرّ لها العقلاء سجدا ويقولون سبحان ربنا ، وينظر لها الجهال غافلين . لعمرى ما أجهل الإنسان . ولعمر الله إن هذه لأشبه بما نرى من استمساك القمر

بالأرض وجريه حولها واستمساك الأرض بالشمس وجريها حولها واستمساك الشمس بالكوكب الذى تجرى حوله ، وهكذا طبقا عن طبق حتى تصل إلى منبع الوجود .

من هنا فليقرأ الناس الدلوم وبذلك فليفرح المفكرون ، ويا ليت شعرى أى فارقة بين آحاد الجراد والإنسان والمعز وبين تماسك القمر بالأرض وبالشمس ، سلسلة متصلة ووحدة جامعة ونظام متماسك متحد (إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

اللطيفة الحادية عشرة

إن فى البحر الأحمر حيوانا يسمى الدرفيل قد رأيته أنا جسمه قدر الحمار يغدو ويروح ليس عليه من رقيب لأن حكومتنا حرمت قتله كما منعت قتل المعز المتقدم ومن قتله يعاقب بالشغل الشاق ستة أشهر .

وهذا الدرفيل إذا صادفه غريق من بنى آدم فى البحر حمله على ظهره وجرى به جريا حثيثا حتى يلقى به فى الشاطئ ، فانظر هذه اللطائف وتعجب من حكمة باهرة ، وبهذا فليكن فى الإسلام علماء وحكماء (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فهذه آيات الله ، ولقد فصلناها فى هذا الكتاب تفصيلا وبيناها للناس تبيينا .

اللطيفة الثانية عشرة : طائر يسمى السقا

إن فى بحيرة (أخرى) بناحية منستر ببلاد ألمانيا طيرا يسمى سقا يطير فوق الماء حجمه كبير ولايقدر أن يصيد السمك الذى هو غذاؤه ، وهناك طير آخر يصطاد السمك غطاس فيغوص فى الماء ويأتى بالسمك فيلتقمه السقا فيأكله ، وهذا السقا تبقى فى فمه بقايا وهى مدوّدة ، والدود طعام ذلك الغطاس فمتى أكل السقا فتح فاه ليتناول الغطاس طعامه من الدود الذى تولد من بقايا الطعام ، فانظر كيف أحكمت الدائرة : سمك ودود السقا والغطاس ، كما أحكمت فى المعز والجراد والزرع والفلاح . هناك أربع متلازمات ، وهنا العدد نفسه (فتبارك الله أحسن الخالقين — وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون — إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم) .

وبهذا فليفهم المسلمون قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شئ) وكيف يعرف الإنسان هذه الرحمة الواسعة إلا بالدراسة ونظر ما أنعم الله به على الحيوان وأسبغ عليه من رحمته . هنا فليفهم المسلمون (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلما) وهنا فليعرف المسلم كيف شملت رحمته وعلمه العوالم كلها شملها بالرحمة التى أصبح يراها العلماء فى الذرّ والحشرات وكل مادبّ ودرج يرونها بأعينهم ويلمسون تلك الرحمة وذلك العلم الشاملين لتلك الحيوانات التى خلقها والنعم التى أبرزها والكلمات التى خطها بيده ، والنفوس التى أبرزها بعلمه وصوّرها كلها بحكمته وغمرها برحمته هذا هو الله . هو الله الذى بيده خطها وكتبها وأبرزها وأرانا بدائعها فشهدنا رحمته فيها وسعتها والعلم مع الرحمة لأنه قدّرها تقديرا وصوّرها تصويرا . ولعمرى لاينبغى للمسلمين مايسمعون حتى يبصروا ولا مايقرءون حتى يعلموا ، فالقرآن يذكر الرحمة ، وعلى العقلاء أن يعرفوها فى كل مادب ودرج فى الطيور الطائرات والدواب الماشيات والسمك العائمات والحشرات المتقلبات .

هنالك فليفهموا قوله تعالى (ورحمتى وسعت كل شئ) والجاهل بهذه العوالم لايدرك الرحمة فيها والغافل عنها لايعقل معانيها فتتجافى معظم الرحمة عن النفوس الغافلة ويختص الله بالنفحات القلوب الكاملة العاقلة ، ولذلك اختص بها المتقون والمؤتون الزكاة والمؤمنون ، ولذلك قال بعدها (فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبىّ الأمىّ الذين يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة

والإنجيل الخ الآية) عمم الله الرحمة، وجعل أعلاها وأخصها لمن اتبعوا النبي الأمي. الرحمة عامة وخاصة، والخاصة قال الله فيها فسأ كتبها لأتباع النبي الأمي، ولعمرى كيف يختصهم الله برحمته إن لم يدرسوها، وكيف يذيقهم أجلها وهم لم يعلموها. ذكر الله الرحمة في أول كل سورة، وفي سورة الفاتحة أربع مرات، وجعل الدعاء بالهداية بعد الحمد على التربية المشوبة بالرحمة كأنه يشير إلى أن المرء متى عرف المنحة استعد لها ومتى استعد لها رزقها. أمرنا أن نحمد الله على النعم المشمولة بالرحمة، ثم نطلب الهداية بعدها. هكذا هنا ذكر أنه وسعت رحمته كل شيء وخصص أعلاها بالمؤمنين الذين أمروا بالنظر في آثارها (فانظر إلى آثار رحمة الله) وهي التي رأيتها في هذه الحيوانات وعجائب المخلوقات هذه هي آثار الرحمة؛ فالرحمة صفته والآثار في عمله وحكمته فإذا نظروا في آثار رحمة الله عرفوها، وإذا عرفوها تشبهوا به فيها، وفي الحديث «تخلقوا بأخلاق الله»، وإذا تخلقوا بها أفادوا أهل الأرض، ولن يتخلقوا بمجرد السماع، وإنما ذلك بالاطلاع كما أطلعتك وبالفهم كما أريتك وبمجرد القراءة بلا مزاولة للمعاني قليلة الجدوى. الله واسع الرحمة والمسلم ينظرها ويتخلق بها ويكون رحمة لأهل الأرض قاطبة. إن نبينا رحمة للعالمين (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ونحن خلفاؤه رحمة للعالمين فنكون خير أمة أخرجت للناس (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فنحن رحمة العالمين، ولقد شرحت هذا المقام في سورة البقرة من طريق آخر عند قصة سيدنا إبراهيم (ومن يرغب عن ملة إبراهيم الخ) وعند قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) ولقد أبنت في تلك السورة أن المسلمين رحمة للعالمين فهم خير أمة وقلت وذلك يوجب أن تكون أمة الإسلام أعلم الأمم بأحوال العالم وأقوى عددا وجيوشا ليكونوا ناصرى الضعفاء على الأقوياء ومعلمى الأمم، وإذن يكونون خير أمة أخرجت للناس.

ملخص هذا الفصل الخاص بقوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب)

إن الرزق بغير حساب بعموم الرحمة والعلم، وعموم الرحمة يعرف بنظر العوالم، ومتى عرفت الرحمة بآثارها تخلق بها المؤمن وصار خليفة لله ولنبيه. أما خلافته لله فبنظره في آثار رحمته وفي تخلقه بها، وفي الحديث «تخلقوا بأخلاق الله» ويقولون الحكمة أن يتشبه الإنسان بالله بقدر الطاقة البشرية. وأما خلافته لنبيه فإن الله يقول (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فيكون المؤمن عالما بهذه العوالم مستعدا أن يكون مفيضا عليها قاضيا بينها نافعا اتباعا لنبيه بمقتضى الوراثة، وأما أيها الذكى لا أدرى كيف تأخر في هذا الزمان ظهور الأمة الإسلامية بهذا المظهر الإلهى فعسى أن يكون قريبا حتى يعلموا هذا الوجود ويقوموا بنظام أهل الكرة الأرضية ويكونوا رحمة لهم وقضاة ومؤدبين للأمم جميعها، وعسى أن يكون امتداد السكك الحديدية والأسلاك البريدية مقدمة لظهور هذا الجيل الإسلامى الذى هو اليوم ليس موجودا، ولكن الوجود بذور الدين. أما شجره وثمره وقيام أهله بنظام أهل الأرض ووصايتهم عليهم وحكمهم على الأمم الظالمة، ورحمتهم للأمم المظلومة، وقيامهم مقام الآباء لأهل الأرض فذلك لم يأت بعد، وقد مهدت الأساس، وبنيت القواعد له وقدمت المقدمات وعسى أن يكون قريبا.

بهذا تفهم القنوت في صلاة الصبح

يقول المصلى دائما وقت صلاة الصبح «وتولنى فيمن توليت» ياعجبا كيف يعرف المسلم أن الله رحمته واسعة ورأفته لاحدّ لها إلا إذا اطلع على مثل ماقررناه في هذا التفسير، وفي مثل هذه الحيوانات وأنها مرزوقة بغير حساب، الناس كثيرا ما يعبدون الله خوفا من غضبه وفرقا من عذابه في الدنيا وفي الآخرة، ولكن إذا اطلعوا على مثل هذه اللطائف في هذا الفصل حصل لهم يقين أنه يكفل الدرّ والنملة والنحلة والذبابة وأنه رحيم رءوف بالحقير والعظيم، هو رءوف حقا لأنه هكذا عمله مع ضعاف خلقه، وعلى ذلك يتبين

للإنسان علما يقينيا أن الله يتولى خلقه وعنده رأفة ورحمة لاحدّ لها ، ورزق تلك المخلوقات بغير حساب ، ولكن لماذا يدعو المؤمن والله برحمته عم النمل والنحل والكروب وتولاها ورزقها حتى أصبحت ترعى أجسامنا ، وإذا كنا أفضل منها فلماذا ندعوه وقد كفلها وتولاها أفلا يكفلنا ويتولانا ؟.

الجواب

اعلم أن العوالم ثلاثة : عالم الحيوان له غريزة ، وعالم الإنسان له عقل ، وعالم الملك والأرواح المجردة الذى ذكرنا آراء الناس والفلاسفة فيه عند قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) فى سورة البقرة .

فعالم الحيوان قد تولاه الله وأنعم عليه بالغريزة فنال الهناء والسعادة وقلّ عناؤه وشقاؤه بالنسبة للإنسان ولذلك ترى علماءنا أجمعوا على أن الحيوان قليل المرض والإنسان كثير الأوجاع والهموم والوجوم .

وعالم الإنسان أعطى عقلا به يفكر ويشقى فى تحصيل الرزق وتعلمه وملبسه مما تبرأ منه الحيوان واستراح ومهد له الأسباب فتراه يغزل وينسج ويطير ويبنى البيوت ويغوص فى البحر وهو سعيد بلا كلفة ولا مدرسة ولا طب ولا هندسة ولا حساب ولا شقاء ، وقد جعل الله له صحارى واسعة وشعابا وجبالا ومروجا وغابات واسعة وهو فيها رافل فى حلل السعادة فلا ضرائب ولا جباية ولا مدرسين ولا دروس ، وقد أعطى كل مايحتاج إليه وهو فى أتم حال .

أما عالم الملك والأرواح فله غرائز لا كغرائز الحيوان فهى لانصب فيها ولاتعب ولكنها قوة قدسية، فكما ترى العنكبوت ينسج والنحل يجنى العسل بلا تعليم هكذا الملائكة يفعلون ما يؤمرون وتكون أعمالهم سجية وغريزة من الغرائز العالية الشريفة . فهذه المنحة فى الحيوان غير عالية كالوحى إلى النحل والحمامة ، وفى الملك نسميها (قوة قدسية) .

والإنسان ارتقى عن الغريزة الحيوانية وانحط عن أفق الملائكة ، ولذلك نراه إذا سمع بالوحى طار إليه سراعا وفرح به واستبشر، فالله تولى الحيوان فى مرتبته السافلة ، وتولى الملائكة فى درجاتهم العالية، والإنسان فى حال التكليف يريد أن يصل إلى الدرجات القدسية فيقول «تولنى فيمن توليت» ويقول أيضا «فلك الحمد على ماقضيت» ومحال أن يفهم أن القضاء كله خير وجمال حتى القضاء بما يكرهه إلا إذا اطلع على نظام هذا العالم كما رأيت، كيف كانت القاذورات تحول إلى حشرات لطهارة الجوّ والحشرات إلى طيور والطيور يأكلها الإنسان والحيوان الكبير فيقول العبد فى الصلاة «لك الحمد على ماقضيت» لأنى علمت أن قضاءك لمصالح شريفة فيكون الحمد حقا لا بمجرد اللفظ ، وإذا قال تولنى فيمن توليت يكون مطلعا على بعض ماتولاه الله به جازما بأنه قد وسعت رحمته وعمت ويكون موقنا بما اطلع عليه كما فى لطائف هذا الكتاب التى اقتطفت من علوم الأمم الحاضرة والكشف العلمى .

إن الدعاء فى الدين الإسلامى فتح لباب العلم والفكر ، فإذا حمد المرء الله على قضائه وفيه مايكرهه المسمى شرا وجب أن يعقله ويتأمل المخلوقات وإلا كان الحمد كذبا ونفاقا، وإذا قال تولنى فيمن توليت يجب أن يطلع على بعض ماتولى الله حمايته وحفظه ، فإن الإنسان قليلا مايعرف رحمة الله فى نفسه بل تغلب عليه وساوسه وآراؤه المنحرفة المنغصة فينسى النعمة والله عام الرحمة عظيم الجود :

خاتمة هذا القسم وعجائبه

أيها الذكى تأمل معى فى مجموع آيات هذا القسم . انظر فيها ألست ترى أمرا عجبا يقول الله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم) ويقول (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) .

هل لك أن ترجع معي إلى أول السورة وتنظر (الم) أفلست ترى أن (الم) مع ماتقدم من الإشارات والرموز للعلوم تشير إلى أمر أهم في نفس هذه السورة . انظر معي وتفكر وقل لي ألست ترى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا الخ) قد ابتدئت بنفس (الم) وقوله تعالى (مالك الملك) جاء من الملك المكررة مرارا (الم) ولعلك تقول وما فائدتنا من هذه الإشارة ، أو لم يكفك ما مضى من الإشارات إلى العلوم حتى جئت الآن تقول إنها أيضا تشير إلى هاتين الآيتين وما المزية في ذلك (أقول المزية في ذلك) توبيخ المسلمين ولعلك تقول وأي توبيخ هنا والكلام في اليهود . أقول لك إن الله تعالى قال في اليهود إنهم أوتوا نصيبا من الكتاب وهو التوراة فلما دعوا للعمل به وامتثال أحكامه أعرضوا ولم أعرضوا ؟ أعرضوا بأضاليل دبجها لهم علماؤهم وأكاذيب زينوها لهم وحيل اخترعوها، سهلوا الأمر على الشعب وعلى نفس العلماء؛ فتارة يقولون لن تمسنا النار إلا سبعة أيام من أيام الآخرة كل يوم ألف سنة وقال قوم منهم أربعين يوما وقال قوم إن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم وقال قوم إنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لايعذب أولاده إلا تحلة القسم .

كل ذلك تقدم، ألاترى أن المسلمين وقعوا في نفس ماوقع فيه اليهود ماذا فعل اليهود ؟ اتكلوا على شفاعة الآباء وآباؤهم أنبياء عظماء ، اتكلوا على أن الله عاهد يعقوب أن لايعذب أولاده إلا تحلة القسم ، اتكلوا ذلك الاتكال . فانظر ماذا حصل كانت النتيجة التهاون بالدين والتهاون بالمعاصي والتهاون في الطاعات . فلما دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم بحكم التوراة نكصوا . فانظر أليس هذا بعينه هو الحاصل الآن في الإسلام . اتكل بنو إسرائيل على شفاعة آبائهم . واتكل المسلمون كذلك على الشفاعة . الشفاعة حق عندنا والشفاعة حق عند بني إسرائيل، ياعجبا يعاقب الله بني إسرائيل ويسلبهم ملكهم. لماذا؟ لأنهم اتكلوا على شفاعة آبائهم الأنبياء ونحن في ديننا نعتقد أن شفاعة الأنبياء حق بل منكرها يكفر، فكيف يكون الحق سببا في العذاب؟ نعم يكون الحق سببا في العذاب إذا أريد به باطل، والذين يجعلون شفاعة الأنبياء بابا للبطالة والكسل هم الذين اتخذوا الدين هزوا ولعبا (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) وهذا هو الذي أصاب المسلمين اليوم . المسلمون اليوم إما متنورون يجحدون الدين ، وإما جهلاء يتكلون على الشفاعة إلا قليلا من الفريقين تربوا تربية عالية منزلية أو مدرسية ، فإذا كان ذلك الاتكال سلب اليهود ملكهم أيام النبوة ، وإذا كان الجد والنشاط في أمة الإسلام الأولى أورثها الملك المذكور في قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك) إلى آخره فهكذا في هذه الأيام أصبح الكسل والبطالة والاتكال على الشفاعة في أمة الإسلام سببا من أسباب زوال ملكهم وضياع مجدهم وذهاب سعادتهم .

فكأنه تعالى لما قال (الم) في أول السورة يقول انظروا في آية (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب) إلى آخر الآيات .

فإن اليهود زال ملكهم بالتقاعد وبجعل الدين الذي أنزل ليكون عاملا قويا لرقي الأخلاق وإسعاد الأمة وصلاحها سببا في الفسوق والكسل . لذلك زال ملكهم وقد وعدت محمدا صلى الله عليه وسلم أن تملك أمته كثيرا من الأمم ، وذلك لأنهم قوم عاملون مجدون غير محرّفين في كتابهم كما حرّف اليهود ، فإذا رجع المسلمون كاليهود في أخلاقهم وعوائدهم المذكورة فإني أعاملهم معاملة أولئك اليهود ، وأسلبهم ملكهم ، هذا مايؤخذ من تلك الإشارات ، ولعلك تقول هذا يؤخذ من آيات أخرى من القرآن، فما فائدة هذه الإشارة؟. أقول إن الإشارة دائما أبلغ من العبارة .

وإذا كان المسلمون اليوم مغترين بأمور دينية ، فإن هذه الإشارة تنبههم إلى الرجوع عن ذلك الكسل ويظهر لي أن هذا هو الزمان الذي تظهر فيه أسرار القرآن وعجائبه ويظهر لي أن الناس بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيجولون جولات في العلم والحكمة الإسلامية ، لاسيما أن الأمم الأوروبية اليوم قد اتجهت لدين الإسلام ، ولعلك تقول هذا عرفناه في سورة آل عمران .

فما الذى تشير إليه (الم) فى أول سورة البقرة . أقول تشير إلى أهم ما فى السورة ، وهو الجهاد وعلوم الطبيعة، ذلك أن قوله تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى) جاءت فى الجهاد والحث عليه فارجع إليها ، وقوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك) إلى آخر الآيات، فقد ذكر فيها محاجة إبراهيم للنمروذ وكلامه فى الشمس وأن الله يأتى بها من المشرق فائت بها من المغرب ، وكذلك جاء هناك مسألة العزير وأن الله أحياه وأحيا حماره وقال له انظر إلى العظام، وكذلك مسألة الخليل إبراهيم إذ قال الله له (أو لم تؤمن قال بلى الخ) وكل ذلك حض على علوم الطبيعة والتشريح .

فكأن (الم) فى أول البقرة تشير إلى العناية بأمرين : الجهاد والعلوم بقسميها الأرضية والسماوية ، ولا بقاء لدين ولا لدنيا بغير هذين لاسيما فى هذا الزمان كما جاء فى هذه السورة أن الملك يدوم مالم يجعل الناس الدين من أسباب التقاعد كما كان اليهود يفعلون .

تذكرة

كأنى فى هذه الساعة أتخيل طائفة من مؤمنى هذا الزمان جالسين فى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وكأنهم لدى كأنهم أخذوا يفكرون ماذا يعنى بالم حتى إذا وصل إلى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) إلى قوله تعالى (وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه) إلى قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك الخ) .

وكأنهم لما سمعوا ذلك قالوا ياليت شعرنا ، ماذا يعنينا من اليهود الذين مضوا وقد غرّهم ما كانوا يفترون فى دينهم وقد رفضوا أن يحكم لهم بحكم التوراة الخ ، ثم يقولون بعد أن يتدبروا لابد أن يكون المقصود من هذا القول نحن معاشر المسلمين لاسيما فى هذا الزمان ، فإن اليهود أيام النبوة كان لهم دين مضى عليه زمن طويل (فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ولذلك أدخلوا فى الدين خرافات وألصقوها به وبتوالى الأيام اغتروا بتلك الأوهام وخدعوا بها فجاءت أجيال صدّقت بتلك الأوهام حتى صارت عندهم هى من الدين الأصلى، وهذا عينه قوله تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ثم كأنهم يقولون ألسنا اليوم غيرنا أيام النبوة وربما حصلت لنا تلك القسوة التى تحصل للأمم إذا طال عليها الأمد ، فها هو ذا الأمد طال علينا ولعل قلوبنا قست فقد مضى على النبوة ١٣٤٣ سنة عربية ، وهى قرون كثيرة نامت فيها العيون ، ونعست الجفون وطال الأمد وقست القلوب ، ثم كأنهم يقولون فلننظر فى غرورنا فى ديننا الذى أشار له القرآن لننظر فى عيوبنا فى هذا الزمان لننظر فى ذلك لأن (الم) فى أول السورة جاء مفتاحا لهذا العلم بها تفتح خزائن العلم خزائن العلم المخزونة فى قوله تعالى (ألم تر إلى الذين أوتوا إلى آخره) لأنها مبدوءة بنفس (الم) فلننظر أين غرورنا لأن الله لما قال فى آية سورة الحديد التى تقدمت (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أعقبه بقوله تعالى (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) فكأنه يشير إلى أن الأمة التى طال عليها الأمد وقست قلوبها وفسق أكثرها لاتيأس من روح الله . فلننظر المخرج مما وقعنا فيه ، وكأنهم يقولون لننظر فى غرورنا نجده فى العلم وفى النسب وفى الشيوخ وغير ذلك .

أما فى العلم فإننا اليوم لانعرف من مقاصد الدين إلا علم الفقه وأصوله ، وقد درج المتأخرون من المسلمين على ذلك بحيث يعتنون به وبأصوله ؛ فأما علوم الكائنات من طبيعيات ورياضيات وفلكيات ، فإن المسلمين لايبالون بها ، ومن قرأها منهم فإنما يقرؤها لأجل الحياة الدنيا ، ولايعتقد أن الدين يطلبها بل ربما اعتقد أنها تنافى الدين مع أن السور التى نزلت بمكة كلها ما كانت تدعو إلا إلى النظر فى عجائب هذه الدنيا وفى جمال

النجوم وبهجة القمر ونور الشمس وبهجة الزهر وبهاء الزرع وحسن الشجر وعجائب البرّ والبحر، وأكثر الأحكام الشرعية إنما نزلت بالمدينة ؛ فإذا أراد المسلمون ملكا وثبتوه بعلم الفقه وحده فإنهم جاهلون . ليفعلوا كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم ابتدأ بالنظر فى هذا الوجود ، وفى تهذيب النفوس ثلاث عشرة سنة ، ثم أكمل الله الدين له فى عشرة أخرى وأنزل فيها الأحكام ، ثم يقولون إذن هذا خطأ يجب أن نتلافاه وجهل يجب أن نتجافاه وغرور يجب أن ننتهى عنه ونقلاه ونتركه ولا نرضاه فلنقرإ العلوم كلها على أنها دين إسلامى فترتقى العقول أولا والأخلاق ثانيا وينتظم أمر الصناعة والزراعة والتجارة والدولة الذى هو من لوازم تلك العناية العلية ، وكأنهم يقولون هذا غرور على أورثنا جهلا فاضحا ، فإن هذه العلوم الكونية نزحت من بلادنا إلى أوروبا ففرحوا بها وفرحنا بالجهل، ثم كأنهم يقولون لم غضب الله على اليهود فى هذه الآيات؟ غضب عليهم لأنهم تركوا حكم التوراة أى لم يرضوا بالحكم . ومحصل هذا أنهم خالفوا فى أحكام شرعية لهذا كان الغضب منصبا عليهم . أما نحن فإننا خالفنا فى أمور أهمّ من ذلك ، خالفنا فى علم التوحيد ودراسته اكتفينا من التوحيد بالعلم المدوّن الذى لم يجعل إلا للرد على قوم مبتدعين فى الإسلام وهذا لايكفى فإن المحاجة شىء والعلم شىء آخر . غفل المسلمون عن القرآن ، ألم يدرسوا هذه الآيات المكررات فى القرآن التى تحض على معرفة ما فى السموات والأرض كما أوضحناه، هذا هو المطلوب ؛ فاغترار المسلمين اليوم بالاقتصار على علم الفقه وعلى علم التوحيد الذى حشى بالفلسفة الناقصة المشوّهة بعد عن الله أوّلا وعن رقىّ الأمة ثانيا .

وليس الغرور قاصرا على ذلك بل يغتر الإنسان تارة بعلم الشعر ، وأخرى بعلم المعانى أو علم البديع أو أىّ علم جزئى كان ، كل ذلك اغترار وجهل فاضح ، فليكن المسلم المتعلم ملما بالعلوم إجمالا بحيث يدرس هذه الدنيا ويكون له فيها نظرة كما طلب القرآن .

هذا بعض الغرور بالعلم، إن هذا الغرور قد أدى إلى الجهل ، وبالجهل ذهب ملكنا كما جاء فى هذه السورة (وتلك الأيام نداولها بين الناس) فكأن آباءنا آتاهم الله الملك لما لم يغتروا وبغرورنا دالت دولتنا .

الغرور بالنسب

يغتر بعض الذين ينتسبون إلى العظماء وإلى بيت النبوة بذلك النسب ، ويفرّطون فى الأمور الدينية أو فى العلوم والمعارف ، فهؤلاء لافرق بينهم وبين بنى إسرائيل إذا اتكلوا على أن الله قال ليعقوب لا أعذب أبناءك إلا تحلة القسم، فهؤلاء المسلمون الأشرار الذين وقع فى قلوبهم هذا القول مغرورون لأن الدين جاء لرقىّ الأنفس لا لخذلانها وخسرانها والآباء الذين ارتقوا بالنبوة والعلم لايرضون عن أبنائهم الذين يجهلون دينهم ويخالفون أمرهم، ألم تر إلى قوله تعالى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) فعلى من اطلع على هذا ، وعلى من تنوّر من المسلمين أن يبينوا للناس كتاب الله وأن يشرحوا للمسلمين طرق الاغترار التى شرحها الإمام الغزالى فى الإحياء حتى يرجع عنها المسلمون .

الاغترار بالشيوخ

ومن الاغترار الشائع بين المسلمين أنهم إذا اتبعوا شيخا بطريق العهد جعلوا توكلهم كله عليه بحيث لايعرفون إلا قوله ولايسمعون إلا علمه ، وقد تركوا عقولهم وتفكيرهم والقرآن بين يديهم فلا يتفكرون ولايتذكرون وهؤلاء يتكلون على شيوخهم فى مغفرة الذنوب والشفاعة، وهذا كله تهاون وجهالة فعلى المسلمين أن يتبصروا ويتعلموا (والله هو الولى الحميد) .

ميزان يبين المغترين من المسلمين والموفقين

هذا بيان جامع لعلامات العلماء الذين هم مغترون والعلماء الذين هم موفقون وكذلك الأمم التابعة لهم، هذا الذى سأذكره تبيان لهم وتعريف لأحوالهم وتمييز لهم عن الموفقين من علماء الإسلام وعامتهم .

فاعلم

فاعلم أن كل مايؤدى إلى كسل المسلم وتواكله ونومه وقسوته وتأخره فى دينه أو دنياه غرور وجهالة ، وكل قول أدى إلى النشاط وقوة العزيمة والصبر والقناعة والهمة العالية وإحراز العلوم ومغالبة الأمم ، فذلك من صفات الموفقين وشيم الفضلاء وحكماء الإسلام .

والدليل على ذلك أن الأمة العربية وإن كانت قبل الإسلام قوية الشكيمة والعزائم والهمم لما جاء الإسلام جمعها وأرسلها إلى إصلاح الأمم شرقا وغربا . فهذا هو الإسلام هو الذى زاد شجاعة الشجعان ووجهها إلى عظائم الأمور ومنافع الجمهور .

فأما الأمم الإسلامية الحالية فإنك ترى كثيرا منهم لايزالون يظنون أن ديننا يرضى التواكل والكسل والجبن فيفرون من الفضائل والأعمال الشريفة والعلوم ، ولعمرك إن علماء علومهم هذا التعليم غارّون ومغرورون، وإن ملوكا رضوا بهذا النوم والجهل لملوك مغفلون .

فبهذا الميزان زن أعمال الأمة الإسلامية وأحوالها ، فإذا رأيتهم يتكلون على شفاعة الأنبياء أو على نظرات الشيوخ الذين علموهم أو على عطف مشايخ الطرق الذين لهم وهم فى ذلك كله متكلون فاعلم أنهم مغرورون والذين علموهم غارون فإن هؤلاء لم يفهموا الشفاعة إلا مقلوبة ولا نظرات شيوخ الصوفية إلا محنة محضة .

وهذا فى الحقيقة الانتكاس . لو كان المتقدمون فى الصدر الأول يفهمون الشفاعة كما فهمناها ماملكوا مشارق الأرض ومغاربها ولا أذابوا مهجهم ولا نفوسهم فى سبيل الله ، ومن الجهالة أن يعرف الإنسان باب الجنة بلا عمل ثم يجشم نفسه المخاوف والمصاعب واقتحام الأخطار ، فلو كان علمهم كعلمنا مقلوبا ماعملوا ولا علموا ولاجاهدوا ولم يكن لهم ملك ولادول منتظمة ولاحكومات عادلة ولاعمالك شريفة فى الشرق والغرب.

فأما بعض مسلمى العصر الحاضر فإنهم جعلوا شفاعة الشفعاء إغراء بالمعاصى وبابا للجهالة وخروجا عن الأدب ، والله إن هذا انقلاب وجهالة عمياء إذا ظنّ المسلم أن ديننا يرضى هذا النوم فهو مغرور .

فهذا هو الميزان الذى يميز به المغرورون والموفقون الصادقون . إذا علمت هذا أدركت المناسبة بين قوله تعالى (وغرّهم فى دينهم ماكانوا يفترون فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون) وبين قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك الخ) هذه هى المناسبة بين هذين المقامين غرور فزوال ملك استقامة فملك. اليهود اغتروا بفتاوى دينية لاتوافق أصل الدين فزال ملكهم ، وهكذا كثير من ممالك الإسلام ألقى إليهم الدين وغير شكل العلم والعمل فيه فزال ملكهم ، وهذا كله سر قوله تعالى (الم) فى أول السورة بهذا يفهم بعض سر القرآن الآن ، وأن هذا السر وإظهاره لارتقاء أمة الإسلام .

لم يمنع الشرف الإسلامى من الرقى إلا جهل القائمين بالدعوة إن الناس يؤثرون بوجدانهم ، ولو كان الوجدان خطأ وضلالا مبينا ، فلو وجه الوجدان إلى عجائب العلم ومقاصد الدين من الارتقاء العلمى لكان فى الشرق أمم لايغالبها أحد .

نموذج من بدع الدعاة الجاهلين

بينا أنا أكتب هذا التفسير إذ جاء فى جريدة الأهرام يوم ٨ مايو سنة ١٩٢٥ — ١٥ شوال سنة ١٣٤٣ تحت عنوان :

دين جديد

فى سوريا يؤله على بن أبى طالب ، وهاك نصه :

ظهر فى بعض قرى العلويين القريبة من مدينة حمص متنبئ جديد يدعو إلى عبادة على بن أبى طالب رضى الله عنه بشكل باطنى فتبعه كثيرون من العلويين وزعمائهم ، ولما استفحل أمرهم فى قرية (العاليات)

أراد بعض رجال الأمن أن يدخلوا هذه القرية لفحص الحقيقة فأطلق القوم عليهم الرصاص فاستدعوا قوة من حمص فحضرت قوة من جنود الدرك ، ثم حضرت من دمشق ثلاث سيارات مدرعة تحمل الجند المختلط من فرنسويين وسوريين فأنذروا القرية بوجوب الاستسلام لقوة الحكومة ، وبعد الإنذار أطلقت عليها النيران فقتل من الأهالي واحد وثلاثون قتيلا عدا من قتل قبل ذلك ، وعدا الجرحى الكثيرى العدد ، ثم دخلت القوة إلى القرية وقبضت على الرجال وسلمت النساء إلى جنود الجيش المختلط ، وأرسلت الجرحى إلى مستشفى حمص بالسيارات ، وكان شعار أتباع المتنبي الجديد (لا إله إلا على) .

وبعد تلك الواقعة تجمهر بعض زراع قريتي (الرقامة) و (البلها) في الوادي فخرجت عليهم سيارات مدرعة فقتلت اثنين وجرحت اثنين وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من مائة شخص .

ووصف مراسل الزمان في حمص سبب هذه الفتنة فقال :

ظهر في العام الماضي مشعوذ نصيري ادعى النبوة في بلاد العلويين فخافت الحكومة شر الفتنة بعد أن رأت خطورة هذه الدعوة ، فأصدرت أمرها بإبعاده إلى قرية اسمها العليليات من قرى أملاك الدولة في حمص تبعد عن هذه المدينة ١٥ كيلومترا إلى جهة الجنوب الشرقي فأخذ (النبي) ينشر لواء دعوته في تلك القرية ويعمل بجد ونشاط والعين غافلة عن أعماله وأفعاله إلى أن استطاع إقناع أهالي القرية وهم من العلويين باعتناق دينه الجديد ، فاشتدت عزيمته وقويت شوكته ، وأصبح تابعوه يفتدونه بالمهج والأرواح ، وظلت عائلتان سنيتان بعيدتين عن دينه ورفضتا قبوله رفضا باتا فهاج عليهما أهل القرية فقتلوا أفراد تينك العائلتين بصورة شنيعة إذ أحرقوا منازلهما وهم فيها .

وعلمت قيادة درك حمص بهذه الفاجعة فجهزت حملة تتألف من ١٥ دركيا ، وعلى رأسهم قائد درك حمص و ٦٠ جنديا من الجيش المختلط بقيادة رئيس فرنسي .

ولما اقترب الجنود من القرية عند ظهر يوم ٢٩ المنصرم قابلهم الأهالي برشق الحجارة وإطلاق الرصاص وقاوموهم بشدة إلى أن حل الظلام وطوقت الحملة تلك القرية العاصية ، وطلبت من دمشق تعززها بقوة أخرى ، فوصل المدد في اليوم الثاني (٣٠ إبريل) وبدأت الحركات العسكرية في الساعة الأولى ، وبعد مقاومة دامت نصف ساعة احتلت الحملة تلك القرية وفي طليعتها (أربع سيارات مصفحة ذات الرشاش) وقد قبض على ٦٢ شخصاً من أهالي القرية وبينهم على ماتصل بنا (النبي) الدموى .

أما عدد الجرحى والقتلى فقد ذاع أنهم أكثر من ١٢٠ إلا أن مخبرنا استطاع الاطلاع على الإحصاء الرسمي ، وهذا هو :

بلغ عدد القتلى الذين قتلهم الأهالي إحراقا ١٨ منهم ٨ رجال و ٦ نساء و ٣ صبيان وطفلة ، وبلغ عدد الجرحى الذين أصيبوا أثناء مقاومة الدرك ٢٧ منهم ٢٣ رجلا وأربع نساء والقتلى ٢١ رجلا .

ولم ينل رجال الحملة أذى يذكر ، ومما يذكر أن أهالي القرية كانوا يقاتلون برباطة جأش وثبات وإيمان أوجدها في نفوسهم ذلك النبي واعدا إياهم بالنعيم والرضوان ، وكانوا ينادون (لا إله إلا على) عند الهجوم على الجنود .

هذا هو الذي ذكرته جريدة الأهرام ، وإن ذكر هذا أثناء هذا التفسير من عجائب الحكمة الإلهية ، فإن هذا النبي لشدة شغفه بسيدنا على كرم الله وجهه اعتقد ألوهيته ، ثم اعتقد أنه نبيه ، ثم إن تأثر وجدانه بهذه العقيدة انتشر في سامعيه فصاروا مثله موقنين ، وهذا عجيب جدا يقوم المبتدع بوجدانه فيؤثر في الناس فيفدونه بمهجهم ولا يرجعون عن عقائدهم ، ويرمون أنفسهم في الهلاك والعذاب والدمار والأذى كل ذلك للعقائد الثابتة في النفس بما أثر فيها من الحكايات المنقولة والآثار المشروحة في الكتب صدقا أو كذبا .

فيالیت

فياليت شعرى أعجز المسلمون أن يحبوا العلوم حب هذا النبي وأتباعه البدعة ؟ أنام المسلمون حتى سبقهم أهل البدع فصاروا أحرص منهم على بدعهم ؟ .

يجب أن يكون تعليم الإسلام بهيئة غير التى نحن عليها الآن فليحبب الله لهم بجمال صنعه ، ويحبب النبي صلى الله عليه وسلم بأخلاقه وكماله ، ولتكن للدين صورة تهز القلوب . فأما الاقتصار على القشور فهو الذى أنام الامة آمادا طوالا ، وقد آن أوان السعادة وأقبلت أيام السيادة .

ذكر غرور المسلمين فى هذا الزمان وذكر أنواع المغرورين الذين ذكرهم الإمام الغزالى إجمالا

لقد علمت أن الذى فتح باب هذا المقام إنما هو قوله تعالى (الم) نزل القرآن وكانت له حلاوة فى القلوب وروعة تأخذ بالألباب وعلم الله أن أمة الإسلام ستأخذ أدوار الأمم التى قبلها كما جاء فى بعض الأحاديث المشهورة، فتنحط بعد علوها وتسفل بعد ارتفاعها فأراد أن يرينا كيف السبيل إلى الخروج من المآزق إذا ارتطمنا فى أوحال الغرور وانتابتنا نوائب الخذلان والجهالات فأنزل الحروف المفرقة ففتحت لنا باب العلم ، وقيل لنا إذا نزل بكم الغرور وصرتم كاليهود أيام النبوة وغركم فى دينكم ماتفترونه فارجعوا عن هذا الغرور ولوجهكم عقلاؤكم إلى الحقائق الناصعة ، ومن أعظم الغرور أن يقول المسلم إنى منصور لأن الله ينصر المسلمين ، ويأتى بآيات وأحاديث كقوله تعالى (الله ولىّ الذين آمنوا) وكقوله تعالى (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) وكقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) وكقوله تعالى (ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) .

وينتقل ذلك الفكر من جماعة إلى جماعة حتى اعتقد المسلمون أن الله ينصرهم على أمم الفرنجة ، وإن كان المسلمون جاهلين متعادين متحاسدين غافلين ، وذلك من أعظم الغرور ؟ هذا الغرور هو بعينه الذى كان عند اليهود أيام النبوة اغتروا بما ينقل إليهم سلفهم ففترت هممهم واتكلوا على الآباء فخابت آمالهم ، ويظن المسلم أن الله ينصره لأنه على دين الإسلام ، وفاته أن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم كان هو نفسه يخرج للقتال ويحارب ، فلو كان النصر بلا علم ولا عمل فضيلة لكان الأولى به صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم فيظن أغبياء المسلمين من شيوخ وعامة أنهم أكرم على الله من صاحب الشرع فقد أخرجه للغزوات فنصره ، فأما هم فأقعدهم ونصرهم فهم على هذا أعز على الله من صاحب الشريعة ، وهذا غرور عظيم أضاع بلاد الإسلام فإن ضياع الأمم وخرابها لايكون إلا بعد خراب عقول أبنائها ، وأى خراب أعظم من خراب هذه العقول المائتة ؟ .

حكاية تركى قديم

منذ ثلاثين سنة حدثنى أحد الباشاوات الترك ، قال إننا حفظنا دولتنا التركية ستمائة سنة ، ولم يكن عندنا هذه الآلات الحديثة فأىّ حاجة لنا بها ؟ الله حافظ دولتنا فلا حاجة إلى أمر جديد ، ثم قال إن القوم يقرءون الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى ، ويقولون ماذا نريد بعد ذلك ، ومعنى هذه العبارة أنهم لن ينظروا فى شئ بعد ماهو عندهم علما من الفتوحات المكية وعملا بالأنظمة الموجودة وماعدا ذلك فهو لاقيمة له .

سمعت تلك الحكاية أيام حكم السلطان عبد الحميد وتألمت أشدّ الألم ، واعتقدت أن الفرنجة لابد هاجمون على دولة الخلافة ، ثم مضت سنون وسنون ومزقت الدولة ، ولكن الله سبحانه وتعالى أرجع إليها شبابها لما غيرت الأفكار ولا يعلم إلا الله ماذا يكون فى المستقبل القريب والبعيد .

أصناف المغرورين من كلام الغزالى

جملهم أربعة أصناف : العلماء ، والعباد ، والمتصوّفة ، وأرباب الأموال .

فالعلماء (١) فإما أن يغتروا بأحكام العلوم العقلية والشرعية وإتقانها ومع ذلك يكونون قد تركوا تهذيب نفوسهم، فهم شرهون عاصون ظالمون لايعرفون مكائد النفس (٢) وإما أنهم يعرفون علوم الأخلاق الباطنة ، ولكنهم يظنون أنهم أكرم على الله من أن يلطخهم بها (٣) وإما أنهم اغتروا بالفتاوى الشرعية وظنوا أنهم

بذلك يخدمون الدين ، وقد نسوا الأعمال الظاهرة والباطنة (٤) وإما أنهم اشتغلوا بعلم الجدل فى علم الكلام وفى رد الشبه الواردة فيه وضيعوا أعمارهم فى ذلك وأفهموا الناس أن الدين لايتم إلا برد هذه الشبه ، وهذه أكاذيب جاءت فى الأمة الإسلامية ، فالصحابة كانت تحيط بهم الأكاذيب والشكوك وما تعرضوا للرد عليها ولا ضيعوا فى ذلك زمانهم (٥) وإما وعاظ لاهمّ لهم إلا السمعة والصيت ولا قلوب لهم ولا وجدان (٦) وإما فقهاء استباحوا لأنفسهم بالفتاوى مايحرم بالشرع حقيقة واكتفوا بالظواهر ، وهذا غرور عظيم .

وأما العباد (١) فمنهم من أهمل الفرائض واشتغل بالنوافل والفضائل (٢) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة فى نية الصلاة (٣) ومنهم من غلبت عليه الوسوسة فى إخراج حروف الفاتحة (٤) ومنهم من اغترّ بقراءة القرآن فيهذونه هذا وربما يختمونه فى اليوم والليلة مرة (٥) ومنهم من اغترّ بالصوم بل ربما صام الدهر كله . (٦) ومنهم من اغترّ بالحج مع أن عليه ديونا وحقوقا (٧) ومنهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينسى نفسه (٨) ومنهم من يجاور بمكة وليس له من المحامد غيرها افتخارا .

وأما المتصوّفة (١) فهم إما مغترون بالزىّ والهيئة والقلوب خالية (٢) وإما مغترون بالأسامى والألفاظ كالمشاهدة والتجلى والوصول، وبهذه وأمثالها يغرّ نفسه فيقول : أنا واصل والفقهاء والمفسرون مغرورون والعامة حمير وهكذا (٣) وإما مغترون بالزهد والوله بالله والوجد والحب له مع أنه قد يتخيل أحدهم فى الله خيالات هى بدعة أو كفر فيدعى الحب قبل المعرفة (٤) وإما مغترون بخدمة الصوفية ولاغرض لهم إلا الشهرة . (٥) وإما مغترون بدقائق علم النفس والبحث عن رذائلها فتضيع حياتهم فى ذلك غرورا (٦) وإما مفتوح عليهم ولكن كلما فتح عليهم بشئ تعجبوا منه وفرحوا به فحجبوا عما بعده (٧) ومنهم من لم يمنعه الفرح بل ارتقى حتى اقترب من الله وظن أنه وصل إليه فوقف فهو مغرور .

وأما أصحاب الأموال وهم الصنف الرابع (١) فهم إما مغترون ببناء المساجد والتكايا الخ والمال مأخوذ ظلما ولا ينفعهم كتابة أسمائهم عليها ولا يغفر الله لهم (٢) وإما مغترون بسبب البناء المذكور والمال حلال، وسبب الغرور أنه قد يكون هناك وجوه تقدم على هذا البناء (٣) وإما مغترون بالعبادات وقد بخلوا بالأموال . (٤) وإما مغترون بإخراج الردىء للزكاة فقط ، هذا إجمال أصناف المغرورين من الإحياء .

الاغترار بعلو الآباء

ومما ذكره وشدّد فيه التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم . قال الإمام الغزالى : كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم فى الخوف والتقوى والورع وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون ، وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى ، وضرب أمثلة لذلك كنوح وابنه وكيف زين الشيطان للعلوى هذه المعصية فغره اهـ . أقول ويقرب من هذا :

اغترار أمة الإسلام اليوم والعداوات قد فرقت شملها والعلم جمع شمل غيرها فى أوروبا وأمريكا

لقد علمت أيها الفطن كلام الإمام الغزالى ولومه لبعض العلوية فى زمانه ، وكيف خالفوا آباءهم الأولين الذين كانوا مجتهدين خائفين وهم فى الكسل آمنون ، فانظر حال المسلمين اليوم كلهم ووازن بينهم وبين أسلافهم . انظر كيف رجع ابناء العرب منهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأولون قبل زمن النبوة من تفرق الكلمة والجهالة السوداء . انظر كيف أصبح كل فريق منهم تحت حكم دولة من دول أوروبا .

لقد كان أشهر الدول أيام النبوة اثنتين فارس والروم ، وكان آباؤنا نحن أبناء العرب يكادون يكونون تحت إشراف الدولتين فلكل منهما نفوذ فى الجهة التى تليها .

فلما جاءت النبوة انقلبت الحال ، وأصبح السيد مسودا ، والحاكم محكوما ، وسار أبناء العرب من جزيرتهم إلى شمال أفريقيا مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، ثم ساروا إلى بلاد الأندلس ،

ولما مضى دورهم تقلصوا من الأندلس ، وانكمشوا فى شمال أفريقيا إلى الآن ، وها هم الآن نهب مقسم بين دول أوروبا، فبعد أن كانت أوروبا ليس فيها دولة ذات غلبة أيام آبائنا إلا واحدة أصبحت اليوم دولا كثيرة ، كما انتشرنا نحن فى الأرض وصرنا أمما ففرقنا الله عليهم ، وأصبحت فرنسا فى مراكش ومعها أسبانيا وفرنسا أيضا فى الجزائر وإيطاليا فى طرابلس وانكلترا فى مصر وفرنسا فى الشام واليهود مع الأنجليز فى فلسطين والأنجليز أيضا فى العراق . انظر كيف رجع أبناء العرب إلى حالهم قبل النبوة بحال مكدرة واستعباد شنيع .

وإنما فعل الله ذلك بنا لما ركز فى نفوسنا من الجهالة العمياء والاغترار والاستكبار والعظمة الجاهلية . انظر ماذكره الإمام الغزالى من أصناف المغترين ، فإياك أن يجول فى خاطرك أن هذا التشديد الذى ذكره خارج عن المعقول أو تظن أن ذلك مبالغة لايسلم منها أحد ؟ كلا .

وأنا أوضح لك المقام الآن لتعلم أن أولئك المغترين من أسلافنا هم الذين أوقعونا فى الاستعباد وإذلال أوروبا . انظر إلى أصناف العلماء ، وأصناف العباد ، وأصناف الصوفية ، وأصناف الأغنياء الذين مضى ذكرهم فى كلامه . انظر كيف ترى أن الصوفية فى زماننا أكثرهم فى جهالة عمياء ، فإنهم عادة يقطعون الصلة بين تلاميذهم وبين مجموع الأمة ويفهمونهم أنهم على الحق وأما سواهم فإنما هم قوم مغرورون وهكذا علماء المعاهد الدينية الذين لايعرفون من دين الإسلام إلا الفتاوى الشرعية التى تليق للقضاة. فهؤلاء لايبالون غالبا بتهذيب النفوس ولا بغيره وهكذا العباد يرون أن الخير خاص بهم وهكذا المثرون ، فالاغترار فى هذه الأقسام الأربعة راجع إلى قصر النظر وانفصال كل طائفة عن سواها ودعواها اختصاص الهداية بها .

لذلك تجد أبناء العرب فى العراق وفى سوريا وفى فلسطين وفى شمال أفريقيا تجاورت ديارهم واتحدت لغتهم واتحد دينهم وهم من أصول متجانسة فهذه أربعة أسباب للاجتماع والتآلف قد جهلوها وقطعوا حبلها وجهلوا أنفسهم وسفهوها فلا باللغة تواصلوا ولا بالجنس تعارفوا ولا بالديار اتحدوا ولا بالدين ائتلفوا فتفرقوا مذاهب وناموا، واجتذب أرباب الطرق كل واحد منهم طائفة لنفسه وأناموهم فى كنفهم وهكذا المسمون بعلماء الدين فلما تفرقوا ولم يفهموا سلط الله عليهم أوروبا ، كما قال الله تعالى فى قوم (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون) فانظر كيف جعل تفرق القلوب من أجل عدم العقل ؟ .

أو ليس من المبكى أن يكون هؤلاء سبب ارتقاء العالم الإنسانى منذ ألف سنة ثم يصيرون الآن عبرة الأمم ضعيفى الهمم ، إن آباءهم الذين علوا الأمم واجتذبوا إلى دينهم أهل الهند وجاوه والصين وغيرهم وأمم الترك فكيف أصبح الخلف على نقيض ماعند السلف .

وكيف أصبح أهل الممالك المتحدة الذين لايجمعهم جنس ولا أصل قد أصبحوا أمة واحدة مع أنهم ممالك يعدون بالعشرات وأبناء العرب الذين كان آباؤهم مصابيح العالم أذلاء متقاطعين جهلاء أغبياء حتى إنك ترى نفس الجزيرة العربية التى لاتعدو عد أصابع اليدين من آلاف الألوف مشتملة على ممالك متفرقة متشاكسة مختلفة متنافرة متعادية كالجاهلية الأولى فهم أذناب الأمم .

فأما الممالك المتحدة ففيها نحو مائة ألف ألف وهم مملكة واحدة أخافت العالم وأزعجته وارتعدت لها فرائص أوروبا كل ذلك لأن القوم علماء ونحن جهلاء وهكذا أمم الألمان والأنجليز وغيرهم كل منهم اتحدوا وعاشوا فى أمن لأنهم متعلمون ، فالعلم هو الذى رفعهم .

وليست القوة وحدها بغنية، ألا ترى إلى الآساد كيف أحجمت عن مهاجمة الناس فى البلدان ذلك لقلة عقولها مع أنها لو عقلت لأفنت الناس، هكذا الأمم الإسلامية اليوم إنما منعها عن الاتحاد أنها أمم مغترة بأصناف الغرور التى ذكرها الغزالى المجموعة كلها فى قوله تعالى على سبيل الإشارة (فرحوا بما عندهم من العلم) .

دواء هذا الداء وكيف يرتقى أبناء العرب خصوصا وأبناء الإسلام عموما

لاسبيل لرقى هذه الأمم العربية أولا ، والأمم الإسلامية ثانيا إلا أن يبدأ أولا أبناء العرب بتعميم التعليم للرجال والنساء ويكون ابتدائيا وثانويا وعاليا لكل بقدره ، ويكون الثانوى مشتملا على نظام هذه الدنيا وجمالها كما تفعل دول أوروبا ، وتكون تلك العلوم ممتزجة بها بعض الامتزاج بآى القرآن كما فعلت فى هـذا التفسير ، إذا عمّ التعليم فى العراق وفى سوريا وفى مصر وفى بقية شمال أفريقيا هنالك يحصل التعارف بقراءة تاريخ أجدادهم وتخطيط بلادهم وقراءة أسرار دينهم وأدب لغتهم ، فيتواصلون بالقلوب وبالطرق الحديدية والسفن الهوائية والبحرية ويتعارفون ، وإذن يكونون هم أولى بأن يكونوا ممالك متحدة من الممالك المتحدة، ومتى فعل ذلك أبناء العرب قلدهم المسلمون فى الشرق ، وساعدهم إخوانهم الترك الذين قد أدركوا الأمر وابتدءوا يتعارفون فيعرف كل منهم أخاه التركى فى بلاد الروسيا وفى بلاد الصين ، وهم فى العالم نحو ثمانين مليونا فهم يريدون أن يتحدوا من حيث اللغة والجنس . هكذا فليفعل العرب ثم يكونون مع إخوانهم الترك أمما متعاونة لاجتماعهم معهم فى الدين وفى الجوار وفى أنهم أمم شرقية .

هذا هو الذى يزيل الغرور من أمة الإسلام فإن قراءة العلوم المختلفة تحبب سائر العلوم للإنسان فيعرف كل إنسان أن عند غيره مزية ليست عنده فلا يحتقر الصوفى عالم الفقه ولا عالم الفقه الصوفى ولا العابد الغنى ولا الغنى العابد بل هم جميعا يتصالحون . هذا هو الدواء الناجع لأمة الإسلام (فإن لم يكن ذلك فقل على دولهم وعلى أبنائهم السلام) .

ذلك سرّ قوله تعالى (وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) الذى هو سر (الۤمۤ) المذكورة فى أول السورة فقد أرشدتنا الحروف الثلاثة إلى قصة اليهود والمغرورين بشفاعة الآباء وتوصلنا بذلك إلى غرور المسلمين وجهالتهم ونقلنا ملخص المغرورين من الإحياء وعرفنا الدواء وهو العلم فالمسلمون اليوم مغرورون . فلذلك هم مقهورون والعلم هو الذى يدفعهم إلى درجات الأمم الصادقة القوية .

ذلك بعض أسرار القرآن التى أظهرها الله تعالى فى هذا الزمان ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ومتى تمّ ماقلناه يفرح المؤمنون بنصر الله .

موازنة هذا المقال برأى ابن خلدون

اعلم أن العلامة ابن خلدون يقول فى مقدمته : إن العرب لايجتمعون إلا على نبى أو ولىّ ، يريد بذلك أنهم ليسوا كغيرهم من الأمم يجتمعون اجتماعا سياسياً بعقولهم . نقول إن الطريق الذى سلكناه فى هذا المقال الذى سيتم إن شاء الله تعالى قد جمع لهم بين الدين والعلم ويرجعون إلى العالم وينيرونه أكثر مما كانوا سابقا ، ويكونون هم وبقية المسلمين شرفا ونورا لنوع الإنسان .

عجائب البلاغة فى القرآن والإعجاز

انظر إلى بلاغة القرآن فى هذا المقام . انظر إلى الإعجاز الذى يعجز العالم قاطبة ، أدهش العلماء فى الإسلام البلاغة فى إعجاز قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى) وفى قوله (ولكم فى القصاص حياة) وهكذا فليكن دهشهم هنا أعظم أنه لم يكن من نظام البلاغة أن يخاطب الله المسلمين قائلا ستكونون بعد قرون مقسمين إلى أمم وتصبحون تحت أيدى الفرنجة بجهلكم وغروركم وظهور طوائف الفقهاء والصوفية والعباد والأغنياء الذين يدعى كل فريق منهم أنه هو المختص بالنعمة ويحقر الآخر ، وبهذا الغرور تكونون طوائف إلى آخر ماتقدم . لم يذكر الله ذلك لأن فيه كسرا لحدة القوة الدينية إذ ذاك ولكن لابد من ذكره مرموزا لهذا ولغيره مما سمعته فى هذا المقام بقوله تعالى (الۤمۤ) فبهذه الحروف الثلاثة ذكر الداء والدواء .

بهذا

بهذا وبأمثاله يكون إعجاز القرآن ، بهذا يعرف معنى قوله تعالى (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) فالذكرى قد قرأتها فى هذا المقام والرحمة هى اجتماع أبناء العرب وبقية الأمم الإسلامية اجتماعا علميا يطلبه الدين ويفوقون أبناء الفرنجة، فهذه هى الذكرى وهذه هى الرحمة وهذه هى ميزة القرآن الذى هو المعجزة الباقية لآخر الزمان، إذ خاطبنا الله تعالى بلفظ (الم) وعلمنا علم العمران والسياسة وقد خزنها فى كتابه العزيز وأبرزها فى هذا الزمان لما آن الأوان ، فبهذا يمتاز القرآن بمعجزته عن قلب العصا حية وإبراء الأكمه والأبرص ، فبمثل هذا تحيا أمم وتشفى من المرض على طول الزمان وتقلب القلوب الجامدة فتصبح عاقلة مفكرة فى أمم متعاقبة إلى آخر الزمان (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

إيضاح : كيف يزول الغرور من أمة الإسلام

أيها المسلمون ها أنتم أولاء قرأتم قصة اليهود أيام النبوة وكيف غرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ، وعرفتم أن الغرور شمل اليوم وقبل اليوم أمة الإسلام علماءها وعبادها والصوفية فيهم ، وكيف كان علم الفقه وعلم التوحيد وعلم التصوف والانكباب على حج أو على صلاة مع ترك بقية الأعمال النافعة فى الأمة الإسلامية كما تقدم عن الغزالى أورث المسلم غرورا عظيما فيقنع بالحج أو بالصلاة أو بالصدقات أو بالتصوف أو بغير ذلك .

وقلنا إن هذا فرق العرب الذين على يديهم قام هذا الدين فأصبحوا فى ديارهم خاضعين للفرنجة ذلك كله بالغرور.

اللهم إنى أحمدك وأشكرك ، اللهم إنك أنت الملهم للرشد ، اللهم إنى عاجز عن حمدك وشكرك فلطالما كنت أقول فى قلبى ما دواء الإسلام وما داؤه وما حال الصوفية ، وهل هم قاموا بما عليهم مثلا وهكذا ؟ فقد اتضح الأمر الآن ، وعرفت الحقيقة بمعونة الإمام الغزالى فى الإحياء فقد جرّأنى بصريح عبارته أن أبرز للناس الحقيقة (فلا عطر بعد عروس . ولا مخبأ بعد بوس) وقد اتضح الأمر فلنكشف الحقائق فنقول :

أمر الله المسلمين بالنظر فى هذا العالم المشاهد فقال تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال أيضا (والذى قدّر فهدى) وقال (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض الخ) وغير ذلك .

خلق الله العيون للناس والأسماع والقلوب ، ثم سلط عليهم الجوع والعرى والحاجات الكثيرة ليتخذوا لهم مايسدّ حاجتهم مما حولهم ويتعلموا من نظام الطبيعة . ذلك أودعه الله فى الفطرة فنظر الناس إلى النحل والنمل والغربان وكلاب البحر وأمثالها فوجدوا لها جمعيات منظمة فيكون للخلية الواحدة من النحل ملك وشغالون وجامعون للعسل وجامعون للشمع وحارسون من دخول الأجانب ، وهكذا أمر النمل فله ملكة وضباط للجنود ومحاربة ومربون للصغار وحجرات خاصة لكل جيل من أجيال الذرية ، وأظآر جمع ظئر لتربية الذرية ، وهكذا مما ستراه فى سورة النحل والنمل ، فلما رأى الإنسان ذلك قديما كوّن جمعياته ونظمها ولكن لا كنظام النمل والنحل بل أقلّ، ثم ارتقى الإنسان اليوم فى جماعاته، كما سترى التربية فى أمريكا قريبا فى آخر هذا المقال ، وكيف جعلوا المدارس كأنها نظام للمدينة كلها ، وكأنهم إذ ينظمون تلاميذهم ويعطونهم العلوم العقلية والصناعات اليدوية يقرءون قوله تعالى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) فيما تقدم فى سورة البقرة أو كأنهم يقرءون قوله تعالى فى هذه السورة (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا) أو كأنهم يقرءون غزوة أحد ، وقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه وقسم عليهم الأعمال .

المسلمون من مخلوقات الله تعالى (وهم ينظرون بأعينهم) :

(١) قطرات الماء تتحد فى النهر فتغرق القرى وتهلك البلدان .

(٢) وتسقى الزروع وتدرّ الضرع .

(٣) وذرات الهواء باتحادها وجريها تهدم الحصون والقرى وتقلع الأشجار كما تزجى السحاب وتنفع الناس

(٤) ويشاهدون النمل والنحل وكلاب البحر والغربان والجمهوريات النظامية .

(٥) ويشاهدون الممالك المتحدة فى أمريكا والممالك الأخرى هناك . كيف نظمت ممالكها مع اختلاف الأقوام .

(٦) ويسمعون عن المدارس هناك كما سأذكره قريبا ، وذلك أن للمدرسة فيها العلوم والصناعات، فالتلميذ بناء أو نجار أو خائط أو صانع الكهرباء أو مواسير المياه ، والتلميذة خائطة أو طابخة أو منظفة ، وهكذا تجد للمدرسة مستقلة فى زرعها وغرسها ودوابها وعمارتها ، والطلاب يصنعون كل شىء عقلى وحسى ، وهذا هو الذى يناسب نظام عالم النحل والنمل ويناسب القرآن والدين ، ويخالف كل المخالفة حال المسلمين قديما وحديثا بعد القرون الأولى .

فالعالم الفقهى بفقهه مغرور ، والعالم بالتوحيد مغرور ، والصوفى مغرور ، والعابد مغرور ، وكل حزب اقتصر على شىء من الدين وشمخ بأنفه عن الباقى فهو مغرور .

وما دين الإسلام إلا العلم والعمل بكل مايحتاج له المسلمون فى كل زمان بحسبه كما فعل أهل أمريكا وغيرهم فى الوقت الحاضر فلا يكون قوم بسبب الدين عالة على قوم بل كل الناس متعاونون .

ولقد ذكر الله المسلمين بهذا كله ذكرهم بالنظر فى السموات والأرض فأعرضوا وقرّب الأمر لهم فأنزل سورتين إحداهما باسم النحل والأخرى باسم النمل فما فكروا ، أخيرا خلق لهم أمريكا التى قلدت النحل والنمل والغربان وكلاب البحر دائما وأمما كثيرة من الطيور وغيرها فأعرضوا : علم الله ذلك فقال لهم (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا) .

فانظر كيف جعل هذا المعنى فى الماء الجارى وفى الهواء وفى النحل وغيره وفى أمم الإنسان الراقى اليوم كل ذلك نصبه الله للمسلمين ، ثم أسمعهم كلامه فقال تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا الخ).

وهل بعد البيان فى هذا التفسير عذر للمسلمين إذا بقوا على القديم ؟ كلا فليعلم الرجال والنساء والعظيم والحقير العلم والصناعات من نجارة وحدادة وغيرها ، وكفى المسلمين تأخرا ؛ فهذا كله فرض كفاية ذكرها المسلمون فى الكتب ومثل له بعضهم بدفن الميت والصلاة عليه كأنهم كانوا ينظرون إلى موت الأمة ولكننا نحن ننظر إلى حياتها لأن الله يريد ذلك . فلأذكر لك الآن نظرة سائح مصرى توجه إلى أمريكا ، وذكر العلم والعمل فى مدارسها وحقر أمر العلم العقلى الذى لامنفعة فيه ، ثم قال يعتقد علماء التربية الحديثة .

يعتقد علماء التربية الحديثة أن حصص الدراســـة المعتادة يجب أن تتخللها الأعمال اليدوية الصناعية ، ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة :

(أولا) من لوازم الحياة أن يتعلم الطالب منذ نعومة أظفاره المبادىء الجوهرية فى صناعة أو أكثر من التى لاغنى لأحد عنها كالنجارة والحدادة وصناعة الأحذية والطباعة وغير ذلك .

(ثانيا) ضرورة تعويد الناشئة مهما كانت منزلتهم الاجتماعية ومراكز والديهم المالية (ذكورا كانوا أو إناثا) احترام العمل اليدوىّ إذ لاعار فى العمل .

(ثالثا) اكتشاف المواهب الكامنة فى أيدى الناشئة والتى لايتسنى إظهار مكنوناتها ومواهبها إلا بالنزول إلى ميدان العمل أمام المطارق البخارية والآلات المستخدمة فى الصناعات على اختلاف أنواعها .

[وبعبارة أعم] يجب أن تكون المدرسة صورة مصغرة من العالم التى هى شطر منه . فمن الخطأ أن يقال إن الغرض من التربية الاستعداد لاقتحام ميدان الحياة بل يجب أن يقال إن التربية هى الحياة وإن المدرسة ميدان الحياة ؛ وكما أن الناس فى الحياة يستخدمون أيديهم كما يستخدمون عقولهم ، فكذلك يجب أن يكون التلاميذ فى المدرسة .

ويلزم

ويلزم أن تكون الأعمال اليدوية فى المدارس متصلة تمام الاتصال بمواد الدراسة ، مثال ذلك أن الإنشاء فى معاهد أمريكا يعلمونه للطلبة كما يأتى — يصف الطالب الأطوار التى مرّت عليه فى ورشة الأعمال اليدوية فى صنع دولاب من الخشب أو سبك كتلة من الحديد أو بناء زورق للسباحة أو تركيب جهاز لاسلكى أو تشييد غرفة فى بناية من بنايات المدرسة أو الكلية أو تحرير مقالة فى جريدة المدرسة وإعطائها لأحد زملائه لطبعها، وتصحيح المسودة ومراجعتها أو وصف وانتقاد رواية مثلها هو وزملاؤه فى مسرح المدرسة أو كتابة فصل فى زراعة البطاطس كما شاهد العملية بنفسه فى حقول التجارب الزراعية ، وتكتب البنت أيضا فصولا عن زىّ أو أزياء معلومة خاطتها رفيقاتها أو عن أوان خزفية كلفن بصنعها من طينة معينة وحرقها وطلائها بالأدهان .

كذلك يدرس فن الرسم بمساعدة أساتذة الأعمال اليدوية — فيقدم هؤلاء أجهزة للمصابيح الكهربائية مثلا إلى أساتذة الرسم ، ويكلف هؤلاء تلاميذهم بإعداد قطع من الورق أو القماش أو الحرير بشرط أن تصلح كظلات جميلة مختلفة الأوضاع والرسوم للمصابيح المذكورة ، ويلى ذلك نقش نماذج جميلة منقولة أو مبتكرة على هذه الظلات فتزداد جمالا وحلاوة .

يرسم التلاميذ فى الجغرافيا مثلا خارطة أمريكا على قطعة من الأرض فى حقل المدرسة الزراعى ، ويكلفون تلاميذهم أن يلوّنوا الخارطة بزهور صغيرة يمثل كل نوع منها قسما من أقسامها .

يكلف التلاميذ الذين يدرسون علم الحساب مثلا عمل ميزانية للأجهزة والأدوات والأشياء التى يشرع إخوانهم فى صنعها فى الورشة ؛ كذلك يتولون أعمال المصارف المالية التى تنشئها إدارة المدرسة فيها لا لتعويد الطلبة الاقتصاد وإيداع الأموال فقط بل لتكون درسا عمليا فى الحساب . كذلك يكون بعضهم مسئولا عن ضبط حسابات الأندية ومراقبة دفاترها .

وقد يتوهم القارئ أن حسابات الأندية هذه مسألة تافهة لاتستغرق وقتا يذكر غير أن كثرة عدد الطلبة فى بعض المدارس فى المدن يجعل ميزانية هذه الأندية شيئا لايستهان به ؛ فميزانية نادى الألعاب الرياضية فى مدرسة ثانوية واحدة فى نيويورك (واسمها ديوت كلنتون) عن سنة ١٩٢٣ كانت مائتى ألف ريال .

هذه فقط أمثلة ضئيلة وتبدأ هذه الأعمال اليدوية من روضة الأطفال ، ويلى ذلك ثمانى سنوات فى الأقسام الابتدائية وأربع سنوات فى الثانوية .

فبينما تجد بعض الطلبة يتلقون علم التاريخ ترى البعض الآخر فى نفس المعهد يقشرون الخشب ويسكبون الحديد ويصلحون السيارات ويقودونها ويصنعون الأوانى الزجاجية وأجهزة اللاسلكى والأسلاك الكهربائية أو يشيدون عمارة أو يحرثون قطعة من الأرض أو يربون المواشى والطيور الداجنة أو يصنعون الزبد . كل ذلك يقوم به الطالب والعرق يتصبب من جبينه غنيا كان أو فقيرا ذكرا أو أنثى .

ولا يقصد بذلك أن تحشد جميع المهن والصنائع فى كل معهد ويحتم على التلاميذ تعلمها ، فهذا غير ممكن بالطبع ؛ ففى نيويورك بلغ عدد الصنائع المختلفة فى العام المنصرم ١٧ سبعة عشر ألفا كانت للمدارس الابتدائية والثانوية تقدّم لطلبتها منها ٢٠٢ فقط . يختار منها الطالب عددا محدودا فى خلال الفترة التى يمكثها فى تلك المعاهد . وإنى لا أغالى بعد زيادة عدد وافر من هذه المعاهد فى كثير من الولايات إذا قلت إن الصبى الأمريكى (والبنت الأمريكية) اليوم يسوق الأوتوموبيل ، ويركب جهاز اللاسلكى ، ويصلح ويركب الأسلاك الكهربائية ، ويتقن صناعة على الأقل من الصناعات المعروفة قبل بلوغه سن الرشد .

يقول لك علماؤهم : إن إصلاح أتوموبيل من أتوموبيلات فورد خير من تحليل الكميات إلى عواملها وتركيب التليفون أنفع من إعراب الكلمة وتحليل الجمل ، وصنع مائدة للمنزل أفضل من إيجاد الجذر التكعيبى لكمية سلبية لا وجود لها فى الحياة ، وتربية البقر والفراخ وتحسين نتاجها أكثر فائدة لبنى الإنسان

من صرف السنين الطوال فى دروس اللغـــة اللاتينية حتى يتمتع المتعلمون بمطالعة كتاب فى الفلسفة كتبه فرنسيس باكون اسمه (نوفوم أرجانيوم) .

كم أودّ لو زار الكثيرون من رجال التربية معهدا أو أكثر من المعاهد التى تسد حاجياتها بنفسها ، وفى مخيلتى الآن صورة واضحة من معهد همبتون فى ولاية فرجينيا ــ مساحة هذا المعهد ألف ومائة فدان وفيه مائة وخمسون بناية ، ولابد أن يدهش القارئ إذا علم أن إدارة هذا المعهد قامت ببناء ثلاث بنايات فقط فى بدء تأسيسه وشيدت البقية بالتدريج سنة بعد سنة ، وكان الطلبة أنفسهم هم الذين شيدوها فى هذا المعهد ، وبلغ عددهم ثلاثة آلاف طالب وطالبة ، وهذا لايعد كبيرا جدا ؛ فنى بعض المدارس الثانوية عشرة آلاف طالب ، وفى جامعة كلومبيا فى نيويورك ٤٥ ألف طالب ــ فيه يزرع الطلبة الأرض ويأكلون ثمارها ، ويربى الأولاد الماشية ويستخرجون الزبد والجبن من ألبانها ، ويذبحون عجولها فيطبخ البنات لحمها ويأكل البنات والأولاد معا ، ويفصل الطلبة أنفسهم الملابس ويخيطونها لزملائهم ، وهم الذين يشيدون البنايات التى تحتاج إليها كليتهم ويركبون أبوابها ونوافذها ويمدون أنابيها ويوصلون إليها الماء الساخن والماء البارد ، ويضعون أسلاكها الكهربائية ويطلون حيطانها ويصلحون ويقودون سيارات تنتقل من بناية إلى بناية فيها ، وتلميذات الكلية عينها ينظفن حماماتها ويعملن فى غسل الملابس وتنشيفها بواسطة آلات كهربائية وكيها ورتقها وإرسالها لمكتب خاص لتوزيعها على ذويها ، ولذا ترى ذلك المعهد كملكة واسعة الأطراف فى الصادر والوارد إليها فلا تحتاج إلى صانع ولا عامل ولا خادم ولا مواد غذائية من الخارج .

لعمرى إن هذه هى الحياة بعينها ، وهذا مايجب أن يكون فى كل مدرسة فإن تجريد المدارس تجريدا تاما عن الحياة الطبيعية فى الخارج يولد السآمة والملل ويخرج الطالب إلى ميدان الحياة الحقيق وهو غريب عنها ــ ضع أميريكيا من خريجى تلك الكليات فى عمل من الأعمال ، واعتمد عليه فى كل شئ تجده مدرّبا قويا واثقا بنفسه لأنه إنما كان يعمل نفس العمل فى الكلية التى كان بها ؛ كما أن التلميذ فى المدارس الابتدائية يشعر أنه فى العالم حقيقة ، وليس فيما نسميه نحن مدرسة . كيف لا وهو يصنع بيده جهازا لاسلكيا صغيرا فيأخذه إلى غرفته فى المنزل ، ولا يكاد الظلام يرخى سدوله حتى تصل إليه بواسطته أنغام الموسيقى وأصوات المغنين وأقوال الخطباء ، وكيف لا وهو يفتخر أن المائدة التى يأكل عليها أفراد عائلته من صنع يده .

رأيت مرة فى إحدى تلك المدارس فى ولاية نيو جرزى فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها بجانب زورق كبير . فسألتها عما تريد أن تفعل بهذا الزورق بعد تمامه ؟ أجابت أنها تعده للنزهة فى نهر الهدسون فى فصل الصيف مع والديها وإخوتها وأنها صرفت فى صنعه أكثر من ثلاثة شهور .

ثم قال : رأيت فى مدرسة ثانوية طالبا يصنع حذاء أتقن صنعه فسألته بأى مهنة تريد أن تحترف بعد نهاية الدراسة ، فقال سألتحق بالكلية ثم بمدرسة الطب فعجبت وقلت له لعلك تنوى أن تختص بالأمراض الجلدية .

وهكذا تجد تنوّع العلوم فى تلك المعاهد وما يتخللها من الصناعات اليدوية تكشف القناع عن ميول الطالب ومواهبه فيختار لنفسه أكثر الصناعات صلاحية له مع إرشاد أساتذته ، فلابدع إذا كان الناس فى تلك البلاد على اختلاف طبقاتهم أخف حركة منا بمراحل وأنشط عملا وأوسع حيلة ــ أرونى موظفا فى إحدى المصالح يستطيع أن يصلح مصباحا كهربائيا إذا تلف أوسيارة أصابها عطب أو أنبوبا ينفجر لذلك؟ لاتعجب إذا نظرنا إلى الصناعات والصناع بعين الازدراء فانحطت صناعتنا ، ووضع الأمريكيون صناعهم فى مرتبة الأساتذة والكتاب وكبار الموظفين فرقت صناعاتهم ودقت أدواتهم وجملت آثاث منازلهم وقدّروا أهل الصناعة فأصبح النجار والبناء ومن على شاكلتهما يتقاضى أجرة يومية من خمسة عشر ريالا إلى ثمانية عشر ريالا اه .

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه أحد العلماء ، فقال ياعجبا لك ؟ لقد تطرقت فى الدين وكيف يجمع

الإنسان بين صناعة الحدادة والنجارة والنقش والتلغراف وأمثالها والعلوم العقلية من الهندسة والحساب والعلوم الدينية من الحج والصلاة والأعمال العادية كتربية الدجاج ومسك الدفاتر وحرث الأرض وحلب البقر.

فقلت له : هذا التعجب هو الذى قعد بهممنا ، أوليس جميع تلك الصناعات فرض كفاية ؟ قال بلى. قلت فلماذا لانجهر للناس بالحق ، ولماذا لاننصح الناس .

قل لى رعاك الله ماذا ترى فى صلاة الجماعة أليست أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة . أليس المسلمون يجتمعون فى الأعياد وفى الحج وفى صلوات الجماعة وفى الغزوات . أليس هذا الاجتماع يقصد به تمرينهم على المودة ألم يقل الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا) فيارعاك الله كيف يكون اتحاد بلا فراق إلا بمقدمات أو ليست المقدمات منها صلاة الجماعة والحج وأمثالهما ، وكيف تكون صلاة الفذ أقل من صلاة الجماعة بسبع وعشرين درجة ، وإذا كان ثواب الآخرة يزداد بالاجتماع بسبب عروج الناس إلى ربهم واتحادهم فى ذلك العروج وأنهم تخف أرواحهم مجتمعين أكثر من الانفراد ٢٧ مرة . أفليس هذا معناه أن الاجتماع سعادة ؟ فإذا زاد الارتقاء الروحى ٢٧ مرة فكيف يكون الارتقاء العمرانى الذى نشاهده ونحن نشاهد أن الشركات التجارية تفعل أفعالا مدهشة تعجز عنها الأفراد ، وإن الآلات البخارية التى اشتراها أفراد بمالهم تنفعهم أضعاف ما كانوا عليه ٢٧ مرة فأكثر هذا هو سر الإسلام ، فإذا رأينا أمريكا تمادت فى الرقىّ الاجتماعى فلنقل هذا ديننا لأن ديننا أمر به فى الحج والصلاة وغيرهما ، وانظر قوله صلى الله عليه وسلم «لتسوّن صفوفكم أو ليخالفنّ الله بين قلوبكم» لقد ظهر سره اليوم فى الإسلام وفى أمم النصرانية ، فبعض أمم الإسلام لااجتماع لها ولامحبة فذهبت مدنيتها وبعض الأمم المسيحية اعتادت الاجتماع العملى فاتحدت قلوبهم .

فلتكن مدارس الإسلام وكلياته منبهة مرقية مشوقة لجميع العلوم والصناعات ، والتلاميذ فيها يعملون بأنفسهم ذلك هو باب السعادة والسلام فى بلاد الإسلام .

وهذا كله سر قوله تعالى (الم) فى أول السورة المشير إلى قصة اليهود الذين غرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون فزال ملكهم ومثلهم بعض المسلمين فى العصر الحاضر لغرور طوائفهم قديما وحديثا ، وقد وصفنا الدواء بعد شرح الداء لرقىّ هذه الأمة والحمد لله رب العالمين . انتهى القسم الرابع .

القسم الخامس من سورة آل عمران

وهو بابان : الباب الأول فى قصة امرأة عمران ومريم وزكريا . الباب الثانى فى قصة عيسى ابن مريم . الباب الأول فيه فصلان : الفصل الأول فى قصة مريم . الفصل الثانى فى قصة زكريا ويحيى .

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

لما بين الله أن طاعة الرسل توجب حب الله أخذ سبحانه وتعالى يذكر مناقبهم ، وما أغدق عليهم من نعمة وآتاهم من فضله ، فذكر آدم ونوحا وآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحاق وأولادهما ولا جرم أن نبينا صلى الله عليه وسلم من ذرّية إسماعيل فهو فى جملتهم ، ومن آل إبراهيم من هم على دينه ، وقد دخل فى آل إبراهيم بنو إسرائيل وهم اليهود الذين جعل الله فيهم الملك والنبوة إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم ، ثم جمع له ولأمته النبوة والملك . وهؤلاء هم من ذرية إبراهيم من إسحاق ومن إسماعيل أبى العرب الذين منهم نبينا صلى الله عليه وسلم .

وأما آل عمران فهم عيسى وأمه مريم بنت عمران بن ماثان من نسل سليمان بن داود وبينه وبين عمران أبى موسى وهارون ألف وثمانمائة سنة .

فهؤلاء اصطفاهم الله واختارهم على العالمين بالنبوة والرسالة (ذرّية بعضها من بعض) بدل من آل إبراهيم وآل عمران ، والذرّية من الذرء أى الخلق أى إنهم ذرّية واحدة متشعبة بعضها من بعض ، والذرّية الولد يطلق على الواحد والجمع أو بعضها من بعض فى الدين (والله سميع) بأقوال الناس (عليم) بأفعالهم ومنهم امرأة عمران فقد سمع قولها وعلم نيتها ، وهو يعطى كلا من القائلين والعاملين ماهو أهل له من ثواب وعقاب وإجابة وردّ . واذكر (إذ قالت امرأة عمران ربّ إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) أى جعلت الحمل الذى فى بطنى نذرا محرّرا منى لك والنذر ما أوجبه الإنسان على نفسه فيكون المعنى أنه خالص لعبادة الله وخدمة الكنيسة لايشغل بشئ من أمور الدنيا ، وكان المحرّر يجعل فى الكنيسة فيقوم عليها ولا يبرح مقيما حتى يبلغ الحلم ثم يخير ، فإن شاء بقى فيها وإلا ذهب وليس له بعد اختيار الكنيسة أن يتركها وكانت عادة أنبياء بنى إسرائيل وعلمائهم أن يحرّروا أبناءهم لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالغلمان لأن النساء لايصلحن لذلك .

ومحصل هذه القصة أن زكريا وعمران تزوجا أختين فكانت إيشاع بنت فاقوذا وهى أم يحيى عند زكريا وكانت حنة بنت فاقوذا أخت إيشاع عند عمران وهى أم مريم وحنة قد حرمت من الولد حتى أيست وكبرت وكانوا قوما صالحين، فبينا هى فى ظل شجرة إذ بصرت بطائريطعم فرخا فاشتاقت للولد فقالت اللهم إن رزقتنى ولدا تصدّقت به على بيت المقدس ليكون من سدنته فحملت بمريم وحرّرتها فقال لها زوجها عمران ويحك ماصنعت أرأيت إن كان مافى بطنك أنثى فلا تصلح لذلك ؟ فوقعا معا فى همّ شديد ، فمات عمران وحنة حامل بمريم (فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى) قالت ذلك تحسرا وحزنا لأنها كانت ترجو أن يكون ذكرا يقول الله تعالى (والله أعلم بما وضعت) أى بالشئ الذى وضعته فلعلّ لله فيه سرا وكيف لا (وليس الذكر) الذى طلبت (كالأنثى) التى وهبت :

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال

بل الانثى التى وهبت أفضل من كثير من الرجال ، ثم قالت (وإنى سميتها مريم) عطف على كلامها السابق وما بينهما جملة معترضة . ومعنى مريم بلغتهم العابدة، قالت هذا تقرّبا لله أن يعصمها حتى يطابق الاسم المسمى (وإنى أعيذها بك) أجيرها بحفظك (وذرّيتها من الشيطان الرجيم) المطرود يقال رجمه رماه بالحجارة قال عليه الصلاة والسلام « مامن مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مسه إلا مريم وابنها » . والمقصود أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها ، فإن الله استجاب هذه الدعوة فعصمهما (فتقبلها ربها) رضى بها بدل الذكر (بقبول حسن) أى إن الله تقبل مريم من حنة مكان الذكر المحرّر أى قبلها ورضيها (وأنبتها نباتا حسنا) أى سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ورباها تربية بها

تصلح جميع أحوالها (وكفلها زكريا) أي جعله كافلا لها وضامنا لمصالحها، ومن خفف الفاء أعرب زكريا فاعلا . وتلخيص هذا المقام أن حنة لما ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد عند الأحبار من نسل هارون وهم القائمون بأمر بيت المقدس وقالت دونكم النذيرة فتنافسوا فيها لأنها بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال زكريا أنا أحق بها لأن خالتها عندي فتنازعوا وكانوا ٢٩ رجلا ، ثم اصطلحوا على أن يقترعوا فألقوا أقلامهم التي كانت بأيديهم ويكتبون بها التوراة في نهر الأردن على أن من ثبت قلمه في الماء وصعد فهو أولى بها من غيره فارتفع قلم زكريا فقرعهم زكريا رأس الأحبار ونبيهم . فأخذ ينظر في شؤونها ويربيها أحسن تربية ، فوجد هناك عجبا عجابا؛ ذلك أنه (كلما دخل عليها زكريا المحراب) المسجد ويسمى محرابا لأنه محل محاربة الشيطان (وجد عندها رزقا) فكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء (قال يامريم أنى لك هذا) أي من أين لك هذا الرزق الذي يأتي في غير أوانه (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) أي بغير تقدير لكثرته أو بغير استحقاق تفضلا منه تعالى .

ألا تعجب معي أيها الذكي كيف يقال هنا وترزق من تشاء بغير حساب بعد ما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول (اللهم مالك الملك) إلى قوله تعالى (وترزق من تشاء بغير حساب) فمريم تقول إنه يرزقني تفضلا بلا استحقاق أو بكثرة هكذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول ذلك وليس بين الجملتين إلا بضع آيات .

يدعو هذا القول المسلمين الذين ورثوا الأمم وعلومها أن يدرسوا كيف يرزق من يشاء بغير حساب كما أريتك قريبا ، فلقد أطلعتك على عجائب الحشرات والحيوانات العقلة بلا تعليم الملهمة بلا تكليف المرزوقة بلا أسباب ظاهرة ولا أعمال هامة ، وهنا ترى مريم كيف رزقت بغير حساب . انتهى الفصل الأول .

الفصـــل الثاني

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

يقول الله هنالك أي في ذلك المكان لما رأى كرامة مريم دعا زكريا ربه قال رب كما وهبت لحنة العجوز العاقر ذرية طيبة ، ورزقت ابنتها الفواكه في غير أوانها لأنك ترزق من تشاء بغير استحقاق هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك مجيب الدعاء ، وكان زكريا طاهر القلب مستعدا لخطاب الملائكة ، فنادته الملائكة أي بعضهم وهو قائم يصلي في المسجد (بأن الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله) وهو عيسى وإنما سمي كلمة لأن الله قال له كن فكان من غير أب فوقع عليه اسم الكلمة لأنه بها كان ؛ وأول من آمن بعيسى وصدقه كان يحي (وسيدا) يسود قومه ويفوقهم لأنه ماهمّ بمعصية قط (حصورا) مبالغا في حبس نفسه عن الشهوات والملاهي (ونبيا من الصالحين) ناشئا منهم (قال رب أنى يكون لي غلام) استبعادا من حيث العادة (وقد بلغني الكبر) أدركني كبر السن وأثرفيّ ، ويقال إنه كان له ٩٩ سنة ولامرأته ٩٨ سنة (وامرأتي عاقر) لاتلد من العقر وهو القطع (قال كذلك الله يفعل مايشاء) من العجائب مثل ذلك الفعل (قال رب اجعل لي

آية) علامة أعرف بها الحبل لأستقبله بالبشاشة والشكر وتزول عنى مشقة الانتظار (قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) أى أن لاتقدر على تكليم الناس ثلاثا فيحبس لسانك عنه وتخلص لذكر الله تعالى وشكره قضاء لحق النعمة وإنما تكلمهم بالإشارة بيدك أو عينك أو بالإيماء برأسك (واذكر ربك كثيرا) فى أيام حبس لسانك عن كلام الناس لأنه هو القصد من حبسه (وسبح بالعشى) أى من زوال الشمس إلى الغروب (والإبكار) من طلوع الفجر إلى الضحى .

الباب الثانى

فى عيسى ابن مريم وأمه

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ * إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

تفسير هذا الباب

يقول الله فى هذا الباب: اذكر يامحمد إذ كلمت الملائكة مريم مشافهة أو ألهمتها قائلة (إن الله اصطفاك) أى تقبلك من أمك لخدمة المسجد، ولم تقبل أنثى قبلها، وفرّغك للعبادة، وأغناك برزق الجنة عن الكسب (وطهرك) عما يستقذر من النساء (واصطفاك) بالهداية وإرسال الملائكة إليك واختصاصك بالولد من غير أب وبراءتك مما قذفتك به اليهود بإنطاق الطفل وجعلك وابنك آية للعالمين، فأنت بهذه الحسنى مصطفاة (على نساء العالمين . يامريم اقنتى لربك) أديمى الطاعة، كما فى قوله تعالى «أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما» (واسجدى) صلى كقوله تعالى «ومن الليل فسبحه وأدبار السجود» (واركعى) واخشعى (مع الراكعين) الخاشعين (ذلك) المذكور من القصص (من أنباء الغيب) التى ما كنت تعرفها أنت ولا قومك من قبل هذا (نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم) التى يكتبون بها التوراة وقد مرّ توضيحه، ليعلموا (أيهم) أى الأحبار (يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون) متنافسين فى كفالتها، وأبدل من «إذقالت» الأولى (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه) أى يبشرك ببشرى من عنده وهو ولد يولد لك من غير بعل ولا فحل، وذلك الولد (اسمه) أى مايتميز به عن غيره من لقب أو اسم أو صفة (المسيح) وهو لقب شريف له كالصدّيق وأصله بالعبرية «مشيحا» ومعناه المبارك (عيسى) معرب أيشوع وهواسمه (ابن مريم) صفة له (وجيها فى الدنيا والآخرة) حال مقدّرة من «كلمة» التى هى نفس عيسى فصح جعل الحال مذكرا، وكل شئ خلقه الله بكلمة كن «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» وعيسى كذلك كما يأتى فى قوله تعالى «ثم قال له كن فيكون» واختص عيسى بالكلمة لأنه بلا واسطة وغيره ليس كذلك، والوجاهة فى الدنيا النبوة، وأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويظهر العجائب، وفى الآخرة علوّ عند الله تعالى (ومن المقرّبين) يرفع إلى السماء مصاحبا الملائكة (ويكلم الناس فى المهد) أى حال كونه طفلا «إذ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب الخ» (وكهلا) أى فى حال الكهولة. والكهل فى اللغة الذى اجتمعت قوته وكمل شبابه، أوالذى فوق الثلاثين أو الذى وخطه الشيب وعند ذلك يستحكم فيه العقل وتنبأ الأنبياء، وهذه المعانى اللغوية متقاربة. قال البيضاوى: يقال إنه رفع شابا، والمراد وكهلا بعد نزوله (ومن الصالحين) حال ثالث من كلمة (قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) أى قالت على سبيل التعجب من أين يكون لى ولد ولم يصبنى رجل؟ (قال كذلك الله يخلق مايشاء) هكذا يخلق الله منك ولدا من غير أن يمسك بشر فإنه يخلق مايشاء ويصنع مايريد (إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. ويعلمه الكتاب) الكتابة والخط باليد (والحكمة) العلم (والتوراة) التى أنزلت على موسى (والإنجيل) الذى نزل عليه، ويقول سبحانه وتعالى (ورسولا إلى بنى إسرائيل) الذين كان أولهم يوسف بن يعقوب وآخرهم عيسى (بأنى قد جئتكم بآية) علامة (من ربكم) على صدق قولى، وأبدل منها قوله تعالى (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) أى أقدّر لكم وأصوّر شيئا مثل صورة الطير فأنفخ فيه فيصير حيا طيارا (وأبرئ الأكمه)

الذى ولد أعمى (والأبرص) الذى به وضح (وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. و) قد جئتكم (مصدقا لما بين يدىّ من التوراة [illegible] عطف على معنى مصدقا قوله (ولأحلّ لكم بعض الذى حرّم عليكم) أى التصديق ولإحلال بعض الذى حرّم عليكم فى شريعة موسى من الشحوم والثروب ولحوم الإبل والعمل يوم السبت (وجئتكم بآية من ربكم) أى جئتكم بآية بعد آية فيما ذكر سابقا (فاتقوا الله) فى المخالفة بعد ماظهرت الحجة (وأطيعون) فيما أدعوكم إليه ؛ ثم شرع فى الدعوة الشاملة لقوتى العلم والعمل فقال (إن الله ربى وربكم) وهذا هوالتوحيد الذى هو من أهم استكمال القوة العلمية التى رأيتها فى سورة البقرة عند قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض » وفى أول هذه السورة أيضا (فاعبدوه) وهذا هو القوة العملية، ولاسعادة فى دين أودنيا خارجة عنهما وهما البادى والنهايات لجميع الديانات، فالجمع بين العلم والعمل هو الطريق المشهود له بالاستقامة (هذا صراط مستقيم) قال عليه الصلاة والسلام «قل آمنت بالله ثم استقم» (فلما أحسّ عيسى منهم الكفر) عرف كفرهم كأنه مدرك بالحواس (قال من أنصارى) ملتجئا (إلى الله قال الحواريون) الذين يحوّرون الثياب أى يبيضونها وبدعى صاحب هذه المهنة قصارا وكانوا اثنى عشر، وحوارىّ الرجل أيضا خاصته وأصفياؤه وهؤلاء خاصة عيسى وأصفياؤه أجابوه قائلين (نحن أنصار) دين (الله آمنا بالله واشهد) يوم القيامة لنا (بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) بوحدانيتك (ومكروا) أى الذين أحسّ منهم الكفر من اليهود إذ أضمروا قتله (ومكر الله) إذ ألقى شبهه على يهوذا الذى أبلغ خبره إلى رئيس الكهنة كما ستراه موضحا قريبا من إنجيل برنابا فصلب يهوذا ورفع للمسيح (والله خير الماكرين) أقواهم مكرا، وقوله تعالى (إذ قال الله) ظرف لمكر الله (ياعيسى إنى متوفيك) قابضك من الأرض من توفيت مالى، أو مميتك عن الشهوات العائقة عن العروج إلى عالم الملكوت (ورافعك إلىّ) إلى محل كرامتى ومقرّ ملائكتى (ومطهرك من) سوء جوار (الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك) بالمحبة والادعاء وهم النصارى وبالاقرار بنبوّتك وهم المسلمون (فوق الذين كفروا) بك (إلى يوم القيامة) يعلونهم بالحجة والسيف فى أغلب الأمر ، ولم يسمع أن لليهود ملكا أو دولة أو جندا . ولكنهم فى أثناء هذه الأيام عند كتابة هذا التفسير شرعوا يجمعون لهم وطنا قوميا بفلسطين تحت حماية الانجليز ، وهم فى ذلك مضطربون «ولله عاقبة الأمور» (ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين ، ثم فصل الحكم فقال (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين . وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لايحب الظالمين) وهم الذين يضعون الشئ فى غير موضعه، أو من يظلم غيره حقا له : أى لايرحمهم ولا يثنى عليهم (ذلك) الذى ذكر من أخبار عيسى وأمه مريم والحواريين ونحوها (نتلوه عليك) حال كونه (من الآيات والذكر الحكيم) المشتمل على الحكم والممنوع من تطرق الخلل إليه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس .

وفى هذا القسم ست لطائف : (١) الملائكة والشياطين (٢) خوارق العادات (٣) هنالك دعا زكريا ربه (٤) قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا (٥) إن الله ربى وربكم فاعبدوه (٦) إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك .

اللطيفة الأولى : الملائكة والشياطين

لقد تقدم الكلام على الملائكة مشبعا فى البقرة عند قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة» فلنجمل هذا المقال فى الملائكة وفى الشياطين معا لما فى الكتب السماوية من ذكرهما بالوسوسة والإلهام والهداية والإضلال والإساءة والإفضال ، فإن كثيرا من الناس لاسيما المتنورين لايقع فى خواطرهم وجودهما وتنبو نفوسهم عن التصديق بما لم يأنس به العقل ، وإن أنس به النقل وعضده الوحى وآمن به كل حى فنقول :

إن الإنسان إذا نظر فيما حوله رآه قسمين اثنين لاثالث لهما: طيب وخبيث نافع وضار محبوب ومكروه، فمن الثانى الآساد والنمور والذباب والحيات والعقارب والخنافس والنبات السامّ والحيوانات الدقيقة المسماة بالمكروب فتمرضه بالحمى والتيفوس والتيفود والملاريا والحصبة والجدرى ومرض الكلى والطاعون العام وأمراض أخرى تحدث بتلك الحيوانات الصغيرة التى لاعدّ لها ولا إحصاء.

هكذا الظلام الحالك وحمارّة القيظ فى شعاب الجبال وضربات الشمس والصواعق والزلازل والبراكين وطغيان الأنهار على المزارع وتشتيتها وانحسار مائها كالنيل والفرات وما شابه ذلك.

ومن الأول الإبل والبقر والغنم والبهائم والطيور النافعة والأنهار أيام اعتدالها والنبات المغذى النافع والفاكهة والأبّ لتغتذى به البهائم، والحيوانات الدقيقة العجيبة التى فى دم الإنسان المسماة بالكرات الحمراء والمسماة أيضا بالكرات البيضاء التى تصارع الحيوانات الفاتكة بالجسم، وتنشب فيها مخالبها وتقهرها وتغلبها فترجع ظافرة منصورة، وهكذا تلك الجموع الجرارة والجيوش المصطفة منها التى تسارع إلى الجروح إذا حدثت فتكون هى أنفسها مادة القيح ومتى تم الشفاء كانت هى مادة اللحم الكاسية للجرح النافعة للمريض الشافية للجراح الكاتبة بخط يفقهه العقلاء (ويخلق ما لا تعلمون).

فإذن جميع ما نراه قسمان بالنسبة للإنسان وقد وصلنا إلى أدق الحيوان الذى لم يعرف إلا حديثا، ولو أن امرأ منذ مائة سنة نطق بهذا لقيل له (أنت معتوه) وقد أصبح اليوم معلوما للخاص والعام ومن ذا كان يخطر له أن الحمى تكون بآلاف الآلاف من الحيوان، وأن شجرة القمح أو القطن أو الكتان يسخر تحت جذرها آلاف الآلاف من تلك الحيوانات تمزق عناصر الأرض المغذية للنبات حتى تصلح لامتصاصها وتتمثل بغصنه وزهره وثمره وأنها للنبات كالعبيد يحضرون الطعام لساداتهم، وكالخدم لمخدوميهم، وكالرعايا للملوكهم، وكأهل الشرق لممالك الغرب إذ استذلوهم واستضعفوهم وأذلوهم صاغرين وجعلوهم عبيدا خاضعين فيجبى حكامهم المستضعفون لسادتهم من الغرب ثمرات كل شىء، فهم أشبه بهذه الحيوانات الذرّية (والمخلوقات المكروبية) من ذا كان يخطر بباله أو تحدّثه نفسه أن هذه العوالم منبثة فى أجسامنا للإهلاك تارة وللإحياء أخرى، أم من ذا الذى كان يعقل أنها مغذية للنبات مميتة تعطيه الحياة والنجاة تارة وللموت والهلاك أخرى. هذه بعض عجائب ما حولنا وما عن أيماننا وشمائلنا من المخلوقات.

هذه الحيوانات فأين الملائكة والشياطين؟.

بهذا القول أدركنا أن أحوالنا وأحوال النبات والحيوان من صحة ومرض وقوة وضعف مرجعها حيوانات دقيقة ومخلوقات ضعيفة، ولقد وجدنا فينا آراء وأحوالا ترجع إلى عقولنا وتنطوى عليها أخلاقنا فمنها الخبيث ومنها الطيب، كما أن فى أجسامنا صحة ومرضا وفى نباتنا قوة وضعفا وكذا فى حيواناتنا، وكما أننا كنا ننكر أن يكون لمرضنا ولمرض حيواننا ونباتنا علة إلا الأغذية والأحوال الشاهدة هكذا نحن ننكر الآن أن يكون لآرائنا الخبيثة والطيبة إلا أحوالنا وتعاليمنا واستعدادنا، فأما إن شيطانا يضلنا أو ملكا يهدينا فذلك لاطاقة لنا بقبوله ولا قدرة لنا على التصديق به.

(١) قالت طائفة: إننا نرى أن الذباب لايقع إلا على عين فيها القذى، ويتجاوز النظيف الجسم الطاهر البشرة ونرى أن التلميذ المهذب يقبل عليه المعلمون ويهديه المرشدون ويتجاوزون التلميذ البليد أو القذر أو الذى لايطيع ولا يكون ذا خلق حميد.

فلعلّ فى العالم المعنوى مايشابه ذلك فيكون هناك عالم يغوى الرجل الشرّير كالذباب يقع على العين القذرة وفيه من يهدى من له استعداد للهداية وهذا القول لاسبيل للإقناع به بل هو ضرب أمثال، والأمثال ليست تغنى فى البيان.

(٢) وقال علماء الهند فى كتاب يسمى راجايوقا ألتى محاضرات فى مدينة نيويورك فى سنتى ١٨٩٥ — ١٨٩٦ ، وجمع مقالات باللغة الإنجليزية وصدّر بمقدمة هذا ملخصها بإيضاح .

إن جميع الأمم فى الشرق والغرب يصدّقون علماء كل فنّ ، ويؤمنون بما يبدون من الآراء ، وما يصفون من الأحوال ، ألا ترى أن جميع أمم العالم تحكم بما يقوله الأطباء ، فإذا أنذروا بالوباء أو بظهور داء ، أو بعموم الحمى أو الجدرى أو ماأشبه ذلك من كل مافيه العدوى اتبع الناس آراءهم وحكموا بقولهم وأطاعوا مابه يأمرون .

هكذا علماء الحساب والفلك والطبيعة والزراعة والبيطرة ، فليت شعرى من ذا الذى درس الأجرام السماوية وأنها أعظم من الأرض ومنها ماهو أعظم من الشمس وأنها بعيدة بعدا لايتناوله الإحصاء ، ولاتدركه عقول النبلاء .

لعمرك لم يدرس الأمراض وأحوالها إلا الأطباء ، ولا عظم الأجرام السماوية إلا أولئك العلماء بالفلك الدارسون لتلك القضايا البعيدة المرمى القائمة على صدق الأحكام ، وإنما صدّق الناس ذلك من هؤلاء ، ومن هؤلاء لأنهم يرون أن لكل علم طرقا تتبع وسبلا يسار فيها وأصولا يزاولونها ونواميس يدرسونها وخواصّ يعرفونها ، فإذا سار سائر من الناس على مناهج تلك العلوم وصل إلى حقائقها وأخبر بما أخبر به الأولون مع بعض تحسين لايضر بالأصول ولا ينقض كل ماهو منقول ، فكل امرىء يقول لو أنى سلكت سبلهم وقرأت أصولهم لأخبرت خبرهم ولعرفت كما عرفوا ، فمن هذا الوجه أصبح الناس واثقين بعظم الأجرام السماوية ، وإن لم يدرسوها خائفين من الأمراض والوباء ، وإن لم يعقلوها ذلك لأنهم لفهمها مستعدون وعلى فهمها قادرون .

ومن الناس طوائف تهذبت بالرياضات واعتكفت عن الماديات ، وصامت عن الدنيا واعتزلت الناس فوصلوا إلى عالم لم يره الناس وقالوا قد رأينا عالما روحانيا ، فمنهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، فهم طوائف مختلفون وأصناف متعدّدون ، وهؤلاء الطوائف مثلهم كمثل الأطباء ، وعلماء الفلك؛ فالناس يصدقون وإن كانوا لايدرسون فى العلوم المادية ، هكذا يجب أن يصدقوا وإن لم يدرسوا فى العلوم الروحانية لأنهم إذا ساروا على السنن التى رسمها الروحانيون ودرسوا ماهم دارسون وعلموا مايعلمون وصلوا إلى ما إليه وصلوا وعرفوا ما غفل عنه الأكثرون ؛ ولقد نقل عن أناس مهذبين مرتاضين فى الشرق والغرب ومن جميع الديانات والملل والنحل والمذاهب فى الأعصر الغابرة والأيام الحاضرة أنهم رأوا مالم تره العيون ، وأخبروا عن علم مكنون واطمأنوا إلى مايعلمون وأيقنوا أنهم مبصرون ، فلماذا تنزلهم فى المرتبة عن علماء الفلك والطب ولماذا نظلمهم ونبخسهم حقهم ، إن ذلك لظلم مبين . فثبت بهذا أن هناك عالما لطيفا لم تره العيون من الملائكة ومن الشياطين . هذا هو البرهان الذى قاله علماء الهند واطمأنوا إليه وهم مصدّقون .

أيها الذكى إن أردت المزيد فى هذا المقام فهناك كتاب الأرواح الذى ألفته قبل هذا الكتاب ، ولكن لأنقل لك جملا منه تريك بهجة العلم وجماله عسى أن تكون لك مقنعا ، هداك الله إلى سبيل الرشاد .

وقد نقلت لك عن العلامة الرازى فيه ما يأتى :

[الحجة العاشرة] نرى جميع فرق الدنيا من الهند والروم والعرب والعجم ، وجميع أرباب الملل والنحل من اليهود والنصارى والمجوس والمسلمين ، وسائر فرق العالم وطوائفهم يتصدّقون عن موتاهم ويدعون لهم بالخير ويذهبون إلى زياراتهم ، ولولا أنهم بعد موت الجسد بقوا أحياء لكان التصدّق عنهم عبثا ؛ فالإطباق على هذه الصدقة وعلى هذا الدعاء وعلى هذه الزيارة يدل على أن فطرتهم الأصلية السليمة شاهدة بأن الإنسان شىء غير هذا الجسد وأن ذلك الشىء لايموت بل يموت هذا الجسد إلى أن قال :

[الحجة الحادية عشرة] إن كثيرا من الناس يرى أباه أو ابنه بعد موته فى المنام ، ويقول له اذهب إلى الموضع الفلانى فإن فيه ذهبا دفنته لك وقديراه فيوصيه بقضاء دين عنه ، ثم عند اليقظة إذا فتش كان كما رآه فى النوم من غير تفاوت ولولا أن الإنسان يبقى بعد الموت لما كان ذلك ، ولما دل هذا الدليل على أن الإنسان يبقى

بعد الموت ودل الحس على أن الجسد ميت كان الإنسان مغايرا لهـــذا الجسد الميت . وقال رحمه الله تعالى فى تفسير قوله تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم الآية) فى سورة إبراهيم قال فى صفحة ٢٤٠ ج خامس : وذكر بعض العلماء فيه أيضا احتمالا ثالثا وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فارقت أبدانها قويت فى تلك الصفات التى اكتسبتها فى تلك الأبدان وكملت فيها ، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة فى بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة ، وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن ، وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتعلقة بهـــذا البدن ومعاضدة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ؛ ثم إن كان هذا المعنى فى أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاما ، وإن كان فى باب الشر كان وسوسة . فهذه وجوه محتملة تفريعا على القول بإثبات جواهر قدسية مبرأة عن الجسمية، والقول بالأرواح الطاهرة والخبيثة كلام مشهور عند قدماء الفلاسفة، فليس لهم أن ينكروا إثباتها على صاحب شريعتنا محمد صلى الله عليه وسلم اه من الرازى .

وفيه أيضا مما نقله عن الغزالى رحمه الله :

والعالم من محرك الفلك التاسع من الصفحة التى تلى جهة فوق إلى التى تلى جهة أقدامنا مملوء جنودا وملائكة (وما يعلم جنود ربك إلا هو) إلى أن قال : ولاينبغى أن ينكر منكر ذلك ، وقد شهد شعاع الشمس وروحانيته وبساطته حتى إن قرصها يكون بالغرب وشعاعها بالشرق ، فما هو إلا أن يغيب خلف جبل فينقطع الشعاع الذى بالمشرق بلا زمان ، فلوكان جسما ماانقطع فى عدة سنين ، وإذا أخذت مرآة وعكست بها الشعاع انعكس إلى حيث شئت ، ثم تعطفه لافى زمان ، وجوهر الشعاع بالإضافة إلى جوهر النفس كثيف ، فليس فى العالم موضع إلا وهومغمور بما لايعلمه إلاالله ولذلك أمر الشارع بالستر فى الخلوة وعندالجماع والعالم مشحون بالأرواح اه.

وفيه أيضا :

(٣) قال فى إخوان الصفا الجزء الثالث صفحة ٣٦٢ : واعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت ملائكة بالفعل؛ كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هى شياطين بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل . فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى (شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) فشياطين الإنس هى النفوس المتجسدة الشريرة أنست بالأجساد ، وشياطين الجن هى النفوس الشريرة المفارقة للأجسام المحتجبة عن الأبصار ، وقال قبل ذلك (ماملخصه): إن هذه النفوس الشريرة لما فارقت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت وتمنت لو رجعت للذات كرة أخرى فحينئذ تصبح النفس كأنها لاحية ولا ميتة كما قال تعالى (لايموت فيها ولا يحيا) وتقول (ياليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل — ياليتنى كنت ترابا — هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا) وقال تعالى (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) لما ركب فيهم من الأخلاق الشائنة . وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم ، وهكذا شأن الغافلين اه ملخصا من إخوان الصفا .

وفيه أيضا مانقله من خطبة اللورد أوليفرلودج أكبر علماء الطبيعة بانكلترا قال :

ولنذكر فى هذا المقام أننا لسنا أجساما فقط ، بل كل منا مركب من عقل ووجدان وروح فضلا عن الجسم ، ويتصل الإنسان بهذه الكائنات العليا المدركة ويناجيها بغير حواسه البدنية ويرتاح إلى الاتصال بها أكثر مما يرتاح إلى اتصاله بهذا العلم المادى الذى قضى عليه أن يعيش فيه إلى حين . كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مناجاة المدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية ، ولم يزل كثيرون منا

يطلعون على شيء من أمور هذه المدركات العليا من وقت إلى آخر ، وإذا عملنا على تقوية مداركنا وقوانا اطلعنا على أكثر من ذلك ومكننا الوحي من معرفة أمور لانقدر أن ندركها بغيره . إن طرق البحث المادية ليست كل طرق البحث ، ولم يزل الرجال العظام منذ قديم الزمان يرون رؤى ويطلعون على حقائق ، وتظهر منهم بدائه يحاولون تدوينها لينتفع بها غيرهم ، وبمثل ذلك يكون البحث على بعض الحقائق وهو طريقة رجال الدين ، ولا أقول إني سرت عليه أنا في بحثي إذ يظهر أني محروم من ذلك ، ولكنني قد وصلت إلى نتائج لاتختلف عن التي وصلوا إليها ببحثي من طرق علمية مألوفة ، وجميعنا يعرف أن في الكون قوى للشر وقوى للخير .

وفيه أيضاً من خطبة اللورد أولفرلودج المذكور في الحياة بعد الموت ، وليس من العقل أن يقال إن النفس تضمحل إذا تلف الجسد بل سنظل موجودين بعد موتنا وانتهاء أعمارنا القصيرة على هذه الأرض . أقول ذلك مستنداً إلى أدلة علمية . أقوله لأني تحققت أن بعض أصدقائي الذين ماتوا لايزالون موجودين إذ أني قد ناجيتهم ومناجاة الموتى ممكنة ، ولكن يجب أن يسار على نواميسها وأن تعرف شروطها وهي ليست من الأمور الهينة ، وقد حادثت أصدقائي الموتى كما أحادث واحداً من الحضور ، وقد كانوا في حياتهم من أهل العلم ولذلك برهنوا لي براهين قاطعة نشر بعضها وسينشر البعض الآخر في حينه أنهم هم أنفسهم كانوا يحدثونني وإنني لست واهماً . إن ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبصحتها بكل مافيّ من قوة الاقتناع إنني مقتنع بأننا لانضمحل عند الموت وأن الموتى يهتمون بأمور هذا العالم ، ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير ويقدرون على مناجاتنا أحياناً .

إن هذه النتيجة التي وصلت إليها عظيمة لاتعرفون أنتم ولا أعرف أنا مقدار عظمتها ، وتعلمون أن بين رجال العلم كثيرين غيري ممن يعتقدون بذلك مثلي وأن منهم كثيرين أيضاً لايعتقدون به ، ومن رجال العلم كثيرون لم يبحثوا في هذا الموضوع ، وليس لكل أحد أن يبحث في كل شيء ، ولكن من يقضي ثلاثين سنة أو أربعين يبحث في أمر من الأمور يحق له أن يبدي رأيه في النتيجة التي وصل إليها ، ولابد لكم من أمثلة تختص بهذا الأمر لكي تبحثوا فيها ، ومثل هذه الأمثلة كثير في مجلدات الجمعية العلمية وسيزداد كثيراً ، على أن الأمثلة يجب أن يهتم بالنظر فيها لأجل بناء الأحكام عليها ، وقد لاتتفق أحكامهم في أول الأمر مع آرائي التي أبديتها ولكنها ستتفق معها أخيراً بعد سنوات ولا بأس من التمهل .

غير أن الباحثين الذين اهتموا بهذا مدة سنين قد اتفقوا على أن الأدلة عليه تكاد تكون قاطعة ، وأنا لا أشك في أن الموتى يناجوننا مع أني قضيت سنين كثيرة أحاول تعليل ماينسب إلى مناجاة الأرواح بعلل أخرى ، ولكني رأيت فساد تعاليلي الواحد بعد الآخر ، وليس لي طريقة الآن أعلل بها ماينسب إلى مناجاة الأرواح غير القول بأن الأرواح موجودة فعلاً وتناجينا غير أني لا أقول إن الميت يكون موجوداً كل مرة يقال إنه ناجى فيها ، وعلى الباحث أن يكون يقظاً يستعمل كل مالديه من طرق التمحيص ، ولا يترك فرصة للبحث تسنح له لأن هذه الفرص نادرة جداً ، وحقيقة البقاء بعد الموت قد ثبتت بالطرق العلمية وهي مساعد تساعدنا على إدراك الاتصال بين جميع حالات الوجود ، وذلك مايبعثني على القول إن الإنسان ليس منفرداً بل تحيط به مدركات أخرى ، وإذا عرفتم أن فوق الإنسان مدركاً يفوقه هان عليكم أن تتصوّروا درجات أخرى من المدركات أرقى فأرقى إلى أن تصلوا إلى المدرك الأعلى نفسه : أي إلى الله سبحانه وتعالى .

وعالم هذه المدركات ليس عالماً غريباً عن عالمنا ، فإن الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة فلا نرى كثيراً من الأمور التي تجري ، ولكن تحيط بنا كائنات وتعمل معنا وتساعدنا قد عرفها

قليل

قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التى رأوها . وعندى أن كل ماتقول به الأديان من أن الملائكة والقديسين معنا وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل، هذه هى خطبته فى تاريخه .

هذا ما أردتُ نقله من آراء المحدّثين والقدماء ملخصا لتكون أيها الذكى فى هـذا التفسير مطلعا على الآراء المختلفة لتفهم الآيات الواردة فى الملائكة والشياطين وتعرضها على كتاب الأرواح أو على مانقلته فى هذا التفسير ، ثم الآيات الواردة مثل سورة الجن (بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد) وجاء فى تلك الآيات أن الجنّ « ويماثلها الأرواح التى خرجت من الدنيا ، وهى ناقصة محصورة الفكر كما ذكره إخوان الصفاء والفخر الرازى وعلماء الأرواح فى أوروبا والغزالى » قالت :

(١) إن الله لا ولد له (٢) وإن الجن ما كانوا يظنون أن هناك أكاذيب على الله (٣) وإن الإنس يستغيثون بالجن وهذا وبال لأن الجن بهذا طغوا مع أنهم جاهلون (٤) وإن الجن كانوا يظنون كالإنس أن الله لايبعث أحدا (٥) وإنهم منعوا من الإخبار بالغيب ولا يدرون ما الذى سيحدث لأهل الأرض (٦) وإنهم منهم الصالحون والفاسقون كأهل الأرض (٧) وإن قوما منهم آمنوا بالقرآن واهتدوا به (٨) وإن الجن اجتمعوا على النبى لما دعا الله فكانوا متراكبين عليه (هذا ملخص) ماجاء فى سورة الجن ، وهذا موافق أشدّ الموافقة للعلم الحديث بأوروبا وإن الروح بعد الموت هى الروح فى الحياة الدنيا ، هذا جاهل يوسوس للناس بجهله وهذا فاضل يلهم المستعدين من علمه (وما يعلم جنود ربك إلاهو وماهى إلا ذكرى للبشر) .

ثم إنى نقلتُ لك هـــذا لتطلع على العلم المنقول ، ولا تقف عنده بل تنظر ببصيرتك وثاقب ذهنك فى الكتب وفى العلوم (وقل ربّ زدنى علما) .

تفصيل الكلام على قوله تعالى : (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا)

إن الإنسان يخشع لما فوق طاقته ويخضع لما تناله قوته. وجميع مظاهر العظمة والجلال تنحصر فى دائرتين : دائرة البطش ودائرة غرائب العلم ؛ والدائرة الأولى تتجلى فى كل مابهر الناس من آثار العظمة، إن الإنسان له قوة قدسية سامية كنت فيه ومتى شعرت بأعاظم الأمور تحركت إلى ماسمت إليه غريزتها وحنت إلى ماسكن فيها ، ومن هذا المقام بنيت له الهياكل وأقيمت له التماثيل فى الأمم الغابرة والأجيال الحاضرة لتثير فى نفسه الإعجاب والإجلال، هذه سجيته المكنونة وغريزته المخزونة ؛ ولقد جعل الله من عباده من سمت مواهبهم وأجرى على أيديهم غرائب استثارة للإعجاب وتذكيرا لهم ، فإذا رأوا فاكهة الصيف شتوية وفاكهة الشتاء صيفية وأن الأكمه والأبرص برئا والميت حى على يد إنسان عظم إعجابهم وسمعوا مايقوله من النصائح التى يلقيها من ظهرت العجائب على يديه على ذلك درج الأنبياء والرسل والقدّيسون .

والدائرة الثانية وهى العلمية تماثل الأولى فمتى أخبر نبىّ بما لاعهد لهم به من الغيب وأنسوا بالخبر واعتادوا صدق الأخبار الغيبية على يديه تبعوه وصدّقوه فيما يلقى من نصائحه ، ومايعلم من حكمته ؛ فالمرجع لروعـــة القدرة والعلم .

ولما علم الله أن هذه الأمة ستكون أيام انقلاب العالم أنزل فى القرآن أن سحرة فرعون لما آمنوا ثبتوا على إيمانهم لما أيقنوا بالعلم أن موسى فوقهم وسحرهم لايتناول مقامه ، وليس فى علم السحر عند كبار السحرة أن العصا تبتلع الحبال والعصىّ فخروا ساجدين . أما بنو إسرائيل فإنهم بهرهم عجل السامرىّ المصنوع من الذهب وكان له خوار ، ولما رأوا أقواما يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فكان ذلك فى القرآن تنويرا للعقلاء . إن خرق العادات لايفيد الناس ثباتا فى العلم ولا رقيا فى الحياة ؛ فالخوارق لاتؤثر إلا إلى أمد قريب، ومن آمن بالعصا لما انقلبت حية حق له أن يرتد إذا رأى عجلا من ذهب

والأمم فى أيام جاهليتها كالشاب أيام صباه يحب فتاة ، فإذا وجد أجمل منها هجر الحبيب الأول أما من اشتركت معه زوجته فى الحياة وله منها بنات وبنون فثبات المودة غالبا مصون هكذا العلم والحكمة يقضيان بثبات العقول والآراء . لذلك جاء القرآن ألا ترى فى قوله تعالى رداً على مشركى العرب (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) وقوله تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) يقول الله تعالى : إن الأمم فى حال جهالتها نخوفهم بخوارق العادات ، ولا ثبات إلا بالعلم والحكمة .

لقد منعنا أن نرسل بخوارق العادات أننا أردنا رقىّ الإنسان ليفهم الحكمة بعقله ويدركها بفهمه ولا يقتنع بالتخويف كالأطفال ولا بالغرائب المنافية للنواميس المعروفة ، فإن الأجيال السابقة والأمم الدارسة لم يكونوا ليصلوا إلى سموّ العقل غالبا فسلطنا عليهم عصا التأديب لينتفعوا زمنا قليلا . أما الآن فإننا ننزل القرآن يحث على النظر والعلم ، وهنا يرى الفكر فى عجائب جسمه وغرائب الصنع وفى بدائع الآفاق من النواميس البديعة والآيات الرفيعة ماينسيه خوارق العادات ويتجلى له فى جميع الوجود آيات .

خوارق العادات المذكورة فى القرآن

يعجب العقلاء من الأمة الإسلامية ويقولون مالنا نرى كتابنا المنزل مشحونا بالعجائب والخوارق والمعجزات التى كانت فى الأمم السالفة والأجيال الغابرة؟ وما لنا ولذكرها ولو أنها كانت أمامنا لن تزدنا يقينا ، وكيف تزيدنا يقينا ، والقرآن نفسه قد جاء فيه أن الله تعالى ما يرسل بالآيات إلا تخويفا ، فهو جعل الأمم السالفة أطفالا فى أخلاقهم صبيانا فى أعمالهم فأراهم الأعاجيب ورزق أنبياءهم صيفا ما نبت شتاء وشتاء ما نبت صيفا ، ونقل عرش بلقيس لسليمان فى لحظة وقلب العصا حية لموسى ، وهكذا ما جاء من ناقة ثمود وغير ذلك ، وإذا كان الله يأمرنا فى القرآن أن نتذكر ونتفكر ونسير بالعقل ونعقل الحكمة . فكيف نجمع بين المعقول وخوارق العادات ، إن المسلمين ليعجبون من كل ذلك وهم متحيرون .

الحال الروحية والحال الجسمية

نقول : اعلم أن الإنسان له حالان : حال جسمية ، وحال روحية ، ففى الحال الأولى يزرع ويحصد ويتجر ويتعلم ويأكل ويلبس ويلد بأعمال إرادية وتكاليف ومشاقّ جسمية إرادية . فأما فى الحال الروحية فإنه يعمل تلك الأعمال بلا كلفة ولا مشقة بل بالإرادة والفكر والعزيمة ، كما نرى أنفسنا فى حال النوم لابسين آكلين شاربين والدين مالكين جالسين على الأسرة صوّرته أرواحنا من المادة الأثيرية المالئة لهذا الكون بلا كلفة ولا مشقة ، ونحن نراه فى النوم ولا نعجب لأنه مما تألفه النفوس فى تلك الحال ولا تتعجب منه هكذا حال الروح بعد الموت ، فإنها تفعل هذا كله بالغريزة والطبيعة والفطرة والقوة الروحية بلا تكليف ولا أمر ولا نهى ولا إنذار ولا وعيد .

فالروح تصوغ المادة الشافية والسامة والأغذية والفواكه ، وليس لها أدوات ولا آلات إلا إرادتها وإذن الله تعالى ، وكذلك تصوغ الألبسة المختلفة تصوغها بغريزتها وهى تجهل كيف تصوغها إذا كانت أرواحا منحطة من فئة قليلة الترقى فى العوالم العلوية ؛ فالمادة الأثيرية (أى اللطيفة) التى هى أصل العوالم كلها تتصرف فيها الروح على مقدار ارتقائها ، هذه قدرة الأرواح التى أودعها الله عز وجل فيها كما أودعها فى أرواحنا عند النوم (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) والروح فى الحال الروحية تفعل بالغريزة ما كانت تفعله تكلفا ولا تعقل ما تفعله إلا إذا كانت روحا نقية فاضلة شريفة كاملة .

أما

أما فى الحال الدنيوية فإن هذه الأعمال مخالفة للناموس لاتوافق حالنا . فلو أن امرأ أنزل الله عليه الخبز واللحم والفاكهة وهو جالس فى بيته ، ثم أفرغ عليه العلوم والمعارف من غير كدّ ولانصب لكان ذلك مخالفا للناموس والقانون الذى عليه أهل الأرض ، وليس يكون ذلك سببا فى رقيهم بل الرقى فى هذه الحياة بالعمل والسعى ، وهذا العمل والسعى يكونان سببا فى الرقىّ بعد الموت ، وعلى هذا تكون المعجزات وخوارق العادات التى جاءت على أيدى الأنبياء كالرزق الذى رزقت به مريم فى هذا المقام ليس مما يناسب عالمنا ، وإنما يناسب عالم الأرواح ، ولذلك تجد الناس يبتهجون به ويفرحون لاسيما إذا كانوا من العامة والجهلاء فإنهم أقرب إلى التصديق ونفوسهم تحنّ إلى ما استكنّ فى فطرتها ، وقد حجزت عنه لأمد معلوم فيكون ذلك الإعجاب سببا فى الإيمان بالأنبياء والقدّيسين وينتفعون بذلك الإيمان ، ولكن هذا الإيمان فى الدين الإسلامى ليس غاية العلم ولامنتهى الإدراك، بل دين الإسلام يدعو إلى النظر العقلى والتفكر الحكمى (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) يرشدنا القرآن أن تلك العجائب جاءت للأمم وهم أطفال ، وللأجيال وهم جهال فكانت خوارق العادات هى التى لها القول الفصل فى الإيمان . ألم تر إلى قدماء المصريين كيف كانوا يخيفون الشعب بالأمور الهائلة والهياكل العظيمة ، وكيف كانوا يمثلون لهم العظمة بأبى الهول المركب من رأس امرأة على جسد ثور بأظافير أسد وجناحى نسر رمزاً إلى هذا الإنسان الذى نبغ وسط الحيوان ، وظهر على هذه المخلوقات ، وهكذا علماء النصرانية كانوا يرمزون للشعب ولا يصرحون . قال سينيسيوس الأسقف اليونانى الذى تولى فى آخر حياته أسقفية عكا ومات سنة (٤١٠):

إن الروح السرّى الذى تراه ساريا فى سائر الأديان القديمة لناتج من كون الشعب يحتقر دائما ماسهل عليه إدراكه فلهذا يؤثر أن يكون مغشوشا مغالطا . هكذا فعل كهنة مصر الأقدمون (وأما أنا فسأكون فيلسوفا مع نفسى وكاهنا مع الشعب)اه .

وقال غريغوريوس فى رسالته إلى (أيروتيموس) إن الإعجام والإبهام ضروريان لا لقاء الهيبة فى الشعب فكلما قلّ إدراكه ازداد عجبه، إن كثيرا من رجال الدين وآباء الكنيسة نطقوا بمايلائم الظروف والأحوال لا بما كانوا يعلمون . فأنت ترى أيها الذكى أن الأمم السالفة كانت تألف العجائب والغرائب ولم يكن يؤم العقل ويعرف الحقائق إلا أكابر العلماء . لذلك أرسل الله لهم الأنبياء وأعطاهم العجائب موافقة لحالهم وهم جاهلون .

ولكن لما جاء القرآن أراد الله أن ينشئ خلقا جديدا مفكرا عالما فقال (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) لأرقى الطبقات ، والموعظة الحسنة للجهال (وجادلهم بالتى هى أحسن) للطبقة المتوسطة وحض على التفكر والتدبر والتعقل والنظر فقال (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال تعالى (أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وكيف يبصر الإنسان مافى نفسه والآفاق إلا إذا كان ذكيا، وإنك لوأتيت إلى الجهلاء، وقلت لهم انظروا فى عجائب أجسامكم وفى عجائب زرعكم ، كما نظرت فيما قرأت فى هذا التفسير لضحكوا استغرابا ولعجبوا من قلة عقل القائل ، ولكنك لو قلت لهم إن مريم رزقت بغير حساب لفهموها وسبحوا الله بكرة وأصيلا ؛ فالقرآن جاء للإكثار من الناظرين والمفكرين ، وللإقلال من المغرمين بخوارق العادات لأن الله لايرسلها لأهل الأرض إلا قليلا ولا بأس بها إلا لمنفعة علمية ومصلحة دينية ، ويفضل عليها العلم والحكمة والنظر الصحيح ، ولذلك ترى أهل الأرض من بعد نزول القرآن قد ارتقت أفكارهم ، وأهل أوروبا من اختلاطهم بالمسلمين فى الحروب الصليبية عقلوا وفكروا بعقولهم ورقوا جميع أعمال الحياة ، وإن كان المسلمون أصبحوا عبيد الهوى نائمين على بساط الراحة ، ولذلك جاءهم الأوروبيون فأمطروا عليهم وابلا من العذاب ومزنا من الإرهاق فأخذوا يستيقظون وقاموا ينفضون الغبار

عن رءوسهم وينفون الذل عن بلادهم ، وهذا التفسير من مبشرات تلك النهضة ومقومات ذلك العز القادم والمجد الدائم فيرى المسلم أن فاكهة مريم وعرش بلقيس وعصى موسى إنما جاءت لأمم كانت نائمة عما بين يديها وما خلفها . أما المسلم فيقول (إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون) ويعلم أن الجهال عن ذلك معرضون والعقلاء به مغرمون .

خوارق العادات والعلوم الطبيعية والرياضية

لقد استبان أن خوارق العادات تكون للناس فى أحلامهم وتكون لهم بعد موتهم ، وهناك لاتكون خوارق وإنما هى حقائق ثابتة لايستغربونها ولا ينكرونها بل هم بها موقنون ، وهذه العجائب لاتزال تتوالى على الناس فى كل زمان ومكان فتكون على يد الأنبياء معجزة مقرونة بالتحدى فيقولون إننا مرسلون من عند الله، والله أيدنا بهذه المعجزات، ويقول علماؤنا رحمهم الله إن هذه الخوارق تكون على يدى أتباع الأنبياء الذين يسمون أولياء ، ويقولون ماجاز أن يكون معجزة لنبى يكون كرامة لولى (انظر كتاب النقاية للشيخ السيوطى) وأثبت ذلك بكتاب عمر الذى جرى النيل بإرساله ووضعه فيه وبقوله (وهو على المنبر بالمدينة وجيشه بنهاوند وسارية أمير ذلك الجيش محذرا له من العدو الكامن له وراء الجبل : ياسارية الجبل الجبل) هذا مافى النقاية المذكورة وفى غيره من كتب علمائنا . إن هذه قدتكون على يد الساحر ويد الجاهل ، فكما تكون معجزة على يد نبى تكون كرامة لولى . ثم (معونة) لجاهل ثم (استدراجا لفاسق) فيقول علماؤنا إن تلك الخوارق تكون فى سائر الطبقات وتسمى بأسماء مختلفة على حسب الواقعة هى على أيديهم ، ولست الآن أقول لك هذا إلا لتقف على مايقوله أهل الشرق والغرب فى هذا المقام، أما رأيى أنا فإنك ستسمعه قريبا هنا.

أقول : ولقد ظهر فى أقوال علماء الأرواح مافيه العجب العجاب ، ولعمرى لايوضح المقام إلا ماجاء فى علم الأرواح فى العصر الحاضر أولا ، ثم فى التعقل والتفكير ثانيا ، وها أنا ذا أشرحه لك الآن شرحا وافيا فأقول : لقد ظهر علم الأرواح وأيد هذه الغرائب ، ولو اطلعت على الكتاب الذى ألفته المسمى (الأرواح) وعلى غيره من كتب الأمم المعاصرة لنا وعلى ما كتبه صديقنا محمد فريد وجدى الذى هو أول من أظهر هذا العلم فى بلادنا المصرية ، وعلى ماجاء فى كتاب المذهب الروحانى لو اطلعت على ذلك كله لرأيت عجبا عجابا، رأيت أن أعظم الفلاسفة والحكماء فى انكلترا وفرنسا وأمريكا الذين لايظن فيهم الغفلة قد أحضرت الأرواح على يد الوسطاء فواكه وأزهارا وملابس أمامهم وغير ذلك من عجائب وغرائب ، وإذا سئلت الأرواح عن ذلك قالت : إنى أحضرته من أرضكم لامن أرض أخرى لأن العوالم الأخرى لاتناسب عالمكم ذلك ذاع وشاع وملأ الأصقاع ، والناس فى الشرق نيام ، والناس أعداء ماجهلوا ؟ هذا ماأجملته الآن من علم العصر الحاضر وهو أقرب لما قاله علماؤنا، فالمعجزة للأنبياء والكرامة للأولياء والسحر للسحرة ، وأما ماعند علماء أوروبا فسمه ماتشاء أن تسميه ، ولقد سئلت الأرواح (عن كيفية إحضار تلك الأشياء والأغذية والملابس والأزهار التى حفظها الفلاسفة والعلماء فى انكلترا وغيرها ودامت كما تدوم عندنا تماما) فأجابت إن هناك شيئا يسمى (السائل المغناطيسى الإنسانى) يكون كثيرا فى الوسيط فتخلطه الأرواح بالسائل المغناطيسى الذى هو فى طباعها، وهذا المزيج هو الذى به نحضر تلك الفواكه والملابس وتصنع العجائب والأرواح بدون السائل الذى فى الإنسان لاتقدر على فعل شىء من ذلك هذا فى أوروبا .

ولقد رأى بعض الضباط من الانجليز فى الهند قوما من أهلها عبادا يصنعون العجائب ويضعون الرمل ويطلبون من الحاضرين أن يفكروا فى أى شعر وأى نثر على أى لغة فما أسرع ماتكتب تلك العصى على الرمل بأجمل خط وأبدعه بتلك اللغة التى تصورها الجالسون وغيرهم لا يعلم .

فلما سئل الهندى عن هذا أجاب إن لنا معابد وتعاليم تحرم علينا الترف والنعيم ، ونحن نتمسك بالزهد والتقشف والإمساك عن النساء وبهذا نستعد للاتصال بأرواح آبائنا وتلك الأرواح تمزج (السائل المناطيسى) الذى عندها بالسائل المناطيسى الذى فينا بسبب الزهد وغيره ، وبهذين السائلين يفعلون تلك الأعاجيب . ألا تعجب كيف اتفق ماقاله علماء أوروبا حين سألوا الأرواح مع ما أجاب به عباد الهند ما أجمل العلم وما أعجب الحكمة (ومنفعة هذا فى مقامنا أن نقول) إن العجائب والغرائب وخوارق العادات كما قدّمنا جعلها الله فى هذا النوع الإنسانى لتكون بمثابة تذكار لهم بما يكونون عليه بعد الموت من القوة الغريزية التى تكون فيهم ، ولذلك ترى الناس فى الشرق والغرب يفرحون وتنشرح أفئدتهم بما يسمعون من عجائب مريم وعيسى وموسى ، وترى الأطفال والنساء والجهال جميعا فرحين بذلك نشطين لسماعه ، وليس ذلك فى الأرض موضوعا عبثا كلا ، وإنما ذلك لأنه كامن فى نفوسهم سائغ فى فطرهم أن القوة فى عالم الأرواح فلما أن برزت على يد الأنبياء دهشوا له وحنوا وطربوا .

فوائد المعجزات فى التربية الحديثة

ولقد جاء فى كتاب أميل القرن التاسع عشر الشارح للتربية التى يجب أن تكون عليها الأمم والأجيال أن أمة الإنجليز يدرسون للصغار فى المدارس ولصغار العقول من الجهلاء حكايات الجن والعفاريت والخرافات صباحا ومساء ويصنعون لهم الروايات كمسألة الفتاة التى طلبت من والدها ثوبا كالشمس وثوبا كالقمر ولبست جلد الحمار واختفت عن الأبصار وتوارت عن الناس وغابت ، وأورد كثيرا من الأمثلة على ذلك وعاب أمته الفرنسية قائلا : إنها ظنت أن تلك الخرافات باطلة ، والحقيقة أنها موسعة للقوة المخيلة فتتسع القرائح ويكبر الخيال ، وليس يجوز للمعلم أن يقول لهم هذا غير حق بل يتركهم فرحين مستبشرين ولا يدخل عليهم الحزن والكدر بإظهار الحقائق واضحة جلية ، فإن عاشوا جاهلين فقد انتفعوا وإن تعلموا العلوم الرياضية والطبيعية أزالت ماعلق بالأذهان من الخرافات ومحصت الحقائق بعد أن تكون الأذهان قد استعدت لتلقيها ، ذلك ماجاء فى كتاب (أميل القرن التاسع عشر) الذى ألفه عالم فرنسى ينصح أمته أن ترقى التعليم فتبتدئ بالخرافات ، وتنتهى بالحقائق بالرياضيات والطبيعيات فيكمل العقل ويتم .

العلامة جوستاف لوبون

ولقد خفيت هذه الحقائق الكاملة على العلامة جوستاف لوبون (الفرنسى) الذى قد انتشرت تعاليمه فى الجمهور المصرى . إن الرجل ينظر بعين واحدة ، ولقد وقف فى الطريق فهو يكره المدنية الحديثة ويكره المادة ويكذب علم الأرواح ويكذب الديانات لأنه نظر بعين واحدة ، ومن قرأ كتبه أصبح فى حيرة شديدة ، ألم تر إلى قوله فى كتابه روح الاجتماع ناقلا عن العالم (فوكرو) أحد رجال الثورة فى تقريره إذ ذاك ونقله عنه (تاين) قال (إن ماهو مشاهد فى كل مكان من إقامة صلاة يوم الأحد والتردد على الكنائس يدل على أن مجموع الفرنسيين يطلب الرجوع إلى عاداته الأولى ولم يعد فى الإمكان مقاومة هذا الميل فى الأمة لأن السواد الأعظم فى حاجة إلى الدين وإلى العبادة وإلى القسيسين ، ومن خطأ بعض فلاسفة العصر الحاضر ـ وهو خطأ وقعت فيه أنا أيضا (القول بإمكان إيجاد تعليم عام لإزالة الأوهام الدينية لأن فى الدين سلوانا للمساكين) وأطال فى ذلك .

ولقد علمت أيها الذكى أن التعليم والتربية سبيلهما مايوسع الخيال بحسب التعليم الحالى وأعظم مناهجه فكان (جوستاف لوبون) ومن نحا نحوه قد نظروا بعين واحدة فظنوا أن الغرائب التى فى الديانات جاءت عبثا ، ولقد علمت أيها الذكى أنها فى طبيعة الأرواح وثانيا توسع الخيال والعلوم والطبيعة تهذبه فيما بعد ، ولذلك ترى علماء (البيداجوجيا) أى فن التعليم على الوجه الأكمل قد أوجبوا أن تكون الحكايات الخرافية لاتساع الخيال ، فما بالك إذا كان مايوسع الخيال جاء حقا على ألسنة الأنبياء الصادقين .

نتيجة هذا المقال

إن الناس لابد لهم من العجائب والغرائب كما رأيت فى أقوال علماء أوروبا ، وكما ترى فى بلادنا الشرقية من الحكايات التى اخترعها الناس فى الأزمان الغابرة من أعمال عنترة العبسى وحكايات الغيلان والشاطر محمد وأمثالها ، وهذه إن أضرّت من وجه نفعت من آخر ، ثم يكون علم الطبيعيات والرياضيات منظما للعقل ، وأما الجاهلون فهم على كل حال جاهلون .

والقرآن الكريم جاءت فيه تلك العجائب لاعلى سبيل الخرافة بل على سبيل المعجزة وهى تؤدى الغرض من توسيع الخيال ، ثم ترى فيه النظر فى الأرض والسماء والعجائب الطبيعية كما ترى فى مسألة حشرة العنكبوت وأنها لها ألف ثقب فى جسمها من كل ثقب يخرج خيط . فهذه حقيقة أشبه بالخرافات والأعاجيب ، فإذا اتسع الخيال فى الصغر بالعجائب ، وورد فى الكبر منهل العلوم الحقيقية تقبلها بشوق ، ووجد فيها من العجائب مايفوق ما كان يقرؤه بلا تحقيق ولا تدقيق ، فعلى هذا يكون القرآن معلما لسائر الأمم والأجيال . جمع بين مايوسع الخيال بالمعجزات وما يصقله من العلوم الطبيعية ، وهذه هى الحقيقة الناصعة التى ألقيت فى فؤادى ، وشرح لها صدرى ، ولم أكن أنا الملق لها بل الخاطر الهاجم على الفؤاد ، ولعمرى ما كتبت سطرا من هذا إلا والإلهام مبدؤه (وإلى الله عاقبة الأمور) اهـ .

اللطيفة الثانية : تفصيل الكلام فى قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربه) الآية

اعلم أن فى الإنسان قوة عظيمة يسمونها المغناطيسية الحيوانية . يقول علماء العصر الحاضر كما رأيته فى كتاب (راجايوجا) الهندى المترجم إلى اللغة الانجليزية ، وفى كتاب انجليزى أيضا يسمى (قواك وكيف تستعملها) إن الإنسان متى وجه فكره لأمر توجيها تاما موقنا بنجاحه صادقا فى عزيمته صارفا كل همه إليه نال ذلك الأمر لامحالة ، ولهم فى ذلك طرق يستعملونها وسبل يسلكونها ، وفى الكتاب الثانى مايفيد أن ساعة يجمع الإنسان فيها فكره نحو القصد الذى قصده خير من أيام يقضيها فى العمل لحاجته بلا توجيه قلب ، وهذا سر قوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى » وسر قوله تعالى (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وسر قوله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى « أنا عند ظن عبدى بى » وسر قوله صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة » .

ولقد رأيت فى الفتوحات المكية لمحيى الدين بن عربى مايفيد هذا المعنى قائلا ماملخصه (لم أر إنسانا كملت إنسانيته وعظمت همته وفاقت عزيمته كزكريا ؛ فإنه لما رأى مريم وصفتها وهى سيدة النساء عفيفة تمنى أن يكون له ولد فدعا الله متوجها توجها تاما حاضرا فكره فيما تخيله فى مريم فرزق يحيى فجاء على صفات مريم إذ قال الله فيه (وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) فانطبقت صفاته على الصفات التى تمناها مما شاهد فى مريم) فالأستاذ محيى الدين بن عربى يطابق كلامه ماورد عن الأمم الأوروبية والهندية فى العصر الحاضر وكل مايدور على محور هذه الآيات فتعجب من العلم والحكمة ، وزد عجبا من القرآن الذى امتلأ حكمة وعلما فى غضون القصص . وفى أثناء الحكايات عن الأمم السالفة والأجيال الفائتة ،ولقد قال مؤلف كتاب (قواك وكيف تستعملها) .

إن أفكار الإنسان لها أثر كلى على ظاهره فمن أحس أنه من العلماء أو من التجار أو من العامة أو من السوقة لبس ملابسهم وتزيا بزيهم وسار مسيرهم ودرج فى طريقهم .

فالفكر أبرز مكنونه على ظواهر الجسم وألبسه لباسه ، ويقولون أيضا إن كل فكرة تشعر بها كعز أو خذلان واستضعاف يكون لها أثرما فى الجو المحيط بنا ، وفى الأثير المالىء للكون فتسير مسير الكهرباء وتطير

كما يطير البرق وتخمد القوى المساعدة وتمطل النفوس العاضدة . هكذا يقول ذلك المؤلف ، وضدّها تتميز الأشياء ، فلو أن امرأ امتلأ قلبه بالآمال موقنا بالنجاح أثر قلبه فيمن حوله ، وإن كان لاينطق بذلك وشرط المؤلف أن يجتنب الطالب الشرور والجدال، وما لافائدة فيه حتى تعتدل الروح فتؤثر فى الجو الذى يحيط بها.
أقول: وهذا الكلام وإن كان لادليل عليه جدير بالتفكير فيه ، فإن النتائج التى يراها من سار على الدرب تصدّق تلك المقدمات فلا تصديق إلا بالتجربة .

ويقول هؤلاء : أشعر قلبك السرور دائما ، واطرد عنه كل فكر يوقع فيه غما وحزنا كتذكار النوائب الفائتة والمصائب الماضية ، فكل فكرة محزنة يعاقب عليها المرء بما يماثلها ، فكأن المصائب والرزايا تحل فى القلوب التى تجد فيها مرعى خصيبا .

فأما القلب الذى ترعرعت فيه ناضرات الحدائق المزهرة وباسقات أشجار السرور المبهجة ، فذلك يجلب إليه ماكان من جنسه من المسرات وما يليق له من السعادات ، وإن ورد عليه مايحزنه ألبسه لباس الجمال ، وتوّجه بتاج البهجة وفعل به مافعلت النحل بما هجم عليها من الحشرات ، فإنها كما تقدم قريبا تقتله وتحنطه بصمغ كما كان يحنط قدماء المصريين موتاهم فتكفى شر ذلك الهاجم حيا وميتا فهكذا ذلك القلب الجميل يكسو ماحلّ به من المصائب جلابيب من العلم مصنوعة من النور منسوجة من الجمال مخيطة بالحكمة ، فلا يذكر إلا الجمال والبهجة ويسير فى طريقه ناجحا فى عمله وذلك جزاء الصابرين المفكرين العاملين اهـ .

اللطيفة الثالثة : (قال آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا)

اعلم أن حفظ العواطف فى القلب وكتمان مايريد الإنسان النطق به شديد على النفس ، ولم ينل العلم والحكمة وقضاء المصالح إلا أولئك الذين يحفظون قوتهم المغناطيسية فلا يبذرون فيها ، وإن أردت المزيد ، فارجع إلى هذا المقال فى سورة البقرة عند تفسير قوله تعالى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وذلك مما نقلنا عن علماء الجمعية النفسية بأمريكا ، فذكر الله هنا أن زكريا أخبره الله : أنه لايكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ، ليتوفر على شكر الله عز وجل وانحباس النفس عن شهوات الكلام المضيعة للقوة الروحية العظيمة ، وذلك من عجائب العلم .

ومما قاله علماء الجمعية النفسية المذكورة : لاتدع مجالا لتيار الرغبة والشهوة أن يفلت من يديك ولاتحقق تلك الرغبة لتكون قوة لك تنضم إلى أخواتها فتكون قوى الجذب النفسى لغيرك وما مثل الآراء والأفكار المحبوسة فينا إلا كمثل الحمام إذا حفظناه جذب غيره إلينا ، وإن أفلتناه من أيدينا انطلق ، ولم تكن لنا فائدة به فيحظى به غيرنا ، فإذا رغبت أن تدهش غيرك بأخبار عجيبة ، ورأيت نفسك طامحة لذلك فاسكت . فهذه قوة تحفظها لنفسك ، فإذا حققت ذلك أضفته إلى مافيك من قوة المغناطيسية فاكتم عن أصدقائك ما لاقيمة له من الأخبار . واعلم أن هذه القوى فى نفسك كالماء الجارى فى النهر كلما سددناه وحفظناه انتفعنا به ، وكلما تركناه زال عنه نفعه والرجل الساكت الهادى يزيد إعجاب الناس به . فهذا القول من علماء النفس وأمثاله من أقوال علماء الإسلام فى فضل الصمت يدهشنا أن الآية ترمز إليه وأن السكوت من القوى الشريفة النفسية الحافظة لقوانا ، وهذا من عجائب القرآن .

اللطيفة الرابعة : (إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم)

اعلم أن علماءنا المفسرين قال كثير منهم: إن فى قول عيسى فيما تقدّم (وجئتكم بآية من ربكم) أن تلك الآية هى قوله تعالى (إن الله ربى وربكم فاعبدوه) وبينوا كونها آية مما ذكرناه من أن كل دين راجع إلى العلم والعمل ، فالعلم رمز له بالوحدانية ، والعمل رمز له بالعبادة .

كأن المسيح عليه السلام يقول : أنا لم آت لكم ببدع فكيف تكذبون أن ماجئت به علم وعمل ، وهكذا شأن الأنبياء ، أما السحرة ومستخدمو الأرواح والدجالون ، فهؤلاء لايهمهم العلم ولا العمل ولاهداية الناس ، وإنما نحن معاشر الأنبياء جئنا لهداية البشر اهـ .

(أقول): اعلم أيها الذكى أنى لاأريد من هذا التفسير إلا ارتقاء عقلك وسمو فكرك ونبوغ قواك وشرفك، فلتعلم أن المسيح وأمه لم يذكرا فى القرآن لمجرد الإيمان ولا للتاريخ وإنما هما عظة، ومثل لنا أن عيسى ومريم قد ذكرهما الله عفيفين زاهدين مبرأين من الشيطان ، ومن المادة التى غمرتنا ، وكان عروجهما إلى الملإ الأعلى وإلى الله ليكون ذلك القول داعيا إلى أن تفكر فى نفسك أن العالم الإنسانى من أصل روحى ، وجهاده فى الدنيا ليخرج يوما ما من سجنها إلى فسيح الجنان ، ثم عالم الملائكة والأرواح المجردة . لذلك تراه سبحانه يذكر عيسى ومريم رمزاً لذلك ، وعيسى عليه السلام رفعه الله من الأرض فصار مع الملائكة فلتجد فى العلم والحكمة حتى تصير فوق هذه الأرض وتعشق الخروج من سجن المادة فإنك يوما ما ستكون (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) مع عالم الملائكة، فأنت إذا كنت فى الدنيا بشرا بالفعل فإن فيك القوة الملكية ، وإياك أن تظن أن قولى مبالغة أو مجازفة أو خروج عن أقوال علمائنا ؟ كلا ، وإن أردت البرهان فارجع إلى ماذكره الفخر الرازى ، وأيده بأقوال الإمام الغزالى فى تفسير سورة النازعات . قال : إن نفس الميت تنزع إذا كان فى سياق الموت ومعنى غرقا نزعا شديدا أبلغ ما يكون وأشد من إغراق النازع فى القوس ومعنى تنشط تخرج ثم إنها تسبح وتسبق سبقا إذا كانت مشتاقة للعالم الأعلى زاهدة فى العالم الأدنى . فأما الجاهلة والنائلة فهى محبوسة ، فإذا وصلت إلى المنتهى ظهرت لها آثار فى أحوال هذا العالم فدبرته فهى المدبرات أمرا كما تدبر الملائكة، وضرب لذلك أمثلا كثيرة ضربنا عن ذكرها صفحا مشاكلة لما ظهر فى علم الأرواح الحديث القائل: إن الأرواح العالية فى هذه الأرض ترتقى فى عوالم الجمال طبقا عن طبق ، وفى كل عالم تصل إليه يكون عدتها فيه ما كسبت من العلم والعمل إذ يصبح غريزة فيها وتكسب غيره ، وهكذا حتى تصل إلى عالم الأرواح الخالى من المادة فتكون من المدبرات ، إن العلم لعجيب ، ووالله ماقصر قدماؤنا الأول ولقد ورثونا علما أصبحنا نأخذه عن أوروبا لجهلنا بآثار آبائنا الأولين .

واعلم أيدك الله أن قول عيسى إن آية صدق أن الديانات كلها لغرض واحد وهو العلم والعمل أشبه بما جاء فى قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) فلأورد لك جملا وجيزة من كل دين عرفناه لتكون واقفا على حقائقها لأنك من أمة قال الله لها (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) فلتنظر فى ديانات الأمم وعلومها لتعلم أن الديانات متحدة فى معناها ، وإن اختلفت فى مبناها وإذن تعرف سر القرآن فلم يكن الله بغافل عن السابقين ولا بمضيع للحاضرين .

(١) كتاب الفيدا

أصل ديانة الهنود التى هى أقدم من دين البراهمة يتركب من أربعة أسفار وهى : الريجفيدا ، والساماڤيدا ، والياجورڤيدا ، والآثارڤيدا وهى أسفار الهنود المقدّسة قال فيها الله القيوم بذاته والموجود فى كل الكائنات التى لايمكن أن تصيبه الحواس المادية بل الأرواح ، وهو المنزه عن هذه المادة وهو أزلى سر مدى وهو روح الكائنات الذى لايمكن لعقل أن يدركه على ماهو عليه . هذا من القسم العلمى .

القسم العملى

إن الصبر ومقابلة الإساءة بالإحسان والقناعة والاستقامة والطهارة وكبح جماح الحواس ومعرفة الكتب المقدّسة ومعرفة الله والصدق واجتناب الغضب هى الفضائل العشرة التى تجب على الإنسان .

(٢) دين خرستا

خرستا ظهر سنة ٤٨٠٠ قبل الميلاد ، وتاريخ حياته كالمسيح وأمه عذراء ورفع إلى السماء ، وهكذا حذو القذة بالقذة ودينه أشبه عن قبله بعلم وحدة الله ، ويقول من رام بلوغ الكمال فليطلب علم الوحدة التي هي أصل الحكم ليصل إلى الله ، وقال إن في باطننا نوراً إلهياً ، والنفس التي وحدت الله تنتشل من أسر الطبيعة وذم الغضب والحسد ، وقال إن الفضائل مقوية للنفس .

(٣) دين بوذا

قبل ظهور الدين المسيحي بنحو ٦٠٠ سنة ظهر بوذا ساكيوماني وهو ابن ملك ، ولما بلغ من العمر عشرين سنة تأمل في شعبه ، ورأى البراهمة اتحدوا مع الملوك وأذلوا الشعب الهندي بتعاليمهم ذهب إلى الغابات فصرف فيها سنين ، وعاد وله من العمر ٣٥ سنة ، وأخذ يزلزل مابناه البراهمة من الحواجز بين الشعب فاتبعه أهل الهند وأهل الصين واليابان وخلافهم ، ويتبع هذا الدين ثلث المعمورة وتعاليمه علم وعمل .

فالعلم يقول فيه : إن الشهوة هي التي تربطنا بالمادة ، والشر الأعظم هو الجهل ومنه يصدر العذاب والشقاء ، والعلم يجب أن يشمل مانرى ومالا نرى ، والبحث في الإنسان واستقصاء مصادر الأشياء وأسبابها ، ولابد من الحب مصحوبا بالعلم فتعشق النفس العلم لتخرج من هذه المادة .

أما العمل فهو يقول في وصايا، العشر : لاتقتل، لاتسرق، كن عفيفا، لاتشهد بالزور، ولاتكذب، لاتملق، تجنب كل كلمة نجسة، كن خالي الغرض، لاتأخذ بالثأر، لاتعتقد اعتقادات باطلة؛ وهو يحض على قهر النفس ، وعلى الشفقة على سائر المخلوقات .

ومن كلامه (أنا بوذا الذي بكيت لبكاء إخوتي وانسحق قلبي لحزنهما أصبحت اليوم ضاحكا مسرورا ، لأن الحرية موجودة .

كل مانحن عليه نتائج فكرنا وأحوالنا عليه مؤسسة ، ولابد للإنسان أن يعود فيحصد مازرع ، وأتم مايوصى به العلم والمحبة) اه .

(٤) دين قدماء المصريين

أما ظواهر الدين المصري فشهورة بين الناس فهي كلها أصنام وآلهة حجرية وحيوانية ووصاياهم العامة كانت في صلواتهم . هكذا يقولون إن النفس يوم القيامة تقف أمام ٤٢ قاضيا حاويا ، وتقول أيها الإله العظيم ورب الحق أتيت ملتمسة لنعمتك وإني أعرفك وأعرف اسمك وعرفت أسماء الاثنين والأربعين إلها الجالسين معك في ديوان الحق لمعاقبة الأشرار ، ثم تقول الروح امحوا ذنوبي ، فإني لم أرتكب شرا ضد قريبي ولا أحزنت أحدا ولا حملت العامل من الشغل فوق طاقته ، لم أكسل ، لم أخطئ ، لم أسبب البكاء لأحد ، ولا وشيت بالأسير أمام سيده ولا قتلت ولا أسأت أحدا ، لم أطفف الكيال ، ولم أغبن في الوزن ولا أخرجت اللبن من فم الرضيع ولا اقتنصت الوحوش من مراعيها ، وهذه هي الصلاة التي إن صدق فيها الإنسان أمام القضاة نجا ، وإن أخطأ هوى إلى العذاب هذا ماعند العامة (وأما حقيقة الإله عند الخاصة فهي هذه) :

رؤيا هرمس

كان عند المصريين سر لايطلع عليه إلا أكابر العلماء وأصحاب السر رؤيا منقوشة بالكتابة الهروغليفية في المعابد ، وكان يتناقلها الأحبار شفهيا ، وهي :

رأى هرمس وقت الانعطاف الكون والعوالم وانتشار الحياة في كل صقع ، فسمع قائلا في وسط النور يقول :

إن النور الذى رأيته هو نور الله الذى أشرق على كل شىء ، وأما الظلمة فإنما هى العالم المادى الذى يعيش فيه الناس، وروح الإنسان: إما أن تكون أسيرة فى المادة ، وإما أن ترق فى النور وجميع الأوجاع والآلام والمصائب تجعلها نيرة فتطير إلى العلا من الظلمات إلى النور. فثبت قلبك إذن ياهرمس حين ماترى الأرواح صاعـــدة فى معارج الأفلاك العلوية توصلا إلى الله ، ثم سبحت الأفلاك السبعة هاتفة : الحكمة . الحب . العدل . البهاء . العظمة . العلم . الخلود .

ثم يقول الحبر لمن أتم امتحانه: اعلم يابنى أن ناموسا نظاميا واحدا يدبر كل شىء لايجوز أن تنال الحقيقة الضعفاء لئلا يستعملوا بها الشر فلتعلم ولتصمت اه فحينئذ يكون دينهم التوحيد عند الخاصة والإشراك عند العامة .

(الخامس) دين (يو) الكبير قبل المسيح بألفى سنة بالصين .

(السادس) ليونسو سنة ٥٩٠ قبل الميلاد بالصين ، وعاش ٧٣ سنة وكان دينه كدين بوذا .

عقائد هذين النبيين وغيرهما فى الصين كما نقل عن الجريدة الفرنسية المطبوعة فى مدينة ليون سنة ١٨٦٥ عن الكتب المقدسة للصينيين نشرت قبل المسيح سنة ٢٨٠٠ (تيس) هو الرب العظيم .

ذو علم غير متناه وأينما توجهت فهو حاضر هو غير متناه لايحابى بل يجود بنعمه يجب استعمال الرحمة يعتنى بالأرض حاضر فيها دائما الملائكة فوقنا وتحتنا وعن أيماننا وعن أيسارنا . نريد أن نراهم فلا نقدر لأنهم فى غاية اللطافة يتراءون للأحياء نادرا، إن الأرواح تسر بالقلب الخالص، إن للأموات الفضلاء مكانا فى السماء.

هذه هى الديانات المنتشرة اليوم ، وفى الأيام السالفة فى أهم بقاع الأرض ، فانظر كيف اتفقت كلها على التوحيد ولا إشراك إلا عند العامة لأنهم لايقدرون أن يتصوروا إلها لايرى ، وانظر كيف يجمع علمهم كله فى كلمتين المعرفة والعمل ، وكانت الديانات كلها دينا واحدا فى جوهرها، فأما الخلاف فراجع إلى الظواهر التى تكسى بها تلك الديانات فصح حينئذ أن يكون قول المسيح (إن الله ربى وربكم فاعبدوه) آية من آيات الله تعالى لأنها ملخص الديانات ، وكذلك نفهم أيضا قوله تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله) فهذه هى الديانات كلها، وما اليهودية والنصرانية بخارجتين عما تقدم (ولله الأمر من قبل ومن بعد) وإنى لأرى كأن النوع الإنسانى يتسابق إلى ربه يعرج إليه فوجا بعد آخر ، ومن لم يدرك بقى فى سجن الجهالات وجهنم الذل والهوان (والله يهدى من يشاء) .

تفصيل الكلام على قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم الخ) وعلى الأناجيل وعددها

لأقدم لك مقدمة فى الأناجيل لتقف على الحقيقة التاريخية لها ، ثم أخص إنجيل برنابا بالنقل لأنه يوافق القرآن فأقول :

اعلم أن المسيح اختار أتباعه من ضعاف الناس وهم الصيادون فى بحيرة طبرية كأنه يقول : أيها الناس إن تعاليمى لايعوزها ذكاء خارق للعادة (وبعد موته) أخذ الرسل يبشرون بتوحيد الله وبالمحبة ويرمزون إلى طهارة النفس من الذنوب بماء المعمودية التى أخذت عن الأسونيين فانتصب إذ ذاك بولس وهو فرنسى يعرف اللغة اليونانية ولم ير المسيح قط فادعى أنه أخذ الدين عنه وصار يخاصم بطرس ويوحنا ، فانقسم النصارى فريقين : فريق يتبع الرسل وفريق يتبع بولس ، وذلك بعد المسيح بعشر سنين ، ثم تمرد اليهود على نيرون الرومانى فأرسل لهم (نسبا سيانوس) الرومانى . ثم ابنه طيطس يقود الجيوش وانتهى الأمر بافتتاح أورشليم سنة (٧٠) ب.م وخرب الهيكل وتفرق اليهود مشتتين ، ومات الرسل ماعدا يوحنا وفيلبس وانحلت الرابطة وتفرقوا شذر مذر واختلطت تعاليم المسيح بالفلسفة اليونانية المنتشرة إذ ذاك لاسيما بالإسكندرية ، ولما كان تلاميذ المسيح لاقدرة لهم على المجادلة تغلبت الفلسفة اليونانية على تعاليمهم .

وفى أثناء هذا الاختلاط والشاغبة نشأت الأناجيل فى أواخر القرن الأول ، وما الأناجيل إلا مجموع روايات منقولة فى الأصل عن الرسل .

وقد كانت هناك أناجيل كثيرة فى القرن الأول والثانى ، واختير أربعة ورفض الباق ، وقد أحصى من الشوذ فابرسيوس (٣٥ إنجيلا) مثل : إنجيل ماربطرس وإنجيل المصريين وإنجيل حياة يسوع وإنجيل مارتوما وإنجيل مار اندراوس وإنجيل مار برتلماوس وإنجيل قرشيه وإنجيل ڤالشينوس وإنجيل السيمونيين وإنجيل يهوذا وإنجيل برنابا وإنجيل السريان وإنجيل العبرانيين وإنجيل النصارى وإنجيل نيقوديموس ؛ ولم يبق من هذه الأناجيل إلا أسماؤها ماعدا إنجيل برنابا الذى ظهر فى هذه الأيام ، ويرجح العارفون أن اختيار الأناجيل الأربعة المنسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا القائمة بين النصارى تمت فى منتصف القرن الثانى المسيحى .

وقد قال العلم ساباتيه رئيس الدروس العليا فى مدرسة السربون : لما تعذر على الكنيسة معرفة المؤلفين الحقيقيين للأناجيل اضطرت إلى القول الإنجيل حسب متى أو حسب مرقس وهكذا .

ولقد لام شيلسوس الفيلسوف فى القرن الثانى النصارى فى كتابه المدعو الخطاب الحقيق على تلاعبهم بالأناجيل ومحوهم فى الغد ما أدرجوه بالأمس . وفى سنة ٣٨٤ م أمر البابا داماسيوس أن تحرر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والحديث تعتبر قانونية فى الكنائس ، وكان تيودوسيس الملك قد ضجر من المخاصمات الجدلية بين الأساقفة وتمت تلك الترجمة التى تسمى (فولكاتا) وكان ذلك خاصا بالأناجيل الأربعة متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وقد قال مرتب تلك الأناجيل (بعد أن قابلنا عددا من النسخ اليونانية القديمة رتبناها بمعنى أننا نقحنا ماكان فيها مغايرا المعنى وأبقينا الباقى على ماكان عليه) .

ثم إن هذه الترجمة قد ثبتها المجمع (التريدنتينى) سنة ١٥٤٦ أى بعدها بأحد عشر قرنا ، ثم خطأها سيستوس الخامس سنة ١٥٩٠ وأمر بطبع نسخ جديدة ثم خطأ كليمنضوس الثامن هذه النسخة الثانية أيضا وأمر بطبعة جديدة منقحة هى الدارجة اليوم عند الكاثوليكيين .

لعمرى لقد لخصت لك أيها الذكى تاريخ الأناجيل من الكتب خالصا سائغا للشاربين ، ولقد كنت قبل الآن أود أن أكون على علم بهذه الجملة الوجيزة ، لأن معرفة الحقائق سعادة فأنا اليوم أعرفها معك لتبتهج بالعلم والمعرفة معا ، ولترى أيها الذكى كيف كان هذا الإنسان مسكينا مسخرا للتقاليد واتباع السير على ماسمعه من أساتذته وشيوخه وهو وهم ساهون لاهون مساكين ، ولعمرى إن هذه شنشنة سارت عليها الأمم قديمها وحديثها ولا تستثن أحدا ، كيف لا وأنت ترانا نحن المسلمين وإن لم نغير كتابنا قد غيرنا المنهج الذى يطلبه والصراط المستقيم الذى سنه ؟ ألم تر رعاك الله كيف حض على النظر فى العالم والتعقل والتفكر فعرف هذا ساداتنا وآباؤنا فى العصور الأولى ، ثم خلف من بعدهم خلف ناموا على الوضوء والنجاسة والبيع والفرائض وأغمضوا عيونهم (إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) .

فالمدار على تغيير مابالأنفس لاعلى تغيير الكتاب المقدس . كان المسيحيون قبل ظهور بولس موحدين صادقين يدعون للمحبة ، فلما جاء بولس كثر الخلاف وبعد ذلك طرد اليهود نيرون من أرضهم فتفرقوا شذر مذر وغير الإنجيل . فأما نحن معاشر المسلمين فإن ديننا سهل ، وكان القرآن فى العصور الأولى يحث على التعقل ، ثم انحصرت العقول وأسدل عليها حجب من الجهالة والتعصب والعمى . فداستنا الأمم وانقدنا لها كارهين ذلك لتغيير طرق الفكر لالتغيير الكتاب ، وسيكون هذا التغيير وتعاليم أخرى تظهر على يد فضلاء من المعاصرين لنا فى الإسلام سببا فى انتشال الأمة من وهدتها ورجوع وحدتها (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) اه القول فى الأناجيل والاتعاظ بما حدث فيها . فلنفصل الكلام على مسألة الصلب وإنجيل برنابا .

إنجيل برنابا ، ومسألة الصلب

لقد قدّمت لك الكلام على إنجيل برنابا فى سورة البقرة عند قوله تعالى (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) وذكرت لك هناك أن ما ذكره أسلافنا رحمهم الله نقلا عن التوراة قد حذف منها الآن ولم يبق له رسم ولا اسم ، وقلت إن الأناجيل الأربعة هى التى بين أيدى الناس اليوم وإنجيل برنابا يوافق القرآن ، وقد فهمت من هذا المقال الآن ماحصل من نبذ جميع الأناجيل الباقية منذ القرن الثانى ، ولايعرف الناس عنها شيئا ، أفليس من العجب أن يكون هذا التفسير أكثر حظا وأوفر سعادة بظهور إنجيل برنابا فى هذه الأيام ، وأنه ربما انعدم من الوجود قريبا لأن حكومة البلاد تحت أمر الانجليز وهم وجميع الأوروبيين لهم السلطة فى أكثر بلاد الإسلام ، ولقد منع نشره بين الجمهور الآن فلأثبت لك مافيه الآن أيها الذكى وهو أمامى ، ولتقرأه مطلعا على مافيه والفرصة سانحة ، فأقول :

رفع المسيح إلى السماء وصلب يهوذا وأنه شبه به ولم كان هذا العقاب

ولألخص لك ما فى الفصل الثامن بين المائتين ومابعده من الإنجيل المذكور . قال « الحق أقول إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذى يجب أن يأتى من سلالته (مسيا) الموعود به إبراهيم أن به تتبارك كل قبائل الأرض »

فلما سمع هذا رئيس الكهنة حنق وصرخ (لنرجم هذا الفاجر لأنه إسماعيلىّ وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله) فقام الناس ليرجموه ، فاختفى يسوع عن أعينهم وتبعه المؤمنون إلى بيت سمعان ، ثم ذهب هو والذين دعاهم رسلا فقط إلى بيت نيقوديموس وبستانه وراء جدول قدرون ، وفى ذلك الوقت كانت العذراء مريم تصلى فأخبرها جبريل بما أصاب ابنها وبشرها بأن الله سيحميه من العالم ، فانطلقت مريم باكية تطلب ابنها فلم تدر أين هو .

فتوجه رئيس الكهنة إلى هيرودس وإلى الوالى الرومانى متهما يسوع أنه يريد أن يجعل نفسه ملكا على إسرائيل ، وأحضر لذلك شهود زور .

وقد كان الوالى الرومانى يعطف على المسيح فهدّده هيرودس أنه يتهمه بالعصيان أمام قيصر فى ذلك الوقت قال المسيح فى بيت نيقوديموس لقد دنت الساعة التى أنطلق فيها من هذا العالم ، ثم أخذ يدعو الله ؛ ومن دعائه : « أيها الرب الإله اذكر قبائل الأرض كلها التى قد وعدت أن تباركها برسولك الذى لأجله خلقت العالم ، ارحم وعجل بإرسال رسولك لكى لايسلب الشيطان عدوك مملكته » فأجابوا كلهم آمين خلا يهوذا لأنه لم يؤمن بشىء صفحة ٣١٠ .

وجاء صاحب المنزل فأخبر يسوع بكل ما أمر هيرودس والوالى ورئيس الكهنة ، ثم قال يسوع ليهوذا (إن وقتى قد دنا فاذهب وافعل مايجب أن تفعله) فظن التلاميذ أنه يشترى شيئا ليوم الفصح ، ثم أخذ المسيح يقبل أرجل تلاميذه ، ثم قال يسوع إن واحدا منكم سيسلمنى فأباع كخروف ، فذهب يهوذا وأخذ من رئيس الكهنة ثلاثين قطعة من الذهب ليدل على المسيح ، وقدم الجنود مع يهوذا فلما سمعهم المسيح انسحب إلى البيت خائفا ، وكان الأحد عشر نياما ، فأخذ جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل يسوع من العالم ، فحملوه ووضعوه فى السماء الثالثة فى صحبة الملائكة يسبحون إلى الأبد ، فدخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التى صعد منها المسيح فتغير يهوذا فى النطق وفى الوجه فصار شبيها بيسوع . قال برنابا حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم . لذلك تعجبنا وأجبنا أنت ياسيد هو معلمنا أنسيتنا الآن . أما هو فقال متبسما هل أنتم أغبياء حتى لاتعرفوا يهوذا الأسخريوطى ، فدخلت الجنود وألقوا بأيديهم على يهوذا لأنه كان شبيها بيسوع من كل وجه . قال برنابا أما نحن فلما سمعنا قول يهوذا ورأينا جمهور الجنود هربنا كالمجانين

ثم قال : فأخذ الجنود يهوذا وأوثقوه ساخرين منه لأنه أنكر وهو صادق أنه هو يسوع ، فقال الجنود مستهزئين به (ياسيدى لاتخف لأنا قد أتينا لنجعلك ملكا على إسرائيل وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة) فأجاب يهوذا لعلكم جننتم إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا يسوع الناصرى كأنه لص أفتوثقوننى أنا الذى أرشدتكم لتجعلونى ملكا فأخذوا يضربونه ويرفسونه وقادوه إلى أورشليم ؛ ثم إن يوحنا وبطرس تبعا الجنود ، وشاهدا الجموع الذين اجتمعوا لقتل المسيح فتكلم يهوذا كلمات جنون كثيرة والناس يضحكون من قوله معتقدين أنه هو يسوع ، وأنه يتظاهر بالجنون خوفا من الموت ، ولذلك عصب الكتبة عينيه بعصابة وقالوا له مستهزئين (قل لنا من ضربك ولطموه وبصقوا فى وجهه) وطلب رئيس الكهنة ومن معه شاهد زور على يهوذا معتقدين أنه يسوع فلم يجدوا مطلبهم . قال برنابا (ولماذا أقول إن رؤساء الكهنة اعتقدوا أن يهوذا يسوع بل إن التلاميذ كلهم مع الذى يكتب اعتقدوا ذلك حتى إن حزن كل واحد كان يفوق التصديق . لعمر الله إن الذى يكتب نسى كل ماقاله يسوع من أنه يرفع من العالم ، وأن شخصا آخر سيعذب باسمه وأنه لايموت إلى وشك نهاية العالم لذلك ذهب (الذى يكتب) مع أم يسوع ومع يوحنا إلى الصليب).

فأمر رئيس الكهنة أن يؤتى بيسوع موثقا أمامه وسأله عن تلاميذه . فكان جميع قوله يدور حول هذه الكلمة (أنا يهوذا لا يسوع) فأخذوا يضربونه ويرفسونه ثم ألبسوه لباس مشعوذ وأخذوا يعذبونه ، ثم قادوه إلى الوالى الذى كان يحب يسوع سرا، ولما سأله أفهمه: إنى لست يسوع بل أنا يهوذا ولست بيسوع الساحر الذى حولنى هكذا بسحره ، فهمّ الوالى أن يطلقه وقال إن لم يكن المسيح فلا حق لنا فى قتله ، وإن كان هو المسيح فقد جنّ ولا حق لنا فى قتل المجنون . فقال القوم إنه يسوع ولكنه خبيث فأراد بيلاطيس (وهو اسم الوالى) أن يتخلص من هذه الدعوى ، وقال خذوه إلى هيرودوس فلما حضر إليه سأله فأنكر أنه يسوع أيضا ، ثم رده محقرا إلى بيلاطيس قائلا (لاتقصر فى إعطاء العدل بيت إسرائيل) وذلك بسبب أن رؤساء الكهنة أعطوا هيرودوس مبلغا كبيرا من النقود ، ولما صار عند الوالى ألبسه الجند ثوبا قديما من الأرجوان تهكما قائلين (يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوّج) فجمعوا شوكا وصنعوا إكليلا شبيها بإكليل الذهب والحجارة الكريمة التى يضعها الملوك على رؤوسهم ووضعوه فوق رأس يهوذا ، ووضعوا فى يده قصبة كصولجان ، وأجلسوه فى مكان عال ومرّ من أمامه الجنود حانين رؤوسهم تهكما مؤدين له السلام كأنه ملك اليهود ، وبسطوا أيديهم لينالوا الهبات التى اعتاد إعطاءها للملوك الجدد ، فلما لم ينالوا شيئا ضربوا يهوذا ، ثم أعطوا الوالى أيضا عودا فتناولها وأسلم يهوذا للكتبة والفريسيين كأنه مجرم وصلبوه فى جبل الجمجمة عريانا مبالغة فى تحقيره وصرخ يهوذا قائلا (يا ألله لم تركتنى فإن المجرم قد نجا أما أنا فأموت ظلما) قال برنابا (ولقد اعتقد التلاميذ اعتقادا جازما أن يهوذا هو يسوع ، ولذلك ارتدّ كثير منهم عن دينه . أما الذين ثبتوا على دينه فهم كانوا فى حزن شديد لما رأوا أنه هو المصلوب ، وطلبوا جسده من الوالى ودفنوه فى القبر الجديد بعد أن ضمخوه بمائة رطل من الطيوب ، ورجع كل إلى بيته . ومضى الذى يكتب ويوحنا ويعقوب أخوه مع أم يسوع إلى الناصرة ، وذهب من التلاميذ من لم يخف الله ، وسرقوا جثة يهوذا وخبئوها وأشاعوا أن يسوع قام فحصل اضطراب).

فعادت العذراء إلى أورشليم ومعها (الذى يكتب) ويعقوب ويوحنا ، ثم صعد للملائكة فأخبروا يسوع فى السماء الثالثة مع الملائكة وقصوا عليه كل شىء ، فسأل يسوع ربه أن يأذن له أن يرجع إلى أمه لتراه فأذن له أن ينزل مع الملائكة الأربعة ، فجاء محفوفا بالسناء إلى أمه العذراء مع أختيها ومع (الذى يكتب) يعنى برنابا ويوحنا ويعقوب وبطرس خروا من الهام كأنهم أموات . فأنهض يسوع أمه والآخرين من الارض قائلا : (لاتخافوا لأنى أنا يسوع ولا تبكوا فإنى حىّ لاميت) فلبثوا جميعا كالحولين ، فقالت العذراء باكية (قل لى

يا بنىّ لماذا سمح الله بموتك ملحقا العار بأقربائك وأخلائك وملحقا العار بتعليمك وقد أعطاك قوة على إحياء الموتى الخ) أجاب يسوع : (صدّقينى ياأماه لأنى أقول لك بالحق، إنى لم أمت قط لأن الله قد حفظنى إلى قرب انقضاء العالم ، ثم ظهر للملائكة كأربعة شموس وقصوا على العذراء كيف جعل الله يهوذا فى صورة يسوع ليعذب جزاء وفاقا .

حينئذ قال برنابا : يا معلم أيجوز لى أن أسألك الآن كما يجوز عند ما كنت مقيما معنا ؟ . أجاب يسوع : سل ماشئت يابرنابا أجبك . فقال برنابا : إذا كان الله رحيما ؟ فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد أنك كنت ميتا ، ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت ، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة ، وأنت قدوس الله ؟ أجاب يسوع : صدّقنى يابرنابا ، إن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقابا عظيما لأن الله يغضب من الخطيئة . فلذلك لما كانت أمى وتلاميذى الأمناء الذين كانوا معى أحبونى قليلا حبا عالميا أراد الله البرّ أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لايعاقب عليه بلهب الجحيم فلما كان الناس قد دعونى الله وابن الله على أنى كنت بريئا فى العالم أراد الله أن يهزأ الناس بى فى هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أننى أنا الذى مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بى فى يوم الدينونة ، وسيبقى هذا إلى أن يأتى محمد رسول الله الذى متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله ، ثم قال يسوع : إنك لعادل أيها الرب إلهنا لأن لك وحدك الإكرام والمجد بدون نهاية ، ثم أوصى يسوع برنابا وأمره أن يكتب الإنجيل ويظهر الخداع المؤمنين بمسألة يهوذا ، ثم ذهبوا جميعا إلى جبل الزيتون وعانق أمه على محضر من تلاميذه ، وقال: السلام عليك ياأمى توكلى على الله الذى خلقك وخلقنى ، ثم التفت إلى تلاميذه وقال: نعمة الله ورحمته معكم ، ثم حملته الملائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء .

وبعد ذلك بشر بعض الناس بأن يسوع مات ولم يقم وآخرون بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام ، وآخرون بشروا ولا يزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله ، وقد خدع فى عدادهم بولس ، وأما نحن فإنما نبشر بما كتبه الذين يخافون الله ليخلصوا فى اليوم الأخير لدينونة الله آمين انتهى الإنجيل .

هذا ملخص مافى إنجيل برنابا من صفحة ٣٠٤ إلى ٣٢٥ من الفصل الثامن بعد المائتين إلى الفصل الثانى والعشرين بعد المائتين وهو آخر الكتاب .

وانظر أيها الذكى كيف وافق هذا الإنجيل القرآن موافقة صريحة عجيبة إذ يقول هنا (ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا) ويقول فى سورة النساء بعد هذه السورة (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) أفليس هذا هو نفسه عين ماقاله برنابا فى الإنجيل ، وأن المسيح أمره أن يعلن هذا الخ ، ولولا ماذكره العلماء المسيحيون من أن هذا الإنجيل لم يعرف عند المسلمين قط ولم يسمعوه لظن العقلاء أنه تأليف إسلامى فكيف وقد تقدم فى سورة البقرة تاريخ الكتاب وكيفية ظهوره فارجع إليه إن أردت الاستيعاب والصواب ، ثم تعجب من العلم والحكمة ، وانظر فيما ذكرت فى هذا المقال أن الأناجيل الأربعة اختاروها فى القرن الثانى المسيحى ونبذوا ماسواها من الأناجيل والمنبوذ ٣٢ ومنها إنجيل برنابا الذى نحن بصدده ، فلم يكن يعلمه الناس فى زمن بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، وانظر كيف جاء القرآن بما يطابقه ، ولا علم لأحد بما فيه إلا فى هذه الأيام (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) اهـ .

(١) المذاهب المسيحية قديما وحديثا ومذاهب أوروبا وذكر دولها واستقلالهم وتنصرهم

اعلم أن المذاهب فى الدين المسيحى ثلاثة فى الزمان القديم : (١) الملكانية (٢) والنسطورية

(٣) واليعقوبية ؛ فالأولون يقولون بالتثليث للمسيح وأمه والله ، ويقولون إن المسيح ناسوت قديم ومريم ولدت إلهاً أزلياً والأب هو الله وعيسى ابن الله بنوة حقيقية ، والنسطورية يقولون بالامتزاج فالكلمة عندهم أشرقت على جسد عيسى كإشراق الشمس على بلور ، وأما اليعقوبية فيقولون انقلبت الكلمة لحماً ودماً ، فصار الإله هو المسيح ولما تمادى الزمان وانقرضت الأجيال الأولى لم يبق إلا المذهب الأول وهو للملكانية وأصحابه هم (الكاثوليكية) وهي صفة مدح كأهل السنة عند المسلمين ، وأما النسطورية واليعقوبية فلم يبق منهم أحد الآن في بلاد الإفرنج ، وربما يوجد منهم في نصارى الشام ومصر والحبشة ورئيس الكاثوليكية والبابا برومة وهو كالقطب عند المسلمين ، وقد صار البابا سنة مائة وثمانية هجرية رئيساً سياسياً ، وأصبحت ملوك أوروبا تحت أمر الباباوات بعد أمد طويل ، ولما ظلموا للملوك انحطوا في رياستهم إلى سنة ١٢٨٨ هـ أي سنة ١٨٧١ ميلادية . فسقط أمرهم بالكلية ودخل الإيطاليون عاصمة البابا ، ثم إنهم في القرن التاسع الهجري لما تذمروا من البابا وانشقت طائفة فلم يعترفوا برياسته سموهم (بروتستانت) أي مبتدعة كالمعتزلة عند المسلمين ، وهناك فرقة تسمى (أرثوذكس) ببلاد الروسيا فلا يعترفون بالبابا وإن كانوا يوافقون الكاثوليك في كل ماهم عليه .

(وهاك دول أوربا ودينها القديم وزمن استقلالها وحالها قبل الاستقلال وزمن دخولها النصرانية)

الدولة	أصل دينها	أول زمن استقلالها	حالها قبل الاستقلال	دخولها النصرانية
فرنسا	تشبه ديانات الهنود	٤٢٠ ميلادية	تحت ملوك اليونان فالرومان	٤٩٦ ميلادية
الإنكليز	يسجدون للحجارة والماء والصخر	٨٢٧ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	٤٩٦ ميلادية
النمسا	يعبدون الأوثان	٩٨٢ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	نحو السابقين أعلاه
البروسية	يعبدون الأوثان	١٣١٥ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	نحو ماتقدم أعلاه
الدولة الروسية	يعبدون الأوثان	٨٩٢ ميلادية	كانت تتناوبهم دول من أوروبا	٣٧٥ هجرية
دولة إسبانيا	يعبدون الأوثان	٩٠٠ هجرية تقريبا	اليونان فالرومان وبعض ملوك أوربا فالإسلام	كدول أوروبا غير الروسيا
البرتغال	يعبدون الأوثان	١٠٥٠ هجرية	للرومان ولمن بعدهم	كدول أوروبا غير الروسيا

ومثل من تقدم الفلمنك والدانمارك والسويد والنورويج ؛ وأما البلجيك وسويسرا فدخولهما النصرانية كما تقدم وبقية أحوالهما مقاربة لدول أوروبا السابقين .

القسم السادس من سورة آل عمران

المحاورة المرتبة على قصة مريم وعيسى كمحاجة النصارى في عيسى ، وإقامة الحجة على أهل الكتاب ،

وتكرار النداء لهم ست مرات بقوله تعالى (يا أهل الكتاب) من قوله تعالى (إن مثل عيسى) إلى قوله تعالى (وما الله بغافل عما تعملون) وهذا القسم أربعة فصول : الفصل الأول محاجة النصارى فى عيسى إلى قوله تعالى (اشهدوا بأنا مسلمون) الفصل الثانى فى إقامة الحجة فى أمر إبراهيم وذكر سيئات أهل الكتاب وتقريعهم إلى قوله تعالى (وهم يعلمون) الفصل الثالث فى آداب الرسل ، وأنهم يدعون إلى الحرية وليسوا هم ولا الملائكة معبودين إلى قوله تعالى (وهو فى الآخرة من الخاسرين) الفصل الرابع فى تقريع أهل الكتاب وتذكيرهم بإبراهيم ودعوتهم إلى اتباعه .

الفصل الأول

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ: تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ، وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن رهطا من أهل نجران قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم وكان فيهم السيد والعاقب ، فقالوا للنبى صلى الله عليه وسلم ماشأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال من هو ؟ قالوا عيسى تزعم أنه عبد الله ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: أجل إنه عبد الله ، فقالوا له : فهل رأيت له مثلا وأنبئت به ، ثم خرجوا من عنده فجاء جبريل عليه السلام ، فقال له قل لهم إذا أتوك (إن مثل عيسى) شأنه الغريب (كمثل آدم) كشأن آدم ، ثم أخذ يبين وجه الشبه وهو أنه خلق جسمه من تراب فلا أب ولا أم له فهو أغرب من عيسى المخلوق بلا أب إفحاما للخصم ، فهذا قوله (خلقه من تراب ثم قال له كن) بشرا (فيكون) فكان ، فقوله «خلقه من تراب» راجع لجسمه وقوله « كن فيكون » راجع لروحه ، وهكذا عيسى قال له « كن » فكان بلا أب . الذى أخبرتك به من تمثيل عيسى بآدم هو (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) الشاكين خطاب النبى صلى الله عليه وسلم لزيادة الثبات (فمن حاجك) من النصارى (فيه) فى عيسى (من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا) هلموا (ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) أى يدع كل منا ومنكم خاصته وأهل بيته وأصفياءه من ولد وامرأة ونفس ، وقدم هؤلاء الأبناء والنساء مع أن الإنسان يدافع عنهم بنفسه لشدة اليقين لأن من يفديهم بنفسه قدمهم فى ذكر المباهلة دلالة على صدق النبوة (ثم نبتهل) نتضرع فى الدعاء ونلتمس بأن تعلن الكاذب منا ، ثم بينه بالعطف فقال (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فى أمر عيسى .

قال محمد بن إسحاق فى سبب نزول هذه الآية والآيات قبلها من أول السورة : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم وثلاثة منهم كانوا أكابر القوم

أحدهم أميرهم واسمه عبد المسيح ، والثانى مشيرهم وذو رأيهم وكانوا يقولون له السيد واسمه الأيهم ، والثالث حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم يقال له أبو حارثة بن علقمة أحد بنى بكر بن وائل وملوك الروم كانوا شرّفوه وموّلوه وأكرموه لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده فى دينهم ، فلما قدموا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان إلى جنبه أخوه كرز بن علقمة، فبينا بغلة أبى حارثة تسير إذ عثرت، فقال كرز أخوه تعس الأبعد يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو حارثة : بل تعست أمك ، فقال ولم يا أخى ؟ فقال إنه والله النبى الذى كنا ننتظره ، فقال له أخوه كرز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا ؟ قال لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالا كثيرة وأكرمونا فلو آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم لأخذوا منا كل هذه الأشياء ، فوقع ذلك فى قلب أخيه كرز ، وكان يضمره إلى أن أسلم فكان يحدّث بذلك ، ثم تكلم أولئك الثلاثة : الأمير ، والسيد ، والحبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على اختلاف من أديانهم ، فتارة يقولون عيسى هو الله ، وتارة يقولون هو ابن الله ، وتارة يقولون ثالث ثلاثة ، ويحتجون لقولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويبرىء الأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير ، ويحتجون فى قولهم إنه ولد الله بأنه لم يكن له أب يعلم ، ويحتجون على قولهم: ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وجعلنا ، ولو كان واحدا لقال فعلت فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلموا فقالوا قد أسلمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم كذبتم كيف يصح إسلامكم وأنتم تثبتون لله ولدا ؟ وتعبدون الصليب ، وتأكلون الخنزير . قالوا فمن أبوه ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى فى ذلك أول سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يناظر معهم . فقال ألستم تعلمون أن الله حى لا يموت ؟ وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالو بلى ! قال ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه ؟ قالوا بلى ! قال ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ فهل يملك عيسى شيئا من ذلك ؟ قالوا لا ، قال ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟ فهل يعلم عيسى شيئا من ذلك إلا ما علم ؟ قالوا لا ، قل فإن ربنا صوّر عيسى فى الرحم كيف شاء ، فهل تعلمون ذلك ؟ قالوا بلى ! قال ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ وتعلمون أن عيسى حملته امرأة كحمل المرأة ، ووضعته كما تضع المرأة ، وغذى كما يغذى الصبى ، ثم كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى ! فقال صلى الله عليه وسلم فكيف يكون كما زعمتم ؟ فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا ، ثم قالوا يا محمد ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه ؟ قال بلى ! قالوا فحسبنا ؟ فأنزل الله تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه) الآية ثم إن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بملاعنتهم إذ ردوا عليه ذلك ، فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملاعنة .

روى أنهم لما دعوا إلى المباهلة قالوا حتى ننظر ، فلما تخالوا قالوا لصاحب الرأى فيهم ما ترى ؟ فقال والله لقد عرفتم نبوته ، ولقد جاءكم بالفصل فى أمر صاحبكم ، والله ما باهل قوم نبيا إلا هلكوا ، فإذا أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوا الرجل وانصرفوا ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد غدا محتضنا الحسين آخذا بيد الحسن ، وفاطمة تمشى خلفه ، وعلىّ رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول: «إذا أنا دعوت فأمنوا ، فقال أسقفهم يامعشر النصارى إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا» فأذعنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلوا له الجزية ألفى حلة حمراء وثلاثين درعا من حديد ، فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده لو تباهلوا لمسخوا قردة وخنازير ، ولاضطرم الوادى عليهم نارا ، ولاستأصل الله نجران وأهله » . وهذا من دلائل النبوة (إنّ هذا لهو القصص الحق ، وما من إله إلا الله)

وليس ثالث ثلاثة (وإن الله لهو العزيز الحكيم) لا أحد يساويه فى القدرة التامة ، والحكمة البالغة ، فإذن ليس له شريك .

(فإن تولوا) أعرضوا (فإن الله عليم بالمفسدين) أى عليم بهم فيجازيهم ، فوضع للظاهر موضع الضمير ليدل على أن التولى عن الحجة والإعراض عنها فساد للدين . ولما قدم وفد نجران المدينة واجتمعوا باليهود اختصموا فى إبراهيم، فكل يدعى أنه على دينه، فقال صلى الله عليه وسلم: « كلاهما برىء من إبراهيم بل كان حنيفا مسلما ، وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام» . فقالت اليهود ماتريد إلا أن نتخذك ربا كما اتخذت النصارى عيسى ربا . وقالت النصارى يا محمد ماتريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود فى عزير ، فأنزل الله (قل يا أهل الكتاب) من اليهود والنصارى (تعالوا إلى كلمة سواء) أى عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل ثم فسرها فقال (أن لانعبد إلا الله) أى نوحده بالعبادة ونخلص فيها (ولا نشرك به شيئا) ولا نجعل له شريكا فى استحقاق العبادة (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ولا نقول عزير ابن الله ، ولا المسيح ابن الله ، ولا نطيع الأحبار والرهبان فيما أحدثوا من التحريم والتحليل ، لأن كلا منهم بشر مثلنا . روى أنها لما نزلت (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال عدى بن حاتم ما كنا نعبدهم يا رسول الله ، قال أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم ؟ قال نعم ! قال هو ذاك (فإن تولوا) عن التوحيد (فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) مخلصون بالتوحيد لله والعبادة له ، وقد لزمتكم الحجة ، فاعترفوا بأنا مسلمون وأنكم كافرون بما نطقت به الكتب السماوية .

لطيفة

انظر إلى هذا الترتيب: (١) ذكر عيسى وقصته وأحواله (٢) ثم أتى بالحجة الدامغة على أنه ليس إلها (٣) ثم دعاهم للمباهلة (٤) ولما لم يجد قال اتبعوا إبراهيم الذى أجمعت عليه الديانات الثلاث (٥) ثم لما لم يجد أعرض عنهم وقال اشهدوا بأنا مسلمون .

الفصل الثانى

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ * وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ

دِينَكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ : إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *

لما ادعى كل من النصارى واليهود أن إبراهيم على دينهم كما تقدّم ، قال الله تعالى (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة) على موسى (والإنجيل) على عيسى (إلا من بعده أفلا تعقلون؟) هذه المسألة التاريخية المشهورة ، وكيف يكون إبراهيم على دين موسى وقد أنزلت التوراة عليه بعد إبراهيم بمدّة ٥٧٥ ، وبين موسى وعيسى ١٦٣٢ ، ويقال إن المدة الأولى ٥٦٥ ، والثانية ١٩٢٠ ، فتكون المدة بين إبراهيم وعيسى إما ٢٢٠٧ ، وإما ٢٤٨٥ . ثم أخذ يقرعهم فقال : محه لكم وأىّ عجب حاججتم فيما لكم به علم بما تدّعون أنكم وجدتموه فى التوراة والإنجيل مكابرين معاندين ، فكيف ساغ لكم المحاجة والمجادلة فيما لاعلم لكم به مما لم يذكر فى كتابكم ولا يقبله العقل ولا يساعده النقل (والله يعلم) أمر إبراهيم الذى حاججتم فيه (وأنتم لاتعلمون) أفلا يستنتج من ذلك أنه (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً) مائلا عن العقائد الزائغة (مسلما) منقاداً لله ، وليس المعنى أنه على دين الإسلام وملة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو كان كذلك لقيل إن الإسلام بعد التوراة والإنجيل ، فكيف كان إبراهيم على دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم ينزل القرآن إلا من بعده بنحو ثلاثة آلاف سنة (وما كان من المشركين) معرّضا بأن النصارى واليهود مشركون ، أى لم يكن منكم أيها المشركون (إن أولى الناس بإبراهيم) أى أخصهم به ، من ولى : إذا قرب (للذين اتبعوه) من أمته (وهذا النبى والذين آمنوا) به لموافقة شريعتهم لشريعته غالبا (والله ولىّ المؤمنين) ينصرهم ويجازيهم بإيمانهم . ولما دعا اليهود حذيفة وعمارا ومعاذا إلى اليهودية نزل (ودّت طائفة من أهل الكتاب لو) بمعنى أن (يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) أنهم قد أضلوا أنفسهم برسوخ العوائد المذمومة وثباتها فيهم بالمران على الإضلال ، فإن للعمل أثرا فى النفس دائما (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله؟) وهى ما جاء فى التوراة والإنجيل الدالات على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تشهدون) أنها آيات الله وصح أن يقال لم تكفرون بالقرآن ، وأنتم تشهدون بعث محمد فى كتابيكما (يا أهل

الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) تخلطون الحق الوارد فى الكتاب المقدس الدالّ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالباطل، وهو تحريف القول وتبديله فيقع الشك فى نفوس أتباعكم (وتكتمون الحق) نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (وأنتم تعلمون) بما تكتمونه . ولما قال كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف لأصحابهما لما حولت القبلة آمنوا بما أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلوا إليها أول النهار ثم صلوا إلى الصخرة آخره ، فإن المسلمين إذا سمعوا ذلك قالوا هم أعلم منا وقد رجعوا فيرجعون ، وقيل إن اثنى عشر من أحبار اليهود قالوا : ندخل الإسلام أول النهار ونقول فى آخره نظرنا فى كتابنا وشاورنا علماءنا فلم نجد محمدا بالنعت الذى ورد فى التوراة ، لما قيل ذلك نزل (وقالت طائفة من أهل الكتاب ـ إلى لعلهم يرجعون) وقالت تلك الطائفة اليهودية أيضا : ولا تصدقوا أن يعطى أحد مثل ما أعطيتم من العلم والحكمة والكتاب والعجائب ، كفلق البحر لموسى ، وقلب العصا حية ، أو يحاجوكم ويجادلوكم عند ربكم ، كلا لاتصدقوا ذلك إلا لمن يتبع دينكم من شعب الله الذين اصطفاهم على العالمين وهم بنو إسرائيل ، فإذا جاء نبيٌّ فهو منهم وإلا فلا ، فقال الله حاكيا (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ، قل : إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم) وجملة «إن الهدى هدى الله» معترضة . يقول الله تعالى إن الهدى من عند الله فله أن يجعل النبوّة فى العرب كما كانت فى بنى إسرائيل ، وزاده إيضاحا فقال (قل : إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع) ذو سعة يتفضل على من يشاء (عليم) بمن يستحق الفضل ، وكأنه يقول إن فضلى وإن كان واسعا يصحبه علم وحكمة ، فلا أعطى إلا حيث يحسن العطاء ، ولا أمنع إلا حيث يحسن المنع فلذلك (يختص برحمته من يشاء) على حسب الاستعداد (والله ذو الفضل العظيم) فهنا ذكر أنه واسع وأنه عليم وأنه ذو فضل عظيم ، وأظهر هذه المواطن عند أكثر الناس ما ذكرته سابقا عند قوله تعالى « وترزق من تشاء بغير حساب » فإن الفضل هناك فى المحسوسات ، فهى أبين عند جميع الناس . وأما النبوة والرسالة فالفضل فيهما لايفهمه حق فهمه إلا أولو الألباب . ولقد استودع قرشى عبد الله بن سلام ألفا ومائتى أوقية ذهبا فأداها إليه وفنحاص بن عازوراء استودعه قرشى آخر دينارا فجحده ، ولقد جرت عادة النصارى أن يكونوا فى الغالب مأمونين، أما اليهود فإنهم غالبا خائنون، لذلك نزل قوله تعالى (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) أى إلا مدة دوامك قائما على رأسه تطالبه مبالغا فى ذلك، لأن اليهود يعتقدون أنهم لا يعاقبون على من ليس من دينهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) إنهم كاذبون فى دعواهم أن من ليس على دينهم لاحرمة له، والله عزوجل رب العالمين لارب اليهود وحدهم، وليست رحمته قاصرة على أحد من خلقه بل هى عامة (بلى) إثبات لما نفوه بل عليهم سبيل (من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) من أوفى بعهده فأدى الأمانة واتقى الكفر والخيانة ونقض العهد فإن الله يحب المتقين المؤدين الواجبات المجتنبين المنهيات . ولقد كتب علماء اليهود فى التوراة بأيديهم ما تقدم من أنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل ، وأنهم لايطالبون بحق إلا إذا كان ليهودى وحلفوا على ذلك ، لذلك قال تعالى (إن الذين يشترون) يستبدلون (بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا) متاع الدنيا (أولئك لا خلاق) لا نصيب (لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله) كلاما يسرهم وذلك لغضبه عليهم (ولا ينظر إليهم يوم القيامة) استهانة بهم (ولا يزكيهم) ولا يثنى عليهم بالجميل (ولهم عذاب أليم) على فعلهم ، وهذه الآية النازلة فى اليهود ليست خاصة بهم ، بل تشمل كل عهد وميثاق أوجبه الإنسان على نفسه ، فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به ؛ والمراد بالأيمان الكاذبة فى أى عقد من العقود ، أو عمل من الأعمال ، أو رأى من الآراء . وفى الحديث «من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه لقى الله وهو عليه غضبان» وفيه

أيضا «أن رجلا أقام سلعة وهو فى السوق، فحلف بالله لقد أعطى بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين ، فنزلت الآية » . وفى هذا المقام روايات كثيرة فى البخارى ومسلم لا تخرج عن هذا المعنى فلا نطيل بها . وقد عرفت الحقيقة أن الآية شاملة لكل عهد ولكل يمين فاجرة فى علم أو عمل فافهم هديت . فعلى العلماء فى أقطار الإسلام أن يمنعوا المسلمين جميعا من الحلف لأن ذلك أصبح مرضا ، ويظهر أن الغضب الذى حلّ بديار الإسلام ناجم من جهلهم بعظمته تعالى ، فيحلفون على النقير والقطمير صدقا وكذبا ، والمسيحيون ينزهون لسانهم عن الحلف ، فواعجبا كل العجب من جهلة المسلمين .

إن كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف ، وحيى بن أخطب ، وأبا ياسر وغيرهم كانوا يعمدون إلى اللفظة فى التوراة المكتوبة باللغة العبرية فيحرّفونها بتبديل حركات الإعراب فيتغير المعنى تبعا له ، وذلك فى صفات النبى صلى الله عليه وسلم وغيرها ، لذلك قال تعالى (وإن منهم) أى اليهود (لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب) التوراة (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وإنما هو المحرّف الذى غيروا معناه إلى ما أرادوا (ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله) بل من عند أنفسهم (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أنهم كاذبون .

الفصل الثالث

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا . أَقْرَرْنَا ، قَالَ: فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ : آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

ملخص هذا الفصل

ما يجب على الأنبياء فى إرشاد الخلق . وهو أوّلا : أن لا يأمروا الناس بعبادتهم ولا بعبادة الملائكة ، وإنما يأمرونهم أن يكونوا معلمين الخير لغيرهم وأمراء وملوكا عادلين على سنن أنبيائهم ، وثانيا : على كل نبى

وأتباعه أنهم إذا سمعوا أن الله عز وجل أرسل رسولا مصدّقا لكتابهم أن يؤمنوا به وينصروه . ثالثا : أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمته أن يكونوا مؤمنين بما أنزل على سائر الأنبياء لايفرّقون بينهم (هـذا ملخص الآيات) .

روى «أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يارسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال : لاينبغي أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله» . وروى أن أبا رافع القرظي والسيد النجراني قالا يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ؟ فقال معاذ الله أن يعبد غير الله ، وأن نأمر بغير عبادة الله ، فما بذلك بعثني ، ولا بذلك أمرني ، فنزل (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم) الفهم والعلم (والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) أي لا تجتمع النبوة مع قوله للناس اعبدوني (ولكن) يقول (كونوا ربانيين) منسوبين إلى الرب ومربين فتربون الناس بصغار العلم قبل كباره ، وتكونون علماء تعملون بعلمكم جامعين بين علم البصيرة وعلم السياسة ، تلون أمور الناس فتكونون ملوكهم وعلماءهم ومعلميهم الخير ومواظبين أنتم على طاعة الله وعبادته . قال أبو عبيدة أحسب هذه الكلمة غير عربية ، إنما هي عبرانية أو سريانية ، وعلى كل فهي تدل على الذي علم وعمل بما علم ، وعلم الناس طريق الخير الخ (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أي بسبب كونكم معلمين الكتاب ، وبسبب كونكم دارسين له (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) منصوب عطفا على ثم يقول (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) الضمير في يأمر للبشر ، وهو اسم جمع لاواحد له من لفظه كالقوم والرهط ويوضع موضع الواحد والجمع فيشمل عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وغيرهما (و) اذكر يا محمد (إذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنه) أي والله لئن آتيتكم كتابا وحكمة الخ ؟ فاللام للقسم ، وما شرطية ، ومن كتاب وحكمة بيان لما ، وقوله لتؤمننّ به الخ جواب القسم وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب الشرط ، كأنه يقول والله إن آتيتكم الكتاب والحكمة ثم جاء رسول مصدّق لهما لتؤمنن به ولتنصرنه ، هذا إذا فتحت اللام وإن كسرت يكون الجار والمجرور هكذا لأجل إيتائي إياكم الكتاب ، ثم مجيء رسول مصدّق له أخذ الله الميثاق لتؤمنن به ولتنصرنه (قال) الله تعالى (ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى) عهدى ، سمى به لأنه يؤصر أي يشدّ (قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) فليشهد بعضكم على بعض ولتشهد الملائكة بهذا الإقرار وأنا أيضا على إقراركم شاهد . والمعنى أن الله أخذ العهود على الأنبياء والأنبياء على أممهم أن يؤيد كل رسول وكل أتباعه من جاء بعدهم من الأنبياء مصدّقا لكتابهم ، فكيف يعاند النصارى واليهود وكتابهم فيه هذا الميثاق بل هذا الميثاق مقرّر في الفطرة الإنسانية أن من دعا إلى الخير يعضده كل داع مثله ففي الفطرة توكيده وفي العقل تثبيته (فمن تولى) أعرض (بعد ذلك) بعد الميثاق (فأولئك هم الفاسقون) المتمردون من الكفرة (أفغير دين الله يبغون ؟ وله أسلم) انقاد وخضع (من في السموات والأرض طوعا) طائعين بالنظر والحجة (وكرها) كارهين بالسيف وغيره (وإليه يرجعون . قل) يا محمد (آمنا بالله) أمر الرسول أن يخبر عن نفسه وعن أتباعه بالإيمان بالله (وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) أولاد يعقوب وكانوا أنبياء وعددهم اثنا عشر (وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لانفرّق بين أحد منهم) تصديقا وتكذيبا (ونحن له مسلمون) منقادون أو مخلصون في عبادته (ومن يبتغ غير الإسلام) أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله المنزل على الأنبياء (دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) الواقعين في الخسران .

الفصل

الفصل الرابع

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ؟ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

لقد كان الفصل الذى قبل هـــذا فى النبيين وواجباتهم وما يدعون إليه وأنهم لايدعون الناس لعبادة أنفسهم ، وإنما يأمرون أشياعهم وأتباعهم أن يؤمنوا بما ينزل على كل نبى بعدهم . ولا جرم أن هذا منطبق على اليهود والنصارى الذين ظهر صدق النبوة المحمدية فى كتبهم، لذلك أتبعه بهذا الفصل يذكر فيه أنه يستبعد أن يهدى الله قوما كفروا بالقرآن وبالرسول بعد إيمانهم به، وقد كانوا من قبل يقرون به ويشهدون أنه حق، ويقولون إن نبيا قد أظل زمانه . وقد ظهرت لهم الدلائل على صدقه « والله لايهدى القوم الظالمين » .

فهؤلاء لاهداية لهم فى الدنيا ، وعليهم فى الآخرة لعنة الله والملائكة والناس أجمعين حق الكافرين، فإن جميع الناس من كافر ومؤمن يلعنون منكر الحق وإن كان بعضهم يجهله « ثم » لايخفف عنهم العذاب ولا هم يؤخرون . ثم استثنى التائبين الذين أصلحوا أعمالهم « فإن الله غفور » يقبل توبتهم « رحيم » بهم .

ثم إن للمفسرين فى هـذا المقام مقالين : مقالا فى قوم من العرب أسلموا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ، ثم

تربصوا بالنبي ريب المنون . ومثالا آخر في اليهود والنصارى كما تقدم ، فقوله تعالى (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون) يصح في القسمين معا اليهود والنصارى آمنوا بموسى وعيسى ، ثم كفروا بالتوراة والإنجيل بما غيروا وبدلوا ، ثم ازدادوا كفرا بالنبي ، وهكذا المرتدون من العرب كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا ، إذ تربصوا بالنبي ريب المنون . ثم قال (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا) أي قدر ما يملأ الأرض ذهبا (ولو افتدى به) والواو زائدة لتأكيد النفي (أولئك لهم عذاب أليم) مؤلم (وما لهم من ناصرين) مانعين يمنعونهم من العذاب ، وقوله تعالى (لن تنالوا البر) أي لن تبلغوا حقيقة البر الذي هو كمال الخير الذي يترتب عليه الرحمة من الله والرضا والجنة ، والبر من الله الثواب ومن العبد الطاعة ، يقول لن تنالوه (حتى تنفقوا مما تحبون) من العلم في الهداية والجاه في منفعة الناس ، والبدن في الحرب ، والمال في الإنفاق ، وقوله تعالى (كل الطعام كان حلا) أي حلالا (لبني إسرائيل) أي يعقوب (إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة) سبب نزول هذه الآية أن اليهود لما نزل قوله تعالى «فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم» قالوا لسنا أول من حرمت عليه تلك الطيبات ، بل كانت محرمة على نوح وإبراهيم من بعده حتى انتهى الأمر إلينا فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا فقال الله لهم ليس الأمر كذلك ، بل كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل ، أي أولاد يعقوب الذين كانوا قبل موسى ولم يحرم عليهم إلا ما حرمه يعقوب على نفسه لما كان به عرق النسا ، فأشار عليه الأطباء بأن لا يأكل لحوم الإبل ولا يشرب ألبانها فحرمها على نفسه وتبعه أولاده في ذلك التحريم ، وذلك « من قبل أن تنزل التوراة » التي اشتملت على تحريم كل ذي ظفر وبعض الشحوم وبعض ما حملت الظهور وما اختلط بعظم ، وذلك التحريم لبغيهم ، وذلك لم يكن محرما على يعقوب ولا على أولاده ولا على إبراهيم ونوح (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) فيما تدعون ، أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بمحاجتهم بكتابهم ، فلما سمعوا ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة . وفي هذه الآية دلالة على النبوة ، وهذه المسألة من أعجب المسائل وأدقها ولن تعرف إلا بطريق الوحي . ثم قال (فمن افترى) وابتدع (على الله الكذب من بعد ذلك) أي من بعد إلزام الحجة (فأولئك هم الظالمون) الذين لا ينصفون وهم يكابرون (قل) يا محمد (صدق الله) أي وكذبتم (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا) أي ملة الإسلام التي هي في الأصل ملة إبراهيم (وما كان من المشركين) فيه تعريض بشرك اليهود وكيف تتبعون غير دين إبراهيم ، و (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة) لغة في مكة والبيت الذي في مكة هو المسجد الحرام ثم بعده بيت المقدس ، وأول من بنى المسجد الحرام إبراهيم فهدم ، ثم بناه قوم من جرهم ، ثم العمالقة ، ثم قريش . ومعنى (مباركا) كثير الخير والنفع لمن حجه واعتمره (فيه آيات بينات) يقول المفسرون : منها انحراف الطير عن موازاة البيت . ومنها أن ضواري السباع تخالط الصيد ولا تتعرض له . ومنها أن كل جبار قصده بسوء قهره كأصحاب الفيل . ومنها (مقام إبراهيم) أي الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت (ومن دخله كان آمنا) أي ومنها أمن من دخله (ولله على الناس حج البيت) قصده للزيارة على الوجه المخصوص المعلوم في سورة البقرة ، وأبدل من الناس قوله تعالى (من استطاع إليه سبيلا) وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستطاعة بالزاد والراحلة ، وبه أخذ الشافعي والحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وأحمد بن حنبل . وقال الشافعي في الاستطاعة : إما بالبدن واجدا ما يلزمه الحج فاستطاعة تامة فعليه الحج ، وإما أن لا يثبت على الراحلة وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه ، أو قادر على مال ويجد من يستأجره فيحج عنه فيجب عليه . وأما حكم الزاد والراحلة فهو أن يجد زادا يكفيه ذهابا وإيابا ونفقة من تلزمه نفقته وكسوتهم وأن يكون دينه مقضيا وأن يجد له رفقة يخرجون في الوقت

الذي

الذى جرت العادة فيه بالخروج ، فإن قدّموا أو أخروا لا يجب عليه ، ويشترط أمن الطريق من عدوّ مسلم أو كافر أو رصدى يطلب الخفارة ، وتكون منازل الماء مأهولة يجد فيها الماء والزاد بحسب العادة ، فإن تفرّقوا لم يجب . وقال مالك : الاستطاعة بالبدن ، فيجب على من قدر على المشى والكسب فى الطريق وقال أبوحنيفة بمجموع المال والبدن. والضمير فى «إليه» للبيت أوالحج وكل ماأدى إلى الشئ فهو سبيله. ولقد فصلت الكلام فى الحج وجميع أعماله فى سورة البقرة ، فهناك صورة منه واضحة جلية فلا نعيده هنا (ومن كفر فإن الله غنىّ عن العالمين) كأنه قال ومن لم يحج فإن الله غنىّ عنه ، فجعل عدم الحج كفرا ، وذلك تغليظ على تاركه . قال عليه الصلاة والسلام : «من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا أو نصرانيا» .

(قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله؟) السمعية والعقلية الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فى الإسلام والحج وغيرهما (والله شهيد) مطلع على أعمالكم فيجازيكم عليها (ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) هذا التكرار للمبالغة فى التقريع، ذلك أنهم كانوا يفتنون المؤمنين ويوقعون الشقاق بينهم ومن ذلك أنهم أتوا إلى الأوس والخزرج وذكروهم بالوقائع التى كانت بينهم فى الجاهلية ، وأنشدوا أشعارها فأثارت حمية الجاهلية (تبغونها عوجا) أى حال كونكم باغين طالبين لها عوجا أى اعوجاجا (وأنتم شهداء) تشهدون أنها سبيل الله ، والصدّ عنها ضلال وإضلال ، أو أنتم عدول عند أهل ملتكم يثقون بأقوالكم ويستشهدون بكم فى القضايا (وما الله بغافل عما تعملون) وعيد لهم . انتهى تفسير القسم السادس بفصوله الأربعة ، وفى هذا القسم لطائف :

اللطيفة الأولى

تفصيل الكلام فى قوله تعالى (قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الآيات)

اعلم أن الإنسان فى جميع عصوره لايزال يرى أن فى الناس من لهم مزية ظاهرة ، وعبقرية حاضرة ، وعلوم باهرة ، وغرائب نادرة ، وعجائب ساحرة تأخذ بالألباب ، وتحير العقول ، فالنصارى بهرهم المسيح لما سمعوا إحياء الموتى على يديه وإبراء الأكمه والأبرص وهناك أمم قبلهم وأمم قبلهم ، وهكذا تراه فى سائر الأقطار والأمصار قديما وحديثا ، لكل أمة غرام وعشق وإفراط فى رجل أو رجال يرون فيهم عجائب سواء أكانت حقا كما فى المسيح أو غير معلوم كما ورد فى مسيح الهند المسمى (خرستا) من قبله بنحو خمسة آلاف سنة رووا عنه ماروى المسيحيون عن عيسى ، ومثله آخر فى العراق من قبل المسيح ، وهكذا رواية المصريين فى قديم الزمان عن أوزيريس وإزيس وما أشبه ذلك ، وهكذا أهل الكثلك لما دخل عندهم أهل أوروبا رأوهم منتظرين الفادى لهم نازلا من السماء بعد رفعه ، ولقد تجد الآن فى الأمة الإسلامية أكثر طوائفها مغرمين بشيوخهم ، ومنهم من يرى أنهم رفعوا إلى السماء كما فى بعض بلاد الغرب ، وبعض بلاد الفرس ، ولست أريد إطالة فى القول فإنى أريد التوفيق والإصلاح لا التفريق والجراح ، فالقرآن أعطانا حكمة وقولا عدلا وكلمة لاعوج فيها ، وهى أن هؤلاء الذين على أيديهم ظهرت خوارق وعجائب ليسوا إلا عبيداً مسخرين خلقهم الله . فإذا اختلف المسلمون فى طرائق حججهم ومذاهبهم وتشاكسوا وتدابروا فليكن لهم هذا المنهاج الحق القائل (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) ولقد علمت مما سبق أن الأحبار والرهبان كانوا يحللون ويحرّمون ، فهاهوذا كتاب الله يقول لنا لايجوز لأحد أن يحرّم ويحلل وإلا لكان اتباعه عبادة له ، وإنما التحليل والتحريم لله عز وجل ولرسوله ولجماعة المسلمين .

مجلس عام فى الإسلام

على المسلمين جميعا فى أقطار المسكونة أن يكون لهم مجلس عام يجمع أكابر القوم من سائر المذاهب

والشيع والطوائف ، ويعرض فيه كل مافيه خلاف من معاملات أو عبادات ، ويكون هذا المجلس له القول الفصل ، وهذا المجلس دائما تعرض عليه المسائل كل حين ، ويبقى مع الدهر مادامت السموات والأرض ودين الإسلام ، وهنالك تكون حقا قد عملنا بقوله تعالى (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) والدليل على ذلك أن الإنسان يخرج وقد وجد قومه على مذهب من المذاهب فيسير هو عليه، ولو ولد فى قوم على مذهب آخر لاتبعه فكان الأمم إقطاعات للمذاهب ، ولكن وجود جماعة فى أكبر عاصمة إسلامية كافل بخروج الناس من تبعة التقصير ، ولست أريد أن المذاهب تترك . كلا ! فكل جماعة يبقون على مذهبهم ، ولكن هذه الجماعة القائمة على الحق تنظر فى كل مايعرض من الأحوال وتهذيب المسائل العلمية والإفتاء بما هو الأقرب والأنسب حتى لايكون هناك وقوف ولا نكوص على الأعقاب ، وهذه الجماعة تشير لأهل كل مذهب بما يناسبهم اهـ .

اللطيفة الثانية

تفصيل الكلام فى قوله تعالى (ومنهم من إن تأمنه بدينار لايؤدّه إليك)

لقد علمت مانقلناه فيما تقدم أن اليهود أميل إلى الخيانة ، وأن النصارى أقرب إلى الأمانة . فاعلم أن اليهود لهم عقيدة خاصة ومذهب يرجع إلى الاستئثار بالسلطة وهم لايريدون أن يدخلوا أحدا فى دينهم من غير بنى إسرائيل ، فهو من جهة دين ومن جهة قومية . فلذلك اشتهر عنهم قديما وحديثا أنهم حريصون على جمع المال من غير أهل دينهم وهم اليوم أصحاب الحول والطول فى الكرة الأرضية .

لقد ذكر أحد علماء الفرنجة أنه قرأ فى التلمود « وهو شرح التوراة » مايأتى :

نحن شعب الله فى الأرض ، وقد أوجب أن يفرّقنا فى الأرض لمنفعتنا ذلك إنه لأجل رحمتنا ورضاه عنا سخر لنا الحيوان الإنسانى ، وهم كل الأمم والأجناس سخرهم لنا لأنه تعالى يعلم أننا نحتاج إلى نوعين من الحيوان نوع أخرس كالدواب والأنعام والطير ، ونوع ناطق كالمسيحيين والمسلمين والبوذيين وسائر الأمم من أهل الشرق والغرب فسخرهم لنا ليكونوا مسخرين لخدمتنا . فلذلك فرّقنا فى الأرض لنمتطى ظهورهم ، ونمسك بعنانهم ونستخرج فنونهم ونسخرهم لمنافعنا أجمعين .

لذلك يجب علينا أن نزوّج بناتنا الجميلات للملوك والوزراء والعظماء ، وأن تدخل أبناءنا فى الديانات المختلفات وأن تكون لنا الكلمة العليا فى الدول وأعمالها فنفتنهم ونوقعهم فى الحروب وندخل عليهم الرعب والخوف ، وفى ذلك كله نحن نستفيد الاستفادة كلها .

لذلك ترى البلشفية يهودية والحرب الكبرى أشعلها اليهود ومنهم شوبنهور الفيلسوف الألمانى وماركس مؤسس مذهب البلشفية ولينين رئيس البلشفية الآن فى بلاد الروسيا ، ولا ترى فلسفة قائمة فى أوروبا إلا من فلاسفة اليهود وهم الذين أذاعوا فى ألمانيا إنه « لارحمة على ضعيف » حتى وقف غليوم ملك الألمان ، وقال « ويل للمغلوب » كل ذلك فعل اليهود وهم الذين قاموا يسترجعون فلسطين بعد ضياعها من أيديهم نحو ألفى سنة ، ولقد أخبرنى أحدهم قائلا : إن لهم جمعية دائمة ترسل فى كل عام جماعة تجوس الأقطار ، وتبحث فى الأمصار عن اليهود القاطنين فى الأماكن المختلفة ، وتحصى مايحتاجون إليه من المؤنة وترجع فترسل لهم ما إليه يحتاجون ، فهذه بعض خصال اليهود الدالة على محافظتهم على قوميتهم التى تغالوا فيها إلى الإضرار بالأمم .

علم الأخلاق واليهود

وهناك حكاية رواها علماؤنا السابقون فى علم الأخلاق قائلين : إن الإنسان قد تكون أخلاقه تابعة لاعتقاده ، فإذا اعتقد رأيا أو ذهب مذهبا وتصوّره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه ،

واعتقاده لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه وتحقيق اعتقاده فى جميع متصرفاته ، فيصير ذلك خلقا له وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها .

حكاية يهودية

والمثال فى ذلك ماجاء فى الخبر : أن رجلين اصطحبا فى بعض الأسفار أحدهما مجوسى من أهل كرمان ، والآخر يهودى من أهل أصفهان ، والمجوسى كان راكبا على بغلة وعليها أمتعته ، واليهودى كان ماشيا ليس معه شىء ؛ فبينما هما يتحدثان قال المجوسى لليهودى مامذهبك ؟ قال اليهودى مذهبى أن فى السماء إلها هو إله بنى إسرائيل أسأله الرزق والصحة وأن يعيننى ويعين بنى إسرائيل ، وأن جميع بنى آدم لاحرمة لهم ، فما لهم ودمهم حلال لى ولأهل دينى . ويحرم علىّ نصرة من ليس على دينى والشفقة عليه . فقال المجوسى : أنا أعتقد أنه يجب علىّ أن أريد الخير لأبناء جنسى كلهم ، ولا أريد سوءا لأحد من أهل دينى وغيرهم وإن ظلمنى وتعدّى علىّ لأن إلهى فى السماء إله الجميع وهو عادل ، فقال اليهودى للمجوسى : إذن انصر مذهبك لأنى من أبناء جنسك ، فأركبنى بغلتك فقد ترانى متعوبا ، وأطعمنى فقد ترانى جائعا ؛ فأركبه ساعة وأطعمه ومشى المجوسى . فلما أعيا المجوسى حرّك اليهودى البغلة وسبقه ، فقال المجوسى : قف فقد أعييت ؛ فقال اليهودى ألم أخبرك عن مذهبى فأنا اليوم أنصره . أنت نصرت مذهبك بإعطائى البغلة ، وأنا أنصره بخيانتك ، فقال له المجوسى : أتتركنى هنا تأكلنى الوحوش والسباع ؟ فمضى اليهودى ؛ فأما المجوسى فإنه فكر فى اعتقاده ، وقال قد قمت بأمر اعتقادى فأعطيته فلأقم بآخره فادعو إله السماء ، فقال بإلهى أنا قد قمت بأمرك فحقق لليهودى وعدك لى بالنصرة عليه لبغيه فما مشى قليلا حتى رأى البغلة قد رمت اليهودى ودقت عنقه وهى واقفة تنتظر صاحبها فلحقها وركبها وترك اليهودى فى البرّية للسباع والوحوش ، فقال اليهودى : ارحمنى ولاتتركنى . فقال المجوسى : قد فعلت مرة ولم تفهم ماقلت لك إن فى السماء إلها يجازى بالعدل فما منعك أن تعمل به وخنتنى . قال : مذهب نشأت عليه وصار طبيعة فىّ اقتداء بالآباء والأمهات والأستاذين والمعلمين ، فحمله المجوسى معه حتى جاء به المدينة وسلمه إلى أهله مكسورا ، وحدّث الناس بقصته فلامه الناس على رحمته له ، وكيف حمله بعد الخيانة ، فقال إنه اعتذر بأن هذا المذهب صار عادة يصعب اقتلاعها فأنا كذلك الرحمة عادة يصعب اقتلاعها .

واعلم أيها الذكى أن هذا المذهب اليهودى اليوم صار صفة عامة فى رجال السياسة فى الأمم الأوروبية ، فأصبحوا خائنين يستحلون دماء أهل الشرق وأموالهم ودماء بعضهم ، وإن أمم النصارى فى ديارهم محبون لبعضهم فى داخلها ، ولكن دولهم متقاطعة متعادية مع بعضها ومع أمم الشرق ، ومعاملاتهم السياسية كمعاملة اليهود (فلله الأمر من قبل ومن بعد) وهو (حسبنا ونعم الوكيل) .

اللطيفة الثالثة

تفصيل الكلام فى قوله تعالى (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا)

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو عليه غضبان ، وأنزل الله تصديق ذلك (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا الآية) » ولقد قدّمت لك أنه يدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرسل ، ويدخل فيه مايلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق ، فكل ذلك من عهد الله الذى يجب الوفاء به .

واجب علماء الإسلام والحلف بالله

على المسلمين فى أقطار الأرض أن ينظروا فى مسألة الأيمان ، فإن الله عز وجل يقول (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) الآية وتقدّم تفسيرها فى سورة البقرة ، والآية هنا قد نددت على الحالفين الكاذبين وأنهم لانصيب

لهم فى الآخرة (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) واعلم أن المسلمين قد ابتلوا بالحلف صدقا وكذبا ولم يجدوا من العلماء من يمنعهم مع أن الوعيد الذى جاء على الحلف لم يكن على سواء من أمور الدين .

ولعل ما نشاهده من الذلة والهوان والجهل المطبق وإذلال الأمم للمسلمين ربما جاء من هذا الخلق الأثيم الحلف بالله والكذب فى الوعد . فعلى علماء الإسلام فى الأقطار أن يخيفوا المسلمين من هذا العمل الشائن والقول الكاذب والوعد المخلف فإن هذا يرقى أخلاقهم ويعدل نفوسهم « والله هو الولى الحميد » .

اللطيفة الرابعة : فى الأمة العربية قديمها وحديثها

وفى وفد نجران وكيف كان ساداتهم يمتنعون عن الإسلام حفظا للرياسة واحتراما للعهود التى أخذها الفرنجة عليهم ، واعجب كيف كانت الدولة الرومانية ذات سلطان عليهم بحيث لا يبرمون أمرا إلا إذا رضيته ولا يذرون إلا ما كرهته ، واعجب للأمة العربية كيف كانت خاضعة لسلطان الأمم فكانت فارس من جهة لها سلطان والروم من جهة أخرى لها سلطان ، وهما يتجاذبان العرب وكل منهما يدلى إليهم بسبب من القوة تارة والمال أخرى وهم كرة بصوالجة تتلقفها هذه مرة وتلك أخرى كريشة فى مهب الريح ساقطة لا تستقر على حال من القلق .

حتى إذا جاء الإسلام زال الغمام واستتب السلام وترك الزمام وصينت الأمة وعظمت الملة وتوحدت القيادة وثبتت السيادة وغلبت العرب وظهر منهم العجب وأصبحوا سادة بعد أن كانوا مسودين وقادة بعد أن كانوا مقودين وثبت ملكهم على الأساس « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

هذا ما كان فى الأيام الخالية والقرون الماضية ، ثم انقلب الزمان واستدارت الأيام وتبدّت المحن وكثرت الإحن ودارت الدورة الشمالية فى الأفلاك العلوية فرجع بعض العرب إلى أيام جاهليتهم وغلبهم من كان من خدامهم ؛ فترى كثيرا من أمرائهم بالفرنجة يحتمون وعلى مدافعهم يعولون وبقربهم يفرحون ولهم ينتمون وكأن الإسلام ما كان ، فهم كملوك الطوائف الفارسية بعد دولة الإسكندر ، وكتلك الممالك الأندلسية (فإنا لله وإنا إليه راجعون) وترى الشريف حسين بن على يجعل الحرمين تحت إشراف الإنجليز والمسجد الأقصى بفلسطين تحت إشرافهم وإشراف اليهود ، ولقد طرد الأطباء الذين أرسلتهم بلادنا المصرية أن تدخل الأقطار الحجازية ، ومنعهم من دخول البلاد المقدّسة ، فرجع المحمل المصرى ومن معه من الحاجين ، وذلك عند كتابة هذه الأسطر ، وفى ظنى أن هذه الحال لا تدوم ، وأن الأمة الإسلامية ستستأنف دورها ويعظم قدرها وتحفظ كيانها وترجع مجدها وتصون بيضتها وتقيم حجتها ، وتكون من أجلّ أمم العالمين كما قررناه فى هذا الكتاب وقررناه فى كل باب ، وليكونن للإسلام شأنه ، ولمجد العرب حسنه ، فالدهر قلب ، والزمان استدار ، ولينصرنّ الله الشرق وأهله ، ويعطى القوس من كان له ، ويرجع العلم إلى نصابه ، والسيف إلى قرابه ، وتدخل المدينة من بابها ، وتطلع الشمس من مشرقها بعد المغارب ، ويظهر جمالها فى تلك السباسب فيعز من كان ذليلا ، ويذل من كان عزيزا ، وتقر النواظر ، وتسر الخواطر ، وتشرح الصدور ، ويظهر السرور ، وزينه النور ، وتقوم دول كانت نائمة ، وتخنس أمم كانت قائمة (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .

القسم السابع من سورة آل عمران

وهو فصلان اثنان : الفصل الأول فى طلب اتحاد المسلمين (وأنتم خير أمة) . الفصل الثانى فى توصيف أعدائهم وإيجاب الاحتراس منهم .

الفصل

الفصل الأول

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *

بعد أن أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يخاطب أهل الكتاب تقريعا لهم لصدهم عن سبيل الله أخذ يخاطب هو سبحانه المؤمنين بنفسه تعظيما لهم وتكريما وإسعادا لهم وتشريفا ؟ قائلا (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم الخ). ذلك أن نفرا من الأوس والخزرج كانوا جلوسا يتحدثون فمرّ بهم شاس بن قيس اليهودى فغاظه تألفهم واجتماعهم ، فأمر شابا من اليهود أن يجلس إليهم ويذكرهم يوم بعاث ، وينشدهم بعض ماقيل فيه، وكان الظفر فى ذلك اليوم للأوس ففعل، فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا : السلاح السلاح، واجتمع من القبيلتين خلق عظيم وغضب الفريقان غضبا عظيما ، فتوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقال أتدعون الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فعلموا أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ؟ فألقوا السلاح واستغفروا وعانق بعضهم بعضا، وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما خاطبهم الله بنفسه بعد ما أمر الرسول أن يخاطب أهل الكتاب تشريفا لقدرهم وإعظاما لمقامهم ، فتراه يقول فيما تقدّم «قل يأهل

الكتاب تعالوا الخ » ولكن يقول هنا الله عز وجل مخاطبا المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب) يعنى شاسا اليهودى وأصحابه (يردوكم بعد إيمانكم كافرين) والكفر موجب لهلاك الدارين ؛ ولما كان المسلمون يتلون القرآن وفيه الإرشاد والنصائح كانت حالهم داعية إلى تعجب المتعجبين ، فإنه لايليق بهم التخاذل والانقسام بعد ماسمعوا من الحكم والأحكام ، فلذلك أعقبه بقوله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) ولما كان التعجب محالا على الله كان المراد منه المنع والتغليظ . قال قتادة فى هذه الآية علمان بينان : كتاب الله ، ونبى الله صلى الله عليه وسلم . أما نبى الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمة منه ونعمة (ومن يعتصم بالله) أى يستمسك بدينه فى الحلال والحرام وجميع الأحكام ويلتجئ إليه فى جميع الأمور (فقد هدى إلى صراط مستقيم) طريق واضح وهو الطريق المؤدّى إلى الجنة (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون) تقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ، كما قاله ابن مسعود ، وهذا ظاهره أنه خارج عن طاقة العبد ، ولكن المحققون حملوه على مايقدر عليه العبد ، فلو كان الإنسان ساهيا أو ناسيا غفر له ذلك ، وهؤلاء جعلوا قوله تعالى « فاتقوا الله ما استطعتم » فى سورة التغابن مفسرا لهذه الآية ، فهى محكمة لامنسوخة كما قاله ابن عباس ، وطاوس وغيرهم جعل الأولى منسوخة بالثانية كسعيد بن جبير وقتادة والسدى وقوله تعالى « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » أى لاتكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت ، فالنهى متوجه هنا للقيد الذى قيد به الموت (واعتصموا بحبل الله جميعا) إذ من تمسك بالحبل المتعارف نجا من التردى ، هكذا من تمسك بدين الإسلام أو القرآن نجا من الهلاك فى الدنيا والآخرة ، فالحبل مستعار للقرآن أو للدين ؛ ومعنى الاعتصام هنا الوثوق والاعتماد عليه ، وقوله جميعا أى مجتمعين عليه (ولا تفرّقوا) أى لاتتفرّقوا عن الحق بوقوع الاختلاف بينكم كما تفرّق أهل الكتاب وأهل الجاهلية (واذكروا نعمة الله عليكم) بالهداية والتوفيق للإسلام الذى يهدى إلى الائتلاف وكم لله من نعم غيرها (إذ كنتم أعداء) فى الجاهلية تتقاتلون (فألف بين قلوبكم) بالإسلام (فأصبحتم بنعمته إخوانا) متحابين مجتمعين فى الله ، يقال كان الأوس والخزرج أخوين لأبوين ، فوقع بين أولادهما العداوة وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة حتى أطفأها الله بالإسلام وألف بينهم نبينا صلى الله عليه وسلم (وكنتم) يامعشر الأوس والخزرج (على شفا حفرة من النار) على طرف حفرة مثل شفا البئر ليس بينكم وبين الوقوع فى النار إلا أن تموتوا على كفركم (فأنقذكم منها) أى خلصكم بالإيمان من الحفرة أو النار ، أو الشفا بمعنى الشفة أى الطرف (كذلك) أى مثل ذلك التبيين (يبين الله لكم آياته) دلائله (لعلكم تهتدون) ثم قال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) قوله منكم للتبيين : أى كونوا أمة تدعون إلى الخير الخ كقوله « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف الخ » والدعاء للخير يشمل كل مافيه صلاح دينى أو دنيوى ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أخص من الدعاء للخير ، ذكرا معطوفين عليه للتنبيه على فضلهما ، ويصح أن يقال ولتقم طائفة منكم بالدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف الخ على أن من للتبعيض ، ذلك لأن الدعاء للخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايقوم بهما إلا من استوفوا شرائط خاصة وهى فروض كفايات ، وفروض الكفايات متى قام بها قوم سقطت عن الباقين ولو تركوها أثم جميع المسلمين (وأولئك) الداعون الآمرون الناهون (هم المفلحون) الذين اختصوا بكمال الفلاح . روى أنه عليه الصلاة والسلام « سئل من خير الناس ؟ فقال آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم للرحم» (ولا تكونوا) يامعشر المؤمنين (كالذين تفرّقوا) وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى (واختلفوا) فى التوحيد والتنزيه وأحوال الآخرة وأمر الله ونهيه (من بعد

ماجاءهم البينات) الحجج المبينة للحق الموجبة للاتفاق عليه ، والتفرّق المذموم إنما هو فى الأصول دون الفروع لقوله عليه الصلاة والسلام «من اجتهد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد» (وأولئك المتفرّقون المختلفون (لهم عذاب عظيم) وقوله تعالى (يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه) منصوب بما فى لهم من معنى الفعل أى لهم عذاب عظيم يوم تبيضّ وجوه بالبهجة والسرور، وتسود وجوه بالكآبة والحزن ، فالبياض والسواد كنايتان عن ذلك (فأما الذين اسودت وجوههم) من أهل الكفر والردة والنفاق يقال لهم على سبيل التوبيخ والتعجب (أكفرتم بعد إيمانكم) إذ مكنتم بالفطرة من الإيمان أو آمنتم بالقرآن ، ثم كفرتم أو ارتددتم (فذوقوا العذاب) أمر إهانة (بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم (وأما الذين ابيضت وجوههم) من أهل الإيمان والمخلصين (ففى رحمة الله) أى جنة الله ، وعبر عنها بالرحمة لأنها دارها ولأن حياة الإنسان وعمله وما يترتب عليه كله من رحمة الله تعالى ، وجميع الوجود من رحمة الله ، وكأنه يقال أدائمة هذه الرحمة أم منقطعة؟ فقيل (هم فيها خالدون. تلك آيات الله) الواردة فى وعده ووعيده (نتلوها عليك بالحق) متلبسة بالحق فلا شبهة فيها (وما الله يريد ظلما للعالمين) وكيف يكون منه الظلم ، ولا ظلم إلا حيث يوضع الشئ فى غير موضعه ؟ ومن وضع الشئ فى غير موضعه تهدّم بنيانه وزال ملكه ، فليس ابيضاض بعض الوجوه واسوداد الأخرى وعذاب قوم ونعيم آخرين إلا على أساس ونظم ثابتة بموازين صادقة لحكم معلومة عنده فى كتاب مكنون ، والملك لاثبات له إلا على العدل والنظام ، ووضع الشئ فى موضعه ، ولو أن ملكه أسس على غير العدل لزال ، ولكننا وجدنا مثل السموات والأرض منه منظما دائما ؛ فالعدل إذن ثابت أزلا وأبدا ، ولذلك أعقبه بقوله (ولله مافى السموات وما فى الأرض) وقد قاما على العدل ولولاه لفنيا ، وهو كما أسس ملكه على العدل لايبقى من الأمم إلا العادلة ولا يرفع عنده إلا العادلون ، ولذلك قال (وإلى الله ترجع الأمور) فيبقى الأمم مادامت نافعة مضاهية لنظامه ويفنيها إن ظلمت . هكذا يثيب ويعاقب الناس على مقتضى ذلك ؛ ولما كان المسلمون العاملون بمقتضى القرآن الذين يعتصمون بحبل الله جميعا ولا يتفرّقون الداعون إلى الخير الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر أقرب إلى الخير والعدل، كما أن السموات والأرض أسستا على العدل . قال الله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أى أظهرت لهم أى ماأخرج للناس خير من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بين كونهم خير أمة فقال (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فهذه هى المزية التى فضل المسلمون بها سائر الأمم ، وهذه المزية لاتتم إلا بشرطها وهو الإيمان ، فلذلك قال (وتؤمنون بالله) ثم ذكر على سبيل الاستطراد أهل الكتاب ، فقال (ولو آمن أهل الكتاب) من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم (لكان خيرا لهم) مما هم عليه من اليهودية والنصرانية (منهم المؤمنون) كعبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا من اليهود والنجاشى وأصحابه الذين أسلموا من النصارى (وأكثرهم الفاسقون) المتمردون فى الكفر طلبا للمناصب والرياسة ، وبهذا تم الفصل الأول من القسم السابع .

الفصل الثانى من القسم السابع

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ * ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ

حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين * إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط *

لقد عمد رؤساء اليهود إلى من آمن منهم فآذوهم فأنزل الله (لن يضروكم إلا أذى) ضررا يسيرا كطعن فى الدين وتهديد (وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار) منهزمين فلا يضروكم بقتل أو أسر (ثم لاينصرون) وهذه الجملة ابتداء إخبار معطوفة على جملة الشرط والجواب فكأنه قيل أخبركم أنهم إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم أخبركم أنهم لاينصرون ، وهذه الآية قد تحقق ماجاء فيها من الغيب ، فإن بنى قريظة والنضير ويهود خيبر قد غلبوا ، فمنهم من قتل ومنهم من نفى وأخرج من الديار (ضربت عليهم الذلة) هدر النفس والمال والأهل والتمسك بالباطل والجزية (أين ماثقفوا) وجدوا (إلا بحبل) عهد (من الله وحبل من الناس) أى إلا بعهد وذمة من الله وكتابه وذمة المسلمين أو إلا بدين الإسلام واتباع سبيل المسلمين (وباءوا بغضب من الله) رجعوا به (وضربت عليهم المسكنة) فهى محيطة بهم كما يحيط البيت المضروب على أهله ، ويقال إن اليهود غالبا أذلاء إذ ليست لهم دولة ولا ملك (ذلك) أى ماذكر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بغضب (بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) بسبب كفرهم وقتلهم (ذلك) الكفر والقتل (بما عصوا وكانوا يعتدون) بسبب عصيانهم واعتدائهم حدود الله (ليسوا سواء) أى ليس أهل الكتاب سواء فى المعاصى (من أهل الكتاب أمة قائمة) جماعة مستقيمة عادلة من أقمت العود فقام وهم الذين أسلموا منهم (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) يتلون القرآن ساعات الليل « يقال إنى كمعى أو أنو كقنو » وهم يصلون متهجدين

(يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف) كالإيمان وسائر أبواب البر (وينهون عن المنكر) الكفر ومنهيات الدين (ويسارعون فى الخيرات) يبادرون إليها خشية الفوت ، وهذه الصفات خاصة بمن أسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، أما أولئك الذين لم يسلموا فهم لايصلون بالليل ولايؤمنون بالله إلا إيمانا مشوبا بالشرك ، وهكذا بقية الصفات (وأولئك) الموصوفون بما ذكر (من الصالحين) الذين صلحت أعمالهم وأحوالهم عند الله فرضى عنهم (وما يفعلوا من خير فلن يكفروه) فلن يحرموا جزاءه (والله عليم بالمتقين) بشارة للمتقين بجزيل الثواب (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من) عذاب (الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقوله تعالى (مثل ماينفقون فى هذه الحياة الدنيا الخ) أى فى المفاخر والمكارم وكسب الثناء وحسن الذكر بين الناس أو مايتقربون به إلى الله وهم كافرون ، أى مثل إهلاك ماينفقون (كمثل) إهلاك (ريح فيها صر) برد شديد (أصابت حرث) زرع (قوم ظلموا أنفسهم) بالكفر (فأهلكته) عقوبة لهم على كفرهم (وما ظلمهم الله) بإهلاك زرعهم (ولكن أنفسهم يظلمون) . واعلم أن هذه الصفات من ضرب الذلة والبوء بالغضب والكفر وقتل الأنبياء والعصيان والاعتداء وعدم نفع أموالهم لهم وكونهم أصحاب النار ، وأن ماينفقونه ضائع لاتلائم صفات المؤمنين الذين يتلون آيات الله ، ويسجدون ويؤمنون بالله ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وإذا فعلوا خيرا نالوا ثوابه والله عليم بهم ، وهذا بشارة لهم فهذه تسع صفات لمؤمنى أهل الكتاب تقابل تسع صفات للكافرين منهم كما يقابل الليل النهار ، والظلمة الضياء ، والعدم الوجود ، وأنت تعلم أن العداوة إنما تنشأ من اختلاف الصفات ، وتباعد الأخلاق ، ومن تباعدت أخلاقهم وتنافت صفاتهم وآدابهم لايتناصحون . بل يتنافرون ، ولذلك أعقبه بما ترتب عليه من النصيحة للمؤمنين أن لايتخذوا لهم منهم أصدقاء يفشون لهم أسرارهم فقال (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة) بطانة الرجل ووليجته صفيه شبه ببطانة الثوب ، ويقال فلان شعارى والشعار الثوب الذى يلامس الجسم بخلاف الدثار (من دونكم) من دون المسلمين ، أى بطانة كائنة من دونكم (لايألونكم خبالا) أى لايقصرون لكم فى فساد دينكم ودنياكم ، يقال ألا فى الأمر يألو: قصر فيه ، والخبال الفساد (ودوا ماعنتم) أى ودوا عنتكم أى شدة ضرركم ومشقتكم أى تمنوا أن يضروكم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر وأبلغه ، وهذه جملة مستأنفة وهم مع ضبطهم أنفسهم يتفلت من ألسنتهم مايعلم به بغضهم للمسلمين (قد بدت البغضاء من أفواههم) :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(وما تخفى صدورهم أكبر) مما بدا لأن بدوه ليس عن روية واختيار ، ولما كان أكثر الناس يغفل عن كشف البواطن بفلتات اللسان أعقبه بقوله (قد بينا لكم الآيات) الدالة على علامات الأعداء وموالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين (إن كنتم تعقلون) مابيناه لكم والجمل مستأنفة ، ويجوز أن تكون الثلاثة الأولى صفة لبطانة (ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم) أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاة الكفار من يهود ومنافقين وغيرهم وإفشائكم الأسرار لهم إما لقرابة أو مصاهرة أو غيرها تحبونهم فتفشون لهم أسراركم ولا يحبونكم فلا يفعلون مثل ذلك معكم وهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم لأنهم لايؤمنون بكتابكم (وتؤمنون بالكتاب كله) ومنه كتابهم (وإذا لقوكم قالوا آمنا) نفاقا (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) من أجل الغيظ تأسفا وتحسرا حيث لم يجدوا إلى التشفى سبيلا (قل موتوا بغيظكم) دعاء عليهم بدوام الغيظ بتضاعف قوة الإسلام (إن الله عليم بذات الصدور) أى بالخواطر القائمة بالقلب ، ولما كانت حالة فى القلب كنى عنها بذات الصدور فهو يعلم مايسرونه من عض الأنامل غيظا إذا خلوا وما هو أخفى منه وهو

مايسرونه فى قلوبهم (إن تمسسكم حسنة) من خير ومنفعة (تسؤهم، وإن تصبكم سيئة) من ضرّ وشدّة (يفرحوا بها) شماتة وذلك لتناهى عداوتهم، فهم تارة حساد وتارة شامتون (وإن تصبروا) على عداوتهم وعلى مشاقّ التكاليف (وتتقوا) موالاتهم وما حرّم الله عليكم (لايضركم كيدهم) عداوتهم ومكرهم (شيئا) لأن المتقين فى كنف الله والصابرين الذين اطمأنت نفوسهم للحوادث يقل انفعالهم لما يصيب من المكروه (إن الله بما تعملون) من الصبر والتقوى (محيط) علمه فيجازيكم بما أنتم أهله ، وقد قرئ بالياء أى بما يعملون فى عداوتكم فيعاقبهم . انتهى القسم السابع وتفسيره اللفظى .

وهنا لطائف : اللطيفة الأولى (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) . الثانية (وما الله يريد ظلما للعالمين ولله مافى السموات ومافى الأرض) . الثالثة (كنتم خير أمة أخرجت للناس) . الرابعة (ضرب الذلة والمسكنة على اليهود) . الخامسة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . السادسة (اتخاذ البطانة من الأعداء) .

اللطيفة الأولى

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الواردين فى هذه الآيات

قد تقدّم الكلام عليهما فى آخر سورة البقرة عند قوله تعالى (لايكلف الله نفسا إلا وسعها) وبينا هناك العلوم والصناعات الواجبة على الأمة ، فكل علم وكل صناعة وكل فن من الفنون ووعظ وإرشاد يجب على الأمة وقد بينا هناك أن الأمة الإسلامية اليوم قد تناهت فى الكسل فأحاطت بها أمم أوروبا وهكذا ، قد ألفت كتابا يسمى (القرآن والعلوم العصرية) بينت فيه أن الصناعات والعلوم واجبة على الذين لهم طاقة وقدرة من الأغنياء وغيرهم ، وأرسلت ذلك الكتاب والمجلد الأول من هذا التفسير المشتمل على الفاتحة والبقرة إلى سائر الأمم الإسلامية شرقا وغربا وأرسلتهما إلى ملوك الإسلام لأؤدى ما علىّ قبل الفوت ، فكل من عنده علم وكتمه عاقبه الله عز وجل على كتمانه وتهاونه وغفلته والذى أضرّ بالأمم الإسلامية ظنها أنها ليست ملزمة من العلوم إلا بالفقه ، وهذا ضرب من الحماقة والجهل العظيم .

اللطيفة الثانية

قوله تعالى (وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله مافى السموات وما فى الأرض)

لما كان الكلام السابق فيه قوم ابيضت وجوههم وآخرون اسودت وجوههم وقوم كفروا وآخرون آمنوا وقوم يعذبون وآخرون ينعمون ، وكان الخلق كلهم عباد الله وخلقه أردفه بقوله (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) فلا شبهة فيها ، وليس الله يريد ظلما للعالمين ، وإنما عمله عز وجل سائر على نظام أكمل والعدل إنما هو النظام التام ، وليس العدل ماتتعارفونه بينكم . وإنما هو نظام العالم العام ، فإذن يكون العذاب والنعيم والكفر والإيمان من كمال ذلك النظام التام فى السموات والأرض (ليس فى الإمكان أبدع مما كان) وإذا أردتم التثبت من هذه النظرية ، فتأملوا فى السموات والأرض تجدوا العدل فيهما من ظلمة ، ونور ، وأرض ، وسماء ، ورفع ، وخفض فلا تبتئسوا بما ترون فذكر السموات والأرض فى هذا المقام لتبيان العدل ، وهذا المقام يحتاج لإيضاح ، فأقول :

(١) نظرة فى العوالم المشاهدة الأرضية (٢) نظرات القرآن فيها (٣) لم ذكرت السموات والأرض فى مواضع كثيرة فى القرآن .

(١) نظرة فى العوالم المشاهدة الأرضية

إذا تأملت أيها الذكى فيما ترى فإن فى الشجر والزرع والعنب مقاصد شتى . ألم تر أن النخل نقصده لمآرب شتى ، فالجذع لسقوف بيوتنا ، والجريد لسقائف تفيأ ظلالها ، والخوص لأسفاطنا نضع فيها أمتعتنا ،

والليف للحبال نشدّ بها ما أردنا ، والتمر نتغذى ونتفكه به . هكذا التين والرمان وغيرهما لنا فيها مآرب شتى من فاكهة بثمره ودواء بورقه وتسوية طعام بخشبه وتفيؤ الظلال بشجره ، وهو قائم وهكذا .

هذه هي الفوائد التي ننالها في حياتنا الدنيوية .

(٢) نظرات القرآن فيها

ولقد ذكر الله الزرع والنخل تارة للاستدلال على الخالق ، وتارة على البعث ، وتارة على فناء المجانس ، وتارة على قرب الارتحال وهكذا .

(٣) فأما عالم السموات

فقد جاء ذكره في القرآن كذلك وفي كل موطن له مقصد جيء فيه لأجله، ألاترى إلى ماجاء في سورة البقرة في قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء الخ) للاستدلال على إثبات الألوهية ، وفي قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض الخ) للاستدلال على الوحدانية بالوحدة في هذا الكون ، وفي سورة آل عمران في قوله تعالى (إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) للاستدلال على سعة علمه ، وهنا في هـذه الآية للاستدلال على عدم ظلمه يقول هنا (وما الله يريد ظلما للعالمين) فإن كنتم في شك من ذلك ، وقد رأيتم وجوها ابيضت وأخرى اسودت وقوما كفروا وآخرين آمنوا فلا تعتبروا هذا ظلما ، وأنتم لاتعلمون نهايات أعمالي فأنا لاأريد الظلم ، والظلم يتبعه الخراب والدمار والسموات والأرض باقيات آمادا طوالا ، وإذا انتهت أيامها بدلت الأرض غير الأرض والسموات غير السموات والنظام في الحالين تام ، فإذا كان هذا هو نظامي وهو لاخلل فيه فهو عين العدل، فإذن يكون ماترون من كفر وإيمان ونعيم وعذاب كله من تمام النظام، فقوم يسجنون وآخرون يكرمون ، والنظام بهذا الاختلاف تام لاعوج فيه ، ومع ذلك كله فليس لكم الخوض في هذا لأنكم لاتدرون غاياته ولا تعرفون نهاياته لأن عواقب الأمور ليست إليكم حتى تحكموا عليها ، وإنما الأمور راجعات إلى الله . فانظروا لظواهر الكون وسلموا بأن الله عدل . فأما الحقائق ونهاياتها فلا طاقة لكم بعلمها وإنما إلى الله ترجع الأمور اهـ .

واعلم أن الكلام على السموات والأرض قد تقدّم في قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان) فهناك مقال شاف في عدد السموات وحقائقها وآراء المتقدّمين والمتأخرين ، وهكذا بيان الوحدة في هـذا الوجود في قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض) وإيضاح الأرض وفهمها ، ثم الكلام قـد تقدّم في أول السورة على حركات الكواكب وعجائب النظام لبيان علم الله فارجع إليها هناك في كل مقام بحسبه ، وهكذا سيأتي في آخر هذه السورة النظر في السموات للذكر والتفكر ودوام ذكر الله في القيام والقعود ، وإن هـذا الخلق لم يكن باطلا فتعجب من غفلة بعض المسلمين الذين يقرءون القرآن وهم عن الأرض والسموات معرضون .

يقول مؤلف هذا الكتاب قل للمسلمين في أقطار الأرض إن القرآن جعل الله فيه السموات والأرض لبيان العدل وجمال الصنعة واتساع العلم ، وكل ذلك لإرشادكم إلى النظر والتفكر والبحث والتدقيق ، فإن ذكرهن للعلم تارة ذكرهنّ للعمل والانتفاع أخرى . ألم يقل في سورة البقرة (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا) طالت الآيات التي فيها اختلاف المسلمين والنصارى واليهود ، فأراد الله أن يقول ارجعوا لي وانظروا في سمواتي وأرضي ولا يشغلنكم الاختلاف الديني عن النظر الطبيعي .

ولما كان الكلام على السموات قد أسهبنا فيه سابقا ، وكان ذكرها لأجل العدل لم يكن إلا في هـذه الآيات ناسب أن نذكر وصف العلامة (فلامريون) الفلكي المشهور فنقول :

كيف يقوى الفكر البشرى على الإحاطة بما لايتناهى من الشموس والكواكب التى لاتعرف نهاياتها .
فتأمل وصف (فلامريون) له وصفا سهلا يشهد بالعدل فى النظام والتساوى فى الأحكام ، وإن سكان كل كوكب كأهل أرضنا يرون أقدار الكواكب وإعدادها على النحو الذى نراه نحن فهذا عدل عام ، وهذا مبدأ قوله : يا أيها القارىء الكريم إنه لو أتيح لنا أن نعيش ملايين للملايين من السنين ، وأن تكشف طريقة للمواصلات أسرع من القطرات والأوتوموبيلات والطيارات طريقة يمكننا السير بها بسرعة النور أى بسرعة ٣٠٠ ألف كيلومتر فى الثانية .

فإذا تم ذلك لنا أصبحت الكرة الأرضية ضيقة بنا وصرنا بطبيعة الحال نتوق إلى الطواف حول هذا الكون الواسع فنخرج من الأرض الضيقة غير آسفين عليها قاصدين أقرب الكواكب وهو القمر الذى يبعد عنا ٣٨٩ ألف كيلومتر . ولكن هذه المسافة الهائلة نقطعها فى ثانية وثلث بسيارتنا المدهشة التى تسير بسرعة النور ، ومتى وصلنا إلى القمر رأينا الأرض منه كوكبا يزيد حجمه أربعة أضعاف عن حجم البدر لما كنا ننظر إليه من الأرض .

ثم ننقل منه إلى المريخ وهو أقرب السيارات إلينا وعلى مسافة خطوتين منا حسب الاصطلاح الفلكى لأنه لايبعد عنا سوى ٦٠ مليون كيلومتر .

والمريخ أصغر من الأرض لايزيد قطره عن نصف قطرها إلا قليلا ، ومادته نحو عشر مادتها ، وجوه أقل كثافة من جوها ؛ ومتى وصلنا إلى المريخ رأينا سكانه — إذا كان فيه سكان — ينظرون إلى أرضنا التى هى نجمة الصبح عندهم كما ننظر نحن إلى الزهرة ، ويسألون هل هى مسكونة أم لا ؟ وقد أجمعوا على أنها غير صالحة للسكنى لأن هواءها ثقيل جدا ، فالثقل النوعى فيها أضعافه فى المريخ ، وكذلك السرعة ؛ فالرجل الذى يزن فى المريخ خمسة وسبعين كيلوغراما يزن على الأرض أكثر من مائتى كيلوغرام ، والجسم الذى يقع من علو شاهق يقطع فى المريخ مترا و٨٤ سنتيمترا فى الثانية ، وهذا منتهى ماتستطيع أن تقطعه الأجسام فى عالم صالح للحياة على رأى علماء المريخ أما على الأرض ، فالجسم الذى يقع فيها من أعلى إلى أسفل يقطع أربعة أمتار وتسعين سنتيمترا فى الثانية ، ثم تزداد سرعته على نسبة مربع البعد . لذلك قرر علماء المريخ أن الأرض غير صالحة للحياة ، ولاسيا أن قربها من الشمس يحول دون نمو الحياة فيها . أما المريخ فهو الكرة المتوسطة الصالحة للحياة إذ لابرد ولا حر فيها .

وهذا القول نسمع مثله فى كل السيارات والكواكب الآهلة بالسكان والتى نمر بها فى سياحتنا المدهشة ثم نبرح من المريخ إلى زحل الذى يبعد عن الشمس نحو ٨٨٢ مليون ميل فنصل إليه فى نحو سبع دقائق إذا سرنا بسرعة النور ، ويبلغ حجم زحل ٧٤٥ ضعفا من حجم الأرض ، والسنة فيه تعادل ٢٩ سنة تقريبا من سنى الأرض ، ولهذا السيار تسعة أقمار لاترى من أرضنا إلا بالمنظار .

وبعد مانجتاز السيارات واحدا فواحدا نصل إلى نجم (ألفا) الذى هو أقرب النجوم إلى الشمس لأنه لا يبعد عنا سوى ٢٧٦ ألف ضعف بعد الشمس ؛ فالقطار الذى يسير إليه بسرعة ٦٠ كيلومترا فى الساعة لايبلغه إلا بعد ٧٥ مليون سنة ، ولا تصل القنبلة إليه إلا بعد مليون ونصف مليون سنة بعد انطلاقها ، وإذا وقع فيه انفجار هائل فإننا لانسمع صوت الانفجار إلا بعد مرور ثلاثة ملايين سنة على وقوعه .

وإذا وصلنا سيرنا مسافة مائة مليار كيلومتر بلغنا نجما يعده علماء الفلك من نجوم القدر الثانى عشر ، ثم نجما آخر يبعد عن الأرض ٦٥٢٠ سنة إذا سرنا إليه بسرعة النور ، ثم آخر وهكذا على التوالى .

وكلما تقدمنا فى الفضاء اللامتناهى رأينا عوالم جديدة يتألف كل منها من ألوف من الشموس ، ويعد

الواحد عن الآخر مليارات المليارات من الأميال إلى أن نصل إلى المجرّة التى تبدو لسكان الأرض ذرات من الرمال كل ذرة منها شمس محرقة .

ثم نبلغ بعد مانسير ألوفا أخرى من السنين بسرعة النور إلى مجرة أخرى فأخرى إلى مالا نهاية لها ، فنقضى عمرنا الذى فرضناه ملايين الملايين من السنين ، ونحن فى وسط الفضاء اللامتناهى لم نتقدم خطوة ولم نبلغ غاية، وكثيرا مانشاهد حولنا فى إبان سيرنا فى الفضاء بسرعة النور عوالم مندثرة تدلنا على أن كل شئ فى الكون عرضة للموت ، ولكنه ينبعث بشكل آخر . ولايتغير منظر السماء علينا فى هذه الرحلة الهائلة إلا فى وضع النجوم ، وإذا حاولنا أن نكشف موضع الأرض اضطررنا إلى البحث عن مركز الشمس . أما النجوم فتكون بالنسبة إلينا كما كانت ونحن على الأرض ، فإذا أحصيناها من أى محل كان وجدناها ١٩ نجما من القدر الأول و٦٠ من القدر الثانى و١٨٢ من القدر الثالث و٥٢٠ من القدر الرابع و١٦٠٠ من القدر الخامس و٤٨٠٠ من القدر السادس (وهذا كل مايرى بالعين المجردة) و١٣ ألفا من القدر السابع ، ثم يزداد عددها سرعة كما لو كنا نرقبها من الأرض حتى يبلغ عدد نجوم القدر الخامس عشر ٤٠ مليونا . أما نجوم القدر السابع عشر والثامن عشر فلا تقع تحت حصر . فنستدل من ذلك على أننا لو سرنا فى الفضاء بسرعة النور مليارات المليارات من السنين لما تغير شكله بالنسبة إلينا ، ولما اختلفت مناظره كثيرا عما كانت عليه ونحن فى الأرض .

ونقول الآن : إن الحياة موجودة فى النظام الشمسى موجودة فى الأرض بلا جدال، وموجودة فى المريخ والزهرة على الغالب ، وإن السيارات الأخرى كعطارد والمشترى وزحل وغيرها ليست قفراء ، ولكن سكانها يختلفون عنا على مايظن اختلافا كبيرا فى تركيبهم الكيماوى .

وكما أن للشمس ثمانى سيارات يتألف منها نظامنا الشمسى كذلك النجوم التى كل منها شمس هائلة فقد أثبت العلم أن للنجوم سيارات عديدة، ورصد العلماء أخيرا بعض هذه السيارات وعرفوا كثيرا عن أحوالها.

ولا يخفى أنه كان للعلوم الرياضية شأن كبير فى الاكتشافات الفلكية ، فلولاها لما اكتشف السيار نبتون ولولاها لما عرف شيء كثير عن حقيقة العوالم السابحة فى الفضاء اللامتناهى ، وقد لجأ علماء الفلك إلى الرياضيات فى تقدير عدد العوالم الآهلة بالسكان ، فقالوا إذا فرضنا أن لكل من النجوم المعروفة لدينا ثمانى سيارات كما للشمس وأن ثلاثا من هذه السيارات الثمانى تصلح للحياة كان عدد العوالم الآهلة بالإحياء ٣٠٠ مليون أرض كأرضنا على أقل تقدير لأن ما أحصى من النجوم حتى القدر الخامس عشر بلغ مائة مليون نجم إلى الآن . أما نجوم القدر السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر الخ التى لايحصيها عدّ ولا تقع تحت حصر فلم تدخل فى حسابنا لأننا اقتصرنا على النجوم التى رصدها البشر ودرسوها . على أن ماقيل عن النجوم المعروفة يقال مثله عن النجوم التى لم يتوصل البشر بعد إلى معرفتها ، وحينئذ يصير عدد العوالم الآهلة بالأحياء أعظم من أن يحدّه رقم أو يقع تحت حصر .

ولاندرى لماذا يكون بين سيارات النظام الشمسى سيارات تصلح للحياة ، ولا يكون مثل ذلك بين سيارات النجوم ، وقد ثبت أن النجوم ليست سوى شموس عظيمة لها سيارات كما للشمس ، ولكل نجم منها نظام مستقل كالنظام الشمسى مرّ أو سيمرّ فى مثل الدور الذى تجتازه الشمس وتوابعها الآن . فكما أن النظام الشمسى كان سديما واحدا ، ثم تجزأ أجزاء عديدة ، ثم جمدت هذه الأجزاء كذلك بعض النجوم ؛ وكما أن نور الشمس يحتوى على أشعة ضرورية للحياة كذلك نور النجوم فضلا عن أن للمواد التى تتألف منها الشمس والسيارات هى المواد عينها التى تتألف منها النجوم كلها تقريبا . فلماذا نريد أن نحصر الحياة فى نظامنا الشمسى

بل فى الأرض التى تعيش على سطحها ، وليست الحياة الأرضية من أرقاها (الإنسان) إلى أدناها (الإسفنج والمرجان) سوى نتيجة القوى الطبيعية العاملة فى الأرض ، وفى كل كوكب تتوافر لما فيه شروط العمل المتوافرة بلا جدال فى جميع العوالم السماوية مهما اختلفت أحوالها .

والظاهر أن أقدم الأحياء الأرضية ظهر لما كانت المياه لاتزال حارة ، ونشأ عن مزيج قوامه الكربون المتحد بالأوكسيجن والهيدروجن ، ولم يكن لهذه الأحياء حينئذ سوى شعور طفيف كشعور الإسفنج والمرجان ثم ظهرت اليابسة وظهرت معها الأحياء التى تتنفس ومنها الأفاعى ثم الطيور والوحوش ثم الإنسان .

فالكربون إذن هو العنصر الأساسى فى الحياة الأرضية ، وليست الكيميا العضلية سوى كيميا الكربون كما يقال ، والكربون موجود فى جميع السيارات التى لابد أن تكون قد مرت أو ستمر فى دور يمكنه من الاتحاد بالأوكسيجن والهيدروجن بفعل قوى الطبيعة العاملة فى كل مكان فتظهر بذلك الحياة كما ظهرت على الأرض .

وإذا لم يصح هـــذا القول إلا على سيارة واحدة من السيارات التابعة لكل نجم معروف كان لنا ١٠٠ مليون عالم آهلا بالسكان . أما إذا صح على ثلاث سيارات ، كما يرجح أن يكون فى السيارات التابعة للشمس فيزيد عدد العوالم المسكونة حينئذ على ٣٠٠ مليون ، وإذا اتخذنا هذه النسبة أساسا للبحث فيما يحتمل أن تكون عليه السيارات التابعة للنجوم التى لم يتمكن العالم من التعرف إليها بعد . بلغ عـدد العوالم المأهولة بأحياء كالأحياء الأرضية حدا لايحصيه عدّ ولا يحده حدّ .

ولنعد الآن إلى البحث فى الأحياء الذين يختلفون عن الأحياء الأرضية فى تركيبهم الكيماوى .

لقد تقدم القول بأن الكربون هو قوام الأجسام الحية فى الأرض ، وإن الكربون خصائص ومزايا لايظهر تأثيرها إلا فى أحوال شبيهة بأحوال الأرض من الوجهة الطبيعية . لذلك لايحتمل أن يكون فعله فى نبتون مثلا كفعله فى الأرض لاختلاف أحوال هذه السيارة من حيث الحرارة وكثافة النور وطبيعة المواد الموجودة فيها عنها فى أرضنا ، ولكن القول بأن هـــذه السيارة والسيارات الأخرى كالمشترى وزحل وأورانوس وغيرها غير صالحة للحياة أبعد عن العقل والمنطق من القول بأن فيها أحياء يختلفون عنا فى تركيبهم الكيماوى لهم جهاز هضمى غير جهاز ناورئات غير رئاتنا وحواس غير حواسنا .

وإذا كان الكربون لا يصلح لأن يكون عنصرا جوهريا لهذه الأحياء ، ففى الطبيعة عناصر أخرى يمكنها أن تحل محله لنأخذ عنصر السيليسيا مثلا فإنه شديد الشبه بالكربون ينشأ عن اتحاده بالأوكسيجن حامض السيليسيك الموجود بكثرة فى كل سيارة ، وتظهر بعض تراكيبه بمظاهر غريبة منها خلايا كخلايا النبات ونباتات كالنباتات الدنيا ؛ على أن هذه الخلايا ليست حية ، وإن تكن شبيهة بالخلايا الحية ، ولكن من منا كان يعلم قبل سنوات مانعلمه اليوم عن حياة الإسفنج ، وما الذى يدلنا على أن عنصر السيليسيا ليس فى العوالم الأخرى قواما للحياة كالكربون فى عالمنا الأرضى ، وهو أكثر منه تحملا للحرارة فلا يحل فى درجة شديدة الحرارة ولا يجمد فى درجة شديدة البرودة .

والأحياء الذين يحتمل وجودهم فى العوالم الأخرى ليسوا على شاكلتنا بلا جدال فهيئاتهم غير هيآتنا ، وحواسهم غير حواسنا وتركيبهم الكيماوى غير تركيبنا .

ولسنا ندرى لماذا يصعب على العقل التسليم بوجود حواس غير حواس البشر ، وأحياء غير الأحياء الأرضيين وكلنا يعلم أن الأرض بالنسبة إلى العوالم الأخرى أصغر من ذرة رمل فى صحراء أفريقيا وأن حواسنا قاصرة جدا عن إدراك كثير مما يقع حولنا .

خف

خذ مثلا اهتزازات أوتار العود ، فإذا بلغت ٣٢ فى الثانية أثرت فى طبلة الأذن وأسمعتنا نغما أو صوتا ، وكلما زاد عدد الاهتزازات اختلفت الأصوات إلى أن تبلغ ١٠٣٤ اهتزازا فى الثانية ، وتبدأ الأذن تتألم بعد مايزيد عدد الاهتزازات على ٧٠٠٠ فى الثانية ، ومتى بلغ عددها ٣٢ ألفا استحال على الأذن أن تسمع شيئا أما الاهتزازات التى يبلغ عددها ٣٤ مليارا فى الثانية ، فلا تقع تحت حاسة من حواس البشر لأنها تصير تموّجات كهربائية .

وتحدث التموجات التى يبلغ عددها بين ٣٤ مليارا و ٣٥ مليارا فى الثانية أشعة موجودة ، ولكن العلم لم يعرفها بعد ، وتختلف تموّجات النور بين ٤٥٠ إلى ٧٥٠ تريليون فى الثانية ، وتبتدئ من الأحمر إلى البنفسجى مارّة بجميع الألوان ، والتموّجات الأقل عددا من تموّجات النور الأحمر هى أشـعة الحرارة ، والتموجات التى تزيد عددا على تموّجات النور البنفسجى أى على ٧٥٠ تريليون فى الثانية هى أشعة لاتؤثر فى العين ، ولكنها تؤثر فى الألواح الفوتغرافية .

ومتى بلغت التموّجات ٢٨٨ كترليون فى الثانية نشأت عنها أشعة رنتجن ، فلو أن بصرنا يحس بهذه التموّجات لما كان للألوان أثر فى الوجود بل كانت الأرض تظهر لنا بمظهر غريب ، فنرى البشر هياكل عظمية ، والأشجار عبارة عن سائل متجمد ، وإذا شئنا حينئذ أن نتستر وجب علينا أن نرتدى لباسا من الزجاج والرصاص ، وأن نجعل نوافذنا من الخشب بدلا من الزجاج .

أما إذا استطاع بصرنا أن يشعر بتموّجات أسرع من هذه التموّجات ، فإنه يرينا عجائب لاتخطر على بال إنسان .

فهل يبعد أن يكون للأحياء غير الأرضيين حواس تجعلهم يشعرون بهذه الأشعة التى لانشعر بها نحن لضعف حواسنا وقلتها .

إن الحركة هى أساس كل شئ فى هذا الكون ، فالتموجات تسمع إذا كانت أقل من ٣٢ ألفا فى الثانية ، ومتى زادت عن ذلك تحولت إلى ألوان ثم إلى أشعة كهربائية فنورية فكيماوية ، ومعظمها لايقع تحت حواسنا ، وإن كنا نعرف نتائجه ونراها ، فلماذا يصعب على العقل أن يسلم بإمكان وجود حواس غير حواس البشر تحس بهذه المظاهر وأمثالها ؟.

إن جميع مافى الكون من عوالم ومجرات وشموس ونجوم وأقمار مرّ أو يمرّ الآن أو سيمر فى المستقبل بمثل الدور الذى يجتازه اليوم عالمنا النجمى وعالمنا الشمسى أى دور صالح لنمو الحياة ، فقبل مئات الملايين من القرون كانت عوالم كثيرة كعالمنا الحالى موجودة فى الطبيعة ، ولكنها ليست العالم الذى نحن فيه لأن تلك العوالم قد دمرت الآن ، ولأن عالم اليوم لم يكن موجودا فى تلك الأثناء .

كانت حينئذ نجوم وشموس وأقمار وسيارات وأيام وليال وقرون وفصول وسنوات وأحياء وحوادث ، ولكن غير النجوم والشموس والكواكب والأحياء الخ الموجودة اليوم .

الأرض التى نحن عليها لم تكن قد تكوّنت بعد ، بل كانت سديما ليس فيه ماء ولا هواء ولا حياة ولا شئ من العناصر التى يسميها الكيماويون بسيطة كالهيدروجن والأوكسيجن والحديد والأزوت وغيرها كانت كلها غازا ملتهبا يحتوى على جراثيم الحياة وبذور الوجود إذا صح هذا التعبير .

الإنسانية وتاريخها والبشر ومجهوداتهم ، وكل مافى الأرض من جماد وحيوان ونبات لم يكن موجودا فى هذا السديم إلا بهيئة نطفة أو جنين ، ولم يكن محل الأرض سوى غاز متموّج فى وسط الفضاء اللامتناهى وقد قلنا محل الأرض وذلك خطأ ، لأن الأرض كسائر النجوم والشموس والسيارات لاتمكث دقيقة فى محل واحد بل تسير على الدوام فى الفضاء الواسع .

لم تكن أرضنا موجودة حينئذ بل كانت نجوم وشموس وسيارات أخرى آهلة بالسكان كما هي الحالة اليوم وكان هؤلاء السكان يعيشون ويموتون ويتألمون ويسرون ويحبون ويكرهون ويتكاثرون جيلا بعد جيل مثلنا تقريبا وكانت لهم حضارة وشرائع وعلوم وآداب تتناسب مع درجة رقيهم في مختلف الأدوار التي مروا بها .

وكانوا يعتقدون كما نعتقد أن الخليقة كلها تقف عندهم ولا تتعدى دائرة فلكهم - وقد انقرضوا كما سننقرض نحن لأن الأبدية التي لا بداية ولا نهاية لها لاتجرف أمامها الممالك والدول والشعوب فقط بل تجرف العوالم التي توالت ، وستتوالى إلى الأبد . أما الطبيعة فهي القوة الخالدة التي تعمل على الدوام إنها باقية ، وكل ماعداها فان لأن الماضي والمستقبل غير موجودين في نظرنا لأن الحاضر هو كل شئ بالنسبة إليها .

وإن محاولتنا البحث فيما كانت عليه هذه العوالم كمحاولة النملة درس تاريخ الأرض ، فكما أن النملة تظن تاريخ البشرية محصورا في تاريخ وكرها كذلك نحن ، وكما أنها تظن نفسها صاحبة الحقل الذي تعيش فيه ، وتعتقد أن كل مافي الكون ملك لها ، وتجهل وجود أحياء أخرى غيرها كذلك نحن بالنسبة إلى العوالم الأخرى ، فما يمكننا والحالة هذه أن نعرفه عن العوالم المنقرضة أقل بكثير مما قد تعرفه النملة عن عالمنا الأرضي .

وليس من السهل على عقلنا المحدود أن يتصور الأبدية التي لاحد لها ، وأن يقتنع بأن عوالم أخرى قبل عالمنا الحالي كانت تدور حول شموسها منذ الأزل ، وأنه لم يكن لها بداية ولن يكون لها نهاية ، ولكنها هي الحقيقة التي تدل على عظمة الخالق وجلال الخليقة .

وبعد مئات الملايين من القرون تصبح الأرض التي نحن عليها صحراء قاحلة ، لأن عالمنا الشمسي لايعود حينئذ صالحا للحياة بل تنطفيء الشمس وتظلم السيارات وتنقرض الأحياء منها ، وستظل مواصلة سيرها في الفضاء الواسع ملايين الملايين من القرون إلى أن تصطدم بعالم آخر قد يعيد إليها الحرارة والنور والحياة بقوة هذا الاصطدام .

ولكن السدم التي نراها الآن تكون قد تحولت حينئذ إلى شموس تدور حولها كواكب يتعاقب فيها الليل والنهار وتنمو على سطحها الحياة ، وهكذا على التوالي إلا مالا نهاية له .

فالفضاء ممتلئ الآن بعوالم لايحصيها عد . منها ماظهر حديثا أي منذ ملايين من السنين ، ومنها مابلغ دور الشيخوخة ، ومنها ما أصبح في حالة الانحلال ، ومنها مالا يزال سدما غازية ، فهنا عوالم ممتلئة حياة ، وهناك شموس منطفئة ، وهنالك سدم في حالة التكون وقوى الطبيعة لاتنقص ولا تزيد بل هي في حالة نشاط أبدي تعمل على تحويل عوالم الكون من حال إلى حال ، إذ لاشيء يخرج من العدم ولا شيء يعود إلى العدم في هذا الوجود .

إذن المستقبل كالماضي والعوالم المقبلة موجودة في الطبيعة كالعوالم المنقرضة ، فإذا انطفأت شمسنا بعد ملايين من السنين ، فإن الفضاء لايكون خاليا حينئذ من شموس ونجوم وعوالم أخرى غير شمسنا ونجومنا وعالمنا ، ولا من الحياة وإن تكن غير حياتنا فما وجد قبلنا ومعنا سيوجد حتما بعدنا في حالة لاتختلف كثيرا عن حالتنا .

ولكن كيف يمكننا أن نتصور ذلك بل كيف يمكننا أن نستوعب (الزمان والمكان) إذا أخرجناهما من دائرة عالمنا المحدود إن المكان موجود من تلقاء نفسه . أما الزمان فلا وجود له إلا بالنسبة إلينا لأن المكان يمكننا أن نتصوره فنعرف أنه فضاء خال أو ممتلىء كبير أو صغير يسع قليلا أو كثيرا ، فلو لم يكن العالم موجودا لما عجزنا عن تصور المكان . أما الزمان فعلى عكس ذلك إذ لو لم تكن الأرض موجودة تدور على محورها ولو لم يكن الليل والنهار لما وجدنا (الزمان) فإذا زال الكون بقي المكان ، ولكن الزمان يزول معه وما قولنا (اليوم) أو (غدا) إلا قول نسبي لايمكن أن يقال على إطلاقه فإذا توقفت الأرض مثلا في دورتها

على

على محورها اتفق ماقصدناه بهذا القول ، وإذا أسرعت الأرض فى سيرها أسرع الزمان أيضا معها ، وهو لا وجود له بالنسبة إلينا ونحن نيام ، فإذا نمنا مليون سنة فكأننا لم تتم سوى دقيقة واحدة ، ثم إن الحاضر لاوجود له بالنسبة إلينا ، فهل هو الساعة ؟ كلا ، لأن الساعة يمكن تقسيمها إلى ماض ومستقبل ، وهل هو الدقيقة ؟ كلا لأن الدقيقة تقسم أيضا ، وكذلك الثانية والساعة والدقيقة ، والثانية من مقاييس الزمن على سطح الأرض ، ولا يمكن أن تتخذ كذلك فى الكواكب الأخرى حتى فى أقربها إلينا لاختلاف يومنا طولا وقصرا عن يوم كل منها بسبب السرعة فى دورانها على محورها ودورتها حول الشمس ، فالزمان بالنسبة إلينا إما أن يكون ماضيا أو مقبلا . أما الحاضر فإذا وجد على أرضنا فإنه يكون عشر الثانية على الأكثر ، على أن الطبيعة لاتعرف إلا الحاضر لأن الماضى وجد والمستقبل موجود فى الماضى بالنسبة إليها ، ولأن المقاييس التى نقيس بها الزمن نسبية لايمكن إطلاقها على العوالم الأخرى ، ولا تتفق مع الأبدية التى هى أهم خواص الطبيعة والوجود اهـ .

أقول: أفلست ترى أن المثل واضح فى هذا القول بحيث إن سكان كل كوكب يرون القدر الأول ١٩، والقدر الثانى ٦٠ ، والثالث ١٨٢ ، وهكذا يرى سكان كل كوكب كما يرى الآخرون اهـ .

اللطيفة الثالثة (كنتم خير أمة أخرجت للناس)

قد تقدّم الكلام على هذا المقام فى سورة البقرة عند قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) وعند قوله تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) وأبنا هناك فى هذين المقامين ماينتظر من أمة الإسلام فى مستقبل الزمان ، وكيف كان أبناء إبراهيم الخليل قد أصبحوا اليوم تحت أمر الفرنجة ، وأن ذلك بسبب جهلهم فى الحجاز والشام ومصر وشمال أفريقيا ، وأنه قد اقترب الوقت الذى يبنون فيه مجدهم وآن أوان استيقاظهم ، وأن تأخرهم لأنهم لم يقوموا بما قام به الخليل صلوات الله وسلامه عليه من الخصال الأربعين الموضحة هناك .

اللطيفة الرابعة

فى الكلام على اليهود (وأنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله)

ولقد تقدّم الكلام على ذلك هناك فى سورة البقرة من الآيات التاليات لقوله تعالى (وإذا استسقى موسى لقومه الخ) وهناك استبان كيف كان سقوطهم فى هاوية الضلالة درجات بعضها فوق بعض بالترتيب الطبيعى ، وهذا من أعجب العجب ، فانظر كيف ذكر اليهود فى سورة البقرة بصفات هى بعينها التى جاءت فى سورة آل عمران ، ولم يجعل لغيرهم كالنصارى والمجوس أو مشركى العرب . ذلك دلالة على أن الحقيقة هى هى لاتحيد عنهم شعرة .

اللطيفة الخامسة (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)

لقد تقدّم الكلام على الجنة والنار فى سورة البقرة فى قوله تعالى (واتقوا النار التى أعدّت للكافرين) وسيأتى شرح أتمّ للجنة والنار فى هذه السورة قريبا ، ونذكر حقائق تسرّ الناظرين ، وكيف كان الكشف الحديث مطابقا للقرآن والحديث فى بيان النار .

اللطيفة السادسة : اتخاذ البطانة من الكافرين

ولقد تقدّم الكلام على ذلك فى سورة البقرة فى قوله تعالى (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا الخ)

القسم الثامن من سورة آل عمران

وفى هذا القسم أربعة فصول : الفصل الأول فى نظام الدفاع عن البلاد الإسلامية والعقيدة الدينية والدعاية لها (وهذا هو الجهاد الأصغر) من قوله تعالى (وإذ غدوت) إلى قوله تعالى (والله غفور رحيم) . الفصل الثانى فى الجهاد الأكبر بحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والعفو الخ من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) إلى قوله تعالى (ونعم أجر العاملين) . الفصل الثالث فى الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم فلما صبروا مع أنبيائهم نصروا وفازوا من قوله تعالى (قد خلت من قبلكم) إلى قوله تعالى (وهو خير الناصرين) . الفصل الرابع تطبيق ذلك الاعتبار على هذه الأمة مع النبى صلى الله عليه وسلم من قوله تعالى (سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) إلى قوله تعالى (وخافون إن كنتم مؤمنين)

الفصـــل الأول

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

تفسير هذا الفصل

روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء ثانى عشر شوال سنة ثلاث من الهجرة ، فاستشار الرسول عليه الصلاة والسلام أصحابه ودعا عبد الله بن أبىّ ابن سلول ولم يدعه من قبل فاستشاره ، فقال عبد الله بن أبىّ ابن سلول (أكثر الأنصار يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ماخرجنا منها إلى عدوّ قط إلا أصاب منا ، ولادخلها علينا إلا أصبنا منه فكيف وأنت فينا فدعهم يارسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين) وكان صلى الله عليه وسلم أميل إلى هذا الرأى ، وقال بعض أصحابه اخرج بنا إلى هذه الأكالب لئلا يروا أنا جبنا عنهم وضعفنا وخفناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى قد رأيت فى منامى بقرا فأوّلتها خيرا ، ورأيت فى ذباب سيفى ثلما فأولتها هزيمة ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأوّلتها المدينة ، فإن رأيتم

أن

أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم ، فقال رجال فاتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد اخرج بنا إلى أعدائنا وبالغوا حتى دخل فلبس لأمته . فلما رأوا ذلك ندموا على مبالغتهم ، وقالوا اصنع يارسول الله مارأيت ؟ فقال لاينبغى لنبى أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل ، فخرج بعد صلاة الجمعة وأصبح بشعب أحد يوم السبت ، ونزل فى جانب الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصفهم ، وأمر عبد الله بن جبير على الرماة ، وقال ادفعوا عنا بالنبل لايأتوا من ورائنا ، ثم قال اثبتوا فى هذا المقام فإذا عاينوكم ولوا الأدبار فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام ، فلما علم عبد الله بن أبى ابن سلول ذلك شق عليه مخالفة رأيه . وقال لأصحابه أطاع الولدان وعصانى ، وأشار على قومه أن يهزموا إذا رأوا العدو وحينئذ يتبعهم بقية الجيش ، وفى ذلك مابقى قول النبى صلى الله عليه وسلم إنهم إذا عاينوكم ولوا الأدبار ، وكان عسكر المسلمين ألفا ، وعسكر المشركين ثلاثة آلاف وانخذل عبد الله بن أبى بثلثمائة من أصحابه المنافقين ، وثبت الله الباقين وهم سبعمائة حتى هزموا المشركين وحينئذ طمع المؤمنون أن تكون هذه كوقعة بدر فطلبوا المدبرين مخالفين النبى صلى الله عليه وسلم ، فرجع المشركون وكروا على المسلمين ، فانهزم المسلمون وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة من أصحابه كأبى بكر وعلى والعباس وطلحة وسعد رضى الله عنهم وكسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وشج وجهه الشريف ، وكان من غزوة أحد ما كان . فهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ غدوت من أهلك) أى من حجرة عائشة رضى الله عنها (تبوّئ المؤمنين) تنزلهم (مقاعد) مواضع ومواطن (للقتال) فتتخذ عسكرا وتسوّى صفوفهم وتهيئهم (والله سميع) لأقوالكم (عليم) بنياتكم وما يصيبكم وبترككم مركز القتال لما انهزم عبد الله بن أبىّ ابن سلول . فهمت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس وهما كانا جناحى العسكر ، فقوله (إذ همت طائفتان منكم) متعلق بقوله « سميع عليم » فهو تعالى يقول : إنى أعلم ماتقولون وما تضمرون يابنى سلمة ، ويابنى حارثة حين هممتما (أن تفشلا) أى تجبنا وتضعفا ، وإنى أعلم إن مافى قلوب هاتين الطائفتين لم يخرج عن حديث النفس وما كان من حديث نفس فليس بذنب ، فلذلك أعقبه بقوله (والله وليهما) عاصمهما من اتباع ماخطر من حديث النفس وناصرهما فى الحرب وحافظهما ومتولى أمورهما بالتوفيق والعصمة على ماتقتضيه الحال فليكن جميع المؤمنين متوكلين على الله إذا فرغوا من المشاورة وأجمعوا أمرهم بينهم أن يقوموا بعمل ولا يترددوا بعد تمام المشاورة . فهذا معنى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وهو إذن ينصرهم لأن يد الله مع الجماعة فليفوّضوا أمورهم إليه فى نتائج ماتمت الاستشارة فيه وتمّ العزم عليه وليرضوا بما يأتى به القدر بعد ذلك ، فإن النصر بيد الله بعد الأخذ بالأسباب المعقولة كما حصل فى واقعة بدر « وبدر اسم لماء بين مكة والمدينة » كان لرجل يسمى بدرا ، فسمى به . يقول تعالى (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم) ثلثمائة وبضعة عشر أو ثلاثة عشر رجلا (أذلة) بقلة السلاح والمركوب والمال وعدم القدرة على مقاومة العدوّ ، وكان الجماعة منكم يتعاقبون على البعير الواحد وما معكم إلا فرس واحد ، أما عدوّكم من كفار قريش فكانوا زهاء ألف مقاتل ومعهم السلاح والشوكة ، فلم يكن نصركم لضعف عدوكم أو لقوتكم وكثرتكم بل كان بالاتحاد والطاعة ، وما ترتب عليهما من نصر الله لجماعتكم (فاتقوا الله) فى الثبات كما اتقيتموه فى بدر (لعلكم تشكرون) أى لعلكم تنالون نعم الله فتشكرون عليها ، وقوله (إذ تقول للمؤمنين) ظرف لنصركم ، يقول الله تعالى « ولقد نصركم الله ببدر » حين قلت للمؤمنين تقوية لقلوبهم وتثبيتا لهم (ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) منكرا بالاستفهام ألا يكفيهم ذلك موقعا الثبات والاطمئنان فى قلوبهم وقد كانوا كالآيسين من النصر لضعفهم وقوة عدوّهم ، ولقد أمددناهم بألف ثم صيرناهم ثلاثة آلاف ، وقد أجاب عن هذا الاستفهام الانكارى فقال (بلى) أى يكفيهم ذلك ، ثم وعدهم الزيادة على أجرهم وتقواهم حثا عليهما وتقوية لقلوبهم فقال (إن تصبروا وتتقوا

ويأتوكم) أى المشركون (من فورهم هذا) من ساعتهم هذه ، وأصله مصدر من فارت القدر إذا غلت فاستعير السرعة ثم صار للحال التى لاريث فيها . والمعنى إن يأتوكم (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين) بكسر الواو معلمين أنفسهم وخيلهم بعلامة تعرف فى الحرب، والسومة والسيما العلامة أوبفتحها أى سوّمهم الله (وما جعله الله) أى إمدادكم بالملائكة (إلا بشرى لكم) بالنصر (ولتطمئن قلوبكم به) ولتسكن إليه من الخوف (وما النصر إلا من عند الله) لامن العدّة والعدد فلا حاجة فى نصركم إلى مدد أو عدد . وإنما وعدتكم بالمدد وأمددتكم ربطا لقلوبكم ، لأن نظر العامة إلى الأسباب أكثر . فأما الخاصة فإنهم يعلمون أن النصر من الله (العزيز) الغالب (الحكيم) فى نصره من يشاء ، وخذله من يريد على مقتضى سنته التى سنها . وإنما نصركم (ليقطع طرفا من الذين كفروا) بقتل بعض وأسر آخرين فإنكم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من صناديد قريش (أو يكبتهم) والكبت شدّة الغيظ (فينقلبوا خائبين) فينهزموا منقطعى الآمال ، فنصركم بقتل بعض وأسر بعض وخيبة آخرين ، وإذن تكون أو للتنويع ، وإذا كنت أنا مالك أمرك وأمرهم والنصر من عندى وأنا القاهر الحكيم فى نصرى من أشاء ، وخذلى من أشاء ، فإذن (ليس لك من الأمر شىء) أى ليس لك من أمر خلق شىء يامحمد إلا ماوافق أمرى ، وإنما أنت عبدى مبعوث لإنذارهم ومجاهدتهم وأنا أعلم بمصالحهم ثم عطف توبتهم وتعذيبهم وهما مصدران للفعلين المنصوبين بأن المضمرة على الأمر فى قوله (ليس لك من الأمر شىء) فقال (أو يتوب عليهم أو يعذبهم) لاستحقاقهم ذلك (فإنهم ظالمون) وهذه الآية تشير لأمور كثيرة : فمنها ماروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا على عامر بن الطفيل لما قتل هو ومن معه سبعين رجلا من أصحابه إذ أرسلهم إلى بئر معونة وهى بين مكة وعسفان وأرض هذيل فى صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من أحد ، وإنما بعثهم ليعلموا الناس القرآن والعلم ، وكان أميرهم المنذر بن عمرو . وروى البخارى عن ابن عمر أنه كان يدعو عليهم إذا رفع رأسه من الركوع فى الركعة الأخيرة من الفجر بعد مايقول « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد » وروى «أنه قنت شهرا فى الصلوات كلها يدعو على تلك القبائل» ، وفى البخارى ومسلم «أنه كان يقول: اللهم العن فلانا وفلانا لأحياء من العرب» ومنها أنه لما كسرت رباعيته وشج رأسه وجعل يسيل الدم منه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله» ، ومنها أنه قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو عليهم بالاستئصال ، ومنها أنه لما قتل عمه حمزة ومثلوا به أراد أن يدعو عليهم فهذه الأمور وأمثالها أحزنت النبى صلى الله عليه وسلم فقال الله له « ليس لك من الأمر شىء الآية » فأنا إنما ابتليت بعضكم ببعض وأمرتك بالجهاد لحكم أردتها ونتائج أعددتها ، فإذا استجبت دعاءك فاستأصلتهم لم يكن ذلك موافقا لسننى التى رتبتها ، وسأجعل منهم نسلا يدخلون دينك ، ويحفظون شريعتك ، ويعمرون أرضى ، ويساعدون عبادى ؛ فافعل ماتؤمر واصبر ، وإذا كنت أستجيب الدعاء فى مثل هذا فى أعدائك فبطل الجهاد فمن أين تكون العزيمة والصبر اللذان لا يكونان إلا حيث يكون الأعداء أقوياء والرجال العظماء لاسيما الأنبياء أعظم مايتميزون به الصبر على الشدائد حتى يسموا « أولى العزم » فذوو العزيمة هم الذين يغالبون الشدائد الطبيعية والعدوّ الإنسانى . هذا بعض ماقضت به سننى فى خلقى ، فليس لك يامحمد ولا لأحد من خلقى أن يقاومها « ولن تجد لسنة الله تبديلا » ألا وإن أعداءك يامحمد وأولياءك وجميع من فى الأرض ، والأرض نفسها والسماء ، ومن فيها خلقى وملكى فلى الأمر كله ، فلذلك أعقبه بقوله موغلا فى نفى الأمر عن الخلق (ولله مافى السموات وما فى الأرض) خلقا وملكا (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) فلله الأمر لا لك فربما هداهم فغفر لهم (والله غفور) لعباده (رحيم) بهم ، فلا تبادر إلى الدعاء عليهم اهـ الفصل الأول فى الجهاد الأصغر .

الفصل الثانى

في الجهاد الأكبر لحفظ ثروة البلاد فلا يكون الربا وبالطاعة وحسن الخلق والعفو

يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التى أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين *

لما فرغ من الكلام على الجهاد والمحافظة على الوطن وهى هنا المدينة وعلى الصبر والثبات فى الحرب وأن النصر تابع لهما ، وأن كل تأييد من الله لن يكون إلا على مقتضاها ، وما عدا ذلك فإنما هو غرور شرع يذكر أصول ذلك وأساس بنيانه من المحافظة على الاقتصاد فى البلاد ، وحفظ الأموال حتى يتيسر للناس استثمار أموالهم ، ومن الإنفاق فى الأمور العامة والفقراء والمساكين ، ومن تهذيب النفوس بالصبر وكظم الغيظ والعفو فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة) لا تزيدوا زيادات متكررة ، فإنهم كانوا فى الجاهلية عند حلول الدين يزيدون المال ويؤخرون الأجل ، فإذا كان لإنسان دين وجاء أجله ، ولم يكن للمدين ما يؤدى ؟ قال له صاحب المال زد فى المال وأنا أزيدك فى الأجل ، ويفعلون ذلك مرارا فيصير الدين أضعافا مضاعفة ، وإنما كرر هذه الآية هنا وإن كان أصل الربا حراما وإن لم يضاعف هذه المضاعفة لأن هذا النهى عن أمر واقع كانوا يفعلونه (واتقوا الله) فيما نهيتكم عنه (لعلكم تفلحون) راجين الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وكيف تفلحون فى الدنيا كقتال العدو ، وأنتم لا تعرفون طرق الحياة ، ونظام الأمور والحروب لا تقام إلا بالمال ولا مال إلا بصناعة وزراعة وتجارة وعمارة ، فإذا اغتال الأغنياء منكم الفقراء فأرهقوهم بالدين والربا غلت أيديهم وشلت ، ووقف دولاب الحركة الصناعية والزراعيـــة والتجارية ، ولا يظهر ذلك ظهورا بينا إلا فى أيام الحروب ، فإن خذلان الأمم يتبع سوء نظامها وضياع أفرادها ، وماذا يفعل القواد إذا كان الشعب مغلول الأيدى ضعيفا فقيرا مسكور الجناح . إن الدولة الروسية تمزقت شذر مذر فى الحرب الكبرى فى هذا القرن لأن الشعب كان حسيرا ذليلا فقيرا ، فلم يقو على مقاومة الألمان ، فقامت البلشفية ورأت أن الربا يجعل المال فى يد الأغنياء لمنعته ، بل جعلت الأمور موزعة تقريبا على الشعب ولذلك قدرت أن تصد الأمم كلها عن فتح بلادها بعض ما قامت به من نظام الأموال ؛ هذا الموجز يريك سر ذكر الربا فى هذا المقام وهو سر لا يكاد يفطن له الناس إلا لما قامت هذه الحرب فنبهتنا بل عرفتنا لماذا كسر المسلمون وشتتوا فى القرون المتأخرة . ذلك لجهل ملوكهم واستبدادهم وضربهم على أيدى العلماء حتى صار المال قليلا ، وهذا القليل فى أيدى الأغنياء ، وهم قليل أيضا فهزمتهم الفرنجة وغير الفرنجة . فهذا سر قوله تعالى « لعلكم

تفلحون » بعد الكلام فى مسألة الربا فتعجب من الحكمة ومن العلم المخزون فى كتابنا المقدّس والمسلمون أكثرهم نائمون ؛ ولما كانت هذه المعانى الشريفة العالية قلّ أن يتفطن لها الناس أردفه بما يناسب العقول ويفقهه العامة والخاصة مما فقال (واتقوا النار التى أعدّت للكافرين) بأن تتركوا متابعتهم وتعاطى أفعالهم فإذا عاملتم الناس بالربا كالجاهلية مستكم النار فى الآخرة وخذلتم فى الدنيا فى حروبكم (وأطيعوا الله والرسول) بترك المحرّمات كالربا ونحوه وفعل الصدقات (لعلكم ترحمون . وسارعوا) بادروا وأقبلوا (إلى مغفرة من ربكم) أى إلى الأسباب الموصلة إلى ذلك كالتوبة والإخلاص (وجنة عرضها السموات والأرض) أى عرضها كعرضهما ، وهذا كالتمثيل للدلالة على سعتها لأنه إذا كان العرض كذلك فكيف يكون الطول (أعدّت للمتقين) هيئت لهم . ثم وصفهم على سبيل المدح فقال (الذين ينفقون فى السراء والضراء) فى حالتى الشدّة والرخاء: أى فى جميع الأحوال، إذ الإنسان لايخلو من مسرة أومضرة فهم ينفقون ماقدروا عليه (والكاظمين الغيظ) الممسكين عليه الكافين عنه مع القدرة ، يقال كظمت القربة إذا ملأتها وشددت عليها ، وفى الحديث « من كظم غيظا وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا » (والعافين عن الناس) التاركين عقوبة من استحقوا مؤاخذة ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم «إن هؤلاء فى أمتى قليل إلا من عصم الله» وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت (والله يحب المحسنين) أى جنسهم ومنهم هؤلاء (والذين إذا فعلوا فاحشة) فعلة بالغة فى القبح كالزنا (أو ظلموا أنفسهم) بأن أذنبوا أىّ ذنب كان دون الكبائر (ذكروا الله) تذكروا وعيده وحقه العظيم وحكمه والحرمان من جواره والطمع فى مشاهدته والقرب منه (فاستغفروا لذنوبهم) بالندم والتوبة (ومن يغفر الذنوب إلا الله) أى لايغفر الذنوب إلا الله، وهذه جملة معترضة للحث على الاستغفار ولإطماع الناس فى رحمته (ولم يصروا على مافعلوا) أى لم يقيموا على الذنوب ولم يثبتوا عليها بل تابوا منها واستغفروا (وهم يعلمون) أنها معصية وأن لهم ربا يغفرها وأن الإصرار ضارّ (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار) وهذه الجملة بيان لجملة « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الخ » يقول إن لهم أمرين: تخلية وتحلية . فالتخلية بالمغفرة ، والتحلية بالجنات (خالدين فيها) فى الجنات (ونعم أجر العاملين) والمخصوص بالمدح محذوف تقديره ذلك الجزاء والمغفرة ، ولعمرك كم من فارق بين جنة عرضها السموات والأرض ينالها المرء بالمسارعة لعمل الخيرات وفعل المبرّات وجنة تجرى من تحتها الأنهار لم يذكر سعتها ولا عجائبها بل اكتفى فيها بالأنهار ، فالأولى هى التى طلبت بالخيرات ، والثانية هى التى ذكرت أجراً لأولئك الذين أذنبوا ثم تابوا فغفر لهم فعدّ ذلك أجرا ، والأجر على التوبة شىء ، والثواب الواسع على الفضائل والأخلاق العالية شىء آخر ، فإحداها جنة العارفين ، والثانية جنة الصالحين الذين يعبدون الله خوفا لاحبا وغراما وعشقا للفضائل والكمال والجمال متبتلين .

الفصل الثالث

فى الاعتبار بالأمم السالفة وأنبيائهم وأنهم لما صبروا فازوا

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا

بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا، وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ *

التفسير اللفظي

(قد خلت من قبلكم سنن) وقائع سنها الله فى الأمم قبلكم (فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) لتعتبروا بما ترون من آثار هلاكهم (هذا) القرآن عموما وما جاء فيه من الاعتبار بالسير فى الأرض خاصة (بيان للناس وهدى) من الضلالة (وموعظة) وهى مايفيد الزجر (للمتقين) لأنهم هم المنتفعون به (ولا تهنوا) ولا تضعفوا عن الجهاد (ولا تحزنوا) على من قتل منكم (وأنتم الأعلون) بالنصر والغلبة (إن كنتم مؤمنين) مصدّقين بأن ناصركم الله (إن يمسسكم قرح) بضم القاف وفتحها جرح يوم أحد (فقد مس القوم) الكفار (قرح مثله) يوم بدر ولم تضعف قلوبهم عن معاودتكم إلى القتال فأنتم أولى (وتلك الأيام نداولها بين الناس) نصرّفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء أخرى ، كما قيل :

فيوم لنا ويوم علينا ويوما نساء ويوما نسرّ

والمراد بها أوقات النصر والغلبة وإنما نداولها لضروب من التدبير (وليعلم الله الذين آمنوا) أى ليميز المؤمن المخلص ممن يرتدّ عن الدين إذا أصابته نكبة وشدة ومن يصبر على الجهاد من غيره ، فالمراد بالعلم لازمه مجازا (ويتخذ منكم شهداء) ويكرم ناسا منكم بالشهادة وهم من استشهدوا يوم أحد يشهدون يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين على الأمم وشهد الله لهم بالجنة (والله لايحب الظالمين) المشركين ودينهم ودولتهم فيكون نصرهم استدراجا لا استشهادا (وليمحص الله) يطهر ويصفى من الذنوب (الذين آمنوا)

إذا كانت الدولة عليهم (ويمحق) يهلك (الكافرين) إن كانت الدولة عليهم (أم حسبتم) بل أحسبتم ؟ استفهام إنكارى (أن تدخلوا الجنة) بلا قتال أيها المؤمنون (ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم) نفى العلم مجاز يراد به نفى المعلوم أى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يصدر الجهاد عنكم ؟ (ويعلم الصابرين) معطوف على ماقبله أى ولما تجاهدوا وتصبروا (ولقد كنتم) أيها الذين لم يشهدوا بدرا (تمنون الموت) بالشهادة فى الحرب لتنالوا مانال شهداء بدر فألححتم يوم أحد على الخروج (من قبل أن تلقوه) من قبل أن تلقوا يوم أحد (فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) أى فقد رأيتموه معاينين له حين قتل دونكم من قتل من إخوانكم ، وهو توبيخ لهم على أنهم تمنوا الحرب وتسببوا لها ثم جبنوا فانهزموا عنها ، ولما رمى عبد الله بن قمئة الحارثى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر فكسر رباعيته وشج فذبّ عنه مصعب بن عمير وكان صاحب الراية حتى قتله ابن قمئة وهو يرى أنه قتل النبى صلى الله عليه وسلم ، فأعلن ذلك فى الناس فانكفأ الناس وانهزموا ، وجعل الرسول يدعو : إلىّ عباد الله نزل قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) فيخلو كما خلوا بموت أو بقتل . ولقد بقى أتباع الرسل على أديانهم بعد ماخلت أنبياؤهم ؛ ثم أخذ يوبخهم بالاستفهام الإنكارى قائلا أتجهلون سنن الأنبياء السالفين (أفإن مات) محمد (أو قتل انقلبتم على أعقابكم) ارتددتم عن الدين إلى دينكم الأول لخلوه بموت أو قتل يقال لكل من رجع إلى ماكان عليه رجع وراءه ونكص على عقبيه (ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) بارتداده بل يضر نفسه (وسيجزى الله الشاكرين) على نعمة الإسلام بالثبات عليه كما فعل أنس بن النضر عم أنس بن مالك إذ قال ياقوم إن كان قتل محمد فإن رب محمد حىّ لايموت ، وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتل حتى قتل (وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) بمشيئته كتب ذلك (كتابا مؤجلا) مؤقتا لايتقدم ولا يتأخر فلا الفرار ينجى منه ولا الإقدام يجلبه ، ولقد تقدم أن الرماة خالفوا أمر النبى صلى الله عليه وسلم وأقبلوا على النهب وخلوا مكانهم فانقضّ المشركون عليهم فكانت الهزيمة فقال تعريضا لهم (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) ثوابا (وسنجزى الشاكرين) لنعم الله تعالى فلم تشغلهم الغنائم عن الجهاد (وكأين) أصله أىّ دخلت عليها الكاف وصارت بمعنى كم والنون تنوين أثبت فى الخط على غير قياس (من نبى) بيان لكأين (قاتل معه ربيون كثير) جماعات والربىّ من الربة وهى الجماعة (فما وهنوا) فتروا (لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا) عن العدو (وما استكانوا) وما خضعوا للعدوّ وهو من السكون لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به مايريده (والله يحب الصابرين) لينصرهم (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله) بالاستغفار والالتجاء إليه تعالى (ثواب الدنيا) بالفتح والغنيمة (وحسن ثواب الآخرة) فى الجنة (والله يحب المحسنين) الذين يفعلون مثل مافعل هؤلاء (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا) المنافقين (يردوكم) إلى الكفر (على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ذلك أن المنافقين قالوا للمؤمنين عند الهزيمة ارجعوا إلى دينكم وإخوانكم ولو كان محمد نبيا ماقتل (بل الله مولاكم) ناصركم (وهو خير الناصرين) فاستغنوا به عن ولاية غيره ونصره . انتهى التفسير اللفظى .

كأن الله تعالى يقول : إذا كنتم ذوى مبادئ شريفة وسنن قويمة فكيف تحزنون ، وليست الحياة إلا بثمراتها ولا هذه الدنيا إلا بالأعمال فيها،فإذا أصاب امرأ الضراء لأجل المناقب الشريفة فكيف يهن وهو من الأعلين ؟ أو يحزن الفضلاء ، وقد امتلأت أفئدتهم بالإيمان بمبادئهم وأشربت قلوبهم العمل للفضيلة ؟. فإما حياة عالية وإما موتة عاجلة ؛ على أنى قد قسمت الأمر بين عبادى وجعلت الأيام دولا ، فمن سره زمن ساءه زمن وكيف لايكون ذلك ؟ . ألم أجعل الحياة جهادا . ألم أجعل بعضكم لبعض فتنة ثم قلت لكم أتصبرون ؟ أو لست

قادراً أن أخلقكم نائمين على فراش الراحة تأكلون كما يأكل الدود ، ولكن كلا ؟ إن سنتى أن أجعل السعادة تابعة للأعمال ، ولذلك خلقت البغضاء والحسد والغيرة والمنافسة . فلم أذر الوحش فى وجاره ولا الظبى فى كناسه ولا الأعرابى فى باديته ولا النبى الموحى إليه فى قومه بل سلطت كلا على كل ليكون ذلك سائقا لأعمالهم باعثا على فضائلهم مستخرجا ما كمن فى غرائزهم ، ولبس يكون هذا الوجود على غير هذا النظام .
ألم تر إلى أهل قرطاجنة وهى مدينة قرب تونس كانت على شاطئ البحر الأبيض يسكنها أناس نزحوا من سواحل الشام يسمون الفينيقيين ، وقد حصلت بينهم وبين الرومانيين حروب متطاولة ، وكان من قوّاد القرطاجنيين [أنيبال الشهور] فذاق منه الرومانيون طعم الموت ، وقد أصلاهم نارا حامية وأذاقهم العذاب الهون فانقض الرومانيون على نفس قرطاجنة وخربوها وفرّقوا أهلها شذر مذر ، وانتصر الغرب على الشرق ، فقال حكيم من حكمائهم : إن موت أعدائنا موت لنا ، وستذهب دولتنا ، فقالوا له لماذا ؟ فقال لأن الأمة التى لاعدوّ لها يناوئها تصبح ساهية لاهية نائمة على وساد الراحة فتهلكها الشهوات وتموت بالحسرات ، وكيف يظهر فى أبنائها المواهب أو ينبغ من بنيها الشجعان الجحاجيح إلابالعدوّ المغير ، فذلك هو الذى يستخرج منها الفضائل وينفى عنها الرذائل باستعدادها لمناوئه واستبسالها لمحاربته . ولقد كان ماقاله ، وسمنت رومة وعظم أمرها وترفت فمزقت كل ممزق فى الأزمان القديمة وقامت على أنقاضها أوروبا الحديثة . فهذا كله سر قوله تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » فإذا لم تكن مداولة ، وتم الأمر لبعض الناس أطغاهم العيش الهنىء « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض » ومتى بغوا وطغوا هلكوا بالبطنة والجهالة والترف والنعيم ، ثم قال أتحسبون أن السعادة تنال بغير الأعمال أو الجنة فى الآخرة بمجرد الإيمان ؟ ثم قال كيف تجهلون سنن الأمم السالفة فى الأيام الخالية والدول الفائتة ، وما الأنبياء إلا قوّاد الأمم فى العلم والدين والأمم ترث ذلك عنهم ، فالأمر ليس إلى الأنبياء إنما هم مبلغون ورسل ، والرسول عليه البلاغ وعلينا الحساب ، وكيف تحصون الرسل إذا مات الرسول . وكيف تذرون رسالتى التى أرسلتها وأوامرى التى أمرتكم بها إذا مات رسولى أو قتل ، وهل ذلك شأنكم فيما بينكم أن تعلقوا صلتكم بمن يكاتبونكم من الذين تودونهم من أمثالكم على حياة الرسل الذين يرسلونهم إليكم . فكيف تجعلون صلتكم بى وعبادتى وطاعتى معلقات على بقاء رسولى ، فإذا مات الرسول فأنا الحىّ الذى لايموت . أيها الناس إنما هى سنن أنزلتها وآيات أحكمتها وعلوم فيكم أفشيتها وحكم أبدعتها ، فكيف تتكون الأمور وتضاون الجمهور وتذرون النور ، وأنا الذى هديتكم فليس إيمانكم بى لأجل حياة محمد بل للسنن المسنونة ، والأحكام المنصوبة ، والعلوم الفاشية ، والآيات القائمة ، وكيف يضلون بعد أن جاءهم الهدى فيعتمدوا على العظماء وكبار الدولة ، فإذا كان هـذا فى حق الأنبياء فكيف بغيرهم ؟ فإياكم أن تكونوا أسرى الأوهام فتعتمدوا على قوّادكم أو تهنوا بموتهم ، فلتكن الحية فى المرؤوسين كالرؤساء . أقول ولعمرى ماأضل أمة الإسلام ولا أخل بنظامها إلا الاعتماد على الرؤساء والخضوع التام لملوكهم فاستبدوا بهم خاضعين وأذلوهم مخدوعين وقتلوا رجالهم واستحيوا نساءهم وهم خاضعون؛ ألم تعلموا أن العالم سائر على نظام محدود وسنن ثابتة ، وأن الآجال مقدّرة فى كتاب ، وليس ماأنتم فيه إلا لترقية أنفسكم وتعليمكم وتهذيبكم فكيف تجبنون ولا ينالكم إلا ماسيكون وثمرات الأعمال تابعات لها ، فمن كانت همته للحياة وغنائمها أو لارتقاء النفوس للحياة الآخرة أوتى كل منهما على حسب نيته فى همته . ألم تروا إلى الأنبياء قبلكم مع أممهم وجموعهم العظيمة . كيف صبروا على القتال وفازوا بالنوال ، ولم يهنوا لمصيبة ، ولم يضعفوا لعظيمة ، ولم يستنيموا لأعدائهم بل ظلوا ثابتين ، ولو أنى أيها الناس جعلت الفوز الدائم مكرمة والنعمة والعافية غاية هذه الحياة الدنيا لكان الأولى بها رسولى فإنى منعته أن يدعو على الأعداء ، وقلت له

« ليس لك من الأمر شيء » ولم يفعل من الأمر إلا ماأوحيته إليه فأما ألا يكون له عدوّ فلا فأنا الذى خلقت الأعداء والعداوة وأمرتكم بالمحاربة لظهور الفضائل .

فكأنه سبحانه لما أمر رسوله بالصبر حتى منعه من الدعاء على الأعداء فلا يدعو باستئصالهم خاطب الشعب كله آمرا لهم بالثبات فلايفرون من عدوّهم، كأنه يقال لامناص من العداوة والأعداء للأنبياء وأتباعهم انظر إلى حكم الله عز وجل فى القرآن ، وكيف كان الصبر على مقاومة الأعداء وغيرهم أجل شىء ؟ ولهذه المناسبة أذكر هنا قطعتين من الشعر نظمتهما : الأولى مترجمة من كلام (شكسبير) الشاعر الإفرنجى ، والثانية تخميس لأبيات عربية .

القطعة الأولى

(فوائد الآلام الطبيعية للإنسان من شعر شكسبير الشاعر الإنجليزى)

يا صاحبىّ تقصيا نظريكما فى حال منفانا وبعد الدار
أو ماترون البدو فى قفر وفى شظف الحياة هنا وخبز قفار
أمنى وأهنا من معيشة حاضر كالقبر مطليا بذوب نضار[1]
بل هذه الشجرات فى الفلوات أبهج منظرا فى الصبح والإسحار
من ساحة الملك الرفيع عماده مابين حاد وبين ضوارى[2]
إنا وإن كانت خطيئة آدم حقت علينا سنة الأقدار
فتتابعت نوب الحوادث خلفة والصيف يتلوه الشتاء العارى
والثلج عضّ بنابه والريح تز جرنا ببطش الصرّ[3] والإعصار[4]
فأظل مرتعدا وتنذرنى لما ذا كم سوى التعليم والتذكار
عربت عن الملق الذميم وإنما آيات وعظ فصلت للقارى
إن المواهب كالمعاطب صوّرت شوهاء أقذت أعين النظار
إن النوائب حية رقطاء فى أنيابها السمّ الزعاف السارى
لكن فى فيها جواهر أخفيت تزهو على التيجان يوم فخار
هذى الحياة وإن تكن فى قفرة فالعلم فيها صفوة الأسرار
فصوامت الأحجار فيه نواطق والكتب فى شجر ونهر جارى
فبأىّ آلاء الإله تكذبا ن وأنها قبس من الأنوار

القطعة الثانية

قال بعض القدماء :

عداى لهم فضل علىّ ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاجتنيت المعاليا
فلست بهياب لمن لايهابنى ولست أرى للمرء مالايرى ليا
كلانا غنىّ عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا

---

(١) الذهب . (٢) الأساد . (٣) البرد الشديد .
(٤) رياح تصعد كالعمود من الأرض إلى السماء .

فقلت مخمسا هذه الأبيات :

إذا ما اعترتني في الحوادث محنة　　تبدّت لنفسي في المعارف سنة
وإن يحسد الأعدا بدت لي فطنة　　(عداى لهم فضل علىّ ومنة
فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا)

لقد علموا آداب نفسي سيرتها　　وهذبتها حتى استقامت وصنتها
ولم ألم الأعداء لا بل شكرتها　　(هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها
وهم نافسوني فاجتنيت المعاليا)

ولى همـة فوق الثريا تقلنى　　فأثنى عنانى للفتى حين يثنى
وأضرب عنه الذكر صفحا ولا أنى　　(فلست بهياب لمن لا يهابنى
ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا)

وإنى امرؤ بالعلم أكمل ذاته　　فلا طمع في الصحب إلا أماته
ولست أدارى المرء إلا تقاته　　(كلانا غنى عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشدّ تغانيا)

هذا ، ولنرجع إلى أصل الموضوع فنقول :

قال الله تعالى أيها الناس لا تطيعوا الذين كفروا وهم المنافقون إذ قال بعضهم استكينوا لأبى سفيان وأشياعه واستأمنوهم فإن تطيعوهم يردوكم إلى دينهم ، وهكذا كل كافر ، فإن مطاوعته تدعو إلى النزول على حكمهم وموافقتهم .

ولعمرى إن هذا هو ما عليه المسلمون الآن ، فإن الله يقول هنا : (إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ، ولقد صدق الله وعيده ، وحقت الكلمة على المسلمين الذين فى زماننا والذين قبلهم إذ طاوعوا الفرنجة فاستذلوا لهم ، وشربوا خمرهم ، ولبسوا اللباس الذى ينسجونه فى بلادهم ، ومن الجهل الفاشى فى أمة الإسلام اليوم الغفلة المستحكمة ، والنذالة الفاشية ، والجهالة القاتمة ، واللوثة العمياء ، والداهية الدهياء ، أن الفرنجة ضحكوا على العقول ، وبصقوا فى الوجوه ، وأخمدوا النفوس ، فماذا فعلوا ؟ زينوا للمسلمين كل فسوق وفجور ، وأولع بهم المترفون والشرفاء ، والمتعلمون فى المدارس ، ولا يزالون يقلدونهم ويشربون فى حاناتهم ويأكلون فى مطاعمهم ويذرون بيوتهم ، وإذا احتفلوا بعظمائهم لا يهنأ لهم ذلك إلا فيما بناه الفرنجة فى ديارهم كأنهم لا عقول لهم ولا أسماع ولا أبصار وهم لا يعلمون أن ذلك إخضاع لهم ، واستنزاف لثروتهم وشين لسجيتهم ألا ساء ما يعمل الجاهلون . فهذه من طاعة المسلمين العمياء وجهالتهم حتى صاروا عبيدا خاضعين وأذلاء مسخرين ، وما تفطن لذلك إلا الرجل الحازم (غاندى) الزعيم الهندى . فهو الذى أمر أهل الهند أن يلبسوا ما يصنعونه فى بلادهم فقد عمل بمقتضى هذه الآية ، وإن كان لا يعلم ذلك والمسلمون فى الشرق الأدنى غافلون ، وسيقوم فيهم مرشدون وسيعلمون ويعملون . انتهى تفسير الفصل الثالث .

درس على ما حصل فى أحد و تطبيق حال الأمم على هذه الأمة والاعتبار بذلك كله

الفصل الرابع

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ
حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ
ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ
فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *
ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ
كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا
قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ
يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ
غَفُورٌ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا
فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي
قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ
لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ * فَبِمَا
رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ
إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ
مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ *
لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

التفسير اللفظى

لما قذف الله تعالى فى قلوب الكفار يوم أحد الرعب نادى أبو سفيان يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت فقال صلى الله عليه وسلم إن شاء الله ، ولما رجعوا وكانوا ببعض الطريق ندموا وأرادوا أن يرجعوا فألقى الله الرعب فى قلوبهم وهو قوله تعالى (سنلقى) نقذف (فى قلوب الذين كفروا الرعب) الخوف (بما أشركوا بالله) بسبب إشراكهم به (مالم ينزل به سلطانا) أى آلهة ليس على إشراكها حجة لهم ، وأصل السلطنة القوة (ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين) النار (ولقد صدقكم الله وعده) إياكم بالنصر وشرط التقوى فى ذلك والصبر فصبرتم واتقيتم وضربتموهم فانهزموا وأنتم على آثارهم (إذ تحسونهم) تقتلونهم من حسه : إذا أبطل حسه (بإذنه حتى إذا فشلتم) جبنتم لما لم تتقوا فخالفتم وانطلقتم من أمكنتكم إلى الغنيمة (وتنازعتم فى الأمر) فقال قوم من الرماة منكم ما موقفنا هنا وقد انهزم المشركون ، وقال آخرون لانخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فثبت أمير الرماة عبد الله بن جبير فى نفر يسير دون العشرة ونفر الباقون للنهب ، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ذلك حملوا على الرماة الذين ثبتوا مع عبد الله بن جبير فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه وأقبلوا على المسلمين فانهزمتم (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون)

من الظفر والغنيمة وانهزام العدوّ وجواب الشرط وهو إذا محذوف : أى امتحنكم فكنتم عند الامتحان فريقين (منكم من يريد الدنيا) وهم التاركون مراكزهم (ومنكم من يريد الآخرة) وهو أمير الرماة ومن معه (ثم صرفكم عنهم) كفكم عنهم فغلبوكم (ليبتليكم) على المصائب ويمتحنكم أتصبرون؟ (ولقد عفا عنكم) تفضلا لما علم أنهم ندموا على المخالفة (والله ذو فضل على المؤمنين) فى الابتلاء بالمصائب كما فى إذاقة النعم كلاهما فضل منه ، وقوله (إذ تصعدون) من الإصعاد: وهو الذهاب والإبعاد فى الأرض متعلق بقوله ليبتليكم (ولا تلوون على أحد) ولايقف أحد لأحد (والرسول يدعوكم فى أخراكم) من خلفكم يقول « إلىّ عباد الله أنا رسول الله من يكرّ فله الجنة» ، وكان إذ ذاك فوق الصخرة ، وأول من عرفه كعب بن مالك رضى الله عنه ؟ قال : عرفت عينيه تزهران تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى : يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إلىّ أن اسكت فانحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم صلى الله عليه وسلم على الفرار ، ثم عطف على قوله «صرفكم عنهم» قوله (فأثابكم غما) بما فاتكم من الظفر والغنيمة بما ذقتم من القتل والجرح وبما سمعتم من الإرجاف بموت الرسول (بغمّ) بسبب اغتمام أذقتموه الرسول بعصيانكم له، وإنما أثابكم أى جازاكم هذه المجازاة لتتمرّنوا على الشدائد وتقووا على النوائب ، ومن عركه الدهر وأصلت نار الحامية جسمه بلهيبها وذاق ألوان الشدائد وحلب شطرى الدهر أصبح صلبا قويا، بل لاسعادة لمن لم تقوّه الحوادث الجسمية ولا راحة لمن لم تعركه الحوادث عركا ولم تذوّب نار الحوادث جوهره فى بوائق الآلام فيكون إذ ذاك معدنا نقيا خالصا خلصته نار الحوادث ونفخ عليه الدهر فى كيره فصار ذهبا إبريزا فكان ذلك التمرين (لكيلا تحزنوا على مافاتكم) من منافع ترجونها (ولا ماأصابكم) من مضارّ ذقتم آلامها (والله خبير بما تعملون) فلذلك جعل عملكم بين السارّ والضار ابتلاء بالنعم وامتحانا بالنقم فى سائر أطوار حياتكم ، ولكن هذه الحادثة أعظم الحوادث أثرا فى حياتكم فهى جديرة أن تجعلكم مستصغرين كل عظيمة من المصائب فإنها أقل منها خطرا وأضعف أثرا (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة) أمنا (نعاسا) بدل من أمنة . عن أبى طلحة رضى الله عنه قال «كنت فيمن يغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارا يسقط وآخذه يسقط وآخذه» وقال رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أراهم ومامنهم يومئذ أحد إلا يميد تحت حجفته من النعاس وقال نحوه الزبير بن العوّام ، ومن قوله : إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ماأسمعه إلا كالحلم يقول: لوكان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا ، وهذا قوله تعالى يصف لفظ نعاسا (يغشى طائفة منكم) وهم المؤمنون المخلصون (وطائفة) وهم المنافقون (قد أهمتهم أنفسهم) لايهتمون إلا بخلاصها (يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية) صفة ثانية لطائفة الذين يزعمون أن الأنبياء متحكمون فى قضاء الله وقدره ، وأنه إذا أرسل نبيا فكأنما أخرجه من طور البشرية ، وأبعده عن كل فتنة وبلية ، وأصبح يقول للشىء كن فيكون ، وكيف يكون كذلك؟ ألم يرد فى هذه السورة لنفس نبيكم صلى الله عليه وسلم «ليس لك من الأمر شىء» وحرّمت عليه أن يدعو على أعدائه بالاستئصال ، بل قلت فوق ذلك إن ما فى السموات وما فى الأرض لى فلى الغفران ولى الرحمة ورحمتى وسعت كل شىء فربما أسلم منهم قوم وربما أسلم أبناؤهم، بهذا يخاطب رسولكم ثم ترجعون إلى سيرة الجاهلية فيقول قائل منكم (هل لنا من الأمر من شىء) أى مالنا معاشر المسلمين من أمر النصر والغلبة على العدو شىء (قل إن الأمر) أى النصر والغلبة (كله لله) فليس لكم من الأمر شىء ، كما لم يكن لنبى من الأنبياء ذلك ، وإنما يعطيه الله لصابرين المؤمنين من فضله على حسب الاستعداد ومقتضى الحكمة ، وهذه الجملة المعترضة بين صاحب الحال فى يقولون وبين الجملة الحالية وهى (يخفون فى أنفسهم مالايبدون لك) لأن هذا القول فاتحة الشك وظن السوء والرجوع للجاهلية الأولى كبعض عامة الأمم الذين يرون أن الله حق

اصطفى عبدا من عباده أغدق عليه النعم الدنيوية ، وأزاح عنه العلل البدنية ، وأرسل على أعدائه كل قاصمة الظهر قاطعة للعمر ، فأبعده من الوجود كعاد وثمود أو قضى حياته فى خمود . ذلك رأى الجاهلين من أهل مكة الذين قالوا كما فى سورة الإسراء « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » أى تفجر لنا من أرض مكة وهى قاحلة ينبوعا «أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا» أى يكون لك بستان يشتمل على ذلك «أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا» أى قطعا «أو تأتى بالله والملائكة قبيلا» أى كفيلا بما تدّعيه أو شاهدا على صحته ضامنا لدركه، وهكذا إلى آخر المسائل الست التى اقترحوها ، كما ستراه هناك إن شاء الله تعالى ، فهذا نوع آراء الجاهلية الأولى فى الأنبياء ؛ فالرسل والأنبياء فى نظرهم فوق القدر مسلطون على السموات العلى والأرض وما حوت ؛ وهم أشبه بالعظماء فى الممالك المستبدّة الذين يأمرون فيطاعون ، وإذا كان هؤلاء مقرّبين من ربهم . فهذا معناه أنهم مسلطون على ملكه متى طلبوا أجيبوا ، فهؤلاء لا يألون من شىء إلا أهلكه الله ولا يطلبون شيئا إلا أحضره الله . هذا رأى الجاهلية بل هذا رأى العامة فى زماننا وفى كل زمان يرون أن العابدين الصالحين أمرهم كذلك ، وأنّ القرب من الله هكذا يكون فيتملقون الصالحين العابدين لأجل أن يزيحوا عنهم البلايا ويخرجوهم من مضض الشقاوات فى الحياة . هكذا هؤلاء الذين يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، أى أليس نبينا محبوبا لله ، والله هو المالك لهذا العالم ؟ وكيف يكون المصطفى المختار عنده مهزوما بجيشه مقهورا من أعداء الله وأعداء الرسول ؟ فلو كان نبيا ما سلط الله عليه هؤلاء الأعداء فهذا هو الذى أخفوه فى مضمون قولهم «هل لنا من الأمر من شىء» ثم أبان ذلك أشد إبانة وأوضحها فقال على سبيل الاستئناف (يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا) أى لما غلبنا وقتل من قتل منا ، فأجابهم الله على لسان رسوله يقول : أنا لم أخلق العالم بلا نظام وإنما أنا أبدعته بسابق علم وأحكمته أشدّ إحكام ، فلكل امرىء مصرعه ولكل أجل كتاب ، ولكنى جعلت الأسباب مقدّمات للمسببات لأربى فيكم الإرادة وأقوّى العزيمة وأستخرج من هذه المادة المظلمة نفوسا مشرقة أفعل معها كما يفعل المختبرون ، فإذا أخرجتكم للحرب وحكمت عليكم بالهزيمة فى أحد فذلك لأبين لكم قوىّ العزيمة وضعيفها وأميز الخبيث من الطيب ، وهل يمتاز الذهب الإبريز إلا بإيقاد النار ، كما لا يمتاز الشجعان الصادقو الإيمان والعزيمة إلا بالنوازل العظيمة والفوادح العميمة . فهذا قوله تعالى (قل لو كنتم فى بيوتكم) فى المدينة (لبرز) لخرج (الذين كتب) قضى (عليهم القتل إلى مضاجعهم) أى إلى مصارعهم بأحد ، وإنما حكم الله بالحرب والقتال لحكم عنكم أخفاها وعجائب علمها (وليبتلى الله) ويختبر (مافى صدوركم) أى يظهر ماخبأ فى صدوركم حتى يتبين لكم وللرسول القوى إيمانه والضعيف فى دينه (وليمحص مافى قلوبكم)) يطهرها من الشك والارتياب بما أعطاكم من الأمنة وما غشاكم به من النعاس وما أنعم عليكم به من صرف العدوّ عنكم ، فهذه دروس الإيمان ليثبته فى قلوبكم (والله عليم بذات الصدور) بخفياتها وأنتم لاتعلمون فلذلك أظهرها لكم بهذه الامتحانات التى ألقاها عليكم فى أحد ، فالله عالم من الأزل وأنتم تعلمون الآن بما يظهر من العمل، واعلموا أيها المؤمنون أن الذنوب يتبع بعضها بعضا ، فلاحقها تابع لسابقها حذو النعل بالنعل ، وكل ذنب يستتبع ذنبا فيكون اللاحق عقابا على السابق كما يكون اللاحق من المبرّات كالثواب السابق منها ، وهذا معنى قوله مبينا السبب فى ترك الرماة مراكزهم وانطلاقهم إلى الغنيمة (إن الذين تولوا) انهزموا (منكم يوم التقى الجمعان) جمع محمد صلى الله عليه وسلم وجمع أبى سفيان بأحد (إنما استزلهم) دعاهم إلى الزلة وحملهم عليها (الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم) تجاوز عنهم (إن الله غفور) للذنوب (حليم) لايعجل بالعقوبة ؛ ثم إن هؤلاء الذين تركوا مراكزهم تبعهم أكثر المحاربين ولم يبق مع النبى صلى الله عليه وسلم إلا أربعة عشر رجلا

سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار وكان فيهم أبو بكر وعمر وعلىّ وطلحة بن عبيد الله وعبدالرحمن بن عوف والزبير وسعد بن أبى وقاص (يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم) لأجل إخوانهم فى النسب أو المذهب (إذا ضربوا فى الأرض) سافروا فيها وأبعدوا للتجارة أو غيرها فماتوا (أو كانوا غزّى) جمع غاز كعاف وعفىّ فقتلوا (لو كانوا عندنا ما ماتوا) كما ماتوا فى سفرهم (وما قتلوا) كما قتلوا فى غزوهم، هذه الجملة مفعول قالوا، وإنما قالوا ذلك لتكون عاقبته أن يكون حسرة فى قلوبهم، فهذا قوله (ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم) فاللام لام العاقبة مثلها فى قوله تعالى «ليكون لهم عدوا وحزنا» فرد الله عليهم قائلا، ليس السفر والغزو هما سبب الموت، ولا الإقامة سبب الحياة (والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير. ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم) فى سبيله، وجواب القسم قوله (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) من الدنيا (ولئن متم أو قتلتم) على أىّ وجه اتفق هلاككم (لإلى الله) لا إلى غيره (تحشرون. فبما رحمة) فبرحمة، وما زائدة (من الله لنت لهم ولو كنت فظا) سىء الخلق جافيا (غليظ القلب) قاسيه (لانفضوا من حولك) تفرقوا عنك ولم يسكنوا إليك (فاعف عنهم) فيما يختص بك (واستغفر لهم) فيما لله تعالى (وشاورهم فى الأمر) أمر الحرب وفى كل مايصح أن يشاور فيه (فإذا عزمت) وطنت نفسك على رأى بعد ماشاورتهم (فتوكل على الله) فى إمضاء أمرك على ماهو أصلح لك (إن الله يحب المتوكلين) الذين لايترددون فى أمورهم بعد إتمام الشورة واتفاق الرأى فينصرهم (إن ينصركم الله) كما نصركم يوم بدر (فلا غالب لكم) فلا أحد يغلبكم (وإن يخذلكم) كما خذلكم يوم أحد (فمن ذا الذى ينصركم من بعده) من بعد الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) بإمضاء ماعزموا عليه بعد التفكير وأخذ سائر أسباب الحيطة كما حصل يوم أحد من صف الصفوف فى الحرب وإقامة كل فى مركزه وبالمخالفة انهزم الجيش . قيل إنه لما ترك الرماة مراكزهم قال صلى الله عليه وسلم لهم ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المراكز حتى يأتيكم أمرى ؟ قالوا تركنا بقية إخواننا وقوفا ، قال النبى صلى الله عليه وسلم بل ظننتم أنا نغل فلا نقسم ، فلذلك قال الله (وما كان لنبى أن يغل) وما صح لنبى أن يخون فى الغنائم والنبوة تنافى الخيانة (ومن يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) أى بالشىء الذى غله يحمله على ظهره ، وقد جاء فى الحديث المتقدّم فى سورة البقرة عند الكلام على الشفاعة كالذى ورد فى البخارى ومسلم «لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، يقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة ، فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لاأملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء ، فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لاأملك لك من الله شيئا قد أبلغتك . لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لاأملك لك من الله شيئا قد أبلغتك. لا ألفينّ أحدكم يجىء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول يارسول الله أغثنى فأقول لا أملك لك من الله شيئا قد أبلغتك» اللفظ لمسلم : الرغاء: صوت البعير . والثغاء: صوت الشاة. والرقاع: الثياب . والصامت : الذهب والفضة ، وهذا القول كالتمثيل لتلك الحال التى يكون عليها الخائنون بعد الموت وفى يوم القيامة (ثم توفى كل نفس ما كسبت) تعطى جزاء ما كسبت (وهم لايظلمون) لاينقص ثواب عملهم ولا يزاد فى عقاب العاصين منهم (أفمن اتبع رضوان الله) بالطاعة (كمن باء) رجع (بسخط من الله) بسبب المعاصى (ومأواه جهنم وبئس المصير) الحال التى يصيرون إليها مخالفة لحالهم الاولى (هم درجات عند الله) ذوو درجات (والله بصير بما يعملون) عليم بأعمالهم ودرجاتهم فيجازيهم (لقد منّ الله على المؤمنين) أنعم عليهم نعما خاصة بالهداية فوق النعم العامة للكافر والمؤمن (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) من نسبهم وجنسهم ليفهموا كلامه بسهولة (يتلو عليهم آياته) القرآن

(ويزكيهم)

(ويزكيهم) يطهرهم من سوء الطباع وفاسد العقائد (ويعلمهم الكتاب والحكمة) القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) إن للتأكيد مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، أي الشأن كانوا من قبل مبعثه لفي ضلال ظاهر (أ) تظنون بالله ظنّ الجاهلية الأولى وتعملون كذا وكذا (ولما أصابتكم مصيبة) يوم أحد بأن قتل منكم سبعون (قد أصبتم مثليها) يوم بدر بأن قتلتم سبعين وأسرتم سبعين من كفار مكة (قلتم أنى هذا؟) من أين هذا أصابنا؟ (قل هو من عند أنفسكم) مما اقترفته أنفسكم من الذنوب السابقة باختياركم الفداء يوم بدر واللاحقة بترك مراكزكم (إن الله على كل شيء قدير) يقدر على النصر ومنعه (وما أصابكم يوم التقى الجمعان) جمع المسلمين وجمع المشركين (فبإذن الله) فهو كائن بقضائه وقدره ليبتليكم (وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا) وليتميز المؤمنون والمنافقون، ثم عطف على قوله «نافقوا» قوله (وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله) للآخرة (أو ادفعوا) عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تكونوا موقنين بالآخرة (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) أي لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم مستهزئين بالقتال لما في قلوبهم من الدغل كما روى أن عبد الله بن أبيّ بن سلول لما انخذل بأصحابه يوم أحد كما تقدم وهم ثلث القوم ، وقال ماندري علام نقتل أنفسنا تبعه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري من بني سلمة وهو يقول يا قوم أذكركم الله أن لا تخذلوا نبيكم عند حضور عدوّه أجابه قائلا ؟ لو نعلم قتالا لاتبعناكم، فقال الله (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) لتوليهم وكلامهم (يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم) يظهرون خلاف مايبطنون (والله أعلم بما يكتمون) من النفاق وما يخلو به بعضهم إلى بعض ، ثم أبدل من فاعل يكتمون وهو الواو قوله (الذين قالوا لإخوانهم) أي لأجل إخوانهم الذين قتلوا يوم أحد (وقعدوا) أي وقد قعدوا هم عن القتال أي حال كونهم قاعدين ومقول القول (لو أطاعونا ماقتلوا) كما لم نقتل نحن لما قعدنا، وهؤلاء هم عبد الله بن أبيّ وأمثاله (قل فادرءوا) ادفعوا (عن أنفسكم الموت) الذي سيأتيكم لامحالة (إن كنتم صادقين) أنكم تقدرون أن تدفعوا القتل عمن كتب عليه (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا) كالذين قتلوا في أحد والذين قتلوا ببدر (بل) هم (أحياء عند ربهم) ذوو زلفى منه (يرزقون) من الجنة وهذا تأكيد لكونهم أحياء (فرحين بما آتاهم الله من فضله) وهو شرف الشهادة والفوز بالحياة الأبدية (ويستبشرون) يسرون بالبشارة (بالذين لم يلحقوا بهم) أي بإخوانهم المؤمنين الذين لايزالون أحياء ولم يقتلوا فيلحقوا بهم (من خلفهم) أي الذين من خلفهم في الزمان (ألا خوف عليهم) من وقوع محذور (ولا هم يحزنون) على فوات محبوب ، والمعنى أنهم يستبشرون بما تبين لهم من أمر الآخرة وأمر من تركوا من إخوانهم المؤمنين الباقين في الدنيا أنهم إذا ماتوا أو قتلوا كانوا أحياء حياة لايكدر صفوها فلا يخافون من مصائب تحلّ بهم ولا يحزنون لفوات منافع لهم ، بل لانصب هناك ولا حزن ، فقوله : « ألا خوف عليهم » بدل من الذين لم يلحقوا بهم ، ولما ذكر استبشارهم بسعادة إخوانهم الذين هم أحياء سيموتون أخذ يذكر مايستبشرون به هم لأنفسهم فقال (يستبشرون بنعمة) ثواب لأعمالهم (من الله وفضل) زيادة (وأن الله لايضيع أجر المؤمنين) عطفا على فضل ، وقرئ بالكسر على الاستئناف . روى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فندب أصحابه للخروج في طلبه ، وقال لايخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس فخرج صلى الله عليه وسلم مع جماعة حتى بلغوا حمراء الأسد وهي على ثمانية أميال من المدينة ، وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لايفوتهم الأجر وألقى الله الرعب في قلوب المشركين ، ففي ذلك يقول الله تعالى واصفا للمؤمنين (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) وروى أيضا أن أبا سفيان نادى عند انصرافه من أحد يا محمد موعدنا موسم بدر لقابل إن شئت فقال

صلى الله عليه وسلم إن شاء الله ، فلما كان القابل خرج فى أهل مكة حتى نزل بمر الظهران ، فأنزل الله الرعب فى قلبه وبدا له أن يرجع فمر به ركب من عبد قيس يريدون المدينة للميرة فشرط لهم حمل بعير من زبيب إن ثبطوا المسلمين وهكذا لقى نعيم بن مسعود وشرط له عشرا من الإبل، فلما التقى هؤلاء بالمسلمين يتجهزون قالوا لهم إن أتوكم فى دياركم لم يفلت منكم أحد إلا شريد ، أفترون أن تخرجوا وقد جمعوا لكم ؟ ففتر المسلمون لما سمعوا ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام « والذى نفسى بيده لأخرجن ولو لم يخرج معى أحد فخرج فى سبعين راكبا وهم يقولون: حسبنا الله ونعم الوكيل» ، وفى هذا يقول الله تعالى (الذين) بدل من الذين استجابوا (قال لهم الناس) أى الركب من عبد قيس أو نعيم بن مسعود الأشجعى (إن الناس) أى أهل مكة (قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم) هذا القول (إيمانا وقالوا حسبنا الله) كافينا الله ، من أحسبه إذا كفاه (ونعم الوكيل) ونعم الموكول إليه هو (فانقلبوا) رجعوا من بدر (بنعمة من الله) عافية وثبات على الإيمان (وفضل) فى التجارة ، فإنهم لما أتوا بدرا وجدوا بها سوقا فاتجروا وربحوا وكانت بدر سوقا فى الجاهلية يجتمعون إليها كل عام ثمانية أيام فانتظروا ببدر أبا سفيان . أما هو فقد انصرف من مجنة إلى مكة وكان مع الصحابة نفقات فباعوا فأصابوا بالدرهم درهمين وانصرفوا إلى المدينة غانمين (لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) تفضل عليهم بالثبات وزيادة الإيمان والتوفيق (إنما ذلكم الشيطان) المثبط لكم كنعيم بن مسعود المذكور (يخوف أولياءه) القاعدين عن الخروج مع النبى (فلا تخافوهم) لاتخافوا الناس الذين خوفكم منهم المثبطون (وخافون) فى مخالفة أمرى (إن كنتم مؤمنين) انتهى القسم الثانى بفصوله الأربعة، وفى هذا القسم اثنتا عشرة لطيفة :

اللطيفة الأولى : الشورى والتوكل

الشورى : استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه أيخرجون من المدينة فيلاقون العدو أم ينتظرونه ، وكان تأويل الرؤيا أدعى إلى البقاء بالمدينة، فلما رأى أكثر أصحابه أميل إلى الخروج من المدينة أطاع الأغلبية وحكم بأمرهم فى القضية فلما أن لبس لامته وعزم الأمر أرادوا منه عدولا ، فقال لهم لا ؟ وكيف يرجع الأنبياء عن عزمهم ، وقد لبسوا آلات حربهم فاستمعوا لأمره ، وقيل له هناك « فإذا عزمت فتوكل على الله » .

فهاهنا أصبحت الشورى من الواجبات ، وإذا كان صاحب شرعنا صلى الله عليه وسلم يستشير قومه والوحى ينزل عليه فينزل على حكمهم ويسير بأمرهم . فياليت شعرى كيف استبد ملوك الإسلام ، وكيف تركوا الشورى فى غابر الأيام؟ ألا إنما القوم كانوا نياما ووالله لقد عجبت العجب كله فكيف ترك بعض المسلمين الشورى واستبدوا بأمورهم وظلموا فى حكمهم ألا ساء مثلا القوم الجاهلون . لذلك فاجأهم الغربيون وأذلوهم صاغرين وانقضوا عليهم طامعين فجعلوهم حصيدا خامدين فى القرون الأخيرة لما أفل نجمهم وتفرق جمعهم « فنقبوا فى البلاد هل من محيص » وقد آن أن يرجعوا لمجدهم وينالوا عزهم ويوفوا حظهم وهم سالمون .

التوكل

أما التوكل : فهاهو ذا معروف فى نفس هذه القضية فإن الله أمره بالتوكل بعد أن استشار القوم ورضى القوم ولم يبق إلا العمل . فهناك يكون التوكل والسير إلى الأمام والإقدام لا الإحجام والرضا بما سيكون . فإما الموت وإما النصر فيرضى العاقل إذ ذاك بما يأتيه .

فأما أولئك الجهال الذين يذرون التفكير والتدبير ويقولون هل من مجير ، وقد تركوا حبل الأمور على غاربها فهم المغرورون لاالمتوكلون . إن التوكل بعد العزم ، فهذا قول الرسول الأمين وهذا قول رب العالمين فمن أين للناس بعد هذا تبيان ؟. ولقد فسر الإمام الغزالى ماروى فى هذا المقام من أن سبعين ألفا يدخلون

الجنة بغير حساب من هذه الأمة ، وذكر منهم الذين لايسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون . فجعل الرقيا من الأمور التي من عادة الشفاء بها أن يكون موهوما لامظنونا ولا محققا ، وكذلك الكيّ ليس طبا لكل مرض بل لكل داء دواء جرت به العادة وغلب على الظن نفعه ، هكذا الطيرة والتفاؤل بالشرّ ، فذلك ليس دليلا على الشر ، وإنما هو أمر موهوم . فأما الأمور المظنونة المعتادة التي يغلب على الظن نفعها فهي التي يصح معها التوكل : كالطب المعلوم ، والزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، والإمارة ، وما أشبه ذلك . فهذه يكون التوكل معها مشروعا والسير على سبيلها محمودا ، ولعمرك ما أجهل أكثر أهل العلم بالدين ، وما أبعدهم عن التحصيل ، وكيف يكون ديننا يأمر بالأسباب المقبولة ويعلق الدخول في الجنة (في تلك الرواية) بغير حساب على الأمور المقبولة المظنونة . فأما ماهو موهوم النتائج كما يفعل الدجالون فحكمهم أنهم لايدخلون الجنة إلا بحساب لأنهم لم يحاسبوا أنفسهم في الدنيا بل ظلوا على البلاهة عاكفين وبالجهالة قانعين وبالتواكل راضين ، وقد أخلدوا عن عقولهم وتزلوا عن نفوسهم وعاشوا بحواسهم ومحسوساتهم ، ونامت عن العقول قوائم الناطقة فماتوا وهم غافلون فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين .

اللطيفة الثانية

إمداد المؤمنين بخمسة آلاف من الملائكة بعد ثلاثة آلاف أو بألف

الإمداد بالملائكة يألفه الذي عكف على قراءة الديانات . فأما أهل النظر فأكثرهم يظنون ذلك مجازا أو لايصدّقونه ، ولقد ذكرنا في سورة البقرة الأدلة التي أدلى بها حكماء الأمم من ظنية وجدلية ووجدانية عند قوله تعالى «وإذ قال ربك للملائكة» فلانطيل هنا بإعادتها ، فأما معاونتهم الناس ومشاركتهم لهم في أعمالهم في هذه الحياة فهو الذي يحتاج إلى زيادة النظر وتدقيق الفكر فنحن في هذا المقام بين أمرين : إما أن نجتزئ بالدين ونكتفي بالإيمان ونقول لانكلف فوق مانطيق ولا نقول إلا بالتحقيق . وإما أن نجد سبيلا للبحث وطريقا للتنقيب ووسيلة للبرهان ، ولقد ذكرت في كتاب الأرواح ماورد عن أجلة العلماء من أسلافنا وللعاصرين من الفرنجة ، ولست أذكره على سبيل البرهان ، ولكن لأطلعك على ماوصل إليه البحث البشري ، ولندلي دلوك في الدلاء ، ثم تنظر كما نظروا . فاعلم أن العلامة الرازي . قال في سورة إبراهيم ما ملخصه : إن النفوس بعد الموت تساعد النفوس الشاكلة لها وتعلمها ، فإن كان في باب الخير سمي إلهاما ، وإن كان في باب الشر سمي وسوسة . .

وهكذا نقلت فيه عن إخوان الصفا أن النفوس المتجسدة الشريرة في هذه الحياة شياطين بالقوة ، والنفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارقت أبدانها صارت الأولى شياطين بالفعل ، والثانية ملائكة بالفعل أي كالملائكة وكالشياطين ، ولقد نقلت فيه عن الجمعيات النفسية المنتشرة في أوروبا شيئا كثيرا من الأسئلة التي وجهوها للأرواح التي ظنوا أنهم قد أحضروها بطرق علمية ، وسألوها أسئلة كقولهم هل ينال المخترع والعالم العون من الأرواح ؟ فكان الجواب يأتيه متى عمل كل مافي وسعه فإنها تلهمه بعض إلهامات فكرية ليكون الفضل إليه منسوبا والعمل له بكسبه ، ولو أن العون أعطى له بلا عمل منه ولا فكر ولا تنقيب لتساوى الجاهل والعليم والخامل والعامل .

فانظر كيف يرى بعض الفرنجة وأهل أمريكا وهم يعدون بعشرات الملايين (آلاف الألوف) إن هناك عالما روحيا يعين الناس في الأعمال الشريفة ، ولقد ذكرت ذلك في كتاب الأرواح وأتيت بآية إمداد الملائكة النبي وأصحابه وعجبت كيف أصبح العلم الحديث يقول مثل مافي القرآن بل القدماء والمحدّثون معا .

إني لا أطيل القول بنقل محادثات الأرواح ، فإن ذلك شرحه يطول ، ولكن أذكر لك ما كتبته تعليقا على ذلك ، وهذا نصه :

حينئذ قلت ياشير محمد تأمل فى هذا الحديث ألم تجد فيه علما جديدا فى فهم القرآن ؟ قال وماذاك ؟ قلت : قال تعالى (فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين) فإن الجن أيام سليمان عليه السلام بقوا أمداً طويلا مسخرين ، وكان سليمان عليه السلام متكئا على عصاه ، فلما أكلت دابة الأرض تلك العصا خرّ على الأرض ، فلو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى ذلك العذاب ، ولعلموا أن سليمان ميت ، ولا جرم أن هذه القصة ثمرتها ألا يثق الإنس بأخبار الجن . هذا هو المقصد الحقيق منها ، ولقد تجلى واضحا فى هذا الحديث « ألا ترى أنهم لما سألوا الروح هل تستطيع الأرواح أن تكشف أمر المستقبل » فكان الجواب كلا ؛ إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

ولما سألت الأرواح أليس مع هذا من حوادث يتنبأ الأرواح عنها وتتم فى حينها ؟ . فكان الجواب قد يتفق أحيانا أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها ، وهذا لايمنع الأرواح الماكرة عن نشر النبوات الكاذبة ، ثم أفاد أن الأرواح الرصينة قد تستشعر بأمر يكون فى الغالب متعلقا بحوادث لم تتم ولا يعلمها إلا الله فلا تقطع فى جوابها .

أما الأرواح الطائشة : فلا يهمها أمر الحقائق . فتنشر الأخبار الكاذبة ، ولا جرم أن ذلك مغزى قصة سليمان عليه السلام ، وشرح ما انطوت عليه من العلم وبرهان صدق لما فيها من التوقف عن تصديق ماتلق الجن من الأكاذيب اهـ .

ثم انظر ياشير محمد إلى قول الروح إن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم ، ويحددون زمن وقوعه وإن هؤلاء الذين انطلقت أرواحهم من قيود الجسد لايهولهم أمر الموت . ألست ترى ياشير أن هذا مصداق قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين) .

فتعجب ياشير كيف يقول تتنزل عليهم الملائكة ليلهموهم السرور والبهجة ويخاطبوهم . وانظر إلى قوله تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن البشرى قال « هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » وتعجب ياشير محمد من قول الروح فى هذا إن الطبيب إذا انكب على درسه بالاستقامة لابنية حشد المال وكسب المعارف بدون جدّ ولا عناء ينال مساعدة الأرواح العلوية ، أو ليس هذا من مساعدة الملائكة للمجدين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم » فلا علم بلا جد ونصب ولا حلم بلا تكلف وتصبر وجد ، وقال تعالى (وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) وقال (وكل شىء عنده بمقدار) وقد علمت فيما مضى أن الأرواح لاتخص من مضوا من عالم الأرض بل هناك من هم أعظم وهم الملائكة المكرمون ، ثم انظر قوله تعالى فى سورة النحل (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) ثم قال (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) ثم قال (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أليس هذا ياشير يومئ إلى مايقوله الروح هنا إن أرواحهم تطلع على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ، ويبقى فيها ذكره عند اليقظة ، فهؤلاء لايهولهم أمر الموت ، ولايرون فيه إلا انتقالا من حال إلى حال أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف ، وهل يعطى من لايستحق الحكمة ؟ كلا اهـ .

ثم

ثم انظر إلى قوله فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحمل المحنة ، ولكنها لاتدرؤها عنكم لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم ، وهذا قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) وقوله (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير) وقوله (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) ثم تأمل قول الروح ، وهذا بدء القصاصات التي ستنوبهم من تعلقهم المفرط بالخيرات ، وقوله إن العدل قائم بخيبة آمالهم فتعجب كيف كان مطابقا أشد المطابقة لقوله تعالى (فلا تعجبك أموالهم ولاأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وقوله تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) فجعل الله المال والولد عذابا في الدنيا وفي الآخرة لمن تعلق بهما ولم يجعلهما وسيلة لارتقاء روحه ، ثم جعل المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، ولا خير إلا فيما بقي من الصالحات الباقيات .

وأما قول الروح : إن العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة إلى العلوم السماوية . فهذا قوله تعالى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا) وقول الروح لايخفى أن غاية الروحانية هي إصلاحكم الروحي ، والغرض من كل الأمثلة والمقالات التي تأتيكم هو وقوفكم على حقائق مابعد الموت لتتجردوا من الأرضيات وتسعوا وراء السماويات . هذا وكثير أمثاله يفهم من قوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين) ومفهومه أن الذين صدقوا ولم يستكبروا تفتح لهم أبواب السماء ، وقوله تعالى (إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون) ومفهومه أن الذين يرجون لقاء الله ، ولم يرضوا بالحياة الدنيا وجعلوها لجة ، واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا ، ولم يطمئنوا لها ، ولم يغفلوا عما أودع فيها من آيات الله فأولئك مأواهم الجنة بما كانوا يكسبون اهـ .

حكمة ومعجزة

ياشيخ محمد إن قول الروح هنا أيضا : إن الطبيب ينال المساعدة من الأرواح العلوية ، وقوله في العالم والمخترع إنهما ينالان المعاونة من الأرواح العالية إذا آن وقت الاختراع ـ دال على مداخلة الأرواح في أعمالنا عند الاستحقاق . أليس هذا مطابقا لقوله تعالى في سورة آل عمران (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) ألا فانظر كيف رتبت الأرواح للمعونة للمخترع والعالم على الجد والمثابرة وهي لاتطابق الآية إذ جعل مساعدة خمسة آلاف من الملائكة موقوفا على الصبر والتقوى وهجوم العدو ، أو لست ترى أن بيان الأرواح معجزة القرآن . لقد كنا نسمع هذا ونكل علمه إلى الله تعالى فأصبحنا نرى نظائره عن الأرواح العالية أنفسها ، وقال في سورة الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) .

فانظر كيف أمر للملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا وأنه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فترى أن ماقاله الروح هنا من إلهام الأرواح الأحياء ومساعدتهم وإنارة بصائرهم موافق للآيات ، ومعجزة فى هذا الزمان فتأمل اهـ .

الحياة بعد الموت

خطبة السر أوليفر لودج العالم الإنجليزى المشهور فى الحياة بعد الموت نقلا عن مجلة المجلات الإنجليزية منقولة من كتاب الأرواح للمؤلف ، وقد حذف منها ماتقدم ذكره فى السورة، منها: إذا صح أن الله موجود فعلا وأنه يوحى إلى البشر ويساعدهم ، وأن الإنسان ليس منفردا على هذه الأرض السابحة فى الفضاء بل حوله كثير من الأعوان يعطفون عليه ويساعدونه ، وأن الله تعالى آخذ بيده فى سيره إلى الحقيقة والكمال الأدبى؛ إذا صح ذلك كان حقيقة تتضاءل فى جنبها جميع الحقائق ، وقد يكون من الحضور من يعتقد أن الإنسان أرفع الكائنات وليس فى الكون أعلى منه وأنه نشأ على هذا السيار أى الأرض وإذا مات اضمحل وأن ليس فى الوجود من يعينه ولا من يفهم أسرار الكون أكثر منه وأنه أرفع الكائنات طرًّا لأنه أرقى ماوصل إليه النشوء على هذه البسيطة فى هذا العصر ، ثم قال :

وقد عرف الآن أن فى الكون أراضى غير أرضنا هذه ، وقد يكون فيها من يقابل الإنسان من الكائنات ، ولكن أليس فى الكون كائنات تختلف عنا ، وهل يجوز أن يعتقد أن كل كائن مدرك يجب أن يكون له جسم مادى مثل أجسامنا إن اعتقادا مثل ذلك لامسوّغ له ولا قام عليه دليل .

قد أظهر العلم مافى الكون من الانتظام وأن فيه عوالم كثيرة لاعالما واحدا ، ولنا فى الأجرام الفلكية مثال على أنه قد يكون فى الكون كائنات كثيرة لانعلمها ، إذ لو كان الهواء الجوىّ غير شفاف لما رأينا من الأجرام السماوية شيئا ولا علمنا بوجودها ، وليس احتجاب الأجرام الفلكية عن بصرنا أمرا يعز حدوثه ، فإن الضباب والغيم يحجبانها عنا أوقاتا كثيرة ، ولكن اتفق لنا أن كان فى إمكاننا رؤية ماوراء الهواء فرأينا شيئا من عظمة الكائنات وأنها غير متناهية ، ولست ساردا عليكم ماعرف من الحقائق الفلكية فإنكم تعرفونها وهى كثيرة غير محدودة ، وإن عقولكم لتقصر دون تصوّر حقيقة هذا الكون المؤلف من عالم وراء عالم إلى ما لانهاية له ، وجميع هذه العوالم خاضعة لنواميس واحدة؛ لأن عناصر النجوم مثل عناصر الأرض وخصائصها فى النجوم مثل خصائصها هنا . فهل الإنسان هو سيد هذا الكون العظيم؟ إن الإنسان حديث العهد بالوجود على الأرض فما كان حال الكون قبل وجوده ، ليس الإنسان سيد الكائنات بل هو درجة من الدرجات فى النشء ، ثم قال :

إن الإنسان لايسود الكون ولا يفهم أسراره ، ولكنه يتلمس فيه الحقائق تلمسا ، وقد كشف حديثا (الراديوم) الأرغون (أشعة رنتجن) و (بعض طبائع الكهربائية) وقد بدأ الآن يعرف شيئا عن بناء الجواهر الفردة ، وتظهر هذه الأمور كأنها وجدت وهى غير جديدة بل كانت موجودة قبل أن نكشفها ولولم نكشفها لكانت موجودة أيضا ونحن لانعرفها ، وفى الطبيعة أيضا أمور كثيرة لم نكشفها حتى الآن .

ولكن كم عمر العلم ليس عمره إلا قرونا قليلة بل قرنا واحدا لأنه لم يتقدم تقدما يذكر إلا فى القرن التاسع عشر ، وقد عرفنا شيئا من حقائق الكون إلا أن ماعرفناه جزء من كل فلا يجوز لنا أن ننفى وجود الكل، لنا أن نبحث عن الحقائق والموجود موجود سواء عرفنا وجوده أم لم نعرف ، واعتقادنا بوجود شىء أو عدم وجوده لايؤثر فى الكون ولكنه يؤثر فينا . نحن لانعرف تركيب الجواهر الفردة ، ولكنا قد بدأنا نعرف شيئا عنه فكل جوهر يشبه النظام الشمسى فى تركيبه ، وله نواة تقابل الشمس والكترونات

تدور حولها مثل السيارات حول الشمس ، وهذه الألكترونات خاضعة فى دوراتها لنواميس مثل النواميس التى تخضع لها السيارات . ثم إن الجواهر الفردة غير محصورة فى الأرض بل توجد فى الشمس والسيارات ، وكل كواكب السماء تتألف منها كما تتألف منها الأرض ولا نعلم كل النواميس الجارية هى عليها حتى الآن ، ولكننا سائرون فى السبيل الموصل إلى ذلك ، ثم قال :

ليس منكم إلا من رأى النمل يخرج من قريته ويعود إليها ولا نعرف كثيرا من أمور النمل فى ذهابه وإيابه وأنا أظنه يدرك مايعمله بعض الإدراك وهو يدب بين أقدام الناس الذين مداركهم فوق مداركه بكثير وماذا يعرف النمل عن اعتقادات الناس وآرائهم وأعمالهم ومداركهم؟ إن لنا عبرة فى أن الحيوانات التى مثل النمل تعيش بيننا ولا تعرف شيئا عنا ، وعندى أن فى الوجود كائنات نسبتها إلينا كنسبة النمل إليها ونحن نتسكع بين أرجلها غير عارفين شيئا عنها . إن حواسنا تعيننا على التوصل إلى إدراك بعض الأمور ولكنها قاصرة جدا ، ولذلك نقويها بذرائع عديدة كالتلسكوب والمكرسكوب ، ورغما من ذلك لانعرف عن الكون إلا القليل ، ولم تزل حولنا أمور كثيرة لاندركها ولكننا ندرك بعضها عن طريق غير الحواس ، وبقية الخطبة قد تقدم فى هذه السورة .

هذه خطبة السير أوليڤرلودج نقلتها لك من كتاب الأرواح بحذافيرها ولم أختصرها ، وتركتها بطولها لأغراض ثلاثة : الأول أنه أثبت فيها أن أرواحنا باقية بعد الموت . الثانى أنه أثبت أن هناك عوالم أعلى منا ، وأن نسبتنا إليهم كنسبة النمل إلينا وأنهم محيطون بنا . الثالث أنه أثبت أن هؤلاء يساعدوننا ويفكرون فى أمرنا ، هذه أمور ثلاثة جاءت فى الخطبة ؛ لذلك أثبتها كلها . إن الله فى هذه السورة ذكر فيما يأتى أن الأرواح باقية بعد الموت . قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) وهذا هو الأمر الأول ، وذكر الله فى الأمر الثانى والثالث أن له ملائكة وأن هؤلاء الملائكة يساعدون الناس المخلصين فى أعمالهم .

عجيبة فى أمر الأمم الإسلامية اليوم

قد قرأت خطبة اللورد أوليڤرلودج ، وهذا العالم عالم طبيعى . بل هو أكبر علماء الطبيعة فى أوروبا ، وهذه الخطبة خطبها أيام الحرب الكبرى كما تراه مصرحا بذلك فيها .

يخطب أوليڤرلودج فى مجمع من قومه ، وقنابل الألمان تتساقط فى أنحاء بلادهم ، والعذاب واقع بأمتهم ، والغازات الخانقة محيطة بهم ، يقف فيقول : إن أرواحنا باقية وإن لله عوالم أرقى منا ، وإن هذه العوالم الروحية تساعدنا وتعاوننا . هذه أعمالهم فى بلادهم .

أما بعض الذين تعلموا فى بلادنا المصرية وبعض البلاد الشرقية ، فماذا يقولون ؟ يقولون نحن علماء عظماء لماذا ؟ لأننا قرأنا الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو لغتين من ذلك ، وقرأنا بعض العلوم ونحن نحمل الشهادات فنحن أسمى نظرا وأعقل وأرقى فكرا من جميع المسلمين الجاهلين الذين يؤمنون بأمور لايقبلها العقل . يقولون نحن نبقى بعد الموت ، أو أن هناك ملائكة ، أو أن هناك إمدادا من السماء بأولئك الملائكة ، إن القرآن والكتب السماوية لم تنزل إلا لأمم أقل منا علما ومدنية فلنفعل كما فعلت أوروبا ، ولنكفر بهذا كله ، ومتى كفرنا به انطلقت عقولنا من عقلها ، وعرفنا هذه الدنيا ، وحينئذ نستقل ، وتكون لنا جيوش جرارة .

هذا ما يسره كثير من أهل العلم اليوم وبعضهم به يجهرون ، فمثل هؤلاء يقال لهم إن ادعاءكم أن هذه الأمور خرافات واستنادكم على تكذيب أوروبا لها وادعاءكم أن التكذيب بها رقى العمران ، وسعادة البلاد كلها قضايا لايقول بها الصبيان .

فإن أوروبا التى تدعون أنكم عرفتم علومها هذه الخطبة نموذج لعلماء الطبيعة فيها ، ولو كان القوم متغفلين مثل المغرورين من صغار المتعلمين فى الشرق لقالوا للخطيب السابق نحن الآن فى حرب فدع الخرافات وائتنا بما يفيدنا فى هذه الحياة ، وليس هذا الوحيد فى هذا العمل بل هناك آلاف وآلاف أفضل منه فى هذا الشأن ، فهذه الطائفة من المتعلمين فى الشرق مغرورة جاهلة مخدوعة ظنت أن تعلم اللغة إدراك للعلم ، وهذه أيضا فضيحة فإن اللغة ليست علما وإنما هى مقدمة للعلم ، وهؤلاء قرءوا اللغة وما قرءوا العلوم التى ألفت فيها ولو قرءوها مافهموها لأنهم لادراية لهم بتلك العلوم، كما أن الإنسان الذى يجهل الهندسة أو علم الجبر ، وهما علمان مؤلفان باللغة العربية لايعرف مقصودهما ولا يعقلهما ، وكيف يعقلهما وهما محتاجان إلى الموقف والمعلم ؟ فاللغات شىء والعلوم شىء ، فاعرف بهذا الميزان أهل زمانك وادرس أخلاق الأمة الإسلامية ونبه المغرورين منها إلى طريق الرشاد .

اللطيفة الثالثة : (ليس لك من الأمر شىء)

لقد ذكر فى تفسيرها مايفيد أن الرسل يجرى عليهم القدر كما يجرى على الظالمين ، فالخير والشر مقرونان فى قرن يجريان على البرّ والفاجر والعالم والجاهل ، ولكن أرباب النفوس العالية من الأنبياء والحكماء يكون الشر مصباحا يضىء لهم ، والخير سلاحا يجاهدون به فى سبيل الإصلاح ؛ ومفاتيح كل شىء بيد الله ولم يستثن من الإصابة أحدا ، وتراه كلف الآساد باقتناص السانحات البارحات من الغزلان ، وحكم على النمور والصقور أن لاتتناول غير اللحوم فكل لكل رابض وله مجاهد إنماء للقوى وإسعادا للنفوس والأجسام ، فالخير من الشر وهما متلازمان صنوان لايفترقان .

اللطيفة الرابعة : (ولله ما فى السموات وما فى الأرض)

قد قدّمت فى هذه السورة أن ذكر السموات والأرض يختلف باختلاف المواضع كالاستدلال على وجود الله بآية (هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا) وآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك الخ) للدليل على الوحدانية إلى آخر ماقدّمناه هناك ، ونزيد الآن أن قوله هنا (ولله مافى السموات وما فى الأرض) ذكره ليفيد البرهان على أنه ليس للنبى صلى الله عليه وسلم من الأمر شىء كأنه يقول : وكيف يكون لك يامحمد شىء حتى تدعو على أعدائك بالاستئصال ، ولى ما فى السموات وما فى الأرض فكيف تطلب منى إماتتهم أو تحاول إزهاقهم وإرهاقهم ؟ وكيف يكون ذلك وأنا الغفور الرحيم ، فلى أن أرحمهم فأغفر لهم بأن يصحبوا مسلمين ، فإن رحمتى وسعت كل شىء بطرق أخفيها وأعمال محجوبة أخبارها عن العالمين .

اللطيفة الخامسة : تحريم الربا

لقد مرّ شرحه فى سورة البقرة عند آية الربا ، وكيف كان تحريمه أعجوبة الدهر وغريبة العصر ، وكيف أصبحت الدول تحرم استعماله وتريد إهماله وأنه سبب انتقاص العمران وهدم البنيان ، وفساد هذا الإنسان وضياع البلاد وذلّ العباد فقامت البلشفية وقبلها الاشتراكية ، وكل ينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وانظر كيف كان تحريم الربا فى هذا المقام مسطورا ؟ وبعد الحرب فى أحد مذكورا ، ولعمرى ماعلاقة الربا بالحروب . إن العلاقة واضحة جلية ظاهرة بهية ، ألاترى أن الحرب لاقوام لها إلابالسلاح ولاقوزلها إلا بالكراع ولا بد من جند لها يعملون ، وفلاحين للأرض يزرعون ، وصناع للآلات يقوّمون ، ومهندسين للساق وللمدن يصلحون وطرق بالبخار يسلكونها وقطرات عليها وعلى الفلك فى البحار يحملون .

فإذا فشا الربا فى البلاد افتقر العاملون ، وذلّ الفلاحون ، ويشى من الرواج التجار ، وبارت صناعة الحداد والنجار ، فهذا سر ذكر الربا فى هذا المقام ، وقد وفيت المقام حقه فى سورة البقرة عند آية الربا .

اللطيفة السادسة : الجنة والنار

اعلم أن الجنة والنار قد أفضنا الكلام عليهما فى سورة البقرة عند قوله تعالى (وأتوا به متشابها) واليوم نعيد الكرّة لهما بتحقيق أجلى ، وإيضاح أكمل ، وأحاديث مرفوعة ، وآراء مشروحة ، وعلوم جديثة ، واكتشافات صريحة فنقول : (١) قد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أرواح الأنبياء صلى الله وسلم عليهم ليلة أسرى به فى السموات سماء سماء ، آدم فى سماء الدنيا ، وعيسى ويحيى فى الثانية ، ويوسف فى الثالثة ، وإدريس فى الرابعة ، وهارون فى الخامسة ، وموسى وإبراهيم فى السادسة والسابعة . قال ابن حزم فصح ضرورة أن السموات هى الجنات (٢) عن صفوان بن يعلى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «البحر من جهنم أحاط به سرادقها» وقال تعالى (والبحر المسجور) أى الموقد. روى «أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحر نارا تسجر بها نار جهنم (٣) عن ابن عباس عن كعب « والبحر المسجور يسجر فيكون جهنم » (٤) قال عبد الله بن سلام « وإن الجنة فى السماء ، والنار فى الأرض » (٥) قال على بن أبى طالب ليهودى ؟ أين جهنم ، قال فى البحر . قال عليه الصلاة والسلام «ما أظنه إلا قد صدق » وعن ابن مسعود قال « الأرض كلها يومئذ نار ، والجنة من ورائها ، وأولياء الله فى ظل العرش » (٦) أخبر تعالى أن أرواح الكافرين لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة ، فإذن من فتحت لهم أبواب السماء دخلوا الجنة كما قاله بعض القدماء (٧) أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شدة الحر من فيح جهنم ، وأن لها نفسين : نفسا فى الشتاء ، ونفسا فى الصيف ، وأن ذلك أشد من الحر والبرد ، وأن نارنا أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة » (٨) وعنه صلى الله عليه وسلم «أن آخر أهل الجنة دخولا فيها بعد خروجه من النار يعطى مثل الدنيا عشر مرات» وقال أيضا «إن الدنيا فى الآخرة كأصبع فى اليمّ » وقال الله تعالى(وجنة عرضها السموات والأرض) وقال أيضا (عرضها كعرض السماء والأرض) . (٩) عن ابن عباس قال « ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » (١٠) قال تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقال تعالى (وفتحت السماء فكانت أبوابا) وقال تعالى (يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن) وقال تعالى (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها) وقال تعالى (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) وقال تعالى (خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ) هذه الآيات والأحاديث هى التى أردت جمعها لتكون أساسا لما نبنى عليه من العلوم الحديثة التى كشفها علماء العصر الحاضر فى أوروبا لتعجب من أمة الإسلام النائمة نوما عميقا والأمم من حولها باحثون منقبون عارفون نظام الكائنات ، وعجائب الآيات ، وغرائب المصنوعات ، وهم عن العلم معرضون ، وعن البحث ساهون لاهون ؟ وقد يعلم المرء ثم يجبن أن يدلى بعلمه للناس لقصور فى نفسه وخور فى عزيمته وجهل بأطراف الموضوع فاسمع لما ألقى إليك ، وتعجب من العلم وهيبته ، والعرفان وصولته ، والحكمة وجمالها ، وآيات الله وكمالها .

الأرض كرة نارية

لم يدر بخلد أحد من العصور السالفة والأمم الغابرة أن الأرض التى نحن عليها نار ، ولم يكن فى تصوّر أحد منهم أننا على قشرة كقشرة البطيخة أو كقشرة البيض فى الثخن داخلها نار متأججة . فانظر كيف ورد فى الأحاديث أن البحر نار ، وأن البحر من جهنم أحاط به سرادقها ، ولم يكن أحد يعلم أن فوق الهواء بردا قارصا حتى لو دخلت فيه رأس آدمى لصارت ثلجا فى جزء صغير من الثانية .

نحن الآن بمقتضى الكشف الحديث بين زمهرير فوق كثرة الهواء البالغة نحو ٦٠ كيلومترا ، وبين نار في باطن الأرض ، وقد ورد في الأحاديث السالفة أن النار تشتمل على أشد البرد وأشد الحر ، وانظر كيف تجد جبال النار القائمة في العالم ، وأقربها إلينا في مصر جبال إيطاليا ، ومن عجب أني قرأت في الجرائد أيام تأليف هذا التفسير أن بركان (اتنا) قد غلا وفار فلأسمعك ماقالته الجرائد ووصفته الكتب

بركان اتنا

هذا البركان واقع إلى الشمال الشرقي من جزيرة صقلية (سيسيليا) والبركان جبل مخروطي الشكل على الغالب ، له قمة عالية تحيط بها جبال وهضاب نارية ، وفي قمته فوّهة تخترقه إلى باطن الأرض تقذف منها المواد المختلفة من نار ودخان ومقذوفات ملتهبة أو سائلة ، وقد يكون في الجبل أكثر من فوّهة واحدة كما في بركان اتنا الذي أحصى فيه أكثر من ٨٠ فوهة .

وتكون البراكين غالبا في الجزر الصغيرة أو على شواطئ البحار ، وقلما تجد بركانا في وسط القارات ، وإذا وجد كان دليلا على أن ذلك المكان كان بحرا أو شاطئ بحر في الأزمنة الغابرة .

أما علة البركان فهي الحرارة الشديدة المستبطنة للأرض التي تصهر المواد وتبخر المياه وتحوّل الجوامد إلى سوائل ، والسوائل إلى أبخرة وغازات فتتمدّد هذه المواد بتأثير الحرارة ، ويضيق عليها المكان فتمزق القشرة الأرضية ، وتفتح فيها منفذا تندفع منه إلى الخارج .

وتقذف المواد الذائبة ، والغازات والحمم من باطن الأرض إلى علو شاهق ، وتتحوّل الأبخرة إلى أمطار غزيرة ، ثم إلى سيول عظيمة تكتسح البلاد كما هو واقع الآن في جزيرة سيسيليا .

ويحسن أن نشير في هذا المقام إلى ثخن القشرة الأرضية بالنسبة إلى باطنها المشتعل ليتبين ضعف هذه القشرة ومطاوعتها للعوامل . فقد ذهب العلماء إلى أن ثخنها لايزيد على ٩٠ كيلومترا مستدلين على ذلك بما عرفوه بالاختبار من الآبار الارتوازية وغيرها من أن حرارة الأرض ترتفع درجة واحدة بميزان سنتيغراد كلما تعمق فيها الإنسان ثلاثين مترا . فعلى عمق ٣٠٠٠ متر لزم أن تكون هذه الحرارة ١٠٠ درجة ، وعلى عمق ٩٠ كيلومترا لزم أن تكون ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتيغراد ، وهي الحرارة التي تصهر جميع المعادن والصخور . لذلك يجزم العلماء بأن القشرة الأرضية لايمكن أن يزيد ثخنها على ٩٠ كيلومترا؛ أي أنها أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءا من قطر الأرض ، وأقل من ثخن قشرة البيضة بالنسبة إلى البيضة عينها .

والمقادير التي تقذفها البراكين من الحمم والسوائل المحرقة أعظم مما يتصوّره العقل ، وفي سيول الحمم التي تتدفق من اتنا الآن ، وتقول التلغرافات الأخيرة إن عمقها زاد على ٨٠ قدما ، وعرضها على ٦٠٠ متر أعظم دليل على ذلك .

وقد ذكر التاريخ أن المواد التي خرجت من بركان (تمبو) في جافانا سنة ١٨١٥ غطت سطح البحر في دائرة بلغ قطرها ٢٠٠ ميل ، وهذا مايكفي لأن يغطي بلاد إيطاليا كلها بطبقة من المواد البركانية علوها قدمان ونصف قدم .

ومن عجب أن تكثر الزلازل العظيمة أيام هذا التفسير ، أو لم يكن ذلك تدريبا على التفكير وتذكيرا بالعلم؟ بلى ، فلم يقف الزلزال في هذه السنة عند حد إيطاليا بل تجاوزها بعد ذلك إلى اليابان ، فقامت فيها قيامة الزلازل وأذكرتنا بما في القرآن من تدمير للمدن وهلاك الأمم فجأة والناس لايشعرون .

وليس يهمنا إلا المباحث العلمية والعجائب الكونية والنار الكروية في باطن الأرض فقد جاء في البرق والبريد أنه حدثت زلزلة تقشعر من هولها الأبدان ، وذلك في ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٣ . فجاء فيها أن اليابان

نكبت اليوم بأعظم مانكب به الأمم مما لم يسمع به البشر إلا فى أقدم العصور التاريخية (الذى يقال له الانقلاب الجيولوجى) لما كانت القارات تتحول بفعل الزلازل إلى بحار ، والبحار إلى جزر ، والجزر إلى قارات . زلزال غارت به الجبال فصارت وهادا ، وارتفعت البحار فصارت أطوادا ، وصهرت الصخور فصارت رمادا ؛ فما شعر السكان به حتى أصبحوا حمما ، وهوت منازلهم فوقهم فكانت لهم رجما فأصبحت مدينة (يوكوهاما) خرابا (وتوكيو) وهى العاصمة الجميلة صارت طعمة للنار ، وقد قتل فى يوكوهاما وحدها أكثر من مائة ألف نسمة غير من قتلوا فى توكيو .

والزلزال اهتزاز فى الأرض دفعة أو دفعات متوالية بالقوة الطبيعية يحدث قبل وقوع الانفجارات البركانية ، وفى أثنائها وبعدها ، وتارة يكون بغيرها . وقد أحصى علماء طبقات الأرض ستة آلاف وستين زلزالا إلى الآن ، وأعظم الزلازل مانكبت به اليابان ، فقد قتل فيها خمسمائة ألف إنسان ، ودمر القسم المتوسط من الأمبراطورية على مدى ستمائة كيلومتر تقريبا ، وطغت المياه على مدينتين فدمرتهما تدميرا ، وعلى شواطىء البحر فدمرت كل مدينة على شاطئه .

واعلم أن جميع بقاع الأرض معرّضة للزلازل ، ونحن ربما لا نشعر بزلزلة تكون فى ديارنا مثلا مع أن عدد الزلازل التى تحدث كل سنة تبلغ (٣٠) ألفا أى نحو مائة زلزلة كل يوم وأكثرها هزات لطيفة .

وقد تحدث فى البحار فلا يشعر أحد بها ، وذلك لأننا فوق كرة نارية مضطربة دائما ، وليس يحجزها عنا إلا تلك القشرة التى ترى مستعدة دائما للاهتزاز والاضطراب بما يحصل فيها من الانكماش والاعوجاج فى كل حين .

فوازن أيها الذكى أوصاف هذه البراكين بما جاء فى الأحاديث ، فاقرأ كلام ابن عباس ، وكيف يقول : البحر المسجور يسجر فيكون جهنم ، وكيف يقول عبد الله بن سلام : إن النار فى الأرض ، وكيف يروى أن البحر من جهنم أحاط به سرادقها ، وكيف يقول الكشف الحديث كما ترى : إن البراكين لاتكون إلا فى الجزر الصغيرة أو على شواطىء البحار ، وكيف يقول نبينا صلى الله عليه وسلم : إن نارنا هذه أبرد من نار جهنم ٦٩ درجة ، ثم ترى فيما قرأت أن عمق ٩٠ كيلومترا تكون النار فيه ٣٠٠٠ درجة بميزان سنتيغراد وأن هذه الحرارة تصهر جميع المعادن والصخور وبيننا وبين تلك النار قشرة الأرض التى لا يزيد ثخنها على ٩٠ كيلومترا ، فهى أقل من جزء واحد من مائة وأربعين جزءا من قطر الأرض ، وأقل من قشرة البيضة بالنسبة إلى البيضة .

فعلى هذا تكون النار هناك فى باطن الأرض وفق مافى الحديث ، فإذا كانت فيما يلى قشرة الأرض تبلغ ٣٠٠٠ درجة أعنى قدر النار التى تغلى الماء ٣٠ مرة ، فكم يكون مقدار مابعد ٩٠ كيلومترا أخرى وهكذا ، فإذا قال صلى الله عليه وسلم : «إن نار جهنم قدر نار الدنيا ٦٩ مرة » ، فإنا نقول قد كشفه العلم الحديث ، وإذا قال الله تعالى (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) فذلك أصبح معروفا ؛ فالزمهرير من فوقنا ، والسعير من تحتنا ، وكلاهما من جهنم كما فى الحديث المتقدم ، وتعجب من قوله تعالى «لمحيطة» والإحاطة أقرب ماتكون فى الدوائر والكرات ، ولاجرم أننا بين كرتين كرة زمهرير يفصلها عنا الهواء وكرة النار تحجبها عنا القشرة الأرضية ، وقوله تعالى (لمحيطة بالكافرين) ربما يثقل عليك فتقول : هى محيطة بالكافرين والمؤمنين ، نقول ماتقوله حق ، ويكون نظيره ماقاله الله تعالى فى القرآن (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) فإنه قيل هناك : إن الأولاد والأموال معذبة الكافر والمؤمن ، ولكن المؤمن الذى أدرك الحقائق يرى أن هذا العذاب مع الصبر يورث الأجر فى الآخرة فكأنه بهذا ينجو من العذاب باعتبار مآله . هكذا هنا إنها تحيط بالجميع ولكن المؤمن يعمل للنجاة .

وتعجب أيها الذكى كيف ترى أن مافوق القشرة الأرضية من المعادن والنبات والحيوان تصير نارا ، وتنقلب سعيرا متى أحاطت بها النار ، وترى النار متى لامست الخشب والثياب والقش اتقد فصار نارا ، وذلك كله يشبه أن يكون مؤيدا لقول علماء العصر الحاضر : إن الأرض من الشمس ، والشمس ملتهبة نارا ، والكواكب فى مبدأ أمرها تكون نارا ، والسيارات كانت نارا ، ثم أخذت تبرد شيئا فشيئا ، والقمر من الأرض ، وبرد قبلها لصغر حجمه ؟ أفلست ترى أن العالم الذى نحن فيه تحيط به النار من سائر أطرافه ، وهذه النار مغمورة فى الزمهرير .

الماء يكون نارا

والماء مركب كما تقدّم من الأكسوجين والأودروجين ، وقد علمت فيما تقدّم أن الأكسوجين وهو الجسم المحرق ٨ أتساع ، والأودروجين تسع واحد فى الوزن ، فكأن الماء ٨ من ٩ منه نار ، فالبحر يكاد يكون نارا وتحت البحر القشرة الأرضية وتحتها النار المحرقة العظيمة .

قلة علمنا بهذه العوالم

اعلم أنى قبل اطلاعى على هذه الأحاديث ، ونظرى فى هذه الآيات ما كان ليخطر لى أن أذكر مثل هذا القول بل كنت أعدّه كفرا وجهلا ، وهكذا أنت أيها الذكى قبل أن تقرأ هذه الآيات والأحاديث كنت تعده كفرا ، فإن الجنة والنار مرجعهما أنهما مجهولان جهلا عاما ، ومن فتح باب الكلام فيهما بمثل هذا عدّ كافرا أو مبتدعا أو فاسقا ، ولكن لما رأيت هذه الآيات والأحاديث التى رأيت ابن حزم جمعها ، وذهب إلى أن الجنة فى السماء ، والنار فى الأرض ؛ ثم اطلعت فى العلم الحديث فرأيت العجب العجاب ، وأن هناك تطابقا غريبا بين الدين وبين العلوم العصرية أردت أن أطلعك عليها وأقرّب للمعانى بغاية مايمكننى ، ثم أحذرك أن تقف عندما رأيت مما ذكرت فى النار وما سأذكر فى الجنة ، فأنا لست أقول إن هذا هو العلم الذى تقف عنده ، فربما جاء المستقبل بما نجهله نحن ، وجاء علم لم نعهده ، والقرآن يجب ألا يقف عند كشف ولا يقطع بأنّ هذا معناه .

فانظر كيف يقول ابن حزم بأن الجنة قسمان : قسم هو السموات السبع ، وهى الجنات السبع ، وقسم هو الجنة التى عرضها كعرض السماء والأرض ، وهو الكرسى، والقسم الأول وهو السبع عرضها السموات والأرض وأن الأبواب الثمانية فى كل سماء باب ، وفى الكرسى باب ، وأن العرش فوق أعلى الجنة ، وهو محل للملائكة ، وليس من الجنة فى شئ ، وقوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله) بيان جلىّ بأن على العرش جرما آخر فيه للملائكة ، وقال إن البرهان قام على ذلك من علم الهيئة .

هذا قول العلامة ابن حزم ، وأنت خبير أن هذا مبنى على الفلك القديم وقد ظهر بطلانه . فانظر كيف طبقه العلامة ابن حزم عليه ، ولما ظهر بطلانه واطلعنا عليه أردنا أن نطلعك على العلم الحديث فى النار وفى الجنة، ولكنا نقول لك حذار حذار أن تجعل ماتقوله هو نفسه معنى القرآن والحديث بل هو احتمال نقوله وعليك أنت أن تترقب العلم الحديث والبحث والتنقيب ، فإنك لو جعلت القرآن لايحتمل إلا هذا ، وأتى العلم بما لم نعرفه فى زماننا انقلب علم الناس جهلا فيكون التعليم ضلالا والعلم وبالا والجزم به خبالا ، ولكن مالايدرك كله لايترك كله فلأسمعك مااطلعنا عليه فى الحديث .

الجنـــة

سأسمعك ملخص ما جاء فى كتابى المسمى (الأرواح) من تعاليم الأرواح فقد أحضروا فى أوروبا روح

العلامة غاليليوس الشهير بالعلوم الفلكية على يد الوسطاء للجمعية الباريسية الروحانية فى خلال سنتى ١٨٦٢ و ١٨٦٣ . قال غاليليوس :

أفضل تحقيق أطلق على الفضاء أنه مسافة تفصل مابين جرمين فاستنتج بعض الغالطين من هذا التحديد أن لاوجود للفضاء حينما انتفى وجود الأجرام ، وإلى هذا المبدأ أسند بعض اللاهوتيين رأيهم فى ضرورة تناهى الفضاء، وعدم إمكان تسلسل أجرام محدودة إلى مالاانتهاء له . الفضاء لفظة تدل على معنى مفهوم بذاته لايحتاج إلى التعريف وماقصدى بهذه المقالة إلا أن أبين لكم عدم حده وتناهيه .

أقول : إن الفضاء لاحد له بدليل أنه من المستحيل تصور حدود تحده إلى أن قال : وإن شئنا أن نمثل فى ذهننا المحدود عدم تناهى الفضاء فلنتصور أنفسنا طائرين من الأرض نحو إحدى جهات الكون بسرعة الشرارة الكهربائية التى تقطع فى الثانية ألوفا عديدة من الفراسخ . فبعد طيراننا بثوان قليلة لاتعود الأرض تتراءى لنا إلا ككوكب حقير ضعيف النور جدا ، وبعد قليل تتوارى عن نظرنا بالكلية ، والشمس ذاتها لاتلوح لنا إلا كنجم حقير متوغل فى أقاصى الفلا وعوضها تتجلى لأعيننا نجوم عديدة لانكاد نميزها فى المحطة الأرضية ، وإذا لبثنا طائرين بالسرعة ذاتها نقطع فى كل هنيهة عوالم متجمعة ، وسيارات ساطعة ، وبقاعا زاهية نثر الله فيها العوالم كما نثر الزهور فى مروجكم الأرضية .

على أنه لم يمض على سفرنا إلا دقائق قليلة ، وقد نأينا عن الأرض ملايين فى ملايين من الفراسخ ، ورأينا ألوفا فى ألوف من العوالم ، ولكن لدى التحقيق لم نخط بعد ولاخطوة واحدة فى الكون ، وإذا استقام سفرنا البرق لادقائق وساعات بل سنين وأجيالا وألوفا وملايين فى ملايين من العصور والدهور فإنا لانكون مع هذا قد خطونا خطوة واحـــدة فى طريقنا ، وذلك إلى أى صوب اتجهنا وأية نقطة انتحينا من تلك الذرة الحقيرة التى بارحناها وأنتم تدعونها أرضا . هذا ماعندى من تعريف الفضاء .

وأما الزمان فهو كالفضاء لفظة معبرة بنفسها غنية عن التحديد ، وقد يسوغ أن ندعوه تعاقب الأشياء باللانهاية . فلنتصورن أننا فى بدء عالمنا أى فى عصر بدأت فيه الأرض تتبختر تحت النفحة الإلهية وبرز الزمان من مهد الطبيعة السرى . فقبلها كانت الأبدية سائدة ساكنة ، والزمان يجرى مجراه فى عوالم أخرى ، ولما برزت الأرض إلى حيز الوجود استبدلت فيها الأبدية بالزمان ، وأخذت السنون والقرون تتعاقب على سطحها حتى اليوم الأخير أى ساعة تبلى الأرض وتمحى من سفر الحياة ، فنى ذلك اليوم تتعاقب الأشياء ، وتزول الحركات الأرضية التى كانت مقياسا للزمان أيضا . فينتج من هذا أن الزمان يتولد من تولد الأشياء وينقضى بانقضائها وهو بقياس الأبدية كنقطة سقطت من عباب الجوّ فى البحر فتختلف الأزمنة على اختلاف العوالم، وخارج هذه التعاقبات الفانية تسود الأبدية وحدها وتملأ بضيائها فلوات الفضاء التى هى غير محدودة، ففضاء لاحد له وأبدية لاقرار لها هما الخاصيتان العظيمتان للطبيعة العامة ؛ وإذا كان الزمان تعاقب الأشياء الزائلة ومقياسها ، فإذا جمعنا ألوفا فى ألوف من القرون والأحقاب لايكون هذا العدد إلا نقطة زهيـــدة فى الأبدية ؛ كما أن الألوف فى الألوف من الفراسخ تعدّ نقطة حقيرة فى الفضاء ، وإذا مضى على حياتنا الروحية عدد من القرون يوازى قدر مايكتب على طول خط الاستواء فإنه ينقضى هذا العدد الجسم والنفس كأنها اليوم ولدت .

وإذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدة من الأرض إلى الشمس وأكثر ، فإنه ينقضى هذا العدد الذى لايدرك قياسه من القرون ، والنفس لاتتقدم يوما واحدا إلى الأبدية ، ذلك لأن الأبدية لاحدّ لها ولا قياس ، ولايعرف لها بدء ولانهاية ، فإن كانت القرون المذكورة كلها لاتعد ثانية بقياس الأبدية ، فما أهمية عمر الإنسان على الأرض ؟ .

إذا ما ألقينا النظر إلى ماحولنا رأينا اختلافا جسيما وتميزا جوهريا فى كل المواد المؤلف منها العالم . فانظر إلى كافة الأشياء طبيعية كانت أو صناعية ، وانظر ما أعظم التغاير فى صلابتها وضغطها ووزنها وسواها من الخصائص التى يتميز بها الهواء مثلا من عرق الذهب والنقطة المائية من الحجارة المعدنية والأنسجة النباتية المتنوعة من الأنسجة الحيوانية على اختلاف طبقاتها ، ومع هذا نستطيع أن نثبت بوجه الإطلاق أن كل المواد المعروفة والمجهولة مهما عظم تباينها وكثر تنوّعها إن هى إلا أشكال وأنماط متفننة تظهر فيها مادة أصلية واحدة تحت فعل القوى الطبيعية المتعددة .

إن الكيمياء التى بلغت اليوم عندكم درجة رفيعة من التقدم ، وقد كانت تعد فى أيامى من متعلقات العلوم السحرية قد قوضت مسألة العناصر الأربعة التى أجمع الأقدمون على تركيب الطبيعة منها ، وأثبتت أن العنصر الترابى إن هو إلا تركيب مواد متنوعة فى تفننانها إلى مالا انتهاء له ، وأن الهواء والماء قابلا التحليل وهما متركبان من بعض الغازات ، وأن النار ليست بعنصر أصلى بل حالة من المادة ناتجة عن نوع من الحركة العامة يصحبها احتراق حسى أو كامن ، وبمقابلة ذلك كشفت الكيمياء عددا وافرا من العناصر المجهولة منها تتألف كل الأجرام المعروفة وسمتها عناصر بسيطة إشارة إلى أنها أولية غير قابلة التحليل إلى ماهو أبسط ، ولكن فعل الطبيعة لايقف حيثما وصلت تقديرات الإنسان وحكم إرادته بل المتتبع بنظره إلى مايجاوز حد المعرفة البشرية لايرى فى كافة العناصر المركبة والبسيطة إلا مادة واحدة أصلية تجتمع فى بعض النواحى لتنشأ منها العوالم ، وتتفنن أشكالا وأنواعا فى مدار حياتها ، وتعود إلى مأوى الفضاء بعد انقراضها .

من المسائل ماتعجز نحن الأرواح المغرمين بالعلوم عن التعمق فيها فلا نأتى لحلها إلا بآراء شخصية مبنى أكثرها على أقيسة افتراضية . أما مسألة وحدة المادة فلا شبهة فيها ولا تخمين ، ومن يأخذ قولى على محمل الافتراض أقول له : استوعب إن أمكن بنظرك تفننات أعمال الطبيعة كلها فتحقق يقينا أنه بدون وحدة المادة يتعذر عليك شرح نبات أصغر بذرة ونتاج أحقر دويبة . وأما الباعث على تنوع ماتراه فى المادة فهو تباين القوى التى تولت أمر تحولاتها ، والظروف التى كانت عليها قبل نشأتها إنما جوهرها فى الأصل واحد ، وكل مايقع أو لايقع تحت نظرك من الأجرام والسوائل فهو صادر من مادة أصلية واحدة مالئة الكون الذى لايحد .

إذا كانت إحدى الدويبات الحقيرة التى تقضى حياتها الوجيزة فى قعر البحار ، ولا تعرف من الطبيعة إلا أسماك وغابات المياه نالت فجأة من العقل ما مكنها من درس عالمها ، وأخذت تقيس أفكارها فى الكائنات ، فما عسى يكون تصورها للعالم الأرضى الذى لايقع تحت نظرها إذا بمعجزة أخرى بها انتقلت هذه الدويبة من القعر إلى مافوق المياه بالقرب من جزيرة غناء اكتست بمروج زاهية ، فأى تغير يطرأ على أفكارها السابقة وكم تتسع دائرة تصوراتها ، ولكن مازالت هذه دون الحقيقة . هذا بيان حال علومكم النظرية فى الحاضر يابنى البشر .

إن سيالا عاما يملأ الفضاء الذى ليس بمحدود ينفذ فى الأجرام بأسرها يدعى الأثير أو المادة الأصلية ، ومنه تتولد كافة العوالم والكائنات . فهذا السيال تلازمه أبدا القوى أو النواميس الطبيعية المتولية تقلبات المادة ومسرى العوالم .

وهذه النواميس المختلفة على اختلاف تركبات المادة ، والمتفننة فى أنواع فعلها على مقتضى الظروف والمراكز تعرف فى أرضكم بالثقل والتلاصق والناسية والتجاذب والمغناطيسية والكهربائية ، ثم حركات العامل الاهتزازية تدعى عندكم صوتا وحرارة ونورا الخ .

وأما

وأما العوالم الأخرى فتظهر هذه النواميس تحت أوجه أخرى وبخاصيات مجهولة عندكم ، وإن فى سعة السموات التى لاتحد تفتنات من القوى نعجز نحن عن إحصائها ، وتقدير عظمتها كما تعجز الدودية فى قعر البحار عن استيعاب كافة الحوادث الارضية .

وكما أنه لاوجود فى الأصل إلا لمادة واحدة بسيطة تتولد منها كافة الأجرام والتركيبات الهيولية . هكذا كل القوى الطبيعة صادرة عن ناموس أصلى واحد يتفنن فى مفاعيله مما لاانتهاء له فرضه الخالق منذ الأزل ليقوم به نظام الخليقة وبهاء الكائنات ، إن الطبيعة لاتضاد ذاتها ، وشعار الكون هو ذا الوحدة فى التفنن ، فإن صعدت فى سلم العوالم وجدت وحدة النظام والخلقة مع تفنن لايعرف حده فى تلك الأجرام الفلكية ، وإن أجلت بنظرك فى مراتب الحياة من أحقر الكائنات إلى أعلاها وجدت وحدة التناسب والتسلسل . كذلك القوى الطبيعية كلها صادرة بالتسلسل عن قوة أصلية واحدة تدعى بالناموس العام .

يتعذر عليكم فى الحاضر استيعاب هـــذا الناموس فى شمول اتساعه لأن القوى الصادرة عنه والداخلة فى دائرة أبحاثكم محدودة مقيدة إنما قوتا التجاذب والكهربائية تفصحان لكم نوعا عن الناموس العام الأصلى الشامل السموات والكائنات . فكل هذه القوى الثانوية أزلية عامة كالخلقة وبملازمتها للسيال العام تعمل ضرورة فى كل شىء وفى كل مكان وبتنوع عملها بالمقارنة والتعاقب تتغلب فى مكان وتمحى من آخر ، يظهر فعلها ها هنا عاملة أبدا فى تجهيز العوالم وإدارتها وحفظها وملاشاتها متولية أعمال الطبيعة ومعجزاتها حيثما قامت ضامنة على هذه الصورة بهاء الخلقة الأزلية ونظامها الأبدى .

بعد أن تأملنا بوجه عام فى تركيب الكون ونواميسه وخصائصه بقى علينا أن نشرح كيفية تكوين العالم والبرايا ، ثم ننتقل بعدها إلى تكوين الأرض ومركزها الحالى فى المبروآت . لقد أبنا سابقا ما الزمان وما نسبته إلى الأبدية ، وأن هذه وحدة ثابتة وبالتالى لابدء ولانهاية ، ثم إذا لاحظنا من جهة أخرى عدم تناهى القدرة الإلهية حكمنا ضرورة بوجوب أزلية الكون لأنه منذ وجد الله كملت كمالاته القدسية ، وبما أن الله من ذات طبعه أزلى سرمدى اقتضى أن يكون عمله أزليا سرمديا أى لابدء له ولانهاية[1] فإذا تصورنا لعمل الله بدءا ، ومهما كان هذا البدء فى مخيلتنا بعيدا قاصيا يسبقه دائما أزلية — زنوا جيدا ذلك بعقلكم — أزلية لاقرار لها لبثت فيها إرادة الله القدوس ميتة عن العمل وكلمة بكماء ، ووحيه عقيما . إن الله شمس الكائنات ونور العالم ، فكما إن ظهور الشمس يصحبه ضرورة انتشار النور هكذا الله يصحبه ضرورة فعل الخلقة وظهور البرايا .

أى لسان يستطيع أن يصف تلك العظائم الباهرة المستترة فى دجى الدهور التى تلألأ سناؤها فى عهد لم يكن قد ظهر بعد فيه شىء من عجائب الكون الحالى ، تلك الدهور القاصية التى أسمع الرب فيها كلمته فاندفعت تيارات الهباء والذرات لتشيد بتجمعها المهندم هيكل الطبيعة الذى لايحد . ذاك الصوت السرى الكريم الذى تجله وتهواه كل خليقته وبريته المرموقة به ارتجت الأفلاك وسبحت عجائب الرب .

إذا انتقلنا بالفكر إلى بضعة ملايين من الأجيال قبل العصر الحالى نجد الأرض لم تبرز بعد إلى حيز الوجود والكواكب لم تتولد من النظام الشمسى فى حين أن شموسا لاعدد لها كانت تسطع فى أقاصى السموات وترسل أشعتها إلى كواكب لايحيط بها إحصاء ، وعاش بها من سبقنا من الأحياء فى مظهار الإنسانية وأنظار أخرى تمتعت بعجائب طبيعية وغرائب سماوية لم يبق لها اليوم من أثر ، وقلوب وعقول لاعدد لها كانت تسجد وتعظم قدرة البارىء التى لاتتناهى ، ونحن أولاء الحاضرين الذين برزنا إلى الوجود بعد أزلية من الحياة نريد أن ندعى معاصرتنا للخلقة لندركن أمر الطبيعة جيدا . أحبائى لتعلمن أن الأبدية وراءنا كما هى أمامنا وأن الفضاء مرسح تعاقبت وتتعاقب فيه خلقات لاعدد لها ولا انتهاء .

(١) هذا رأى خاص .

فتلك المجرات التى تميزونها فى أقاصى السموات إن هى إلا تجمعات شموس منها ماهى فى بدء تكوينها ، ومنها آهلة بالأحياء ، ومنها مابلغت دور الانحطاط .

وبالاختصار كما أننا قائمون فى وسط غير متناه من عوالم . هكذا نحن عائشون فى دوام أزلى سابق وأبدى لاحق لوجودنا الحاضر ، وأن فعل الخلقة ليس بمقصور عليكم ولا على كرتكم الحقيرة .

إن للمادة الأصلية تحوى فى ذاتها العناصر الهيولية والسيالة والحيوية التى تألفت منها كل العوالم المنتشرة فى كل ساحات الفضاء . فهى أم ثتور لكل الكائنات والوالدة الأزلية لكل الأشياء ، فلا يمكن أن يعتريها نقص أو تلاش ، إذ تعطى الوجود من دون انقطاع عوالم جديدة ، وتستق بلا فتور من الأصول التكوينية من العوالم التى بدأت تمحى من سفر الحياة ، وهى كالمادة الأثيرية أوالسيال العام المالىء الأجرام ، وفيه مستقر العنصر الحيوى الذى به تحيا كل خليقة عند ظهورها على سطح سيار ، فما من خليقة معدنية أو نباتية أو حيوية أو غيرها . إذ توجد مواد أخرى ليس فى وسعكم أن تتصوروها . ألا تأخذ عند نشأتها نصيبا من هذا العنصر الحيوى ، وبنفاده ينقضى أجلها ، فالسيال العام إذن لايحوى فى ذاته فقط النواميس القائم بها حفظ العوالم بل به تنشأ فى كل عالم الواليد الغريزية الأولية التى تنبت من غير زرع ، وذلك عند سنوح الظروف الملائمة للحياة على سطح الكرة .

لقد ضربنا إلى الآن صفحا عن ذكر العالم الروحى الذى هو أيضا قسم من الخلقة العامة ، وبتمم مارسمه عليه المبدع العظيم من التقادير الأزلية ، على أنى لا أستطيع أن أتوسع فى كيفية خلقة الأرواح نظرا الجهلى بالمسألة وعدم إجازتى بأن أبوح بأمور تيسر لى التعمق فيها فقط . أقول لمن تطلب الحق بخلوص النية وتواضع القلب إن الروح لن يشرق عليه النور الإلهى لينال به مع الاختيار للمتوق معرفة ذاته وضيبه من الاستقبال إلا بعد أن يكون قد جاز بقضاء محتوم فى مسحبة النسمات السفلية من البرايا وفيها أنجز ببطء فروض شخصيته ، فنى ذلك اليوم يسم الله جبهته بوسم مثاله ، وينخرط الروح فى سلك الإنسانية فقط حذار من أن تبنوا على مقالى استدلالاتكم النظرية إذ أحب إلىّ ألف مرة أن أطوى كشحا عن مسائل تفوق حد نظرى من أن أعرّضكم لافساد تعليمى واستنتاج أقيسة وقواعد لاأس لها .

حدث مرة أنه فى نقطة من الفضاء ، وفى وسط مليارات من العوالم تكاثفت المادة الأصلية فتولد عنها مجرة أى سحابة نيرة لايكاد يدرك قياسها ، وبقوة النواميس العامة المستقرة فيها وخصوصا التجاذب فى الدقائق أصابت الشكل الكروى ، وهو الشكل الذى تصيبه فى البدء كل مادة تجمعت فى الفضاء ، ثم تغير شكلها الكروى بقوة الحركة الدورية الناتجة من التجاذب المتساوى من كل المناطق فى الدقائق نحو المركز وأصابت الشكل العدسى ، وتولد عن حركتها هذه الدورية قوات أخرى أخصها قوة الجاذبة والدافعة ، فالأولى تميل بالأجزاء إلى المركز ، والثانية تبعدها عنه ، وتعاظمت سرعة حركة المجرة على قدر تكاثفها ، واتسع نصف قطرها على قدر تقربها من الشكل العدسى إلى أن تغلبت القوة الدافعة على الجاذبة واقتلعت من المجرة الدائرة المحيطة بخط الاستواء؛ كما أن حركة المقلاع تقطع الحبل بتزايد سرعتها وتدفع القذيفة إلى بعد، ثم انقلبت تلك الدائرة المنقطعة عن المجرة إلى كتلة قائمة بنفسها ، ولكنها خاضعة لولاية المجرة الأولى ، وبقى لها حركتها الاستوائية فتغيرت إلى حركة انتقالية حول الجرم الأصلى وأكسبها حالتها الجديدة . هذه حركة أخرى دورية حول مركزها الذاتى .

ثم عادت المجرة الأصلية إلى شكلها الكروى بعد أن ولدت عالما جديدا ؛ ولما كانت الحركة الأصلية المتولدة عن حركاتها المختلفة لاتضعف إلا ببطء كلى كان الحادث الذى أتينا على ذكره يتكرر مرارا متعددة

وفى

وفى مدة مديدة إلى أن تبلغ المجرة درجة من الكثافة تحول بعتاتها دون التغيرات الشكلية الصادرة عن حركة دورانها حول مركزها ، فليس جرما واحدا بل مئات من الأجرام ستقلع على النسق المذكور من المجرة الأصلية ، وكل من هذه العوالم لاحتوائه على القوى الطبيعية ذاتها المستقرة فى الجرم الأصلى سينتج أجراما ثانوية تدور حوله كما يدور حول المجرة الأصلية بصحبته سائر الأجرام المتفرعة منها ، وكل من هذه الأجرام الثانوية سيكون أيضا ثمـا أى مركزا لكواكب جديدة تتفرع منه بالطريقة التكوينية ذاتها ، وما الأرض إلا إحدى هـذه السيارات كتبت فى حينها فى سفر الحياة ، وأصبحت مهدا لخلائق ضعيفة تكلؤها عين العناية الربانية اليقظة ، وجاءت وترا جديدا تعزف فى عود الطبيعة العامة المسبحة لعجائب الله .

وقد تفرع من السيارات قبل تجمدها أجرام أخرى صغيرة اقتطعت من دائرة خط الاستواء ، وأخذت تدور على محورها وحول الجرم الأصلى بقوة النواميس العامة ذاتها . فتولد من الأرض القمر ، وجمد قبلها لصغر حجمه ، إنما القوى التى تولت اقتلاعه من خط الاستواء الأرضى وحركته الانتقالية فى هذا الخط فعلت فيه ماجعلته يصيب الشكل البيضى بدلا من الكروى فأصبح على شكل بيضة مركز ثقلها فى أسفلها وفى وسطها، لهذا لسنا نرى فى هذا الجرم إلا جهة واحدة ، وهو أشبه بكرة من الفلين قاعدتها من رصاص وهى الناحية المتجهة دائما إلى الأرض . فينتج من ذلك أن على سطح العالم القمرى طبيعتين فى غاية التباين والاختلاف : الأولى وهى الناحية المتجهة دائما إلى الأرض لاماء فيها ولا هواء ، وفيها تجمعت كل الأجزاء الجامدة الغليظة لوجود مركز الثقل فيها ، والثانية التى لايقع عليها قط نظر أرضى حاوية كل السوائل والمواد الحقيقية وهى متجهة أبدا إلى الناحية المخالفة لعالمكم الأرضى .

واختلفت الأجرام المتفرعة من السيارات عددا وأحوالا ، ومن السيارات مالم يتفرع منها شئ كعطارد والزهرة ومنها ماولدت قمرا أو أكثر كالأرض والمشترى وزحل الخ ، وهذا الكوكب أى زحل وله عدا الأقمار حلقة نيرة ، وهذه الحلقة عبارة عن منطقة انفصلت فى البدء عن خط الاستواء فى زحل كالمنطقة الاستوائية التى انفصلت عن الأرض فصارت قمرا . إنما الفرق أن منطقة زحل متكونة عند انفصالها من دقائق متجانسة الجوهر ، وربما كانت متجمدة بعض التجمد ، فلهذا بقيت تدور حول الجرم الأصلى بسرعة تكاد تعادل سرعة الجرم ذاته . فلو كانت المنطقة متكاثفة فى إحدى جهاتها أكثر من سواها لتجمعت حالا كتلة واحدة أو كتلات متعددة تصبح أقمارا جديدة تضاف إلى ما كان لزحل من الأقمار الأخرى .

وأما النجوم ذوات الأذناب فقد توهمها البعض عوالم فى بدء نشأتها يجهز فيها بواعث الوجود والحياة كما فى السيارات ، وافترضها غيرهم عوالم آخذة فى الدروس والتلاشى حتى المنجمون أنفسهم كانوا يتشاءمون بها كدلالة النحس والبلايا . على أن المطلع على تفننات وأعمال الطبيعة يعتريه العجب لأقيسة افتراضية بناها الطبيعيون والفلكيون والفلاسفة ليؤيدوا بها أن المذنبات سيارات حديثة أو عتيقة فى حين أنها ليست هى إلا كواكب متنقلة كرواد فى الممالك الشمسية ، وماأعدت لتكون كالسيارات مساكن آهلة بالبشر ، بل اختصاصها أن تنتقل من شموس إلى شموس لتستق منها الأصول الحيوية المنعشة فتفيضها فيما بعد على العوالم الأرضية .

فلتتبعن بالفكر أحد النجوم المذنبات عند بلوغه البعد الأقصى من الشمس ، ولتقطعن تلك السعة المديدة الفاصلة ما بين الشمس وأقرب النجوم ، ولتتأملن فى سير هذا المذنب المتنقل فتجد فعل النواميس الطبيعية ممتدا إلى بعد لا تكاد المخيلة أن تصيبه ، فهناك يبطؤ سيره إلى حد لايتجاوز بعض الأذرع فى الثانية بعد أن كان يسير الألوف من الفراسخ فى كل لحظة عند قرب دنوه من الشمس ، ولايبعد أن تتغلب عليه عند هذا الحد

شمس أخرى أشدّ قوة ونفوذا من التي بارحها فتجذبه إلى دائرة فلكها وتحصيه في عداد أتباعها، وعبثا ينتظر بعدها بنو أرضكم رجوعه في وقت عينته أرصادهم الناقصة . أما نحن فنجوز معه بالفكر إلى تلك الأقطار المجهولة فنجد فيها من العجائب ما لا يتوصل قط إليه تصوّر أرضي .

قلّ منكم من لم يلحظ في الليالي الصافية الخالية من القمر سحابة نيرة منتشرة من أقصى السماء إلى أقصاها تدعونها درب التبانة أو المجرة ، وقد كشف لكم عنها مؤخرا المرصاد ، فرأيتم فيها ملايين من الشموس معظمها أبهى نورا وأوسع حجما، وأهمية من شمسكم ، إن المجرة هي بالحقيقة حقل فسيح زرعت فيه زهور شموس وكواكب تتلألأ في أرجائها الرحبة ، فالشمس وكافة السيارات والأجرام التابعة لها زهرة واحدة من تلك الزهور المنثورة في حقل المجرة ، وعدد هذه الزهور أي الشموس لا يقل عن الثلاثين مليونا تبعد كل منها عن الأخرى أكثر من ثلاثة آلاف ألف ألف ألف فرسخ ، فمن هذا يستدل على سعة تلك المجرة الممتنع تصوّرها وصغر شمسكم بالنسبة إلى باقي الشموس ثم أن حقارة بل عدم أرضكم ليس بالنسبة إلى حجمها وسعتها المادية فحسب بل فوق ذلك إلى أحوال سكانها الأدبية والعقلية .

ثم إن المجرة ذاتها مع ملايين شموسها ليست شيئا بالنسبة إلى الألوف من المجرات المنتشرة في أقاصي الفضاء . إنما تظهر أوفر سعة وسناء من سواها لإحاطتها بكم ووقوعها تحت دائرة نظركم في حين أن المجرات الأخرى متوغلة في أقاصي السموات فلا يكاد يستشفها مرصادكم ، فإذا علمتم أن الأرض ليست بشيء في عامة المجرات ، وعامة المجرات أيضا ليست بشيء في سعة الفضاء الذي لا يتناهى عاد سهلا عليكم إدراك حقارة الأرض ، وعدم أهمية الحياة الجسدية .

إن الملايين من الشموس المؤلفة منها مجرتكم يحيط بأكثرها سيارات وعوالم تستمد منها النور والحياة فمنها نجم سريوس مثلا الذي يربو حجمه وبهاؤه على شمسكم ألوفا من المرار والسيارات المحيطة به تفوق سيارات الشمس كبرا وسناء ، ومنها شموس مثناة أي نجوم توائم تختلف وظائفها الفلكية عن وظائف شمسكم ، ففي السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لا تعد السنين والأيام كما في أرضكم ، وأحوال الحياة فيها يتعذر عليكم تصوّرها .

ومن الشموس ما لا سيارات لها إنما أحوال سكانها خير الأحوال . وبالإجمال إن تفننات هذه النجوم واختلاف أحوالها ووظائفها مما يقصر الإدراك البشري عن تخيلها .

إن كل ما ترون من النجوم والأجرام في القبة الزرقاء يختص بمجرة واحدة تدعى كما قلنا درب التبانة ، ولكل منها سير مخصوص مصدره قوة الجاذبية فتسير سيرا ليس على سبيل العرض والصدفة بل في طرق معينة مركزها الجرم الأصلي . فقد تحقق لكم مؤخرا أن الشمس ليست بنقطة مركزية ثابتة ، بل تسير في الفضاء ساحبة معها موكبها الحافل بالسيارات والأقمار والمذنبات ، وليس سيرها بعرضي بل طريقها محدود تسير فيه بصحبة شموس أخرى من طبقتها حول جرم آخر عظيم تولدت منه . إنما حركة سيرها وسير باقي الشموس رفيقاتها لا تحصيها أرصادكم السنوية إذ يقتضى عددا عظيما من الأجيال لإتمام إحدى هذه السنوات الشمسية .

ثم إن هذا الجرم العظيم الذي تدور حوله الشمس مع سائر الشموس رفيقاتها ليس بجرم أصلي بل يدور هو أيضا بصحبة أجرام أخرى من طبقته حول نجم آخر أعظم منه ، وهكذا قل عن هذا النجم الثاني إلى أن يحل العجز بمخيلتنا عن تصور هذه السلسلة المرتبة القائمة ما بين شموس مجرتكم التي لا يقل عددها عن الثلاثين مليونا ، وكل هذه الشموس مع سياراتها مرتبطة بعضها في نظام واحد كمجموع دواليب آلة واحدة فتظهر لعين الحكيم الناظر إليها عن بعد كغفنة من اللآلىء الذهبية نثرتها النفحة الإلهية في الفضاء ، كما تنثر الريح

الرمال فى بلقع الصحارى . إن فلاة يكاد لايحدها قرار تمد إلى كل جهة حول المجرة التى أتينا على ذكرها لأن مجمعات المادة الأصلية أى المجرات منثورة فى الفضاء كجزر عزيزة الوجود فى بحر لاحد لسعته ؛ فالمسافة التى تفصل مابين كل مجرة وأخرى تفوق مسافة قطر المجرة ذاتها بما لاحد له ، فمعلوم أن قياس مجرتنا يعد بمئات ألف ألف ألف ألف ألف فرسخ . أما قياس بعدها عن باقى المجرات فلا يمكن لعقل أن يدركه بل المخيلة وحدها تستطيع أن تقطع تلك الفيافى السماوية الخالية من مظاهر الحياة .

وتتجلى فيما وراء هذه الفلوات عوالم أخرى تتبختر فى بحر الأثير ، وتظهر الحياة فيها تحت مجالى غريبة يستحيل عليكم تصورها ، فالمتنقل من مجرتكم إلى تلك المجرات يعاين ضروبا من الحياة وقوى طبيعية لم تكن قط لتخطر على ذهنه فيدرك هنا قدرة الخالق ويسبح عجائب أعماله .

رأينا أن ناموسا أصليا واحدا يتولى تكوين العوالم وخلود الكون ، وأن هذا الناموس العام يظهر لحواسنا تحت ضروب مختلفة ندعوها قوى طبيعية وبفعلها تتجمع المادة الأصلية وتنجز تقلباتها الدورية ، أى تكون فى البدء مركزا سيالا للحركة ، ثم تتفرع منها العوالم ، وتصبح بعدها جرما كثيفا يدور حوله ماتولد منه من الأجرام . والآن أريد أن أبين أن هذه النواميس ذاتها التى تولت نشأة العوالم ، ستتولى أيضا أمر انحلالها لأن منجل الموت لايحصد ذوات النسمة فحسب ، بل المادة الجمادية أيضا بانحلال تراكيبها فحين يقضى العالم سنى حياته تخمد منه نار الوجود وتفقد عناصره قواها الأصلية ، وتزول منه الحوادث الطبيعية بزوال القوى .

هل تظنون أنه سيلبث دائرا فى الفضاء كجرم لاحياة به ، ويبقى مكتوبا فى سفر الحياة بعد أن أصبح حرفا ميتا لامعنى له ؟ كلا إن النواميس ذاتها التى انتشلته من ظلمة العدم وجملته بمظاهر الحياة ، ودرجته من أجيال الصبوة إلى الهرم ستتولى أمر دثوره ، وإرجاع عناصره الجوهرية إلى معمل الطبيعة العام ليتكون منها فيما بعد عوالم جديدة إلى مالا انتهاء له .

فأبدية الكون تقوم بالنواميس ذاتها المتولية أعمال الزمان أى تعقب الشموس الشموس والعوالم العوالم دون أن يصيب قوى الكون أدنى كلل أو خمود فما ترون فى أقاصى السموات من نجوم نيرة ربما محتها من أمد مديد أصابع الموت وأعقبها العدم وخلقة جديدة تجهلونها بعد . إنما البعد الشاسع القائم بينكم وبين الأجرام القاصية الذى لايقطعه النور إلا فى ألوف الألوف من السنين يجعل أشعتها تصل اليوم إليكم .

مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد ، فنى هذه كما فى غيرها تظهر حقارة الإنسان وعدم دنياه . إنما سيأتى يوم فيه يبقى ذكر الأرض فى ذهننا كظل بخارى بعد أن نكون قد تدرجنا أجيالا لا عدد لها إلى العوالم العليا .

وحين نتأمل فى المستقبل عند بلوغنا هذا الحد لانرى نصب أعيننا إلا تعاقبا سرمديا من العوالم أو أبدية ثابتة لا انقضاء لها اه .

هذا ملخص ماجاء فى العلم الحديث ، وفى علم الأرواح موازنا به ماجاء فى القرآن والحديث

(موازنات)

العلم الحديث	القرآن والحديث الشريف
(١) الأرض انفصلت عن الشمس والقمر انشق منها	(١) أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما

العلم الحديث	القرآن والحديث والشريف
(٢) الأرض إذا جاء أجلها تمور وتصير هباء ، ثم تصير عالما جديدا وكذا بقية الكواكب	(٢) يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات
(٣) الأرواح فى الأرض تنقل إلى عوالم أرقى سماوية	(٣) أن الجنة فى السماء ، وأن النبىّ صلى الله عليه وسلم رأى أرواح الأنبياء في السموات، وآية: لاتفتح لهم أبواب السماء
(٤) الأرواح تنتقل من عالم إلى عالم سماوى على حسب استعدادها	(٤) وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا
(٥) بعد الهواء برودة شديدة فى الخلاء ، وفى باطن الأرض حرارة	(٥) إن شدّة الحر من فيح جهنم ، وإن لها نفسين : نفسا فى الشتاء ، ونفسا فى الصيف
(٦) نار جهنم أقوى من نارنا عشرات المرات	(٦) إن نارنا هـــذه أبرد من نار جهنم بتسع وستين درجة

ها أنا ذا لخصت لك ماجاء فى العلم الحديث فى الجنة ودرجاتها والنار وإحراقها ، وإياك أن تظن أنى أرى أن جوف الأرض والزمهرير الذى فوق الهواء هما جهنم ، وإن كان ظاهر الأحاديث يوافق ذلك،والكشف الحديث يؤيده . فقد يكون ذلك بعائلها أو يكون قطعة منها لأن فى العالم أراضى غير أرضنا كثيرة ، وفيها نار أشد من نار أرضنا ، فربما ضمت يوم القيامة كلها فصارت نارا واحدة ، وقد يكون هناك من العلم مالم نصل له ، وكذلك لاتظن أنى أرى أن هذه النجوم التى هى مسكونة كما ذكرته روح غالبى ، وأن أهلها فى سعادة ونعيم ، وأن الأرواح الأرضية ترتقى فيها بحسب استعدادها ، وأن الروح كلما صفت وخلصت ارتقت إلى عالم ألطف الخ ، لاتظن أنى أقطع بأنها هى الجنة وإن كانت الآيات والأحاديث تكاد تصرح بها كقوله تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط) وكقول عبد الله بن سلام : إن الجنة فى السماء ، وإنما لم أقل هى الجنة لأن الكشف لم يبين لنا حقيقة ، هل فى السماء سكان ، وإنما ذلك كلام الأرواح التى يناجونها ، وهذا الكشف لم يتم الآن ؟ فإذا ثبت واتضح وظهر حقا أن الأرواح هكذا ترقى فى الدرجات فلنقل هذه هى الجنة بل نقول فوق ذلك إن تلك الدرجات ماكان منها فيه تكليف وإذلال فهو من جهنم ، وما كان فيه سعادة فهو من الجنة ، وكل هذا إلى الآن لم يقم عليه دليل .

ثم إذا قام عليه دليل تكون تلك جنات حسية ، وليست مقصودة العارفين ، ولا محط رجال الحكماء الصالحين لأنهم يرون الخلوص من المادة خيرا ، وأن يكونوا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ويكونون ملحقين بالملائكة الذين فى جوار ربهم كما أوضحت ذلك نقلا عن الإمام الغزالى فى سورة البقرة عند قوله تعالى (وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة الآية) وبالجملة إن العلم الحديث يكاد يقترب من الآيات والأحاديث ، ومحصل ماأراه أننا نعرف هذا ونتربص حتى تنكشف الحقائق ، ولا نقطع بذلك ، فإن العلم آخذ فى الرقى ، وعلى المسلمين أن يبحثوا فى الفلك ، وفى علم الأرواح حتى يصلوا للحقائق ، وقد ذكرت هذا ليكون بابا يلج منه الباحثون ومفتاحا وسلما ومبدأ (وأن إلى ربك المنتهى) ومن عجب أن البرد الشديد تحت الصفر بدرجات كثيرة يحرق الأجسام كالنار كما جاء فى الكشف الحديث ، وهذا من أعجب العجب اهـ .

عجائب العلم والدين وواجب المسلمين

إن ظهور هذه الحقائق من أعجب ما أتى به دين الإسلام . فكيف يقال : إن باطن الأرض نار ، وإن

الكواكب عظيمة جدا وفيها سكان (وإن كان لم يحقق) وكيف يتفق العلم الحديث مع الدين فى ارتفاع حرارة جهنم وسواء قلنا إن هذه النار الأرضية وأمثالها هى التى يعذب فيها الناس ؟ أم هى مماثلة لأماكن أخرى شديدة العذاب ، وإن هذه الكواكب إن صح أن فيها سكانا أو هى الجنات أو قلنا إنها أماكن تشبهها ، فعلى كل حال ظهور هذه الحقائق من عجائب الإسلام وغرائبه . فعلى عقلاء المسلمين أن يتعلموا ويقرءوا علوم الطبيعة والفلك وطبقات الأرض وعلم الأرواح فواحسرتاه على أمة الإسلام ، وأسفاه على دين تركه أهله وضيعه معتنقوه ، ونسى العلوم التى يطلبها مدرسوه وجهله متبعوه ، ولم يؤمن به إلا من أعماوه . فإليك اللهم المشتكى ولك الأمر (ولو شاء ربك مافعلوه والله هو الولىّ الحميد) .

الدار الآخرة فى القديم والحديث : اللذات الحسية والخيالية والعقلية

أنت تعلم أن ماورد فى شريعتنا المطهرة هى اللذات الحسية من الجنات والحور والولدان وما أشبه ذلك ، وهذه اللذات الحسية أنكرها قوم وقالوا هذه يتعاطاها الإنسان بجسمه والجسم قد بلى ، وإنما يكون الإنسان فى الآخرة بروحه ، وإنما اللذات والآلام بالروح لا بالجسد وهى أمور معنوية ، هذا ملخص مايقولون .

وقالت طائفة كالإمام الغزالى إن اللذات على ثلاثة أقسام : حسية ، وخيالية ، وعقلية ؛ فالحسية معلومة ، والخيالية مايتخيلها الإنسان وتخطر فى نفسه كما تصوّر نهرا جاريا أو حوراء أو جنات وأعنابا ، وهذه الصور التى يتخيلها الإنسان لذتها ضعيفة كالتى يتصوّرها فى المنام ولو أنها دامت تلك الصور النامية لكانت لذتها تامة إنما المانع من تمام لذتها أنها مقطوعة باليقظة .

وليس للإنسان من اللذات إلا ما انطبع فى حسه كالصور الجميلة فى العين ، والمسموعات فى السمع ، والمشمومات فى الشم ، والنواعم فى اللمس ، والحلو فى الذوق؛ ولو أن امرأ كانت أمامه صورة من أجمل الصور وهو أعمى أو كان مبصرا ولكنه غافل عنها لاشتغاله بأمر مهمّ لم يستلذ بالصورة ، فإذن لا لذة فى الصور المشاهدة . إنما اللذة فى الإحساس بصورها المنطبعة فى الشبكية ، فالمدار فى اللذة على ذلك الانطباع . فأما الصور الخارجة فى أنفسها فليست فيها لذة بل الأمر قاصر على تلك الصور المطبوعة فى النفس ، هكذا سمّ الحيات ، وإن أجسام الحيات ليست مؤذية إنما المؤذى الآثار الناشئة فى الأجسام من سريان السم . فلو لدغت الحية إنسانا ولم يسر السم أو سرى ولكن الترياق أبطل فعله كما يقولون : إن جسم كل ذى سم مبطل لفعل سمه بجسم الحية إذا وضع على موضع اللدغ أبطل فعل السم ، والإنسان لو شرب سم الحيات لم يضره ، وإنما الذى يضره أن يسرى فى الدم كما تفعل الحية إذ تدخل نابها فى الأجسام فيدخل السم فى الدم فيسرى ، فإذن المدار على تأثير السم لا على السم ولا على الحية .

فثبت إذن أن الجسم لو حلّ فيه أثر كأثر السم لحصل المقصود من الضر بدون حاجة إلى الحية ولا إلى السم ، ولو حصلت فى الأبصار والأسماع صوت النغمات اللذيذة والصور الجميلة بدون أن تكون تلك الصور وتلك النغمات فى الخارج لكانت اللذات دائمة لامقطوعة ولا ممنوعة، ولأصبحت اللذات تحت تصرف الإنسان فمتى تخيل صورة أو نغمة أو فاكهة أو ظلا أو نهرا حضر لديه ، وهذا أشرف وأرقى من اللذات المحسوسة الخارجة لأن هذه إذا تمتع بها زيد حرم منها عمرو كما فى هذه الدنيا . أما تلك التخيلية فإن الصورة الواحدة يتمتع بها آلاف فى زمن واحد تمتعا تاما غير منقوص ، ولو اشتهى مشاهدة النبى صلى الله عليه وسلم ألف شخص فى ألف مكان فى حال واحد لشاهدوه ، كما خطر ببالهم فى أماكنهم المختلفة ، وأما رؤيته صلى الله عليه وسلم ، وهو موجود خارج الحس فلا تكون إلا فى مكان واحد ، وحمل مافى الآخرة على ماهو أتم وأوسع أولى . اه ماقاله بتصرف وإيضاح .

قال : وأما الوجه الثالث العقلى فهو الوجود العقلى أن تكون هذه المحسوسات أمثلة اللذات العقلية التى ليست بمحسوسة ، والعقليات أقسام كثيرة مختلفة كالحسيات فتكون الحسيات أمثلة لها ، وكل واحد يكون مثالا للذة أخرى مما رتبته فى العقليات توازى رتبة المثال فى الحسيات ؛ فلو رأى فى المنام الخضرة والماء الجارى والوجه الحسن والأنهار الجارية باللبن والعسل والخمر والأشجار المزينة بالجواهر واليواقيت واللآلئ والقصور المبنية من الذهب والفضة والأسرّة المرصعة لكان للمعبر لا يحمله على نوع واحد بل يحمل كل واحد على نوع آخر من السرور ، وقرّة العين يرجع بعضه إلى سرور العلم وكشف المعلومات وبعضه إلى سرور المكنة ونفاذ الأمر ، وبعضه إلى قهر الأعداء ، وبعضه إلى مشاهدة الأصدقاء. وإن شمل الجميع اسم اللذة والسرور ، فهى مختلفة المراتب مختلفة الذوق لكل واحد مذاق يخالف الآخر ، وكذلك اللذات العقلية ينبغى أن تفهم كذلك وإن كانت مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

فجميع هذه الأقسام ممكنة فيجوز أن يجمع بين الكل ، ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدره واستعداده ، فالمشغوف بالتقليد والجمود على الصور الذى لم ينفتح له طرق الحقائق يمثل له الصورة ، والعارفون ينفتح لهم لطائف السرور واللذات العقلية كما يليق بهم وينق شرهم وشهوتهم إذ حد الجنة أن فيها لكل امرئ مايشتهيه ، فإذا اختلفت الشهوات لم يبعد أن تختلف العطيات واللذات والقدرة والسعة ، والطاقة البشرية عن الإحاطة بعجائب القدرة قاصرة ، والرحمة الإلهية ألقت بواسطة النبوّة إلى كافة الخلق القدر الذى احتملته أفهامهم .

هذا ماقاله الإمام الغزالى فى الرسالة المسماة «بالمضنون به عن غير أهله» فأنت ترى أنه أثبت اللذة الخيالية وجعلها أفضل من الحسية ، وجعل فوقها لذة عقلية وهى إدراك الحقائق وجعل لكل من الناس ما وصل إليه إدراكه وفهمه ، وانظر إلى ماقاله ريمند بن اللورد أليڤراودج المائت فى الحرب الكبرى العامة وأوليڤراودج من كبار الطبيعيين فى أوروبا وبلاد الإنجليز . فانظر كيف يقول له ابنه لما أحضرت روحه فيما نقلته فى كتاب الأرواح .

أما ثيابى أنا فيظهر لى أنها مصنوعة من خيوط ثياب بليت عندكم ؛ والبعض هنا يقولون عن الثياب إنها روحية مصنوعة من النور يكوّنها الفكر على الأرض . فانظر كيف تقول الأرواح المائتة إنها تكون ثيابها بصنع أفكارها ، وهذا عينه ماقاله الإمام الغزالى فتعجب من نوع الإنسان ، وكيف ماكان يظنه الغزالى ظنا أصبحت تقوله الأرواح فى مخاطباتها ، وقال أيضا : وهنا معامل تعمل كل شئ لامن مواد جامدة بل من مواد روحية ، وترى فى ذلك الكتاب كثيرا مما يدل على أن الأرواح تصوغ ماتشاء أسرع من لمح البصر ، فما قاله الإمام الغزالى وأدركه بعين البصيرة قد اشتهر الآن وشاع بين علماء الأرواح فى أوروبا ، وقد يقول بعض الإخوان إن كتاب الغزالى المذكور ليس له حقيقة فنقول نحن الآن فى مقام الجمع بين آراء علماء الشرق والغرب : فهو كتاب شرقى .

فإذا اعتبرنا هذا جنة خيالية . واعتبرنا ماتقدّم فى مقال روح غاليلى جنات حسية فى الكواكب العظيمة وانتقلنا إلى عالم الأرواح فى جناتها العقلية رأينا مطابقة بين كلام علمائنا وكلام علماء العصر الحاضر . فأما أنت فلا تكن مقلدا ولا تقف عند حد بل اقرأ وزد علما ، واعلم أن الله لم يرد بهذا إلا زيادة العقل ، ورياضة الفكر فغموض هذه المسائل يوجب التفكير ، والتفكير يزيد العلم ، والعلم هو المقصود الأعظم من الحياة .

واعلم أنى أطلت الآن فى الجنة والنار ، ولست أعيد الكرّة عليهما فى هذا التفسير إلا قليلا بل أكتفى بما كتبته الآن ، والله المستعان اهـ .

ولعلك

ولعلك تقول كيف تثبت أن رعمند وهو مسيحى يدخل الجنة ؟ وكيف تحكم بذلك . أقول : على رسلك أنا إنما ذكرتها على سبيل النقل ، ولم أحكم بصحتها وربما صحت بأن يكون أسلم قبل موته . فليس فى ديننا مايجعلنا نقطع بكفر أحد، لايعلم الغيب إلا الله .

ولا ترين فى الأرض دونك كافرا ولا مؤمنا حتى تغيب فى القبر

فربما نجا رعمند ولم ننج نحن ، وربما كان معدودا من أهل الفترة ، كما تراه فى كتاب «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» وهل بلغ إليه الإسلام على وجهه ؟ نحن نشك فى ذلك ، وإذا كنا لانزال نرى أن المسلمين يجب أن يكونوا أعلم بكتابهم مما هم عليه . فكيف بمن هم غير مسلمين ، ومن دخلت هذه الشبهة عقله وقفت حجابا بينه وبين العلم ، وعاش مفتونا بالجهالة محروما من الحكمة محكوما عليه بوقوف العقل وركود الذهن وموت الفؤاد والانقطاع عن الأنداد اهـ الكلام على اللطيفة السادسة .

اللطيفة السابعة (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس)

يقول علماء النفس فى الجمعيات الأمريكية : إن النفس كلما حبست عواطفها وكتمت أحوالها وحفظت خطراتها زادها ذلك قوة وأنالها بأسا وحكمة وأنار بصيرتها ، وعلى ذلك يأمرون التلاميذ أن يكونوا على جانب من التؤدة والثبات ، ويقولون إن ذلك يحفظ المغناطيسية الحيوانية أن تفيض من النفس فتبقى محفوظة ليصرف منها الإنسان فى الأعمال النافعة بدل الآراء الضائعة . وانظر كيف أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يكفّ عن الدعاء على أعدائه حفظا لتلك القوة النفسية العالية ، وكيف ذكر بعدها تعليما للأمة مايجب عليها من العفو والمغفرة وكظم الغيظ لتحفظ النفوس وتقوى القلوب وتكمل الكمال الأوفى ، ومن مقال هذه الجمعيات الذى نترجم حديثا .

ليس الرجل القوى الإرادة الماضى العزيمة هو ذاك الذى يكشر عن أنيابه ويقبض حاجبيه ويصرّ أسنانه ويقلص عضلات وجهه وينظر نظر الغاضب الحانق كلما أراد أن يتغلب على الصعاب ؟ ليس هو الذى يتذمر من عمله اليومى ، فإن ذلك قد أضاع قواه ، ومتى صادفه رجل هادئ مطمئن واثق بنفسه صرع الأول وغلبه ومتى حفظ امرؤ قواه وحبسها بإرادته ولم يأذن لها بالإفلات منه كان ذلك وحده كافيا أن يأتى له بالفوائد الجليلة، من جذب النفوس إليه وقبول الناس له ، والإقبال عليه واحترامه . فهذه الصفة كنز ثمين لايقدّر بذهب ولا فضة ، به تفتح الطرق المادية والمعنوية ، ومن حرم هذه الصفة ضاعت حياته هباء منثورا ، وإنما كانت أغلى من الذهب والفضة ، لأن النفوس لما أحست بفطرتها وغريزتها وأن نفسه مملوءة روحانية ومغناطيسية لشدة محافظته على السكينة والتزام الاحتراس ، أقبلت بفطرتها عليه غير عالمة بالسبب ، ولا مدركة ماذا دفعها إلى ذلك الاحترام والحب ، وإن لم يكن فى الوجــه جمال ، ولا فى الجيب مال ، وإنما ذلك شأن النفس التى ملأها الجمال وحفظت من ضياع روح الحياة وهى المغناطيسية النفسية كالنهر حفظت ماءه السدود والعرم . ذلك قول هؤلاء العلماء ، فانظر كيف مدح الله الكاظمين الغيظ ، وقال لنبيه (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم) مدح نبيه بهذا الوصف وأمر المؤمنين به ورتب عليه عدم انفضاض الناس من حوله ، وهذا تعلمه الجمعية النفسية بحفظ القوى ، وبقاء الروح فى حرز حصين من الإسراف فى مواهبها .

اللطيفة الثامنة : ترتيب درجات الطائعين

انظر كيف رتبت درجات الطائعين فكان أعلاهم : (١) النافعين لنوع الإنسان القائمين بشأن الجمعية الإنسانية وهم خلفاء الله على الحقيقة ، وأشار إليه بقوله (الذين ينفقون فى السراء والضراء) فهؤلاء خلفاؤه

على عباده متشبهون بملائكته ، ولذلك جعل جنتهم كذلك فهيأها لهم (جنة عرضها السموات والأرض) والخليفة أحق بالاطلاع على ملك من استخلفه فبوّأهم جنة تضارع ملكه ، وذلك هو الجمال والكمال
(٢) الدرجة الثانية الذين يصبرون على أذى الناس . فهؤلاء وإن لم يقوموا بأمر الأمة ويساعدوا المجموع ، فإنهم زكوا نفوسهم وطهروها وقوّوها فاستعدت إلى المعالى وهى المشار إليها بقوله (والكاظمين الغيظ الخ)
(٣) الدرجة الثالثة درجة التائبين وليس هناك أحط منها وإليها الإشارة بقوله (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) وهؤلاء جنتهم ليست كعرض السماء والأرض ، وليسوا متمتعين بحقيقة الخلافة ورعاية الأمة ونظام المجموع ، فجنتهم إنما تجرى تحتها الأنهار فإياك أن تنزل عن المرتبة الأولى ، وجاهد فى الحكمة والعلم ولا تقصر فى نفع الأمة وإزالة الغمة وكن أبا رحيما مقلدا لله فى رحمته للناس ورعايته الخلق .

اللطيفة التاسعة

(إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس)

لعلك تذكر ماقدمناه فى سورة البقرة عند قوله تعالى (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة الآية) فاعلم أن هذه الآيات تنحو نحو ماذكرناه هناك فراجعه ، وليس فى الإعادة هنا إلا التكرار الذى يجب أن نتجنبه .

ولقد استبان هناك أن لاسعادة فى الحياة ، ولا فى الممات إلا بعوارض الدهر وقوارع المصائب وتربية الله للناس بالخطوب ، ولقد ظهرت كتب كثيرة فى ذلك مثل «لنزقايس» الذى لخصته هناك وكتاب «السكوخ الهندى» لعالم كبير أوروبى ، وهذه الآيات التى نزلت فى غزوة أحد كلها دروس وتطبيق على ذلك .

اللطيفة العاشرة (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة الخ)

هى كسابقتها حث على الصبر والثبات وبابهما واحد .

اللطيفة الحادية عشرة (ثواب الدنيا والآخرة)

إن القرآن يدعو إلى الكمال الدنيوى والأخروى ، والله يعطى الثواب الدنيوى والأخروى ، فالثواب فى الدنيا والآخرة معا ، فإن المسلم وهو يجاهد فى سبيل الله قد نال ثوابا فى الدنيا بالغنيمة وفى الآخرة بالجنة .

اللطيفة الثانية عشرة : كيف تعطى الدروس على حوادث الإنسان وآلامه

لم تمرّ غزوة أحد بلا درس فأنت ترى كيف ظهر المنافقون وامتاز المخلصون . وكانوا وقت الشدة أشد اطمئنانا ، وكان الصبر نعمة والثبات كمالا ، وذكر أن الحرب سجال ، وأن الهزيمة من أسبابها ذنوب سابقة ألجأتهم إلى ارتكاب مثلها ، وأن التوكل والشورى مطلوبان تعليما لنا لئلا نشذ عن الجماعة فنسير مع الأمة ونطأطئ للإجماع كما هو القانون المسنون فى الأمم الحاضرة ، وياليت شعرى كيف يكون رأى الجماعة مطاعا فى الإسلام ولاينفذ أمره إلا فى الأمم الأوروبية ، كما لم يعرف نتائج الحر إلا الأمم الأجنبية ، ويظهر أن الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى لم يكونوا أهلا لهذا الدين ؛ ومن الدروس أن المصائب العظيمة كالهزيمة يوم أحد نقمة تنسى المصائب الصغيرة فلا يحفل بها الإنسان، وهذا أعظم ماعرفه الحكماء قديما وحديثا ، ومنها أن يشعر الإنسان بالروح والعزم وعناية الله ، ومنها أن يوازن مصائبه بما أصاب عدوّه ، ومنها أن يتذكر أن هذه المصيبة بفعل سابق قد كان منه ، ومنها أنها عدّة له بها يستنير فى أمثالها ، ومنها أن يرجع إلى الله وأن القضاء والقدر سابقان ليقل الحزن ، ومنها أن لايرجع الإنسان فى رأيه بعد أن أحكمه ، وهكذا من الحكم التى جاءت فى هذه السورة درسا على أحد .

إن هذا درس لك أيها الذكى ، فإذا أصابك شئ أو أقبلت نقمة فاجعلها من مسائل الدراسة ، وحافظ على الاستنتاج كما استنتج فى القرآن ليعلمنا الله كيف نبحث فى كل مايصيبنا ونستخرج منه الحكمة والعلم .

ألا إنما مثل المصائب كمثل النار تصيب الفحم فيكون منـه دخان فنار ، أما الدخان فالغموم ، وأما النار فالعلم . أو لاترى أن الدخان ينقطع وتبقى النار مضطرمة مضيئة أو ليس الذى نفهمه فى الحوادث التى تلمّ بنا يعطينا علما وحكمة ، فأما الغم والحزن فإنه منقطع اهـ .

القسم التاسع ذكر المنافقين واليهود وكيدهم ، وأن ذلك ابتلاء من الله للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ليصبروا فتقوى قلوبهم وترفع نفوسهم إلى العلا . وهذا القسم كسابقه يرجع إلى الصبر وحفظ القوى العقلية من الضياع حتى تتأهل النفس للعلوم والمعارف الآتية فى القسم العاشر المتمم للسورة .

إنك قد علمت كلام علماء النفس أنهم جعلوا حفظها بالصبر والصيانة والعفة والعفو وحفظ قواها لتكون كالنهر حفظ ماؤه فتسقى به المزارع ، ولن يكون الزرع بلا ماء ولا العلوم بلا فكر نقى ونفس كاملة ، وفى هذا القسم بعد ذم الكفر وتقبيحه : (١) أن النعم لن تكون أس الكمال . فكم من الخيرات كانت سبب الشقاء (٢) وأن هذه الدنيا جعلت ليمتاز فيها المسيئون من المحسنين بما ينتابهم من الحوادث المؤلمة (٣) وأن المواهب والنعم إذا بخل بها الإنسان أصبحت شرا عليه ووبالا ، وأورثته نكالا ، وأصلته نار الطمع والجشع والحرص فأصبح مبغضا مكروها (٤) وأن الكبرياء والفخر من أسباب الشقاء (٥) وأن الأكاذيب على الأنبياء والتعنت عليهم من أشد الكبرياء مقتا (٦) وأن الحياة الدنيا غرور (٧) وأن القضاء حتم علينا أن نسمع أذى كثيرا ونبتلى بنقص الأنفس والثمرات ، وأهل العزم هم الذين لايبالون ، وعند هذه الشدائد يسمون (٨) وأن البخل بالعلم أشد من البخل بالمال ضررا كما حصل من علماء اليهود فى زمن الرسالة (٩) وأن من فرح بمدح ماليس فيه فأحب أن يحمد بما لم يفعل آثم لخلوه من الكمال وانتحاله مالاحقيقة له إلا فى الخيال . فهذه تسع خصال بعضها يقترب من بعض ، وبعضها متميز أشد التميز . فلأذكر الآيات ثم يتلوها تفسيرها .

وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا

وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ * لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ * لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

التفسير اللفظى

(يسارعون فى الكفر) يقعون فيه سريعا حرصا عليه وهم المرتدون المنافقون المتخلفون (إنهم لن يضروا الله شيئا) أى لن يضروا أولياء الله كالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن يعينوا عليهم كما هو شأن الصديق إذا انقلب عدوا (حظا فى الآخرة) نصيبا من الثواب (ولهم عذاب عظيم) أى منضما إلى حرمانهم من الثواب ، وقوله تعالى (إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان الآية) تأكيد لما قبله لعظم الأمر ، فإن كيد العدو الذى كان صديقا عظيم لعلمه بما عند صاحبه الأول فلذلك زاد التأكيد بأنه لن يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه (نملى) نمهل ونؤخر ، وما اسم أن وخير خبرها ، وما اسم موصول و(إثما) ذنبا ، وقوله تعالى (يجتبى) يختار ، وقوله تعالى (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) بيان لكونه شرا لهم أى سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق ، وعنه صلى الله عليه وسلم « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل الله له شجاعا فى عنقه يوم القيامة » وفى رواية أبى هريرة « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاع أقرع له زبيبتان (أى نكتتان سوداوان يكونان فوق عين الحية) يطوقه يوم القيامة يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا : ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله الآية » أخرجه البخارى ، وقوله تعالى (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) هم اليهود لما سمعوا « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » وروى « أنه عليه الصلاة والسلام كتب مع أبى بكر إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن يقرضوا الله قرضا حسنا فقال فنحاص بن عازوراء إن الله فقير حين سأل القرض ، فلطمه أبو بكر على وجهه

وقال

وقال لولا مابيننا من العهد لضربت عنقك ، فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجحد ماقاله فنزلت » (سنكتب ماقالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق) جعل الاستهزاء بما جاء فى الإسلام ، وقتل الأنبياء فى نمط واحد كأنهم بما استقر فى نفوسهم من الرذائل الفاشية وعظائم الذنوب قد استعدوا لمثلها وقوله تعالى (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) أى ننتقم منهم بأن نقول لهم : ذوقوا العذاب المحرق ، وقوله تعالى (ذلك بما قدمت أيديكم الخ) أى ذلك العذاب بما قدمتم من قتل الأنبياء وسائر المعاصى ، وقوله تعالى (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) الذى قال هذا هو : كعب بن الأشرف ومالك وحيي وفنحاص ووهب بن يهوذا من اليهود ، وعهد إلينا أى فى التوراة ألا نؤمن لرسول إلا بمعجزة خاصة فيقرب النبى القربان ويدعو الله فتنزل نار سماوية فتأكله (بالبينات) الدلالات الواضحات والمعجزات (والزبر) الكتب واحدها زبور ، وهو كل كتاب فيه حكمة،من الزبر وهو الزجر (والكتاب المنير) الواضح للغىء (يوم القيامة) يوم قيامكم من القبور ، وفى الحديث «القبر إماروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » (وزحزح) أبعد ، وقوله تعالى (فقد فاز) أى بالنجاة (وما الحياة الدنيا) أى لذاتها وشهواتها وزخارفها (إلا متاع الغرور) المتاع كل مااستمتع به الإنسان من مال وغيره ، والغرور مايغر الإنسان بما لايدوم : أى أن منفعة الإنسان بالدنيا كنفعته بهذه الأشياء التى يستمتع بها ، ثم تزول عن قريب (لتبلون) لتختبرن (فى أموالكم) بالإنفاق وما يصيبها من الآفات كدودة القطن ببلاد مصر (وأنفسكم) بالجهاد والقتل والأسر والجراح والخوف والمرض (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) كهجاء الرسول والطعن فى الدين ، وإغراء الكفار على المسلمين ، وإنما أخبرهم بذلك لتوطن أنفسهم على الصبر والاحتمال (وإن تصبروا) على ذلك (وتتقوا) مخالفة أمر الله (فإن ذلك) أى الصبر والتقوى (من عزم الأمور) أى معزوماتها التى يجب العزم عليها أو مما عزم الله عليه أى أمر به وبالغ فيه (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) أى اذكر وقت أخذه ، والذين أوتوا الكتاب هم العلماء كعلماء اليهود والنصارى الذين كتموا دلائل النبوة المحمدية فى التوراة والإنجيل ، وأخذ الميثاق هو التوكيد والإلزام أن يبينوا ماأوتوا من الكتاب ، وهو قوله تعالى (لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه) أى الكتاب أو الميثاق (وراء ظهورهم) طرحوه وضيعوه (واشتروا به ثمنا قليلا) من حطام الدنيا (فبئس مايشترون) يختارون لأنفسهم ، وعنه صلى الله عليه وسلم « من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من النار » وعن على رضى الله عنه « ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا » (لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا) فعلوا من التدليس وكتم الحق (ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا) من الوفاء بالميثاق وإظهار الحق والإخبار بالصدق (بمفازة) بمنجاة (من العذاب) فائزين بالنجاة منه (ولهم عذاب أليم) بكفرهم وتدليسهم (ولله ملك السموات والأرض) فهو يملك أمرهم (والله على كل شىء قدير) فيقدر على عقابهم ، وليس فقيرا وهم أغنياء كما قالوا ، انتهى التفسير اللفظى .

يقول الله تعالى : لاتحزن يامحمد لأولئك الذين غادروا دينك ، وسارعوا إلى أعدائك فإنك بأعيننا ، ونحن لاندعك لهم بل نحفظك من كيدهم ونؤمنك من شرهم وكيف يؤذونك ونحن ننصر الذين ينشرون الفضائل ويزيلون الرذائل ويكونون للناس نافعين مصلحين .

فأما مانرى من إغداق النعم عليهم وإظلالهم بظلال الأمن والسلامة ، وما أمددناهم به من مال وبنين ، فلم نفعل ذلك لنسارع لهم فى الخيرات وإنما ذلك ليزدادوا إثما ؛ كما أننا جعلنا وفرة الطعام والشراب والمآكل الدسمة للشرهين ليمتلئوا لحما وشحما ، ثم نميتهم جزاء لجهلهم بقوانين الصحة فى مطعمهم ومشربهم . هكذا هؤلاء نعطيهم الأموال والبنين إلى أجل محدود ، ثم نوردهم موردا لامرجع منه ، وكيف أذر المؤمنين على ما هم

عليه؟ فلأسلطن عليهم التكاليف والمشاق ، ولأوردنهم موارد الحرب ومواقع الضرب حتى يمتاز الشجاع من الجبان والمنافق من المخلص ، وكيف تفرقون بين زيد وعمرو ، وتعرفون الشجاع من الجبان ، والمخلص من المنافق ؟ وهل أطلعتكم على غيبي أو أنبأتكم بعلمي ، وإنما أرسلت الرسول لقيادتكم ، وبهذه التكاليف يمتحنكم فيكون التمييز ويظهر ذو الورم من السمين والمحق من المبطل .

وهل أولئكم الذين أغدقت عليهم النعم إلى أجل محدود فبخلوا بها وأعطيتهم مالا فمنعوا حقه ينالون خيرا وإنما هو شر لهم سيكون ذلك المال غلا في أعناقهم وسجنا لنفوسهم . إن كل ما اشتهاه الإنسان ، وأنس به ولازمه من مال أو منصب أو جاه ، ولم يعالج نفسه بإنفاق المال ، والتفكر في أمر هذه الحياة وزوالها سيكون معلقا بها وهو لا يراه طالبا له ولا يلقاه مغرما به وقد أخطأه .

ومن ذلك الأقوال الجارحة والكبرياء بغير حق وقول الزور والجهل والغرور كقول من يقول (إن الله فقير ونحن أغنياء) وأمثال هذا القول يردى صاحبه لأنه يكتب في صحائفه ويكون وبالا عليه لأنه يربى فيه ملكة القول الزور والتطاول الممقوت والتعالى ، والملكات السيئة العالقة بالنفس تكون وبالا على صاحبها ؛ فهو كحاطب ليل يحتطب الشوك فيؤذيه ، ولا يعلم ماذا يأتيه فليس العذاب إلا بما قدمت الأيدى ، ومن لم يهد الله فما له من مهد .

ولقد كذبك هؤلاء فلا تبتئس بالتكذيب . واذكر الأنبياء السابقين والرسل الماضين فقد كذبهم التابعون وقد أرسلوا بالمعجزات والآيات الواضحات فصبروا على ما أوذوا واستعاذوا بى فأعذتهم فاصبر كما صبروا فلأعيذنك كما أعذتهم ، ولأنصرنك كما نصرتهم ، ولأذيقن المكذبين سوء النكال لأنى أنصر الهداة وأخذل الغواة إذا بلغ الكتاب أجله ، وأتم كل عمله بحيث يكون الأنبياء أدوا ما عليهم ، والمكذبون بلغوا النهاية فى النكاية فيكون الجزاء على مقدار العمل فأحسن المحسنين وأسىء للمسيئين ، فاصبر حتى تستوفى مدة المحنة ويتمادوا فى الفتنة فيكون الجزاء لك ولهم عدلا والقصاص منهم والإفضال لك حقا جزاء وفاقا .

على أن هذا وذاك سيزول والدنيا ذاهبة مهما تطاولت الأيام (كل نفس ذائقة الموت) والأعمال بخواتيمها والعذاب القليل فى جانب النعيم العظيم محتمل ، ومن ذاق ألوان الأذى قليلا ثم استمتع بالبهجة دائما فأمره جلل . فلذلك بلوتكم فى الأنفس بالقتال ، وفى الأموال بالإنفاق والآفات ، وسلطت عليكم الأعداء فسلقوكم بألسنة حداد ؛ فإن صبرتم على البأساء وثبتم فى الضراء ، وكنتم ذوى عزم حين البأس ، كنتم عندى من ذوى النفوس العالية وبوأتكم منازل الصابرين .

ولا يظن امرؤ أنى أجتزىء بظواهر الأمور كالقتال والإنفاق بل هناك ما هو أعلى مقاما ، وأعز شأنا ، وأرفع مكانا ألا وهو العلم ، فإذا عاقبت الأغنياء على شحهم وبلوتهم فى أموالهم فلست مخليا العلماء من التعذيب ولا الحكماء من التأديب بل البخل بالعلم أدهى وأمر وأجلب للضر وأبعد عن العدل وأقرب للإثم ، وكيف لا يكون كذلك وقد أخذت على العلماء الميثاق ؟ . فإذا نبذوه وراءهم وناموا عن نشره للناس كنت خصمهم ، العلم أصل وما عداه تابع له ، فلذلك أخذت الميثاق على العلماء ؛ وما الأغنياء إلا تلاميذ العلماء ، وما المجاهدون إلا صدى صوت المعلمين ومنفذو أوامرهم فى الدين . فكيف أعطف على العالم البخيل بعلمه إنه لأشد عذابا من البخلاء ، وأقرب إلى النار وبئس القرار ؛ فهل تحسبهم بمفازة من العذاب كلا بل لهم عذاب أليم ؛ إن العلم هو الأس للنظام ومدار الاجتماع . فكيف أعفو عن عالم أضاع علمه ؟ . أليس العلم به يعرف جلال الله ، وأنه يملك السموات والأرض ، وأنه على كل شىء قدير ؛ فالعلم أمره عظيم جليل .

لطيفة فى قوله تعالى:

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) الآية التى نحن بصددها

قال قتادة . هذا ميثاق أخذه الله تعالى على أهل العلم فمن علم شيئا فليعلمه ؛ وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة . وقال أيضا : مثل علم لايقال به كمثل كنز لاينفق منه ، ومثل حكمة لاتخرج كمثل صنم لايأكل ولا يشرب ، وقال أيضا : طوبى لعالم ناطق ومستمع واع ، هذا علم علما فبذله وهذا سمع خيرا فقبله ووعاه .

واعلم أنه لما كان هذا القول يستدعى طلب العلم والتفكر فى أصوله وفروعه ناسب أن يؤتى بعده بدرس فى المعارف العامة وبنظرة فى السموات والأرض ؛ وأيضا لما كانت الآيات السابقة فى شئون غزوة أحد وكان فيها القتال ومجاهدة الأعداء ، وقصص المنافقين والضالين والكافرين ، ورد الأباطيل والدروس الأدبية كالصبر والثبات والغنائم والفوز والهزيمة والتوبيخ ، وكان من عادة القرآن أن يأتى بعد ذلك بما يخرج النفس من أمثال هذا المقام إلى التفكر فى أمور شريفة وعجائب وبدائع لتفرج على الجمال وتنشرح به بعد ما سمعت من مختلف الأحوال ، فقيل إن فى خلق السموات والأرض الخ ، وأيضا إن غزوة أحد مملوءة من الدروس الأدبية والعظات التأديبية والحكم الخلقية والقوارع الزجرية ، وكل ذلك ليس نهاية المقصود من الحياة ولاهو نهاية مقاصد النبوّات ، وإنما هذه أشبه بالتخلية ، والمعارف الطبيعية أشبه بالتحلية ، فإذا تخلى الإنسان عن الرذائل فلم يشذ عن المجموع وثبت فى حروبهم وصبر فى النوائب كملت نفسه ، وعظمت قيمته ، وإذن تستعد النفس للرقى فى العلياء ، والعروج إلى أبواب السماء ، فالأخلاق مقدمات ، والعلوم نهايات ، والأخلاق بالتجارب العملية كغزوة أحد . فلذلك أعقبه بآية (إن فى خلق السموات) وكذلك أول سورة آل عمران كان فيه ذكر الله وعلمه بكل شىء وأنه لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وتصوير الناس فى الأرحام كيف يشاء فختمت بمثل ما ابتدئت به ليكون المبدأ بالجمال العلمى والمنتهى بالنظر فى العالم العلوى والسفلى ، كأنه يقال أيها الناس إن رسالة الأنبياء ، والحرب والقتال والتكاليف والإنفاق ، كل ذلك لكمال نفوسكم وجمال عقولكم ؛ فلذلك ابتدأت السورة بعلم الكائنات وختمتها بالحكم الكليات ، وما كان غير ذلك فإنما هو مقدمات لتلك المقاصد ، ومبادئ لتلك الغايات ، كذلك كانت سورة البقرة فإنها مبدوءة بالتوحيد مختومة بأن ما فى السموات وما فى الأرض لله وبدعاء للمؤمنين أن ينصرهم الله على أعدائهم ويغفر لهم ، وترى سورة آل عمران مبدوءة بما ابتدئت به سورة البقرة من التوحيد ، وختمت بالدعاء بالغفران ، وذلك فى القسم العاشر وهو :

إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَاوَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَـٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

التفسير اللفظى

سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية فنزلت (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) لدلائل واضحة على وجود الصانع ووحدته ، وكمال علمه وقدرته لذوى العقول الخالصة البرية من شوائب الحس والوهم ، وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم « ويل لمن قرأها ، ولم يتفكر فيها » (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم) يداومون على ذكر الله فى غالب الأحوال فى القيام والقعود ، وفى حال نومهم على جنوبهم ، وليس المراد الاختصاص بهذه الأحوال ، بل المراد أن يعم الذكر سائر الأحوال ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى فى كل أحيانه » وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قعد مقعدا لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة ، ومن اضطجع مضطجعا لا يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة وما مشى أحد ممشى لا يذكر الله فيه إلا كانت عليه من الله ترة » أخرجه أبو داود . والترة : النقص ، والمراد به هنا التبعة ، ومن الذكر الصلاة «ولما سأل عمران بن حصين النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة وقد كانت به بواسير . قال صلّ قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب تومئ إيماء» وقد أخذ الشافعى بظاهره ؛ وأن المريض يصلى على جنب ويومئ برأسه . وأبو حنيفة يرى أن يصلى مستلقيا على ظهره ، فإن وجد خفة قعد (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض) استدلالا واعتبارا ، وذلك أفضل العبادات . قال عليه الصلاة والسلام «لا عبادة كالتفكر » وذلك مخصوص بالقلب ولأجله خلق الإنسان . قال عليه الصلاة والسلام « بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى السماء والنجوم فقال أشهد أن لك ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله إليه فغفر له » وهذا العلم أشرف العلوم ، بهذا وأمثاله يتفكرون قائلين (ربنا ما خلقت هذا باطلا) أى ما خلقت هذا الخلق : أى المخلوق من السموات والأرض عبثا ضائعا من غير حكمة وإنما خلقته لحكمة عظيمة ، ومن هذه المخلوقات الإنسان فلا بد أن يكون خلقه لأمر عظيم ، فإذا جهل الحكمة التى خلق لها فإنه لابد صائر إلى عذابك (سبحانك) تنزيها لك من العبث وخلق الباطل، وإذا كنا نعلم أننا خلقنا لحكمة فجهلنا بها وإخلالنا بما خلقنا له يردينا ويوردنا النكال لأنك لا تخلق إلا لحكمة (فقنا) ياربنا (عذاب النار) الذى نستحقه إذا

أخللنا

أخللنا بالحكمة التي خلقنا لها وغفلنا عن النظر ففاتتنا الحكمة وحرمنا العلم والتوفيق ، ولم ندر ما في السموات والأرض من العجائب ولا جرم أن الناس في الدنيا يحسون بالعذاب من طريقين : طريق أجسامهم كالسجن والضرب والتعذيب ، وطريق الإذلال والإهانة والافتضاح ، والناس يشعرون بهما في الدنيا ، فنرى الوزراء والأمراء ورجال الحكومات وذوى النفوذ إذا عزلوا أو أهينوا أو طردوا من مجلس رؤسائهم أو قيلت لهم كلمة لاتليق بمقامهم تؤلمهم أشد الإيلام ، وربما مرضوا أوماتوا ، وافتضاح الإنسان وسط الجمهور وإسقاطه أشد عليه من كل ضرب وسجن بل هو العذاب الحق ؛ وليس أضر على الإنسان من جهله وخزيه في المجالس الشريفة ومقام الملوك والعلماء والأدباء . ولما كان موقف أولى الألباب عند ربهم يقتضى أن يكونوا على نور وعلم يوافق مواقفهم ويناسب مراتب الملائكة ، ويلتئم مع ما لتلك الحضرة من الجمال والإجلال . قال تعالى (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته) أهنته وأذللته وأهلكته وفضحته وأبلغت في إيذائه والاستخفاف به من الانكسار الذى يلحق الإنسان وهو الحياء المفرط فالفضيحة ؛ وإنما عبر بالإخزاء لما فيه من معنى الانكسار الذى يعقب الافتضاح وهو نوع من العذاب كما قدمنا ، وأى افتضاح أشد هولا وأقوى من ظهور الجهل في موطن العلم ؟ فالعذاب بالنار المطلعة على الأفئدة بخزى الجهالة لاتنقص عن نار الجسم المحرقة للهياكل المشاهدة فهؤلاء لما ظلموا أنفسهم بذنوبها وجهالتها عذبوا وافتضحوا (وما للظالمين) أنفسهم (من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان) وهو النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن (أن آمنوا بربكم) أى بأن آمنوا بربكم (فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا) كبائرنا (وكفر عنا سيئاتنا) صغائرنا (وتوفنا مع الأبرار) مخصوصين بصحبتهم والأبرار : جمع بر أو بار كأرباب وأصحاب (ربنا وآتنا ماوعدتنا على) ألسنة (رسلك) من الثواب لأنا نخاف أن لانكون من الموعودين بذلك الثواب لقصور في امتثالنا فندعوك بذلك تعبدا واستكانة عسى أن لانكون من المقصرين (ولا تخزنا يوم القيامة) لاتفضحنا أمام الأشهاد حين تظهر الخبايا والنيات ويتضح ماغمض من السيئات و «تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء» محضرا «تود لو أن بينها وبينه» حصنا مشيدا وتقول ياليتنى كنت عنه مبعدا ، وكيف لاتجيب دعاءنا أو تخيب رجاءنا ، وأنت قد أمرت بالدعاء ، ووعدت الإجابة وناديت للإيمان ووعدت بالإثابة ، وما علمناك تخلف الوعود فيما رأينا من المخلوقات كالنجوم الطالعة والشموس المتألقة فإن مواعيدها محسوبة وأوقاتها معلومة ، فوعدك في شروقها وغروبها غير مكذوب ، فإذا كان هذا دأبك فإنا بوعدك مصدقون (إنك لاتخلف الميعاد) في كل شيء في البعث وفي الثواب وفي كل ماله أدوار في هذا الوجود (فاستجاب لهم ربهم) إلى طلبتهم (أنى) بأنى (لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) بيان عامل (بعضكم من بعض) جملة معترضة بين بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد العمال من الأجر لما بينهما من اتصال واجتماع واتفاق في الدين ؛ ثم أخذ يفصل تلك الأعمال فقال (فالذين هاجروا) الشرك والأوطان والعشائر للدين (وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى) أى بسبب إيمانهم بالله ومن أجله (وقاتلوا) الكفار (وقتلوا) في الجهاد (لأكفرن عنهم سيئاتهم) لأمحون عنهم سيئاتهم (ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله) أى أثيبهم بذلك إثابة من عند الله : أى تفضلا منه ، وهذا مصدر مؤكد (والله عنده حسن الثواب) على الطاعات قادر عليه ؛ ولما كان هذا القول يدل على إقبال الله على عباده وأنه يعطيهم ماسألوا في الدارين بدليل قوله فيما تقدم في هذه السورة « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » وقوله هنا « والله عنده حسن الثواب » فإذا كان ماعنده حسن الثواب في الآخرة ويؤتيهم أجرهم في الدنيا فكيف يرى المؤمنون تقلب الكافرين في الأرض بالتجارة ، ولا يختلج في صدورهم الوسواس ويداخلهم الريب فيما يسمعون مما يعارضه مايرون ؛ ولقد روى أن بعض المسلمين كانوا يرون المشركين

فى رخاء ولين عيش . فيقولون إن أعداء الله فيما نرى من الخير ، وقد هلكنا من الجوع ؟ فأجابهم بقوله (لايغرّنك تقلب الذين كفروا فى البلاد) والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ولأمته ولكل أحد ، فإن ذلك سحابة صيف عما قليل تقشع أو كسراب بقيعة أو كالزبد يذهب جفاء . فذلك التقلب (متاع قليل) بلغة فانية قصيرة المدة . قال عليه الصلاة والسلام « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليمّ فلينظر بم يرجع » (ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) مامهدوا لأنفسهم (لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله) النزل مايهيأ للضيف عند نزوله من طعام أو شراب . قال الضبى والنزل أيضا بالسكون :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وقد نصب على الحال من جنات (وما عند الله خير للأبرار) مما يتقلب فيه الفجار لقلة الثانى وكثرة الأول وسرعة زواله وكثرة الأول ودوامه . إن أصحمة النجاشى لمانعاه جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج فصلى عليه ، فقال المنافقون إن هذا يصلى على علج نصرانى لم يره قط ، ولقد أسلم عبد الله بن سلام اليهودى وأصحابه وأربعون من نجران ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وثمانية من الروم ، فأشار الله إلى هؤلاء وأمثالهم فقال (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم) من القرآن (وما أنزل إليهم) من الكتابين : التوراة والإنجيل (خاشعين لله) حال من الضمير فى يؤمن باعتبار المعنى (لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا) من عرض الدنيا كما يفعل الأحبار إذ يبدّلون صفة النبى صلى الله عليه وسلم حفظا للرياسة (أولئك لهم أجرهم عند ربهم) أى ماخصوا به من أنهم يؤتون أجرهم مرتين (إن الله سريع الحساب) لايخفى عليه شىء من الأعمال ، ولا يعوزه تأمل وتفكر واحتياط؛ ولا جرم أن سرعة الحساب تستدعى سرعة الجزاء (ياأيها الذين آمنوا اصبروا) على مشاقّ الطاعات ، وعلى الدين الذى أنزلته فلا تصدنكم عنه الشدائد وعلى مايصيبكم من الشدائد فلا تشكوا للناس ، وعلى القضاء فلا تجدوا فى أنفسكم حرجا منه ، وعلى صدق الرضا فلا تسخطوا ، وعلى الفرائض فلا تتركوها وتلاوة القرآن فلا تهجروها ، وعلى الجهاد لئلا يفجأكم الأعداء ، وعلى أحكام الكتاب فلا تتعدوها (وصابروا) وغالبوا الكفار بالصبر على شدائد الحرب والشيطان بمخالفة الهوى ، وهذا من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام (ورابطوا) وداوموا على الجهاد واثبتوا عليه؛ وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين للنزال فيحارب كل منهما الآخر ، ثم أطلق على كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابط ، وإن لم يكن له مايربط من الخيل أو غيرها ، وفى الحديث « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وماعليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وماعليها ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وماعليها» يقول رابطوا أبدانكم وخيولكم فى الثغور مترصدين للغزو وأنفسكم على الطاعة ، ويلحق بالرباط فى الثغور انتظار الصلاة ، ففى الحديث « من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة» (واتقوا الله) بترك المعاصى (لعلكم تفلحون) بنيل المقامات الثلاثة التى هى : الصبر على مضض الطاعات ، ومصابرة النفس فى رفض العادات ، ومرابطة السر على جنات الحق لرصد الواردات وهى المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة .

ولنا أن نقول: إن تكرار هذا ثلاث مرات : صبر ، ومصابرة ، ومرابطة داع حثيث إلى المحافظة على الأوطان وصد العدو المغير . فلعمرك لادين ولا دنيا ولا حياة لمن لم يصابروا ولم يرابطوا ، وكأن هذه الغزوات وذكرها والوصايا بالمرابطة لنأخذ حذرنا من الفرنجة الذين هم ذئاب الشرق وآساده ؟ نعم نظر الله لنا وعرف ماستقع فيه فكرّر الأمر بالصبر والحرب فى مواطن كثيرة من القرآن ، ولعمرك ما أفظع دول الغرب على

الشرق فهل أحدثك عن أعمالهم؟ إنهم يلقون القنابل النارية من الطيارات على الشبان والشيوخ والأطفال والبهائم فى طرابلس ومراكش والعراق والهند .

قال الأستاذ الزعيم الهندى المشهور المسمى (غاندى) منقولا من مجلة الجامعة الهندية : (١) إن ألوفا مؤلفة من الإنجليز لايمكنهم أن يتحملوا أن يدعى هندى واحد المساواة أو أن يعيش عيشة مساوية لهم إذ سيادة اللون الأبيض أصبحت دينا لهم. (٢) لاشىء يستطيع صد الوطنى عن القيام بوظيفته ، ولو كان قوة الحكومة (٣) ليس هناك مسلم ولا وثنى بل الله الواحد الأب الرحيم للجميع (والأبوّة هنا مجاز) (٤) إن مقاطعة المنسوجات الأجنبية من الانتقام ، ولكنه لامفرّ منه لأنه لازم للوطنية لزوم النفس للحياة إذ بدونه لايكون الاستقلال ، وإن جاء لايؤمن عليه (٥) إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا ألا وهو العار على كثير من العائلات (٦) إنى أجزم بأن أوروبا اليوم لاتمثل روح المسيحية بل تمثل روح الشيطان ، وما أعظم نجاح الشيطان إذا ظهر ولسانه يردد اسم الله (٧) إن النجاح يتوقف على الشجاعة والتضحية والمحبة والإيمان لاعلى المهارة القانونية وكثرة العدد والحيل السياسية وكره الناس وعدم الإيمان (٨) إن اضطراب البلاد لايمكن معالجته إلا بإزالة الأسباب لابتقديم حلويات الوظائف ولا بألعوبات أخرى (٩) إن المدافع البريطانية ليست مسئولة عن عبوديتنا أكثر من مسئولية مساعدتنا الاختيارية لبريطانيا اهـ كلامه .

أقول : إن أهل الهند يقرون (لمهاتما غندى) بالزعامة . انتهى التفسير اللفظى للقسم العاشر من السورة وهو آخرها ولننظر الآن نظرتين : نظرة عامة فى سورة آل عمران ، ونظرة خاصة آخر السورة .

النظرة العامة فى سورة آل عمران

ولنقدّم لهذه النظرة العامة مقدّمة فنقول . اعلم أن التربية فى العالم الإنسانى اليوم لاتعدو أمرين اثنين : الأول التربية الجسدية ، الثانى التربية العقلية ، ولا ثالث لهما ، فإن الإنسان ما هو إلا جسم وعقل وما مثلهما إلا كمثل الأعمى والمقعد المذكورين فى الأقاصيص فى القرون الغابرة والأيام الخالية والحكم المروية والعلوم الحكمية ، وقد أباح لهما الملك الدخول فى بستانه والتفيؤ فى ظلاله فسرقا معا أجمل الفاكهة الخاصة بالملك ، فالأعمى بقوته والمقعد بإرشاده بحيث كان الأعمى يحمل المقعد وهو يدله على الفاكهة النادرة الوجود الخاصة بالملك ؛ فلما علم الملك أمرهما من البستانى طردهما فى العراء فتخطفتهما السباع وأكلتهما الوحوش والضباع ، وهما قد كانا فى الجرم شريكين فأصبحا فى الجزاء متفقين ؛ فالأعمى تمثيل الجسم ، والمقعد البصير تمثيل للنفس ، فالنفس يحملها الجسم كما يحمل الأعمى المقعد ، فلذلك درجت الأمم المعاصرة لنا على تربية الأجسام بالاستحمام والرياضة البدنية والسفر على الأقدام والإيغال فى الجبال والسير فى البرّ والبحر والصناعات الشاقة والحدادة والبرادة والنجارة وقطع الأخشاب وما أشبه ذلك ، وقد كان الأمويون يرسلون أبناءهم إلى البادية حتى تقوى أبدانهم فى إبان صغرهم ، ثم يرجعونهم إلى المدن ليتعلموا . هكذا أهل الممالك المتحدة يعلمون أبناءهم الشجاعة فيربونهم عند الأمريكيين الحمر . كذلك إخواننا الفرس كما قدّمنا فى سورة البقرة يعلمون أبناءهم الرماية وركوب الخيل ، وهم فى السادسة من عمرهم ، ويجيعونهم بعض الزمن تقوية لأبدانهم وتشجيعا لهم وتعويدا لهم على الصلابة والقوة والعفة والصبر ، وهكذا ترى نظار المدارس يربون التلاميذ بالألعاب الجنبزية بالحركات المختلفات ولم تجسر أمتنا المصرية أن تعلم الشبان فى المدارس تعليما عسكريا لتقوى أبدانهم ، كما قال الله تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم) لأن الأمة الإنجليزية اليوم محتلة بلادنا . فهذا ممنوع منها لايحمل أحد سلاحا فى بلادنا إلا نادرا ، ولكنى الآن وأنا أكتب هذا قد حصلت أمتنا على مجلس

نيابى، وعسى الله أن يجعله فاتحة خير ، فيتعلم الشبان الأعمال الجندية فى المدارس لتقوى أبدانهم وتصح عقولهم.
ولقد أطنب فى هذا المقام الفيلسوف أفلاطون فى كتابه [الجمهورية] إذ أوجب كثرة الرياضة البدنية ، كما أوجب الرياضة العلمية والموسيقى الغنائية ، وعلق أعظم الآمال على رياضة الأبدان . وهكذا الإمبراطور غليوم الذى أثار الحرب الكبرى التى قلبت العالم الإنسانى اليوم ، رأيت له خطبة قبل الحرب يحث فيها دولته أن يأمروا التلاميذ فيتعلموا الجندية فى المدارس العالية علما منه أن رجال الحكومة لن يكونوا نافعين لأوطانهم إلا إذا كانوا ذوى أجسام قوية .

ولقد اطلعت على ما نقل عن الولايات المتحدة منذ سنين ، أنهم جرّبوا التلاميذ فى المدارس فأرسلوهم إلى الحقول عند العطلة أيام الصيف . فماذا رأوا ؟ رأوا أن الذين أمروهم بالعمل فى الحقول ومساعدة الفلاحين ، رجعوا وهم أصح أبدانا وأقوى عقولا وأكثر درجات فى الامتحان ، وأحسن أخلاقا مما كانوا قبل ذلك ، وهم مع ذلك شاهدوا جمال الطبيعة وخبروا مختلف النبات ، وتمتعوا بالهواء النقى ، وصاروا قدوة الفلاحين ، ورغبوهم فى أعمالهم وشاركوهم فى صناعتهم وشرحوا صدورهم بمشاركتهم ، فعلت بذلك منزلتهم فى أنفسهم . هذه شذرة من تربية الأجسام .

أما الأمر الثانى . فهو التربية العقلية ، فإذا استكمل التلميذ التربية الجسمية وحسن غذاؤه ، وروعيت العفة فى مآكله وملابسه ومشاربه وجميع أحواله . هناك يعطى العلم من الرياضى والطبيعى ، والعلم الدينى والأخلاق ، وما أشبه ذلك على مقتضى البنية والأحوال العامة .

هنالك يقبل العقل مايهدى إليه ويقبل عليه ، وياليت الناس يقدرون هذا حق قدره ، فانظر كيف يرى الإنسان نفسه وهو فى الهواء الطلق كيف تقبل المعانى عليه أى إقبال ، وتشرق نفسه بالحكمة ، وتزدان بالجمال والبهاء والصفاء . هذا ملخص التربية فى الأمم الحالية ، انتهى الكلام على المقدمة .

النظرة العامة لسورة آل عمران

إذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن القرآن إنما جاء لتربية الأمة الإسلامية ، تربية جسمية وعقلية . فمن قرأ هذه السورة وظن أنها عبارة عن حكاية سيدنا عيسى وغزوة أحد ونبذة من غزوة بدر ، وبعض أوامر ونواه ، وهو نائم هائم فلا حظّ له من فهم القرآن ، فلتنظر فى هذه السورة نجد أنها قامت بالأمرين معاً : تربية الجسم وتربية العقل .

أما التربية الجسمية ، فإنها قد وضحت فيها فى غزوة أحد ، ولا تظن أن ذكرها لمجرد التاريخ أو الدلالة على النبوة ، بل هى للتربية .

إن الإنسان لابد فى تربيته من كبح جماح الشهوات من المآكل والملابس والتزاوج ، وهكذا كبح جماح الغضب والتوسط فيه ، فلن يكون جبانا كما لايكون متهوّرا ؛ فإذا انتهى من ذلك وجب عليه تنمية قواه العقلية والتحلى بالحكمة والعلم ، هذا هو الإنسان أوله ومنتهاه ، وبالتأمل فى هذه السورة نرى أنهم أمروا بالاقتصاد فى الشهوات أثناء الغزوات ، ألم تر كيف وبخهم على انتقالهم من مراكزهم فى مصافّ القتال حرصا على الغنيمة . فهذا وأمثاله من تهذيب النفس الشهوية وتلطيف شهوتها وتكميلها ، فأما انتظام الصفوف فى الجهاد وصبرهم على لقاء الأعداء يوم أحد وطعنهم وقتلهم أعداءهم ، فكل ذلك رياضة بدنية ، وطاعة إلهية ، وقوة بدنية ، وهمة علية ، وأشرف مايقوى به الإنسان بدنه ، ويهذب به نفسه الإقدام فى الحرب والكفاح والقتال ، فذلك خير الرياضات وأفضل مقوّ للبدن ، ومتى قوى البدن قويت الروح . ولقد أخذت غزوة أحد مقدارا عظيما من هذه السورة ، وكلها فى الشجاعة والشهامة والمروءة والنجدة ، وذلك واضح كل الإيضاح .

وأما

وأما التربية العقلية . فحسبك أن ترجع إلى أوّلها لتنظر ذكر علم الله بما فى السماء والأرض ، وأنه يصوّرنا فى الأرحام كيف يشاء ، والمحاجة مع عيسى وقيام الله بالقسط فى خلقه ، وحسن نظامه جل جلاله فى هـــذا الوجود ؛ ثم اختتامها بالقسم العاشر الذى فيه عجائب خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار .

ومن عجب أن يكون أسلوب القرآن جاريا على أحسن الأساليب المعروفة فى التربية ، فإنك ترى أن سورة يوسف ابتدىء فيها بالتربية الأخلاقية من نفسية إلى منزلية إلى سياسية مدنية ، ثم انتهى فى آخرها إلى أن طلب من الله أن يلحق بالصالحين ، هكذا ســورة البقرة فإنه ختمها بذكر السموات والأرض ، وكيف يدعو المؤمنون فى قوله : (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا الخ) ، ثم طلب المغفرة والرحمة ، هكذا فى سورة آل عمران التى نحن بصددها ، ترى السورة تحثّ على مكارم الأخلاق من الصبر والثبات والجهاد والإخلاص فى الأعمال والطاعات ، حتى إذا انتهى إلى آخرها وقد تمت قصة غزوة أحد وفيها حوادث الحرب وما فيها من العبر ، أخذ يشرح عجائب السموات والأرض . وختم السورة بالدعاء كأن يقول العبد : (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار) ، كما قال تعالى فى سورة البقرة : (ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى قوله تعالى (واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا الخ) .

فكأنه يقول فى هذه السورة ، أيها الناس ليس مقصد الحياة والديانات هـــذه الأعمال الظاهرة ، ولا ظواهر الدين من الجهاد والصلاة والحج ، إنما هذه مهذبات لعقولكم ، مربيات لنفوسكم سلم إلى فهم دروسكم النافعات من الحكم العاليات كالتفكر فى النجوم ومعرفة العلوم ، انتهى الكلام على النظرة العامة فى سورة آل عمران .

النظرة الخاصة بالقسم العاشر منها ، وهو آخر السورة الذى نحن بصدد الكلام عليه

لقـــد علمت أن ما جاء فى سورة يوسف وهى أحسن القصص ، يناسب ما جاء هنا وما جاء فى سورة البقرة ، وأنه بعد أن أتم دروس الحياة من تهذيب نفسه فى السجن ، وحسن الأخلاق مع المعاشرين فيه ، ونظامه للحكومة المصرية ، وهو تمام الحكمة العملية : أى تهذيب النفس وسياسة المنزل وسياسة الأمة ، وبعد أن أفيض عليه العلم لتكميل القوة الناطقة بالحكمة ، جمع ذلك كله فى قوله تعالى : (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث) فإتيان الملك إشارة إلى الثلاثة الأول ، وتعليم الأحاديث إشارة إلى الحكمة والنبوّة ، ثم قال تعالى : (فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين) ، فذكر خلق الله للسموات والأرض أوّلا ، ثم طلب أن يلحق بالصالحين بعد الوفاة مسلما فى جوار ربه الذى فطر السموات والأرض حتى يتمتع بنعمة العلم واللذات النفسية بعد الخروج من هـــذا النظام الجسمى وهو المقام المحمود ، وموقف السعادة ، وموطن الكرامة ، والمشاهدة لإبداع فاطر السموات والأرض ومشاهدة الأنوار القدسية .

انظر أيها الذكى كيف كانت نهايات الأنبياء أن يلحقوا بالعالم الجميل ، عالم العلم والحكمة ، وأن يتخلصوا من هذه المادة بعد أن هذبوا أنفسهم بها ، فيخرجون من الظلمات إلى النور . وتأمل فى هذه السورة وانظر أيضا كيف كان فى أولها الإشارة إلى غزوة بدر . فأما غزوة أحد فقد أخذت منها قسطا كبيرا ، واستغرقت منها جزءا وافرا ، وفيها درسوا نظام الحرب وحفظ المروءة وشرف النفس ، ومرّنوا أجسامهم فقويت أبدانهم ، وقد رجع من لم يمت منهم سالما . ولما انتهى القول فيها أخذ يتدرج من العمل الجسمى إلى العلم الحكمى ، أفلا تعجب كيف أخذ يذكر العلماء بالميثاق الذى أخذه عليهم قبل الشروع فى الدروس العلمية ، وكيف قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب الخ) وأخذ يقرّعهم ويوبخهم، ولعمرك

ما أضرّ بأمة الإسلام إلا الجهل بمواقع الكلام ، ظن كثير منهم أن المسألة قصص تاريخية أو منازعات يهودية ومنافرات حزبية ، وما دروا أن هذا تعليم عام ونظام شامل ؛ إن الله تعالى لما أتم القول فى الغزوات ، أخذ يهيئ النفوس للدروس والعقول للفهم ؛ فابتدأ يقرع العلماء ، ويوبخ الرؤساء قائلا لهم : كيف نسيتم ميثاق ونبذتم عهدى ؟ أو لستم تعلمون مغبة فعلكم وعاقبة مكركم وسوء طويتكم وحرصكم ؟ ألم تذكروا ما جاء فى سورة البقرة من معاقبة الكاتمين منكم باللعنات من الله والملائكة والناس أجمعين ؟ كما أنى جعلت للمعلمين منكم الناشرين لعلمهم أن العالم أجمعه يستغفر لهم حتى حيتان البحر ، فالعالم أعظم ذنبا وأعظم جرما ، كما أنه أعظم ثوابا وأقرب زلفى إذا وفى بالعهد وقام بالأمر .

وبعد أن انتهى من وعظ العلماء أخذ يسوق الناس من مواطن القتال والجهاد ، ويدفعهم إلى حظائر العلم ومواطن الحكمة ، ويأمرهم بدراسة العالم العلوى والسفلى بعد أن أتموا نظام الملك بالجهاد ، فإذا قال يوسف وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، بعد نظام الملك هكذا هنا أخذ يعلم المسلمين الحكمة بعد الانتهاء من ذكر الحرب وإذا طلب يوسف الوفاة بعد العلم والحكمة ، هكذا هنا قالوا بعد أن ذكروا الله كثيرا وتفكروا فى خلق السموات والأرض (توفنا مع الأبرار) أو لست ترى النظام هنا كالنظام هناك ، وأن الأمر يرجع إلى ثلاث: نظام جسمى وتربية علمية ، واللحوق بالملأ الأعلى فى بهجة علية ، وسعادة عالية ، وروح وريحان ، فهل لك أن أحدّثك ماذا كان من أمر نبينا صلى الله عليه وسلم فى هذه الآيات .

دروس علم الطبيعة لصاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم

عن ابن عباس رضى الله عنهما وأنه بات عند ميمونة أم المؤمنين وهى خالته ، قال فقلت : لأنظرن إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطرحت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسادة فاضطجعت فى عرض الوسادة ، واضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله فى طولها ، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى منتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل ، ثم استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يمسح النوم عن وجهه بيده ، ثم قرأ العشر آيات الخواتيم من سورة آل عمران ، ثم قام إلى شنّ معلقة فتوضأ منها فأحسن وضوءه ، ثم قام يصلى . قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فقمت فصنعت مثل ما صنع ، ثم ذهبت فقمت إلى جنبه ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده اليمنى على رأسى وأخذ بأذنى ففتلها فصلى ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم أوتر ، ثم اضطجع حتى جاء المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ، ثم خرج فصلى الصبح . وفى رواية : فقمت عن يساره فأخذنى فجعلنى عن يمينه . وفى رواية : بتّ فى بيت خالتى ميمونة فتحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الأخير قعد فنظر إلى السماء فقال : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) » انتهى الحديث . أفلست ترى أيها الذكى اللبيب كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالليل فينظر إلى السماء ويقرأ الآيات . فماذا هذا النظر للنجوم لماذا وهو مؤمن بربه . ألاستدلال على وجود الله؟ كلا ، فإنه ليس مؤمنا فحسب ، بل هو نبى ورسول يدعو إلى الله ، وإنما ذلك درس علم الطبيعة واستفتاح لباب السعادة ، وكأنه يقول لنا : ها أنا ذا أيها المسلمون قبل أن أقوم لمحرابى أنظر إلى السماء ، ثم أتعبد لربى أى أعلم وأعمل ، فهو بهذا يرشدنا إلى أن نعاود درس الفلك وعلوم الطبيعة ونتجه بالأفئدة إلى الملأ الأعلى بالعلم والحكمة .

أو لست ترى ذلك أشبه بالتحلية بعد التخلية ، يقول الله تعالى لرسوله : (إن لك فى النهار سبحا طويلا) ويأمره بقيام الليل لتستعد النفس للاشراق ، إن العلم نهاية العقول البشرية ، والحكمة مرمى أولى الألباب ، ألم تر كيف كان العلم بالطبيعة والرياضة من الحساب والهندسة والجبر عليها نظام الأمم وسعادتها ، والرياضة

الفكرية فيها جنة الحكماء والعلماء . نبينا صلى الله عليه وسلم ينظر فى السماء ليستجلى الجمال، والمؤمنون ينظرون العوالم ثم يقولون (وتوفنا مع الأبرار) سعادات الأمم بالعلوم ، وسعادات الأفراد بالعلوم .

وكأنهم بعد أن أتموا دروس الأخلاق نالوا مراتب الإشراق . أو لست ترى أن هذا الترتيب مقصود الوضع لنقرأه ونعمل به ، وأن غزوة أحد لم تذكر ويعقبها العلم إلا لنجدّ فى الأمرين : تربية الأجسام ، ونظام العقول بالعلوم لهذا جاء القرآن .

خطاب إلى علماء الإسلام فى الأرض

أيها العلماء أليس ماذكرته الآن من النظام والحكمة والإبداع من مقتضى البلاغة ، نعم إن البلاغة ليست قاصرة على الأساليب الكلامية ، ولقد عكف كثير من العلماء على الألفاظ فشرحوها ، وعلى الأساليب فبينوها وقالوا للشبان اعرفوا المعانى والبيان والبديع وكلام العرب تعرفوا بلاغة القرآن ، وهــذا حق من وجه ، ولـكن الوقوف عند هذا الحدّ جهالة عمياء وشنشنة بتراء . القرآن يا قوم قد جاء لتربية الأجسام بالاخشيشاب (تقوية الأجسام فتصير كالخشب متانة وقوة) والتمرين لتقوى العضلات بالحرب والمدافعة والرياضة الجسمية ، ثم التحلى بالمعارف الطبيعية والفلكية حتى تستكمل الأفراد ويقوم النظام فى الدولة ، فقرآن يكون ترتيبه على هذا النسق يدعو أتباعه لكمال الأجسام والعقول ، كما فى قوله تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم)

وضع حد للماضى

قولوا أيها العلماء لتلاميذكم : إن القرآن جاء للقدوة ، ولاتقصروهم على دلالة الألفاظ بل اقلوهم منها إلى المعانى ؛ وبعبارة أصرح مرّنوا أجسامهم عملا وعقولهم علما . خذوهم إلى الحقول فأروهم نظام المزارع وبهجة الزهر وجمال الشجر . خذوهم إلى الفلوات والجبال والخلوات وأروهم صنع ربهم . أيقظوهم فى جوف الليل وصلوا معهم التهجد وأروهم النجوم وشوّقوهم لعلم الفلك ، ولا تعطوهم درسا فيه حتى يعشقوا جمال النجوم ، ويطلبوا ذلك منكم طلبا حثيثا . هذا هو دين الإسلام .

لما كان الصحابة والتابعون يعرفون مغزاه على سبيل الإجمال أطار نومهم وأيقظ أجفانهم فهجروا أوطانهم واستعذبوا العذاب ، وساروا فى الأرض شرقا إلى الصين ، وغربا إلى أرض فرنسا . كل ذلك لأنهم كانوا يعرفون معنى القرآن ، وكانت بلاغته فى نظرهم غير ماتدرسون فغاصوا على لبه لاعلى الألفاظ .

ألا ترى إلى قوله تعالى هنا (لآيات لأولى الألباب) والعلوم إما قشور وإما ألباب : جمع لب . هكذا العقول منها . القشرية ومنها لبية ، وأكثر النفوس فى الأمم الإسلامية تربت تربية لفظية ، والألفاظ قشور ، وقد آن أيها العلماء أن تربوا الألباب . فتخاطبو الوجدان والعقل ، وليقف العلماء عند هذا الحدّ ، وليصلوا الجدّ بالجدّ .

القرآن والبلاغة والمفسرون

إن دراسة القرآن فى العصور الحالية كانت تكلفية ، وقراءة سطحية ، وعلوما لفظية . فعكف الناس على الألفاظ وكثر الحفاظ وقلّ المفكرون لجمدت القرائح وماتت العلوم . لاسيما لما تولى أمر هذه الأمة الأمم الأعجمية الذين يجهلون العربية فى القرون المتأخرة ؛ فطمست الحقائق ، ونامت البصائر ، وماتت النفوس ، وفرّ العلم إلى الغرب ، وخلى الشرق قاعا صفصفا وصعيدا جرزا .

فلنجعل اليوم حدا بين الماضى والمستقبل وليفطن العلماء بعدنا إلى ماذكرناه ، وليدرسوا القرآن بنحو الأسلوب الذى بيناه ، وليفتحوا للمعانى جماجمهم ، وليضموا إلى تربية الأجسام ترقية العقول . إن لم يفعلوا ذلك لم تعش الأمم الإسلامية قرنا واحدا بل تفنيها الأمم الأجنبية .

أيقظوا العقول أيها العلماء . ها أنا ذا أقول نحن أمة عربية فلندرس القرآن الذى ورثناه درسا يناسب الجيل المقبل ، ولنأخذ بأيدى أبنائنا إلى مقام الكمال .

لطائف فى هذه الآيات

اللطيفة الأولى : (اختلاف الليل والنهار) . اللطيفة الثانية (ربنا ماخلقت هذا باطلا) . اللطيفة الثالثة (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار) مع قوله (ولا تخزنا يوم القيامة) .

اللطيفة الأولى

هل لك أن أتحدث معك ساعة فى اختلاف الليل والنهار ، وعجائب السموات والأرض بعد ماقرأته فى تفسير سورة البقرة من عجائب الليل والنهار فى الأقطار الجنوبية والشمالية ، وطول النهار وقصره باعتبار الأقاليم ، فنى هذا اليوم أحدثك حديثا آخر غير ماتقدّم ؟ أتدرى فماذا . ذلك فى حساب السنة الكبيسة والبسيطة ، وإنما أردت ذكرها هنا لاختصارها خيفة التطويل ، ولأريك من جمال العلم والحكمة ، ولأعاود ذكرى جمال السماء كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يعاود النظر كل ليلة ليجتلى الجمال . فها أنا ذا أعاود ذلك لأريك لبّ العلم ، ولأنك من أولى الألباب بدليل سيرك فى هذه المقالات مع تشابه القلوب وتجاذب النفوس وتعاشق الأفئدة ، فلأزدك علما ليكون مفتاحا لسعادتك ونبراسا لرقيك فى مستقبل حياتك ، وليجعلك لاتهدأ فى طلب العلوم ، ولتكون نورا وسعادة لبلادك ولدولتك ، ولا تتكل فى ذلك على أبناء جنسك بل ساعد أيدك الله على ارتقاء نوع الإنسان وانشر العلم ليحصلوه ، فإن حال الأمة يستوجب البكاء بالدمع ؟ فامدد يدك لتتعاون على إنقاذها من هاوية الشقاء فى بلاد أفريقيا وآسيا فإن الفرنجة أذلوهم ، ليكن هذا مقصد حياتك ومرمى آمالك لتكون من خلفاء الله المصلحين ، واعلم أنك مسئول كما أنى مسئول ؟ فسر معى وانشر العلم بين أمتك ، واحفظ الوديعة التى استودعتها ، والأمانة التى اؤتمنت عليها ، وأدّها إلى أهلها ، وها أنا ذا أدلى إليك بمسألة الحساب السنوى ، وبالكلام على الليل والنهار ، وعلى الفصول الفلكية ، وعلى نبذة لطيفة من العجائب الأرضية ، ولأبدأ بالكلام على الحساب السنوى فأقول :

السنين الكبيسة والبسيطة ونظام أوائل الشهور والسنين العربية

إن لها أدوارا كبيرة ، وأخرى صغيرة ، وكل دور من الأدوار الكبيرة تابع لما قبله بلا خلل فى السير ولا خطل فى النظام .

إن السنة الحسابية (٣٥٤) يوما وخمس وسدس يوم ، والدور الصغير (٣٠) سنة ، والدور الكبير (٢١٠) من ضرب (٣٠ فى ٧) وأيام السنة البسيطة (٣٥٤) يوما لأن الكسر إذا نقص عن النصف ألغى فى الحساب التقريبى ، والسنة الكبيسة (٣٥٥) يوما يأكمال مازاد عن النصف من الكسر ، والكبيسة من الكبس وهو الجمع .

فإذا أردت معرفة أول سنة من السنين الهجرية فأسقط التاريخ العربى التام (٢١٠) مرة بعد أخرى ، ولا تخلو الحال بعد ذلك الإسقاط ؛ فإما أن لايبق شئ ، وإما أن يبق أقل من ثلاثين ، وإما أن يبق ثلاثون فأكثر ، فإن لم يبق شئ وهى الحال الأولى ، فإن أول السنة التى بعدها يوم الخميس ، وهو أول التاريخ كما فى سنة ١٣٦١ لأنها مقسومة على (٢١٠) غير السنة المطلوبة .

وإن زادت عن ذلك وهى الحال الثانية فليمرّ بما زاد على هذا البيت :

كف الخليل كفه ديانه عن كلّ خل حبه فصانه

(أو هذا البيت) :

إن رمت مجدا فلا ترقد دجى أبدا   خوف الفوات لما ترجو من الشرف

والمطلوب ٣٠ حرفا منها ١٩ حروفا مهملة و١١ حروفامعجمة ؛ فالحروف المعجمة تقابل السنين الكبيسة والمهملة تقابل البسيطة ؛ فى كل دور من الأدوار الصغيرة ١٩ بسيطة و١١ كبيسة ، لأن الخمس والسدس الذى يهمل فى حساب البسيطة ويجبر فى حساب الكبيسة يجمع فى ٣٠ سنة ١١ يوما ؛ فالثلاثون مركبة من عددين فى هذا المقام أوليان أعنى لايقبلان القسمة كما فى علم خواص الأعداد وهما ١١و١٩ .

فإذا مررت بالباقى بعد إسقاط التاريخ على هذا البيت ، ووصلت إلى حرف منه مثل الكاف فى كفه مثلا وهو التاسع ، فاجعل لكل سنة بسيطة ٤ ، ولكل كبيسة ٥ ، واجمع الحاصلين وزد على الحاصل واحدا دائما واقسم المجموع على سبعة وما بقى فابتدئ به من يوم الخميس .

الحالة الثالثة أن يكون العدد (٣٠) فأكثر فاجعل لكل دور صغير (٥) ثم افعل بما هو أقل من ٣٠ مافعلته فى الحال الثانية ، وضم واحدا أبدا واجمع تلك الحواصل واقسمها على سبعة ، وما بقى ابتدئ به من يوم الخميس فيكون مثلا سنة ١٣٣٩ بقسمة ماقبلها على عدد (٢١٠) يكون الباقى ٧٨ منها ٣٠ فى ٦ وهذان دوران صغيران نضربهما فى ٥ تساوى ١٠ وهـذا حاصل أول ، والباقى بعدهما ١٨ فيها سبع سنين كبيسة و (١١) بسيطة و ٧ فى ٥ تساوى ٣٥ و١١ فى ٤ تساوى ٤٤ ، وبضمهما إلى (١٠) يكون المجموع ٨٩ فضم إليه واحدا لأجل السنة المطلوبة يكن المجموع ٩٠ فقسمه على ٧ يكن الباقى ٦ نبدأ به من يوم الخميس يكون أول السنة يوم الثلاثاء نظرناه فى التنائج المصرية فوجدناه كذلك ، وهكذا إذا فعل مثل ذلك سنة تأليف هذا التفسير أى سنة ١٣٤٢ وجدنا أول السنة يوم الاثنين لأن الباقى خمسة نظرنا فى التنائج المصرية فوجدنا أول السنة يوم الثلاثاء ، فالفرق يوم واحد بحثنا فوجدنا أن الهلال مكث بعد الغروب ٤٩ دقيقة ، وهذا دليل على أن اجتماع النيرين كان فى ليلة الاثنين حتما لأن القمر يتأخر كل ليلة ستة أسباع الساعة ، فالشهر الحقيقى أوله يوم الاثنين والشرعى يوم الثلاثاء . فانظر إلى هذه القاعدة التقريبية كيف وافقت الجداول التى استخرجت من الزيجات ، وتعجب كيف كانت الأدوار الصغيرة والكبيرة لاتختل أمد الدهر فى الماضى والحال والاستقبال فهى كالكسر الأعشارى الدائر ، فكل سنة من الدور الكبير تطابق نظائرها من الأدوار التى قبلها والتى بعدها فى الأيام فتجد سنة تأليف هذا الكتاب تطابق نظيرتها فى الدور المقبل بعد (٢١٠) سنة ١٥٥٢ فإن القاعدة تقتضى أن يكون أولها يوم الاثنين تحقيقا ويوم الثلاثاء شرعيا .

فانظر اختلاف الليل والنهار والسنين القمرية والشمسية وتقلب الأحوال كيف كانت منظمة لاخلل فيها (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) أى تناقض واختلال (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

الكلام على الليل والنهار

(١) النهار هو الزمن الذى يمضى من شروق مركز قرص الشمس من الأفق الحقيقى إلى غروبه بالأفق المذكور .

(٢) تغيرات مدة اليوم — المناطق الأرضية مدة النهار ومدة الليل — تتغير فى المحل الواحد وفى العرض الواحد لتغير الوقت من السنة ، ولهذه التغيرات نهاية عظمى ونهاية صغرى من ستة أشهر إلى صفر كما تقدم فى سورة البقرة ، ولما كانت مدة الليل والنهار تنقسم الأرض بالنسبة لها إلى خمس مناطق ينفصل بعضها عن بعض بالمدارين وبالدائرتين القطبيتين وجب أن نرسمها هنا إذا أغفلنا الرسم فى سورة البقرة فهاك شكلها .



(شكل ٧)

فالمنطقة الأولى الدارية يحدها من الشمال مدار السرطان وعرضه ٢٧ ثانية و ٢٣ درجة عرضا شماليا . ومن الجنوب مدار الجدى ، وعرضه ٢٧ ثانية و ٢٣ درجة عرضا جنوبيا ، ويقسمها خط الاستواء إلى قسمين متساويين وتسمى المنطقة الحارة أو الدارية .

والمنطقة الثانية المنطقة المعتدلة الشمالية وهى المحصورة بين مدار السرطان والدائرة القطبية الشمالية ٣٣ دقيقة و ٦٦ درجة. الثالثة المنطقة المعتدلة الجنوبية وهى المحصورة بين مدار الجدى ، والدائرة القطبية الجنوبية ٣٣ دقيقة و ٦٦ درجة . الرابعة والخامسة المنطقة المتجمدة الشمالية ، والمنطقة المتجمدة الجنوبية ، وهما المحصورتان بين القطبين والدائرتين القطبيتين ، فالمنطقة الحارة والمنطقتان المعتدلتان فيها جميع النقط الأرضية التى فيها مجموع مدتى النهار والليل ٢٤ ساعة . وأما المنطقتان المتجمدتان فتشتملان على النقط التى فيها مجموع مدتى الليل والنهار يزيد عن ٢٤ ساعة ، ويبلغ سنة كاملة ، ويمكنك معرفة ذلك التفصيل فى الجدول المذكور فى سورة البقرة .

الكلام على الفصول الفلكية

تنقسم السنة إلى أربعة فصول يحدها الاعتدالان والنقلبان . وهى الربيع ويبتدئ من الاعتدال الربيعى وينتهىٌ بالمنقلب الصيفى . والصيف ، ويبتدئ من المنقلب الصيفى ، وينتهى بالاعتدال الخريفى . والخريف ، ويبتدئ من الاعتدال الخريفى ، وينتهى بالمنقلب الشتوى. والشتاء ، ويبتدئ من المنقلب الشتوى ، وينتهى بالاعتدال الربيعى .

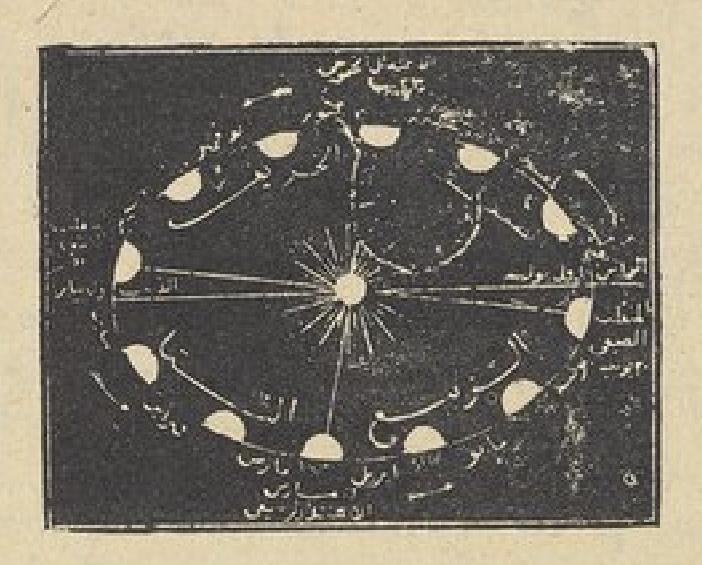
هذه أوائل الفصول على وجه التقريب وهى تختلف من سنة إلى أخرى اختلافا يسيراً جداً

أول فصل الربيع ١٩ مارس — أول فصل الصيف ٢٠ يونيه — أول فصل الخريف ٢٢ سبتمبر — أول فصل الشتاء ٢٠ ديسمبر .

مدة الربيع تقريبا ٢٠ ساعة و ١٩دقيقة و٩٢ يوما — مدة الصيف تقريبا ٨ ساعات و٤٤ دقيقة و٩٣ يوما — مدة الخريف تقريبا ١٨ساعة و ٩ دقائق و٨٩ يوما — مدة الشتاء تقريبا ٤٨ دقيقة و٨٩ يوما .

انظر هذا الشكل تعرف به انتقال الأرض حول الشمس وترتيب الفصول بالنسبة لبعضها .

(شكل



(شكل ٨)

فى بعض أرقام أوائل الفصول فى هـــذا الرسم ما يخالف ماتقدم ذلك لأنها تختلف من سنة إلى سنة فى حدود ضيقة جدا كما قدمنا .

أيها الذكى تأمل فيما ذكرته لك من علم الفلك؛ إن عادة الناس غالبا أن يقرءوا فى الآيات القرآنية الخاصة بالأحكام وهى قليلة جدا اختلاف الأئمة رضى الله عنهم فى المسائل ، ثم إذا ذكروها يقولون : وتفصيل هذه المسائل فى كتب الفقه فيحيلون قارئ التفسير على كتب الفقه ، ولقد أحسنوا لأن التفسير للإجمال لا لدرس الفروع ، ومن العجب أن لا تكون العناية موجهة بهمة أشد إلا إلى علم الفقه ، وهـذا هو الخطأ العظيم والداهية القاصمة التى حلت بالأمم الإسلامية ؛ فمن أين جاء هذا الخطب للإسلام . اللهم إن كل العلوم مطلوبة فهى جميعها فرض كفاية ، وإن العلوم التى يظهر بها آثار جمال الله وحكمه لاغنى للناس عنها بل تركها أضر بأمة الإسلام ؛ فلماذا لايذكر الإجمال لجميع العلوم فى التفسير ، ويحال القارئ على كتب تلك العلوم ، فيقال فى قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) .

انظر ماهنا وارجع إلى التفصيل فى علم الفلك الذى هو من فروض الكفاية فى علوم الدين ، وإنه يجب أن تقوم حكومات الإسلام بتخصيص طائفة لهذا العلم ، وإحضار جميع الآلات والمراصد لهم حتى يرجع المجد القديم وحتى نقوم بواجبنا فى هذا العلم كما نفعل ذلك فى سائر العلوم لا فى الفقه وحده ، فإن القرآن قد شوّق إلى علوم الفلك والطبيعة تشويقا كثيرا بآيات كثيرة .

نبذة فى عجائب الأرض

ها أنت ذا اطلعت على بعض الجمل فى حساب السنين ، وكيف كانت لها مقادير محصورة بجداول منظمة ، والقاعدة التى ذكرناها فى أوائلها تنطبق على كل زمان وإن كانت تقريبية .

فها أناذا أذكر لك نبذة لطيفة من عجائب الأرض التى لاتتناهى ، وأقتصر على مادة لايعبأ بها الناس لأنها مبذولة لهم فى كل مكان يأكلها الغنى والفقير والعالم والجاهل والفاسق والصالح . كلهم يأكلون ولا يعلمون ويضعونها فى طعامهم وهم لايدرسون ، فكأن الناس فى هذا العالم مغمورون فى الألغاز محبوسون فى الأقفاص أو يأكلون وهم مغمضون ، وكأننا فى هـذه الأرض نيام ، وكأن جمال هـذه العوالم لايظهر !! إلا إذا

فارقنا هذه الحياة ، ولعلّ الأمم الإسلامية ستستيقظ لذلك قريبا فيرون النور ، ويشاهدون الكتاب المسطور في رق هذا العالم المنشور ، ويدركون سر ما يأكلون وما يشربون وهم غافلون . لعمرى لم يحوجنا الله الطعام ولا الشراب ولا اللباس إلا ليوقظنا إلى ما حولنا فنعقله وإلا فالله يرزق الدود بلا نصب ولا تعب ألكرامته ولامتهاننا ؟ كلا بل الله كرّم الإنسان وتكريمه أن يطلع على عجائب هذه الدنيا وهو خلق جهولا فلا بد له من وازع يزعه ، وقاهر يقهره ، ومسيطر يجبره ، وما ذلك إلا أن تكثر حاجاته ومطالبه فيستحث الركاب الطلب . فبينا هو يجد لملء البطن طعاما وشرابا إذا هو قد ملأ عقله من عجائب الحكمة وبدائع الخلقة .

لهذا خلقك الله أيها الذكى ، وإلا فبالله قل لى فكر فى نفسك ما فائدة وجودنا ، وأى فارقة بين الحيوان والإنسان كلاهما يأكل وأحدهما موفر الغذاء والآخر كتب عليه الجد والنصب ، لماذا هذا كله ؟ ذلك لعناية الله بالإنسان ، ولما كان المسلمون معرضين عن هذا الجمال فى القرون الأخيرة فمن عناية الله بهم وحبه لهم ، وأنه يريد أن يرقيهم سريعا . أرسل الفرنجة علينا لماذا ؟ ليوقظونا ، فإننا تركنا مواهبنا ، فإذا كانت أغذية الحيوان موفرة أكثر من أغذية الإنسان وكان ذلك عناية بالإنسان ورحمة به ليتعلم . فهكذا تكون الأرزاء المسلطة على أمم الشرق ، ومنهم المسلمون من الأمم الفرنجية لم تكن إلا العناية بهم ليوقظهم الله حتى يتأملوا فى كل شىء فيعلموا أنهم مغمورون فى وسط النور والجمال وهم لا يعلمون . أتدرى ما هى المادة التى أنبأتك بها هى :

ملح الطعام

أنا قلت لك إننا نأكله ، وقلت لك إننا لا نعرف ما فيه من الحكمة والجمال والعلم والبهجة والنور . هذه المادة تسمى فى علم الكيمياء (كلورور الصوديوم) وقد يضعها الطبيب فى مذكرته بهذا الاسم ، فهل تدرى ما معنى (كلورور الصوديوم) ربما كنت قرأته فى المدارس ، ولكن قارىء هذا العلم يمرّ عليه مرور أكثر المسلمين على آيات القرآن لا ينظر إلى الجمال الذى ستراه ؛ سمى الملح بذلك لأنه مركب من عنصرين : الكلور ، والصوديوم . أما الكلور فهو جسم غازى لونه أصفر مخضرّ أثقل من الهواء يؤثر تأثيرا كبيرا فى أعضاء التنفس فيحدث سعالا وتهييجا فى الأغشية المخاطية ، وإذا استمر تأثيره أحدث الموت .

وأما الصوديوم فهو فلزلين ذو لمعان فضى إذا ألقيته فى الماء اضطرب فيه وتحرك بعضه على بعض فوق سطح الماء وينتهى بفرقعة ، وإذا ألقيته فى الماء الساخن فإن حرارة الصوديوم تحدث التهابا فى الأيدروجين ، فيلتهب لهبا أصفر .

هذان العنصران هما اللذان تركب منهما الملح فأحدهما يحدث أثرا فى الرئة وما والاها وينتهى بالموت ، وثانيهما يلتهب فى الماء . فهذان الجوهران المزعجان هما نفس الملح الذى نأكله ، وهذا الملح قسمان : قسم فى ماء البحار بنسب مختلفة ، ويستخرج بالتصعيد فى الملاحات المعروفة كما فى الاسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، والبرلس بمصر ؛ فيترك ماء البحر فى حوض مدة إلى أن يروق ، ثم ينقل لغيره ويرسب الملح فيرفع ويجف .

وقسم هو الملح الجبلى فيستخرج من أماكنه كما تستخرج الأحجار ، وتارة يستخرج بتوجيه المياه فى دهاليز متسعة مدة حتى يؤثر الماء فى كتلة الملح ، ثم تنقل بواسطة آلات إلى قدور من الصاج وتصعد فيها ، وهذا الملح هو الذى قصدنا أن نبحث فى عجائبه أنه قد يكون ملونا بالصفرة أو السمرة بسبب مواد غريبة ضارة ، وإذن لا يعرض للبيع إلا بعد تبلوره وخلوصه من المواد الترابية . أتدرى ما عجائبه التى شوّقتك إليها ؟

ذلك

ذلك أنه يكون عبارة عن أجسام صغيرة مكعبة ، وهذه للمكعبات باجتماعها ، والتصاق بعضها ببعض تريك هرما مجوّفا بديع النظام ، فانظر كيف كانت تلك الأجسام الصغيرة مكعبة ، وكيف بني بعضها على بعض فأصبحت هرما ، ولم تكون هذه قاعدة مطردة فيه ؟ وهل هذا وأمثاله هو الذى علم المصريين بناء الهرم الأكبر حتى جعلوه أصلا للمكاييل المصرية والموازين ، وجعلوه على نمط الدائرة الفلكية ، واستخرجوا منه الذراع البلدى والرطل والأردب كما ستقرؤه فى سورة الرحمن عند قوله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان) ثم أى حكمة جعلت اجتماع هذين الجسمين الضارّين بالإنسان نافعا للإنسان محدثا أجمل بنيان وأبدع نظام وأجمل أشكال . ذلك كله فى الملح الذى نأكله . أفلست ترى هذا عجيبا ؟ .

وهذه صورة الشكل المذكور الهرمى :



(شكل ٩)

وسترى فى سورة الشعراء إن شاء الله صورة الزهرة مرسومة ، وكيف كانت باختلاف أوضاعها وأشكالها قد استخرج منها العلماء رتب النباتات كلها البالغة مئات الألوف ، مع أننا نتمتع بمنظرها ورائحتها ولاعلم لنا بأنها مفتاح علوم النبات ، فسترى هناك إن شاء الله العجب العجاب ، وبعده يأتى فى سورة الأنعام . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية (ربنا ما خلقت هذا باطلا)

هذه الآية ليس يدرك حقائقها إلا من اطلع على علم الطبيعة وعلم الفلك (ولكن أكثر الناس لايعلمون . يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) وهم عن عقولهم معرضون .

ولكن لأقص عليك من العجائب الدالة على النظام جملا بهية ، ولعمرى إن هذا العلم غاية علم العلماء ، ونهاية حكمة الحكماء ، ولكن لست أتعمق فيما صعب من العلوم الطبيعية ، بل أقص عليك نبأ ماتراه حولك أو تعرفه فى نفسك .

(١) أنت ترى الدجاج والبط والأوز ، ترى هذه الحيوانات داجنة فى بيوتنا ، وترى الدجاجة والبطة والأوزة يبضن ويفقسن ويربين أولادهن ، وترى الديك ونظائره فى الأوز والبط لايعترف بأبنائه ولا يتحنن عليهن ولا يبالى بتعليمهن . فلم هذا ؟ ذلك لأن الفرخ إذا خرج من البيض تراه كامل الزغب ، وموفور القوة يجرى وراء أمه كأنه كان حيا بالأمس (٢) وترى على نقيض ذلك الحمام يساعد ذكره أنثاه فى تربية صغارها ، فلم حصل التباين بين ذكرانهما ما السبب ؟ السبب أن أفراخ الحمام ضعاف ليس عليهن وقاية تقيهن فإن أفراخه تخرج ليس عليها ريش ، ثم يخرج بعد أيام فلزم معاونة الذكر للأنثى فتعجب (٣) وترى أن النمل والنحل اللذين جرت العادة أنهما لايموتان زمن الشتاء ، ألهمهما أن يجمعا القوت ويدخراه ؟ (٤) فأما الزنابير الحمر والسود والصفر والجراد وأضرابهما ، فإنها لما جرت العادة أنها لاتعيش سنة كاملة لم تلهم الجمع والادخار بل تركت وشأنها ، فإن الزنابير بأنواعها الثلاثة زمن الشتاء تسكن فى أماكن نائمة بلا أكل ولا شرب ، حتى إذا جاء فصل الربيع استيقظت من مراقدها مرة أخرى . فأما الجراد فإنها بعد وضع بيضها فى أرض صالحة له تتقاذفها حوادث الجو والبرد ، ولواذع الحر فيموت ويبقى البيض فى الأرض مدفونا

حتى إذا جاء فصل الربيع فقس فى الوقت المعلوم وكما كان أبواه (٥) ترى الجمجمة الإنسانية مركبة من سبعة عظام فواحـدة هى قاعدة ، وهى عظم صلب يحمل سائر العظام وأربعة جدران : أحـدها عظم الجبهة يمتد من طرف القحف إلى آخر الحاجب ، والثانى مقابله مؤخرها وهوأصلب الجدران ، والآخر يمنة ويسرة وفيهما الأذنان ، وعلى هذه الأربع القحف كالسقف للدماغ وهو عظمان وشكل كل منهما مستدير . وقد اتصلت هذه العظام بالشئون جمع شأن تشبه لسان للنشار دخل بعضها فى بعض ، وأحد الشئون تراه فى مقدّم الرأس عند الجبهة ويسمى الإكليلى ، لأنه فى موضع الإكليل من الرأس والآخر عند نقرة القفا وهو شبيه بالدال فى الخط العربى ، والثالث فى وسط الرأس من الدال إلى الإكليل ويسمى المستقيم ، فتكون صورته هكذا) — (وإنما تعددت هذه العظام فى الرأس لأنها لو كانت عظما واحدا لكانت إذا حل بأحدها كسر اختل العضو بتمامه . فأما الآن فإن الخلل لايجاوز موضعه فيمكن علاجه (٦) أقول : أعد نظرا فى العين المذكورة أوّل السورة وتأمل فى أن الزجاج الذى يستعمله الناس وينتفعون به ، إنما هو مواد رملية قد مزجت بالقلى وبالمغنيسيا حتى صارت شفافة تستقبل ضوء الشمس ولا تحجبه فهى كالهواء ؛ فالهواء الجوّى شفاف ، والماء شفاف ، والزجاج شفاف ، والماس شفاف . وهذه كلها لا تحجب ضوء الشمس عما وراءها ، فتعجب كيف كان الرمل المذكور أو ما يقوم مقامه قد دخل فى النبات والحب وسائر ما نأكله بطرق مختلفة فتناوله أعضاؤنا الهاضمة وسرى فى العروق والشرايين ، وأخذت القوى التى فى داخل أجسامنا تصطفيها وتلتقطها من الدم الجارى فى العروق وتؤديها إلى العين ، فتضع فى معملها ماهو كالزجاج الشفاف منوّعا بأنواع ثلاثة تقدمت لتشاكل الهواء الحامل للضوء الجارى من الكواكب الحامل للصور والأشباح والألوان الداخل من غطاء العين المسمى بالقرنية التى هى كالقرن الأبيض وهى شفافة كالهواء ، ثم يدخل على تلك الصور الزجاجية الثلاثة ، فتعجب معى وقل لى رعاك الله كيف اتفق أن كان الهواء شفافا والقرنية والبيضية والجليدية والزجاجية ، وكيف انتخبت المادة الزجاجية لتوضع فى العين ، وكيف جعلت مناسبة الوضع والحجم لرسم الصور فيها بحيث تكون الجليدية محدّبة الوجهين لترسم الصور عليها موافقة لما تقرر فى علم المناظر قديما ، وفى علم الطبيعة حديثا ، هل كان كله اتفاقا ؟ أما أنا فأقول كلا ؟ فهل أنت معى ؟ وأنا لم أخاطبك الآن إلا بالعقل والفهم ، ووكلت الفهم لعقلك . أولست ترى أن هـذا الوضع لم يكن عبثا وباطلا ولغوا ، بل كل ذلك قد عرفت أنه لنتيجة ظاهرة واضحة ، ولكن أكثر الناس من العامة وصغار أهل العلم ينظرون ولاينظرون ، ويقرءون وهم نائمون ، من هنا فلتفهم (ربنا ماخلقت هذاباطلا) ، ومن هنا يكون علم التوحيد، ومن هنا يفهم القرآن . فأما ماعدا ذلك فإنما يتسلى به الجاهلون ، ويفرح به الغافلون (٧) تأمل فى فقرات الظهر وادرس فقرة واحدة منها فإنك تجد عليها أربعة أشياء : غشاء غضروفيا يغشيها ، وشوكة نابتة من خلفها ، وجناحين من يمينها ويسارها . أما الغشاء الغضروفى (أى الذى هو أصلب من اللحم وأسهل من العظم) فلأجل أن لاتتكسر بسهولة عند مصادمتها . وأما الشوكة من خلفها فلتكون وقاية لها بارزة كالمجن تلقى بها الصدمات فلا تصل لها . وأما الجناحان فإنهما مدخل لرءوس الأضلاع وتقى الفقرات من جوانبها ، كما أن الشوكة تقيها من ورائها .

أفلا تكفيك دراسة الفقرة ودراسة العين حتى تعرف (ربنا ماخلقت هذا باطلا) . هذا هو مقصود القرآن ولهذا أنزل القرآن ، وبهذا يرتقى المسلمون ، وبهذا يكونون خير أمة أخرجت للناس ، انتهى الكلام على اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : (سبحانك فقنا عذاب النار) وقوله تعالى : (ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد) وقوله تعالى : (إنك من تدخل النار فقد أخزيته)

لقد كان من عادتي أن أجعل القول محاورة في الأمور العظيمة العلمية بيني وبين صديق تسهيلا للفهم ، ولكني الآن أخالف هذه الطريقة لأحادثك أنت

أريد أن أحادثك دقائق على شريطة أن تخلى بيني وبين قلبك لأجاذبه الحديث ، فدع عنك كل ماعلق به من الآراء التي سمعتها بلا روية ولا تحقيق ، وارفع الحجب المسدولة والأستار المنصوبة ، لئلا تحول بيني وبين صفاء قلبك ونور عقلك المرسل من الله إليك ، فهو هو الذي سيفهم ما أقول الآن ، فهل فهمت صفاء العين وجمالها في النبذة المتقدمة؟ فاعلم أن عقلك أصفى من عينك ، العين جسم والنفس غير جسم، فهي أجمل وأقبل للعلم ، لعلك الآن استعددت لسماع قولي فأقول :

خذ العلم مما حولك في دارك وجارك وأهل بلدتك ، خذه مما تراه وتسمعه كل يوم ، وانظر أيها الذكي ألست ترى أن في الناس حياء يوليهم ذلة وانكسارا وخجلا عند وقوع الأمر الذي يورثهم الفضيحة والعار ؟ ولأضرب لك مثلا بالملوك والممالك أولا . والسوقة ثانيا . والفتيات ثالثا .

(١) لقد تعلم أن الدول إذا أهين سفيرها في ممالك أخرى أو تاجر من تجارها تعلن الحرب على المهينين لها . وقد يكون ذلك خرابا عليها ودمارا ، لماذا ؟ لأنها تأبى أن تفتضح ويقال لها قدمت بالسوء فرضيت ، ولست أطيل في الأمثال على ذلك ، فأنت تراه وتسمعه كل يوم (٢) ولقد تعلم أن في دول الغرب عادات للمبارزة ، وما هي المبارزة؟ هي أن يذم زيد عمرا. فيقول عمرو لزيد: لماذا أهنتني؟ لابد أن تبارزني ، فيتفقان على موعد ، وكل منهما يحمل سلاحا مثل مامع الآخر ، والطبيب حاضر والشهود والقوم ، ويتبارزان بالسلاح ، ومتى جرح أحدهما أو مات قضى الأمر وانتهى بسلام ، فإن جرح ولم يمت قام وصافح عدوه الذي كان ينازله وحفظ شرفه ، وإذا لم يبارز أصبح مهينا عند قومه فلا يجالسه أصدقاؤه ولا يحييه الأولياء ولا يأبه له أحد ، بل يصبح طريدا شريدا ذليلا ، ولذلك يفضل أن يبارز الذي أهانه ، ولو كان ذلك الآخر أقوى جسما وأقدر على استعمال السلاح منه ، لأنه يرى أن الموت أوالجرح أفضل من الذلة والعار وانكسار النفس.
(٣) وهكذا نرى أن الفتيات في غالب الأمم إذا شعرن بخلل في عرضهن أو زلل في سيرتهن اعتراهن من الحزن والألم مالا آخر له ، فيقدمن أنفسهن للموت قائلات : الموت خير من العار ؟ وتأمل قول السيدة مريم : (ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) ، وهكذا نرى هـــذا النوع الإنساني يسعى كله في كل زمان للشرف ورفعة النفس بين الناس ، هذا مغروس في الفطر ، مكتوب في الطبيعة الإنسانية بحروف بارزة .

أفلست ترى من هذا وغيره أن الناس جميعا يحافظون على الشرف ، ويخافون الفضيحة وكشف السر وإذاعة السوء عنهم ، وأن النفوس الشريفة تأبى الذلة ، وتقدم أجسامها قربانا لذلك المقام الجليل ، مقام الشرف والكرامة ، وأن الناس أكثرهم يقولون كما تقول العامة في بلادنا : «النار ولا العار» فأحط الناس منزلة كأرفعهم مقاما متفقون في تلك الفطرة . ولقد سمعنا أن النجاشي لما قدم على بلدة من السودان وقد أمر الرجال أن يتنحوا عن نسائهم ليدخل بعسكره إلى النساء فيه ، وكان جمعه عظيما ، ورجال البلدة قليل ، فماذا فعلوا ؟ تقدم الرجال للحرب فماتوا . أما الفتيات الأبكار فإنهن أخذن بأيدي بعضهن صفا واحدا وتزلن

فى نهر النيل ومتن غرقا ، وهن فى ذلك أشرف من (كيلو بترة) التى قالت : بيدى لا بيدهم ، لأن كيلو بترة قالت ذلك لما علمت أن عدوّها سيقتلها ، ولو علمت أنه سيستحييها ويتعشقها كالقائد الذى كان معها من الرومانيين لرضيت وقبلت . أما هؤلاء الفتيات السودانيات فإنهن علمن أن العدو سيستحييهن ويقضى على عفتهن ففضلن الموت ، ولست أطيل فى ذلك ، فالشرق أقوى حبا للشهامة وأكثر غراما بالشرف من الغرب، وكلهم على الشرف والكرامة متفقون .

أفلست من هذا تفهم معنى هذه الآية ، ولماذا ذكرت هنا بعد خلق السموات والأرض والتفكر فيهما وأى مناسبة بين نار جهنم وبين الخزى والفضيحة والعار ، إنه يبدو للمتأمل أول وهلة أن لا مناسبة بينهما .

فأصغ لما أقول السمع ، وخل الحجب والأستار مزاحة عن القلب دقائق حتى تفهم الآية من هذه الطبائع الإنسانية ، إن الأمور التى تشين الناس ترجع إلى أمور يستنكرها العرف : كهتك الأعراض ، ونهب الأموال وما أشبه ذلك . وهذه معروفة مقررة بين الناس ، ومع ذلك تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأمم ، فإنك ترى الإفرنجى يجالس امرأة غيره فى غيبته وحضوره ، ولا يجد زوجها فى نفسه حرجا من ذلك ، لأن العادة هى التى أطلقته . ولو فعل شرقى فى بعض الأحوال كذلك لعدّ ذلك ماسا بكرامته ، وهكذا عادة الرقص مع الأجانب يستنكرها الشرقى ولا يستنكرها الغربى ، وهكذا؛ وإنما الأمر الذى يتعالى على جميع العادات وتألفه جميع النفوس إنما هو العلم . فقل لى رعاك الله أى امرىء لا يحب العلم ؟ أولست ترى أن المتوحش والنبى وأجهل الجهلاء يفرحون بالخرافات والأحاديث عن العفاريت والجن ويغنون بالأقوال ذات المعانى المناسبة لأذواقهم . أو لست ترى أن كل أمة عندها دين يفرؤه جهالهم فيفرحون بذكر أشياخهم وأنبيائهم ، وبكل خرافة يوردها الشيوخ الجاهلون. وقد نسبوها لذلك الدين ظلما وزورا ، والناس بصدق الأحاديث وكذبها فرحون مستبشرون . فهل ترى الناس اتفقوا على شىء أكثر من اتفاقهم على استحسان العلم ؟ إنهم فى عاداتهم مختلفون (وكل حزب بما لديهم فرحون) أما القوى الدقيقة فإنها تحب المعارف والصور التى ترسم فى أذهانهم حقا أو باطلا ؛ كما أن المعدة تهوى الطعام ضارّه ونافعه ، والعالم بقانون الصحة يجتنب الضارّ ، وهكذا المتعلمون المفكرون يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، كما اجتنب أولئك الأغذية الضارة فأكلوا أصحها .

أفلست ترى بعد هذا البيان أن الخزى والفضيحة والعار فى جهل الناس أشدّ وأقوى من انكشاف العورات الجسمية وظهور السوآت الطبيعية ؛ لأن السوآت الطبيعية كالأعراض قد اختلفت فيها الأوساط وتوسّعت . أما العلم والمعرفة فقد اتفقت عليها الفطر ، ولم تر أحدا من الناس إلا وهو يأنف أن ينسب إلى الجهل ، ويود أن ينسب للعلم ، وكأن الفطر قد غرس فيها أن النفوس تموت بجهلها كما ماتت الأجسام بمنع أغذيتها ؛ وكما أن المعدة إذا خلت من الطعام مدة معلومة فنيت الأجسام . هكذا النفس الإنسانية إذا خلت من أغذيتها بالصور التى تحل فيها فإنها تكون ميتة لا محالة معدودة فى ذوى الجهالة ، فتلخص من هذا :

(١) أن الناس مفطورون على الشرف والحرص على العرض والكرامة (٢) الملوك والدول يقدّمون أموالهم ورجالهم لحفظ الكرامة (٣) الرجال والنساء فى الأمم الغربية يفضلون الموت والجرح على العار (٤) أهل الشرق وأخسهم درجة وأدناهم مرتبة أشدّ حرصا على العرض والشرف من بعض أهل الغرب . (٥) العادات مختلفات فى ذلك ، وتكون المحافظة على مقتضى الاصطلاح فى البيئة (٦) كل امرىء يحب العلم أى الصور التى ترسم فى الذهن حقا أو باطلا ، وهى كالأغذية الضارة والنافعة تقبلها المعدة (٧) أن كل امرىء

يأنف

يأنف من الجهل إذا نسب إليه (٨) أن العلم أقوى مايرغبه الناس ؛ فالفضيحة فى الجهل أشد من الفضيحة فى سواه لاتفاق الفطر على استحسان العلم بين الناس (٩) فلنفهم إذن قوله تعالى هنا (فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) . وفى آية أخرى يقول : (عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون) .

فالخزى من معانيه الافتضاح : وهذا المعنى هو الشائع اليوم على ألسنة أبناء العرب فى مصر وفى سائر البلاد العربية ، وهو ظاهر فى قوله تعالى (من قبل أن نذل ونخزى) فالخزى راجع للعار والافتضاح وهتك السر ، وهذا هو الذل الأعظم لاسيما فى العرف العربى ، وقد كان العرب أشد الأمم خوفا من الخزى وهو مشهور ، ولايزال معروفا اليوم ؛ فالرجل يقدم للضيف فى البادية كل ماعلك وأبناؤه جياع فلا نطيل به .

فهاهنا لما ذكر الله تعالى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وأن الناس يجب أن يذكروا الله فى كل الأحوال ليجتلوا من صنعته صور العلم والحكمة ويتفكروا فى خلق السموات والأرض فإذا قرءوا منه مثل ما كتبنا اليوم من علم الأرض والسماء فى هذه الآيات يخجلون من نفوسهم ويحزنون ويبكون على عقولهم التى ضيعوها ويقولون : ربنا لقد ظهر لنا مما درسناه أن هذا العالم منظم ، ولم نجد فيما درسناه مخلوقا عبثا حتى إن الفقرة التى هى إحدى فقرات ظهورنا . وجدنا فيها كل شوكة لحكمة ، وكل جناح لحكمة وغطاؤها لحكمة والنخاع الذى هو داخلها لحكمة فإنه يغذيها وله حكم أخرى ، فواخجلنا أنعيش فى الدنيا ونموت ، ونحن نجهل مابين أيدينا وأى عار أعظم من أن نعيش ونحن نجهل أنفسنا وأجسامنا وما حولنا من نبات وحيوان ، وما فوقنا من سموات وماتحتنا من أرضين ؟ .

[سبحانك] أنت يا ألله منزه عن هذه المادة رفيع فإنك تعلم كل شىء ، وملابستنا للمادة وشهواتها سترت العلم عنا فغاب ، ولم نعرف بدائع الحكم فأثر بصائرنا وعرفنا أنفسنا وماحولنا، فإن الجهل خزى وعار ، والنار المشهورة أسهل لأنها تطلع على الأجسام . أما نار الجهل فإنها (تطلع على الأفئدة) والمطلعة على الأفئدة دائمة وخزيها دائم . فهذه هى النار العميقة الداخلة فى أنفسنا ، وهذه هى النار التى يحس بها الإنسان إذا أخرج من فى القبور، وحصل مافى الصدور ، وهى التى بها تحترق الأفئدة (يوم تبلى السرائر) و(يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) وهى التى يلتهب القلب بها يوم يقال (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) فقل لى أيها الذكى كيف يكون الإنسان إذ ذاك ، وقد انخلع من جسمه ، وحرم مما كان عنده من المجد والنصب والمال ، وخلى بينه وبين عقله ، ونظر فرأى الناس حوله قد طاروا فى العوالم بأجنحة العلم وربض فى مكان جاثما كالجماد بجهله ؛ فقوم كالطائر فى الجو بالجناح ، وآخرون كالحجارة والحديد بما نابهم من الإثم ، وما انتابهم من الجهل وما حل بهم من الخزى بالصور التى اطلع عليها إخوانهم ، وقد كانت أعينهم فى الدنيا عنها فى غطاء من عيوب اقترفوها فى حياتهم وسيئات اجترموها ، ومن جهالة وغفلة ، وعمى عن جمال العالم وعجائب الخلقة وبدائع الجسم الإنسانى . هذا هو معنى قوله تعالى (فقنا عذاب النار) وقوله تعالى (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) ؟ وهذا كما يقول الرجل الشريف لمن ضربه بعصا على رأسه مثلا أمام الناس . هذه العصا ألمها أقل من ألم نفسى ، ومن ضرب بعصا فقد أهين أمام الجمهور والإهانة هى التى أبالى بها . ربنا إنك من تدخل النار فتحرق جسمه الظاهر فقد فضحته ، والفضيحة والعار هى العذاب الذى تتحاشاه النفوس وتخشى مافيه من بؤس ؛ فالعذاب إذن عذابان : عذاب جسمى ، وعذاب روحى ، والثانى أقوى وعليه إجماع المفسرين .

ولولا خيفة السآمة من التطويل لبسطت القول فى عذاب جهنم بالنار الجسمية ، وهل هو منقطع أم أمده لايزول وما جاء فيه من الأحاديث النبوية ، وآراء العلماء ، وأكابر الحكماء والصوفية وسأرجئ الكلام فيه إلى سورة هود عند ذكر الأشقياء والسعداء وجهنم والجنة فى آخر السورة إن شاء الله وطال الأجل ، ولكنى قبل أن أفرغ من هذا المقال أذكر عجيبة من عجائب القرآن هنا . ذلك أنى نقلت عن الإمام الغزالى فى كتاب الأرواح . ماملخصه أن العذاب بعد الموت ينقسم أقساما ثلاثة : الأول أن تحس النفس بعد الموت بفراق ما اشتهته من المآكل والملاذ والصيت والشهرة والعزة فتحزن حزنا شديدا ، وهذا أول عذاب تلقاه ، وهو فراق المألوف ، وهو أشدّ من العذاب الجسمى؛ فإذا رأى الإنسان فجأة أنه قد قسم ماله وأخذت زوجته وحيل بينه وبين مايشتهى فذلك أشدّ من الموت بل هو العذاب الأليم (وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب) الثانية أنه إذا تطاول الزمن واستقرت النفس بعض الاستقرار نظرت فى أعمالها فترى صورتها قبيحة من الظلم والذنوب التى اجترحتها فى الحياة وهى تعاينها مواجهة ، فإذا طال الأمد على هذه الفضيحة والعار تبدّى للنفس أنها ناقصة العلم والعرفان ، وأنها تجهل مايجب أن تتحلى بطله ، وترى غيرها قد ارتفع بطله إلى الدرجات العلى فيحصل لها ألم لايطاق ، ولسنا الآن فى مقام الرد عليه أو تفنيده ولكنا نقول :

تعجب من القرآن كيف ذكر العذاب هنا ثلاث مرات فقيل أولا: (فقنا عذاب النار) . ثانيا (إنك من تدخل النار فقد أخزيته) . ثالثا وهى الأخيرة منها (ولا تخزنا يوم القيامة) ؛ فالعذاب الأول جسمى لأنه لم يذكر إلا النار الجسمية . والثانى جسمى وعقلى معا . والثالث عذاب نفسى ، وهو الخزى الذى هو أشدّ العذاب ، ويظهر أن ماقى الآية بحسب تدرّجه بالترتيب أشبه بالخشب إذا أحرق ، فإنه أولا يكون الاحتراق مصحوبا بالدخان والدخان أكثر ، ثم تصير النار أكثر ثم يصير نارا صرفة .

فلعلّ الناس فى أول الأمر بعد الموت يكون الإحساس والشعور فيهم بالفضيحة أقل ، ثم يزيد الإحساس والشعور بها ثم يكون العذاب أقوى لادافع له لاستغراق النفس فى عارها وشؤمها . فيا أيها الذكى اجعل أول عملك الأخلاق وتهذيبها ، وتقوية الجسم بالنظافة والرياضة ، ثم كملها بالعلوم الشريفة كما رأيت فى سورة آل عمران من الغزوات ثم العلوم .

وكان عذاب النار الخالد فى مقابلة ترك تهذيب النفس بالأعمال الظاهرة كمثل حركات الدفاع عن الوطن والحرم ، وعذاب الخزى الفاضح الذى لم تذكر فيه النار راجع إلى العلم الذى أمرنا بالتفكر فيه، فكأنه يقال لاتدعوا أجسامكم بلا عمل يقوّيها كالدفاع والتمارين العسكرية والأعمال الحربية والتهذيبات الخلقية .

وإياكم وترك العلوم فإنها فضيحة وخزى وعار فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فإن الذين لاعلم عندهم تدوسهم دول الاستعمار فى أوروبا ، وترسل عليهم شواظا من نار حامية من الطيارات فيصبحون خامدين . إن احتراق الأفئدة بالخزى يوم القيامة يلازمه احتراق الجسم بالنار ؛ فإنك ترى من فوجئ بخبر محزن أو فارقه معشوقه يتقد قلبه نارا وحزنا ، والجسم يناله من ذلك نصيب فيقع فى الحمى ؛ فالنيران النفسية تتبعها الجسمية ، السعادة الروحية تؤثر السرور فى الأبدان ، وهذا آخر المقال فى تفسير سورة آل عمران .

﴿ تم الجزء الثانى من تفسير الجواهر ، ويليه الجزء الثالث وأوله سورة النساء ﴾

فهرست

الجزء الثانى من تفسير الجواهر

صفحة

صفحة

صفحة

